

قصة الحضارة ول ديورانت

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فخامة أسبانيا وانحطاطها -> الحياة الأسبانية

الفصل العاشر

فخامة أسبانيا وانحطاطها

1556 - 1665

1- الحياة الأسبانية

إن الذين ربوا منا على المؤرخين الإنجليز قد ينسون بسهولة أن أسبانيا كانت بعد هزيمة الأرمادا، كما كانت قبلها، أعظم الإمبراطوريات على وجه الأرض وأعتها وأكثرها اتساعاً، وأنها اعتبرت نفسها - ولها العذر - أرقى من إنجلترا الإليزابيثية في الأدب، ومن إيطاليا المعاصرة في الفن. فحين ارتقى فيليب الثاني العرش (2556) كانت الملكية الأسبانية، وروسيون، وفرانش كونتية، وستة، وأوران، والاراضي المنخفضة، ودوقية ميلان، ومملكة نابلي، وصقلية، وسردانيا، والفلبين، وجزر الهند الغربية، ومعظم أمريكا الجنوبية، وجزءاً من أمريكا الشمالية، وكل أمريكا الوسطى، يضاف إلى هذا (1580 - 1640) البرتغال والأمالك البرتغالية، في آسيا، وأفريقيا، والبرازيل، كذلك محمية في سافوي، وبارمان وتوسكانيا، وحلف مع الامبراطورية الرومانية المقدسة التي حكمها فرديناند الأول عم فيليب. وكانت اسبانيا تمتلك جيشاً عدته خمسون ألف مقاتل اشتهروا بالبسالة وحسن النظام، تحت امرة افضل قواد العصر، واسطولا من 140 سفينة، ودخلا سنوياً يبلغ عشرة أمثال دخل إنجلترا. وكان ذهب أمريكا وفضتها يتدفقان على الموانئ الأسبانية. أما البلاط الأسباني في هذا العصر كافخم بلاط في العالم، وأما الأرستقراطية الاسبانية فأشد الارستقراطيات كبرياء وعجباً. وكان

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فخامة أسبانيا وانحطاطها -> الحياة الأسبانية

الملايين من الناس خارج أسبانيا يتكلمون الأسبانية، وفي كثير من الأقطار تعلمت الطبقات المثقفة اللغة الأسبانية كما تعلمت بعد ذلك اللغة الفرنسية في القرن الثامن عشر. كذلك زينت العمارة الأسبانية المدن في خمس قارات. وبلغ عدد سكان أسبانيا الآن ثمانية ملايين. وازمحت الزراعة بتحويل المزيد من الأرض إلى مزارع للأغنام لإنتاج الصوف. وقد بلغ عدد عمال النسيج في طليطلة وحدها خمسين ألفاً حوالي عام 1560، وحفزت مطالب المستعمرات الأسبانية صناعات اسبانيا، وأصبحت أشبيلية من أهم الثغور في أوربا، وأرسلت المستعمرات نظير ذلك الشحنات من الفضة والذهب. ورفع تدفق المعادن النفيسة الأسعار رفعاً جنوبياً فبلغت نسبة الغلاء في الأندلس 500 في المائة في القرن السادس عشر، وصعدت الأجور لتلحق بتكاليف المعيشة في سباق محموم أصبح في النهاية عديم الجدوى. وكان كثير من الصناعة يقوم على أكتاف المغاربة (المورسكو) - وهم المسلمون الذين اعتنقوا المسيحية ظاهرياً. أما الخدمة في البيوت فألقى أكثر عبئها على العبيد المأسورين في الغارات على أفريقيا أو في الحروب التي شنت على «الكفار». لقد كان عامة الأسبان يحتقرون العمل ويقنعون بالقليل في تقلسف، فالنوم في كوخ، والاصطلاء في الشمس، ومداعبة القيثارة، والبكاء على شح الحسان-ذلك خير من الكدح والعرق شأن العبيد أو المسلمين. وقد ساهم طرد المغاربة عام 1609 مع غلاء المنتجات الأسبانية في اضمحلال الصناعة في أسبانيا. وكان طرد اليهود عام 1492 قد ترك فراغاً في بناء اسبانيا التجاري والمالي. وأصبح الجنوبيون والهولنديون أهم النقلة لتجارة أسبانيا الخارجية. أما أسبانيا التي كان يحكمها نبلاء تمرسوا بالدبلوماسية والحرب أكثر مما تمرسوا بشئون الاقتصاد، فقد تركت ثروتها تعتمد على استيراد الذهب، وازداد ثراء الحكومة حيناً بينما ظل الشعب في فقره، ولكن كثيراً من هذا الذهب كان ينزح لاستخدامه في الحرب، أو يأخذه التجار الأجانب

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فخامة أسبانيا وانحطاطها -> الحياة الأسبانية

الذين ينقلون تجارة أسبانيا، حتى كادت الحكومة تفنقر كالشعب. ورفضت أسبانيا الوفاء بديونها المرة بعد المرة (1557 و 1575 و 1596 و 1607 و 1627 و 1647) أو حولتها بالاكراه إلى قروض جديدة، وهذه الأزمات المالية هي التي ألجأتها إلى انتهاء حربها مع هنري الثاني عام 1559، ومع «الأقاليم المتحدة» عام 1609. ففي التاريخ علينا أن نفتش لا عن «المرأة» بل عن «المصري».

وفي أسبانيا علينا كذلك أن نفتش عن الكاهن. ذلك أن الدين لم يفرض مثل هذا السلطان على الشعب، ومن ثم على الحكومة، في أي بلد آخر من بلاد الله، ولم تكتف أسبانيا برفض حركة الإصلاح البروتستنتي فحسب، بل تجاوزتها إلى رفض النهضة أيضاً- اللهم إلا لحظة إرزية عابرة. وظلت «وسيطه» في عالم حديث، قانعة بنصيبها هذا. وكان فقر الشعب يتهلل لثراء الكنيسة. كان الكل متدينين، من الملوك «الأشد كئلكة من البابا» (1) إلى قطاع الطرق الذين لم يروا قط إلا حاملي المداليات أو الشارات الكتفية الدينية. وفي عام 1615 سار نحو أربعين ألف اسباني في مظاهرة مطالبين بأن يجعل البابا من «حمل العذراء غير المدنس» (أي خلوها من لوثة الخطيئة الأصلية) عقيدة في صلب

الإيمان-أي اعتقاد الزامي على جميع الكاثوليك(2). وفي كل مكان كنت تجد القساوسة والرهبان والأخوة، لا متسامحين أو راضين عن مباحث الحياة والحب كما في إيطاليا أو فرنسا، بل ملقين جوا من اكتئاب الجريكو على كل شئ الا مصارعات الثيران. واصبح في أسبانيا الآن 9.088 ديرا، و 32.000 أخ دومنيكي وفرنسكاني(3)، وعدد متزايد من اليسوعيين. وكانت الكنائس معتمة، تزخر بالرفات الرهيبة، وتزدان بالمرعبات الواقعية في فنها. اما قصص القديسين ومعجزاتهم فهي الشعر الذي يعتز به الشعب. وحبب الناس في التصوف في أغاني القديس يوحنا الصليبي وكتابات القديسة تريزا، ووجدت الكنيسة لزاما عليها أن تحتج

صفحة رقم : 9771

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فخامة أسبانيا وانحطاطها -> الحياة الأسبانية

على ما ادعاه «المهدئون» من صلة حميمة بالله ومن روى طوباوية، وفي عام 1640 وقعت في براثن محكمة التفتيش طائفة من الألومبرادو -> أي المستنيرين -> زعموا أن اتحادهم الصوفي بالاله يظهرهم من كل اثم حتى وهو في نشوات الجنس. علينا أذن ان نذكر هذا التدين الواسع الانتشار، الشديد التحمس، إن أردنا أن نفهم لم استطاع الشعب الأسباني أن يرقب في استحسان قوى حرق المهترطين، وأن يوجد بماله حتى الإفلاس والإعياء دفاعا عن العقيدة في ألمانيا والأراضي المنخفضة. لقد كان في هذا الجنون شئ من النبل، وكان الأمة أحست بأنه ما لم يكن إيمانها صادقا فإن الحياة تصبح سخفا لا معنى له.

وهكذا مضت محكمة التفتيش في وحشيتها التي املاها عليها ضميرها، فحدثت بالعقوبات «المعتدلة» - كجلد المذنب مائة جلدة - من بدع كتلك التي زعمت أن الزنى ليس خطيئة، أو أن الزواج مقدس كالتبطل الديري. أما المارانو «المرتدون» - وهم اليهود الذين اعتنقوا المسيحية من قبل ثم ارتدوا إلى اليهودية سرا - فكان التكفير المقرر عن جريمتهم هو الموت أو السجن المؤبد. وحين وصل فليب الثاني إلى اسبانيا (1559) استقبل في بلد الوليد بتنفيذ حكم للمحكمة شهد فيه 200.000 شخص يرأسهم الملك عشرة من المهترطين يشنقون واثنين يحرقان أحياء(4). والنمس أحد المحكوم عليهم الرأفة من فليب فرفض، واكتسب إعجاب الشعب بقوله «لو أن ابني كان شقيا مثلك لحملت بنفسي الحطب لأحرقه»(5) وقد قاوم فليب أحيانا جنوح محكمة التفتيش إلى توسيع سلطانها على حساب السلطة المدنية، ولكنه على العموم شجع هذه المؤسسة باعتبارها أداة تعين الحماسة والوحدة القوميتين. وقد أراحه بعض الشيء أنه استطاع استخدام المحكوم عليهم عبيدا على السفن(6). وأمه في سنة واحدة (1566) تسلم 200.000 دوكاتية من الذهب هي نصيب الثلثين المستحق للحكومة من غرامات محكمة التفتيش ومصادراتها.

صفحة رقم : 9772

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فخامة أسبانيا وانحطاطها -> الحياة الأسبانية

واعترت محكمة التفتيش بصونها عقيدة العصر الوسيط نقية لا غش فيها، وبإنقاذها اسبانيا من الفرقة الدينية التي تتلوى فرنسا تحت قبضتها. وترك اهتمامها بالعقيدة دون السلوك حماية الفضيلة لرجال الاكليروس وكانوا هم أنفسهم مشهورين بالتهاون في سلوكهم ولموظفين المدنيين الذين حد من سلطانهم على الشعب خضوعهم لما تصدره محكمة التفتيش من أحكام بالسجن أو الغرامة. أما عفة النساء فلم يقيم حارسا عليها الدين والقانون فحسب، بل «البونتو»، أي حق الدفاع عن العرض، وهو مبدأ يلزم كل ذكر بأن يدافع أو يثأر بالسيف لعرض أية امرأة في اسرته هدد أو انتهك. وكانت المبارزة غير قانونية ولكنها محببة إلى الشعب. وكان كرام النساء يلزم من بيوتهن في احتجاج شبيه بما كان عند العرب، يأكلن بمعزل عن الرجال، وقلما يصحبهم علانية، ويركبن المركبات المقلدة إذا انتقلن من بيوتهن. وكان طلاب يد الفتاة يتوددون بالموسيقى تعزف من الشارع للعذراء المحتجة خلف نوافذ ذات قضبان، وقل أن يؤذن لهم بدخول البيت حتى يصل والدا الطرفين إلى اتفاق، ومع ذلك كثرت زيجات الغرام (7). وفي عهد فيليب الثاني احتفظ بمستوى الأخلاق عاليا على قدر ما سمحت به فتنة النساء أو خيال الرجال، وخفف من فساد الموظفين الطبيعي يقظة الملك، وإلى هزيمة الأرمادا كان يصون روح الشعب المعنوية اعتقادهم بأن أسبانيا تخوض حربا مقدسة ضد الإسلام، والأراضي المنخفضة، وإنجلترا، فلما تحطم الحلم انهارت أسبانيا جسداً وروحاً.

على أن الحياة الأسبانية كان لها بهاؤها وسحرها الملازمان لطبيعتها. فالاحسان واسع الانتشار، والسلوك المهذب يسود جميع الطبقات. ونصف الأمة يزعم لنفسه عراقة الأصل ويحاول الارتقاء بحياته إلى آداب الفروسية، ويصر على أن يرتدي لباس العشر الأعلى من السكان. وكان اللباس في عهد فيليب الثاني متوسط البساطة، فالرجال يلبسون أطواق الرقبة والصدرات

صفحة رقم : 9773

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فخامة أسبانيا وانحطاطها -> الحياة الأسبانية

والجوارب الطويلة القاتمة الضيقة، والأحذية ذات المشابك، أما النبيلات (وكلهن نبيلات) فيغطين ما استدار من اجسامهن بالمشدات القاسية المستوية، ويحجب عن الجنس الآخر كل وجوهن فيما عدا العيون (وهي في نساء الأسبان شديدة التوقد)، ويخفين اقدامهن في خفر بحيث كانت لمحة واحدة إليها أعظم المكافآت المثيرة التي تجزي بها توسلات العاشق الولهان (8). وأصبح لباس النساء أكثر بهاء إبان التراخي الخلفي الذي أعقب موت فيليب، فالمرآح ترف في مداعبة بلا كلام، والصباغ الأحمر يلمع على الوجوه والأكتاف والنحور والأيدي، والسبقان التي يلفها الغموض تخفي في تنانير من سعتها أن اصحاب المسارح كانوا يتقاضون أجر كرسيين من لكل امرأة تعاطم حجمها على هذا النحو.

وظلت مصارعة الثيران المفضلة. وقد أصدر البابا بيوس الخامس مرسوماً بحظرها عام 1567، ولكن فليب الثاني احتج بأن هذا الخطر سيطلق ثورة في اسبانيا، فأهمل المرسوم. وازدادت المواكب الدينية شيئاً من الشعر الحزين إلى الأيام العادية الخالية من الاثارة. وسترت اقنعة الكرنفال كثرة من الخطايا. أما الموسيقى فغرام لا يفوقه غير الدين والعشق - وهو وثيق الصلة بهما. فالفويلا في شكلها بالقيثارة تعزف الحانا شجية تلازم العلاقات الرامية. وقد حظيت الأغاني الشعرية القصيرة بشعبية مؤقتة. ونافست اسبانيا إيطاليا في الموسيقى الكنيسة. وقد نشأ توماس لويس دي فكتوريا، وهو بمثابة فلاسكويز الموسيقى الأسبانية، في أفيللا (أبله)، بلد القديسة تريزا، ولعله وقع تحت تأثيرها. وكان يملك الصوت والوظيفة، ولعله رسم قسيساً عام 1564، ومن المؤكد أن فيليب أجرى عليه إعانة ليدرس الموسيقى في إيطاليا. ونحن نراه في سنة 1571 رئيساً لفرقة المرثلين في الكلية الجرمانية بروما. وفي عام 1572 أصدر كتاباً من الألحان يحوي موسيقى «Ovos omnes» (يا جميع الآلهة) الملهمة المرافقة لمرآثي أرميا لأورشليم. ولما عاد إلى اسبانيا قدم لفليب الثاني

صفحة رقم : 9774

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فخامة أسبانيا وانحطاطها -> الحياة الأسبانية

كتاب قداديس احتوى على لحن من أرفع ألحانه، وهو قداس «Oquam gioriosum» (ما أمجدك). وكتب قداسا جنائزيا عميق التأثير لمأتم ماريما أخت فيليب، وأرملة الامبراطور مكسليان الثاني، وضعه مؤرخ نابيه للموسيقى في صف «أروع الألحان المدونة قاطبة» (9) «وقد سماه أغنيته التم»، وبعد نشره (1603) تفرغ بكليته لواجباته الكهنوتية. وكان من ألمع النجوم في أشهر عهد من عهود الملكية الأسبانية.

صفحة رقم : 9775

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فخامة أسبانيا وانحطاطها -> فيليب الثاني

2- فيليب الثاني

1555 - 1598

هنا رجل من أغرب واقوى شخصيات التاريخ، متعصب، ذو ضمير حي، مكروه أشد الكره خارج اسبانيا، محبوب أحر الحب داخلها، يتحدى أي دارس يحاول جاهداً أن يكون موضوعيا. كان نسبه قدره المكتوب، فأبوه شارل الخامس، الذي خلف له ملكا والتزاما بالتعصب، وجدته لأبيه جوانا لالوكا ابنة فرديناند الكاثوليكي المجنونة؛ فالصوفية والجنون إذن في عروقه، والعقيدة والاستبداد في ميراثه. وكان لأمه ايزابيللا البرتغالية ولدان آخران مات كلاهما بالصرع في طفولته، وماتت هي نفسها في السادسة والثلاثين حين كان فيليب في الثانية عشرة. ولد في بلد الوليد عام 1527 يوم كانت جيوش أبيه تنهب روما وتسجن البابا، وربى على يد قساوسة ونساء أغرقوه في التدين وأقنعوه بأن الكنيسة الكاثوليكية هي السند الذي لا غنى عنه للفضيلة والملكية. وعلى حين كان أبوه - الذي نشأ في فلاندر - قد شب رجل دنيا، أصبح فيليب - الذي عاش في أسبانيا معظم حياته - أسبانياً وجهاً وعقيدة، جسداً وعقلاً، برغم جلده الأبيض وشعره الأصفر الحريري.

لم يكد يستمتع بشباب، ففي الثالثة عشرة عين حاكماً على ميلان، وفي السادسة عشرة وصياً على عرش اسبانيا - وهي وصاية لم تكن مجرد اسم بلا مسمى. فقد رتب شارل مشيرين له، وشرح له طباعهم ببصيرة نافذة، وأمره ان يؤلب المشير على المشير، وحضه على أن يحتفظ لنفسه

صفحة رقم : 9776

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فخامة أسبانيا وانحطاطها -> فيليب الثاني

بكل السلطة الحقيقية وكل القرارات النهائية - وهو ما فعله فيليب إلى آخر نسمة من حياته. وفي تلك السنة (1543) تزوج فيليب ابنة خاله الأميرة ماريا البرتغالية، ولكنها ماتت عام 1545، عقب أن أنجبت له ابناً «سيئ الطالع» هو الدون كارلوس، فعقد فيليب زواجا من إحدى بنات الشعب هي إيزابيللا دي أوزوريو، التي انجبت له عدة أطفال. وألح عليه أبوه في فسخ هذا الزواج، وكان لزاما على كل أمير هابسبورجي أن يعين على تأليف نطاق من الحلفاء حول العدو القديم فرنسا. لذلك وجب على فيليب - لكي يؤمن قوة أسبانيا في الأراضي المنخفضة من تدخل إنجلترا - ان يبتلع حاسته الجمالية ويتزوج ماري تيودور ملكة إنجلترا الكاثوليكية. وينجب منها بنين يحتفظون بإنجلترا في حظيرة الكاثوليكية. وهكذا نراه في عام 1554 يعبر المانش، ويتزوج ماري الدميمة، العليلة، المؤملة في الحلف (وكانت تكبره بأحد عشر عاما)، ويبدل قصاره لاختصاصها، ولكنه يخفق، فيرحل (1555) ليصبح حاكماً للأراضي المنخفضة. وتمضي السنون وأعباؤه تتقل. ففي عام 1554 كان قد نصب حاكماً لمملكة نابلي وصقلية المزدوجة. وفي عام 1556 تخلى له شارل عن تاج أسبانيا. وظل فيليب أربع سنوات يحكم أملاكه المبعثرة من بروكسل. وقد ناضل للتوفيق بين رزائته الاسبانية وبين المرح الفلمنكي والمالية الهولندية. لم يكن يستطيع الحرب، ولكن قواده كسبوا له في سانت كوينتين (1557) معركة حمل الفرنسيين على ابرام معاهدة كاتو - كامبريزي. ورغبة منه في إقامة بعض روابط الصداقة مع فرنسا تزوج فيليب من اليزابيث فالوا، ابنة هنري الثاني وكاترين مديتشي، وبعد أن خال الأمور قد استقرت ودع الأراضي المنخفضة وأبحر من غنت (أغسطس 1559) وحبس نفسه بقية حياته في أسبانيا. ونقل العاصمة من طليطلة إلى مدريد (1560)، وما لبث ان حمله حبه للعزلة، وعدم ارتياحه إلى الوجود وسط الجماهير، على تكليف

صفحة رقم : 9777

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فخامة أسبانيا وانحطاطها -> فيليب الثاني

خوان باوتستا و خوان دي هيرايرا بأن يشيدا له على سبعة وعشرين ميلاً شمال غرب مدريد مجعاً من العمائر يحوي قصرأ ملكياً، ومركزاً إدارياً، وكلية ومدرسة لاهوتية، وديراً، وكنيسة، وضريحاً - ولا غرو فقد أصبح فيليب الآن متديناً على قدر ما تسمح به مقتضيات السياسة. ففي معركة سانت كوينتين هدمت مدافعه مكرسة للقديس لورنس،

وتكفيراً على هذا الانتهاك لمقدسات وعرفاناً بالجميل على انتصاره، كان نذر أن يقيم للقديس ضريحاً في أسبانيا. وهكذا سمي مجمع العمائر الشاسع هذا السبتيوريال دي سان لورينزو «- أي المقر الملكي للقديس لورنس، ولكن الزمن سماه الإسكوريال، نسبة لمدينة قريبة، اشتقت هي نفسها اسمها من لفظ «سكوريا» ومعناه خبث مناجم الحديد المحلية(10). وكان الاعتقاد أن القديس لورنس قد أحرق حتى الموت على مشواة من حديد، لذلك صمم خوان باوتستا خطة الأرض على هيئة مشواة تقطعها الصالات من جنب إلى جنب، قاسمة الفراغ إلى ستة عشر فناء. ويعجب المرء وهو يركب السيارة من مدريد إلى هذا المكان كيف استطاع فيليب، في عصر لم يتح له من وسائل الانتقال ما هو أسرع من ظهور الخيل، أن يحكم ملكه العالمي من مثل هذا الحرم الذي يتوه وسط تلال كنيية؛ ولكن مدريد كانت أكثر منه بعدا عن العالم. وقد هجر هذا المجمع العظيم اليوم إلا من الرهبان وخدماتهم، ولكنه كان أيام عزه، بواجهته المبنية بطرز النهضة والبالغ طولها 744 قدما، وبقلاعه وأبراجه، وبقبة كنيسته الضخمة، رمزا رهيبا للسطوة الأسبانية التي تبلت بالقوى والفن. هنا كان يحكم نصف العالم المسيحي، ووجد الدين والحكومة في متاهة واحدة من السياسة والحجر، وهنا كان في استطاعة الملك أن يعيش كما يشتهي، لا بين حاشيته، بل بين القساوسة والرهبان والرفات المقدسة، ويسمع مرات كل يوم الأجراس المعلننة للقداس. هان كان البانتيون مزمعا أن يتلقى رفات ملوك أسبانيا وملكانها، والمكتبة أن تصبح من أغنى المكتبات في أوروبا، ومتحف الصور أن

صفحة رقم : 9778

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فخامة أسبانيا وانحطاطها -> فيليب الثاني

يضم عما قليل روائع بريشة رافائيل، وتنتسيانو، وتنتوريتو، وفيرونيزي، والجريكو، وفلاسكويز، هنا اقبل بلجربينو تيبالدي، وبارتولوميو كاردوتشي، وفدريجو زوكارو، من إيطاليا للانضمام إلى خوان فرنانديز نافاريتي، ولويز دي موراليس، ولويز دي كاريبال، وغيرهم من الفنانين الأسبان ليرسموا الصور الجصية على الجدران والبواكي التي لانهاية لها. أما القصر الملكي فتركه بسيطا كل البساطة، ولكن الكنيسة برغم بانها على الطراز الدوري الصارم، كان مذبحها يتلأأ بالرخام السماقي واليشب والذهب ومن خلفه رافدة ذات حلية معقدة. وكانت القاعة المخصصة لاستقبال كبار القوم شاسعة حافلة بالزخرف، أما حجرة فيليب فأفقر حجرات البناء، متواضعة كأنها صومعة عابد(11). كان البناء رمزا لسطوة فيليب، أما الحجرة فتعبير عن خلقه.

لقد جهد غاية الجهد ليكون قديسا، ولكنه لم ينس أنه ملك. كان يعلم أنه أقوى حاكم على ظهر البسيطة ويشعر بالترام سياسي بالكبرياء، ولكنه كان في لباسه أية في البساطة حتى أن بعض الغرباء الذين صادفوه في الإسكوريال حسبوه تابعا، وسمحوا له أن يكون دليلهم(12). وكان خليقا بهم أن يتعرفوا عليه من ذقنه الهابسبورجية الناتئة، لأنها كانت تحديا بارزا للعالم. وفي عان 1559، قبل أن يقسيه الزمن والتجارب، وصفه سفير بندي بأنه «بيدي دائما من الرقة والانسانية ما لا ييزه فيه أمير(13)»، وقال عنه سفير انجليزي أنه «ذو خلق لطيف، وطبع لين، وميل إلى الهدوء(14)». ولم يجد فيه أحد أي ميل للمزاح أمام الناس، وذكر أعداؤه القساة أنه لم يبتسم في حياته كلها غير مرة - وذلك حين سمع بمذبحة القديس برتلميو. على أنه في حياته الخاصة كان يستطيب الدعابة والنكتة ويضحك من كل قلبه(15). وكان يجمع الكتب بذوق ولذة، ولكنه أثر الفن على الأدب، فهو الراعي المرهف الذوق لتنتسيانو، والناقد لإلجريكو، يحب الموسيقى ويعزف على القيثارة

صفحة رقم : 9779

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فخامة أسبانيا وانحطاطها -> فيليب الثاني

حين لا يرقبه العالم، تحليه كل آداب السلوك الأسبانية، ولكنه يرتبك حياء ويجمد في المناسبات الرسمية، رشيق الجسم إلى أن أعجزه النقرس. لولعه بالفطير والحلوى. وكان منذ شبابه مستهدفا للمرض، وإذ كان قد أدرك السبعين كاملة فإنما الفضل في ذلك لتصميمه العنيد على اتمام واجباته. وقد اتخذ الحكم واجبا مقدسا، وراح يكذب فيه يوماً بعد يوم طوال خمسين عاماً. ويبدو أنه آمن حقاً بأن الله اختاره لوقف المد البروتستنتي، ومن هنا ما عرف عنه من عناد شديد وقسوة على مريض، «ولم يكن بطبيعته يؤثر الطرق العنيفة(16)». ولم ينس قط صنيعاً (اللهم إلا حالة أجمونت). ولا نسي اساءة. كان المنتقم أحياناً، الشهم الصفوح غالباً. وزع الصدقات بسخاء يمليه الضمير(17). كان في عصر فاسد غير قابل للفساد، وما كان لرشوة أو هدية أن تثنيه عن الاضطهادات التي دفعه إليها تدينه.

أما في أخلاقيات السياسة فكان شبيها كل الشبه بمعاصريه - يكره الحرب، ولم يبدأ حرباً قط، واحتمل من إهانات إنجلترا جيلاً كاملاً تقريباً قبل أن يجرد عليها الارمادا. كان قادراً، بل أقدر من معظم الحكام، على الخداع المتخفي وراء التقوى، والظاهر أنه شارك في مؤامرة لقتل اليزابث حي أعيته لانقاذ ماري ستيوارت(18). وكان حكمه لأسبانيا أوتوقراطياً ولكنه عادل، «بيهتم الاهتمام الشديد برعاياه، ويصلح أي مظالم اجتماعية يجد الوقت لاكتشافها(19)».

أما خلقه الشخصي فيفضل خلق أكثر ملوك القرن السادس عشر. كان في شبابه ببروكسل، إذا صدقنا اعداءه، «شديد الاباحية» و «لهوه المفضل أن يخرج ليلاً متخفياً ليمارس شتى الشهوات المبتذلة في المواطن المألوفة للرزيلة(20)»؛ وبعد سنوات اتهم وليم أورانج، وهو يفود ثورة الأراضي المنخفضة، ناسك السكوريال هذا بأنه قتل ابنه ودرس السم لزوجته الثالثة(21)، ولكن رجلاً ساخطاً مثل وليم لا يعتمد

صفحة رقم : 9780

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فخامة أسبانيا وانحطاطها -> فيليب الثاني

عليه في كتابة التاريخ. على أن مؤرخاً لا يتطرق الشك إلى عظمته وجرأته، وهو ماريانا اليسوعي الأسباني، يصدر عليه حكماً عدائياً كهذا، فبينما هو يشيد بـ «سماحة فيليب وعزيمته ويقظته وزهده في الطعام والشراب» يتهمه بـ «الشهوانية، والقسوة، والكبر والغدر، وعدة رذائل أخرى»(22) ولكننا نجد مؤرخاً هولندياً محدثاً يخلص إلى أن «فيليب الثاني لا يمكن اتهامه بالفجور و.. والخلاعة والفساد، فهو على قدر علمنا عاش بعد عودته إلى أسبانيا حياة فاضلة إلى حد الصرامة(23) زوجاً وفيها شديد الاهتمام بأبنائه. وحين مرضت زوجته الثالثة اليزابيث قالوا بالجدرى (وكان يومها فتاكاً أغلب الأحيان) ظل ملازماً لها لا يبرحها إلا نادراً مع أن وزراءه ألحوا عليه في ألا يعرض نفسه لخطر العدوى. وبعد موت اليزابيث عقد فليب زواجا دبلوماسياً آخر (1570) بأميرة نمساوية من أميرات العدديات المسميات «أن»، وماتت أن هذه عام 1580 وبعدها كرس عواطفه العائلية الحميمة لبناته. ورسائله لهن رسائل إنسانية فيها دعاية ومحبة(24). واصبحت اليزابيث كلارا رفيقه الحميم وعزاه الكبير وسط هموم الشيخوخة وهزائمها. وقد وصفها في وصيته بأنها نور عينيه. أما ابنؤه فلم يجد فيهم أي عزاء.

وتضافرت الأسطورة والأدب والشفقة الإنسانية لتجعل من ابن فليب الأكبر رجلا أشهر من أبيه. كان كارلوس ضعيف البنية، مستهدفا للحمى المنقطعة؛ والاكنتاب، ونوبات الغضب والكبرياء. كان سخيا في إسراف، شجاعا في شراسة، كان يضحك جده، الذي كان بالأمس شارل الخامس العظيم بلومه إياه على أنه فر من موريس أمير سكسونيا في إنبروك (1552)- «لو كنت مكانك لما

صفحة رقم : 9781

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فخامة أسبانيا وانحطاطها -> فيليب الثاني

قررت قطا» (25) وفي المحادثات التمهيدية لمعاهدة كاتو-كاميريزي كان هناك وعد بزواج كارلوس-وهو يومها في الرابعة عشرة- من اليزابث فالوا، ولكن في المعاهدة نفسها اتخذ فليب هذه الأميرة زوجة له بعد أن ترمل بموت ماري تيودور، وذلك ليحول الصداقة الفرنسية من إنجلترا إلى أسبانيا، وبعد عام وصلت العروس إلى مدريد (1560). ولعل كارلوس حين رأى جمالها المتوارى خلف قناع من الحشمة ساءه هذا التحوير لحق «السيد الاقطاعي»، ولكن ليس هناك دليل على وجود اية علاقة غرام بينه وبين الملكة ذات الأربعة عشر ربيعا(26). وكان من المسلم به رسميا أن كارلوس وريث للتاج برغم علته. وفي عام 1561 أرسل إلى جامعة ألكالا «القلعة». وهناك سقط من درجات سلم خلال مطاردته فتاة يغازلها فكسرت جمجمته، وراح يهذي في غيبوبته. ونشر الجراح الكبير فيز اليوس عظم رأسه فأنقذ حياة الصبي، ولكن تحسن حالته عزاه الناس إلى رفات أخ فرنسكاني تقي- مات قبل قرن-أخذت من تابوتها ووضعت على الفراش إلى جوار الأمير. وخلال نقاهة الفتى الطويلة مكث فليب في «القلعة» وأنفق الوقت الكثير إلى جانبه. وأعيد كارلوس إلى مدريد وهناك استرد من العافية ما سمح له بالانضمام إلى شباب النبلاء في حوادث العنف يرتكبونها في الشوارع ضد الرجال والنساء. وقوت اعتدائه القاسية الصاخبة، الشبهه في أن سقطته قد ألحقت بمخه أذى لا شفاء له منه. ولم يكن مما يعنيه على كسب عطف فليب أنه أعرب عن تعطفه مع الثوار في الأراضي المنخفضة. ولما عين ألفا قائدا للجيش هناك احتج كارلوس بأن هذه المهمة كان يجب أن تعهد إليه، فنهى الفا عن الذهاب، وهاجم الدوق بخنجر شهره عليه حين أصر على الذهاب(27). ويبدو أن الأمير خطر له حينما أن يهرب إلى الأراضي المنخفضة ويضع نفسه على رأس الثورة(28). وكلف فليب بعض

صفحة رقم : 9782

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فخامة أسبانيا وانحطاطها -> فيليب الثاني

وزرائه، الزاهدين في المهمة، بأن يراقبوه. ووضع كارلوس الخطط للهروب، وبعث بعملائه لجمع المال، وجمع 150.000 دوكاتية، وأمر بأن يؤتى له بثمانية جياذ لهروبه يناير (1568). غير أنه أسر بخطته لدون جوان النمساوي، الذي أفضى بها إلى الملك. وخاف فليب أن تستعمل اليزابث ملكة إنجلترا، أو وليم أورنج، ابنه-إذا سمح له

بمغادرة أسبانيا-مافسا لأبيه تمهيدا لعزله، فأمر بتشديد الرقابة على الأمير، وهدد كارلوس بالانتحار، فجرد فليب من كل سلاح وحبسه في القصر الملكي بمدريد.
إلى هناك كان مسلك فليب يسمح بالدفاع عنه، ولكن التعصب بدأ يعمق المأساة. ذلك أن الملك حين اشتبه في هرطقة ابنه أمر بالأل يسمح له بأي كتاب الا كتاب صلوات يومية وبعض كتب العبادة. ورفس كارلوس الكتب وأهمل كل الطقوس الدينية. وأنذره قسيس بأن مسلكه قد يحمل محكمة التفتيش على التحقيق في صحة مسيحيته، وحاول كارلوس أن يقتل نفسه، ولكن حيل بينه وبين ذلك، على أنه حقق هدفه بأن رفض كل طعام قدم إليه طوال أيام ثلاثة، ثم أتخم نفسه باللحم والماء المثلج، فأصيب بالدوسنتاريا، ورحب الأمير بالموت، وتناول القربان لآخر مرة، وسامح أباه، ثم مات غير متجاوز الثالثة والعشرين (24 يوليو 1568). واتهم انطونيو بيريز-عدو فليب المنفي-الملك بأنه دس السم لكارلوس، وصدقت معظم أوربا التهمة، ولكن البحث دحضها. على أن صرامة سجن الفتى من النقط السوداء الكثيرة التي تلوث سجل الملك.

صفحة رقم : 9783

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فخامة أسبانيا وانحطاطها -> فيليب الثاني

وقد ألقى مسلكه من أخيه لأبيه، دون جوان النمساوي، ظلأ آخر على الصورة. فيبدو أن هذا الابن غير الشرعي لشارل الخامس وبربارا بلومبرج أثار في نفس فليب إعجاباً تشوبه الغيرة. ومع ذلك رفع جوان إلى مرتبة الأمراء، وعهد إليه بتنظيم حملة على قرصنة الجزائر. وأبلى جوان فيها بلاء حسنا. وقلده فليب قيادة القوات البرية ضد مغاربة غرناطة، وأنفذ جوان مهمته دون أن يضيع وقتا أو يسرف في رافة. فعينه فليب-وهو بعد في الرابعة والعشرين- أمير الأ أكبر للأساطيل الموحدة في «الحرب الصليبية الأخيرة»، وهزم جوان الترك في ليبانتو، وغدا بطل العالم المسيحي. هنا شعر بأنه جدير بعرش مملكة، ولكن شق عليه أن يكتفي فيليب بتنصيبه حاكما عاما على الأراضي المنخفضة.

ثم لام الناس الملك الصموت، الذي كان على الدوام يأبى لكبريائه أن يفسر مسلكه أو يدافع عن نفسه على منبر الرأي العام، لأموه اشد اللوم على مأساة أخرى. ذلك أنه رقي إلى منصب المستشارية لديه رجلا من عامة الشعب ذكيا أنيقا يدعى أنطونيو بيريز، وكان الاعتقاد أنه الابن غير الشرعي لأخص أصدقاء فليب وأحوزهم لثقتهم، وهو روى جوميز أمير اببولي. فلما مات جوميز (1573)، أصبح بيريز الصديق الحميم-وربما العشيق(29)-لأنا دي مندوزا، أميرة اببولي-الأرملة المغرقة في الدس. وقيل أن فليب نفسه كان له علاقة بهذه الحسنة العوراء قبل أحد عشر عاما، ولكن لعل «التاريخ» هنا لفق هذه القصة(30). وترما بيريز معها بغية الافادة من اطلاعها على أسرار الدولة. فلما هدهما خوان دي اسكويبدو بأن يفصح نشاطهما المريب، أقنع بيريز فليب بأن اسكويبدو يتآمر على خيانتهم، واعطى فليب الأمر باغتتيال خوان. واحتفظ بيريز بالأمر ستة اشهر، ثم نفذه (1578) مما أدهش فليب واربكه. وبعد عام اقنعت أوراق دون خوان النمساوي السرية فليب ببراءة اسكويبدو، فقبض على بيريز، وحبس الأميرة

صفحة رقم : 9784

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فخامة أسبانيا وانحطاطها -> فيليب الثاني

في قصرها. واعترف بيرييز بجريمته تحت ضغط التعذيب، ووافق على أن يرد للخزانة 12.000.000 مارافيدي. ولكنه فر إلى أراجون بمساعدة زوجته، وهناك طاردته محكمة التفتيش بتحريض فليب باعتباره مهرطقاً. فر إلى فرنسا، وعزا اضطهاده إلى غرام فليب بلا ايولي غراما لم يسله، وافشى مواطن ضعف أسبانيا الحربي والمال لحكومتها فرنسا وإنجلترا، وحرص ايسيكس على الاغارة على السفن والشواطئ الأسبانية. وأخيرا مات بياريس عام 1611 بعد أن حاول عبثاً الحصول على عفو فليب الثالث وحمانيته(31).

لقد وجد فليب مبرراً كافياً لاتباع نصيحة أبيه بالا يثق بمساعديه ذلك أن اشراف الأسبان-كالنبلاء الفرنسيين-كانوا غيورين من سلطة الملكية لا يتورعون عن الكبد للملك. ولقد أبقى على خلافاتهم فيما بينهم، وضرب بعضهم ببعض، وتلقى تقارير ملخصة عن آرائهم المتعارضة، ثم اتخذ قراراته. ولما فقد الثقة في مرعوسيه، أكب بشخصه على دقائق الحكم والإدارة في كي ميدان-في السياسة البابوية، والأشغال العامة، والردائل المحلية، والطرق والكباري، وتطهير الأنهار للملاحة، وانشاء المكتبات، واصلاح القانون الأسباني وجمعه وتنسيقه، والإشراف على مسح جغرافي وتاريخي واحصائي واسع لأسبانيا ما زالت مجلداته الخمسة عشر ذات القطع الكبير دون نشر(32).- على أن اضطلاعاً بأعباء بنو بها كل كاهل افضى به إلى سياسة التسويف والتأجيل، فقد لاحظ أن كثيراً من المشكلات تفقد إلحاحها أو معناها إذا أجلت عمداً-ولكن مجرى الأحداث في عدة حالات-كحالة الأراضي المنخفضة- فصل فيها على عكس ما يشتهي بينما هو يزن ما للحلول وما عليها أو يضعها على الرف. وفي مهجعه الملكي كان يملئ أو يكتب بيده التعليمات لموظفيه الذين عينهم في خمس قارات. وقد افترض أن السلطة الملكية يجب أن تكون مطلقة، واغفل أو طغى على «الكورتيز» أو المجالس الإقليمية

صفحة رقم : 9785

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فخامة أسبانيا وانحطاطها -> فيليب الثاني

إلا في الأرجوان وأصدر المراسيم-حتى مراسيم الاعداد-دون محاكمة علنية، وهذا أوتقرابطه باليقين بأن هذا سبيله الأوحى إلى حماية الفقراء من الأغنياء(33). وأنشأ تدريجاً وبجهد، داخل حكمه المستبد، في قارة استشرى الفساد في كل ارجانها تقريباً، بيروقراطية وقضاء امتازا بالقياس إلى غيرهما بالكفاية والعدل(34). كان يحترم الكنيسة باعتبارها الشكل التقليدي للفضيلة والحارس القديم للملوك، ولكنه أخضع الدين للدولة في اسبانيا كما فعل هنري الثامن أو اليزابث الأولى في إنجلترا. وعلق أهمية كبرى على الوحدة الدينية باعتبارها أداة للحكم، حتى أنه رأى «أنه حير للملك ألا يملك اطلاقاً من أن يملك على مهرطقين»(35) فلما اقتنع بأن المغاربة في أسبانيا ما زالوا يمارسون شعائر الإسلام برغم تظاهرهم بالكثلكة، أصدر (1567) أمراً عالياً يحرم كل العادات الإسلامية ويحظر استخدام اللغة العربية واقتناء الكتب العربية. وتمرد المغاربة (1568)، واستولوا على اقاليم كبير جنوبية غرناطة، وذبحوا المسيحيين، وعذبوا الكهنة، وباعوا النساء والأطفال رقيقاً للبربر نظير البارود والبنادق. ولكن التمرد أحمد بعد سنتين من الفظائع التي تنافس الفریقان في ارتكابها. وطرد جميع المغاربة من اقليم غرناطة وشتتوا بين الجماعات المسيحية في قشتالة، وأودع أبناءهم البيوت المسيحية، وجعل الحضور إلى المدارس اجبارياً على جميع الأطفال-وهو أول إلزام من نوعه في أوربا(36). واشتبه فليب في أن المغاربة الباقين في بلنسية وقتلوا يتأمرون مع العدو، وكان في حرب مع الترك، ولكن كثرة أعبائه أكرهته على أن يترك آخر مراحل المشكلة لخلفه.

وكان أبوه قد خلف له مهمة الدفاع عن العالم المسيحي ضد الإسلام باعتبارها جانباً هاماً من سياسة الهابسبورج. ففي عام 1570 انضم إلى البندقية والبابوية في حرب صليبية تنهي سيادة الترك على البحر المتوسط.

صفحة رقم : 9786

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فخامة أسبانيا وانحطاطها -> فيليب الثاني

وسقطت قبرص في يد الترك بينما كان فليب يضع الخطط والحلفاء الثلاثة يحشدون اسطولهم. وما وافى عام 1571 حتى كانوا قد جمعوا في مسينا 208 سفينة شراعية كبيرة و 50.000 بحار، و 29.000 جندي، ورفع فوق مقدم كل سفينة صليب، ومنحت البركة للرايات، وارتفعت الصلوات جملة إلى عنان السماء، وأصدر الاميرال الشاب الملهم الصيحة الصليبية، «المسيح قاندمكم، أنكم تخوضون معركة الصليب». وفي 16 سبتمبر 1571 أفلح الأسطول وحقق انتصاراً قسماً على تفوق الترك في البحر المتوسط. وإذا كانت اسبانيا قد أسهمت بأكثر من نصيبها من السفن والرجال، فإن بهاء ليبانتو سطح على دون جوان والملك، وقارب فليب عندها ذروة مجده قبل انحداره. وواتته هذه الذروة حين ورث عرش البرتغال (1580) فضم هذا البلد الاستراتيجي إلى ملكه المتعظيم.

أما هم المقيم فكان ثورة الأراضي المنخفضة فقد علم ساخطا أن كوليني، الزعيم البروتستنتي، كاد يفتن شارل التاسع بأن فرنسا يجدر بها أن تتحالف مع الثوار. فلما بلغ فليب نبأ مذبحه القديس برتولوميو التي أطلق شارل وحوشها على الهيجونوت طرب له وشدت النكير على الأراضي المنخفضة. فحرض على اغتيال وليم أورنج ودفع أجر الجريمة، وحاول شراء صداقة هنري نافر؛ ولكن هنري لم يكن ممن تشتري صداقتهم بالمال. ومن ثم اشترى فليب آل جيز والحلف الكاثوليك؛ وحلم يجعل ابنته ملكة على فرنسا، وعندها تتحالف قوى اسبانيا وفرنسا فتخضعان الأراضي المنخفضة، وتنصبان ماري ستيوارت ملكة على انجلترا، ونقطعان دابر البروتستنتية من كل مكان. فلما أرسلت اليزابث المعونة لهولندا (1585)؛ وشيعت ماري إلى آخرتها (1587)، وبعد سنين صبر فيها فليب وصابر على الغارات التي شنها قراصنة اليزابث على سفن اسبانيا وشاطئها وكنوزها. جنح آخر الأمر إلى الحرب، فخرّب مالية حكومته ليمول الأرمادا. وساندت أسبانيا كلها هذا الجهد وصلت من أجل النصر، شاعرة بأن مصير الأسطول سيفصل في تاريخ أوروبا.

صفحة رقم : 9787

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فخامة أسبانيا وانحطاطها -> فيليب الثاني

وتجلد فليب في ظاهر الأمر لذل الكارثة و عارها، وقال انه أرسل سفنه لتقاتل البشر لا الأنواء. ولكن الهزيمة حطمت روحه وكادت تحطم أسبانيا، هذا برغم أنه عاش بعدها وقاتل عشر سنوات أخرى، وأن أسبانيا استغرقت قرناً حتى سلمت بخرابها. إنه لم يستطع أن يصدق أن الله تحلى عنه بعد ثلاثين عاماً من الكفاح في سبيل الإيمان، ولكن لا بد أن

هذه الحقيقة الكنيسة طالعتها في النهاية، وهي أنه بعد أن أفر شعبه بالضرائب، أخفق في كل شيء إلا في اكتسابه البرتغال بمحض الصدفة، وردة الترك مؤقتاً-كانوا قد استولوا من جديد على تونس وأخذوا يستردون سطوتهم. لقد كان هنري الرابع يسير إلى النصر في فرنسا؛ والأراضي المنخفضة في ثورة لا سبيل إلى التصالح فيها؛ وأبي البابا أن يتحمل فلسا من نفقات الأرمادا؛ وقبضت البروتستنتية على ناصية الشمال الغني، واخذت تهيمن على البحار ومن ثم على أمريكا والشرق بعد قليل، أما تلك السليطة اليزابث، فهي متربعة على عرشها المنيع وسط المياه ظافرة بعد أن تفوقت على كل ملوك عصرها فطنة ودهاء.

واصطلح على الملك الثكل، والعزلة، والمرض-اصطلحت عليه كلها لتذله بعد عز وتوهن من اعتداده بنفسه. كانت زوجته الرابعة قد ماتت عام 1580، ولم يبق على قيد الحياة من الأطفال الثلاثة الذين أنجبتهم غير غلام قليل الكفاية لا بد أن يورث أول امبراطورية لا تغرب الشمس فوق رقعتها. ان الشعب ما زال يحمل لفليب الاجلال برغم أخطائه وهزائمه، فهو مقتنع بأنه ناضل من أجل قضية مقدسة، وأنه لعب لعبة القوة دون أن يفوق أعداءه تحللاً من مبادئ الشرف، وهو صابر في غير لوم على الشقاء الذي أوقعته فيه سياساته الاقتصادية ونظام ضرائبه وهزائمه. وقد اصاب أطرافه بالألام المبرحة في شيخوخته، وأعجزه بالشلل، ذلك النقرس الذي كان آخر تركة ورثها عن أبيه، وخيمت على احدى عينيه سحابة من السد، وشوهت جلده القرح المنفرة.

صفحة رقم : 9788

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فخامة أسبانيا وانحطاطها -> فيليب الثاني

وفي يونيو 1598 حمل على محفة إلى الاسكوريال، إلى غرفته الأثيرة التي يستطيع خلال نافذتها أن يتطلع إلى مذبح الكنيسة المرتفع. وظل ثلاثة وخمسين يوماً يبلى جسده في فراشه، محتملاً كل شيء وهو واثق أنه امتحان الإله لإيمانه، محتفظاً بذلك الإيمان إلى النهاية الرهيبة، متشبثاً بصليب لا يفتأ يلثمه مرددا الصلوات المرة بعد المرة. وأمر بالافراج عن السجناء ليكون ذلك آخر عمل من اعمال الرأفة. وأرسل في طلب ابنه، وأوصاه بالرأفة والانصاف ما دام حياً، وأمره بأن يعترف بالخاتمة المهينة التي تنتهي إليها القوة الدنيوية. ثم انتهى عذابه في 13 سبتمبر 1598.

لقد بذل قصاره بعقل غلت التربية في تقييده، عقل أضيق من أن يسع امبراطوريته، وأصلب من أن يطوع نفسه لتبعاته المنوعة. وليس في مقدورنا أن نعرف هل كان إيمانه زائفاً؛ وكل ما نشعر به أنه إيمان متعصب قاس ككل إيمان في عصره تقريباً، وأنه أظلم عقله وشعبه بينما واسب فقر هذا الشعب وسند كبرياء الملك. ولكن فيليب لم يكن الغول الذي صورته أقلام خصومه المشبوبة. فقد كان- على قدر ما أوتى من بصيرة- لا يقل في عدله وسماحته عن أي حاكم في قرنه إلا هنري الرابع. وكان مهذباً في حياته الزوجية، محباً لأسرته محبوباً منها، صابراً على الاستقزاز، شجاعاً في الشدة، مخلصاً في الجهد. لقد دفع إلى التمام ثمن تركته الغنية المهلكة.

صفحة رقم : 9789

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فخامة أسبانيا وانحطاطها -> فيليب الثالث

أما وريثه فكان فيليباً آخر مختلف كل الاختلاف عن أبيه. لقد حزن أبوه حين رأى تراخي الفتى وقصر نظره قائلاً «أن الله الذي رزقني هذا الملك العريض لم يرزقني ولدا يصلح لحكمه(37)» كان فيليب الثالث، الذي بلغ العشرين الآن، أتقى حتى من أبيه، فترددت الشائعات في رميته بأي خطيئة ولو عارضة. ولما كان خجولاً وديعاً، شديد العجز عن القيادة، فقد أسلم كل سلطات الحكم ومتطلباته إلى فرانتشيسكو جومز دي ساندوفال أي روجاس، دوق ليرما.

صفحة رقم : 9790

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فخامة أسبانيا وانحطاطها -> فيليب الثالث

أما الدوق فكان فيه شيء من البر بالناس، لأنه رق كل أقرابه تقريباً في المناصب الدسمة، ولم يغفل ذاته في بره، ففي العشرين سنة التي رأس فيها الوزارة جمع ثروة طائلة قدرها الشعب المغيظ بمبلغ 44.000.000 دوكاتية(38)، وهو رقم يستحيل تصديقه. وقد وفر للخزانة من المال ما يكفي لتجهيز أسطولين ضخمين ضد إنجلترا (1599-1601)، ولكن كليهما حطمته الأنواء العالية. وكان لليرما من الحصافة ما جعله يرحب بعروض السلام التي قدمها جيمس الأول، وهكذا أبرمت أسبانيا وإنجلترا صلح لندن (1604) بعد تسعة عشر عاماً من الحرب، أما الحرب في الأراضي المنخفضة فاستمرت. واستنزفت الذهب من أسبانيا بأسرع من وصوله إليها من أمريكا، ووجد ليرما أنه ليس في طاقته أن يشبع من موارد بلد مرهق حاجات قواده المعوقين، وجيبه الخاص. وإذا أدرك أنه لم يعد هناك جدوى من بذل مزيد من الجهود لرفض منح «الأقاليم المتحدة» استقلالها، فقد وقع معها هدنة تمتد اثني عشر عاماً (1609). ولكن مشروعه التالي كان لا يقل تكلفة عن الحرب. كان مسقط رأسه بلنسية، حيث يعيش ثلاثون الفا من اسر المغاربة، وكان فيه من النقوى ما يكفي لتبغيضه في هؤلاء المزارعين والصناع الذين كان لجدهم واقتصادهم الفضل في احتفاظهم باليسر وسط فقر المسيحيين المستكبر العاجز. وكان يعلم أن هؤلاء المسلمين المنتصرين قد احتفظوا- بدافع من سخطهم لاضطهاد فيليب الثاني لهم- باتصالات خائنة مع مسلمي أفريقيا وتركيا، ومع هنري الرابع ملك فرنسا، الذي أمل ان يفجر الثورات في أسبانيا في الوقت المناسب(39). ورأى أنه ليس من الوطنية في شيء أن يرف المغاربة الخمر ويزهدوا في أكل اللحم، فنتيجة هذا أن يقع عبء الضرائب المفروضة على هذه السلع، كله تقريباً. على كواهل المسيحيين من الأسبان. وأعرب سرفانتس عن الخوف من أن هؤلاء المغاربة الذين ارتفعت نسبة المواليد فيهم عنها في «المسيحيين القدامى» لندرة العزوبة عندهم، سيسودون

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فخامة أسبانيا وانحطاطها -> فيليب الثالث

أسبانيا عما قليل (40). وقدّم خوان دي ريبيرا رئيس أساقفة بلسنية المذكرات إلى فيليب الثالث (1602) يحضه فيها على طرد جميع المغاربة الذين تزيد أعمارهم على السابعة، وقال في تفسيره للكوارث التي نزلت بأسبانيا، بما فيها تدمير الأرمادا، إنها عقوبات أنزلها الإله لإيوائها الكفار، فهو لأء المسيحيون المزيّفون يجب ترحيلهم، أو إرسالهم لسفن العبيد، أو شحنهم بالمراكب إلى أمريكا ليشتغلوا عبيدا في المناجم (41). وبرغم تحذيرات البابا، وبرغم احتجاجات ملك الأراضي الذين كانوا ينتفعون من مستأجريهم المغاربة، أصدر ليرما (1609) مرسوماً أمر به جميع مسلمي إقليم بلسنية - مع بعض الاستثناءات - بأن يستقلوا خلال ثلاثة أيام مراكب أعدت لهم لينقلوا إلى أفريقيا، غير حاملين معهم من المتاع أكثر مما تطيقه ظهورهم. وتكررت الآن المناظر التي رافقت طرد اليهود قبل 117 عاماً. وأكرهت الأسر البائسة على بيع أملاكها بخسائر فادحة، وساروا إلى الموانئ يتعثرون في شقائهم، وسرق الكثيرون منهم، وقتل البعض، في طريقهم إلى السفن أو وهم على ظهورها. فلما وصلوا إلى أفريقيا تهلّلوا لبلوغهم أرضاً مسلمة، ولكن ثلثيهم هلكوا جوعاً أو قتلوا باعتبارهم مسيحيين (42). وفي شتاء 1609 - 10 أجلت حركات طرد أخرى من بقى من المغاربة في غير بلسنية، وهكذا نزعّت أملاك 400.000 من أكثر أهل أسبانيا إنتاجاً وأقصوا عن البلاد. وكان هذا في أعين الشعب أمجد منجزات الحكم، وتطلع الأسباب السذج إلى عهد أكثر رخاء، بعد أن استرضوا الإله بتخليص أسبانيا من الكفار. واعتبطت الحاشية بالحصيلة التي تجمعت من مصادرة أملاك المغاربة، فكان نصيب ليرما منها 250.000 دوكانية، ونصيب ابنه 100.000، ونصيب ابنته وصهره 150.000 (43).

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فخامة أسبانيا وانحطاطها -> فيليب الثالث

وما حلت سنة 1618 حتى كان جشع ليرما وإهماله، وإسراف الملك وحاشيته، وفساد الموظفين، وتمزق الاقتصاد بخروج المغاربة، قد هبط بأسبانيا إلى درك نهب حتى هذا الملك الخامل إلى ضرورة التغيير. وفي فورة من فورات العزيمة طرد ليرما (1618)، ولكن ليقل ابنه - الدوق أو سيدياً - رئيساً لوزرائه. واعتزل ليرما في لباقة، وتقبل قبعة الكرديالية وعاش سبع سنين آخر رافلا في حلل لا تقوى والثراء. وفي عام 1621 أنذر مجلس قشنتالة الملك بأن ملكه «في طريقه إلى الإفلاس والدمار لفداحة الأعباء والضرائب والرسوم» (44)، وتوسل إليه أن يعتدل في نفقاته. فتقبل النصيحة ولكنه مضى يسلك مسلكاً ملكياً مترف الجهاز والصيانة. في هذه السنة بعينها مات مخلفاً لولده ملكاً عريضاً لا حول له ولا قوة، وحكومة فاسدة لا كفاية فيها، وشعباً هوى إلى درك الفاقة والتسول والسرقة، وطبقة استتكتفت من أن تؤدي ضرائبها، وكنيسة خنقت فكر الشعب وحطمت ارادته وأحالت خرافاته أكداً من الذهب.

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فخامة أسبانيا وانحطاطها -> فيليب الرابع

4- فيليب الرابع

1621 - 1665

خالف الولد أباه في كل شيء إلا الإسراف. ونحن نعرفه ظاهراً من الصور الكثيرة التي رسمها له فيلاسكويز، ففي متحف المتروبوليتان للفنون بنيويورك يطالعنا وهو بعد في التاسعة عشرة (1624)، فتى وسيماً أشقر الشعر متفتحاً للحياة، وفي متحف الصور الأهلي بلندن نراه مرحباً واثقاً بنفسه في السابعة والعشرين، ثم بديناً وقوراً في الخمسين، وفي البرادو نراه في خمس مراحل بين البهاء والانحلال، كذلك نرى صورة في فلورنسة وتورين، وفيينا، وسنسناتي - لا بد أن هذا الرجل أنفق نصف حياته في مرسوم فيلاسكويز. ولكن هذه اللوحات لا تكشف إلا عن ملامحه الرسمية، فهو لم يكن في حقيقته بهذه الرزانة والكبرياء، وقد تكون أكثر انصافاً في تصويره إذا تأملنا أطفاله في لوحات في لوحات فيلاسكويز، وأغلب الظن أن أحبهم حباً يفوق العقل كما نحب أطفالنا. كان في صميمه رجلاً

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فخامة أسبانيا وانحطاطها -> فيليب الرابع

لطيفاً، كريماً مع الفنانين والمؤلفين والنساء؛ بل نصف قديس كأبيه؛ بل مستمتعاً بالطعام، والجنس؛ والتمثيلات، والصور؛ وحياة البلاط، والصيد، عازماً على أن ينهل من الحياة ما استطاع حتى في بلد محتضر كأسبانيا. ولعل استنابته الخالصة للحياة هي صاحبة الفضل في ازدهار الشعر والدراما؛ والتصوير والنحت، في عهده ازدهارا لم تشهد اسبانيا له نظيراً من قبل ولا من بعد. كان إذا بدت لذاته مشتتة في فوضاها استكثر من الصلوات؛ واعتمد على نياته الطبية في أن تعبد له الطريق إلى السماء. أنجب من الأطفال غير الشرعيين اثنين وثلاثين، أعترف منهم بثمانية(45). وإذا لم يكن في وقته منسع لثئون الحكم، فقد فوض بسلطاته وواجباته رجلاً من أبرز الشخصيات في دبلوماسية القرن السابع عشر.

هذا الرجل-الدوق جاسبار دي جوزمان، كونت أوليفاريس- جرت حياته موازية ومعارضة لحياة ريشليو. فقد لعب هذا الكونت العظيم مع الكردينال الداهية، طوال واحد وعشرين عاما (1621-42)، لعبة دامية من الذكاء والحرب للتسيّد على أوربا. وقد أطلعنا فيلاسكويز على شخصية أوليفارس- رجل خلا من الخوف والملاحة، فيه كل عدوان القوة، تلتف شواربه الكبيرة المشدبة كأنها سيف معقوف رهيب، وعباءات منصبه وأزمته وسلسله ومفاتيحه تنطق بالسلطة(46). أما العيوب التي شابت خلقه، وهي الغطرسة والنزق والعناد الشديد؛ وعكوفه الشديد على خدمة أسبانيا وأمانته الصريحة في بيئة فاسدة، واحتقاره للذات الدنيا إلا ان تكون سبيلا لإرباك الملك، وقصده في الطعام وبساطة حياته الخاصة؛ ومساندته الحارة للآداب والفنون. وقد ناضل مخلصا للتخفيف من الرذائل، ووقف الرشوة، ولرد الأموال المختلصة إلى الخزانة؛ وللتقليل من نفقات بلاط الملك؛ ولفرض الاقتصاد والاعتدال

صفحة رقم : 9795

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فخامة أسبانيا وانحطاطها -> فيليب الرابع

في اللباس والأثاث، وحتى للحد من قسوة محكمة التفتيش. اضطلع بكل أعباء الحكم، والسياسة، والدبلوماسية، والحرب، فكان يبدأ مهام يومه قبل طلوع الفجر ويواصلها حتى بعد أن يخرب إعياء. وكانت اللعنة التي ابتلي بها ما عمد إليه ريشليو-بمثال هذا التفاني-من استنزاف لقوة الهايسبورج في النمسا وأسبانيا في بطئ، ودهاء وعناد. وقد اقتضى لقاء هذا التحدي الرهيب وجود الجيوش في قتلونيا والبرتغال وفرنسا وناپلي ومانتوا والممرات الفالنتينية والأراضي المنخفضة، وفي بالوعة حرب الثلاثين سنة الشاسعة الدامية. ولكن الجيوش تحتاج إلى المال، والمال يتطلب فرض الضرائب. لذلك رفع «القبالة» أي ضريبة البيوع إلى 14%، فاخترقت التجارة؛ وكان الجباة يختلسون ثلثي الضرائب قبل أن يصل باقيها إلى الخزانة. وهكذا أو هن أوليفاريس، بعزيمة وطنية، اقتصاد أسبانيا لينقذ سطوتها السياسية. وليس حتما أن نتبع كل تحركات لعبة الشطرنج الدامية هذه، فهي لا تضيف شيئا إلى معرفتنا أو تقديرنا للبشرية. لقد كانت صراعا بين القوة لا بين المبادئ، صراعا يغفل فيه كل طرف مذهبه في سبيل الانتصار العسكري، فنرى ريشليو يمول الجيش البروتستنتية في ألمانيا ضد النمسا الكاثوليكية: وأوليفاريس يبعث 300.000 دوكانتية كل سنة لدوق روهان ليطيل أمد ثورة الهيجونوت في فرنسا(47). وتحطمت اسبانيا في النهاية، ففضى الهولنديون على قواتها في البحر في معركة دوانز(1639). وقضى الفرنسيون على قواتها في البر في روسيون (1642) وروكروا (1643) وانتهزت البرتغال وقاتلونيا فرصة ضعف أسبانيا فانتزعتا حريتهما (1640). وخاضت جمهورية قاتلونيا الحرب ضد قشتالة مدى تسعة عشر عاما بمعونة فرنسا. وأخيرا طرد الملك اللطيف وزيره على كره بعد أن كان محل ثقته خلال عشرات الكوارث (1643). وفر أوليفارس من مدريد المناوئة إلى منفاه الاختياري في تورو البعيدة، وهناك مات مخبولا بعد سنتين.

صفحة رقم : 9796

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فخامة أسبانيا وانحطاطها -> فيليب الرابع

واضطلع فليب بالمهمة شخصياً إلى حين. فخفض نفقاته وكرس نفسه مخلصاً للحكم. غير أن أسباب اضمحلال أسبانيا كانت فوق ادراكه أو سيطرته. واستمرت الحرب، ولم تخفف الضرائب، وتناقص الانتاج، وتقلص السكان. وفي صلح وستفاليا (1648) كانت أسبانيا عاجزة، فاضطرت إلى النزول عن الاستقلال للأقاليم المتحدة، بعد حرب عقيمة امتدت قرابة قرن من الزمان. وختم صلح البرانس (1659) بخاتمة امتدت قرابة قرن من الزمان. وختم صلح البرانس (1659) بخاتمة مصدقا على السيادة الفرنسية في أوروبا. وسط هذه النكبات ماتت ايزابيللا البوربوننية زوجة فليب الوفية الصابرة (1644)، ولحق بها بعد عامين ولدها الوحيد الباقي على قيد الحياة، دون بالنازار كارلوس، الذي صوره فيلاسكويز، بأسلوب خلاب. ولم يبق للملك غير طفلة شرعية واحدة هي ماريا تريزا، التي زوجها للويس الرابع عشر. وإذ كان فليب تواقاً لوريث لملكه فقد تزوج (1649) وهو في الرابعة والأربعين ابنة أخ لا تتجاوز الرابعة عشر ربيعاً، هي ماريانا النمساوية التي كانت مخطوبة لبالتازار، فمنحته ولدين: فليب ابروسير الذي مات في الرابعة، وولدا آخر أصبح فيما بعد كارلوس سيجوندو (شارل الثاني). أما الملك المرهق، الذي هد قواه حصى المرارة، وأوهنه نزع البواسير، ولم يكف عن مطاردته الرهبان المتجرون بالسحر، فقد استسلم للموت (1665) تعزیه فكرة وجود وريث له، ولكنه اعفي من العلم بأن ولده نصف الأبله هذا سيوصى بملك أسبانيا كله لفرنسا.

صفحة رقم : 9797

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فخامة أسبانيا وانحطاطها -> البرتغال

5- البرتغال

1668-1557

تميزت هذه السنوات بثلاثة أحداث في البرتغال. فقدت استقلالها، ثم استردته، وكتب كامونش «اللوسيد».

لقد شاركت أسبانيا نشوة وشراسة العقيدة، ثم سبقتها إلى الاضمحلال. وكان من أثر سرعة تطور الاستعماري أنها استنزفت وراء البحار أكثر ابنائها مغامرة، وأهملت الزراعة أو ترك أمرها للعبيد

صفحة رقم : 9798

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فخامة أسبانيا وانحطاطها -> البرتغال

الخائري الهمة، وفاحت في لشبونة رائحة المرتشين، والتجار الجشعين، والعمال المفلسين، وكلهم يعيش في النهاية على الاستغلال الامبريالي أو التجارة الخارجية. واقترح الملك الشاب سباستيان، الذي ألهمه اليسوعيون الحماسة الدينية، على ابن عمته فليب الثاني الاشتراك في فتح المغرب وتنصيرها. ولكن فليب تردد لكثرة شواغله، فاقترح سباستيان أن يضطلع بالمغامرة منفردا، وحذره فليب من قصور موارد البرتغال عن انقاذ هذه الحملة، فلما أصر سباستيان قال فليب لمجلسه، «لو كسب الحرب اصبح لنا صهرا مفلحا، ولو خسرها لى الينا ملك حسن(48)» و غزا سباستيان المغرب فغلب على أمره وقتل (1578) في معركة القصر الكبير. ولم يعقب سباستيان وريثا لأنه كان أعزب وفيأ لعزوبته، فولى العرش عمه الأكبر الكردينال هنري، ولكن هنري نفسه مات دون عقب عام 1280، فانتهت بذلك أسرة أفيزي التي حكمت البرتغال منذ عام 1385. هنا واتت فليب الفرصة التي ترقبها. وكان هو و فيليبرت ايمانويل أمير سافوا الوريثين المباشرين للعرش الخالي باعتبارهما حفيدي مانويل ملك البرتغال. واعترف مجلس لشبونة بفليب وريثا، وقاوم بعض المطالبين بالعرش من منافسيه بدخوله، ولكن ألفا الجبار انتصر عليهم، وفي عام 1581 دخل فليب الثاني لشبونة باسم فليب الأول ملك البرتغال. وحاول بالمجاملات والرشا ان يكسب صداقة الأمة. فنهى جيشه عن نهب الريف، وشنق الدوق ألفا من جنوده جزاء جرائم كهذه عددا كبيرا خشي معه نقصا في الحبال، ووعد فليب بابقاء الأملاك البرتغالية في يد حكام من البرتغال، وبعدم تعيين أي اسباني في منصب بالبرتغال، وبصون امتيازات الشعب وحرياته. وأوقت أسبانيا بهذه العهود مادام فليب حيا. وهكذا ورث فليب بسهولة مذهلة البحرية البرتغالية ومستعمرات البرتغال في أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية. وزال خط الحدود القديم الذي وسمه

صفحة رقم : 9799

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فخامة أسبانيا وانحطاطها -> البرتغال

البابا ليفصل الممتلكات الاسبانية عن البرتغالية، واستعد أقوى ملوك أوروبا، الذي ازداد الآن قوة على قوة لتدمير نفسه بغزو إنجلترا.

وبينما كانت إمبراطورية البرتغال توول إلى أسبانيا والهلنديين، كان اعظم شعرائها يتغنى بأمجاد فتوحها. هنا أيضا تقوم حواجز القومية واللغة سدا منيعا امام رغبتنا في الفهم. فأنى لقوم لم يربوا على التاريخ البرتغال، ول أحسوا بمعنى الكلام البرتغالي وموسيقاه، أن ينصفوا لويز فاز دي كامؤيز - المعروف لنا باسم كامؤنش ويوفوه حقه من التقدير.

لقد عاش أغنيته قبل أن يكتبها، كان أحد أجداده جندياً شاعراً مثله، وجدته قريبة لفاسكودا جاما بطل اللوسيد، أما أبوه، القبطان الفقير، فقد تحطمت سفينته قرب جنوه ومات هناك عقب مولد لويز في لشبونة أو كومبريا. والراجح أن الفتى درس في الجامعة، لأن قصيدته تصدح بأصداء كاتلوس وفيرجل وهوراس وأوفيد. وبدأت تجربته العاطفية في إحدى الكنائس، في لحظة تعبد، إذ تراعت له حسناء «لها وجه ناصع البياض كالثلج، وشعر في صفرة الذهب»، فتحرك فيه هانق الشعر. ولابد أن بعض شعره ساء القصر، إذ أنه نفي إلى قرية على أعلى نهر تاجه، وهناك حلم بملحمة «تزيد البرتغال فخرأ، وتثير حسد أز مير مسقط رأس هومر»(49). ولكن الحكومة التي لم تقدر شعره أرسلته إلى المنفى، أو إلى الخدمة العسكرية في سبته، وهناك فقد احدى عينيه في معركة أو عراك، ولما عاد إلى لشبونة دافع عن بعض أصحابه في مشاجرة، وطعن رجلاً من الحاشية، فزجوه في السجن ثمانية أشهر، ثم أفرج عنه في أغلب الظن بعد

تعهد بالانخراط في سلك الجندية خارج البرتغال. وفي 26 مارس 1553 أبحر إلى الهند جندياً عادياً على سفينة أمير الأسطول فرناو ألفاريس كابرال، وكان يومها في التاسعة والعشرين من عمره. واحتمل ضجر الليالي الرطبة في الرحلة التي استغرقت نصف عام ينظم

صفحة رقم : 9800

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فخامة أسبانيا وانحطاطها -> البرتغال

القسمين الأولين من اللوسباد. وفي سبتمبر رست السفينة على جوا، وهي «سدوم» البرتغالية في الهند. واشترك في حملات كثيرة على ساحل ملبار وتجاه شواطئ جزيرة العرب، وفي ممبسة، وفي جزر الهند الشرقية، في مكاو، «سدوم» البرتغالية في الصين، وهو يصف نفسه ملوحاً بالسيف في يد، وبالقلم في الأخرى، ولقبه رفاقه بـ «ترنكافورتيس» -أي المتفاخر الطائش- ولعلمهم احترموا سيفه أكثر من قلمه. وفي مكاو إلى اليوم غار يرى للزائرين على أنه المكان الذي كتب فيه كامونش بعض قصيدته. وتروي قصة غير مؤكدة أنه اعيد من مكاو في الأغلال بعد أن قبض عليه لأسباب لا نعرفها. وتذكر قصة أخرى (جرده من أغلاله) كيف تحطمت سفينته تجاه ساحل كمبوديا فسبح لوزير إلى الشاطئ وملحمته بين أسنانه (50). على أنه فقد في غرق السفينة خليلته الصينية المحبوبة. وبعد أشهر من الشقاء وجد طريقه إلى جوا، ولكنه طرح في السجن هناك. وأفرج عنه، ثم ردّ إلى السجن بسبب الدين هذه المرة. وأطلق حاكم صديق سراحه، واستطاع الشاعر أن يستمتع برهة وجيزة بالحياة وبشتى الخيلات من كل لون. وفي عام 1567 اقترض بعض المال واستقل مركباً إلى البرتغال، ونفذت نقوده في موزمبيق، فتسكع في الفاقة عامين. ودفع بعض الأصدقاء العابرين ديونه واجرة سفره وعادوا به لشبونة آخر المطاف (1670)، وهو لا يملك من حطام الدنيا غير قصيدته. وأجري عليه الملك سباستيان معاشاً متواضعاً. وأخيراً وصلت القصيدة إلى المطبعة (1572)، وأتيح لكامونش أن يعيش في الفقر مع السلامة ثماني سنوات. ومات في لشبونة عام 1580، ودفن مع غيره من ضحايا الطاعون في مقبرة مشتركة. وتحتفل البرتغال بذكراه في 10 يونيو، وهو يوم عطلة تذكارية، وتعزز بقصيدته «أوس لوسبادس» ملحمة قومية، وعنوانها معناه «البرتغاليون» وقد اخذ كامونش لفظ لوسيا من الاسم الروماني القديم للجزء الغربي من اسبانيا وهو لوزيتانيا.

صفحة رقم : 9801

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فخامة أسبانيا وانحطاطها -> البرتغال

أما القصة الكبيرة التلايف فتدور حول رحلة فاسكو داجاما التاريخية (1497-99) من البرتغال إلى الهند دورانا حول راس الرجاء الصالح. وقد استهلها الشاعر بدعاء للملك سباستيان و «حوريات نهر تاجه». ثم تمضي الفضة مع أسطول داجاما صعدا على الشاطئ الشرقي لأفريقيا. ويرى الشاعر لزاماً عليه أن يقلد هومر وفيرجل، فترا، يصور

اجتماعاً للأرباب يتناقشون فيه حول البعث، وهل يسمحون لها بالوصول إلى الهند، أما باخوس فيقول لا، ويؤلب مسلمي موزمبيق ليهاجموا البرتغال، الذين يرسون على البر بحثاً عن الماء. وأما فينوس فتنتشف للملاحين عند جوبيتر. ويرد المغاربة على اعقابهم، ويأمر جوبيتر داجاما بالمضي قدماً. ويرسو الأسطول على شاطئ كينيا فيستقبله الأهالي بالترحاب. ويسلك الملك الوطني وفق خطة الشاعر، فيطلب إلى فاسكو أن يقص عليه تاريخ البرتغال. وبعد لأي يستجيب أمير الحبر للطلب، قيروي ماساة اينيس دي كاسترو، ويصف معركة الجبروتة الحاسمة (1385)، حيث انتزع البرتغال أولاً حريتهم من اسبانيا، ويختم بإقلاع بعثته هو من لشبونة. وبينما يعبر هؤلاء المغامرون الجدد المحيط الهندي يتلبهم باخوس ونبتون بعاصفة هوجاء، وهنا يرى الشاعر الذي جاز يمثل هذه العاصفة، متجلباً في وصف مثير. ولكن فينوس تهدئ ثائرة الأمواج، ويصل الأسطول ظافراً إلى كاليكوت. وفي رحلة العودة تعد فينوس وابنها كيويبيد وليمة للبحارة الذين نال منهم التعب، فتخرج بأمرها «ناريادات» حسان من البحر، يكسبن موائد القصر بأطياب الطعام والزهر، ويذهبن تعب البحارة بالطعام والشراب والحب: «أي فُبل جائعة تلك التي بودلت في الغاية! وأي صوت رقيق علا بالشكوى الحنون! أي عناق لذيد وكم من طبع حين غضوب تحول، تحولا لطيفاً بفضل هذا اللهو المرح! لقد ظلوا من مطلع الفجر حتى

صفحة رقم : 9802

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فخامة أسبانيا وانحطاطها -> البرتغال

الظهيرة ينهلون من هذه المتع التي أحجبت فينوس فيها، والتي يؤثر الرجال أرتشافها على ذمها، بل يؤثرن دم الذين لا يستطيعون تذوقها(51)». ومخافة أن يشكو بعض البرتغاليين من أن في هذه الأبيات إهانة لمبدأ الزواج بامرأة واحدة أكد لنا كامونش أن هذا الغرام ليس إلا رمزاً، وأن الحوريات «لسن إلا جوائز... ترفع بها الحياة وتهذب»(53) أيا كان الأمر، فإن البحارة يتعثرون رمزيا عاندين إلى سفنهم، ويجد الأسطول طريقه عوداً إلى لشبونة. وتختم القصيدة بتوسل إلى الملك أن يحسن جزاء الكفريات أينما كانت، وليس اقلها جدارة بالمكافأة هذه الأغنية الوطنية. ويستطيع القارئ الاجنبي، ولو خلال ضباب الترجمة، أن يشعر بما في هذه القصيدة الرائعة من موسيقى رقراق ونشوات غنائية، وبحس بالدم الدافئ الذي يجري في عروق جندي شاعر ينقل لنا صلابة البرتغاليين وتاريخهم الحافل بالمغامرات في أيام التوسع تلك. ويروى أن تاسو قال إن كامونش هو الشاعر المعاصر الوحيد الذي لا يقيس نفسه به قياس بالمطمئن الواثق؛ وقد فضل لوبي دي فيجا القصيدة على الإلياذة والأنبياء، يوم لم يكن بين الأسبانية والبرتغالية ما بينهما الآن من بون شاسع(53). واليوم تعد القصيدة رباط وحدة، وراية فخر ورجاء، أينما نطق الناطقون بلغة كامونش-في لشبونة الجميلة، وفي جوا ومكاو المنحطتين، وفي البرازيل النشيطة، المتفتحة، الرخية. وروى أن كامونش قال حين نمى إليه استيلاء فليب على البرتغال، وكانت هذه آخر كلماته قبل أن يلفظ انفاسه الأخيرة «لقد أحببت وطني حبا يجعلني أموت معه(54). لقد سارت أمور هذا الوطن الأسير سيراً لا بأس به في حياة فليب، ولكن خلفاءه حنثوا بعهوده. واقترح

صفحة رقم : 9803

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فخامة أسبانيا وانحطاطها -> البرتغال

أوليفارس توحيد الأمتين واللغتين، واستولت أسبانيا على معظم المكاسب التي غلتها مستعمرات البرتغال وتجارها، أما الإنجليز والهولنديون، الذين كانوا في حرب مع أسبانيا، فقد أسروا البرتغاليين، كما أسروا الأسبان، أو نهبوا ممتلكاتهم وأسواقهم وأساطيلهم. وملاً الأسبان المناصب البرتغالية، وملاً الأسبان الكراسي الدينية البرتغالية، وألقت محكمة التفتيش حجاباً كثيفاً على الأدب والفكر البرتغاليين. وكان سخط الشعب يزداد كلما هبط الدخل القومي، حتى انتهى الأمر بأن قاد الأشراف والأكليروس الأمة المحنقة إلى الثورة. وأعلن الوطنيون بتشجيع من إنجلترا وريشليو، يوحنا دوق براجانزا ملكاً على البرتغال (1640). وارسلت فرنسا والهولنديون أساطيل إلى نهر تاجه لتحمي البرتغال. وكانت الحرب الخارجية قد أرهقت أسبانيا إلى حد أعجزها عن تدبير المال أو الرجال لقمع انتفاضة جارتها، ولكن حين خفت الضغوط الأخرى عليها، جردت على الحكومة الجديدة جيشين عدتهم 35.000 مقاتل (1661). ولم يكن في طاقة البرتغال أن تحشد أكثر من 13.000 جندي، ولكن تشارلز الثاني ملك إنجلترا أرسل إلى البرتغال قوة يقودها القائد الألمعي فريديريك شومبيرج، وذلك لقاء عروس هي كاترين أميرة براجانزا، ولقاء مهر أجمل من العروس، ومعاهدة رابحة تبيح التجارة الحرة مع الموانئ البرتغالية في جميع القارات. وهزم الغزاة الأسبان في أيفورا (1663) ومونتس كارلوس (1665)، وفي عام 1668 اعترفت أسبانيا المنهوكة القوى باستقلال البرتغالز

صفحة رقم : 9804

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للأدب الأسباني -> القرن الذهبي

الفصل الحادي عشر

العصر الذهبي للأدب الأسباني

1665-1556

1- السيجلودي أورو (القرن الذهبي)

كتب سرفانتس عام 1584 يقول «ما أكثر العباقر الملهمين الذين يعيشون اليوم في وطننا اسبانيا(1) وأغلب الظن أنه هو، دون سواه الذي عرف أنه أعظمهم، ولم يكن بعد قد ألف «دون كخوته» (1604) فحين وافى هذا التاريخ فيما بعد كان «القرن الذهبي» (1560-1660) قد بلغ شأوه وتألّق بكل سنانه ومجده.

ترى ما الذي أطلق هذا التقجر الثقافي، هذا الحشد الرائع من نجوم الأدب والفن؟ لعله انتصارات أسبانيا في ميادين السياسة والاقتصاد والدين-فتح الأمريكتين واستغلالهما، وقوة أسبانيا ومكاسبها في إيطاليا، والأراضي المنخفضة، والبرتغال، والهند، والنصر على المسلمين في أسبانيا وترك في لبيانتو. ونحن لا نستطيع اليوم، لما بيننا وبين أزمان الروح الأسبانية من بعد الشقة، أن نفهم كيف أججت مخاطر هذه السنوات المثيرة وانتصاراتها حماسة الإيمان الكاثوليكي وجعلت أكثر الأسبان يفخرون بدينهم فخرهم. بأنسابهم؛ أما رقابة المطبوعات ومحكمة التفتيش اللتان قد نحسبهما خائفتين للحريات، فقد تقبلتاهما الأمة على أنهما من الاجراءات الحربية الضرورية للوحدة القومية في الحرب الصليبية ضد الإسلام. وهكذا راح العقل الأسباني، الذي حظر عليه أن يشب بعيداً عن العقيدة المقدسة، يخلق داخل حدوده المقيدة، وسط عالم رفيع من القصص والشعر والدراما والعمارة والنحت والتصوير.

صفحة رقم : 9805

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للأدب الأسباني -> القرن الذهبي

ولكنه كان إلى ذلك العصر العلماء الأمناء والمؤرخين الأجرءاء، عصر المؤلفات البارزة في اللاهوت والحكم والقانون والاقتصاد والجغرافيا والدراسات الكلاسيكية والشرقية. وفي رأي العلامة الام أن «العلم كان في عهد فليب الثاني أكثر تقدماً منه في عصر اليزابيث(2)». ولا ريب في أن التعليم كان أوفر وأعم. فقد وجد الفقراء والأغنياء على السواء طريقهم إلى الجامعات الكثيرة، وأضيف إلى هذه الفترة عشرون جامعة جديدة إلى الجامعات المشهورة، وكانت جامعة سالامانكا وحدها تضم 5856 طالباً عام 1551(3). «لا يستطيع انسان أن يزعم «أنه كابلليرو (جنتمان) ما لم يكن كذلك أديباً»(4). وفتح الملوك والوزراء والنبلاء والأخبار خزائنهم للعلماء والشعراء والفنانين والموسيقيين. على أنه كان هناك بعض النشاط في هذا التصعيد؛ ذلك أن الكنيسة شهرت سوطاً فوق رعوس المعلمين، وحرّم فليب الثاني على الشباب، حرصاً منه على الاحتفاظ للجامعات الأسبانية بملئها من الطلاب وجعل العقول الأسبانية نقية من الناحية اللاهوتية، حرم عليهم أن يدرسوا في أي جامعات أجنبية الا كواميرا وبولونيا وروما. ولعل هذا التزاوج الفكري المحصور لعب دوراً في عقم أسبانيا الثقافي بعد العصر الذهبي.

وهناك رجلان بارزان من اليسوعيين يدخلان الصورة هنا. أما أولهما، بالترار جراثيان، مدير كلية اليسوعيين في تارجونا، فقد وجد الوقت ليكتب (1650 - 53) رواية من ثلاثة مجلدات تدعى «الكرينتيكون» وصف فيها تحطيم سفينة لسيد أسباني على جزيرة القديسة هيلانة، وتعليمه للرجل المتوحش الوحيد الذي وجده هناك (أهذا مصدر لروبنسن كروزو؟)، ثم أسفارهما معا في أرجاء العالم، ونقدتهما النفاذ للحضارة الأوروبية. وقد أطرب تشاؤمهما وكرههما للنساء شوبنهاور، فوصف الكتاب بأنه «من خيرة الكتب في العالم(5)» ونفح أحد الأصدقاء

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للأدب الأسباني -> القرن
الذهبي

جرائيان بعض العملة الدولية إذ أختار من كتبه ثلاثمائة فقرة نشرها تحت هذا العنوان «الوحي لميسر، وفن الحكمة
الدينوية». وقد قام شوبنهاور بترجمة من ترجماتها الكثيرة. وإلى القارئ عينات من هذه:

"حذار من أن يكسف ضوءك ضوء السيد ... لقد

كان التفوق دائما مكروها، وكلما عظم اشتد الكره له.

وشيء من الحذر كفيل بتغطية فضائك العادية كما تخفي

حسنك باللباس المهمل(6).

إن التوسط في الكفاية يحرز بالاجتهاد تقدما أكثر مما يحزره

التفوق بدونه(7).

للحظ قواعد، فالعقلاء لا يرون الأشياء كلها وليدة

الصدفة(8).

ليس الكما في الكم بل في الكيف ...

بعض الناس يحكمون على قيمة الكتب بركبهم، وكأنها كتبت لتمرين

الأذرع(9).

فكر كالفلة، وتكلم كالكثرثة ... إن الحقيقة للفلة

... ليعتصم الحكيم بالصمت، فإذا سمح لنفسه أحيانا

بالكلام فليكن في حمى القليلين والفاهمين(10).

تعلم كيف تكون لا ... لا يكن الرفض قاطعا، فالحقيقة

تتجلى تدريجيا ... عليك بالمجاملة لتملأ به فراغ الرفض(11).

قد نتيبن نضج أمرىء من البطىء الذي يصدق به ما يسمع(12)

هناك دائما متسع من الوقت تضيف فيه كلمة، ولا وقت

لسحب كلمة(13)".

كان المؤرخون الأسبان في هذه الفترة خير المؤرخين في أوروبا. وجمع فليب في دار المحفوظات بسيمانكاس مجموعة هائلة من الأوراق الرسمية وغيرها من الوثائق، لأن «الاخباريين والمؤرخين قاصرو العلم بشئون

صفحة رقم : 9807

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للأدب الأسباني -> القرن الذهبي

الدولة، ورغبة في تقادي هذا العيب كان من المرغوب فيه جمع ما أمكن من مواد قد تكون ذات فائدة»(14). على حد قوله. وأصبحت هذه المحفوظات ذخرا للمؤرخين منذ ذلك الحين. وقد رجع جيرونيمو دي رورينا إلى آلاف الوثائق الاصلية في إعداد كتابه «حوليات مملكة أراجون» (1562 - 80)، واشتهر في أوروبا بأسرها بـ «أعظم الكتاب تدقيقا».

أما أعظم المؤرخين الأسبان قاطبة، وهو خوان دي مايانا، فقد بدأ حياته ابنا غير شرعي لكاهن في طليطلة. وإذ ترك في صباه ليدير شؤنه بنفسه، فقد شحذ ذكاه على حجر الضرورة القاسية والفقر الطاحن. وزوده اليسوعيون بتعليم صارم بفضل ما عهد فيهم دائما من سرعة في تبيين الموهبة. فلما بلغ الرابعة والعشرين أرسلوه للتدريس في كليتهم بروما، ثم إلى صقلية، ثم إلى باريس، حيث اجتذبت محاضراته عن توما الأكويني جماهير المستمعين المتحمسين. على ان صحته انهارت، فسمح له وهو في السابعة والثلاثين (1574) بالاعتكاف في بيت الطائفة اليسوعية في طليطلة، فلزمه لا يبرحه إلا نادراً طوال سنيه التسعة والأربعين الباقية من عمره. وهناك كتب رسائل هامة أثارت إحداهما ضجة دولية (كما سنرى)، ورسالة أخرى «في عملة المملكة» كانت هجوما جريئا على غش ليرما للعملة، وثالثة تركها دون نشر شرحت «الأخطاء في حكومة جمعية يسوع». وقد أفرغ أكثر جهده في الأربعين سنة الأخيرة من حياته في تأليف «كتاب في تاريخ اسبانيا» (1592) - الذي كتبه باللاتينية لينتج لكل الأوربيين المتقنين أن يعرفوا كيف ارتقت اسبانيا إلى مقام الزعامة والقوة. وقد ترجم أكثر الكتاب إلى أنقى اللهجات القشتالية يخص من الكردينال بمبو تحت عنوان «تاريخ أسبانيا» (1601)، وهو أجل المنجزات في تأليف التاريخ الرسمي الاسباني، نابض بالحياة في سرده، بديع في اسلوبه، متمكن في رسمه

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للأدب الأسباني -> القرن الذهبي

للأشخاص، جريء في أمانته - «أروع ما شهده العالم من جمع بين العرض الزمني المثير، والتاريخ الرصين(15)». وكما أن كتب الأخبار المعروضة حسب تسلسلها الزمني، تدرجت (كما نرى في مؤلفات كالتي ذكرنا) إلى كتب التاريخ بوصفه ضرباً من الأدب والفلسفة، كذلك نرى القصص الأسباني في هذا العصر ينتقل من رواية الفروسية والقصة الرعوية ليبلغ في قفزة واحدة أرفع القمم في تاريخ القصة. لقد ظلت روايات الفروسية كثيرة يقبل عليها في نهم كل أسباني من القديسة تريزا إلى سرفانتس، وربما كانت عند بعض القراء تقريباً من حدة الدين الأسباني المتسامية، لأن عقيدة هذه الروايات كانت الغرام، وولاء الفرسان لم يكن للعداء مريم بل لمن اختاروا أو هووا من النساء؛ وفي سبيل الدفاع عنهن أو تملكهن تراهم على استعداد لتكسير النصال الكثيرة وتحطيم عدد غير قليل من نواميس الله والبشر. ولكن التهافت على مثل هذه القصص كان يتناقص حين كتب سرفانتس، وكان مونتيني وخوان لويز فيفز قد سخر منها، وكان مجلس قشتالة شكاً منذ سنين طويلة (1438) من أن «كثيراً من الأذى يلحق بالرجال والفتيات والفتيات وغيرهم» بسبب هذه الروايات، وإن الكثيرين «قد اضلتهم هذه القصص عن التعليم المسيحي الصحيح(16)».

وبلغت الأمور الذروة بفضل تطور آخر، ففي عام 1553 كان كاتب مجهول الهوية قد كتب في «لاثاريللو» دي تورمس «أول قصة بأسلوب البيكارسك (أي التشرذ) الذي جعل من أحد الأوضاع الظرفاء بطلا يكفر عن فقره بالتمرد على القانون، وعن تمرده على القانون بالفكاهة الذكية، وفي عام 1569 نشر ماتيو أليمان قصة مرحة سماها «حياة المتشرد جوثمان دي الفاراتشي». وبعد خمس سنوات تناول سرفانتس هذين المزاجين -حلم الفارس الشهم الأخذ في الزوال، وحكمة رجل الشارع الممزوجة بالفكاهة، وجمع بينهما جنباً إلى جنب في أشهر القصص قاطبة وأروعها إطلافاً.

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للأدب الأسباني -> سرفانتس

في 9 أكتوبر 1547، وجرى على العادة الأسبانية بتسمية كل طفل باسم القديس الذي يحتفل بذكره في يوم ميلاده، عمد خالق دون كخوتة وسانشو بانزا باسم «ميجل دي سرفانتس» في «القلعة». وقد اضاف-وربما اضاف أبوه أيضا- اسم سافيدرا، من الأسرة القشتالية التي تزوج فيها أسلافه الغاليسيون في القرن الخامس عشر. وكان الأب طبيبا غير مرخص، ثقيل السمع قليل المال، ينتقل من بلد إلى بلد ليجبر العظام ويطبب الاصابات الخفيفة، ويبدو أن الصغير ميجل صحبه إلى بلد الوليد، ومدريد، واشبيلية. أما تعليم الصبي فلا نعرف عنه شيئا، فيلوح انه لم يحظ بتعليم عال برغم مولده في مدينة جامعية، ومن ثم لم تظهره الدراسات الكلاسيكية ولا زحمته، واضطر إلى التقاط معرفته بالحياة من العيش فيها.

وأول ما نملك من الحقائق عنه بعد سجل عماده أن معلما من مدريد نشر عام 1569 مجلدا احتوى ست قصائد بقلم «تلميذنا العزيز المحبوب» سرفانتس. وفي سبتمبر من تلك السنة قبض على المدعو ميجل دي سرفانتس بتهمة الاشتراك في مبارزة، ونفي من أسبانيا عشر سنوات يعاقب دونها بقطع يده اليمنى. وفي ديسمبر نجد فنانا ميجل يخدم في بيت كبير من رجال الكنيسة في روما. وفي 16 سبتمبر 1571 نرى ميجل هذا، ربما مدفوعا (مثل كامونش) بتفضيل الخدمة العسكرية فرارا من السجن، مبحرا من مسينا على السفينة «ماركيزا» في أسطول دون جوان النمساوي. وحين التحم الأسطول بالترك في ليبانتو كان سرفانتس مريضا بالحمى في عنبر سفينته، ولكنه وضع على رأس اثني عشر رجلا في زورق إلى جوار السفينة لأنه أصر على لعب دوره، وأصيب بثلاثة جروح من طلقات نارية، جرحين في صدره والثالث أعجز يسراه عجزا مستديما-«لنصرة الحق» على حد قوله. وأعيد إلى المستشفى بمسينا ودفعت له الحكومة

صفحة رقم : 9810

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للأدب الأسباني -> سرفانتس

الأسبانية اثنتين وثمانين دوكاتية. ثم شارك في معارك حربية أخرى- في نافارينو، وتونس، وجولينا (لاجوليت). وأخيرا سمح له بالعودة إلى أسبانيا، ولكن قرصان البربر أسروه هو وأخاه رودريجو في رحلة العودة إلى الوطن (26 سبتمبر 1575) وباعوهما في سوق الرقيق بالجزائر. واقنعت الرسائل التي حملها من دون جوان وغيره أسريه بأنه رجل ذو حيثة، فطلبوا عنه فدية كبيرة. وظل ميجل أسرا خمس سنوات مع ان أخاه أطلق سراحه في عام 1577. وحاول الهروب غير مرة. ولكنه لم يجن من محاولاته غير تشديد النكير عليه. وصرح الداوي وهو الحاكم المحلي، بأنه «إذا استطاع أن يؤمن حراسة ذلك الأسباني المعطوب النزاع فقد أمن عاصمته وعبيده وسفنه (17)» وكافحت أمه لتجمع الخمسمائة كراون التي طولب بها للافراج عنه، وضحت أخواته بمهورهن في هذا السبيل، وأخيرا (في 19 سبتمبر 1580) أفرج عنه، وبعد رحلة مضمية لحق بأسرة أمه في مدريد.

كان مملقاً عاجزاً، لذلك لم يكن أمامه من سبيل الرزق غير العودة إلى الانخراط في الجيش. وهناك من الدلائل ما يشير إلى أنه مارس الخدمة العسكرية في البرتغال والأزوره. ووقع في غرام سيدة نبيلة تصغره بثمانية عشر عاما ولا تملك غير أسمائها الكثيرة: كاتالينا دي بالاكيو سالازار إي فوزميديانو الإسكيفية. وتحت الحاح الحب والفاقة كتب سرفانتس رواية رعوية تسمى «غلاطية» باعها بمبلغ 1.336 ريالاً (668 دولاراً). وتزوجته السدة الآن (1584)، فقدم إليها ابنة غير شرعية وأقنعها بأن تربيتها كأنها ابنتها، وكانت قد ولدتها له حسناء عابرة قبل سنة (18). أما كاتالينا

نفسها فلم تنجب. وكانت تعنفه بانتظام على فقره، ولكنها ظلت وفية له فيما يبدو، وعمرت بعده، وحين ماتت طلبت ان تدفن إلى جواره.

صفحة رقم : 9811

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للأدب الأسباني -> سرفانتس

ولم تأت غلاطية بمزيد من الريالات؛ كان رعاتها مسرفين في بلاغتهم. إلا حين ينطقون بالشعر، ومع أن سرفانتس كان بنوي كتابة بقية لها، ومع أنه ظل إلى النهاية يعتبرها أروع ما كتب، فإنه لم يجد قط الوقت أو الحافز لاتمامه. ثم جرب كتابة التمثيليات طوال خمسة وعشرين عاما، فألف نحو ثلاثين منها، وكان رأيها ممتازة، وهو يؤكد لنا أنها «مثلت كلها دون ان يعرض عليه أي جزء(19)» ولكن واحدة منها لم تستهو الجماهير أو تلمس عرفا من ذهب. لذلك ارتضى وظيفة متواضعة في إدارة تموين الجيش والبحرية (1587)، وسافر بصفته هذه إلى عشرات المدن تاركا زوجته في البيت. وقد ساعد في تموين الأرمادا الجبار. وفي عام 1594 عين جابيا لغرناطة. وسجن في أشبيلية لمخالفات في حساباته، وأفرج عنه بعد شهر ثلاثه، ولكنه طرد من خدمة الحكومية. ومكث عدة سنين في فقر مدقع بأشبيلية وهو يحاول الارتزاق من قلمه. ثم قبض عليه مرة أخرى في أرجا ماريللا وهو يجوب أسبانيا. وتقول الرواية أنه في سجنه وفي بؤسه واصل تأليف كتاب من أكثر الكتب مراحا في العالم. فلما عاد إلى مدريد باع لفرانسيسكو دي روبرلز مخطوطة «حياة ومغامرات دون كخوته دي لامانشا الأشهر» فنشرت عام 1605. وهكذا، وبعد ثمانية وخمسين عاما من الكفاح، بلغ سرفانتس شاطئ التوفيق.

ورحب كل الناس- عدا النقاد- بالكتاب مهرجانا من الفكاهة والفلسفة. وتقول رواية قديمة ان فيلب الثالث «لاحظ وهو واقف يوما بشرفة قصره في مدريد طالبا بيده كتاب على ضفة مانزاناريس المقابلة. وكان الطالب يقرأ، ولكنه بين الحين والحين كان يقطع قراءته ويلطم جبينه لطمات عنيفة تصحبها حركات لا حصر لها من النشوة والطرب. وقال الملك «إن الطالب إما ان يكون مجنوناً وإما إنه يقرأ... دون كخوته(20)».

إن في هذه الصفحات الثمانمائة مأخذ كما في كل رائعة- فحبكة

صفحة رقم : 9812

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للأدب الأسباني -> سرفانتس

الرواية ليست غاية في البراعة- سلسلة من الأحداث المترابطة. تكشفها حكايات مقحمة غير متصلة بالموضوع، خلو من الخطة خلو الفارس الذي «يوصل سفره على ظهر جواده مرخيا له العنان ليمضي حيث شاء». وبعض خيوط الحبكة متروك عند أطراف مفكوكة أو شديدة التعقيد، مثل ضياع حمار سانشو، وظهوره ثانية دون تعليل. ويصبح السرد بين الحين والحين مملأ، والنحو غير دقيق، واللغة مفتقرة إلى الصقل. ويقول الجغرافيون إن جغرافية الرواية

مستحيلة. ولكن ما أهمية هذا كله؟ فكلمنا مضيئاً في القراءة مشدودين بجذب لطيف خلال المعقول وغير المعقول، ازداد عجبنا من أن سرفانتيس استطاع وسط كل شدائده أن يجمع معا مثل هذا المشهد العريض من المثالية والظرف وأن يقرب قطبي الخلق الإنساني المتباعدين في مثل هذا التراكم المنير. أما الأسلوب فهو ما ينبغي أن يكون عليه أسلوب قصة طويلة-لا سبيل مرهق من البلاغة، ولكن جدول صاف جار، يتألق هنا وهناك بعبارة حلوة، كقوله «كان له وجه كالبركة(21)» وأما القدرة على اختراع الأحداث فتمضي إلى النهاية، وأما معين أمثال سانشو فلا ينضب، وآخر قطعة من الفكاهة أو التفجع لا تقل جمالاً عن أولها. هنا، في هذا «التاريخ الجاد أعظم الجد، المجلج، الدقيق، الناعم، الفكه» على حد قول سرفانتيس، نلتقي بحياة أسبانيا وشعبها، موصوفين بحب يبقى بعد أن ينقضي عدم التحيز، وبمئات التفاصيل الصغيرة التي تخلق هذا الكل الملهم، وتقعمه بالحياة.

ويلجأ سرفانتيس إلى حيلة قديمة فيزعم لنا أن «تاريخه» مأخوذ عن مخطوطة لمؤلف عربي سماه السيد حامد بن أنجلي. وتصح المقدمة عن هدفه، وهو أن يصف في «هجو للفروسية الجوابة... سقوط ودمار ذلك الكوم البشع من روايات الفروسية... التي افتتن به أكثر الناس على نحو عجيب». وقد فعل تشوسر مثل هذا في حكايات كينتربري («شعر السر توباس»)، ورايلي في «جرجانتو»، وبولنتشي في «المورجانتني»

صفحة رقم : 9813

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للأدب الأسباني -> سرفانتيس

مادجوري»، وهزأ تيوفيلو فولنجو وغيره من شعراء التخليط بين اللاتينية واللغة القومية بالفرسان، وسخر أريوستو في أورلندو فوريزو «من أبطال الرجال والنساء. على أن سرفانتيس لا يرفض روايات الفروسية جملة، فهو ينقذ من النار بعضها، ومثل «روايته» غلاطية»ن وهو يدخل في قصته بعض مغامرات الفروسية. ونرى في نهاية القصة أن هذا الدون الفارس، بعد عشرات الهزائم والضربات المخزية، وهو بطل القصة الخفي.

وبصوره سرفانتيس سيداً ريفياً خصب الخيال، أذهلته القصص التي جمعها في مكتبته، فدجج نفسه بالسلاح من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وارتدى سترة الفارس وخرج على فرسه روزانتي ليذود عن حياض المظلومين ويصلح الفساد ويحمي العذارى والأطفال. أنه يمقت الظلم ويحلم بماض ذهبي يوم لم يكن هناك ذهب، «يوم كانت هاتان الكلمتان القتالتان» مالي» فوارق مجهولة، كل الأشياء كانت مشتركة في ذلك العصر المقدس... كله كان تألفاً واتحاداً، كله كان حياً وصدقة في الدنيا»(22). وجريا على قواعد الفروسية ثراء يكرس سلاحه، لا بل حياته، لسيدة نبيلة تدعى دولتسينيا ديل توبوزو. ومع أن عينه لم تقع عليها قط، فقد كان في وسعه ان يتصورها تجسيدا كاملاً للطهارة المحتشمة والجمال الرقيق. «نحرها مرمر، وتديها رخام، ويديها عاج. والتلج ينكسف بياضه إذا دنا من صدرها»(23) أما وقد ملأه هذا الرخام صلابة، وبعث فيه هذا الثلج دفناً، فهو ينطلق ليهاجم عالماً حفل بالشرور. وهو في هذه المعركة غير المتكافئة لا يشعر بأن أعداءه أعز منه نفراً «فأنا وحدي أعدل مائة منهم» وبينما يلزم سرفانتيس ذلك «الفارس ذا الوجه البائس» متقللاً بين الفنادق الصغيرة وطواحين الهواء، بين المصارف والقدرة والخنازير المذعورة، تنتهي به الصحبة إلى حبه قديساً كما يحبه مجنوناً، وفي كل هذه المغامرات الفاشلة والكبوات الأليمة يظل الدون المثل الحي للأدب

صفحة رقم : 9814

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للأدب الأسباني -> سرفانتس

والعطف والسماحة. وأخيرا يتغير المجذوب على يد خالقه، فيصبح فيلسوفا يتحدث حتى وهو يتردى في الوحل-حديثا عاقلا سويا، ويغفر الإساءات للعالم التي عجز عن فهمها، ثم يغيظنا من سرفانتس أنه يواصل خطبه وتحطيمه التزاما بخطته المرسومة. ثم نعطف على الفارس الذي ينفثع الوهم عن عينيه حين يؤكد له سانشو إن الدولتسنيا ديل توبوزو الوحيدة التي تعرفها بلدتها ليست سوى «خادمة متمنقة»، هي صبية بدينة، مفتولة العضل، مسترجلة، من أصل متواضع. ويجيب الفارس بحكمة ذهبية، فيقول لسانشو، «إن الأصل يشرف بالفضيلة، إنما أصل الفتى ما قد حصل» (25).

والشيء الذي يفتقر إليه الدون هو روح الفكاهة، وهو خير جوانب الفلسفة. ومن ثم يعطيه سرفانتس تابعا مرافقا أصله عامل من عمال المدينة الأقوياء، وابن من أبناء الريف، هو سانشوبانزا، ويؤمن الفارس خدماته بأن يعده بالطعام والشراب، ويحكم ولاية في الممالك التي يزعمان فتحها. فأما سانشو فرجل ذو إدراك بسيط وشهية طيبة، يظل محتفظا بسمته إلى آخر صفحة في القصة برغم إشرافه دائما على الموت جوعا، إنسان كريم النفس يحب بغلته كأنها «نفسه الثانية» ويقدر «عشرتها الحلوة»، أن ليس الفلاح الأسباني النموذجي، فهو سخي في النكتة زاهد في الوقر، إنما هو - كأبي اسباني تحرر من سعار اللاهوت-طبيب القلب محب للخير، حكيم دون ثقافة أو تعليم، وفي سبيده في دنيا العذاب هذه وسرعان ما ينتهي إلى أن الدون رجل مجنون، ولكنه هو أيضا ينتهي إلى أن يحبه، يقول في ختام القصة «لقد لازمت مولاي الطبيب وصاحبه هذه الشهور الطوال، والآن أصبحنا نحن الاثنين واحدا» (26)، وهذا حق، لأنهما ليسا سوى جانبيين لإنسانية واحدة. أما الفارس فينتهي هو أيضا إلى احترام حكمة تابعة لأنها أعمق جذورا إن لم تكن نبيلة كحكمته. ويعبر سانشو عن فلسفته بأمثال يقفو بعضها بعضا حتى لتكاد تخنق تكبيره: «إن الدجاجة

صفحة رقم : 9815

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للأدب الأسباني -> سرفانتس

والمرأة تضيعان إذا سرحنا، «بين قول المرأة نعم وقولها لا، لا أوافق على أن اضع سن دبوس، فالواحد منهما قريب جدا من الآخر»، إن الطبيب يبذل نصيحته بجسه نبض جيبك»، «كل إنسان كما صنعه الله، وكثيرا ما يكون أسوأ» (27) ولعل سرفانتس استعمل مجموعة مختارة من هذه الأمثال التي عرفها بأنها «عبارات قصيرة صيغت من خبرة طويلة» (28) ويعتذر سانشو عن هذا «الاسهال» في الحكم بأن هذه المأثورات تسد حلقة ولا بد أن تنطلق، بترتيب ورودها على خاطره. ويستسلم الدون لهذا الفيض الدافق فيقول «حقا، يبدو أنك لست أعقل مني... أشهد أنك إنسان مختلط العقل، إنني اصفح عنك، وقد فعلت» (29).

كان للتوفيق الذي أصابته «دون كخوته» الفضل في ظفر سرفانتس براعيين لأدبه، الكونت ليموس وكردينال طليطلة، أجريا عليه معاشا صغيرا يسر له أن يعول زوجته، وابنته غير الشرعية، وأخته الأرملة، وابنة أخته. وبعد شهر من نشر كتابه قبض عليه هو وكل أفراد أسرته لشبهة اشترأهم في مقتل جاسباردي ازبليتا على باب بيت سرفانتس. وأرجفت الشائعات بأن جاسبار كان يعشق ابنته، ولكن التحقيق لم يسفر عن شيء، فأفرج عنهم جميعا. ومضى سرفانتس يكتب الجزء الثاني من «دون كخوته» في غير عجلة. وفي عام 1613 قطع هذا الجهد المحبب بنشر اثنتي عشرة قصة «مثالية جديدة» جاء في مقدمتها «لقد وصفت هذه القصص بأنها مثالية، ولو تأملها القارئ لما

وجد فيها قصة لا تعطيه مثالا نافعا»(30). وأولهما قصة عصابة من اللصوص تعمل في انسجام مثالي مع رئيس شرطة اشبيلية، وقصة أخرى اسمها «ندوة الكلاب» تصف سلوك تلك المدينة واخلقها. وفي التمهيد للمجموعة صور سرفانتس نفسه بهذه العبارات:
إن الرجل الذي ترونه هنا بمحياه النسري، وشعره الكستنائي، وجبينه الهادئ الطلق، وعينه اللامعتين، وأنفه المعقوف المتناسب، ولحيته

صفحة رقم : 9816

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للأدب الأسباني -> سرفانتس

الفضية التي كانت ذهبية منذ أقل من عشرين عاما، وشاربه الكبير... ولسانه التي لا تستحق الاحصاء، وقامته الريعة؛ وكتفيه طيفي الانحاء، وبنيتة الثقيلة بعض الشيء... أجزى لنفسي أن أقول لكم إنه مؤلف «غلاطية» و «دون كخوته دلا مانشا»(31).

ولكنه فوجئ عام 1614 بظهور الجزء الثاني من «دون كخوته»، لا بقلمه، بل بقلم سارق مجهول انتحل اسم «أفيلانيدا». وقد هزأت المقدمة من جراح سرفانتس، وطربت للحيلة المتقنة التي ستقضي على جزء سرفانتس الثاني. وعجل الكاتب المنزعج بانجاز كتابه ونشره عام 1615، وابتهج القراء الأسبان حين وجدوا هذه التتمة ترقى إلى مستوى الجزء الأول خيالا وقوة ومرحا، ففي كل هذه الصفحات الخمسمائة الجديدة احتفظ الكاتب بتشويقه للقارئ حتى النهائية، وهي نهاية حزينة ان لم تكن أليمة، وبدا للبعض أن حظ الدون وتايجه العائر في بلاط الدوق، وملك شانسو على ولايته، والقصة المؤلمة التي روى فيها كيف ضرب عجزه- كل هذا من شأنه أن يجعل الجزء الثاني هو النصف الأفضل. فحين يولي سانشو حاكما على باراتاريا يتوقع الكل منه أن يتجاوز كل ما اثر عن الحكام من حماقات. ولكنا نجد على النقيض من ذلك أن طبيته وفطنته، وأن نظمه واصلاحاته البسيطة العادلة؛ وأن قراره الحكيم في دعوى هنك العرض(32)- كل هذا يخجل واقع الحكم المعاصر له. ولكن قوي البشر الذي لا يعرف رحمة ولا هوادة تطغى عليه؛ وأخيرا ترهقه ارهاقا يكرهه على التخلي عن منصبه والعودة مرتاحا إلى حياته تابعا للدون. ولا يبقى بعد ذلك إلا أن يهرب الفارس مثل هذا الهرب من دنيا الأحلام إلى دنيا الواقع. إنه يخرج في طلب المغامرات الجديدة، ولكنه يهزم هزيمة عارمة؛ ينتزع المنتصر فيها تعهدا منه بأن يمضي إلى داره ويعيش سنة في هدوء لا شأن به بالفروسية. ويوافق المحارب المتعب، ولكن تبدد أو هامه يجفف ينابيع حياته. فيرسل في طلب أصدقائه إلى جواره، ويوزع

صفحة رقم : 9817

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للأدب الأسباني -> سرفانتس

الهدايا عليهم؛ ويكتب وصيته، وينبذ الفروسية الطوافة الباحثة عن المغامرات، ويدع روحه تتحسر انحساراً شديداً. ويعود سانشو إلى أسرته؛ ويفلح حديقته قانعا قناعة رجل خير من الدنيا ما يكفي لجعله عارفاً بقدر بيته. وفي النهاية يلوح أن هذه الواقعية الطيبة تنتصر على مثالية مولاء المغرقة في الأوهام برغم سماحتها. ولكن الأمر في حقيقته غير هذا. فروح الفارس هي صاحبة الكلمة الأخيرة في القبرية التي أوصى بأن تكتب له. «إذا كنت لم أحقق جلائل الأعمال فإنني مت في سبيلها». وهكذا يتبين أن الواقعي يعيش إلى أن يدركه الموت؛ ولكن المثالي يبدأ عندها الحياة. ونشر سرفانتس في السنة التي بقيت له في أجله ثماني تمثيلات، ولم يؤيد الزمن تقديره لها، ولكنه قدر تقديراً عظيماً «لأنومانسيا» وهي قصيدة تمثيلية فيها قوة وفيها جمال، تحي ذكرى مقاومة تلك المدينة الأسبانية للحصار الروماني (133 ق.م). وكان له كفارسه وهمه الذي يسنده؛ فظن أن الأجيال القادمة ستكرمه أولاً لتمثيلياته، وتكلم في غيرة لا تليق به وإن غفرناها له عن لوبي دي فيجا الذي وفق توفيقاً هائلاً، ثم كتب وهو يحتضر تقريباً، قصة أخرى من قصصه بعد أن هزأ بأكثر الروايات الغرامية «برسيليس وسجموندا». وقبل أن يموت بأربعة أيام أهداها إلى كونت ليمور قائلاً:

«مسحت بالأمس المسحة المقدسة الأخيرة، واليوم أخط هذا الإهداء، ليس في الوقت متسع، وعذابي يزيد، والآمال تتضاءل... فوداعاً للمزاح إذن، وداعاً فكاهاتي البهيجة، وداعاً لأصدقائي المرحين، لأنني أشعر بأنني أموت، ولا أمنية لي إلا أن أراكم سعداء في الحياة الأخرى(33). ومات في 23 إبريل 1616 .

صفحة رقم : 9818

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للأدب الأسباني -> سرفانتس

كان قد تنبأ على طريقته «المميزة أن كتابه» دون كخوته «سبياع منه ثلاثون مليون نسخة. وابتسم العالم لسذاجته، ثم اشترى ثلاثين مليوناً. لقد ترجمت القصة العظيمة إلى لغات أكثر من أي كتاب باستثناء الكتاب المقدس. وفي أسبانيا يعرف أبسط القرويين من هو دون كخوته، وهو عموماً، خارج الكتاب المقدس أيضاً، «أكثر شخوص الأدب كله حياة وفتنة وشهرة(34)»، وأكثر واقعية من ألف علم من أعلام التاريخ المستكبرين. وقد استطاع سرفانتس، بجعل قصته هذه صورة لأداب السلوك، أن يرسى أساس الرواية الحديثة، ويفتح الطريق لقصاصين مثل لوساج، وفيلدنغ، وسموليت، وستيرن، ورفع هذا اللون الجديد إلى مقام الفلسفة إذ جعله يكشف عن طبائع البشر ويلقي الضوء على ما خفي من أخلاقهم.

صفحة رقم : 9819

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للأدب الأسباني -> الشعراء

إن رنين اللغة القشتالية الفحل، مثله مثل جمال الإيطالية التسكانية الرخيم، أسلم نفسه مختاراً للموسيقى والقافية، واستجابت روح الشعب للشعر بطبعها أكثر من استجابتها للنثر. وكثر الشعراء كثرة القساوسة. وفي قصيدته غار أبولو (1630) وصف لوبي دي فيجا مهرجاناً للشعر وتنافساً عليه اقتتل فيه، في خياله شعراء أسبانيا المعاصرة الثلاثمائة على اكليل الغار. وكاد إقبال الشعب على هذه المباريات الشعرية يعدل إقباله على حرق المهترئين. كانت هناك قصائد تعليمية منومة، وعظات دينية بالشعر، وروايات غرامية منظومة، وشعر رعوي، وشعر ساخر من البطولة، وقصائد قصصية، وشعر غنائي، وملاحم. ولم يوت كل المؤلفين شجاعة فرانسكو دي فيجوبروا، الذي حكم على أشعاره بالحرق لما فيها من هرطقات. أما أروع الملاحم فلمحة «لأروكانا» (1569-89)، التي تصف

صفحة رقم : 9820

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للأدب الأسباني -> الشعراء

ثورة قبيلة هندية في أمريكا الجنوبية، كتبها الونسو دي ارسيللا إي زونيجا الذي أبلى بلاءً حسناً في تلك الحرب وهو جندي أسباني. وربما كان أبداع الشعراء الغنائيين راهباً أو غسطينياً اسمه لويس بونسي دي لوين، لم يمنعه بعض الدم اليهودي الذي اختلط بدم أسلافه من تصوير أرق جوانب التقوى المسيحية، وأعجب منذ لك جمعه بين الشاعر واللاهوتي، ففي سنته الرابعة والثلاثين عين أستاذاً للإلهيات في جامعة سلامانكا، وما برح طوال حياته متعلقاً بهذه الجامعة، ومع ذلك لم تمنعه جهوده الدراسية وحياة النسك من التحليق في أجواء الشعر الغنائي. ودعته محكمة التفتيش لتحاكمه (1572) على ترجمة نشيد الإنشاد إلى شكل من أشكال الحوار الرعوي. واحتمل عذاب السجن خمس سنين، فلما أفرج عنه استأنف محاضراته في الجامعة بهذه الكلمات الساخرة «لاحظنا في آخر لقاء لنا... (35)» وقد وافق رؤسائه على أن قرض الشعر لا يليق برجل اللاهوت، فترك قصائده دون نشر، ولم تصل إلى المطبعة إلا بعد موته بأربعين سنة. وهي بالاجماع أقرب إنتاج اللغة القشتالية إلى الكمال. وكان لويس دي جونجرا وفرانسكو جومز دي كوفيديو أي فيليجاس لا يزالان يفوقانه شهرة لأنهما أثارا الضجيج بالجدل كما أثاراه بالشعر، وخلفا بعدهما مرستين متفائلتين هما الجونجورية والكونسبتية، باعتبارهما فلسفتين من فلسفات الأسلوب. وقال سرفانتس-الذي لم يبخل بكلمة ثناء على كل منافسيه فيما عدا لوبي وأفيلانيدا- في وصف جونجورا إنه «عبقري نادر، مثير، لا ثاني له» (36) «وفي هذا المقطع من قصيدة الشاعر القصصية «إلى الأرمادا» نلتقط صدى بعيداً لصيحة الكراهية والحقد:-

«إيه أيتها الجزيرة!

كنت يوماً وفيه للكنتكة، قوية البأس،

حصناً للإيمان انقلب هيكلاً بغيضاً للهرطقة،

كنت معسكراً للحرب المدربة، ومدرسة للحكمة المقدسة،

صفحة رقم : 9821

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للأدب الأسباني -> الشعراء

أتى عليك زمن كان فيه هذا الجلال جلالك

وتغنى الشعراء أول ما تغنوا ببيرق تاجك،

أما الآن فالأعشاب الكنيية التي تيننت عند بركة الجحيم

تصلح أكليلاً لك . يا وطن الكمأة

من كل أرثر، وإدور، وهنري! أين هم اليوم منك؟

أين أمهم التي سعدت يوماً بآسهم

وثبتت في قوة الإيمان؟ إيه يا جزيرة المرأة

التي تحكمك الآن، لقد قضى عليك بالعار الأبدى

أيتها الملكة البغيضة يا قاسية القلب عابسة الجبين

أيتها الفاجرة الصارمة الشرسة الداعرة،

يا امرأة تربعت على العرش، يا لعنة الفضيلة الصادقة

يا شبيهة الذئبة في كل طباعها،

لتمطر السماء على ضفائرك الكاذبة لهيبها العادل(37)

هنا قلم جدير بالتودد له. لا عجب إذن أن جعل فليب الرابع هذا الشاعر الناري (الذي أصبح الآن قسيساً) كاهنه الملكي الخاص، فربط مواهبه بالعرش. وجهد جونجورا ليكتسب نعومة الأسلوب ودقة العبارة. وأعلن الحرب على الكتابات المتعجلة ككتابة لوبي دي فيجا، وأصر على وجوب تهذيب كل بيت من الشعر وتصفيته وصقله ليكون حجراً كريماً.

ولكنه في تحمسه غالي فجعل من الفن صنعة وتكلفا، واثقل أبياته بالكثير المسرف من الاستعارات، والنعوت، والتقديمات والتأخيرات، والطباقات، حتى بز لايلي في تأنقه وفاق ماريني في تكلفه. أنظر إليه يقول في مفاتن صبية يخلب حسنها الالباب:

عيناها التوأمان اللامعتان كالشمس

تحيلان صقيع النرويج صيفا،

وتلك العجبية البيضاء، يدها الناصعة كالثلج،

صفحة رقم : 9822

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للأدب الأسباني -> الشعراء

تجعل الحبشي يبيض دهشة وذهولا،

وأنقسم شعراء الاسبان الآن معسكرات ثلاثة، ففريق اتبع الجونجورية (أو الكولتية)، وفريق اعتنق مذهب كوفيديو (الكونسبتية)، وفريق ثالث قاوم الوبايين كما فعل لوبي ذي فيجا. أما كوفيديو فقد نال في «القلعة» مراتب الشرف في القانون، واللاهوت، اللاتينية، واليونانية، والفرنسية، والعربية، والعبرية، والمبارزة. وكان برغم قصر بصره وتشوه قدميه رهيباً بسيفه وقلمه على السواء، وكانت هجائياته بتارة كحسامه. وقد فر إلى صقلية ونابلي بعد أن قتل عدداً من غرائمه. وحين بلغ الخامسة والثلاثين تقلد هناك وزارة المالية. وشارك في مؤامرة أوزونا على البندقية (1618)، فلما فشلت أودع السجن ثلاث سنين. وعاد بعدها إلى مدريد، فلم تسكته وظيفة شرفية هي وظيفة السكرتير لفليب الرابع، وراح يسلق بشعره الحاد الملك والبابا وأليفاريس والنساء والرهبان. وفي كنيته المدقع «الكلب والحمى» (1615) نبج كل شيء، وأطلق على الكل عاصفة من الأمثال أكتف من أمثال سانشو بانزا وأشد لذعاً، وكانت نصيحته التي لم يعمل بها قط أن يقف المرء بعيداً عن المعركة و«يدع القاذورات تمر» (38). ولما أعوزه الخصوم والأهداف، هاجم «كوليتة» الجونجوريين، وعارضها بـ «الكونسبتية»، وقال إن الشاعر، بدلا من تصيد العبارات والألفاظ الخيالية، أن يبحث عن الافكار - لا الافكار العامة الظاهرة التي

أبالها الزمن أو لوثها الإبتدال، بل المفاهيم الدقيقة، الحليّة، النبيلة، العميقة.

وقد اتهم ظلما بكتابة تنبه الملك إلى ضرورة الكف عن التذير، وطرد وزرائه العاجزين. فأودع زنزانة رطبة خمس سنين، ولما أفرج عنه كان رجلا محطما، فلم يعيش بعدها غير ثلاث سنين (1645). إنه لم يعيش

صفحة رقم : 9823

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للأدب الأسباني -> الشعراء

حياة أدبية هادئة مطمئنة، بل حياة كان فيها المداد دما، والشعر جريا، وإذ شارف نهايته أنذر بلاده بأنها هي أيضا في طريقها إلى الموت:

رأيت أسوار وطني

تتداعى بعد منعنها،

لقد أوهن من قواها أسلوب هذا الجيل الجديد

الذي ابلى كل جليل وأفسده،

مضيت إلى الحقول حيث رأيت

الشمس تلتهم مياه الثلوج الذائبة،

وفوق التلال تنبش الماشية النائحة الأرض،

لقد سلّبتني شقاؤها ضياء النهار،

ومضيت إلى بيتي فرأيت كيف افسدت

الاشياء القذرة البالية هذا البيت القديم،

لقد تقوس عكازي الداوي الذي أتوكأ عليه

واحسست أن الشيخوخة انتصرت، رأيت سيفي صدناً

ولا شيء تقع عليه العين

غلا ذكرني بالنهاية. (39)

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للأدب الأسباني -> لوبي دي فيجا

4- لوبي دي فيجا

1635 - 1562

كثر كتاب المسرحية في ذلك العصر النشيط كثر الشعراء. كان المسرح هنا، شأنه في إنجلترا المعاصرة، بدعة مرتجلة إلى ذلك الحين، فالممثلون الجوابون يسرحون بفنهم على المدن مفلسين، ومحكمة التفتيش تصدر حظرا على جميع التمثيليات (1520) في كfachها للهيمنة على جلافة تمثيلياتهم الفكاهية فلما أصبحت مدريد مقرا للملك (1516)، استأذنت فرقتان تمثيليان الملك في الاستقرار فيها، فأذن، ورفع الحظر الكنسي (1572)، وبنى مسرحان، نياترو دلاكروز (مسرح الصليب) ونياترو دلبرنسيبي (مسرح الملك) -

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للأدب الأسباني -> لوبي دي فيجا

يعبر الاسمان عن أهم ولاءات اسبانيا وأقواها. وما وافى عام 1602 حتى قامت المسارح أيضا بلنسية، واشبيلية، وبرشلونة، وغرناطة، وطلبلطة، وبلد الوليد، وفي عام 1632 كان في مدريد ألف ممثل، وفي قشتالة ستة وسبعون من الكتاب المسرحيين، وكن الخياطون والباعة والرعاة يكتبون التمثيليات. ولم تحل سنة 1800 حتى كانت أسبانيا قد استمعت إلى ثلاثين ألفا من مختلف التمثيليات. ولا يذكر التاريخ بلدا آخر، حتى إنجلترا الاليزبيثية، انتشى بمثل هذه النشوة المسرحية.

وتطور شكل المسرح من الألفية - المحاطة بالبيوت والمواقف المؤقتة - التي كانت تمثل فيها المسرحيات الأولى؛ وصممت المسارح الدائمة صفوفها من المقاعد وألواحاً تحيط بمكان مسيخ، وكانت الملابس أسبانية أياً كان مكان التمثيلية أو زمانها، ولا نظارة خليطاً من جميع الطبقات، والنساء يختلفن إلى المسرح ولكنهن يجلسن في قسم خاص بهن ويلبسن الاقنعة الثقيلة. وكان الممثلون يعيشون عيشة قلقة هبطت بمعنوياتهم، بين المجاعات والولائم، يتعززون عن الفاقة والتشرد بالفوضى وحلو الاماني. ونال بعض «النجوم» الذكور من الثراء والشهرة ما أدار رؤوسهم،

فراحوا يختالون في أهم شوارع مدريد وهم يصلحون سيوفهم ويفتلون شواربهم، ونامت بعض كبريات المغنيات مع الملوك في مضاجعهم.

أما ملك المسرح الإسباني فهو لوبي فيلكس دي فيجر كاربيو. ففي عام 1647 اضطرت محكمة التفتيش إلى حظر «قانون إيمان» منشور مطلع «أؤمن بلوبي دي فيجا ضابط الكل، شاعر السماوات والأرض» (40) ولعل كاتبها آخر في التاريخ لم يحظ بمثل هذه الشهرة في جيله. ولم يقتصر معظم هذه الشهرة على أسبانيا دون غيرها من الاقطار إلا لصعوبة ترجمة الشعر المقفى، ولكن حتى مع هذا القيد كانت مسرحياته تمثل بالاسبانية في نابلي وروما وميلان، وانتحل اسمه في فرنسا وإيطاليا لمسرحيات لم يكتبها، وذلك اغراء للجماهير بحضورها.

صفحة رقم : 9826

قصة الحضارة - < بداية عصر العقل - < صراع العقائد على السلطة - < العصر الذهبي للأدب الأسباني - < لوبي دي فيجا

ولد في مدريد قبل مولد شكسبير بعامين لأسرة فقيرة ولكنها - كما يؤكدون - عريقة. فلما ناهز الرابعة عشرة هرب من البيت والمدرسة وتطوع في الجيش وشهد بعض المعارك الدامية في الازورة. ثم أحب، ولكنه أنقذ نفسه دون ان يصاب بجراح طفيفة، وكتب «ابجرامات» ساقلة في حق السيدة النبيلة، فقبض عليه بتهمة القذف، ونفي من مدريد. ولكنه تسلل إلى المدينة، وفر مع ايزابيل دي أوربيينا، وتزوجها، فطورد، والتحق بالارمادا تهربا من القانون. وقد شارك في هزيمة الاسطول، ومات أخوه القتل في المعركة بين ذراعيه. وتركه موت زوجته حرا ولكنه تورط في مشاكل أخرى. فقد انجب طفلين من الممثلة ميكالا دي لوخان (41)، وتزوج ثانية، واصبح موظفا في محكمة التفتيش (1609)، ثم فقد زوجته الثانية، ورسم قسيسا (1614؟) ووقع في أكثر من غرام (42).

أما أسبانيا فقد اعتقرت له خليلاته لقاء مسرحياته. فقد كتب منها زهاء ألف وثمانمائة، بالإضافة إلى أربعمائة «فصول مقدسة» قصيرة تمثل في الاحتفالات الدينية. وذاع عنه أنه ألف عشر تمثيلات في أسبوع واحد، وتمثيلية قبل الفطور، وتقهر سرفانتس يائسا امام هذا السيل الجارف، وسمى منافسه «وحش الطبيعة». كان لوبي «كوميديا فنية» في ذاته؛ فهو يؤلف المسرحية وهو يرتجلها. وإذا كان يجب بمثل هذه الخصوبة المستهتره، فإنه لم يزعم لنفسه تقوفا في الفن أو الفلسفة. وقد اعترف بلطف في كتابه «الفن الجديد في كتابة المسرحيات» انه إنما يكتب ليرتزق، ومن ثم فهو يزود الجمهور بما يروقه (43). وما كان ليطلع تمثلياته لولا قرصنة الناشرين الذين درجوا على ايفاد رجال ذوي ذاكرة معجزة إلى حفلاته، وكان في استطاعة هؤلاء الرجال بعد الاستماع إلى المسرحية ثلاث مرات أن يتلوا عن ظهر قلب ويقدموا نصا محررا للناشرين الذين لا يدفعون للمؤلف فلسا واحدا. وذات مرة أبت فرقة لوبي أن تمضي في تمثيل المسرحية ما لم يطرد

صفحة رقم : 9827

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للأدب الأسباني -> لوبي دي فيجا

عجبية من عجائب الذاكرة هؤلاء خارج القاعة (44) - فنشرها قد يهبط بعدد روادها. على أن لوبي نشر في عناية وحب رواياته الشعرية - اركاديا» وسان ايسيدرو، واورشليم المفتوحة، ولاهور موسورا دي أنجليكا، ولا دوروتيا، وكلها مشجبة متوسطة الجودة.

والحبكة في مسرحياته هي كل شيء، أما الشخصيات فقلما تحظى من مؤلفها بدراسة وثيقة، ويخيل للمرء أنه يصدق على هذه المسرحيات ما قاله ثورو في الصحف - وهو أنك لو غيرت أسماءها وتواريخها لا أكثر، لوجدت المحتوى دائماً هو هو. فالقصة تدور في كل الحالات تقريباً حول عاملين: الدفاع عن العرض، ثم من يضاجع السيدة. أما جمهور النظارة فلم يكن يمل قط من معالجة الموضوع الثاني في صور متنوعة، لأنه حرم ممارسة أي من صور هـ. وكان خلال ذلك يستمتع بالفكاهة العارضة، والحوار لذكي، والشعر العاطفي الذي يتدفق سريعاً رشيماً من أفواه النساء الحسان والرجال البواسل. وهكذا اتخذت روح الرومانسيات، التي لم تنقرض قط، حياة جديدة على المسرح الأسباني.

وأشهر مسرحيات لوبي هي «نجمة إشبيلية». ففي هذه المسرحية يفد سانشو الشجاع ملك قشتالة على إشبيلية، فيطري بهاء شوارعها، ولكنه يطلب إلى مستشاره أرياس أن يزيده حديثاً عن نساؤها بنوع خاص: «الملك: ثم نساؤها ذوات الحسن السماوي، لم لا تحدثني عنهن؟ .. قل لي، ألا تلتهب عواطفك ببهاء مفاتهن؟ أرياس: أن الدونا ليونور دي بييرا بدت لي كأنها السماء المنيرة ذاتها، ففي وجهها أشق ضياء شمس الربيع. الملك: إن في وجهها شحوباً كثيراً ... أريد شمساً تحرق ولا تجمد. أرياس: إن المرأة التي ألفت إليك الورود هي الدونا منثيا كورونيل. الملك: سيدة جميلة، ولكني رأيت أجمل منها ... واحدة منهن

صفحة رقم : 9828

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للأدب الأسباني -> لوبي دي فيجا

تفيض حسنا ولم تذكرها ... فمن تلك التي لفتت نظري من شرفتها، فخلعت لها قبعتي؟ من هي التي أرسلت عيناها البرق كصواعق جوبيتر وراشت سهامها الفتاكة في قلبي؟ أرياس: اسمها الدونا ستيللا تابيرا، وتسميها إشبيلية نجمتها إطرأ لها. الملك: وقد يخلق بها أن تسميها شمسها ... لقد قادني نجمي الهادي إلى إشبيلية ... فكيف السبيل إلى رؤيتها والتحدث إليها ايها الدون أرياس؟

يا له من حلم تضطرم له أعماق نفسي! (45)

على أن ستيللا تشق الدون ساننشو أورتيث، وهي تفرض في غضب ما عرضه عليها أرياس من السماح للملك بالتمتع بـ «حق السيد». ولكن أرياس يرشو الخادمة لتدخل الملك إلى مخدع مولاتها، ويدخل بوستوس شقيق ستيللا الوفي في اللحظة التي يجب فيها الدفاع عن العرض، فيكف الملك، ويكاد يقتله، ولكنه إجلالاً لمنصبه يخلي سبيله، مزدري ولكن دون أن يمسه سوء. وبعد ساعة يشهد الملك جسد الخادمة التي قبلت الرشوة مشنوقاً فوق سور قصره. ويرسل في طلب أورتيث، ويسأله هل ولاءه لمليكه لا يعرف الحدود، فيلتي جواباً فخوراً مرضياً، ومن ثم يأمر بقتل بوستوس. ويلتقي أورتيث بوستوس ويتسلم منه رسالة من ستيللا تقول إنها تبادلته الحب وتقبل تودده، فيشكره، ثم يقتله، ويكاد

يختلط عقله، ويخشى الملك ثورة الشعب، فيخفي عنه أن اغتيال بوستوس كان بأمر منه. ويقبض على أورتيث ويكاد يعدم لولا أن ستيللا تجد الوسيلة لإطلاقه. ولكن القصة لا تنتهي نهاية سعيدة، فقد اتفق العاشقان على أن القتل قد سمم غرامهما إلى الأبد.

لقد أصبح لوبي معبود مدريد بعد أن أخرج ألف مسرحية من هذا النوع. وأغدق عليه الخاصة والعامة الإعجاب، وبعث إليه البابا بصليب مالطة ودرجة الدكتوراه في اللاهوت. وكان إذا خرج إلى الشوارع تزاحمت حوله الجماهير التواقة للقائه، وقبلت النساء والأطفال يديه طالبين منه

صفحة رقم : 9829

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للأدب الأسباني -> لوبي دي فيجا

البركة. وأطلق اسمه على كل شيء تميز في بابه: فهناك خيل لوبي، وشمام لوبي، وسيجار لوبي(46). اما الناقد الذي يجد فيه عيبا فيعيش كل يوم في خوف الموت على يد أنصار الشاعر الأوفياء. على أنه لم يكن سعيدا برغم هذا كله. كان ينقد اجرا لا باس به عن مسرحياته، ولكنه ينفق أو يهب ماله بمجرد كسبه، وبعد أن أصاب هذا التوفيق الكثير أدركه الفقر واضطر إلى التماس المعونة من فليب الرابع-الذي أرسل له مهرا سخيا برغم إفلاسه. ولكن أحزانه كانت أفنك به من فقره. فقد دخلت ابنته مارثيلا الدير، والتحق ابنه لوبي بالبحرية وغرق، وهربت ابنته انطونيا مع كريستوبال تونوريو أخذة معها عددا كبيرا من تحف أبيها القيمة. وتبرأ منها لوبي، وهجرها كريستوبال. ووقر في نفس لوبي أن هذه المحن ليست سوى عقاب من السماء على آثامه، فحبس نفسه في حجرة وأضعف جسده بفرط الصيام حتى تلوثت الجدران بدمه. وفي 23 أغسطس 1635 نظم آخر قصائده «السجلو دي أورو» (القرن الذهبي) ومات بعد أربعة أيام وقد بلغ الثالثة والسبعين. ومشت تصف مدريد في مشهده الذي عرج على الدير ليتمكن ابنته من أن تقرئه تحية الوداع من نافذة صومعتها. وهكذا مثل تمجيد الناس له على هذا المسرح الشعبي الكبير.

إننا لا نستطيع أن نعتبره ضربياً لشكسبير كما فعل فولتير. ولكننا نقول فيه إنه بعبقريته العامة، وشعره الجياش، وشخصيته المحببة المشرقة خلال ألف مسرحية، أرتفع إلى ذروة العصر الذهبي الأدبية التي لم يطاوله فيها سوى سرفانتس وكالديرون.

صفحة رقم : 9830

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للأدب الأسباني -> كالديرون

كان هناك كتاب آخرون تحدوا تفوق لوبي فترة وجيزة. ومن هؤلاء جوبللين دب كاسترو (1591) الذي ألف مسرحية «شباب السيد».

صفحة رقم : 9831

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للأدب الأسباني -> كالديرون

وقد فضلها بعضهم على مسرحية كورني «السيد» الأكثر شهرة. ثم لويس فيليز دي جوفارا الذي انقطع عن ممارسة القانون فترة أتاحت له تأليف أربعمئة تمثيلية، ومنها «الديابلو كوخوليو» وهي المصدر الذي استقى منه لساج مسرحيته «الشیطان الأعرج». كذلك عرض تيرسو دي مولينا في برشلونة (1630) مسرحية «ساحر اشبيلية والضيف الحجري، التي تثبتت شخصية دون خوان مجدفاً شهوانياً، وزودت مولبير بحبكة مسرحيته «الوليمة الحجرية» وموتسرت بحبكة أوبراه «دون جوفاني» وأوحت إلى بيرون ملحمته «دون جوان» ففي هذه السطور القليلة لمحات عن التأثير الهائل الذي كان للمسرحية الأسبانية في الخارج. وفي عام 1803 فاجأ أوجست فلهم فون شليجل ألمانيا بإعلانه أنه ليس بين كتاب المسرحية الحديثة من يعلو على بيدور كالديرون دي لباركا سوى شيكسبير. اختتم كالديرون العصر الذهبي وعمر بعده كما فعل موريللو. كان أبوه وزيراً للمالية على عهد فليب الثاني والثالث، وتلقى في سلامنكا كل ما استطاع اليسوعيون أن يعطوا ويسمحووا به من تعليم، وقد كان للاهتمام الشديد بالدين في تربيته أثر قوي في تلوين عمله وحياته. درس القانون في سلامنكا، ولكنه هجره حين اكتشف أن في قدرته الكتابة للمسرح بنجاح. وقد احتوت تمثلياته على إشارة شديدة الوضوح إلى الحشو الجونجوري الذي شاب عظات واعظ ذي نفوذ، لذلك أودع كالديرون السجن حيناً، ولكن اسمه ذاع بين الناس. ونشر مجلد بمسرحياته ومنها «لافيدا ايس سوينو» (الحياة حلم) عام 1636 فكفل له من فوره مكان الصدارة في المسرح الأسباني. وعينه فليب في ذلك العام ليخلف لوبي دي فيجا مسرحياً للبلاد. وفي عام 1640 انضم إلى فرق من الفرسان المدرعين واكتسب شهرة بفضل بسالته وشهامته في ترونا. وكثيراً ما استطاع الأديب في أسبانيا كما استطاع في البلاد الإسلامية.

صفحة رقم : 9832

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للأدب الأسباني -> كالدرون

أن يحقق حلما يضمه، وهو أن يكون رجل أعمال لا أقوال فحسب. على أن صحة كالدرون تداعت بعد اشتغاله بالحرب سنتين، فتقاعد بمعاش حربي. ووجهه الحزن على فقد الأقرباء وجهة الدين، فأصبح عضوا علمانيا في طائفة الفرانسكان، ثم رسم قسيساً (1651)، وظل عشر سنوات يخدم أبرشية في طلبطة وهو يواصل الكتابة للمسرح بين الحين والحين. وبعد أن نال كل ما تمنحه هذه لدنيا من مظاهر التثريف، مات في الحادية والثمانين وهو وطيد الأمل في أن ينال المنوية على تأليفه مئات «الفصول المقدسة» واكتفائه بخليطة واحدة دون سواها. ومسرحياته الدينية أجمل ما كتب في بابها، ففيها وجدت قدرته العاطفية سندا من تقواه الصادقة. وقد حظيت مسرحياته الدنيوية زمنا طويلا بشهرة دولية أوسع من مسرحيات لوبي، لأنها تضارعا شعرا وتفوقها فكرا. وكان يعوزه بعض ما وهب لوبي من حيوية وتنوع هائلين، ولكنه هو أيضا كتب هذا اللون من مسرحيات «العباءة والسيف» بحيوية ومهارة. ولا يستطيع إيفاء حقه الكامل من التقدير سوى خبير باللسان القشتالي، ولكننا نسجل هنا أن شاعرين من شعراء الإنجليز شعرا بعبقريته وناضلا لابتعاثها من بوتقتها اللغوية. وأولهما شلي الذي ترجم بتصرف اجزاء من «الساحر الرهيب»، وكان متفقا مع شليجل في رأيه في كالدرون، والثاني ادوارد فترزجير الذي حاول في كتابه «ست مسرحيات لكالدرون» (1853) أن يفعل للمسرحي الأسباني-دون أن يوافق-ما فعله بعد ست سنوات لعمر الخيام بتوفيق كبير.

و «الساحر الرهيب» صورة محورة لاسطورة فاوست. هنا نرى ففيها شهيرا من فقهاء انطاكية يدعى كبريان يقطع مبارزة بين اثنين من تلاميذه يشتهي كلاهما خوستينا، ويحملهما على أن يغمدا سيفيهما بعد أن يوافق على الذهاب إليها للتحقق من أيهما تختار. ويمضي إليهما، ولكنه يقع في غرامها لأول نظرة. أما هي فنظرده في ازدراء، ثم تحن إليه، وأما

صفحة رقم : 9833

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للأدب الأسباني -> كالدرون

الطالبان اللذان صدتهما أيضا فتعريان باختها ليفيا، ولكن كبريان لا يقوى على تخليص ذاكرته من فتنة خوستينا.

رائعة الجمال هي-

وأنا نهب بين حبي وغيرتي؛

يعتصرني الأمل والخوف؛

مهما بدا هذا شأننا-

ما أمر الحياة التي أحيا،

فأنصتي الآن يا جهنم!

إنني لأبذل لروحك البغيضة

نفسى ترتينها إلى الأبد،

وأحتمل العذاب والسقم،

نظير أن أملك هذه المرأة(47)

ويقول الشيطان «قبلت»، ولكن خوستينا تستعصي عليه. وأخيراً يأتي بها إلى كبريان، ولكن حين يحاول العالم ضمها إلى صدره ينكشف قناعها فلا يبدي غير جمجمة. ويعترف لوسيفر (أبليس) أن قوة المسيح وحدها هي التي استطاعت أن تجيز عليه هذه الحيلة. وأخيراً، وبينما يساق كبريان وخوستينا إلى الاستشهاد المسيحي، تعترف بحبها له. ومن التمثيلات التي ترجمها فنزجيرالد ظفرت «عمدة سلاميا» بالاطراء الشديد لتفوقها التقني. ولكن لمسرحية «الحياة حلم» مسحات باطنة أكثر عمقا. فهي تتحي موضوعات الشرف والحب القديمة جانبا، وتعرض على المسرح في جرة مشكلة تكاد تكون شرقية: فالى أي حد تكون صروف الدهر وانتصارات الحياة دائمة وحقيقية؟ ألعها ليست سوى أو هام، وخذع، وجزء من القناع الذي يحجب ما خلفه من حقيقة جوهرية خالدة؟ هنا نرى باسليوس ملك بولنדה يسجن ابنه الحديث الولادة، الذي تنبأ الطوالع بتمرده على أبيه، ويربي سجموند في الأغلال وسط حيوات

صفحة رقم : 9834

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للأدب الأسباني -> كالديرون

الغاية، ويشب أشد توحشا من أي وحش طليق. على أن الملك يلين في شيخوخته، فيدعو ولده للحضور ومشاركته العرش، ولكن سجسموند الذي لم يدر على الحكم يقاتل بضر اووة وفي عنف أخرق يكره أباه على تخديره حتى يخضع. فإذا افاق وجد نفسه قد عاد إلى كهفه واغلاله في الغابة. ويقال له إن سلطانه الأخير لم يكن غير أضعاف احلام، فيصدق، ويتكلم كما تكلم رتشرد الثاني المهزوم في مسرحية شكسبير:

لا ريب في أن الحياة في وميض

هذه الدنيا ليست سوى حلم!

يحلم النائم بما هو عليه ولا يفيق إلا

حين يفاجئه الموت بصحبه الحافل بالأسرار

فالملك يحلم بأنه ملك

وعلى هذا النحو الخداع

يعيش ويحلم بسطوة الملوك،

ولكن كل الهتافات التي تجلجل من حوله

تتخذ لها أجنحة وتطير في الهواء

لأنها وليدة الهواء

ثم يذيب الموت كبرياءه وأبهته

فيحيلها - وا أسفاه-رمادا في رماد

فمنذا الذي يشتهي التاج

وهو يرى أنه لا محالة مفيق

من حلمه وراء باب الموت؟

قصارى القول أن الناس في كل الأرض

يحملون أيا كان مولدهم...

فما الحياة؟ خيال يتراءى،

سراب يتفرق كاذبا،

صفحة رقم : 9835

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للأدب الأسباني -> كالديرون

فرحة زائفة، راحة خداعة،

فالحياة على أحسن الفروض حلم،

وحتى الأحلام ذاتها ليست غير أحلام(48)

ثم يلقي سبجسوموند عنه وحشيتته، بانقلاب آخر علله المؤلف تعليلاً شديداً القصور، ويغدو انساناً عاقلاً، فإذا أجلسه الثورة على العرش أصبح ملكاً صالحاً، واعياً في تواضع بأن هذا الارتقاء هو أيضاً حلم، فقاعة تافهة في زبد الحياة. والخطب في المسرحية طويلة طولاً مؤلماً، وتزويق العبارات «الجونجوري» يفسد خمر الشعر، ولكنها مسرحية قوية برغم هذا العيب، تمزج الحركة بالفكر وتحفظ بالتشويق الدرامي إلى النهاية. وأغلب الظن أننا لو كان لنا وطن وتعليم غير وطننا وتعليمنا، ولو أتيح لنا الفهم الجيد للغة القشتالية، لاعتبرنا هذه التمثيلية من أعظم التمثيليات في العالم. ويستحيل علينا الآن أن نستعين بالخيال لنقتلع أنفسنا من سجن زماننا ومكاننا، ندرك قوة الدور الذي لعبته الدراما في اسبانية القرن السابع عشر، ومدى النفوذ الذي حظيت به. ففي إيطاليا كادت تطرد المأساة الإيطالية من خشبة المسرح. وفي فرنسا زودت بالحكايات كتابا كآردي وكورني وموليير وكثيرين غيرهم، وقد صاغت شكل المأساة الفرنسية قبل راسين، إذ شددت على الشرف واسقطت البلاغة فإذا ذكرنا إلى ذلك كله تأثير سرفانتس وغيره من الروائيين الأسبان على لوساج وديفو وفيلدنغ وسموليت، ومن خلال هؤلاء على دكنز وتاكري، وإذا قارنا فن إنجلترا الاليزابيثية، أو حتى فن فرنسا المعاصرة، بعمارة أسبانيا ونحتها وتصويرها في أوجها ذلك-إذا فعلنا هذا كله بدأنا هذا ندرك لم تغلو شعوب العالم الناطقة بالأسبانية في الفخر بميراثها والاعتزاز بنسبها.

صفحة رقم : 9836

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للفن الأسباني -> الفن واحد وألوانه ألف

الفصل الثاني عشر

العصر الذهبي للفن الأسباني

1556 - 1682

1- الفن واحد، وألوانه ألف

ترى كيف تفسر هذه الظاهرة، وهي أن اسبانيا استطاعت في هذه الحقبة- بعد أن انتزعت منها إنجلترا السيادة على البحر وفرنسا السيادة على البر، وبعد أن بدأ أن كل مشروعاتها المادية قد أصابها الفشل والافلاس- أن تبني كاتدرائية

سيجوفيا (سقوبية) وتوجه نحت هونانديث زمزنتانيس، وتلهم تصوير الجريكو، وثورباران، وفيلاسكويز، وموريللو؟ الآن الكنيسة الأسبانية ما زالت غنية، والبلاط الأسباني ما زال مسرفاً، والذهب الأمريكي ما زال يدخل أشبيلية، والفنانين الأسبان الذين يغذيهم الإيمان والمال ما زالوا يحسون وهج مجد لم ينطفئ كله بعد؟ كان أقل البهاء في العمارة، ففيها اشبعت انتصارات الماضي كل حاجات الاتقياء. وفي أشبيلية أعلنت الكنيسة نصرها على المغاربة بنتويجها منذنة جامع للمسلمين ببرج مسيحي أكمل بناء الجيرالدا (1567)، وبعد سنة توج بارتولومي موريل البناء كله بتمثال "الإيمان" الذي يزن طناً، ومع ذلك ففي توازنه من الخفة ما يتيح له الحركة مع كل هبة ريح ليشرف على ملكه المبجل. وفي بلد الوليد بدأ خوان دي هيريرا، معماري الاسكوريال،

صفحة رقم : 9837

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للفن الأسباني -> الفن واحد وألوانه ألف

عام 1585 بناء كاتدرائية "الصعود" الصارمة، على نطاق مفرط في السعة حتى انها ما زالت بغير أثاث. وفوق تل يشرف على سيجوفيا بدأ قرنان من المعماريين والحرفيين عام 1522 الكاتدرائية الضخمة التي ترمز في كبرياء إلى ورع أسبانيا العارم الذي لا يتزعزع، وفي سلامنكا صمم خوان جوميت دي مورا، "السيميناريو كونثيليار" الضخم لليسوعيين بالطراز الدوري البالاديوي مضافاً إليه القبة. ولكن حتى أسبانيا كانت تتجه إلى فن دنيوي، وكانت القصور كما كانت الكنائس تتطلب الفن. ففي أرانخويت بني فليب الثاني (1575) مصيفاً يلود بحدائقه اللطيفة الجو من قيظ الاسكوريال ووقاره. وأضاف فليب الثالث قصر البارود منتجعاً له ولأصحابه، وبهو السفراء المحلي بالزخارف في هذا القصر مشهور بما حوى من ثريات. أما فليب الرابع وأوليفاريس فكادا يسبقان فرساي ببناء حديقة لهو عند بوابة مدريد الشرقية تدعى "بوين ريتيرو" (المنتجع الطيب) (1631-33). وفي مسرحها الملكي مثلت مسرحيات كثيرة للوبي وكالديرون. وشيدت في هذه الفترة قاعات مدن فخمة بليون واستورجا، وصمم الجريكو قاعة منها بطليطلة. أما النحت فكاد يكون كله كنسيا في الشكل والمزاج. لقد عدل الطراز القوطي بفعل التأثير الإيطالي والزخرف الباروكي. ولكن التمثال النصفي الذي لقي اقبالا شديدا في إيطاليا أعرض عنه الناس في أسبانيا بتحريم يرقب من تحريم المسلمين للتماثيل. وساهم المصورون- حتى أساطينهم من أمثال ثورباران وموريللو- بفنهم ليجعلوا النحت يقر في نفوس العابدين الواقعية التي صوروها في تماثيل المسيح المصلوب والقديسين المستشهدين. وكانت كل التماثيل تقريبا من الخشب المتعدد الألوان. وفي راي السير وليم ستيرلنج- ماكسويل، العلامة الاسكتلندي الذي ولع بالفن الأسباني وأرخ له بحولياته، أن خوان دي خوني "أفضل المثالين الأسبان" (1)

صفحة رقم : 9838

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للفن الأسباني -> الفن واحد وألوانه ألف

وقد أذاع اسم خوان مذبح اقامه في كنيسة "سيدتنا عذراء أنتيجوا" في بلد الوليد، وتمثال في كنيسة أخرى هناك سماه "الأم المتألّمة" اعترّ به الناس اعتزازاً حدا بهم في عمق إيمانهم الحزين إلى التماس السماح لهم باللباس التماثيل ثياباً غالية. وهناك مثل آخر تضعه أسبانيا في صف يعلو حتى عن مقام خوان، وهو جريجوريو هرنانديث، هذا أيضاً نحت تمثالاً آخر للأم المتألّمة، وفي واقعية اختص بها رسم على ثوبها بقع دم ووضع دموعاً من زجاج في وجهها، ولعل تمثال هذه الأم الحزينة، والمسيح الميت مسجى على حجرها، هو أسمى ما بلغه فن النحت الأسباني في هذا العهد. واعظم هؤلاء المثاليين خوان مارتينيث مونتانييس. ولم يكن يجاوز الثامنة عشرة يوم وفد هو وزوجته (1582) على دير "دولتي نومبري دي خيسوس" في إشبيلية، وأهداه تمثالاً للعذراء، وعرفانا بصنيعه كوفئ بسكن مجاني مدى الحياة. وقد سر اليسوعيين بتماثيل نحتها لأغناطيوس زافير، وأبهج الرهبان الهيرونيميين بتمثال للقديس جيروم. وما زالت كاتدرائية إشبيلية تعرض تمثاله للمسيح المصلوب، الذي قال فيه أحد المؤرخين أنه ربما كان أسمى تشخيص للضحية الإلهية (2) "و حين فرض البابا بولس على جميع الكاثوليك الإيمان بعقيدة "الحمل غير المدنس"، سعدت إسبانيا جداً بهذا القرار لأنها- كفرنسا- كانت تركز تقواها على العذراء. وارتفع مونتانييس إلى متطلبات الموقف، فنحت رائعته (المحفوظة بكاتدرائية إشبيلية)- وهي تمثل "الأم الإله" الفتية تتأمل سر خلوها من الخطيئة الأصلية؛ هذا التمثال أيضاً عد من آيات النحت العالمي (3)، ولكن العذراء الأندلسية تبدو شديدة الهدوء والرضى، وأن أثقلتها كثرة الملابس. ولو توخينا الإنصاف برغم الإيجاز، لقلنا أن صورة الفن الأسباني لا بد ان تعدد مفاخره الصغيرة وتحتفل بها: هذه المشبكات والأستار

صفحة رقم : 9839

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للفن الأسباني -> الفن واحد وألوانه ألف

والبوابات من الحديد أو البرونز، والمحفورات الخشبية على كثير من حواجز المذبح في الكنائس، ومقاعد المرتلين كتلك التي نقشها بيدرو دي مينا لكاتدرائية ملقا، والمصابيح، والصلبان والكنوس، والعلب، والمظال المشغولة بالفضة أو الذهب، كصناديق خوان دي أرفي العالمية الشهرة؛ ثم التماثيل الصغيرة من الخشب أو العاج أو المرمر أو البرونز، والمطرزات والموشيات التي إزدانت بها مذابح الكنائس وتجملت بها النساء، وزجاج برشلونة المغشى بالمينا، وأنية تلافيرا (طلبيرة) من الصفيح المزجج. كادت الكنيسة قبل مجيء فيلاسكويز أن تكون الراعي والحكم الأوحده في التصوير. وكان من آثار الأحاسيس القائمة التي اصطبغ بها اللاهوت والورع الأسبانيان، والتي ربما كانت إنعكاساً لصخور الإقليم الكنيسة وقبضه المحرق، انها لم تسمح إلا بالقليل من الفكاهة أو الخفة أو التأنق في علاج الموضوعات، وأنها حرمت تصوير العرايا، وأعرضت عن تصوير الأشخاص ومناظر الطبيعة، وشجعت ضرباً من الواقعية الجافية التي اتكأت على جوانب الإيمان المخيفة أكثر من جوانبه المعزية، فعلى الصور أن تقر العقيدة وتوججها في النفس بالخيال الملتهب والصرامة الديرية. وانتهى الأمر بأن المصورين أنفسهم رأوا الرؤى وادعوا الوحي الإلهي. وقد نافس فليب الثاني الكنيسة في رعاية المصورين، ولكن موضوعات التصوير ظلت دينية. وحين كلفهم النبلاء برسم صور كانوا عادة يتبعون القاعدة نفسها، ولم يبدأ توجيه التصوير وجهة دنوية إلا بفيلاسكويز وفليب الرابع. ودخلت بعض المؤثرات الأجنبية لتعدل من هذا التأثير

الكنسي. مثال ذلك أن كاردوتشي وتسوكارو ونحو ثمانية عشر فنانا إيطاليا آخرين طمعوا الفن الأسباني بطابع أرق، وقدم انطونيس مور من فلاندر عام 1572 وتأثر الرسامون الأسبان الذين زاروا الأراضي المنخفضة بروح فاندريك، كذلك ناشد روبنز، الممتلئ حيوية ومرحاً، الفنانين الأسبان حين اكتسح مدريد عام 1603، أن ينظروا إلى الحياة لا إلى الموت.

صفحة رقم : 9840

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للفن الأسباني -> الفن واحد وألوانه ألف

وفضلاً عن أئمة الفنانين الأربعة الذين هيمنوا على التصوير الأسباني في هذا العصر كان هناك كثير غيرهم أقل نبوغاً، كألونسو سانتشيت كوثيلو الذي رسم بالأسلوب الفلمنكي لوحات لابن فليب الثاني الصغير دون كارلوس وابنته إيزابل، وتلميذ كوثيلو خوان بانتوخا دلا كروث، الذي ترك لنا صورة قائمة لفليب الثاني(4)، وأخرى قوية للقديس أوغسطين، وفرانسسكو دي ريبالتا الذي يظهر أسلوبه "القائم" أسلوب الضوء تحيط به الظلمة، وفي لوحة "القديس فرنسيس يعزيه ملاك"، وفرانسسكو باتشيكو الذي علم فيلاسكويز، وزوجه ابنته، وشرح مبادئ التصوير الأسباني في كتابه "فن التصوير" (1549)، كتب يقول "إن أكبر هدف للفن أن يعزي الناس بالتقوى ويعطف قلوبهم نحو الله(5)" لأنها "تخطيطات تحضيرية(6)" فلننظر الآن في هذا الحكم.

صفحة رقم : 9841

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للفن الأسباني -> إجرىكو

2- إجرىكو

1548؟ - 1614

كان في كريت مسقط رأسه يسمى نفسه كريكوس ثيوتوكوبولس - أي الابن الإلهي للرب، وفي إيطاليا سمي دومنيكو تيوكوبولو؛ وفي أسبانيا دومنجو تيوكوبولي، وكان يوقع بالحروف اليونانية دومنيكوس تيوكوبولس، واختزل الزمن اسمه إلى الجريكو، وهو الكنية التي اشتهر بها في اسبانيا. ولا نعرف شيئاً عن حياته في كريت. ولعل أجداده هاجروا إليها من القسطنطينية بعد أن فتح المسلمون هذه المدينة اليونانية (1453)؛ على أية حال كان يستطيع في كريت، كما استطاع في البندقية بعد ذلك، أن يشعر بتأثير الفسيفساء البيزنطية الصارم. وكانت كريت في حياته ملكاً للبندقية، لا عجب إذن أن يستقل الفنان الصغير السفينة إلى مدينة البحيرات، تجيش في صدره الأمل بعد ما سمع عن بلوغ التصوير أوجه فيها، وأغلب الظن أنه انضم إلى الجالية اليونانية الكبيرة في تلك العاصمة العالمية.

صفحة رقم : 9842

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للفن الأسباني -> إجرىكو

ودرس على يد تنسيانو عامين أو أكثر، وأعجب بفن تنويريتو في جمعه الوجوه في صور مزحومة، وربما سرى إليه فيرونيزي بالثياب الفاخرة البهية. وقد نسخ الصور الشهيرة بتواضع صابر في البندقية وريدجواميليا، وبارما، وفلورنسة، ووصل إلى روما عقب وفاة ميكل أنجيلو (1564).
وأول ذكر محدد لدينا عنه ورد في خطاب كتبه جوليو كلوفيو إلى الكردينال أليساندرو فارنيزي في 16 نوفمبر 1570 يقول فيه:
"فد على روما شاب من كانديا، تلميذ لتنسيانو، ومصور ذو موهبة نادرة في ظني... وقد رسم لنفسه صورة أطرها كل المصورين في روما. وبودي لو شملتموه سيادتكم بالرعاية، دون أي اسهام في رزقه سوى اعطاءه حجرة في قصر فارنيزي" (7).
وقبل الكردينال، وكافاً إجرىكو كلوفيو بلوحة رائعة (8). وحين كثر اللغط حول العرايا في لوحة ميكل أنجلو "الدينونة الأخيرة" عرض دومنيكو أن يرسم بدلا منها - إذا رفعت - لوحة أخرى لا تقل عنها إتقاناً وتمتاز بتغطية الأجسام على نحو أفضل (9)، فسقط في أعين فناني روما. وأخبره بعض الأخبار الأسبان في روما أن فليب الثاني يبحث عن مصورين لتزيين الاسكوريال. فرحل إلى أسبانيا عام 1572 بعد أن نفص عن قدميه غبار روما، ولكنه استبقى على فرشاته بعض انحرافات "اللازمية" الإيطالية.
وليس لدينا بعد ذلك عنه ذكر حتى عام 1575، حين نجده يصمم ويزين كنيسة "سانتو دومنجو الأنثيجيو" في طليطلة، العاصمة الدينية لأسبانيا. فرسم لمذبحها لوحة "صعود العذراء" الفخمة التي تحتل اليوم مكاناً بارزاً في معهد الفن بشيكاغو - وهي تحذو في نواح منها حذو لوحة تنسيانو "الصعود" بالفراري في البندقية، وتلتزم الأجساد الفتية المفعمة شباباً والرؤوس الهرمة الجليلة التي درج عليها الأسلوب الإيطالي في

صفحة رقم : 9843

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للفن الأسباني -> إجرىكو

التصوير. وفي عام 1577 رسم لكاتدرائية طليطلة لوح مشهورة سماها "تقسيم أثواب المسيح" وأخذت لجنة شكلت للحكم على الصورة عليها أن سترة يسوع فاقعة الحمره، وإن النساء اللاتي يرين في أسفل اليسار - المريمات الثلاثة- لا محل لهن هناك، لأن الأناجيل ذكرت أنهن كن ينظرن من بعيد، ومع ذلك أعلن القضاة حكمهم المتنبئ بأن الصورة "لا تقدر بثمن وأنها عظيمة القيمة (10)" وكانت إحدى المريمات منقولة عن خليعة المصور، واسمها الدونا خيرونيميا دلاس كيفاس، التي يظهر وجهها الحزين اللطيف في معظم عذارى الجريكو. وهو لم يتزوجها قط برغم وفائه لها وولائه للكنيسة، ولم تكن هذه عادة أسبانية قديمة بل عادة تقدست طويلاً في مراسم الفنانين.

ووصف كاتب من الجيل التالي، يدعى خوزيه مارتينيث، دومنيكو بأنه أصبح الآن على ثقة من الخلود، قال:

"لقد استقر... في طليطلة، وأدخل أسلوباً شديداً الإسراف بحيث لم ير إلا اليوم له نظير، ومحاولة البحث فيه تشوش أسلم العقول... وقد صرح بأن فنه لا يعلو عليه فن... وكان في طبيعته من الغلو مثل ما في فنه... كان يقول إنه ما من ثمن يمكن أن يوفي رسومه حقها، لذلك كان يرتهنها عند أصحابها، الذين يقرضونه عنها ما شاء عن طيب خاطر. وكان معمارياً ذائع الصيت، عظيم البلاغة في أحاديثه، أما تلاميذه فقلائل، لأن أحداً لم يشأ أن يأخذ بأسلوبه المسرف المتقلب الذي لا يصلح إلا له" (11).

وحوالي عام 1580 أرسل فليب الثاني في طلب الجريكو ووكل إليه رسم لوحة "القديس موريس والفيلق الطبيي" وبعد جهد سنوات أربع قدم الفنان ثمرة تعبته للملك. غير أن فليب وجد تجميع الأشخاص شديد الاختلاط، فدفع ثمن اللوحة ولكنه لم يقبلها، وعاد الجريكو محزوناً إلى طليطية، ولم يبرحها بعد ذلك قط فيما نعلم.. وكان ذلك خيراً له، لأنه أصبح حراً في أن يعود إلى طبيعته الصوفية.

صفحة رقم : 9844

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للفن الأسباني -> الجريكو

ثم رسم لكنيسة القديس توما (1586) أشهر صورته إطلاقاً، وكأنه كان بذلك يثار لنفسه، وهي إحدى ذرى فن التصوير، وقد اشترط العقد أن يبدي فيها الكهنة يحيون تقليداً يزعم أن القديسين هبطوا من السماء ليدفنوا الدوق جونزالو رويز، كونت أورجاز، وأن يمثل القديسان اسطفانوس وأوغسطين (في أثواب الأساقفة) وهما ينزلان الجثمان إلى قبره وسط جمع جليل من وجوه القوم، وفوق هذه الوجوه تبدي السماء المفتوحة ابن الله في مجده وبهائه. كل هذا فعله بحذافيره وأكثر منه، فكل رأس تقريباً لوحة كاملة الصقل، والأرواب معجزة من الذهب والخضرة والبياض، والدرع الدمشقي الحلية الذي يلبسه الكونت يتلألأ ضياء، رد على ذلك أن الجريكو نفسه يرى من خلف القديس اسطفانوس. أما آية هذه الآلية فرأس أوغسطين بقلنسوه ولحيته، أم لعلنا نؤثر عليه الجثمان الجميل؟ أم وجه القديس اسطفانوس الحلو؟ أم الكاهن الأصلع يتلو صلاة الدفن؟ أم خورجي مانويل، بن الجريكو ذا الثمانية الأعوام ممسكاً في فخر مشعلاً ومبرزاً من جيبه منديلاً ليظهر توقيع الجريكو؟ وفي كتاب فرانسكو دي بيزا "تاريخ طليطلة" (1612) نقرأ ما كان ينبغي أن نحرزه: "إن لوحة (دفن الكونت أورجنز) هذه من أبدع الصور في إسبانيا بأسرها. والناس يؤمنونها من كل بلد غريب ليعجبوا بها إعجاباً خاصاً، وأهل طليطلة لا يملونها، بل يجدون فيها على الدوام جديداً يتطلعون إليه. وفيها يرى الكثير من مشاهير الرجال في عصرنا مصورين تصويراً واقعيّاً (12)". ومع ذلك كله راح مجلس الأبرشية يساوم على أتعابها، فرفع اليوناني الحاكي الطبع الأمر إلى القضاء، وكسب دعواه، وتسلم ألفي كراون.

إنه الآن لا يشكو قلة الطلب على رسومه، فلقد وجد نفسه، ولم يعد يفكر في تتسيانو ولا تنتوريو، وقد استطاع أن يجري تجاربه في إطالة الأشكال، لا لأنه يعاني من قصور في البصر، بل لأنه

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للفن الإسباني -> إجرىكو

في أغلب الظن شعر بأنه بهذه الطريقة قد يرمز إلى التسامي الروحي لأشكاله- أجسام تمددها نفوس تشرأب إلى السماء. وفي لوحتي القديس أندراوس والقديس فرانسيس المحفوظتين بالبرادو يبدو هذا التحول غير مفهوم ما لم نأخذ هذه الرمزية في الاعتبار. وننتذكر التماثيل القوطية التي ترفق مراعاة للقيود المعمارية. على أن هذا كله يغتفر للفنان حين نصل إلى لوحته "القديس يوفونسو" التي رسمها لمستشفى الكاريداد باليسكاس، فهنا، في الروح الوقور الذي خلعه على رئيس الأساقفة الوسيط، وفي عقله المستغرق، ووجهه المتقشف، وشعره الأبيض الناحل، ويديه الرقيقتين- هنا تصور من أعمق تصورات الجريكو. "هذه الصورة وحدها تكفي جزاء ووعواً عن الرحلة إلى إسبانيا" (13). ولا يدلنا القليل الذي نعلمه عن حياة الجريكو على أنه كان متديناً على الطريقة الأسبانية، ويبدو أنه كان يميل إلى اللذة لا إلى الورع. فحين رسم لوحة "العائلة المقدسة" لمستشفى تافيرا خلع على العذراء جمال الجسد لا وفاء الأم. أما لوحة "الصلب" ففيها علم واسع بالتشريح، ولكنها باردة في العاطفة، وقد أحس جرونيفالد بمأساة الصلب تلك احساساً أعمق بكثير. ففي صورته الدينية لا يتجلى الجريكو إلا في اللوحات العارضة- كما نرى صورته هو بلحيته البيضاء ورأسه الاصلع في "يوم الخمسين". ولم يجد مشقة، في بلد يعج برجال الدين، في العثور على شخصيات قوية يصورها، كصديقه بارافيتينو الثالثي (بوسطن) بوجهه نصف العالم ونصف عضو محكمة التفتيش، أو رئيس المحكمة نفسه، الكردينال نينودي جيفارا (نيويورك)- وصورته لا ترقى إلى صورة فيلاسكوبز التي رسمها لإنوسنت العاشر. وقد تجاوزها الجريكو ذاته في لوحة "كردينال تافيرا" الذي نرى في وجهه المضني- وكله عظام وعيون حزينة - تعبيراً آخر عن تصور الفنان لتكريس الكاهن نفسه لخدمة الدين. ولكن خير اللوحات كلها لوحات الأخوين كوفاروبيا: فوحد- وهو انطونيو- علماني،

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للفن الإسباني -> إجرىكو

أشيب، متحرر من الوهم، مرهق، صفوح، والآخر- ديجو - في ثوب الكاهن، ولكنه يبدو أشد إقبالاً على الدنيا، وأكثر مرحاً، وحسن التكيف مع محيطه. ولا يفوق هذه الدراسات العميقة سوى بعض لوحات رمبرانت وتتسيانو، ولوحة رفائيل "يوليوس الثاني".

وهي بعض الذخائر التي يضمها متحف كازا ديلجريكو في طليطلة. وفيه أيضاً "تصميم مدينة طليطلة"، وهو يشرف هنا على المدينة كلها وعلى التلال التي تكتنفها وكأنه يطل عليها من سحابة. وقد صورها مرة أخرى في أخريات عمره في لوحة "منظر طليطلة" ومن فوقها سماء عاصفة (نيويورك) - صورة تأثرية تزدري الدقة الواقعية كل

الازدراء. وحين أقبل عام 1600، كان "اليوناني" قد أصبح من أشهر مواطني المدينة، يعرفه الجميع بروحه المتقلبة المتكبرة، صوفيا يستطيب بالمال، ويشغل أربعاً وعشرين حجرة في قصر عتيق، يستأجر الموسيقيين ليعزفوا له خلال تناوله الطعام، ويجمع من خوله مثقفي طليطلة، ويكرمه الناس بوصفه "فيلسوفاً كبيراً". (14) وحوالي عام 1605 رسم صورة يفترض أنها صورته الذاتية (نيويورك) - أصلع، أشيب، يكاد يكون أعرج. وفي عام 1611 وجده باتشيكو في حال من الهزال أعجزته عن المشي. ولم يستطيع دفع ديونه وإن احتفظ بغرفة الأربع والعشرين، وقرر له مجلس المدينة مبالغ كبيرة غير مرة. ومات عام 1614 وهو في الثالثة والسبعين. أما مقامه في دنيا الفن فمغامرة تالية لموته. كتب عنه جونجورا سونيتة مديح، وأقر فيلاسكويز بعقريته، ولكن فنه الغريب لم يوح بأي محاكاة له ولم يؤسس أي مدرسة. ولم تأت سنة 1650 حتى تاه أمام بهاء شهرة فيلاسكويز، وطواه النسيان تقريباً مدى قرنين، ثم اكتشفه دلا كروا من جديد، واحتذى ديجا ومانيه وسيزان طريقتيه في التعبير عن الحالات النفسية، ورأى فان جوخ وجوجان فيه سلفاً لهما. وفي عام 1907 رفعت "الرحلة الأسبانية" التي كتبها "بوليوس"

صفحة رقم : 9847

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للفن الأسباني -> إجرىكو

مايبر جريقي " الجريكو فوق فيلاسكويز إلى أعلى ذرى التصوير الأسباني. على أن هذه الذبذبات في الشهرة قلقة لا ثبات لها لأنها عرضة لـ "تقلبات الذوق الجامحة" (15). ولكن الجريكو سيظل قروناً طواهاً المثال الحافز للفنان الذي جاوز الأشياء إلى الأفكار والمشاعر؛ وجاوز الأجساد إلى الأرواح.

صفحة رقم : 9848

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للفن الأسباني -> ثورباران

3- ثورباران

1598 - 1664

وبعد الجريكو ظل فن التصوير الاسباني جيلاً لا يتحرك ولا يظهر فيه غير رجال أقل كفاية بذلوا ما وسعهم من جهد ثم اختفوا. وإذا فنانان يظهران في آن واحد تقريباً، هما فرانسيسكو دي ثورباران وديجوفيلاسكويز، ويفيضان فنهما العظيم على أسبانيا. وقد ظلّا ثلاثين عاماً يكمل الواحد منهما صاحبه. فنورباران يرسم كأنه راهب يدفعه الخوف إلى العبادة، ويفترّب بصلاته من الله، وفيلاسكويز يلقي النجاح في الدنيا ويلصق بمليكه. أما ثورباران فقد عمد في فوينتي دي كانتوس، بجنوبي أسبانيا الغربي، في 7 نوفمبر 1598، ابناً لصاحب حانوت أتيح له من النجاح ما مكنه من إرسال ولده لينمي موهبته في إشبيلية. وبعد عامين من الدرس وقع أول صورة المؤرخة (1616)، وهي صورة للحمل غير المدنس. كان خليفاً بها أن تقضي على مستقبله. وبعد سنة انتقل إلى ليربما، على خمسة عشر ميلاً من مسقط رأسه. وكانت المنطقة أهلة بالأديرة والكنائس والصوامع، ومنها تلقى فرانسيسكو مهامه المتواضعة والإهاماته. وهناك تزوج ماريا بيريز، وكانت تكبره بتسع سنين، لكي يضيفي الشرعية على ولده منها، وقد ماتت بعد أن أنجبت له طفلين آخرين. وفي عام 1625 تزوج أرملة تكبره بعشر سنين، ولكن لها صداقاً مغرباً، فولدت له ستة، مات خمسة منهم في طفولتهم. وبعد موتها تزوج بأرملة غنية، فأنجبت له ستة، مات منهم خمسة في طفولتهم. وهكذا جاهد الحب لكي يتقدم الموت بخطوة.

صفحة رقم : 9849

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للفن الأسباني -> ثورباران

أما في الفن فقد بدأت فترته الخلاقة بعقد كلف فيه بأن يرسم في ستة اشهر إحدى وعشرين صورة لدير دومنيكي باشبيلية يدعى سان بابلو الريال (1626). وبعد أن أنجز ثورباران هذه المهمة زار مدريد فيما يبدو، وأحس بتأثير فيلاسكويز. وكانت صورته حتى ذلك الحين تعكس أسلوب كارافادجو الضخم، وربما أسلوب ريبيرا أيضاً، فأضاف الآن إلى طبيعته الخشنة نعومة جديدة في الظلال ورهافة في الصقل. وبعد قليل تلقاه في إشبيلية يرسم اثنتين وعشرين لوحة قماشية هائلة للرهان «المرسيدارين» (أي رهبان سيدتنا الرحيمة) خصصت لافتداء المسيحيين الأسرى. والصور الأربعة الباقية من هذه المجموعة ليست من الروائع، ولكن في واحدة منها وجهاً صيبانياً تعيه الذاكرة لعله وجه خوان ابن الفنان. ولا بد أن إشبيلية أحبت هذه الصور، لأنها طلبت إلى فرانسيسكو رسمياً عام 1629 أن يجعل فيها مقامه «إن إشبيلية تشرف... لأن التصوير من أهم ما تزدهن به الدولة (16)». وقبل ثورباران العرض. وفي عام 1930 رسم لكنيسة سان بونافنتورا الفرنسيكانية طائفة من أروع صورته. ومنها صورة «القديس بونافنتورا يشير للقديس توما الأكويني على الصليب»، ترى فيها اللاهوتي العظيم ممثلاً على هيئة راهب دومنيكي لسوء الحظ. ينبهه القديس في رفق إلى أن الدين ليس قوامه النظرية الفلسفية بل تأمل المسيح. وهذه الصورة -وهي الموضوع الذي يتردد في ثورباران سرقها المارشال صولت من أسبانيا (1810) ووجدت طريقها إلى متحف القيصر فردريك في برلين، ثم أتت عليها الحرب العالمية الثانية. وصورة أخرى في هذه المجموعة، «القديس بونافنتورا على نعشه»، أخذها صولت أيضاً، بيعت للوفر عام 1858 وما زالت هناك؛ والوجه الأربعة التي يسارها رائعة. وأروع من هذه «تمجيد القديس توما الأكويني» التي رسمها ثورباران لكلية دومنيكية باشبيلية؛ والفكر ينتقل في دهشة من وجه عميق إلى وجه آخر -

صفحة رقم : 9850

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للفن الأسباني -> ثورباران

أمبروز، وجريجوري، وجيروم، واوغسطين، وشارل الخامس. ولكن خيرونيمو فيلاسكويز كان ينقد على الإطار وحده ستة أمثال ما ينقده ثورباران على الصورة.

وحين انتقل المصور المشغول إلى كنيسة القديس البرتو الكرملية، رسم القديس فرانسيس مستغرقاً في صلواته بخشوع، والقديس بطرس توما، راهباً كثير التجاعيد أضناه طول إنتظار الفردوس. ولما عاد إلى دير المرسيديريين (1631) صور بعضاً من أجل رهبانه، ومن هذه الصور صورة «فراي بيدرو ماتشادو» وتكاثر عليه الطلب خلال سنة 1633: اثنا عشر رسوماً لكنيسة في لشبونة، وثلاث صور للكارثوسيين بأشبيلية، وعشر لمصلى القديس بطرس في الكاتدرائية الكبرى، وإحداها-القديس بطرس نادماً-الموجودة إلى اليوم في مكانها الأصلي، تجربة مذهشة في الواقعية: ربما رسمها وهو يذكر ريبييرا.

وتعاضم الطلب على ثورباران الآن حتى وكل معاونيه بالكثير من أعماله. رسم لدير جوادالوبي في استريمادورا صورة «إغراء القديس جيروم»، ورأس القديس ويده في هذه الصورة من أعاجيب التقنية، أما السيدات الرقيقات عازقات الموسيقى فليس من الانصاف أن يقاوم اغراؤهن. وطلبت صور الفنان حتى من بيرو وجواتيمالا، وذهبت سلسلة من صور الرسل إلى ليما، وأخرى إلى أنتيجوا، وأرسلت إلى المكسيك لوحة «المسيح في عمواس»، التي تصور المسيح المقام فلاحاً سليم الجسم سعيد النفس بتناول طعامه. وبعض هذه اللوحات القماشية أدى في عجلة أو قام به معاونوه، وقد اضطر ثورباران لمقاضاة ليما حتى يحصل على أتعابه.

ومنذ عام 1645 بدأ الفنان الشاب موريللو يتحدى مكانته الرفيعة في إشبيلية، فزود الكنائس والأديار بصور تمثل قصة المسيحية بلغ من رقتها أنها هوت بالطلب على واقعية ثورباران المقلقة. وحاول المصور المكتهل

صفحة رقم : 9851

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للفن الأسباني -> ثورباران

أن يلطف من مرعباته، وكافح حيناً ليباري موريللو في عاطفته العائلية الورعة، كما نرى في لوحته «العذراء والطفل مع القديس يوحنا» (المحفوظة بسان دييجو في كاليفورنيا)، ولكن هذا الأسلوب الجديد كان غريباً على فنه ومزاجه. وعلى ذلك شد رحاله إلى مدريد عسى ان يستقيم له الأمر، ولكن فليب الرابع، المفلس، لم يجد ما يكلفه به خيراً من زخرفة كوخ صيده. وكان فيلاسكويز كريماً معه، ولكنه مات فجأة. وعمر ثورباران بعد موت صديقه وزوال شهرته. ولم يكد صيته يجاوز جبال البرانس، حتى استلطف قواد نابليون صور رهبانه الضخام وقديسيه العابثين فخطفوا بعضها وأتوا بها إلى فرنسا. ولما اتبعت الأديرة الأسبانية للدولة عام 1635 جلب المزيد من صورته إلى باريس، وفي عام 1838 افتتح الملك لوي فليب في متحف اللوفر قاعة أسبانية تضم أربعمئة لوحة نسبت ثمانون منها لثورباران. والذوق الفني في أيامنا هذه يجد رقعته شديدة الضيق مغرقة في الديرية، ويجد روحه مغالية في الكآبة والتفكير. ونحن نفتقد فيه صعاليك موريللو وفلاسفة فيلاسكويز وأميراته الجميلات. ومع ذلك ففي فنه إخلاص مكين، وتقان عميق، وقوة في اللون والشكل ترفعه فوق دنيا الميول العابرة وتكفل له مكانة في ذاكرة البشر.

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للفن الأسباني -> فيلاسكويز

4- فيلاسكويز

1599-1660

كان جده لأبيه نيبلاً برتغالياً رحل عن أوبورتو إلى إشبيلية بعد أن فقد كل ثروته. وولد الفنان لخوان دي سيلفا والدونا خيرونيميا فيلاسكويز، في السنة التي ولد فيها فان ديك، وبعد موت ثورباران وبرنيني بعام، وقبل مولد موريللو بثمانية عشر عاماً. وسمي ديجو رودريجز دي سيلفا أي فيلاسكويز، وقد ألف أن يسمى نفسه بأسم أمه، وهي عادة شائعة في جنوبي أسبانيا، وحظي بتعليم جيد، وتعلم شيئاً من اللاتينية والفلسفة، وجرب دراسة العلوم حيناً. ثم أتجه إلى التصوير، فدرس فترة وجيزة

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للفن الأسباني -> فيلاسكويز

على خوان دي هيريرا وفترة أطول على باتشيكو. يقول باتشيكو "زوّجته لابنتي بعد أن أغراني شبابه ونزاهته وخصاله الحميدة وما يرجى لنبوغه الطبيعي العظيم من مستقبل مرموق(17)".
واقام فيلاسكويز مرسمه الخاص، وسرعان ما لفت النظر بايثاره للمواضيع الدنيوية. وقد اختلط بالدهماء، وكان يغبط بنقل أفكارهم وترجمة حياتهم إلى وجوههم. ورسم وهو بعد فتى في العشرين لوحة رائعة سماها "سقاء إشبيلية"(18). هنا، في ثوب رث وفي صبر جميل، صورة للفقر مع الأمانة وفي عامه الثالث والعشرين صور الشاعر جونجورا (بوسطن) ببصيرة اكتمل نضجها- فالعينان والأنف نافذة إلى صميم الحياة.
وأكبر الظن أن هذا العمل قام به فيلاسكويز خلال زيارته الأولى لمدريد (1622). لقد كانت إشبيلية وكهانها أضيق من أن يتسعا لبوغه، وساقته فورة من الطموح إلى العاصمة فانطلق إليها يتأبط "سقاءه". هناك حاول التقرب من البلاط ولكنه لم يفلح. ذلك أن فليب الرابع وأوليفارس كانا مشغولين بالسياسة والزيجات والحروب، وكان هناك أكثر

من عشرة فنانيين يتسلقون نفس السلم. وقفل ديبجو إلى إشبيلية. وانقضى عام، ثم وفد الأمير تشارلز ستيوارت على مدريد، وتردد إلى إحدى بنات الملك، وأبدى تنوقاً للفن، فأرسل أوليفارس في طلب فيلاسكويز. وركب الفتى الأسود العينين والشعر إلى العاصمة مرة أخرى، فعين مصوراً للبلاط، واستهوى الملك إذ صورته خيالاً بأسلاً يمتطي فرساً يطفّر، ولم يقنع فليب بالجلوس أمام فيلاسكويز ليصوره مراراً وتكراراً، ولكنه شجع الأسرة المالكة (الأخوة والأخوات والأطفال) ورجال البلاط (الوزراء والقواد والشعراء والمضحكين والأقزام) أن يجلس كل بدوره أمام هذه الريشة المخدلة. وأعطى ديبجو مرسماً في القصر الملكي، وفيه، أو على مقربة منه، أنفق أكثر السنين السبعة والثلاثين الباقية من عمره. لقد كانت فرصة رائعة، وكانت سجنًا مضيئاً للأفق.

صفحة رقم : 9854

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للفن الإسباني -> فيلاسكويز

على أن مؤثرين كبيرين وسعا من أفعه. ذلك روبنز، أشهر الفنانين في العالم يومئذ، زار مدريد مرة أخرى عام 1628- وكان أمام الضوء والظل، والمصور المستهتر للأرباب الوثنية والأجساد العارية الشهوانية. وتأثر فيلاسكويز بفن روبنز، ونصح هذا بأن يذهب إلى إيطاليا، وإلى البندقية خاصة، ويدرس أعمال نوابغ التلوين. والتمس ديبجو الأذن من فليب، فمنحه إجازة وأربعمئة دوكانيه ثمينة لنفقات الرحلة. وقد نحيط بمثال من سرعة الانتقال بالبحر في ذلك العصر إذا عرفنا أن فيلاسكويز غادر برشلونة في 10 أغسطس 1629، ووصل جنوة في 20 أغسطس. ثم عبر إيطاليا إلى البندقية وجلس أياماً يتأمل اللوحات القماشية العظيمة التي رسمها تينتوريتو وفيرونيزي، وصور الأشخاص والأساطير التي رسمها نتسيانو. ثم انتقل إلى فيرارا وروما، ونسخ صور التماثيل الرخامية القديمة في ساحة روما العامة، وحسد ميكل أنجيلو على رسمه الصور الجصية على سقف كنيسة السيستين الصغيرة. وقد أعانت هذه الصور الفخمة فيلاسكويز على الانتقال من ظلال كارفادجو القائمة إلى تصوير أكثر حدة للأشكال في الضوء الواضح. ثم رحل إلى نابلي ليزور ريبيرا، ومنها قفل راجعاً إلى أسبانيا (يناير 1631).

تري أهو الغرور- ذلك الظل المساند لكل نفس- الذي دفع فليب ليجلس المرة بعد المرة إلى فنان أوتي مثل هذه النظرة الثاقبة والصدق المدقق، أم كان الدافع له أن يهدي صورته لمن يطلبونها من اصحابه؟ ولكنه تحول مؤسف ذلك الذي نحظه على هيئته، فصورة الشاب الفارع الطول الرشيق القوام الذي يبدو في اللوحات الأولى تستحيل في النهاية إلى صور رجل غاض اللون من وجهه وصبغ به شعره، وأوتقراطية قائمة تنشبث بالبقاء- على الرغم من الزمن والهزائم- في العيون الزرقاء الباردة والذقن الهابسبورجي الملتف. وإذا كانت السطحية عيب هذه الصور الملكية، ففعل السبب انه لم يكن هناك شئ تحت السطح الظاهر. فإذا

صفحة رقم : 9855

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للفن الإسباني -> فيلاسكويز

كان هناك شيء ما، كما في صور جونجورا وأوليفارس، فإنه ينبعث على القماش. وتخللت صور الملك صور للملكة ايزابيللا، ثم للملكة ماريانا، ثم للملكة ماريما المجرية أخت فليب، وكلهن جلسن إلى المصور دون أن تحقق صورهن نتائج باهرة. واتخذ أخو فيليب الأصغر، الكردينال الأمير فرديناند، يرى الصياد يرافقه كلب كله عضلات وأعصاب ووفاء يقظ. أما أوليفارس فقد امتطى فرساً أدهم ليصور صورته المحفوظة بالبر دو، وجواداً أبيض بنفس الوضع بصورته المحفوظة بمتحف المتروبوليتان للفن في نيويورك. غير تارك مجالاً للشك في هوية من يملك الزمام في أسبانيا. والطف صور الحاشية هذه صور الدون بلتازار كارلوس الصغير، الذي كان مناط آمال الأسرة المالكة. وقد رسم فيلاسكويز هذا الطفل الجميل المرة بعد المرة في اغتباط واضح، مرة في 1631 ومعه قزم تابع (19)، ومرة في 1632 بعد أن أصبح فتنة البلاط (20)، ومرة في 1634 وهو يلوح بعضا المرشالية، ممتطياً في كبرياء جواداً ضخماً (وهو بعد في الخامسة)، ثم صياداً يمسك بندقية بعناية، ولكن واضح أنه أرق من أن يقتل أو يحكم؛ وفي هذا الوجه البريء خير رد على أولئك الذين رأوا أن فيلاسكويز لم يرسم غير السطوح. وهكذا جاءت صور السلسلة تترى، من سنة كارلوس الثانية إلى سنته السادسة عشرة، حين أصابت الحمى الأمير المحبوب وقضت عليه.

أمل القزم الذي يرى في إحدى هذه الصور فكان من عدة أقزام أعطوا الفاشلين في بلاط فليب شعوراً معزياً بالتفوق والعظمة. كانت عادة منحدره من روما الإمبراطورية ومن الشرق الأقدم منها. وحتى البلاط البابوي كان فيه أقزام، وقد جمع الكردينال فيتيللي منهم أربعة وأربعين لخدموا ضيوفه. وأهدى دوق بكنجهام الملكة هنريتا ماري فطيرة احتوت قزماً طوله ثماني عشرة بوصة (21). وكان أقزام فليب الرابع يلبسون الثياب

صفحة رقم : 9856

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للفن الأسباني -> فيلاسكويز

الفاخرة التي تتألق بالجواهر والذهب وإرضاء لهم وتسليتهم للناس. أما فيلاسكويز فقد صورهم بروح العطف والمرح، فواحد منهم، اسمه انطونيو الانجليزي، يبدي في كبرياء طوله عن كلبه وإن كان دونه جمالاً؛ وآخر اسمه سباستيان دي مورا يعبس في لحيته الضخمة ويزم قبضتيه سخطاً على قدره. كذلك كان في البلاط مهرجون، ورسم فيلاسكويز منهم خمسة، واحداً منهم، صورته تسمى "الجغرافي (22)" لأنه يشير إلى الكرة الأرضية، يبدو أكثر تفكيراً من أوليفارس، وثانياً يسمى بارياروسا يستل سيفاً رهيباً، وثالثاً ارتدى زي دون جوان النمسوي، ورابعاً يحاول حمل كتاب ضخمة، وخامساً تسمى صورته "الأبله" يبدو عليه جنون لا يؤدي، بل يكاد يكون لطيفاً.

وجد فيلاسكويز تفريحا من البروتوكول- برغم كونه دائماً رجل بلاط وجنرالاً لا تخطئه العين- في دراسة حياة العامة الإجماع الذين لا يزالون زينة المشهد الأسباني. ففي بواكير إشتغاله بالتصوير (1629) أفتع شابين جميلين وستة من الفلاحين بأن يجلسوا إلى صورة "السكرى". وفيها ياخوس عار تقريبا، جالس فوق برميل، يتوج بالكروم شخصاً راعياً، بينما تجمع حولهما عشاق للكرمة أجلاف، أضنى بعضهم الكد، وأشاب بعضهم الزمن؛ ولعل هذه هي الخمرية الخالدة الوحيدة في الفن الأسباني خلال القرن الذهبي. وأعجب حتى من هؤلاء السكرى لوحتان سمي فيلاسكويز الأولى "إيزوب"، وهي صورة مؤلف حزين عجوز، مملق نصف أعمى، يحمل قصصه الخرافية عبر السنين، والثانية "مانيوس" وهي صورة فيلسوف كلبى من فلاسفة القرن الثالث ق.م.، هذان وجهان يعلفان بالذاكرة. ولا يقل عن هذا كله ما تركه لنا فيلاسكويز من صور الحيوان؛ جياذ تبدو لنا اليوم ثقيلة الحركة لضخامتها، ولكن يعوض عن عيبها رؤوس تختال وعيون تلمع، ورأس غزال عليه سيماء الفلسفة، وقد استسلم لوحشية البشر، وكلاب متحفزة للجري والوثب، أو يقظانة نائمة.

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للفن الأسباني -> فيلاسكويز

تلك كانت الأعمال الجانبية التي تسلت بها ريشة فيلاسكويز، ربما تخففاً من مخاطر تصويره لكبار الحاشية دون أن ينال منهم المدح والثناء، وقد يزيد تقديرنا لأسبان القرن السابع عشر حين نرى هؤلاء النبلاء يرتدون الأثواب المتواضعة، ومع ذلك يواجهون بإيمان فخور عالماً بدا فيه وطنهم الحبيب عاجزاً مشلول الحركة لما أصابه من انحلال. فالدون ديجو ديل كورال أي أريبلانو، والكردينال جاسبار دي يورخا أي فيلاسكويز (23)، والنحات القوي البدن مونتانييس، وفارس سنتياجو الشامخ (24)، وفرانسكو دستي الثاني، الطوحي، والدون خوان فرنسيسكو بيمنتال الفخم المهيّب- تلك صور تنفذ إلى صميم النفس. وإذا كانت "صورة رجل" المحفوظة في قاعة كابيتولييتي بروما هي حقيقة صورة فيلاسكويز نفسه، كان مستحيلاً على الناظر إلا أن يحبه- بشعره المجعد في إهمال، وثوبه المتواضع، وعينه الرقيقتين المفكرتين.

ويعجب المرء كيف زحم رجال الحاشية في صور فيلاسكويز الكنيسة والموضوعات الدينية المقدسة ليحلوا محلها. لم يكن في استطاعته أن ينافس الجريكو أو ثورباران في رسم الشيوخ الرسل والقديسين بتجاعيدهم الكثيرة، ولم تنبعث قدراته كلها إلا في صورة "نتويج العذراء" دون سائر صوره الدينية. فلقد كان اغتباط أعظم بالمناظر الدنيوية وفي صورته "لاس لانتاس"، والمشهورة باسم "استسلام بريد" بسط نفسه على اللوحة بسخاء، فجعلها من أوسع اللوحات في تاريخ الفن (120 بوصة × 144)، ولكنها أيضاً من أغناها تفاصيل. وبيان ذلك أن أميروزيو دي سبينولا كان قد استرد لأسبانيا خلال الحرب الطويلة التي خاضتها ضد ثوار الأراضي المنخفضة مدينة بريد الاستراتيجية في برابانت الشمالية. والتقى فيلاسكويز بسبينولا عام 1629 أثناء رحلته عائداً من إيطاليا، ووقع من نفسه موقعاً جميلاً ذلك النبيل الفروسي الذي اتسم به القائد الكبير، فسجل هذا كله في رائعة بدا فيها الرماحون الأسبان المنتصرون يرفعون حراهم عالياً، والمدينة

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للفن الأسباني -> فيلاسكويز

تحترق، والقائد المهزوم المستسلم جوستين الناساوي يقدم مفاتيح المدينة لإسبينولا، والفتاح الشهم يهنئ الرجل المغلوب على بسالة دفاعه. ولقد حقق فيلاسكويز في مفارقات اللون العجيبة وفي تمييز كل فرد من الأتباع، نصراً أسعد فليب الرابع أن يعرضه في قصر بوين ريتيرو.

وفي عام 1649 دفع فليب نفقات زيارة فيلاسكويز الثانية لإيطاليا مكافأة له على جهد ستة وعشرين عاماً، وكلف الفنان بالحصول على مصبوبات من التماثيل الكلاسيكية وبشراء لوحات بريشة أئمة الفن الإيطاليين. ووجد فيلاسكويز أن الأسعار قد شطت، وكاد يستحيل شراء أي أثر كبير للفنانين البنادقة العظام بأي ثمن، واضطر أن يدفع 12.000

كراون (150.000 دولار؟) ثمننا لخمس صور. فهل كان اصحاب الملايين وغيرهم قد أخذوا يستغلون الفن وقاء من التضخم المالي؟

أما خير صورة رسمت في إيطاليا في ذلك العام (1650) صورة فيلاسكويز لإنوسنت العاشر. وحين ارتضى البابا أن يجلس إلى الفنان ليصوره، وشعر هاذا بقصور في التمرين، نشط يده وعينه برسم صورة لعبده الخلاسي، خوان دي باريا (26) ولقيت الصورة الاستحسان العام من فناني روما، الذين بادروا بانتخاب فيلاسكويز عضواً في أكاديمية للقديس لوقا. ولم يتح له البابا غير بضع جلسات، وقام فيلاسكويز بدراسات مبدئية للرأس، وتكاد واحدة منها- محفوظة بالفاقة الأهلية بواشنطن- لا تفرق العين بينهما وبين اللوحة النهائية التي توارثتها أسرة دوريا التي انتمى

صفحة رقم : 9859

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للفن الأسباني -> فيلاسكويز

إليها البابا؛ وقد احتفظ بها في قصر دوريا بامفيلي، حيث حكم رينولزجين رآها بأنها "أبدع صورة في روما" (28). وحين يتطلع المرء إليها اليوم يشعر بأن فيها قوة، سواء في الشخصية أو في الفن، تضعها مع لوحة "يوليوس الثالث" لتنتسيانو، في مصاف أروع الصور في جميع العصور. وكان إنوسنت العاشر في السادسة والسبعين حين جلس إلى صورته تلك، وقد مات بعدها بخمس سنين. وقد يخطئه الناظر فيحسبه أحد كبار قطاع الطرق الذين كدروا صفو كثير من البابوات، لولا ثوب البابوية وخاتمها، ولكننا حين ندرس تلك الملامح القاسية الحازمة ندرك أن إنوسنت كان ما يجب أن يكون - حاكماً يحكم دولة من الإيطاليين المتمردين، وحين يقود كنيسة من المسيحيين غير المتحذلقين بخلق المسيحية، المنتشرين من روما إلى الفلبين، ومن روما إلى بر اجواي، ولقد كان عليه أن يضع حديداً في دمه، وفولاداً في عينيه، وجبروتاً في طلعه، وقد رآها كلها فيلاسكويز ثم سجلها على لوحته. وحين رأى البابا الصورة علق عليها تعليقاً ساخراً واحداً: "إنها صادقة جداً!" (29) واعترف فنانو روما بتكوينها المتماسك، والانسجام العجيب بين ألوانها الحمراء والبيضاء والذهبية، والنظرة الشكاكة الفاحصة الجانبية تنبعث من عينين رماديتين زرقاوين، وحتى اليدين المنبتنين بقوة الشخصية. وحين رحل فيلاسكويز عن إيطاليا (يونيو 1651)، لم يعد طالباً يلتمس أئمة الفن القدامى، بل إمام فن العصر غير منازع. ذلك ان روبنز كان قد طواه الموت، وما كان لأحد أن يحلم بأن هولندياً مغموراً، أنقلت كاهله الديون وازمع على الاعتكاف بعد قليل في مغارة بامستردام، سبيعت من قبره بعد قرون لينازعه تلك السيادة. فلما عاد فيلاسكويز إلى مدريد اقتترف أفذح خطأ في حياته، ذلك أنه التمس ونال وظيفة "مدير للقصر الملكي"، ولعله سئم التصوير، أو لعله أحس أنه بلغ غاية إمكاناته في ذلك الميدان. ولم تكن الوظيفة تشرiffاً، فقد تطلبت منه الإشراف الشخصي على القصر، على أثائه

صفحة رقم : 9860

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للفن الأسباني -> فيلاسكويز

وزينته، وعلى تدفنته وصيانتته الصحية. يضاف إلى هذا ترتيب ما يقام في القصر من مسرحيات ومراقص ومباريات، وتوفير الإقامة للحاشية خلال أسفار الملك. وكان عليه أن يرافق الملك في جميع رحلاته الكبيرة، سواء للهو أو السياسة أو الحرب. هناك شئ أسخف من هذا لرجل صور أنوسنت العاشر؟ أن زهو المنصب عند فيلاسكويز طغى على شعوره بالعبقرية.

ولم يهب التصوير في السنوات التسع الباقية له من الأجل غير الوقت الذي اقتطعه من مهامه الرسمية الثقيلة. فاستأنف تصوير الأسرة المالكة، وكبار رجال البلاط، والملك نفسه. ورسم ثلاث صور جميلة للأميرة مارجاريتا، وصورها مرة أخرى مركزاً لأحدى روائعه المسماة "وصيفات الشرف"، فالخادمت والقزم والكلب من حول الأميرة، ومن خلفهم فيلاسكويز ذاته برسمهم على لوحته. ثم صورها مرة أخرى في تنورتها الزرقاء الواسعة التي جعلت ساقها بعد ذلك سراً مقدساً يكتنفه الغموض (30)، وقبيل موته رسمها معجزة من البراءة في ثوب مخرم، وفي عام 1657 زاع من البلاط ليرسم "نساجي القماش المرسوم" - وجوهاً رائعة اقتنصها بين ضجيج العمل ووقاره. وفي السنة ذاتها تحدى محكمة التفتيش، وصدم احتشام أسبانيا، وأبهجها برسمه ظهر "فينوس روكي" وأردافها الجميلة، وقد أطلق اسم روكي على الصورة لطول ما مكثت في بيت أسرة إنجليزية اشتريتها بمبلغ 500 جنيه ثم باعتها لقاعة الفن الأهلية بلندن بمبلغ 45.000 جنيه. وقد شقت إحدى المطالبات بمنح المرأة حق الاقتراع ذلك الظهر الوردى بالسلاح في سنة مواضع حين أحفظها هذا الفضح لأسرار المهنة، ولكنه أصلح ثانية إصلاحاً بديعاً.

في لوحة "وصيفات الشرف" نرى فيلاسكويز كما رأى نفسه في سنه الأخيرة - شعراً غزيراً، وشارباً فخوراً وعينين فيهما أثر من الإكتئاب، أما الفم فيبدو شهوانياً، ومع ذلك لا نسمع في سجله شيئاً من تلك

صفحة رقم : 9861

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للفن الأسباني -> فيلاسكويز

الانحرافات الجنسية والصراعات الشخصية التي تقني الكثير في كثير من الفنانين، كان يحظى بمقام رفيع في القصر بفضل أدابه العالية، وروحه المرحية، وحياته الأسرية المهذبة. وقد خلف لنا صوراً لزوجه خوانا وابنته فرانسيسكا (31)، ولعل النموذج الذي نقل عنه لوحته "السيدة ذات المروحة" (32) هو أيضاً فرانسيسكا. وقد رسم زوجها خوان باونستا ديل ماتو لوحة سماها "أسرة الفنان" (33) يبدو فيها فيلاسكويز وفي خلفيته مرسماً، ومعه خمسة أطفال أعانوا على وحدة الأسرة.

وكان موته نتيجة لوظيفته. ففي ربيع عام 1660 رتب المراسم والاحتفالات المعقدة التي تقرر أن تصاحب توقيع معاهدة البرانس على جزيرة في نهر بداسوا الواقع على الحدود، وخطبة الأميرة ماريا تريزا اللويس الرابع عشر. وكان على فيلاسكويز أن يدبر نقل الحاشية إلى منتصف الطريق عبر أسبانيا إلى سان سباستيان، ويجهز أربعة آلاف من بغال النقل لحمل الإناث والصور وقطع النسيج المرسوم وغير ذلك من زينات، وعاد المصور، الذي تاه الآن في الموظف، إلى العاصمة "وقد أضناه سفر الليل وكد النهار" كما ذكر لصديق. وفي 31 يوليو لزم الفراش مصاباً بحمى ثلثية، وفي 6 أغسطس، أو بعبارة أول مترجم لحياته "في عيد تجلي المسيح... أسلم روحه الله، الذي خلقها لتكون أعجوبة من أعاجيب الدنيا (34)". وما مضت ثمانية أيام حتى ووريت زوجته الثرى إلى جواره.

والذين لا علم لهم منا بتقنية التصوير لا يستطيعون إلا الاستمتاع بأثار فيلاسكويز - لا حاكمين على جودتها، بل تاركينها لترينا عصرنا، وبلاطاً، وملكاً خاملاً، وزوجاً جمعت بين الكبرياء والرقّة. وحتى نحن في هذا الوضع قد نتذوق ما في هذه الصور من صفاء وبساطة ووقار وصدق كلاسيكي، ونستطيع أن نحزر ما وراء انتصاراتها من جهد ومهارة، وما اقتضته من محاولات اجتهدية، وتوزيع تجريبي للأشكال، وتراكب وعمق وشفافية في الألوان، وحركة مشكلة للأضواء والظلال. أما النقاد

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للفن الأسباني -> فيلاسكويز

الذين تعبوا من المديح المتكرر فقد أشاروا إلى عيوب الفنان الأسباني الكبيرة: أخطاء صغيرة كالأغطية البلهاء التي ألبسها رؤوس أميراته الصغار، وبطون جباهه الغليظة، والوجه عديم التناسب، المعكوس في المرأة، في صورة "فينوس روكي"، ثم عيوب كبيرة، كافتقاره إلى العاطفة، والخيال، والمثالية ورقة الاحساس، وفنائه في الشخصيات لا في الأفكار فناء يكاد يكون نسانياً، وعماه الواضح عن كل شيء لا تراه عيناه(35). وحتى في أيام فيلاسكويز، اتهمه أحد منافسيه المدعو فنتسنزو كار دوتشي بطبيعية قصيرة النظر تحسب أن التشخيص المدقق للواقع الخارجي هو أسمى وظائف التصوير.

فمن يجيب عن فيلاسكويز (الذي ما كان ليحجب قط) بأنه غير مسئول عن أغطية الرؤوس ولا عن بطون الخيل تلك، وبأن العاطفة المضبوطة أوقع في النفس من العاطفة المعلنة، وبأن صور بالتازار كارلوس والأميرات، وصور وصيفات الشرف، وصور استسلام بريدا- كلها تبدي احساساً رقيقاً مرهفاً، وان "أيسوبس" و "مانيوس" دراستان في الفلسفة، وان صور جونجورا، وأوليفاريس، وإنوسنت العاشر، ليست محاكاة للظاهر بل إنبعاتاً للروح؟ وليس في فن فيلاسكويز سعي سافر وراء الجمال، بل بحث عن النوع الكاشف منه، اناث قليلات يرقق الحسن منهن، ولكن رجال كثيرون خطتهم الحياة وميزتهم.

ومع أن فيلاسكويز كان على الدوام موضع الاجلال في أسبانيا بوصفه مصورها الأعظم، فان شهرته لم تكف تعبير البرانس، ربما لأن الكثير جداً من فنه كان في البرادو - حتى قدمه رفائل منجز لألمانيا عام 1761، وكشفت عنه حروب نابليون الأسبانية لإنجلترا وفرنسا، ونادى به مانيه والتأثيريون رانداً لهم في دراسة الضوء والجو والتعبير عنهما، ووضع فيلاسكويز طوال نصف قرن في مصاف أعظم المصورين، وسماه وسلر "مصور المصورين" لأنه استأدهم جميعاً، وصرح رسكن بقوة الرجل

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للفن الأسباني -> فيلاسكويز

الحجة بأن "كل ما يفعله فيلاسكويز يمكن اعتباره صحيحاً على الإطلاق". ثم ذهب مايير- جريفي إلى اسبانيا ملتماً فيلاسكويز في البرادو، ولكنه عثر على الجريكو في طليطلة"، و "أنه ظل دائماً في حجرة انتظار الفن"(36). وفجأة اعتقد نصف العالم أن فيلاسكويز من مصوري المرتبة الثانية.

والشهرة زي من الأزياء المتقلبة، فنحن نمل تحميل أقلامنا عبارات الإعجاب القديمة، ونجد البهجة والانتعاش في أن ننبذ الأصنام البالية من خيالنا، وأن ننزل الجبايرة الذين ماتوا عن عروشهم، ونرفع آيات الحمد والتناء للألهة جديدة

نفخت فيها أصالتنا أو بعثها من رقادها صيت جديد. ولا ندري أي مكان من العظمة سيحظى به فيلاسكوزي حين يدور الزمن دورته ويغير الذوق اتجاهه من جديد.

صفحة رقم : 9864

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للفن الأسباني -> موريللو

5- موريللو

1617 - 1682

أتى على الناس حين، أيام شبابنا المؤمن، كانت في صورة موريللو "حمل العذراء غير المدنس" تتمتع بصيت ذائع كصورة رفائيل "سيسنتيني مادونا"؛ أما اليوم فما من إنسان مهما قل شأنه يؤدي لها حقها من الاحترام. ذلك أن اضمحلال الإيمان المسيحي في أوروبا وأمريكا قد اقتطع نصف الجمال من صور حسبنا الجمال ملازماً لها. وموريللو ضحية من ضحايا هذه التعرية. ولكن لنبدأ بتحية لألونسو. رجل عجيب - قسيس، ومبارز، ومصور، ونحات، ومعماري، ولد في غرناطة، وهاجر إلى إشبيلية ودرس التصوير (جنباً إلى جنب مع فيلاسكوز) على باتشيكو، والنحت على مونتانييس. صمم وحفر ورسم روافد للمذبح لكلية سان البرتو وكنيسة ساننا باولا، حيث نافس ثورباران بنجاح. وحفر لكنيسة لبريخا تماثيل دينية جذبت الطلاب من خارج البلاد ليعجبوا بها ويحاكوها. وقد اشتهر في مبارزة، وجرح غريمه جرحاً خطيراً، فهرب إلى مدريد، ونال حماية أوليفارس حين تشفع له عند فيلاسكوز، وبفضل رسومه في العاصمة

صفحة رقم : 9865

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للفن الأسباني -> موريللو

وقربها حصل على وظيفة بالبلاط. وفي عام 1644 وجدت زوجته قتيلاً في فراشها، فاتهم خادمه، ولكن تهمة القتل وجهت إليه هو. ففر مرة أخرى من النجاح، واختبأ في دير قصي، ولكن مخبأه عرف، فقبض عليه وعذب، واحتمل

كل الألام دون أن يعترف بأنه المذنب، فأفرج عنه، وبدأ من جديد. وفي عام 1651، حين بلغ الخمسين، عاد إلى غرناطة، حيث أصبح قسيساً وكاهناً من كهان الكاتدرائية، وصنع لها تماثيل وصوراً ومقارن وأبواباً بلغت كلها من الروعة ما يغتفر له معها غروره. ولما كلفه مراجع الحسابات الملكية في غرناطة بصنع تمثال للقديس أنطوني البادوي، أنجزه على نحو أراضى هذا الموظف، ولكنه مع ذلك ساومه على ثمنه. وطلب كانوا مئة دبلون (3.200 دولار؟). فسأله الموظف "كم يوماً استغرق منك صنعه" أجاب: "خمسة وعشرين" قال المحاسب، "فأنت تقدر جهدك إذن بأربعة دبلونات لليوم؟" أجاب "أنك لا تحسن الحساب"، فقد أنفقت خمسين سنة لأصنع تمثالاً كهذا في خمسة وعشرين يوماً". قال "وأنا أنفقت شبابي وميراثي في دراستي الجامعية، والآن أصبحت محاسب غرناطة، وهي مهنة أشرف بكثير من مهنتك، لا أكسب في اليوم غير دبلون واحد" وصاح به المثال "تقول مهنتك أشرف من مهنتي! فأعلم أن في قدرة الملك أن يصنع محاسبين من تراب الأرض، ولكن الله يحتفظ لنفسه بخلق فنان كألونسو كانو". ثم هشم التمثال لفره في سورة غضبه (37). وطن الناس حيناً أن محكمة التفتيش ستسجنه، ولكن فليب الرابع بسط عليه حمايته، ومضى كانو في رسم صور وحفر تماثيل -جلها ديني- حملت عشاق عبقريته المتعددة الجوانب على أن يلقيوه ميكل أنجيلو أسبانيا. وكان ينفق مكاسبه بالسرعة التي يحصل بها عليها، على وجوه البر عادة، وتقدمت به الأيام وهو في فقر اضطر هيئة الكاتدرائية لاعتماد معونة مالية له. وقد رفض وهو على فراش موته صليبا يمثل المسيح مصلوباً قدم إليه، لأنه سيئ الحفر.

صفحة رقم : 9866

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للفن الأسباني -> موريللو

أما برتولومي استيبان موريللو فرجل مختلف تماماً- متواضع، دمث الخلق، تقي، معبود تلاميذه، ومحبوب منافسيه، ومعين للبر بالناس شهدت إشبيلية مولده عام 1617 وهي يومها قصبية الفن الأسباني، وكان آخر أربعة عشر طفلاً. ودرس التصوير على خوان دي كاستيلو، ولكن موت أبويه فقيرين وهو بعد في الرابعة عشرة اضطر الصبي اليتيم إلى كسب قوته برسم صور فجة سريعة لسوق أسبوعية. وإذ سمع أن فليب الرابع عطوف على الفنانين اتخذ سمته إلى مدريد (؟) حيث صادقه فيلاسكويز- في رواية غير مؤكدة (38) وأسكنه منزله، وحصل له على إذن بدخول قاعات الفن الملكية، وشجعه على دراسة أعمال ريبيرا، وفان ديك، وفيلاسكويز.

على أننا نلقاه في إشبيلية ثانية عام 1645. ذلك أن دير فرانسيسكانيا بها عرض أجراً غير مغر نظير رسم سبع صور كبيرة، واحترق الفنانون الراسخون هذا الأجر، ولكن موريللو رضى به، وأنتج أول روائعه "مطبخ الملائكة" (39)، وفيها يبدو الملائكة قادمين من السماء يحملون الطعام ويطهونه ويمدون الموائد ويطعمون الصالحين في مجاعة، ومع أن موريللو حاول أن يتأثر بالأسلوب الفحل الذي جرى عليه ريبيرا وثورباران، إلا أنه روى القصة متأثراً بميله للعاطفة الرقيقة. هذه الصورة، هي وصورة "موت القديسة كلارا" (40) "صنعتنا شهرة الفنان، وأقبل نصف مثقفي إشبيلية ليعجبوا، ثم تكاثرت عليه الطلب. وكان أكثر ما طلب إليه صوراً كنيسة، فتدفقت من ريشته صور العذراء، والعائلة المقدسة، والقديسين في وفرة موفقة، وأغنت الأساطير المسيحية بالجميل من النساء، والوسيم من الرجال، والظريف من الأطفال، وبالألوان الوردية والجو الصوفي حتى انعطفت نحوه أوروبا لأنه أحب العارضين لأحب العقائد إلى نفوس الناس.

وإذ وجد موريللو رزقه على هذا النحو، فإنه غامر بالزواج وهو في

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للفن الأسباني -> موريللو

الثلاثين، وملاً بيته بضجيج تسعة أطفال وشجارهم وبهجتهم، وشقي من أجلهم راضياً حتى موته ونفدته هيئة الكاتدرائية عشرة آلاف ريال عن لوحته "القديس أنطوني البارودي" التي ما زالت معلقة هناك. وتؤكد لنا قصة يشنبيه أنها صدى لأسطورة رويت عن زيوكس (41)، ولكنها طبعت قبل موت موريللو بأحد عشر عاماً، تقول إن الطيور التي طارت داخل الكاتدرائية حاولت أن تحط على الزنابق المرسومة في الصورة، وراحت تنقر الفاكهة (42). ومع أن مواضيعه كانت جلها دينية، فإنه جعلها إنسانية أكثر منها كنسية. وإذا كانت أوربا الكاثوليكية الرومانية كلها قد أحببت النسخ الكثيرة التي أذاعها نقلاً عن لوحته "حمل العذراء غير المدنس" (43) فما كان ذلك لمجرد أنها احتقلت بموضوع محبب جداً لأسبانيا ولذلك الجيل، بل لأنها توجت الأنوثة في سحابة من المثالية والقداسة. وقد استوحى الفنان نساء الأندلس الفاتنات ذوات الحس الجنسي المتواضع ليرسم صورة عذراء الصلوات (44) والعذراء العجرية، وصورة "العائلة المقدسة والطائر" ذات الجمال الأسمر (45). ومن رسم الأطفال خيراً منه؟ إن صورة "البشارة" المحفوظة بالبرادو تطالعنا فيها صبية دخلت سن المراهقة، فيها خفر ورقة، أية الحياة ذاتها. وقد وجد موريللو نماذج للأشكال الكثيرة التي صور بها المسيح طفلاً في الأطفال الحسان الوجوه الذين أحاطوا به في بيته وشارعه، ولعله استمتع بهم هم أكثر من استمتاعه بالموضوع المقرر، ورسمهم في صورة لا تقل فتنة عن أي صور للأطفال رسمت أيام النهضة الإيطالية. وكان إذا عجز عن حشر الأطفال في لوحاته الدينية يرسمهم فرادي. وفي "بيت الفن" بميونخ حانط حافل بهم: صبيان يرمون النرد، وغلمان يأكلون الشمام لأنه طريقة محتملة لغسل وجوههم، وصبي يمضغ الخبز بينما تظلي أمه شعره. وصورة "الصبي المطل من نافذة" (47) تبين بوضوح

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للفن الأسباني -> موريللو

أن المال والسعادة تشاجرا وافترقا، فليكن إذن "الصبي ذا الكلب" (48) والعالم سبيله إلى الرزق. وفي صورة "الغلام المتسول" المحفوظة باللوفر يستأذن الفنان المثالي القوى العليا، وينظر إلى الحياة على الأرض، ويجدها جميلة حتى ولو لبست أسماً بالية. إن موريللو في واقعيته يحتفظ بمثاليته. وعاش - كما رسم - دون مأساة، إلا في ختام عمره. ذلك أنه تسلق سقالة لينجز صورة في كنيسة بقادس، فزلت قدمه وسقط فانكسر كسراً خطيراً أصاب دمه بالتسمم، وما لبث ابن الأندلس جميعها، الأثير لديها، أن مات (1682)، وكان موته مفاجئاً حتى أنه لم يستطع إتمام وصيته وخط فوق قبره ما أوصى به، وهو اسمه، وهيكل عظمي، وكلمتان "فيفي موريتوروس" - أي عش كأنك تموت وشيكاً. وظلت مكانته طوال قرنين عالية عند أولئك الذين تهمهم ما تقوله الصورة أكثر مما تهمهم الكيفية التي تقولها به. وقد أذاع قواد نابليون صيته بسرقتهم صورته وبيعها غنيمة حلالاً. وأكثر النساخ غير الأكفاء من نقل لوحاته فشكوا النقد في فنه. كان على علم بتقنية صناعته، ولكن ضيق من رقعته كثيراً ذلك التوفيق الذي أصابه مع الكنيسة؛ وقد غالى في

الاستسلام لجانب الحياة الأنثوي العاطفي، فما بدأ جميلاً أصبح بالتكرار الثابت مجرد شئ لطيف على نحو لا يؤثر في نفس الناظر. وكان قديسوه يتطلعون إلى السماء في إصرار كثير أنسى أوربا هذا الفنان حين انصرفت عن السماء. ولهذا السبب نفسه أغفلت النظر إلى التصوير الأسباني عامة بعد سنة 1680. وبينما كانت أوربا تتجادل حول المسيحية، ظلت إسبانيا متشبثة بتراتها الوسيط، فلم يلفت فيها أنظار العالم ثانية إلا عند مجيء جويبا. وإبان حياة موريللة قضت على القرن الذهبي للفن عشرات العوامل الفتاكة. وكان الذهب ذاته، والبحث عنه في الأقطار الأجنبية، بعض هذه العوامل: ذلك أن شباب إسبانيا و عنفوانها تحررا من سجن شبه الجزيرة ليكشفوا الأمريكيتين ويستغلاهما، والذهب الذي أرسله إليها أفسد

صفحة رقم : 9869

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> العصر الذهبي للفن الأسباني -> موريللو

الحياة الأسبانية، وشجع التكاسل، ورفع الأسعار، أو وقع غنيمة للسفن الهولندية أو الجنوبية التي تحمل التجارة الأسبانية. واختزنت الحكومة المعادن النفيسة، وغشت العملة، وطردت المغاربة المنتجين، واستكثرت من الوظائف وباعتها، وفرضت الضرائب على كل شئ إلى حد اللامبالاة الاقتصادية، وبعثرت الثورة في الحملات الحربية ومظاهر البذخ في البلاط بينما الصناعة تذبل، والبطالة تنتشر، والتجارة تذوي، والسكان يتقلصون، والمدن تخرب. وفقدت الحكومة ذات الطابع الأرستقراطي الضيق كل كرامة، فوضعت صناديق التبرعات في الشوارع، والتمست المال من بيت إلى بيت لتمول عجزها في الداخل وهزائمها في الخارج(49). أما الجيوش الأسبانية المرابطة في صقلية ونابلي وميلان، الشافة طريقها في غابات العالم الجديد وبراريه، المضنية نفسها في حرب الثلاثين، الخائضة حرباً خاسرة لقهر عناد ثوار الأراضي المنخفضة وإصرارهم الذي لا يصدق- هذه الجيوش استنزفت الموارد البشرية والمادية لدولة صغيرة جبلية نصف صحراوية، تحبسها حدودها في بحر يسيطر عليه منافسوها التجاريون وأعداؤها البحريون. ولم يبق غير الأديرة والكنائس، متشبثة بأملكها الشاسعة، اللاصقة بها، المعفاة من الضرائب، مستكثرة من الرهبان في حياة عاطلة غالية الثمن. وبينما كان الدين يسترضي الفقر بصكوك على الجنة، ويخنق الفكر، ويدعو إسبانيا للعيش على ماضيها، أجزلت فرنسا وإنجلترا مكافأة الصناعة، واستولتا على التجارة، ودخلنا رحاب المستقبل. أن التلاؤم مع البيئة المتغيرة هو لب الحياة، وهو أيضاً ثمنها.

صفحة رقم : 9870

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الصراع على فرنسا -> القوى المتنافسة

الفصل الثالث عشر

1- القوى المتنافسة

الإنسان حيوان منافس مادام يخشى الخطر أو يذكر افتقاره إلى الأمن. كذلك حال الجماعات والطبقات والأمم والأجناس التي تقتقد شعور الأمن. فهي تتنافس بذات الحرص الذي يتنافس به الأفراد المؤلفون منهم، ويعنف أشد، لأنها أقل تقيداً بالقانون، وتمتعا بالحماية، ان الطبيعة تدعو جميع الكائنات الحية إلى العراك. وفي حمة الصراع الأوربي بين حركة الإصلاح البروتستنتي (1517) وصلح وستقاليا (1648) استخدم هذا التنافس الجماعي الدين ستاراً وسلاحاً لتحقيق الأهداف الاقتصادية أو المآرب السياسية. فلما ألقى المحاربون سلاحهم بعد قرن من النضال، احتفظت المسيحية ببقائها وسط الخرائب بشق الأنفس.

كانت فرنسا أول من عانى وأول من أفاق، فقد كانت «حروبها التي خاضتها من 1562 إلى 1594 بالنسبة لها ما ستكونه حرب الثلاثين (1618-48) بالنسبة لألمانيا، والحروب الأهلية (1642-48) بالنسبة لإنجلترا. ذلك أنه عند موت هنري الثاني في صراع مؤسف (1559) وارتقاء ابنه البالغ من العمر خمسة عشر ربيعاً العرش باسم فرنسيس الثاني، كانت الأمة على شفا الإفلاس من جراء النزاع الطويل بين آل هابسبورج وملوك فالوا. كان مجموع إيراد الدولة السنوي آنذ 12.000.000 جنيه وبلغ الدين الأهلي 43.000.000. وتخلفت رواتب كثير من الحكام المحليين أربع سنوات، واستحال اقناع الشعب الفرنسي بدفع الضرائب (1). وترددت ليون في الفوضى الاقتصادية عام 1559 إثر انهيار مالي مفاجئ. وكان من أثر تدفق فضة أمريكا وذهبها إلى فرنسا بطريق أسبانيا والبرتغال

صفحة رقم : 9871

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الصراع على فرنسا -> القوى المتنافسة

أن هبطت قيمة العملة، وتضخمت الاسعار، وانطلق سباق شرس بين الأجور والأسعار لم يفد منع غير الرأسماليين العلميين ببواطن الأمور والمنشغلين بالمضاربات. وحاولت الحكومة عام 1567 وعام 1577 أن تسن القوانين لتحديد أقصى الأسعار والأجور، ولكن التزام الاقتصادي طعى على القوانين (2)، واستشرى التضخم، ربما باعتباره طريقة غير دينية لدفع نفقات الحروب الدينية. أما المنظمة الغنية الوحيدة في الدولة فكانت الكنيسة الكاثوليكية التي انضوى

تحت لوائها 94.000 من رجال الدين (في عام 1600) ، و 80.000 راهبة، و 70.000 راهب أو أخ، و 2.500 يسوعي، وملكت الكاتدرائيات المهيبة، والأسقفيات الفخمة، والأراضي الشاسعة المثمرة، لقد كان ثلث ثروة فرنسا- وقيل ثلثاها- ملكاً للكنيسة(3). وتوارت خلف الحروب الدينية تلك الرغبة في الاحتفاظ بهذه الثروة الكنسية أو الحصول عليها.

وواتى الحظ الكنيسة بارتقاء شارل دجيز منصب كبير وزراء فرنسيس الثاني، وكان قد نصب كردينالاً للورين وهو لا يتجاوز الخامسة والثلاثين. وقد أخذ الأموال من آل جيز لقبهم هذا من قلعتهم القريبة من لاون، ولكن مقرهم الرئيسي كان في اللورين، التي لم تندمج في فرنسا إلا مؤخراً. أما الكردينال فكان رجلاً وسيم الطلعة، حاضر الذكاء، مهذب المسلك، إدارياً قديراً، يملك ناصية البلاغة في اللاتينية والفرنسية والإيطالية، ولكن شغفه بالمال والسلطان، ونفاقه المصقول، وتحفزه لاضطهاد الخوارج والانتقام من المعارضين، وخفضه الجريء نفقات الحكومة كل هذا خلق له أعداء في كل طبقة تقريباً. وكان أخوه الكبير، فرنسيس دوق جيز، قد اكتسب سمعة في الاستراتيجيات وميادين القتال، وأصبح الآن وزيراً للحربية، ولكن إفلاس البلاد كان يتطلب السلام، لذلك كان على فرنسيس أن يشبع أطماعه في تبطر مثير، فعشق مظاهر العظمة، والثياب الفاخرة، والعرض الفروسي، ولكن آدابه الملوكية وكياسته ومسلكه

صفحة رقم : 9872

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الصراع على فرنسا -> القوى المتنافسة

الشخصي-كلها جعلت منه معبود فرنسا الكاثوليكية. ولم يكن يطبق الهرطقة، فرأى استئصال شأفتها بالقوة(4)-وكان هو وأخوه على يقين من أن الكنيسة ستشرف لا محالة على الفناء إذا اعتنقت فرنسا البروتستنتية كما اعتنقتها ألمانيا وإنجلترا، وان فرنسا ستفقد تلك الحماسة الدينية التي دعمت من قبل نظامها الاجتماعي ووحدتها القومية. وفي سبيل الدفاع عن إيمانها وسلطانها تحدى الأخوان جيز الكثير من المخاطر، ولقيا حتفهما قبل الأوان، وشاركاً تبعه إيذاء فرنسا وتعذيبها.

لم يعد الهيجونوت أقلية ضئيلة عاجزة من الفرنسيين البروتستنت يقودهم ويلهمهم كالفن من جنيف، بل ثورة عقائدية واجتماعية واسعة الانتشار على الكنيسة. وقد قدرهم كالفن بعشر الشعب الفرنسي عام 1559(5). وقدر ميشليه إن عددهم تضاعف عام 1572(6). كان لهم مراكز في كل إقليم من دوفيني إلى بريتي، ولا سيما في الجنوب الغربي من فرنسا، حيث استؤصلت في الظاهر هرطقة الأليجينس قبل ثلاثة قرون. فعقدوا اجتماعاتهم للصلاة برغم قوانين الخطر التي أصدرها فرنسيس الأول وهنري الثاني، وعاشوا على العظائم الجادة التي تبشر بالجبرية، وأصدروا الكتيبات النارية حول مفاسد الكنيسة وعسف الأخوين جيز، وعقدوا مجمعاً عاماً في باريس (26 مايو 1559) تحت سمع الملك وبصره. لقد أعلنوا ولاءهم للملكية الفرنسية، ولكنهم نظموا الأقاليم التي سادوها وفق الأساليب الجمهورية. وصاغوا لهم ما تصوغه أية أقلية مضطهدة من إيدولوجية مؤقتة للحرية، ولكنهم وافقوا الكاثوليك على أن من واجب الدولة أن تفرض «الدين الحق» على فرنسا كلها. وكانت نظريتهم الخلقية أكثر صرامة من ناموس خصومهم الذي تراخى مع الزمن، فاجتنبوا الرقص، والثياب البهية، والمسرح، ونددوا ساخطين بأخلاق القصر، حيث «الرجال لا يغرون النساء» بل النساء يغرون الرجال(7) كما قالت جان دالبير لابنها.

صفحة رقم : 9873

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الصراع على فرنسا -> القوى المتنافسة

أما الملكة الأم، كاترين دي ميديشي، فرأت أن الدين عند الفريقين «إن هو إلهام لا نفع له إلا إخفاء الأحقاد والضغائن، ومع ذلك فقلوبهم لا تتطوي على شيء أضر من الدين(8). ولعلها قست في حكمها هذا، ولكن ما من شك في أن العوامل الاجتماعية والاقتصادية كانت تكمن خلف الصراع الديني؛ وثبت الفلاحين على الكتلعة، ولم يكن لهم مصلحة في هذا النزاع، ولم يجدوا جبرية صارمة كالبروتستانتية بديلاً يعوضهم عن الأساطير المعزية وملطفات الأعياد التي أتاحتها لهم عقيدتهم القديمة. أما البرولتاريا، الصغيرة عدداً الكبيرة بروح الثورة، فقد نددت برؤسائها واستمعت في تعاطف إلى صوت «الإصلاح» لأنه يعد ببعض التغيير، وكما حدث في إنجلترا اللورد والبيورتان وألمانية حرب الفلاحين، كذلك أصبح الإنجيل هنا كتاب الثورة(9). كذلك استمعت الطبقات الوسطى إلى الوعاظ الأجرياء الذين دربتهم جنيف وبعثتهم إلى فرنسا. وأما رجال الأعمال الذين التقوا في الأسواق الكبيرة بالأثرياء من الألمان والانجليز والسويسريين فقد لاحظوا الحلف الناجح بين هؤلاء التجار وبين الحكام البروتستانت والأفكار البروتستانتية. لقد طالما كابدوا الإهانات تحت سلطان الأساقفة والبارونات الذين احتقروا التجارة وارتبطوا بعبادات الإقطاع. وسرهم وأثار حسدهم ما علموه من عطف كالفن على دنيا المال والأعمال، ومن إشراكه العلمانيين في رقابة الأخلاق والأشراف على الكنيسة. وقد كرهوا ثراء الكنيسة وعشورها، وغازتهم المكوس الإقطاعية المفروضة على التجارة. ولم يستطيعوا أن يغتفروا الملكية إخضاعها الكومونات البلدية للحكومة المركزية بعد أن ظلت قروناً حكرأ سياسياً لهم(10). وحتى أصحاب المصارف رضوا عن الهيجونوت الذين لم يحتقروا تقاضي الفائدة على المال، وهو الأمر الذي استكرته الكنيسة منذ زمن سحيق، وأن اغضت عنه مؤخرأ بعين لاهوتية وقور.

وكان كثيرون من النبلاء يعتقدون قضية الثوار، لأنهم هم أيضاً لم يرتضوا

صفحة رقم : 9874

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الصراع على فرنسا -> القوى المتنافسة

مركزة السلطة في دولة موحدة. ولا بد أنهم سمعوا بأمر الأقاليم الألمان الذين استطاعوا بتحالفهم مع البروتستانتية أن يتحدوا الأباطرة والبابوات، والذين أثروا من غنائم الكنيسة، إذن فما الذي يحول دون استخدام هؤلاء الهيجونوت البواسل أداة جاء أوانها لتهديب الملك وإخضاعه؟ لقد كان النبلاء يهيمنون على حقول فرنسا ومحاصيلها وفلاحيتها، وينظمون فرقها العسكرية ويقودونها، ويسيطرون على حصونها، ويحكمون أقاليمها، فلو أن حركة الإصلاح كسبت طبقة النبلاء لدعت ظهرها بقوة منتشرة في الأمة كلها. وقد نبه كردينال اللورين هنري الثاني عام 1553 إلى أن النبلاء ينحازون إلى صف الهيجونوت. فلم يحل عام 1559 حتى كان النبلاء في نورمانديا، وبريتني، وبواتو، وأنجو، ومين، وسانتونج، يتزعمون ثورة الهيجونوت علانية.

لم تغتفر أسر البوربون المعتزة بنفسها لأسرة قالوا الحاكمة أنها دفعت شارل دوق بوربون إلى الخيانة والموت قبل الألوان (1527)، ولا استطابوا إقصاءهم عن الحكم على يد آل جيز المتعصبين لقومهم، والذين اعتبروهم أغراباً أصلهم من اللورين الذي كان ألمانياً أكثر منه فرنسياً. لقد كان لويس الأول البوربوني، أمير كوندية، سليلاً للملك لويس التاسع، يجري في عروقه الدم الملكي، وتسمو مرتبته فوق مرتبة الأخوين جيز، وقد انضم إلى الهيجونوت، ومات في محاولته الوصول إلى السلطة على جناح عقيدتهم. أما أخوه انطوان البوربوني، ملك نافار لقباً والذي لا يحكم فعلاً

غير إقليم بيارن في جنوب فرنسا الغربي- فقد انحاز حيناً إلى صف الهيجونوت، متأثراً إلى حد كبير برأي زوجته جان دالبير. وكانت جان الابنة المناضلة لأم رقيقة هي مارجريت النافارية، التي احتفظت في الظاهر بكتلتها إحتراماً لأخيها فرنسيس الأول، ولكنها بسطت حمايتها على كثيرين من المهروطين والهيجونوت... وكما أن الأم مثلت النهضة في حبها للحياة والشعر، فكذلك مثلت جان دور النساء في الإصلاح البروتستنتي الفرنسي

صفحة رقم : 9875

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الصراع على فرنسا -> القوى المتنافسة

وخلقهن-غيورات في دينهن إلى حد التعصب، يربين أطفالهن ويكرسهم ليوصلوا الحرب المقدسة حتى الموت أو النصر. وقد أنشأت ولدها الشهير الذي عرف فيما بعد بهنري الرابع، على كل فضيلة إسبرطية وبيوريتانية، ولم يفسح لها في الأجل حتى تراه يرتد إلى مرح النهضة المنحل. ولا بد أنها لأعجبت أشد الإعجاب بجاسبار دكوليني، فقد جمع في شخصه كل مثلها الأعلى: إنسان شريف لقباً وخلقاً، وزعيم حصيف وفي لقضية الهيجونوت، وجندي ورجل دولة صارم أخذت مناقبه خيانات البلاط المتوارية خلف طلاء زائف.

كان كالفن قد حذر أتباعه الهيجونوت من المقاومة العنيفة للحكومة(11). ولكن صبرهم عيل تحت وطأة الاضطهاد. ذلك أن هنري الثاني كان قد أمر جميع القضاة بأن يحكموا بالإعدام على كل البروتستنت المتشبهين بعقيدتهم (يونيو 1559). ثم جدد فرنسيس الثاني هذا الأمر بتحريض من الأخوين جيز، وأضاف إليه أمراً بهدم جميع المباني التي تعقد فيها اجتماعات دعاة الإصلاح البروتستنتي، وأمراً بإعدام الأشخاص، وحتى الأقرباء، الذين يؤوون مهرطقاً محكوماً عليه، أو يقصرون في إبلاغ الحكام عنه. وفي الشهور الخمسة الأخيرة من عام 1559 أحرقت ثمانية عشر شخصاً أحياء لتماديهم في الهرطقة، أو لرفضهم حضور القداس أو تناول القربان الكاثوليكي. وفر مئات من الهيجونوت الفرنسيين إلى جنيف حيث أوهم كالفن. أما الذين بقوا في فرنسا فقد بدأوا ينظمون أنفسهم لخوض الحرب الأهلية.

وفي 23 ديسمبر 1559 أحرقت أن دبور لأنها اجترأت في «برلمان» باريس على إدانة الاضطهاد بسبب الهرطقة. وبعد هذا بقليل خنق جاسبار وهو في قصر فانسين الريفي بأمر الأخوين جيز، وتآمر زوج أخته، جودفروا دباري، سيد إقليم روندي، مع الأشراف وغيرهم على اعتقال الأخوين جيز وعزلهما بهجوم مباغت يقومون به في أمبواز، واكتشف

صفحة رقم : 9876

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الصراع على فرنسا -> القوى المتنافسة

كردينال اللورين المؤامرة، فجرد جنده وقهر المتآمرين وقبض عليهم، ثم شنق بعضاً، وقطع رؤوس بعض، ووضع بعضاً في زكائب وقذف بهم في اللوار. جاء في سجل أخبار معاصر «لا شيء غير شنق الناس أو إغراقهم طوال شهر بأكمله، حتى غطت الجثث نهر اللوار» (مارس 1560)(12). ودعي كوندية للمثول أمام المحكمة الملكية ليجيب عن تهم الاشتراك في المؤامرة، فذهب وأنكر التهم، وتحدى كل من يتهمه بالإحكام إلى السيف، ولم يقدم أي دليل ضده، فأخلى سبيله.

وأزعجت كاترين «فتنة أمبواز» هذه، وعلو مكانة المتآمرين، ووحشية قمع الحركة، وحمى الثأر التي أوجبت سخط الهيجونوت والنبلاء، فأقنعت الملك الضعيف والأخوين جيز، الكارهيين لرأيها هذا، باتاحة الفرصة لتجربة التسامح. ودعت ميشيل دلوبيتال ليتقلد منصب المستشار (مايو 1560) وطلبت إليه ان يهدئ من هياج فرنسا. وكان ميشليه قد تعلم خلال طلبه العلم في إيطاليا أن يكون إنسانياً لا دجماطياً، وقد عامل الكاثوليك والبروتستنت خلال توليه القضاء الإقليمي في فرنسا معاملة المساواة في الشفقة والاعتبار. لذلك اقترح الآن على البرلمان نفس الآراء التي أفضت إلى حرق دي بور: «كل إنسان صنع ديناً لنفسه، ولكن بعض الناس... يودون أن يقبل دينهم هم ويطاردين غيرهم... فعلياً أن نترفق بعضنا ببعض، وأن نخترع طريقة للعيش معاً» (13) وعملاً بنصيحته دعت كاترين مجلساً للأعيان يتألف من الكاثوليك والبروتستنت، انعقد في فوننتبلو في 21 أغسطس 1560. وقدم كوليني في المجلس إلتماساً للملك مرفوعاً من الهيجونوت أكدوا فيه ولاءهم له، ولكنهم طلبوا حرية العبادة كاملة ودعا بعض الأساقفة إلى الاعتدال من الطرفين، وحضوا الأكليروس على أن يصلحوا من أخلاقهم. وقرر المجلس أن المشاكل التي ينطوي عليها بحثه تقتضي دعوة مندوبين من كل الطوائف والطبقات في فرنسا. فأمر الملك بعقد مجلس الطبقات هذا في 10 ديسمبر، وحظر أثناء ذلك أي

صفحة رقم : 9877

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الصراع على فرنسا -> القوى المتنافسة

محاکمات على تهمة الهرطقة حتى يفصل المجلس الجديد في أسباب الخلاف الأساسية التي تحدث الانقسام والفرقة في البلاد.

أما البوريون الهيجونوت فقد رفضوا حضور مجلس الأعيان مخافة أن يقبض عليهم، وإذا تشكك أمير كوندية وانطوان ديوربون في إمكان التوفيق، فإنهما تأمرا لجمع جيش وإقامة دولة مستقلة تتخذ ليون عاصمة لها. ولكن الحكومة اعترضت طريق أحد سعاة كوندية، وفضحت أوراقه المؤامرة، فقبض على كوندية، وحوكم، وحكم عليه بالاعدام في 10 ديسمبر. واستعاد الأخوان جيز سلطتهما الدكتاتورية. وإذا الموقف يتغير فجأة يموت فرنسيس الثاني (5 ديسمبر) وهو بعد في السادسة عشرة، فخلفه أخوه شارل التاسع في تقلد سلطته رسمياً، ولكن لما كان لا يتجاوز العاشرة، فقد قبل وصاية أمه، التي انضمت الآن إلى اليزابيث ملكة إنجلترا، وفليب الثاني ملك أسبانيا، في توجيه الفوضى الأوربية نحو تحقيق مآربهم المتضاربة.

صفحة رقم : 9878

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الصراع على فرنسا -> كاترين دي مديتشي

2- كاترين دي مديتشي

ما زالت هذه المرأة لعزاً برغم انقضاء أربعة قرون من التفسيرات المتعارضة. كانت سليلة لورنزو الفاجر، وحفيدة البابا ليو العاشر، فهي إذن المديتشي النموذجية، في ميراثها الحكم، وفي دمها الدهاء، ولدت في فلورنسة (1519) لأبوين ماتا بالزهرى قبل أن تتم الشهر، فظلت قطة الشطرنج عاجزة تحركها دبلوماسية أقربائها المتحفظين للعراك، حتى زوّجها عمها البابا كليمنت السابع وهي بعد في الرابعة عشرة لهنري الثاني ملك فرنسا المقل. وظلت عشر سنوات عاقراً بينما كرس زوجها المكتئب نفسه لخليلته ديان دبواتييه. ثم أنبعث الاطفال من بطنها كل سنة تقريباً حتى بلغوا العشرة عدداً. وكانت تؤمل وتخطط لتتال لهم العرش. ومات ثلاثة منهم أطفالاً، وارتقى ثلاثة عرش فرنسا، وأصبحت اثنتان منهم ملكات. وذاقوا كلهم تقريباً مرارة الأماسة، ولكنها كانت أكثرهم

صفحة رقم : 9879

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الصراع على فرنسا -> كاترين دي مديتشي

فجيعة، لأنها عمرت بعد موت زوجها وثلاثة من أبنائها الملوك واحداً بعد الآخر وسواء كانت ملكة أو ملكة أمأ؛ فقد احتملت صروف عهود ملكة أربعة وسلختها بفضل ما أوتيت من حصافة وضبط للنفس ونفاق لا يتقيد بمبادئ الشرف. وصفها معاصر بأنها «امرأة جميلة حين يتوارى وجهها خلف القناع» (14) أي أن لها قواماً جميلاً، ويؤكد لنا برانتوم أن صدرها «أبيض ممثلي» وأن «فخذاها غاية في الجمال» وأن يديها وأناملها بديعة (15). ولكن قسماتها كانت خشنة، وعينيها أكبر وشفتيها أغلظ وفمها أوسع مما ينبغي. فإذا كانت قد أغوت الرجال فإنما عن طريق غيرها من النساء. وقد أرجفت الشائعات بأنها احتفظت من حولها بـ «سرب طائر» من الحسان اللاتي يغرين الرجال بتحقيق مآربها (16)، ولكن يبدو أن هذه التهمة باطلة (17)، فقد جرح كرامتها تسلط ديان في السياسة والحي معاً، ومن ثم وجدت بعد موت هنري ثارها بأن جعلت نفسها القوة الكامنة وراء العرش مدى ثلاثين عاماً، وكان لزاماً أن يعوض دهاؤها عن عجز أبنائها، لقد كرهوا تدخلها، ولكن اخفاقهم في الملك فرض هذا التدخل. وإذا ألقيت في دوامة الثورة الدينية، وأحاط بها الأشراف المغامرون واكتنفها الدجماطيات المتعصبة، فقد حاربت بالأسلحة الوحيدة التي تملكها - وهي المال المديتشي والفتنة الإيطالية، والدبلوماسية المكيفالية. لقد أهدى مكيفالي كتابه «الأمير» لأبيها من قبل، ولم تكن كاترين في حاجة لتعليمه، لأنها رأت مبادئه مطبقة في كل مكان من إيطاليا وفرنسا. وقد بزت جميع رجال الدولة الملتفين حولها كما فعلت اليزابث ملكة إنجلترا، وفاقتهم في الكذب، و «كان لديها من الخدع أكثر مما لدى جميع مستشاري الملك (18)». وقد صرفت شؤون الدولة بهمة وكفاية. قال مراقب إيطالي «لم يكن ليتم شيء دون علمها، وقل أن وجدت متسعاً لتناول طعامها (19)» -مع أنها بطريقة ما أصبحت بدينة. أما أخلاقياتها الشخصية فقد سمت فوق جيلها، إذ

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الصراع على فرنسا -> كاترين دي مديتشي

يبدو أنها كانت مخلصاً لزوجها غير المخلص، وفيه لذكره، لبست الحداد عليه حتى نهاية حياتها. وقد ترفق في الحكم عليها أعظم خلفائها هنري الرابع فقال:-

«سألكم ماذا كان في استطاعة امرأة أن تفعل بعد أن تركها موت زوجها بخمسة أطفال صغار على ذراعيها، وأسرتين في فرنسا تفكران في انتزاع التاج-أسرتا (البوربون) وأسرة جيز؟ ألم تكن مكرهة على أن تلعب أدوارا غريبة، لتخدع الواحد أو لا ثم تنتهي الآخر، حتى تحمي أبناءها كما حمتهم، وتيسر لهم أن يملكو الواحد بعد الآخر بفضل السياسة الحكيمة التي اتبعتها هذه الأم الداهية؟ أنه ليدهشني إنها لم تتصرف قط على نحو أسوأ مما فعلت(20)».

ولعلنا نرتضي هذا الحكم تقديراً منصفاً لمسلك كاترين قبل عام 1570. فقد ضربت هذه الأسر والقوى المنافسة التي أحاطت بها بعض ببعض. وكتبت تقول: «أنني بمشيئة الله لن أسمح لنفسني بأن يتحكم فيها هذا الفريق أو ذلك، لأنني أيقنت للأسف أنهم جميعاً يحبون الله، والملك، وأياي، أقل مما يحبون مكاسيهم... وإشباع أطماعهم(21)». كان فيها من خلق إيطالي النهضة ما زهداها في صرامة الهيجونوت الجبرية، ثم إنها كانت تطلب قرصاً من الكنيسة لتحول دون إفلاس الدولة(22). ومع ذلك ففي سبيل فرنسا كانت على استعداد لتزوج ابنتها مارجريت لهنري نافار الهيجونوتي، وابنها هنري لاليزابث المحرومة من الكنيسة. ونظرت إلى الموقف في صورته الأسرية والسياسية لا الدينية أو الاقتصادية. وكان عليها أن تحمي وطنها المقسم من تحالف أسبانيا والنمسا الهابسبورجي. وكانت معاهدة كاتو-كامبريزي قد تركت القوة الأسبانية متفوقة في فلاندر، ومتعدية تعدياً خطيراً على شمال فرنسا الشرقي. وقد تشتعل الحرب القديمة بين أسرتي فالوا وهابسبورج من جديد في أية لحظة، وعندها تحتاج فرنسا

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الصراع على فرنسا -> كاترين دي مديتشي

إلى دماء وسلاح الهيجونوت والكاثوليك على السواء فالخطر من الخارج يتطلب السلام في الداخل. بهذا المزاج استعدت هي ومستشارها لوبيتال للاجتماع بمجلس طبقات الأمة في أورليان. ولم تكن «أقاليم» بل كانت «طبقات»: النبلاء، والأكليروس، وبقية فرنسا ممثلة في الطبقة الثالثة-وهي أساس البورجوازية أو الطبقات الوسطى ساكنة المدن الكبيرة والصغيرة، ولكنها تضم أيضاً في تمثيل متواضع الفلاحين والبرولتاريا الناشئة. ولم يكن للمندوبين نظرياً أي سلطة تشريعية لأنهم انتخبوا بالقوى المحلية والطبقية لا بأي اقتراح واسع، وكل ما كان لهم ن حقوق هو حق إسداء النصيحة للملك، على أن حاجته للمال عززت هذه النصيحة بعض التعزيز. وافتتح لوبيتال الدورة (13 ديسمبر 1560) بدعوة مثالية للتسامح من الفريقين. وقال مناشداً إن وظيفة الحكومة هي حفظ السلام والنظام والعدالة بين جمع المواطنين دون تحيز ودون نظر لأرائهم الدينية، ومن المرغوب فيه أن يكون الفرنسيون جميعاً على دين واحد، لأن هذا من شأنه أن يعين على الوحدة والقوة القوميتين، ولكن إذا لم يكن في

الاستطاعة بلوغ هذا الاتفاق العام بالوسائل السلمية، فالتسامح إذن خير وأبقى. فمنذا الذي يعرف ما الهرطقة وما الحق؟ «أنت تقول إن دينك أفضل الدينين، وأنا أقول كذلك عن ديني، فهل اعتناق رأيك معقول أكثر من اعتناق رأيي؟... فلننه إذن هذه الأسماء الشيطانية، وهذه البطاقات الحزبية والشيع والتحرصات على الفتنة-اللوثريين، والهيجونوت، والكاثوليك؛ دعونا نغير أسماءنا إلى مسيحيين(23)» ولكن الاستجابة لم تكن حارة. وطالب فقيه من لاهوتي السوربون-وهي يومئذ كلية اللاهوت في جامعة باريس-بالموت جزاء لكل المهترطين، ونصح مندوب البابا كاترين بأن تبدأ بحرق جميع المندوبين الهيجونوت، ثم تنتهي بجميع الهيجونوت في أورليان(24). أما المندوبون الهيجونوت

صفحة رقم : 9882

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الصراع على فرنسا -> كاترين دي مديتشي

فاقترح على الملكة الأم شتى الإصلاحات: أن يختار الشعب جميع رعاياه الدينيين؛ وأن يختار الرعاة وأشراف الأسقفيات أساقفتهم؛ وأن يخصص ثلث الإيرادات الكنسية لإعانة الفقراء، وثلث آخر لبناء الكنائس والمستشفيات والمدارس؛ وأن تقتصر تعاليم الكنيسة على الأسفار المقدسة(25) وكان في هذا من التقدمية أكثر قليلاً مما تطيقه كاترين، مع حاجتها الماسة لأموال الكنيسة. فهدأت نائرة الهيجونوت بالإفراج عن كوندية السجين وحض البابا بيوس الرابع على السماح بإزالة الصور والتماثيل الدينية من الكنائس ومناولة الأسرار المقدسة بالخمير كما تناول بالخبز(29). وفي 28 يناير 1561 أفرجت عن جميع الأشخاص الذين اعتقلوا لـ «جرائم» دينية، وأمرت بإنهاء كل الاضطهادات بسبب الدين حتى إخطار آخر. وفي الحادي والثلاثين من يناير أجلت اجتماع مجلس الطبقات إلى مايو حين ينقصد ويسد حاجتها للمال.

واغتبط الهيجونوت وتمددوا في دفع هذه القرارات. ففي 2 مارس عقدوا في بواتييه مجمعهم القومي الثاني. وراح القساوسة البروتستنت يعضون دون تحرج في مساكن كوندية وكوليني بلاط فوننتيلو. وفي كاستر بجنوبي فرنسا خصت الانتخابات البلدية (1 يناير 1561) البروتستنت بجميع الوظائف، وما لبث أن صدر الأمر لجميع المواطنين بحضور الخدمات الدينية البروتستنتية(27)، وحظر أ الخدمات الكاثوليكية، وحكم على الصور والتماثيل الدينية رسمياً بالإتلاف والتحطيم(28). وفي أجن ومونتوين استولى الهيجونوت على الكنائس الكاثوليكية غير المستعملة. فشكل حاكم القلعة الهرم أن دمومورنسي هو ودوق جيز ومارشال دسانت أندريه «حكومة ثلاثية» لحماية المصالح الكاثوليكية (6 أبريل 1561). وتفجر الشغب في باريس، وروان، وبوفيه، وغيرها. وأصدرت الملكة «مرسوم يوليو» (1561) الذي حظر العنف وخدمات الهيجونوت الدينية العلنية وتجاهل الهيجونوت المرسوم، وهاجموا المواكب الكاثوليكية في

صفحة رقم : 9883

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الصراع على فرنسا -> كاترين دي مديتشي

مختلف المدن، ودخلوا الكنائس الكاثوليكية وأحرقوا الآثار والرفات المقدسة وحطموا التماثيل (29). وفي مونبلييه، في خريف عام 1561، نهبت الكنائس والديورة والستون كلها، وقتل كثير من القساوسة، وفي مونتوين أحرق دير «كلير الفقيرة» وشتت الراهبات ونصحن بأن يجدن لأنفسهن أزواجاً (30). وفي نيم طرد الهيجونوت جميع القساوسة، واستولوا على كل الكنائس الكاثوليكية أو دمروها، وأحرقوا الكاتدرائية، وداسوا القربان المكرس بأقدامهم (فبراير 1562) (32). أما في لانجدوك وجيين فكان الهيجونوت عادة إذا ملكوا زمام الأمر يستولون على الكنائس والأماكن الكاثوليكية ويطردون الكهنة الكاثوليك. ولم يكن القساوسة الهيجونوت أقل تعصباً من نظرائهم الكاثوليك وإن امتازوا في فضائلهم الشخصية (34)، فقد حرموا الهيجونوت الذين عقدوا زواجهم على يد القساوسة الكاثوليك أو سمحوا لأبنائهم بالزواج من الكاثوليك (35). وهكذا لم ير أحد الطرفين أي معنى للتسامح. وأسنانف مجلس الطبقات جلساته في أول أغسطس 1561 متخذاً بونتواز مقراً له هذه المرة. وقد المال للحكومة مشروطاً ضرورة موافقته بعد ذلك على أي فرض للضرائب الجديدة أو إعلان للحرب. أما الطبقة الثالثة، التي أصبحت الآن المورد الأكبر للمال، فقد أضافت طلباً جريئاً - هو تأمين جميع أملاك الكنيسة الكاثوليكية في فرنسا، وأن تدفع الدولة رواتب الأكليروس، وأن تخصص 42.000.000 جنيه من الفائض الحاصل بهذه الطريقة وقدره 72.000.000 جنيه لاستهلاك الدين الأهلي. وسارع رجال الدين الكاثوليك المروعين إلى مصالحة كاترين بأن عرضوا عليها 16.600.000 جنيه تدفع لها في حذر على عشرة أقساط سنوياً. فقبلت، وحل مجلس الطبقات في هذه الأثناء كان لوبيتال - بموافقة كاترين وبرغم احتجاج البابا - قد دعا رجال الدين الكاثوليك والبروتستنت للاجتماع وإيجاد صيغة لتهدئة

صفحة رقم : 9884

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الصراع على فرنسا -> كاترين دي مديتشي

الخواطر. واجتمع في بومبي، على أحد عشر ميلاً غربي باريس، ستة كرادلة، وأربعون أسقفاً، وإثنا عشر لاهوتياً من السوربون، وإثنا عشر من كهنة الكاتدرائيات، وعشرة قساوسة بروتستنت من فرنسا، وواحد من إنجلترا، وتيودور ديبز من جنيف، وعشرون علمانياً بروتستنتياً، في «ندوة بواسي» المشهورة (9 سبتمبر 1561). حضر الندوة الملك، والملكة الأم، وأمراء البيت المالك، ومجلس الدولة، بكل مظاهر الجلال والكرامة. واستقبل بيز، ممثل كالفن الشيخ، بحفاوة تقرب من حفاوة الملوك، وقام بخدمة دينية بروتستنتية ووعظ في قصر كاترين. بدأ عظته معتدلاً، وسحر السامعين جميعاً بفرنسيته الرائعة، ولكنه حين قال إن «جسد المسيح في القربان بعيد عن الخبز المكرس بعد السماء عن الأراضي»، صاح المندوبون الكاثوليك احتجاجاً، وتلا ذلك هياج كبير، والح الأساقفة في نفي كل الوعاظ الذين يتشككون في «الوجود الحقيقي» (36)، وارتضت الندوة والصراع على العقائد أشد مرارة وأبعد ما يكون عن الهدوء.

كان الهيجونوت يطربون حين يعقدون اجتماعاتهم في ميدان عام مواجه لكنيسة ويشوشون على القديس بترنيل صاحب لمزاميرهم، أما الكاثوليك فكانوا يدقون جرس الكنيسة ليغرقوا صوت الترتيل. وفي باريس استحال استمرار اجتماع بروتستنتي تجاه كنيسة سان ميدار بسبب قرع عنيف صادر من برج الأجراس، وقتل بروتستنتي داخل الكنيسة للاحتجاج، فتارت نائرة البروتستنت ونهبوا المبنى وحطوا التماثيل والصليب. وجرح ثمانون من المصلين في المعركة التي تلت ذلك (27 ديسمبر 1561).

ورأت كاترين أن تهدئ خواطر الكاثوليك بإصدار «مرسوم يناير» (1562)، الذي ألزم الهيجونوت بتسليم جميع المباني الكنسية لأصحابها السابقين وبعقد اجتماعاتهم خارج أسوار المدن فقط. ووافق زعماء الكاثوليك

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الصراع على فرنسا -> كاترين دي مديتشي

بيز على أن هذا مرسوم تسامح في حقيقته، اعترف بالبروتستنتية ديناً شرعياً في فرنسا؛ وقال زعماء البرلمان لكاترين صراحة إنهم يؤثرون الموت على تسجيل هذا المرسوم. فلما أدان مونمورنسي وسانت أندريه سياستها. طردتهما من البلاط؛ ولما انفجر غضب الكاردينال دتورنون عليها ألزمته عقر أسقفية. ورمها الوعاظ الكاثوليك بالفسق (مثل ايزابييل امرأة أخاب)- وهو نفس النعت الذي كان يستعمله نويس البروتستنتي تنديداً بملكة اسكتلندة الكاثوليكية.

وفي يوم الأحد أول مارس 1562، بينما كان فرنسيس دوق جيز ماراً بقرية فاسي التي تقع نحو أربعين ميلاً شمال غربي ديجون، ومعه فرقة من مائتي تابع مسلحين، وقف بكنيسة هناك ليستمع إلى القداس. ولكن الصلاة شوش عليها ترتيل الهيجونوت لمزاميرهم في اجتماع لهم بجرن قريب. فأرسل إليهم رسولا يطلب إليهم أرجاء ترتيلهم خمس عشرة دقيقة حتى ينتهي القداس. ولكنهم وجدوا في هذا الطلب مضايقة شديدة. وبينما كان جيز يواصل صلاته تراشق بعض أتباعه بعبارات التحية المتعصبة مع الهيجونوت، وجرد الأتباع سيوفهم، وقذفهم الهيجونوت بالحجارة؛ وأصاب حجر منها جيز وهو خارج الكنيسة فأسال دمه النليل، وما هي إلا أن اندفع أتباعه هاجمين على اجتماع الهيجونوت الذي ضم خمسمائة بين رجل وامرأة وطفل-فقتلوا منهم ثلاثة وعشرين، وحرروا مائة(37). وأثارت «مذبحة فاسي» هذه حمى القتال في البروتستنت الفرنسيين؛ أما الكاثوليك، لاسيما في باريس، فرحبوا بها أداة تهذيب جاءت في أوانها لتؤدب هذه الأقلية المكدرة لصفو البلاد. وأمرت كاترين جيز بأن يحضر إليها في فوننتبلو، فرفض ومضى إلى باريس، وانضم إليه مورنمورنسي وسانت أندريه في الطريق ومعهم ألفا رجل. وأمر كونديه قوائمه البروتستنت بأن تتجمع بسلاحها في مو. وزحف الثلاثي الكاثوليكي بالجند على فوننتبلو، فاعتقلوا الملكة الأم والأسرة المالكة، واکر هوهم على البقاء في ميلون على سبعة

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الصراع على فرنسا -> كاترين دي مديتشي

وعشرين ميلاً من باريس، ثم شكلوا «مجلساً خاصاً» جديداً ألف أكثر أعضائه من رجال جيز، وأقصى عنه لوبيتال. أما كونديه فقاد محاربيه البالغين 1.600 إلى أورليفي وناشد كل الجماعات البروتستنتية أن تمدّه بالجنود. وهكذا بدأت أولى «الحروب الدينية» (ابريل 1562).

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الصراع على فرنسا -> حكم الدم

3- حكم الدم

1570-1562

طلب الفريقان المعونة من الخارج وحصلوا عليها، الكاثوليك من أسبانيا، والبروتستنت من إنجلترا وألمانيا، فأرسلت اليزابث 6.000 رجل إذ أغراها وعد البروتستنت بإعطائها كالية، واستولى 2.000 منهم على روان، ولكن جيز انتزع المدينة ونهبها (26 أكتوبر 1562)، ونهب جنده المتعطشون للغنيمة السكان الكاثوليك والبروتستنت وذبحوهم دون تحيز لأي فريق، وفي هذه الاشتباكات جرح أنطوان ديبوربون جرحاً مميتاً، وكان قد اعتنق المذهب الكاثوليكي وانضم إلى القوات الكاثوليكية. وسيطر الهيجونوت على معظم المدن جنوبي فرنسا، ناهبين الكنائس محطمين التماثيل بحماسة دينية. وزحفت أهم قواتهم وعدتها 17.000 رجل يقودهم كونديه وكوليني على نورمانديا لينضموا إلى التعزيزات الإنجليزية. فقط عليهم الزحف عند درو جيش كاثوليكي قوامه 17.000 يقوده الحلف الثلاثي، وفي 19 ديسمبر خاض الفريقان معركة حامية حلفت 6.000 صرعى في الميدان، وقتل سانت أندريه، وجرح مونمورنسي وأسر الهيجونوت، وجرح كونديه وأسر الكاثوليك. وتغلّبت روح المجاملة الفرنسية حيناً، فعمل مورنورنسي معاملة الأبطال، وهو الذي دأب على القتال جنباً إلى جنب مع جنوده وجرح في سبع معارك مع أنه القائد الأعلى لجيوش الملك، أما الدوق دجيز فقد أحتفى بكونديه ضيفاً مكرماً، وتناول معه الطعام، وشاركه الفراش الوحيد الموجود في المعسكر (38). وعقد النصر غير الحاسم للكاثوليك، ولكن بارييس والأسرة المالكة اعتقداً حيناً أن الهيجونوت هم الغالبون. واستقبلت كاترين النبا في هدوء قائلة: «حسناً إذن، سنصلي لله بالفرنسية» (39).

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الصراع على فرنسا -> حكم الدم

أما جيز فقد لقي منيته عقب الانتصار. فبينما كان ينشر قواته لحصار أورليان رماه فتى هيجونوتي في التاسعة عشرة يدعى جان بولترو دمييريه (18 فبراير 1563) بطلق ناري من كمين. ومات الدوق بعد سنة أيام من الألم، وأكد

بولترو حين أحضر أمام كاترين أن كوليني استأجره على قتل جيز بمبلغ كبير من المال، وأن بيز وعده بالجنة إن وفق. وكتبت كاترين لكوليني تطلب جوابه عن التهمة، فأنكر أي مشاركة في خطة الاغتيال، وقال إنه طالما حذر الدوق من القتلة، واعترف بأنه سمع بولترو يجهر بنيته، وأنه لم يفعل شيئاً لمنع، وأنه نفحه بمائة كراون، ولكن لأغراض أخرى، وهو على أي حال غير أسف لنجاح المؤامرة، «لأنه ليس في استطاعة» القدر أن يضرب ضربة خيراً من هذه لصالح المملكة وكنيسة الله، ولا سيما وأنها لصالح وصالح ديني(40)». ومزقت الخيل أوصال بولترو في 18 مارس، وقد أعاد اتهامه لكوليني وهو يعاني سكرات الموت(41). وأقسم هنري أن يثأر لموت أبيه، بعد أن أصبح الآن ثالث أدواق جيز.

وواصلت كاترين سعيها للسلام، وقد وضح لها أنه لو أتيح النصر الحاسم لأحد الفريقين لنحائها وربما عزل ولدها. فأعدت لوبيتال لمنصبه مستشاراً لها، ورتبت لقاء بين مونمورنسي وكونديه، وأقنعتهم بتوقيع مرسوم أمبواز الذي أنهى الحرب الدينية الأولى (19 مارس 1563). أما الشروط فكانت نصراً للنبلاء الهيجونوت وخدمهم: فقد منحت حرية الضمير وممارسة الدين «المسمى مصلحاً» «لجميع البارونات والسادة الإقطاعيين رؤساء القضاء في بيوتهم، هم وعائلاتهم وأتباعهم» و «للاشراف المالكين لاقطاعات بدون أتباع والعائشين على أراضي الملك، ولكن لهم ولأسرهم شخصياً». أما عبادة الهيجونوت فيسمح بها حيث مارسوها قبل 8 مارس 1563، وألا تقصر على أطراف مدينة واحدة في أي وكالة إقطاعية أو منطقة نفوذ الشريف. أما في باريس فهي محظورة

صفحة رقم : 9889

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الصراع على فرنسا -> حكم الدم

إطلاقاً. واتهم كوليني بأنه ضحى بجماهير الهيجونوت ليحمي طبقته. وفي 16 سبتمبر أعلن بلوغ شارل التاسع رشده وهو لم يبلغ الرابعة عشرة، ونزلت كاترين عن وصيتها، ولكنها لم تنزل عن قيادتها. ففي مارس 1564 قادت الملك وحاشيته في رحلة تخترق فرنسا، من جهة لترى الأمة مليكها الجديد، ومن جهة أخرى لتدعم السلام الهش. وأصدرت في روستون مرسوماً بالتسامح الجزئي، داعية كلاً من الفريقين إلى احترام حرية الآخر. وبعد أربعة عشر شهراً من الرحلة الملكية وصلت الجماعة إلى بايون (3 يونيو 1565)، حيث رحبت كاترين في ابتهاج بابنتها اليزابث التي أصبحت ملكة على أسبانيا، واجتمعت مع الدوق ألفا في مفاوضات سرية أز عجت الهيجونوت. فقد خامرتهم الظنون بحق في أن ألفا أشار باتخاذ الإجراءات ضدهم، ولكن خطاباته المتخلفة لفليب تبين أن كاترين رفضت اقتراحاته، وأبت أن تطرد لوبيتال، وتشبثت بسياستها السلمية(42). وعقب عودتها إلى باريس (ديسمبر 1565) استخدمت كل نفوذها لتصلح بين كوليني، ومورنورنسي، وكونديه، ودوق جيز.

وفي عام 1564 دخل اليسوعيون فرنسا، وأثارت عظاتهم حماسة الكاثوليك، وحولوا في باريس خاصة نفرأ من الهيجونوت لمذهبهم. أما في الأقاليم فقد ألغى رد الفعل الكاثوليكي كثيراً من المكاسب البروتستنتية. وانتهكت مراسيم التسامح المرة بعد المرة، وأفرخت الهمجية في ظل المذهبيين. ولم يكن من غير المؤلف أن يشنق حكام الأقاليم المواطنين لا لجرمة سوى أنهم هيجونوت(43). وفي نيم ذبح البروتستنت ثمانين كاثوليكياً (1567)(44). وبين عامي 1561 و 1572 اقتزفت ثمانين عشرة مذبحاً للبروتستنت، وخمس للكاثوليك، وأكثر من ثلاثين اغتيلاً(45). واستخدمت كاترين الجنود المرتزقة من سويسرة ولم تعط كونديه جواباً

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الصراع على فرنسا -> حكم الدم

شافياً حين سألها عن قصدها من استقدامهم، واعتقد كونديه وكوليني أن حياتهما في خطر، فحاولا مع أتباعهما المسلحين أن يقتلوا الملك والملكة الأم في مو (سبتمبر 1567) ولكن مومورنسي أحبط المحاولة. وأصبحت كاترين تخشى كوليني خشيتها جيز من قبل.

وأحس كوليني وكونديه أن الحاجة ماسة لحرب ثانية ترد للهيجونوت ولو حقوقهم المحدودة. فاستقدا هما أيضاً المرتزة لا سيما من ألمانيا تعزيزاً لقواتهما المستنزفة، واستوليا على أورليان ولاروشل وزحفاً على باريس وطلبت كاترين التعزيزات من ألفا، فوافها بها فوراً، وفي سان دنيس، خارج العاصمة مباشرة، قاد مومورنسي ستة عشر ألف رجل ضد جيش كونديه في معركة من أشنع هذه الحروب وأقلها حسماً. ومات مومورنسي من جراحه. وراحت فرنسا مرة أخرى تتساعل أي دين هذا الذي يدفع الناس إلى مذابح كهذه، واغتنم لوبيتال الفرصة ليرتب صلح لونجومو (33 مارس 1568)، الذي رد التسامح المتواضع الذي منحه مرسوم امبواز.

وندد الكاثوليك بالمعاهدة ورفضوا تنفيذ شروطها. واحتج كوليني لدى كاترين، فدافعت عن نفسها بضعفها. وفي مايو 1468 أبلغ خوان دي ثونيجال، سفير أسبانيا في روما، أنه سمع من البابا بيوس الخامس أن الحكومة الفرنسية تتظر في اغتيال كوليني وكونديه (46). ولعل مثل هذا النبأ قد نَمى إلى الزعيمين البروتستانتين، فهربا إلى لاروشيل، حيث انضمت إليهما جان دالبير وابنها، الذي بلغ الآن خمسة عشر عاماً وكان يتحرق للعمل. وتكون جيش هيجونوتي جديد، وحشد أسطول، وعززت الأسوار، وصدت كل محاولات بذلتها قوات الحكومة لدخول المدينة. وقبِلت المراكب الخاصة الإنجليزية تفويض كونديه، ورفعت رايته، وانقضت على كل ثروة كاثوليكية تقع في يدها (42). وأصبح كونديه السيد المتصرف جنوبي اللوار.

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الصراع على فرنسا -> حكم الدم

أما كاترين فقد اعتبرت هذه الحرب الدينية الثالثة ثورة، ومحاولة لقسم فرنسا إلى أمتين واحدة كاثوليكية والأخرى بروتستنتية. ولامت لوبيتال على فشل سياسات التوفيق التي أخذ بها، فاستقال، وأحلت مكانه في منصب المستشار مشايحاً متعصباً لآل جيز. وفي 28 سبتمبر 1568 ألغت الحكومة مراسيم التسامح وحظرت البروتستنتية في فرنسا. وأخذت القوات المتنافسة تتجهز لحرب فاصلة طوال ذلك الشتاء. وفي 3 مارس 1569، التحمت في جارانك قرب أنجوليم. فهزم الهيجونوت، واستسلم كونديه بعد أن أعيته إصاباته، ولكنه ضرب بالنار من المؤخرة ومات. فتسلم كوليني القيادة وأعاد تنظيم الجيش لتقهقر منظم. وفي موكونتور هزم الهيجونوت ثانية، ولكن كوليتي استعاد ببراعة التخطيط ما خسره في المعركة، وزحف الهيجونوت الذين لا تقل لهم عزيمة، برغم افتقارهم إلى الانتصارات، وبلا طعام تقريباً، حتى لم يبق بينهم وبين باريس غير مسيرة ساعات (1570). وعلى الرغم من الاعانات المالية التي أرسلتها روما وأسبانيا، وجدت الحكومة مشقة في تمويل جيوشها وحمل النبلاء الكاثوليك على البقاء في ساحة القتال

أكثر من شهر أو شهرين كل مرة. واجتاحت جحافل المرتزقة خلال ذلك البلاد تتهب الكاثوليك والبروتستنت على السواء وتقتل كل من يجروء على المقاومة. وعرضت كاترين على كوليني تجديد معاهدة لونجومو، فرفضها لأنها لا تقي بالغرض، وواصل زحفه. هنا أكد الملك الفتي شارل التاسع سلطته فجأة وأبرم في سان جرمان (8 أغسطس 1570) صلحاً أعطى الهيجونوت الذين هربوا مرارا من قبل أكثر مما كسبوا في أي وقت مضى، أعطاهم حرية العبادة إلا في باريس أو على مقربة من البلاط، وحققهم الكامل في تقلد المناصب العامة، وحق الاحتفاظ بأربع مدن تحت حكمهم المستقل مدى عامين ضماناً لاحترام تنفيذ هذه الشروط. واستشاط الكاثوليك غضباً وتساءلوا، فيم الاستسلام بعد كل هذه الانتصارات؟ واحتج

صفحة رقم : 9892

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الصراع على فرنسا -> حكم الدم

فليب والبابا. وصرفتها كاترين بتأكيد أنها إنما تترقب الفرصة المواتية). ومع ذلك راحت تدعم الصلح الجديد بعرضها تزويج ابنتها مارجریت فالوا من هنري ملك نافار، الذي أصبح بعد موت ونديه الزعيم الرسمي للهيجونوت. وكانت هذه آخر ضرباتها وأجرئها. لا يهم كونها هي وجان دالبير خصمين لدودين، ولا أن هنري قتل في الحرب من قتل من الكاثوليك. إنما المهم أنه صغير السن مطواع، فلربما استطاع سحر أميرة جميلة مرحلة أن يحتذبه بعيداً عن هرطقاته. إذن ستشهد باريس زفافاً باهراً، وسيدعى إليه الرجال والنساء من المذهبيين؛ وستبعث من جديد روح النهضة المرححة وسط مرارة الإصلاح البروتستنتي؛ وسيكون هناك تعطيل لنشاط اللاهوت، والحرب، والقتل.

صفحة رقم : 9893

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الصراع على فرنسا -> المذبحة

4- المذبحة

ولكن، أترضي بذلك أم هنري؟ لقد كانت جان دالبير هيجونوتية دماً ولحماً. وحين جاءت إلى البلاط عام 1561 أعلنت أنها "المن تحضر القداس ولو قتلوها قتلاً، وأنها تؤثر أن تلقى بابنها وملكه في البحر عن أن تستسلم(48)"، بل إنها دعت قسيسها الهيجونوتي ليعظها والأبواب مفتوحة على مصارعها، وتجاهلت في تحد الاتهامات التي رمتها بها الجماهير الباريسية. وحين اعتنق زوجها الكاثوليكية تركته هو والبلاط (1562) وعادت إلى بيارن وجمعت المال

والجيش لكوندييه. وبعد موت زوجها فرضت البروتستنتية على إقليم بيارن (وكان يضم مدن بو، ونيراك، وتارب، وأورتيه، ولورد)؛ وطردت الكهنة الكاثوليك وأحلت محلهم القساوسة الهيجونوت (49). ولم يسمع بعدها قداس في بيارن طوال

صفحة رقم : 9894

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الصراع على فرنسا -> المذبحة

خمسين عاماً (50). وحرّمها البابا بيوس الرابع وأراد أن يعزلها، ولكن كاترين ثنته (51)، ولعل جان ذكرت هذا حين قبلت عرضها بربط أسرتي فالوا وبوريون برباط الزواج، وذكرت كفاح كاترين الطويل في سبيل السلام. ثم أن أبناء كاترين معلولون. أفليس من المحتمل أن يموتوا كلهم ويتركوا عرش فرنسا لهنري نافر؟ أو لم ينتبأ العراف نوسترا داموسي بأن أسرة فالوا ستقرض عما قليل؟
أما أكثر أبناء كاترين سقاماً، وهو شارل التاسع، فربما كان فتى محبباً لولا نوبات طارئة من القسوة والغضب تشتعل أحياناً فتستحيل سورة تشرف على الجنون. وفيما بين هذه الغضبات كان قسبة تحركها الريح، وإمعة لا رأى له. ولعله أضعف نفسه بالانهماك في اللذات. كان زوجاً لاليزابيث ابنة الإمبراطور مكسمليان الثاني، ولكن حبه الحرام الثابت كان لخليته الهيجونوتية ماري توشيه. وكان حساساً للفن والشعر والموسيقى، يحب أن يتلو غنائيات رونزار، وقد كتب في تكريم رونزار أبياتاً جميلة جمال شعر رونزار:

كلانا يلبس تاجاً،

أما أنا فتلقّيته ملكاً، وأما أنت فتعبه شاعراً،

أن قبّارتك التي تسحر بأنغامها الحلوة،

تخضع لك الأرواح، التي لا أملك غير أجسادها،

إنها ترقق القلوب، وتسترق الجمال،

في قدرتي أن أعطي الموت، أما أنت فتعطي الخلود.

فلما انضم كوليني إلى البلاط في بلوا (سبتمبر 1571) رحب به شارل كما يرحب الضعف بالقوة. هنا رجل مختلف كل الاختلاف عن الكثيرين الذين يتراقصون حول العرش: جنّلمان، وأرستقراطي، ولكنه هادئ رزين، يحمل نصف فرنسا في قوة كلمته. وكان الملك الشاب يخاطب القائد المكتهل بـ "أبي"، وعينه قائداً للأسطول، ومنحه من جيب

صفحة رقم : 9895

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الصراع على فرنسا -> المذبحة

الملك الخاص 100.000 جنيه تعويضاً عن خسائره في الحروب. وانضم كوليني إلى مجلس الملك ورأسه في غيبابه (52). وكان شارل دائم الغيرة والخوف من فيلب الثاني، كارهاً تبعية فرنسا الكاثوليكية لأسبانيا. واقترح عليه كوليني الرأي في حرب مع أسبانيا تعطي فرنسا قضية توحد صفوف الفرنسيين، وتصحح ذلك الحد الشمالي الشرقي الذي تتعدى عليه أسبانيا، ولقد أن اوانها لأن وليم أورنج يقود ثورة قامت بها الأراضي المنخفضة على سيدها الأسباني، فما هي إلا دفعة قوية حتى تصبح فلاندر فرنسية. واستمع إليه شارل في تعاطف. وفي 27 أبريل كتب إلى الكونت لوي تاسو الذي تزعم التمرد البروتستنتي في إينو يقول "إنه مصمم... على استخدام القوى التي أودعها الله في يده لتخليص الأراضي المنخفضة من الظلم الذي ترزح تحته (53)". وعرض لوي وأخوه وليم أورنج تسليم فلاندر وأرتوا لفرنسا لقاء تقديمها المعونة الحاسمة ضد أسبانيا (54). وفي خريف تلك السنة تفاوض شارل مع أوغسطين ناخب سكسونيا لتأليف حلف دفاعي بين فرنسا وألمانيا البروتستنتية (55). أما كاترين فقد حكمت على اقتراحات كوليني بأنها غير عملية إلى حد الحماقه. فمن الخرق أن تعود بهذه السرعة إلى إطلاق شياطين الحرب بعد أن ظفرت بالسلام الذي تفتقر إليه فرنسا أشد افتقار. صحيح أن أسبانيا مفلسة إفلاس فرنسا، ولكنها ما زالت أقوى دولة في العالم المسيحي، ولقد كللت نفسها مؤخراً بالغار حين هزمت الترك في ليبانتو، وذن فستكسب تأييد كل أوربا الكاثوليكية، ومعظم فرنسا الكاثوليكية- لو دخلت فرنسا حلفاً بروتستنتياً. وفي حرب كهذه سيكون كوليتي القائد الأعلى، وبفضل نفوذه على شارل الطبع سيكون هو الملك الفعلي، وستنحي كاترين إلى شينونسو إن لم يكن إلى إيطاليا. وعلم هنري جيز وهنري أنجو - أخو الملك- في فزع أن شارل سمح لكوليني بتجريد جيش للانضمام إلى لوي ناسو؛ وقهر ألفا هذا الجيش بعد أن نبهه إليه أصدقاؤه في البلاط الفرنسي (10 يوليو 1572). واستمع اجتماع كامل

صفحة رقم : 9896

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الصراع على فرنسا -> المذبحة

لمجلس الملك إلى كوليني يدفع عن مقترحاته للحرب مع أسبانيا (6-9 أغسطس 1572)، ورفضت كلها بالاجماع؛ ولكن كوليني أصر عليها قائلاً "لقد وعدت على مسؤوليتي بمساعدة أمير أرنج، فأرجو ألا يسوء الملك أن أوفي بوعدني عن طريق أصدقائي، وربما بشخصي. " ثم قال للملكة "سيدتي، إن الملك يتجنب اليوم حرباً تعده بمنافع عظيمة، وقانا الله نشوب حرب أخرى لا يقوى على تجنبها(56) ". وانفض المجلس في غيظ شديد لما بدا كأنه تهديد بحرب أهلية ثانية. وقال المارشال دتافان "التحذر الملكة من مشورات ابنها الملك وخططه وأحاديثه السرية، أن الهيجونوت ظافرون به إن لم تأخذ حذرهما(57) ". وأخذت كاترين شارل جانباً ولامته على أنه أسلم عقله لكوليني، فإن أصر على شن الحرب على أسبانيا فستستأذنه في الانسحاب مع ابنها الآخر إلى فلورنسة. وطلب إليها الصفح ووعدها بطاعة الابن لأمه، ولكنه ظل الصديق الوفي لكوليني. في هذا الجو قدمت جان دالبير إلى بلوا لعقد الزواج الذي كان مزماً أن يوحد فرنسا الكاثوليكية والبروتستنتية. وأصررت على أن يقوم الكردينال دبوربون بالمراسم لا بصفة الكاهن بل الأمير، لا داخل كنيسة ولا خارجاً، وألا يصحب هنري زوجته إلى الكنيسة ليستمع إلى القداس. ووافقت كاترين، وان أفضى هذا إلى مزيد من النزاع مع البابا، الذي رفض الحل لمارجريت بالزواج من الابن البروتستنتي لبروتستنتي محروم. ثم ذهبت جان إلى باريس تتسوق، فمرضت بذات الجنب، وماتت (9 يونيو 1572). وخامرت الهيجونوت الطنون بأنها ماتت مسمومة، ولكن هذا الفرض لم يعد له محل(85)، وحضر هنري نافار إلى باريس من بلوا في أغسطس على الرغم من شكوكه وحزنه، مصحوباً بكوليني وثمانمائة من الهيجونوت. ولحق بهم أربعة آلاف هيجونوتي في العاصمة(59). من جهة ليشهدوا الاحتفالات، ومن جهة أخرى ليحموا ملكهم الشاب. وأثار هذا السيل المتدفق وما رافقه من عشرات العظا

صفحة رقم : 9897

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الصراع على فرنسا -> المذبحة

النارية حفيفة باريس الكاثوليكية(60)، فنددت بالزواج لأنه استسلم من الحكومة للقوة البروتستنتية. ومع ذلك تم الاحتفال (18 أغسطس) دون حل من البابا، وأخذت كاترين تدابيرها لتمنع البريد من الاتيان بحظر بايري. وقاد هنري زوجته حتى باب نوتردام، ولكنه لم يدخل معها. إن باريس لم تكن في نظره تستأهل بعد أن يحضر قداساً من أجلها. ونزل مع مارجريت قصر اللوفر مؤقتاً. ولم تجش باريس بمثل هذا الانفعال من قبل إلا فيما ندر. واعتقد الناس أن كوليني يتأهب للذهاب إلى جبهة القتال لأنه ما زال مصرأ على المعونة العلنية تبذلها فرنسا للأراضي المنخفضة الثائرة. وأنذر بعض الكاثوليك كاترين بأن الهيجونوت يخطون مرة أخرى لمحاولة خطفها هي والملك(61). وكشف طرق السندانات في أرجاء المدينة عن صنع السلاح على عجل. وفي هذه الفترة الحاسمة وافقت كاترين، فيما زعم ابنها هنري، على قتل الأميرال(62). ففي 22 أغسطس، بينما كان كوليني يسير من اللوفر إلى بيته، قطع عياران أطلقا من نافذة سبابة يسراه ومزق ذراعه حتى الكوع. واندفع رفاقه إلى المبنى، ولكنهم لم يجدوا سوى قريينة مدخنة، فقد هرب المعتدي من الخلف. وحمل كوليني إلى مسكنه. وحين نمت الخبر إلى الملك صاح غاضباً "ألا يتاح لي الهدوء أبداً؟ " وأرسل طبيبه الخاص، أميروازيو الهيجونوتي، ليعالج جراح كوليني، وعين حراساً ملكيين على بيته، وأمر الكاثوليك بأن يخلوا المساكن

المجاورة وسمح للهيجونوت بشغلها(63). وحضرت الملكة والملك وأخوه هنري لمواساة الجريح، وأقسم شارل بـ "اغلظ اليمان" لينتقم لكونيني من هذا العدوان. وعاود كولينني حث شارل على دخول الحرب للحصول على فلاندر(64). وانتحي به جانباً وأسر إليه شيئاً. وبينما الأسرة المالكة في طريقها إلى اللوفر، أصرت كاترين على أن يبوح الملك بالسر. فأجاب "حسناً إذن، قسماً بموت

صفحة رقم : 9898

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الصراع على فرنسا -> المذبحة

الإله، ما دمت تصرين على أن تعرفي، فهناك ما قاله لي الأميرال: أن السلطة كلها تحطمت في يديك، وأن النهاية ستكون وبالاً عليّ". وفي سورة غضبه حبس الملك نفسه في غرفته الخاصة. وراحت كاترين تجتر همومها في غيظ وخوف(65).

وذهب هنري نافار إلى كولينني وناقش معه إجراءات الدفاع. وأراد بعض حاشية الأميرال أن يمضوا لتوهم ويغتالوا الزعماء من آل جيز، ولكنه نهاهم. وقال الهيجونوت "إذا لم تجر العدالة مجراها كاملاً فهم لا بد مجروها بأنفسهم(66)". وراح الهيجونوت يحومون حول اللوفر طوال ذلك اليوم، وقال أحدهم للملكة إنهم سيقبضون من الجاني بأيديهم إن لم يأخذ العدل مجراها سريعاً(67). ومرت عصابات من الهيجونوت المسلحين المرة بعد المرة بأوتيل اللورين الذي يقيم فيه آل جيز وصاحت تهدد بالموت(68). ولجأ آل جيز إلى الملك طالبين الحماية وتحصنوا في بيتهم. أما شارل فقد اشتبه في أنهم استأجروا القاتل وقبض على نفر من خدمهم وهدد دوق جيز. وأستاذن هنري جيز وأخوه دوق أومال في أن يغادروا باريس، فأذن لهما، ومضيا حتى بوابة سانت أنطوان، ثم انقلبا عاندين واتخذا طريقهما خفية إلى أوتيل اللورين.

وفي 23 اغسطس اجتمع مجلس الملك للتحقيق في الجريمة. وتبين للمجلس أن البيت الذي أطلق منه العياران تملكه (وإن لم تشغله) دوقة جيز الأرملة، التي أقسمت من قبل على أن تتأثر لمقتل زوجها فرنسيس، وأن القاتل هرب ممتطياً جواداً من مرابط أسرة جيز، وأن السلاح كان مُلكاً لأحد حرس الدوق أنجو. ولم يقبض على القاتل قط. وفي رواية لأنجو بعد ذلك أنه هو وهنري جيز قررا الآن أنه لا بد من قتل كولينني وبعض الهيجونوت الآخرين. وبينما كانت كاترين وبعض أعضاء المجلس مجتمعين في التويلري، اندفع إلى الاجتماع عميل لأنجو يسمى بوشافان معلناً أن الهيجونوت في بيت كولينني يخططون لفتنة عنيفة يقومون بها على الأرجح

صفحة رقم : 9899

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الصراع على فرنسا -> المذبحة

في المساء (69). وأضيف الآن عامل جديد إلى كراهية كاترين للأميرال، وغضبها مما لاح لها أنه أغواء منه للملك ليحرمه من إرشادها، واقتناعها بأن سياسة الحرب مع أسبانيا ستكون وبالاً على فرنسا وعلى أسرتها. ذلك هو الخوف على حياتها من خطر داهم، وخشيتها أن تنتقل كل السلطة سريعاً إلى ايدي كوليني وأصحابه. فوافقت على قتل زعماء الهيجونوت (70)، ولكن موافقة الملك كانت أمراً مرغوباً فيه، إن لم يكن ضرورياً، وكان لا يزال يطالب بمحاكمة جميع من لهم علاقة بالهجوم على كوليني. وحوالي الساعة العاشرة من مساء ذلك اليوم (23 أغسطس) أرسلت الملكة الأم الكونت رتزر ليحذر شارل من الفتنة المزعومة، وسرعان ما أحاطت كاترين ومستشارها بالحاكم الشاب الذي شارف الآن على الجنون لفرط انفعاله. وأكدت له كاترين أن ثلاثين ألفاً من الهيجونوت يخططون لاعتقاله في الغد وخطفه إلى قلعة بروتستنتية حيث يظل أسيراً لا حول له ولا قوة، أو لم يحاولوا من قبلاً أن يضربوا هذه الضربة مرتين؟ فإذا تم لهم النصر قتلوها للشبهة في إصدارها الأمر بالاعتداء على الأميرال أو السماح بهذا الاعتداء. وقيل للفتى ذي الثلاثة والعشرين ربيعاً أن يختار بين حياة أمه أو حياة ستة من الهيجونوت. فلو أنه رفض الموافقة وتغلبت باريس الكاثوليكية على الثورة، لتتحى جانباً لأنه جبان أحمق. ولكنه قاوم هذه الحجج، وسأل، لم لا يكفي أن يقبض على زعماء الهيجونوت ويحاكموا قانونياً، وأجاب المستشارون أن الوقت فات لتقادي الثورة يمثل هذا الإجراء. وهددته كاترين بأنها ستسحب إلى إيطاليا وتتركه لمصيره. وأخيراً، بعد أن قارب الليل أن ينتصف، وفي نوبة من الانهيار العصبي والغضب، صاح شارل، "قسماً بموت الإله"، ما دمتم تريدون قتل الأميرال، فأنا موافق، ولكن يجب أن تقتلوا جميع الهيجونوت في فرنسا، حتى لا يبقى منهم أحد ليلومني... اقتلواهم جميعاً! اقتلواهم جميعاً! " وبعد أن لعن وجدف، هرب من مستشاريه وحبس نفسه في حجرته.

صفحة رقم : 9900

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الصراع على فرنسا -> المذبحة

وإذا كان المتآمرون قد دبوا قتل نفر من الهيجونوت، فإنهم اغتتموا الآن فرصة هذا الأمر المجنون الذي نطق به الملك ليستأصلوا شافة الهيجونوت ما أمكنهم ذلك. وأصرت كاترين على حماية هنري نافر، واستثنى أمير كونديه الشاب- هنري الأول- وآل مونمورنسي لأنهم أنبل أصلاً من أن يسمح بقتلهم، وأنفذ الملك الجراح أمبرواز باريه، ولكن الأمر أبلغ لقواد أحياء باريس بأن يسلحوا رجالهم ويستعدوا للعمل بمجرد سماعهم أجراس الكنائس تدق في الثالثة من صباح 24 أغسطس، وهو عيد القديس بارتولوميو. وأعطى دوقاً جيز تقويضاً مطلقاً بانقاذ ثأرهما من الأميرال بعد أن طال إرجاؤه. وأرسل هنري جيز كلمة إلى ضباط الميليشيا بأن على رجالهم حالماً يسمعون ناقوس الخطر يفرع أن يذبخوا كل هيجونوتي يعثرون عليه؛ أما أبواب المدينة فنقل لتتمنع الهاربين من الهروب. وبينما كان الظلام لا يزال مخيماً قاد جيز نفسه ثلاثمائة جندي إلى المبنى الذي ينام فيه كوليني. وكان على مقربة منه باريه طبيبه، وميران سكرتيره، ونيقولا خادمه. وأيقظهم وقع أقدام جند مقبلين، ثم سمعوا طلقات وصياح- كان حرس كوليني يقتلون. واندفع صديق إلى الحجرة وهو يصيح "لقد قضى علينا!" وأجاب الأميرال، "إنني اعددت نفسي للموت منذ زمن طويل، فأنقذوا أنفسكم، لا أريد أن يلومني أباؤكم على موتكم. أستودع روعي لرحمة الله". وهربوا واقتحم جند جيز الباب فوجدوا كوليني راکعاً يصلي، وطعنه جندي بسيفه وشق وجهه، وطعنه آخرون، ثم قذف من النافذة وهو حي بعد فسقط على الرصيف أسفلها عند قدمي جيز. وبعد أن تأكد الدوق من موت كوليني أمر رجاله بأن ينتشروا في باريس ويذيعوا هذه العبارة "اقتلوا! اقتلوا! هذا أمر الملك" وفصل رأس الأميرال عن جسده وأرسل إلى اللوفر- وقيل إلى روما (71)، أما الجسد فسلم للجماهير التي مثلت به تمثيلاً وحشياً

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الصراع على فرنسا -> المذبحة

فقطعت الأيدي والأعضاء التناسلية لتعرضها للبيع، وعلقت بقينته من عرقوبيه(72). وأرسلت الملكة خلال ذلك الأوامر لدوق جيز بوقف المذبحة لشعورها بشيء من الندم أو الخوف. وكان الجواب أن الأوان فات، أما وقد مات كوليني. فلا بد من قتل الهيجوت وإلا فهم لا محالة ثائرون. وخضعت كاترين وأمرت بقرع ناقوس الخطر. وتلت ذلك مذبحة ندر أن عرفتها المدن حتى في جنون الحرب، واغتبطت الجماهير باطلاق دوافعها المكبوتة لتضرب وتوجع وتقتل. فاقتتصت وذبحت من الهيجونوت وغيرهم عدداً يتفاوت بين الألفين وخمسة الآلاف، واستطاع من بيتوا نية القتل من قبل أن يقتلوا الآن خصومهم وهم آمنون من العقاب؛ واغتمت الأزواج المعذبون أو الطامعون والزوجات الفرصة ليتخلصوا من زوجاتهم وأزواجهن غير المرغوب فيهم، وذبح التجار منافسيهم، ودل الورثة المنتظرون على أقربانهم الذين طال ترقبهم لموتهم واتهموهم بأنهم هيجونوت(73). وقتل راموس الفيلسوف بتحريض أستاذ حسود. واقتحم كل بيت اشتهبه في إيوائه الهيجونوت وقتلهم. وجر الهيجونوت وأبناؤهم إلى الشوارع وذبحوا ذبح الأنعام وانتزعت الأجنة من بطون أمهاتهم القتيلات وهشموها(74). وما لبثت الجثث أن تناثرت على أرصفة الشوارع، وأخذ الصبية يلعبون ألعابهم فوقها. ودخل حرس الملك السويسريون المعمة وراحوا يذبجون في غير تمييز للذة الذبح الخالصة. وقتل رجال مقتعون الدوق دلاروشفوكو الذي لعب التنس مع الملك بالأمس، وقد حسبهم جاءوا يدعونه إلى حفلة ملكية. ودعي النبلاء والضباط الهيجونوت الذين انزلوا قصر اللوفر باعتبارهم حاشية ملك نافار إلى الفناء وضربوا بالنار واحداً بعد الآخر عند وصولهم. أما هنري فكان قد خرج ليلعب التنس بعد أن استيقظ في الفجر. وأرسل شارل في طلبه هو وكونديه وخبرهما بين "القداس أو الموت" واختار كونديه الموت ولكن الملكة أنقذته. أما نافار فوعد بالامتثال فأبقى عليه. وأما عروسه

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الصراع على فرنسا -> المذبحة

مارجريت النائمة نوماً مضطرباً فقد أيقظها هيجونوتي جريح اندفع إلى حجرتها وفراشها، فأقنعت مطارديه ألا يقتلوه. ذكر السفير الأسباني في تقريره "إنهم يقتلونهم جميعاً وأنا أكتب هذا، إنهم يعرفونهم.. ولا يعفون أحداً حتى الأطفال. تبارك الله!(75)" أما وقد أصبح القانون ذاته خارجاً على القانون، فقد انطلق السلب والنهب في غير قيد، وأبلغ الملك أن بعض حاشيته شاركوا في نهب العاصمة. والتمس منه بعض المواطنين المروعين عندما اقتربت الظهيرة أن يأمر بوقف المذبحة، وعرضت جماعة من شرطة المدينة أن تعاون على استتباب الأمن. فأصدر الأوامر بوقف المذبحة، وأمر الشرطة بأن يحبسوا البروتستانت حماية لهم؛ ثم أنفذ بعض هؤلاء، وأغرق غيرهم بأمره في السين. وهدأت المذبحة هنيهة. ولكن حدث في يوم الاثنين الخامس والعشرين من الشهر، أن شجيرات الشوك البري أزهرت في غير أوانها في مقبرة الأطفال؛ وهلل الكهنة للأمر حاسبينه معجزة، وقرعت أجراس الكنائس في باريس احتفالاً به، وظنت الجماهير أن هذا القرع دعوة إلى تجديد المذبحة، فأستونف القتل من جديد.

وفي يوم السادس والعشرين ذهب الملك في موكب رسمي هو وحاشيته إلى قصر العدالة مخترباً الشوارع التي ما زالت الجثث مبعثرة فيها، وشهد لبرلمان باريس في فخر بأنه أمر بالمذبحة. وأجاب رئيس البرلمان بخطاب تهنئة طويلة. وقرر البرلمان بأن ورثة كوليني يجب حرمانهم من حماية القانون، وأن بيته في شاتيون يجب أن يهدم، وأن ما بقي من أملاكه يجب أن يصادره الدوق أنجو. وفي اليوم الثامن والعشرين زار الملك والملكة الأم والحاشية عدة كنائس في احتفال ديني للشكر على تخليص فرنسا من الهرطقة ونجاة الأسرة المالكة من الموت. وحدث الأقاليم حذو باريس بأسلوب الهواة، فارتكبت المذابح الجنونية بوحى الأبناء الواردة من العاصمة ليون، وديجون، وأورليان، وبلوى، وتور، وتروا، ومو، وبورج، وانجيه، وروان، وتولوز

صفحة رقم : 9903

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الصراع على فرنسا -> المذبحة

(24 - 26 أغسطس). وحسب جاك دتو 800 ضحية في ليون، 1.000 ضحية في أورليان. أما الملك فقد شجع هذه الإبادة، ثم نهى عنها، ففي السادس والعشرين من الشهر أرسل تعليمات شفوية لحكام الأقاليم بأن يقتلوا كل زعماء الهيجونوت (76)، وفي السابع والعشرين أرسل إليهم أوامر مكتوبة بأن يحموا البروتستنت المسالمين الممتثلين للقانون. وفي الوقت ذاته كتب لممثله في بروكسل أن يلتمس تعاون الدوق ألفا: "إن في يد الدوق كثيراً من رعاياي المتمردين، وفي قدرته أن يستولي على مونز ويعاقب (المحاصرين) فيها. فإن أجابك بأن المفهوم من هذا ضمناً قتل هؤلاء السجناء وتقطيع المحاصرين في مونز، فقل لأن هذا يجب أن يفعله (77)"

ورفض ألفا الدعوة. ولما استولى على مونز سمح للمحامية الفرنسية أن تغادرها دون أن يصيبها أذى. وكان بينه وبين نفسه يحتقر مذبحة القديس بارتولوميو لأنها وسيلة خسيصة للحرب، ولكنه أمام الناس أمر بالاحتفال بالمذبحة انتصاراً للدين المسيحي الحق دون غيره (78).

واستطاع بعض حكام الأقاليم أن يرفضوا على جماهيرهم ضبطاً جديراً بالمتحضرين. فبم يكن هناك مذابح في شمبانيا؛ ولا في بيكاردي، ولا في بريتي، وكان قليل منها في أوفرن، ولانجدوك، وبرجنديا، ودوفيني. وفي ليون ندد كثير من الكاثوليك بالمذبحة، وأبى الجنود أن يشاركوا فيها، وفي فيين بسط الأسقف حمايته على البروتستنت، وخبأت الأسر الكاثوليكية الهيجونوت المهددين بالخطر (79). أما في تروا وأورليان فقد أرخى الأساقفة العنان للمذبحة (80)، وفي بورجو أعلن يسوع أن الملاك ميخائيل قد أمر بالمذبحة، وندد ببطيء الحكام في إصدار أوامر القتل. وأغلب الظن أن الأقاليم ساهمت بخمسة آلاف ضحية، وباريس بنحو ألفين، ولكن بعضهم يقدر جملة الضحايا بعدد يتفاوت من خمسة آلاف (81) إلى ثلاثين ألفاً (82).

صفحة رقم : 9904

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الصراع على فرنسا -> المذبحة

وأغضى الكاثوليك عموماً عن المذبحة باعتبارها انفجاراً للغليظ والثأر بعد سنين من اضطهاد الهيجونوت للكاثوليك (83). أما فليب الثاني فقد ضحك على غير عبوسه وجهامته المألوفة حين سمع النبأ، وحسب أنه لن يكون هناك خطر من تدخل فرنسا في الأراضي المنخفضة. أما الممثل البابوي في باريس فكتب إلى روما يقول: "أهني قداسة البابا من أعماق قلبي على أن يد الله جل جلاله شاء في مستهل بابويته أن يوجه شؤون هذه المملكة توجيهاً غاية في التوفيق والنبيل، وأن يبسط حمايته على الملك والمملكة الأم حتى يستأصلاً شأفة هذا الوباء بكثير من الحكمة، وفي اللحظة المناسبة حين كان كل المتمردين محبوسين في القفص (84)". "و حين وصل النبأ إلى روما نفح كردينال اللورين حامله بألف كراون وهو يهتز طرباً. وسرعان ما أضيفت روما كلها، وأطلقت المدفعية من قلعة سانت أنجلو، وقرعت الأجراس في ابتهاج، وحضر جريجوري الثالث وكرادته قداساً مهيباً لشكر الله على "هذا الرضى الرائع الذي أبداه للشعب المسيحي"، والذي أنقذ فرنسا والكرسي البابوي المقدس من خطر عظيم. وأمر البابا بضرب مدالية خاصة تذكراً لهزيمة الهيجونوت أو ذبحهم (85). وعهد إلى فازاري بأن يرسم في الصالة الملكية بالفاتيكان صورة للمذبحة تحمل هذه العبارة - "البابا يوافق على قتل كوليني (86)".

أما أوروبا البروتستنتية فقد دمغت المذبحة بأنها همجية كلها جبن ونذالة. وأخير وليم أورنج المبعوث الفرنسي أن شارل التاسع لن يستطيع أبداً أن يغسل يديه من دم الجريمة. وفي إنجلترا أحرق المطالبون بالثأر باليزابيث،

صفحة رقم : 9905

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الصراع على فرنسا -> المذبحة

ونصحها الأساقفة بأن السبيل الوحيد لتهدئة غضب الشعب أن تدعم على الفور كل الكاثوليك الذين أودعوا السجون لرفضهم حلف يمين الولاء؛ أو على الأقل يجب إعدام ملكة اسكتلندة فوراً (88). على أن اليزابيث احتفظت بهدوئها. وارتدت ثياب الحداد الثقيل لتستقبل السفير الفرنسي، وقابلت تؤكداته بأن المذبحة فرضتها مؤامرة الهيجونوت الوشيكة بعدم التصديق الواضح. ولكنها واصلت ضرب إسبانيا بفرنسا، ومماطلة النسوان في الاستجابة لطلب يدها، وفي نوفمبر وافقت على أن تكون عرابة لابنة شارل التاسع.

أما كاترين فقد خرجت من المقتلة مبهجة منتعشة؛ لقد خضع لها الملك الآن من جديد، وبدا ان مشكلة الهيجونوت حلت. ولكنها أخطأت التقدير، إذ تبين أن ارتداد الكثيرين من البروتستنت الفرنسيين الذين ارتضوا اعتناق الكاثوليكية بديلاً عن الموت لم يكن غير ارتداد مؤقت. فما مضى شهران على المذبحة حتى افتتح الهيجونوت الحرب الدينية الرابعة. وأغلقت لاروشيل وعدة مدن أخرى أبوابها في وجه جيش الملك وأفلحت في مقاومة الحصار. وفي 6 يوليو 1573 وقع شارل صلح لاروشيل الذي منح الهيجونوت حريتهم الدينية. إذن فالمذبحة لم تحقق من الناحية السياسية شيئاً.

وانصرف رجال الفكر من الهيجونوت عن شارل التاسع في اشمزاز شديد، وهم الذين أعلنوا من قبل ولاءهم له، وراحوا يشككون لا في حق الملوك الإلهي فحسب بل في نظام الملكية ذاته. ونشر فقيه هيجونوتي يدعى فرانسوا أوتمان بعد سنة من فراره إلى سويسرة عقب المذبحة كتاباً فيه هجوم عنيف على شارل سماه "الضجة الغالية"، وقال فيه إن جرائم ذلك الملك أحلت شعبه من يمين الولاء له، وأنه مجرم لا بد

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الصراع على فرنسا -> المذبحة

من عزله. وقبل أن ينصرم العام أصدر أوتمان من جنيف كتابه "غالة الفرنسية" وهو أول محاولة حديثة في كتابة التاريخ الدستوري، وحثه أن الملكية الغالية- الفرنسية قامت على الانتخاب، فالملك- إلى عهد لويس الحادي عشر- كان خاضعاً لمجلس شعبي من نوع ما، والبقايا الهزيلة التي تخلفت من هذه السلطة الانتخابية هي هذه "البرلمانات" الدليلية، ومجلس الطبقات الذي طال إغفاله؛ وهذه السلطة منحت لتلك الهيئات بتفويض من الشعب. "فالشعب وحده صاحب الحق في انتخابات الملوك وعزلهم" (89). ثم طالب باجتماع مجلس الطبقات دورياً، فهذه الهيئة دون سواها هي التي يجب أن يكون لها سلطة إصدار القوانين، وتقرير الحرب أو السلم، والتعيين في المناصب الكبرى، وتنظيم ولاية العرش، وعزل الملوك الفاسدين. فها هنا بداية هزيم الرعود التي انطلقت عام 1789. على أن الحياة ذاتها هي التي أنزلت شارل التاسع من عرشه بعد قليل. ذلك أن الخير والشر قد اضطراعا داخله حتى تحطم جسده السقيم بفطرته تحت وطأة الصراع. كان حيناً يشعر بالارتياح الخبيث لجرأة جريمته وعنفها، وحيناً ينحى على نفسه باللوم لأنه وافق على المذبحة؛ وظلت صرخات القتلى من الهيجونوت ترن أذنيه وتطرد النوم عن اجفانه. وبدأ يؤنب أمه ويقول له "من غيرك تسبب في هذا كله؟ قسماً بدم الإله إنك أنت السبب في كل ما حدث". أما هي فكانت تشكو من أن ولدها مجنون(90). ورائت عليه الكآبة والحزن، وبات نحيل الجسد شاحب الوجه. وكان فيه استعداد قديم للسُّل، فلما ضعفت مقاومته هذه المرض، وما أن أقبل عام 1574 حتى كان يبصق الدم. وفي الربيع اشتد نزيفه وعاودته رؤى ضحاياه، وصاح بممرضته "أي سفك للدماء"، أي قتل! يا لها من مشورة شريرة تلك التي اتبعتها! غفرانك ربي!...

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الصراع على فرنسا -> المذبحة

إنني هالك!(91). " وأرسل يوم وفاته- 30 مايو 1574 في طلب هنري نافار. فعانقه في حب وقال له يا أخي أنك فاقد صديقاً وفيّاً. فلو أنني استمعت إلى كل ما قيل لي لما كنت الآن على قيد الحياة. ولكنني أحببتك دائماً... وفيك وحدك أضع ثقتي بأن ترعى زوجتي وابنتي صلي إلى الله من أجلي. وداعاً" ثم مات بعدها بقليل قبل أن يبلغ الرابعة والعشرين.

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هنري الرابع -> الحب والزواج

الفصل الرابع عشر

هنري الرابع

1610-1553

1- الحب والزواج

كانت أم هنري في العماد مارجريت أنجوليم، أميرة فالوا ونافار، والأخت النقية الحساسة، المحبوبة، لفرانسيس الأول، الجريء، الأنيق، عاشق النساء. أما أمه فجان دالبير المهرطقة، العنيدة، المتمردة، وأما أبوه أنطوان بوربون حفيد القديس لويس فكان وسيماً، شجاعاً، كيساً، مغروراً، ميالاً إلى التذبذب من مذهب إلى مذهب. ولا بد أن هنري حمل بين جنبيه وهو يخرج إلى النور (14 ديسمبر 1553) في مدينة بو إلفيم بيارن كل صفات أسلافه إلا التقوى. وقد أفتع جده السعيد أمه جان وهي في المخاض بأن، ترتل للعداء ترتيلة، لثقته بأنها ستكون فألاً حسناً، ثم دعك شفتي الوليد بالثوم وسقاه النبيذ على سبيل العماد في بيارن. أما البطل فقد استنفد لبن ثمانى مرضعات. لم يستطع التعليم، فقد كره الكتابة، وهرب من النحو، ولكنه تعلم كيف يكتب بأسلوب ساحر. وقرأ بلوتارخ كأنه إنجيل البطولة. ورعى أكثر وقته في الخلاء، وبرز في الجري والوثب والمصارعة والركوب والملاكمة، وأكل الخبز الأسود والجبن والبصل، واستمتع بالصيف والشتاء بلذة سخرت من التشاؤم. نشئ هيجونوتياً، ولكنه لم يسمح قط للدين بأن يعطل الحياة. وحين دعي في التاسعة للعيش في البلاط وتعلم آدابه وأخلاقه، اعتنق الكاثوليكية في غير تردد، ولما عاد إلى بيارن في الثالثة عشرة استأنف العقيدة الهيجونوتية كأنه يغير ملابسه وفقاً لتغير المناخ.

صفحة رقم : 9909

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هنري الرابع -> الحب والزواج

وكان ينتقل ببسر أعظم من غرام إلى غرام فأحب تجنوت قبيل الصغيرة، والأنسة مونتاجو، وأرنودين، ولاجارس (البيغي)، وكترين دلوك، وأن دكاميفور. لقد كان يطرح العقائد والخليلات دون أن يعذب ضميره أو يغير هدفه. فأما هدفه فهو أن يتربع على عرش فرنسا. فلما ناهز التاسعة عشرة، أصبح ملكاً على نافار بعد أن مات أبوه، ولكن هذا لم يكن سوى لقمة أثارت شهيته للملكية دون أن تشبعها، وذهب إلى باريس ليزف إلى مارجريت فالوا، فاستقبل استقبال وريث العرش لا يسبقه في خط الوراثة غير دوق أنجو ودوق النسون. وعندما وقعت المذبحة عقب زواجه، تمالك جأشه وأنفذ رأسه بالارتداد المؤقت عن مذهبه.

وأما عروسه «مارجو» فكانت أعظم نساء فرنسا فتنة وألبنين عريكة. فجمالها لا يرقى إليه شك، وقد تغنى به رونسار، ورتل بروننوم قصائد الغزل المشبوب في بشرتها الطرية الناعمة، وشعرها المتموج أو باروكاتها المتنوعة، وعينيها اللتين ترشقان المرح أو الغضب أو الشيطنة، وقوامها الممشوق كقوام محظية من محظيات القصور، المهيب كقوام ملكة، وقدميها الرشيقتين تقودان رقصات البلاط، وفيض حيويتها في جيل كله صراع وكآبة، كل هذه المفاتن اجتذبت العدد الوفير من العشاق إلى مخدعها، واتهمتها الشائعات بالاستسلام للبق للگرام بل ولعشق المحارم (1) ولم يكن في وسع هنري أن يشكو وهو ذو العين الزائغة بين الحسان، ولكن حين استأنفت مارجو ذنوبها وكانت تزوجته على غير إرادتها بعد انحناء قصيرة منه لزواج المرأة الوحيدة، بدأ ينساعل من ترى سيكون أباً لأطفاله. واتخذ له خليفة، ثم مرض، فلم تدخر جهداً في تمريره، وإن عزت علته إلى «إفراطه مع النساء» ولكن سرعان ما باعدت بينهما الشكوك المتبادلة حتى لقد كتبت تقول «لم نعد ننام معاً، ولا يكلم أحداً الآخر (2)».

صفحة رقم : 9910

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هنري الرابع -> الحب والزواج

وظل في البلاط ثلاث سنوات على كره منه. وذات ليلة (1575) بينما كان يصيد، رمح بجواده خارج الحدود، ثم هرب متنكراً عبر فرنسا، وشق طريقه وسط الأخطار إلى نيراك، وحكم بيارن وجيبين حكماً تميز بالعدل والذكاء. وهجر الكتلكة، ورد للبروتستنت سلطانهم في بيارن، وحماهم في جيبين. وبعد ثلاث سنوات لحقت به مارجو، وأعانها الملك الشاب في أوقات فراغه من الصيد أو قتال الكاثوليك. على جعل مباحج بلاطها الصغير تغطي على خياناتها. وفي عام 1582 وبعد أن تعبت من تقديم العون لخليلاته في مخاضهن، عادت إلى باريس، ولكن مغامراتها هناك كانت صارخة بحيث أمرها هنري الثالث بأن تعجل بالعودة إلى زوجها. وبعد أن قضت عامين آخرين في بيارن اعتكفت في آجن. ووافق الملكان «الهنريان» «الآن-على أن تعيش أشبه بالحبيسة في قصر أوسون الريفى، وقرر لها معاشاً طيباً (1587-1605). وحولت سجنها صالوناً، واستقبلت فيه الشعراء والفنانين والعلماء والعشاق، وألفت مذكراتها الحافلة بالقبل والقال. وقد أطرى ريشليو أسلوبها، وأهداها مونتيني بعض مقالاته، وأثنى الوعاظ على برها بالفقراء. وبعد اغراءات لا يستهان بها وافقت على فسخ زواجها، وسمح لها بالعودة إلى باريس والبلاط (1601). فاستأنفت هناك غرامياتها وصالونها، ثم غدت بدينة، وتابت، واتخذت فانسان ديول قسيساً لها، وبنت ديراً، ثم ماتت في سلام وتقوى (1615) بالغة من العمر اثنين وستين عاماً. وهكذا اختتمت حياتها، كما قال معاصر لها، «مرجريت، البقية الباقية من سلالة فالوا، أميرة كلها... نيات طيبة... لم تؤذ أحداً إلا نفسها (3)».

صفحة رقم : 9911

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هنري الرابع -> هنري الثالث

2-هنري الثالث

1574-1589

بعد أن تربع الدوق أنجو فترة قصيرة على عرش بولندة عاد في الرابعة والعشرين ليعتلي عرش فرنسا باسم هنري الثالث، آخر ملوك فالو الفرنسيين. وهو يطالعنا في صورة له باللوفر لا يعرف مصورها، فتي

صفحة رقم : 9912

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هنري الرابع -> هنري الثالث

طويلاً، نحياً، شاحباً، حزياً، رجلاً ذا نية طيبة، شوشت عليه حياته الوراثة السيئة. كان ضعيف البنية، قلق العاطفة، سريع الإعياء، وكان عليه أن يجتنب الركوب والصيد، ويلزم فراشه أياماً إثر دقائق من الغرام النشيط. وقد شكنا حكة في جلده لا سبيل إلى برئها، وصداعاً في رأسه ووجعاً في معدته ونزفاً في أذنه. أبيض شعره وسقطت أسنانه قبل ان يبلغ السادسة والثلاثين. أما غطرسته البادية فلم تكن في حقيقتها سوى جبن، وأما قسوته فخوف، فإذا أرسل نفسه على سجيبتها كان لطيفاً حذراً. ولكنه لسوء الحظ كان شديد الولع بارتداء ثياب النساء. ظهر في حفلة رقص مرتدياً ثوباً انخفضت فتحة عنقه وأحاطت برقبته عقد من اللآلي، وكان يلبس الجواهر في أذنيه والأساور في ذراعيه. وجمع من حوله اثني عشر «غندورا»، شباب جعدوا شعورهم الطويلة وصبغوا وجوههم، وازدانوا بالثياب البهية، وضمخوا أنفهم بالعطور التي نشرت أريجها حولهم. ومع أشباه الرجال هؤلاء ألف أحياناً هو متتكر في ثوب امرأة-أن يعربد في الشوارع ليلاً ويلعب ألعيبه على المواطنين. وقد أفرغ خزانة بلده المشرف على الإفلاس والفوضى على أحيائه الذكور، فأنفق أحد عشر مليوناً من الفرنكات على زفاف أحدهم، وضاعف ثمن المناصب القضائية ليشترى هدية زواج لأخر. على أنه أنفق بعض مال شعبه في أغراض نافعة فبني البون نوف وحسن اللوفر، وانتشل بعض أجزاء باريس من قذارتها إلى حسن العمارة والنظافة. وأعان الأدب والمسرح. وبذل جهوداً متقطعة للنهوض بالادارة. وتكفيراً عن كل سيئاته حج مرات رجلاً إلى شارتر وكليري، وفي باريس مشى من كنيسة إلى كنيسة-وهو يعبث بمسبحات كبيرة، وجمع في حماسة الكثير من الصلوات الربانية والسلامات المريمية، وسار في مواكب «التائبين الزرق» الليلية الرهيبة وجسده في غرارة بها نقوب لقدميه وعينييه. ولم يعقب. أما أمه التي حملت إليه بذور الانحلال من أبوين مريضين فكانت تتطلع في أسى إلى تدهور سلالتها وانقراضها الوشيك.

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هنري الرابع -> هنري الثالث

كان في الموقف السياسي من الاضطراب ما لا يرقى إليه إدراك هنري، فهو لم يخلق للحرب. وكانت كاترين تتوق إلى السلام وقد تقدم بها العمر، ولكن الهيجونوت ما زالوا ثأرين، فهم يائسون ولكنهم لم يذلوا. وكان أخوه الدوق أليونسون يتودد إلى ملكة بروتستنتية تجلس على عرش إنجلترا، وإلى ثوار بروتستنت في الأراضي المنخفضة، وإلى هنري نافار في بيارن. وكانت أقلية من زعماء الكاثوليك، ساهم نقادهم بـ «السياسيين»، تعتنق أفكار لوبيتال (الذي مات حزياً عام 1573)، فاقترحوا التسامح المتبادل بين المذاهبين المقتتلين، ودافعوا عن فكرة مكروهة في المعسكرين، وهي أن في استطاعة الأمة أن تحيا دون وحدة في العقيدة الدينية. وقالوا إن على فرنسا إذا حظرت البابوات مثل هذا التوفيق بين الفريقين أن تقطع روابطها الدينية مع روما. فلما خاف هنري التعاون بين هؤلاء السياسيين والهيجونوت، وخشي غارات الجنود الألمان القادمين لتعزيز قوة البروتستنتية، أنهى عام 1576 الحرب الدينية الخامسة بتوقيعه «صلح الموسيو» في يوليو، وصادره مرسوم تهدئة هو مرسوم يوليو-الذي منح الهيجونوت حرية العبادة في كل مكان بفرنسا، وحق اختبارهم لجميع المناصب، وسمح لهم بثماني مدن يكون لهم فيها كامل السلطة السياسية والعسكرية.

وصدمت هذه التنازلات الممنوحة لفريق ظن الناس أنه تحطم وانتهى معظم الكاثوليك الفرنسيين، لا سيما جماهير باريس الشديدة التمسك بعقيدها. وكان كردينال اللورين قد اقترح عام 1562 «حلفاً مقدساً» يقسم أعضاؤه على الدفاع عن الكنيسة بكل وسيلة أيا كانت، وبأي ثمن كاننا ما كان. ونظم هنري جيز مثل هذا الحلف في شميانيا عام 1568. ومن ثم ألفت الآن جماعات كهذه في كثير من الأقاليم. وفي عام 1576 أعلن الدوق جهاراً تأليف «الحلف المقدس» واستعد لنزال يسحق به الهيجونوت سحقاً.

ولا حاجة بنا لتتبع سير الحروب الدينية السادسة والسابعة والثامنة إلا

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هنري الرابع -> هنري الثالث

في تأثيرها على مجرى الأفكار في فرنسا. هنا دخلت الفلسفة ساحة الوعى مرة أخرى. ففي عام 1579 أصدر مؤلف غير معروف الاسم- ربما كان فليب دوبليسي- مورنيه- أحد مستشاري نافار-من بازل بياناً مثيراً سماه «دفاع (عن حقوق الشعب) ضد الطغاة». كتبه باللاتينية، ولكن سرعان ما ترجم إلى اللغات القومية. وقد دام أثره قرناً كاملاً واستخدمه الهيجونوت في فرنسا، والهولنديون ضد فيلب، والبيورتان ضد تشارلز الأول، والوجز تيريرا لعزلهم جيمس الثاني. واتخذت النظرية القديمة، نظرية «العقد الاجتماعي» الضمني المبرم بين الشعب وحاكمه، شكلاً محدداً

في هذا الكتاب، وسنشهدا مرة أخرى في هوبز، ولوك، وروسو. فالحكومة أولاً هي ميثاق بين الله، والشعب، والملك، لدعم «الدين الحق» والامتثال له وهو البروتستنتية في هذه الحالة، وأي ملك يقصر في هذا يحل عزله. والحكومة ثانياً هي ميثاق بين الملك والشعب، الأول ليحكم بالعدل، والثاني ليطيع مسالماً. والملك والشعب على السواء خاضعان للقانون الطبيعي. أي قانون العقل والعدالة الطبيعية، الذي يمثل القانون الأدبي الإلهي، ويعلو على كل قانون «وضعي» (أي من صنع الإنسان). أما وظيفة الملك فصيانة القانون الوضعي والطبيعي والإلهي، فهو أداة القانون لا سيده. «والرعايا... بوصفهم هيئة، يجب اعتبارهم سادة المملكة وأصحابها المطلقين» ولكن من الذي يقرر أن الملك طاغية؟ لا الشعب في جمهوره، «ذلك الوحش الكثير الرؤوس»، بل ليقرر ذلك القضاة، أو مجلس كمجلس الطبقات الفرنسي مثلاً. ولا يصح أن يتبع كل فرد خاص ضميره، فقد يحسب هواته ضميره، وهنا تأتي الفوضى، ولكن إذا دعاه القاضي للعصيان المسلح فعليه أن يلبي الدعوة. على أنه يحل قتل الطاغية بيد أي إنسان إذا كان مغتصباً(4). واشتد صراع القوى والأفكار بعد أن مات دوق أليسون (1584)

صفحة رقم : 9915

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هنري الرابع -> هنري الثالث

واعترف هنري الثالث بهنري نافار وريثاً افتراضياً للعرش. وكف الهيجونوت بين عشية وضحاها عن حديث الطغيان والعزل وأصبحوا المؤيدين المتحمسين للشرعية لما توقعوا من قرب انهيار ملك فالوا المتهافت وتسليمه فرنسا لرجلهم البروتستنتي البوربوني. وإذا القوم يعرضون عن كتاب «الدفاع» الذي كان بالأمس القريب بياناً هيجونوتياً، بل إن أوتمان ذاته صرح بأن مقاومة هنري نافار خطيئة(5). ولكن أكثر فرنسا كان يقشعر فرقا من فكرة ملك هيجونوتي يتربع على عرشها. فكيف يمكن أن تسمع الكنيسة بالزيت المقدس بروتستنتياً في مدينة رامس؟ وهل يستطيع أحد يغير هذه المسحة أن يكون ملكاً شرعياً لفرنسا؟ أما رجال الاكليروس السنيون، يتزعمهم اليسوعيون المتحمسون، فقد نددوا بالوراثة وأهابوا بجميع الكاثوليك أن ينضموا إلى الحلف. وانضم إليه هنري الثالث بعد أن جرفه هذا التيار، وأمر جميع الهيجونوت بأن يعتنقوا الكتلثة أو يرحلوا عن فرنسا. وناشد هنري نافار أوربا أن تعترف بعدالة قضيته، ولكن البابا سيكستوس الخامس حرمه، وصرح بأنه لا يمكن أن يرث العرش لأنه زنديق سادر في زندقته. وهنا أعلن شارل، كردينال بوربون، نفسه وريثاً افتراضياً للعرش. وعاودت كاترين محاولتها في سبيل السلام، فعرضت أن تؤيد نافار إذا تخلى عن بروتستنتيته، ولكنه أبى، وامتشق الحسام على رأس جيش بعضه كاثوليكي، واستولى على ست مدن في ستة شهور، وهزم جيشاً للحلف يبلغ ضعف جيشه عند كوترا (1587).

وسيطر الهيجونوت الآن وهم لا يتجاوزون جزءاً على اثني عشر من السكان(6) على نصف مدن فرنسا الكبرى(7). ولكن باريس كانت قلب فرنسا وهي مع الحلف قلباً وقالباً. ولم يرض الحلف بالتأييد الفاتر الذي لقبه من هنري الثالث، فأقام في العاصمة حكومة ثورية تتألف من ممثلين للأحياء الستة عشر؛ وتفاوضت حكومة «الستة عشر»، مع أسبانيا لتغزو إنجلترا وفرنسا، وبيتت اعتقال الملك. وأرسل هنري في طلب حرس سويسري،

صفحة رقم : 9916

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هنري الرابع -> هنري الثالث

ودعت حكومة الستة عشر دوق جيز إلى تقلد السلطة في باريس، نعته الملك، ولكن الدوق وصل، وهتفت له الجماهير زعيماً لقضية الكتلكة في فرنسا. وفر هنري الثالث إلى شارتر وقد شعر بالهوان وتوعد بالانتقام. ثم فقد أعصابه مرة أخرى؛ ففتراً من هنري نافار، وعين هنري جيز قائداً أعلى للجيش الملكية، ودعا مجلس الطبقات للاجتماع في بلوا. فلما اجتمع المندوبون لاحظ الملك في سخط مظاهر التكريم التي حظي بها جيز والتي تقرب مما يحظى به الملوك. وفي يوم تصميم مسعود أقتع بعض أعوانه بقتل الدوق. ودعا إلى لقاء خاص، وبينما النبيل الشاب يقترب من حجرة الملك طعنه تسعة من المهاجمين طعنات أودت بحياته، وفتح الملك الباب وتطلع في رضى يشوبه الانفعال إلى هدفه الذي تحقق (24 ديسمبر 1588). ثم أمر بسجن زعماء الحلف وقتل الكردينال جيز أخي الدوق. وفي فخر ورعب أنهى إلى أمه بطولته التي ناب فيها عنه غيره، فعصرت يديها في بأس وقالت له «إنك خربت المملكة». ولم يمض اثنا عشر يوماً حتى ماتت في التاسعة والستين وقد أضنتها المسؤوليات والهموم والدسائس، وربما تبكيت الضمير أيضاً. ولم يكن أحد من الناس يتوقف ليحزن على موتها. ودفنت في مقبرة عامة ببلوا، لأن حكومة الستة عشر أعلنت أنها ستلقى جنثها في السين إذا جئ بها إلى باريس. واتهم نصف فرنسا هنري الثالث بالقتل، وجاب الطلاب الشوارع مطالبين بعزله، أما لاهوتيو السوربون يؤيدهم البابا فقد أحلوا الشعب من ولائه للملك، ودعا القساوسة إلى المقاومة المسلحة له في كل مكان. وقبض على مؤيدي الملك، واحتشد الرجال والنساء داخل الكنائس مخافة أن يحسبوا من أنصار الملك. واعتنق مؤلفو كرايس الحلف الايديولوجية السياسية للهيغونوت، فأعلنوا أن الشعب صاحب السيادة، وله الحق في خلع الطاغية عن طريق البرلمان أو القضاة، وأي ملك في المستقبل ينبغي

صفحة رقم : 9917

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هنري الرابع -> هنري الثالث

أن يخضع للقيود الدستورية، وأن يكون واجبه الأول فرض الدين الحق- وهو الكاثوليكية في هذه الحالة(8). أما هنري الثالث، الموجود الآن في تور مع بعض النبلاء والجنود، فقد وجد نفسه بين نارين. فجيش الحلف يزحف عليه من الشمال بقيادة دوق مايين، وجيش نافار يزحف من الجنوب فاتحاً المدينة تلو المدينة، إذن فإحدى القوتين قابضة عليه لا محالة. واعتنق هنري الهيغونوتي فرصته، فأوفد دوبليس- مورني ليعرض على الملك محالفته وحمائته وتأييده. والتقى الهنريان عند بليسي- لي- تور وتعاهدا بوفاء كل منهما لصاحبه (30 ابريل 1589). وهزم جيشاهما المتضافران مايين وزحفا على باريس. وفي العاصمة المسعورة استمع راهب دومنيكي يدعى جاك كليمان في حماسة إلى ما تردد من اتهام لهنري الثالث بالاغتيال. وقد أكدوا له أن القيام بعمل عظيم في سبيل قضية مقدسة سيمحو كل تبعة عن أوزاره، وأثار ثائرتة حزن كاترين دوقه مونبسنسييه، شقيقة الأخوين القتيلين جيز، وحركة جمالها. فاشترى خنجراً، وتسلل إلى معسكر الملك، وطعنه في بطنه، فقتله الحراس، ومات واثقاً من ثواب الجنة. أما هنري فالوا فقد مات غداة طعنة (2 أغسطس 1589) وهو يتوسل إلى اتباعه أن يلزموا هنري نافار. وانتشرت الفوضى في جيش المحاصرين، وتبدد أكثره، وأجل الهجوم المقترح على باريس. أما في داخل الكنيسة فقد بلغت فرحة الحلف وتابعيه حد الهذيان. ووضعت بعض الكنائس صورة الراهب فوق مذبحها(9)، وهلل الأتقياء لاغتيال الملك باعتباره أنبل عمل في سبيل الله ثم منذ تجسد المسيح(10). وأسندت أم كليمان من الريف، فوعلت في الكنائس، واحتفل القوم بها بترتيل ترنيمة مقدسة: «طوبى للبطن الذي حملك، وللثدي التي أرضعتك»(11).

صفحة رقم : 9918

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هنري الرابع -> الطريق إلى باريس

3- الطريق إلى باريس

(1594-1589)

بلغ هنري نافار الآن نقطة الحسم في حياته. لقد وجد نفسه فجأة،

صفحة رقم : 9919

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هنري الرابع -> الطريق إلى باريس

يحكم القانون والتقاليد، ملك فرنسا. ولكن نصف جنده تركوه يمثل هذه السرعة الفجائية تقريباً. أما النبلاء الموالون لهنري الثالث فقد انطلقوا إلى ضياعهم؛ واختفى معظم الكاثوليك الذين كانوا يحاربون في جيشه. ورفض ثلثا فرنسا فكرة الملك البروتستنتي رفضاً باتاً. أما جماعة «السياسيين» فقد أسكنهم الاغتيا لان برهة؛ واعترف برلمان باريس بالكردينال بوربون ملكاً على فرنسا؛ ووعد فليب ملك أسبانيا الحف بذهب الأمريكتين ليحتفظ بفرنسا في حظيرة الكاثوليكية. وكان التفسخ الذي أصاب إنتاج فرنسا وتجارها قد جلب على البلاد من الدمار ما لم يبق لها معه إلا نشوة الحقد والكراهية القاتلة. وهو أمر لم يحزن فليب كثيراً.

كان محالاً على نافار أن يهاجم مدينة كياريس تكن له العداء الشديد، بجيش انفرط عقده وتقلص عدده. ومن ثم فقد عمله في كفاية قيادية، عطلتها خليلاته أكثر مما عطلها العدو، إلى سحب قواته إلى الشمال ليتلقى المعونة من إنجلترا، وتبعه ما بين مما أتاحت له بدانته من سرعة. والنقى الجيشان عند أرك جنوبي ديبب مباشرة، وعدة جيش هنري 7.000، وجيش ما بين 23.000 (21 سبتمبر 1589). ونستطيع أن نفهم نتيجة المعركة من رسالة هنري إلى رفيقه في السلاح كريون، «أشوق نفسك أيها الشجاع كريون، لقد خضنا المعركة عند أرك، ولم تكن أنت هناك» وشدد الانتصار من عزيمة أعوان هنري السريين في كل مكان. ففتحت عدة مدن أبوابها له مغتبطة، واعترفت به جمهورية

البندقية ملكاً؛ أما اليزابث التواقه كالبندقية إلى الحيلولة دون سيطرة أسبانيا على فرنسا، فقد أرسلت له 4000 جندي، و 22.000 جنيه ذهبي، و 70.000 رطل من البارود، وشحنات من الأحذية، والطعام، والنبيد، والجمعة. ورد فليب على هذا برسالة تجريدية من فلاندر إلى مايين. والتقى الجيشان المعززان عند إفري على نهر أور في 14 مارس 1590. ورشق هنري في خوذته ريشة شرف كبيرة بيضاء- لا يكاد المرء يسميها ريشة طائر

صفحة رقم : 9920

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هنري الرابع -> الطريق إلى باريس

بيضاء- وقال لجنده «إذا فرقمك وطيس المعركة لحظة فتجمعوا تحت أشجار الكمثري تلك التي ترونها على يميني، وإذا فقدتم أعلامكم فلا تغفلوا عن ريشتي البيضاء- ستجدونها دائما في طريق الشرف، وفي طريق النصر أيضاً كما أرجو». وقاتل في المقدمة كما كان شأنه دائماً. وورم ذراعه الأيمن وتشوه سيفه من كثرة مقارعة العدو. وقد خدمه اشتهاه بالرافة، إذ استسلم له الآلاف من الجنود السويسريين الذين كانوا في جيش مايين والذين لم تدفع لهم رواتبهم. وخلف انتصار هنري الحلف بغير جيش، فزحف على باريس دون مقاومة تقريباً ليحاصر ها. ومن مايو إلى سبتمبر 1590 عسكر جنده الجانعون المفلسون حول العاصمة وهم يتحرقون شوقاً لمهاجمتها ونهبها، ولكن صدمهم عن هذا رفض هنري الموافقة على مذبحه ربما كانت شراً من مذبحه القديس برتليمو. وبعد شهر من الحصار كان الباريسيون يأكلون لحم الخيل والقطط والكلاب، ويغندون بالعشب. ورق لهم قلب هنري فسمح للأقوات بأن تدخل المدينة. وجاء دوق بارما، والى فليب على الأراضي المنخفضة، لنجدة باريس بجيش حسن التجهيز من صناديد الاسبان، وتقهر هنري إلى روان بعد أن غلبته مناورات العدو، وتبعه بارما في صراع الاستراتيجية ولكن المرض أعجز الدوق، وعاد جيش هنري يحاصر العاصمة من جديد. وواجه الآن هذا السؤال الفاصل: أيستطيع، وهو البروتستنتي، أن يظفر بعرش بلد 90% منه كاثوليك، وأن يحتفظ بهذا العرش؟ لقد كان الكاثوليك كثيرة غالبية حتى في جيشه. ولا ريب في أنه لم يكن من همومه الصغيرة تناقص موارده المالية وعجزه عن دفع رواتب جنده بعد ذلك. ومن ثم دعا معاونه واعترف لهم بأنه يفكر في اعتناق الكاثوليكية، فوافق بعضهم على الخطة لأنها السبيل الوحيد إلى السلام، وندد آخرون بها باعتبارها تخلياً قاسياً شأنناً عن الهيجونوت الذي أعطوه الدم والمال

صفحة رقم : 9921

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هنري الرابع -> الطريق إلى باريس

أملاً في أن يكون لهم ملك بروتستنتي. هؤلاء أجابهم هنري بقوله: «لو اتبعت نصيحتكم لما بقى في فرنسا بعد قليل ملك ولا ملكة. أريد أن أمنح السلام لرعاياي والراحة لنفسي. فنشاوروا فيما بينكم ماذا تريدون ضماناً لأمنكم. وأنا

على الدوام مستعد لإرضائكم(12)». ثم قال «ربما لم تكن شقة الخلاف بين المذهبيين واسعة إلا لما بين المبشرين بهما من حقد وعداء. وسأعمل يوماً باستعمال سلطتي على أن يستقيم هذا الأمر كله(13). ثم حدد صلب عقيدته بقوله «إن الذين يتبعون ضميرهم دون عوج على ديني، وأنا على دين كل إنسان شجاع طيب(14)». وهجر دوبليسي- مورنيه، واجربيا دوبنيه، وكثير من زعماء البروتستانت الآخرين الملك، ولكن الدوق صلي، أصدق مستشاري هنري، الذي ظل بروتستانتياً وفيما، وافق على قرار مولاه «أن باريس تستأهل قداساً(15)».

ففي 18 مايو 1593 أرسل هنري إلى البابا وأكليروس من باريس يبدي رغبته في أن يدرس العقيدة الكاثوليكية. وكان جريجوري الرابع عشر قد جدد حرمة. ولكن الأكليروس الفرنسي الذي لم يذل أبداً لروما تأهب لإعداد النائب الجديد لأن يكون ملكاً تقياً. على أنه لم يكن بالتلميذ السهل القيد. فهو يرفض أي تعهد بأن يشن حرباً على الهرطقة، وهو يأبى أن يوقع أو يؤمن بـ «هراء هو واثق كل الثقة من أن أغلبهم لا يؤمنون به(16)»، ولكنه وافق في سماحة على عقيدة المطهر لأنها «أعظم مصادر دخلكم(17)». وفي 25 يوليو كتب لخليلته آنذاك «سأقفز القفزة الخطرة» ثم ذهب إلى كنيسة دير سان دنيس، واعترف، ونال الغفران، واستمع إلى القداس.

ورماه الألاف في المعسكرين بالنفاق. وأنكر اليسوعيون كتلكته وواصل زعماء الحلف مقاومتهم. ولكن موت دوق بارما والكردينال بوربون كان قد أوهن قوة الحلف، وفقدت حكومة الستة عشر منزلها في أعين الوطنيين الفرنسيين لتأييدها خطة فليب الرامية إلى جعل ابنته ملكة

صفحة رقم : 9922

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هنري الرابع -> الطريق إلى باريس

على فرنسا. ومال كثير من النبلاء إلى هنري بوصفه القائد الحربي الكفيل بكبح جماح فليب، والحاكم الرحيم الذي يستطيع أن يرد العافية إلى وطن استشرت فيه الفوضى حتى كادت تمزق أوصاله. وأعربت مجلة ذكية تدعى «سانتير منيبه» (1593-94) عن عواطف جماعة «السياسيين» والبورجوازيين، وسخرت في ظرف وتهكم اليسوعيين والحلف، وأعلنت أنه «ما من سلام بلغ من الظلم ما يجعله لا يرجح أكثر الحروب عدلاً(18)». وطلب الجميع السلام في شوق، حتى باريس المتعصبة. واستمرت الاشتباكات الصغيرة ثمانية شهور أخرى، ولكن في 22 مارس 1594، زحف هنري إلى باريس ودخلها ولم يكد أحد يعترضه، وعظم ترحيب الجماهير به حتى أنه أراد أن يدخل نوتردام لم يكن بد من رفعه فوق الرؤوس. وثبت ملكاً في ذلك اللوفر ذاته، الذي كان فيه قبل اثنين وعشرين عاماً سجيناً قاب قوسين من الموت، واستسلم للبهجة والفرح، فأصدر بطريقته المرححة، عفواً عاماً شمل حتى آل جيز وحكومة السنة عشر. وأكتسب بعض أعدائه بالغفران عنهم دون تردد وبالمعاملة السمحة الكيسة ورشا البعض بمال اقترضه.

على أنه لم يكسب الجميع إلى صفه. ففي ليون اشترى بيير باربيير مدية وشحذها ثم شد رحاله إلى باريس معلناً نية اغتيال الملك. فقبض عليه في ميلون وشنق دون إبطاء. وقال هنري «وا أسفاه، لو علمت بالأمر لعفوت عنه». وأرسل البابا كلمنت الثامن للملك حل الكنيسة، ولكن اليسوعيين واصلوا مهاجمته في مواضعهم. وفي 27 ديسمبر هجم فتى في التاسعة عشرة يدعى جان شاتيل على الملك بخنجر ولكن لم يصبه بأسوأ من قطع في شفته وكسر في سنه. ومرة أخرى رأى هنري العفو عن هذا المتعصب، ولكن رجال السلطة أوقعوا بشاتيل كل أنواع التعذيب التي نص عليها القانون ضد قتلة الملوك. وقد اعترف الرجل في كبرياء برغبته في قتل الملك لأنه زنديق خطر، وأعلن استعداد له ليدل محاولة أخرى في

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هنري الرابع -> الطريق إلى باريس

سبيل خلاص نفسه. وقال في اعترافه إنه تلميذ لليسو عيين، ولكنه أبى أن يورطهم بأكثر من هذا في مغامرته. وقد رويت عن اليسوعي الأسباني خوان داريانا (الذي سنلتقي به ثانية) عبارات وافق فيها على اغتيال الملوك الفاسدين، لا سيما هنري الثالث، وتبين أن اليسوعي الفرنسي جان جينار كتب يقول إنه كان من الواجب قتل هنري الرابع في مذبحه القديس برتلميو، وأنه يجب التخلص منه الآن «بأي ثمن وبأية طريقة» (19). وفي بواكير عام 1595 أمر برلمان باريس اليسوعيين بالرحيل عن فرنسا بناء على التماس من الاكليروس العلماني في السوربون.

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هنري الرابع -> الملك الخلاق

4-الملك الخلاق

1600-1594

تبين هنري أن مهمة التعمير أشق من قهر القوة المسلحة. ذلك أن اثنين وثلاثين عاماً من «الحروب» الدينية خلفت في فرنسا من الخراب والفوضى ما خلفته حرب المائة عام في القرن السابق. فبحرية فرنسا التجارية كادت تختفي من البحار، وقد بلغ عدد البيوت التي دمرت ثلاثمائة ألف، وأعلن الحقد تعطيله للفضيلة، وسمم فرنسا بشهوة الانتقام. وأغار الجنود المسرحون على الطرق والقرى سرقة وتقتيلاً وتآمر النبلاء ليفرضوا استرداد سيادتهم الإقطاعية ثمناً لولائهم للملك، وكانت الأقاليم التي طال تركها معتمدة على مواردها تقسم فرنسا إلى دويلات مستقلة ذاتياً، وكان الهيجونوت يطالبون بالاستقلال السياسي والحرية الدينية، والحلف لا يزال يحتفظ بجيش في الميدان؛ واشترى هنري قائده مايبين بالمال فارتضى الهدنة ثم الصلح في النهاية (يناير 1596). وبعد أن وقعت الشروط، اصطحب هنري الدوق البدين في مسيرة طويلة جعلته يلهث إعياء، ثم أكده أن هذا هو انتقامه الوحيد منه (20). ولما تزعم أحد قواده المدعو شارل جوننو، دوق برون، مؤامرة ضده، عرض عليه هنري العفو إذا اعترف، ولكنه أبى، فأمر بمحاكمته، وأدين بالجريمة وقطع رأسه

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هنري الرابع -> الملك الخلاق

(1602). وأدركت فرنسا الآن أن نافار ملك. وسمح له شعب فرنسا الذي أرفقته الفوضى بل توصلت إليه طبقات رجال الأعمال-أن يجعل ملكية البوربون الجديدة مطلقة السلطان. لقد كانت الاستبدادية الملكية نتيجة للحرب الأهلية في فرنسا بينما كانت في إنجلترا سبباً لها.

وجبى هنري الضرائب لأن حاجة الحكومة الأولى كانت المال. أما مجلس المالية الموجود فقد انبعث منه من نتن الرشوة والفساد قدر أكثر من المؤلف. وولى هنري صلي الجريء رئاسة المالية، وأطلق يده في تنقية الهواء واخلأ الطريق بين ما يدفعه الشعب من الضرائب وما يصل منها إلى الخزانة. كان مكسمليان بتون، بارون روزني، دوق صلي، صديق هنري الوفي مدى ربع قرن. قد قاتل جنباً إلى جنب مع هنري خلال أربعة عشر عاماً؛ وهاجم الآن- وهو بعد في السابعة والثلاثين-الموظفين المختلسين عديمي الكفاية بهمة لا تعرف الكلل، حتى أصبح أعظم أعضاء مجلس الملك قيمة وأقلهم شعبية. وصورته التي رسمها له ديمونستيه معروضة في اللوفر، يطالعا فيها رأس كبير وجبين عريض وعينان مرتبتان حادثان. ها هنا العبقريّة العملية التي لا غنى عنها لكبح الروح الرومانسية لملك شغله لعب دور كازانوفيا عن لعب دور شارلمان كاملاً. وجعل صلي من نفسه الحارس الرقيب على الإدارة الحكومية. وإذا كان مديراً للمالية والطرق والمواصلات والمباني العامة والتحصينات والمدفعية، وأموراً للباسنيل، ومشرفاً عاماً على باريس، فقد وجد في كل مكان، وأشرف على كل شيء، وأصر على الكفاية والاقتصاد والنزاهة، وقد عكف على العمل خلال كل ساعات يقظته. وعاش عيشة التقشف في حجرة بسيطة على جدرانها صور لوثر وكالفن. ثم رعى مصالح إخوانه الهيجونوت. وثبت العملة، وأعاد تنظيم البيروقراطية وهذبها، وأكره لصوص الموظفين على أن ينقيئوا ما سرقوه. وقد استرد للدولة كل الأملاك والموارد التي تملكها الأفراد خلال الحروب، وألزم 40.000 من المتهربين من الضرائب بدفع

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هنري الرابع -> الملك الخلاق

ضرائبهم. وجد خزانة الدولة مدينة بمبلغ 296.000.000 جنيه، فسدد هذه الديون، ووازن الميزانية، وجمع فائضاً بلغ 13000.000 جنيه. وحمل وشجع كل نواحي الحياة الاقتصادية، وبنى الطرق والكباري، وخطط للقنوات الكبرى التي أزمعت أن تربط الأطلنطي بالبحر المتوسط، والسين بالوار (21). وأعلن أن جميع الأنهار الصالحة للملاحة جزء من الأملاك الملكية، وحظر وجود العوائق فيها، وأعاد من جديد تدفق السلع داخل البلاد.

واستطاع هنري أن يخلق فرنسا من جديد بمعونة وزراء أحسن اختيارهم كوزيره صلي. فرد للمحاكم و«البرلمانات» وظائفها وسلطتها الشرعية، وإذا كان قد سمح للموظفين البيروقراطيين بتوريث مناصبهم لأبنائهم لقاء ثمن يؤدونه فإن الدافع له لم يكن مجرد جمع المال، بل كفالة استقرار الإدارة والنهوض بالطبقات الوسطى- ولا سيما رجال القضاء

«نبالة الرداء»- ليكونوا مقابلاً وموازناً للاستقرارية المعادية. وقد درس هذا الملك، الذي كان فيه من الحرص على الحياة والعمل ما لا يسمح له بقراءة كتاب أوليفيه دسير المسمى «مسارح الزراعة» (1600)- درس هذا الكتاب بعناية، وفيه اقتراحات لأساليب زراعية أكثر علمية، وأرسي هذه التحسينات في أراضي التاج لتكون نماذج وحوافز للفلاحين الخاملين. وكان يقول إنه يتوق لرؤية «دجاجة في كل قدر يوم الأحد» (21). وحظر على النبلاء أن يركبوا خيلهم فوق الكروم أو حقول الغلال وهو منطلقون إلى صيدهم، ومنع غارات الجند على أراضي الفلاحين. وألغى عشرين مليون جنيه من متأخرات الضرائب المستحقة على الفلاحين (ربما لأنه عرف أنه لن يستطيع جمعها أبداً). وسبق كولبير بحمايته الصناعات الموجودة بالرسم الكمركية، وادخال الصناعات الجديدة كصناعة الخزف المصقول والزجاج وتربية دودة القز، وزرع أشجار التوت في حدائق التويلري وفونتبلو، وأمر بأن

صفحة رقم : 9927

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هنري الرابع -> الملك الخلاق

يزرع منها عشرة آلاف في كل أسقفية، وأعان ووسع مصانع السجاد المرسوم التي يملكها آل جوبلان. ورغبة في تفادي السياسات المقيدة التي فرضها معلمو الحرف على نقاباتهم، أعاد تنظيم الصناعة الفرنسية على أساس تعاوني- فأصحاب العمل والعمال متحدون في كل حرفة، خاضعون للتنظيم الذي تفرضه الدولة. ولكن الفقر لم يبرح مخيماً على البلاد، من جهة بسبب الحرب والطاعون والضرائب. ومن جهة لأن عدم التكافؤ الطبيعي في القدرات، وسط تساوي الجميع في الجشع، كفيل في كل جيل بأن تستوعب قلة من الناس أكثر السلع. أما الملك فتوخى القصد في عيشه، إلا أن يسرف مع خليلاته. ورغبة في شغل المتعطلين وتنقية الريف من قدامى المحاربين العاطلين النهمين، مول عدداً كبيراً من الأشغال العامة المختلفة: فوسعت الشوارع ورصفت، وشقت القنوات، وغرست الأشجار على الطرق العامة، وفتحت المتنزهات والميادين-كالبلاس رويال (وهو اليوم بلاس دي فوج) والبلاس دوفين-لنتيخ لباريس متنفساً. وأنشأ الملك مستشفى الميرة للعجزة. ولم يكتمل نضج هذه الإصلاحات كلها قبل موته المفاجئ، ولكن حينما ختم حكمه كانت البلاد تتمتع برخاء لم تشهده منذ أيام فرنسيس الأول. وأهم من ذلك كله أن هنري أنهى الحروب الدينية، وعلم الكاثوليك والبروتستانت أن يعيشوا بسلام. لا في مودة وصدقة، لأن أحداً من غلاة الكاثوليك لم يكن ليسلم بحق هيجونوتي في الوجود، ولا كان أي هيجونوتي حار الإيمان لينظر إلى العبادة الكاثوليكية إلا على أنها عبادة أصنام. وقد وضع هنري حياته على كفه وأصدر (13 ابريل 1598) مرسوم ناننت التاريخي، الذي أباح الممارسة الكاملة للعقيدة البروتستنتية، ومنح الصحافة البروتستنتية حريتها، في جميع مدن فرنسا الثمانمائة إلا سبع عشرة مدينة كانت فيها الكاثوليكية المذهب الغالب (كما في باريس). وثبت مبدأ صلاحية الهيجونوت للمناصب العامة، وكان منهم في مجلس الدولة

صفحة رقم : 9928

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هنري الرابع -> الملك الخلاق

اثنان فعلا، وتقرر تعيين تورين الهيجونتي مارشالاً لفرنسا. كذلك تقرر أن تدفع الحكومة رواتب القساوسة البروتستنت ونظار المدارس البروتستنتية وأن يقبل الأطفال البروتستنت في جميع المدارس والكليات والجامعات والمستشفيات كالأطفال الكاثوليك سواء بسواء. أما المدن التي كان يسيطر عليها الهيجونوت مثل لاروشيل، ومونبلييه، ومونتوبان-فتظل على حالها وتتفق الدولة على جامعاتها وحصونها على أن الحرية الدينية التي منحت على هذا النحو كانت لا تزال ناقصة، فهي لم تشكل غير الكاثوليك والبروتستنت، ولكنها كانت أكثر ألوان التسامح الديني تقدماً في أوروبا. لقد اقتضى تحويل «جلالة الملك المسيحي جداً» إلى مسيحي حقاً، رجلاً ذا عقيدة مشكوك في سلامتها. وتصايح الكاثوليك في طوال فرنسا وعرضها بالسخط على المرسوم زاعمين أن فيه حنثاً بما توعد به هنري من تأييد لعقيدتهم. وندد به البابا كلمنت الثامن «كألن ما يمكن تصوره، منحت به حرية الضمير للجميع، وهذا أسوأ شيء في الوجود» (23). وأعلن الكتاب الكاثوليك من جديد بأنه يحل خلع الملك الزنديق أو قتله، أما المؤلفون البروتستنت أمثال أوتمان، الذين دافعوا عن سيادة الشعب إبان حكم هنري الثالث، فقد أطروا فضائل الاستبدادية في ملك بروتستنتي (24). وأبى برلمان باريس طويلاً أن يختم المرسوم بخاتم التسجيل الرسمي الذي اقتضاه العرف حتى يصبح أي مرسوم ملكي قانوناً مقبولاً. ودعا هنري الأعضاء، وبين لهم أن ما فعله لم يكن عنه غنى للسلام ولتعمير فرنسا. فأذعن البرلمان، وقبل سنة من الهيجونوت بين أعضائه. وسمح هنري لليسوعيين بأن يعودوا إلى فرنسا (1603) ربما ليسكت المعارضة الكاثوليكية ويسترضي البابا. وعارض صلي بقوة هذه الخطوة، وقال إن اليسوعيين «رجال نابغون، ولكنهم شديداً الخبث والدهاء»، وإنهم ملتزمون بقضية الهابسبورج، ومن ثم بقضية خصمي فرنسا. أي

صفحة رقم : 9929

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هنري الرابع -> الملك الخلاق

أسبانيا والنمسا، وانهم متعهدون بالطاعة العمياء للبابا وميالون إليها، وهو ليس إلا سجيناً جغرافياً للهابسبورج وتابعاً مالياً لهم، فهم لا محالة مملون على هنري سياساته إن عاجلاً أو آجلاً فإن أخفقوا فسيقنعون أحد المتعصبين» بأن يقضي عليك بالسم أو بغيره» وأجاب هنري بأن مساندة اليسوعيين سيكون له عوناً كبيراً على توحيد فرنسا، وأن استمرار نفيهم وعدائهم أشد خطراً على حياته وسياساته من عودتهم إلى فرنسا وقبل اليسوعي بيير كوتون كاهن اعترف له، ووجده إنساناً لطيفاً وقيماً، ثم فرغ بعد ذلك لحكم فرنسا ولزعازع الحب العاتية.

صفحة رقم : 9930

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هنري الرابع -> زير النساء

في متحف كوندية بشانتي لوحة شائقة رسمها فرانس بوربي الابن، يبدو فيها هنري في عنفوان قوته وعزته. رشيق البنية، بسيط الملبس في سراويل منفوخة وصدرة وجوارب سوداء، ذراعه اليسرى على خاصرته، وتحت لحيته الشيباء طوق مكشكش، ثم أنف أشم، وفم حازم، وعينان فيهما تيقظ وتشكك ورحمة. ولقد خلعت عليه سنو الحملات الطوال مشية الجندي وخلقته وريحه: فهو قوي نشيط لا يكل، له من شواغله ما يمنعه من الإسراف في النظافة أو من تغيير ملبسه حين يجب تغييرها؛ قال صديق إنه كان أحياناً «تفوح من جسده رائحة خبيثة كأنه الجيفة(25)» كان بعد يوم من السير أو القتال يفاجئ معاونيه بتنظيم رحلة صيد. إنه مضرب المثل في بسالته، ولكن أمعاه تجنح إلى الاسهال إذا دنت المعركة(26)، وقد عانى في السنين السبع الأخيرة من حياته من الدوزنتاريا وعسر البول والنقرس. أما ذهنه ففي نشاط جسده ومرونته. وهو سريع في تبين الزيف والهراء، يلتقط لب الأمور للتو والساعة، ويكتب الرسائل التي لا تزال تنبض بالحياة، ويشرح بطرفه صدر فرنسا

صفحة رقم : 9931

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هنري الرابع -> زير النساء

والتاريخ. حين عين لافيوفيل في أحد المناصب قال الرجل متمثلاً بعبارة وردت في الأنجيل «مولاي، لست مستحقاً» أجاب هنري «أعلم ذلك جيداً، ولكن ابن أخي طلب إلي أن أعينك»(27). وذات يوم اعترضه صاحب حاجة وهو في طريقه إلى الغداء وبدأ يقول في لغة طنانية «مولاي الملك، أن أجيبسلا، ملك لاكيديمون» وقال هنري وهو يبتن «ويحك! لقد بلغني نبوءة، ولكنه كان قد تغدى، أما أنا فلم أفعل»(28). يقول مؤرخ فرنسي «لقد كان أذكى ملك أنجبته فرنسا».

ثم كان أحبهم إلى الناس. لم يكن بعد أكثرهم شعبية، لأن نصف فرنسا مازال يقبله على مضض، ولكن الذين عرفوه معرفة حميمة كانوا لا يترددون في أن يساقوا إلى الموت حرقاً من أجله، وبعضهم يفعل وهو أخذ كل شيء في اعتباره، فهو أقرب الحكام مثال، لا إدعاء فيه ولا غرور، يرسل نفسه على سجيته، طيب القلب، بطئ الغضب، سريع العفو دائماً. شكت حاشيته من كرهه للظهور في أبهة الملوك، وسمح للشعراء وكتاب المسرحيات بالسخرية منه، وإن أعجبه أكثر أن يمثله ماليرب رباً للفضيلة والحسن. وكان يذهب للتفرج على الهزليات التي تهجوه، ويوهن من شرتها بضحكه. ولم ينتقم ممن عارضوه بالقول أو الفعل «لو أنني شنقت كل من كتبوا أو عظوا ضدي لما وجدت في كل غابات مملكتي ما يكفيهم من المشانق(30)». كان له حساسية الشاعر، فهو يحس فقر الشعب برهافة إحساسه بجمال النساء. لم يكن رواقياً، فالتحكم في عواطفه ليس من شيمه؛ كانت له عيوبه الكثيرة، فقد يكون وقحاً دون قصد، أو جلفاً في مرح وابتهاج. وكانت تسكنه روح رابليه، فهو يستمتع بالقصص المكشوفة ويرويها بطريقة لا تباري. يسرف في لعب الورق، ويخسر المبالغ الكبيرة، ويغش أحياناً كثيرة، ولكن يرد مكاسبه الحرام دائماً(31). وكان يهمل مطاردة عدو متفهم ليطارد امرأة متفهمة.

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هنري الرابع -> زير النساء

ولا حاجة بنا لأن نعدد غرامياته كلها. على أن ثلاث نساء على الأخص كن معالم طريقه إلى العرش. إنه يكتب الرسائل الغرامية الملتهبة إلى «كوريساند الجميلة» ويقول في إحداها «إني ألتهم يديك... وأقبل قدميك ملون مرة... أنها لبقعة مقفورة حقاً تلك التي نمل فيها وجودنا معاً(32)». ولكن لم يأت عام 1589 حتى كان قد ملها، واكتشف استر امبير دبو الامبير. وبعد عام، حين كان في السابعة والثلاثين، ودون أن يعوقه مرض السيلان(33)، وقع في غرام جابرييل دستريه، وكانت يومها فتاة في السابعة عشرة، خلغ عليها أحد الشعراء «الشعر الذهبي، وعيون النجوم، ونحر الزنبق، واصابع اللؤلؤ، وئدي المرمر(34)». وصف حبيبها بلجاردي في لحظة طيش مفاتنها للملك فعدا هنري بفرسه اثني عشر ميلاً وهو متنكر يشق أرض العدو ليراها. وضحكت على أنفه الطويل، ووقع على قدميها، وانسحب بلجاردي. واستسلمت هي لسحر المال والملك، وولدت لهنري ثلاثة أطفال. وكان يأخذها لبلاطه وفي رحلات صيده، ويعانقها علناً، ويفكر في الزواج منها إذا ارتضت مارجو طلاقه. وتظافر الوعظ الهيجونوت والكاثوليك في التنديد به زانياً، ضالاً، ووبخه صلى الشجاع على تبديده أموال الدولة على محظياته. فطلب المغفرة معتذراً بأنه وقد جاهد هذا الجهاد في الحرب وأحكم، وأخفق هذا الاخفاق في الزواج، فإن له ما لكل جندي من الحق في شيء من الترفيه(35)، وأقام على حب جابرييل ثماني سنين غدت بدينة حريصة على الاقتناء. وراحت تدس لصلى، وتدعوه «التابع»، وقال لها هنري في غيظه إن وزيراً مثله أئمن في نظره من عشر محظيات مثله. ثم لأن وعاد إلى حديث الزواج منها، ولكنها ماتت في 10 أبريل 1599 وهي تلد طفلاً ميتاً. وبكاها بكاءً مريراً وكتب يقول: «لقد ماتت نبتة الحب التي في باطني(36)».

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هنري الرابع -> زير النساء

ولكن النبتة انتعشت بعد شهرين حين التقى بهنرييت دنتراج، ابنة ماري توشيه ذاتها التي كانت خلية شارل التاسع. ونها أبوها وأمها وأخوها لأبيها أن تستسلم إلا لختام الزواج، فكتب لها هنري تعهداً بالزواج مشروطاً بأن تتجيب له ولداً، ولكن صلى مزقه أمامه، فكتب هنري تعهداً آخر وسلمه لها معه عشرين ألف كراون. وبرئ ضمير السيدة وأصبحت محظية الملك. ورأى بعض دبلوماسيين أنه قد أن له أن يستقر. فأقنعوا مارجو بقبول الطلاق شريطة ألا يتزوج هنري من خليلته. ووافق البابا كليمان الثاني على منح الطلاق بنفس الشروط، واقترح ماري مديتشي ابنة دوق توسكانيا الكبير عروساً لهنري؛ واقترح المصرفيون والفلورنسيون إلغاء دين فرنسا الضخم لهم إذا جعل هنري ماريا مليكتة(37). واحتفل بالزواج غياباً في فلورنسة (5 أكتوبر 1600). وانتزع هنري نفسه من ساحة قتال ليذهب إلى ليون ليحبي زوجته، ووجدها طويلة بدينة متعجرفة وبذل كل مجاملة ملكية، وأنجب منها لويس الثالث عشر ثم عاد إلى الأنسة دنتراج على أنه كان يقوم بواجباته الزوجية بين الحين والحين. وأنجبت له ماري دمديسي (كما كانت تسميها فرنسا) سبعة أطفال في عشر سنين. ورباهم هنري، مع أبنائه من جابرييل وهنرييت، في سان-جرمان-أن-لي.

وقدمت هنرييت إلى الملكة، وأسكنت قصرأ بقرب اللوفر، ولكنها بعد أن ولدت الملك أصرت على أنها هي، لا ماري، الملكة الشرعية. وتأمروأبوها وأخوها لأبيها لخطفها هي وابنها إلى أسبانيا ويجعلها فليب الثاني يعترف بالغلام «الدوقين» الشرعي لفرنسا (1604). واكتشفت المغامرة وقبض على الأخ، وأفرج عن الأب حين رد تعهد هنري بالزواج. وواصل هنري مطاردته لهنرييت كأنه الزير الجائع. وكانت تقابل ملاطفاته بالاشمئزاز والكرهية، وتقبل الرشا من فليب الثالث ثمناً لتجسسها لحساب اسبانيا(38).

صفحة رقم : 9934

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هنري الرابع -> مصرعه

6- مصرعه

وسط هذه السخافات التي لا تصدق خطط الملك لكسر الحصار الذي طوق آل هابسبورج فرنسا بهـذلك النطاق الحديدي المؤلف من الأراضي المنخفضة ولكسمبورج، واللورين، وفرانش كونتيه، والنمسا، والممرات الفالتييه، وسافوي، وإيطاليا، واسبانيا. وزعم صلى في مذكراته أنه أقترح على هنري وجيمس الأول ملك إنجلترا «خطة عظمى» تتحد بمقتضاها فرنسا، وإنجلترا، واسكتلنده، والدنمرك، والسويد، والأقاليم المتحدة (هولنده)، وألمانيا البروتستنتية، والبنديقية، ضد الهابوسبرج، وتنتزع أمريكا من أسبانيا، وتحرر ألمانيا من ريقه الإمبراطور، وتطرد الاسبان من الاراضي المنخفضة، ثم يقسم المنتصرون كل أوربا - فيما عدا روسيا وتركيا وإيطاليا واسبانيا - إلى «جمهورية مسيحية» فدرالية من خمس عشر دولة مستقلة ذاتيا، يتجر بعضها مع البعض دون رسوم جمركية وترفع سياساتها الخارجية إلى مجلس فدرالي مسلح بقوة عسكرية عليا(39). أما هنري فيبدو أن الفكرة الضخمة لم تخطر بباله قط؛ ولعل قصارى ما حلم به أن يمد فرنسا إلى «حدود طبيعية» عند الرين، وجبال الألب، والبرانس، والبحر، وأن يحررها من الخوف من أسبانيا والنمسا. وفي سبيل هذه الأهداف كان يلجأ إلى أي وسيلة متاحة له: فسعى إلى عقد الأحلاف مع الدول البروتستنتية، وساعد الهولنديين في ثورتهم على أسبانيا، ودبر تأييد ثورة يقوم بها المسلمون في بلنسية، وشجع الترك على مهاجمة النمسا(40).

وأتاح نزاع تافه إشعال شرارة هذا العداء البوربوني-الهابوسبورجي ليصبح حرباً أوربية. ذلك أن الدوق جون وليمن حاكم إمارة بيليش - كليفس-بيرج الثلاثية الصغيرة القريبة من كولونيا، مات في 25 مارس 1609 دون أن يعقب. وأدعى الإمبراطور رودلف، بوصفه السيد الاقطاعي الأعلى للإمارة، أن له الحق في تعيين كاثوليكي لهذا العرش

صفحة رقم : 9935

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هنري الرابع -> مصرعه

الصغير. واحتج هنري بأن المزيد من اخضاع الدوقية للهابوسبورج سيعرض حدود فرنسا الشرقية للخطر. وانضم إلى براندبورج والبالاتينات والأقاليم المتحدة في تصميمها على تعيين خلف بروتستنتي لجون وليم، فلما احتل الارشيدوق ليوبولد النمساوي بيليش بالجيش الإمبراطورية اتخذ هنري أهبطه للحرب. وتوافق غرامه الأخير توافقاً مثيراً مع الدعوة إلى هذه المعركة الفاصلة الكبرى. ذلك أنه برغم بلوغه السادسة والخمسين و ما بدا عليه من اكتمال أحس تدريجاً في 1609 بحنين طاع لشارلوت مورموني ذات الستة عشر ربيعاً. وتابت عليه، ولكنها قبلت أمره بأن تتزوج أمير كونديه الجديد. وروى بأن خليلته هنرييت وبخته ساخرة بقولها «ألست شريراً جداً لأنك تريد أن تضاجع زوجة ابنك؟ فأنت عليم بأنك أخبرتني بأنه (أي الأمير) ولدك.» وهرب كونديه بعروسه إلى بروكسل، وتحرق هنري شوقاً إلى مطارقتها، ونظم ماليرب هذا التحرق شعراً. والتمس فيلرأ وزير خارجية هنري من الأرشيدوق ألبرت حاكم الأراضي المنخفضة أن يعيد الأميرة إلى باريس، ولكن الأرشيدوق رفض بتشجيع من فليب الثالث ملك أسبانيا. وهدد فيلرأ بحرب «قد تشعل ناراً في أربع أركان العالم المسيحي(42)». وبدأ لهنري أن من توفيق العناية أن تقع بروكسل في الطريق إلى بيليش: فهو إذن قاهر هذه السيدة - والأراضي المنخفضة الأسبانية - تمهيداً لتحطيم الإمبراطور وإذلال أسبانيا. واستأجر المرتزقة السويسريين واستعد لجمع جيش عدته ثلاثون ألف مقاتل. ووعده جيمس الأول ملك إنجلترا باربعة آلاف آخرين.

وروعت فرنسا الكاثوليكية، فقد أسرفت في تصديق الشائعات التي تواترت بأن مفاتن الأميرة هي سبب الحرب الحقيقي، وأفزعها أن يكون حلفاء الملك وقواده أكثرهم من البروتستنت، وتساءلت ماذا عساه يكون مصير الكاثوليكية والبابوية في أوروبا إذا انهزم جنوبها الكاثوليكي

صفحة رقم : 9936

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هنري الرابع -> مصرعه

على يد شمالها البروتستنتي، وعلى يد ذلك الملك الذي كان بالأمس القريب هيجونوتياً. وهبطت الضرائب المفروضة لتمويل هذه الحرب المرهوبة بشعبية هنري، وهي أبداً قلقة لا ثبات لها؛ وحتى بلاطه تحول عنه لأنه رأى فيه رجلاً أعماه الحمق عن أن يدرك أنه لم يعد في طاقته أن يجمع بين لوثرأيو والإسكندر في شخصه. وأرجفت التنبؤات بأنه مقتول عما قريب - وربما كانت تحريضات مشجعة لمن يتأثرون بها.

وسمع فرانسوا رافايك بهذه التنبؤات، وكان موطنه انجوليم. وقد اطال التأمل في سجنه الذي أودعه لجريمة لم يقترفها، ورأى الرؤى، ودرس اللاهوت، وقرأ الكتيبات التي تدافع عن قتل الطغاة. وإذا كان قوي الذراع، ضعيف العقل، فقد راح يداعب هذه الفكرة، وهي أن الله اختاره لتحقيق التنبؤات ولإنقاذ فرنسا من مصيرها البروتستنتي. فلما أفرج عنه انطلق إلى باريس (1609)، ونزل عند مدام دسكومان، وهي صديقة لهنرييت دنترأج، وأعترف لها بأنه يفكر في قتل الملك. وأرسل تحذير لهنري، ولكنه كان قد ألف مثل هذه الإنذارات إلفاً جعله لا يعبأ بالتحذير. وبينما كان يخترق الشوارع حاول رافاباك أن يقترب منه، وأوقفه الجند، فقال إنه يريد أن يسأل الملك أصحح أنه يدبر الحرب على البابا، وأن الهيجونوت يستعدون لذبح الكاثوليك. ثم حاول أن يدخل ديراً وينضم إلى اليسوعيين، ولكن طلبه رفض. فعاد إلى أنجوليم ليقوم بواجبه في الفصح، وتناول القربان، وتسلم من أحد الرهبان حقيبة صغيرة قبل إنها تحتوي على شظية من الصليب الذي مات عليه المسيح. واشترى مدية، ثم عاد إلى باريس. وأرسلت مدام دسكومان تحذيراً إلى صلي فأبلغ الملك به.

وكان هنري يتأهب للحاق بجيشه في شالون. ففي 13 مايو 1610 عين الملكة وصية خلال غيابه. وفي اليوم الرابع عشر رجاه ابنه غير الشرعي، دوق فاندوم، ألا يبرح بيته لأن التنبؤات بمقتله حددت هذا

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هنري الرابع -> مصرعه

اليوم نهاية لحياته. وفي العصر قرر أن يخرج في نزهة بعربته، وأن يزور صلي المريض، ويستمتع بـ «نسمة هواء». وتفادياً لانتباه الناس صرف حرسه، ولكن كان يرافقه سبعة من الحاشية. واقتفى رافايك أثر العربة وكان يراقب اللوفر. وعند نقطة في شارع فيرونيري وقفت العربة لتشابك في المرور. وهنا قفز رافايك على سلمها وطعن الملك طعنة نجلاء من عنفها أن السلاح اخترق قلبه. فمات هنري للتو تقريباً.

وتحمل رافايك وزر جريمته كاملاً حين عذب، وأنكر أن له محرضين أو شركاء، وأسف على عنف فعلته، ولكنه صرح ببقته بأن الله غافرها كما يغفر للمذنبين في سبيل قضية مقدسة. ومزقت أربعة جياذ أوصاله، وأحرق جذعه في ميدان عام. واتهم الكثير من اليسوعيين بأنهم ألهبوا عقل القاتل، وقيل إن كتاب ماريانا عن الملكية «دي ريجي» الذي يبرر قتل الطغاة «كان يباع علناً في حوانيت باريس. ورد اليسوعيون بأن هذا الكتاب شجبة صراحة مجمع اليسوعيين عقد بباريس عام 1606. وحكمت السوربون على اليسوعيين بأنهم مسئولون عن التعاليم الخطرة وأحرقت كتاب ماريانا رسمياً (42). أما ماري مديسي فقد حمت اليسوعيين من الأذى بصفتها وصية، وقبلت ارشادهم في الإيمان والسياسة.

وأصاب فرنسا الاضطراب والفرقة لمشروع هنري الأخير وموته المفاجئ. وارتضت قلة هذا الاغتيال على أنه عمل إلهي في سبيل الدفاع عن الكنيسة. ولكن الكثرة العظمى، من الكاثوليك والبروتستانت على السواء، ناجت على ملك رجحت جهوده من أجل شعبه أخطاءه وحماقته وذنوبه رجحاناً كبيراً. ولم يكن قد غاب من ذاكرة الفرنسيين كل ما أورثه مع العرش من فقر وخراب، ومن اضطراب ديني، ومن فساد وعجز حكوميين؛ لقد رأوا الآن أمة نظيفة منظمة، غنية برغم الضرائب المرتفعة، لها من القوة ما يتيح لها أن تتحدى السيادة الأسبانية الطويلة. وذكروا في حين ما طبع هنري من بساطة في الملابس والمسلك والحديث،

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هنري الرابع -> مصرعه

وذكروا روحه المرحة وطبيعته الرقيقة، وبسالته المبتهجة في الحرب، وكياسته في الصداقة والدبلوماسية، واغضى تراخيهم الخلفي عن تلك المغامرات التي لم يبد فيها إلا رجلاً على هواهم. لقد وصف نفسه بحق بأنه «ملك وفي أمين، صادق (44)»، ولكنه كان إلى ذلك أعظم ملوك فرنسا إنسانية ورحمة، ثم إنه كان منقذ فرنسا. ربما بدت خطته في الوصول بفرنسا إلى حدودها الطبيعية أمراً غير عملي، ولكن ريشليو أتبعها بعد عشرين عاماً، ثم حققها لويس

الرابع عشر بعد ذلك . ولم يمض طويل زمن على موته حتى أجمعت أوروبا على تلقيبه بهنري الأكبر . وفي الثورة الفرنسية أدين جميع الملوك الفرنسيين من خلفائه، إلا هنري الرابع، فقد ظل يتربع المكان الأول في قلب الشعب .

صفحة رقم : 9939

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ريشيليو -> بين ملكين

الفصل الخامس عشر

ريشيليو

1585 - 1642

1- بين ملكين

1610 - 1624

خلف موت هنري الرابع المفاجئ فرنسا في فوضى متجددة، تأصلت جذورها الكثيرة في صراع النبلاء مع الملكية، والطبقات الوسطى مع الاستقراطية، والكاثوليك مع الهيجونوت، والاكليروس مع الدولة، والملك الصغير لويس الثالث عشر مع أمه، وفرنسا مع النمسا وأسبانيا، أما ذلك العبقري الساحر، الجبار، الذي أحال كل هذه الفوضى نظاماً، وهزم الرجعية الاقطاعية، وهدأ ثورة الهيجونوت، وأخضع الكنيسة للدولة، وأنقذ ألمانيا البروتستنتية من الانهيار، وكسر شوكة الهابسبورج المحدقين بفرنسا، ورفع الملكية الفرنسية إلى سلطانها المطلق في الداخل وإلى أسمى مقام في أوروبا- هذا الرجل كان قسيساً كاثوليكياً، وكان أعظم السياسيين في تاريخ فرنسا، وأشدهم دهاء، وأقساهم قلباً. إن بعض مأساة هنري أن وريثه لويس الثالث عشر كان عند موته غلاماً في الثامنة لا حول له ولا قوة. وأن الأرملة التي ترك لها الوصاية عليه كانت امرأة فاقت شجاعتها ذكاءها، على استعداد لتسليم الحكم لمحاسبها الإيطاليين ما

دامت تستمتع بلذائذ الحياة في وفرة عامرة، تخلت عن خطة هنري في حرب تشن على الهابسبورج حتى الموت، بل إنها على العكس ألقت بين فرنسا وأسبانيا بتزويج أبنائها من أبناء فليب الثالث- فزوجت ابنها لويس لأن النمسوية، وابنتها اليزابيث للفتى الذي أصبح فيما بعد فليب الرابع- على أن إرادة ريشليو ستكون أقوى من هذا الدم المخلط.

صفحة رقم : 9940

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ريشليو -> بين ملكين

ترك هنري وصلّى 41.345.000 جنيه في خزانة الدولة- والتف كونشينو كونشيني، وزوجته ليونورا جاليجالي، ودوق ابيرونون، وغيرهم من أفراد الحاشية المتعطين للمال، التقوا حول هذا الكنز واستعدوا للإجهاد عليه. وعارض صلي ولكنه غلب على أمره، فاستقال ساخطاً، واعتكف في ضياعه يكتب المذكرات عن مليكه المحبوب. ورأى النبلاء في عجز الحكومة المركزية وفسادها الفرصة لاسترداد سيادتهم الاقطاعية القديمة. فطالبوا بدعوة مجلس الطبقات ظناً بأنه سيكون كما كان من قبل صوتهم وسلاحهم ضد الملكية، وأجيب الطلب. ولكن حين إتم شمل المجلس بباريس في أكتوبر 1614، أفلقتهم قوة الطبقة الثالثة ومقترحاتهم- هذه الكتلة الشعبية المجردة من النبالة والكهانة، الممثلة يومها كما هي ممثلة اليوم في المحامين، والمعبرة عن قوة الطبقة الوسطى ورغباتها. أما النبلاء والأكليروس الذين وضعوا عراققة الأصل ومسحة الكهانة فوق الثروة والقانون، فقد تحدوا نظام توريث المناصب القضائية الحديث، وهو نظام أذن بخلق نبالة قضائية منافسة. وردت الطبقة الثالثة بطلب التحقيق في المنح والمعاشات العريضة التي تلقاها النبلاء مؤخراً من الحكومة، وطالبت بإصلاح ما فسد في الكنيسة، وعارضت في أن تطبق في فرنسا الأوامر الصارمة التي أصدرها مجمع ترنت، وطالبت بأن يخضع رجال الدين للقوانين والمحاكم التي يخضع لها العلمانيون، وبأن تقرض القيود على اقتناء الكنيسة المعفاة من الضرائب مزيداً من العقارات، وبألا يتقاضى القساوسة أجراً على قيامهم بشعائر العماد والزواج والدفن، وأخيراً دافعت عن سلطة الملك وحقه الإلهي ضد دعاوى النبلاء في حق الهيمنة عليه والبابوات في حق خلعه. كانت تلك ثورة غير متوقعة. فهدئ المندوبون المشاغبون بالوعد وحل المجلس (مارس 1615). ثم نسي أكثر هذه الوعود، واستؤنف الاختلاس وسوء الإدارة. ولم يدع مجلس الطبقات مرة أخرى إلا حين انهارت الملكية وطبقنا النبلاء والأكليروس على السواء عام 1789.

صفحة رقم : 9941

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ريشليو -> بين ملكين

على أن الأكليروس من الكاثوليكي الفرنسي اكتسب شرافا باصلاح ذاته اصلاحا مخلصا فعلا. ولم يكن المسئول دائماً عن المفاصد التي أشاعت الفوضى في الكنيسة، لأن كثيراً من المفاصد نجم عن أن الأساقفة ورؤساء الديورة كان يعينهم الملاك أو النبلاء الذين يحيون حياة أشبه بحياة الوثنيين، وأحياناً تساورهم شكوك العقيدة(1). مثال ذلك أن هنري

الرابع منح صلي الهيجونوتي أربعة ديورة ليرتزق من دخلها، وعين خليلته "كوريزاند" رئيسة لدير شاتيون- سير- سين. وخلق السادة النبلاء الأسقفيات ورياسات ديورة الرهبان والراهبات على أبنائهم الصغار، وأبنائهم غير الشرعيين، وجنودهم البواسل، ونسائهم الأثريات. وإذا كانت قرارات الإصلاح الصادرة من مجمع ترنت لم تقبل بعد في فرنسا، فإن عدد الكليات اللاهوتية التي تعد القساوسة كان قليلاً؛ فكل شاب منذور يقرأ نص القديس اللاتيني ويتعلم مبادئ الطقوس يصلح لاختياره للكهنه، وكثير من الأساقفة الذين كانوا رجال دنيا يعيشون على هواهم قبل أن يكافئوا بمنصب الأسقفية عينوا لرعاية الشعب رجالاً حظهم من التعليم قليل ومن التقوى أقل. قال قسيس "لقد أصبح اسم القسيس مرادفاً للجهل والفجور (2)". وقال سان فانسان ديول "أن أعدى أعداء الكنيسة هم كهنتها غير الجديرين بالكهنه" (3).

وقد حاول الأب بوردواز علاج الجانب الخلفي للمشكلة بإنشائه "مجتمع القساوسة" (1610) وهو نظام تطلب من جميع قساوسة الأبرشية أن يعيشوا معاً عيشة البساطة والوفاء بنذورهم. وفي عام 1611 أسس الأب. برول "جماعة المصلي" على غرار مؤسسة شبيهة أقامها القديس فليب نيري في إيطاليا، وقد أصبحت مدرسة لاهوتية لتدريب شباب القساوسة على تعليم وتكريس أفضل وفي عام 1641 نظم الأب جان جاك أولييه الطريقة السليبية لاعداد الرجال للكهنه، وفي عام 1646 افتتحت مدرسة القديس سلبس اللاهوتية وكنيستها في باريس وفي عام 1643 ألف الأب جان (القديس يوحنا) أود "جماعة يسوع ومريم" لتأهيل الرجال

صفحة رقم : 9942

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ريشيليو -> بين ملكين

للكنهانة والبعثات التبشيرية. وهكذا أعد أعلام من رجال الأجيال التالية كبوسويه، وبوردالو، ومالبرانش، وأرسى أساس قوة الكنيسة وبهائها في عصر لويس الرابع عشر. وكشفت طوائف دينية جديدة عن تقوى الشعب ونفخت فيها حياة جديدة. فدخلت الراهبات الأورسوليات فرنسا حوالي عام 1600 واضطلعن بتعليم البنات، ولم ينقض قرن على دخولهن حتى كان لهن 1.000 بيت و 350 جمهوراً من العابدين. ورحبت ماري مديسي بدخول طائفة "أخوة الرحمة" إلى فرنسا، وهي التي أسسها (1540) القديس يوحنا الإلهي في أسبانيا، وسرعان ما أعدت ثلاثين مستشفى. وفي عام 1610 أنشأت بارونة شاننتال (القديسة شاننتال)، بمساعدة فرانسوا سال، "طائفة السيدة العذراء للافتقاد" لرعاية المرضى والفقراء، وما وافت سنة 1640 حتى كان لها مائة دير، وفي عام 1700 كان لفرع واحد منها أربعمائة دير للنساء. وبلغت جملة الراهبات في فرنسا عام 1600 حوالي ثمانين ألفاً (4).

وهناك رجلان يحتلان مكاناً بارزاً في هذا الإحياء الكاثوليكي الذي حدث في القرن السابع عشر. وأولهما فرانسوا سال الذي اتخذ جزءاً من اسمه من مسقط رأسه القريب من أنسي في سافوا. درس القانون في بادوا وأصبح موظفاً في مجلس شيوخ سافوا. ولكن الدين كان يجري في عروقه، فرسم قسيساً، واضطلع (1594) بمهمة شاقة، هي أن يرد إلى حظيرة الكاثوليكية إقليم شابليه الواقع جنوبي بحيرة جنيف، وكان قد اتبع مذهب كلفن منذ عام 1535. ولم تمض خمس سنوات حتى تمت المهمة، وساعد على ذلك نفي من لم يهتدوا، ولكن أكثر الفضل في إتمامها كان لما أوتي فرانسوا من تقوى وصبر وكياسة مقنعة. فلما رقي أسقفاً كرس نفسه لتعليم الأطفال والكبار وحين زار باريس أحبته نساء الطبقة العليا محبة

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ريشيليو -> بين ملكين

الإكبار والتبجيل، وأصبحت التقوى هي الزي الفاشي في المجتمع حيناً من الزمن. أما حياة ثاني الرجلين، وهو فانسان ديول، فقد سلكت مسالك أقل اتباعاً للتقاليد. ذلك أنه بدأ راعي خنازير، ولكنه بطريقة ما وجد سبيله إلى كلية فرانسيسكا بغسقونيا، وإذا كان أبوه - ككل أب كاثوليكي - تواقاً للظفر بثواب الآخرة لأسرته بتكريس أحد ابنائه للكنيسة، فقد باع زوجاً من الثيران ليرسل ولده إلى جامعة تولوزو ليدرس اللاهوت، وهناك رسم فانسان قساً (1600). وفي رحلة على بحر المتوسط أسره القراصنة وباعوه عبداً في تونس. ولكن هرب، وذهب إلى باريس، وأصبح قسيساً خاصاً لمارجو طليقة هنري الرابع، ثم أصبح المرشد الروحي لمدام جوندى. وبفضل المال الذي أعانته به هذه السيدة نظم البعثات التبشيرية بين الفلاحين، وبعد كل بعثة تقريباً أسس "ميرة" لإغاثة فقراء الناحية، ورغبة في استمرار هذه المؤسسات نظم "جماعة قساوسة البعث" - ويطلق عليهم أحياناً كثيرة اسم "العازرين" نسبة إلى دير القديس لعازر الذي استخدموه مقرراً رئيسياً لهم في باريس. ولما كان المسيو جوندي قومندانا لسفن تشغيل المجرمين الفرنسية فقد اضطلع فانسان بالتبشير للمحكوم عليهم بالأشغال الشاقة في هذه السفن. وإذا روعته شدائدهم وأمراضهم، فتح لهم المستشفيات في باريس ومرسيليا، وأيقظ ضمير فرنسا لتعامل المسجونين معاملة أفضل. ثم أقنع النساء الميسورات بأن يقمن بالخدمة في المستشفيات بين الحين والحين، وجمع المبالغ الطائلة لتوزيعها على شئون البر؛ ورغبة في التصرف في هذه الأموال، وفي إعانة جماعة "سيدات البر" التي أنشأها، نظم عام 1633 جماعة "أخوات البر" (وكان يفضل أن يدعوهن بنات البر) اللاني يخدمن الآن الانسانية وكنيستهن في أصقاع كثيرة من العالم.

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ريشيليو -> بين ملكين

وقد كسب "مسيو فانسان" قلوب كل من عرفوه تقريباً برغم ما افتقر إليه من جاذبية الجسد، وما ارتداه من رث الثياب، وما في طلعتته من شبه بمعلم ناموس يهودي ملتج مغضن الوجه، وذلك بفضل جهاده في سبيل الفقراء والمرضى والمجرمين. وقد جمع الأموال الكثيرة، وأنشأ المستشفيات، والملاجئ، والمدارس اللاهوتية، وبيوت الشيوخ، ومعتكفات العلمانيين والقساوسة؛ وقد تضخم حجم الحسابات التي تسجل خيراته. وخلال حرب الفروند التي نشبت بين عامي 1648 و 1653، وأثناء حصار باريس، أشرف على إطعام خمسة عشر ألفاً من المعدمين؛ على أن التثبيت بالعقيدة هنا غلب نوازع الخير، فقد تطلب اعتراف الشخص بالعقيدة الكاثوليكية شرطاً لنيله الطعام (5). وانضم إلى الحملة على بور-رويال، ولكنه حاول التخفيف من اضطهاد راهباتها (6). فلما مات ناح عليه نصف باريس، وكان شعور الارتياح شاملاً حين سلكته الكنيسة في عداد قديسيها (1737).

وبفضل هذا الرجل، وبفضل فرانسوا سال، وبفضل اليسوعيين الذين لا يتطرق اليأس إلى نفوسهم، وبفضل الخدمة الصادقة التي قدمتها نساء لا حصر لهن، ولدت الكاثوليكية الفرنسية في عهد لويس الرابع عشر ميلاداً جديداً يتميز

بالقوة والروع. فعادت الطرق الديرية إلى نظمها، وأصلحت أديار الراهبات نفسها؛ وبدأ الآن بور- رويال وقديسوه الجانسونيون. ووجد التصوف نفراً جديداً من الداعين والممارسين للاستغراق في التأمل المباشر لله. أما الملك الشاب الذي انتقلت إليه حماسة العصر فقد وضع فرنسا في إجلال تحت حماية مريم العذراء، "حتى يكون الفردوس ثواب جميع رعاياه المخلصين... لأن هذه مشيئته الطيبة ومسرة نفسه(7) " على حد قول المرسوم الملكي. واستمر الحراس يوقظون الباريسييين كل صباح كما ألفت فرنسا أيام العصور الوسطى بندااء للصلاة من أجل الموتى الراحلين:

صفحة رقم : 9945

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ريشيليو -> بين ملكين

"استيقظوا أيها النائمون"

وصلوا الله من أجل الراحلين"

ولكن صراع العقائد واصل طريقه في مرارة. والتزمت ماري مديسي بمرسوم ناننت بأمانة على الرغم من تمسكها بعقيدتها، ولكن لا الكاثوليك ولا الهيجونوت كانوا يميلون للتسامح. وندد البابا وسفيره والأكليروس الكاثوليك بالحكومة لتساهلها مع الهرطقة. وحيث كانت الغلبة للكاثوليك راحوا يشوشون على الخدمات البروتستنتية ويدمرون كنائس البروتستنت وبيوتهم وأحياناً حياتهم(9)، وأخذوا الأطفال عنوة من آبائهم الهيجونوت بحجة أنهم يحولون بينهم وبين تحقيق رغبتهم في اعتناق الكاثوليكية(10). وحيث كان البروتستنت أصحاب الكلمة العليا ردوا على هذا بمثله. فحظروا ترتيب القداس في نحو 250 مدينة خاضعة لهم(11)، وطالبوا بأن تحرم الحكومة المواكب الكاثوليكية في البلاد البروتستنتية، وكانوا يسخرون من هذه المواكب ويشوشون عليها أحياناً يهاجمونها، ومنعوا البروتستنت من حضور شعائر العماد أو الزواج أو المآتم الكاثوليكية، وأعلن رعاتهم أنهم سيمنعون الأباء الذين يتزوج أبناؤهم من الكاثوليك من تناول القربان(12). قال مفكر حر مشهور "بينما كان الكاثوليك نظرياً أكثر تعصباً من البروتستنت، أصبح البروتستنت أكثر تعصباً من الكاثوليك(13) "، وناقس الوعاظ البروتستنت الكهنة الكاثوليك في قمع الهرطقة وتكميم النقد؛ فحرموا جريمي فيرييه (ولكنهم لم يحرقوه) و "أسلموه للشيطان " لأنه هزأ بالمجتمعات الكنسية، وهاجمت كتاباتهم المذهب الكاثوليك في "كتب قل أن يكون لها نظير في مرارة الشعور، ويستحيل بالتأكيد أن تبرزها كتب أخرى(14) " وخشي الهيجونوت إلغاء مرسوم ناننت، وساءهم الحلف بين فرنسا وأسبانيا فاضلوا لكي يجعلوا نصيبهم من فرنسا مستقلاً سياسياً، أمناً حربياً، له جيشه وقوانينه الخاصة.

صفحة رقم : 9946

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ريشيليو -> بين ملكين

وحين زار لويس الثالث عشر (1620) صدمة ألا يجد كنيسة كاثوليكية واحدة يصلي فيها (15). ونظر الملك الشاب في استياء وفزع إلى مذهب لم يهدد بأن يقسم روح فرنسا فحسب بل جسدها أيضاً. وفتش في لهفة بين حاشيته عن رجل في دمه من الحديد ما يكفل تحويل هذه الفوضى- فوضى العقائد والقوى المفرقة- إلى أمة موحدة.

صفحة رقم : 9947

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ريشيليو -> لويس الثالث عشر

2-لويس الثالث عشر

لقد أيقن أنه هو ذاته يفتقر إلى صحة البدن وقوة الذهن التي تتطلبها هذه التحديات. ولد في السنة الثامنة والأربعين لأب ربما أوهن من قواه الافراط الجنسي، لذلك كان يشكو السل، والتهاب الأمعاء، وتعثراً مريباً في منطقته. وكان في فترات طويلة أضعف من أن يمارس الرياضة، إنه يعزف الموسيقى ويؤلفها، ويزرع البازلاء للسوق، ويسيج أرض الصيد، ويساعد في المطبخ. لم تبق له الوراثة والمرض على أي جمال في القوام أو الوجه، فهو نحيل نحولاً خطراً، ضخم الرأس والأنف، تركت شفته السفلى المتدلية فمه مفتوحاً دائماً بعض الانفتاح؛ ينسجم وجهه الطويل الشاحب مع ردائه الكابي عن عمد. ولم تكن معاناته من الطبيعة بأشد من معاناته من أطبائه، فقد فصدوه في سنة واحدة سبعاً وأربعين مرة، وأعطوه 215 حقنة شرجية، وألقموه 212 دواء (16). على أنه احتفظ بالحياة بفضل ممارسته الرياضة حين يستطيع، والصيد، والانضمام إلى جيشه، والنوم في الهواء الطلق، وتناول طعام الجنود البسيط. كان مدرسه يضربونه مراراً، لذلك اشتد بغضه للتعلم، ويلوح أنه لم يقرأ قط كتاباً إلا للصلاة. واعتاد أن يتلو صلوات العبادة السبع كل يوم، وقبل في غير تشكك ذلك الايمان الذي لفته في صباه، وكان ينضم دائماً إلى أي موكب يحمل القربان المقدس ويصاحبه إلى النهاية. وقد أفسدت مزاجه الرقيق بطبعه نزعة مريضة إلى القسوة تتناوب بين الحين والحين.

صفحة رقم : 9948

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ريشيليو -> لويس الثالث عشر

كان خجولاً، كتمة، مكتئباً، لا يستشعر الحب الشديد لحياة لم تحبه. واعتبرته أمه إنساناً ضعيف العقل، فأهملته، وفضلت عليه في صراحة أخاه الأصغر جاستون، واستجاب لذلك بكرهه إياه وعبادة ذكرى أبيه. ثم اكتسب تدريجاً بغض النساء، وبعد أن تأمل على استحياء جمال الأنسة أو تفور منح الشبان حبه. تزوج من آن النمسوية زواجاً سياسياً، فكان يساق إلى فراشها سوقاً. وحين أسقطت جنينها لم يمسه ثلاثاً عشر عاماً. ونصحته بطانته بأن يتخذ له محظية، ولكن كان له ميول أخرى. ثم حاول ثانية وهو في السابعة والثلاثين، مذعناً لمطالبة فرنسا كلها بولي للعهد، وأعطت أن الشاكرة العالم لويس الرابع عشر (1638). وبعد عامين ولدت فليب أورليان الأولى، الذي واصل تقدير أبيه لمفاتن الذكور.

على أن لويس كان له بعض شيم الملوك. من ذلك أنه وهو بعد غلام في السادة عشرة، وقد سئم وقاحة كونشيني واختلاساته المالية، أصدر فجأة أوامره السرية باغتياله (1617)، وحين احتجت الملكة الأم على هذا الختام لحياة محسوبها نفاها إلى بلوا واختار شارل دالبير وزيراً أول له، وكان هو الذي اقترح عليه هذه الضربة، ورفي الآن دوقاً على لون. وتحت إلحاح الدوق والبابا بولس الخامس، أمر لويس الهيجونوت برد كل الأملاك التي أخذوها من الكنيسة. فلما تجاهل إقليم بيارن المرسوم زحف عليه وفرض عليه الطاعة ووضع بيارن ونافار مملكة أبيه الشخصية فيما مضى تحت حكم الملك المباشر. ولم يقاوم الهيجونوت من فورهم، ولكن جمعيتهم العامة المجتمعة في لاروشيل أقوى مدنهم، طالبت برد الأملاك المستعادة لأنها ملك للشعب لا للكنيسة؛ ثم قسمت فرنسا ثمانى «دوائر» وعينت لكل منها مديراً عاماً ومجلساً لجمع الضرائب والجند. وأعلن لويس أن فرنسا لا يمكن أن تسمح بدولة داخل الدولة. وفي أبريل 1621 قاد جيشاً، وزحف قواده الآخرون بثلاثة جيوش، وجهت كلها ضد القلاع البروتستنتية، فسقط عدد منها، ولكن مونتوبان التي دافع عنها

صفحة رقم : 9949

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ريشيليو -> لويس الثالث عشر

هنري دوق روهان ثبتت للهجوم. وترك القواد غير الأكفاء الحرب تتعثر عاماً ونصف. ومنعت معاهدة الصلح المعقودة في 9 أكتوبر 1622 التجمعات البروتستنتية، ولكنها تركت مونتوبان ولاروشيل في أيدي الهيجونوت وفي خلال هذه الحملات مات لون (1621)، وارتقى ريشيليو إلى مركز القوة.

صفحة رقم : 9950

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ريشيليو -> الكاردينال والهيجونوت

كيف يشق إنسان طريقه إلى القمة؟ في تلك الأيام كانت تعينه على ذلك عراقة أصله. وكانت أم أرمان جان دبليس دريشليو ابنة محام في برلمان باريس، أما أبوه فهو السنيور دريشليو، المدبر الأكبر لبيت الملك في عهد هنري الرابع وورثت أسرة بواتو العريقة الحق في أن توصي الملك باختيار من ترشح لأسقفية لوسون. وقد عين هنري أرمان بهذه الطريقة (1606) وكان يومها في الحادية والعشرين. وإذا كان أصغر من السن المشترطة للأسقفية بسنتين، فإنه سارع إلى روما، وكذب في أمر سنه، وألقى أمام بولس الخامس خطاباً لاتينياً جميلاً حمل البابا على أن يسلم له الأسقفية أما وقد تحقق له «الأمر الواقع»، فقد اعترف ريشليو بكذبه، وطلب المغفرة. وامتثل البابا وهو يقول «إن هذا الفتى سيكون محتالاً كبيراً» (17).

وصف الأسقف الشاب أسفقيته بأنها «أفقر وأقذر» الأسفقيات في فرنسا، ولكن كانت الأسرة تملك بعض المال، فما لبث أن امتلك المركبة والأثنية الفضية ولم يتخذ وظيفته منصباً شرفياً عاطلاً، بل فرغ لأداء واجباته في اجتهاد ومثابرة، ولكنه وجد الوقت لتملق كل صاحب ذو نفوذ ويسخر كل صاحب قوة. فلما اختار كهنة بواتو مندوباً لمجلس الطبقات (1614) كان أرمان رجلهم، وأعجب كل من كان بالمجلس، لا سيما ماري مديسي، بوجهه الرزين، وقوامه الفارع الممشوق، وقدرته القانونية

صفحة رقم : 9951

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ريشليو -> الكردينال والهيونوت

تقريباً على تفهم الموضوعات تفهماً واضحاً وعرضها عرضاً مقنعاً. وعين سكرتيراً للدولة بنفوذها ونفوذ كونشيني (1616). وبعد عام قتل كونشيني وفقد ريشليو وظيفته. وبعد أن خدم الملكة الأم المنفية في بلوا فترة قصيرة عاد إلى لوسون. وبيت ماري الهروب؛ واشتبه في اشتراك ريشليو في المؤامرة، فنفي إلى أفنيون (1618)، وبدا أن مجرى حياته السياسية قد انتهى. ولكن الجميع حتى خصومه اعترفوا بقدراته، ولما تدلت ماري ليلاً من إحدى نوافذ قلعتها في بلوا وانضمت إلى قوة من النبلاء المتمردين، استدعى لون الأسقف الشاب وعهد إليه أن يرد الملكة إلى رشدها ويصلح بينها وبين الملك. فأفلح في مهمته، وحصل له لويس على قلنسوة الكردينالية، وعينه في مجلس الدولة. وسرعان ما وضع للعبان تفوق ريشليو عقلاً وإرادة، فأصبح رئيساً للوزراء في أغسطس 1624 وهو في التاسعة والثلاثين.

وقد وجد الملك فيه بالضبط تلك الصفات التي افتقدها في نفسه: الذكاء الموضوعي، والهدف الواضح، وصلابة الغايات، ومرونة الوسائط، وكان للويس من الحصافة ما جعله يتقبل ارشاد الكردينال في المهمة الثلاثية مهمة اخضاع الهيونوت، والنبلاء، وأسبانيا، قال ريشليو في مذكراته مقدرًا له هذه الخلة «إن قدرة الملك العظيم على أن يسمح بأن يخدم (أي بأن يفوض غيره بالسلطة) ليست من أقل صفات الملك العظيم شأنًا (18)». لم يكن لويس متفقاً مع وزيره في جميع الحالات، وكان أحياناً يوبخه، وكان دائماً يغار منه، وقد فكر بين الحين والحين في طرده. ولكن أبى له أن يرفض رجلاً مطلق السلطة في فرنسا وصاحب الكلمة العليا في أوروبا، وبحصل له من الضرائب أكثر حتى مما كان صلي يجمعه؟

وتجلت روح الكردينال أول ما تجلت في موقفه من الدين. فلقد قبل في غير نقاش عقائد الكنيسة، وأضاف إليها بعض الخرافات التي يعجب المرء لأن عقلاً أوتي مثل هذه القوة آمن بها. ولكنه رفض ما ذهب

صفحة رقم : 9952

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ريشيليو -> الكاردينال والهيونوت

إليه حزب «مؤيدي سيادة البابا المطلقة» من أن للبابوات كامل السيادة على الملوك، وحافظ على «الحريات الغالية» للكنيسة الفرنسية ضد روما، وأخضع الكنيسة للدولة في الأمور الزمنية بنفس المضاء الذي أخضعها به أي إنجليزي، ونفي الأب كوسان، الذي تدخل في السياسة بوصفه كاهن الاعتراف الملكي، ففي رأيه أن أي دين من الأديان يجب ألا يختلط بشئون الدولة. أما التحالفات التي أدخل فيها فرنسا فكانت مع الدول البروتستنتية والكاثوليكية على السواء. وقد طبق مبادئه في حزم على الهيونوت المشتغلين بالسياسة، ذلك انهم برغم صلح 1622 جعلوا لاروشيل مدينة صاحبة سيادة من الناحية الفعلية، يشرف عليها تجارها ووزراؤها وقوادها. ومن هذا الميناء الاستراتيجي أرسل التجار تجارتهم مع العالم، وأقلع القراصنة ليقنتصوا أية غنيمة أو مركب، حتى المراكب الفرنسية، وكان في استطاعة أي عدو لفرنسا أن يدخل البلاد من هذا الميناء إذا أذن له الهيونوت. كذلك انتهك لويس ذاته المعاهدة، فقد وعد بهدم «حصن لويس» الذي كان خطراً دائماً على المدينة، ولكنه بدلاً من أن يهدمه زاده تحصيناً، وحشد أسطولاً صغيراً في ثغر لابلافيه القريب. فأسر بنيامين روهان (أخو هنري)، سيد سوبيز، الذي قاد أسطولاً هيونوتياً، هذا الأسطول الملكي وقطره ظافراً إلى لاروشيل (1627) لذلك بنى روشيليو أسطولاً آخر، ونظم جيشاً، ورافق الملك في حصاره للقلعة الهيونوتية. وأقنع سوبيز دوق بكنجهام بأن يرسل أسطولاً ضخماً قوامه 120 سفينة لحماية المدينة. فحصر الأسطول، ولكنه عانى الويل من مدفعية الحصون الملكية القائمة على جزيرة ري. فاضطر إلى التسلل عوداً إلى إنجلترا وهو يجر أذيال الخزي والعار (1627). وكان ريشيليو خلال ذلك قد استولى على جميع الطرق البرية المؤدية إلى لاروشيل (بوصفه قائداً لملكه المريض). ولم يبق إلا حصارها من البحر. فأمر مهندسيه

صفحة رقم : 9953

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ريشيليو -> الكاردينال والهيونوت

وجنده أن يقيموا تلاً من الحجر طوله 1700 ياردة بعرض مدخل الميناء، تاركين فتحة لحرمة المد والجزر. وقد بلغ عنف هذه الحركة، التي ارتفعت فيها المياه وهبطت اثني عشر قدماً، مبلغاً جعل تنفيذ المشروع يبدو مستحيلاً، ففي كل يوم كان الماء يكتسح نصف الأحجار المبنية يومها. وملّ الملك هذه الحرب التي لم تسفك فيها دماء وانطلق إلى باريس، وتوقع كثير من رجال الحاشية أنه طارد ريشيليو لعجزه عن أخذ المدينة عنوة. ولكن النل اكتمل بناؤه أخيراً

وبدأ مهمته المرسومة. ومات نصف سكان لاروشيل جوعاً. ولم يستطع الحصول على القليل من اللحم غير أغنياء القوم، فكانوا يدفعون خمسة وأربعين جنيهاً ثمناً للقط، وألفي جنيه ثمناً للبقرة. أما جان جيتون عمدة المدينة فقد توعد كل من يجري على لسانه حديث الاستسلام بالقتل بخنجره. ولكن المدينة استسلمت في يأسها بعد ثلاثة عشر شهراً من المجاعة والمرض (30 أكتوبر 1628). ودخلها ريشليو ممتطياً جواده من خلفه الجند يوزعون الخبز رحمة بالناس. وتصايح نصف فرنسا مطالباً باستئصال شأفة الهيجونوت. ولم يكن في وسعهم بعد أن أضنتهم الحرب- إلا أن يتوسلوا. ولكن ريشليو فاجأهم بشروط صلح رأى فيها الكاثوليك تساهلاً شائناً. صحيح أن لاروشيل فقدت استقلال بلديتها، وحصونها، وأسوارها، ولكن أشخاص سكانها وأملاكهم لم تمس، وسمح لمن بقي من الجنود الهيجونوت بالرحيل بأسلحتهم، ومنحت حرية العبادة في المدينة للبروتستنت والكاثوليك على السواء، وتلقت مدن هيجونوتية أخرى مثل هذه الشروط بعد استسلامها. ووجب رد الأملاك الكاثوليكية التي انتزعتها البروتستنت، ولكن القساوسة الهيجونوت الذين فقدوا مأواهم مؤقتاً عرضوا باعانة من الدولة بلغت 200.000 جنيه، واعفوا من فرضة الرؤوس (التاي) شأن الأكليروس الكاثوليك(19). ومنح عفواً لجميع من شاركوا في التمرد. وثبت مرسوم ناننت الذي أصدره هنري الرابع في كل نصوصه الجوهريّة،

صفحة رقم : 9954

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ريشيليو -> الكاردينال والهيجونوت

بمرسوم ريشليو المسمى «مرسوم العفو» (28 يونيو 1629) وفتحت وظائف الجيش والبحرية والحكومة أمام الجميع دون نظر للعقيدة. وأذهل أوربا أن ترى الكاثوليك الفرنسيين يتبعون ويبدلون قوادماً من البروتستنت كنورين وشومبير وهنري روهان. قال ريشليو «منذ ذلك الحين لم تمنعني قط خلافات الدين عن أداء كل أنواع الخدمات للهيجونوت(20)». وقد تبين الكاردينال العظيم، في حكمة افتقدها لويس الرابع عشر فيما بعد افتقاداً مؤسفاً، قيمة الهيجونوت الاقتصادية الهائلة لفرنسا- كما سيدينها كولبير. ومن ثم فقد أقلعوا عن الثورة، وانصرفوا في هدوء إلى التجارة والصناعة، وأصابوا من التوفيق والفلاح ما لم يصيبوه في أي وقت مضى.

صفحة رقم : 9955

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ريشيليو -> الكاردينال والأشراف

بمثل هذا المضاء، ويتساهل أقل، تناول ريشليو النبلاء الذين ما زالوا يرون في فرنسا التعدد لا الوحدة. لم تكن الإقطاعية قد ماتت قط، فلقد حاربت من قبل في الحروب الدينية لتهيمن على الحكومة المركزية. وكان كبار النبلاء يحتفظون بقلاعهم المنيعه، وقواتهم المسلحة، وحروبهم الخاصة، وبطاناتهم، وموظفيهم القانونيين، وبفلاحهم تحت رحمتهم، ويتقاضون الرسوم المعوقة على التجارة التي تخترق أملاكهم. إن فرنسا لم تكن بعد أمة لأن الإقطاع والدين قطعاً أوصالها، بل كانت مجموعة مضطربة قلقة من البارونات المغرورين، أشباه المستقلين، القادرين في أية لحظة على تكدير السلام وتمزيق اقتصاد الدولة. وكان أكثر الأقاليم يحكمه الأدواق أو الكونتات الذين يدعون لأنفسهم حق حكمها مدى الحياة ويورثونها أبناءهم.

ولاح لريشليو أن البديل العملي الوحيد لهذه الفوضى المضعفة هو تركيز النفوذ والسلطة في الملك. ويخيل إلينا أنه ربما أمكنه أن يجاهد ليوازن هذا التركيز برد قسط من الاستقلال للبلديات. ولكنه لم يستطع رد كومون العصر الوسيط الذي اعتمد على نقابات التجار والصناع والاقتصاد المحلي

صفحة رقم : 9956

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ريشليو -> الكاردينال والأشراف

المحمي؛ ذلك أن الانتقال من سوق المدينة إلى سوق الأمة قوض هذه النقابات والكومونات، وتطلب التشريع المركزي لا المحلي. ولعل العقول التي تجمدت في الأوضاع الحاضرة لا ترى في السلطة الملكية المطلقة التي نشرها ريشليو غير استبدادية رجعية؛ أما في رأي التاريخ، وفي رأي الكثرة الغالبة من الفرنسيين في القرن السابع عشر. فإنها كانت تقدماً حرر البلاد من الطغيان الإقطاعي إلى الحكم الموحد. لم تكن فرنسا قد نضجت بعد للديمقراطية، فأكثر سكانها مفتقرون إلى الغذاء الطيب والكساء الجيد، أميون، رانت على عقولهم الخرافة وتوحشت نفوسهم بفعل التعصب للعقيدة. وكانت المدن يهيمن عليها رجال الأعمال الذين لا يستطيعون التفكير إلا في كسبهم أو خسارتهم، ولم يكن هؤلاء الرجال، الذين عرقلت الامتيازات الإقطاعية كل خطوة من خطواتهم، مبالين إلى الاتحاد مع صغار النبلاء كما حدث في إنجلترا لإقامة برلمان يقف في وجه السلطة الملكية. ولم تكن «البرلمانات» الفرنسية برلمانات تمثيلية تشريعية، إنما كانت محاكم عليا غدتها السوابق ورسختها، ولم تكن منتخبة من الشعب، وقد غدت قلاعاً للمحافظة. وحبذت الطبقات الوسطى، ومهرة الصناع، والفلاحون، سلطة الملك المطلقة بوصفها الحماية الوحيدة التي يرونها ضد سلطة النبلاء المطلقة.

في عام 1626 أصدر ريشليو باسم الملك مرسوماً طعن في الصميم، فقد أمر بهدم جميع القلاع إلا ما كان منها على الحدود، وحظر تحصين المساكن الخاصة في المستقبل. وفي نفس العام (بعد أن مات أخوه الأكبر منه سناً في مبارزة) اعتبر المبارزة جريمة كبرى، فلما تبارز مومورنسي بوتفيل والكونت دي شابيل برغم هذا الأمر أعدمهما. وقد اعترف بأنه «يحس كدراً شديداً في روحه» لهذا الاجراء، ولكنه قال لمولاه

صفحة رقم : 9957

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ريشيليو -> الكاردينال والأشراف

«إن الأمر خيار بين القضاء على المبارزات أو على أوامر جلالتم (21)». وأقسم النبلاء أن ينتقموا من الوزير، وراحوا يتآمرون على إسقاطه. وقد وجدوا في الملكة الأم حليفاً مشوقاً إلى الانتقام منه. فهذه الأم التي كانت يوماً ما حامية ريشيليو باتت تبغضه حين رأته يعارض سياستها، ولما مرض لويس مرضاً خطيراً (يوليو 1630) مرضته هي والملكة حتى استعاد بعض صحته، ثم طلبا إليه رأس الكاردينال مكافأة لهما. وكررت ماري مديسي المطلب بالحاح شديد وهي في قصرها قصر للكسمبورج-طانة أن ريشيليو بعيد جداً، ثم اقترحت ميشيل دمارياك، حامل الأختام، بديلاً راعياً في الحلول محله. ولكن ريشيليو الذي أتى بطريق ممر سري، دخل الحجرة في غير إذن وواجه الملكة الأم، واعترفت بأنها أخبرت الملك بأن عليه أن يختار بين أن تذهب هي أو هو-أي ريشيليو. وانسحب الملك المرهق، وانطلق راكباً إلى كوخ صيده في فرساي. وتقاطرت الحاشية حول ماري في اغتباط بفوزها المنتظر. ولكن لويس أرسل في طلب ريشيليو، وثبته رئيساً للوزارة، وأكد له مساندة الملك له، ووقع أمراً بالقبض على ماريك. وأشاع «يوم المغفلين» هذا في (10 نوفمبر 1630) الفوضى والحنق في صفوف النبلاء المتآمرين. وسمح لمارياك بالبقاء حياً، ولكن أخاه الذي كان مرشلاً لفرنسا اتهم بعد ذلك بالاختلاس وأعدم في شيء من العجلة (1632) وأمر لويس أمه أن تعتكف في قصرها الريفي بمولان وأن تنفض يدها من السياسة. ولكنها هربت إلى فلاندر بدلاً من ذلك (1631)، وجمعت لها حاشية في منفاها ببروكسل، وراحت تعمل لاسقاط ريشيليو. ولم تقع عيناه قط على الملك بعد ذلك. أما ولدها الثاني، «مسيو» جاستون، دوق أورليان، فقد حشد جيشاً في اللورين وقاده في تمرد صريح على أخيه (1622). وانضم إليه نبلاء، ومنهم أرفع شريف في فرنسا-هنري، دوق مونمورنسي،

صفحة رقم : 9958

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ريشيليو -> الكاردينال والأشراف

وحاكم لانجدوك. وانضوى الآلاف من الطبقة الارستقراطية تحت لواء الثورة. وعلى مقربة من كاستلونداري (أول سبتمبر) اشتبك مونمورنسي، البالغ من العمر سبعة وثلاثين ربيعاً، مع القوات التي جردها عليه ريشيليو. وقا تل حتى أسقطه سبعة عشر جريحاً، وتحطم جيشه هو وجاستون تحت وطأة الهجوم، وكان جيشاً غنياً في الألقاب فقيراً في النظام، وأسر مونمورنسي. واستسلم جاستون، ودل على شركائه ثمناً للعفو عنه. وأمر لويس برلمان تولوز بأن يحاكم مونمورنسي بتهمة الخيانة؛ وكان الحكم هو الاعدام. وهكذا مات آخر أدواق مونمورنسي دون خوف أو تذمر وهو يقول «أنني أعد هذا الأمر الذي أصدره قضاء الملك أمراً أصدرته رحمة الله (22)». وأدان معظم فرنسا الكاردينال والملك لهذه الصرامة المجردة من الشعور، وأجاب لويس «ما أنا بملك لو كان لي شعور الأشخاص العاديين». أما ريشيليو فدافع عن الإعدام بأنه إنذار ضروري للنبلاء بأنهم هم أيضاً خاضعون للقوانين قاتلاً «لا شيء يدعم القوانين كعقاب الأشخاص الذين تعظم رتبته عظم جريمته» (23). بقيت عقبتان أخريان في طريق سياسة ريشيليو، ولادة الأقاليم والبرلمانات. لقد ساء الكاردينال فقدان إيراد الأقاليم بسبب ما شاب سلوك الولاة النبلاء والقضاة من البورجوازيين أو صغار النبلاء عن فساد ونقص في الكفاية، لذلك أوفد الكاردينال لكل قسم «محافظين» للأشراف على إدارة المالية والقضاء وتنفيذ القوانين. واتخذ هؤلاء الموظفون المليون مكاناً أعلى من الموظفين المحليين كائنة ما كانت رتبته، واضمحل استقلال الأقاليم الذاتي، وانتعشت الكفاية وزادت حصيلة الضرائب. ونظام المحافظين هذا الذي استبق هنري رابع إليه بقدر ما، والذي عطله النبلاء في

الفروند، والذي دعمه لويس الرابع عشر، ثم اقتبسه نابليون- هذا النظام أصبح من الملامح البارزة للبيروقراطية المحكومة مركزياً والتي أدارت منذ الآن قوانين فرنسا.

صفحة رقم : 9959

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ريشيليو -> الكاردينال والأشراف

أما برلمان باريس فقد خيل إليه أن الفرصة في ظل ملكية ضعيفة مواتية لتوسيع وظائفه من تسجيل القوانين وتفسيرها إلى دور المجلس الاستشاري للملك. ولكن ريشيليو ما كان ليطبق مثل هذه المنافسة لمجلس دولته، فدعا لويس زعماء البرلمان، على الأرجح بتحريض منه، مستعملاً مباراته الحادة، وقال لهم «لقد عينتم لا لشيء إلا لتقضوا بين زيد وعمرو من الناس، فإذا تماديتم أنتم فيه فاني مقلم أظافركم تقليماً حاداً تأسفون له (24)». وأذعن برلمان باريس، وحدث برلمان الأقاليم حذوه، واختزلت وظائفهم حتى التقليدي منها، فأقام ريشيليو «لجاناً فوق العادة» لتتظر في الدعاوى الخاصة. وأصبحت فرنسا دولة بوليسية، وانتشر جواسيس الكاردينال في كل مكان حتى في الصالونات، وغدت «الأوامر المختومة» أداة مألوفة في الحكم. وهكذا أصبح ريشيليو الآن في حقيقة الأمر وواقعه ملك فرنسا.

صفحة رقم : 9960

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ريشيليو -> الكاردينال صاحب الكلمة العليا

5- الكاردينال صاحب الكلمة العليا

أما وقد ملكت يداه هذه السلطة المركزة، فقد فعل كل شيء من أجل فرنسا، ولم يفعل إلا القليل من أجل الشعب. كان يرى فرنسا دولة لا مجموعة من الأفراد الأحياء، أنه لم ينظر إلى الرجل العادي نظرة مثالية، ولعله رأى «العذوبة واللياقة» في أن يموت أمثال هؤلاء الرجال في سبيل وطنهم، فهو راغب في التضحية بهم ليؤمن وطنه المستقل من تطويق الهابسبورج له. وكان يشقى ساعات الليل الطويلة في تصريف شئون الدولة، ولكن همه كان أكثر الوقت سياستها الخارجية. لم تكن لديه متسع من الوقت لتحسين الاقتصاد، إلا أن يكون لتصيد المتهربين من الضرائب وجلب الدخل و «الأنباء» لباريس بقدر أقل من التسرب وهي في الطريق. وفي عام 1627 نظم البريد العام. وكانت الضرائب ما زال يجمعها رجال المال الذين «أقطعوا» هذه الضرائب، وكانوا يقتضون المثليين، وأحياناً ثلاثة أمثال المبلغ الذي يؤدونه

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ريشيليو -> الكاردينال صاحب الكلمة العليا

للحكومة. وقد أعفى النبلاء ورجال الدين من الضرائب الهامة، ووجد مهرة رجال الأعمال وثروات الموظفين المخترنة السبيل للتهرب من الجباة أو استرضائهم، أما المدن فكانت تدفع مبلغاً صغيراً لتتجو من فرصة الرؤوس، ووقعت وطأة الضرائب على طبقة الفلاحين التي قصدها ريشيليو وحتى الفاقة ليجعل من فرنسا أقوى دوراً في العالم المسيحي. وكان كهنزي الرابع يؤثر أن يقهر أعداءه بالمال لا بالدم، وكثير من المعاهدات التي خاض بها الحرب تضمن إعانات مالية للحلفاء ورشا للأعداء المحتملين. وكان أحياناً يقرض الخزانة من جيبه الخاص إذ أعوزه تدبير المال، ومرة أستاخر أحد المشتغلين بالكيمياء القديمة ليصنع الذهب (25). وتضافر نظام الضرائب، والسحرة الحكومية على الطرق، مع الجفاف والمجاعة والطاعون وغارات الجنود، لتدفع الفلاحين إلى حال من اليأس تقرب من الانتحار، حتى لقد قتل عدد منهم أسرهم وأنفسهم، وقتلت الأمهات الجائعات أطفالهن وأكلتهم (1639)(26). وفي عام 1634، في رواية ربما بولغ فيها، كان ربع سكان باريس يتسولون (27). وكان الفقراء ينتفضون في فترات دورية وأوقات متفرقة انتفاضات قمعت في غير رحمة. واستخدم ريشيليو الضرائب لبناء الجيوش والأسطول؛ ذلك أن الحق في رأيه لا يجد إنناً صاغية إلا إذا تكلم بالمدفع. ولما اشترى منصب الأميرال لأكير، قام بواجباته بعزيمة ماضية. فأصلح الموانئ وحصنها، وأنشأ الترسانات ومخازن الذخيرة في الثغور، وبنى خمساً وثمانين سفينة، وأسس مدارس لمرشدي السفن. ودرّب أفواج الجنود البحريين. وجند مائة فوج من المشاة، وثلاثمائة جندي من الخيالة؛ ورد النظام إلى الجيش. ولم يخفق غلا في جهوده لاقصاء مومسات الجيش. وبفضل هذه القوات الحربية التي بث فيها الحياة من جديد تصدى لفوضى العلاقات الخارجية التي خلفتها وصاية ماري مديسي، وعاد إلى سياسة هنري الرابع، ووجه كل قواته لهدف واحد- هو تحرير فرنسا من نطاق القوة الهابسبورجية

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ريشيليو -> الكاردينال صاحب الكلمة العليا

في الأراضي المنخفضة والنمسا وإيطاليا وأسبانيا. كانت ماري قد ألفت بين فرنسا وأسبانيا-أي أنها في رأي ريشيليو خضعت للعدو، وأقصت أولئك اللذين اعتمد هنري الرابع على صداقتهم وهم الإنجليز، والهولنديون، وبروتستنت ألمانيا. ورأى ريشيليو بعين القائد الاستراتيجية اللامحة أن الممرات الفاتيلية التي تربط النمسا بإيطاليا الأسبانية هي المفتاح لقوة أسبانيا والإمبراطورية الموحدة في تبادل المؤن والجنود. وكافح اثني عشر عاماً لظفر بهذه الممرات، وقد صرفته عن هذا الهدف وهزيمته حروبه مع الهيجونوت والنبلاء، ولكنه استرد بالدبلوماسية أكثر كثيراً مما خسر في الحرب. ذلك أنه اكتسب «فرانسوا اوكليرك

دوترمبليه» خادماً أميناً، وكان قد اتخذ اسم جوزف حين أصبح راهباً كيوشياً. وأوفد «الأب جوزف» في كل مكان في بعثات دبلوماسية شائكة فأداها بمهارة، وبدأت فرنسا تزوج بين الراهب الرمادي العباءة الذي لقبته «صاحب القداسة الرمادي» وبين ريشليو ذي العباءة الحمراء الذي لقبته «صاحب القداسة الأحمر». أما وقد ظفر الكردينال بهذا المعين، فإنه أقسم أنه «مثبت للعالم أن عصر أسبانيا في سبيل الزوال»، وأن عصر فرنسا قد أقبل (28).
في عام 1629 بدا أن الصراع الطويل في ألمانيا أوشك أن ينتهي بنصر الإمبراطور الهابسبورجي الكاثوليكي نصراً مؤزرأ على الأمراء البروتستانت. ولكن ريشليو قلب الأوضاع قلباً كاملاً بالمال. ذلك أنه أبرم مع جوستاف أدولف (1631) معاهدة نصت على أن يغزو ملك السويد المغوار ألمانيا وينقذ الدويلات البروتستنتية، يعينه على ذلك مليون من الجنهيات تدفعها له فرنسا كل عام. وندد أنصار السلطة البابوية المطلقة في فرنسا بالوزير خائناً لدينه، أما هو فكان رده أن الحياذ خيانة لفرنسا. فلما مات جوستاف وهو ظافر في لنتزن (1632) واستسلم معظم الأمراء الألمان

صفحة رقم : 9963

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ريشليو -> الكاردينال صاحب الكلمة العليا

للإمبراطور، دخل ريشليو الحرب فعلاً. وزاد الجيوش الفرنسية من 12.000 في عام 1621 إلى 150.000 في عام 1638. وأعان الثورة التي قام بها القتلونيون في أسبانيا، وبفضل دبلوماسيته سيطر على كوبلنتز، وكولمار، ومانهايم، وبازل، واستولى جنوده على اللورين وشقوا طريقهم عنوة مخترقين سافوا إلى ميلان قلب القوة الأسبانية في شمال إيطاليا.

ثم دار الحظ دورته وبدأ أن كل هذه الانتصارات لا معنى لها. ففي يوليو أغسطس 1636 عبرت قوة كبيرة من الجيوش الأسبانية والإمبراطورية الأراضي المنخفضة ودخلت فرنسا، واستولت على أكس-لاشابل (أخن) وكوربي، وزحفت على أميان واجتاحت أودية السوم والواز الخضراء. وكانت جيوش ريشليو بعيدة جداً، وأصبح الطريق إلى باريس مفتوحاً عديم الدفاع أمام العدو. واعتببت الملكة الأم في بروكسل، والملكة سان جرمان، وحزبها الموالي لأسبانيا في فرنسا، وراحوا يعدون الأيام لسقوط الكردينال المنتظر. وازدحمت الجماهير الغاضبة في باريس في الشوارع منادية بموته - ولكن حين طلع عليهم بادئ الهدوء فوق جواده المهيب لم يجرؤ أحد منهم على أن يمسه، وابتهل الكثيرون لله أن يمنحه القوة لانقاذ فرنسا. وهنا لم تتضح شجاعته فحسب، بل بعد نظره واجتهاده؛ ذلك انه كان قد نظم منذ أمد بعيد مواطني باريس في ميليشيا احتياطية، واختزن السلاح والمؤونة لهم، ومن ثم فقد نفخ الآن فيهم روح الحماسة فاستجابوا لندائه، وأقر برلمان باريس والمجالس البلدية والنقابات الحرفية المال اللازم، ولم تمض أيام حتى كان جيش جديد في طريقه إلى القتال، فحاصر كوربي. وتلكأ جاستون أورليان المتولي قيادة الجيش، فحضر ريشليو، وتولى القيادة، وأمر بالهجوم. وفي 14 نوفمبر سقطت كوربي، وتقهقرت الجيوش الهابسبورجية إلى الأراضي المنخفضة.

وفي عام 1638 استولى برنان أمير ساكسي-فيمار الذي قاد جيشاً ألمانياً يموله ريشليو، على أنزاس، فلما مات بعد سنة أوصى بها

صفحة رقم : 9964

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ريشيليو -> الكاردينال صاحب الكلمة العليا

لفرنسا، وأصبحت الرأس ولوثرينجن الالزاس واللورين، وبدأت تتحول فرنسية. وفي عام 1640 سقطت أراس. وفي عام 1642 استولت قوة يقودها الملك والكردينال على برينيان، واقتطع إقليم روسيون المحيط بها من أسبانيا. وهكذا بدأ ريشيليو الآن في كل مكان المنظم للنصر.

على أن النبلاء الذين ظلوا على خصومتهم، والحزب الأسباني في البلاط، والنساء النبيلات المغرقات في الدس، كل أولئك بذلوا آخر محاولة لإسقاط الوزير عن كرسيه. ففي سنة 1632 مات المركز إفا بعد أن خدم الكاردينال طويلاً في الدبلوماسية والحرب تاركاً أرملة وطلاماً وسيماً في الثانية عشرة من عمره يدعى هنري كوافيه دروزيه، مركز سانك-مارس. وبسط ريشيليو حمايته على الصبي وقدمه للملك، ولعله رأى بهذه اللعبة أن يصرف لويس عن الأنسة أوتفور التي كانت واحدة من «الدساسات». وهذا ما حدث فقد افتتن الملك بحسن الغلام وظرفه ووقاحته، وعينه مشرفاً على خيول الملك ورجاه أن يشارك الملك في فراشه (29). ولكن سانك-مارس، الذي نضج الآن إذ بلغ الحادية والعشرين، أثر المحظية الحسناء ماريون ديورم، وماري دجونزاج المتعالية، ملكة بولندا المستقبلية، التي كانت الآن من أجمل خصوم الكاردينال. ولعل الشاب ألح على لويس أن يدخله عضواً في مجلس الملك ويجعله قائداً في الجيش بإيعاز منها وإثارة من خلواتها الاستراتيجية. فلما لم يرض ريشيليو عن هذه المقترحات التمس سانك - مارس من الملك أن يطرد وزيره. ورفض الملك، فانضم الفتى إلى جاستون أورليان ودوق بويون وغيرهما في مؤامرة لتسليم سيدان إلى الجيش الأسباني، واتفق على أن يدخل المتآمرون باريس وهذا الجيش من خلفهم ويعتقلوا الملك، وتعهد جاستون بأن يدبر اغتيال الكاردينال في طريقه إلى برينيان. والتمس جاك أوجست دتو، صديق سانك - مارس، تعاون الملكة. ولكن أن النمسية التي توقع موت لويس القريب ووصولها إلى السلطة بوصفها

صفحة رقم : 9965

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ريشيليو -> الكاردينال صاحب الكلمة العليا

وصية أرسلت إلى ريشيليو إشارة خفية بالمؤامرة. وتظاهر هذا بأن لديه نسخة من الاتفاق مع أسبانيا، فصدق جاستون واعترف، ثم دل على شركائه كما هي العادة. وقبض على سانك - مارس، وبتو، وبويون. وأيد بويون اعتراف جاستون ثمناً للعفو عنه. وحوكم الشابان أمام محكمة في ليون، فدينوا بالإجماع، وشرفاً خيانتهم بموت رابط الجأش. وهرع الملك إلى باريس ليحامي قوته. أما ريشيليو، المريض مرضاً مميتاً، فقد حمل على محفة مخترقاً بلداً يموت من الانتصارات ويصرخ طلباً للسلام.

صفحة رقم : 9966

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ريشيليو -> رثاء

6- رثاء

أي رجل كان هذا الكردينال الذي لم يكذب يكون مسيحياً، هذا الرجل العظيم الذي شعر أنه ليس في وسعه أن يكون إنساناً طيباً؟ لقد أسلمه فليب دشاميان إلى الأجيال التالية في لوحة من أشهر لوحات اللوفر. قوام فارغ تنقذه أثوابه من مظهر السخف، تلخ عليه السلطة عباءة وقبعة حمراوين، يقف كأنه في مرافعة قانونية، يعلن عن نبالته بقسماته الواضحة المحددة ويديه الرقيقتين، ويتحدى أعداءه بعينيه الحادتين، ولكنه شاحب بفعل السنين المضنية، محزون بوعيه بالزمن الذي لا يرحم. هنا دنيوية السلطان يعارضها نسك التكريس. كان عليه أن يكون قوياً ليمنع عيوبه من أن تهزم مراميه. بدأ سيرته في البلاط بتواضع متملق، انتقم له بعد حين بكبرياء لا تعترف بغير سيد واحد دون غيره. فبينما كانت الملكة تزوره ذات مرة ظل جالساً - وهو خروج عن الأدب لا يؤذن به إلا للملك. كان (كأكثرنا) مغروراً بمظهره، شرهاً للألقاب، كارهاً للنقد، تواقاً إلى الشعبية. كان يغار من كوريني، فاشتهى أن يشتهر

صفحة رقم : 9967

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ريشيليو -> رثاء

هو أيضاً كاتباً مسرحياً وشاعراً، وقد كتب فعلاً النثر الرائع كما تشهد بذلك مذكراته. وقد وفق في غير تردد - كما وفق ولزي - بين أتباع المسيح، والاهتمام بشيطان المال. رفض الرشا ولم يتقاض راتباً، ولكنه استولى على دخل الكثير من الرتب الكنسية، زاعماً أنه في حاجة إلى تمويل سياساته. وشيد لنفسه كما فعل ولزي قصرأ بلغ من فخامته أنه رأى من الحكمة قبل موته أن يهديه إلى ولي العهد؛ ولنا أن نفترض أنه مبنى للموظفين الإداريين وللمظهر الدبلوماسي أكثر من الترف الشخصي. لم يكن بخيلاً، وقد أثرى أقرباءه، وكان في وسعه أن يسخر بمال الدولة. وأوصى بنصف ثروته للملك، ونصح به بأن يستعمله «في الظروف التي لا تحتمل بطى الإجراءات المالية(30)». أما ما يبدو لنا قسوة شديدة فيه فكان في رأيه ضرورة من ضرورات الحكم، فمن القضايا المسلمة بها عنده أن الناس - والدول بالتأكيد - لا يمكن أن يساسوا باللطف، بل لا بد من تخويلهم بالصرامة. إنه أحب فرنسا، ولكن الفرنسيين لم يبعثوا فيه حرارة الحب. وقد وافق كوزيمو دي مديتشي على أن الدولة لا يمكن حكمها بالصلوات الربانية، ووافق مكيافلي على أن أخلاقيات المسيح لا يمكن اتباعها بأمان في حكم الأمة أو صيانتها. كتب يقول «إن المسيح لا يسعه الإبطاء في العفو عن الإساءة، ولكن الحاكم لا يسعه الإبطاء في عقابها إذا كانت جريمة ضد الدولة... ولا بقاء للدول بغير هذه الفضيلة (فضيلة الصرامة) التي تصبح شفقة بقدر ما يمنع عقاب مجرم واحد ألف مجرم من نسيانه(31)». وريشيليو هو الذي روج عبارة «ميرر الدولة»، أي أن القانون الأخلاقي يجب أن يخضع لميررات الدولة(32). ويبدو أنه لم يخامر قط شك في أن سياساته هي واحتياجات فرنسا شيء واحد، ومن ثم اضطهد أعداءه الشخصيين بنفس الحزم الذي عاقب به أعداء الملك. على أنه كان داخل قلعته وجبهته الدبلوماسية إنساناً، يهفو إلى الصداقة،

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ريشليو -> رثاء

ويحس عزلة العظماء ووحشتهم. ويريدنا كتاب تالمان «أفاصيص» المملوء بالقييل والقال أن نصدق أن ريشليو حاول أن يجعل من ماري مديسي خلية له، وكانت تكبره بعشرين عاماً (33)، ولكن هذا بعيد الاحتمال. وهناك أساطير أخرى عن علاقات الكردينال الغرامية السرية، حتى مع نينول دلا نكلو، وما كان لينتهك عرف العصر أن يعزى رجل السياسة المرهق نفسه ببعض الانحرافات. بيد أن كل ما نعرفه عن عواطفه معرفة واضحة هو أنه كان شديد التعلق بابنة أخته ماري-مادلين دكومباليه. فقد أرادت أن تدخل ديراً بعد أن تزلت عقب زواجها، ولكن ريشليو أقنع البابا بمنع هذا، وأبقاها قريبة منه لتدير بيته، واستجابت بالإخلاص له إخلاصاً أشد حرارة من أكثر العلاقات الغرامية. كانت تلبس لباس الراهبة وتخفي شعرها. وسلك ريشليو منها مسلك اللياقة الواجبة كله، ولكن الملكتين رفضتا تبرنتها لفقدان الأدلة الكافية على إدانتها، وسقتا غيرهما إلى حديث الشائعات الذي أضاف وخزة عديدة لقصة الكردينال. إنه لم يحب «رجلاً، ولا امرأة أيضاً» وقد ثار كلاهما منه.

أما ما كان يملكه فوق كل شيء فهو الإرادة. وقليل من الناس في التاريخ كله من اجتمعت لهم هذه الوحدة في الهدف، وهذا المضاعف والثبات في السعي إليه، وما كان لقوانين الحركة أن تكون أكثر ثباتاً. ولا بد أن نعجب بإخلاصه لواجباته، وافنائه نفسه فيها طوال سنين من الجهد وليلي حرم فيها النوم. وقد كرس هذه الجهود لأولئك الذين يسر لهم النوم دون مخاوف مستظلمين برعايته الساهرة. ولا بد أن نعترف له بالشجاعة الفائقة التي تصدت للنبلاء الأقوياء والنساء الداساسات، وقاومتهم وصدتهم، وقضت عليهم في غير خوف ولا رهبة وسط المؤامرات المتكررة على حياته. وقد غامر برأسه المرة بعد المرة بسبب نتائج سياساته.

وقلما كان يشعر بالعافية. فقد عرضته الحمى التي أبتلته بها مستنقعات بواتو لصداع متكرر كان أحياناً يلازمه أياماً بطولها. ولعل جهازه العصبي

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ريشليو -> رثاء

كان ضعيفاً بالوراثة. أو مضروراً بالخلقة، فقد كانت إحدى شقيقاته ضعيفة العقل، وأحد إخوته مجنوناً بعض الوقت، وأرجفت شائعات القصر أن الكردينال ذاته تعتربه نوبات من الصرع وهلوسات جنونية (34). وكان يعاني من البواسير، والبتور، ومرض المثانة، وكانت أزمامته السياسية تزداد تعقداً أحياناً بحصر البول كما كان الشأن مع نابليون (35). وقد حملته علته على التفكير غير مرة في الاعتزال، ولكنه وهو حبيس إرادته كان يأخذ الزمام ثانية ويواصل النضال.

ولسنا نستطيع أن ننصفه إلا إذا نظرنا إليه في مجموعة، بما فيه من ملامح تتخذ شكلها ونحن ماضون في الرؤية. لقد كان رائداً للتسامح الديني، رجلاً واسع الثقافة حساسها، ذواقة للموسيقى، وجماعاً خبيراً للفنون، وعاشقاً للدراما والشعر، وصديقاً معيناً لرجال الأدب، ومؤسساً للأكاديمية الفرنسية. ولكن التاريخ يذكر فيه بحق أولاً وقيل كل شيء الرجل الذي حرر فرنسا من تلك السيطرة الأسبانية التي نجمت عن الحروب الدينية والتي جعلت من فرنسا، بمقتضى الحلف، دولة تتلقى من أسبانيا معاشاً، بل تكاد تكون تابعة لها. أنه حقق ما كان فرنسيس الأول وهنري الرابع يصبوان طويلاً إليه وما أخفقا في تحقيقه، فقد كسر «النطاق الخانق» الذي طوقت به دولتا الهابسبورج فرنسا. ولا بد أن تفصل الصفحات التالية تلك الاستراتيجية البعيدة النظر التي حسم بها حرب الثلاثين سنة، وأنفذ البروتستنتية الألمانية باعتبارها حليف فرنسا الكاثوليكية، ويسر لمازران أن يصوغ صلح وستفاليا البناء. أما لفرنسا ذاتها فقد خلق وحدة وقوة على حساب دكتاتورية واستبدادية ملكية ولدت الثورة حين حان وقتها. وإذا كان أول واجبات رجل الدولة أن يجعل شعبه سعيداً حراً، فإن ريشليو كان شديد القصور في تحقيق هذا الهدف. وقد أدانه الكردينال ريتز-هو قاض ذكي ولكنه لم يتجرد من التحامل-لأنه «أرسى أشنع وأخطر طغيان استرق دولة ربما في التاريخ كله(36)». ولو

صفحة رقم : 9970

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ريشليو -> رثاء

سئل ريشليو في هذا لربما أجاب بأن على رجل الدولة أن يأخذ في الاعتبار سعادة وحرية الأجيال القادمة لا جيله فحسب، وأن عليه أن يقوي وطنه ليحميه من الغزو أو السيطرة الأجنبية، وأن له في سبيل هذا الهدف أن يضحي بحق جيلاً حاضراً من أجل أمن الأجيال التالية. وبهذا المعنى رأى فيه أوليفارس، غريم ريشليو الأسباني، «أقدر وزير في العالم المسيحي في الألف سنة الأخيرة(37)». ورأى فيه تشستر فيلد «أكفأ رجل دولة في عصره وربما في أي عصر آخر(38)».

وكانت عودته من نصره النهائي في روسيون موكب الجنازة لرجل ما زال على قيد الحياة استقل زورقاً من تاراسكزن إلى ليون على الرون، ومكث في ليون حتى حوكم سارك-مارس ودوتو وأعدما، ثم اضطر لضعفه من ألم تسبب عن ناسور شرجي أن يذهب إلى باريس على محفة حملها أربعة وعشرون من حراسه، واتسعت لسرير الرجل المحتضر، ومائدة، وكرسی، وسكرتير يملي أوامر للجيش ورسائل دبلوماسية. واستغرقت مسيرة الموت هذه ستة أسابيع، وعلى طول الطريق احتشد الناس ليلقوا نظرة خاطفة على الرجل الذي لم يكن في قدرتهم أن يعطوه الحب، بل الخوف، والاحترام، والتبجيل، بوصفه التجسيد المهيب للكنيسة والدولة جميعاً، ونائب الله والملك. فلما بلغ باريس نقل إلى قصره دون أن يبرح محفته. وأرسل استقالته لمولاه الذي رفض قبولها. وحضر لويس إلى فراشه، ومرضه، وأطعمه، وتساءل ماذا عساه أن يفعل إذا توقفت هذه الإرادة المتجسدة عن الحياة. أما كاهن اعتراف الكردينال فقد سأله بعد أن ناوله القربان الأخير هل غفر لأعدائه، فأجاب بأنه لم يكن له قط أعداء إلا أعداء فرنسا. وبعد يوم من الغيبوبة مات في 4 ديسمبر 1642، وهو في السابعة والخمسين. وأمر الملك بأسبوع كامل من مراسم الحداد، ومررت صفوف المشاهدين بجثمانه طوال يوم ونصف. ولكن الناس في كثير من الأقاليم أشعلوا نيران الفرحة شكرًا لله على موت الكردينال الحديدي(39).

صفحة رقم : 9971

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ريشيليو -> رثاء

واستمر يحكم فرنسا حيناً. وذلك أنه أوصى بجوليو مازاريني خلفاً له في الوزارة، ووافق لويس. وقد ترك عشرة مجلدات من المذكرات، مسجلاً فيها أعمال الدولة كأنها ليست أعماله بل أعمال الملك. وكان في سنواته الأخيرة قد أهدى لويس «ميتافاً سياسياً» «ويصلح بعد موتي لإدارة مملكتك وسياستها». هنا وسط بعض الملاحظات التافهة نجد قواعد دقيقة بليغة للحكم، صيغت في أسلوب زمانه. إنه ينصح الملك بأن يجتنب الحرب، باعتبارها شيئاً لا يصلح له جلالته بطبعه. «إن مصالحة عشرة أعداء أجدي وأدعى للفخر من القضاء على عدو واحد(40)» ثم أسر إليه أن الفرنسيين قوم لم يخلقوا للحرب، ففي بدايتها يكونون الشجاعة كلها والحماسة كلها، ولكن يعوزهم الصبر ورباطة الجأش انتظاراً للحظة المواتية، ويمضي الوقت «يفقدون الاهتمام، ويعنون أضعف حتى من النساء(41)». ويجب أن يكون الملك، كالفائد شجاعة الرجال القادرة على مقاومة الميول العاطفية؛ وعليه ألا يعطي النساء كلمة في الحكومة، لأنهن يتبعن نزواتهم وأهواءهن أكثر مما يستمعن لصوت العقل(42). على أن «الفكر» في المرأة لا يناسبها «لأنني لم أر في حياتي امرأة عالمة لم يفسدها علمها(43)». والنساء لا يستطعن كتمان السر، «والكتمان روح السياسة(44)»، ورجل الدولة الحصيف قليل الكلام كثير الإصغاء(45)». وهو يحذر أن يسيء بكلمة غافلة؛ وهو لا يتكلم بشر عن أحد إلا إذا اقتضى ذلك صالح الدولة(46). ومن واجب الملك أن يكون لديه معلومات عامة عن تاريخ جميع الدول ونظامها، لا سيما دولته(47)». ثم يرجو المؤلف شيئاً من التفهم لوزارته وخلقه «إن عظماء الرجال الذين يعينون لحكم الدولة أشبه بالمحكوم عليهم بالتعذيب، مع فارق واحد، هو أن هؤلاء يتلقون العقاب على سيئاتهم، أما أولئك فعلى حسناتهم(48)».

وعاش الملك خمسة أشهر بعد موته، وقد ذكر الناس حكم لويس

صفحة رقم : 9972

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ريشيليو -> رثاء

القصير شاكربن، لأنه أطلق السجناء السياسيين، وسمح بعودة المنفيين، وأتاح لفرنسا أن تتنفس. وكان يشكو من أن الكردينال لم يدعه يتصرف كما يشاء. كانت أمه قد ماتت قبل ريشيليو ببضعة شهور، فأمر بجلب جثمانها من كولونيا واحتفل بدفنها رسمياً، وفي لحظاته الأخيرة توسل أن يغفر الله والناس له الخسونة التي عاملها بها. ورأى نفسه يتهاوى، ولكنه اغتبط بما كان عليه ولده البالغ من العمر أربعة سنين من عافية ووسامة. سأله معابثاً «ما اسمك؟» فأجاب الصبي «لويس الرابع عشر» فقال الملك مبتسماً «ليس بعد يا بني، ليس بعد». وأمر بطانته بقبول وصاية الملكة حتى يبلغ ابنه سن الرشد، ولما أخبروه أن قد حانت ميته قال «إذن فأنا راض من كل قلبي يا إلهي(49)» ومات في 14 مايو 1643 وقد بلغ الحادية والأربعين. قال تالمان «ذهب الناس إلى ماتمه كأنهم يذهبون إلى حفل زفاف، وظهروا أمام الملكة كأنهم في مباراة رياضية(50)» وكان الكردينال الرهيب قد أعد كل شيء لمجيء الملك العظيم و «القرن العظيم».

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> الأخلاق

الفصل السادس عشر

فرنسا إبان الحروب

1559 - 1643

1- الأخلاق

بدأ الدين، الذي اتخذت ألوانه ذرائع كاذبة لحروب كثيرة، يعاني من تسخيره في السياسة؛ وازداد المتشككون في قداسة عقائد تحاج بالمباراة في سفك الدماء؛ وبدأت في الطبقات العليا الشكوك حول الآداب المسيحية تختلط بالتشكك في العقيدة. وكان من علامات الزمن أن يبين قسيس تقي مثل ببيير شارون جدارة الغريزة الجنسية وجهازها المضحك بالاحترام (1). أما الفلاحون فقد احتفظوا بإيمانهم، وقدسوا الناموس المسيحي حتى وهم ينتهكونه؛ فقد يقتلون بعضهم بعضاً في غضبة عابرة، وقد ينحرفون عن سنة الزواج بوحدة إذا وانتهم الفرصة ونامت أعين الرقباء، ولكنهم فيما عدا ذلك يحيون حياة مهذبة إلى حد محتمل. ويستمعون إلى القداس بانتظام، ويتناولون جسد المسيح ودمه مرة في العام على الأقل. وأما الطبقات الوسطى-سواء من الكاثوليك أو الهيجونوت-فقد ضربت خير مثال للفضيلة المسيحية. كان أفرادها يحتشمون بأعمالهم وأطفالهم، ويختلفون إلى الكنيسة، ويعطون الدولة كهنتها وأطباءها ومحاميتها وقضائها واستقرارها. وكان هناك نساء مثاليات حتى في الطبقة الأرستقراطية، وقد وصف شارل التاسع امرأته اليزابيث النمسوية بأنها أكثر نساء العالم فضيلة؛ ولكن يمكن القول عموماً إن العلاقات الغرامية في الطبقات ذات الفراغ في العاصمة، وفي الصناعات المهرة في المدن، أخذ زمامها يفلت. كان عصر حوافز

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> الأخلاق

جسدية لا خفاء فيها. وقد بقي أثر من الحب الأفلاطوني، الذي تسلى به بيميو وكاستليون في يوليا ومرجريت نافار في فرنسا، في ندوة مدام درامبويه (وهي ذاتها إيطالية)، ولكنه كان في أكثره حيلة نسائية، ومقاومة في العمق لإضفاء المجد على القلعة.

كانت كاترين مديشي-على قدر علمنا-زوجة مخلصمة وأما شديدة الاهتمام بأبنائها، ولكن الشائعات اتهمت بتدريب النساء الجميلات على إغراء أعدائها حتى يخضعوا(2)، وقد وصفت جان دلبير (وفيها بعض خلق المحتشمتات) بلاط كاترين بأنه «أفسد المجتمعات قاطبة وألعنها(3)». وكان برانتوم مروجاً للفصائح، ولكن شهادته يجب أن تدخل الصورة: «أما نساؤنا الفرنسيات الجميلات... فقد تعلمن في السنين الخمسين الأخيرة قدراً كبيراً من اللطف والرقّة، وكثيراً من الجاذبية والفتنة في ملبسهن، وفي نظراتهن الجميلة وأساليبهن الفاجرة... بحيث لا يستطيع أحد الآن أن ينكر تفوقهن على جميع النساء من كل وجه... ثم إن لغة الحب اللعوب هي في فرنسا أشدّ خلاعة وأكثر إثارة وأحلى منطقاً مما هي في اللغات الأخرى. وفوق هذا كله، فإن هذه الحرية الماكرة التي أتاحت لنا في فرنسا... تجعل نساءنا مرغوبات، ساحرات، لبنات، طبيعات أكثر من جميع النساء يضاف إلى هذا أن الزنى لا يلقي عموماً من العقاب ما يلقاه في أقطار أخرى... وباختصار فإن ممارسة العشق في فرنسا شيء لطيف(4)». وقد ضرب الملوك المثل في الخلق الفاشي في المجتمع. فقد مات فرنسيس الثاني قبل أوانه بسبب شهواته. وكان لشارل التاسع محظيته ماري توشيه. وانتقل هنري الثالث من الغانيات إلى المرد. أما هنري الرابع فثبت على عشق المرأة. ويبدو أنه لا هو ولا خليلته جابرييل دستريه اعترضوا على تصويرها عارية حتى خسرها(5). ولما تزوجت ابنته هنريتا ماري الفرنسية البالغة سبعة عشر ربيعاً، من تشارلز الأول، بلغت اتصالاتها الغرامية من

صفحة رقم : 9975

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> الأخلاق

الكثرة مبلغاً حمل كاهن اعترافها على أن ينصحها بأن تتخذ المجذلية مثلاً لها، وإنجلترا كفارة عن ذنوبها(6). ولكن حتى مع هذه الأوضاع كان لطف النساء ولين جانبهن متخلفاً عن نهم الرجال، وجهدت الموسسات لإشباع الطلب المتزايد عليهن. وقد عرفت باريس منهن ثلاثة أنواع: «العنزة المصففة الشعر» للبلاط، و «الطير الصداح» للبورجوازية، و «الحجرية» التي تسد مطلب الفقراء وتسكن بدروماً من الحجر. كان هناك غانيات متعلمات لرجال الطبقة الأرستقراطية، مثل ماريون ديلورم، التي اعترفت عشر مرات وهي تحتضر، لأنها بعد كل حل ذكرت نفسها بخطايا لا حصر لها(7). وقد أصدر شارل التاسع وهنري الثالث مراسيم بحظر المواخر، ونص أمر أصدره لويس الثالث عشر (1635) على أن كل بغي تضبط يجب أن «تضرب بالسوط ويجز شعرها وتتقى» وأن كل الرجال المشتريين في هذه التجارة يجب أن يرسلوا إلى سفن تشغيل المجرمين مدى الحياة(8). واحتج عدة رجال، ومنهم مونتيني وقسيس هيجونتي، على مثل هذه الإجراءات وطالبوا بإجازة المواخر صيانة للأخلاق العامة(9). وظلت هذه القوانين في السجلات القانونية حتى أواخر القرن الثامن عشر، ولكنها لم تكن تطبق إلا نادراً. وحاولت قوانين أخرى عبثاً أن تقضي على انحرافات الطبيعة ونزواتها ويروي مونتيني قصة فتاة تحولت رجلاً في الثانية والعشرين(10). ووجد الأدب الفاحش سوقاً رائجة، وعرضت نوافذ حوانيت المطابع صوراً فاجرة دون أن تلقى أي تدخل مما نعرفه اليوم.

وعانت الفضيلة الاجتماعية والسياسية من الحروب. وتوسع في بيع الوظائف العامة حتى أوشك أن يكون رشوة شاملة. وكانت الإدارة المالية قبل أن يطهرها صلي فاسدة إلى حد الفوضى(11). ولم تكن الحرب تدمر تدميراً أعمى كما أصبحت بعد قليل في عهد لويس الرابع عشر، ومع ذلك نسمع بجيوش، من الهيجونوت والكاثوليك على السواء تشتبك في جرائم بالجملة من قتل ونهب واغتصاب وتعليق المواطنين من أباهمهم أو إشعال

صفحة رقم : 9976

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> الأخلاق

النار تحت أقدامهم لانتزاع الذهب الذي يخفونه. وزاد انتشار المبارزة في القرن السادس عشر، ربما لأن السيف أصبح جزءاً مألوفاً من ملابس الرجال. وقد حرمها شارل التاسع بحض ميشيل لوبيتال، ولكنها كادت تصبح وباءً متفشياً في عهد هنري الثالث، وكان ينتظر أن يشتبك الشاهدان كما يشتبك الخصمان الرئيسيان، يقول مونتيني إن المبارزات غدت الآن معارك. واختلف مرسوم ريشليو الذي حرم المبارزة عما سبقه في أنه نفذ تنفيذاً صارماً لا تحيز فيه. ولكن العادة انتعشت بعد موته.

وكانت الجريمة مألوفة. وكان أكثر باريس لا يضاء ليلاً، وأفرخت السرقة والقتل، وأشاعت المشاجرات العنيفة الفوضى في الشوارع، وكان السفر في الريف خطراً يهدد الحياة والأوصال. أما العقوبات فوحشية، ولسنا على ثقة من أنها كانت معوقات ناجعة للجريمة، ولكن لعل الجريمة كانت بدونها تستشري. وأما السجن فكان لطيفاً للسلادة، ففي استطاعة النبلاء نزلاء الباستيل أن يدفعوا ثمناً لمساكن مريحة تفرش بأثاثهم وتنزلها نساءهم. أما عامة المجرمين فقد يزرع بهم في زنانات خانقة أو يرحلون إلى المستعمرات أو يحكم بتسغيلهم في سفن العبيد والمجرمين. وترجع آثار هذه العقوبة إلى عام 1532، ولكن أول تشريع لها في القانون الفرنسي يرجع إلى عام 1561. وكان يحكم على نزلاء هذه السفن عادة بعشر سنين، وتدمغ ظهورهم بالحروف الثلاثة الأولى لمجرمي السفن «جال». وكانوا في الشتاء يمتكئون في سفنهم حبيسين أو يحشرون كالأنعام في السجون لاسيما في طولون أو مارسيليا. وفي أثناء الحروب الدينية حكم على كثير من الوحشية ما يحلو أمامه الموت. وتقررت أوبئة الانتحار في تلك السنين المرة، وعلى الأخص بين نساء ليون ومارسيليا.

صفحة رقم : 9977

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> آداب السلوك

2- آداب السلوك

تحسنت آداب السلوك بينما تحطمت الأخلاق. فقد جلبت كاترين دي

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> آداب السلوك

مديتشي معها الأدب الإيطالي، واحساساً بالجمال، وولعاً بالأناقة، ورهافة في الأثاث والملبس. وكان من رأي برنتوم أن بلاطها أروع بلاط وجد، «فردوس أرضي حقيقي» يتألق بثلاثمائة سيدة وأنسة على الأقل» (12) مرتديات أغلى الثياب وأفخرها. وأزاحت مراسم البلاط الفرنسي التي أرساها فرنسيس الأول لمراسيم الإيطالية من مكان الصدارة والقوة لأوربا. وأنشأ هنري الثالث منصب المدير الأكبر للمراسم الفرنسية، وأصدر مرسوماً يفصل مراسم السلوك في البلاط وبرتوكوله، ويحدد الأشخاص الذين يسمح بمثلهم بين يدي الملك، وطريقة مخاطبته، وخدمته في يقظته وزينته، وطعامه، ونومه، ومن يرافقه في نزته أو صيده، ومن يحضر مراقص البلاط. وقد أصر هنري الثالث، الخجول النيق، على هذه القواعد، وانتهكها هنري الرابع في غير تحرج، وتجاهلها لويس الثالث عشر، وتوسع فيها لويس الرابع عشر حتى أصبحت طقوساً تنافس القديس المطول.

أما ملابس القصر فقد ازدادت غلاء وزخرفاً. فقد ارتدى المرشال باسومبيير سترة قماشها من الذهب أثقلتها لآليء تزن خمسين رطلاً وثمنها أربعة عشر ألف إيكو (13) ولبست ماري مديسي في حفل عماد ولدها عباءة مرصعة بثلاثة آلاف ماسة واثنين وثلاثين ألف حجر كريم آخر (14). وكان الرجل من رجال البلاط يعد نفسه فقيراً ما لم يملك خمساً وعشرين سترة من مختلف الطرز. وتعددت القوانين المقيدة للانفاق على الطعام والكساء ولكنها سرعان ما كانت تهمل. فحظر قانون منها أصدره هنري الرابع «على جميع سكان هذه المملكة أن يلبسوا الذهب أو الفضة على ثيابهم، إلا البغايا واللصوص (15)». ولكن حتى هذا الربط الذكي كان عديم الجدوى. وشكا الوعاظ من المجازفة المبيتة التي أقدمت عليها السيدات حين لم يسترن ما استدار من أعضائهن إلا بمقدار. ويزعم مونتيني، الذي لم يكن كثير الوقوع في خطيئة خداع النفس بالأوهام، «أن سيداتنا

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> آداب السلوك

(وأن كن أنيقات رقيقات) يرين مراراً مكشوفات الصدر حتى السرة (16)» ورغبة في تأكيد بياض البشرة أو حمرة الخدود، بدأت النساء في القرن السابع عشر تزيينها ببقع أو رقع سماها أصحاب الأمزجة غير الشعرية «الموش» أو الذباب. وقسين مشداتهن بعظم الحوت وفردن تتانيرهن المطوقة بالسلك. ورفعن شعورهن في العديد من الأشكال المغربية. أما الرجال فأطلقوا شعورهم المجددة طويلة مرسله، وتوجوا رؤوسهم بقبعات عريضة يزينها ريش مرح. وأفشى لويس الثالث عشر بدعة الشعر المستعار لما أصابه من صلح ميكرو. وهكذا تبارى الجنسان في غرور المظهر وخيلائه.

ولم تمنعهم آدابهم من تناول الطعام بأصابعهم. ولم تحل الشوك محل الأصابع، حتى بين النبلاء، إلا عام 1600، وليس قبل عام 1700 تقريباً في غيرهم من الطبقات. وقد حقق مطعم عصري يدعو لآتور دراجن الشهرة بتقديمه الشوك لزبائنه، وكان هنري الثالث يتغذى فيه وهو عائد من صيده، وكان الفرنسيون يأكلون الضفادع والقواقع في القرن السابع عشر. أما شربهم المفضل فهو النبيذ. وقد بدأوا يستعملون القهوة ولكنها لم تكن بعد شراياً لا غنى عنه. وكان الكاكو قد دخل فرنسا من المكسيك بطريق إسبانيا، ودمه بعض الأطباء زاعمين أنه ملين في وقت غير مناسب، ووصفه غيرهم دواء للأمراض التناسلية، وروت مدام دسفييتي أن سيدة حاملاً اسرقت في شربه إسرافاً جعلها تلد «ولداً صغيراً أسود كالشيطان» (17).

وانعكس التحسن في آداب السلوك على وسائل الانتقال والترفيه. فشاع الآن استخدام المركبات العامة في غرب أوروبا، وبدأ الميسورون من الفرنسيين يسافرون في عربات فخمة مجهزة بالسناير والزجاج. وفشت لعبة التنس، وأولعت كل الطبقات بالرقص. ودخلت رقصة البافان من إسبانيا، وقد اشتقت اسمها من كلمة «بافو» الأسبانية ومعناها الطاووس،

صفحة رقم : 9980

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> آداب السلوك

وأضفت عليها حركاتها الرشيقية المتعالية نزعة أرسنقراطية، وأعان التقبيل الذي كان جزءاً منها على إثارة الدم في العروق، وفي عهد كاترين مدينتشي أصبح الباليه قمة أسباب الترفيه في البلاط، إذ جمع بين الموسيقى والرقص ليقتص قصة بالشعر أو الإيماء (البانتوميم)، وشاركت فيه أجمل نساءها، في ملابس ومشاهد صممت تصميمياً فنياً، وقد أقيم حفل من حفلات الباليه هذه في التويلري غداة مذبحه القديس برتلميو.

وكان الموسيقيون أبطال الساعة العابرة. افتتن بهم الفرنسيون فتنة كبرى، حتى أن رجلاً من الحاشية كان يحضر حفلة موسيقية عام 1581 ضرب سيفه بيده وأقسم أنه متحد رجل يقابله للمبارزة، وهنا قاد قائد الفرقة فرقته في لحن رقيق هدأ من هياجه (18). وظل العود الآلة كمان شهير في التاريخ، جلب فرقة من عازفي الكمان إلى بلاط كاترين وأشاع موسيقى الكمان. وفي عام 1600 تبع أوتافيو رينوتشيني ماري مديسي إلى فرنسا، وأدخل فيها فكرة الأوبرا. وكان الغناء لا يزال الموسيقى المفضلة، وقد رأى الأب مرسين يحق أنه ليس في الطبيعة صوت يضارع جمال صوت المرأة (19).

واجتمعت الآن الموسيقى، والأدب، والسلوك المهذب، والحديث المثقف لتؤلف كلها إضافة من أهم الإضافات التي أغنت بها فرنسا الحضارة وهي الصالون. وكانت إيطاليا، الأم الراعية للفنون الحديثة، قد مهدت له باللقاءات المهذبة، كذلك المنسوبة لأوربينو في كتاب كاستليون «رجل البلاط»، ومن إيطاليا انتقل الصالون إلى فرنسا كما انتقل إليها الكمان، والقصر الريفي (الشاتو)، والباليه، والأوبرا، والزهرري. وقد ولدت مؤسسة الصالون بفرنسا في روما (1588) لجان دفيون، السفير الفرنسي لدى البابا، وجوليا سافيللي إحدى وريثات أورسيني. وتلقت كاترين دفيون تعليماً لم تألفه الفتيات في القرن السادس

صفحة رقم : 9981

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> آداب السلوك

عشر. وحين بلغت الثانية عشرة تزوجت من شارل دانجين، وكان يشغل في عهد هنري الرابع ولويس الثالث عشر منصباً كبيراً يلقب بالمركيز رامبوييه. وشكت المركزية الشابة من قصور لغة الحديث وآداب السلوك في فرنسا عنها في إيطاليا سلامة وتهذيباً، ولاحظت في استنكار ذلك الفصل بين الطبقات المفكرة-من شعراء وأدباء وعلماء-وبين النبلاء. وفي عام 1618 صممت لأسرتها «الأوتيل درامبوييه» في شارع سان-توما-دلوفر بباريس. وفي غرفة منه علقت لوحات من المخمل الأزرق حواشيها من الفضة والذهب. في هذا «الصالون الأزرق» الفسيح استقبلت المركزية ضيوفها في ما أصبح أشهر صالون في التاريخ. وقد حرصت على أن تدعو إليه رجالاً ونساء ذوي آداب متجانسة وميول متنوعة: نبلاء مثل كونديه الكبير ولاروشفوكو، وكنسين مثل ريشليو وأوريه، وقواداً مثل مونتوسيه وباسومبيير، وسيدات من ذوي النسب العريق كالأميرة كونتي ودوقتي لونغفيل وروهان، وأديبات مثل مدام دلافاييت ومام دسغني والأنسة دسكوديري، شعراء مثل ماليرب وشابلان وجي دبالزاك، وعلماء مثل كونرار وفوجلا، وظرفاء مثل فواتور وسكارون. هنا وعظ بوسويه عظة وهو في الثانية عشرة، وقرأ كورني تمثيلياته. هنا تعلم النبلاء أن يهتموا باللغة والعلم والدرس والشعر والموسيقى والفن، وتعلم الرجال من النساء آداب المجاملة، وتعلم المؤلفون أن يخفوا غرورهم، والفقهاء أن يهذبوا فقههم، والنقى الظرفاء بذوي النسب، وناقش القوم الكلام الصحيح واكتسبوه، وأصبح الحديث فناً من الفنون. وتناولت المركزية هذه الأسد والنمر بلباقة قلمت مخالبتها دون أن توجعها. ومع أنها ولدت سبعة أطفال، إلا أنها احتفظت بجمالها فترة كفت لإلهام فولتير وماليرب العاطفة المشبوبة، فكان الشاعران يلتهبان لكل ابتسامة ولكنها برغم ضعف صحتها ضربت لضيوفها المثل في البشاشة والذكاء المفعم بالحيوية، وبرغم فقدانها ولدين اختطفهما الموت وثلاث بنات

صفحة رقم : 9982

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> آداب السلوك

اختطفهن الدين أسكتت حزنهما حتى كتبت قبريتها. وفي جل من الإباحية الجنسية والحديث الجامح أشاعت من حولها جواً من الأدب واللياقة. وأصبحت «سلامة الذوق» جواز الدخول لصالونها. وكان القواد والشعراء يتركون سيوفهم ورماحهم في البهو، وخفف الأدب من حدة الخلافات، وازدهر النقاش وأقصى الجدل العنيف. وأخيراً أسرف القوم في هذا التهذيب. لقد رسمت المركزية قانوناً يتوخى الدقة في القول والفعل، ولكن الذين طبقوه في تزمتم سموا «المتحذلقين» و «المتحذلقات»، وفي عام 1659 حين كانت المركزية قد اعتزلت وأصبحت وحيدة، انقض فولتير على هذه الرواسب الغربية المتخلفة من فنها وقضى عليها بسخريته القضاء المبرم. ولكن حتى الإسراف كان له نفعه، فهو لاء «المتحذلقات» ساعدن على جلاء معنى الألفاظ والعبارات ومدلولها، وتنقية اللغة من الإقليمية، والنحو الرديء والتعثر، هنا بذرة الأكاديمية الفرنسية. وفي الأوتيل درامبوييه طور ماليرب وكونرار وفوجلا قواعد الذوق الأدبي التي أفضت إلى بوالو والعصر الكلاسيكي. وقد ساهمت «المتحذلقات» في ذلك التحليل للعواطف الذي أطل الروايات الغرامية وفتن به ديكار و سبينوزا، وساعدن على توشية علاقات الجنسنيين باستر اتيجية الانسحاب والتمنع، وما يتبعها من تصور الكنز الرواغ تصوراً مثالياً مما أفضى إلى الحب الرومانسي. وبفضل هذا الصالون وما جاء بعده من صالونات أصبح التاريخ الفرنسي أكثر منه في أي وقت مضى ثنائي الجنس. وارتفع مقام النساء، وازداد أثرهن في الأدب واللغة والسياسة والفن. وعظم احترام المعرفة والفكر. وانتشر الاحساس بالجمال.

ولكن أكانت الصالونات والأكاديمية جاعلة رابليه مستحيلاً؟ أكانت موصدة العقل الفرنسي أمام فسيولوجية مونتيني المرحة، وأخلاقياته السمحة، وحذلقته المتزايدة؟ أم كانت موجهة هذين العبقرين قسراً ورافعة إياهما إلى فن أكثر رهافة وعلوآ؟.

صفحة رقم : 9983

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> آداب السلوك

ولكننا سرنا شوطاً أبعد مما يجب. فحين فتحت مدام درامبويه صالونها كان قد مضى على موت مونتيني سنة وعشرون عاماً. فلنرجع في مسيرتنا ونستمع ساعة إلى أعظم كاتب ومفكر فرنسي في هذا الجيل.

صفحة رقم : 9984

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> ميشيل دي مونتيني

3- ميشيل دي مونتيني

1533 - 1593

أ- تعليمه

وصف جوزف سكا: ليجر مونتيني بأنه بائع رنجة. ولكن هذا العالم الكبير قفز جيلاً ذلك أن الجد، وأسمه جريمون إيكيم، هو الذي كان يصدر الأنبيذة والأسماك المجففة من بوردو. وقد وردت هذه التجارة من جد ميشيل الأكبر ريمون إيكيم، الذي جمع المال للأسرة بهذه الطريقة، ثم اشترى (1447) القصر والضيعة المعروفين باسم مونتيني على نل

خارج المدينة. ووسع جريمون ميراثه بزواج حكيم. أما ابنه بيبير غيكيم فقد فضل الحرب على الرنجة، وانخرط في الجيش الفرنسي، وقاتل في إيطاليا مع فرنسيس الأول، وعاد بندوب وبأثار من النهضة، وارتقى إلى منصب عمدة بوردو. وفي عام 1528 تزوج انطوانيت، أبنة تاجر غني من تولوز يهودي المولد، مسيحي العماد، إسباني الثقافة. وولد ميشيل إبيكيم، الذي أصبح السيد الإقطاعي على مونتيني، لبيير وانطوانيت، وقد اختلط في رأسه الدم الغسقوني واليهودي. ثم زاد أفته اتساعاً أن أباه كان كاثوليكيًا تقياً، وأمه على الأرجح بروتستانتية، وأخته وأخاه كالفنيين. وكان لبيير آراء في التعليم يقول عنه ميشيل "إن هذا الأب الطيب أرسلني حتى وأنا بعد في المهد لأنشأ في قرية فقيرة يمتلكها، وأبقاني فيها طوال الرضاع وبعده بقليل، لأتربى أفقر وأبسط تربية شائعة(20)". وبينما كان الصبي في الحضانة عين له تابع ألماني لم يكلمه بغير اللاتينية. "ناهزت السادسة وأنا لا أفهم من الفرنسية أكثر مما أفهم من العربية(21)".

صفحة رقم : 9985

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> ميشيل دي مونتيني

فلما دخل كلية جيبين كان أساتذته (فيما عدا جورج بوكاتان) يكرهون التحدث إليه باللاتينية، لأنه يتكلمها بطلاقة. وقد برز فيها إلى هذا الحد "دون كث" أو قواعد، أو نحو، أو ضرب بالسياط، أو أنين ونواح". ولعل الأب كان قد قرأ ما قاله رابليه في التعليم. فحاول أن ينشئ ولده على لمبادئ التحررية، مؤثراً الحب على القسر. واستطاب مونتيني هذا النظام وأوصى به في خطاب طويل عن التعليم(22)، وصرح أنه كتب إلى اللبدي ديان دفورا، ولكنه أنكره في مقال متأخر وأوصى بالعصا معيناً مقنعاً للمنطق(23). كذلك لم يحذ حذو أبيه في تفضيله اللاتينية أو الدراسات الكلاسيكية. ومع أن ذاكرته كانت فياضة بالشواهد والمثل الكلاسيكية، إلا أنه أستنكر الاقتصار على التعليم الكلاسيكي، واحتقر التعليم من الكتب والمكبين على الكتب، وأثر على هذا كله الاهتمام بتدريب الجسد لنيل الحكمة والفضيلة. "لسنا في حاجة إلا لقليل من التعليم لكي تكون لنا عقول سليمة(24)". وقد نتعلم من مباراة في التنس أكثر مما نتعلم من خطاب لاذع ضد كاتلين. وينبغي أن يربى البدن على أن يكون جلدًا شجاعاً، قادراً على تحمل الحر والبرد دون تدمر، وعلى إساعة مخاطر الحياة التي لا مفر منها. كان مونتيني يستشهد بالكتاب الأثينيين، ولكنه أثر طرق الأسبرطين في العيش، مثله الأعلى فضيلة رجولية، تقريباً بالمعنى الروماني الذي جعل هذه العبارة نافلة. وأضاف إليه المثل الأعلى الإغريقي "لا إفراط" - الاعتدال في كل شيء، حتى في الاعتدال، فعلى المرء أن يشرب الخمر في اعتدال، على أن يكون قادراً إن دعتة المناسبة على الشرب الكثير دون أن يغيب عن وعيه. وقد يكون السفر جزءاً هاماً من التعليم إذا تركنا أهواننا وراعنا. "قيل لسقراط إن فلاناً لم يفده السفر متقال ذرة، فأجاب: أجل، لأنه حمل نفسه معه في سفره" (25). فإذا استطعنا أن نفتح عقولنا وعيوننا وجدنا الدنيا خير كتاب نقرأه، لأن "الكثير جداً من الأمزجة الغربية

صفحة رقم : 9986

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> ميشيل دي مونتيني

والمثل المتعددة... والآراء المتنوعة، والقوانين المختلفة، والعادات الظريفة، تعلمنا أن نصدر الحكم السليم على نظائرها عندنا (26) ". ثم بعد السفر يأتي التاريخ يحيط بأفضل العقول في خير العصور... فأني فائدة لا تجنيها... بقراءة "تراجم" بلوتارخ؟ (27) " وأخيراً يجدر بالطالب أن يتلقى بعض الفلسفة- لا "جدليات المنطق الشائكة" بل الفلسفة التي تعلمنا كيف نعيش... وما يجب معرفته وما لا يجب، وما الشجاعة، والاعتدال، والعدل، وأي فرق بين الطموح والجشع، والرق والحريية، وما العلامات التي يتبين الرجل بها القناعة الصادقة الكاملة؛ وإلى أي حد يجب أن يخاف... الموت أو الألم أو العار.... إن الطفل القادم من الحضارة أقدر على تلقي (هذه الدروس) من تعلم القراءة والكتابة (28) ".

وبعد أن أنفق مونتيني سبع سنين في كلية جيبن دخل الجامعة ليدرس القانون. وما من شيء كان أقل من هذه الدراسة تجانساً مع عقله المستطرد وحديثه الواضح. فهو لا يمل من إطراء العادة وذم القانون. وقد لاحظ في ابتهاج أن فرديناند الثاني ملك اسبانيا لم يبعث محامين إلى أمريكا الأسبانية مخافة أن يضاعفوا أسباب النزاع بين الهنود، وتمنى لو أنه منع الأطباء أيضاً مخافة أن يخلقوا بعقاقيرهم أمراضاً جديدة (19). وعنده أن شر البلاد ما استكثر من القوانين، وقدر أن يفرنسا منها "أكثر مما لدى بقية العالم". ولم ير أي تقدم في نزعة القانون الإنسانية، وتساءل هل بين الهمج وحشية كذلك التي يمارسها القضاة ذوو العبايات، ورجال الكنيسة الحليقو الرؤوس، في غرف التعذيب بالدول الأوربية (30). وافتخر بأنه "حتى اليوم (1578؟) أنا بريء من جميع الدعاوى القانونية (31) ".

ب- صداقته وزواجه

ومع ذلك نجده عام 1557 مستشاراً في محكمة الاعانات في بيريجو، وعام 1561 عضواً في برلمان بوردو- وهو المحكمة البلدية. وهناك لقي

صفحة رقم : 9987

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> ميشيل دي مونتيني

وأحب إتيين دلابوييتي. وقد رأينا في موضع آخر من هذا الكتاب أن هذا الأرسقراطي الشاب كتب وهو بعد في الثامنة عشر، مقالاً مشبوب العاطفة ولكنه لم ينشره، واسمه "مقال عن الرق الاختياري"، وقد اشتهر باسم "كونتران"- أي ضد حكم الرجل الواحد؟ وقد دعا الشعب فيه بكل البلاغة التي أوتيها دانتون فيما بعد، إلى الثورة على الحكم المطلق. ولعل مونتيني نفسه شعر ببعض الحماسة الجمهورية في شبابه. على أي حال جذبه هذا المتمرّد النبيل، الذي بدا له- وكان يكبره بثلاث سنوات- آية في الحكمة والنزاهة:

"لقد فتنّ الواحد منا عن صاحبه قبل أن يراه، ومن الأخبار التي سمعها عنه... أظن أننا بأمر سري من السماوات تعانقنا باسمينا. وعند أول لقاء لنا، وكان بالصدفة في وليمة كبيرة واجتماع مهيب لمدينة بأسرها، وجدنا نفسينا مندهشين، متعارفين،... مرتبطين، بحيث أن شيئاً من الأشياء لم يقترّب منا بعد ذلك اقتراب كل منا من صاحبه (22). ما السر في هذه الصداقة العميقة؟ يجيب مونتيني "لأنه كان هو، ولأنني كنت أنا (23) "- لأنهما كانا مختلفين اختلافاً جعلهما يكمل الواحد منهما صاحبه. ذلك أن لابوييتي كان المثالية كلها، والاخلاص الحار، والرقّة والحنان، أما مونتيني

فكان فيه من الثقافة والحصافة وعدم التحيز ما يمنعه من التفاني إلى هذا الحد، وقد وصفه هذا الصديق ذاته بأنه "يميل إلى الرذائل والفضائل البارزة على السواء(34)". وربما كانت أعمق تجربة مر بها مونتيني في حياته هي مشاهدته صديقه يحتضر. ففي عام 1563، وخلال طاعون نقشي في بوردو، مرض لابويتي فجأة بالحمى والدوسنتاريا. وقد احتتمل موته البطيء بجلد رواقى وصبر مسيحي لم يغيب قط عن ذاكرة صديقه الذي ظل ملازماً لفرشه في تلك الايام الأخيرة. وورث مونتيني مخطوطة المقال الخطر وخبأها ثلاثة عشر عاماً، ثم نشرت منه نسخة في طبعة مسروقة (1576) وهنا نشر الأصل، وأوضح أنه تدرّيب في البلاغة لصبي "في السادسة عشرة".

صفحة رقم : 9988

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> ميشيل دي مونتيني

وجعلت هذه الصداقة كل علاقة إنسانية بعدها تبدو لمونتيني تافهة غثة. وقد اكتسب المرة بعد المرة أن نصفه مات مع لابويتي "لقد ألفت أن أكون دائماً أثين، ولم اعتد أن أكون وحدي قط، حتى ليخيل إلي أنني لست إلا نصف نفسي(35)". وفي حرارة هذه الذكرى رفع الصداقة فوق الحب بين الوالد والولد، والفتاة والفتى، والزوج والزوجة، ويبدو أنه لم يكن يشعر بأي عاطفة رومانسية نحو أي امرأة. "في شبابي عارضت الأفكار الشائعة عن الحب، والتي أحسست أنها تغلبني على أمري، وجاهدت لأقلل من متعة مخافة أن... يسترقني في النهاية ويضعني تحت رحمته(36)". ولا يعني هذا أنه لم تكن له أوقات غرام، فهو على العكس يعترف بعلاقات واسعة متعددة قبل زواجه(37). وقد وصف الحب الجنسي بأنه "ليس إلا لذة تدغدغ الجسم نتيجة إفراغ الأوعية المنوية، أشبه باللذة التي تعطينا إياها الطبيعة في إفراغ الأعضاء الأخرى. وروى أنه من المضحك أن الطبيعة "خلطت لذاتنا وأساخنا معاً(38)".

وقد وافق الفلاسفة، على أن حافز الجماع ليس مبرراً للزواج. "لست أرى زيجات أسرع فشلاً وأكثر كدراً كنتك التي تعقد من أجل الجمال، أو تتم في عجلة إستجابة لرغبات الغرام(39)". فالزواج يجب أن يرتبه "طرف ثالث"، وينبغي أن يرفض صحبة الحب (الجنسي) وشروطه "وأن يحاول شروط الصداقة"، ويجب أن يصبح الزواج صداقة إن أريد له البقاء. وكان يميل إلى رأي المفكرين اليونان القائل بأن على الرجل ألا يتزوج قبل الثلاثين. وقد اجتنب هذا الرباط أطول ما استطاع. وإذ كان لا يزال أعزب وهو في الثامنة والعشرين، فإنه سافر إلى باريس، وافتنن بها(40)، واستمتع بحياة البلاط حيناً (1562)، ورأى الهنود الأمريكيين في روان، وتردد بين مفاتن الحضارة والهمجية المتنافسة، ثم عاد إلى بوردو، وتزوج فرانسواز دشاسين (1565).

ويلوح أنه تزوج لأسباب منطقية تماماً: هي أن يكون له بيت وأسرة،

صفحة رقم : 9989

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> ميشيل دي مونتيني

وأن يورث الأسرة ضيعته واسمه. وفي صفحاته الخمسمائة والألف لا يكاد يذكر شيئاً عن زوجته. ولكن لعل هذا من قبيل حسن الأدب، وهو يزعم أنه كان وفيّاً لها، "مع أن الناس يذيعون عني أنني إباحي، إلا أنني (بنية صادقة) تقيدت بقوانين الزواج بدقة أكثر مما وعدت أو أملت(41)". وكانت تغتفر استغراقات العيقرية في ذاتها، وتعني بكفاية بالبيت والأرض وحتى بالحسابات، لأنه لم يكن يميل إلى الأشغال التجارية. أما هو فقد أعطاهما الاحترام كله، وأمرة حب أو كلمته بين الحين والحين- كاستجابة الشاكرة لمساعدتها السريعة له بعد سقوطه من ظهر جواده، وكاهدائه إياها طبعته للترجمة التي قام بها لأبويتي لخطاب بلوتارخ "خطاب عزاء". وكان زواجاً موفقاً، وعلينا ألا نأخذ مأخذ الجد الشديد تلك السخریات الموجهة ضد النساء في "مقالات مونتييني"، فقد كانت بدعة فاشية بين الفلاسفة. وولدت له فرانسواز ستة أطفال، كلهم بنات، متن جميعاً في طفولتهن إلا واحدة، يتكلم عنها في حنان(43). وحين بلغ الرابعة والخمسين تبنى في أسرته فتاة في العشرين اسمها ماري دجورنيه "أحببتها حباً صادقاً يفوق حب الأب لابنته واعتبرتها جزءاً من خير أجزاء كياني، وهبت لي في بيتي وعزلتي(43)". إنه لم يكن فوق مشاعر الانسانية المشتركة بين البشر.

ج- مقالاته

في عام 1568 مات أبوه، فورث ميشيل الضيعة بوصفه الابن الأكبر. وبعد ثلاث سنوات أو أربع استقال من برلمان بوردو، واعتزل ضوضاء المدينة إلى ملل الريف. ولكن حتى في الريف كان السلام قلقاً، لأن الحرب الدينية كانت تقسم فرنسا ومدنها وأسرها، فالجنود يغيرون على القرى، ويدخلون البيوت ويسرقون، وينتهكون الأعراس، ويقتلون "ذهبت إلى فراشي ألف مرة... وأنا أتخيل أنه قد يخونني

صفحة رقم : 9990

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> ميشيل دي مونتييني

من ائتمنت أو قد أذبح في فراشي(44)". ورغبة في ثني القوم عن العنف كان يترك أبوابه غير موصدة ويأمر بأن يستقبل المغيرون إن أتوا دون مقاومة. على أنهم لم يأتوا، وترك مونتييني حراً ليعيش في ركنه الفلسفي بين صراع العقائد وصليل السيوف، وبينما كانت باريس وغيرها من الأقاليم تقتل البروتستنتية في مذبحه القديس برتلميو، كتب مونتييني أجل أثر في النثر الفرنسي. وكان أحب الخلوات إليه مكتبته الكائنة بالطابق الثالث من البرج الذي يرتفع في واجهة قصره الريفى (دمرت النار القصر عام 1885 ولكن البرج باق). وقد أحب مكتبته نفسه. فكانت ذاته الثانية. "شكلها مستدير، وليس فيها جانب مستو إلا ما يصلح لمكتبتي ومقعدتي، وهو وضع... يتيح لي بنظرة واحدة أن أشتمل ببصري كل كتبي... هناك كرسي؛ هناك عرشي. وأنا احاول أن أجعل حكمي فيها مطلقاً؛ وأن أخص بذلك المركز الوحيد دون صحبة زوجتي، وأطفالي، ومعارفي(45)".

وقل بين الرجال من استطاب مثله العزلة وهي أخوف ما نخاف:

"على المرء أن يفصل ويسترد نفسه من نفسه... علينا أن نحفظ بمعين لأنفسنا... خاص بنا دون غيرنا... نخترن فيه حريتنا ونرسيها. إن أعظم شيء للإنسان في العالم أن يعرف كيف يكون نفسه(46).

في مكتبته كان لديه ألف كتاب، أكثرها مجلد مزخرف، وكان يسميها "مواطن لذتي"، فيها استطاع أن يختار صحبته ويعيش مع أحكمهم وأخيرهم. ففي بلوتارخ وحده "لأنه يتكلم الفرنسية" (في ترجمة لأميو " استطاع أن يجد مائة عظيم يحضرون ويتحدثون إليه،

صفحة رقم : 9991

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> ميشيل دي مونتيني

وفي "رسائل" سنيكا استطاع أن يتذوق رواقية لطيفة صيغت في عبارات رخيمة؛ هذان (ربما فيهما كتاب بلوتارخ "موراليا") كانا أحب المؤلفين إليه، "منهما أستقي مائي كما فعلت الدنايديات، وأملأ دون توقف حالما يفرغ الماء (47) ... والألفة التي تمت بيني وبينهما، والعون الذي يمدانني به في شيخوختي، وكتابي الذي لم أصغه إلا مما غنت منهما، كل أولئك يلزمني صيانة شرفهما (48).

وهو لا يستشهد بالكتاب المقدس أبداً (ربما لأنه مشهور جداً)، وإن اقتبس مراراً من القديس أوغسطين. وهو في الاغلب يؤثر القدامى على المحدثين، والفلاسفة على الأبياء المسيحيين. كان "إنساني" الفلسفة بقدر ما أحب آداب اليونان والرومان وتاريخهم، ولكنه لم يكن عابداً أعمى للكلاسيكيات والمخطوطات والمحفوظات، ورأيه في أرسطو أنه سطحي، وفي شيشرون أنه ثرثار دعي. ولم يكن مطلعاً كل الاطلاع على آثار اليونان، ولكنه استشهد بالشعراء اللاتين في تبحر طواف ألم حتى بواحد من أخص اجرامات مارشال. وقد أعجب بفيرجل، ولكنه فضل عليه لوكريتيوس. وقرأ "الأقوال المأثورة" لأرزم في نهم. وكان في مقالاته الأولى متحذلقاً، يرصع كلامه بالعبارات الكلاسيكية المعادة. ومثل هذه الاقتباسات كانت تتفق وأسلوب العصر، وقد استطاب القراء ممن لم تسعفهم قدراتهم على قراءة الأصول هذه النماذج باعتبارها نوافذ صغيرة يلمحون منها العالم القديم، وشكا بعضهم من أنه لم يستكثر منها (49). ولكن من كل سرقاته الصغيرة خرج مونتيني هو هو على نحو فذ، ضاحكاً من الحذقة، محدداً فكره وكلامه. فهو في ظاهره أشبه بالمقص واللصوق، ولكن مذاقه طيب كقطع الآلهة. وهكذا، على مهل صفحة فصفحة، ويوماً بعد يوم، كتب

صفحة رقم : 9992

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> ميشيل دي مونتيني

"المقالات"، بعد عام 570. والأسلوب هو الرجل، طبيعياً، حميماً، وثيقاً، وإنها لراحة أن يتحدث إلينا أحد أئمة الفكر بهذه الألفة. أفتح أي صفحة في مقالاته، تجده يمسك بذراعك ويسوقك معه دون أن تعرف، وقلما يهملك، إلى أين يمضي بك. كان يكتب جزءاً فجزءاً، في أي موضوع يخطر بباله أو يوافق مزاجه؛ ويستطرد في فوضى بعيداً عن الموضوع الأصلي أثناء تجواله، فترى مقاله "عن المركبات" مثلاً ينطلق مخترقاً روما القديمة وأمريكا الجديدة. وفي

المجلدات الثلاثة ثلاثة تتألف من استطرادات. لقد كان مونتيني كسولاً، وما من شيء أشق من خلق النظام وحفظه من الأفكار أو الرجال. وقد أترف بأنه "متموج متنوع" ولم يقدر الثبات على الآراء؛ فكان يغير آراءه كلما تقدم به العمر، وإنما الصورة المركبة النهائية هي مونتيني. ووسط تدفق أفكاره المضطرب تجد أسلوباً واضحاً كأنه البساطة بعينها. ومع ذلك تراه يتألق باستعارات عجيبة كاستعارات شكسبير، وبنوادر منيرة تحول المجرد فور الواقع. ويختطف فضوله الفاحص هذه الأمثلة أينما وجدها دون اكتراث لأي معوق خلقي. وهو يسلمنا في عناية ملاحظة

صفحة رقم : 9993

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> ميشيل دي مونتيني

تلك المرأة التولوزية التي شكرت الله بعد أن غشيها عدة جنود "لأنني مرة في حياتي ملأت بطني دون أن أتم (52).

د- الفيلسوف

إنه يزعم أن لديه موضوعاً واحداً- هو نفسه. "إنني أنظر داخل نفسي، ليس لي شأن إلا مع نفسي، فأنا لا أكف عن النظر في أمر نفسي... وتذوقها (53)". وهو يعمد إلى دراسة الطبيعة البشرية مباشرة، عن طريق دوافعه، وعاداته، ومحابه، ومكارهه، وأسقامه، ومشاعره، وأهوائه، ومخاوفه، وأفكاره. إنه لا يقدم لنا ترجمة ذاتية، فهو لا يكاد يذكر في المقالات شيئاً عن اشتغاله مستشاراً أو عمدة، ولا عن أسفاره في زيارته للبلاد، وهو لا يكشف عن دينه أو مذهبه السياسي، بل يعطينا شيئاً أتمن- ذلك التحليل الصريح النفاذ لجسمه وعقله وخلقه. وهو يبسط أخطاءه وردائله واسهاب. وتحقيقاً لهدفه يستأذن في أن يتكلم بحرية، فهو عامد إلى انتهاك أصول الذوق السليم ليعرض علينا إنساناً عاري الجسد والروح. تراه يتحدث في صراحة صاخبة عن وظائفه الطبيعية، ويستشهد بالقديس أوغسطين وفيه في موضوع التطيل اللحني (امتلاء البطن بالغازات)، ويطيل التأمل في الجماع:

"كل منا يجتنب رؤية إنسان يولد، ولكن الجميع يهرعون لرؤيته يموت. فلهدمه نلتمس مكاناً ونوراً قوياً، ولكننا لبنائه نخبتى في ركن مظلم ونعمل في تكتم ما استطعنا (54)".

وحتى مع هذه الصراحة يزعم أنه مارس شيئاً من التحفظ. "إنني أقول الحق، لا كما أشتهي، بل على قدر ما أجرؤ (55)".

وهو يقول لنا الكثير عن نفسه الجسدية، ويرعى صحته من صفحة إلى صفحة. فالصحة هي الخبر الاعظم والشهرة والمجد يشتريهما رجل في مثل مزاجي بثمان غال، باسم الله (56)، وهو يسجل تقلبات أمعائه في

صفحة رقم : 9994

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> ميشيل دي مونتيني

تفصيل المحب لها. لقد بحث عن حجر الفلاسفة ووجده مستكناً في مثانته. وكان يأمل أن ينزل هذا الحصى في نشوة من الحب، ولكنه بدلاً من ذلك وجد أنه "يخونه إلى حد غريب(57)" ويهدده بالعجز في غير أوانه. وقد عزي نفسه بقدرة يفخر بها، هي "أن أبيض مائي عشر ساعات كاملة(58)" وأن يظل على سرجه دون أن يناله الأعياء الشديد. كان بدينا قوياً، يأكل بنهم حتى كاد بعض أصابعه في شرهه. وقد أحب نفسه في لذة لا يعترىها الملل. كان مغروراً بنسبه، وبشعار نبالته(59)، وبثيابه الفاخرة، وبما نال من تشریف حين أصبح أحد فرسان القديس ميخائيل- وكتب مقالاً "في الغرور". وهو ينسب لنفسه أكثر الرذائل، ويؤكد لنا إن كان فيه فضيلة فإنها تسلت إليه خلسة. ومع ذلك فإن لديه الكثير من هذه الفضائل: الأمانة، والطيبة، وروح الفكاهة، والاتزان، والرحمة، والاعتدال، والتسامح. وكان يقذف بالأفكار المتفجرة في الهواء، ثم يلقيها ويطنفئها قبل أن تسقط. وفي عصر المذابح العقائدية توسل إلى إخوانه في الإنسانية أن يعتدلوا في تعصبهم هذا الجانب من المقتلة، وأعطى العالم العصري مثلاً من أول أمثله في العقل المتسامح. ونحن نعتز له عيوبه لأننا نشاركه فيها، ونجد تحليله لنفسه ساحراً لأننا نعلم أننا نحن الذين يروي هذه القصة عنهم.

ولكي يحسن فهم نفسه درس الفلاسفة. وقد أحبهم على الرغم من دعاوهم المغرورة بأنهم يحلون الكون ويرسمون مصير الإنسان وراء القبر. ونقل عن شيشرون قوله "ما من شيء سخيف قيل إلا سبق أن قاله أحد الفلاسفة(60)". وقد امتدح سقراط لأنه "أنزل الحكم البشرية من السماء حيث طال ضياعها، ليردها إلى الإنسان من جديد(61)". وردد نصيحة سقراط بدرس أقل العلوم الطبيعية، وأكثر للسلوك الإنساني. لم يكن له "مذهب" بعينه يدين به، فلقد كانت أفكاره في تطور دائم الحركة بحيث استحال على أي تسمية أن تقيد تحليقه الفلسفي.

صفحة رقم : 9995

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> ميشيل دي مونتيني

ففي بواكير تفكيره الجريئة اعتنق الواقية. إن المسيحية التي تفرقت شيعاً يقتل فيها الناس أخوتهم، ولطخت نفسها بدم الحرب والمذابح، قد اخفقت بجلاء في أن تعطي الإنسان قانوناً خلقياً قادراً على ضبط غرائزه، لذلك اتجه مونتيني إلى الفلسفة ملتمساً مبدأ خلقياً طبيعياً، وفضيلة لا ترتبط بقيام العقائد الدينية وسقوطها. وبد له أن الرواقية قريبة من هذا المثل الأعلى، فهي على الأقل شكلت بعضاً من أعظم الرجال في العصور القديمة. وجعلها مونتيني مثله الأعلى حيناً، فهو مدرب إرادته على التحكم في نفسه، وهو صادف عن كل العواطف التي تكدر سلامة سلوكه أو هدوء عقله، وهو مواجه صروف الدهر بجأش رابط، متقبل الموت ذاته على أنه نهاية طبيعية معتقده.

وبقي في عرق رواقى إلى النهاية، ولكن روحه الجياشة وجدت بعد قليل فلسفة أخرى تبرر ذاتها. لقد تمرد على رواقية تبشر باتباع "الطبيعة" وتحاول مع ذلك قمع الطبيعة في الإنسان، وقد فسر "الطبيعة" من خلال طبيعته هو، وقرر أن يتبع رغباته الطبيعية، ما دامت لاتحدث أذى محسوساً. وسرّه أن يجد أبيقور مدافعاً عاقلاً عن المتع السليمة، لا شهوانياً رخيصاً، وأدهشه أن يكتشف قدراً كبيراً من الحكمة والعظة في لوكرتيوس. فأعلن الآن في حماسة شرعية اللذة. أما الخطيئة الوحيدة التي تبنيها فهي الإفراط. "إن الإفراط هو الطاعون الذي يفتك باللذة، والاعتدال ليس سوط اللذة، بل الملطف لها(62)".

ومن تذبذب آرائه، ومن انحطاط المسيحية المعاصرة في فرنسا، انتهى إلى الشكوكية التي اصطبغ بها أكثر فلسفته بعد ذلك. وكان أبوه قد ثار بكتاب "اللاهوت الطبيعي" الذي ألفه اللاهوتي التولوزي ريمون سبوندي (مات 1437؟) والذي

واصل جهد السكولستيين النبيل في البرهنة على معقولية المسيحية. وطلب الأب إلى ابنه أن يترجم البحث، نفعل، ونشر الترجمة (1569). واستنار به السنيون الفرنسيون، ولكن بعض

صفحة رقم : 9996

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> ميشيل دي مونتيني

النقاد اعترضوا على حجج ريمون. وفي عام 1580 أدخل مونتيني في "الكتاب" الثاني من "مقالاته" فصلاً مائتي صفحة فيه "دفاع عن ريمون سبونند" عمد فيه إلى الرد على الاعتراضات. ولكنه لم يفعل هذا إلا بالتخلي على هدف ريمون، محتجاً بأن العقل أداة محدودة لا يوثق بها، وأنه خير لنا أن نرسي الدين على الإيمان بالكتب المقدسة وبالكنيسة الأم المقدسة؛ وهكذا هدم مونتيني ريمون في واقع الأمر حين يفهم منه ظاهرياً أنه يؤيده. وقد رأى بعضهم، مثل سانت بوف، أن هذا "الدفاع" ليس إلا حجة ساخرة لتأييد عدم الإيمان (63). أياً كان الأمر، فهو أشد ما كتبه مونتيني هدماً، وربما كان أكمل عرض للشكوكية في الأدب الحديث. ويؤكد لنا مونتيني، قبل لوك بزمن طويل، أن "المعرفة كلها توجه إلينا بواسطة الحواس (64)". وأن العقل يعتمد على الحواس ولكن الحواس خداعة في تقاريرها محدودة جداً في رقتها، ومن ثم كان العقل لا يعتمد عليه. "أن باطن الانسان وظاهره مملوءان ضعفاً وكذباً" (65). (وهنا، في بداية عصر العقل، وقيل سيكون وديكارت بجيل، يسأل مونتيني ذلك السؤال الذي لا يقفان ليسألاه، والذي سيسأله بسكال بعد ثمانين عاماً، والذي لا يتصدى له الفلاسفة حتى مجيء هيوم وكانط، لم يجب أن نثق بالعقل؟) بل إن الغريزة مرشد أسلم من العقل. فأنظر كيف يحيا الحيوان بالغريزة حياة ناجحة- أحياناً على نحو أحكم من الانسان. هناك فرق بين بشر وبشر أكثر كثيراً من الفرق بين البشر والحيوان (66). "وليس الانسان مركزاً للحياة كما أن الأرض ليست مركزاً للكون. ومن التبجح أن يظن الانسان أن الله يشبهه، أو إن شئون البشر هي مركز اهتمام الله، أو أن العالم وجد ليخدم الإنسان. ومن السخف أن نظن أن في استطاعة عقل الانسان أن يسير طبيعة الله. "أيها الانسان الأحمق، يا من تعجز عن خلق دودة، ولكنك تريد أن تخلق أرباباً بالعشرات!" (67).

صفحة رقم : 9997

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> ميشيل دي مونتيني

ويصل مونتيني إلى الشكوكية بطريق آخر - وهو التأمل في تنوع وتذبذب الإيمان بالقوانين والأخلاق، وبالعلم والفلسفة والدين، فأى هذه الحقائق هو الحق؟ وهو بفضل الفلك الكوبرنيقي على الفلك البطلمي، ولكن "من يدري، فلعل رأياً ثالثاً يأتي بعد ألف سنة قد يقلب هذين الرأيين" و "ليس أكثر احتمالاً أن الجرم الضخم الذي نسميه الدنيا شيء آخر غير ما نحكم به عليه؟" (68) و "ليس هناك علم"، إنما هي فروض دعوية لعقول مغرورة (69). وخير الفلاسفات

قاطبة فلسفة برو- وخلصتها أننا لا نعرف شيئاً. "أن أكبر مقدار فيما نعرفه هو أقل مقدار فيما نجهله(70) " وما من شيء يؤمن الناس به إيماناً أرسخ من إيمانهم بما يعرفونه أقل معرفة " و "إن الاقتناع باليقينية شاهد واضح على الحمق(71) ". وبعبارة موجزة، ليس هناك وجود ثابت، لا لكياننا ولا للأشياء. ونحن، وحكمنا وكل الأشياء الفانية الأخرى، لا تكف عن الدوران، والتحول، ثم الزوال، فلا شيء يمكن إثباته على التحقيق. وليس بيننا وبين الوجود اتصال(72). إذن فشفاء لكل الجراح يختم مونتيني باعادة تأكيده لإيمانه المسيحي، والإشادة بالإله الذي لا يمكن استنكاهه(73).

بعدها طبق شكوكيته على كل شيء، دائماً مع انحناءة احترام للكنيسة. وأصبح شعاره "ماذا أعرف"، محفوراً على خاتمه ومكتوباً على سقف مكتبته. وزينت شعارات أخرى عوارض السقف المماثلة "الحجج المؤيدة والمعارضة كلاهما ممكن"، "يجوز لا يجوز"، "لا أقرر شيئاً، لا أفهم الأشياء؛ أعلق حكمي؛ أمتحن(74)". وبعض هذا الموقف أخذه عن شعار سقراط "لا أعرف شيئاً"، وبعضه عن برو، وبعضه عن كورنيليوس أجريبيا، وكثير منه عن سيكستوس أمبيريكوس، قال، منذ الآن "سأقيد نفسي بما أرى وأمسك به، ولا أذهب بعيداً عن الشاطئ" (75). ورأى الآن النسبية في كل مكان، والمطلقات في غير مكان، وأقلها

صفحة رقم : 9998

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> ميشيل دي مونتيني

في مقابيس الجمال، ويجد فيلسوفنا الشهواني متعة بالغة في ملاحظة مختلف الآراء بين مختلف الشعوب عن مقومات الجمال في ثدي المرأة(76). وهو يعتقد أن كثيراً من الحيوان يفوقنا جمالاً، ويرى أننا كنا حكماء حين اكتسبنا بالثياب، وهو يدرك إن دين الإنسان وأفكاره الخلقية تقررهما بينته عادة. "إن طعم الخير أو الشر يتوقف إلى حد كبير على رأينا فيها"، وهو ما سيقوله شكسبير، و "إن الناس تعذبهم آراؤهم عن الأشياء لا الأشياء ذاتها" (77)، وقوانين الضمير لا تتبع من الله بل من العادة. وما الضمير إلا الفلق الذي نحسه حين ننتهك عرف قبيلتنا(78).

وكان لمونتيني من الفطنة ما منعه من الرأي بأن الأخلاق يصح إغفالها ما دامت نسبية. فهو على العكس منذ لك آخر من يمس ثباتها واستقرارها. وهو يتكلم بجرأة عن الجنس، ويطالب بكثير من الحرية- للرجال، ولكنك إذا دقت النظر فيه وجدته فجأة سيئاً. فهو يوصي بالعفة للشباب، وحجته أن الطاقة التي تبذل في الجنس مصدرها مستودع القوة المشترك في البدن، وهو يلاحظ أن الرياضيين الذين كانوا يتدربون للألعاب الأولمبية "أمسكوا عن جميع الأفعال الجنسية وامتنعوا عن ملامسة النساء" (79).

وكان بعض من يمد شكوكيته إلى الحضارة ذاتها، وأن يسبق في ذلك روسو وشاتوبريان. أوحى إليه الهنود الذين رأهم في روان بأن يقرأ تقارير الرحالة؛ ومن هذه الروايات كتب مقالة "عن أكلة لحوم البشر" وعنده أن أكل الموتى أقل همجية من تعذيب الأحياء. "لست أجد في هذه الأمة (أمريكا الهندية) شيئاً همجياً ولا وحشياً، إلا إذا سمي الناس ما لم يأفوه همجية" (80). وقد تخيل هؤلاء الوطنيين أصحاب لا يمرضون إلا نادراً، سعداء دائماً تقريباً، عائشين في سلام وطمأنينة دون قوانين(81) وامتدح فن الأرائكة وطرق الأنكا. وأجري على لسان هنود روان تنديداً ببراء أوربا وفقرها. "لقد أدركوا أن بيننا رجالاً اتخموا بكل أنواع السلع في حين يتضور غيرهم جوعاً، وعجبوا كيف تحمل الفقراء هذا

صفحة رقم : 9999

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> ميشيل دي مونتيني

الظلم ولم يأخذوا بتلابيب الآخرين" (82). وقارن بين أخلاق الهنود وأخلاق فاتحي بلادهم، واتهم هؤلاء إن المسيحيين المزعومين... جلبوا عدوى الرذيلة لنفوس بريئة تواقفة للعلم، طيبة بطبيعتها (83) ". ونسي مونتيني لطفه لحظة فتقجر في غضبة مضرية للحق:

"ما أكثر المدن العامرة التي نهبت وسويت بالتراب، وما أكثر الأمم التي دمرت أو أفقرت من أهلها. وكم من ملايين لا تحصى من الناس الأبرياء من الجنسين، ومن جميع المراكز، والأعمار، قتلوا ونهبوا وأعمل فيهم السيوف؛ وأغنى بقاع الأرض وأجملها وأفضلها قلبت ظهرأ على عقب وخربت وشوهت من أجل تجارة اللؤلؤ والفلل! إيه أيتها الانتصارات الآلية، ويا أيها الغزو الوضع! (84) "

أكان احترامه للدين مخلصاً؟ ووضح أن تنقيبه في الكلاسيكيات قد قطعه منذ زمن طويل من تعاليم الكنيسة. لقد احتفظ بإيمان غامض بالله الذي تمثله أنا في الطبيعة، وأنا في روح الكون، ذلك العقل غير المفهوم للعالم. وهو أحياناً يحس إحساس لير في مسرحية شكسبير، "إن الآلهة تلعب بنا الكرة فتقذفنا علواً وسفلاً (85) ". ولكنه يتهم بالأحاد لأنه "شيء غير طبيعي وبشع (86) "، ويرفض اللاأدرية باعتبارها نوعاً آخر من الجماطية، فأبى لنا أن نعرف أننا لن نعرف أبداً؟ (87). وهو ينحي جانباً كل محاولات بذلت لتعريف النفس أو تفسير علاقتها بالجسد باعتبارها محاولات باطلة كلها غرور (88). وهو راغب في قبول خلود النفس بالإيمان، ولكنه لا يجد دليلاً عليه في التجربة أو العقل (89)؛ ثم أن فكرة الوجود الأبدي تروعه (90). "لولا الإيمان لما صدقت المعجزات (91) "، وهو يسبق حجة هيوم المشهورة؛ "كم أجده أكثر طبيعية واحتمالاً أن يكذب رجلان، عن أن تحمل الريح رجلاً في اثنتي عشرة ساعة من الشرق إلى الغرب (92) " (ولعله كان باحثاً عن مثل آخر اليوم). وهو يسبق فولتير إذ يحكى قصة الحاج الذي حكم بأن المسيحية لا بد دين

صفحة رقم : 10000

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> ميشيل دي مونتيني

إلهي لأنها حافظت على نفسها هذا الزمن الطويل برغم فساد مديريها (93) وهو يلاحظ أنه مسيحي بمحض الصدفة الجغرافية، ولولا ذلك "لأثرت أن أكون أحد عباد الشمس (94) ". وهو لا يتكلم على المسيح غير مرة واحدة، على قدر ما يذكر أحد قرانه (95). ولم تستهو تلك القصة الجميلة، قصة أم المسيح، روحه غير العاطفية إلا بمقدار، ومع ذلك نراه يعبر إيطاليا ليضع أربعة تماثيل نذرية أمام مزارها في لوريتو. وكان يفتقر إلى ملامح الروح الدينية- وهي التواضع، والاحساس بالذنب وتكيب الضمير والتكفير، والشوق إلى الغفران الإلهي والنعمة الفادية. لقد كان رجلاً حر الفكر، فيه حساسية ضد الاستشهاد.

على أنه ظل كاثوليكياً بعد أن كف طويلاً عن أن يكون مسيحياً (96). وكما كان أي مسيحي فطن من المسيحيون الأوائل ينحني لأحد الأوثان انحناءة عابرة، كذلك فإن مونتيني، أكثر المسيحيين وثنية، يتحول بين الحين والحين عن إثرائه اليونان والرومان ليقدم الاحترام لصليب المسيح أو حتى ليلثم قدم أحد البابوات. فهو لم ينتقل كما انتقل باسكال من الشك إلى الإيمان، بل من الشك إلى الطاعة. ولم يكن هذا بدافع الحذر فحسب، فلعله أدرك أن فلسفته التي شلت

حركتها تردداته وتناقضاته وتشككه قد تصلح ترفاً لعقول هيئت من قبل للحضارة (بالدين؟)، وان فرنسا، حتى وإن أغرقت عقائدها في الدم، إلا أنها لن ترضى بديلاً عنها متاهة فكرية ليس فيها شيء يقيني غير الموت. ورأى أن الفلسفة الحكيمة تصالح الدين:

"إن اصحاب العقول البسيطة، الأقل فضولاً، والأقل حظاً من التعليم، يجعلون مسيحيين طبيين، وهم بالتبجيل والطاعة يحتفظون بإيمانهم البسيط ويلتزمون بالقوانين. والعقول متوسطة القوة والكفاية هي التي يتولد فيها خطأ الآراء... أما خير العقول وأكثرها استقراراً وأصفاها نظراً فتخلق نوعاً آخر من خيار المؤمنين، الذين ينفذون بالبحث الطويل والتمحيص الديني إلى معنى أعمق وأعوص في الأسفار المقدسة ويكتشفون

صفحة رقم : 10001

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> ميشيل دي مونتيني

الأسرار الخفية الإلهية للنظام الكنسي... أن الفلاحين البسطاء قوم أمناء، وكذلك الفلاسفة (97). وهكذا، بعد كل لذعاته للمسيحية، ولأن جميع الأديان على السواء إنما هي أستار تغطي جهلنا المرتعد، ينصحنا بأن نقبل دين زماننا ومكاننا. أما هو، ففي وفائه لجغرافيته، عاد إلى شعائر أبائه، فأحب الدين الطقسي العطر الحسي، لذلك فضل الكاثوليكية على البروتستنتية. ونفره من الكلفنية إصرارها على الجبرية (98)، وإذا كان إرزمي الأرومة فقد مال إلى كرادلة روما العالميين اللطفاء دون لويولا جنيف (كالفن) أو أسد فنبرج (لوثر). وأشد ما أسف له أن العقائد الجديدة كانت تقلد القديمة في تعصبا. ومع أنه سخر من المهرطقين لأنهم حمقى يثيرون ضجة حول ميثولوجيات متنافسة، إلا أنه لم يرى معنى لحرق هؤلاء الخوارج. "على أي حال إنه تقدير عال لأرائنا أن نشوي الناس أحياء بسببها (99) " أو أن نسمح للناس بأن يشوونا.

كذلك نراه في ميدان السياسة يختتم مسيرته محافظاً مطمئناً إذ لا جدوى من تغيير أشكال الحكومة؛ فستكون الحكومة الجديدة سيئة كالقديمة لأنها ستدار بأيدي البشر. فالمجتمع "إطار شاسع جداً"، وجهاز شديد التعقيد من الغريزة والعرف والأسطورة والقانون، يتشكل في بطئ بحكمة الزمن الحاصلة من التجربة والخطأ، بحيث يستحيل على أي عقل مفرد مهما أوتي من قوة وذكاء أن يفحصه ثم يعيد تركيبه دون فوضى وعذاب لا حصر لهما (100). وخير للناس أن يخضعوا لحكامهم الحاليين مع ما فيهم من سوء، إلا إذا حاولوا أن يغلوا الفكر ذاته، عندها قد يستجمع مونتيني شجاعته وينصح بالثورة، لأن "عقلي لم يشكل لينحني أو يذل، أما ركبتي فنعمة (101) "، والعقل من ابتعد عن المنصب وإن احترمه، "أن أعظم وظيفة هي إنقاذ الدولة ونفع الكثيرين"، "أما أنا فمصرف عنها (102) "، ومع ذلك فقد خدم الدولة في فترتي منصبه.

صفحة رقم : 10002

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> ميشيل دي مونتيني

وقد أحرزته أنه عاش نصف حياته خلال تدمير فرنسا(103)، "في جبل شديد الفساد وزمان مغرق في الجهل " "اقرأ كل القصص القديمة، ما لم تكن من الفواجع، فلن تجد ما يعدل تلك التي نراها تمارس كل يوم(104) ". إنه لم يتخذ موقف الحياد في الصراع الدائر حول فرنسا، ولكن "ميلي لم ينسى لا صفات خصومنا المحمودة، ولا الصفات المعيبة التي وصمت من أويدهم(105) ". وهو يأبى أن يحمل بندقية، ولكن يجرد قلمه لمناصرة جماعة "السياسيين"، هؤلاء الكاثوليك المؤثرين للسلام والذين نادوا بقدر من التوفيق مع الهيجونوت. وقد امتدح ميشيل دلوبيتال لاعتماده الإنساني البعيد النظر، واعتبط حين تقدم صديقه هنري نافار إلى النصر على مبادئ لوبيتال. لقد كان مونتين أعظم الفرنسيين تحضراً في ذلك العصر الهيجي.

هـ- الحجر الدوار

لقد ضايقه حصى المئانة أكثر من حروب فرنسا. ففي يونيو 1580، عقب نشر أول طبعة من "مقالاته"، خرج في رحلة طويلة في أوروبا الغربية، من جهة ليرى الدنيا، ومن جهة ليزور ينابيع المياه الطيبة أملاً في تلطيف "المغص" (كما سماه) الذي كان يعطله بالألم المرة بعد المرة. وترك زوجته لتعنى بشؤون الضيعة، ولكنه اصطحب معه أخاً أصغر، وزوج أخت يسمى البارون استيساك وسكرتيراً أملاه شطراً من يوميته في الرحلة، فإذا أضفنا بطانة من الخدم وسانقي البغال، لم نعد نعجب لفقر هذه المذكرات الفكرية. لقد قصد بها الذكرى أكثر مما قصد بها النشر، فأخفاها مونتين في صندوق بعد رجوعه، حيث اكتشفت بعد أن انقضى على موته 178 عاماً. وقصدت الجماعة أولاً باريس، حيث قدم المؤلف الفخور نسخة من مقالاته لهنري الثالث، ثم انطلقت على مراحل مريحة إلى بلومبيير حيث أخذ مونتين نفسه يشرب نصف جالون من المياه الطيبة كل يوم طوال

صفحة رقم : 10003

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> ميشيل دي مونتين

تسعة أيام، وأفلح في التخلص من بعض الحصى الصغير بألم شديد(106). ثم اتخذ سمته إلى سويسرة بطريق اللورين. جاء في يوميته التي تحكي ذكرياته عن شخص غائب "لقد وجد لذة لا تعد لها لذة في مشاهدة حرية هذه الأمة وحكومتها الصالحة(107) ". ثم استشفى بمياه بادن-بادن وواصل رحلته في ألمانيا. وحضر الخدمات الدينية عند الكلفنيين واللوثريين كما حضرها عند الكاثوليك، وناقش اللاهوت مع رجال الدين البروتستنت. وهو يروي حديث قسيس لوثيري أقسم أنه يؤثر أن يستمع إلى ألف قداس عن أن يشارك في تناول القربان على مذهب كالفن(108)- لأن الكلفنيين أنكروا الوجود الجسدي للمسيح في سر القربان. وفي التيرول شعر بجلال الألب قبل روسو بزمن طويل. ومن إنزبورك صعدت الجماعة إلى ممر بريتر، وتخلص مونتين في الطريق من "حصاة متوسطة الحجم"، ثم من ترنت إلى فيرونا وفنشنزا وبادوا والبندقية، حيث أضاف إلى القناة العظمى "حصاتين كبيرتين". ورأى أن المدينة ليست بالروعة التي توقعها ولا مومساتها بالجمال الذي انتظره. ومضى إلى فيرارا، حيث زار تاسو المختلط العقل (كما ذكرت المقالات لا اليومية)، ثم إلى بولونيا وفلورنسة حيث تلقى نهر ارنو "حصاتين وكمية من الرمل(109)"، ومن سبينا إلى روما حيث "أنزل حصاة كبيرة كبزرة الصنوبر(110) " ولعل هذه الإضافات المفروزة التي سجل أخبارها كانت في مجموعها تبني هراً لا بأس بحجمه.

وفي روما زار مجمعاً يهودياً، وشهد ختاناً، وناقش مع معلمي الناموس شعائر دينهم. وتبادل الفلسفات مع محظيات روما. ولم يكن (كما خيل لستندال) عديم الإحساس بالفن في روما(111). فقد راح يطوف اليوم تلو اليوم بين الآثار القديمة وعجبه لا ينتهي من بهائها. ولكن الحدث الكبير كان زيارته لجريجوري الثالث عشر. وكأي ابن للكنيسة ركع مونتيني ليلثم حذاء البابا، فتعطف البابا برفع حذاءه تيسيراً للمهمة(112). ووجد موظفو الجمر ك خلال ذلك نسخة من "المقالات"

صفحة رقم : 10004

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> ميشيل دي مونتيني

سلموها لمحكمة التفتيش، ودعي مونتيني إلى الهيئة المقدسة ونبه في رفق إلى أن فقرات في مقالاته تشتم منها رائحة الهرطقة، أفلا يرى تغييرها أو حذفها في الطبقات المقبلة؟ فوعد "خيل إليّ أنني تركتهم راضين فيها كل الرضا، وهذا حق، بل لقد دعوه للحضور إلى روما والعيش فيها (ولكنه لم يبال بالوفاء بوعده، وفي عام 1676 أدرج كتابه في قائمة الكتب المحظورة من الكنيسة). ثم سافر عبر إيطاليا قاصداً مزار العذراء في لوريتو وأهداها لوحة نذرية، ربما ليطمئنهم ويطمئن نفسه. ثم عاد إلى عبور الابنين للاستشفاء بمياه لوكا. وهناك (في 7 سبتمبر 1581) تلقى رسالة تقول أنه اختير عمدة على بوردو. فطلب إعفاه، ولكن هنري الثالث أمره أن يقبل، ولم يستطع أن يتجاهل تقليد خدمة الدولة الذي خلفه له أبوه. على أنه لم يتعجل العودة إلى فرنسا، فلم ير قصره الريفي إلا في 30 نوفمبر، بعد سبعة عشرة شهراً من بدء جولته. وكانت واجبات العمدة خفيفة، ومكافأته التشریف دون الأجر. وقد أدى واجبات وظيفته على وجه مرضي، لأن انتخابه أعيد (أغسطس 1583) عامين آخرين. وفي ديسمبر 1584 زاره هنري نافار ومعه خلية وأربعون تابعاً، ونام ملك فرنسا المقبل في فراش الفيلسوف. وقرب ختام فترة عمديته الثانية تفشى الطاعون في بوردو، فغادر مونتيني المدينة إلى الريف كما غادرها كل موظفي الدولة تقريباً. وفي 30 يوليو 1585 حول شارات منصبه لخلفه واعتزل في بيته. لم يكن قد جاوز الثانية والخمسين، ولكن الحصى كان يعجزه في فترات دورية، وأحياناً يحصر بوله أياماً(113). وفي أوائل عام 1588 بقي فيه من القوة ما يكفي للقيام برحلة ثالثة إلى باريس. وهناك قبض عليه بأمر من الحلف الذي كان آنذ يسيطر على العاصمة لاتهامه بالولاء لهنري الثالث، وأودع الباستيل (10 يوليو 1588)، ثم أفرج عنه في الليلة ذاتها بشفاة كاترين دي مديتشي. وفي أكتوبر حضر اجتماع مجلس الطبقات

صفحة رقم : 10005

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> ميشيل دي مونتيني

في بلوا ولكنه عاد إلى بوردو في الوقت المناسب للنجاة من التورط في تقلبات هنري الثالث عقب اغتيال الدوق جيز.

وفي آخر مقالاته وأروعها "في العجربة" أورد وصفاً لانحلال جسده. فأسنانه مثلاً وصلت فيما يبدو إلى "النهاية الطبيعية لبقاتها" (114). وهو يحتفل "انطلاقه" دون مرارة، فلقد عاش حياته كما رسمها، واستطاع أن يكتب في فخر: "راجع العالم القديم كله، مجد ومشقة في اختيار اثني عشر رجلاً وجهوا حياتهم في مجرى واحد... مستقر، أكيد، وهو أجمل توجيهات الملكة (115)". فلما أنبىء بقرب منيته، جمع أهل بيته وورثته من حوله، وأعطاهم بشخصه المبالغ أو الأشياء التي أوصى لهم بها في وصيته. ثم تناول أسرار الكنيسة في نقوى رجل لم يكتب قط كلمة شك أو ارتياب. ومات في 13 سبتمبر 1592 بالغاً من العمر تسعة وخمسين عاماً.

وانتشر تأثيره طوال قرون ثلاثة وعمّ قارات أربعاً. وقد قبل ريشليو في ابتهاج إهداء الأنسة جورنيه إياه طبعة "المقالات" الأخيرة. وفي تاريخ مبكر (1603)، نسقها صديقه وتلميذه شارون في فلسفة شكلية منتظمة وجعلها فلوريو من عيون الأدب الانجليزي (1603)، ولكنه غشى بساطة المؤلف وإيجازه بالاطناب المفرط في التفقه. ولعل شكسبير رأى تلك الترجمة فأعانتته على تشكيل شكوكية ماسيه الكبرى وصوغ عباراتها، وقد شعر بكون ذلك التأثير، ولعل ديكارت وجد في "المقالات" الحافز لشكه العام الأول. أما بسكال فقد أشرف على الجنون وهو يحاول انقاذ إيمانه من تشكيكات مونتيني. ومن مونتيني انبثق بيل. وفوفنارج، وروسو، وديدرو، وفولتير - أما روسو فمن اعترافات مونتيني ومقالاته "في التعليم" و "في أكلة لحوم البشر"، وأما فولتير فمن باقي أعماله كلها.

لقد كان مونتيني جدّ حركة التنوير كما كان بيل أباه. وقالت مدام

صفحة رقم : 10006

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> ميشيل دي مونتيني

دو ديفان، أقل نساء جيلها اللامع أو هاماً. أن يودّها أن "تلقي في النار جميع مؤلفات الفلاسفة الضخمة إلا مونتيني، الذي هو أبوهم كلهم" (117). وبفضل مونتيني دخل تحليل العقل والخلق النفسي إلى الأدب الفرنسي، من كورني وموليير، ولارشفوكو ولابرويير، إلى أناطول فرانس. أما ثورو فقد نهل الكثير من هذا المورد، كذلك استحم فيه إمرسون قبل أن يكتب "مقالاته". ويمكن أن نقول في مونتيني ما لا يصدق إلا على قلة من المؤلفين قبل القرن الثامن عشر، وهو أنه مقروء اليوم كأنه كتب بالأمس.

وتبين العالم عيوبه واغترها له منذ زمن طويل. وقد اعترف بالكثير جداً منها حتى لقد استنفد أسلحة نقاده. كان عليماً بأنه ثرثار مغرور. وقد يصيبنا الإعياء حيناً بعد حين من شواهد الكلاسيكية، وتقع لحظة في ذلك الحكم الظالم الذي أصدره مالبرانش على "المقالات" إذ زعم أنها "ليست إلا نسيجاً من النوادر التاريخية، والقصص الصغيرة، والكلمات الطريفة، والأشعار، والأقوال المأثورة... التي لا تدل على شيء" (118). وما من شك في أن مونتيني يخلط بضاعته في فوضى وكل خلط يقلل من تأثيرها ومغزها. وهو يناقض نفسه في مائة موضوع، فهو لا بد إذن مصيب، لأنه يقول كل شيء ونقيضه. وفي الشكوكية الشاملة شيء يبطل المرء بالشلل. فهي تحفظنا من قتل الناس باللاهوت، ولكنها تثبتنا بما تسبقنا إليه من حجة وتستنزف جلدنا. ونحن نتأثر بمحاولة بسكال البائسة أن ينقذ إيمانه من مونتيني، تأثراً أعمق من تأثرنا برغبة مونتيني في ألا يكون له إيمان على الإطلاق.

بيد أننا لا نستطيع أن نضع قلوبنا في نقد كهذا، فهو لا يقطع إلا مؤقتاً تلك البهجة التي نجدها في الثقافة الضاحكة، والفكر المرح المنبعث من هذا الثرثار الذي لا يمكن إسكاته وفي تفكيره السريع. فأين نجد مرة أخرى مثل هذا الموكب المفعم بالحياة، مركب الحكمة والفكاهة؟ إن بين هاتين

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> ميشيل دي مونتيني

الصفتين شهماً دقيقاً، فكلاهما منبثقة من رؤية الأشياء في أوضاعها الصحيحة، وهما في مونتيني تصنعان رجلاً واحداً. أما أثرته فتعوضها طرافته ووضوحه؛ وليس هنا عبارات ناصلة اللون، ولا سخب طنان رنان. ثم إننا ملكنا اللغة التي يستعملها أصحابها لإخفاء الفكر أو إخفاء انعدامه، بحيث نستطيع أن نغتر الأناية في هذه الكشوف عن النفس. ويدهشنا من هذا المحدث اللطيف معرفته الحميمة بقلوبنا، ويسري عنا أن نجد حكماً مثله يشاطرنا أخطاءنا، ثم يغترها لنا في غير تردد. ومن بواعث العزاء أن نرى أنه هو أيضاً يتردد ولا يعلم علم اليقين، وبيهجنا أن يقال لنا أن جهلنا - إذا أركناه- يصبح فلسفة. ثم ياله من تفريج أن نصادف، بعد مذبحة القديس برنلميو، رجلاً لم تبلغ به الثقة بالعقيدة حداً يكفي لحملة على القتل!

وأخيراً، وبرغم هجومه على العقل، ندرك أن مونتيني يبدأ في فرنسا عصر العقل كما بدأه بيكون في إنجلترا. إن مونتيني، ناقد العقل، لم يكن شيئاً إن لم يكن هو العقل ذاته. وبرغم كل إحناءاته للكنيسة، فإن هذا اللاعقلاني كان عقلانياً. ولم يرتض الطاعة إلا بعد أن بذور العقل في فكر فرنسا. وإذا كان قد حاول كبيكون أن يفعل هذا دون أن يقلق إيمان الفقراء المعزى، فيجب ألا تأخذ حيطة أو ترفقه حجة عليه. إنه لم يخلق ليحرق. فلقد علم أنه هو أيضاً قد يكون مخطئاً، ولقد كان رسول الاعتدال كما كان رسول العقل، وكان فيه من النبيل الكثير ما منعه من أن يشعل النار في بيت جاره قبل أن يوفر له ملجأ آخر. لقد كان أعمق من فولتير، لأنه تعاطف مع ما هدم. وفي تقدير جييون أنه "في أيام التعصب تلك لم يكن سوى رجلين متحررين (بيديان بأفكار حرة سمحة) في فرنسا: هنري الرابع ومونتيني(119) ". أما سانت-بوف، فبعد أن نظر إلى مونتيني نظرة غير

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> ميشيل دي مونتيني

متعاطفة خلال عيني بسكال(120)، ختم حديثه بأن حكم، في نوبة نادرة من الحماسة، بأنه أحسن من عاش من الفرنسيين قاطبة(121).

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> خالدون يوماً واحداً

4-خالدون يوماً واحداً

بعد مونتيني اعتمد الأدب الفرنسي على مجذافيه جيلاً بأكمله. لقد أفلح تقريباً في النجاة من الحروب الدينية، فأخفى نفسه في نفسه حتى جاوزته الحروب. ولكن في غير مونتيني ابتلى الأدب في فرنسا بالحمى الحربية اللاهوتية، وبين مونتيني وكورني تخلفت فرنسا عن إنجلترا وإسبانيا في الأدب، تماماً كما تخلفت إنجلترا عن فرنسا بعد الحرب الأهلية. وعبرت سماء الأدب سلسلة من الشهب الغازية التي لم تخلف وراءها نجوماً ثابتة. وقد حاول ريشليو أن يغزو النبوغ بالرواتب، ولكنه عطله بالرقابة وأغراه بمديحه. فلما مات ألغى لويس الثالث عشر هذه الرواتب بجرة قلم، «لن يزعجنا هذا الأمر بعد اليوم»، وكان أكثر حفزاً للأدب تلك السهرات الأدبية في الأوتيل درامبوييه، وإنشاء ريشليو للأكاديمية الفرنسية.

بدأت الأكاديمية باجتماعات للأدباء المؤلفين في بيت خاص- هو بيت فالنتان كونرارا، وكان سكرتيراً للملك (1627)، وعرض ريشليو، وهو اليقظ للأدب يقظته للحرب، الغيور من أكاديميات إيطاليا وأدب إسبانيا، أن يؤسس الجماعة بوصفها هيئة عامة تعترف بها الدولة وعرض بعض الأعضاء الخطة باعتبارها رشوة للسنية، ولكن الشاعر شابلان (الذي كان يتمتع بمعاش من الكردينال) ذكرهم بأن «عليهم أن يتعاملوا مع رجل يمضي فيما يريد دون تردد(122)». وانتصرت حيلة شابلان، وقررت الجماعة بالاجماع أن «تستجيب لمسرة نيافته»، وانشئت (1635) باسم «الأكاديمية الفرنسية» وقد أعلنت قوانينها ما يأتي:
«يبدو أنه لم يبقى لاكتمال سعادة المملكة إلا أن تحذف هذه اللغة التي تتكلمها من قائمة اللغات الهمجية... حتى يتسنى لها، وهي اليوم أكمل

صفحة رقم : 10010

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> خالدون يوماً واحداً

من أي لغة حية، أن تخلف أخيراً اللاتينية كما خلفت اللاتينية اليونانية لو أتت لها من العناية أكثر مما تلقى إلى اليوم؛ وإن وظيفة أعضاء الأكاديمية ينبغي أن تكون تنقية اللغة من الشوائب التي شابتها سواء في أفواه الناس أو في حشود المحاكم... أو بفعل عادات رجال الحاشية الجهلة»(123).

وعهد إلى أحد الأعضاء الثلاثين الأول، ويدعى كلود فوجلا، بتصنيف قاموس، وكان لابد أن ينقضي ستة وخمسون عاماً قبل أن ينشر لأول مرة (1694). ورفعت الأكاديمية أثناء ذلك مكانة الأدباء بشكل ملحوظ، فأصبح انتماء إنسان إلى «الخالدين» الأربعة (عدددهم عام 1637) شرفاً يضارع شرف المناصب الحكومية العليا؛ ولم تكرم أمة الأدب كما كرمته فرنسا. صحيح أن الأكاديمية، وأكثر أعضائها شيوخ، كثيراً ما كانت كابحاً محافظاً يعطل التطورات الأدبية أو النمو الدنيوي. وكانت بين الحين والحين توصل أبوابها في وجه العبقريّة (موليير وروسو)؛ ولكنها رفعت رأسها فوق الأحزاب، وعلمت أعضائها أن يتسامحوا بأدب مع مختلف الأفكار؛ وقد كافأتها فرنسا باستقرار ثبت لصدمات التغيير في الوقت الذي تهاوي فيه الكثير.

بعد أن جمع ريشليو الشعراء والأدباء وسيج من حولهم، نظر بعينه البيقطة إلى الصحفيين. ففي مايو 1631 بدأ تيوفرست رينودو، بمعونة من الكردينال، نشر أول صحيفة فرنسية سميت فيما بعد «غازيتة فرنسا». وكانت تظهر

أسبوعياً في هيئة فرخ يطوي ثماني صفحات، وتنتشر من الأبناء الرسمية ما يسمح به ريشليو أو يمدّها به، وأضافت بعض صفحات من «الأخبار العادية». وكان لويس الثالث عشر من كتابها المؤلفين. ورد فيها على ناقد الحكومة ودافع عن نفيه أمه، وكان أحياناً يأخذ الفقرات التي يكتبها بشخصه ليشرّف على صفّ حروفها، ولا عجب فالمرء - حتى إذا كان ملكاً- يستهويه أن يجد كلامه مطبوعاً. وكانت الصحافة الفرنسية منذ بدايتها أداة دعائية- وفي هذه الحالة وسيلة لشرح سياسات

صفحة رقم : 10011

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> خالدون يوماً واحداً

الدولة للقلّة القارئة. وسرعان ما فقد الناس ثقّتهم في الغازيئة وفضلوا أن يشتروا الورقات البديئة التي يبيّعها في الطرق أجراء أعداء الكردينال. أما أروج نتاج العصر الأدبي فقصة رومانسية. كانت روايات الفروسية آخذة في الزوال، لا لمجرد تهكم سرفانتس وغيره من الكتاب عليها، بل لأن الاقطاع الذي خضع الآن للملكية، كان يفقد المزيد من امتيازاته ومكانته. وحل محلّ قصص الفروسية أيام ازدهارها روايات رومانسية أليمة عن الرغبة المعوقة. وهكذا قرأ كل من ألم بالقراءة وملك الفراغ في عهد لويس الثالث عشر رواية «آستريه» (1610-19) التي ألفها أونوريه دورفيه. أما عبقرية المؤلف فانبعثت من جرح أصاب حبه. ذلك ان زوجته، التي سميت ديانا بحق، أثرت عشرة الصيد على عشرة الزواج، فكانت تؤكل كلابها على مائدتها وتشاركها فراشها. وكانت تجهض كل سنة (124). وأعتكف أونوريه في ضيعته وأخفى سيرته الحزينة وراء رواية رومانسية رعوية. وقد وجد دواء الكلام هذا ناجعاً، فزاد روايته إلى 5.500 صفحة في خمسة مجلدات صدرت على فترات من 1610 إلى 1627. وفي قصة غرام الراعي كيلادون بالراعية آستريه نسمع صدى لا نهاية له لقصة مونتماريو «ديانا العاشقة» وقصتي سانازارو وسدني «أركاديا»، ولكن الصدى كان هنا شجياً، وكان للرعاة والراعيات كل جمال البلاط الفرنسي وزينته، وحققت اللغة كل مطالب ندوة الأوتيل درامبويه، ونافست تجارب العشق المتنوعة تجارب هنري الرابع، وأبهجت عبادة المرأة ربّات الصالون اللاني جعلن الكتاب دستور سلوك الحب الأفلاطوني. هنا ذلك الينبوع الفوار الذي جرت منه الرومانسيات العاطفية التي كتبتها الأنسة سكودري، والأبيه بريفوست (انطوان بريفوست دجسيل)، وصموئيل رنشاردسون، وجان جاك روسو-الذي صرح بأنه كان يقرأ الكتاب مرة كل عام طوال أكثر حياته. وظل سادة القصور الفرنسية

صفحة رقم : 10012

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> خالدون يوماً واحداً

و الألمانية والبولندية وسيداتها، قرابة قرن من الزمان، يتخذون أسماء «لاستريه» ويلعبون أدوارها، وكرس نصف النثر المكتوب في فرنسا نفسه للرومانس.

أما النصف الآخر فاشتمل على بعض النثر الجدير بالذكر. فكانت «رسائل» جان لوي جي دبالزاك (1614 وما بعدها) في حقيقتها مقالات، قصد بها أن تعجب «المتحذلقات»، وشاركت فوجيلاً وماليرب في تنقية اللغة، وساعدت على إعطاء النثر الفرنسي شكل العصر الكلاسيكي ومنطقه... أما بيير دبوردي دبرانتوم، الذي عاش حياة مرحلة في الجيش والبلاط، فقد ترك عند موته (1614) حزمة من المذكرات تفصل في ذوق غراميات النساء الفرنسيات، وفضائل كاترين مديتشي، وجمال ماري ستوروات، وظرف مارجریت فالوا، ومن المؤسف أن أروع قصصه لا يمكن التحقق من صحة نسبتها إليه. وكان يرى «أنه لا يحسن بالمرء أن يشيخ وهو في ذات الحجر، وما من إنسان شجاع فعل هذا قط، وعلى المرء أن يغامر بجرأة في جميع النواحي، في الحب كما في الحرب». وفي لحظة أكثر حكمة اعترف بأن «أعظم ما ينعم الله به علينا في زواجنا هو الذرية الصالحة لا التسري...» وأما جاك أوجست دتو، القاضي ومستشار الدولة أيام صديقه هنري الرابع فقد ساعد في صياغة مرسوم نانت والمفاوضة على إصداره، وكرس نصف حياته لكتابة «تاريخ عصره» (1604-8)، وهو كتاب يتميز بعمق الدرس، وبالحياد والشجاعة في دمع مذبحه القديس برتلميو لأنها «تفجر للجنون لا نظير له في تاريخ أي أمة...» وألف الدوق صلي، في شيخوخته وبمساعدة سكرتيره، كتابه المشهور «مذكرات عن الاقتصاديات الداخلية والسياسية والحربية، الحكيمه، الملكية، لهنري الأكبر، الذي أهده» إلى فرنسا»، وإلى جميع الجنود الطيبين، وإلى جميع الشعب الفرنسي». وفي آخر سني لويس الثالث عشر بدأت جماعة من اليسوعيين الفلمنكيين يتزعمهم جان دبولان نشر كتاب «اكتا سانكتورم»

صفحة رقم : 10013

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> خالدون يوماً واحداً

(أعمال القديسين) الذي أورد في نقد حذر سير القديسين حسب الترتيب الذي تخلهم به الكنيسة الكاثوليكية. وتابعت الجماعة هذا الجهد في حماسة على الرغم مما اعترى جمعية اليسوعيين من غير، حتى بلغت مجلدات الكتاب خمسة وستين عام 1910. وأحتج عليه بعض مروجي الأساطير، ولكن الكتاب مفخرة لعلم أعظم الطوائف الدينية تفقها. وأخيراً يجب أن ندرج في هذه القائمة للمرة الثانية ذلك الرجل المدهش كلي الوجود، ريشيلو، الذي غمس قلمه في كل ينبوع أدبي وترك لنا «مذكراته» - وفيها شيء من التحيز للكردينال، ولكن مكانها رفيع في ذلك الرتل الرائع من المذكرات الفرنسية التي لا يضرب لها في أي لغة أخرى.

ولم يكثر صغار الشعراء مثل هذه الكثرة من قبل. فما زال الفرنسيون الأوفياء يقرعون، ولو في المدارس، تيوفيل دفيو، وفنسان فواتور، و أونورا دبوليل، مركزيز راكان. وقد جعلت غراميات تيوفيل الإباحية وشكوكه الفاضحة منه «فيون» عصره، وقد حكم عليه بالحرق ثم خفف الحكم إلى النفي. أما ذكاء فواتور المرح فقد جعله أكبر ظرفاء الأوتيل درامبويه (وقد أوشكنا أن نقول أكبر ساخريه). وحين وعظ بوسويه وهو بعد في الثانية عشرة من عمره ذلك الصالون في منتصف الليل، قال فواتور أنه لم يسمع في حياته عظة تلقى مبكرة متأخرة كهذه.

وشرف هذه العهود الملكية شاعران كبيران. أما فرانسوا ماليرب فقد شرح المبدأ القائل بأن واجب كل عصر أن يرفض الماضي ويعكسه لكي يستمتع بنفسه. وكان رونزار العظيم لا يزال يغني في شباب ماليرب، وكان هو وجماعة البلايارد قد هذبوا الشعر الفرنسي بتوجيهه صوب المثل والموضوعات الكلاسيكية، ولكن خلفاءهما كانوا الآن يهددون فرنسا وخليقاتهم بسونيات حافلة بالألفاظ الأثرية، والعبارات الخيالية، والشحطات الإيطالية، والنقديتات والتأخيرات السقيمة، والتلميحات الغامضة، والأساطير العويصة. واستقر رأي ماليرب على أن الشعر الفرنسي قد أتخم بهذا كله.

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> خالدون يوماً واحداً

وقد درس هذا الشاعر، الذي ولد في كان (1555)، في بازل وهايدلبرج، وأنفق سنوات في الأسفار، وكان قد بلغ الخمسين حين وصل إلى البلاط الفرنسي. وقد شق طريقه إليه برغم وقاحاته وكفرياته، وأصبح الشاعر الأثير لدى هنري الأكبر، ولكن هذا على أي حال اعطاه «من التحيات أكثر مما أعطاه من المال (125)». وعاش يبيع شعره لمن يدفع أعلى الأثمان، وروح لبضاعته بالإطاحة بمن سبقوه. فقد أعلن الحرب - كما أعلنتها متحذقات صالون رامبوييه - على الألفاظ التي تشتم منها الحلافة الريفية أو عمليات البدن الأقل شاعرية، فحرم التقديرات والتأخيرات، والألفاظ الغامضة، والتعبيرات العامية، والكلمات الريفية والغسقونية (شق على هذا الملك) والحشو، وتنافر النغمات، واللحن، والدخيل واللاتيني والفني من الألفاظ، والجواز الشعري، والقوافي الناقصة. وقال إنه يجب أن يكون منذ الآن جلال في الأفكار، وبساطة ووضوح في التعبير، وتوافق في الإيقاع، واتساق في الاستعارات، وترتيب في العرض، ومنطق في العبارة، والكتابة الجيدة يجب تنشر عبيرها وأن ترتاح لها الأذن، والتقاء الحرفين الصوتيين جريمة سمعية، ومرض تنفسي. وكان ماليرب يجرب أشعاره على أذان خادمه (126).

فلنستشق عبيير إحدى قصائده - وهي «تعزية»، وجهها لصديق فجع بموت ابنته:
«ولكنها كانت ربيبة هذه الدنيا، حيث تنتهي أجمل الأشياء أتعس نهاية. وردة عاشت كما تعيش الورود، إشراقة صبح ... إن للموت أحكاماً لا شبيهه لها، وعبئاً نتوسل إليه، فهذا القاسي يصم أذنيه ويتركنا نصرخ. يخضع لنا موسنا الفقير في كوخه الحقيق، ولا يقف الحارس الساهر على أبواب اللوفر سداً بينه وبين ملوكنا (127)».
على أن تطبيق ماليرب كان أقل فاعلية من مبادئه؛ وعانت أشعاره برودة الصقيع من قواعده ولم يرجى دبالزك في شعر ماليرب إنثرا

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> خالدون يوماً واحداً

جيداً، وكان يحاول في ذلك الوقت إصلاح النثر. ولكن الأوتيل دارمبوييه احتضنه، واعتقدت الأكاديمية مبادئه. وورثها بوالو أساساً للأسلوب الكلاسيكي، وقد أصبحت مدى قرنين قميصاً مقدساً صارماً من شعر وزرد يلبسه شعراء فرنسا الغنائيون. وانتفخ ماليرب في شيخوخته حتى أصبح إماماً حقيقياً للشعر، وحجة يستفتى في مسائل اللغة والأسلوب؛ وحياه بعض المعجبين بوصفه «أبلغ إنسان في جميع العصور». وقد وافق على أن «ما يكتبه ماليرب سيخلد إلى الأبد (128)». وحين كان على فراش الموت (1628) أيقظ نفسه من غيبوبته الأخيرة ليوبخ ممرضته على استعمالها فرنسية غير سليمة (129).

أما ماتوران رينبييه فقد رأى فيه شاعراً مملأً، وتجاهل قواعده، وأطلق الشعر كما أطلقه فيون بخارا مندفعاً من حر المواخير. هذا الرجل الذي نذر للقسوسية ضيع نفسه في فينوسبرج حتى شاخ، وشاب قرناه وهو بعد في شرخ شبابه. ففي الحادية والثلاثين عجزه النقرس والزهرى. وكان لا يزال يجد «كل امرأة تروقتني»، ولكنهن كن أكثر منه تأثقاً في الاختيار. وقد كتب بعضاً من أقوى الشعر في اللغة، فيه حديث مستهتر عن الجنس، وهجو وحشي، ومباراة مع هوراس في الشكل ومع دوفينال في المرارة، وحركة تزخر بالأشخاص أو الأماكن بما يحس أو يرى. وقد هزأ بصفتية «المتحذلقات» اللغوية وصرامة ماليرب الكلاسيكية، وبدا له أن الحرارة المشبوبة من شعلة باطنة أهم للشعر من التمسك بأصول النحو والبلاغة والعروض. هنا في فجر العصر الكلاسيكي نشطت الرومانسية. حتى العلم والفلسفة نالا منه ما يستحقان من قصاص وتوبيخ على تيجحاتهما:

«أيها الفلاسفة الحالمون، تكلموا في استعلاء، وحلقوا في النجوم وأنتم لا تتحركون من الأرض، واجعلوا السماوات كلها ترقص على لحنكم، وزنوا أحاديثكم في ميزانها ... واحملوا مصباحاً في زوايا الطبيعة ... واعرفوا من يعطي الزهور هذا اللون البديع ... وحلوا ألغاز الأرض

صفحة رقم : 10016

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> خالدون يوماً واحداً

والسما، إن عقلكم يخذعكم كما تخدعكم عيونكم(130)». وفي عام 1609 أصبح شاعر البلاط لهنري الرابع. وبعد أربع سنوات مات وقد أضناه فسقه المشجي، بعد أن كتب قبريته. «لقد عشت دون ما تفكير، تاركاً نفسي أسير في رفق ووفق قانون الطبيعة الطيب، ولا أدري لم يفكر الموت في، وأنا الذي لم أتنازل إلى التفكير فيه(131)».

صفحة رقم : 10017

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> بيير كورني

5- بيير كورنيبي

1606 - 1684

كان بيير كورنبي نجم الادب في سماء ريشيلو، ففي صحبته أصبحت التمثيلية الفرنسية أدباً، وأصبح الأدب الفرنسي قرناً من الزمان تمثيلية في أكثره. وقد مهدت له الطريق تجارب كثيرة. ففي عام 1552 أخرج إتيين جوديل أول مأساة فرنسية. وتلتها تمثيلات مشابهة تقلد سنيكا، وتقوم كلها على طريقته في قصص العنف، والدراسات النفسية، وتدفقات البلاغة، وقد جردت من الجورس الكلاسيكي ولكنها حشرت في وحدات أرسطو المزعومة، وحدة الحركة المعروضة على أنها تحدث في مكان واحد وزمان يوم واحد. ولكن أرسطو (كما رأينا في غضون نقاشنا للتمثيلية الأليزابيثية) كان قد اشترط وحدة الحركة أو الحبكة، ولم يطلب وحدة المكان، ولم يصر على وحدة الزمان. غير إن كتاب العالم جوليوس سيزار سكاليجر Poetices librispetem «الكتب الشعرية السبعة» (1561) طالب جميع الكتاب المسرحيين باتباع القوالب اليونانية واللاتينية، وكرر جان شابلان هذا الطلب عام 1630. هذه الحجج التي تهاوت في إنجلترا أما عبقريه رجل علمه باللاتينية قليل وباليونانية أقل، انتصرت انتصاراً كاملاً في فرنسا وريثة اللغة والثقافة اللاتينيتين، وبعد عام 1640 سيطر القالب السنيكي ذو الوحدات الثلاث على مسرح المأساة الفرنسية خلال كورنبي وراسين، وخلال فولتير والقرن الثامن عشر، وخلال الثورة،

صفحة رقم : 10018

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> بيير كورني

والإمبراطورية، وعودة الملكية، إلى أن كسبت الدراما الرومانتيكية في مسرحية هيجو «ايراناني» (1839) نصرها التاريخي المتأخر. لم يكن للمسرحية الفرنسية وطن ثابت في القرن السادس عشر، فكان عليها أن تربي نفسها في الكليات وتطوف من بلاط إلى بلاط، ومن صالة إلى صالة. وفي عام 1598 أنشئ أول مسرح فرنسي دائم في الأوتيل دبورجون بشارع مونوكسي. وفي عام 1600 افتتح «التياتر دي ماريه» في ما هو اليوم شارع «التاميل» القديم. وفي المسرحين كان الشكل قاعة طويلة في الوسط، حيث كانت الطبقات الأقل يسراً تقف، وتأكّل، وتشرب، وتقامر، وتتناسج، وتتشاهد التمثيل وتحرس جيوبها، بينما صف على الجدران صفان من الألواح يجلس فيها السادة الميسورون. وقبل عهد ريشيلو لم يكن يحضر المسرحيات من النساء غير من لا يملكن شيئاً يخشين على فقده. أما المسرح الذي كان مرفوعاً عند أحد طرفي المستطيل فقد بعد عن نصف المشاهدين بعداً جعل تمثيل الفكر أو الشعور بتعبيرات الوجه أمراً عديم الجدوى تقريباً للممثلين، لذلك شجعوا الخطابة التي تستطيع الوصول إلى أبعاد الأذان. وكانت الحفلات تقام بعد الظهر، من الخامسة إلى السابعة عادة، واشترط القانون أن تنتهي قبل حلول الظلام، لأن المسرحيين كانوا يقفان في أحياء خطيرة من المدينة. أما الممثلون فكانوا قبل موليير يستقدمون عادة من إيطاليا وأسبانيا. وكان النساء يؤدين أدوار المرأة. وفرضت الحاجة إلى تدخل الاتكاء الجريء على الجنس في التمثيلات الفكاهية. وحاولت الكنيسة والبرلمان عبثاً تنقية المسرح الفكاهي أو حظره. ونهض بالمستوى الخلفي للدراما الفرنسية ببسط حمايته وإشرافه على بعض كتابها، وبحضور الحفلات التمثيلية بشخصه، وبالتعاون مع روترو، وسكارون، وغيرهما في تأليف التمثيلات. وهكذا، وتحت بصره الشامل، مهد أسلاف كورنبي - وهم جارنييه وأردو و روترو - الطريق للنجاح الحقيقي الذي حققته مسرحية «السيد».

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> بيير كورني

لقي كورني ما يلقاه كل مكافح في طريقه إلى التفوق من تقلبات. ولد في روان (1606)؛ ووقته نشأته في عاصمة إقليمية بمنأى عن حوافر باريس وفرصها الأدبية، ولكن أباه كان قاضياً نابهاً استطاع أن يوفر لبيير أفضل ما أتى من تعليم في كلية اليسوعيين المحلية. وقد استخدم هؤلاء المربون الغيورون المسرحية أداة للتعليم. وعلّموا الطلاب أن يمثلوا باللاتينية مسرحيات كلاسيكية وغيرها، وقد أثر هذا التقليد اليسوعي في المسرحية الفرنسية موضوعاً وتقنيةً وأسلوباً. وبالطبع لم يقصد أحد ببيير أن يكون كاتباً مسرحياً، فقد نشئ في القانون ومارسه فترة، ولعل فن الفصاحة القانونية واعتباده عليها شاركا في صوغ البيان الذي يجعل في مأسيه.

وحين ناهز الحادية والعشرين وقع في غرام المرأة والشعر في وقت معاً تقريباً، ولكن السيدة صدته، فوجد ملاذه في القوافي. وقد خلف الجرح فيه اكتئاباً وإحجاماً دائمين، فمثل بالمداد المسرحيات التي حرمت على دمه. وانقضت إحدى عشرة سنة قبل أن يجد له زوجة (1640) - ولم يجدها إلا بمساعدة من ريشيلو، ولكنه خلال ذلك تصور العدد الكبير من ماسي أو مهازل فيها تودد المحبين أو شهامة الأبطال. وفي عام 1629 حمل إلى باريس أولى تمثيلياته «مليت»، فمثلت في الأوتيل دبورجون، وكانت رباعية سخيصة من الحب والدسياسة ولكن حوارها المفعم بالحياة أعانها على النجاح، واصطلى كورني في دفء الشهرة. وكلفه ريشيلو هو وأربعة غيره بكتابة تمثيلات في موضوعات وبطرق اقترحها الكردينال. غير أن كورني أدخل على هذه الخطة الموضوعات له تعديلات في استقلال كثير. وعبس «صاحب النياقة الأحمر»، فانسحب كورني غاضباً إلى روان، ولكنه ظل يتسلم من ريشيلو معاشاً قدره خمسمائة كراون في العام.

وحركه وجرح كبراه نجاح مأساة «سوفونيسب» التي كتبها ميريه فهجر التمثيلية الفكاهية، ودرس سنیکا، وحمل إلى باريس عام 1635

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> بيير كورني

تمثيلية «ميديه». هنا ظهرت صفاته الجوهرية لأول مرة وهي قوة الفكر وسمو الحديث. وراح منذ الآن، مع بعض الاستثناءات، يملأ مسرحه برجال ونساء رفيعي المقام، ويضفي عليهم العواطف الرفيعة التي يعرب عنها في لغة جزلة وحجة قوية. وحين استمع وولر، الشاعر الإنجليزي المعاصر، إلى «ميديه» نادى به إماماً جديداً، «فغيره ينظم الشعر، ولكن كورني هو الوحيد الذي يستطيع أن يفكر (132)». وأسمى ضروب الفن ما اشترّب بالفلسفة. ومن مسرحية الرومان واليونان الملحمية، ومن معلميه اليسوعيين، ومن تأملاته الحزينة الموحشة- هذه الأبيات الجليلة، السداسية النقايل، تزحف الجيش في أحلامه- بلغ كورني مستوى من الفكر والأسلوب لم يعهد قط في التمثيلات الفرنسية من قبل وندر أن عرف بعده.

يضاف إلى هذا أدب درامي آخر اجتذبه وشكله. إنه لم يستطع أن يستقي من المسرح الأليزابيثي غير القليل، لأن هذا المسرح أغفل القواعد الكلاسيكية إغفالاً لا يناسب قالباً كلاسيكياً. ولكن أسبانيا كانت في هذا العصر مجنونة بالمسرح، تغدق التكريم على لوبي دي فيجا وتيرسو دي مولينا كالدورون دي لباركا كأنهم الورثة الأكفاء الوحيدون لسوفوكليس وبوريديس، وتيرينس وسينكا. وفي المسرحية الأسبانية وجد كوريني موضوعاً درامياً بطبيعته قانون الشرف أو العرض، الذي فرض الموت جزاء لكل إهانة أو إغواء. فتعلم الأسبانية، وقرأ «مغامرات السيد» بجيين دي كاسترو (1599؟)، واستعار الحكمة دون اعتذار أكثر من اعتذارات شكسبير، وكتب أشهر تمثيلية في الأدب الفرنسي.

صفحة رقم : 10021

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> بيبير كورني

ومتثل السيد عام 1636. وشعر النظارة أنه لم يظهر على خشبة المسرح الغالي بعد شيء بهذه القوة. قال معاصر «جميل جداً أنها ألهمت بالحب حتى أكثر السيدات بروداً، فتجرت عاطفتهم أحياناً في المسرح العام. وشوهد في الألواح ناس قل أن بارحوا قاعاتهم المذهبة ومقاعدهم المكسوة بالزنيق شعار الملكية (133)». ولم يعرف الكثيرون أن فكرة المسرحية مستعارة مع أن كوريني اعترف بهذا صراحة، وتعجب الجميع من لطافتها المتشابكة. فشميين الفتاة العريقة المولد، ورودريج النبيل، عاشقان متيمان. ولكن أبا شميين. وهو الدون جوميز، يتشاجر مع والد رودريج ويسبه وهو شيخ عليل؛ ويتحدى رودريج جوميز للمبارزة ويقتله. وتشعر شميين، وهي مقيمة على حب رودريج، بأن داعى الشرف يدعوها لرجاء الملك فرديناند أن يقطع رأسه أو ينفيه، وهذا الصراع الذي يعتمل فيها بين «واجب الشرف» ودعاء الحب يفضي على القصة عواطفها المتشابكة قوة وحدة فائقتين. أما رودريج فيقدم سيفه لشميين ويدعوها لقتله، ولكنها لا تستطيع الانتهاء إلى قرار. فينطلق إلى محاربة المسلمين، ويعود إلى إشبيلية وفي موكبه الملوك والأسرى وهالات المجد، وتتغنى باسمه إشبيلية كلها، ولكن شميين لا تزال تطالب بموته. وحين يرفض فرديناند، تعد بأن تنزوج أي رجل يتحدى حبيبها ويقتله. ويضطلع سانشو بالمهمة. ويقترح رودريج أن يدع سانشو يقتله. ولكن شميين تندم على انتقامها، وتتوسل إليه أن يدافع عن نفسه. فيهزم سانشو، ولكنه يبقى عليه، وأخيراً يتم استرضاء قانون الشرف، وتقبل شميين حبيبها، وينتهي كل شيء نهاية سعيدة. واحتفلت باريس طوال نصف موسم بجمال شميين وناقشت سلامة عقلها. وسمعت نغمات سياسية صاحبت النقاش. ذلك أن ريشليو حرم المبارزات، ولكنها تبدو في التمثيلية جزءاً من القانون الأعلى. أما النبلاء الكارهون لريشليو فقد تهللوا لتمثيل أرستقراطية ما زالت تتولى العقاب

صفحة رقم : 10022

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> بيبير كورني

بنفسها. كذلك لم يسر الكردينال كثيراً لنجاح رجل توقف عن تلقي توجيهاته الدينية، فطلب إلى أكاديميته الوليدة أن تصدر نقداً منصفاً للتمثيلية، ولم يكذب يخفي أمله في أن يكون الحكم ضدها. وأطالت الأكاديمية مناقشاتها حتى تهدأ الأعصاب؛ وأخيراً وبعد خمسة شهور، نشرت رأيها، وكان حكمها في جملته معتدلاً منصفاً. فقد اعترضت على الإشادة الواضحة بالحب الرومانسي، ورأت أن حل عقدة التمثيلية لا يحتمل التصديق، ووجدت في كلمات شيمين الخيرة لرودريجو وهو ماض إلى قتال سانشو بعض الجلافة والغرور السخيف «عد ظافراً من قتال جائزته شيمين» على أن هذا النقد لطفه الفقرة الختامية في حكم الأكاديمية تلطيفاً جميلاً:

«يجب أن يغتفر الناس، حتى العلماء منهم، بعض الاغتفار شوائب عمل ما كان يحظى بابتهاج المجتمع إلا هذا الحد لولا ما فيه من مواطن جمال غير عادية... وأن طبيعة عواطفه وعنفها، وقوة الكثير من أفكاره ورقتها، والسحر الفائق الوصف الذي يمتزج بكل عيوبه كل أولئك قد كسب له مكاناً عالياً بين القصاصد الفرنسية التي من هذا النوع (134). ولم تتخذ الأكاديمية صفة القاضي الأدبي بعد ذلك إطلاقاً. أما كوريني فقد لطف من الموقف بأهدائه تمثيلية «السيد» عند نشرها إلى ابنة أخت الكردينال المحبوبة، ورائعته التالية «أوراس» (1640) للكردينال نفسه، وكان ليفي قد روى هذه الأسطورة في «تاريخه». ففي اليوم ذاته ولدت أختان توأم، في مدينتين مختلفين، كل منهما ثلاثة توأم ذكور- أبو الأولين هورانيوس في روما، وأبو الآخرين كورياتوس في ألبا لونجا. وبعد جيل ارتبطت الأسرتان برباط أوثق، وذلك بزواج سلبينا ابنة كورياتوس، بأوراس وهو ابن هورانيوس، وبحب كاميللا ابنة هورانيوس لأحد توأم كورياتوس. ولكن المدينتين تنزلقان إلى الحرب، ويلتقي جيشاهما وجهاً لوجه. أما سابيننا وكاميللا فترتعدان في المعسكر الروماني، وتحدد سابيننا الموضوع النسائي الذي تردده التمثيلية.

صفحة رقم : 10023

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> بيبير كورني

«أنني وإسفاه رومانية ما دام أوراس رومانياً، فقد اتخذت لقبه حين قبلت يده، ولكن هذا الرباط سيسترقني لو حجب عن ناظري مسقط رأسي-ألبا، حين بدأت أنتفس الحياة، ألبا، وطني العزيز وحيي الأول، أنني حين أرى الحرب تنتشب بيننا وبينك أخاف النصر خوفاً من الهزيمة. فإذا شكوت يا روما من أن هذا خيانة لك، فاصنعي لنفسك أعداء أستطيع أن أكرههم. فاني لي وأنا أشهد من أسوارك جيشهم وجيشنا، وأرى أشقائي الثلاثة في جيش وزوجي في الآخر، أن أصوغ صلواتي وألح على السماء في أن تسعدك دون أن يكون في هذا خروج على الولاء (136)».

وهكذا لا يعرض كوريني موضوعاً هو مجرد معركة سلاح ورجال، إنما هو صراع الولاءات المشبوبة، ومأساة الحق يصارع الحق، فإذا تلقى قلمه هذا الإلهام. انطلقت منه عبارات محكمة القوة؛ وأبيات تسير بخطى عسكرية وأنغام مجلجلة.

أما قائد ألبا فيذكر الرومان بأنهم هو وأهل ألبا أبناء دم واحد ووطن واحد (أكان في ذهن كوريني الكاثوليك والهيونوت؟)، وأن من الاجرام تقطيع أوصال إيطاليا (فرنسا؟) بالحرب الأهلية، ويقترح إنهاء الحرب بنزال ثلاثة من أهل ألبا مع ثلاثة من أهل روما. ويقبل الاقتراح، وتتاح للنساء ساعة من السعادة المرتجفة. ولكن قائد ألبا يختار توأم كورياتوس الثلاثة، ويختار القائد الروماني توأم هورانيوس. وتبكي النساء، ويرق الأبطال لحظة لدموعهن؛ لكن هورانيوس الأب يوبخهم وهو يعلن الفكرة الرجولية، لأنهم يضيعون الوقت مع النساء بينما يدعوهم داعي الشرف:

"أدوا واحبكم، واتركوا الباقي للإلهة (137)".

ولكن الآلهة تخطيء. فيقتل توائم كورياتوس، ولا يبقى على قيد الحياة من توائم هوراتيوس سوى أوراس. وتعنفه شقيقته كاميلاً لقتله

صفحة رقم : 10024

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> بيبير كورني

خطيبها، وتتدد بروما وبناموس شرفها وحريها. فيقتلها وهو بعد سكران بنشوة المعركة لأنها ليست جديرة بأن تكون رومانية. وتوبخه زوجته سابينا على فسوته، وتبكي أشقاءها القتلى، وتدعو أوراس ليقتلها هي أيضاً. أما هو فيحاول اقناعها بأن الوطنية أسمى من الحب.

وفكرة التمثيلية بالطبع لا تصدق، ولكنها في هذا لا تزيد عما في شيكسبير. إن الدرامي بحكم تعريفه شاذ؛ والمسرحية مقضى عليها، هي وصفت الواقع في غير تحيز. وهي ترتفع إلى مقام الفن إذا استطاعت بتجاهلها ما ليس متصلاً بموضوعها واختيارها للمهم أن تزيدنا عمقاً بفهم أكمل للحياة. لقد ورث كوريني تمجيد النهضة لروما القديمة، وأيد المفهوم الصارم للواجب أمام انحلالات الحب التي سيطرت على المسرح الفرنسي قبله، فصمم ألا يكون أبطاله عشاقاً أولاً، بل وطنيين أو قديسين.

وقد اختار من التقويم الكاثوليكي قديساً يسيطر على تمثيلية أقوى حتى من هذه. يقول سانت-جوف: «كل الناس يعرفون «بوليوكت»، ويعرفونها عن ظهر قلب (138)». والبناء في هذه التمثيلية كلاسيكي على نحو صارم، إذ يتقبل الوحدات كلها، ولكنه يبني داخلها مأساة معقدة ذات قوة مركزية. ولا يصلنا اليوم سوى فصاحة التمثيلية في مكاتبنا، ولكن يجب أن نسمعها منطلقاً من افواه الممثلين الفرنسيين يتحركون في جلال على خشبة المسرح، أو تحت النجوم في فناء الانفاليد أو اللوفر، وحتى مع توافر هذه الشروط يجب أن نملك ناصية الفرنسية وتكون لنا أرواح فرنسية. ويجب أن نكسو أنفسنا من جديد بإيماننا الشاب. أما الحكمة فتدور حول تصميم بوليوكت، الروماني المثقف، المعترف بنفسه، حديث العهد باعتراف المسيحية، على تحطيم مذبح الآلهة الوثنية. أما زمن التمثيلية فهو الاضطهاد الديني (249-51م)، وأما مكانها فمليتين، وهي مخفر أمامي روماني في أرمينيا، ومشهد الدراما كلها قصر فيلكس الوالي الروماني. وقد دعي المسيحيون جميعاً، منذرين بالموت عقاباً للمخالفين،

صفحة رقم : 10025

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> بيبير كورني

أن يشتركوا في صلاة تنتظم الإمبراطورية بأسرها وقربان للآلهة القديمة طلباً لتأييدها للجيش الروماني ضد الهج المغيرين المحذقين بها. ويشتعل بوليوكت بغيرة المؤمن المهتدي، فيبغى بعمل مثير أن يشجع المسيحيين على مقاومة الأمر الإمبراطوري. ويعوقه عن هذا حبه لزوجته بولينى، ابنة الوالي، ولكنه يضحي بالحب في سبيل الواجب كما

يفعل أبطال موريني الصادقون. وفي حضرة فيلكس ذاته يقطع وهو صديق له الطقوس الوثنية، ثم يناشدان العابدين أن ينصرفوا عن جوبيتر الفاجر إلى إله المسيحيين، «الملك الواحد القهار للأرض والسماء»، ولكي يفصحا «المسوخ العاجزة» التي يتألف منها مجمع الآلهة الروماني يرتقيان المذبح ويحطمان أنية الشعائر وتمثال جوبيتر، ويأمر فيلكس بالقبض على منتهكي هذه المقدسات. وتتوسل بولين إلى بوليوكت أن يتوب عن تدنيسه المعبد، ولكنه يدعوها بدلاً من ذلك إلى اعتناق دينه الجديد. وتتأشد بولين أباهما أن يعفو عنه فيأبى، وتجهر هي باعتناقها المسيحية وتستعد لمرافقة زوجها إلى الموت. ويتأثر فيلكس تأثراً يحمله على اعتزال منصبه واعتناق المسيحية. ثم ينتهي الاضطهاد فجأة، ويرد فيلكس إلى منصبه، ولكن بوليوكت قاسى أثناء ذلك عذاب الاستشهاد.

وكل ما في التمثيلية تحلية للتاريخ من قلم كوريني، فيما عدا الاستشهاد وتدنيس المذبح، كذلك هو خالق وقاحة القديس المتعالية وعنف الفعل، وحين قرأ المؤلف التمثيلية في الأوتيل درامبويه، أدان عدد من السامعين، ومنهم أحد الأساقفة، بوليوكت لخشونته وتطرفه في غير ضرورة. وفكر كوريني حيناً في وقف التمثيلية، ولكن نجاحها على المسرح رفعه إلى أوج حياته الأدبية (1643). وبقي له في أجله أنذاك واحد وأربعون عاماً سنرى أنه أنفقها في منافسة مع راسين، ولكنه لم يؤت العلم بأنه قد كتب أعظم أعماله في هذه المسرحيات الثلاث بل يرى البعض أنها أفضل المسرحيات في تاريخ المسرح الفرنسي كله. وهي تختلف عن الدراما

صفحة رقم : 10026

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> بيبير كورني

«الرومانسية»، التي شاعت في إنجلترا الأليزابيثية أو فرنسة القرن التاسع عشر اختلافاً يقتضينا إعانة التاريخ بالخيال لتعليل سلطانها على زمانها وعلى مسرح اليوم. إن في كوريني روحاً رومانسية أيضاً بقدر ما في شكسبير، وعواطف مدروسة وأكثر من عناية ديكرت ورفاقته، ولكن أتباع مثل العصر الكلاسيكية اقتضى إخضاع العواطف على ما فيها من تعبير قوي-«للعقل»-أو للحجة. والإسراف في الحجج هو ثقل الموازنة لهذه التمثيلات. بحيث قل أن تحلق التحليلات التي تكثر جداً في راسبين. أما الحركة فتبعد عن خشبة المسرح، فليس عليها سوى السرد، والحض، والفصاحة، وكل شخوص كوريني محاجون بارعون. أما الفرنسيون فتتلاشى في نظرهم هذه العيوب في بهاء الأسلوب وجلال الموضوعات. فإذا عن لنا في أي عمل فني أن نلتمس السمو، أو نبحت عن فكرة أو شعور يرفعنا فوق ذواتنا وزماننا. وجدنا هذا مردداً في كوريني. لقد كتب وكأنه يكتب للساسنة والفلاسفة. ونظم أبياته وكأنه يلحن موسيقى، وتحت عبارات ما زالت ملازمة لذاكرة فرنسا. وامتزجت الآن الروح الكلاسيكية والأرستقراطية-روح العقل يكبح العاطفة، والشكل يسيطر على المضمون-بضبط النفس الرواقي، وبالشرف الأسباني، وبالذكاء الفرنسي، ليخرج من هذا كله مسرح بعيد عن المسرح الأليزابيثي بعد السماء عن الأرض، وهو مع ذلك، بفضل رسبين وموليير أيضاً، بعدله قيمة وتألقاً في تراث البشرية.

صفحة رقم : 10027

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> العمارة

6- العمارة

أكان انتصار المزاج الكلاسيكي ملحوظاً في الفن كما في الأدب. إنه يطالعنا في كل واجهة بناء فرنسي تقريباً في ذلك العصر. لقد رمت بعض الكنائس القومية ترميماً قوطياً، مثل كاتدرائية أورليان، ولكننا نجد في الأكثر كنائس قديمة- ككنائس سان جرفيز-إتيين-دومون-

صفحة رقم : 10028

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> العمارة

زينت من جديد بواجهات من طراز النهضة. وقد نلحظ في الكنائس الجديدة طرازاً إيطالياً جديداً يعملها كلها؛ وهكذا صمم جاك لوميرسييه كنيسة السوربون على غرار كاتدرائية القديس بطرس - أعمدة، وقواصر، وقبة. ففي العمارة، كما في الأخلاق، والأدب، والفلسفة، أضفى الإحياء الوثني على المسيحية وجهاً جديداً جريئاً. وطوى تيار النهضة الكل حتى اليسوعيين، وكانوا أسرع استجابة له لأنهم وهم طائفة دينية لم تقيدهم جذور من العصر الوسيط. ففي أجيالهم الأولى حين تزعمهم لويولا ولينيز، كانوا مبشرين صارمين لا يخشون أهدأ، ومنافحين مخلصين عن المعتقد السليم والبابوات، ولكنهم استبقوا قدرأ من النزعة الكلاسيكية في مجمع ترنت، وكما جعلوا الدراسات الكلاسيكية لب برامج التعليم في كلياتهم، كذلك اختاروا في العمارة الواجهات الشبيهة بالكلاسيكية لأهم معابدهم. ومن كنيستهم الرائعة في روما، «كنيسة يسوع»، حملوا طراز الزخرف الفاخر عبر الألب وفوق البرانس. على أنهم لم يكونوا ملتزمين بدرجة متماثلة بالزخرفة الفياضة. من ذلك أن أشهر معماريهم - الذي شيد واجهة جناح كاتدرائية أورليان - صمم كنائس وكليات متوخياً البساطة الشديدة التي تناسب خلقه وما تحت يده من مال. ولكن حين أثرت الطائفة بنت في وفرة بهيجة. ففي عام 1627 بدأت بناء الكنيسة الجميلة التي تعرفها باريس عادة باسم «الجزويت» - وواجهتها رومانية، وداخلها مزين زينة أنيقة بالتيجان والأقواس والكرانيش، وأقبية الخورس تلتقي في انسجام لتدعيم قبة مضيئة؛ وقد وصف جول افلين الذي كان يجوب باريس عام 1644 هذه الكنيسة بأنها «من أكمل قطع العمارة في أوربا(139)». إنها لم تكن باروكا على نحو منفرد، ولم تحتو على أي شيء مشوه أو غريب. فالباروك في فرنسا رصته الذوق الأرستقراطي-تماماً كما هتب زونزار وماليرب قباحت رابليه.

صفحة رقم : 10029

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> العمارة

وتخلفت العمارة الدينية خلال الحروب الدينية، وفي فترات السلام التي تخللتها نمت العمارة المدنية، فارتفعت قاعات المدن في لاروشيل، وليون، وتروا، ورايس. وفي باريس أرادت كاترين دي ميديشي أن تخلي قصر اللوفر لشارل التاسع ومليكته، فاستأجرت فيليببير دي لورم ليني لها ولمساعدتها قصر التويلري (1564-01) الذي اشتق اسمه من مصانع القرميد (التويل) الفخاري القريبة. وارتفع القصر الجديد، الذي قامت في واجهته العمدة الكورنثية وفق طراز النهضة، غربي اللوفر عند ميدان كاروسل الحالي، وامتد 807 قدما بطول السين. وقد أحرق في فتنة الكومون عام 1871، ولم يبق منه سوى الحدائق-حدائق التويلري اللذيذة.

واستعادت العمارة المدنية نشاطها سريعاً في عهد هنري الرابع. وأصبح اليون نوف، الذي افتتح للمرور عام 1604، أحب الجسور التي تمتد فوق السين. أما الأوتيل دفييل الذي أنجز في السنة التي مات فيها هنري، فقد ظل إلى عام 1871 مفخرة للشعب تنافس النوتردام واللوفر. وكما فعل فرنسيس الأول ولويس الرابع عشر، أظل هنري الفنانين برعايته، وفهمهم ونسق عملهم. فوسعوا له اللوفر بإضافة الباقيون دفلور ووصلوا بينه وبين التويلري بالرواق الكبير. وفي فونتبليو بنوا المصلى، ورواق الوعول، والفناء والصالون البيضي، والبورت دوفين، ورواق ديان. ولقد كانت فونتبليو في عهد هنري الأكبر ذروة النهضة الفرنسية.

أما أرملته ماري دمديسي، فقبل أن تصطدم بريشليو، كلفت سالومون دبروس أن يصمم لها قصر لكسمبورج، في شارع فوجيرار جنوبي السين (1613-20). ولما تحرر لويس الثالث عشر وريشليو من نفوذها عهدا إلى لومرسييه أن يوسع اللوفر مرة أخرى بوصفه مقر الحكومة، فأنجز الآن الباقيون دلورلوج، ووسع الجناحان الكبيران، واتخذ البناء الفخم شكله الحالي في أساسه ومن تصميمات لومرسييه بنى ريشليو في باريس «الباليه كرينال» الأنيق حيث جمع مجموعاته في التصوير

صفحة رقم : 10030

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> العمارة

والنحت وغيرهما من الفنون، هنا كانت أعمال مانتينا، ودافنشي، وفيرونيزي، و«عبيد» ميكل أنجيلو. وقد انتقل أكثر هذا الكنز إلى لويس الثالث عشر والرابع عشر، ثم إلى اللوفر، ثم إلينا.

أما في عمارة البيوت فقد أعاد فرانسوا مانزار تشكيل أفق باريس بتطويره «سقف مانزار» -وهو سقف ذو منحدرين، أسفلهما أحد من أعلاه، مما يتيح تصريف الثلج والمطر بسرعة، ويفسح فراغاً أكبر في الطابق العلوي، وكم من طالب أو فنان باريسى سكن هذا «المانزار» أو العلية. وصمم مانزار عدة كنائس في باريس، وعدة قصور ريفية في فرنسا وأنجحها في حي يعرف اليوم بميزون لافيت، وهو ضاحية من ضواحي العاصمة. وفي عام 1635 عهد إليه «مسيو» جاستون دورليان أن يعيد بناء قصر الأسرة في بلوا؛ ولم ينجز مانزار سوى الجناح الشمالي الغربي، وما زالت واجهته المبنية بطراز النهضة وسلمه الفاخر رائعة «أبرع معماري أنجبته فرنسا في تاريخها» (140).

صفحة رقم : 10031

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> فنون كثيرة

7- فنون كثيرة

وبهذا المزاج نفسه، مزاج التقاليد الكلاسيكية التي يرقق منها الصقل الشعور الفرنسيان، زين النحاتون الكنائس، والقصور، والحدائق، ومقابر العظماء. وقد ورث جرمان بيلون رشاقة النهضة التي اتسم بها تشاليني، وبريماتيكو، وجان جوجون، ولكنه لم ينس المزيج القوطي من الرقة والقوة. أما روائحه فتلاث مقابر، إحداهما وهي المقامة في كنيسة دير القديس دني-جمعت في الموت بين كاترين دي مديتشي وهنري الثاني، زوجها لفترة ما-وقد أضفى الفنان على الملكة جمالا مثالياً كان خليفاً بأن يدفى قلبها الموحش. والثانية، الموجودة الآن في اللوفر، كرمت رينيه دببراج، مستشار فر نسيس الثاني وشارل التاسع-وهي صور للكبرياء الخاضعة للثقوى، ومعجزة من الثياب الطبيعية النقطها المثال في البرونز. وإلى

صفحة رقم : 10032

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> فنون كثيرة

جوارها مقبرة زوجة رينيه، فالنتين بالبياني، وفي أعلاها ترى السيدة في شرح شبابها وقد خلعت عليها الجلال أرواب تعلوها الوجوه، وفي أسفلها هذا الجمال ذاته منحوتاً بغير رحمة في هيئة جثة لها وجه وأيد عجاف وصدر متعفن وثمانين فارغان غائران، إنها صيحة غضب قوية على الدهر وانتهاكه الساخر للجمال. وهذه المقابر وحدها كانت تكفي لرفع بيلون إلى مقام أعلى من مقام أي نحاح في عصره، ولكنه أضف إليها العدد الوفير من التماثيل، وكلها ذات محاسن أخاذة، وأكثرها جمع في اللوفر، خزانة فرنسا التي لا ينضب لها معين. وهناك أيضاً، وعلى بضع خطوات، نستطيع أن نرى أعمالاً لحلفاء بيلون: تمثالاً بالحجم الطبيعي لهنري الرابع من صنع بارتلمي تريمبليه، وعلى فمه ابتسامة غامضة كابتسامة مونا ليزا، ومقبرة أن دمومورنسي التي نحتها بارتلمي بريور، وتمثالاً حياً يسمى «الشهرة» لبيربريار-هو امرأة عارية تنفخ أنفاسها من خدين منتفخين وتكتب في الهواء كأنها تضيف تحسيناً إلى كلمات كيتس «هنا يرقد إنسان كتب اسمه في الريح». وفي مصلى شانتي أثر يذكر للكردينال دبببرول صنعه جاك سارازان. وقد درس بعض هؤلاء النحاتين في روما وجلبوا معهم من برنيني ميلا باروكيا للزخرف والحركة والعاطفة المسرفة، ولكن هذا الاسراف سرعان ما تلاشى تحت نظرات ويشليو الباردة وذوق لويس الرابع عشر الكلاسيكي. ويبدأ ظهور ذلك الكمال الناعم الذي طبع «القرن العظيم» في ميداليات جان فاران، الذي وفد من لبيج ليعيش في فرنسا، والذي بلغ فنه في الصور الصغيرة التي رسمها لریشليو ومازاران وأن النمسية براعة لم يزه فيها أي رسام مداليات جاء بعده.

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> فنون كثيرة

ولو لم تخلف لنا فرنسا أي نحت أو عمارة أو تصوير لحق لها برغم هذا أن تحوز احترامنا وحبنا لما أنجزته في ميدان الفنون الصغيرة. فحتى في هذه الفترة المضطربة بين حكم فرنسيس الأول وحكم لويس الرابع عشر، نافست فرنسا-بل فاقت في رأي البعض- إنتاج معاصريها من فلاندر إلى إيطاليا، سواء في الرسوم، أو المحفورات، أو أشغال المينا، أو الصياغة، أو قطع الأحجار الكريمة، أو مشغولات الحديد أو الخشب، أو المنسوجات، أو السجاد المرسوم، أو تصميم الحدائق. فرسوم جاك كاللو للعجر، والشحاذين، والمتشردين، تحمل معها ريح الحياة ذاته؛ أما سلسلة كلشيها «آلام الحرب» فقد سبقته جوبا بقرنين. وحسبنا حكماً على براعة أشغال الحديد في ذلك العصر حاجز القضبان المؤدي إلى قاعة أبولو في اللوفر. أما السجاد المرسوم فكان صنعه فنا لا يقل أهمية عن النحت أو التصوير. كان جان جوبلان قد افتتح مصانع للصبغة بباريس في القرن الخامس عشر؛ وفي القرن السادس عشر اضافت المؤسسة مصنعاً للسجاد المرسوم، وأنشأ فرنسيس الأول مصنعاً آخر في فونتنبلو، وهنري الثاني مصنعاً ثالثاً في العاصمة. وحين ذهب كاترين دي مديتشي للقاء المبعوثين السبان في بايون أخذت معها اثنتين وعشرين سجادة نسجت لفرنسيس الأول لتعرض ثراء فرنسا وفنها. ثم اضمحلت هذه الصناعة التي جمعت بين الحرفة والفن في عهد هنري الثاني، ولكن هنري الرابع أصلح من شأنها بجلب جيل جديد من الرسامين والصباعين والنساجين الفلمنكيين لمصنع جوبلان في باريس. وهناك خمسة نماذج ممتازة ترجع إلى عهده-موضوعها صيد ديانا-تزين مكتبة مورجان بنيويورك. وأحست الزخرفة الداخلية تأثير الباروك ينسرب إليها من إيطاليا. فتقشت الكراسي، والموائد، والصناديق، والبوفيهات، والدواليب، ومناضد الزينة، والسرر-ونقشت في بذخ، ورصعت في كثير من الحالات بالأبنوس أو اللازورد أو اليشب أو العقيق، أو زينت بالتمائيل

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> فنون كثيرة

الصغيرة. وفي عهد لويس الثالث عشر نجد الكثير من المقاعد بالمخمل، أو أشغال الابرة، أو النسيج المرسوم. وقد تنقش الجدران والكرانيش والأسقف أو ترسم بمهرجان من صور النبات والحيوان. وفقدت المدافئ بعض صرامة العصر الوسيط، وحليت أحياناً بنقوش عربية في ألوان متعددة. أما في الزخرف فكان العصر قمة فن رجلين عجوزين: ليونار ليموزان، الذي استمر حتى عام 1574 ينتج أشغال المينا أذاعت شهرته أيام فرنسيس الأول، ثم برنار باليسي الذي ولد عام 1510 وعمر حتى عام 1589. وكان باليسي مجنوناً بالخرف، فيه فضول قوي ينتظم ميادين الزراعة والكيمياء والدين، وله ولع بكل شئ من تكون الأحجار إلى طبيعة الإله. درس كيمياء أنواع التربة المختلفة ليحصل على أفضل الطفل لقمينته، وأجرى تجاربه سنين عديدة لينتج مينا بيضاء تتقبل الألوان الرقيقة وتحفظ بها. وأحرق نصف متاعه وقوداً لفرن حرارياته، وقد روى القصة وكأنه يتحدى تشليني. وكان يقوم بالعمل كله بنفسه لأن فقره أعجزه عن أن يستأجر من يساعده، وكثيراً ما كانت يدها تمتلئان

بالقطوع حتى قال «كنت أضطر لأكل حسائي ويديا مربوطتان بأسمال». وبعد أن مضيت في مثل هذا عشر سنوات نحل جسمي حتى لم يبد على ذراعي وساقى أي عضلات، وبلغ النحول بساقي مبلغاً استحال معه علي رباط جواربي أن يثبت فوقها... فإذا مشيت سقطت جواربي على حذائي البالي(141)». واتهمه جيرانه بأنه يمارس السحر ويهمل أسرته. وأخيراً، وحوالي عام 1550، وجد المزيج الذي ينشده، وصنع مينا من طلاء متقزح اللون، واستعملها في تشكيل الأنية والتمائيل الصغيرة المزينة تزييناً بديعاً بالسّمك، والسلاحف، والأفاعي، والحشرات، والطيور، والأحجار كل غنى الطبيعة الوافر. وأبهج كاترين دي مديتشي أن تضع هذه المتحفرات الصناعية في حديقتها وأحواض أزهارها، ووهبت الخزاف

صفحة رقم : 10035

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> فنون كثيرة

العجوز مصنعاً في التويلري، فأضاف في بيئته الجديدة الحوريات المختلفة لـخارفيه. ومع أنه كان هيجونوتياً غيوراً، إلا أنه اعفي من مذبحه القديس بارتلميو، لأن كاترين وحاشيتها بهرتهم زهرياته وكئوسه وأطباقه وشمعداناته وأفكاره الطريفة. ولكن في عام 1588 أمر الحلف الكاثوليكي بمحاكمة البروتستنت من جديد، فأودع باليسي سجن الباستيل. قال أحد كتاب اليوميات في عام 1590:

«في هذا العام (عام 1589 في واقع الأمر) مات في حبرات سجن الباستيل الأستاذ برنار باليسي، السجين بسبب دينه، بالغاً من العمر ثمانين عاماً، وقد خرّ تحت وطأة الألم، وسوء المعاملة، والحاجة. وحين ذهبت عمه هذا الرجل الطيب لتسأل عنه... قال لها السجن إنهما إن أردت رؤيته فستجده جثة مع الكلاب على الأسوار، حيث أمر بإلقائه كما يلقي كلب مثله(142)».

صفحة رقم : 10036

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> بوسان والمصورون

8- بوسان والمصورون

كان التصوير الفرنسي لا يزال أسيراً لفلاندر وإيطاليا. فسيطر رسامو السجاد الفلمنكيون على فنهم في باريس، وزكا المصورون الفلمنكيون في باريس، وليون، وتولوز، ومونبلييه، وبوردو. وكانت أفضل لوحات هذه الفترة من صنع الفلمنكيين في فرنسا، كصورة إليزابث النمساوية البديعة (الموجودة بالوفر) بريشة فرانسوا كلويه، وصورة هنري

الرابع المعترز بنفسه (في شانتي) بريشة فرانز بوربي الابن، وأهم من ذلك كله صورة ريشليو التي رسمها فليب دشامبين.

ولكن التأثير المسيطر على التصوير الفرنسي في هذه الحقبة كان إيطاليا، كان طلاب الفن يذهبون إلى روما، على نفقة الحكومة الفرنسية أحياناً، ويعودون مترددين بين مثالية فناني القرن السادس عشر الفلورنسيين، وواقعية فناني القرن السابع عشر البولونيين والنابوليين القاتمة. وقد وفق أحد الفنانين الفرنسيين واسمه سيمون فوييه، وهو بعد في الرابعة عشرة

صفحة رقم : 10037

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> بوسان والمصورون

(1604)، إلى إذاعة اسمه بين المصورين حتى تنافست عليه ثلاث دول. وحاول تشارلز الأول أن يحتفظ به في لندن، ولكن بارون سانسي أخذه في بعثة إلى القسطنطينية، حيث رسم سيمون صورة رائعة للسلطان أحمد الأول، بعد أن درس ملامحه خفية خلال ساعة مثل فيها السفير بين يديه. وفي عودته مخترقاً إيطاليا، وقع فوييه في حب البندقية وفيرونيزي، ثم أحب كارافاجو في روما، حيث بسط عليه أدواقها وكرادلتها من الرعاية ما أغراه بالبقاء في إيطاليا خمسة عشر عاماً. وفي عام 1627 دعاه لويس الثالث عشر ليكون مصور البلاط، وكان يجري عليه معاشاً سنوياً قدره أربعة آلاف جنيه، ثم أعطاه سكناً في اللوفر. وسرعان ما تهافتت فرنسا كلها عليه. فزين مصلى قصر ريشليو الريفي، ورسم لوحة مذبح لكنيسة سانت أوستاش، وصمم رسوماً للسجاد الملكي، وصور لوحات للحاشية. وإذا اغرقته هذه المهام كلها فقد جمع حوله معاونيه في مدرسة نمت حتى أصبحت الأكاديمية الملكية للتصوير والنحت، وهناك درب واستخدم لوسويور، ومينار، وبوردون، ولوبرن. ولا تكاد أعماله الباقية تبرر هذه الشهرة، ولكن له في تاريخ فرنسا مكاناً خطيراً هو مكان إعداد مصوري عصر القمة.

اما الأخوة الثلاثة، أنطوان، ولويس، وماتبولونان، فقد أدخلوا تنوعاً على لوحات عصرهم بتصوير حياة الفلاحين تصويراً تشيع فيه الشفقة المعتمدة، إذ وجدوا فيهم ذلك الفقر الصامت والقوة الشرسية التي اتسمت بها فرنسا في القرن السابع عشر. كذلك وهب جورج دلاتور فرشاته للمساكين (وقد نبش عنه مؤخرًا تقرّيب النقاد)، وصورناه المقابلتان «فلاح» و «فلاحة» أقرب إلى قمة التصوير في العهود الملكية التي نحن بصددھا؛ ونستطيع أن نحكم على شهرته السائرة من مبلغ الـ 500.000 دولار أو أكثر التي دفعها متحف المتروبوليتان للفنون بنيويورك ثمناً لصورته «العرافة» (1960). وقريب من هذا التحول من القصر إلى الكوخ،

صفحة رقم : 10038

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> بوسان والمصورون

ذلك الانجاز الخاص الذي حققه التصوير الفرنسي في هذا العصر - وهو تطوير المنظر الطبيعي بوصفه عنصراً كبيراً في فن التصوير.

أما نيكولا بوسان فكان أبوه جندياً في جيش هنري الرابع. وبعد أن أسكن منزل نيكولا دليزمان عقب معركة إفرى، تزوج ابنة نيكولا - وهي فلاحه لاتعرف كيف تكتب اسمها - وفتح مزرعة بقرب ليزاندليس في نورمانديا. وتعلم ابنتها حب الحقول والغابات، واقتناص لحظات يسجلها فيها بالقلم الرصاص أو الحبر. ثم وفد كنتا فاران على ليزاندليس ليزين كنيسة بها، وراقبه الفني نيكولا في شغف وانتزع منه بالملاطفة دروساً في الرسم والتصوير. فلما رحل فاران، هرب نيكولا إلى باريس ليدرس الفن (1612) وكان يومها في الثامنة عشرة. وهناك توجت الشهور التي كاد يتصور فيها جوعاً بعثوره على محفورات ريموندي لأعمال رفائيل. هنا تكشف لنيكولا أمران أولهما أن الخط لا اللون أداة للفن، وثانيهما أن روما عاصمة الفن. وظل ثمانية أعوام يكافح للوصول إلى تلك القلعة. ومرة وصل في رحلته حتى فلورنسة، ولكن الفقر واليأس والعلّة ردتته إلى باريس. ثم حاول ثانية، ولكن دائناً عطله في ليون، فزحف راجعاً ليدفع ديونه ويكسب قوته بأشغال تصوير صغيرة في قصر الكسمبورج. وفي عام 1622 استخدمه الشاعر الإيطالي جوفاني باتيستنا مارينين الذي وفد وقتها على باريس، ليرسم له رسوماً لقصيدته «ادوني»، وظفرت رسوم بوسان باستحسان ماريني وبيع بعض النكليات. ورسم نيكولا صوراً للأشخاص على مبيض واقتصد فركاته في حرص، وأخيراً اكتحلت عيناه برؤية روما في عام 1624.

وأوصى به ماريني الكردينال فرانشيسكو باربريني: «ستجد هنا شاباً فيه عنف شيطاني» - شاب «مجنون بالتصوير» (خلافاً لتحليل ابروشيج لنفسه). ولكن مجنوناً إيطالياً أيضاً، غير أنه لم يكن بصور أئمة فناني النهضة بقدر جنونه بكمال القطع المتخلفة في الساحة الرومانية (الفورم)، ولا جن

صفحة رقم : 10039

قصة الحضارة - بداية عصر العقل - صراع العقائد على السلطة - فرنسا إبان الحرب - بوسان والمصورون

بالصور الجصية المتخلفة في العصور القديمة بقدر جنونه بروما نفسها - بأفاقها، وحقولها، وأشجارها، وتلالها، وتربها ذاتها. ولا بد له أن تسأل كما تسأل بعض المتحمسين لها ممن أتوا بعده. لا لم يكتب الله له أن يولد في إيطاليا ؟

وامتحنه الكردينال باربريني بتكليفه رسم لوحة «موت جرمانيكوس»، فسرتته النتيجة، وسرعان ما اشتد الطلب على فن بوسان حتى جاهد لكي يلبي. كان رعاته - سواء العلمانيون أو الكنسيون - يتوقون للصور العارية، فاسترضاهم فترة بعروض لجسم امرأة كتلك التي نجدها في «انتصار ربة الزهر» التي رسمها للكردينال أوموديو، وفي «منظر باخوسي» لريشيلو. واتخذ مقامه في روما، وتزوج فتاة في السابعة عشرة وهو يناهز السادسة والثلاثين، وأنفق عشر سنوات سعيدة معها ومع ألوانه. ثم دعاه ريشيلو ولويس الثالث عشر إلى باريس (1640). فقال بوسان «سأذهب كإنسان حكم عليه بنشر جسده نصفين (143)» ولقى هناك التكريم العظيم وتلقى معاشاً من ألف كراون، ولكنه لم يرتح لمنافسة الفنانين الباريسيين المفعمة بالحد، فأسرع بالعودة إلى إيطاليا (1643) مضحياً بمستقبل عريض. واشترى بيتاً على النل البنسي بجوار بيت كلود لوران، وهناك عاش حتى مات، هادئاً، مهتماً بأسرته، مستغرقاً في فنه، قائماً بحظه.

كانت حياته كصورة مزيجاً كلاسيكياً، نموذجاً للنظام، والاعتدال، وضبط النفس. ولم يكن له من أمارات الفنان غير القليل. اللهم إلا أدواته. فلا هو بالعاشق النهم كرفائيل، ولا برجل الدنيا كتيشان، ولا بالعقري الشيطاني كميكيل أنجيلو (برغم رأي ماريني فيه)، إنما هو رجل بورجوازي يعني بأسرته ويدفع ديونه. وحين رأى الكردينال ماسيمو بيته المتواضع قال له: «كم أرثي لك لأنه ليس لديك خادم!» «فأجاب بوسان» «وكم أرثي

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> بوسان والمصورون

لك لأن لديك الكثير منهم(144)». وفي كل صباح يتمشى على تلة، ثم يرسم سحابة نهاره، معتمداً على الجهد لا على الوحي. قال في فترة لاحقة من حياته رداً على سائل سأله عن السر في امتلاكه ناصية الفن «لم أهمل شيئاً(145)». وإذا أخذنا في الاعتبار طرقه الكثيرة الجهد، التي لم يستعن فيها بأحد، وجدنا إنتاجه ضخماً. فلا بد أنه رسم أربعمائة صورة، لأننا نعرف أن بعضها فقد، وبقي منها 342، أضف إلى هذا ألفاً وثلاثمائة رسم تعزز قلعة وندرز بمائة منها لما به من دقة ونقاء في الخطوط. ولم يتفوق في تنويع صورته. وكثيراً ما تكون صورته العارية تماثيل عديمة الحياة، ولو كان فيها شهوانية أكثر لأسغناها. لقد كان نحاساً يستعمل فرشاة، ينحو إلى النظر للنساء على أنهن أشكال تصلح للنحت - ولو أنه أحياناً كان يرى فيهن الأصول الإلهية للفن. قال: «إن الفتيات الجميلات اللاتي نراهن في شوارع نيم يبهجن عيوننا ونفوسنا بهجة لا تقل عن أعمدة الميزون كاريه» البديعة، لأن هذه ليست إلا نسخاً قديمة من تلك(146)». كذلك لم ينطلق على سجيته في موضوعات الكتاب المقدس. وقد أجاد تصوير بعضها - مثل «الفلسطيني صريعاً عند الابواب» و «عميان أريحا»، وما أجمل النساء، وأجلهن في الوقت نفسه، في «اليعازر ورفقة»! كان تفوقه يتجلى في الأساطير الكلاسيكية، مصورة وسط الخرائب الكلاسيكية ومن خلفها منظر طبيعي ذو هوء كلاسيكي. ولم يكن يرسم من نماذج حية، بل من خيال أشرب يحب العالم القديم وتوهمه - العالم الذي كان فيه كل الرجال أقوياء وكل النساء جميلات. تأمل ذلك الكمال الذي نراه في الأنثى الوحيدة في لوحته «رعاة أركاديا» التي رسمها بوسان للويس الرابع عشر تلبية لطلب كولبير. ولاحظ في مرورك الكتابة المنقوشة على قبر الراعي: «أنا أيضاً كنت مرة في أركاديا»، أهذا بوسان يحلم بأنه هو أيضاً عاش في اليونان القديمة مع أورفيوس والأرباب ؟

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> بوسان والمصورون

و«مأتم فوكيون» أقوى لوحات بوسان الاسطورية، ولكن «أورفيوس ويوريديسي» أشدها وقعاً في النفس، ربما لاننا نتذكر الحان جلوك اليانسة. ومما يزعج الروح الرومانسية أن تجد القصة تائهة في المنظر الطبيعي على هذا النحو. فالحقيقة إن بوسان لم يحب الرجل، ولا حتى المرأة، بل المشهد المهذب للنفس، مشهد الحقول والغابات والسماء المنبسطة - كل ذلك المنظر العريض المحيط باللوحه، حيث يكون التغيير متمهلاً، أو خجلاً أما الدوام والاستمرار، وحيث تنوب أوصال البشر في منظورات المكان والزمان. لذلك كانت أعظم صورته هي مشاهد الطبيعة، التي يكون الإنسان فيها عرضاً ضئيلاً، شأنه في التصوير الصيني أو البيولوجيا الحديثة. هذه المشاهد جليبة، ولكنها رتيبة. ولولا أن بوسان أضاف هنا وهناك أشكالاً مميزة أو عنواناً خطه في إهمال لشق علينا أن نفرق بين الواحد منها والآخر. لقد أحب الخط في حكمة ولكنه أسرف في حبه، وأهمل سلم اللون، مستغلاً

اللون البني فوق ما ينبغي؛ لا عجب أن أراد الفنانون الذين أتوا بعده على هذه «الصلصلة البنية» المتساقطة من أشجاره. ومع ذلك فإن هذه الأفاق الخافتة الاضواء، الخافتة الالوان، التي لم يرض عنها رجل مثل رسكن افتتن بوهج تيرنر، هي تقريحا لنا بعد ما أصاب التصوير في أيامنا من اهتياج وقلق أيديولوجي، فهنا المفهوم الكلاسيكي للجمال بوصفه اتساق الأجزاء في كل، لا الفكرة الحديثة عن الفن بوصفه «تعبيراً» - قد يكون صورة طفل لم يتقن رسمها أو صيحة بانع متجول. وفي وسط اللازمية والباروك، وفي معارضة لقوة التصوير الإيطالي في القرن السابع عشر وعاطفيته، تشبث بوسان بالمثل الكلاسيكي الأعلى، الذي لا يغلو في شيء، فلا ألوان صارخة، ولا دموع، ولا إغرابات، ولا مقابلات مسرحية بين الضوء والظل، بل فن ذكوري أشبه بكوريني منه براسين وبباخ منه ببيتهوفن.

صفحة رقم : 10042

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> بوسان والمصورون

والصورة التي رسمها لنفسه عام 1650 تطالعنا منها عينان فيهما كلال، ربما من الرسم أو القراءة على ضوء ضليل. كان يقرأ كثيراً، محاولاً الإلمام بحياة اليونان والرومان في تفصيل مثابر، ولم يصب فنان مثل هذا العلم منذ ليوناردو. فلما أقبل على شيخوخته وجد عينيه تضعفان ويده تهتز، وقطع موت زوجته في الحادية والخمسين (1664) رباطاً حياً؛ فلم يعمر بعدها سوى سنة واحدة كتب صديق يقول «مات ابيلليس». وعلى المقبرة أو قربها في كنيسة أبرشية سان لورينزو، أقام شاتوبريان (1829) نصباً من الرخام كتب عليه كما يكتب أحد الخالدين من البشر الفنانين لآخر: ف. أ. دشاتوبريان

إلى

نيكولا بوسان

لمجد الفنون وشرف فرنسا

وكان أكبر منافسيه في تصوير مناظر الطبيعة جاره، وصديقه، كلود جيلليه، الملقب لوران نسبة إلى مسقط رأسه. وقد شعر هو أيضاً بدافع يدفعه نحو إيطاليا، وقبل أي وظيفة مهما حقرت ليصل إليها ويعيش فيها. حين تكشف كل لفحة للعين الباحثة عن أثر ما للفن المسيحي أو قطعة ملهمة من الفن القديم. وفي روما تتلمذ لأجوستينو تاسي، ومزج له الألوان، وطهي له طعامه، وتعلم على يديه. وقد رسم على سبيل التجربة ألف رسم، وحفر كلشبهات يقدرها اليوم الخبراء العارفون. وكان يشتغل ببطيء وتدقيق، وقد يستغرق أسبوعين في تفصيل واحد. وأخيراً أصبح هو أيضاً مصوراً، يرتزق من الطلب على صورة من الكرادلة والملوك الذين يقدرون فنه. وبعد قليل كان له بيته فوق التل البنسي، وشارك بوسان في اشباع الطلب الجديد للمناظر الطبيعية.

وكان يستجيب لهذا الطلب عن طيب خاطر، لأنه أحب أرض روما وسماءها حباً دفعه أحياناً إلى الاستيقاظ قبل طلوع الفجر ليشهد بزوغ النور

صفحة رقم : 10043

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> بوسان والمصورون

كل صباح، ويقتنص تغيرات الضوء والظل التي تحدثها كل بوصة طالعة من الشمس. لم يكن الضوء عند كلود مجرد عنصر في الصورة، إنما كان موضوعه الأهم، ومع أنه لم يحب كما أحب تيريز - أن ينظر في عين الشمس ذاتها، فإنه كان أول من درس ونقل غلاف الضوء المنتشر. وقد التقط حركة الهواء غير الملموسة على الحقول، وورق الشجر، والماء، والغمام، كانت كل لحظة من السماء جديدة، وبدا أنه عقد نيته على جعل كل لحظة سائلة تسكن نفسها في فنه. وقد أحب ارتعاش القلوع وهي تقابل الريح، وجلال السفن وهي تمخر البحر. وأحس فتنة المسافات، ومنطق المنظور وسحره والحنين إلى رؤية لانهائية الفضاء وراء المرئي.

كانت المناظر الطبيعية لذته الوحيدة. ثم أدخل التراكيب الكلاسيكية في صورته عملاً بنصيحة بوسان - كالمعابد، والخرائب، وقواعد الأعمدة - ربما ليضفي وقار الشيوخ على المشهد العابر. وافق على إضافة بعض الوجوه البشرية إلى مشهد الطبيعة العريض، ولكن قلبه لم يكن في هذه الزوائد. فهذه الوجوه، «أضفيت دون مقابل»، فكان «يبيع مناظره الطبيعية، ويهب وجوهه (148)». وكانت العناوين والقصص التي توحى بها هذه الوجوه تنازلات منه للعقول التي لم تستطع الإحساس بمعجزة الضوء وسر الفضاء دون جمال الأسطورة المسيحية أو بغير بطاقة من القصص الكلاسيكية. أما الواقع فهو أن كلود كان له موضوع واحد لا سواه - عالم الصباح، والظهر، والمساء. وقد وهب متاحف أوربا تنويعات حبيبة من الصور، لا تعنى أسماؤها شيئاً، ولكن في وحدة وجودها تراوح صوفي بين الشعر والفلسفة.

وقد نسلم لرسكن (149) بأن كلود وبوسان يرياننا الطبيعة على نحو خداع وهي في حالاتها الأرق، غافلين عن جلالها، مغفلين نوبات تدميرها الرهيب. ولكن بفضل جهودها أرسى تقليد عظيم في رسم المشهد

صفحة رقم : 10044

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> فرنسا إبان الحرب -> بوسان والمصورون

الطبيعي. وسنرى أنه سينافس صور الأجسام والوجوه، والمناظر الكتابية والأسطورية. لقد فتح الطريق لموكب الطبيعة من يعقوب وسليمان رويزدال إلى كورو.

وهكذا نجد أن ريشليو والوحدة القومية، وكورني والأكاديمية، ومونتينني وماليرب، ودبروس ومانزار، وبوسان ولوران - كل هذا لم يكن حصيلة تافهة أنتجها بلد مشتبك في الحروب. وها هو لويس الرابع عشر يتأهب للوقوف فوق ذلك التراث الصاعد والتسيد على فرنسا في أعظم عصورها.

صفحة رقم : 10045

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> مسرح الأحداث

الفصل السابع عشر

ثورة الأراضي الوطنية

1555 - 1648

1- مسرح الأحداث

في يوم 25 أكتوبر 1555 نقل الإمبراطور شارل الخامس مقاليد الحكم في الأراضي الوطنية إلى ابنه فيليب، وفي السادس والعشرين، وأمام الجمعية التشريعية في بروكسل، تلقى فيليب أيمان الولاء، وأقسم بدوره أن يحافظ على حقوق المقاطعات السبعة عشر وامتيازاتها، وفق ما تقضي به التقاليد والمعاهدة والقانون ولقد هيأت هذه العهود والمواثيق المتبادلة المسرح لإحدى المسرحيات الكبرى في تاريخ الحرية.

وكان المشهد معقداً. كانت الأراضي الوطنية آنذاك تضم بلجيكا الحالية ومملكة هولندا القائمة الآن. ولم تكن الهولندية- وهي أصلاً إحدى اللهجات الألمانية السائدة في وهاد شمال ألمانيا والأراضي الوطنية- وهي اللغة التي تتحدث بها المقاطعات السبع الشمالية (وهي هولندا، زيلندة، أوترخت، فريزلند، جروننجن، أوفريجسل، جلالند، فحسب، بل كانت كذلك لغة أربع مقاطعات أخرى (هي فلاندرز، برابانت، مكلين، لمبرج) في شمالي "بلجيكا"، على حين كانت "الوالون"- وهي إحدى اللهجات الفرنسية- هي اللغة لتي يتحدث بها الأهالي في ست مقاطعات جنوبية (هي أرتوا، وألون، فلاندرز، كمبراي، تورني، اينو، نامور). وكانت هذه المقاطعات كلها، بالإضافة إلى دوقية لكسمبرج المجاورة، تحت حكم آل هابسبورج.

وكانت الكاثوليكية(1) هي ديانة الأغلبية الساحقة من الأهالي في 1555

صفحة رقم : 10046

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> مسرح الأحداث

ولكن- كاثوليكيتهم- كانت من النوع العطوف الموسوم بالروح الإنسانية الذي نادى به أرزم قبل ذلك بنصف قرن من الزمان، والذي كانت تدين به روما في عصر النهضة بصفة عامة، وليست من ذلك النوع الكئيبي المتشدد من الكاثوليكية الذي ساد في أسبانيا لعدة قرون كانت تحارب فيها المسلمين "الكفار". وبعد 1520 تسربت اللوثرية ومذهب القائلين بتجديد عماد البالغين ورفض عماد الأطفال من ألمانيا، تسربت بعد ذلك بشكل أكبر الكلفنية من ألمانيا وسويسرا وفرنسا. وحاول شارل الخامس أن يقضي على غارات هذه المذاهب الغربية التي أقحمت عليه كاثوليكيته، بإدخال محاكم التفتيش البابوية أو الأسقفية، وبنشر إعلانات تتوعد بأشد العقوبة أي انحراف خطير عن الكاثوليكية الصحيحة. ولكن قلَّ أن تُفذت هذه العقوبات بعد أن أضعف صلح باسو 1552 من قوته. وفي روتردام 1558 تمكن حشد من الأهالي من إنقاذ عدد من أنصار تجديد العماد من الإعدام حرقاً. فجزع فيليب لتقاوم الهرطقة وجدد نشر الإعلان عن العقوبات.. وساد الخوف من أنه يعترف بإدخال محاكم التفتيش الأسبانية بكل ما فيها من قسوة ونكال. كان مذهب كلفن يلتزم كل الانتماء مع عنصر الروح التجارية "المركنتلية" في النظام الاقتصادي وكان ثغراً أنتورب وأمستردام هما المركز الرئيسي لتجارة شمال أوروبا، وكانا ينبضان بالحياة بفضل التصدير والاستيراد والمضاربة وسائر ألوان المعاملات المالية، حتى أن التأمين وجده عاد بأوفر الثراء على 600 من وكلائه(2). وجرت في انهار الراين وماسي وأيسل- وشلدت ووال وليس إلى جانب مئات من القنوتات- جرت في هذه كلها مجموعة متنوعة كبيرة من سفن النقل، وأذكت التجارة روح البراعة من المهن والصناعات في بروكسل وغنت وإيبيرس وتورني وفالنسين ونامور ومكلين وليدن وأوترخت وهارلم. ونظر رجال الأعمال الذين تحكموا في هذه المدن بعين الإجلال والإكبار إلى الكاثوليكية على أنها ركيزة دعمتها التقاليد للاستقرار السياسي والاجتماعي والروحي، ولكنهم لم يسبقوا سلطانها الكهنوتي بأبهته وفخامته. كما أحبوا

صفحة رقم : 10047

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> مسرح الأحداث

الدور الذي تهيئه الكلفنية لجمهور العلمانيين المتعلمين، في إدارة المجامع والسياسة الكلفنية. وكرهوا بصفة أخص الضرائب التي فرضتها الحكومة الأسبانية على اقتصاد الأراضي الوطنية. ووقع على الفلاحين أفدح الغرم وأصابوا أقل الغنم من الثورة. ذلك أن معظم الأراضي كان ملكاً لذوي النفوذ والمكانة الذين كانوا أقرب شبيهاً بأمرأ الإقطاع في ألمانيا وفرنسا، وهؤلاء هم الذين نظموا الكفاح من أجل الاستقلال. فكان فيليب دي مونمارنس، كونت هورن، يمتلك أراضي شاسعة في المقاطعات الجنوبية. كما كان لكونت اجمونت لامورال، ضياع واسعة في فلاندرز ولكسمبرج، فكان مركزه يخول له أن يطلب يد دوقة بافاريا، وحارب في عدة حملات ببسالة فائقة حتى أصبح أيراً لدى شارل وفيليب، وهو الذي قاد جيش فيليب إلى النصر في سانت كويتن (1557). وأظهر في قصره الفخم من ضروب الإسراف والكرم الباذخ ما ورطه الدين. ونظر مثل هؤلاء الرجال، ونبلاء كثيرون آخرون أقل منهم شأنًا، نظروا في شره ونهم إلى ثروة الكنيسة، وسمعوا والحسد يملأ قلوبهم بالبارونات الألمان الذين أثروا بالاستيلاء على أملاكها(3). واتجه تفكيرهم إلى أن الملك يحسن صنعاً لو أنه اقتطع من- أملاك الكنيسة أجزاءً معقولة يخصصها لقيادات عسكرية "وبذلك يخلق" أسلحة فرسان رائعة...في مكان هذه الجماعة الخاملة من الأبيقوريين المنغمسين في ملذات الطعام والشراب والذين لا شغل لهم إلا "التسبيح"(4). أما أكثر كبار الملاك قدرة وكفاية وثراء فكان وليم ناسو، أمير أورنج وكان للأسرة أملاك شاسعة في المقاطعة الألمانية "هس ناسو"، وفي الأراضي الواقعة حول ويزبادن، كذلك في الأراضي الوطنية، على حين اشتق لقب الأسرة من إمارة أورنج الصغيرة في جنوب فرنسا. ولما كان وليم قد رأى النور في دالنبرج الألمانية (1533) فإنه نشأ على مذهب لوثر حتى بلغ الحادية عشر من عمره، وحينئذ انتقل إلى بروكسل وتحول إلى الكاثوليكية حتى يكون له الحق في أملاك ابن عمه رينيه. وقد أعجب به شارل الخامس، وزواجه من آن

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> مسرح الأحداث

دوقة أجمونت (وارثة كونت بورن) وأختاره ليكون بين كبار من شهدوا تنازله التاريخي عن العرش (1555) وأوفده فيليب- وكان وليم آنذاك شاباً غض الأهاب لم يجاوز الثانية والعشرين، ولكنه كان يتقن الفلمنكية والألمانية والأسبانية والفرنسية والإيطالية- بين مبعوثيه للمفاوضة في عقد صلح كاتو- كمبرسيس، وهناك تميز وليم بسداد الرأي وقوة الحجة وشدة الحرص في الكلام حتى لقبه الفرنسيون "بالصامت". وعينه فيليب عضواً في مجلس الدولة، وبارسان من فرسان الجزة الذهبية، ونائباً للملك في هولندا وزيلند وأوترخت. ولكن وليم اختط لنفسه نهجاً لم يعترف له فيليب قط.

ولقد نعم الأمير الشاب اليافع بمزايا في شخصه كما نعم بوفرة المال، وكان فارح الطول رياضياً نحيل القوام، سحر بفصاحته وكياسته كل الناس إلا أعداءه. وكان الإخفاق حليفه قائداً عسكرياً، أما في مجال التدبير أو التخطيط السياسي فإن إصراره بالمرونة وشجاعته الموسومة بالثبات خلقت منه برغم نقائصه، شخصاً آخر في وجه أعتى القوى السياسية والدينية في أوروبا. وساس الرجال أفضل مما قاد الجيوش، وثبت على الأيام أن هذه موهبة أعظم. واتهمه أعداؤه بتغيير عقيدته الدينية وفق ما تقتضيه مآربه الشخصية أو السياسية(5). وربما كان هذا صحيحاً، ولكن كل الزعماء في هذا القرن استخدموا الدين- أداة للسياسة.

وعاب عليه الكثيرون تعدد زوجاته فإنه عند وفاة زوجته الأولى أخرى مفاوضات للزواج من "آن" أخرى ثرية، وهي ابنة موريس أمير سكسونيا البروتستانتية، وعقد قرانه عليها وفق الطقوس اللوثرية في 1561، ولكنه لم يعلن تحوله إلى البروتستانتية إلا عام 1753. وأصابته أن بعض لوثة من الجنون 1567، فاحتجزت في معزل مع بعض الأصدقاء ليرعوها.

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> مسرح الأحداث

وكانت ل تزال على قيد الحياة حين حصل وليم من خمسة من القساوسة البروتستانت على إذن بالزواج من شرلوت البروبونية، من الأسرة المالكة الفرنسية (1575)، وكانت قد هربت من دير الراهبات واعتنقت مذهب الإصلاح، وتوفيت شارلوت 1583. ولبس وليم الحداد عليها لمدة عام، تزوج بعده للمرة الرابعة من لويز دي كوليني ابنة أمير البحر الذي كان قد قضى نحبه في مذبحه سانت برثلميوس. وعلى الرغم من هذه الزيجات- وربما كان بسببها- كان وليم غنياً بما لديه من أراضي، خاوي الوفاض من المال. وفي عام 1560 بلغت ديونه مليون فلورين(7). وغلبت عليه ذات يوم نزعة إلى الاقتصاد فطرد ثمانية وعشرين من طبائخيه(8).

وتخبط فيليب بشكل هدام في التعامل مع النبلاء في الأراضي الواطئة. وأن أباه الذي نشأ وترعرع في بروكسل، عرف هؤلاء الرجال وتكلم لغتهم وساسهم في حزم. على حين أن فيليب تربى في أسبانيا فلم يتكلم الفرنسية ولا الهولندية، وعز عليه أن ينحني لهؤلاء الأقطاب في لياقة وسماحة، ويحترم عاداتهم وديونهم، بل أنه عيس واستاء من إسرأهم وتبذيرهم وإدمانهم على الشراب، وتبذلهم مع النساء، وتهافتهم عليهن، وفق هذا كله لم يتفهم فيليب دعاوهم في الحد من سلطانه. على أنهم بدورهم كرهوا منه كبريائه الكئيب وولعه بمحاكم التفتيش وتعيينه الأسبان المناصب التي تدر ربحاً في الأراضي الواطئة، وتزويد مدنهم بحاميات أسبانية. وعندا طالب بدفع الأموال هؤلاء النبلاء ورجال الأعمال، وهم الذين يشكلون الجمعية التشريعية، استمعوا- عن طريق المترجمين- في فتور إلى دعواه ودفاعه بأن والده وبأن الحروب الأخيرة قد خلفت في الخزينة عجزاً كبيراً، وتولاهم الجزع لمطالبته بمليون وثلاثمائة ألف فلورين، وبضريبة أخرى قدرها 1% على العقارات، و2% على الأموال المنقولة، ورفضوا التصديق على هذه الضرائب، ولكنهم أقرروا فقط مبالغ قدروا أنها تكفي لتغطية النفقات الجارية. وبعد ثلاث

صفحة رقم : 10050

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الواطئة -> مسرح الأحداث

سنوات من ذلك دعاهم إلى الاجتماع ثانية وطلب منهم ثلاثة ملايين جيلدر، فوافقوا، على شرط انسحاب القوات الأسبانية من الأراضي الواطئة. فأقر هذا الشرط، ولكنه محاماً في هذا التنازل من ترضية بالحصول على إذن من البابا بإنشاء أحد عشرة أسقفية جديدة في الأراضي الواطئة، على أن يعين في هذه الأسقفيات رجالاً يرتضون تنفيذ القوانين التي سنها والده ضد الهرطقة وعندما أبحر فيليب إلى أسبانيا في 26 أغسطس 1559- إلى غير رجعة إلى الأراضي الواطئة- كانت قد تشكلت خطوط الصراع الاقتصادي الديني الكبير.

صفحة رقم : 10051

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الواطئة -> ماجرييت بارما

2- ماجرييت بارما

1567 - 1559

كان فيليب قد عين مرجريت دوقة بارما نائبة له. وهي ابنة شرعية لشارل الخامس من أم فلمنكية. وكانت قد نشأت وترعرعت في الأراضي الوطينة، وعلى الرغم من طول مقامها في إيطاليا، فإنها استطاعت أن تلم بالفلمنكية. إن لم يكن بالهولندية كذلك. ولم تكن ضيقة الأفق ولا متعصبة، ولكنها كانت كاثوليكية ورعة، حرصت على أن تغسل في الأسبوع المقدس من كل عام أقدام اثنتي عشرة من العذارى وتمنهن مهور الزواج. وكانت مرجريت امرأة قديرة عطوفة، ولكن عصفت بها بشكل مزعج رياح الثورة.

لقد حد المستشارون الذين عينهم فيليب من سلطان مرجريت. وكان أجمونت وأورنج من بين أعضاء مجلس الدولة لديها. ومذ رأى هذان العضوان أنهما ينهزمان دائماً أمام رأى الأعضاء الثلاثة الآخرين في المجلس فإنهما امتنعا عن الحضور. وفي هذا الثالث الناشئ برزت وسيطرت شخصية أنطوان برينو أسقف آراس. المعروف في التاريخ باسم الكاردينال دي جرانفل. وكان رجلاً كريماً وفقاً لفلسفته وتفكيره، وكان ينزع-

صفحة رقم : 10052

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطينة -> مرجريت بارما

كما تنزع مرجريت-إلى الوسائل السلمية في معالجة الهرطقة، ولكنه كان مخلصاً للكاثوليكية والملكية إلى حد تعذر معه أن يسبغ الانشقاق أو الخلاف الديني. وقد غلت أيدي الكاردينال ومرجريت بإصرار فيليب على عدم اتخاذ أي إجراء هام إلا بموافقة الملك، وكان وصول هذه الموافقة الملكية من مدريد إلى بروكسل يتطلب عدة أسابيع. وضحي الكاردينال بشعبيته في سبيل طاعة الملك. وعارض تعدد الأسقفيات سراً، ولكنه خضع لإلحاح فيليب على أن أربع أسقفيات لا تكفي لسبع عشرة مقاطعة. ولحظت الأقلية البروتستانتية في استياء وغضب أن الأساقفة الجدد ينشرون محاكم التفتيش البابوية ويتشددون في إجراءاتها. وفي مارس 1563 كتب أورلنج وأجمونت وهورن-وهم أنفسهم كاثوليك-كتبوا إلى فيليب يتهمون جرانفل بانتهاك حرمة الحقوق الإقليمية التي تعهد الملك بالإبقاء عليها واحترامها، ورأوا أن الكاردينال مسئول عن الأساقفة الجدد، وحضوا على عزله من منصبه. ولم تستسغ مرجريت نفسها استيلاء الكاردينال على السلطة، وتاقت إلى شيء من التراضي مع النبلاء الساخطين الذين كانوا ذوي أهمية لديها للمحافظة على النظام الاجتماعي، وأخيراً في سبتمبر 1563 أوصت هي كذلك بنقل جرانفل إلى مكان آخر. وبعد مقاومة طويلة خضع الملك، ودعا القسيس العظيم إلى التمتع بإجازة ينقطع فيها عن عمله. وغادر جرانفل بروكسل في مارس 1564، ولكنه ظل واحد من أعظم المستشارين الموثوق بهم لدى الملك. وعاد النبلاء إلى مجلس الدولة الخاص بمرجريت، وباع بعض موظفيهم المناصب وأحكام القضاء وأوامر العفو، ويبدو أن نائبة الملك، مرجريت، شاركت في الغنائم(9).

وانتشرت محاكم التفتيش، وكان فيليب يراقبها وهو في أسبانيا، ويشجع على استمرارها، وبيعت إلى مرجريت بأسماء الهرطقة المشتبه فيهم. وما كاد يمر يوم دون إعدام. وفي 1561 أحرق جليلين دي مولر في أودينارد، وأحرق توماس كولبرج في تورني، وقطع أحد أنصار تجديد العماد أرباً حتى

صفحة رقم : 10053

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> مارجريت بارما

الموت بسبع ضربات من سيف عتيق صدي، في حضور زوجته التي قضت نحبتها فزعاً من هول المنظر (10) وأثارت هذه الأعمال الوحشية حفيظة برتران لبلاس فهاجم كاتدرائية تورفي، أثناء قداس عيد الميلاد واندفع إلى المذبح وانتزع القربان المقدس من يد القسيس ووطنه بقدميه، وصاح في جمهور المصلين "أيها المضللون، هل تظنون أن هذا هو المسيح إلهكم ومخلصكم؟" وعذب الرجل فأحرقته يده اليمنى وقدميه حتى لم يبق منها إلا العظام، وقطع لسانه، وعلق فوق نار وشوي على محصل حتى لفظ أنفاسه، وفي ليل أحرق روبرت أو جيبه وزوجته وأبناؤه لأنهم قالوا بأن عبادة القربان المقدس ليست إلا تجديفاً وثنياً (1).
أما توركيدا الأراضي الوطنية أول قاض للتحقيق وعضو في محكمة التفتيش في أسبانيا "يضرب به المثل في القسوة والتعصب الذميمة. فهو بيتر تينلمان الذي بلغت أعماله من التعسف والوحشية حداً اتهمه معه مجلس مدينة بريجز-وكله من الكاثوليك لدى مارجريت، بأنه متوحش انتزع الناس من بيوتهم وحاكمهم دون أية ضوابط قانونية، وأجبرهم على أن ينطقوا بما يريد هو، وحكم عليهم بالإعدام، كما أن القضاة في الفلاندرز وجهوا إلى الملك فيليب كتاباً مثيراً يرجون فيه وضع حد لهذه الأعمال الشائنة. وطلبت مارجريت في شيء من الجبن إلى هذا المحقق أن يتذرع "بالحزم والاعتدال"، ولكن الإعدام لم يتوقف. وأيد فيليب تينلمان، وأمر مارجريت أن تنفذ دون رحمة ولا إبطاء القرارات التي أصدرها مجمع ترنت (1564). واحتج مجلس الدولة بأن عدداً من هذه القرارات انتهك حرمة الامتيازات المعترف بها للمقاطعات، وأوقف نشرها.

صفحة رقم : 10054

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> مارجريت بارما

وكان وليم أورانج تواقفاً إلى الإبقاء على الأرض الوطنية متحدة في سبيل المحافظة على حريتها السياسية التقليدية، فاقترح انتهاج سياسة التسامح سابقة كثيراً لعصره وأوانه. فأعلن في مجلس الدولة "أن الملك يخطئ إذا ظن أن الأراضي الوطنية سوف تحتل وتساند هذه المراسيم الدموية بلا حدود. ومهما كنت شديد التمسك بعقيدتي الكاثوليكية، فأني لا أقر محاولة الأمراء أن يتحكموا في ضمائر رعاياهم، ورغبتهم في أن يسلبهم حرية العقيدة (11) " وأنظم الكاثوليك إلى البروتستانت دمع هذه المراسيم بالظلم والطغيان (12) وأرسل أجمونت إلى مدريد ليلتمس التخفيف من شدة هذه المراسيم، وعززت مارجريت هذا المطلب سراً. ووجه أساقفة ابيرس ونامور وغنت وسانت أوامر ملتصماً إلى فيليب (يونية 1565) يرجون فيه أن يخفف الملك المراسيم "وأن يوجه النصح إلى الشعب في شيء من الرفق والحب الأبوي، لا بالقساوة الشرعية (13)، ورد فيليب على كل هذه الاحتجاجات بأنه يؤثر أن يضحي بمائة ألف من الأرواح على أن يغير سياسته (14). وفي أكتوبر 1565 أرسل توجيهاته الصريحة إلى وكلاء محكمة التفتيش: أريد فيما يتعلق بمحكمة التفتيش أن تطبق إجراءاتها وأحكامها... كما كان الحال من قبل، وكما تقتضيه كل القوانين وضعية كانت أو إلهية. أن هذا يقع من نفس أحسن موقع. أريد منكم أن تتفوا أوامري. أعدموا كل المسجونين، ولا تتركوا لهم بعد اليوم فرصة للإفلات نتيجة تقصير القضاة وضعفهم وعقيدتهم الفاسدة، وإذا قعد الجبن ببعضهم عن تنفيذ المراسيم فإني استبدل بهم رجالاً أكثر جرأة وحماسة (15).

وأذنت مرجريت لفيليب وأصدرت أوامرها بتطبيق المراسيم تطبيقاً كاملاً (14 نوفمبر 1565). وانسحب أورانج واجمونت ثانية من مجلسها. ورفض أورانج وغيره من النبلاء وكثير من القضاة تطبيق المراسيم: وانهالت نشرات البروتستانت وإعلاناتهم التي يستكثرون فيها الاضطهاد. واشتم التجار

صفحة رقم : 10055

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> مرجريت بارما

الأجانب رائحة الثورة في الجو. فبدعوا ينزحون من الأراضي الوطنية، وأغلقت المخازن وكسدت التجارة، وخيم شبخ الموت على أنتبورب وفر كثير من البروتستانت من الأراضي الوطنية إلى إنجلترا وألمانيا. وفي إنجلترا ساعدوا على النهوض بصناعات النسيج التي نافست "المقاطعات المتحدة" في القرن السابع عشر، وقادت الانقلاب الصناعي في القرن الثامن عشر.

واعتنق كثير من صغار النبلاء المذاهب البروتستانتية خفية. وفي ديسمبر 1565 اجتمع بعض هؤلاء لـلويس كونت ناسو (وهو الشقيق الأصغر للشهم أوليم)، وفيليب فان مارنكس أمير سانت أديجوند، وأخوه جان فان مارنكس أمير تولوز، وهندريك كونت برودود، وغيرهم اجتمعوا في قصر كولمبرج في بروكسل، وحرروا "وثيقة" يستكثرون فيها إدخال محاكم التفتيش إلى الأراضي الوطنية، وشكلوا عصبة تعهدت بإخراجها من البلاد. وفي إبريل 1566 سار 400 من صغار النبلاء إلى قصر مرجريت وقدموا لها "ملتمساً" بأن تطلب إلى الملك أن يضع حداً لمحاكم التفتيش والمراسيم في الأراضي الوطنية، وأن توقف تطبيق المراسيم حتى يصل جواب الملك. وأجابت مرجريت بأنها سترسل ظلامتهم إلى الملك، ولكن ليس من سلطتها أن توقف المراسيم، وأنها ستبذل كل ما في مقدورها للتخفيف من مفعولها. ولما رأى أحد أعضاء مجلسها شدة فزعها من عدد مقدمي الظلامة وقوة عزمهم طمأنها بقوله "عجباً يا سيدتي" هل تخشين يا صاحبة العظمة المتسولين؟ وتقبل المتحالفون هذا اللقب تحدياً. وارتدى كثير منهم البدلة الرمادية الخشنة، وحملوا الحقيبة والطاس اللذين تميز بهما المتسولين آنذاك. وأصبحت عبارة "فليحي المتسولين" صيحة الحرب في الثورة. ولمدة عام كان هؤلاء النبلاء الصغار هم الذين قادوا الثورة وأذكوا نارها. وأبلغت مرجريت نبأ "الملتمس"، إلى فيليب، كما أبلغته ما يلقاه من تأييد شعبي كبير. وجددت مساعيها لحملة على الاعتدال، فكان جوابه يحمل في

صفحة رقم : 10056

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> مرجريت بارما

الظاهر معنى الترضية (6 مايو 1566)، وعبر عن أمله في إمكان قمع الهرطقة دون إراقة مزيد من الدماء، ووعد بزيارة الأراضي الوطنية في موعد قريب وأرسل إليه مجلس الدولة فلورنت مونمورنس، والبارون مونتيني، ومركز

برجون، لتعزير رجاء مرجريت. فاستقبلهم فيليب استقبالاً حسناً. وفي 31 يولية كتب إليها بموافقة على إلغاء محاكم التفتيش الأسقفية في الأراضي الوطية، وبأنه يصدر عفواً عاماً عن توصي هي بالعفو عنهم. وانتهز الكلفيون واللوثريون وأنصار تجديد العماد في الأراضي الوطية فرصة هذا الهدوء في العاصفة ليجهروا بعبادتهم، وعاد اللاجئون البروتستانت أفواجاً من إنجلترا وألمانيا وسويسرا، وقام الوعاظ من مختلف الطبقات- الرهبان السابقون، علماء اللاهوت، صانعو القبعات، ممشطو شعر الخيل، دباغو الجلود يخطبون في الجموع الغفيرة من النساء والرجال، وكثير منهم مسلحون، وكلهم يرتلون المزامير ويهتفون "فليحي المتسولون". وبالقرب من ثورني، ألقى أميروزويل الذي كان قد درس مع كلفن- ألقى موعظة في ستة آلاف شخص (28 يونيه 1566)، وبعد ذلك بيومين وفي نفس المكان، خطب قسيس آخر في عشرة آلاف، وبعد أسبوع واحد استمع لموعظته عشرون ألفاً (16). وبدا أن نصف سكان الفلاندرز أصبحوا بروتستانت. وكادت الكنائس والمدن أن تخلو من الناس في أيام الأحاد لأنهم هرعوا إلى جماعات البروتستانت. وإذا سمع الناس في مقاطعة هولندا بأن بيتر جريبيل الخطيب المفوه سوف يلقي موعظة في أوفرين بالقرب من هارلم، وهرع آلاف البروتستانت إليه، وهزوا أجواء الفضاء في الحقول بمزاميرهم. وبلغت جموع البروتستانت بالقرب من أنتورب خمسة عشر ألفاً، وقال بعضهم ثلاثين ألفاً، وكان كل الرجال مسلحين تقريباً. وأمرت مرجريت حكام أنتورب بمنع هذه التجمعات لأنها خطر على البلاد، فأجابوا بأن قواتهم المسلحة غير كافية ولا يعتمد عليها، ولم يكن تحت تصرف مرجريت نفسها قوات منذ رحيل الحاميات الأسبانية ح. وبلغ الاضطراب في أنتورب حداً

صفحة رقم : 10057

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطية -> مارجریت بارما

ساعت معه الحياة الاقتصادية بشكل خطير. وطلب مرجريت إلى وليم أورانج أن يشخص إلى المدينة لإجراء تسوية سليمة بين الكاثوليك والبروتستانت هناك. فعمل على تهدئة الأمور بحض الوعاظ على قصر اجتماعاتهم على الضواحي ألا يحمل المجتمعون سلاحاً. وفي الشهر نفسه (يوليه 1566) اجتمع كونت لويس ناسوا ألقان من "المتسولين" في سانت تروند، في أسقفية لياج، وسط هذا الصخب البهيج، وضعوا الخطط للمضي قدماً في قضيتهم. وقرروا الاتصال بالبروتستانت الألمان ليشكلوا بينهم جيشاً يهب لنجدة البروتستانت في الأراضي الوطية إذا هوجموا. وفي 26 يوليه قدم لويس واثني عشر آخرون، وهم في زي المتسولين، إلى مرجريت، طلباً بعقدة الجمعة العمومية، وأن تحكم هي نفسها في نفس الوقت. بتوجيه من أورانج وأجمونت وهورن، ولما كان ردها ملتوياً غير واضح فأنهم لمحوها إلى أنهم قد يضطرون إلى التماس مساعدة أجنبية، ومن ثم شرع لويس، بالتواطؤ مع أخيه الأحرص منه وليم، في تجهيز أربعة آلاف من الخيالة وأربعين سرية من المشاة في ألمانيا (17). وفي 9 أغسطس وقع فيليب وثيقة رسمية يعلن فيها أن العرض الذي قدمه للعفو العام قد انتزع منه رغم إرادته، وأنه لا يلزمه بشيء، وفي 12 أغسطس أكد للبابا أن إيقاف محاكم التفتيش مرهون بموافقة البابا (18). وفي 14 أغسطس اقتحمت جمهرة من البروتستانت بتحريض من الوعاظ الذين استنكروا الصور الدينية، كنائس سانت أومر الواحدة بعد الأخرى فحطموا الصور والمذابح ودمروا كل الزخارف. وفي نفس الأسبوع قامت جموع شبيهة بمثل هذه الأعمال في ايبز وكورتراي وأدينارد وفالنسيان. وفي يومي السادس عشر والسابع عشر دخلت الجماهير الكاتدرائية الكبرى في أنتورب وحطموا المذبح والزجاج الملون والصليبان وغيرها من الصور، ودمروا الآلات الموسيقية والزخارف وكؤوس القربان والأوعية المقدسة، وفتحوا

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> مارجریت بارما

الأضرحة وجرّدوا الجثث من حليها، وشربوا النبيذ المقدس، وأحرقوا كتب القديس الثمينة، ووطنوا بأقدامهم التحف الفنية. وأرسلوا في طلب السلام والجبال، فتسلقوا وجذبوا التماثيل من أماكنها وهشموها بالمطارق الثقيلة، وأخترق الجمع أنثروب وهم يهتفون منتصرين، وحطموا الصور والزخارف في ثلاثين كنيسة وديرًا، وأحرقوا مكاتب الرهبان، وأخرجوا الرهبان والراهبات من الأديار (19) ولما ترامت أنباء هذه "الضراوة الكلفنية" إلى تورني انطلقت نشوة تحطيم الصور المقدسة من عقالها هناك، وأعمال السلب والنهب في كل الكنائس. وفي الفلاندرز وحدها جردت 400 كنيسة من الصور. وفي كولمبيرج أشرف الكونت المبتهج المرح على أعمال التخريب وأطعم ببغاواته على القرابين المقدسة (20). وفي جهات أخرى قام بعض الكهنة السابقين بتحميص رقائق الخبز على شوكات (21). ومن الفلاندرز امتد الهياج إلى المقاطعات الشمالية، وإلى امستردام وليدن ودلفت وأوترخت، ثم جرونجن وفريزلند. واستنكر معظم زعماء البروتستانت أعمال التخريب هذه، ولكن بعضهم ممن رأوا أن الأفراد لم يلحق بهم أيسر الأذى والضرر. ذهبوا إلى تحطيم التماثيل والصور أقل إجراماً من إحراق الأحياء "الهراطقة".

وخارت قوى مرجریت بارما أمام العاصفة. فكتبت إلى فيليب تقول "أن أي شيء وكل شيء مختل في هذا البلد عدا العقيدة الكاثوليكية" (22). وبات فيليب يتحين الفرصة للانتقام. ولكن مرجریت التي تواجه الجماهير المسلحة والزعماء المغامرين أحست بأنها مرغمة على بعض التنازلات. ف وقعت في 23 أغسطس، مع ممثلي المتسولين، اتفاقاً تباح بمقتضاه العبادة الكلفنية في الأماكن التي كانت تمارس فيها بالفعل، بشرط عدم التعرض للطقوس الكاثوليكية، وألا يحمل البروتستانت سلاحاً خرج بيوتهم. ووافق ممثلو المتحالفين على حل "عصبتهم" إذا أوفت الحكومة بهذا الاتفاق. وتوقف الاضطهاد وساد السلام لبعض الوقت.

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> مارجریت بارما

ولكن أياً من وليم أورانج وملك أسبانيا لم يفتح بهدوء الحال. فإن وليم كان يرى في البروتستانتية الثائرة أداة لتحقيق استقلال الأراضي الوطنية، وعلى الرغم من أنه كان لا يزال كاثوليكياً اسماً فإنه تخلى عن كل مناصبه الحكومية، ونظم وسائله الخاصة للتجسس، وقصد (22 أبريل 1567) إلى ألمانيا يلتمس المدد من الرجال والمال. وبعد ذلك بخمسة أيام غادر دوق ألفا أسبانيا، مفوضاً من الملك فيليب، في جمع ما يلزم من القوات لاستخدامها في الانتقام من المشايخين الكلفنيين، والقضاء بلا وهادة على أية حال هرطقة وثورة وحرية في الأراضي الوطنية.

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> دوق ألفا في الأراضي الوطنية

3- دوق ألفا في الأراضي الوطنية

1567 - 1573

هو فرناندو ألفارز دي توليدو، دوق ألبا أو ألفا، وكان آنذاك في التاسعة والخمسين من العمر، وكأنه صورة أبدعتها ريشة الرسام الجريكو: طويل القامة، نحيل القوام، ذو عيين سوداوين، وبشرة صفراء، ولحية بيضاء فضية، وكان قد ورث، وهو في سن العشرين، لقبه اللامع الذائع الصيت، وضياعه الشاسعة، وبدأ العمل العسكري في سن مبكرة، وامتاز بالشجاعة والذكاء والقسوة. وألحقه فيليب بأخص مجالسه واستمع مغتبطاً إلى مشورته وكان حكمه في هذه الساعة العصبية ما يقضي به جندي درج على النظام الأسباني والورع الأسباني: اسحق الثوار العصاة دون شفقة ولا رحمة، فإن أي تنازل يقوي المعارضة. وأطلق فيليب يده ومنحه كل السلطة ودعا له بالتوفيق. شق ألفا طريقه إلى إيطاليا، وهناك جمع أساساً من الحاميات الأسبانية في نابلي وميلان صفوة الجند ليشكل جيشاً قوامه عشرة آلاف رجل، ألبسهم أفر الثياب وزودهم بأحدث العدة والعتاد، وأتجج صدورهم بألفين من بنات

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> دوق ألفا في الأراضي الوطنية

الهوى أحسن اختيارهن وإعدادهن وقاد الجيش عبر جبال الألب، وعبر برجندي واللورين ولكسمبرج وفي 22 أغسطس 1567 دخل بروكسل وتلقاه اجمونت في كل الخضوع والخشوع. وقدم له جوادين نادرين هدية. ولقبته مرجريت يعروها الأسي والأسف وهي تشعر بأن أباها حل محلها وفرض سلطانه عليها في نفس الوقت الذي كانت قد أعادت فيه نظاماً إنسانياً. واحتجت مرجريت عندما أقام ألفا حاميات أسبانية في كل المدن. وأجاب في فتور "إني على استعداد لاحتمال كل الخزي والوز".

واستأذنت مرجريت الملك فيليب في الاستقالة من منصبها، فأجابها إلى طلبها مع منحها معاشاً سخياً يضمن لها الهناءة، وفي ديسمبر رحلت عن بروكسل إلى موطنها في بارما، وقد حزن من أجلها الكاثوليك الذين أجلوها واحترموها، واليوستانت الذين تتبأوا بأنه سيوضح وشيكاً أن أشد قساوتها كانت ليناً واعتدالاً إلى جانب وحشية ألفاً المنتظرة.

وأقام نائب الملك الحاكم العام الجديد في قلعة أنتورب، وأعد نفسه لتطهير الأراضي الوطنية من الهرطقة، ودعا اجمونت وهورن إلى العشاء وأكرم وفادتها. ثم ألقى القبض عليهما وأرسلهما في حراسة مشددة إلى أحد الحصون في غنت (7 سبتمبر) وعين "مجلس القلائل" الذي أطلق عليه البروتستنتت الجزعون من جديد اسم "مجلس الدم" وكان سبعة من أعضائه التسعة من الأراضي الوطنية واثنان من الأسبان، وكان لهذين العضوين فقط حق التصويت. واحتفظ ألفاً لنفسه بالقرار الحاسم في أي موضوع يعنيه بخاصة. وأمر المجلس بالبحث عن المشتبه في معارضتهم للكنيسة الكاثوليكية أو الحكومة الأسبانية، واعتقالهم ومحاكمتهم سرّاً، ومعاقبة من يحكم عليهم دون ترفق أو إبطاء. وانبث الوكلاء للتجسس، وشجع المخبرين على الغدر بأقاربهم وأعدائهم وأصدقائهم وحظرت الهجرة، وأعدم ربانية السفن الذين يساعدون على ربانية عليها شناً (23). وحكم على كل مدينة عجزت عن قمع الثورة أو معاقبة

صفحة رقم : 10062

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> دوق ألفا في الراضي الوطنية

العصاة بأنها مذنبية، وأودع موظفوها السجن أو فرض عليهم الغرامة. وأعتقل آلاف الأفراد. وذات صباح واحد قبض على نحو 1500 في مضاجعهم ونقلوا إلى السجن. وكانت المحاكمات قصيرة عاجلة، وكان الحكم بالإعدام يصدر أحياناً بالجملة، على ثلاثين أو أربعين أو خمسين دفعة واحدة (24). وفي شهر واحد- (يناير 1568) أعدم 84 شخصاً من سكان فالنسيان. وسرعان ما كان من العسير أن تجد الفلاندرز أسرة غير حزينة على فرد منها قتل أو أعتقل بأمر من "مجلس القلائل". وندر أن كان في الأراضي الوطنية من يجسر على الاحتجاج، فإن أيسر النقد كان يعني الاعتقال.

وأحس ألفاً بأن نجاحه قد تلخ بعجزه عن إيقاع وليم أورنج في حباله. وأصدر مجلس المتاعب قراراً باتهام الأمير وأخيه لويس، وزوج أخته كونت فان دن برج، والبارون مونتيني وغيرهم من الزعماء، بتشجيع الهرطقة والثورة. وكان مونتيني لا يزال في أسبانيا، فأودعه فيليب السجن. وكان ابن وليم، وهو فيليب وليم كونت بورن طالباً في جامعة لوفان. فاعتقل وأرسل إلى أسبانيا، وهناك نشئ تنشئة كاثوليكية متحمسة، وتبرأ من مبادئ أبيه. وصدر إعلان بأن وليم خارج على القانون، أحل لأي إنسان قتله دون التعرض لعقاب القانون. وعمل وليم أورنج على تنظيم جيش، ووجه أخاه لويس إلى أن يحذو حذوه. والتمس العون من الأمراء اللوثرين فكم يتحمسون للاستجابة له، ومن الملكة إليزابث التي أمسكت عن مساعدته في حذر. وجاءته الأموال من أنتورب وأمستردام وليدن وهارلم وفلشنج، وأرسل إليه كل من الكونت فان دن برج وكولمبرج وهو جسترانن ثلاثين ألف فلورين، وباع مجوهراته وأواني الفضية ومطرزاته وأثاثه الفاخر، وجمع نحو خمسين ألف فلورين، وتوافر الجنود، لأن المرتزقة الذين تفرقوا نتيجة بعض الهدوء في الحرب الدينية في فرنسا، عادوا إلى ألمانيا مفلسين. وكان لزاماً أن ينتهج وليم سياسة التسامح، فكان

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> دوق ألفا في الأراضي الوطنية

عليه أن يكسب اللوثريين والكلفيين تحت لوائه، كما كان عليه أن يؤكد للكاثوليك في الأراضي الوطنية أن عبادتهم لن تمس بسوء بتحرير البلاد من ربيعة إسبانيا.

ووضح أورانج خطة العمل لثلاثة جيوش في وقت واحد، قوة من الهيجونوت من فرنسا تهاجم أرتوا من الجنوب الغربي، ويقود هوجستراتن جيشه ضد ماسترخت في الجنوب، ويقترح لويس ناسو من ألمانيا في الشمال الشرقي .

وصدت هجمات الهيجونوت وهو جسترانتن، وكن لويس انتصر على الجنود الأسبان في هيلجرلى (23 مايو 1568). وأمر دوق ألفا بإعدام أجمونت وهورن (5 يونية) ليطلق ثلاثة آلاف من الجنود كانوا يتولون حراستها وحماية مدينة غنت، ليستفيد منهم. وتقدم بهذه الإمدادات إلى فريزلند، ودر جيش لويس الذي أصابه الوهن في جمنجن (21 يولية) وأودى بحياة 7000 رجل وهرب لويس سباحاً في مصب نهر امز. وفي أكتوبر قاد وليم جيشاً قوامه 25 ألف رجل إلى برابانت، وقد عقد العزم على ملاقاته ألفا في معركة حاسمة. ولكن ألفا بجيشه الأقل عدداً والأحسن نظاماً أحبط خطته، وتجنب اللقاء في معركة، وعمد إلى تعويق عدوه بهجمات في مؤخرته ورفض القتال جنود وليم الذين لم تدفع رواتبهم. فقادهم إلى مكان آمن في فرنسا وسرحهم. ثم تنكر في زي فلاح وشق طريقه من فرنسا إلى ألمانيا حيث تنقل من مدينة إلى مدينة، فراراً من القتل. وبهذه الحملات المشؤومة الممتلئة بالكوارث بدأت "حرب الثمانين عاماً" التي خاضتها الأراضي الوطنية في ثبات ومثابرة لم يسبق لهما مثيل، حتى قدر لها النصر في النهاية في 1648.

كان ألفا آنذاك سيد الموقف المزهو في الميدان، ولكنه كان خاوي الوفاض إلى أحد بعيد. وكان الملك فيليب قد دبر أصحاب المصارف في جنوة أن يمدوه بحراً بأربعمائة وخمسين ألف دوكات. ولكن القرصان الإنجليز أجبروا السفن على الاتجاه إلى ميناء بليموت، وهناك وضعت اليزابيث يدها على المال،

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> دوق ألفا في الأراضي الوطنية

مع أرق الاعتذارات، حيث لم تكن تكفه مساعدة وليم مقابل هذا الثمن. عندئذ دعا ألفا الجمعية العمومية المكونة من النبلاء وممثلي المدن للاجتماع في بروكسل، واقترح عليهم (20 مارس 1569) فرض ضريبة فورية قدرها 1% على الممتلكات وضريبة دائمة قدرها 5% على أية عملية نقل للعقارات، وضريبة دائمة قدرها 10% على المبيعات فاحتجت الجمعية بأنه لما كانت مواد كثيرة قد غيرت الملكية عدة مرات في العام الواحد فإن ضريبة المبيعات هذه تقارب أن تكون مصادرة، وأحالت المقترحات إلى جمعيات المقاطعات، وهناك كانت المعارضة شديدة إلى حد اضطر معه ألفا إلى إرجاء ضريبة الـ 10% إلى 1572، والاكتفاء بضريبة الواحد في المائة، وبمنحة قدرها مليوني فلورين سنوياً لمدة عامين. ولكن حتى ضريبة الواحد في المائة كانت جبايتها شاقة باهظة التكاليف ورفضت أوترخت دفعها.

فأطبقت فرقة من الجند على المنازل والممتلكات، واستمرت المقاومة، ورمى ألفا كل الأقاليم بالخيانة وألغى كل إعفائه وامتيازاته، وصادر كل ممتلكات سكانه لصالح الملك. وأن هذه الضرائب والإجراءات التي اتخذت لفرضها هي التي هزمت ألفا الذي لم يهزم حتى ذلك اليوم. وبات كل السكان تقريباً كاثوليك وبروتستانت، يقاومونه، في استياء يتفاقم أمره، كلما عوقت وعرقلت ضرائبه نشاط الأعمال التي بنت عليها الأراضي الوطنية ازدهارها ورخاءها. ولما كان ألفا أبرع في الحرب منه في شئون المال فإنه انتقم لاستياء إليزابيث على الأموال التي كانت في طرقها إليه من جنوة، بالاستيلاء على الممتلكات الإنجليزية في الأراضي الوطنية، وحظر التجارة مع إنجلترا. وردت إليزابيث على هذا بمصادرة بضائع الأراضي الوطنية في إنجلترا، وتحويل التجارة الإنجليزية إلى همبرج. وسرعان ما أحست الأراضي الوطنية بوطأة الكساد الاقتصادي. فأغلقت المتاجر أبوابها، وازداد التعطل، وفكر رجال الأعمال الأفياء الذين احتملوا في صبر وتجلد شق البروتستانت ونهب الكنائس، فكروا ملياً وسراً في الثورة

صفحة رقم : 10065

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> دوق ألفا في الأراضي الوطنية

وأخيراً مولوها. وحتى رجال الدين الكاثوليك الذين خشوا انهيار الاقتصاد الوطني، انقلبوا على ألفا، وحذروا الملك فيليب من أن الدوق يعمل على تخريب البلاد(25)، بل أن البابا بيوس الخامس الذي كان قد اغتبط أيما اغتباطاً بانتصارات ألفا، نراه الآن يشاطر الكاردينال دي جرانفل أسفه لقساوة ألفا(26). ويوصي بالعفو العام عن العصاة والهراطقة النادمين التائبين -ووافق فيليب على هذا الإجراء وأبلغ به ألفا (فبراير 1569)، ولكن الدوق طلب التمهّل، ولم يعلن العفو إلا في 16 يولييه 1570. وفي تلك السنة خلع البابا على ألفا القبة والسيف المقدسين، وأنعم "بالوردة الذهبية" على زوجته(27)، كما أعدم فيليب مونتينني الذي كان سجيناً - (16 أكتوبر 1570). وفي نفس الوقت ظهرت على المسرح قوة جديدة. وذلك أنه في مارس 1568 قامت من اليانسين المستميتين عرفوا باسم "المتسولين المنظرين"، وجهوا همهم إلى نهب الكنائس والأديار وقطع أنوف القساوسة والرهبان أو آذانهم، وكانهم عقدوا العزم على مباراة "مجلس الدم، وفي وحشيته وفضاعته(28). وفيما بين عامي 1569-1572 ظهرت جماعة أخرى أطلقوا على أنفسهم اسم "متسولي البحر"، وضعوا أيديهم على 18 سفينة، وتلقوا عمولة من وليم أورانج، وأغاروا على شواطئ الأراضي الوطنية، ونهبوا الكنائس والأديار، وسيطروا على المراكب الأسبانية، وزودوها ثانية بالمؤن من الثغور الإنجليزية الصديقة -بل حتى من لاروشيل النائية- التي كانت في يد الهيجونوت آنذاك. وأغار "متسولو البحر على أية مدينة ساحلية لا توجد بها حامية أسبانية، واستولوا على المواقع الحصينة، وبفضل قدرتهم على فتح السدود بات من أخطر الأمور على القوات الأسبانية أن تقترب منهم أو تصل إليهم. فلم يعد في مقدور ألفا أن يتلقى أية امدادات أو مؤن من البحر وهكذا صارت المدن الرئيسية في هولندا وزيلند وبلدرلند وفريزلند آمنة محمية،

صفحة رقم : 10066

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> دوق ألفا في الأراضي الوطنية

ومن ثم قدمت ولاءها لوليم أورانج، وقررت تزويده بالإمدادات من أجل الحرب (يوليه 1572) ونقل وليم مقر قيادته إلى دلفت وأعلن أنه "الأصلع الكلفني، وهو لقب أصدق على رأسه منه على عقيدته، وفي تلك الأونة كتب فيليب فان مارنكس أغنية "وليم ناسو" التي أصبحت، ولا تزال، الترنيم الوطنية في الأراضي الوطنية.

ومنذ لقي وليم أورانج التشجيع على هذا النحو جهز جيشاً آخر وغزا برابانت. وفي نفس الوقت قام لويس ناسو، بمعونة كوليني، بإعداد قوة في فرنسا، ودخل هيبوت، واستولى على فالنسيان ومونز (23 مايو 1572). وتقدم ألفا لبيسترد مونز، وهو يأمل بذلك أن يثني فرنسا عن مساعدة لويس. وتقدم وليم جنوباً لنجدة أخيه، وأحرز بعض انتصارات يسيرة، ولكن سرعان ما استنفذ ما لديه من مال، فتقاضى جنوده أجورهم بنهب الكنائس، وتسلبوا بقتل القساوسة (29). فتارت تائرة الكاثوليك، حتى أنه عندما اقترب جيش وليم بروكسل وجد الأبواب موصدة والأهالي يحملون السلاح لمقاومته واستأنف الجيش سيره، ولكن على مسافة فرسخ من مونز فوجئ الجند، وهم نيام، بستمائة جندي أسباني، وقتلوا من جنود وليم ثمانمائة قبل أن يتمكنوا من تهيئة أنفسهم للدفاع. واستطاع وليم الهرب بشق النفس مع بقايا قواته، إلى مكليين في برابانت. وفي نفس الوقت قضى قتل كوليني ومذبحة سانت برتلميو على كل أمل في العون من فرنسا. وفي 17 سبتمبر سقطت مونز في يد ألفا الذي هيا للويس وقلول جيشه أن يرحلوا دون أن يمسه أذى. ولكن قائد جيش ألفا، فيليب دي نوفارم، شنق من تلقاء نفسه مئات من الأهالي، وصادر ممتلكاتهم وباعها بثمن عال (30).

أن فشل استراتيجية وليم وإفراط قواته التي يصعب قيادها ووحشية "المتسولين" وفظائعهم، كل أولئك خيب آماله في توحيد الكاثوليك والكلفنيين واللوثريين ليقاوموا جميعاً طغيان ألفا. فإن "المتسولين". وكانوا

صفحة رقم : 10067

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> دوق ألفا في الأراضي الوطنية

كلهم تقريباً كلفنيين متحمسين أبدوا ضد الكاثوليك من ضروب الوحشية والضرارة ما أبدته محاكم التفتيش ومجلس الدم نحو الثوار والهراطقة. وفي كثير من الحالات لم يتركوا للأسرى الكاثوليكية إلا الخيار بين الكلفنية أو الموت، وكانوا يقتلون دون تردد، وفي بعض الأحيان بعد تعذيب لا يصدق، كل من تمسك بأهداب العقيدة القديمة (31). وأعدم كل ن طرفي النزاع كثيراً من أسرى الحرب. وكتب مؤرخ بروستاني يقول:

في أكثر من مناسبة رئي الرجال يشنقون... اخوتهم هم أنفسهم الذين وقعوا أسرى في صفوف الأعداء... ووجد سكان الجزر لذة وحشية في ضروب القسوة هذه، ولم يعد الأسباني في نظرهم فرداً من بني الإنسان. وذات مرة انتزع أحد الجراحين قلب سجين أسباني، وثبته بالمسامير في مقدم السفينة ودعا الأهالي ليغرسوا أسنانهم فيه، وفعل كثير منهم هذا في ارتياح وحشي (32).

أن هؤلاء "المتسولين" القساة القلوب هم الذين هزموا دون ألفا. وأخذ الدوق إلى شيء من الراحة بعد الحملات التي قام بها، وورث ابنه دوق فدريجو ألفارث دي توليدو مهمة استعادة ومعاقبة المدن التي كانت قد أعلنت تأييدها لوليم أو استسلمت له. فبدأ ألفارث بمدينة مكليين التي أبدت أقل مقاومة، حيث خرج القساوسة والأهالي في موكب نادمين،

يرجون الصفح والإبقاء على المدينة، ولكن ألفا كان قد أمر بانتقام تكون فيه موعظة وعبرة. فظل جنود فدريجو لمدة أيام ثلاثة يذهبون البيوت والأديار والكنائس، ويسرقون الحلي والأردية الثمينة من التماثيل المقدسة. ويطأون الفطائر المقدسة تحت الأقدام، ويذبحون الرجال ويستحيون النساء، كاثوليك أو بروتستانت على حد سواء وفي طريق تقدمه إلى جلدلند، تغلب جيشه على الدفاعات الهزلية في زوتفن، وقتل كل رجال المدينة تقريباً. وعلق بعضهم من الأقدام، وأغرق خمسمائة منهم يربطون زوجاً زوجاً، ظهرأ لظهر، والإلقاء بهم في نهر ايسل. واستسلمت بلدة ناردن الصغيرة بعد مقاومة قصيرة، وحبس الأسبان الغزاة بموائد زحرت

صفحة رقم : 10068

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> دوق ألفا في الراضي الوطنية

بألوان الطعام، فأكل الجنود وشربوا ثم اعملوا القتل في كل الأهالي في المدينة وتقدموا إلى هارلم، وهي مركز كلفني أبدى حماساً خاصاً للثورة. وقد دافعت حامية قوامها أربعة آلاف رجل عن المدينة دفاعاً مجيداً، إلى حد أن دوق فدريجو اقترح الانسحاب منها، ولكن ألفا هدد بأن يتبرأ منه إذا لم يستمر في الحصار، فتصاعدت أعمال العنف، وعلق كل من الطرفين أسراه على أعواد المشانق في مواجهة عدوه. وأثار المدافعون حنق المحاصرين بأن مثلوا على الأسوار الطقوس الكاثوليكية بطريقة تدعو إلى السخرية والضحك. وأرسل وليم ثلاثة آلاف جندي لمهاجمة جيش دوق فدريجو، ولكنهم أبيدوا وأخفقت كل محاولة لتخليص هارلم بعد ذلك. وفي 11 يولية 1573، بعد حصار دام سبعة أشهر اقتات فيها الناس على الأعشاب والجلود، استسلمت المدينة. ولم يبق على قيد الحياة سوى 1600 رجل أعدم معظمهم. كما أعدم 400 من المواطنين المترعمون، أما بقية الأهالي فقد على حياتهم بعد موافقتهم على دفع غرامة قدرها مائتان وخمسون ألف جلدلر.

وكان هذا آخر انتصارات حكومة دوق ألفا وأبهظها تكلفة. وهلك أكثر من اثني عشر ألفاً من أفراد الجيش الذي تولى الحصار متأثرين بالجراح أو بالمرض. واستنزفت الحرب كل ما حصل من ضرائب بغیضة، واكتشف فيليب الذي كان يعد النقود أكثر مما يحسب حساب الأنفس والأرواح، أن ألفا لم يكن محبوب لدى الناس فحسب، بل أنه كان كذلك ينفق أموالاً طائلة، وأن أساليب قائده كانت تعمل على توحيد الأراضي الوطنية ضد أسبانيا وأحس دوق ألفا بأن الرياح غير مواتية له، وأن التيار قد انقلب ضده. فطلب تنحيته وتباهى بأنه قتل 18 ألف ثائر(34). ولكن الهراطقة كانوا في مثل القوة التي كانوا عليها عندما جاء هو إلى الميدان، بل أكثر من ذلك أنهم سيطروا على الثغور وعلى البحر، وأن الملك فقد مقاطعتي هولندا وزيلندة تماماً. وقد أسقف نامور أن ألفا في سبع سنين، وألحق من الأذى بالكاثوليكية أكثر مما ألحقه بها لوثر والكلفنية في جيل بأسره(35). وقبلت

صفحة رقم : 10069

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> دوق ألفا في الأراضي الوطنية

استقالة ألفا وغادر الأراضي الوطنية (18 ديسمبر 1573) وأستقبله الملك فيليب استقبالا حسناً. وقاد، وهو في سن الثانية والسبعين الجيوش الأسبانية لغزو البرتغال (1580). ولدى عودته من هذه الحملة انتابته حمى متقطعة، ولم يحفظ عليه حياته إلا إرضاعه اللبن من ثدي امرأة. وفاضت روحه في 12 ديسمبر 1582، بعد أن عاش عاماً على اللبن. ونصف قرن على الدم.

صفحة رقم : 10070

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> ركويسانس ودون جوان

4- ركويسانس ودون جوان

1578 - 1573

وأرسل فيليب دون لويس دي ركويسانس ليحل محل ألفا، وهو الذي كان منذ عهد قريب نائب الملك في ميلان. ودهش الحاكم الجديد لعدد الثوار والروح التي سادتهم، فكتب إلى الملك: "لم أكن أدرك قبل وصولي كيف استطاعوا الاحتفاظ بمثل هذه الأساطيل الضخمة، على حين أن جلالتم لم تستطيع الإنفاق على أسطول واحد فقط. ومهما يكن من أمره، فإنه يبدو أن الرجال الذين يقاتلون من أجل حياتهم وديارهم وأملآهم وعقيدتهم الزائفة، وجملة القول عن قضيتهم- يقنعون بالطعام دون أجور(37). ورجا فيليب في أن يرخص له في إصدار عفو عام عن الجميع باستثناء الهراطقة العنيدين، مع السماح لهم بالهجرة، وإلغاء ضريبة العشرة في المائة على البيوع. ولم ير وليم أورانج في هذه المقترحات إلا لعبة لكسب الوقت، ووسيلة جديدة لاستئصال البروتستانتية من الأراضي الوطنية، ولم يكن يقبل السلام إلا على أساس الحرية الكاملة للعبادة، واستعادة امتيازات المقاطعات، وانسحاب الأسباب من الوظائف المدنية والعسكرية. واستمرت الحرب. وفي معركة (13 أبريل 1577) قضى نحبه كل من أخوي وليم: لويس في سن السادسة والثلاثين، وهنري في سن الرابعة والعشرين. وثمة حادثان شدا من أزر الثورة في هذه الأونة: إفلاس فيليب (1575)

صفحة رقم : 10071

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> ركويسانس ودون جوان

وموت ركويسانس في أثناء حصار زيركزي (5 مارس 1576). عين الملك أخاه غير الشقيق، دون جوان النمساوي، في هذا المنصب البغيض. ولكنه لم يصل إلى لكسمبرج إلا في نوفمبر. وفي هذه الأثناء وقع ممثلو هولندا وزيلنדה، وفي دلفت (25 إبريل) "قانون التهدة" الذي خول وليم السلطة العليا في البر والبحر، وحق التعيين في الوظائف السياسية. وعند الضرورة حق العهد بحماية الاتحاد إلى أمير أجنبي. وأهاب وليم، من مركز السلطان الجديد، بسائر المقاطعات أن تشارك في طرد الأسبان من الأراضي الوطنية. ووعد بحرية الفكر والعقيدة للكاتوليك وللبروتستان على حد سواء.

وربما لقي نداؤه بعض الاستجابة في المقاطعات الجنوبية لولا أن الجنود الأسبان وقد خدعهم السلب والتهب في زيركزي، تمردوا (يولية) وبدعوا، دون تمييز، حملة من السلب والنهب والعنف أرهبت فلاندرز وبرابانت. ووجه إليهم مجلس الدولة في بروكسل تأنيباً قاسياً ولكنهم تحدوه، فأعلن المجلس أنهم خارجون على القانون، ولكن لم يكن لديه قوة يقاومهم بها. فعرض وليم أن يرسل قوات عسكرية لحماية هذه البلاد، وجدد تعهده بالحرية الدينية. وتردد المجلس، فأطاح به أهالي بروكسل، وشكلوا مجلساً آخر تحت رئاسة فيليب دي كروي الذي بدأ المفاوضات مع الأمير. وفي 26 سبتمبر رحبت غنت بفرقة عسكرية أرسلها وليم لحماية المدينة من المتمردين الأسبان. واجتمع في غنت في 19 أكتوبر، ممثلون عن برابانت وفلاندرز وهينوت، وكانوا يكرهون تحالف ولاياتهم مع الأمير المحروم من حماية القانون، ولكن في 20 أكتوبر اجتاح المتمردون ما سترخت، وفي 28 منه، وقع المجتمعون للبحث والتشاور رغبة في حماية قوات وليم لهم، "قانون التهدة" الذي صدر في غنت، والذي اعترف بوليم حاكماً على هولندا وزيلنדה، وأوقفوا كل اضطهاد للهرطقة، وانتقوا على التعاون في طرد الجنود الأسبان من مقاطعاتهم. ورفضت الجمعية العمومية للمقاطعات الجنوبية التي انعقدت في بروكسل، التوقيع على "قانون التهدة"، حيث اعتبرته إعلاناً للحرب ضد الملك.

صفحة رقم : 10072

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> ركويسانس ودون جوان

ودعم المتمردون مرة أخرى من حجج وليم، ذلك أنهم في 4 نوفمبر 1576 استولوا على أنتورب، وأعملوا فيها السلب والنهب، على أسوأ شكل عرفه تاريخ الأراضي الوطنية. وقاوم المواطنون ولكنهم غلبوا على أمرهم، وقتل منهم سبعة آلاف، وأحرق ألف مبنى كان بعضها من روائع العمارة. وذبح الرجال والنساء والأطفال في طوفان من الدماء بأيدي الجنود وهم يرددون الصيحات: "سان جيمس، أسبانيا، الدم، الموت، النار، السلب، النهب" وطوال تلك الليلة عاث الجنود في المدينة الغنية، وسلبوا كل بيت فيها تقريباً، ورغبة في انتزاع الاعتراف بالذخائر المخبأة، أصيلة أو زائفة، عذبوا الآباء على مرأى من أطفالهم، وذبحوا الصبية وهم في أحضان أمهاتهم، وضربوا الزوجات بالسياط حتى الموت أمام أعين أزواجهن. واستمر هذا العنف "العنف الأسباني" يومين حتى أتخم الجنود بالذهب والحلي والملابس

الثمينة، وبدأ الواحد منهم يقامر الآخر بغنائمه في الشوارع المكتظة بجثث الموتى. وفي 28 نوفمبر صدقت الجمعية العمومية على "قانون التهدة" الذي وضع في غنت. وكان هذا نصراً مبيناً أحرزه الأمير في الوقت المناسب. وعندما أرسل دون جوان من لكسمبرج يقول أنه على وشك أن يدخل بروكسل، أجابت الجمعية العمومية بأنها لن تستقبله بوصفه حاكماً إلا إذا وافق على "قانون التهدة" وأعاد امتيازات المقاطعات، وطرد كل القوات الأسبانية من الأراضي الوطنية. وقضى دون جوان، الباسل في ميدان المعركة، القليل الخبرة بالسياسة والذي أعوزه الرجال والمال، شتاءه متلكناً في لكسمبرج، ثم وقع في 12 فبراير 1577 "المرسوم الدائم" الذي أدى به إلى التهدة وحرقات المقاطعات. وفي أول مارس دخل دون جوان بروكسل في احتفال رسمي، واعتبنت المدينة إذ رأت مثل هذا الحاكم الوسيم الأعزل الضعيف. ورحلت القوات الأسبانية. وساد السلام لفترة وجيزة ربوع البلاد المخربة. وكانت أحلام جوان أكبر من إمكاناته المالية. وبعد مآثره وبطولاته في ليننتو وتونس أو هنت العظمة اليانسة العاجزة فورة الدم الهادر بأوهام

صفحة رقم : 10073

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> ركوبسانس ودون جوان

البطولة. وعلى مقربة منه كانت ماري ستوارت الجميلة سجيناً لدى إليزابيث العملاقة الرهيبة. فلم لا يحشد جوان جيشاً وأسطولاً، ويعبر البحر، ويطيح بعرش ملكة وبيتزوج الأخرى، ويصبح ملكاً على إنجلترا وإسكتلندا، ويعيد هذه الأقاليم الغافلة إلى أحضان الكنيسة الأم، أن فيليب الذي خشي الهوة بين الأموال والأحلام، اعتبر أخاه ساذجاً مخدوعاً. وقدم جوان البرهان على ذلك، فإنه غادر بروكسل فجأة (11 يونيو)، على رأس فرقة من الوالون (سكان جنوب بلجيكا) الكاثوليك، وأنكر "قانون التهدة". وبعد مفاوضات عميقة مع جوان، دعت الجمعية العمومية وليم إلى العاصمة، ولدى وصوله (23 سبتمبر) رحب به جمهور كبير من المواطنين الكاثوليك على أنه الرجل الوحيد الذي يستطيع أن يقود الأراضي الوطنية إلى الحرية. وفي 8 أكتوبر أبلغت الجمعية العمومية دون جوان أنها لم تعد تعترف به حاكماً يمكن أن تقبل في مكانه أمير من الأسرة المالكة. وفي 10 ديسمبر 1577 انضمت المقاطعات كلها - عدا نامور - إلى "اتحاد بروكسل". وطلب الأعضاء الكاثوليك في الجمعية العمومية، الذين كانوا يخشون كلفنية وليم، إلى ماتياس أرشيدوق النمسا أن يكون حاكماً على الأراضي الوطنية. وقدم الشاب ابن العشرين وتقلد المنصب (18 يناير 1578) ولكن أنصار وليم أعزوا الحاكم الجديد بتعيين وليم نائباً له - ومن الوجهة الفعلية صاحب الأمر والنهي في الإدارة والسياسة.

وكان يمكن للتسامح المتبادل في الخلافات الدينية وحده يبقى على هذا الاتحاد أو الترابط، ولكن التعصب مزقه. فإن الكلفنيين في هولندا والكاثوليك في أسبانيا اعتقدوا جميعاً بأن الكفار وحدهم الذين يستطيعون أن يبدوا تسامحاً. وقال كثير منهم صراحة بأن وليم أورنج ملحد (38)، واتهمه الواعظ الكلفني بيتر داتينوس، بأنه جعل من السلطة معبوده الوحيد، وأنه يغير عقيدته كما يغير الناس ملابسهم (39). وكان المكلفنيون (وظلوا

صفحة رقم : 10074

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> ركوبسانس ودون جوان

حتى 1587) يشكلون عشر السكان فقط في مقاطعة هولندا، ولكنهم كانوا نشيطين طموحين ومسلحين. وكانت لهم السيطرة على الجمعيات السياسية، فأحلوا حكماً وقضاة بروتستانت محل الكاثوليك، وفي 1573 حظر مجلس المقاطعة العبادة الكاثوليكية في هولندا(40)، على أساس أن أي فرد كاثوليكي يحتمل أن يكون خادماً لأسبانيا. ولن تأت 1578. إلا وقد عمت الكلفنية زيلنده تقريباً، وكانت م الوجهة السياسية-لا العددية-متسلطة في فريزلند واكتسحت موجات تحطيم الصور المقدسة هولندا وزيلنده 1572، ومقاطعات أخرى، حتى الفلاندرز وبرابانت، بعد 1576. وأنكروا أي ربط بين الدين والفن باعتباره عملاً وثنياً دنساً. وجردت الكنائس من الصور والتماثيل والصلبان والزخارف، وصهرت الأواني الذهبية والفضية، ولم يبق إلا الجدران العارية، وعذب "المتسولون" القساوسة الكاثوليك، وأعدموا نفرأ منهم(41).

واستكر وليم كل هذه التصرفات، ولكنه تغاضي(42) عن استيلاء الأقليات الكلفنية المسلحة السياسية في بروكسل وايبير وبروجز وكل شمال الفلاندرز(43). وفي غنت سجن الكلفنيون أعضاء المجلس، ونهبوا الكنائس والأديار وأتلفوا أجزاءها الداخلية، وصادروا أملاك الكنيسة، وحرموا إقامة الطقوس الكاثوليكية، وأحرقوا الرهبان في ساحة السوق(44)، وأقاموا جمهورية ثورية (1577). وفي امستردام اقتحم الكلفنيون المسلحون دار البلدية (24 مايو 1578)، وطرودوا القضاة والموظفين، وأطوا محلهم كلفنيين، وخصصوا الكنائس التي جردوها لمذهب الصلاح. وفي اليوم التالي قامت ثورة مماثلة بمثل هذا العمل في هارلم. وفي أنتورب التي كانت آنذاك مقر قيادة وليم أخرج البروتستانت القساوسة والرهبان من المدينة (28 مايو)، وأنب الأمير أتباعه تأنيباً شديداً على هذا العنف. وخصهم على السماح باستثناء الطقوس الكاثوليكية. ولكن في 1581 حرمت كل عبادة كاثوليكية في أنتورب وأوترخت. واتهم الكلفنيون

صفحة رقم : 10075

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> ركوبسانس ودون جوان

القساوسة بأنهم كانوا يخدعون الناس بالمخالفات الزائفة والكرامات التي يفتعلونها-عرض قطع من "الصليب الحقيقي، وعظام قديمة للتعبد على أنها رفات القديسين، وإخفاء الزيت في رؤوس التماثيل حتى ترشح في الوقت المناسب(45).

على أن وليم تولاه الحزن والأسى حين رأى سنوات كفاحه من أجل الوحدة تختتم بالفرقة والفوضى والبغضاء. وإن الديمقراطية الكلفنية التي كانت قد استولت على جملة مدن الآن في وهدة من الفوضى، بدأ معها الملاك البروتستانت والكاثوليك على حد سواء يتساءلون هل كان المذهب الجديد وكل ما يتصل به من دعايات أشد وبالاً عليهم من الديانة القديمة. وسرى شعور الاستياء وواجه وليم هذه الرغبة المتزايدة في إعادة النظام بالتفاوض مع فرنسوا دوق أنجو ليتولى منصب الحاكم العام بدلاً من ماتياس الماجز التافه. ولكن اتضح أن أنجو خائن حقير. وزاد الطين بلة في محنة وليم، أن جيشاً أسبانياً جديداً قوامه عشرون ألفاً من الجنود المدربين أحسن تدريب، كان يتجه شمالاً بقيادة أقدراً قواد

العصر. ذلك أنه في ديسمبر 1577 قدم الساندرو فارنيز دوق بارما بجيشه إلى دون جوان في لكسمبرج. وفي يناير 1578 هزموا القوات التي كان يعزوها النظام، التابعة للجمعية العمومية، في جمبلو. وفتحت لوفان واثنني عشرة مدينة صغيرة أخرى، أبوابها أمام الفاتح الجديد، وفرت الجمعية العمومية الأراضي الوطنية من بروكسل إلى أنتورب. إلا أن دون جوان الذي استنشر مجدداً جديداً، انتابته حمى خبيثة، وقضى نحبه في نامور، في أول أكتوبر 1578، وهو في سن الثالثة والثلاثين. وعين فيليب دوق بارما حاكماً عاماً مكانه، وبدأ فصل جديد.

صفحة رقم : 10076

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> بارما وأورانج

5- بارما وأورانج

1578 - 1584

الساندرو فارنيزي، الذي يبلغ الثالثة والثلاثين، هو ابن نائبة الملك السابقة مرجريت بارما. تربى في أسبانيا وأقسم يمين الولاء لفيليب، وحارب في ليبنتو وقضى الأربعة عشر عاماً الأخيرة من حياته في الإبقاء على الأراضي الوطنية الجنوبية في حوزة الملك فيليب. وفي 1586 وروث دوقية بارما ولقبها، ولكنه لم يجلس على عرش الدوقية قط. وكان له عينان حادثان، ووجه أسمر، وشعر أسود قصير، وأنف كأنف النسر، ولحية كثة، كل أولئك كشف عن شيء يسير من مقدرته وشجاعته وبراعته، وجمع بين كل الفن العسكري الذي امتاز به دوق ألفا، مع إثارة من قسوته، وقدرراً أكبر بكثير من المهارة في المفاوضة والحديث. وبات القتال من أجل الأراضي الوطنية، آنذاك، صراعاً بين دبلوماسية بارما وأسلحته تسانده أموال الكاثوليك وآمالهم، بين صمود أمير أورانج البطولي، يموله التجار الهولنديون ويشدون أزره. ويعرقل جهوده، في وقت معاً، تعصب أصدقائه.

وفي 5 يناير 1579 شكل جماعة من النبلاء الكاثوليك، من هينوت ودوا وأرتوا وليل، بايحاء من أسقف آراس، شكلوا عصابة آراس لحماية عقيدتهم وممتلكاتهم وفي 29 يناير شكلت مقاطعات هولندا وزيلندة وجرونجن وأترخت وجلدرلند، "اتحاد أترخت، للدفاع عن عقيدتهم وحررياتهم. وسرعان ما انضم إليها فريزلند، وأوفريسيل. ومن هذه "المقاطعات المتحدة" السبع تتكون اليوم الأراضي الوطنية الهولندية، وأصبحت المقاطعات الباقية هي "الأراضي الوطنية الأسبانية"، وصارت في القرن التاسع عشر بلجيكا وحدد تقسيم المقاطعات السبع عشرة إلى أمتين على هذا النحو. سيطرة الكاثوليكية في الجنوب والبروتستانتية في الشمال، من ناحية. إلى جانب الفصل الجغرافي بينهما، لوجود الخلجان والأنهار الكبيرة التي هيأ اتساعها

صفحة رقم : 10077

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> بارما وأورانج

وسدودها التي يسهل التحكم فيها، ثغوراً يمكن الدفاع عنها، وتأوي إليها الأساطيل والأسلحة الأسبانية. وفي 19 مايو وقعت عصابة أراسي مع بارما اتفاقاً، التزمت فيه بالألا تقبل غير الكاثوليكية مذهباً، وارتضت بمقتضاه السيادة الأسبانية شريطة استعادة امتيازات المقاطعات والوحدات الإدارية الصغيرة (الكوميونات) وسرعان ما أعاد الدوق، بالإغراء أو الرشوة أو القوة، كل المقاطعات الجنوبية تقريباً إلى حضيرة أسبانيا، وتخلّى الزعماء الكلفنيون في بروكسل وغنت وإيبر عن فتوحاتهم وولوا الأدبار إلى الشمال البروتستانتية. وفي 12 مارس 1579 قاد بارما جيشاً كبيراً ضد ماسترخت الواقعة في موقع حصين على النهر المسمى باسمها. وأتى الفريقان كلاهما بالأعاجيب من أعمال البطولة وضروب الوحشية وحفر المهاجمون أميالاً من الممرات تحت الأرض ليبيتوا الألغام ويفتحوا المدينة، كما حفر المدافعون-النساء والرجال جنباً إلى جنب-ممرات ليقابلوهم؛ ودارت رحى القتال حتى الموت في باطن الأرض. وصب الماء المغلي في الأنفاق، وأشعلت الحرائق لتملأها بالدخان. واحترق مئات المحاصرين المهاجرين أو اختنقوا حتى الموت. وانفجر أحد الألغام قبل أوانه فأودى بحياة خمسمائة من رجال بارما. وعندما حاول جنوده تسلق السور قابلتهم الجمرات المحترقة، وفذفت حول أعناقهم النار الملتهبة. وبعد أربعة أشهر من الجهد المضني والضراوة والعنف، أحدث المحاصرون ثغرة في السور، نفذوا منها خفية في الليل، وفاجأوا المدافعين المنهوكين وهم نيام وذبحوا منهم ستة آلاف من الرجال والأطفال والنساء ولم يبقَ من سكان المدينة البالغ عددهم ثلاثين ألفاً، على قيد الحياة آنذاك سوى أربعمائة. وعمرها بارما من بعدهم بالموالون الكاثوليك. تلك كانت كارثة عظيمة حلت بالبروتستانت. ووجه اللوم فيها بحق إلى حد ما، إلى وليم الذي حاول عبثاً إنقاذ المدينة، لعجزه وإبطائه. واتهمه

صفحة رقم : 10078

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> بارما وأورانج

الآن نفس المتطرفين الذين أحبطوا سياسة التوحيد التي انتهجها، بتعصبهم وعنفهم-اتهموه بخيانة قضيتهم مع دوق أنجو الكاثوليكي، وأشاروا إلى أنه لم يؤد الشعائر الدينية طوال العام الماضي، وانتهز الملك فيليب هذه الفرصة ليصب اللعنة على أورانج (15 مارس 1581). وبعد أن أسهب فيليب في بيان عقوق الأمير وخيانتته وزيجاته وجرائمه، استرسل يقول:

ومن ثم... بسببه الأعمال السيئة الشريرة التي رتبها وأنه يعكر صفو السلام العام، وأنه شخص بغيض، فإننا نحرّمه من حماية القانون، ونحظر على كل رعايانا أن يتعاملوا معه أو يتصلوا به في السر أو العلن، أو أن يزودوه بالطعام أو الشراب أو الوقود أو غيرها من الحاجيات الضرورية. أننا نعلن على الملأ أنه عدو للجنس البشري. ونبيح ممتلكاته لمن يضع يده عليها. ورغبة في الإسراع في تخليص شعبنا من طغيانه وظلمه، فإننا نعد، وعد ملك خادم للرب، أي فرد من رعايانا، وأتى من النخوة والشهامة ما يستطيع معه أن يجد الوسيلة لتنفيذ هذا المرسوم، وتخليصنا من هذا الإنسان البغيض، سواء بتسليمه لنا حياً أو ميتاً، أو بإزهاق روحه على الفور، نعد بأن نمنحه هو أو ورتته من الأرض

أو المال، وفق مشيئته، ما قيمته خمسة وعشرون ألف كراون ذهباً. ولسوف تصدر العفو عن أية جريمة ارتكبها أياً كان نوعها، ونرفعه إلى مرتبة النبلاء إذا لم يكن نبياً(46).

وكان جواب مجلس المقاطعات على هذا "الجرم"، تعيين وليم حاكماً عاماً على هولندا وزيلنده (24 يولية 1581) وبعد ذلك بيومين وقع ممثلو هولندا وزيلنדרز وجلدنرند وأوترخت وفلاندرز وبرابانت، في لاهاي "قرار الاستنكار الذي طرحوا فيه بشكل مهيب ولاهم لملك أسبانيا. وفي وثيقة مشهورة في التاريخ الهولندي، شهرة وثيقة "إعلان الحقوق" التي أصدرها برلمان إنجلترا 1689 في التاريخ الإنجليزي، أعلنوا أن الحاكم الذي يعامل رعاياه معاملة العبيد ويقضي على حرياتهم، يجب ألا يعتبر بعد اليوم ملكهم الشرعي ويحق قانوناً

صفحة رقم : 10079

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> بارما وأورانج

عزله(47). وكان رد وليم على هذا الحرمان في صيغة دفاع حرره له قسيسه، أرسل إلى الجمعية العمومية وإلى كل بلاط في أوروبا، ورحب بالحرمان على أنه وسام شرف له. واتهم فيليب بسفاح ذوي القربى والزنى وقتل زوجته وابنه. وأبدى استعداداً للتخلي عن كل مناصبه ومغادرة الأراضي الوطنية بل حتى للتضحية بحياته، إذا كان هذا في مصلحة بلده، ومهر الوثيقة بشعاره "سوف أتثبت".

ولم يلبث فيليب طويلاً حتى جنى ثمار "الحرمان" الذي أصدره (18 مارس 1582)، فإن جين جوريجي أغرته الجائزة الموعودة، فتسلح بمسدس واستعان بالله، ونذر للعذراء بعض الغنيمة. واتخذ سبيله إلى وليم أورانج في أنتورب. وأطلق الرصاص على رأسه، فدخلت الرصاصة تحت الأذن اليمنى ونفذت إلى الفم، ثم إلى الخد الأيسر. ولقي الفاتل على الفور حتفه بيد أتباع وليم، ولكن بدا أن المهمة قد نفذت. ولعدة أسابيع بدا أن الأمير على شفا الموت. ودعا فارنيزي المقاطعات الثائرة، وقد مات زعيمها العنيد، إلى المصالحة مع ملكهم الرحيم. ولكن وليم تماثل للشفاء في بضع فضل سهر زوجته شارلوت على العناية به. وهي التي قضت نحبها في 5 يونيو بسبب الإرهاق والحمى. وفي يولية وضع متآمران مغموران خطة لدس السم لأمير أورانج ودوق أنجلو كليهما. واكتشفت المؤامرة واعتقل المجرمان وانتحر أحدهما في السجن، وأرسل الثاني إلى باريس وحوكم وأدين، ومزق إرباً بربطه في أربعة خيول، تتجاذبه في كل اتجاه.

وفي أثناء عام 1582 جمع أنجو حوله بعض قوات فرنسية في أنتورب. ولم يكن الدوق ليقنع بلقبه، وداعبه الحلم بأن ينصب نفسه ملكاً. وهب أتباعه فجأة في 17 يناير 1583، وهم يهتفون "فليحيا القديس" وحاولوا أن يسيطروا على المدينة. فقاومهم الأهالي، وهلك في هذه "الثورة الفرنسية" قرابة ألفي شخص. وأخفقت هذه الثورة وهرب أنجو وعانى وليم من

صفحة رقم : 10080

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> بارما وأورانج

فقدان قدر آخر من شعبيته لأنه ظل طويلاً يؤيد أنجو ويسانده. ووقعت في مارس محاولة أخرى للقضاء عليه. فلم يطمئن للإقامة في أنتورب ونقل مركز قيادته إلى دلفت. عندئذ عقدت مقاطعتا جروننجن وجلدرلند الصلح مع بارما، ولم يبقَ مع وليم إلا اثنتان من المقاطعات "المتحدة"، وهما هولندا وزيلنده، ولكنهما أثبتتا ولاءهما بأن جعلتا منصب "الحاكم العام" وراثياً في أسرته (ديسمبر 1583)، وبهذا وضعت أسس بيت أورانج الذي كان يمكن أن يغزو وأن يرث نصف إنجلترا في 1688.

وأصر القتلة ولم تقتر عزيتمهم. وفي أبريل 1584 حاول هانز هانزون من فلشنج أن يودي بحياة الأمير، ولكنه أخفق وأعدم. واستبد الحماس الديني ببلتازار جيرار من برجندي، كما اشتد به التفكير في الخمسة والعشرين ألف كراون وقصد إلى دوق بارما يعرض عليه قتل أمير أورانج، ولكن الدوق قدر أن شاباً في العشرين من عمره غير صالح للاضطلاع بهذه المهمة، وأبى عليه المبلغ المتواضع الذي طلبه سلفاً، ولكنه وعده بالجائزة كاملة إذا حالفه التوفيق. وقصد جيرار إلى دلفت، وتنكر في زي كلفني مسكين تقي، وتلقى من وليم اثني عشر كراون صدقة. وصوب إلى جيبه ثلاث رصاصات (10 يولية 1584) فصرخ وليم "يا إلهي، رحمتك بي وبالشعب المسكين". وفاضت روحه في بضع دقائق. وقبض على جيرار وحوكم أمام قضاة المدينة، وأبدى فرحه واعتباطه بنجاحه فيما قصد إليه، ثم لقي أشد العذاب وقتل شر قتلة. ووري وليم التراب في دلفت، بأسمى مظاهر التكريم بوصفه "أبا البلاد". ولما كان قد ضحى بكل ما يملك في سبيل الثورة فإنه لم يخلف لأبنائه الاثني عشر شيئاً تقريباً. وهذا شاهد صامت على ما درج عليه من نبل وشرف.

صفحة رقم : 10081

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> بارما وأورانج

ودفعت الجائزة كاملة لأبوي جيرار، وابتهج كاثوليك الأراضي الوطنية، قائلين إن الجريمة انتقام إلهي لانتهاك حرمة الكنائس وقتل القساوسة. وأرسلوا رأس القاتل إلى كولون باعتباره من المخلفات الثمينة، ولمدة نصف قرن بذلوا أقصى الجهد لإعلانه قديساً(49).

صفحة رقم : 10082

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> النصر

وهنت بموت وليم روح من بقي من أتباعه في الفلاندرز وبرابانت. واستولى بارما على بروجز وغنت وبروكسل وملكين وأنتورب، ولم ينته 1585 حتى وقعت الأراضي الوطنية جنوب نهر ماس-فيما عدا أوستند وسليز في يد الأسبان، على أن "المتسولين" ظلوا يسيطرون على الثغور والبحر. وكم أهابت المقاطعات الشمالية بالملكة إليزابيث لنجدتهم. واستجابت الآن للنداء. فقد أدركت أن ثورة الأراضي الوطنية منعت أسبانيا من إعلان الحرب على إنجلترا، وما كان في مقدورها أن توقف هذه الفرصة التي هيأتها العناية الإلهية. منع أسبانيا من إعلان الحرب-هذا بالإضافة إلى أن الهولنديين سيطروا على سوق الصدف الإنجليزي. وفي ديسمبر 1585 أرسلت إلى هولندا قوة كبيرة بقيادة ليستر وسير فيليب سدني. وأخذ ليستر لنفسه، باعتباره حاكماً عاماً للمقاطعات الثائرة، كل سلطة الملك تقريباً. ومذ رأى أن المقاطعات الجنوبية تستورد كل الحاجيات الضرورية للحياة من المقاطعات الشمالية فإنه حرم كل اتجار مع الممتلكات الأسبانية، ولكن التجار الهولنديين كانوا يعيشون على هذه التجارة، وصدروا بضائعهم إلى أسبانيا أثناء حربهم معها. ومن ثم رفضوا الخضوع لما نهى عنه ليستر، الذي حلت به الهزيمة في زوتفن (22 سبتمبر 1586) فغادر هولندا مشمئزاً، شاعراً بالخزي والعار. وسادت الفوضى في الشمال لمدة عام كامل. وأنقذت

صفحة رقم : 10083

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> النصر

الجمهورية الصغيرة بفضل اشترك فيليب لدوق بارما في خطته لغزو إنجلترا، وبفضل هجمات بارما المظلمة ضد هنري نافار في فرنسا، وتحكم الهولنديين في البحار، وثروة التجار الهولنديين وصمودهم، وعبقرية جان فان أولدنبار السياسية، ثم بفضل ما أوتي موريس ناسو-ابن وليم الصامت، من عبقرية عسكرية. وفور وفاة وليم الصامت اختير ابنه موريس حاكماً عاماً على هولنده وزيلنده وفي 1588، وهو في الحادية والعشرين، عين قائداً عاماً وأمير للبحر في المقاطعات المتحدة. وفي 1590 أسلمته أوترخت وأفرحسل وجلد لند مقاليد الحكم فيها. وأفاد موريس من محاضرات سيمون ستيفن في الرياضيات في ليدن، فطبق العلم الحديث على القذائف والهندسة والحصار. ودرّب الجيش الهولندي على أساليب جديدة للالتحام والنظام. وفي سلسلة من الحملات التي اشتهرت بسرعة الحركة والاستراتيجية المفاجئة (1590-1594) استرد موريس زوتفن ودفنتر وتيميجن وجرونتجن. أما بارما الذي ضيع مهاراته وأمواله في هجمات فيليب العقيمة على إنجلترا وعلى هنري الرابع، فإنه قضى نحبه في "سبا" بسبب الإعياء والجراح (20 فبراير 1592).

وعين فيليب خلفاً له الأرشيدوق ارنست النمساوي الذي لم يلبث أن أدركته المنية، ثم الكاردينال الأرشيدوق البرت الذي تخلى عن منصبه الديني، وتزوج إيزابل كلارا أوجينيا، ابنة الملك. وقبل وفاة فيليب (1598) بفترة وجيزة، منح البرت وإيزابل حق السيادة على الأراضي الوطنية، شريطة أن يعود هذا الحق إلى أسبانيا إذا ماتا دون عقب. وأثبت الاثنان أنهما حاكمان قديران رحيمان. عجزا عن إخضاع المقاطعات الشمالية، ولكنهما أقاما في الجنوب حكماً متحضراً ازدهرت في ظلّه الفنون الكنسية في انسجام جميل مع صور روبنز العارية.

وظهر على مسرح الحوادث في 1603 شخصية جديدة. وكان البرت قد استمر يحاصر أوستند عامين كاملين دون أن يصيب أي نجاح، وجاء أحد

صفحة رقم : 10084

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> النصر

رجال المصارف الإيطاليين، هو امبروزيودي سبينولا، ووضع كل ثروته في خدمة أسبانيا، وجمع جيشاً قوامه ثمانية آلاف رجل، وجزهه بال سلاح وبالعتاد، وحاصر أوستند واستولى عليها. ولكن ثراه العريض لم يعدل ثروة التجار الهولنديين، الذين ثابروا على بناء وتجهيز الأساطيل التي أفضت مضاجع البحرية الأسبانية، وهددت بقطع شريان الذهب الذي يتدفق بين أمريكا وأسبانيا. وإذا أرهق الحصار والقتل البرت وإيزابل فإنهما استحثا المفاوضات مع الهولنديين، وأقرهما عليها الملك فيليب الثالث الذي أرقه العمر والإملاق. وبرغم اعتراضات موريس حض أولدنبار نقلت الهولنديين على المصالحة. وفي 1609 عقدت هدنة هيأت الأراضي الوطنية الراحة من عناء الحرب لمدة اثني عشر عاماً.

بيد أن الونام في الداخل شيء يختلف كل الاختلاف عن السلام الخارجي. لقد حنق موريس على أولدنبار نقلت هيمنته على مقاليد الأمور في الجمهورية. ومن الوجهة العلمية كان الأكبر الموظفين راتباً في هولنده السلطان والسيطرة على هذه المقاطعة وحدها، ولكن مذ كانت ثروة هولنده والضرائب التي تدفعها للجمعية العمومية تعدل ما تملكه وما تدفعه سائر المقاطعات المتحدة مجتمعة، فإن أولدنبار نقلت مارس في الاتحاد سلطة تتكافأ مع تلك الثروة، كما تتكافأ راحة عقله وشخصيته وخلقه. أضف إلى ذلك أن الملاك الذين حكموا المقاطعات والتجار والأغنياء الذين حكموا الكوميونات أحسوا بانعطاف نحو أولدنبار نقلت الذي نبذ الديمقراطية مثلهم، وقال "إنه لمن الأفضل أن يحكمني سيد مطلق من أن يحكمني الرعاع"(50) وولى موريس وجهه شطر الشعب ليحصل على تأييده، ووجد أنه يمكنه أن يكسب الشعب إلى جانبه إذا جعل من القساوسة الكلفنيين أصدقاء له. وكانت القضية الدينية التي أهابت الجمهورية الآن قضية مثلثة الجوانب: فهناك المعارضة المتزايدة بين الكنيسة الدولة، وهناك الصراع بين الكاثوليك البروتستانت، وهناك أخيراً النظريات بين البروتستانت

صفحة رقم : 10085

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> النصر

أنفسهم. وسعت المجامع الكنسية الكلفنية إلى أن تحدد النهج السياسي، وتتخذ من الحكومة أداة لتقوية مذهبهم. وارتابت الجمعية العمومية في المجامع الكلفنية على أنها سيئة وبذور خطيرة لمؤامرة الديمقراطية. وقد جلب أولدنبار نقلت على نفسه عداوات كثيرة حين أمر رجال الدين بأن يتركوا الحكومة للسلطات المدنية. وقد يكون غريباً أن نقول أن

الغالبية الساحقة من السكان في 1609 كانوا من الكاثوليك حتى في المقاطعات الشمالية(51). كانت القوانين تحرم العبادة الكاثوليكية، ولكنها لم تكن تنفذ، وكان هناك 232 قسيساً يتلون الشعائر الكاثوليكية(52)، وأمر مجلس المقاطعة في أوترخت القساوسة أن يتزوجوا النساء اللاتي يستخدمونهن في إدارة شؤون منازلهم، ولكن الامتثال لهذا الأمر لم يكن تاماً، ولك يلقَ إقبالاً.

وحدث الصراع داخل المجموعات البوتستانتية بين الكلفنيين و "المترجرين"، وهم أقلية. وأطلق هذا الاسم على هؤلاء، لا لأنهم إباحيون في حياتهم. بل لأنهم حبذوا الحرية الدينية حتى للكاثوليك، كما أيدوا تفسيراً إنسانياً متحرراً للاهوت البروتستانتية. هؤلاء هم ورثة تقاليد أرزم (الذين كان ينتسب إليهم وليم أورانج). وكان المتمزمتون معتقوا الكلفنية القديمة، الذين تمسكوا بمذهب الجبرية الصارمة، وأحسوا بأن عقيدتهم يجب أن تكون إجبارية في كل المقاطعات المتحدة(53)-نقول كان هؤلاء المتمزمتون يرمون المترجرين بأنهم "بابويون" في الخفاء. ودافع ديرك كورنهرت الذي كان سكرتيراً لدى وليم أورانج. عن حرية العبادة في كتاباته التي أرست أسس اللغة الأدبية في هولنده. وانبرى واعظ من أمستردام، هو جاكوبس أرمنيوس، لتفنيد آراء كورنهرت، ولكنه تحول إليها واعتقها بينما كان يدرس ليرد عليها، وحينما عين أستاذاً للاهوت في ليدن، صدم المتمزمتين بارتياحه في الجبرية، وإثباته أن الإنسان تنقذه أعماله الصالحة بقدر ما ينقذه إيمانه، وهذا يخالف ما قال به لوثر وكلفن. وسلم بأن الوثني المتمسك

صفحة رقم : 10086

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> النصر

بأهداب الفضيلة قد ينجو من الجحيم. وذهب إلى أن كل الناس في النهاية سيخلصون ودمغة أستاذ زميل له في الجامعة، فرانسيسكس جوماروس، بأنه مهرطق ماهر. ومات أرمنيوس 1609، وكان قد كسب إلى جانبه آنذاك أتباعاً من ذوي النفوذ، من بينهم أولدنبار نفلدت وهوجو جروتويس أكبر موظفي روتردام وفي 1610 صاغ هؤلاء "المترجرين" احتجاجاً على نظريات الجبرية ولاصطفاء والرفض أو الإخراج من زمرة الأبرار، واقترحوا عقد مجلس وطني يضم رجال الدين وغيرهم من العلمانيين لإعادة تحديد عقيدة الإصلاح وتعريفها. وصاغ المتمزمتون "احتجاجاً مضاداً" أكدوا فيه من جديد المذهب الكاثوليكي: "إن الرب، بعد خطيئة آدم، حفظ نفراً معيناً من البشر من الدمار، وقدر لهم الخلاص في المسيح... وفي هذا الاصطفاء لم يعتبر الرب الإيمان أو الارتداد، ولكنه يعمل كيف يشاء. وأرسل الرب ابنه يسوع لتخليص هؤلاء المصطفين وحدهم(54)".

وأصر أتباع جوماروس على أن هذه القضايا لا يعالجها إلا رجال الدين وحدهم، وبذلك نجحوا في دمع المحتجين بأنهم من أنصار البابا أو من أتباع بلاجيوس (الذين ينكرون نظرية الخطيئة الأصلية ويرون أن الإنسان مخير) أم من الموحدين (الذين لا يدينون بالتثليث، إلى حد أغلبية كبيرة من السكان البروتستانت انحازت إلى جانب المتمزمتين، وكان موريس ناسو يغفل شأن هذه المنازعات اللاهوتية احتقاراً لها، ولكنه تحرك الآن ليصادق مؤقتاً جماعة المذهب القديم، لأنهم يهيئون لأه ركيزة شعبية لمحاولة استعادة الزعامة الوطنية. وأعقب ذلك معركة بالخطب والعظات والنشرات قاربت أن تكون حرباً. وعكزت الاضطرابات العنيفة صفو الهدنة، وهوجمت بيوت المترجرين

صفحة رقم : 10087

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> النصر

في لاهاي، وأخرج الوعاظ الكلفنيون المتشددون من روتردام. وجهزت هولندا جيشاً للدفاع عن ديانتها، وسرعان ما تبعتها مقاطعات أخرى، وبدا أن الحرب الأهلية توشك أن تقضي على الجمهورية في مهدها، وفي 4 أغسطس 1617 اتخذ أولدنبار نفلدت في مجلس هولندا قراراً خطيراً أراه موريس خطيراً حقاً يعلن فيه سيادة الدولة على الأمور الدينية، ويوجه مدن المقاطعة إلى تسليح نفسها حماية لها من عنف أنصار الكلفنية، وقصد إلى أوترخت حيث أقنع مجلسها بإعادة القوات لتأييد هولندا. وفي 25 يولية 1618 دخل موريس ناسو بوصفه القائد الشرعي للجيش، أوترخت على رأس قوة مسلحة. وأرغم الفرق المجندة حديثاً على أن يتفرقوا. وفي 29 أغسطس أصدرت الجمعية العمومية للمقاطعات المتحدة أمراً بالقبض على أولدنبار نفلدت وجروتوس وغيرهما من زعماء المحتجين. وفي 13 نوفمبر اجتمع كنيسة الإصلاح في دور درخت (دورت)، واستمع لأراء اللاهوتيين المحتجين وحكم بأنهم مهرطقون، وأمر بطرد قساوسة المحتجين من وظائف الكنيسة والتعليم. وصبت اللعنة على أنصار أرمنيوس-مثلهم في ذلك مثل الكاثوليك-وحرم عليهم عقد الاجتماعات أو إقامة الصلوات العامة. وفر كثيرون منهم إلى إنجلترا حيث أحسنت الكنيسة الرسمية استقبالهم ودعموا أهم مركز الأنجليكانيين المتحررين.

وحوكم أولدنبار نفلدت أمام محكمة خاصة لم تهئ له أي سند قانوني. واتهم بأنه بطريقة مدموغة بالخيانة أشاع الفرقة في الاتحاد وعرضه للخطر، وبأنه سعى إلى تكوين دولة داخل الدولة. وفي خارج المحكمة انهال سيل من النشرات تدبغ على المملأ أخطاء حياته الخاصة. ودافع هو عن نفسه دفاعاً قوياً بليغاً إلى حد أن أبناءه أقاموا أمام سجنه عمود مايو المزدان بالأشرطة والزهور واحتفلوا بالإفراج المرتقب عنه، وكلهم ثقة في ذلك. وفي 12 مايو 1619 أقرت المحكمة إدانته وثُفد فيه حكم الإعدام في اليوم التالي. وحكم على

صفحة رقم : 10088

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> النصر

جروتوس بالسجن مدى الحياة، ولكنه بفضل براعة زوجته هرب من السجن وعاش ليؤلف كتاباً يستحق الذكر. وعلى الرغم من هذا الانتصار الذي أحرزه التعصب، نمت الحرية في المقاطعات. وبلغ الكاثوليك من الكثرة حداً يتعذر معه وقف نموهم. ولم يكن من المستطاع تنفيذ القرارات النظرية التي صدرت عن مجلس دورات. وفي عام 1619 نفسه أسس المنونائيتين (يعارضون حلف اليمين وعماد الأطفال والخدمة العسكرية وقبول الوظائف العامة)، في حرية تامة، طائفة الطلبة الجامعيين، وهي تشبه الكويكرز، في ريجنسبرج وقد وجد عندهم سبينوزا ملجأً آمناً. وفي 1629 امتدح ديكارت حرية الفكر التي نعم بها في أمستردام، وفي نهاية القرن السابع عشر أصبحت هولندا ملاذ المهترقين الذين لجأوا إليها من بلاد كثيرة.

وفي 9 أغسطس 1621 استأنفت الحرب مع أسبانيا. ذلك أن الأرشيدوق ألبرت مات دون أن يخلف عقباً. فعادت المقاطعات الجنوبية إلى أسبانيا. وأغار سبينولا على المدن الهولندية الواقعة على الحدود. فسار إليه موريس ناسو، ولكن سنوات النضال كانت قد أنهكت قواه، فمات فجأة (1625) وهو في سن السابعة والخمسين. واستولى سبينولا على بريداً، وبذلك فتح الطريق إلى أمستردام، وهياً للمصور فيلاسكويز موضوع لوحة.

ونهض الهولنديون من كبوتهم واستردوا قوتهم في إصرار وعناد. وأدهش فردريك هنري الذي خلف أخاه في منصب الحاكم العام، الأعداء والأصدقاء على السواء، بما كان يخفي حتى الآن من مواهب رجل دولة وقائد وبفضل دبلوماسية فرانسيس أرسنز استطاع أن يحصل من ريشيليو على منحة سنوية قدرها مليون ليرة، وجمع حشداً جديداً، وبعد حصار طويل استولى على هرتوجنبوخ وماسترخت وبريدا. ولحسن الحظ كان سبينولا قد استدعى إلى لومبارديا.

صفحة رقم : 10089

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ثورة الأراضي الوطنية -> النصر

وفي نفس الوقت استخدم التجار الهولنديون أموالهم في بناء السفن، لأن كل انتصار في البحر كان يعني توسيع مجال التجارة. وفي عام 1628 أسر أسطول هولندي صغير تحت إمرة بييت هين أسطولاً أسبانياً كان يحمل الذهب من المكسيك. وهاجم أسطول هولندي آخر قوة أسبانية مكونة من 13 سفينة في نهر سلاك، فدمرها وأسر 5000 رجل (1631). ولكن أروع هذه الانتصارات البحرية هي المعركة التي خاضها قائممقام أمير البحر مارتن هاربتون ترومب في القتال الإنجليزي (بين دوفروديل) وكان الأسبان قد عقدوا العزم على استعادة السيطرة على ثغور الأراضي الوطنية من الهولنديين. فأعدوا أسطولاً ضخماً جديداً من 77 سفينة عليها 24 ألف رجل فلما أبصر به ترومب في القتال، وأرسل في طلب المدد، وفي 21 أكتوبر 1639 أبحر ومعه 75 سفينة حتى صار على مقربة من مواقع العدو، فأغرق أو أعطب أو أسر كل الأسطول الأسباني فيما عدا سبع سفن. وقتل 15 ألفاً من الملاحين الأسبان في المعركة أو أغرقوا. وتحللت معركة القتال الإنجليزي في تاريخ هولندا نفس المكانة التي تحللتها هزيمة الأرمادا (1588) في تاريخ إنجلترا. فقد وضعت حداً لكل دعاوى أسبانيا في السيادة على البحار، وقطعت شريان الحياة بين أسبانيا ومستعمراتها، وأسهمت مع أنصار فرنسا على أسبانيا في معركة روكروا (1643) واختتمت الحقبة التي هيمنت فيها أسبانيا على أوروبا.

مذ انهمكت أسبانيا انهماكاً تاماً في حرب الثلاثين عاماً فإنها قررت أن تنزل للهولنديين عن كل شيء، حتى تنفرغ للحرب مع فرنسا. وفي مونستر في 30 يناير 1648 وقع المندوبين الأسبان معاهدة وستفاليا التي أنهت ثمانين عاماً من الحرب في الأراضي الوطنية. وأعلن أن المقاطعات المتحدة غير متقيدة بأي رباط مع أسبانيا. وتم الاعتراف بفتوحاتها. ولا تصل تجارة الراين إلى بحر الشمال إلا عن طريق الثغور الهولندية وحدها. وخول التجار الهولنديون حرية التجارة في جزر الهند الشرقية والغربية. وهكذا انتهى أطول وأشجع وأقسى صراع من أجل الحرية في التاريخ بأسره.

صفحة رقم : 10090

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روينز إلى ميرانت -> الفلمنكيون

الفصل الثامن عشر

من روبنز إلى رمبرانت

1660 - 1555

1- الفلمنكيون

أنه لما يثير الدهشة أنه في قطعة صغيرة من أوروبا، مثل الأراضي الوطينة نشأت ثقافتان متضادتان مثل الفلمنكية والهولندية، وعقيدتان متنافرتان مثل الكاثوليكية والكلمنية، وفنانان مختلفان كل الاختلاف في المزاج والأسلوب مثل روبنز ورمبرانت، وفانديك وهالس. ولا نستطيع أن نفسر التباين باختلاف اللغة لأن نصف الفلاندرز، مثل كل المقاطعات المتحدة، تحدثوا اللغة الهولندية. وربما نبع بعض التباين من اقتراب هولندا من ألمانيا البروتستانتية واقتراب الفلاندرز من فرنسا الكاثوليكية. وربما ينجم من الاختلاف من ارتباط أسبانيا الكاثوليكية الملكية الأرسنقراطية ارتباطاً وثيقاً ببروكسل وأنتورب. وورث إقليم الفلاندرز ديانة العصور الوسطى ومنها وأساليبها، على حين كانت هولندا أفقر، حتى هذا الوقت، من أن تكون لها ثقافة خاصة بها. ويمكن أن تكون الشمس المشرقة في المقاطعات الجنوبية قد نزعت بأهلها إلى حياة شهوانية غير متمسكة بقواعد الأخلاق، على حين أن الغيوم والمصاعب في الشمال شجعت أهله على اعتناق عقيدة صارمة رواقية رزينة. أو على الأرجح،

صفحة رقم : 10091

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روبنز إلى رمبرانت -> الفلمنكيون

أن الجيوش الأسبانية انتصرت في الجنوب، واندحرت في الشمال نتيجة الأنهار المعترضة والثورة الهولندية؟ لا بد أن أنتورب كانت جميلة عندما أكتمل صرح كاتدرائيتها بأبراجها وواجهاتها وفنما الزخرفي، على حين على حين على مقربة منها ضجت البورصة بكل حيوية التجارة وحيلها، ورقصت المياه بكل سفن العالم. ولكن الحرب اندلعت بعد ذلك، فإن ضراوة دوق ألفا ومحاكم التفتيش أخرجت الصانع الهرة والتجار البروتستانت إلى هولندا ألمانيا

وإنجلترا، وصرامة الكلفنية أتلفت الكنائس، وعنف الأسبان نهب البيوت وأحرق القصور، كما أن ضراوة فرنسا أفرغت عجزها في الدماء، والحصار الذي ضربه فانز لمدة أربعة عشر شهراً أمات الكاثوليك والبروتستانت جوعاً على حد سواء. وأخيراً انضم الكاثوليك إلى البروتستانت في الخروج من المدينة، وانتقلت تجارة أنتورب إلى أمستردام وروتردام وهارلم وهمبرج ولندن وروان.

ولكن وحشية الإنسان منقطعة، وسهولة التكيف عنده باقية. وقد يكون لنا بعض السلوى في أن نتبع كيف أن بعض الأمم والمدن استطاعت بسرعة أن تنهض من دمار الحرب ووبالاتها. وتلك كانت حال الفلاندرز بعد 1579. بقيت صناعة النسيج، وظل الطلب كبيراً على المخزومات الفلمنكية، وظلت الأمطار يحيي الأرض وأضفى كدح الناس البهاء والفخامة على الحاشية. واستمعت أنتورب وبروكسل، تحت حكم الأدواق الذين أحبوا حياة الترف ولكن مع روح إنسانية، ببعث ونشور جديرين بالذكر. وعادت الفلاندرز إلى كاتدرائياتها وأعيادها الدينية ومهرجاناتها الوثنية. وربما بالغ روبنز في هذا في "مهرجان اللوفر العاصف" ولكن استمع أيها القارئ إلى تقرير الكاردينال أنفانت فرديناند، من أنتورب إلى فيليب الرابع 1639: "أقاموا بالأمس احتفالهم الكبير... أنتقل موكب طويل إلى الريف مع عربات كثيرة تحف بها مظاهر النصر. وبعد العرض هرع الناس إلى الطعام والشراب، حتى شمل الجميع آخر الأمر، وبدون هذا لا يعتبرون أنه احتفال

صفحة رقم : 10092

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روبنز إلى ميرانت -> الفلمنكيون

أو عيد(1)، بل أن الكاردينال نفسه عندما قدم من أسبانيا إلى بروكسل (1635) استقبلوه بالمهرجانات التي دامت لعدة أيام، وسط زخارف فخمة صممها روبنز نفسه. ووصف زائر إيطالي مدن الفلاندرز قبل الثورة بأنها "سلسلة لا تنقطع من الاجتماعات البهيجة والأعراس وحلبات الرقص، مع أنغام الموسيقى والأغاني المرححة في الشوارع(2)"، ولم تستلم كل هذه الروح للحرب. فإن الألعاب التي صورها بروجل كانت لا تزال تقام في الشوارع، واستمعت الكنائس مرة أخرى للقداسات المتعددة النغمات والأصوات التي كانت قد جعلت المنشدين الفلمنكيين، يوماً، مرغوباً فيهم في كل البلاد. ودخلت الفلاندرز أبهى عصورها.

صفحة رقم : 10093

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روبنز إلى ميرانت -> الفن الفلمنكي

2- الفن الفلمنكي

تضافرت الحاشية والكنيسة، والنبلاء وأبناء الشعب في البذل من أجل إحياء الفن الفلمنكي، ورعى البرت وإيزابل وشجعا كثيراً من الفنانين، إلى جانب روبنز. وكانت أنتورب لفترة من الزمن مركز الفن في أوروبا، واستعاد قماش بروكسل المزركش (النسيج المطرز بالكافاه) امتيازه وتقوقه، مستعيناً برسوم روبنز البطولية. وكان صانعو الزجاج البنادقة قد جلبوا فنهم إلى الأراضي الوطنية في 1541، وأنتج الصانع المهرة المحليون منه الآن قطعاً هشة آية في الإعجاز، كان بعضها محل إعزاز وإعجاب إلى حد أنها غالبت قرونًا من الفتنة والشغب فغلبتها، وأبدع صناع المعادن أعاجيب من نسج أفكارهم وأيديهم، مثل الأنية المعدنية الفاخرة التي تحفظ فيها الذخائر الدينية، التي يمكن أن توجد في الكنائس الكاثوليكية في بلجيكا، وألحت الأرستقراطية التجارية في طلب القطع الفنية: وجلسوا أمام المصورون، وشيدوا قصوراً فخمة، ودوراً للبلدية، لمثل تلك التي شادها كرنيلي دي فرندت تمجيداً لأنتورب (1561-1565) قبل العاصفة. ولما جرد المتعصب الذميمة الكنائس من

صفحة رقم : 10094

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روبنز إلى ريمبرانت -> الفن الفلمنكي

آيات الفن، بات هؤلاء التجار الأرستقراطيون يشدون من أزر المراسم ويرعونها في لهفة وحماس، يلحون في طلب التماثيل واللوحات ليصوروا العقيدة للشعب. ولم يزدهر فن النحت هنا، لأن فرنسوا دو كيسنوي، ابن بروكسل، أنجز معظم أعماله في رومة حيث نحت تماثلاً ضخماً لسانت أندروز بداخل كنيسة القديس بطرس، وإن نفراً قليلاً من السائحين الذين يحرصون على رؤية "أقدم مواطني بروكسل"، نافورة مانكن بس (1619Manneken Pis)-تمثال برونزي لصبي يزيد في مياه المدينة من موارده الخاصة-يعلمون أن هذا هو أبقى روائع دو كيسنوي على الزمن. أما المصورون الفلمنكيون فإنهم يجلون عن الحصر، وواضح أن كل بيت في الأراضي الوطنية كان عليه أن يقتني لوحة أصلية، وأنكب ألف فنان في مائة مرسماً على تصوير الأشخاص والمناظر الطبيعية والحيوانات والمؤمن والأساطير والعائلات المقدسة وصلب المسيح، أما إسهامهم المتميز في تاريخ الفن فهو صور جماعية للهيئات البلدية، وصور تمثل الحياة المنزلية أو القروية وتأثير هؤلاء الفنانون في أول الأمر بالطرز الإيطالية، فقد أبحرت السفن الإيطالية كل يوم إلى أنتورب، وافتتح التجار الإيطاليون متاجر لهم فيها. وجاء الفنانون الإيطاليون ليهزأوا ويسخروا فأقاموا ليرسموا، وقصد كثير من الرسامين الفلمنكيين إلى إيطاليا للدراسة، واستقر المقام ببعضهم هناك، ومن هؤلاء جوستوس سوستر مانزا أحد أبناء أنتورب، الذي أصبح مصوراً للأشخاص، مقر باوذا حظوة لدى أدواق تسكانيا العظام، وأن بعضاً من أجمل اللوحات في قصر بتي هي ريشة هذا الفلمنكي المفعم بالحيوية، وعاد فرانس فلوريس من دراسته مع ميكلا نجلو في روما، وأطلق على نفسه بصراحة أنه "روماني" واستساغ التشريح وأخضع اللون للخط، وظل مرسمه في أنتورب لمدة جيل (1547-1570) كعبة للتصوير الفلمنكي وذروته، وقد يكون

صفحة رقم : 10095

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روبنز إلى رمبرانت -> الفن الفلمنكي

جديراً أن نزور كلين لنري في متحفها لوحته الرائعة الضخمة "زوجة صياد الباز" وعاش فرانس في بحبوحة من العيش. وشاد لنفسه قصرأ، وأسرف في العطاء وفي الشراب، وبات فقيراً، وكان كورنلس دي فوز أقدر أفراد أسرة كبيرة من المصورين، وعندما كان يتزاحم ذوي المكانة أمام روبنز ليصورهم كان يرسل بعضهم إلى فوز، مؤكداً لهم أنهم سيظفرون منه بمثل ما يرجون من روبنز نفسه، ولا يزال في مقدورنا أن نشاهد لوحة تمثيل كورنلس وزوجته وابنتين لهما؛ معلقة في متحف بروكسل.

وذبلت الفتنة الإيطالية حوالي نهاية القرن السادس عشر، واستأنف الفنانون الفلمنكيون موضوعاتهم وأساليبهم المحلية. وعاد دافيد تنيير الأكبر إلى أنتورب. برغم أنه درس في روما ليرسم "المطبخ الهولندي" و"مهرجان القرية (3)"، ثم عاد ابنه حتى تفوق عليه، وشكل سليل العجوز درول بيزانت بيتر بروجل أسرة من المصورين توفرت على تصوير المناظر الطبيعية المحلية والمشاهد الريفية، ومنها ولداه بيتر بروجل "الجحيم" وجان بروجل "المخمل"، وحفيده جان الثاني وأمبروز، وحفيده أبراهام، وحفيده الأكبر جان بابنس بروجل، وقد امتد بالأسرة العمر قرابة قرنين من الزمان (1525-1719)، ولنوضح سجل أعمالهم هنا نقول بأنهم ورثوا عن سلفهم العظيم النزعة إلى المشاهد الريفية والمهرجانات القروية، ورسم بعضهم خلفيات مناظر طبيعية لروبنز المثقل بالممل. وأخرج فنانون الأراضي الوطينة الفن من الكنيسة والدير إلى البيوت والحقول والغابات ورسم دانييل سيجرن الأزهار والفاكهة في تفصيل محبب إلى النفس، وخص العذراء بأكاليله المصورة، وأنضم إلى الجزويت، وبعث فرانس ستيرز الحياة والتعبير في جوانب العديد من المتاحف بمناظر الصيد المثيرة، والمفزة أحياناً، وبالكثير من أطباق لحم الطرائد والفاكهة،

صفحة رقم : 10096

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روبنز إلى رمبرانت -> الفن الفلمنكي

ولا يزال، كما وصفه روبنز، أعظم مصوري الحيوان. لم ينافسه أحد في روعة تظليل فراء الحيوان أو ريش الطير. وعاد أدريان بروور Brouwer إلى فلاحي بروجل، فأبدعت فرشاته تصويرهم وهم يأكلون، ويشربون، ويغنون، ويرقصون، ويلعبون الورق، والنرد، ويقاثلون أو يعربدون في احتفال صاخب، أو يغطون في النوم. ومر أدريان نفسه بأطوار كثيرة في حياته التي لم تتعد اثنتين وثلاثين عاماً، فإنه درس مع هالس لفترة وجيزة؛ وفي سن الواحدة والعشرين أصبح أستاذاً مسجلاً في نقابة الرسامين في أنتورب، وكان ينفق أكثر مما يحتمل دخله، وسرعان ما غرق في الديون، وأودعه الأسبان السجن لأسباب غير معروفة الآن، ولكنه كان يحيا فيه مترفه، ثم استرد حريته وسدد ديونه بفضل صور صغيرة، زخرة بالحياة ممتازة فنياً من ناحية الرسم الحسي وحركة الضوء الرقيقة، إلى حد أن رونز ابتاع منها سبعة عشرة رسماً، ورمبرانت ثمانية، ولا يبدو فلاحوه سعداء قط إلا إذا ثملوا بالنوع القوي أو الخمور الرخيصة، على أن بروور أثر فلاحاً يغني مع كأسه على أمير منافق يرفل في الحرير، وفي سن الثانية والثلاثين عثر عليه وقد فارق الحياة خارج باب إحدى الحانات.

وكان جاكوب جوردانز أكثر وقاراً واتزاناً، نقش في إحدى لوحاته "تحذيراً للظلم": "إن أشبه شيء بالجنون هو الخمور". واختار أن يرسم رجالاً يستطيعون احتساء الخمر دون هذيان أو خبل، ونساء يرفلن في حفيف الحرير في إجلال وعظمة. ولد جاكوب في 1593 وعمر حتى الخامسة والثمانين مع كمال الوعي والإدراك. ورسم لنا شخصه في لوحة "الفنان وأسرته" (4)، رجل منتصب القامة. واثقاً بنفسه، رشيقاً، ثرياً، يمسك بمزهر، وزوجته مطمئنة في

الطوق المكشكش الخانق حول رقبتها، وابنة لطيفة بدأت لتوها ريعان شبابها كما تبدأ تتفتح أزهار الغلاندرز، وبنناً صغيرة سعيدة بالبيت الهادئ والمذهب المريح أنظر إلى الصليب المتدلي على صدرها. وتحول جوردانز إلى البروتستانتية، ولكن في سن الثانية والستين. ورسم عدة لوحات دينية،

صفحة رقم : 10097

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روينز إلى رمبرانت -> الفن الفلمنكي

ولكنه أثر مشاهدة الحياة اليومية والأساطير " وفيها يستطيع أن يبرز الرؤوس الضخمة والصور المتألقة التي كان قد رآها في أروقة البيوت في أنتورب مثل لوحة "الملك يحتسي الخمر(5)"، أو أفضل منها لوحة "قصة الخصب(6)"، وهنا، وسط الفاكهة (التي رسمها سنيدرز صديق جاكوب) والفراشات تروعا فتاة فتاة عارية فاتنة، تشاهد من مسقط خلفي فقط، ولكنها في كل نضارة الشباب ورشاقته، ترى أين عثر جوردانز على نموذج لهيفاء مثل هذه في الفلاندرز على عهد روينز؟

صفحة رقم : 10098

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روينز إلى رمبرانت -> روبنز

3- روبنز

1577 - 1640

ولد أعظم المصورين الفلمنكيين في 1577، من سلسلة طويلة من رجال أعمال موفقين، وتابع هو السلسلة. ودرس أبوه، جان روبنز، القانون في بادوا، وتزوج من ماريا بيبيلنكس. وانتخب عضواً في المجلس التشريعي في أنتورب وهو في سن الحادية والثلاثين وأتهم البروتستانتية فاستبعد بالذات من العفو العام الذي صدر 1574، وهرب مع زوجته وأطفاله الأربعة إلى كولين، وهناك اختارته مستشاراً قانونياً، أن السكسونية (زوجة وليم أورانج التي افتترقت

عنه)، وارتكب معها الفحشاء، فأودعه الأمير السجن في ولنبرج ولكن ماريًا غفرت لزوجها زلته وبعثت إليه برسائل رقيقة مؤثرة ،

صفحة رقم : 10099

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روبنز إلى رميرانت -> روبنز

وقدمت الالتماسات وكافحت من أجل الإفراج عنه، حتى تم لها ذلك بعد عامين من المحاولة، شريطة أن يبقى جان تحت المراقبة في سجن في وستاليا ولحقت به هناك في 1573، ومن المحتمل أن بيتربول رأى النور هناك، وعمد الطفل وفق الطقوس اللوثرية، ولكن، وهو لا يزال في المهد، تحولت الأسرة إلى الكاثوليكية. وفي 1578 انتقل جان مع أسرته إلى كولون حيث اشتغل بالقانون وأثرى وازدهر، وعند موته (1578) قصدت ماريًا مع أطفالها إلى أنتورب للإقامة فيها.

وتلقى روبنز تعليمه الرسمي حتى سن الخامسة عشر فحسب، ولكنه زاد عليه بالادب على القراءة وبالخبرة والتجربة. وظل لمدة عامين وصيفاً في خدمة كونتس لالنج في أودينار، والمفروض أنه تعلم هناك الفرنسية والسلوك الرفيع الذي تميز به عن معظم فناني عصره. ولما لحظت أمه ميله إلى الرسم، ألحقت للتدريب على يد طوبيا فراخت، ثم آدم فان نورت، وأخيراً أوتوفانوس، وكان رجلاً واسع الثقافة لطيف الحديث، وبعد قضاء ثمان سنوات في كنف هذا المعلم الممتاز، قصد روبنز، وهو الآن في سن الثالثة والعشرين، إلى إيطاليا ليدرس الروائع التي هزت شهرتها النفوس المتعلقة بالتصوير. وفي فينيسيا عرض أعماله الخاصة على رجل في حاشية فنسنزو جونزاجا دوق مانتوا. وسرعان ما التحق روبنز بقصر الدوق في مانتوا، رسماً للبلاط وهناك أبدع لوحتين قاربتا الكمال الفني: "جوستوس لبسيوس وتلاميذه" (8) وكان بين التلاميذ فيها بطرس وأخوه فيليب، ثم لوحة تمثله هو نفسه (9)، أي روبنز، وهو نصف أصلع في الخامسة والعشرين. ولكنه ملتج جريء يقظ. وقام برحلات قصيرة إلى روب لينسخ للدوق بعض الصور، وإلى فلورنسه حيث شهد (ورسم فيما بعد بشكل مثالي) زواج ماريًا مديتشي من هنري الرابع الغائب. وفي 1603 أوفده الدوق في مهمة دبلوماسية إلى أسبانيا يحمل هدايا إلى دوق ليرما، وتقبل الوزير الرسوم التي كان روبنز قد قام بنسخها على أنها لوحات أصلية، وعاد الفنان إلى مانتو دبلوماسياً ناجحاً.

صفحة رقم : 10100

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روبنز إلى رميرانت -> روبنز

وفي رحلة ثانية إلى روما استقر به المقام فيها مع أخيه الذي كان أمين مكتبة كاردينال. وأبدع بيتر آنذاك عدة لوحات للقديسين، منها لوحة "القديس جريجوري يصلح للعذراء (10)". وقد اعتبرها أولى روائعه. وفي 1608 سمع بمرض أمه، فاستحث السير شمالاً إلى أنتورب، وتأثر أشد التأثر حين وجد أنها قد فارقت الحياة. وكان حبها الموسوم بالحكمة

والصبر قد ساعد على خلق مزاجه المرح الذي سعدت به حياته. وفي نفس الوقت كان قد تعلم الكثير في إيطاليا. فإن لون البنادقة المغربي البديع، والشهوانية الحسية في لوحات جيوليو رومانو الجصية في مانتوا. والجمال الأخاذ الهادئ في رسوم النساء التي أبدعتها يد كوريجيو في بارما، والفن الوثني في روما الوثنية المسيحية معاً وارتضاء المسيحية للاستمتاع بالخمير والنساء والغناء-كل أولئك امتزج بدمه وفنه. حتى أنه عندما عينه الأرشيديوق ألبرت مصور البلاط، في أنتورب 1609، اختقت كل بقايا الفن القوطي في التصوير الفلمنكي، واكتمل انصهار الفن الفلمنكي والفن الإيطالي معاً.

وكان ضرباً من الحكمة على غير قصد من أنه كان متغيباً عن الأراضي الوطينة طوال ثمانية أعوام الحرب، وأنه تلقى قرار تعيينه في أول أعوام الهدنة، ففي السنوات الأثنتي عشر التالية على وجه التحديد استعادت أنتورب وبروكسل حياتهما الثقافية. ولم يكن روبنز بالعنصر اليسير في هذا البعث. ويحصي مؤرخ سيرته 1204 من اللوحات الزيتية و380 من الرسوم له (11)، ولا يستبعد أن كثيراً غير هذه وتلك لم يسجله التاريخ. وليس لهذا الخصب مثيل في تاريخ الفن. ويكاد الأمريكيون كذلك بالنسبة لتنوع الموضوعات وسرعة التنفيذ. وكتب روبنز يقول: "إن موهبتي من طراز معين، ولم ترعني معه أية مهمة مهما عظم حجمها أو تشعبت موضوعاتها (12)" -لقد أنجز في خمسة وعشرين يوماً الثلاث التي تمثل "النزول عن الصلب" لكاتدرائية أنتورب، وفي ثلاثة عشر يوماً لوحة "عبادة الملوك" الضخمة الموجودة الآن في متحف اللوفر. وبالإضافة إلى راتبه السنوي في البلاط

صفحة رقم : 10101

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روبنز إلى ميرانت -> روبنز

وقدره 500 فلورين كان يتقاضى أجراً عن كل إنتاج فردي. أنه قبض مبلغاً ضخماً، 3800 فلورين (47.500 دولار؟) عن التحفيتين السابق ذكرهما، أي بمعدل اجر يومي قدره 100 فلورين (1250 دولاراً؟). وذهب جزء من هذا المبلغ بطبيعة الحال إلى المساعدين العديدين الذين كان كثير منهم مسجلاً في نقابة الفنانين بوصفهم أسانذة. ورسم جان بروجل "المخمل" الأزهار في لوحات روبنز ورسم جان ولدنز المناظر الطبيعية والحواشي الثانوية، ورسم بول دي فوز المعادن والفاكهة، أما فرانس سنيدرز فقد صور بطريقة نابضة بالحياة الرأس المستدق بشكل دقيق للكلب في لوحة "ديانا عائدة من الصيد (14)" ولسنا ندري نصيب سنيدرز ونصيب روبنز في مناظر الصيد الهائلة في قاعات درسن وميونخ ومتحف المتربوليتان في نيويورك. وفي بعض الحالات رسم روبنز الأشخاص، وترك لمساعديه الدهان. وكان روبنز يقدم لزيائنه بياناً صادقاً عن درجة إسهامه بنفسه في اللوحات التي باعهم إياها (15). وبهذه الطريقة وحدها استطاع أن يواجه الطلبات التي انهالت عليه. وأصبح مرسمه مصنعاً يعكس أساليب العمل في اقتصاد الأراضي الوطينة، وأدى الخصب في الإنتاج والسرعة في الإنجاز إلى الحط من نوعيته، ولكنه قارب الكمال إلى حد يصبح معه إله الفن الفلمنكي.

وأحس روبنز بالطمأنينة فتزوج في 1609. وكانت إزابلا برانت ابنة محام وعضو المجلس التشريعي في أنتورب، ومن ثم كانت شريكة صالحة لابن محام وعضو في المجلس التشريعي في المدينة نفسها. وأقام روبنز في بيت أبيها حتى يتم إعداد داره الفخمة المطلّة على قناة وابنز. وفي واحدة من أجمل لوحاته (16) نرى بيتر وايز بللا تغمرهما سعادة الأيام الأولى من الزواج، أما هي فتراها مكسوة بأردية فضفاضة مشدودة الخصر بصدار مزدان برسوم الأزهار، وقد وضعت يدها على يده في ثقة واستنثار، ويرز وجهها المفعم بالحيوية من طوق رقية مكشكش أزرق هائل، وتوج رأسها بقبعة فارس، أما هو فتراه مكتمل الرجولة والنجاح، ذا ساقين قويتين ولحية بيضاء وملامح

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روبنز إلى رمبرانت -> روبنز

وسيمة، يرتدي قبعة مزدانة بالأشرطة. ولم تعمر إيزابلا بعد الزواج أكثر سبعة عشر عاماً، ولكنها أنجبت له أبناء سهر على تربيتهم ورسمهم في حب وإعزاز، فهناك لوحة الولد المجدد الشعر في متحف قصر فريديريك، برلين، وهو ممثلي الجسم جميل سعيد، يلعب ببيامة، ويمكن أن نراه مرة أخرى في لوحة "أبناء الفنان" (17)، وقد كسسته السنوات السبع التي سلخها من عمره بالرصانة، ومل يتسنى إلا لرجل فاضل بارع أن يرسم مثل هذه اللوحات. وكان روبنز في نفس الوقت وثيقاً أساساً، ولو عاد دون تورغ أو خجل بجسم الإنسان ذكراً أو أنثى، في كل نشوة الفتوة عند الرياضي القوي، أو في هدوء المنقوس المنحني، وكان معروفاً عن الفلاندرز أو رمزاً عليها أنها استمعت بأساطير الوثنية الدنسة-طقوس وعادات الجسم الطليق-على حين رحبت الكنائس بتأويله للموضوعات الدينية أو تفسيره لها. ولم يستطع أن يفرق بين مريم العذراء و فينوس: ولعله لم يحس بأي تعارض بينهما، فكلتاها جلبت له المال. وفي لوحة "عبادة فينوس" (18) كان العنصر الوثني غير مقيد-مجموعة من كاهنات إله الخمر باخوس، يخفين في تواضع وخفر معصماً أو ركبة، يعانقهن آلهة معربدون شهوانيون، على حين يرقص اثني عشر غلاماً حول تمثال آلهة الحب. ولو أن هذه الموضوعات الوثنية تعكس أثر مقامه في إيطاليا، إلا أن صور فينوس يعزوها الخط الكلاسيكي، فهي لا تستطيع الحياة في الشمال، على الشمس والهواء والخمر كما كان حالها في الجنوب، بل أنها يجب أن تأكل وتشرب لتتقي المطر والضباب والبرد. والطبيعة البشرية النيوتونية، مثل الويسكي البريطاني-إنجليزي أو اسكتلندي-دفاع مناخي وكان عنوان إحدى لوحات روبنز- فيها ثلاث نساء عاريات متورمات-"فينوس بلا خبز ولا نبيذ تشعر بالبرد والضعف" (19)، وتلطف الفنان فلم يقل "بلا لحم ولا جعة" وكذلك لم ير مفاجأة للياقة في لوحته "راع يغازل" (20) وهي تمثل راعياً يحاول أن يغوي فتاة بدنية ترن ثلاثمائة رطل، فليس ثمة حسن أو رديء، جميل أو قبيح، ولكن البيئة هي التي تحدد هذا أو ذلك: وليس

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روبنز إلى رمبرانت -> روبنز

في لوحة "اغتنصاب السابين" (21) إلا كل ما يستطيع أن يفعله جباران قويان رومانيان ليرفعا على ظهر جواد امرأة تسحر اللب من أسرارهم. وحتى في لوحة "عواقب الحرب" (22) ليس ثمة ضعف. و"ديانا عائدة من الصيد" (23) لم تكن إلهة إغريقية أنيقة طاهرة، بل ربة بيت فلمنكية عريض الكتفين قوية العضلات ذات مكانة اجتماعية، وفي كل هذه الصورة الضخمة الممتلئة لا ترى تحيلاً إلا الكلب. وغابات روبنز ملأى بالهبة يعتصرون أثقالاً، كما في "أكسيون وهيرا" (24) و "أربعة أركان الدنيا" (25)، وكما يمكن أن نكون قد توقعنا لم يكن "أصل المجرة" (26)-غرضية مستديمة، بل ربة بيت بدنية تفيض سيلاً من اللبن من ثدي ممثلي. أما "الربات الأخوات الثلاث" (27) فهن نحيلات رشقات، نسبياً، على أية حال. وفي "محاكمة بارييس" (28) (ابن ملك تروادة الذي خطف هيلانه في الأساطير اليونانية) نرى سيدتين فقط-يشاكل زيهما الأرياء المتأخرة، أخرى تعد من أجمل صور النساء في الفن. وفي هذه

الرسوم الوثنية عادة يوجد شيء أبعد كثيراً من الجسد، فإن روبنز أسبغ عليها من فيض خياله الخصيب الممتلئ بالحيوية والمرح، فهناك مائة من الملحقات الكمالية تملأ المنظر، مخططة في حرص ولكن دون دراسة، تهر عين الناظر إليها باللون والدفء والحياة. وكما أنه ليس ثمة شيء يثير الشهوة في العرض المنتفخ، وأنه مجرد حيوية حيوانية، فليس هناك رسم واحد يثير الشهوة الجنسية. أن روبنز نفسه كان يتحلى بسلوك قويم إلى حد غير قياسي، بالنسبة لفنان شديد التأثر والحساسية بالضرورة للون والشكل، وعرف عنه أنه زوج فاضل و "رب أسرة موثوق"، لم تمسه شائبة من التودد للنساء أو المخادعة (29).

واعترف رجال الكنيسة في الفلاندرز ببراءة الناحية الحسية في رسوم روبنز، فلم يحسو بالحرج أو بوخز الضمير في أن يطلبوا منه أن يصور ثانياً قصة العذراء والمسيح والقديسين، وقد أجابهم إلى سؤالهم، ولكن بطريقته

صفحة رقم : 10104

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روبنز إلى رمبرانت -> روبنز

غير المبتدلة، ومن خلفائه الذين لا يحصى عددهم استطاع أن يصور في خيال أوسع، أو يرسم في مهارة أدق، الفكرة القديمة "عبادة الملوك" ومن كان يجرؤ على تركيز العمل في تشكيل البطن السمين للأثيوبي المعجم ذي اللون البرونزي، وهو ينظر في ازدياد واضح إلى الوجوه الشاحبة حوله، ومن كان يحلم أن الوثني الذي يحدق النظر بعينه ويفرشاته إلى كل ركن وكل زاوية في جسم المرأة، يمكن أن يحب الجزويت وينظم إلى طائفتهم المريمية، ويؤدي التمارين التي وضعها أجنات ليولا لتطهير النفس برؤى الجحيم (31).

وفي مارس 1620 تعاقد مع الجزويت على أن يضع قبل أن ينصر العام، تصميمات لتسعة وثلاثين رسماً تغطي سقوف كنيسة الباروك الفخمة التي كانوا قد بدأوا بتشييدها في أنتورب في 1614. وأنجز روبنز الرسوم التي حولها فان ديك آخرون معه إلى لوحات، دمرت كلها تقريباً في 1718، وقام روبنز نفسه بعمل صورتين عظيمتين للمذبح الرئيسي: إحداهما "أجنات بيرو الذين مسهم الشيطان"، والثانية "معجزات سانت فرانسيس"، وكلتاهما الآن في متحف تاريخ الفن في فيينا.

ومع ذلك فإن روبنز كان كاثوليكياً على النحو الذي كانت تعنيه الكاثوليكية في عصر النهضة. ومسيحياً بحكم الموطن. وعاشت وثنية في ظل تقواه. ولم تكن مريمانة (صور السيدة العذراء في لوحاته) سوى نسوة داعرات غليظات يبدو واضحاً أنهن أصلح لإيقاع الرجال في حبالهن. منهن لإنجاب إله. وفي لوحة "العذراء في إكليل من الزهو (33)" تمثل السيد المسيح صبياً أجعد الرأس، ومريم في زي ربة بيت فلمنكية ترتدي قبعة جديدة في يوم الأحد في أحد المنتزهات. وحتى في لوحة "رفع الصليب" (الموجودة في كاتدرائية أنتورب) نجد أن اهتمام روبنز بالتشريح يتغلب على الفكرة الدينية فالمسيح رجل رياضي مكتمل القوة والنشاط، لا إلهاً يعاني سكرات الموت.

صفحة رقم : 10105

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روبنز إلى رمبرانت -> روبنز

وفي "طعنة الرمح(34)" مرة أخرى نجد التشريح هو كل شيء: فالمسيح واللصان شخوص ضخمة، والنساء تحت الصليب يتخذن وضعاً خاصاً أمام فنان، أكثر منهن مغمى عليهن من الحزن، فإن روبنز لم يستشعر هول الموقف. وفي خمس مرات على الأقل تحدى روبنز الرسام الفينيسي تيشيان في "صعود العذراء"، وفي أشهر هذه المحاولات(35)، تبدو العذراء ميتة لا حياة فيها، والأفراد الأحياء هم المجدلية والحواريون الجزعون عند المقبرة الخالية، وأجمل منها اللوحة الثلاثية(36) التي أهدتها الأرشيديوقية إيزابل إلى جمعية الدفنوسو الدينية في بروكسل: ففي الصورة الوسطى نزلت العذراء من السماء لتقدم لرئيس أساقفة توليدو. رداءاً من الجنة مباشرة، والقديس في خشوع تام "يلهث من العبادة"، على حين أنه في الصورتين الجانبيتين نرى إيزابل وألبرت قد وضعا تاجيهما جانباً "وركعا للصلاة، وهنا في هذه اللوحة الثلاثية. أضفى روبنز لوهلة قصيرة، بعض الحياة على التقوى أو صورها أحسن تصوير. وفي لوحة سانت أمبروزو الإمبراطور تيودوسيوس(37) -أدرك روبنز ونقل إلى الصورة سطوة الكنيسة وسلطانها الخفيين: ففيها ترى رئيس أساقفة ميلان الذي لم يتسلح إلا بعدد من الكهنة وقندلفت (مساعد كاهن)، ولكنه منتسم بالجلال والعظمة، يطرد من الكاتدرائية الإمبراطور الذي يحف به حرس رهيب، ولكنه متقل بالقساوة التي لا تغتفر وقلما أخفق روبنز مع كبار السن من الرجال، ففيهم، وبخاصة في الوجه، تبرز قصة حياتهم، كما أن الوجه يعرض الشخصية والخلق واضحتين أمام الفن المدرك الواعي. أنظر إلى رأس الأب لوجة "لوط وأسرته يغادرون سودوم(38)". وهي واحدة من أروع لوحات روبنز في أمريكا. وعاد في حيوية بالغة إلى الموضوعات الدنيوية، مختلطة بالأساطير عندما عرضت عليه ماري دي مديتشي أكثر العقود إغراء في حياته. ووقع

صفحة رقم : 10106

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روبنز إلى ريمبرانت -> روبنز

في 16 فبراير 1622 اتفاقية، يرسم بمقتضاها، في مدى أربعة أعوام، إحدى وعشرين صورة كبيرة وثلاث صور شخصية، تخلد ذكرى الأحداث في حياة ماري وزوجها هنري الرابع، ودعته الملكة للحضور ليعيش في البلاط الفرنسي ولكن هده تفكيره السليم إلى البقاء في وطنه. وفي مايو 1623 صحب معه إلى باريس اللوحات التسع الأولى، وأحبت ماري هذه اللوحات. كما أعجب بها ريشليو. وأكملت المجموعة في 1624، وقصد روبنز بالبقية إلى باريس حيث رآها موضوعة في قصر لسمبرج. وفي 2802 نقلت اللوحات إلى اللوفر، حيث انفردت تسع عشرة لوحة منها بقاعة خاصة بها. ولن ينكر كل من رآها أو درسها على برونز العشرين ألف كراون (250.000 دولار) التي تقاضاها في مقابل عمله، أو يحسده عليها، ولا ريب أن مساعديه قاسموه فيها. وهذه اللوحات في جملتها هي أسمى منجزاته. وإذا تجاوزنا عن بعض هنات السرعة، وارتضينا القصة التي لاتصدق كما نفعل في أوفد، وشكسبير وفردى-فاننا سنجد هنا روبنز بكل سماته، اللهم إلا نقواه العارضة. ولقد أحب فخامة طقوس البلاط، وجلال السلطة الملكية، ولم يسأم قط النساء الممثلات الأجسام، والثياب الفاخرة، والستائر وأغطية الأثاث البهية، وكان قد عاش نصف أيامه مع الأرباب والرباب في الأساطير القديمة، ونراه الآن يضم هؤلاء جميعاً في قصص فياض، مع قدرة فائقة على ابتداع الأحداث العارضة، وغازرة في اللون وبراعة فائقة في التأليف والتصميم، ومما جعل هذه ملحمة وأوبرا في تاريخ الرسم.

ولم يكن يعوز روبنز إلا مرتبتين اثنتين من مراتب الشرف ليبلغ ذروة التمجيد-التعيين في الوظائف الدبلوماسية، والحصول على براءة النبالة. وفي 1623 أوفدته الأرشيديوقية إيزابل ليفاوض، على أمل تجديد الهدنة مع هولندا،

وكان لدى روبنز ما يحمله على توطيد السلام، فإن زوجته كانت طموحة في أن تترث عن عمها الهولندي مالا(39). وأخفت هذه الجهود، ومع ذلك أفتعت إيزابل الملك فيليب الرابع بأن يخلع على روبنز النبالة (1624)

صفحة رقم : 10107

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روبنز إلى رميرانت -> روبنز

وعينه "رئيس الديوان الخاص لصاحبة العظمة" أي إيزابل نفسها. ولكن الملك اعترض بعد فترة من الوقت على استخدامها لمثل هذا الشخص الوضيع المحتد غير الكريم، في استقبال البعثات الأجنبية، وبحث مسائل على قدر كبير من الأهمية(40)، ومع ذلك أوفد إيزابيل روبنز بعد ذلك بعام (1628) إلى مدريد ليساعد على عقد الصلح بين فيليب الرابع وشارل الأول. وأخذ الفنان معه رسومه، وعدل الملك من رأيه في موضوع الحساب والنسب وجلس إلى روبنز ليرسم له خمس صور شخصية، وكان الفنان الأسباني فيلا كويز لم يقم بما يكفي الملك في هذا الصدد. وتوثقت أوامر الصداقة بين الفنانين، وأسلم الفنان الأسباني، وهو آنذاك في التاسعة والعشرين، القيادة للفلمنكي العبقري الأنييس، وهو إذ ذلك في سن الواحدة والخمسين. وأخيراً عين فيليب روبنز "الوضيع النسب" مبعوثاً له في إنجلترا، وفي لندن نجح روبنز في عقد معاهدة صلح، على الرغم مما دفع ريشليو من رشوة وبث من جواسيس لعرقلة الصلح. وفي لندن رسم روبنز بعض صور شخصية إنجليزية دوق ودوقة بكنجهام(41)، والوجه المهيب لتوماس هوارد أرل أرونديل ولحيته ودرعه(42)-وبعد أن مهد الطريق أمام فاندريك عاد إلى أنتورب (مارس 1630) وقد منحته جامعة كمبردج درجة علمية، ومنحه شارل لقب فارس.

وفي الوقت نفسه كانت زوجة روبنز الأولى قد توفيت (1626) وطبقاً للتقاليد الفلمنكية أقيمت للاحتفال بجنائزتها مأدبة باذخة كلفت الدبلوماسي الفنان 204 فلورينات (2500 دولار) أنفقها على "الطعام الشراب وأدوات المائدة(43)"، فالموت في المجتمع الفلمنكي كان ترفاً يورث الحرمان والفقر. وأغرق روبنز شعوره بالوحشية والوحدة في الدبلوماسية. وفي 1630، وكان قد بلغ الثالثة والخمسين، تزوج من هيلينا فورمنت ذات السنة عشر ربيعاً. أنه كان في ميسيس الحاجة إلى جو من الجمال يحيط به، وكان له بالفعل من دفئها ودعتها ما فاض على فنه وأحلامه. ورسمها المرة بعد المرة، في أي زي، دون ثياب: في ثوب الزفاف(44)، وهي ممسكة بقفاز(45)، تعلقها ابتساماً السعادة

صفحة رقم : 10108

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روبنز إلى رميرانت -> روبنز

في قبعة أنيقة(46)، وهي تخفي وركيها فقط تحت معطف من الفراء(47). أما أروع الصور فهي تلك التي تمثلها تنتزه مع روبنز في حديثها(38)-وهذه الأخيرة هي إحدى القمم في التصوير الفلمنكي، ثم صورها وليدهما

الأول(49)، وبعد ذلك مع طفليهما(50)-مبشراً بالفنان دنوار (مصور فرنسي 1149-1919). وحدث ولا حرج عن اللوحات التي تمثلها في وضع مثير للشهوة مثل فينوس، أو متمسك بالحشمة مثل "أم الإله-العذراء". ورسم بيرنز عاهليه المحبوبين البرت وإيزابل، بغير ما نفاق ولا رياء. وإنا لنراها في متحف فيينا وبتي، في أغلب الظن كما كانا-بحكم بلدأ قلقاً مضطرباً، بكل النيات الطيبة التي تلتئم مع المثل العليا الأسبانية، لقد عثر الفنان في الفلاندرز على أنماط ممتازة للرجال والنساء، فرسمها في تصويره لجان تشارلز دي كورد وزوجته الجميلة المتجهمة(51)، وفي صورة ميكائيل أو فينوس(52) أسقف هرتو جنيوخ، وترك لنا صورة ضخمة لاسبينولا الجبار(53). ولكن رسم الصورة الشخصية لم يكن موطن التفوق والامتياز في روبنز، فهو لم يقدم لنا نظرات نافذة دقيقة أو إحياءات صادرة من الأعماق، كما فعل رمبرانت. وأعظم صورته الشخصية هي تلك التي رسمها لنفسه في 1624 من أجل من صار فيما بعد شارل الأول(54): قبعة ضخمة ذات أشرطة ذهبية لا تكشف إلا عن جبهة عريضة لرأس أصلع، مع عينين محدقتين في نظرة فضولية. والأنف الطويل الحاد يبدو أنه يتفق مع العبقرية، والشارب المتصلب الخشن واللحية الحمراء الجميلة، وهذا يمثل رجلاً يدرك أنه في ذروة البراعة في حرفته ومع ذلك فإن شيئاً من حيويته الطبيعية ومتعته الحسية وقناعته الهادئة، مما أشرق وتآلق في صورته مع إيزابل برانت (زوجته الأولى) قد ذهب على مر السنين. إن الإخفاق وحده الذي يرهق الإنسان ويفنيه بأسرع مما يفعل النجاح. كان روبنز ثرياً، وعاش عيشة باذخة، وكان بيته الفخم في أنتورب أحد

صفحة رقم : 10109

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روبنز إلى رمبرانت -> روبنز

مشاهد المدينة. وفي 1635 اشترى بمبلغ 93 ألف فلورين ضيعة واسعة وقصراً إقطاعياً في مقاطعة ستين، تمتد 18 ميلاً، واتخذ لقب لورد ستين، وقضى الصيف هناك، ورسم المناظر الطبيعية وجرب يده المتعددة المهارات في رسم أحداث الحياة اليومية. ووسط ضروب الترف والرفاهية، مع خادمات ثلاث وسائسين وثلاثة جيا، استمر يبذل أقصى الجهد في العمل، وهو يجد سعادته في أسرته وفي عمله، وأحبه زوجاته وأولاده ونصراؤه ومساعدوه لصفاء روحه وسخائه ومشاركته الوجدانية العظيمة(55).

ويجدر بمن هم أقدر منا أن يحلوا المزايا الفنية في فنه، ولكننا نستطيع مطمئنين أن نصفه بأنه نموذج رئيسي لتصوير الباروك: أي اللون الحسي، والحركة التي لا تحصى، والخيال الخصب، والزخرفة المنمقة المترفة، على عكس ما عرف في التصوير القديم من الهدوء وتقييد الفكر والحظ. ولكن في فوضي الجمال هذه، يقول النقاد بأن هناك براعة فائقة في التخطيط والتصميم وغدت صور روبنز مدرسة من الحفارين والنقاشين الذين صنعوا الطراز الأول من اللوحات المعروفة في أوربا المسيحية، كما فعل ريموندي مع رسوم رافائيل، ومن يد روبنز أو من مرسومه خرجت الرسوم المشهورة إلى نساجي الأقمشة المزركشة في باريس وبروكسل، وصنعوا هدايا ملكية أو زخارف للويس الثالث عشر وشارل الأول والأرشيدوقية إيزابل.

وشهد العقد الأخير من سني حياته نصراً مبيهاً عكسه انحطاط قواه الجسمية ولم يضارعه في شهرته الغنية سوى برنيني، ولم يحلم أحد بأن ينازعه تفوقه في الرسم وهرع إليه التلاميذ من كل الأنحاء، ووفدت إليه بعثات لبلاط من ست ممالك، حتى من الحاكم فردريك هنري عبر خطوط القتال. وفي 1636 طلب إليه فيليب الرابع أن يرسم بعض مشاهد "مغامور فوزس" للشاعر الروماني أوفيد لقصر الصيد في باردو. وأنجز مرسوم روبنز خمسين صورة لهذه المجموعة، منها واحد وثلاثون مشهداً في متحف برادو، وبدا للكاردينال

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روبنز إلى رمبرانت -> روبنز

انفانت فرديناند أن مشهد منها هو "محاكمة باريس" أروع ما أبدعته يدار روبنز على الإطلاق (56). وقد نوثر عليه "المهرجان (57)" الصاخب الذي كان قد صوره في 1636- وهو مطاردة مسعورة، ليس فيها امرأة عجوز أو بدينة إلا اختطفها رجل ما.

أما صورته الشخصية في سن الستين (58) فهي الوجه الآخر لخواتيم حياته رجل لا يزال مزهواً. يقبض بيده على سيف النبالة، ولكن التحول يعرو وجهه النحيل، ويتدلى جلده، وتحيط التجاعيد بعينه-وهو رسم أنيق أمين وفي 1635 ألزمه داء النقرس الفراش شهراً. وفي 1637 شل يده لفترة من الزمن، وفي 1639 عاقه هذا الداء عن التوقيع باسمه. وفي 1640 شلت كلتا يديه. وفي 30 مايو 1640، وقد بلغ الثالثة والستين، قضى نحبه متأثراً بالتهاب المفاصل وتصلب الشرايين.

لقد كانت حياة روبنز تدعو إلى الدهشة. أنه لم يكن النموذج الشامل للمثل الأعلى للنهضة الأوروبية، ولكنه حقق طموحه في أن يلعب دور في الدولة وفي الرسم على حد سواء. ولم يكن فناناً شاملاً مثل ليونارد ميكل أنجيلو، فلم يخلف لنا نحتاً، ولم يصمم أي مبنى سوى داره. ولكنه في الرسم بلغ ذروة الامتياز في كل مجال. فإن الصور الدينية، والصخب الوثني والآلهة والإلهات، والعاريات والمكتسيات، والملوك والملكات، والأطفال والعجائز، والمنظر الطبيعية والمعارك-كانت كلها تتناسب من فرشاته، وكأنها معين متعدد الموارد لا ينضب من اللون والشكل. ولقد وضع روبنز حداً لخضوع الرسم الفلمنكي للرسم الإيطالي، ولكن بدون الثورة أو التمرد، بل عن طريق الاستيعاب والاتحاد. ولم يكن روبنز في مثل عمق رمبرانت، ولكن أوسع أفقاً لقد نفر من الأعماق الخفية التي كشف عنها رمبرانت، وأثر عليها الشمس والهواء الطلق، وتراقص الضوء، واللون، ومتعة الحياة وسحرها، وكافاً حظه السعيد

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روبنز إلى رمبرانت -> روبنز

بالإبتسام للنديا، إن فنه تعبير عن الصحة، مثلما أن فننا اليوم يوحى باعتلال الفرد أو اعتلال الروح العامة. ويمكن، إذا وهنت نفوسنا أو افترت حيويتنا أن نفتح كتاب روبنز في أي مكان لننتعش ونجدد قوانا.

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روبنز إلى رميرانت -> فانديك

4- فانديك

1599 - 1641

لقد كان من عادة روبنز أن يرحب ويشجع الموهبة المبكرة النضج لدى الشباب اليافع الوسيم، الذي التحق بمرسمه حوالي 1617. وكان أنطوني فانديك قد بدأ تدريبه وهو في سن الثامنة عند هندريك فان بالمن، معلم سنيدرز. وفي سن السادسة عشر كان له تلاميذه هو نفسه، وفي سن التاسعة عشر سجل أستاذاً في نقابة الفنانين، ولم يكن تلميذاً لروبنز بقدر ما كان مساعداً ذا قيمة كبيرة له. وقدر روبنز أحد أعمال فانديك الأولى بأنه يساوي في قيمته لوحة "دانيال" التي أنجزها روبنز في نفس العام. واحتفظ في مجموعته الخاصة بلوحة فانديك "المسيح يتوج بالأشواك"، ثم تنازل عنها في وقت متأخر، وهو كاره، لفيليب الرابع. ليضعها في الأسكوريال (59). وتأثر فانديك في شغف بالغ بروبنز، ولكنه كانت تعوزه حيوية الفنان العجوز في الحركة واللون، ومن ثم قصر عن اللحاق به في كل شيء، فيما عدا رسم الأشخاص. وفي صورته الشخصية الأولى (1615)(60) كشف عن الخصائص التي كان يجب أن تميز وتحدد عبقريته رقة ورشاقة وجمال ناعم، مما لا يكاد يليق بالرجل. وكان زملاؤه الفنانون سعداء بالجلوس إليه لتكون الصورة التي يرسمها لهم، سباجاً إضافياً يحميهم من نسيان الناس لهم. وقد رسم صوراً شخصية محببة لسنيدرز (61) ودوكونسوي (64) تورجان دي وال (64) وجسباردي كريبير (65) ومارتن بين (66)، وكان من صفات فانديك المحمودة الكثيرة أنه أحب منافسيه. وتوحي تلك الصور الشخصية في مرسم روبنز بروح طيبة من الزمالة لا توجد دائماً في مملكة الفن.

صفحة رقم : 10113

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روبنز إلى رميرانت -> فانديك

وفي 1620 تلقى أرل أرونديل من أنتورب رسالة جاء فيها: "أن فانديك يقيم مع برونز، وتقدر أعماله بأنها تكاد تضارع أعمال أستاذه (67)" فدعا الفنان الشاب إلى إنجلترا، فذهب فانديك وهناك تقاضى من جيمس الأول معاشاً زهيداً قدره مائة جنيه، ورسم قليلاً من الصور الشخصية، وتمرد على ما طلبه منه الملك من نسخ حقير لصور أصلية، وطلب منحة إجازة لمدة ثلاثة أشهر يتغيب فيها عن البلاد، فأجيب إلى طلبه، ولكنه مد الغياب إلى اثني عشر عاماً. وفي أنتورب دبر لزوجته وطفلهما سبل العيش، ثم أسرع إلى إيطاليا (1621). وهناك لول مرة أسرع الخطى وشمر عن ساعد الجد، وترك صوراً شخصية رائعة في كل مكان نزل به تقريباً، وعكف على تأمل أعمال البنادقة العظام، لا ليدرس اللون والضخامة لديهم، كما فعل روبنز من قبل، ولكن ليكتشف

الأسرار الشعاعية في الرسوم الشخصية عند جيور جيوني وتيشيان وفيرونيز. وقصد كذلك إلى بولونيا وفلورنسة وروما، بل حتى إلى صقلية. وفي روما أقام مع الكاردينال جيد وبنيتفوجليو، وكافأه بصورة شخصية (68) وكره الفنانون الفلمنكيون الذين كانوا يتصورون جوعاً في إيطاليا، من فاندريك كياسته، وإن شئت تملقه وتودده، ففتحوه بأنه "مصور الفرسان"، وأتوا بأعمال قبيحة، إلى حد أنه رحل مسروراً بصحبة ليدي أرونديل إلى تورين. وكان الترحيب به كبيراً بصفة خاصة في جنوة التي تذكرت روبنز، وكانت قد سمعت بميل فاندريك إلى تمجيد النبلاء، حتى ليجعل من كل جالس أمامه أميراً. وفي متحف متروبوليتان للفن في نيويورك نموذج لهؤلاء الأرسقراطيين الجنوبيين: "المركيزة دورازو": وجه حساس ويدان رشيقتان ناعمتان (كما هو الحال دائماً في رسوم فاندريك)، كما يحتفظ المتحف الوطني واشنطن بلو حتى "المركيزة بالبي" و"المركيزة جريما لدي" - وهي مزهوة حبلى. وفي برلين ولندن نماذج أخرى. واستطاعت جنوة أن

صفحة رقم : 10114

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روبنز إلى ميرانت -> فاندريك

تحتفظ في قصر روسو فيها بلوحة "المركيز والمركيزة" برينولي سالي وعاد فاندريك إلى أنتورب (1628)، وقد امتلأت جيوبه وانتفخت أوداجه وتأنق في مظهره. وصرفه مسقط رأسه عن النبلاء إلى القديسين، وحتى يهيئ نفسه لهؤلاء ندم على ما أقترف من فحشاء، وأوصى بثروته الصغيرة لأختين من الراهبات، وأنظم إلى "الرابطة الجزويتية لغير المتزوجين"، وتحول إلى الموضوعات الدينية. ولم يستطع أن ينافس روبنز في هذا المضمار، ولكنه تجنب مبالغات الأستاذ العزيز الإنتاج وتألقة الشهواني، وأضفى على رسومه هو لمسات من الأناقة التي تعلمها في إيطاليا. وذهب رينولدز إلى أن لوحة فاندريك "صلب المسيح" في كاتدرائية مكليين واحدة من أعظم الصور في العالم، وعلى أية حال ربما كانت هذه هي طريقة سير جوشوا في الوفاء بالدين. وجرب فاندريك يده في صور الأساطير. وعلى الرغم من أنه لاحق نساء كثيرات فإنه لم يقبل على رسم الصور العارية ولم يبرع فيه. وكان موطن قدرته وامتيازه في الصور الشخصية. وفي هذه السنوات الأربع في أنتورب أنقذ من زوايا النسيان، بما رسم من لوحات "البارون فيليب لوري والكلب الأمين (69)"، و"الجنرال فرانسيسكو دي مونكادا وجواده (70)" و"الكونت رودوكاناكس (71)" الذي بدا كأنه سوينبرن، و"جان منتقورت" الذي بدا مثل فولستاف (إحدى شخصيات شكسبير)، وأروع رسوم فاندريك في فيينا هي صورة "روبرت الشاب الأمير البلانين الفائق" الذي سرعان ما خاض غمار الحرب دفاعاً عن شارل الأول في إنجلترا. ومن الرسوم الفاتنة كذلك صورة "ماريا لوبزا أوف تاسيس (73)" غارقة في ثيابها الفضفاضة المصنوعة من الأطلس الأسود والحريير الأبيض. ولا يقل روعة عن هذه الرسوم كلها لوحة فاندريك لبيتر "الجحيم" بروجل (الأصغر)، وهو رجل عجوز لا يزال يضطرم قلبه بحيوية لم ينضب معينها في أسرة تثير الدهشة.

صفحة رقم : 10115

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روبنز إلى رمبرانت -> فانديك

وأخذ فانديك بعض هذه الصور إلى إنجلترا حين دعاه شارل الأول إليها ليجرب حظه فيها ثانية. وكان شارل-على عكس أبيه ذواق للفن. وظن أن هذا الفلمنكي الوسيم هو الرجل الذي يستطيع أن يصنع له ما كان يصنع فلاسكويز الأسباني للملك فيليب الرابع. وذهب فانديك وسجل للأجيال القادمة صور الملك والملكة هنريتا ماريا وأطفالهما، وهي صور برزت فيها روعة فن فانديك بشكل لا يمحي أثره. وأشهر هذه اللوحات الملكية الخمس، هي اللوحة الموجودة في متحف اللوفر - وهي تمثل الملك المزهو العاجز مرتدياً زي الفروسية، واضعاً يده على خصره، شاهراً سيفه، وعلى رأسه قبعة أنيقة، بالإضافة إلى لحية فانديك، ولكن الجواد المنهوك الذي يقضم شكيمته أثناء فترات الصيد، قد يشغف به الناظر إلى الصورة قبل أن يشغف براكبه. وتوجد في درس وتورين لوحات تباري هذه، وهي تمثل أبناء شارل، وهم بعد أبرياء ولا يخشى منهم أذى. وكان شارل أكثر إنسانية في مخبره منه في مظهره. وبرزت حرارة العاطفة عنده في تعلقه بفانديك وإعزازه له، فقد ضمه إلى طبقة الفرسان، ووهبه دوراً فخمة في لندن وفي الريف ومنحه معاشاً سنوياً قدره مائتا جنيه، ومبلغاً إضافياً عن كل رسم، وعن كل زيارة للبلات.

وعاش الفنان السعيد حياة تتفق مع دخله، فأولع بالثياب الأنيقة، وكانت له عربته التي تجرها أربعة من الخيل، وجياده الأصيلة وخليلاته، وملاً بيوته بالموسيقى والفن. وبرز توجيهات روبنز في تقويض غيره في العمل فترك رسم الملابس لمساعديه، وأنجز صورة شخصية في ساعة واحدة من رسم تخطيطي تم في جلسة واحدة وكان يسارع إلى اغتنام الفرص قبل فوات الأوان ويروى أن شارل الأول، حين كان يعاني من تقشير البرلمان عليه، سأل الفنان المبذر مرة: هل تعرف ماذا يقصد بقولهم أن الإنسان يعوزه المال "فاجاب فانديك" نعم يا مولاي، إذا مد المرء مائدة مفتوحة لأصدقائه، وأغدق من كيس مفتوح على خليلاته، فسرعان ما يصل المرء إلى قاع الكيس ليجده فارغاً (74).

صفحة رقم : 10116

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روبنز إلى رمبرانت -> فانديك

وإذا كان فانديك قد غرق في الديون أحياناً، فإن ذلك لم يكن لافتقاره إلى النصر والمحبين ورعاية فنه. فقد انتظر الأرسنقراطيون الإنجليز دورهم في الحصول على موافقته: مثل جيمس ستيوارت، ودوق لينوكس (75)، الوسيم مثل كلبه، وروبرت زنتشي أرل ودورك (76)، ولورد دربتي وأسرتيه (77) وتوماس ونورت أرل سترافورد (78) الذي تحدى القدر. كذلك جاء دور الشعراء من كارو، وكلجرو، وسكلنج. وأخيراً جاء دور أولديار (79) الذي زعم أنه بلغ من العمر مائة وخمسين عاماً، وكان يبدو عليه ذلك. لقد رسم فانديك 300 صورة شخصية في إنجلترا، تميزت كلها تقريباً بالكياسة والوقار اللذين رأهما في أحد اللوردات، حتى ولو لم يوجد شيء منهما.

وتبارت خليلته مرجريت ليمون مع الأرسنقراطية في توفير الخدمات له مما كلفه غالباً. واقترح الملك أن الزواج أيسر تكلفة، وعاونه (1639) في طلب يد ليدي ماري روثفن وهي سلسلة أسرة مشهورة في تاريخ إسكتلندا ورسم الفنان لعروسه صورة جميلة (80) ولكنها لا تقارن بالوجه الجميل الذي رسمه لنفسه في "الصورة الشخصية للفنان" (81) التي يعرفها العالم كله شعر غزير متموج، وعينان حادتان، وتقاطيع دقيقة، ولحية مقصوصة، وسلسلة ذهبية تنبئ بأنه فارس. هل كان فانديك يتملق سير أنطوني (نفسه) إذا كان الأمر كذلك، فليس ثمة جدوى، لأن صحته التي أسرف في استنزافها، بدأت الآن تتدهور، وكره فانديك أن يذكر بمجرد رسم الصور الشخصية فحسب، فطلب إلى شارل أن يسمح له برسم مناظر تاريخية على جدران قاعة اللانم في قصر هويت هول، ولكن الملك كان يعاني العوز. فعبّر فانديك البحر إلى باريس (1640) أملاً في تكليفه بتصوير القاعة الكبرى في اللوفر، وكان لويس الثالث عشر قد اختار

بالفعل بوسان لهذه المهمة، ولكنه تخلى عنها بعد فوات الأوان، فقد مرض فاندريك فأسرع إلى لندن حيث كانت تقيم زوجته وفاضت روحه (1641)، بعد أحد عشر يوماً من مولد ابنته، ولم يكن قد بلغ بعد الثانية والأربعين.

صفحة رقم : 10117

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روبنز إلى رمبرانت -> فاندريك

لم يؤسس فاندريك مدرسة، ولم يترك بصمات على الفن في القارة، ولكن أثره في إنجلترا كان بالغاً. فإن الرسامين المحليين مثل وليم دويسون، وروبرت ووكر، وصمويل كوبر، أسرعوا في تقليد أسلوبه المتملق الذي يدر ربحاً. وعندما سادت موجة عارمة من الصور الشخصية بظهور رينولدز وجينزبرو فإن تراث فاندريك كان مصدر كل تعليم وتنقيف وإثارة. ولم تكن الصور الشخصية التي رسمها فاندريك عميقة. لقد كان متعجلاً إلى درجة لم تتح له البحث عن الروح. وتوقف في بعض الأحيان عند الوجه أو اللحية. إن الفرسان الذين أحاطوا بالملك شارل الأول اشتهروا بسلوكهم الحميد، وما كان متوقفاً أن يبدوا كثير منهم وكأنهم شعراء، وكان من المنتظر أن تصل إلينا، من خلال عيني فاندريك وفرشاته بعض أخيلة البطولة التي نجدها في وقتهم إلى جانب مليكهم. وليس من العدل أن نتوقع من هذا الشاب الهزيل المحظوظ حيوية روبنز العارمة، أو عمق رمبرانت المؤثر. ولكننا سنبقى على اعتزازنا بهذه الصور الشخصية الجنوسية والفلمنيكية والإنجليزية، على أنها "معالم دقيقة ثمينة" متألقة في تراثنا.

صفحة رقم : 10118

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روبنز إلى رمبرانت -> الاقتصاد الهولندي

5- الاقتصاد الهولندي

أية قفزة تلك التي تنقلنا من اللوردات الإنجليز الذين يفوح منهم شذا العطر إلى مواطني هارلم ولاهاي وأمستردام الأجلاف الأقوياء: هناك عالم فريد خلف السدود، عالم ماء أكثر منه عالم أرض، عالم سفن ومغامرات تجارية أكثر منه عالم قصور وبلاط وفروسية. ولا يكاد يوجد في تاريخ الاقتصاد شيء أشد إزعاجاً من ظهور الهولنديين باعتبارهم قوة دولية، أو في تاريخ الثقافة شيء يبعث على الرضا والارتياح أكثر من تحول هذه الثروة إلى فن. وفي 1600 بلغ عدد سكان المقاطعات المتحدة نحو ثلاثة ملايين نسمة، كان نصفهم فقط يفلح الأرض، وفي 1523 أقام نصفهم في المدن، وصار كثير

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روينز إلى رمبرانت -> الاقتصاد الهولندي

من الأرض ملكاً لملكاً من سكان المدن الذين آمنوا بأن أرباحهم التجارية يمكن أن تزال رائحتها الكريهة باستثمارها في الأرض. وحتى في مجال الزراعة أحرز النشاط والبراعة الهولنديتان قصب السبق على أوروبا، وكانت السدود والخزانات الجديدة تستصلح دوماً الأرض من البحر، وأخصبت القنوات المزارع وأنعشت التجارة، وقامت فلاحة البساتين جنباً إلى جنب، مع تربية الماشية، وكلتاها على نطاق واسع، لتكتمل كل منهما الأخرى. وفي أخريات القرن السادس عشر بلغ المهندسون الهولنديون بطاحونة الهواء ذروة الإتقان مثلما فعل الرسامون الهولنديون بالفن. وكان نصف الصناعة لا يزال يدوياً اللهم إلا في التعدين ومعالجة المعادن ونسج الأقمشة وتكرير السكر وصنع الجعة، فإن هذه الصناعات تتقدم على نطاق أكبر وأكثر ربحاً وأقل إسهاماً للناس، وأبحر في كل عام من الشغور الهولندية 1500 سفينة ذات صاريين لصيد السردين. وكان بناء السفن من الصناعات الكبيرة. وفي أثناء الهدنة مع أسبانيا (1609-1621) أرسلت الأراضي الوطنية 16 ألف سفينة حمولة كل منها 57 طنناً في المتوسط، عليها من الملاحين نحو 160 ألفاً- أكثر من إنجلترا وأسبانيا وفرنسا مجتمعة (82).

وتلهب الربابنة الهولنديون على المنافذ التجارية والمواد الخام فارتادوا البحار المجهولة. وفي 1584 وطد التجار الهولنديون أنفسهم في أركنجل، وتقدموا برغم الثلوج المتجمدة في محاولة عقيمة للعثور على "طريق شمالي شرقي" إلى الصين، ومن ثم يفوزون بجائزة قدرها 25 ألف فلورين قدمتها الحكومة الهولندية. وإن الأسماء الهولندية في الخرائط الحديثة لأرخبيل سبتسبرجن (في النرويج) لتعيد إلى الذاكرة رحلات وليم بارنت الذي فقد حياته في الشتاء على ثلوج جزر نوفابا زملبا (1697). وفي 1593 أبحر الهولنديون المغامرون عبر أنهار غانة (ساحل الذهب) في إفريقيا، وعقدوا أو اصر الصداقة مع المواطنين هناك، وبدأوا معهم تجارة واسعة نشطة.

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روينز إلى رمبرانت -> الاقتصاد الهولندي

وحتى 1591 كان التجار الهولنديون يشترون المنتجات الشرقية من أرصفة لشبونة ليعيدوا بيعها في أوروبا الشمالية. ولكن فيليب الثاني غزا البرتغال في ذلك العام فحرم الاتجار مع الهولنديين، ومن ثم عقدوا العزم على أن يقوموا هم بأنفسهم برحلاتهم إلى الهند والشرق الأقصى. وكان اليهود اللاجئون من أسبانيا والبرتغال أو ذراريهم على علم تام بمراكز تجارة البرتغال في الشرق، فانتفع الهولنديون بعلمهم (83). وعبر التجار الهولنديون، حتى أثناء الحرب مع

أسبانيا مضايق جبل طارق، وسرعان ما اتجروا مع إيطاليا، ثم مع العرب، متجاهلين الفوارق الدينية في إصرار وثبات. وشقوا طريقهم إلى القسطنطينية، وعقدوا معاهدة مع السلطان، وباعوا بضاعتهم إلى الأتراك وإلى أعدائهم الفرس، على حد سواء، ثم ساروا إلى الهند. وفي 1595 قاد كورنيليس دي هوتمان حملة حول رأس الرجاء الصالح ومدغشقر إلى جزر الهند الشرقية. وفي 1602 قامت خمس وستون سفينة هولندية برحلة العودة إلى الهند. وفي 1601 أسست شركة الهند الشرقية الهولندية برأس مال قدره ستة ملايين وستمئة ألف فلورين-خمس أمثال رأس مال الشركة الإنجليزية التي أسست قبلها بثلاثة شهور (84). وفي 1610 بدأ التجار الهولنديون التجارة مع اليابان، وفي 1613 مع سيام، وفي 1615 سيطروا على جزر ملقا، وفي 1623 على فرموزا. أنهم في جيل واحد فتحوا إمبراطورية من الجزر حكموها من عاصمة جاوة: جاكرتا التي سموها باتافيا. وفي هذه الحقبة أدت الشركة لحملة الأسهم ربحاً سنوياً قدره 22% وكان الفلفل يستورد من جزر البهار، ويباع في أوربا بعشرة أمثال الثمن الذي يدفع للمنتجين المحليين (85).

وحسب الهولنديون أن الأرض ملكاً خاص لهم. فأرسلوا سفناً للبحث عن طريق شمالي غربي إلى الصين. وفي 1609 استأجروا إنجليزياً هو هنري هدسن، ليرتاد نهر هدسن. وبعد ذلك باثني عشر عاماً كونوا شركة الهند الغربية الهولندية. وفي 1623 أسسوا مستعمرة الأراضي الوطينة الجديدة

صفحة رقم : 10121

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روينز إلى رميرانت -> الاقتصاد الهولندي

وكانت تضم الولايات الحالية: كنتيكت ونيويورك ونيوجرسي وبنسلفانيا ودلاوير. وفي 1626 اشتروا من الهنود "أمستردام الجديدة" (منهاتان) مقابل بعض الحلي الصغيرة التي قدرت قيمتها بأربعة وعشرون دولاراً. وكانوا جادين في تطهير وتطوير هذه الأراضي، ولكن كان ممتلكاتهم في أمريكا الشمالية وقعت غنيمه في أيدي الإنجليز (1664) نتيجة للحرب، وكذلك وقعت ممتلكاتهم في أمريكا الجنوبية في أيدي الأسبان والبرتغال، ولم يبق لهم إلا سورينا، تحت اسم غيانا الهولندية.

وعلى الرغم من هذه الخسائر أسهمت الإمبراطورية الهولندية مع تجارة هولندا في أوربا في تهيئة دعامة مالية للسلطان السياسي للتجار الهولنديين، ودورهم الفخمة ورعايتهم للفنون. وطول النصف الأول من القرن السابع عشر عقد للمقاطعات المتحدة لواء الزعامة التجارية على كل أوربا، وكانت ثروة الفرد فيها أكبر من مثيلتها في سائر بلاد العالم. وقد انزعج رالي من تفوق الهولنديين على الإنجليز من حيث مستوى المعيشة والأعمال والمشروعات (86) وقال أحد سفراء فينيسيا (1618) أن كل هولندي عاش في رخاء، ولكن يحتمل أنه لم يكن يعرف إلا القليل عن الطبقات الدنيا، التي أدرك رميرانت فقرها إدراكاً تاماً. أن أصحاب الملايين كثيرون في هولندا، وقد جمع بعضهم ثروته من بيع النفايات والبضائع الرديئة إلى الجيش والأسطول الهولنديين اللذين يدافعان عن هولندا (87)، ومثل هؤلاء كافحوا جاهدين للحيلولة دون إقرار السلام (88).

وتركزت معظم الثروة الهولندية في مقاطعة هولندا التي كانت تجارتها في المياه المجاورة أضعاف تجارة سائر المقاطعات الشمالية. وكان ثمة برجوازية مزدهرة في عدة مدن في مقاطعة هولندا-رتردام، لاهاي، هارلم، أوترخت-ولكن أياً منها لم يجرؤ على مباراة أمستردام. وأن نمو عدد سكانها ليحي قصتها، فقد كان 75 ألفاً في 1500، وقفز إلى 300 ألف في 1620، وهرع

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روينز إلى ميرانت -> الاقتصاد الهولندي

إليها التجار والصناع المهرة وأصحاب المصارف أفواجاً من أنتورب التي دمرتها الحرب. وبعد 1576 نقل يهود أنتورب إلى أمستردام أنشطتهم المالية وتجارتهم وصناعة الحلي-ولا يزال صياغ الماس في هذه المدينة يتزعمون هذه الصناعة في العالم. وأباح حكام المدينة للتجار قدراً كبيراً من الحرية الدينية لأن هذه هي الوسيلة الوحيدة لتشجيع التجارة مع الشعوب ذوات المذاهب المتباينة وكان بنك أمستردام الذي أسس 1609، أقوى مؤسسة مالية في أوربا في ذلك العصر. وكانت العملة الهولندية مطلوبة وموضع ثقة في كل الأنحاء.

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روينز إلى ميرانت -> الحياة والأدب في هولندا

6- الحياة والأدب في هولندا

اتهم الهولنديين منافسهم بروح تجارية مسرفة وبحمى جمع المال، وبطباع جافة خشنة، ترتبط أحياناً بالانهماك في الحياة الاقتصادية، ويسلم المؤرخون البولنديون بهذه المزاعم عن طيب خاطر (89). ومع ذلك فهل نستطيع أن نقول عن ثقافتهم بأنها تجارية، مع أنها أولعت ولعاً كبيراً بالنظافة والزنيق (التوليب) والموسيقى والفن. وشيدت مدرسة في كل قرية ومحت الأمية، وخلقت جواً فكرياً مكهرباً بالجدل والأفكار، وأباحت حرية الفكر والكلام والصحافة، حتى أن هولندا سرعان ما أصبحت ملجأً عالمياً للعقول الثائرة؟ المتمردة وقال ديكادرت:

"ليس ثمة بلد غير هذا البلد، فيه الحرية أكمل. وألمن أعظم، والجريمة أندر، وبساطة العادات القديمة أروع(90)".

وفي 1660 كتب فرنسي آخر:

ليس في العالم مقاطعة تنعم بهذا القدر من الحرية مثل مل تنعم هولندا وفي اللحظة التي يأتي فيها أي سيد إلى هذا البلد بأي أرقاء أو عبيد، فإنهم يصبحون أحراراً، ويستطيع أي فرد أن يغادر البلد متى شاء ويأخذ معه من الأموال ما يشاء. والطرق آمنة ليل نهار، حتى لو سار الإنسان بمفرده. ولا يباح للسيد أن يحتفظ بخادم دون إرادته. ولا يضار إنسان بسبب دينه. وكل إنسان حر في أن يتقوه بما يشاء "حتى عن الحكام(91)".

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روينز إلى ميرانت -> الحياة والأدب في هولندا

وكان أساس هذه الحرية هو النظام. ويعكس صفاء الذهن في أناقة المنزل وحسن ترتيبه. وتميز الرجال بالشجاعة والجد والعناد، كما تميزت النساء بالاجتهاد والبراعة الفائقة في الأعمال المنزلية. ويتسم الجنسان كلاهما بهدوء الطبع وروح المرح. وأعتزل كثير من رجال الأعمال الهولنديين العمل بعد جمع ثروة معقولة، وانصرفوا إلى السياسة والأدب والجولف والموسيقى والهناء المنزلية. وكتب لودوفيكو جوتشيارديني "إن الهولنديين يفزعون من الزنى" وأن نساءهم على أكبر قدر من الحرص والحذر، ومن ثم منح قسطاً كبيراً من الحرية، فيخرجن وحدهن للقيام بالزيارات بل والرحلات، دون أن يأتين بما يخدم سمعتهم... إنهن مديرات المنازل، وإنهن يحبين بيوتهن (93). وكان ثمة نساء كثيرات ذوات ثقافة رفيعة، مثل مارييا شورمان "منيرفا هولندا" (ربة الحكمة والمهارة الفنية والاختراق عند الرومان) التي قرأ أحد عشرة لغة، وتحدثت وكتبت بسبع لغات، ومارست الرسم والنحت جيداً، وبرعت في الرياضيات والفلسفة. ونظمت مارييا تسلسيد شعراً جميلاً في مثل جمال شخصها. وترجمت قصيدة تاسو "تحوير أورشليم" ترجمة نالت ثناء العالم، ورسمت ونحتت وحفرت، وعزفت على القيثارة، وغنت فأطربت إلى حد أن ستة من الأعيان من بينهم قسطنطين هوجنز، وجوست فان دن فوندل، وجريبر أند بريديرو، كانوا يركعون تحت قدميها متوسلين إليها أن تغني لهم. وتزوجت قبطاناً بحرياً، وأصبحت ربة بيت وأماً مخلصاً وفيه. وتركت وراءها ذكريات لازالت غزيرة لدى الهولنديين، عن الذكاء والمآثر والنبيل (94).

وكان حب الموسيقى أوسع انتشاراً من تقدير الفن. إن جاك بيترزون سويلنك أحد أبناء أمستردام، وأعظم عازف هولندي على الأرغن هو الذي علم هنريج تسيديمان، الذي علم بدوره جوهان آدم رينكن. وهذا الأخير هو الذي درس على يديه جوهان سبستيان باخ. ومع كل هذا التفوق والامتياز

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روينز إلى ميرانت -> الحياة والأدب في هولندا

دب في التجارة الهولندية بعض الفساد، والإدمان على الخمر، والبغاء، والإقبال على الميسر بجميع أشكاله (95) إلى حد المضاربة بأسعار الزنبق المستقبلية (96). وكانت هارلم مركز زراعة الزنبق. وكانت الأيصال تستورد من إيطاليا وجنوب ألمانيا، حوالي نهاية القرن الخامس عشر؛ كذلك انتشرت الزهرة في باريس وصارت بدعة محببة ورمزاً للامتياز والسمو. حتى أنه في 1623 رفض أحد الهواة اثني عشر ألف فرنك (30 ألف دولار) ثمناً لاثني عشرة بصلة من الزنبق (97). وفي 1636 صار كل السكان تقريباً يضاربون في أزهار الزنبق وقامت أسواق خاصة يمكن لأي إنسان أن يشتري أو يبيع فيها محمولات الزنبق

الحاضرة أو المستقبلية وكان للتوليب "انهياره" المالي 1637، ففي تلك السنة بيعت نحو 120 زهرة توليب ثمينة في مزاد علني لمصلحة أحد ملاحئ الأيتام بمبلغ 90 ألف فلورين. وإلى هذا الجو البهيج جاء اللاجئين من فلاندرز وفرنسا والبرتغال وأسبانيا والتجارب الأجانب من نصف أمريكا المعمورة بتشكيلة مثيرة من الأساليب الغربية الدخيلة، وضمت جامعات ليدن وفرانكر وهاردريك وأترخت وجرونجن مشاهير علماء العالم، وأنجبت بدورها آخرين. فكان جوستوس لبيوسكي وجوزيف سكاليجر ودانيل هنيوسكي وجيرار فوسيوسي يعملون جميعاً في ليدن في النصف الأول من القرن من بداية افتتاحها (1625-1575) وما جاءت سنة 1640 حتى كانت ليدن أشهر مركز للعلم والدرس في أوروبا. وكانت نسبة معرفة القراءة والكتابة بين جمهور سكان المقاطعات المتحدة أعلى منها في أي مكان آخر في العالم. وكانت الصحافة الهولندية أول صحافة حرة. وكانت صحيفة "الأخبار" الأسبوعية في ليدن، وصحيفة "الجازيت" في أمستردام تقرأ في سائر أنحاء أوروبا الغربية، لأنهما كانتا تتحدثان في حرية تامة، على حين كانت الصحافة في تلك الأيام في أية بقعة أخرى خاضعة لسيطرة الحكومة ورقابتها. وكانت الهشة تتولى أي ملك فرنسي يطلب كبح جماح أي صحفي هولندي أو وقفه عند حده، إذا علم أن هذا مطلب مستحيل تنفيذه (98). وكان رجال الأدب في هولندا كثيرين، ولكن كان من سوء حظهم

صفحة رقم : 10126

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روينز إلى ريمرانت -> الحياة والأدب في هولندا

أنهم كتبوا باللاتينية التي كانت في طريقها إلى الفناء، أو بالهولندية التي ضيقت نطاق قرائهم. فإن الهولنديين لم يتسن لهم أن يجعلوا من لغتهم، على غرار بحريتهم واسطة مشتركة لنقل الأدب والفكر. واعتقد ديرك كورنهرت وهيدريك سبيجل أن اللغة الوطنية المفعمة بالحيوية أداة لنقل الفكر والأدب، وكافحا لتتقيتها من الإضافات الغربية الدخيلة غير المتجانسة وغير الملائمة- وكان كونهرت- هو فنان، وكاتب، ورجل دولة وسياسة، وفيلسوف- أول وأقوى شخصية في التفتح الثقافي الذي توج الثورة السياسية. وبوصفه أميناً عاماً للمدينة صاغ بيان 1566 لوليم أورانج، فأودع السجن في لاهاي، ثم هرب إلى كليفز وكسب قوته من مهارته في الحفر على الخشب والمعادن، وترجم الأديسة وأعمال بوكاشيو وشيشرون والعهد الجديد (الإنجيل). ولما عاد إلى هولندا كافح في سبيل التسامح الديني، ورمز إلى التاريخ الفكري في القرن التالي- السابع عشر حين تخطى عن عقيدته التي رأى أنها قد نشوت وتلوثت بالصراعات الدامية إلى حد كبير. وأصبح "لا أدرياً" معترفاً بأن الإنسان لم يستطيع أن يعرف الحقيقة (99)، وعرض في كتابه الأساسي "فن الحياة الطيبة" مسيحية بغير لاهوت، أي مناهجاً أخلاقياً مستقلاً عن المذاهب الدينية. ونتيجة لشيء من الأعضاء أتيح له أن يموت ميتة طبيعية (1590).

وتميزت هولندا بأن رجال الأعمال فيها كثيراً ما خلطوا بين الأدب وبين شئونهم المادية، ومن ذلك أن رومرفسكر. وهو تاجر ثري في أمستردام، ساعد صغار الكتاب وأكرم وفادتهم، وجعل من بيته منتدى (صالوناً) يباري منتديات فرنسا، ونظم هو نفسه شعراً أكسبه لقب "الهولندي الشجاع" أما بيتر هوفت فقد جعل من قصره في بيدون على الزيرزي ملاذاً لعصر النهضة في هولندا، فاستقبل بالترحاب في "حلقة ميودين" الشعراء ورجال العلم والدبلوماسيين والقواد والأطباء. وفي العشرين سنة الأخيرة من حياته، كتب هو نفسه "تاريخ الأراضي الوطنية" روى فيه قصة ثورة الأراضي في نثر قوي رائع، جعل هولندا تكرمه وتحنن به وكأنه يمثل المؤرخ الروماني "تاسيتس" في هولندا.

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روينز إلى رويرانت -> الحياة والأدب في هولندا

ومن بين مائة شاعر في هولندا سما باللغة العامية إلى ذروتها الأدبية. منهم جاكوب كاتس المتقاعد الكبير لمدة اثنتين وعشرين عاماً، الذي بسط حكمه الأمثال السائرة في شعر متبل بالحكايات الطريفة المفعمة بالحيوية، حتى ظلت كتابات "الأب كاتي" لعدة قرون، من مقتنيات كل بيت يعرف أهله القراءة والكتابة في هولندا، أما جوست فان دن فوندل فقد تغلب على كل المحن وكل الأعداء، حتى تبوأ مكانة عالية في الأدب الهولندي. وكان أبوه صانع قبعات نفي من أنتورب بسبب آرائه المؤيدة لمذهب تجديد العماد. وولد جوست في كولون. وفي 1597 استقر بالأسرة المقام في أمستردام، وافتتح الوالد، الذي تقلب من مذهب إلى مذهب، محلاً لصناعة الجوارب، وورث جوست عمل أبيه ولكنه ترك إدارته لزوجته وابنه، على حين عمل هو على تعويض ما فاتته من التعليم الرسمي بدراسة اللاتينية والإيطالية والفرنسية والألمانية، وكتب رواياته الثمان والعشرين وفق نماذج إغريقية وفرنسية، وحرص فيها على اتباع نظام الوحدات بدقة. وسخر من فكرة الجبرية أو القضاء والقدر ومن الجدل بين الشيع البروتستانتية، وافتتن بجمال الشعائر الكاثوليكية، وبماريا تسلكاد التي كانت كاثوليكية وجميلة معاً. وبعد موت زوجها (1634) وموت زوجته هو (1635) توثقت أواصر الصداقة بينهما: وفي 1640 اعتنق المذهب الكاثوليكي. واستمر ينتقد بشدة الأحفاد الدينية والمخادعات والحيل الاقتصادية والفساد السياسي، وكسب قلوب الهولنديين بالتعني بشجاعة الأرض الوطنية ومجدها. وفي 1657 أفلس صناعة الجوارب التي أساء ابنه إدارتها، وهرب الابن إلى جزر الهند الشرقية، وباع كل ممتلكاته المتواضعة ليرضى دانيه، وظل لعشر سنين يكسب قوت يومه من العمل بوظيفة كاتب لدى مقرض نقود، وأخيراً أجرت عليه حكومته معاشاً، وقضى في هدوء الثلاثة عشر عاماً الأخيرة من عمره الذي بلغ اثنين وتسعين عاماً. أما أعظم الشخصيات جاذبية في أدب الأراضي الوطنية في هذا العصر،

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روينز إلى رويرانت -> الحياة والأدب في هولندا

فهو قسطنطين هميوجنس، وهو هولندي جمع بين كل مظاهر وجوانب النهضة في إيطاليا. وكان أبوه كريستيان جنس سكرتير مجلس الدولة في لاهاي أما ابنه كريستيان فكان أعظم رجال العالم في القارة على عهد نيوتن، وبين الوالد والولد حافظ قسطنطين على ما اشتهرت به الأسرة من قدرات ومواهب ولد قسطنطين في لاهاي في 1596. ونلقى فيها وفي ليدن وأكسفورد وكمبردج قسطاً وافراً من التعليم، وكتب الشعر باللاتينية والهولندية، وبرع في الألعاب الرياضية، وأصبح موسيقياً وفناناً عظيماً. وفي سن الثانية والعشرين التحق ببعثة دبلوماسية إلى إنجلترا، وعزف على العمود أمام جيمس الأول، وأحب جون دون الذي ترجم فيها بعد قصائده إلى الهولندية. وفي سن الثالثة والعشرين

أرسل في بعثة دبلوماسية إلى البندقية، ولدى عودته كاد يفقد حياته عندما كان يرقى قمة برج الكاتدرائية في ستراسبورج. وأصبح في 1625 سكرتيراً لطائفة من الحكام على التعاقب. وفي 1630 عين في المجلس المخصوص. وفي نفس الوقت أصدر عدة دواوين من الشعر تميزت بجزالة الأسلوب ورقة الشعور. وأذن موته في سن التسعين (1687) بانتهاء أزهى عصور الأراضي الوطنية.

صفحة رقم : 10129

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روينز إلى رمبرانت -> الفنون الهولندية

7- الفنون الهولندية

أحس الهولنديون البروتستانت بأن عمارة كنيسة العصور الوسطى وزخارفها كانت أشكالا تغذي النفوس بما يؤيد الأساطير ويدعمها، وتنشط الفكر وتعويقه، ومن ثم عقدوا العزم على أن يعبدوا الله بالصلوات والعظات. لا بالفن، ولم يحتفظوا في طقوسهم إلا بفن الإنشاد. ولذلك كانت هندسة بناء الكنائس عندهم تكاد لا تهدف إلا إلى البساطة الصارمة المطلقة. بل إن الكاثوليك أنفسهم لم يشيدوا في المقاطعات، المتحدة كنائس جديدة بالذكر وفي القرن السادس عشر جلبت تجار ما وراء البحار، ربما من سوريا أو من

صفحة رقم : 10130

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روينز إلى رمبرانت -> الفنون الهولندية

مصر، فكرة القباب البصلية الشكل. وانتشر هذا الطراز من هولندا وروسيا إلى ألمانيا، وأصبح أحد معالم عصر الباروك في أوروبا الوسطى. إن رجال الأعمال، لا رجال الدين، هم الذين سيطروا على هندسة البناء. وعمدوا أول ما عمدوا إلى تشييد مساكن راسخة البناء لأنفسهم تكاد تكون كلها متشابهة، لا تبعث على الخوف مثل قصور فلورنسة، ولا تثير الحقد والحسد، لأن كل مظاهر البذخ والترف والفن كانت داخل جدران البيت، وفي حدائق الزهور التي عونا بها أكبر عناية. أما المنشآت المدنية فقد أباحوا فيها بعض الزخرف والأبهة. ففي دار البلدية التي شادها ليفن دي كي لمدينة أنتورب، جمع في انسجام تام بين عناصر من فرنسا ومن ألمانيا ومن عصر النهضة، ودار نقابة القصابين في هارلم، التي شادها ليفن نفسه، تضارع في فخامتها وأبهتها أية كاتدرائية قوطية. وتظهر دار البلدية في هارلم كيف أن هولندا طوعت الطراز الكلاسيكي (القديم) تماماً حتى بات يتمشى مع أهدافها ونزعاتها.

وكان ميكل أنجيلو هولنדה في العمارة والنحت في ذلك العصر هو هندريك دي كيزر الذي أصبح وهو في سن التاسعة والعشرين المهندس المعماري لمدينة أمستردام (1494)، وهناك صمم الكنيسة الغربية وسوق المال ومبنى شركة الهندسة الشرقية في طراز يجمع بين طراز إيطاليا وهولنדה وعصر النهضة. وفي دلفت بنى دار البلدية والنصب التذكاري لوليم الأول، وفي 1627 في روتردام، صب من البرونز تحفته الرائعة. ألا وهي تمثال أرزم الرائع الذي قبع ساكناً لم يمس بأذى لعدة سنوات بين أنقاض الحرب العالمية الثانية. ودمر بعض من أجمل المنشآت الهولندية التي يرجع تاريخها إلى تلك الحقبة نتيجة الإخفاق في إدارة شؤون الدولة. وتألفت صناعة الخزف بين الفنون الصغيرة. وفي روتردام ودلفت سما الذوق الرفيع بصناعة القرميد حتى جعل منها فناً. وأقبل الناس على

صفحة رقم : 10131

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روينز إلى رمبرانت -> الفنون الهولندية

استخدام خزف دلفت المزخرف في كل بيت في الأراضي الوطنية تقريباً. وحوالي 1610، فور افتتاح التجارة الهولندية مع الشرق، بدأ خزافو دلفت في تقليد الخزف الصيني، وانتخبوا نوعاً من السيوليق (خزف مزخرف مطلي بالمينا) الرقيق الأزرق أسموه "البورسلين الهولندي(100)" وسرعان ما عرض نصف أوروبا الغربية خزف دلفت على الجدران أو على الأرفف. أما أعظم الفنون جميعاً في الأرض الوطنية فكان الرسم. وليس في التاريخ المعروف لدينا بلد غير هذه البلاد ولا نستثني من ذلك إيطاليا النهضة-حظي فيه أي فن يمثل هذه الشعبية العارمة. وتضم فهارس الفن فيما بين عامي 1580-1700 خمسة عشر ألف رسم هولندي(101)، وتأثر الفن الفلمنكي تأثراً شديداً بالفن الإيطالي، ولكن في المقاطعات الشمالية أثارت المقاومة الموفقة لسلطان أسبانيا روحاً قومية وكبرياء قومية، لم تكونا تحتاجان إلا إلى الثروة المستمدة من التجارة فيما وراء البحار، لتحديثاً انفجاراً ثقافياً. فتحولوا بالفن إلى معارج جديدة من التطوير لحياتهم ومن الواقعية بعد أن كانت تتقلص عنه تماماً الرعاية الكنسية والأرستقراطية، وأصبح رعاة الفن وحماته الجدد هم التجار وعمد المدن والمحامون والمؤسسات والنقابات والكوميونات والمستشفيات، بل حتى المنشآت الخيرية، ومن ثم كانت الرسوم الشخصية والرسوم الجماعية ومشاهد الحياة اليومية. وكان لكل مدينة هولندية تقريباً مدرسة الفنانين الخاصة بها، تحت رعاية محلية: هارلم، ليدن، أوترخت، أمستردام، دوردرخت، دلفت، لاهاي. أما المواطنون البسطاء الذين ربما كانوا في بلاد أخرى أميين من حيث الفن، عالة على الكنيسة، فإنهم هنا زينوا بيوتهم بلوحات اشتروها أحياناً بثمن عال، ومن ذلك أن خبازاً أثبت سلامة ذوقه، بدفع 600 فلورين (57.000 دولار؟) ثمناً لصورة واحدة للفنان فريمير(102)، وكادت النزعة الدنيوية أن تكون عامة شاملة، فلم يعد للقسيسين وجود في الرسوم، وجاء التجار، وانتصرت رسوم البيت والحقل على الكنيسة وازدهرت الواقعية، فنظر البرجوازي بشيء قليل من التقدير

صفحة رقم : 10132

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روينز إلى رمبرانت -> الفنون الهولندية

إلى لوحة تمثله هو وزوجته، ولكن السدود والكتبان الرملية وطواحين الهواء والأكواخ والسفن الشرجية والأرصفة الزاخرة بالبضائع، كل هذه أحييت صورها على الجدران في سرور بالغ، ذكريات أشياء فعلية عامة. ولقيت مناظر السكارى المرحين ورواد الحانات بل حتى المواخير، ترحيباً في بيوت ربما كانت تعلق منذ قرن مضى صور الشهداء القديسين وأبطال التاريخ أو آلهة الوثنيين. ولم تكن الصور العارية من سمات هذا العصر، حيث لم يبتهج لها الناس في مثل هذا المناخ الرطب مع الأجسام الضخمة. وبدا في هذه البيئة الجديدة أنه ليس ثمة محل تميز به الفن الإيطالي من عبادة الجمال والرقرة والتهديب والوقار، حيث لم تتطلب هذه البيئة من الفن شيئاً أكثر من إخراج الحياة اليومية والمشاهد المألوفة.

وثمة جانب كئيب حزين في صورة الأمة التي أغرمت بالرسوم إلى حد الجنون. وذلك أن الفنانين الذين رسموا لها عانوا في أغلب الأحياء من الفقر ولم يحظوا إلا بأقل التقدير. على حين أن الأرشيديوق واللوردات والأساقفة في الفلاندرز أجزلوا العطاء لمن اصطفوا من الفنانين. أما في هولندا فكانت المنافسة بين الفنانين فردية، فأنجوا للسوق العامة، ووصلوا في معظم الأحوال إلى العملاء عن طريق وسطاء نشأوا بين المنتخبين والمستهلكين المشترين، وعرفوا كيف يشترون بثمن بخس ويبيعون بسعر عال. وقلمما حصل الفنانون الهولنديون ثمناً عالية، فإن رمبرانت في ذروة شهرته لم يقبض إلا 1600 جيلدر ثمناً للوحته "حراسة الليل" ولم يحصل فإن جويين إلا على 600 جيلدر ثمناً للوحة "منظر لاهاي"، وحصل الباقرن على أقل من هذا بكثير، فإن جان ستين رسم ثلاث صور شخصية مقابل 27 جيلدر، وباع ايزاك فان أوستاد ثلاث عشرة صورة مقابل مبلغ مماثل. وكان على الفنانين الهولنديين أن يلجأوا إلى مختلف الأعمال ليكسبوا قوت يومهم، فباع فان جويين الزنبق، واشتغل هوييما بجباية الضرائب، وأدار ستين نزلاً،

صفحة رقم : 10133

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روينز إلى رمبرانت -> الفنون الهولندية

وكان الفنانون أنفسهم من الكثرة إلى حد أنهم أغرقوا سوقهم وأتخموها. أن قائمة بأسماء مشاهيرهم لتتألف صفحات، وأن ثبتاً بأعمالهم المكنوزة ليزحم كتباً، فهلا أزعجنا لهم الشكر في الهامش .

صفحة رقم : 10134

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روينز إلى رمبرانت -> فرانس هالس

(1580 - 1666)

عاش أسلافه لمدة قرنين من الزمان في هارلم. وكان أبوه قاضياً هناك، ولكن لأسباب غير معروفة ولد فرانس في أنتورب، ولم يعد إلى هارلم ليقوم فيها إلا بعد بلوغه التاسعة عشرة من العمر. ولم نسمع عنه شيئاً قط إلا في 1611، حيث سجلت إحدى كنائس هارلم تعميد هرمان بن فرانس هالس وزوجته آنك. أما ما عرف عنه بعد ذلك، فكان من سجلات محكمة شرطة (1616) حيث تروي أن فرانس هالس قبض عليه بتهمة ضرب زوجته ضرباً مبرحاً، فأُنب تأنيباً قاسياً، ثم أفرج عنه بعد تعهده بأن يكون مهذباً وأن يتجنب صحبة السكارى. وماتت آنك بعد ذلك بسبعة شهور. وبعد خمسة أشهر أخرى (1617) تزوج فرانس من ليزبث رينيرز. وبعد تسعة أيام أنجبت له أول أولاده العشرة (104). وقد خلف لنا لوحة رائعة تمثله مع زوجته الثانية (105) التي عاشت معه طوال السنوات الأربع والسبعين التي بقيت في حياته، واحتملت إملاقه وعوزه وسكره وعربدته. وليس ثمة ما يجذب الانتباه فيه إلا أنه كان رساماً عظيماً ذا روح مرحة.

وكان قد بلغ السادسة والثلاثين حين حقق نجاحاً هائلاً في لوحته "مأدبة نقابة رماة سانت جوريس (106)"، وهي إحدى لوحات "دولين" الخمس التي هيأت لفرانس مكانته العالية، ويقصد بلفظ "دولين" مقر المتطوعين الذين مارسوا الرماية وأقاموا المباريات وعقدوا الندوات الاجتماعية، وكانوا بمثابة قوات نظامية في الكوميونات. وكان ضباط مثل هذه النقابات أحياناً يأجرون فنانياً ليرسم لهم صور جماعية، ولكن يصير كل واحد منهم على أن يتناسب بروزه في الصورة مع رتبته في الجماعة ومع إسهامه تكلفتها. فهنا هؤلاء الضباط في أبهى حلة، يتجمعون حول مأدبة، ويرفع أحدهم علم فرقة الغني بالألوان. وحصل هالس على أجره لأن كلاً من هذه الرؤوس فرد يمثل شخصية قوية، تختلف عن الأخرى، كما يمثل سيرة حياته وتحفة رائعة.

صفحة رقم : 10135

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روينز إلى رمبرانت -> فرانس هالس

ولم نسمع عن مهمة مماثلة أخرى إلا بعد إحدى عشرة سنة من ذلك التاريخ، ولكن هالس أنتج في هذه الحقبة رسوماً تعد من روائع الفن الهولندي. من ذلك "بائع السردين (107)" وهي مرة أخرى تاريخ يتمثل في وجه، و"الثلوث المرح" "يونكر رامب وصديقته" وكلاهما في نيويورك، واللوحة المشهورة "الفارس الضاحك (108)" -تتجسد فيها الثقة بالنفس، في ثياب ذات أهداب مع طوق مكشكش حول العنق. وعباءة مزدانة بالأزهار، وابتسامة تكاد تشبه ابتسامة الجيوكندا في رقتها. وفي هذه الفترة (1654؟) رسم فرانس "صورته الشخصية (109)" وجه قوي مليح، وعينان حزينتان تتكران زهو الملابس الجميلة والنراعين المطويين. لقد كان الرجل منهوكة تقاذفه اللهفة على الإثقان والكمال، والظماً إلى الخمر.

وفي 1627 جاءت مجموعة دولين الثانية: لوحة أخرى "لنقابة ضباط سان جوريس (110)" ولم تكن في صفاء وإشراق اللوحة الأولى، فإن هالس تحول عمداً، ولبعض الوقت، عن البريق الهادئ للألوان القوية إلى التلاعب الأثيق

بالأساليب الثانوية-الألوان النصفية (لا داكن ولا فاتح) والضلال الرمادية ومخطوط الكفافية الرقيقة. وثمة لوحة دولين أخرى في هذا العام "نقابة رماة سانت أوريان(111)"، وهي كذلك في أساليب مخففة. ولا بد أن الرماة اغتبطوا لأنهم كلفوا هالس أن يرسم لهم لوحة أخرى(112). وهما أسترد الفنان ألوانه وأبرز عبقريته ليجعل من كل وجه شيئاً ممتعاً فريداً. وفي 1639 رسم لوحة أخرى "الضباط نقابة سانت جوريس"(113) ولكن في هذه اللوحة ضاع الفرد في زحمة المجموع. ولكن لوحات الدولن هذه في جملة أروع صور المجموعات في كل العصور، هي توضح انطلاق الطبقة الوسطى على مدلونج الظهور الموسوم بالفخار والزهور. وفي الفترة الثانية (1626-1650) رسم هالس صوراً تنادي بتخليد ذكراها، منها "السكرير المرح(114)" يضع وق رأسه قبعة كبيرة تكفي لتغطية

صفحة رقم : 10136

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روينز إلى رمبرانت -> فرانس هالس

رؤوس حشد من السكارى: و"الذي يعدو فوق الرمال"(115)، وهو أشعث أغبر، في أسمال بالية، ولكنه فاتن، و"المتشردة أو العجربة" تبتسم وتتفخخ في اللوفر، و"المهراج" في أمستردام "وبلتزارا كريمان الوهمي، في واشنطن أما تحفة فترة ذروة النضج هذه، فهي لوحة هالس البالغة الامتياز "القائمون على مستشفى سانت إليزابيث(116)"، وهي تماثل، أو لا تماثل لوحة رمبرانت مندوبو نقابة تجار الأقمشة التي رسمت بعدها بإحدى وعشرين سنة. أن إسراف هالس في الشراب بغير حدود. ولو أنه يبدو أنه لم يسيء إلى فنه، أضر بموقفه حتى في بلد وفي عصر لجأ فيه الناس إلى الشراب بين الحين والحين إبتعائاً للمرح والفرح. وظل يرسم صوراً ربما كانت كفيلاً بأن ترفع أي فنان إلى قمة الشهرة: "ساحرة هارلم(117)"، و"ديكارت(118)" والذي يحرر من الوهم، في حاجبين كبيرين وأنف ضخمة وعينين تتمان عن الشك، ثم رسم في سن الثمانين صورة "شاب في قبعة مترهلة(119)". ولكن في الوقت نفسه تكاثرت الأرزاء على الفنان، ففي 1639 أرسل ابنه بيتر إلى مصحة الأمراض العقلية على نفقة البلدية، وفي 1641 وضعت ابنته الكبرى المتمردة في إصلاحية الأحداث بناء على طلب أمها. وما جاء عام 1650 حتى كان فرانس معمداً. وفي 1654 أقام الخباز المحلي ضده الدعوى يطالبه بسداد مائتي جلد و حجز على أدوات الرسام. وفي 1662 توسل الشيخ الهرم المتهم للحصول على معونة وأجيب إلى طلبه. وبعد ذلك بعامين قرر له مجلس مدينة هارلم معاشاً سنوياً، ووهبه فوراً ثلاثة أحمال من الخث ليوقد مدفأته. ويحتمل أنه رغبة في منح فرانس مزيداً من الصدقات، كلف في هذا العام (1664) برسم لوحتين: "مديروا ملجأ الفقراء" و"مديرات ملجأ الفقراء". ويظهر في لوحة الرجال أثر اليد المضطربة للفنان في سن الرابعة والثمانين، فإن معظم التقاطيع والملاحح فيها ملطخة بشكل غامض، على نقيض اللوحة الأخرى التي تمثل النساء، فإنه مما يثير الدهشة أ، المهارة القديمة عادت سيرتها الأولى:

صفحة رقم : 10137

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روينز إلى رمبرانت -> فرانس هالس

فهنا خمس أنفس ارتسمت على خمسة وجوه ممتثلة مذعنة، لخمس نساء عجائز أرهقتهن الأعمال غير العادية، عابسات متجهمات متزومات، كما يقتضي نظامهن البيوريتاني، وقد نسين مرح الشباب وبهجته. ومع ذلك، يتألق بشكل ما في هذه التقاطيع الكالحة عطف هادئ ومشاركة وجدانية حزينة. وهاتان الصورتان الأخيرتان هما آخر لمسات جرت بها يد الفنان أو ومضات لمعت في فنه، وهما الآن، إلى جانب لوحات مجموعات "الدولين"، موجودتان في متحف فرانس هالس الذي شادته مدينة هارلم في مكان ملجأ الفقراء.

مات هالس فقيراً معدماً (1666) ولكنهم احتفلوا بدفنه احتفالاً مهيباً في هيكل كنيسة سانت بافون في المدينة التي اعتمدت شهرتها على الحصار الذي قاومته طويلاً، وعلى أعمال أعظم أبنائها. ولمدة قرنين من الزمان بعد وفاته كاد النسيان يجر عليه ذبوله، وبيعت لوحاته بأبخس الأثمان، أو في المزادات، أو بلا شيء مطلقاً، وإذا كان مؤرخو الفن قد تذكروه، فما ذلك إلا لأنهم تنبهوا إلى ضيق مجال فنه فلم يكن ثمة صور دينية ولا أساطير ولا صور تاريخية ولا مشاهد طبيعية ولا صور عارية-أو إلى العجلة المدموغة بالإهمال والتهاون في طريقة عمله، حيث لم يكن ثمة مخططات تمهيدية، بل لطخات من ألوان متناثرة اعتمدت على التخمين وعلى ذاكرة الرائي ليملاًها بالتفاصيل. واليوم يتعالى الهتاف للفنان، بشكل قد يكون مبالغ فيه، مما يتوازن مع طول إغفال شأنه كما يعتبر نقد كريم أن هالس ألمع رسام للصور الشخصية رآه العالم (120). وما دام الزمن، وهو أجدر القضاة بالثقة، يتذبذب في حكمه، فلنقتنع نحن بالإعجاب.

صفحة رقم : 10138

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روينز إلى رمبرانت -> فرانس هالس
هارمنز فان رين

9- رمبرانت هارمنز فان رين

1669 - 1606

ولد في ليدن لأب طحان ثري. وهو جريت هامنز الذي أضاف إلى اسمه "فان رين" ربما لأن بيته كان يطل على نهر الراين. ولا بد أن الفنان أحب أباه حباً جماً لأنه رسمه إحدى عشرة مرة أو أكثر، في قبعة وسلسلة فخميتين (121) وكصراف نفود (122) وكسلا في نبيل (123) -وجه قوي حسن التقاطع يحف به الوقار-ورسمه في 1629 رجلاً علتة السنون بالكأبة والإرهاق (124). كما رسم أمه اثني عشرة مرة، أجدرها بالذكر لوحة "المرأة العجوز" في متحف فيينا قلقة منهوكة ونراها في متحف أمستردام منكب على الكتاب المقدس. وإذا كانت الأم كما يعتقد البعض -"منونية" (تنتسب إلى طائفة بروتستانتية متزمتة) فقد ندرك من هذا ميل رمبرانت إلى التوراة، وصلته الوثيقة باليهود.

وفي سن الرابعة عشرة التحق بجامعة ليدين ولكنه أنعم النظر في أشكال أخرى غير الأفكار أو الألفاظ، وترك الجامعة بعد عام واحد، وأقنع أباه بالسماح له بدراسة الفن. وخيراً ما فعل، فإنه في 1623 أرسل إلى أمستردام ليتتلمذ على بيتر لاستمان الذي كان يعتبر آنذاك أبلر (رسام إغريقي) العصر وكان لاستمان قد عاد من روما إلى هولندا بتوكيد كلاسيكي على الرسم الصحيح ويحتمل أن رمبرانت تعلم منه أن يكون مخططاً ممتازاً. ولكن بعد قضاء عام واحد في أمستردام عاد الشاب القلق مسرعاً إلى ليدين متلهفاً على الرسم بطريقته الخاصة. فرسم أو صور كل ما وقعت عليه عيناه تقريباً، بما في ذلك الحماقات الصاخبة والقذارات المخزية (125)، وتابع النهوض بفنه عن طريق تجارب عزيزة لديه في تصوير شخصه فكانت المرأة هي النموذج أمامه وترك لنا صوراً شخصية (62 على الأقل) أكثر مما ترك كثير من كبار الرسامين من صور. ومن بين هذه الصور الشخصية الأولى رأس جميل في لاهاي: وهي لوحة تمثل رمبرانت في الثالثة والعشرين، وسيماً مليحاً بطبيعة الحال (وهذا هو

صفحة رقم : 10139

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روينز إلى رمبرانت -> رمبرانت هارمنز فان رين

شأن كل المرايا-تظهرنا في أجمل صورة) يتطير شعره هنا وهناك دون مبالاة، في ترفع الشباب عن التقاليد والأعراف، تنبئ عيناه عن اليقظة والزهو بما ثبت من قدرته وكفايته. والحق أنه كان بالفعل قد وطد مركزه. وفي 1629 نقده أحد الخبراء 100 فلورين أجراً لصورة-وهذا أجر مناسب لمنافس صغير في بلد كان فيه عدد الرسامين كبيراً مثل عدد الخبازين، ولكنهم لا يشبعون بطونهم مثلهم. وكانت موضوعاته بعد شخصه ووالديه مأخوذة من الكتاب المقدس. وفي لوحته "أرميا-يرثي لخراب أورشليم (126)" تجلت الهالة الصوفية التي تميزت بها لوحات رمبرانت الدينية. أما لوحة "سمعان في الهيكل (127)" فإنها تعبر تعبيراً صادقاً عن روح ما جاء على لسان هذا الشيخ في الإنجيل: "الآن نطلق عبدك يا سيد حسب قولك بسلام" (إنجيل لوقا 5:59). وكلف من أمستردام بأعمال كثيرة إلى حد أنه عاد إليها في 1638. وقضى هناك بقية أيام حياته. وفي خلال سنة مكن وصوله إليها رسم إحدى روائع الدنيا وهي "درس التشريح للأستاذ نيقولا تولب (128)"، وكان ثمة تشريحات كثيرة في التصوير الهولندي، ولم تمتهن السوابق، أو يחדش التواضع حين كلف الجراح الممتاز الذي كان أربع مرات عمدة لمدينة أمستردام، رمبرانت أن يرسمه، وهو يقدم عرضاً في التشريح في قاعة نقابة الجراحين، معترفاً أن يهدي الصورة إلى النقابة تذكراً لأستاذه، وربما كان دكتور تولب هو الذي اختار سبعة من "الطلبة" ليكونوا معه في الصورة، وواضح أنهم لم يكونوا طلبة، بل رجالاً ناضجين من نوي المكانة في الطب أو في مجال آخر، وانتهم رمبرانت الفرصة، كل الفرصة، ليبرز الوجوه متألقة بالشخصية والذكاء. وتبدو الجثة منتفخة على نحو غير ملائمة، واتخذ اثنان من المتفرجين وضعا تشهده الأجيال القادمة، وبمضي دكتور تولب في عمله في هدوء رجل متمرس واثق. أما الرجلان اللذان

صفحة رقم : 10140

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روبنز إلى رمبرانت -> رمبرانت هارمنز فان رين

يحدقان النظر فوق رأس الجثة فكانا يمثلان حب الاستطلاع والانتباه بأجلى معانيهما، وكان التلاعب بالضوء على اللحم والأطواق إعلاناً عن ميزة رامبت.
وانهالت الطلبات على رمبرانت، حتى بلغت أربعين في عامين. أما وقد امتلأت الآن جيوبه بالمال، واستبد به الظمأ إلى النساء "فقد حان الأوان للزواج (1634). وكانت ساسكيا أو لنبرخ ذات وجه جميل وعينين راقصتين وشعر حريري ناعم اللون وقوام أهياف وثرء كاف، وما أجمل صورة "ساسكيا" في مدينة كاسل الألمانية، وكانت الابنة اليتيمة لمحام وقاض ثري. وربما كان عمها هو وسيط في تجارة التحف الفنية-هو الذي أغواها بالجلوس أمام رمبرانت ليرسمها، وكانت جلستان فقط كافيتين للتقدم لطلب يدها. وقدمت العروس صداقاً قدره أربعون ألف جيلدر، أصبح بذلك مفلس المستقبل واحداً من أغنى الفنانين في التاريخ. وأصبحت ساسكيا زوجة صالحة على الرغم من ثروتها. وتحملت في صبر وجلد عبقرية شريك حياتها المستغرقة في العمل. وجلست إليه ليرسم لها صوراً كثيرة، ولو أنها أبرزت جسمها الأخذ في التقح والامتلاء، وكان يدثرها في أزياء غريبة ليرسم لها "فلورا آلهة الأزهار" المشرفة الباسمة الموجودة الآن في لندن، و"فلورا" الحزينة، الأبطس شكلاً، الموجودة الآن في نيويورك. وفي إحدى اللوحات في درسن نراه وقد غمرته السعادة، وهو يمسك بها وهي جالسة على ركبته، وتقيض منه الابتسامة على اللوحة، رافعاً كأساً عالية ابتهاجاً بموفور الصحة والمال.
وفي سنين اليسر هذه (1634-1642) أخرج الفنان التحفة تلو التحفة. واستمر يرسم نفسه. فنراه في "صورة الفنان" (1634) وهي الآن في اللوفر-وسيماً مبهجاً، في قبة مزدانة بالجواهر. وسلسلة ذهبية على صدره. ورسم في السنة نفسها "الضابط (129)"- وهو فيها جميل مهيب يضع على رأسه قبة تغزو العالم، ورسم لنفسه في 1635 صورة في قبة رائعة يكاد ريشها يداعب

صفحة رقم : 10141

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روبنز إلى رمبرانت -> رمبرانت هارمنز فان رين

السماء. وسعيًا وراء الشخصية الأجل، (1634 "السيدة العجوز" التي لا تبالي بنا وهي معلقة في المتحف الوطني بلندن في وجه ملأته السنون بالتجاعيد. وبعد ذلك بعام واحد رسم "المرأة العجوز على الكرسي ذي الذراعين" وهي موجودة في نيويورك. وعثر في خرائب أمستردام على رجل في الثمانينات، ألبسه عمامة وثياباً ورسم له لوحة "رجل شرقي (130)". وكان له ولع بجمع الثياب والمجوهرات والسيوف والقبعات والأحذية الغربية، تستطيع أن تراها جميعاً، فيما عدا السيف في لوحة "مارتن داي (131)" بالأربطة والأشرطة على قفازه، والأهداب على ثيابه والتروس فوق حدائه. والآن أيضاً، رسم موضوعات دينية عتيقة في صورة صادقة جديدة متخذاً نماذج من الرجال العجائز والشابات اللاتي قابلهن في الشوارع-كل منها تلفت النظر في أسلوب من معالجة التفاصيل، تأخذ بالألباب في التلاعب بالضوء، وتثير المشاعر بتدفق العاطفة فيها إلى حد أن أية لوحة منها يمكن الدفع بأنها أبداع ما رسم الفنان، ومثال ذلك لوحة "تضحية إبراهيم (132)"، الملاك روفائيل يهجر طوبيا (133)". وجاءت هذه السنوات المباركة بعدد من أشهر الصور الشخصية مثل "السيدة ذات المروحة (134)"، و"الرجل ذو القفاز (135)" وكلتاها تجل عن الوصف، وتقتصر عنها أية ألفاظ.

وآخر الرسوم في هذه الحقبة، وربما أعظم إنجازات رمبرانت على الإطلاق، هي اللوحة الضخمة (14×12 قدماً) تعرف بالتاريخ باسم "حراسة الليل"، والأكثر احتمالاً أن اسمها "جماعة كابتن كوك الرماة(136)" (1643). ولا ينقص هذه الرقعة الهائلة أية تفاصيل، وليس فيها أي ظل للظلام أو أي مسقط إلا حسب حسابه، أو أي تباين في اللون إلا وهو مدروس. ويقف الكابتن المزهو في الوسط في لون أسمر وأبيض وأحمر، وإلى يساره قائمقام في أحذية عالية وسنرة وقبعة صفراء ذهبية اللون، والسيوف تبرق والرماح تلمع والأعلام ترفرف، وإلى يمين الكابتن فرقة

صفحة رقم : 10142

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روينز إلى رمبرانت -> رمبرانت هارمنز فان رين

الناي والطبول. وتغادر الجماعة مقرها إلى ما يبدو واضحاً أنه عرض في أحد المهرجانات. وتعاقد رمبرانت مع كل من الأشخاص الستة عشر الذين سيصورهم، على أن يدفع كل منهم مائة فلورين. وأحس كثير منهم بأن المساواة في الأجر لم تقابلها مساواة في التآلق والعظمة في اللوحة، وشكا بعضهم من أنه وضعهم في الظل ولم يسلط عليهم الأضواء، أو أنه قصر في تحديد ملامحهم حتى يسهل على أصدقائهم التعرف عليهم. ولم يشد الطلب بعد ذلك على الصور الجماعية في مرسومه، وبدأ نجمه يأفل.

ولا بد أن المال كان وفيراً لديه في 1639 لأنه اشترى في تلك السنة داراً فسيحة في شارع جودن-يريد الذي كان يقطنه أثرياء اليهود. وكلفته الدار ثلاثة عشر ألف فلورين. وهو مبلغ ضخم لم ينجح قط في دفعه كاملاً. وربما قصد ألا تنتسح لأسرته فحسب، بل لتلاميذه ولمرسمه ومجموعته المتزايدة من التحف القديمة والأشياء الغريبة والفن. وبعد دفع نصف ثمن الشراء في السنة الأولى من شغل الدار، وبقاء النصف الثاني ديناً عليه، ارتفعت فائدته التي لم تدفع إلى حد جره إلى هاوية الإفلاس. وفي الوقت عينه كانت صحة حبيبته ساسكيا أخذة في التدهور، وكانت قد أنجبت له ثلاثة أولاد، مات كل منهم في سن الطفولة. وهدت ولاتهم العسرة ونهايتهم الأليمة من كيانها. وفي 1641 أنجبت له ابناً أسماه تيتوس، وقد بقي على قيد الحياة، ولكن أمه فارقت الحياة في 1642. وأوصت بكل ما تملك إلى رمبرانت، شريطة أن تؤول بقية التركة إلى ولدها إذا تزوج والده ثانية. وبعد سنة من وفاتها رسم لها رمبرانت صورة من الذكرة العامرة بحبها. وكدرت هذه الخسارة صفو حياته. وبدأ من ذلك الوقت أن فكرة الموت تستبد به وتقلقه. وعلى الرغم من أنه كان شديد التعلق بأسرته، فإنه كان دائماً يؤثر الوحدة على الرفقة، أما "الآن فقد" أوى إلى عزلة كئيبة وكان وهو يرسم يصرف المشاهدين الأغرار عنه قائلاً "أن رائحة الطلاء

صفحة رقم : 10143

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روينز إلى رمبرانت -> رمبرانت هارمنز فان رين

تضر بالصحة(137)". ولم يكن رجل الدنيا المثقف أو المهذب مثل روبنز. وقرأ قليلاً: ولم يكذب شيئاً سوى الكتاب المقدس، وعاش في مملكة اللون والظل والضوء التي لا تنبش بينت شفق. وهي متنوعة مثل دنيا الأدب ولكنها غريبة عنها فريدة. وكان من الصعب عليه أن يقوم بالواجبات الاجتماعية إذا قدم عليه من يجلسون أمامه ليرسمهم، أو أن يتبادل معهم أحاديث قصيرة بقصد تسليتهم والاحتفاظ بسكوتهم وهذوتهم. وقل المترددون عليه حين وجدوا أن رمبرانت مثل معظم أسلافه، لم يكن يرضى أن يرسم له مرسماً تخطيطياً في جلسة أو جليستين، ثم يكمل الصورة من هذا الرسم التخطيطي، بل أثر أن يرسم على القماش، الأمر الذي يتطلب جلسات كثيرة، هذا فوق أنه كان له طريقة انطباعية في أن يرسم ما يفكر فيه أو يحس به، لا مجرد ما يرى، ولم تكن النتيجة دائماً مرضية. ولم يكن عوناً له أن تقع داره في حي اليهود. وكان قد عقد منذ ذلك الوقت صداقات مع كثير منهم. وكان قد نقش صورة لمنسة بن إسرائيل (1636). والآن في 1647 حفر على الخشب الوجه الداكن للطبيب اليهودي أفرايم يونس. ولما كان الفنان محاطاً من كل جانب تقريباً، وواضح أنه أحبه، فإنه وجد موضوعات تتزايد يوماً بعد يوم، بين اليهود الأسبان والبرتغاليين في أمستردام. وربما تعرف على باروخ سبينوز الذي عاش في هذه المدينة من 1635. وذهب بعضهم إلى أن رمبرانت نفسه كان يهودياً. وهذا غير صحيح لأنه عمد ونشأ على المذهب البروتستانتي. وكانت ملامحه تنطق بأنه هولندي، ولكن لم يعرف عنه أي تحيز ملحوظ بالنسبة للدين أو للجنس. وثمة عمق خاص لتقاهمه الموسوم بالعطف في رسومه لليهود. لقد افتتن بشيوخهم ولحاهم التي تقطر منها الحكمة وعيونهم التي تشف عن الحزن والأسى. وإنك لتجد نصف العذاب النفسي عند العبرانيين مائلاً في وجه "اليهودي العجوز" وهي اللوحة التي رسمها رمبرانت 1654 والموجود الآن

صفحة رقم : 10144

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روبنز إلى رمبرانت -> رمبرانت هارمنز فان رين

في الأرميتاج (لنجراد)، وفي لوحة "الخبز" (الحاخام) (1657) في لندن وفي هذه اللوحة الأخيرة صورة الخبز الذي واسى رمبرانت بعد وقوعه في الضائقة المالية وأمه بمعونة مادية. ونراه في 1649 يرسم "هندريكا ستفلز في المخدع" (138)، ونذكر أنه اتخذ خليلية. وكانت وصيفة ساسيكا، وبقيت مع الفنان الأرملة وعنيبت به عناية فائقة، وسرعان ما سرت بحرارة جسمها. أنه لم يتزوجها لأنه كره أن يتخلى عن تركة ساسيكا لابنه تيتس الذي كان بعد صبيياً في الثامنة من العمر. وعندما رسم هندريكا 1955 (139)، وكانت جميلة بدرجة مقبولة ذات عينين تلازمهما لهفة مكتئبة، وربما كانت هي التي جلست أمامه مرتين لتجربة أو دراسة فن رسم العاريات: في 1654 "باشيبا في الحمام" (140) و"امرأة تخوض" (141) وكلتاها آية في العظمة من حيث الألوان والاتساع. وفي يولية من هذا العام دعيت للمثول أمام شيوخ الكنيسة، حيث أنبت تأنيباً قاسياً على اقترافها الزنى، وحرمت من تناول القربان المقدس. وفي أكتوبر وضعت له طفلاً اعترف رمبرانت ببنته، ودبر أمر تعميده بسلام، وعرف كيف يحب خليلته حباً عميقاً كما أحب زوجته، وإلا كيف كان يتسنى له أن يملأ وجهها بكل هذه الرقة حين صورها 1658 في رداء أحمر يلتئم مع شعرها (142). وكانت زوجة أب فاضلة لتيتس الذي أخذ يترعرع صبيياً فانتاً. ويمكن أن تراه في متحف متربوليتان للفن، وهو في الرابعة عشرة، جميلاً كالينت، ذا عينين تتمثل فيها حيرة الشباب، تربكه الحياة، يجد شيئاً من الطمأنينة والأمان في حب أبيه، وتراه مرة أخرى في مجموعة ولاس، وقد سلخ عاملاً آخر من العمر. وقد نتصور كل التصور كيف أنه كان عزاء وسلوى لأبيه رامبرنت الذي أنصب على رأسه الكوارث المالية في هذه السنة.

وبذل الفنان جهداً جباراً ليقصد في الإنفاق ويصل إلى الموازنة بين موارده ونفقاته. وثمة لوحات دينية عظيمة يرجع تاريخها إلى هذه الحقبة-حقبة

صفحة رقم : 10145

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روينز إلى رميرانت -> رميرانت هارمنز فان رين

الزنى والديون (1649-1656) منها "يعقوب بيارك حفدته(143)"، و "المسيح عند النبع(144)"، و "المسيح وامرأة سامرأ(145)"، و "النزول من الصليب(146)". ومهما يكن من أمن فإن الصور الكنسية لم تكن مطلوبة في هولندا البروتستانتية. ومن ثم جرب يده في الأساطير، ولكنه لم ينجح إلا حين استطاع أن يكسو الأشخاص. ولم تكن لوحة "داناى(147)" جذابة. أما "أتينا(148)" و "مارس(149)" فكانتا فيديتين في بابهما. وظل يرسم صور شخصية تأخذ بمجامع الأبواب. فإن صورة "تيقولا برونج(150)" قد التقطت في لحظة مشرقة بالحياة والفكر، وصور "جان سكس(151)" تمثل عمدة المدينة الهولندي في ذروة قوته وأسعد أوقاته، كذلك فإن رميرانت رسم في هذه الفترة أشخاصاً غير ذوات أسماء، بعد دراسة عميقة: "الرجل ذو الخوذة الذهبية(152)"، و "الراكب البولندي(153)"، و "كوزيلبوس قائد المائة(154)"، وتبدو معظم اللوحات الشخصية الأخرى إلى جانب هذه، ذات بريق سطحي. وكان رميرانت في سن الخمسين حين وقعت الكارثة. أنه قلما اهتم بأن يحسب ما له وما عليه، واشترى دون مبالاة الدار والفن، بل أسهم شركة الهند الشرقية(155). والآن وقد تخلقت معونات نصرائه ورعاه كثيرأ عن الوفاء بمتطلباته، فإنه وجد نفسه وقد أثقلته الديون لدرجة تدعو إلى اليأس. وفي 1656، ورغبة في حماية تينس، نقلت "محكمة الأيتام" في أمستردام، ملكية البيت الأبيض إلى الابن، ولو أنه سمح للوالد في الإقامة هناك لبعض الوقت. وفي شهر يولية أعلن إفلاس رميرانت، وبيع أثاثه ولوحاته ورسومه ومجموعاته في عجلة كلفته كثيرأ (1567-1658). ولكن العائدات كانت أقل كثيرأ من أن تقي بالتزاماته. وفي 4 ديسمبر 1657 طرد من الدار، فتنقل من بيت إلى بيت حتى استقر به المقام في روزنبراخت في "حارة اليهود". وأنقذ من هذا الحطام نحو سبعة آلاف فلورين من أجل تينس، الذي كون مع هندريكا رغبة منها في حماية رميرانت، شركة بواسطتها بيع أعماله الباقية دون

صفحة رقم : 10146

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روينز إلى رميرانت -> رميرانت هارمنز فان رين

أن تؤول إلى دائنيه. ويبدو أنهما أوليا الفنان الذي تتقدم به السنون، عناية كبيرة.

واستمر رمبرانت وسط هذه البلايا والمحن ينتج الروائع: "رجل على ظهر جواد" وقد بيعت حديثاً إلى المتحف الوطني في لندن مقابل 400 ألف دولار، واللوحة العجيبة "رأس رجل عجوز (156)" -وكأنه كارل ماركس في الثمانينات متحرراً من الأوهام، واللوحة الطبيعية المفعمة بالحياة بدرجة مذهشة "امرأة تقص أظافرها (157)" - وربما تطلبت بعض الطقوس الدينية تنظيف الجسم كله ليلة السبت. وربما رسم آنذاك أيضاً بعض صور مروعة للفنان نفسه مثل: "رمبرانت وكراصة التخطيطية" (1657)، وهي موجودة في درس، ثم اللوحة الأكثر شهرة التي يبدو فيها وجهه العابس المتجهم وجسمه البدين المدثر (1658) وهي في مجموعة فريك في نيويورك، وصورته بكامل جسمه (1659) وهي فيينا، وصورة الوجه يعروه القلق والهموم (1659) في واشنطن.

وفي العقد الأخير من عمره (1660-1669) سهر للإبقاء على حياته ابنه وخليلته. ولكن كان مسكنه ضيقاً ومرسمه سيئ الإضاءة، ولا بد أن يديه فقدتا بعض اتزانها نتيجة كبر السن والشراب، فلوحة "القديس متي الإنجيلي (158)" غير مصقولة في تركيبها، ولكن الملاك الذي يهمس في أذنه لم يكن سوى تيتس الذي يبلغ الآن العشرين من العمر، ولا يزال جميلاً كالعروس. ثم جاءت في تلك السنة (1661) آخر روائع الفنان: "خبراء نقابة تجار الأقمشة (159)" فإن فاحصي القماش والمراقبين كلفوا الفنان بأن يخلد ذكرهم بصورة جماعية تعلق في دار رابطتهم. وربما كنا نغتنق بعض التردد في التركيب، وبعض الفجاجة في التفاصيل وبعض التقصير في إسقاط الضوء ولكن النقد في حيرة من الأمر ليعثر على غلطة في الصورة. فإن أمامية الصورة وخلفيتها اللتين تمكن منهما الرسم جعلتا الشخوص الخمسة الرئيسية تقفز إلى

صفحة رقم : 10147

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روينز إلى رمبرانت -> رمبرانت هارمنز فان رين

عين الرائي "كل منها شخص واحد منفصل"، ولكنهم جميعاً التقطوا في نفس اللحظة الحية التي التقى فيها تفكيرهم. وفي كثير من اللوحات التي رسمت في سنوات التدهم والتدهور هذه، يجد الخبراء علامات على انهيار الطاقة وانحطاط الأسلوب، بساطة الألوان، إهمال التفاصيل، العجلة في جريان الفرشاة وعدم الصقل. ولكننا، حتى في هذه الأيام نجد صوراً أخاذة، مثل "عود السخي (160)" -وهي تشخيص لا ينسى للصفح المحبب إلى النفس، و"العروس اليهودية (161)" وتلك ثمرة عجيبة مذهشة تأتي من شجرة تودي وتذبل.

ولكننا لم نذكر شيئاً عن مناظر الطبيعة ورسومه وحفره. ولم يبرز أو يتفوق إلا القليل من المناظر الريفية، ولكن الرسوم بلغت القمة بين مثيلاتها وثمة رسمان مشهوران: "مشهد أمستردام" بالقلم والحبر، الموجود في فيينا، و"المرأة العجوز جالسة" في برلين. ويعد إنتاجه في الحفر مضارعاً لأحسن ما أنتج في ناونج هذا الفن الشاق المجهد. وعرف أحد أعماله في هذا الفن "المسيح يشفي المرضى"، باسم "القطعة ذات المائة جيلدر" لأنها اشترت بثمن لم يسبق له مثيل (1200 دولار؟). على أن نسخة منها على أية حال قدرت 1867 بمبلغ 35 ألف فرنك (20 ألف دولار؟).

أن 300 من أعمال الحفر، 200 من الرسوم و650 من اللوحات منجزات رمبرانت لا تزال باقية، تكاد تكون مشهورة مثل شهرة روايات شكسبير، وتكاد تكون متنوعة أصلية عميقة مثلها. وكلها تقريباً من صنع يديه. فعلى الرغم من أنه كان مساعدون، فإن أحداً منهم لم يشاركه سره في الكشف عما خفي وما لا يرى (162). وكانت بعض أعماله رديئة وبعضها منفرأ، مثل "الثور المسلوخ" في اللوفر. وكان أحياناً يستنفذ كل جهده في الأسلوب الفني وفي أحيان أخرى يتجاوز من أجل الرؤيا، أي رؤيا الفنان نفسه. وكان، مثل الطبيعة، يتخذ موقفاً محايداً بين الجمال والقبیح، لأن الصدق عنده كان قمة

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روينز إلى رميرانت -> رميرانت هارمنز فان رين

الجمال، وإن الصورة التي تمثل القبح حقاً هي صورة جميلة. وأبى أن يضيف أشكالاً مثالية على الشخص في لوحاته الدينية، وأرتاب في أن يكون العبرانيون الوارد ذكرهم في التوراة على مستوى جمال اليهود في أمستردام، فسورهم على هذا النسق، ومن ثم انبعثوا من عالم الأساطير أو التاريخ إلى الحياة. وازداد شيئاً فشيئاً مع تقدمه في السن، حبه للبسطاء من الناس حوله، لا حب من جردهم السعي وراء الكسب من الروح الإنسانية. وعلى حين أن بعض الفنانين، مثل روينز، التمسوا موضوعاتهم بين أرباب الجمال أو السعداء أو الأقوياء وأصحاب السلطان، فإن رميرانت كان يسخر بفنه الحنون على المنبوذين والمرضى والبؤساء، حتى المشوهين ذوي العاهات، وعلى الرغم من أنه لم يسخر من الدين أو لم يهزأ به، فقد بدا أنه على غير وعي منه، يجسد موقف السيد المسيح ويتمان تجاه أولئك الذين أخفقوا، أو أبو أن يشتركوها، في صراع كل إنسان مع سائر بني الإنسان.

ولنلق نظرة أخيرة عليه في صورته الشخصية في شيخوخته. وليس هنا زهواً أو خيلاء، بل على النقيض، أنها قصة حياة الفنان بفرشاته هو، في أيام الخيبة والهزيمة. أنه عندما صور نفسه 1660 (163)، كان لا يزال يواجه الحياة بمزيج من الشجاعة والاستسلام، فإن الوجه القصير السمين غير الحليق كان ساخراً لم يكن حزياً، وكان لا يزال يتحرك قدماً. ولكن في صورة أخرى (174) في نفس العام، كانت ثمة نظرة قلقة حائرة تعتم الوجه وتكسوه بالتجاعيد حول الأنف الضارب للحمرة وفي 1661 رأى نفسه (175) في نفس الحيرة والارتباك. ولكنه لم يبال بالتجاعيد بطريقة فلسفية. وصور نفسه في عامه الأخير (166)، وكأنما وجد الطمأنينة وهدوء البال في ارتضاء قيود الحياة وحدودها ومرحها الساخر. وماتت هندريكا 1662، ولكن ظل تيس يمتعه بمنظر الشباب، وفي 1668 ابتهج الشيخ العجوز بزواج ابنه. ولما لحق الابن بالخليلة في هذا العام نفسه، فقد الفنان قدرته على التشبث بالحياة. وجاء في سجل

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روينز إلى رميرانت -> رميرانت هارمنز فان رين

الوفيات في الكنيسة الغربية في 8 أكتوبر 1669 رميرانت فان رين-الرسام...يترك طفلين. وكاد معاصروه أن لا يلحظوا وفاته. ولم يحلم أحد منهم قط بوضعه في مرتبة روينز، أو حتى فاندريك. وكتب عنه معاصروه-جويشم (يو اقيم) فون ساندرات أن ما كان يعوزه أساساً هو المعرفة بإيطاليا وغيرها من الأماكن التي تهيج الفرص لدراسة القديم ودراسة نظرية الفن. (ويبدو لنا الآن أن هذا هو سر عظمته). ولو أنه عالج أموره بمزيد من الحزم والتعقل، وأبدى مزيداً من اللباقة في المجتمع، فلربما أصبح أكثر ثراء، ولقد عانى منه من ميله إلى صحبة السوق (167). واتفق رسكين مع مؤرخ الفن الألماني حيث قال: "أن الفضاظة والتبذل والتجرد من التقوى تعبر دائماً

عن نفسها في الألوان السمراء والرمادية، كما هز الحال مع رمبرانت... أن هدف أحسن الرسامين أن يصوروا ما تقع عليه أعينهم في وضوح النهار أو في ضوء الشمس، ولكن رمبرانت كان يسعى إلى رسم أقدّر الأشياء التي يراها وأبشعها في ضوء شمعة (168). ولكن يوجين دي لاكروا الذي عكس التطورات الديمقراطية في فرنسا قال "ربما يأتي يوم نجد فيه رمبرانت رساماً أعظم من رافاييل. وأني لأكتب الآن دون تحيز- هذا التجديف الذي لا بد سوف يسبب انتصاب شعر الأكاديميين غضباً ودهشة (169). وينزع النقاد اليوم إلى رفع رمبرانت فوق مرتبة رافلييل وفلاكويز ومساواته فقط بالفنان الجريكو (170) وإنا لندرك أن "الصدق" هو وظيفة الزمن وتابعه. أية سلسلة وأية هوة من روبنز إلى رمبرانت بين الضوء البهيج والظل الكئيب بين الهاوية والحاشية، بين نبيل أنتورب السعيد بانغماسه في اللهو والفجور في وطنه في القصور مع الملوك، ومفلس أمستردام الذي عرف أحط الأعماق، ولازم الحزن والأسى. إنك إذ ترى هذين الرجلين على أنهما عنصري

صفحة رقم : 10150

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> من روبنز إلى رمبرانت -> رمبرانت هارمنز فان رين

طباق في تناغم قوي، إنما تحس بطريقة أخرى بعظمة أمة صغيرة صارت إمبراطورية عملاقة، كما تحس بتعقد المدنية التي استطاعت أن تنتج، في ناحية، ثقافة كاثوليكية تزين ابتهاج مذهبها الذي لا يرقى إليه الشك، بالأساطير وأضرحتها العزيزة عليها بالفن، وفي الناحية الأخرى ثقافة بروتستانتية استطاعت أن تقدي وتربي أعظم فنان وأعظم فيلسوف في ذلك العصر.

صفحة رقم : 10151

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> الدانمرك دولة عظمى

الفصل التاسع عشر

ظهور دول الشمال

1- الدانمرك دولة عظمى

فلنلق نظرة على الخريطة. فإن الخرائط مثل الوجهه، هي شارات التاريخ وتوقعاته. عندما ارتقى فردريك الثاني العرش 1559 كانت الدانمرك من أقوى الدول وأكثرها امتداداً في أوروبا، ولم تكن تعلمت بعد أنه من الحذق والحكمة أن تكون صغيرة. وفي الصراع الطويل الأمد بينها وبين السويد من أجل السيطرة على التجارة بين بحر الشمال والبلطيق، كانت الدانمرك هي المنتصرة في بداية الأمر، حتى امتد حكمها عبر الاسكاجراك إلى النرويج، وعبر الكاتيجات إلى ما هو الآن جنوب السويد. واستولت على المدن الاستراتيجية كوبنهاجن وهلسينور في الجانب الغربي، ودالمو وهلسينور في الجانب الشرقي من الأوريسوند أو السوند-أي المياه العاصفة التي لا يزيد اتساعها في مكان واحد فقط على ثلاثة أميال ونصف الميل. والتي تفصل الآن الدانمرك عن السويد. واستولت في أقصى الشرق، في معظم هذه الفترة، على جزر بورنهم وجوتلاند وأوسل، وبذلك تحكمت في بحر البلطيق. وكانت تضم في الجنوب دوقتي شلزويج وهولستين، كما حكمت في أقصى الشمال الغربي أيسلنده وجرينلند وكانت الضرائب والرسوم التي فرضتها الدانمرك على التجارة المارة عبر المضائق بين البحار هي المصدر الأساسي لموارد المملكة ولسبب الرئيسي في حروبها. وكانت السلطة السياسية في أيدي ثمانمائة من النبلاء ملكوا نصف الأرض

صفحة رقم : 10152

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> الدانمرك دولة عظمى

وجعلوا من الفلاحين أرقاء، وانتخبوا الملك، وحكموا البلاد عن طريق الريشستاغ أو الديت الوطني (الجمعية التشريعية) والريجستاد أو مجلس الدولة. وأفادوا من حركة الإصلاح الديني بامتصاص معظم الممتلكات التي كانت تابعة للكنيسة من قبل. وفي مقابل إعفائهم من الضرائب، كان متوقفاً منهم ولكنهم رفضوا في أغلب الأحيان، أن يسلموا فلاحهم ويقودهم إلى الحرب، إذا استقزهم الملك، ولم يحظر رجال الدين البروتستانت المحرومين من الثورة إلا بمكانة اجتماعية هزيلة ونفوذ سياسي ضئيل، ومهما يكن من أمرهم فإنهم سيطروا على التعليم وأشرفوا على الأدب، ومن ثم لم ينتج إلا لاهوتاً وتراتيل. ونعم جمهور السكان. وقد بلغ عددهم نحو مليون، بالإسراف بالطعام والشراب، حتى لقد نصح حلاق جراح عملاءه قائلاً: "إنه لمن الأفضل للناس أن يشربوا الخمر إلى حد التمل مرة في كل شهر، وعندي لهذا أسباب قوية، فإنه يقويهم ويساعدهم على النوم العميق، ويسهل التبول والتنفس ويجلب السعادة الرفاهية عامة(1).

وظهر في هذه الحقبة شخصيتان دنيماركيتان من حقهما على التاريخ أن يذكرهما: نيكوبراهي أعظم الفلكيين في هذا الجيل، وكرستيان الرابع الذي لم يكن ملكاً على الدانمرك لمدة ستين عاماً (1588-1648) فحسب، بل كان يمكن

كذلك أن يتزعم الناس بصرف النظر عن الأصل الملكي. وأنا لنمر مروراً عابراً بوالده فردريك الثاني لنذكر أن المهندس المعماري الفلمنكي أنطونيوس فان أوبرجر صمم له (1574-1575) حصن قصر كرونبورج في هلسينور- "السينور هملت".

وعندما مات فردريك 1587 كان كريستيان صبياً في الحادية عشرة، فتولى الحكم لمدة ثمان سنوات أربعة أوصياء من النبلاء، ثم قبض كريستيان على زمام الأمور، وطيلة نصف القرن التالي. نعم بحياة مترفة في بدخ وحيوية ونشاط متعدد الجوانب، مما أدهش كل أوروبا، وبز الملك توجيهات الحلاق

صفحة رقم : 10153

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> الدانمرك دولة عظمى

الجراح سالف الذكر، لأنه كان بانتظام في حاجة إلى من يعاونه في العودة إلى قصره بعد أمسية صاخبة مخمورة. وبلغ دنسه وتهتكه حداً لم يتفوق عليه فيه إلا القليل من رعاياه. وخلق عدد أولاده غير الشرعيين مشكلة في علم المحاسبة. وعض شعبه النظر عن هذه الأخطاء العادية، وأحبوه لأنه كان يرقص في أعراسهم واشترك في أعمالهم وخاطر بحياته كثيراً لخدمتهم، وأضاف إلى هذا كله معرفته باللاتينية والعلوم، وتنوعاً متقفاً للفن، وعقيدة دينية ميسرة لم تثر أي جدل حول الجدير وغير الجدير بالتصديق والثقة، أو أي وخز للضمير حول المزاح والهزل. وساعد في أوقات فراغه على أن يجعل من كوبنهاجن (مرفأ التجار) إحدى العواصم الأكثر جاذبية وفتنة في أوروبا. وضاعف برنامجه للبناء من محيط المدينة (2) وفي عهده شيد قصر روزنبورخ، وسرعان ما قامت بعده سوق الأوراق المالية (البورصة) بواجتها امتداداً كبيراً، وأرتفع اللوبي عالياً. وأصلح كريستيان حكومة النرويج وطور صناعاتها وأعاد بناء عاصمتها التي حملت اسمه لمدة ثلاثة قرون: "كريستيانا" (سميت أوصلو 1925). وفي الدانمرك أصلح الإدارة ونهض بالصناعات ونظم الشركات التجارية وأسس الكليات والمدن، ورفع من مستوى الفلاحين في الضياع الملكية. وأطاح الطمع بالملك، ذلك أنه كان يرأوده حلم إسكنديناوة بأسرها تحت حكم رجل واحد، أي تحت حكمه هو، ولكن النبلاء اعترضوا بأنه من المتعذر غزو السويد، ولم يمنحوه تأييدهم وعونهم وشن بالجنود المرتزقة أساساً حرب الكمار على السويد (1611-1613). وما أن قامت حرب الثلاثين عاماً حتى وجد نفسه على كره منه، متحالفاً مع السويد، دفاعاً عن قضية البروتستانت. وبرغم هذا الخطر المحدق به استأنف الحرب مع السويد (1643) ولو أنه كان في السابعة والستين من العمر. وقاد قواته الهزيلة في حماسة رومانتيكية. وفي معركة كولميرج البحرية (1644) قاتل طوال يوم كامل على الرغم من إصابته بعشرين جرحاً، وفقد إحدى عينيه،

صفحة رقم : 10154

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> الدانمرك دولة عظمى

وأحرز نصراً مؤقتاً. وثبت في آخر الأمر أن السويد أقوى، وحررها صلح برومسيرو 1645 من دفع الرسوم على تجارتها في مياه السويد، وتخلّى لها عن جوتلند وأوزل وثلاث مقاطعات في شبه جزيرة إسكنديناوة. وعندما مات كرستيان الرابع، بعد خمسين عاماً من أعمال بناءة وحروب هدامة كانت مملكته أصغر مما كانت عليه حين اعتلى العرش. ودالت دولة الدنمرك وسطوتها.

صفحة رقم : 10155

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> السويد

2- السويد

1654 - 1560

أ- المذاهب المتصارعة

1611 - 1560

فيما بين جوستاف فاسا مؤسس السويد الحديثة وجوستاف أدولف منقذ البروتستانتية ومخلصها، تلبّد تاريخ السويد بسحب الصراع بين الشيع الدينية من أجل السلطة السياسية. وكان الملّيك (الفاسا) الأول قد حرر السويد من نير الدنمرك. ووحّد البلاد تحت حكم ملكية وراثية قوية. على حين أن أوليجاركيات النبلاء ساعدت على ضعف الدنمرك وبولنّدة وعلى الإقطاع فيهما. وكان الفلاحون في السويد أحراراً، وكانوا يمثلون في مجلس الديت (الركسداج) مع النبلاء ورجال الدين وممثلي المدن. وكانت لفظة بوند Bonde التي كانت في الدنمرك الرقيق، تعني السويد لقباً كريماً للرجل الحر الذي يفلح أرضه الخاصة به. ولكن المناخ كان يحد من موارد الأرض بشكل قاس، كما كان يحد منها قلة عدد السكان، وسيطرة الدنمرك على ثلاث مقاطعات في شبه الجزيرة الإسكنديناوية وعلى مياه السويد. وامتألت قلوب النبلاء غيظاً بسبب خضوعهم من جديد للملك، وكانت الكنيسة قد جردت من أملاكها في السويد، فدأبوا على تدبير المؤامرات للاستحواذ على الشعب واسترداد أملاك الكنيسة والاستيلاء على العرش. ولم يكن أريك الرابع عشر -ابن جوستاف فاسا- (1560-1568)

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> السويد

مؤهلاً لمواجهة هذه المشاكل. لقد كان يتجلى بالشجاعة والمقدرة ولكن طبعه العنيف أفسد عليه دبلوماسيته، وأدى به إلى القتل والجنون. وأثار حفيظة النبلاء بقتل خمسة من زعمائهم، قتل هو أحدهم بيده. وواصل ضد الدنمرك "حرب السنين السبع الشمالية (1563-1570). ومهد نغزو ليفونيا لحروب مقبلة. ونفر منه أخاه جون باعتراض سبيله في زيجة كان يمكن أن تجعل منه وريثاً لعرش بولنדה، فلما تزوج جون، رغم أنف أخيه، من الأميرة كاترين جاجلون، احتجزه أريك في قلعة جريشولم. وجاءت كاترين لتشاطر جون ويلات السجن، وأغرته باعتناق المذهب الكاثوليكي. وفي 1568 أرغم أريك أخوته على التحلي عن العرش. وبعد ستة أعوام قضاها في السجن أعدم بأمر من الديت والملك الجديد.

وعقد جون الثالث (1568-1592) صلحاً مع الدنمرك ومع النبلاء، وأذكى نار الخلاف الديني من جديد. فإن زوجته كانت تغريه في الليل، أكثر منها بالنهار، باعتناق الكاثوليكية. وبإذن منه دخل الجزويت إلى السويد منتكرين، وأخذ أقدروهم، وهو أنطونيو بوسيفون، على عاتقه تحويل الملك إليها، وكان وخز الضمير قاسياً كلما تذكر جون موافقته على قتل أخيه، وأن عذاب النار هو العقاب الذي لا مفر منه لخطيئة مثل هذه. ولكن بوسيفون أغراه بأنه لا منجاة من هذا الجحيم الذي ينتظره إلا بالاعتراف وطلب الغفران في الكنيسة التي يعتقد الناس جميعاً بأن السيد المسيح هو الذي أقامها. وأذعن جون وتناول القربان المقدس وفق الطقوس الكاثوليكية، ووعده بأن يجعل الكاثوليكية دين الدولة شريطة أن يرخص البابا لرجال الدين السويديين في الزواج، وأن يقام القداس باللغة الوطنية، وأن يقدم القربان المقدس بالنبيذ والخبز على السواء. وقصد بوسيفون إلى رومة ولكن البابا رفض الشروط، فعاد الجزوي تي صفر اليدين. وأصدر أوامره إلى الجزويت بتناول القربان بكلاً نوعيه وبتلاوة القداس باللغة السويدية فرفضوا ورحلوا. وماتت كاترين الكاثوليكية في 1584. وبعد ذلك بعام واحد

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> السويد

تزوج جون من سيدة بروتستانتية ردتة ثانية إلى المذهب اللوثري، في الليل أكثر منها في النهار. وفي أغسطس انتخب ابنه الكاثوليكي لعرش بولنדה تحت اسم سجسمند الثالث. ووفقاً لقانون كالمتر اتفق الوالد والولد على أنه بعد وفاة جون يصبح سجسمند ملكاً على بولنדה والسويد معاً. ولكن سجسمند آل على نفسه أن يحترم استقلال السويد السياسي والمذهب البروتستانتية. وعند وفاة جون (1592) انعقد مجلس الديت تحت رئاسة أخيه الدوق شارل في مدينة أيسالا (25 فبراير 1593) وكان يضم 300 من رجال الدين و300 من العلمانيين-النبلاء وممثلو المدن وعمال المناجم والفلاحين، واتخذ مذهب أوجزبرج اللوثري 1540 مذهباً رسمياً للكنيسة والدولة في السويد. وأعلن

هذا المجتمع التاريخي (مجمع أبسالو) أن الأمة لن تتقبل غير اللوثرية ولن تتسامح مع غيرها، وألا يعين في المناصب الكنسية أو السياسية إلا اللوثريةون الأقداح وألا يتوج سجسمند في السويد إلا بعد قبوله لهذه المبادئ. وفي الوقت نفسه اعترفوا بالدوق شارل نائباً للملك عند غيابه عن العرش. ولكن سجسمند الذي تلقى تعليمه على أيدي الجزويت، كان يحلم بضم السويد وروسيا إلى حضير الكتلكة. ولما وطأت قدماه أرض ستوكهلم (سبتمبر 1593) وجد كل الزعماء السويديين تقريباً مجمعين على طلب أوثق ضمان لامنتاله لإعلان أبسالو. وظل خمسة أشهر يبحث عن حل وسط، ولكن الزعماء بقوا على عنادهم، وجمع الدوق شارل جيشاً. وأخيراً أعطى سجسمند التعهد المطلوب، وتوجه أسقف لوثر في أبسالو (فبراير 1594). ولكن سرعان ما أصدر سجسمند بياناً احتج فيه بأنه أكره على هذا التعهد تحت الضغط والتهديد، وعين سنة من كبار الموظفين لحماية الكاثوليك الباقين في السويد، وفي أغسطس عاد أدرجه إلى بولندة. وأعد الدوق شارل وأنجر مانوس رئيس أساقفة أبسالو للعدة لتنفيذ

صفحة رقم : 10158

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> السويد

قرارات المجمع. ودعا مجلس الديت في سودر كوينج (1595) إلى القضاء على كل عبادة كاثوليكية، ونفى كل الطوائف المعارضة للمذهب البروتستانتي، وأمر بأن يضرب بالعصا كل من يتخلف عن حضور الصلوات اللوثرية، ووقع هو العقوبة بنفسه عند زيارته للكنائس(3). وأغلق كل ما بقي من الأديار، وأزيلت كل الأضرحة الكاثوليكية. وتوسل إلى سجسمند مستشاره أن يغزو السويد بجيش كبير. ورأى هو أن خمسة آلاف جندي تقي بالغرض. وحط رحاله بهم في السويد (1598) واشتبك معه شارل في ستجبرج فهزم. وفي اشتباك آخر في ستانجبرو انتصر الدوق. ووافق سجسمند من جديد على إعلان أبسالو وعاد إلى بولندة. وفي يولية 1599 خلعه الديت السويدي، وأصبح الدوق شارل الذي ما زال نائباً للملك، الحاكم الفعلي للدولة. وأقر مجلس الديت (1604) قانون الوراثة الذي نص على ألا يتولى العرش إلا كل ذكر أو أنثى من أسرة فاسا يرتضي العقيدة اللوثرية المقررة وأن كل مخالف لها لا يحق له الإقامة أو التملك في السويد. "فكل أمير ينحرف عن مبادئ أوجزبرج لايد بطبيعة الحال أن يفقد تاجه(4)" ومن ثم كان الطريق معبداً لاعتلاء جوستاف أدولف ابن شارل عرش السويد، ولتخلي حفيدته كريستينا. وفي 1607 توج شارل التاسع ملكاً.

وأصلح شارل الحكومة المختلة، ونهض بالتعليم والتجارة والصناعة، وأسس مدن كارلستاد مدن فيليبستاد وماريستاد وجوتبورج، وهيأت هذه الأخيرة للسويد منفذاً طيباً إلى بحر الشمال، متغلبة بذلك على سيطرة الدنمرک على المضائق. وأعلن كريستيان الرابع الحرب (أبريل 1611) وغزا السويد. وتحدى شارل، وهو في الحادية والستين من العمر، كريستيان لمبارزة فردية. فرفض هذا الأخير. ومات شارل في أكتوبر 1611، والقنال على أشده، ولكن قبل موته وضع يده على رأس ابنه وقال "أنت لها". وقد كان لها فعلاً(5).

صفحة رقم : 10159

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> السويد

ب- جوستاف أدولف

1611- 1630

وكان أعظم شخصية رومانتيكية في تاريخ السويد، وهو في سن السادسة عشر آنذاك. وكانت أمه ألمانية، ابنه الدوق أدولفس هولتين جوتورب. ولقنه أبوه وأمه تعليماً صارماً في اللغتين السويدية والألمانية وفي المذهب البروتستانتي. وما أن بلغ الثانية عشرة حتى كان قد درس اللاتينية والإيطالية والهولندية. والتقط بعد ذلك شيئاً من الإنجليزية والأسبانية، بل حتى البولندية والروسية، وأضيف إلى هذا كله جرعة قوية من الأدب القديم انسجم مع تدريبه في الألعاب الرياضية والشؤون العامة وفنون الحرب وبدأ في سن التاسعة يشهد جلسات الدب، واستقبل السفراء في الثالثة عشرة وفي الخامسة عشرة حكم إحدى المقاطعات، وفي السادسة عشرة اشترك في القتال. وكان طويل القامة وسيماً دمثاً كريماً رحيماً ذكياً، باسلاً. وماذا يتطلب التاريخ أكثر من هذا في الرجل؟ وكانت له في السويد شعبية عارمة إلى حد أن أبناء النبلاء الذين أعدمهم شارل التاسع بتهمة الخيانة، وأسرعوا طائعين مختارين إلى خدمته. ولم تبرز في جوستاف أدولف نزعة آل فاسا إلى المزاج الفردي والعنف ولكنها برزت في حبه للحرب. ولقد ورث عن أبيه حرب الكلمر ضد الدنمرك، فشن الحرب عليها في حماسة بالغة ولكنه أحس بأن هذه الحرب تسلك سبيلاً بعيداً عن الرشاد والسداد، فدفع للدنمرك في 1613 مليون طالير (عملة ألمانية قديمة-10 مليون دولار) مقابل السلام بينهما ومقابل حرية السفن السويدية عبر المضائق ومياه السوند. وفي هذه المرحلة من نشاطه كان مهتماً بإبعاد روسيا عن البلطيق، فكتب إلى أمه يقول: "إذا أدركت روسيا قوتها في أية لحظة، فإنها لا تستطيع اجتياح فنلندا (وكانت آنذاك جزءاً من السويد) من الجانبين فحسب، بل تستطيع كذلك حشد أسطول في البلطيق، يعرض أرض الأجداد للخطر(6) فأرسل أعظم قواده دهاء-جاكوب

صفحة رقم : 10160

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> السويد

دي لاجاري-ليغزو انجريا، وفي 1615 حاصر بنفسه بسكوف. وكانت المقاومة الروسية مرهقة ولكن بالتهديد بالتحالف مع بولندا، استطاع جوستاف أن يقنع القيصر ميكائيل رومانوف بعقد صلح (1617) يعترف بسيطرة السويد

على ليفونيا واستونيا وشمالى غربى انجريا، بما فى ذلك لننجراد الحالية. وسدت منافذ البلطيق أمام روسيا. وكان جوستاف يفخر بأن روسيا لا تستطيع تسبير سفينة واحدة فى البحر دون إذن من السويد. ثم ولى وجهه شطر بولندة حيث كان مليكها سجسند الثالث لا يزال يطالب بعرش السويد. وكانت الكاثوليكية آنذاك منتصرة فى بولندة، ومتهلفة على فرصة تسنح للسيطرة على السويد، وفوق ذلك كانت بولندة بما لها من ثغور قوية فى دانزج وممل وليبو وريغا، منافساً أقوى من روسيا، فى السيطرة على البلطيق والتحكم فيه. وفى 1621 قاد جوستاف 158 سفينة و19 ألف جندي لحصار ريفا التى كان يمر بها ثلث صادرات بولندة، وكانت غالبية سكانها من البروتستانت، وقد لا يستاعون من غزو سيد أجنبي لها. فلما استسلمت دون مقاومة، عاملها جوستاف فى رفق ولين ليضمن وقوفها إلى جانبه، وفى أثناء الهدنة التى استمرت ثلاث سنوات مع بولندة، استطاع هو أن يقوي روح جيشه وضبطه ونظامه، وجعل مثل معاصره كرومويل من التقى والورع أداة للخلق العسكري. ودرس فن موريس ناسو العسكري، وتعلم كيف يمكن كسب المعارك بسرعة الحركة وبلاستراتيجية البعيدة النظر. واستقدم من هولندا خبراء فنيين ليعلموا رجاله تكتيك الحصار واستخدام المدفعية. وفى 1625 عبر البلطيق مرة ثانية واستولى على دوريات، وثبت سيطرة السويد على ليفونيا، وأوصد البلطيق تماماً فى وجه لتوانيا. وبعد سنة أخرى أخضعت جيوشه بروسيا الشرقية والغربية، وكانتا خاضعتين للتاج البولندي. ولم تصمد سوى دانزج. وصارت الأقاليم المفتوحة مقاطعات سويدية، وطرد منها الجزويت، وجعلت اللوثرية المذهب الرسمي. وكانت

صفحة رقم : 10161

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> السويد

أوروبا البروتستانتية ترنو إلى جوستاف، على أنه منقذها المنتظر من الحرب الكبرى التى كانت تجتاح ألمانيا آنذاك. وفى أوقات السلم واجه جوستاف مشكلات الإدارة الداخلية بذكاء وحكمة أقل منهما فى الحرب. وكان أيام غيابه فى المعارك يعهد بحكومة البلاد إلى النبلاء وكان يبيع لهم، ضماناً لولائهم، احتكار المناصب وشراء أراضي التاج الشاسعة لقاء ثمن زهيد. ولكنه وجد فسحة من الوقت لتثبيت دعائم الموارد المالية وإعادة تنظيم المحاكم والخدمات البريدية والمستشفيات وتحسين أحوال الفقراء. وأسس المدارس المجانية وجامعة دوربات، وأغدق بسخاء على جامعة أيسالا، ونهض بالتعدين وعلم المعادن. ولم يكن نجاحاً يسيراً، من بين ما حققه من نجاح فى مجالات مختلفة، أن السويد توافرت فيها الموارد والخبرات والمهارة لصناعة الأسلحة. وشجع التجارة الأجنبية عن طريق منح الاحتكارات، ومنح شركة البحار الجنوبية السويدية امتيازاً. وروع وزيره أوكسنستيرنا، الذى عرف بهدوئه فى مواجهة الأزمات، بطاقة مليكه ونشاطه فقال: "إن الملك يشرف على المناجم والتجارة، والصناعات والجمارك ويوجهها كما يدير موجه الدفة سفينته(7)" وتوسل إلى جوستاف أن يخفف من نشاطه، فأجابه الملك بقوله: "لو كنا جميعاً فى مثل برودنك لتجمدنا" فرد عليه الوزير بقوله "لو كنا جميعاً فى مثل حرارة جلالتم لا حترقنا(8)". وكان الآن لزاماً أن تندس الحمى المدمرة التى تضطرم بين جنبي الفارس السويدي إلى "حرب الثلاثين"، فقد قال: "إن كل حروب أوروبا يعلق بعضها ببعض(9)" وكان قد لحظ بقلق بالغ انتصارات ولنشئين وتقدم جيوشل هيسبرج فى شمال ألمانيا وانهيار مقاومة الدنمرك، وتحالف بولندة مع النمسا، وهما كاثوليكيان، ومن ثم فسرعان ما قد تسعى قوات آل هيسبرج إلى السيطرة على البلطيق. وبذلك قد تصبح تجارة السويد وعقيدتها وحياتها تحت رحمة الإمبراطورية والبابوية. وفى مايو 1629 أرسل جوستاف إلى مجلس الديت السويدي تحذير من خطة ولنشئين فى أن يجعل من البلطيق

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> السويد

بحيرة يتحكم فيها آل هبسبرج. وأوصى بالهجوم على أنه خير وسيلة للدفاع، وأهاب بالأمة أن تهب لمساندته وتميل دخوله في معركة فاصلة (هرمجدون-سهلمجدو-العهد الجديد رؤيا يوحنا 16:16-معركة فاصلة بين الخير والشر) تحدد مصير المذاهب اللاهوتية. وكانت السويد مثقلة فعلاً بأعباء حملاته، ولكن مجلس الديت والشعب استجاباً لندائه وبمعونة ريشليو أقنع بولنדה بعقد هدنة مدتها ست سنوات (سبتمبر 1629). وقضى تسعة شهور في جمع السفن والمؤن والجنود والحلفاء. وفي 30 مايو 1630 خطب في الديت خطبة وداع مؤثرة بليغة، وكأنما كان قلبه يحدثه بأنه لن يرى السويد ثاني. وفيما بين 26-28 يونية أقت سفنه مر اسبها على جزيرة على مسافة من شواطئ بوميرانيا، وأطلق جوستاف إلى ساحة المجد والموت معاً.

ج- الملكة كريستينا

1632 - 1654

عين جوستاف، عندما كانت ابنته وريثة عرشه طفلة في الرابعة-واحد من أقدر رجال الدولة والسياسة في هذا العصر الزاخر بالعياقرة. هو الكونت أكسل أو كسنستونا، وصياً. وقد وصفته كريستينا فيما بعد بقولها: "لقد درس وتعلم كثيراً في شبابه، ودأب على الدرس في زحمة العمل. وكانت قدرته ومعرفته بشؤون العالم وأحواله عظيمنتين جداً. وعرف مواطن القوة والضعف في كل دولة في أوربا. وكان طموحاً، ولكنه كان كذلك مخلصاً غير قابل للإفساد أو الرشوة، ومن ناحية أخرى بطئ متوان بارد المزاج لا يبالي، إلى حد كبير" (10). وعرف عن الكونت أنه صموت، وأما عدم إفصاحه عن شيء، حتى وهو يتحدث، فهذا هو نصف في الدبلوماسية. وعلى مدى عامين حكم الكونت السديد حكماً صالحاً حين كان الملك جوستاف يخرج للحرب في أماكن بعيدة. ثم، بوصفه وصياً على كريستينا، وجه جيوش السويد في ألمانيا، كما أدار دفة الأمور في الداخل، ولم تنعم أية دولة في أوربا طيلة هذه الأعوام الاثني عشر بحكومة أفضل من حكومة السويد. وفي 1643 صاغ ما يعرف "بشكل الحكومة" حدد فيه تشكيل كل فرع في الإدارة وصلاحياته وواجباته. وهذا هو أقدم نموذج معروف لدستور مسطور.

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> السويد

وفي 1644 أحست كريستينا، وهي الآن في ربيعها الثامن عشر، أنها قادرة على حكم هذه الأمة الشديدة الحساسية النابضة بالحياة، والتي بلغ عدد سكانها المليون ونصف المليون من الأنفس. والحق أنها تحلت بكل قدرات ومواهب رجل نكي مبكر النضج. وقالت هي عن نفسها: "خرجت إلى الحياة وكل سلاحي شعري، وكان صوتي قوياً خشناً، مما جعل النساء يفكرن أنني صبي، وعبرن عن فرحتهن بهتافات ظللت الملك في أول الأمر (11)". وقابل جوستاف نبأ اكتشاف أنها أنثى في رجولة مهذبة، وأحبها حباً عميقاً حتى بدأ أنه راض عن أن تكون هي وريثة سلطانه وعرشه. على حين أن أمها ماريا الينورا أوف براندنبرج لم تغفر لها قط كونها أنثى. وربما أسهم استياء الأم في أن كريستينا صارت أكثر شبهاً بالرجل قدر ما كان يسمح لها جسمها وتكوينها بذلك، فأهملت شخصها عن عمد، واحتقرت التزيين، وأقسمت كما يقسم الرجال، وأحبت أن تتربى بزيهم، واعتادت على ألعابهم، وركبت منفرجة الساقين بأقصى سرعة، واصطادت في تهور واندفاع، وجندلت فريستها من أول طلقة. ولكنها كانت تقول: لم لأقتل مرة حيواناً إلا وأحسست بالشفقة نحوه (12)".

وعلى الرغم من هذا كله، تجلت في كريستينا بعض مفاتن النساء. وفي 1653 كتب بيرهيوث الذي أصبح فيما بعد أسقف أفرائش يقول: "وجهها دقيق جميل، وشعرها ذهبي وعيناها برأقتان... يرتسم التواضع على وجهها، ويبدو عندما تحمر وجنتاها خجلاً لدى سماعها أية لفظة نابية (13)". وقال قسيس الاعتراف الجزويتي لدى السفير الأسباني: "ولم تكن تطبق فكرة الزواج، لأنها ولدت حرة طليقة، ولسوف تموت حرة طليقة كذلك (14)". ويبدو أنها كانت تحس أن الاتصال الجنسي ليس بالنسبة للمرأة إلا ضرباً من المذلة والهوان. ولا ريب في أنها أدركت كما أدركت اليزابيث ملكة إنجلترا، أن زوجها لا بد أن يطمع في أن يكون ملكاً. وكانت تعي أخطاءها بشمل بالغ الحساسية وتعترف بها في شجاعة وجرأة. "كنت قليلة الثقة بالناس،

صفحة رقم : 10164

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> السويد

شكاكة طموحة إلى حد الإفراط، حادة الطبع، فخورة مغرورة، مزدريّة للناس، هجاءة، لم ارحم أحد، مفطورة على الشك، قليلة التعصب أو التمس للدين (15)" ولكنها كانت كريمة إلى حد الإسراف، مخلصّة في عملها. ويقول القسيس الجزويتي "كانت لا تنام أكثر من ثلاث أو أربع ساعات، فإذا استيقظت قضت خمس ساعات في القراءة. ولم تشرب قط إلا الماء القراح، ولم تسمع قط تتحدث عن طعامها أو جيد أم رديء الطهي... وكانت تحضر إلى مجلسها بانتظام... وانتابتها الحمى مرة لمدة ثمانية وعشرين يوماً لم تهمل فيها قط شؤون الدولة... واتصل السفراء بها وتعاملوا معها مباشرة، فلم يمروا قط يوماً على سكرتير أو وزير (16)".

ولم تتطلع إلى تنافس الشبان في ألعابهم ورياضتهم، ورجال البلاط في مجال السياسة فحسب، بل أنها أرادت كذلك أن تنافس العلماء في علمهم، لا في اللغات والآداب وحدها، بل في العلوم والفلسفة أيضاً. وما أن بلغت الرابعة عشرة حتى كانت قد درست الألمانية والفرنسية الإيطالية والأسبانية وفي الثامنة عشرة درست اللاتينية، وبعد ذلك بقليل اليونانية والعبرية والعربية، وقرأت للشعراء الفرنسيين والإيطاليين وأحبّتهم، وحسدت فرنسا على مدينتها التي تقيض حيوية ونشاطاً ومرحاً. وراستت في لهفة وحماسة، الباحثين، ورجال العلم والفلسفة في عدة بلاد، وجمعت مكتبة ضخمة تضم مخطوطات قديمة نادرة، هرع الطلبة للرجوع إليها والترود منها من كل حذب وصوب. وعند وفاتها تأثر الخبراء بذوقها الرفيع الذي تجلّى في افتتاح اللوحات والتماثيل والقطع الفنية المزخرفة بالمينا والمنقوشة على الخشب والمعدن، والتحف الأثرية. لقد جمعت العلماء، كما جمعت روائع الفن. وتأقت إلى رؤية العلماء والنقاد والمفكرين يحيطون بها، وجذبت إلى بلاطها كلوديوسي سالماً سيوسي وايزاز فوسيوسي. وهو جو جروشيوس ونيقولا

هنسيوس، وأجزلت لهم العطاء في سخاء، ومن لم يستطع منهم الحضور أرسلوا إليها كتبهم مع شكرهم وتقديرهم-مثل سكارون وجي دي بلزاك ومد موازيل

صفحة رقم : 10165

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> السويد

دي سكود بري. أما ملتون الوقور فإنه-على حين كان يشن هجوماً عنيفاً على سالما سيوس سالف الذكر-صرح لحكم العالم بأسره، لا أوربا وحدها(17)". وأرسل إليها باسكال آتته الحاسبة مع رسالة بالغة الرقة يهنئها ويمتدحها بأنها متربعة على عرش مملكة العقل والحكم معاً(18)".

وكان غرامها شديداً بالفلسفة، ورأست جاسندي، الذي هناها كما هناها مائة غيره، بأنها حققت حلم أفلاطون في وجود ملوك فلاسفة. وجاء فيلسوف العصر المشهور، رينيه ديكارت، ورأى، وعجب إذ سمعها تستنتج أفكاره الأثيرة لديه عن أفلاطون(19). فلما حاول أن يقتنعها بأن كل الحيوانات آلات، ردت عليه بقولها أنها لم تر قط ساعة يدها تلد ساعات "أطفالاً(20)" أي ساعات صغيرة. ومثل هذا كثير فيما بعد. ولم تهمل كريستينا المواهب المحلية. فقد كانت السويد متعددة جوانب الثقافة الحقة. فكان جورج ستجر نهلم عالماً لغوياً. متضلعا في القانون، من رجال العلوم، رياضياً، مؤرخاً، فيلسوفاً، أباً للشعر السويدي ومركزاً للحياة العقلية في هذا العصر. وأعجبت به جوستاف أدولف فرعه إلى مرتبة النبلاء. وعينته كريستينا شاعر البلاط، حتى لحق بأعدائها(21).

وفتنت بنظريات جون كومنيوس في التربية، فاستقدمته إلى ستوكهلم ليصلح نظم التعليم في السويد. ومثلما فعلت إليزابيث بالنسبة لأكسفورد وكمبرج، زارت كريستينا جامعة أسالا لتشجع بحضورها الأسانذة والطلبة، واستمعت إلى سترنهلم وغيره يحاضرون في النص العبري للتوراة. وشادت كلية في دوريات وأهدتها مكتبة، وأسست ست كليات أخرى. وطورت إلى جامعة، الكلية التي كان أبوها قد أسسها في أبو (توركو) في فنلندة. وأرسلت الطلبة للدراسة في الخارج، وبعثت بنفر منهم إلى شبه جزيرة العرب ليدرسوا علوم الشرق. واستقدمت بعض الهولنديين المشتغلين بالطباعة ليؤسسوا دار للنشر في ستوكهلم. وشجعت رجال العلم السويديين على الكتابة باللغة

صفحة رقم : 10166

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> السويد

الوطنية، حتى ينتشر العلم بين أفراد الشعب. ولا نزاع في أنها كانت من أعظم الحكام المستنيرين في التاريخ.

وهل وهبت هذه الملكة عقلاً خاصاً بها، أم أنها كانت مجرد وعاء لا يميز تتدفق فيه كل التيارات العقلية والفكرية التي تدور حولها؟ لقد انعقد الإجماع عن أنها فيما يتعلق بالحكومة كانت تتصرف بمحض تفكيرها، وصنعت قراراتها بنفسها، وحكمت سواء بسواء (22). وسنرى في فصل لاحق كيف أنها اعترضت على سياسة أوكسنسترن العسكرية، وكافحت من أجل السلام، وساعدت على إنهاء حرب الثلاثين عاماً. أن قصاصات مذكراتها فاتنة مفعمة بالحيوية، وليس في الحكم والأمثال التي تركتها بخط يدها شيء مبتذل، ومثال ذلك:

إن قيمة المرء على قدر ما يستطيع أن يحب.

ويجدر أن نخشى الحمقى والبلهاء أكثر مما نخشى الأوغاد.

إنك تسيء إلى الناس إذا لم تخدعهم.

المواهب الخارقة جريمة لا تغتفر.

هناك نجم يوحد بين الناس من الطراز الأول، رغم أن العصور والمسافات تفرق بينهم.

إن الزواج ليحتاج إلى شجاعة أكثر مما تحتاج الحرب.

إن المرء ليرتفع فوق كل شيء إذا لم يخشى شيئاً، ولم يحسب لأي شيء حساباً.

إن الذي يغضب من الدنيا أشبه بمن تعلم كل ما تعلم دون هدف أو غاية.

إن الفلسفة لا تغير الناس ولا تصلحهم(23).

وأخيراً، وبعد اختيار عدد من الفلاسفات، وربما بعد أن امتنعت عن أن تكون مسيحية، أصبحت كريستينا كاثوليكية أنها متهمه بأنها رضعت

صفحة رقم : 10167

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> السويد

لبنان الإلحاد والكفر من طبيعتها بورديوت(24). وذهب مؤرخ سويدي-وكرر فولتير قوله(25)-إلى أن تحولها إلى الكتلكة كان تمثيلية هزلية مقصودة، وبناء على هذه النظرية، تكون كريستينا قد انتهت إلى النتيجة التي تقول بأنها ما دامت الحقيقة شيئاً لا يمكن معرفته أو الوصول إليه، فللمرء أن يختار الديانة التي تستهوي قلبه وتتفق مع فكرة الجمال أكثر من غيرها(26)، وتوفر أكبر فد من الطمأنينة للناس. ولكن الارتداد إلى الكاثوليكية رد فعل صادق مخلص بعد التشكك المفرط، فقد يحفر التصوف جذوره في أعماق الشك. لقد كان في كريستينا عناصر صوفية خفية، فكل مذكراتها موجهة إلى الله في إخلاص بالغ. إن الإيمان ثوب واق. وإن التجرد الكامل منه ليترك الإنسان في حالة عرى فكري يتطلع إلى الكساء والدفء. وأي ثوب أدفاً من كاثوليكية فرنسا وإيطاليا الحسية النابضة بالحياة؟ وتساءلت الملكة: "كيف يكون المرء مسيحياً دون أن يكون كاثوليكياً(27)؟"

وفكرت كرسينا ملياً في هذه المسألة وفي المضاعفات التي ينطوي عليها ارتدادها فإنها إن تركت اللوثرية، فلا بد لها، بمقتضى قوانين مملكتها ووالدها الحبيب-أن تتخلى عن عرشها، وأن تغادر بلادها كذلك. وأية نكسة مروعة يكون هذا التحول في العقيدة لدفاع والدها البطولي عن أوروبا البروتستانتية، ولكنها ضاقت ذرعاً ولاقت نصباً من واجباتها الرسمية ومن خطب الوعاظ والمستشارين الرنانة، ومن الثالث المتحذلق من العلماء والأثريين والمؤرخين. وربما تعبت منها السويد وضاقت بها ذرعاً كذلك. وقد أفقرها وهبط بمواردها تخليها من أراضي التاج وهداياها وهباتها السخية لنوي الحظوة لديها والقربيين منها. وتكتلت أغلبية النبلاء ضد سياستها. وفي 1651 كان ثمة هبة توشك أن تكون ثورة. ولكن زعماءها أعدموا على عجل(28). ولكنها خلقت وراءها امتعاضاً شديداً، ولكن انتابها المرض آخر الأمر، لقد أضرت هي بصحتها. وربما كان السبب في ذلك كثرة العمل والدرس.

صفحة رقم : 10168

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> السويد

وكم من مرة أصابتها الحميات الخطيرة، مصحوبة بأعراض التهاب الرئتين. وكم من مرة غشيتها إغماءة، وظلت فاقدة الوعي لمدة ساعة. واشتد عليها المرض في 1648 فقالت أنها "أقسمت أن تتخلى عن كل شيء وتصبح كاثوليكية إذا برئت من سقامها وحفظ الله لها حياتها(29)". إنها كانت ابنة البحر المتوسط فارتعدت فرائضها من برد الشمال القاسي في الشتاء، وتاقت نفسها إلى سماء إيطاليا ومنتديات فرنسا. فكم يكون جميلاً أن تلحق بالنساء المثقفات اللاتي بدأن مهمتهن الفذة في رعاية الحياة الفكرية والعقلية في فرنسا، إذا استطاعت أن تحمل معها ثروة كافية!!

وفي 1652 بعثت سرراً إلى روما بأحد الملحقين في سفارة البرتغال ليطلب قدوم بعض الجزويت ليناقشوا معها اللاهوت الكاثوليكي، فجاءوا منتكرين. ولكن فت في عضدهم وثبط من همتهم بعض الأسئلة التي وجهتها إليهم-هل يوجد إله حقاً، هل تبقى الروح بعد فناء الجسم، وهل ثمة تمييز بين الصواب والخطأ إلا عن طريق المنفعة. فلما أوشكوا على الرحيل-ياساً-هدأت من روعهم بقولها "ماذا ترون لو أنني كنت أقرب إلى أن أصبح كاثوليكية مما تظنون؟" وقال أحد الجزويت تعقيباً على ذلك "فلما سمعنا هذا أحسنا بأننا بعثنا من مرقدا(30)".

وكان اعتناق الكتلثة قبل التخلي عن العرش أمراً محظوراً قانوناً. ولكنها رغبت قبل التخلي عن العرش، في الحفاظ على الطابع الوراثي للملكية السويدية، عن طريق إقناع الديت بالتصديق على اعتبارها لأبن عمها شارل جوستاف. خلفاً لها. ولكن طول المفاوضات أجل نزولها عن العرش حتى 6 يونية 1654. وكان الاحتفال الأخير مؤثراً قدر ما كان تخلي شارل الخامس عن العرش مؤثراً قبل ذلك بتسعين عاماً. فإنها نزع التاج عن رأسها، وطرح كل الشارات الملكية، وخلعت العباة الملكية، ووقفت أمام الديت في ثوب بسيط من الحرير الأبيض، وودعت بلدها وشعبها بخطاب فجر

صفحة رقم : 10169

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> السويد

بالدموع عيون النبلاء العجائز الرباطي الجأش، وممثلي المدن القليلي الكلام ووفر لها المجلس الموارد للمستقبل. وأباح لها الاحتفاظ بحقوقها الملكية على حاشيتها.

وغادرت ستوكهلم عن الغسق، بعد خمسة أيام من تخليها عن العرش. وتوقفت في نيكوبنج لزيارة أخيرة لأمتها. ثم مضت في طريقها، ولما لم تذق طعم النوم لمدة يومين، فإنها مرضت بذات الجنب، فلما برئت تابعت المسير إلى هامستاد. وهناك كتبت إلى جاسندي، بأنها تمنحه معاشاً وتبعث إليه بسلسلة ذهبية. وفي اللحظة الأخيرة تلقت عرضاً بالزواج من الملك شارل العاشر الذي توج حديثاً، فرفضت في عطف وكياسة وتكررت في زي رجل تحت اسم كونت دونا، وركبت البحر إلى الدنمرك، دون أن تدري أنها لمدة خمس وثلاثين سنة أخرى ستلعب دوراً في التاريخ.

صفحة رقم : 10170

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> بولندا تكفر عن ذنبيها

1648 - 1569

في هذا العصر عقدت بولنדה أيضاً أوامر السلام مع الكنيسة الكاثوليكية. وقد يكون من المفيد أن نرى كيف استردت الكاثوليكية بسرعة في هذه المملكة تقريباً كل ما كانت قد فقدته من مكانه في حركة الإصلاح الديني، ولكن فلنمر أولاً مروراً عابراً، كالمعتاد، بالخلفية السياسية لهذا التطور الثقافي.

أ- الدولة

تبدأ الفترة بحدث بارز تم إنجازه في فن الحكم. كانت دوقية لتوانيا الكبيرة تقع إلى الجنوب الشرقي من بولنדה، يحكمها أدواقها، وتمتد من البلطيق عبر كييف وأوكرانيا إلى أردسا والبحر الأسود. وكان نمو قوة روسيا يعرض استقلال لتوانيا للخطر. وعلى الرغم من توافق عقيدتها

صفحة رقم : 10171

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> بولنדה تكفر عن ذنبها

الأرثوذكسية اليونانية إلى حد كبير مع ديانة روسيا. فإنها أقرت كارهة أن الاندماج مع بولنדה الكاثوليكية قد يكون أفضل للحفاظ على حكمها الذاتي من معانقة الدب الروسي. وميز سجسمند الثاني عهده بتوقيع "اتحاد لوبلين" التاريخي (1 يونيو 1569). واعترفت لتوانيا بملك بولنדה "دوقاً أعظم" عليها. وبعثت بمندوبين أو ممثلين لها إلى البرلمان في وارسو، وارتضت أن يكون لهذا البرلمان حق السيطرة على علاقاتها الخارجية، ولكنها احتفظت بعقيدتها وقوانينها وحق التصرف في شؤونها الداخلية. واتسعت أطراف بولنדה وبلغ عدد سكانها الآن إحدى عشر مليوناً من الأنفس، من دانزج إلى أوديسا، ومن البحر إلى البحر. فكانت إحدى الدول العظمى دون منازع. وبموت سجسمند الثاني دون عقب ذكر (1572) انتهت أسرة "جاغلون" التي كانت قد بدأت في 1386، وهيأت لبولنדה خطأ متصلاً من ملوك إتسموا بالخلق والإبداع، وحضارة قامت على التسامح الديني واستتارة قوامها الروح الإنسانية. وكان النبلاء يكرهون الملكية الوراثية، على أنها إهدار لحقوقهم وحررياتهم الإقطاعية، فاستقر عزمهم الآن على الاحتفاظ بالسلطة في أيديهم عن طريق ملكية انتخابية، فأسسوا جمهورية من النبلاء وجعلوا ملوك بولنדה القادمين خدماً أو أتباعاً للبرلمان. ولما لم يكن البرلمان يضم كبار النبلاء أو الأعيان فحسب، بل كان يضم كذلك صغار النبلاء، فقد بدا أن هذه الخطة تحقق المثل الأعلى لأرسطو في حكومة تمتاز فيها العناصر الملكية والأرستقراطية والديمقراطية، في قيود وضوابط متبادلة. ومهما يكن من أمر، فإن الدستور الجديد، في نطاق ذلك العصر، لم يكن

يعني إلا انتكاسة إقطاعية، تفنيت السلطة والزعامة، على حين كانت منافستا بولنדה في البلطيق- السويد روسيا- تنصهران في وحدات عسكرية بفضل الملكيات الوراثية التي كان يحق لها أن تفكر على أساس الأجيال. وبات انتخاب الملك الآن في بولنדה مزاداً لأصوات النبلاء تعطى لمن يدفع أكثر من بين المرشحين

صفحة رقم : 10172

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> بولنדה تكفر عن ذنبها

الذين تمولهم، عادة الدول الأجنبية. وبذلك استطاع عملاء فرنسا بتوزيع العطايا والأموال باليمين والشمال، شراء تلج بولنדה للمنحل المنحرف هنري فالو (1573) ليعيدوه بعد ذلك بعام واحد ليحكم فرنسا حكماً سيئاً فاسداً تحت اسم هنري الثالث.

وأصلح مجلس الديت الذي يتولى الانتخاب خطأه، بعد فترة خلا فيها العرش وامت الفوضى، باختياره ستيفن باثوري ملكاً (1575). وكان، بوصفه أميراً على ترنسلفانيا، قد اشتهر بالفعل في مجال السياسة وميدان الحرب وكان عملاًؤه في وارسو قد وعدوا بأنه سيسدد "إذا انتخب" الدين الوطني، ويمد الخزانة بمائة ألف فلورين، ويسترد الأراضي التي كانت بولنדה قد نزلت عنها لروسيا، ويضحي بحياته في ميدان القتال، إذا اقتضى الأمر من أجل شرف بولنדה ومجدها، ومن ذا الذي يستطيع أن يقف في سبيل هذا العرض؟. وعلى حين أيدت قلة غنية من النبلاء ترشيح مكسمليان الثاني النمساوي، نادى سبعة آلاف عضو من الديت المنتخب باثوري، فقدم ومعه 2500 جندي، وكسب قلوب كثير من الناس بزواجه من أنا جاجلون، وقاد جيشاً ضد دانزج (التي رفضت الاعتراف به) وأرغم الثغر المغرور على دفع غرامة قدرها مائتي ألف جولدن للخزانة الوطنية.

وعلى الرغم من كل هذا لم يستوثق النبلاء من أنهم يحبون الملك الجديد، بعينيه الحادثتين النافذتين. وتفكيره الواقعي، وشاربه المروع، ولحيته التي توحى بالاستبداد والدكتاتورية. لقد احتقر الأبهة والمواكب والاحتفالات وارتدى ثياب بسيطة، بل لبس الملابس المرقعة، وكان طعامه المفضل من لحم البقر والكرنب. ولما طالب بالمال لتجهيز حملة على روسيا أمده النبلاء بقدر غير كاف، وهم متذمرون. وتقدم معتمداً على معونات ترنسلفانيا، بجيش صغير وحاصر بسكوف ثالثة مدن روسيا آنذاك من حيث الحجم. وأحس إيفان الرابع على الرغم من أنه كان يرهب شعبه، بأنه أكبر سناً من أن يلاقي عدواً في مثل

صفحة رقم : 10173

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> بولنדה تكفر عن ذنبها

هذه الحيوية والنشاط، فطلب الصلح ونزل على ليفونيا لبولنדה، وسلم بأبعاد روسيا عن البلطيق (1582). وعندما أدركت إيفان المنية (1584) اقترح باثوري على سكستس الخامس أن يغزو كل روسيا ويوحدها مع بولنדה، ويطرده

الأتراك من أوربا، ويعيد كل أوربا الشرقية إلى حظيرة البابا. ولم يعترض البابا. ولكن في غمرة هذه الاستعدادات الشاقة لحملة صليبية، فارق باثوري الحياة (1586). واعترفت بولنדה، بعد مماته وبعد أن كف عن إرهابها بأنه من أعظم ملوكها.

وبعد سنة من المساومة خلع الديت العرش على سجسمند الثالث، الذي يمكن بوصفه وريثاً لعرش السويد، أن يوحد البلدين ليسيتر على مياه البلطيق ويعوقا توسع روسيا. وقضى سجسمند كما رأينا، نصف مدة حكمه في مجالات عقيمة لتثبيت سلطانه، وتدعيم المذهب الكاثوليكي في السويد. وسنحت فرصة أخرى لسجسمند بموت بورييس جودونوف المفاجئ (1605)، حيث عمت روسيا حالة من الفوضى أصبحت معها عاجزة عن الدفاع عن نفسها ودون استئثار البرلمان البولندي أعلن سجسمند ترشيح نفسه للعرش المسكوفي وسار بجيش إلى روسيا. وعلى حين قضى هو عامين في حصار سمولنسك، هزم قائده ستانسلا زلكوسكي الروس في كلوشينو وتقدم نحو موسكو، واقنع النبلاء بقبول لادسوس بن سجسمند ملكاً عليهم (1610). ولكن هذا الأخير أنكر هذه الترتيبات، فيجب أن يكون القيصر هو لا ابنه. فلما استولى آخر الأمر على سمولنسك (1611)، تقدم نحو موسكو، ولكنه لم يصل إليها قط، فقد أقبل الشتاء بمعوقاته. وتمرد جنوده الذين لم يتفاوضوا رواتبهم. وفي 12 ديسمبر 1612، أي قبل نابليون بقرنين من الزمان، تفهقر جيشه وسط سوء النظام والفناء، من روسيا إلى بولنדה. ولم يتبق من هذه الحملات الباهظة التكاليف إلا امتلاك سمولنسك وسفرسكي، بالإضافة إلى نفحة قوية من تأثير بولنדה على الحياة الروسية.

صفحة رقم : 10174

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> بولنדה تكفر عن ذنبها

وكانت بقية حكم سجسمند سلسلة من الحروب الفاجعة، فقد ورطه تحالفه مع آل هسبوج-مما ابتهج له الإمبراطور-في صراع كلفه غالباً مع الأتراك لم تتج منه بولنדה إلا بفضل مهارة قوادها وشجاعة جنودها. واستفاد جوستاف أدولف من انشغال بولنדה في الجنوب في غزو ليفونيا. وبمقتضى صلح ألنمارك (1629) سيطرت السويد على ليفونيا وعلى البلطيق. وقضى سجسمند نحبه محطماً متهدماً (1632).
وخلع الديت تاج بولنדה على ابنه لادسلاس الرابع، الذي كان الآن في السابعة والثلاثين، وكان قد كشف عن نشاطه وهمنته وجلده كقائد، وكسب صداقات كثيرة بفضل خلقه الصريح المرح. وأساء إلى البابا بتسامحه مع البروتستانتية في بولنדה ومع الأرثوذكسية في لتوانيا. وأباح في ثورن قيام حوار عام سلمى بين رجال الدين الكاثوليك واللوثريين والكلفنيين (1645) وشجع الفن والموسيقى. واشترى لوحات روبنز وأقمشة جوبلان المزركشة وأقام أول مسرح بولندي دائم، ومثل عليه الأوبرا الإيطالية، وتبادل الرسائل مع جاليليو في سجنه، ودعا العالم البروتستانتي جروشيوس إلى بلاطه وفارق الحياة (1648) في الوقت الذي هددت فيه الدولة البولندية ثورة عارمة في القوازق.

2- المدنية

كان الاقتصاد البولندي لا يزال يتسم بسمات العصور الوسطى. وكانت التجارة الداخلية في أيدي الباعة المتجولين، والتجارة الخارجية مقصورة إلى حد كبير على دانزج وريغا، ولم تكن طبقة التجار تتمتع بثراء يذكر، وقلما سمح لأفرادها بعضوية البرلمان، فإن النبلاء تحكوا في الديت وفي الملك وفي الاقتصاد، وسيطروا على هؤلاء جميعاً. وكان يفلح الضياع الواسعة مزارعون خاضعون لتنظيمات إقطاعية أفسى من بعض الوجوه مما كان عليه الحال في

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> بولنדה تكفر عن ذنبها

مزارع فرنسا في العصور الوسطى. وكان النبيل المالك يضع هذه التنظيمات بنفسه، ويفرضها بقوة جنوده، ويحرم على مستأجريه مغادرة نطاق ولايته دون موافقته، وينقلهم من مكان إلى مكان، ويزيد من الأرض أو ينقص منها وفق مشيئته، ويفرض عليها في كل عام أيام عمل لا يتقاضون عنها أجراً ويرغمهم على أن يبيعوه أو يشتروا منه وحده، وعلى أن يتعاون منه كل عام قدرأ من الجعة الرديئة الصنع. وكان يستطيع تجنيد أبنائهم لخدمته في زمن السلم والحرب. كان هؤلاء المزارعون أحراراً. "قانوناً لهم" حق التملك والتوريث، ولكن "الأب" الجزويتي سكارجا نعتهم بأنهم أرقاء(31).

وكانت الحياة قروية في معظمها. وكان النبلاء يتجمعون في وارسو لإملاء إرادتهم الجماعية، ولكنهم عاشوا في ضياعهم، يصطادون ويتشاجرون، ويستمتعون بأطيب المتع، ويتبادلون المآذب الباذخة، ويتدربون على الحرب وكانت الزيجات تتم عن طريق الوالدين. وقلما سئلت البنت رأيها، وقلما عارضت، فالمفروض أن الحب الذي يولده الزواج والأبوة أقوى على البقاء والدوام من الزواج الذي ينشأ عن الحب. وكانت النساء متواضعات جادات نشيطات. وكانت آداب السلوك الجنسي مرعية كل الرعاية. ولم نسمع بقصص غرام خارج نطاق الزوجية قبل القرن الثامن عشر(32). وكان الرجال، لا النساء، هم الذين يضعون قواعد السلوك، باستثناء سيسيليا ريناتا التي تزوجت من لاديسلاس الرابع 1637، والتي أحيت الآثار الإيطالية التي استوردها الفنانون ورجال الدين في أزمنة سابقة. ولويزماري جونزاج التي تزوجها 1648، والتي جلبت معها موجة من قواعد السلوك الفرنسية والكلام الفرنسي بقيت حتى القرن العشرين، وكان في الرقصات البولندية رقة مهيبة، حدثت برجل فرنس في 1647 إلى التحدث في إعجاب عن البولنديات.

ولم يقدر للفنان البولندي أن يلاحق المستوى الذي كان قد وضعه في تستوس في كراكاو 1477. ولقد نسجت أقمشة سجسمند الثاني المزركشة في الفلاندرز

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> بولنדה تكفر عن ذنبها

وأقام مهندسون معماريون ونحاتون إيطاليون التماثيل لسجسمند وباتوري وأنا جاجلون في كاتدرائية كراكاو، وكنائس الجزويت الباروكية في كراكاو ونيزويو وعمود سجسمند الثالث الشهير في وارسو، وأصاب الوهن التصوير في بولنדה تحت هجمات البروتستانت على الصور الدينية، ولكن مارتن كوبر رسم صورة شخصية ملهمة الملك باتوري. وعانى التعليم كما عانت الفنون التخطيطية من الاضطراب الديني. ومرت جامعة كراكاو بفترة انحطاط عابر. ولكن باتوري أسس جامعة ولسو (1578)، وفي كراكاو وولنو وبوزثان وريجان وغيرها أسس الجزويت كليات بلغ من

امتيازها وتفوقها أن كثيراً من البروتستانت أثروا لتتنشئة أبنائهم عقلياً وخلقياً. وخير من كل هذه مدرسة طائفة "الموحدين" في كراكاو التي جذبت إليها ألف طالب من مختلف الملل. وأعد جان ذا موسكي مستشاري باثوري ذي النزعة الإنسانية، في زاموسك جامعة جديدة خصصت أساساً للدراسات الكرسبكية. وكانت ثمة وفرة في الأدب في بولندا. وكانت الخلافات الدينية فظة في النعوت مهذبة معقولة في الشكل، ومن ثم ستاتسلاس أورزيكوسكي الذي كان يدافع عن الكاثوليكية، ناضل من أجلها بصر أوة وتعصب عنيف، "في لغة بولنديو رائعة، تعد من أحسن ما كتب في تاريخنا(33)" ولم يكن يقل عنها شهرة في الأسلوب "رجل البلاط البولندي" (1566) الذي ألفه لوكازجورنيكي وهو تعديل لكتاب كاستليوني "رجل البلاط". وبرز الجزويتي بيتر سكارجو في الشعر والنثر والتعليم والسياسة. وأنتقل من رئاسة جامعة ولنو إلى منصب كبير الوعاظ في البلاط الملكي وقضى فيه أربعة وعشرين عاماً ما كان فيها "بوسويه" بولندا، واستنكر فيها غير وهاب ولا وجل الفساد الذي رآه يستشري من حوله. وتنبأ بأنه إذا لم تصل الأمة إلى حكومة أكثر استقراراً ومركزية فإنها لا بد أن تقع فريسة للدول الأجنبية، ولكنه نادى بملكية مسئولية مقيدة

صفحة رقم : 10177

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> بولندا تكفر عن ذنبيها

ومحددة بالقانون. وظل شعر كوكانوسكي دون منافس في مجاله وفي لغته حتى القرن التاسع عشر، ولا يزال شعبياً مألوفاً حتى اليوم. وقد بلغ الشاعر ذروة الإثارة والإلهام في رثائه وحزنه على ابنته أورسولا التي ماتت في نضارة الطفولة.

وعوق الصراع الديني كل نواحي الثقافة البولندية في ذلك العصر. ففي النصف الأول من القرن السادس عشر بدا أن البروتستانتية قدر لها أن تسيطر على بولندا، وعلى ألمانيا والسويد أيضاً. وكسبت إلى جانبها من النبلاء تمرداً على سلطة الملك وفساد الكنيسة، ووسيلة لانتزاع أملاكها(34). ومنح سجمند الثاني بلاده تسامحاً دينياً واسع النطاق. وبعد عام من وفاته صاغت لجنة من الديت (28 يناير 1573) "اتحاد وارسو الكونفدر إلي" الذي يضمن الحرية الدينية لكل الشيع والفرق بلا استثناء. فلما عرض المشروع للتصويت عارضه الأعضاء الأسقيون في المجلس. ولكن أقره بالإجماع الأعضاء العلمانيون الثمانية والتسعون، بما في ذلك واحد وأربعون كاثوليكياً(35)، وهذا يمثل نقطة بارزة في تاريخ التسامح، لأن أي إعلان رسمي سابق من هذا القبيل لم يصل إلى هذا المدى. وانتعشت في ظل هذه الحماية العريضة عدة طوائف متباينة، اللوثريون، والكلفنيون، وأتباع زونجلي، وأنصار تجديد العمامد، والأخوة البوهيميون؛ وغير القائلين بالنتليث. وفي عام 1579 قدم إلى بولندا فاستس سوسينس، وبدأ يؤسس كنيسة قائمة على مذهب التوحيد ولكن أهالي كراكاو أخرجه من داره ودمروا مكتبته، وكادوا يقتلونه لولا أن المدير الكاثوليكي للجامعة هب لنجدته (1598(36))، واتحد الكلفنيون مع اللوثريون في المطالبة بطرد الموحدين أتباع سوسينس من بولندا. وأمر الديت في 1638 بإغلاق مدارس الموحدين؛ وفي 1658 نفي أفراد هذه الطائفة من البلاد. ففروا إلى ترانسلفانيا والمجر وألمانيا وهولندا وإنجلترا؛ وأخيراً إلى أمريكا؛ ليجدوا أعظم معبر عنهم في شخص أمرسون.

صفحة رقم : 10178

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> بولندة تكفر عن ذنبها

أن التعصب الشعبي والتربية الجزويتية والنظام الكاثوليكي والسياسة الملكية والتشيع الطائفي البروتستانتي، اجتمعت كلها بعضها إلى بعض لتقضي على البروتستانتية في بولندة، فإن الطوائف الجديدة حاربت الواحدة منها الأخرى بمثل الضراوة التي حاربت بها المذهب القديم. وتعلق المزارعون بالمذهب القديم لمجرد أنه قديم؛ حيث كان يمثل الارتياح إلى العادة والعرف المألوف؛ ولما أنضم الملكان-باثوري وسجسمند الثالث-إليه، وجد كثير من البروتستانت وأبنائهم، أنه من الأفضل لهم أن يعقدوا أوامر السلام مع الكنيسة وكان معظم الألمان في بولندة من البروتستانت، وتلك حقيقة وجهت الشعور الوطني إلى مناصرة الكاثوليكية ومعاونتها. وتعاونت الكنيسة تعاوناً جاداً مع هؤلاء الأعداء المنقرضين على استرداد بولندة إلى حظيرة البابا، فأرسلت نخبة من أكثر الدبلوماسيين فيها رصانة، وأكبر الجزويت المغامرين، ليسبوا إلى جانبها، الملوك والنساء والأطفال، بل حتى النبلاء البروتستانت أنفسهم. وحذر رجال الدولة الكنسيون، مثل الكاردينال ستانسلاس هوسوس والأسقف جيوفني كومندون، الملوك من تأسيس نظام اجتماعي أخلاقي سياسي مستقر على المذاهب البروتستانتية المائعة المتضاربة. وأثبت الجزويت قدرتهم على الدفاع عن الأمور التي كان الناس يتشككون فيها ولا يصدقونها، ضد ما استحدث الآن من معتقدات وطقوس. وفي نفس الوقت فإن رجال الدين الكاثوليك الذين التزموا بقرارات مجمع ترنت، خضعوا الآن لإصلاح ديني صارم مثير للإعجاب (37). ولكن للكاثوليك أيضاً مشكلة. ذلك أن اتحاد لوتوانيا وبولندة عمل على إيجاد تلاحم مثير للغضب بين الكنيسة الأرثوذكسية الكاثوليكية وكان الخلاف بين الكنيستين طفيفاً ولكن الصلوات الأرثوذكسية اتبعت الطقوس السلافية، كما اتخذت القساوسة الأرثوذكس زوجات. وفي 1596، وعن طريق، "اتحاد برست ليتوفسك"، شكل جان زاموسكي مجموعة وسطاً من

صفحة رقم : 10179

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> بولندة تكفر عن ذنبها

رجال الدين والعلمانيين في "كنيسة موحدة"، اعتنقت فكرة زواج رجال الدين، واتبعت الطقوس السلافية، وفي نفس الوقت ارتضت المذهب الكاثوليكي الروماني واعترفت بسيادة البابا. وراود زعماء الكاثوليك الأمل في أن يؤدي مثل هذا الحل الوسط إلى التوفيق بين الكنيستين، تدريجياً، إلى كسب الملتين اليونانية والروسية إلى جانب الامتثال للبابا. ولكن الكنيسة الجديدة لاقت مقاومة ماثرة. وذبح أهل بولوك رئيس أساقفتها. وظل ملوك بولندة طوال القرن السادس عشر، يطبقون تسامحاً دينياً أكثر تقدماً منه في أي بلد مسيحي آخر. ولكن السكان الكاثوليك كثيراً ما عادوا سيرتهم الأولى إلى سياسة العداء الشديد، فانقضوا على كنيسة بروتستانتية في كراكاو، ونبشوا قبور البروتستانت (1606-1617). وحطموا كنيسة بروتستانتية وُلنو، وضرّبوا وقيل قتلوا- قساوستها (1611) وفي بورنات أحرقوا كنيسة لوثرية. وفضوا اجتماعاً خاصاً "بالأخوة البوهيمين" (38). ولم يشترك رجال الدين الكاثوليك في هذه المظاهرات الدينية الشعبية، ولكنهم أفادوا منها. وتعاونت كل الظروف على تأييد الكنيسة القديمة، حتى تم لها النصر في 1648.

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> روسيا المقدسة

4- روسيا المقدسة

1584 - 1645

أ - الشعب

قال نازدين في 1831: "ما عليك إلا أن تلقي نظرة على خريطة العالم ليتولاك الرعب إزاء قدر روسيا وما قسم لها". وكانت قد وصلت في 1638 إلى المحيط الهادي عبر سبريا، وإلى بحر قزوين عبر نهر الفولجا، ولم تكن على أية حال، فقد وصلت بعد إلى البحر الأسود، فقد اقتضى هذا حروباً كثيرة. ولم يجاوز عدد السكان عشرة ملايين في 1571(99). وكان يمكن أن

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> روسيا المقدسة

توفر الأرض الغذاء لهذه الملايين في سهولة ويسر، ولولا أن الفلاحة الطائشة المهملة أنهكت المزرعة تلو الأخرى، فانتقل الفلاحون إلى أرض أقوى وأخصب. ويبدو أن هذه النزعة إلى الهجرة أسهمت في نشأة الرقيق. ذلك أن معظم المستأجرين كانوا يحصلون من النبلاء ملاك الأرض على سلفيات لتنظيف المزرعة وتجهيزها بالأدوات وإعدادها للزرع. وكانوا يدفعون على هذه القروض نحو 20%(40)، فلما عجز الكثير منهم عن سداد ما اقترضوا صاروا أرقاء لهؤلاء الملاك. لأن قانوناً صدر في 1497 نص على أن يكون المدين المقصر في الدفع عبداً لدائنه حتى يوفي الدين. وتقديماً لهذه العبودية هرب بعض الفلاحين إلى معسكرات القوازيق في الجنوب. وحصل بعضهم على حريته بالموافقة على استصلاح أراضي جديدة غير ممهدة. وبهذه الطريقة استوطنت سيبيريا، وهاجر بعضهم إلى المدن حيث اشتغلوا ببعض الحرف، أو اشتغلوا في المناجم أو

صناعة المعادن أو صناعة الذخيرة، أو خدموا التجار، أو تجولوا في الشوارع يبيعون السلع. وشكا الملاك من أن هجرة المستأجرين عن المزارع- دون دفع ديونهم عادة- قد عوقبت الإنتاج الزراعي؛ وجعلت من المتعذر على الملاك دفع الضرائب المتزايدة التي تطلبها الدولة. وفي 1581 وضماناً لاستمرار زرع الأرض؛ حرم إيفان الرهيب على المستأجرين لدى طبقة الأوبرشنيكي- رجال الإدارة- أن يتركوا المزارع دون موافقة الملاك؛ وعلى الرغم من أن هذه الطبقة كانت تفقد الآن مركزها الممتاز شيئاً فشيئاً. فقد بقي الرقيق الذي نشأ بهذه الطريقة يعمل في ضياعها. وسرعان ما طلب النبلاء ورجال الدين الذين تملكوا الجزء الأكبر من أرض روسيا؛ مستأجرينهم بهذا. فكان الفلاحون الروس في الحقيقة؛ إن لم يكن بمقتضى القانون؛ أرقاء مرتبطين بالأرض(41). وكانت روسيا لا تزال لاصفة بالهمجية. فالسلوك فظ غليظ؛ والنظافة ترف نادر؛ والامية امتياز طبقي؛ والتعليم بدائي، والأدب في معظمه حوليات

صفحة رقم : 10182

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> روسيا المقدسة

رهبانية أو عظات دينية أو نصوص طقسية، والكتب الخمسمائة التي نشرت في روسيا بين عامي 1613 و1682 كانت كلها تقريباً دينية(42). ولعبت الموسيقى دوراً هائلاً في الدين وفي البيت. وكان الفن خادماً للعقيدة الأرثوذكسية، وشادت الهندسة المعمارية كنائس معقدة زاخرة بأماكن الصلوات والمعابد الصغيرة الملحقة بها. وبالمباني الناشئة عنها، وبالقباب البصلية الشكل، مثل كنيسة عذراء الدون في موسكو. وزين فن الرسم جدران الكنائس والأديار بالرسوم الجصية التي حجب الآن معظمها، أو بالصور الدينية والأيقونات الغنية بالإبداع التصويري لا المهارة الفنية(43)، كما هو الحال في كنيسة معجزة سان ميكايل في كراكاو. وفي 1600 لم يعد رسم الأيقونات فناً بل أصبح صناعة تنتج قطعاً متماثلة على نطاق واسع، للتعبد والتبئيل والتقوى داخل البيوت أما الإنتاج الفني البارز في هذا العصر فهو برج الناكوس الذي يبلغ ارتفاعه مائة متر- وهو برج إيفان فلكي (جون الأكبر) الذي أقامه أحد المهندسين الألمان في ميدان الكرملين (حوالي 1600) كجزء من برنامج بوريس جودونوف في الأشغال العامة لتخفيف حدة التعطل.

وفي الكنائس الفخمة المتألقة بالزخارف الثمينة، المعتمدة بالكأبة المتعمدة والتي تجلب النعاس بالطقوس المهيبة والتراتيل والصلوات الجهورية الرنانة، طبع رجال الدين الأرثوذكس الناس على التقوى والطاعة والأمل المتواضع. وقل أن تعاونت عقيدة ما مع الحومة مثل هذا التعاون الوثيق. وضرب القيصر المثل في التمسك المخلص الصادق بالدين وفي البر بالكنيسة، ولقاء هذا أحاطته الكنيسة، بدورها، بهالة من القداسة الرهيبة، وجعلت من عرشه حرماً منيعاً لا تنتهك حرمة، وغرست في الأذهان أن الخضوع له وخدمته واجب يلتزم به الناس أمام الله. وأسس بوريس جودونوف البطريركية الروسية مستقلة عن القسطنطينية (1598) ولمدة قرن من الزمان نافس مطران موسكو المقام السامي للقيصر ومكانته العالية، وفي بعض الأحيان تحدى سلطانه. وفي 1594 عندما أوقد البابا كليمنت الثامن إلى موسكو، بعثة تقترح اتحاد الكنيسة

صفحة رقم : 10183

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> روسيا المقدسة

الأرثوذكسية واللاتينية تحت زعامة البابا، رفض بوريس الاقتراح قائلاً: "إن موسكو هي الآن رومة ذات المذهب القديم الحق (الأرثوذكسي)". وجعل الجميع يواجهون الدعوات ويقومون الصلوات من أجله وهو وحده بوصفه "الحاكم المسيحي على الأرض" (44).

ب- بوريس جودونوف

1584 - 1605

لم يكن بوريس في الواقع بعد إلا حاكماً فقط. أما القيصر فكان فيودور الأول إيفانوفتش (1584-1598)، الابن الهزيل لإيفان الرابع الرهيب وآخر أفراد "آل روريك" (مؤسس روسيا). وكان فيودور قد شهد موت أخيه الأكبر بضربة شيطانية من أبيه، فلم يشأ أن يتشبهت بارادته أو يعارض في شيء، وانزوى هرباً من مخاطر القصر، منصرفاً إلى العبادة والتبثُل، وعلى الرغم من أن شعبه لقبه "بالقدّيس" فإنه أيقن أنه كانت تعوزه القوة والصلابة ليحكم الرجال. وكان إيفان الرابع قد عين مجلساً لتوجيه الشاب وتقديم النصح والمشورة له. ولكن أحد أعضائه، وهو أخو زوجة فيودور - بوريس جودونوف - سيطر وقبض على زمام الأمور، وأصبح حاكم البلاد. وكان إيفان الرابع قد خلف من زوجته السابعة والأخيرة، ابناً آخر، هو ديمتري إيفانوفتش الذي كان آنذاك (1584) في الثالثة من عمره، ورغبة من المجلس في أن يجنب الطفل أخطار الدسائس - بخلاف دسائسه هو، أي المجلس - أرسل الطفل وأمه للإقامة في أوغليبيش، على بعد نحو 120 ميلاً إلى الشمال من موسكو. وهناك في 1591 قضى ابن القيصر نحبه بطريقة لم يتم التحقق منها بعد. وتصدت إلى هذه البلدة لجنة للتحقيق في الحادث، يرأسها الأمير فاسيلي شويسكي أحد أعضاء المجلس، وجاء تقريرها يقول بأن الصبي قطع حلقومه في نوبة صرع ألمت به. ولكن أم ديمتري وجهت الاتهام بأنه قتل بأمر من جودونوف (45). ولكن جريمة بوريس لم تثبت قط، ولا تزال مثار جدل بين بعض المؤرخين (46). وأجبرت الأم على التهرب، ونُفي أقرباؤها

صفحة رقم : 10184

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> روسيا المقدسة

من موسكو، وأضيف ديمتري إلى قائمة القديسين الأرثوذكس، وطواه النسيان إلى حين. وكان بوريس - مثل ريتشارد الثالث في إنجلترا - أكثر توفيقاً في الحكم أثناء وصايته على العرش، منه بعد تربيته عليه فيما بعد. وعلى الرغم من أنه كان ينقصه التعليم الرسمي النظامي، بل ربما كان أمياً، فقد أوتي مقدرة جبارة، ويبدو

أنه بذل جهوداً مضمّنية لمواجهة مشاكل الحياة في روسيا. فأصلح الإدارة الداخلية، وحد من فساد القضاء، وأولى الطبقات الدنيا والوسطى عطفاً ورعاية، وكلف الأشغال العامة بتهيئة فرص العمل للفقراء من سكان المدن، وخفف من أعباء الأرقاء والتزاماتهم، وكان - كما يقول أحد كتاب الحوليات المعاصر - "محبوباً لدى كل الناس" (47). وحظي باحترام الدول الأجنبية وثقتها (48). ولما مات القيصر فيودور الأول (1598) طلبت الجمعية الوطنية من جودونوف بالإجماع أن يتولى العرش. فقبله مع تظاهره بالمعارضة خجلاً من أنه غير جدير به، ولكن ثمة شبهة بأن عملاءه كانوا قد مهدوا السبيل في الجمعية الوطنية. ونازع جماعة من النبلاء من الذين كرهوا منه دفاعه عن طبقة العامة (49). نازعوا في حقه في اعتلاء العرش. تأمروا على خلعه، فأودع بوريس بعضهم السجن ونفى آخرين، وأرغم فيودور رومانوف (والد أول قيصر من أسرة رومانوف). على أن يدخل في سلك الرهينة. ومات نفر من هذه المجموعة المغلوبة على أمرها. في ظروف موأتية لبوريس إلى حد اتهامه بتدبير قتلهم. ولما كان يعيش آنذاك في جو من الشك والفرع. فإنه بث العيون والأرصاء هنا وهناك. وأبعد المشتبه فيهم وصادر أملاكهم. وأعدم الرجال والنساء. وانهارت شعبيته الأولى. وتركته السنوات العجاف من (1600-1604) بغير تأييد ومساندة من الأهالي الذين يتضورون جوعاً في مواجهة المكائد التي كان يديرها النبلاء في تصميم وعناد. وثمة مكيدة أصبحت ذات شهرة في التاريخ، والأدب والموسيقى. ففي 1603 ظهر في بولندة شاب ادعى أنه ديمتري المفروض أنه مات. والوريث الشرعي

صفحة رقم : 10185

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> روسيا المقدسة

لعرش فيودور إيفانوفتش. واعتبر بوريس الوائق من نفسه (50)، أن هذا الشاب ليس إلا جريشكا أوتربيف الراهب الذي جرد من روائه الكهنوتي، والذي كان من قبل في خدمة آل رومانوف. أما البولنديون الذين كانوا يخشون توسع روسيا، فقد سرهم أن يجدوا بينهم وفي متناول يدهم، من يطالب بالتاج المسكوفي، وابتهجوا أكثر من ذلك بزواج "ديمتري" هذا من بنت بولندية، واعتناقه الكاثوليكية. وتغاضى سجسمند الثالث الذي كان قد وقع لتوه (1602) هدنة مدتها عشرون عاماً مع روسيا، عن حشد ديمتري لمتطوعين بولنديين. وناصر الجزويت بشدة قضية هذا المدعي. وفي أكتوبر 1604 عبر ديمتري نهر الدنيبر مع أربعة آلاف رجل. فيهم المنفيون الروس، وجنود مرتزقة ألمان، وفرسان بولنديون. وأيده النبلاء الروس سرّاً، ولو أنهم تظاهروا بالحياد. وانضم الفلاحون الأبقين إلى القوات المتقدمة، ورجب الشعب الجائع الذي طال انتظاره للتعلل بأمل كاذب، بديمتري الجديد، ورفع لواءه رمزاً للملكية الشرعية والأمانى اليانسة. ووسط الهتاف تحرك الجمهور المتضرع نحو موسكو من الغرب، وانقض من الجنوب القوازي المستعدون دوماً للذال. وانقلبت الحركة إلى ثورة. ولما رأى بوريس أن هذا بمثابة غزو بولندي، بعث بجيشه إلى الغرب، وهزم فصيلة من قوات ديمتري، ولكنه لم يدرك البقية. ولم يتلقى جودونوف وهو قابع في قصر الكرملن إلا أنباء جمهور الرعاع الزاحف المتزايد عدده. والسخط الذي ينتشر، والأخبار التي يشربها البويار (النبلاء) حتى في موسكو، في صحة ديمتري الذي أعلنوا على الشعب أنه ابن القيصر المقدس الذي اختاره الله ليكون قيصرًا. وفجأة، وبعد شكوك وآلام مبرحة معروفة لدى بوشكين وموسور حسكي، ولا يعلم التاريخ عنها شيئاً - مات بوريس (13 إبريل 1605) وأوصى البطريك بسمانوف والنبلاء خيراً. ولكن البطريك والنبلاء تحولوا إلى المدعي، وقتل ابن جودونوف وأرملته، وفي غمرة النشوة الوطنية رحب، بديمتري الزائف، وتوج قيصرًا على روسيا بأسرها.

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> روسيا المقدسة

ج - زمن الشدائد

1605 - 1613

لم يكن القيصر الجديد حاكماً غير صالح، كما هي شيمة الملوك، ولم يكن ذا قوام يبعث على الرهبة ولا بهي الطلعة، ولكنه كان برغم هذا وذاك قادراً على امتشاق الحسام وامتطاء الخيل، مثل أي نبيل كريم المحتد. وتحلى القيصر الجديد برجاجة العقل وسعة الإدراك وفصاحة اللسان وحلاوة الشمانل، وبساطة غير متكلفة صدمت فواعد السلوك والتشريفات في حياة القصور. وأدهش موظفيه باهتمامه الجاد بالإدارة، كما أدهش جيشه بتولي تدريبه بنفسه. ولكن تعاليه على بيئته كان متعمداً واضحاً أكثر مما ينبغي. فأبدى احتقاره صراحة لخشونة النبلاء وأميتهم وجهلهم، واقترح إرسال أبنائهم لتلقي العلم في الغرب، وسعى إلى استقدام معلمين أجانب لتأسيس مدارس ثانوية في موسكو. وسخر من العادات الروسية، وأغفل الطقوس الأرثوذكسية، وأهمل تحية صور القديسين، وتناول طعامه دون أن ترش مائدته بالماء المقدس، وأكل لحم العجل الذي اعتبرته الطقوس نجساً. وأخفى - وربما لم يأخذ يوماً بمأخذ الجد - تحوله إلى الكاثوليكية، ولكنه أحضر إلى موسكو زوجته البولندية الكاثوليكية، يحف بها أخوة فرنسيسكان وممثل البابا. وكان في بطانته هو نفسه نفر من البولنديين والجزويت، وأنفق في سخاء من أموال الخزنة، فضاعف رواتب ضباط الجيش، وخصص لأصدقائه الضياع المصادرة من أسرة جودونوف. ولما كان لا يهوى السكون، كما كان رجلاً عسكرياً فإنه دبر حملة ضد خان القرم وأعلن الحرب عملياً بإرساله سترة من جلد الخنزير إلى الحاكم المسلم. وربما كاد أن يخلي موسكو من الجنود تماماً، بإصداره أوامره إليهم بالتحرك نحو الجنوب، وخشي النبلاء أنه كان يفتح العاصمة لغزو بولندي.

وبعد اعتلاء ديمتري عرش روسيا ببضعة أسابيع تأمرت زمرة من النبلاء بزعامة شويسكي على خلعه. واعترف شويسكي بأنه لم يقر أو يعترف "بالمدعي" إلا لمجرد التخلص من جودونوف، أما الآن فيجب إبعاد الإدارة

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> روسيا المقدسة

التي اصطنعت لهذا الغرض، وإجلاس نبيل أصيل على العرش(51). وكشف ديمتري المؤامرة، وأعتقل زعماءها، وبدلاً من الإسراع بإعدامهم، كما تقضي بذلك التقاليد، منحهم الحق في أن يحاكموا أمام الجمعية الوطنية التي اختير أعضاءها لأول مرة من بين جميع الصفوف والطبقات. فلما أصدرت حكمها على شويسكي وآخرين بالإعدام خفف ديمتري الحكم إلى النفي، وبعد خمسة أشهر أباح للمنفيين العودة. وكان كثير من الناس يعتقدون أنه ابن إيفان الرهيب، ولكنهم شعروا الآن- بعد تصرفه على هذا النحو- أن مثل هذا الاعتدال أو الرفق غير التقليدي يلقي ظلالاً من الشك على أبوته الملكية. وعاد المتآمرون المعفو عنهم إلى تدبير المؤامرات من جديد. واشتركت فيها أسرة رومانوف التي احتوى ديمتري بظل الانتساب إليها. وفي 17 مايو 1606 اقتحم شويسكي الكرملن باتباعه المسلحين. ودافع ديمتري عن نفسه دفاعاً مجيداً، وقتل بيده كثيراً من مهاجميه، ولكنه في النهاية غلب على أمره وذبح. وعرضت جثته في ساحة الإعدام، وألقى على وجهه قناع حقيب، ووضع في فمه مزمارة، ثم بعد ذلك أحرقت الجثة، وأطلق عليها مدفع حتى تذرو الرياح رمادها فلا تبعث من جديد بعد الآن.

ونادى النبلاء المنتصرون بشويسكي قيصرأ تحت اسم فاسيلي الرابع: وآلى على نفسه ألا يعدم أحداً ولا يصادر أملاكاً، دون موافقة "الدوما" (مجلس النبلاء). وأقسم في كاتدرائية أوسبنسكي أغلظ الإيمان بأنه "لن يلحق بأي إنسان أذى دون موافقة المجلس" أي الجمعية العمومية التي تضم كل الطبقات". وغالباً ما انتهكت هذه الضمانات، ولكنها كانت على أية حال خطوة تاريخية على طريق تطوير الحكومة في روسيا.

وأخفقوا في تهدئة تلك العناصر الكبيرة من السكان التي تولاها الحزن والأسى لخلع ديمتري. فاندلعت ثورة في الشمال، ونصب زعيماً لها "ديمتري" زائف آخر، أمده سجسمند الثالث ملك بولندة بعون غير رسمي. فالتمس

صفحة رقم : 10188

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> روسيا المقدسة

شويسكي العون من شارل التاسع ملك السويد، عدو سجسمند، وأرسل شارل قوة سويدية إلى روسيا، فأعلن سجسمند الحرب عليها، واستولى قائده زلكوسكي على موسكو، وخلع شويسكي (1610) وحمل إلى وارسو حيث أرغم على التزهب في أحد الأديار. وانتقلت زمرة من النبلاء على الاعتراف بلادلاس- ابن سجسمند، البالغ من العمر أربعة عشر عاماً قيصرأ على روسيا، شريطة المحافظة على استقلال الكنيسة الأرثوذكسية، ومساعدة الجيش البولندي للنبلاء في إخماد الثورة الاجتماعية التي كانت تهدد الحكومة الأرستقراطية في روسيا.

وكانت الثورة في بداية أمرها استتكاراً دينياً ووطنياً لتتصيب فيصير بولندي، ومنع هر موحس بطريك الأرثوذكسية الشعب من حلف يمين الولاء لملك كاثوليكي. وقبض البولنديين عليه، وسرعان ما قضى نحبه في سجنه، ولكن نداءه جعل من المتعذر على لادسلاس أن يحكم البلاد. ودعا الزعماء الدينيين الشعب إلى طرد البولنديين بوصفهم كاثوليك مهرطقين. وبدا أن الحكومة نهار، وعمت الفوضى روسيا. واستولى الجيش السويدي على نوفجورود واقترح أن يتولى عرش روسيا أمير سويدي. ورفض الاعتراف بلادسلاس الفلاحين في الشمال والجنوب، والقوازق في الجنوب، وأقاموا حكماً خاصاً بهم في المقاطعات. وأعملت عصابات قطاع الطرق السلب والنهب في القرى والمدن، ونكلت بكل من يقاوم، وتعطلت الزراعة ونقص إنتاج الأغذية، واختلت وسائل النقل، وعمت المجاعة، واضطر السكان في بعض الأقسام إلى أكل لحوم البشر(52). ودخل جمهور ثائر موسكو، وفي غمرة الفوضى والشغب أشعل الحريق فانت النار على معظم المدينة (9 مارس 1611) وتقهقرت الحامية البولندية إلى الكرملن، ترقب عبثاً قدام سجسمند لنجدتها.

وفي نزي نوفجورود نظم قصاب يدعى كوزمانين، جيشاً ثورياً آخر؛ بحدوه الإخلاص للأرثوذكسية، ودعا كل أسرة إلى التنازل عن ثلث ما تملك

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> روسيا المقدسة

لتمويل الهجوم على العاصمة. وتم هذا بالفعل، ولكن الناس لن ينفادوا إلى زعيم غير ذي لقب. فدعا منين الأمير ديمتري بوجارسكي ليتولى القيادة، فقبل المهمة، وانطلق رجال الجيش الجديد إلى موسكو صائمين ضارعين، وما أن وصلوا حتى حاصروا الحامية البولندية في الكرملن، وصمدت الحامية إلى حد أنهم أكلوا الفئران ولحم البشر، وكانوا يغنون المخطوطات اليونانية ليحظوا على المرق، ثم استسلموا وفروا (22 أكتوبر 1613) وظلت ذكرى هذا العام حية عزيزة في أذهان الروس، على أنه عام التحرير، وعندما أجلي الفرنسيون بعد ذلك بقرنين من الزمان، عن موسكو التي جلاها رماد الحريق مرة ثانية، أقام الروس المنتصرون نصباً تذكاريًا لمنين وبوجارسكي، الجزار والأمير اللذين ضربا لهما أروع مثل للبطولة في 1612.

ودعا بوجارسكي والأمير ديمتري تروبتسكوي ممثلين علمانيين ودينيين عن كل أجزاء الإمبراطورية إلى مجلس لانتخاب ملك جديد. واستخدمت مختلف الأسرات نفوذها بطريقة خفيفة لتحقيق أغراض خاصة، ولكن كانت الغلبة آخر الأمر لأسرة رومانوف، واختار المجلس ميكائيل الذي لم يتجاوز الخامسة عشرة من العمر آنذاك، وفي 21 فبراير 1613 نادى به قيصرًا سكان موسكو الذين يمكن تجميعهم وتوجيههم بسرعة. وبعد أن أنقذ الشعب الدولة، نسب الفضل في ذلك، تواضعاً إلى النبلاء.

وقضت الحكومة الجديدة على الخلل الاجتماعي والثورة، وثبتت دعائم الرق وتوسعت فيه وهدأت من روع السويد بالتخلي عن انجريا، ووقعت مع بولندا هدنة مدتها أربعة عشر عاماً، وفكت الهدنة أسر فيودور رومانوف، والد ميخائيل، الذي طال أمد أسره. وكان بوريس قد أرغمه على التهرب، وأطلق عليه اسم الراهب فيلات. وعينه ابنه ميخائيل بطريريك موسكو، ورحب به مستشار له وبلغ من القوة والنفوذ حداً أطلق معه الشعب عليه اسم "القيصر الثاني". وتحت الحكم المزدوج الذي شارك فيه الوالد والولد

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> ظهور دول الشمال -> روسيا المقدسة

وبرغم المزيد من الثورات والحروب؛ حققت روسيا بعد جيل من الفوضى، سلاماً مزعزعاً مقرونًا بالسخط والاستياء. أن زمن الشدائد والمتاعب الذي بدأ بموت بوريس، اختتم باعتلاء ديمتري العرش، وهذا بدوره كان ابتداء عهد أسرة رومانوف التي قدر لها أن تحكم روسيا حتى عام 1917.

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الإسلام يتحدى -> الأتراك

الفصل العشرون

الإسلام يتحدى

1566 - 1648

1- الأتراك

في غمرة الصراعات الداخلية-سياسية ولاهوتية-في العالم المسيحي أحس بعض المفكرين بالإزعاج والقلق من أن العناية الإلهية أطلت، في حياد ظاهر، على الصراع الأكبر بين المسيحية والإسلام. ولقد تم طرد الإسلام من أسبانيا، ولكن "دار السلام" (العالم الإسلامي) كانت لا تزال شاسعة مترامية الأطراف، ضمت أندونيسيا وشمال الهند. والحق أن هذا كان عصر أسرة المغول الزاهر في دلهي (1526-1707). وضم الإسلام أفغانستان وآسيا الوسطى وإيران كلها "حيث أدنت عظمة الفن الفارسي بالغروب في هذه الحقبة. وإلى الغرب من إيران كانت دولة الإسلام هي الإمبراطورية العثمانية أو التركية-التي لم يكن يناقسهها آنذاك في أتساع أطرافها الإمبراطورية الأسبانية، واحتفظت بالسيطرة على شواطئ البحر الأسود، وتحكمت في مصابب الدانوب، والدنيبر والدينستر، وساعدت حلفاءها خانات التتار، على السيطرة على القرم ومصب نهر الدون. واستولى الأتراك على أرمينيا وآسيا الصغرى وسوريا وبلاد العرب-الشرق الأدنى بأسره-وهناك كان في حوزتها أشهر مدن العالم القديم والوسيط، بابل، نينوى، بغداد، دمشق، أنطاكية طرطوس، أزمير، نيقية، مكة وبيت المقدس-حيث كان المسيحيون، بترخيص من المسلمين، يحجون إلى قبر المسيح. واستولوا في شرق البحر الأبيض على الجزر العظيمة قبرص ورودس وكريت، وكانت الأغلبية الساحقة في شمال أفريقية

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الإسلام يتحدى -> الأثرak

من المسلمين، من البحر الأحمر إلى الأطلسي، فكان يحكم مصر باشوات يعينهم السلاطين، وكان يحكم طرابلس وتونس والجزائر ومراكش أسرّات مسلمة محلية يختلف خضوعها للسلاطين باختلاف البعد بينها وبين الأستانة، وكان هذا هو عهد أسرة السعديين (1500-1668) في المغرب، وكانت عاصمتها مراكش تعج بالتجارة وتنتألق بالفن. وامتدت الدولة العثمانية في أوروبا من البسفور عبر اليونان (بما فيها أثينا وإسبارطة) والبلقان والمجر، على بعد مائة ميل من فيينا، وعبر دالمشيا إلى أبواب البندقية، وعبر البوسنة وألبانيا، وما كان ثمة إلا قفزة واحدة عبر الأدرياتيك حتى تصبح في إيطاليا البابوية. وهناك وفي فيينا الواقعة تحت الحصار، لم يكن الحوار الكبير بين البروتستانت والكاثوليك بل بين المسيحية والإسلام. وداخل هذا النطاق الإسلامي عاشت المسيحية حياتها الممزقة. ومهما كان من أمر امتداد الإسلام غرباً فإنه ظل شرقياً. وكانت القسطنطينية نافذة على أوروبا ولكن جذور العثمانيين امتدت كثيراً إلى الورا، إلى آسيا وبذلك استطاعت تركيا المزهوة المبهجة أن تقلد أوروبا. وفي بعض بقاع العالم الإسلامي قتلت حرارة الصحراء أو الحرارة المدارية روح الحيوية. ووقت المسافات الشاسعة غير المسكونة التجارة، ولم يجد الناس في أنفسهم تحمساً إلى كسب المعرفة وتحصيلها مثل الأوروبيين الغربيين، فشجعوا الجمود وعدم التحرك، وكانوا أكثر استعداداً للقناعة ولم يتصفوا بالطموح. وكانت الحرف والصناعات غير المتغيرة في الإسلام متقنة، ولكنها كانت تتطلب وقتاً، وكان يعوزها الذوق، ولم تتجه إلى الصناعة على نطاق واسع وكانت القوافل مثابرة صابرة، ولكنها لم تقو على منافسة الأساطيل التجارية التابعة للبرتغال وأسبانيا وإنجلترا والأراضي الوطنية التي كانت تجوب كل المسالك المائية إلى الهند. على أن بعض الثغور الواقعة على البحر المتوسط مثل أزمير، ازدهرت بفضل نقل البضائع بين السفن والقوافل. وينفخ الإسلام في الناس روح

صفحة رقم : 10193

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الإسلام يتحدى -> الأثرak

الشجاعة المفعمة بالأمل زمن الحرب، ولكنه كان يغرس في نفوسهم وقت السلم روح التسليم بالقضاء والقدر التي تثبط من عزائمهم وأغرامهم بحلقات الذكر والأحلام الصوفية. وعلى الرغم من أن الإسلام في عصر الفتوة والشباب أجاز قدراً كبيراً من العلوم. فإنه هبط آنذاك بالفلسفة إلى حذقة جوفاء قوامها التعاليم والأساليب التقليدية. وعمل العلماء من رجال الدين الذين سنوا القوانين على أساس القرآن الكريم-على تنشئة الأطفال على الدين القويم، وحرصوا على كل الحرص حتى لا يطل عصر العقل برأسه على العالم الإسلامي وهناك هيأ الصراع بين الدين والفلسفة نصراً حاسماً للدين.

أضف إلى ذلك أن هذا الدين تيسر له غزو البلاد التي اقتطعت من العالم المسيحي. فقد كان للكنيسة الشرقية بطاركتها في القسطنطينية وإنطاكية، وأورشليم والإسكندرية، ولكن عدد المسيحيين فيها كان يتناقص بسرعة، وظل الأرمن في آسيا الصغرى والأقباط في مصر على عقيدتهم المسيحية، ولكن الجماهير عامة في آسيا وإفريقية والبلقان اعتنقت الإسلام. وربما كان لهذا أسباب عملية، فلو بقوا على عقيدتهم المسيحية لحرّموا من الوظائف العامة، ودفعوا ضرائب

باهظة مقابل إعفائهم من الخدمة العسكرية وسلموا واحد من كل عشرة من أبنائهم ليربى تربية إسلامية يوهله للانضمام إلى الإنكشارية ليعمل في الجيش، أو ليتولى الوظائف الحكومية. وفيما عدا هذا، تمتع المسيحيون في العالم الإسلامي بتسامح ديني ما كان حاكم مسيحي ليحلم بمنحه للمسلمين في أي بلد مسيحي. من ذلك، على سبيل المثال، أن المسلمين كان لهم في أزمير 15 مسجداً، وللمسيحيين 7 كنائس ولليهود 7 معابد (1). وكانت السلطات في تركيا والبلقان تتولى حماية الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية ضد أي تحرش أو إزعاج أثناء العبادة

صفحة رقم : 10194

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الإسلام يتحدى -> الأتراك

والصلوات (2). وذهب صموئيل بيبس في يومياته إلى أن معظم المجر استسلم للأتراك لأن البلاد نعمت في ظل الحكم العثماني بحرية دينية أكبر مما نعمت به في ظل الأباطرة الكاثوليك. وهذا حق كل الحق من جانب المسيحيين المهترطين. فقد ذكر سير توماس أرنولد: "أن الكلفنيين في المجر وترنسلفانيا والموحدين في هذا البلد الأخير أثاروا الخضوع للأتراك على الوقوع تحت نيران آل هبسبرج المتعصبين وأن البروتستانت في سيليزيا تطلعوا إلى الأتراك، وربما ارتضوا عن طيب خاطر أن يشتروا حريتهم الدينية مقابل الخضوع للحكم الإسلامي (4) "ومما يلفت النظر أو يثير الدهشة أكثر من ذلك، حكم السلطات المسيحية القيادية على تاريخ اليونان الحديث:- إن كثيراً من اليونان ذوي المواهب العظيمة والخلق الرفيع كانوا أكثر إدراكاً لتفوق المسلمين، حتى أنهم، حين نجوا من سوقهم إلى خدمة السلطان في نطاق "صربية الأطفال"، اعتنقوا الإسلام طواعية واختياراً. ولابد من التسليم بأن السمو الخلقي في المجتمع العثماني كان له دخل كبير في هذا التحول إلى الإسلام، قدر ما كان الطموح الشخصي لدى الأفراد (5).

ولكن من الصعب تحديد هذا "السمو الخلقي" لدى أتراك القرن السابع عشر. فإن تافرنيه الذي تجول واشتغل بالتجارة في البلاد الإسلامية في 1631-1633، 1638-1643 وما بعدها، قال: "في تركيا لصوص كثيرون يتجمعون في عصابات تقطع طريق التجار (6)" وكان الأتراك معروفين بنزعتهم الهادئة إلى الخير ولكن نفس الديانة التي روضت دوافعهم غير الاجتماعية وقت السلم، أطلقت لهم العنان في ضراوة وعنفة في حربهم مع "الكفار" وكان استرقاق الأسرى المسيحيين مباحاً. ووقعت غارات في الأراضي المسيحية القريبة من الحدود العثمانية لاصطياد المسيحيين واسترقاقهم، ومهما يكن من أمر، فإن اتجار العثمانيين في الرقيق كان أقل بكثير، عدداً وقساوة، من الحملات التي قام بها المسيحيون لجمع الرقيق في القارة السوداء. وكان الانغماس في الشهوة الجنسية في العالم الإسلامي أشد

صفحة رقم : 10195

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الإسلام يتحدى -> الأتراك

وأكثر إرهاباً منه في العالم المسيحي، ولو أنه كان عادة في نطاق الحدود المنظمة لتعدد الزوجات. وكان المجتمع التركي، على وجه التحديد، مجتمع رجال، ولما كان اتصال الرجال بالنساء محظوراً خارج البيت، فقد أنس المسلمون بمعاشرة الغلمان، عشرة عذرية (أفلاطونية) أو جسدية. وانتشر السحاق داخل الحريم(8).

وسادت حياة عقلية نشيطة، ولو أنها مقيدة، بين أقلية كبيرة من المسلمين. وربما كانت نسبة معرفة القراءة والكتابة تركية أوربا في القرن السابع عشر أعلى منها في العالم المسيحي وربما حكمنا على وفرة الكتب من ثبت جمعه حاجي خليفة (1648)، يضم أكثر من 25 ألف كتاب في اللغات العربية والتركية والفارسية. وكانت هناك مئات المجلدات في الدين والفقه والعلوم والطب والبلاغة والسير والتاريخ(9). وكان من أشهر المؤرخين أحمد بن محمد، غالباً ما استندنا في كتابنا هذا إلى مؤلفه "تاريخ الأسرات الإسلامية في أسبانيا" (نفتح الطيب). وقد عرفناه أساساً باسم "المقري" وقد أشنق اسمه من اسم مسقط رأسه في قرية في الجزائر. ومعظم كتابه عبارة عن قطع منقولة أو مختصرة من كتب قديمة، ومع ذلك فهو إنتاج جديد بالذكر في عصره، لم يزودنا بأخبار السياسة والحرف فقط، بل أمدنا كذلك بشيء عن الأخلاق والقانون والنساء والموسيقى والأدب والطب. وأحبه مدونته بالتفاصيل الممتعة والحكايات والحوادث التهذيبية. ونظم الشعر كل من عرف القراءة والكتابة في تركيا تقريباً. واشترك الحكام بحماسة في هذه المباراة (كما هو الحال في اليابان). وألف محمد سليمان أوغلو المعروف "بالفضولي" (وهو اسم أخف على السمع)، أرق أغاني الحب في ذلك العصر، وربما بدت سخيفة ساذجة في الترجمة. الإنجليزية الرديئة التي توفرت لنا، ولكننا ندرك مراميه-تميزت عادات بغداد بالدفء والحرارة والظراوة ونعومة اللمس، والخفة والرقّة حتى

صفحة رقم : 10196

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الإسلام يتحدى -> الأتراك

بیتروجن. أما محمود عبد الباقي (المتوفى 1600) وهو أعظم الشعراء الغنائيين العثمانيين، فإنه بعد أن كان المغني الأثير لدى سليمان القانوني، ظل يشدو لمدة أربعة وثلاثين عاماً بعد وفاة راعيه. وكتب نافع الذي عاش في أروم. وجاء لاذعاً، لا بد أن شيئاً منه صعد إلى السماء، فإنه بينما كان السلطان مراد الرابع يقرأ قصيدة منه نزلت ساعة على قدميه، فمزق السلطان الكتاب ونفى الشاعر من القسطنطينية، وسرعان ما أعيد إليها، ولكن قصيدة هجائية أخرى لذعت الوزير بيرم باشا، فأمر بقطع رأسه(10).

وظل الفن العثماني ينتج التحف والروائع، فقد بنى مسجد أحمد الأول في 1610 ليشرّف على العاصمة بمآذنه الست المحلقة في الجو، وسلسلة قبابه المنتخبة (البصلية الشكل)، وأعمدته المحززة الضخمة في الداخل، وأقواس الفسيفساء، والكتابات الفخمة والزخارف المتألقة. وبعد ذلك بخمسة أعوام أهدى السلطان لزوجته ذات الحظوة لديه مسجد بيتي فالدي جاميسي الرائع. وبنى في هذه الحقبة في دمشق مسجداً فخماً. أما في أدرنه فإن المهندس المعماري الذي لا نظير له، سنان الذي كان قد وضع تصميم مسجد سليمان شاد للسلطان سليم الثاني مسجداً يعده بعض الناس أعظم من أي مسجد آخر في القسطنطينية.

ولم تتفوق أية حضارة على الإسلام في صنع تربيغات القمرية الجميلة التي نشاهدها، على سبيل المثال في مسجد أحمد الأول، وأجمل منها تلك التي تزين مدخل ضريح سليم الثاني بالقرب من أيا صوفيا بباقات من الأزهار البيضاء والزرقاء وسط أعصان وأوراق خضراء وزرقاء وحمراء، ولا يمكن أن تكون الزهور الحية أجمل من ذلك، بل قد تحسد نظيراتها المصنوعة على طول بقائها. وكانت أزيق حيث رأس قسطنطين منذ ثلاثة عشر قرناً المجمع التاريخي الذي ثبت العقيدة المسيحية-نقول كانت مشهورة بتربيغات البراقة وثمة نماذج مقنعة منها في متحف المتروبوليتان للفن.

وكان رسم المنمنمات في تركيا يحاكي نظيره في فارس التي سنتحدث عنها وشيكاً أما الخط فقد ذاع صيته (يقال أن سطر واحد بخط مير عماد بيع بقطعة

صفحة رقم : 10197

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الإسلام يتحدى -> الأتراك

من الذهب أثناء حياته(11) إلى حد أنه لم يطبع أي كتاب في تركيا قبل عام 1728. وفي النسيج كذلك كان الأتراك تلاميذ الفرس، ولكن لم يتفوق عليهم فيه إلا هؤلاء. ولم يبلغ السجاد التركي درجة الإيراني في رقة النسيج ودقة التصميم والرسم أو الثراء في الألوان. ولكنهم يحتلون مكانة عالية في تاريخ هذا الفن. وكان السجاد التركي في القرن الخامس عشر قد كسب شهرته بالفعل في الغرب لأننا نراه في لوحات الرسام الإيطالي أندريا مانتينيا، وبعده في بنتوريكيو، وفي باريس ورودن وهولبين. وكسى كثير من قصور التيودور بالسجاد التركي، بل إن كرومول المتشدد نفسه كان لديه اثنتان وعشرون قطعة منه(12). وإبنا لنجد هذا السجاد ممثلاً في قطع النسيج المزركش (الكانفاه، الجويلان)، يوضح للناس حياة لويس الرابع عشر. لقد كان الغرب يدرك أن الشرق لديه الفنون والمدافع سواء بسواء.

صفحة رقم : 10198

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الإسلام يتحدى -> معركة ليبنتو

2- معركة ليبنتو

ومهما يكن من شيء، فقد كان على حكام الغرب أن يرقبوا المدافع، لأن سلاطين آل عثمان كانوا قد أعلنوا عن عزمهم على تحويل أوروبا بأسرها إلى الإسلام. أن رصيدهم البشري وثروات مملكتهم الزاحفة في كل مكان هيأت لهم أكبر جيش وأحسنه عتاداً وعدة في أوروبا. وكان عدد الانكشارية وحدهم خمسين ألفاً. وربما كان خلاص الغرب وخلص المسيحية في ترامي أطراف الإمبراطورية العثمانية على هذا النحو، فما كانت المسافات البعيدة لتساعد على تجميع الموارد المبعثرة في الوقت المناسب، كما أن السلاطين، ولو أنهم شكلوا أسرة حاكمة أبقى على الزمن من أية أسرة حاكمة مسيحية، دب فيهم الفساد وانتابهم التدهور حيثما نهيات "الحريم" فرصة لتحقيق مآربهن، وكانوا يكلون أمور الحكم إلى وزراء مؤقتين سريعي الزوال، نزع بهم تززع مراكزهم إلى التخفيف من وطأة سقوطهم واعتزال مناصبهم، بجمع الثروات أيام سطوتهم.

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الإسلام يتحدى -> معركة ليبنتو

وهكذا كان سليم الثاني الذي خلف سليمان القانوني 1566، حاكماً منحللاً خاملاً، لم تتجلى عبقريته إلا في أنه عهد بالإدارة والسياسة إلى وزيره القدير محمد سوكلي. وانقطعت غارات الأتراك على الإمبراطورية الرومانية المقدسة لأن الإمبراطور مكسيمليان الثاني اشترى السلام مقابل جزية سنوية قدرها 30 ألف دوكات. وحول سوكلي وجهة نظر فريسة أقرب. فقد احتفظت بلاد العرب من قبل "باستقلالها الديني" ولكن تم الآن للباب العالي فتحها (1570) وكانت ممتلكات البندقية لا تزال متناثرة في بحر إيجه، تعوق أساطيل تركيا وتجارها. وقصد لالا مصطفى على رأس 60 ألف مقاتل لمهاجمة قبرص وأهابت البندقية بالدول المسيحية لنجدها، فلم يستجب لندائها إلا البابا وأسبانيا. فإن بيوس الخامس لم يكن قد نسي أن الأسطول التركي في 1566 هدد أنكونا ثغر البابا وقلعته على الأدرياتيك. كما علم فيليب الثاني أن عرب الأندلس استرخصوا السلطان لإنقاذهم من ويلات الحكم الأسباني (1561) وأن السلطان رجب بميعوثيم إليه. وكان الموقف الدبلوماسي مواتياً. ذلك أن الإمبراطور لم يكن يشترك في الحرب ضد تركيا، لأنه كان قد وقع من فوره معاهدة سلام معها ولم يكن من الشرف ولا في مصلحة أمنه أن ينقضها وعارضت فرنسا أية خطة تزيد من قوة أسبانيا وترفع من شأنها. ووثقت عرى الصداقة مع الأتراك عوناً لها على مواجهة الإمبراطور. وخشية إنجلترا مغبة الدخول في مغامرة مشتركة مع فيليب يجعلها تحت رحمة أسبانيا الكاثوليكية في حالة انتصارها. وساور البندقية بعض القلق من أن الانتصار قد يأتي بالقوات الأسبانية إلى الأدرياتيك. فتقضي على احتكار البندقية لهذا البحر وسيطرتها عليه. وقضى بيوس عاماً كاملاً في التغلب على هذه الحيرة والتردد. وكان عليه أن يرضى باستخدام البندقية وأسبانيا لأموال الكنيسة. وأخيراً في 20 مايو 1571 انضمت الثلاث في "عصبة مقدسة" واستعدت للحرب. وفي أثناء هذه المفاوضات تقدم الهجوم التركي على قبرص. مع خسائر

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الإسلام يتحدى -> معركة ليبنتو

جسيمة تكبدها الطرفان. وسقطت نيقوسيا بعد حصار دام خمسة وأربعين يوماً. وأعدم بحد السيف عشرون ألفاً من سكانها، وقاومت فاما جوستا زهاء عام. وعندما سقطت (6 أغسطس 1571) سلخ البطل المدافع عنها، مارك أنطونيو براجادينو، حياً، وحشي جلده بالنقش وأرسل إلى القسطنطينية تذكراً للنصر. وكانت الظروف تستحث العصبة المقدسة على العمل، فجمعت قواتها. وأسهمت بالسفن والرجال، كل من فلورنسة وبارما ولوكا وفرانا وأربينو وجنوه، عدو البندقية القديم. وفي نابلي تسلم دون جوان النمساوي لواء القيادة في احتفال مهيب من الكاردينال جرنفل. وفي 16 سبتمبر، بعد أن تناول البحارة والجنود القربان المقدس من يد الجزويت والكيوشيين الذين التحقوا بالحملة، أبحر الأسطول الضخم (الأرمادا) من مسينا إلى جزيرة كورفو في محاذاة جنوبي

إيطاليا، عبر مضيق أوترانتو. وهناك ترامت أنباء المذابح والفظائع التي اقترنت بسقوط قبرص. وتعالّت صيحات "النصر النصر" فليحي المسيح، عندما أصدر دون جوان أوامره بالانطلاق إلى القتال. وفي 7 أكتوبر 1571 تحرك الأرمادا عبر خليج بتراس إلى خليج كورنت. وكان الأسطول التركي ينتظر بعيداً عن نغر ليبنتو، وهو يضم 222 سفينة شراعية كبيرة، و60 سفينة صغيرة، و570 مدفعاً، و24 ألف جندي، و13 ألف ملاح، و41 ألف مجدف. وكان المسيحيين 207 سفن شراعية، وست سفن شراعية فينيسية ضخمة تحمل المدافع، و30 سفينة صغيرة و1.800 مدفع و30 ألف جندي و13 ألف وتسعمائة ملاح، و43 ألف جندي (13). ورفع الأسطول المسيحي علم المسيح مصلوباً. ورفع الأسطول التركي علم السلطان يحمل لفظ الجلالة "الله" موسى بالذهب. وتراجع جناح المسيحيين الأيمن أمام الأتراك، ولكن الجناح الأيسر الذي كان يقوده البنادقة حول المقاومة الضارية إلى هجوم منظم، وأودت مدفعيتهم

صفحة رقم : 10201

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الإسلام يتحدى -> معركة ليبنتو

بحياة آلاف من الأتراك، وأصدر دون جوان أمره بأن تتحرك سفينة قيادية قد مانحو سفينة أمير البحر التركي موسيناد علي. فلما التقت السفينتان، قفز ثلاثمائة من جنود جوان الأسبان المحنكين إلى السفينة التركية بقيادة راهب كبوشي، يلوح بالصليب عالياً. وتقرر مصير المعركة، عندما أسرت السفينة، ورفع رأس علي المفصول عن جسده فوق سارية علمه (14). وانهارت الروح المعنوية لدى الأتراك. وهربت 40 من سفنهم، وأسرت 117 أخرى، كما أغرق أو حرق خمسون سفينة. ولقي حتفه في المعركة أكثر من ثمانية آلاف رجل من الأتراك، وأسر عشر آلاف، وزع معظمهم رقيقاً على المنتصرين. وحرر نحو 12 ألفاً من الأرقاء المسيحيين الذين كانوا يقومون بالتجديف على المراكب التركية. وفقد المسيحيون، وقتل منهم 7500 رجل من بينهم أفراد من أعرق وأشهر الأسرات في إيطاليا. ولا نزاع في أن معركة ليبنتو كانت أعظم معركة بحرية في التاريخ الحديث. ووصفها سرفنتيز الذي كان من بين الجرحى المسيحيين البالغ عددهم 7500 بأنها "أعظم حدث بارز جدير بالذكر شهدته العصور الخوالي أو العهود الحاضرة. وقد لا يكون له نظير في المستقبل" (15).

وكان يجدر أن تكون هذه أكبر معركة فاصلة في التاريخ الحديث، لولا أن استنزاف المجدفين والأضرار التي لحقت بالأسطول المنتصر، وهبوب عاصفة عنيفة، حال دون تعقب الأتراك. فقد ثار النزاع بين المسيحيين حول اقتسام المجد والغنائم. ولما كانت أسبانيا قد أسهمت في القتال بنصف السفن والنفقات، والبندقية بتلثها والبابا بالسدس، فقد وزعت الغنائم بقدر هذا الإسهام. ووزع الأسرى الأتراك بهذه النسبة، فخص أسبانيا 3600

صفحة رقم : 10202

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الإسلام يتحدى -> معركة ليبنتو

عبد مكبلين في الأصفاد، ومن نصيب البابا منح دون جوان 17 عبداً مكافأة شريفة لقاء خدماته (16). ورغب بعض الزعماء المسيحيين في الاحتفاظ بالأرقاء المسيحيين الذين حرروا من السفن التركية، ولكن البابا بيوس الخامس حرم هذا التصرف (17).

وابتهجت أوروبا الكاثوليكية بأسرها حين وصلت أنباء النصر. وازدانت البندقية بأكاليل الزهر والتحف الفنية، وتبادل الرجال القبلات في الشوارع، ورسم تيشيان وتنتورنو وفرونيز لوحات ضخمة عن المعركة، واحتفل بالقائد الفينيسي سباستيان فنييرو أياماً وليالي كثيرة، وأخيراً اختبر لتولي منصب "الدوج" (القاضي الأول في جمهورية البندقية). أما في روما، حيث قضى رجال الدين وعمامة الناس ساعات كل يوم في الصلوات وأحر الدعوات منذ غادر الأرمادا مسيناً، فقد تعالت صيحات "الشكر للرب" في مرح وابتهاج وارتياح، وكاد البابا بيوس الخامس، منظم النصر، أن يرفع دون جوان إلى مرتبة القديسين وأطلق عليه عبارة الإنجيل "هناك رجل أرسل من عند الله اسمه يوحنا" (إنجيل يوحنا، 1:6) وتليت القداسات وأطلقت الألعاب النارية، ودوت طلقات المدافع. ورجا البابا من المنتصرين أن يحشدوا أسطولاً آخر، وتوسل إلى حكام أوروبا أن ينتهزوا الفرصة ليتحدوا في حرب صليبية لطرد الأتراك من أوروبا ومن الأرض المقدسة. وأهاب بشاه إيران، وبأمير اليمين السعيد أن ينضموا إلى المسيحيين للانتفاض على الأتراك (18). ولكن فرنسا الحاكمة على أسبانيا اقترحت على السلطان، عقب ليبنتو مباشرة، تحالفاً مباشراً ضد فيليب الثاني (19).

صفحة رقم : 10203

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الإسلام يتحدى -> معركة ليبنتو

واشتركت أبناء هذا العرض مع عوامل أخرى في ثني فيليب عن عزمه على القيام بعمل جديد ضد القوة العثمانية الرئيسية. وتورط في النزاع مع إنجلترا، وفي المأزق الذي أوقعه فيه دوق ألفا في الأراضي الوطنية، كما استاء من إصرار البندقية على احتكار التجارة في الأدرياتك، وخشي من أن انتصار ثانيا على الأتراك قد يبعث القوة والحياة في الإمبراطورية البندقية المتداعية، فتصبح منافساً قوياً لأسبانيا. أما بيوس الخامس الذي أرقه الانتصارات والهزائم معاً، فإنه لقي ربه في أول مايو 1572، وماتت معه العصبة المقدسة.

صفحة رقم : 10204

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الإسلام يتحدى -> اضمحلال السلاطين

3- اضمحلال السلاطين

وفي نفس الوقت، وبنشاط أفرع الغرب، بنى العثمانيون أسطولاً آخر، في مثل ضخامة الأسطول الذي كاد أن يدمر عن آخره. وفي بحر ثمانية أشهر بعد معركة ليبنتو، كان ثمة أسطول تركي مكون من 150 سفينة يجوب البحار بحثاً عن الأسطول المسيحي الذي بلغ من سوء النظام حداً لم يجرؤ معه على الخروج من مكنه. وشجع الجميع البندقية على استئناف الحرب، ولكن أحداً لم يمد لها يد المساعدة، ومن ثم فإنها عقدت مع السلطان (7 مارس 1573) صلحاً لم تتنازل بمقتضاه عن قبرص فحسب، بل دفعت كذلك للسلطان تعويضاً يغطي ما تكبده من نفقات في فتح الجزيرة. لقد خسر الأتراك المعركة ولكنهم كسبوا الحرب، ويبدو كيف أنهم لم يصيبهم أي وهن، من العرض الجريء الذي تقدم به سوكونلي إلى البندقية (1573)، وهو أنها إذا انضمت إلى الأتراك في حربهم ضد أسبانيا، فليسوف يساعدها في غزو مملكة؛ بلي لتكون تعويضاً سخياً لها عن ضياع قبرص. ورفضت البندقية هذا العرض لأنه يشجع السيطرة التركية على إيطاليا والعالم المسيحي. وفي أكتوبر أحياناً دون جوان مجده بالاستيلاء على تونس لحساب أسبانيا، ولكن في بحر عام واحد استطاع الأتراك بأسطول ضخم آنذاك (250 سفينة) استعادة المدينة

صفحة رقم : 10205

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الإسلام يتحدى -> اضمحلال السلاطين

وذبح الأسبان الذين كانوا قد استوطنوها حديثاً. وعلى سبيل الاحتياط أغاروا على سواحل صقلية. ومات سليم الثاني في 1574، ولكن ظل سوكونلي يتولى شؤون الدولة ويدير دفة الحرب. وقد يدعو إلى حيرة الفلاسفة أن يرى المؤرخون اضمحلال الدولة العثمانية في عهد مراد الثالث (1574-1595) على حين أنه كان يحب الفلاسفة، ولكنه كان مولعاً بالنساء كذلك. وأنجب مائة وثلاثة أطفال من عدد غير كبير من الزوجات. وكانت "بافو" الزوجة ذات الحظوة لديه، وهي أمة من أسرى البندقية، أسرته بمفاتها، وتدخلت في شؤون الدولة، واشترى نفوذها بالمال، وتقلص نفوذ سوكونلي، ولما أقترح بناء مرصد ثارت ثائرة الشعب ضده في نكرة تعصب ذميم، فقتلوه (1579)، وربما كان هذا بأمر السلطان مراد. وعمت الفوضى، وانخفضت قيمة العملة، وتمرد الانكشارية لهبوط أجورهم لأنهم يتسلمون نقداً رديئاً، وأفسدت الرشوة الموظفين، بل أن أحد الباشوات كان يفاخر بأنه رشا السلطان. وانغمس مراد في ملذاته الجنسية ومات متأثراً بالإفراط فيها. وسيطرت "بافو" على أبنها محمد الثالث (1595-1603) قدر سيطرتها على الدولة. وبدأ حكمه بالعملية التقليدية، فقتل تسعة عشر من أخوته، إغراء وحناً لآل بيته على أن يركنوا إلى الهدوء والمسالمة، ولكن أخصاب مراد، أو ذريته الكبيرة، جعلت من هذا السلام المنشود مشكلة عسيرة، فإن كثيراً من أبناء السلطان بقوا على قيد الحياة تحدى بهم الأخطار. وانتشر الفساد وسادت الفوضى. وضيعت الهزيمة في الحرب مع النمسا وفارس قيمة الانتصارات التركية. وواجه أحمد الأول خطر ظهور الشاه عباس الأول حاكماً قوياً على فارس، فقرر حشد قواته على الحدود الشرقية، ورغبة في التخفيف منها في الغرب، وأمر السلطان وكلاءه بتوقيع صلح "زيفانوروك" (1906)، وهي أول معاهدة تنازل الأتراك المزهورون بتوقيعها خارج القسطنطينية. ودفعت النمسا للسلطان مائتي ألف دوكانت، ولكنها أعفيت من أية جزية

صفحة رقم : 10206

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الإسلام يتحدى -> اضمحلال السلاطين

بعد ذلك. وقبلت ترنسلفانيا السيادة التركية طواعية واختياراً، كذلك عقدت فارس الصلح (1611)، وأعطت تركيا مليون رطل من الحرير، تعويضاً عن الحرب. وتميز هذا العهد في جملته بالتوفيق والسلامة لولا ما شابه من استمرار الانكشارية في تمردهم. وكان السلطان أحمد رجلاً نقياً حسن النية، وبذل للجهد، ولكنه أخفق في القضاء على قتل الأخوة اخوتهم في الأسرة المالكة.

وأقترح عثمان الثاني (1617-1622) تنظيم الانكشارية والإصلاح من شأنهم، ولكنهم اعترضوا وقتلوه، وأجبروا أخاه الأبله المعنوه مصطفى الأول على اعتلاء العرش، ولكن مصطفى أوتي من راحة العقل ما جعله يتخلى عنه (1623) لبن أخيه مراد الرابع البالغ من العمر اثني عشر عاماً (1623-1640). واختار الانكشارية كبار الوزراء، وكانوا يذبونهم كلما لاح لهم أنه قد أن الأوان لإحداث تغيير. واقتحموا القصر الملكي وأجبروا السلطانة قسيم على أن تفتح لهم أقبية الكنوز استرضاءً لهم. وفي 1631 عادوا إلى القصر ثانية، وتعقبوا السلطان الشاب إلى جناحه الخاص وطالبوا برؤوس سبعة عشر موظفاً. وقدم أحدهم حافظ-نفسه للجماعة، فداء للباقيين، فمزقوه إرباً، وقابلهم مراد، وهو لا يزال بعد غض الإهاب، بما بدا أنه تهديد هين لين: "إني لأرجو أن يمدني الله بعون من عنده: يا رجال الدم، يا من لا تخشون الله، ولا تستشعرون الخجل أمام رسوله، سيحل عليكم أشد الانتقام(20) "وانتهز الفرصة الملائمة ليشكل قوة موالية له، ودبر قتل الواحد تلو الآخر من زعماء التمرد. وسحقت محاولات أخرى للثورة والعصيان، بقسوة شديدة. وفي بعض الأحيان، شارك السلطان بنفسه، مثل- بطرس الأكبر- في تنفيذ أحكام الإعدام. وقتل كل أخوته فيما خلا واحداً ظنه أبله لا يخشى منه شيء. وفي نشوة سلطته الملكية فرض عقوبة إعدام على تناول التبغ أو القهوة، والأفيون أو الخمر. وقيل أن جملة من أعدموا في عهده مائة ألف شخص، باستثناء من لقوا حتفهم في

صفحة رقم : 10207

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الإسلام يتحدى -> اضمحلال السلاطين

الحرب(21). واستتب لبعض الوقت النظام الاجتماعي ونزاهة الإدارة. ولما أحس الآن بأنه في مأمن إلى حد معقول، استأنف الحرب مع فارس؛ وقبل أن يتحدها محارب فارسي في نزال فردي، فأرداه قتيلاً، واستولى على بغداد (1638)، وجاد بصلح على نصر، ولدى عودته إلى القسطنطينية استقبله أهلها استقبال المنتصر الظافر. ومات بعد ذلك بعام واحد متأثراً بداء النقرس الذي سبب له الإدمان على الخمر. وكان في الثامنة والعشرين من العمر.

وبعد وفاة مراد الرابع، عاد اضمحلال تركيا سيرته الأولى. فإن إبراهيم الأول نجا من موت محقق بيد أخيه، لكونه مخبولاً، أو لتظاهره بالخبل، وتجددت الفوضى والفساد في ظل حكمه الضعيف الطائش. وشن الحرب على البندقية وأرسل حملة إلى كريت. وسد البنادقة منافذ الدردنيل. ونصروا أهالي القسطنطينية جوعاً. وثار الجيش وشنق السلطان. وعادت إلى ذاكرة الغرب المسيحي قصة الحرس البريتوري في روما، وانتهوا إلى أنه لم يعد ثمة ميرر لأن يرهبوا قوة الأتراك وفي بحر خمس وثلاثين سنة أخرى كان الأتراك على أبواب فيينا من جديد.

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الإسلام يتحدى -> الشاه عباس الأكبر

4- الشاه عباس الأكبر

1629-1587

أنه لمن حسن حظ الغرب المسيحي أنه فيما بين عامي 1577 و1638، حين كانت فرنسا أولاً، ثم ألمانيا من بعدها، قد شلت حركتها الحروب الدينية، أن الأتراك الذين كان يمكن أن يمدوا حدودهم الغربية إلى فيينا، وجهوا كل همهم وطاقتهم إلى فارس. وهنا أيضاً كان الدين مبرراً يستر وراءه شهوة السلطان والسيطرة. فإن الأتراك الذين كانوا يتبعون المذهب السني، رموا الفرس بالمروق لأنهم اتبعوا مذهب الشيعة، ودمغوا من ولي الخلافة بعد عليّ، وهو زوج بنت الرسول، بأنه مغتصب لها. وكانت ذريعة

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الإسلام يتحدى -> الشاه عباس الأكبر

الحرب بطبيعة الحال دنيوية أكثر منها دينية وهي الرغبة في حكم الأقليات طعماً في مزيد من الأراضي والموارد والسكان الذين يمكن أن تفرض عليهم الضرائب. ونتيجة لسلسلة من الحروب المتواصلة تقدم الأتراك نحو الفرات والقوقاز وبحر قزوين، مستحوذين على العاصمة الفارسية الجديدة تبرز، والعاصمة العربية القديمة وصفها بيدور تكسيراً (1615) بأنها مدينة غنية عامرة بالأتراك والفرس والعرب واليهود، الذين يعيشون في 20 ألف بيت من الأجر، تزحمها حركة الثيران والجمال والخيل والحمير والبغال المحملة، والرجال نظيفي الثياب، وكثير من النساء الملبحات الوسيمات، وعبونهن، كلهن تقريباً، جميلة تحرق فوق خمرهن أو من خلالها(22). وقد كلف أحد الموظفين بالسهر على حماية الغرباء هناك.

وإلى الشرق من بغداد والفرات كانت تقع الولايات الفارسية الممزقة، وتمتد إلى القوقاز وبحر قزوين في الشمال الغربي، وإلى تركستان في الشمال الشرقي، وإلى أفغانستان شرقاً، وإلى المحيط الهندي جنوباً، وإلى خليج العرب (الخليج الفارسي) في الجنوب الشرقي، وكأنها أجزاء مبعثرة لجسم واحد، تنتظر أن تحل فيها رح تضم شتاتها.

وكان عباس الأكبر خامس شاه، أو ملك، من الأسرة الصفوية التي كان قد أسسها إسماعيل الأول في تبريز 1502. وفي عهد الشاه الثاني طهما سب الأول الذي امتد حكمه طويلاً (1524 ت 1576) تعرضت الدولة الجديدة لغارات كبيرة من الأتراك. وبعد موته فتح الأتراك الولايات الفارسية: العراق ولورستان وخوزستان وضموها إلى أملاكهم. وفي نفس الوقت جاء الأذربكية من بلاد فيما وراء النهر، واستولوا على هراة ومشهد ونيسابور، واجتاحوا الولايات الفارسية الشرقية. ولما ارتقى عباس العرش (1578) وهو في الثلاثين من العمر، دون أن يكون له عاصمة، عقد الصلح مع الأتراك، وتقدم شرقاً ليقابل العدو الأصغر شأنًا وأقل نفراً. وبعد حروب دامت أعواماً استرد هراة وطرد الأذربكية من فارس، ومات بعد ذلك متلهفاً

صفحة رقم : 10210

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الإسلام يتحدى -> الشاه عباس الأكبر

على ملاقاته الأتراك، ولكن الخسائر والأحقاد القبلية كانت قد استنزفت جيشه الذي كان كذلك تعوزه أحدث وسائل الفتك والتدمير.

وحوالي هذه الفترة (1598) وصل من إنجلترا إلى فارس في بعثة تجارية إنجليزية مغامران هما سير أنطوني شيرلي وأخوه الأصغر روبرت، يحملان هدايا ثمينة وخبرة عسكرية. وكان برافتهما خبير في صنع المدافع. وتمكن الشاه عباس بمساعدتهما من إعادة تنظيم جيشه، وزوده بالبنادق والسيوف معاً، وسرعان ما توفر لديه 50 مدفعاً. وقاد قواته الجديدة ضد الأتراك وطردهم من تبريز (1603)، واسترد أريغان وشروان وكادن. فأرسل إليه الأتراك جيشاً عروماً قوامه مائة ألف رجل، هزمه عباس بستين ألفاً فقط (1605)، واسترد بذلك أذربيجان وكرديستان والموصل وبغداد وامتد حكم عباس من الفرات إلى السند.

وحتى قبل هذه الحملات الشاقة، كان الشاه عباس قد شرع (1598) في تشييد عاصمة جديدة، أبعد منالاً على الغزاة من تبريز، وأقل تدنساً بذكرات الأجانب وأقدام السنين، كانت أصفهان موعلة في القدم لمدة ألفين من السنين (ولم تكن تحمل هذا الاسم)، وكان عدد سكانها ثمانين ألفاً. وعلى مسافة نحو ميل من المدينة القديمة أقام مهندسوه رقعة مستطيلة اسمها ميدان الشاه أو الميدان الملكي، طولها 1674 قدماً وعرضها 540 قدماً، تحوطها الأشجار وعلى جانبيها منها منتزهات مغطاة اتقاء المطر والشمس. وفي الناحية الجنوبية شيد مسجد الشاه أو المسجد الملكي؛ وإلى الشرق بني مسجد لطف الله والقصر الملكي؛ وشغلت بقية المساحة بالحوانيت والخانات والمدارس. وإلى الغرب من الميدان شق طريق باتساع مائتي قدم "شاهار باع" (البساتين الأربعة) تحف به الأشجار والحدائق تزيينه البرك ولنافورات وعلى جانبي هذا الطريق المزدان بالأشجار قامت قصورا الوزراء. وجرى عبر المدينة نهر زيانند الذي بنيت عليه ثلاثة جسور، كان أحدها "الله فردي خان" تحفة

صفحة رقم : 10211

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الإسلام يتحدى -> الشاه عباس الأكبر

جميلة في فن البناء، يمتد 1164 مع طريق عريض ممهد؛ وممر مقنطر على الجانبين للمشاة؛ وكانت المدينة الجديدة تروى ويبرد بواسطة القنوات والخزانات والنافورات والشلالات. وكان التصميم في مجموعه قطعة رائعة في تخطيط المدن، تضارع أروع ما عرفه ذلك العصر في أي مكان آخر (23). وعندما زار الرسام الفرنسي سيمون أصفهان (1673) دهش عند رؤية حاضرة على مثل هذا النسق في الإدارة والتجارة والصناعات والفنون تحوطها 1500 قرية، ويسكنها 300 ألف نسمة. وكان بالمدينة وضواحيها 162 مسجداً و48 كلية و273 حماماً عاماً و1800 خان (فندق صغير). ووصف تافرنييه أصفهان عندما رآها في 1664 بأنها تضارع باريس في الاتساع ولكن سكانها يبلغون عشر سكان العاصمة الفرنسية، لأن أسرة في أصفهان كان لها بيتها وحديقتها، وأن الأشجار كانت كثيرة إلى حد أنها بدت "غابة لا مدينة" (24) أنها صورة جميلة لولا أن تافرنييه يستطرد فيقول: "وأمام كل بيت حوض تلقى فيه كل أسرة فضلات بطونها. ثم يأتي الفلاحون يومياً ليحملوها ليستخدموها في تسميد أراضيهم، ولا بد أن تقابل في كل البيوت فتحات في الجدران تطل على الشارع. يقبع فيها الناس، ولا يخجلون من المخاط والتبول على مرأى من الدنيا بأسرها" (25). وكان الشاه عباس يدرك تمام الإدراك أن أوربا الغربية تحمد له شغله الأتركي في الشرق، فأرسل سير أنتوني شيرلي في بعثة لإقامة العلاقات بينه وبين الحكومات المسيحية، وفتح الطريق أمام صادرات فارس من الحرير دون تدخل الوسطاء الأتراك. وعندما قدم المندوبون الأوروبيون إلى أصفهان أكرم وفادتهم وأباح الحرية الدينية. وكان قد أسر خمسة آلاف من الأرمن أثناء حروبه مع تركيا، فلم يستعبدهم، ولكن أباح لهم النهوض بمقرهم في جولفا بالقرب من أصفهان، وأفاد من نشاطهم التجاري ومن مهاراتهم. وهناك شادوا كنيستهم الخاصة بهم وزينوها بخليط من الصور المقدسة

صفحة رقم : 10212

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الإسلام يتحدى -> الشاه عباس الأكبر

المسيحية والزخارف الإسلامية ولعبت برأس الشاه عباس فكرة صهر الأديان كلها في دين واحد "وفرض السلام على السموات والأرض" (26). وبطريقة أكثر واقعية استغل الشاه الحماس الشيعي لدى الفرس كأداة لرفع معنوياتهم وروحهم القومية، وشجع شعبه على الحج إلى مشهد على الحج إلى مشهد على أنها مكة مسلمي فارس، وسعى هو بنفسه ثمانمائة ميل من أصفهان إلى مشهد ليؤدي المناسك ويوزع الهبات والصدقات. ومن ثم فإن العمارة التي جعل أصفهان تتألق بها، كانت دينية أساساً، مثل كنيسة العصور الوسطى في الغرب. فكان يحول أموال الفقراء إلى أماكن للعبادة تكون عظمتها وجمالها وهدوءها مفخرة وملكاً للجميع. وكان أعظم ما يثير الإعجاب في مباني العاصمة الجديدة الشاه الذي بناه عباس (1611-1629). وكان "الميدان" مدخلها الرائع وطريقها الفاخر، وبدا الميدان كله وكأنه يؤدي إلى البوابة التي ترحب بالداخلين إليها. وأول ما يبهر العين المآذن التي تطوق المدينة بأبراجها الناتئة المخرمة التي يوحد المؤذنون فيها الله، والخزف اللامع الذي يكسو إطار الأبواب، ثم الأفريز وما عليه من عبارة منقوشة. يتقرب بها عباس إلى الله بهذا الصريح. حتى حروف الهجاء في فارس كانت فناً. وكانت الحوائط داخل العقود مزدانة بعناقيد موشاة بزهور بيضاء. ثم الساحة الداخلية المكشوفة للشمس، ومنها عبر أقواس أخرى إلى الحرم المقدس تحت القبة الكبرى. ويجدر بالمرء أن يقصد إلى الخارج مرة أخرى ليتفحص القبة، والخط الكوفي الرائع عليها. وشكلها المنتفخ، وهي مع ذلك رشيقة جميلة، مغطاة بالتربيعات المطلية بالمينا، في لون أزرق وأخضر في زخرفة عربية بديعة فوق أرضية لازوردية. وعلى الرغم من جور الزمان فإن هذه "حتى في يومنا هذا من أجمل المباني في العالم" (17). وثمة مسجد قد لا يثير الإعجاب بمثل هذا القدر، ولكنه أدق وأرق،

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الإسلام يتحدى -> الشاه عباس الأكبر

وهو الذي شاده الشاه عباس تخليداً لذكر والد زوجته، وهو من أولياء الله الصالحين، وهو مسجد الشيخ لطف الله، وله باب رشيق، وحرَم ومحراب من الفسيفساء الفاتنة، وفوق كل هذا، فإن جماله من الداخل يجعل عن الوصف، وأبعد عن التصديق-الزخارف العربية، والأشكال الهندسية والزهور والحليات الدرجية في رسم متقن موحد. وهذا هو فن تجريدي، ولكن في منطق وتكوين واتساق لا يربك العقل أو يشوش الذهن، بل في نظام يسهل إدراكه، يبعث في النفس الارتياح والهدوء.

وفي الجانب الشرقي من الميدان بنا الشاه عرشاً مكشوفاً تحت قوس كبير "الباب العالي". وفيه استقبل الناس أو شهد سباق الخيل أو مباريات البولو في الميدان. وخلف هذه البوابة كانت تقع الحدائق الشاهانية، وهي تضم عدة قصور استخدمها الشاه لأغراض خاصة. ولا يزال أحد هذه القصور موجوداً، ولكن نال من الزمن كثيراً. أربعون عموداً، قاعة الاستقبال، حجرة العرش قائمة على عشرين عموداً من شجر الدلب، مكسوة بالمرابيا، وقاعة طويلة تزينها رسوم تحكي أحداث عصر الشاه. وكانت أبواب القصر مصنوعة من الخشب المصقول المزدهان بمنظر الحدائق ومجموعات الزهر. وفي متحف المتروبوليتان للفن اثنان من هذه الأبواب. ولا تزال قائمة في مكانها الزخارف الجصية اللامعة، مذهبة، وفي ألوان أخرى، من سقف قاعة الاستقبال. وهنا أيضاً نجد الفن التجريدي، وقد بلغ حد الكمال. في المنطق وفي التصميم.

ووجه الشاه عباس من قصوره المتعددة ومن معسكره حياة مملكته الأخذة في الاتساع. لقد أهتم، مثل معظم الحكام العظام، بكل الجوانب في حياة شعبه. فبنى الطرق والجسور، ومهد الأميال الكثيرة من الطرق ورصفها

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الإسلام يتحدى -> الشاه عباس الأكبر

بالحجارة. وشجع الصناعات والتجارة الخارجية واستخراج المعادن من بطن الأرض. وبنى السدود، وتوسع في ري الأراضي، وأمد المدن بالماء النقي. وجدد المدن التي لحقت بها أضرار-مشهد، قزوین، تبريز، همذان قال تافرنييه: "كثيراً ما تتكر الشاه وجاب أنحاء أصفهان، كأبي مواطن عادي، مدعياً أنه يبيع ويشترى. وكل همه أن يكشف عن التجار المطففين الذين يستخدمون موازين ومقاييس زائفة... فرأى اثنين مجرمين منهم، فأمر بدفنهما أحياء، (28) تلك هي الطريقة الشرقية لغرض احترام القانون وتدعيمه وعند قصور الأشراف الراقية والشرطة، يكون الهدف من صرامة العقوبة كبح جماح النزعة الطبيعية في الإنسان إلى التحلل من القانون أو خرقه. وربما كانت الحياة الحافلة بالحروب هي التي جنحت بالشاه عباس إلى اللجوء إلى هذه القسوة أداة لكبح جماح الناس أو للانتقام. فقتل أبنائه وسمل

عيني آخر (29). ومع ذلك فإن هذا الرجل نفسه نظم الشعر، وقام بكثير من أعمال البر والإحسان، ورعى كثيراً من الفنون. وبموت الشاه عباس (1629) انقضى العصر الذي بلغ فيه الحكم والفن وفي ظل الأسرة الصفوية ذروة المجد. ولكن النظام الذي أرسى دعائمه نشاطه المتصل في كل الميادين، ظل سائداً قرابة قرن من الزمان بعده. وعلى الرغم من تعاقب عدد من الملوك الضعاف احتفظت الأسرة الصفوية بالعرش حتى دهمها غزو الأفغان المفاجئ العنيف لبلاد الفرس (1722-1730) وعلى الرغم من فترة الانحلال السياسي هذه، ظل فن الصفيين محتفظاً بمكانته بين أعظم نتاج لذوق الإنسان ومهارته.

صفحة رقم : 10215

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الإسلام يتحدى -> فارس تحت حكم الأسرة الصفوية

5- فارس تحت حكم الأسرة الصفوية

1722-1576

والآن نلقي بنظرة على عهد الصفيين، من وفاة طهماسب الأول (1576)، حتى نهايته (1722)، لأن هذا تطور ثقافي لا يمكن اقتطاعه، تمشياً مع تسلسل الأحداث في أوروبا. لقد ترك لنا كثير من السانحين الغربيين بيانات مشرقة عن

صفحة رقم : 10216

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الإسلام يتحدى -> فارس تحت حكم الأسرة الصفوية

هذا العصر في فارس. منهم بدور تكسييرا الذي كان هناك 1600 والأب الجزويتي كيوتسنسكي الذي أقام في أصفهان من 1702-1722 وكتب "تاريخ الثورة في فارس" وهو يتناول الأسرة الصفوية بأسرها؛ وجان تافرنييه الذي وصف بالتفصيل رحلاته (1631-1668) في تركيا وفارس والهند وجزر الهند الشرقية، وجان شردان الذي دون في عشرة مجلدات أنباء إقامته في فارس (1664-1677) فإنه على الرغم مما لاقاه من ريح السموم بالقرب من الخليج، وقع في غرام فارس؛ وأثر أصفهان على باريس وقت الصيف، ووجد في جو أصفهان من "الروعة والجمال" ما جعله يقول "أنا نفسي لا أستطيع أن أنساها أو أمسك عن ذكرها لكل إنسان". وقال أن سماء فارس الصافية كان لها أثرها على الفن الفارسي، فأضفت عليه بهاء ورواء ولوناً براقاً. كما كان لها أثرها الطيب على أجسام الفرس وعقولهم (30) واعتقد أن الفرس أفادوا من اختلاطهم بأهل جورجيا والقوقاز الذين اعتبرهم أجمل وأشجع أهل الأرض ولكنهم لا يضارعون الجياد الفارسية في رشاقتهما وجمالها (31).

ولكن هذه البلاد كانت يوماً جنة عدن، ومقر الخلفاء الذين ازدانوا بالجواهر الثمينة، والشعراء الذين نظموا أعذب الشعر، دمرتها غارات المغول وتمزق الحكومة، وإهمال الترع وهي شرايين الحياة، وامتلاؤها بالطمى، وتحول طرق التجارة، فإن اكتشاف طريق مائي في كل أجزاء من غرب أوروبا إلى الهند والصين قد أصاب تجارة فارس بالكساد. على أن بعض التجار انتقل عبر الأنهار إلى الخليج. وفي 1515 استولى البرتغاليون على هومز وهي أهم الثغور على الخليج، وظلوا فيها لمدة قرن. وفي 1622 طردهم منها جيش الشاه عباس بمعونة سفن شركة الهند الشرقية الإنجليزية،

صفحة رقم : 10217

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الإسلام يتحدى -> فارس تحت حكم الأسرة الصفوية

وبنى الشاه بالقرب منها مرفأً تجارياً هو بندر عباس (نجر عباس)، فساعدت التجارة التي نمت فيه على تمويل الفن والبذخ في عهده. وظلت القوافل تسير من الغرب إلى الشرق عبر فارس، وخلقت شيئاً من الثراء في المدن الواقعة على طريقها، ووصف تكسييرا حلب بأنها مدينة تظم 26 ألف بيت، كثير منها مبني من الحجر المصقول، وبعضها يليق لسكنى الأمراء، كما تظم المسلمين والمسيحيين واليهود جنباً إلى جنب، كما كان بها حمامات عامة نظيفة جميلة، وعدة شوارع مرصوفة بالبلاط المصنوع من الرخام (32).

ولم تكن الصناعة قد تجاوزت بعد طور الصناعات اليدوية. صناعة العصور الوسطى التي تتسم بالمتابعة على بذل الجهد والتدقيق الرفيع مع الأناة والبطء ولكن كان في حلب مصنع للحريز، وكان التبغ يزرع في كل مكان ويقول شاردان أنه كان للفرس طريقة في ترشيح التبغ، فكان الدخان يمر بالماء، ومن ثم "ينقى التبغ من كل العناصر الزيتية والضارة (33)" وأصبح التدخين ضرورة ملحة لدى الفرس، "فكانوا يغفلون الطعام ولا يغفلون النرجيلة (34)" وكان الشاه على النقيض من ذلك، فكره عادة التدخين، وحاول أن يشفي منها رجال حاميته بحيلة، فأتى بروث الخيل وجففه، ووضعها بدلاً من التبغ في الأواني التي يملأون منها الأراجيل، وأوضح لهم أن هذا تبغ عالي الثمن أهدها همذان، فدخلوه، وبالغوا في امتداحه. وأقسم أحد الضيوف أن له رائحة تعدل عبير ألف من الزهور، فصاح الشاه "بئس هذا العقار، أنه لا يمكن التمييز بينه وبين روث الخيل (35)".

وكان أي رجل وhibه الله المقدره والكياسة يستطيع أن يحتل مكاناً في حاشية الشاه، فلم يكن هناك اعتبار لأرستقراطية المولد، أو الحسب والنسب (36). فثياب الجنسين من كل الطبقات كانت في أساسها واحدة. رداء يصل إلى الركبتين، ذو أكمام ضيقة، وحزام عريض (مصنوع أحياناً من الحرير الموشى بالزهور) حول الخصر، وقميص من القطن أو الحرير تحت الرداء، وسروال مضموم عند رسغ القدمين، وعمامة تتوج هذا كله. وكتب تافرنييه:

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الإسلام يتحدى -> فارس تحت حكم الأسرة الصفوية

"كانت الملابس النسائية ثمينة، وفيما عدا هذا لا يفترقن عن الرجال في شيء كثير، فارتدين سراويل مثلهم" (37). وأقمن في عزلة في الحريم، وقلما غادرن البيت، فإذا فعلن فنادراً ما سرن على الأقدام. وكان ثمة ثلاثة أجناس، فكان الرجال يوجهون كثيراً من شعر الغزل إلى الغلمان. ورأى توماس هربرت، وهو إنجليزي في بلاط الشاه عباس -"سقاة من الغلمان في صدرات من الذهب، وعمامات مزدانة باللمع (الترتر)، وأخفاف فاخرة، تتدلى خصلات الشعر على أكتافهم، عيونهم يقظة تحوم في كل زاوية، ووجناتهم متوردة" (38). ولحظ شاردان نقصاً في السكان في زمانه، ونسبه إلى:

أولاً: النزعة النكراء لدى الفرس إلى إتيان الفعلة البغيضة، ضد الطبيعة مع الجنسين كليهما. ثانياً: الترف المفرط (الحرية الجنسية) السائد في البلاد، فالنساء هناك يبدأن الحمل في سن مبكرة، ويستمر الإنجاب لفترة قصيرة، وما أن يجاوز سن الثلاثين حتى ينظر إليهن على أنهن عجائز تقدمت بهن السن. ومن ثم يسرع الرجال إلى التردد على النساء في معية الصبا والشباب، في إفراط شديد، وعلى الرغم من أنهم يستمتعون بعدد كبير من النساء، فإنهم لا ينجبون منهم مزيداً من الأطفال قط. وهناك كذلك نساء كثيرات جداً يعمدن إلى الإجهاض، ويلجأن إلى مختلف أنواع العلاج ضد الحمل، لأنهن إذا بلغن الشهر الثالث أو الرابع من الحمل، ينصرف عنهن أزواجهن إلى نساء أخريات حيث يرون أنه ينافي اللياقة أن يقربوا امرأة تقدمت بها أيام الحمل إلى هذا الحد. وكان هناك، على الرغم من تعدد الزوجات، عاهرات أو بغايا كثيرة وانتشر شرب الخمر انتشاراً واسعاً، رغم تحريم الإسلام للخمر. وكثرت المقاهي واشتق اللفظ الأوربي من نظيره العربي "قهوة". وكانت النظافة

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الإسلام يتحدى -> فارس تحت حكم الأسرة الصفوية

أكثر شيوعاً في المظهر منها في الحديث. وكانت الحمامات منتشرة، وكانت أحياناً مزخرفة بشكل جميل. ولكن كثر هناك الابتذال والفحش. وقال عنهم تافرنبيه "أنهم مخادعون مراعون كبار". ويقول شاردن أنهم اعتادوا كثيراً على الغش، ولكنه يضيف أنهم ألطف الناس في الدنيا، متسامحون كرام، أساليبيهم جذابة غاية الجاذبية، وطباعهم لينة غاية اللين، وحديثهم ناعم غاية النعومة... وهم في مجموعهم أكثر الشعوب تمدناً في الشرق وكانوا مولعين بالموسيقى وكان شعراؤهم، في العادة يغنون-القصائد التي ينظمونها.

ويمكن أن نحكم على تفوق الشعراء الفارسيين من مبلغ شعبيتهم وحظوتهم في بلاط المغول في دلهي، ولكن لم يتهياً لأحد منهم في تلك الحقبة مترجم مثل فنز جرالد لينقل إلى أسماع الغرب قصيدهم. وإنا لنعلم أن (عرفي الشيرازي) كان على رأس الشعراء في القرن السادس عشر. وكان يرى أنه أعلى مكانة من (سعدي) على الأقل، ولكن من منا، نحن المحليين في تفكيرنا واهتماماتنا سمع عنه؟. وكان شعره أحب إلى الناس من شخصه، كما نستلخص من (الأصدقاء) الذين جاءوا ليستمتعوا بعلته القتالة.

لقد انحطت قواي إلى هذا الحد، ووقف أصدقائي الفصحاء كالمنابر حول فراشي ووسادتي. واحد منهم يداعب لحيته بيده، وينصب رقبته ويقول. (وا أبتاه)، لمن دامت الدنيا؟ (سبحان من له الدوام).

جدير بالإنسان ألا يتعلق قلبه بالمراتب الزائفة والثروة الزائلة. أين إمبراطور جامشيد وأين الإسكندر؟. ثم يأتي آخر، ويمسح بأكمامه عينيه المبللتين بالدموع، ويقول في صوت رقيق ولفظ حزين: "أيتها الحياة كلنا يسير على هذا الطريق لنرحل عن هذه الدنيا. كلنا مسافرون نعبر عليه، ويمضي بنا الزمن".

صفحة رقم : 10220

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الإسلام يتحدى -> فارس تحت حكم الأسرة الصفوية

وآخر ينمق كلامه بالأفاظ أرق فيقول: استجمع قواك، وهون عليك فإني، لهدف واحد، سوف أجمع أشعارك ونترك وبعد نسخها وتصحيحها، أقدمها عقوداً من الدر تعزز من شأنك وترفع من قدرك. فإلعل الله يمن عليّ بالشفاء فأسترد عافيتي. ولسوف ترى كيف أصب جام غضبي على رؤوس هؤلاء المنافقين التعساء.

وكان منافس "عرفي" في الشعر هو "صائب الأصفهاني" الذي أخذ بسنة الهجرة إلى دلهي، كما هاجر الفنانون الفرنسيون والفلمنكيون في ذلك العصر إلى روما. ولكنه عاد بعد عامين إلى أصفهان، وأصبح شاعر البلاط لدى الشاه عباس الثاني (1632-1666)، وكان ينحو قليلاً نحو الفلسفة، فنظم أبياتاً تفيض بالحكمة:

أن الحديث عن الكفر والإيمان كليهما يؤدي في النهاية إلى نفس المكان والحلم هو الحلم، ولكن المفسرين هم الذين يختلفون... وإن العلاج الوحيد لهذه الدنيا التي لا تقسم أمورها، هو إغفالها وتجاهلها، فإن اليقظ فيها هو الذي يستغرق في سبات عميق.

وأن الموج ليجهل الطبيعة الحقّة للبحر. وكيف يدرك الفاني العابر حقيقة الخالد الباقي، أن أشد ما يقض مضجعي حول يوم البعث هو إنه لزام علينا أن نرى ثانية وجوه البشر.

وإذا فاتنا أن ننعم بموسيقى الشعر الفارسي، ففي مقدورنا أن نستمتع بفن فارس ففي الفن. حديث يمكن استيعابه وفهمه، فإن البراعة والأناقة والذوق، أي كل ما تشكل في فارس على مدى ألفي سنة. وأينع وأتى أكله الآن في العمارة والخزف والتذهيب والخط وحفر الخشب وأشغال المعادن والنسيج والأقمشة المزركشة والسجاد، وكل أولئك روائع تزدان بها متاحف العالم اليوم. وقد علمنا من قبل أن أحسن عمارة هذا العصر شيدت في عهد الشاه عباس الأول في أصفهان. وهناك بنى عباس الثاني (مسجد الأشرف

صفحة رقم : 10221

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الإسلام يتحدى -> فارس تحت حكم الأسرة الصفوية

(1642)، وهناك في غروب شمس الصفويين شاد الشاه حسين (مدرسة أم الشاه) التي قال عنها لورد كيرزون أنها من أفخم أطلال فارس، وثمة مدن أخرى كانت تقاخر بمنشآت جديدة: مثل مدرسة الخان في شيراز، والضريح الضخم لخوجة ربيع في مشهد، والمقبرة المخربة الآن، ولو أنها لا تزال جميلة، وهي مقبرة (قدم جاه) في نيسابور، والجامع الأزرق في أريفان.

وأسس الشاه عباس في أصفهان أكاديمية للرسم، كان مطلوباً من الطلبة فيها كجزء من برنامجهم، وأن ينسخوا أشهر المنمنمات حيث يغلب جمال التصميم ودقة الرسم على الموضوعات والأشخاص. والآن، وواضح أنه نتيجة لأثر أوربا، استباح الرسامون العلمانيون التحول عن التقليد الإسلامي، برسم منمنمات يبرز فيها إنسان على أنه الفكرة الرئيسية والتسلسل هنا قلب الطراز الإيطالي رأساً على عقب. ففي الرسم في عهد النهضة أهملت المناظر الطبيعية أول الأمر، ثم أصبحت خلفية ثانوية، (وربما باضمحلال النزعة الفردية في ظل الإصلاح المضاد) طغت على الأشخاص. ولكن في التصوير الإسلامي كانت رسوم الأشخاص مستبعدة أول الأمر، ثم أبيضت على أنها شيء ثانوي عارض، وفي المراحل المتأخرة فقط (ربما بنمو النزعة الفردية نتيجة للثروة) طغت رسوم الأشخاص وبرزت في الرسم. ومثل هذا في "مدرّب الياز" (46): رجل عظيم يرتدي ثوباً أخضر يعبث بطائر على معصمه مع خليفة أقل بروزاً من زهور ذهبية اللون. وفي "شاعر يجلس في الحديقة" (47) تكشف كل التفاصيل عن الرشاقة الفارسية المتميزة، وثمة ابتداع آخر في الرسوم الحائطية، التي رأينا مثلاً لها في "شهيل سوتون". ولكن الأساتذة العظام تخصصوا في زخرفة القرآن الكريم، أو تذهيب الآثار الأدبية القديمة مثل الشاهنامه للفردوسي، أو جولستان لسعدي، التي ذهبها "مولانا حسن" البغدادي بماء الذهب.

وتفوق في الرسم في هذه الفترة الصفوية الثانية، رضا العباسي، الذي أضاف

صفحة رقم : 10222

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الإسلام يتحدى -> فارس تحت حكم الأسرة الصفوية

اسم الشاه إلى اسمه تقديراً واعتراضاً بالرعاية الملكية. وفاقت شهرته شهرة بهزاد لمدة جيل. وتدهور بعده الفن، فإن حساسية الفن وصفاء الرسم أو دقته، انتهينا إلى إفراط مخنث. وفي نفس الوقت فإن الطراز الفارسي الذي تأثر بالفن الصيني، أثر بدوره في رسم المنمنمات في بلاط المغول، بل حتى في عمارتهم. وذهب حروسية إلى أن "تاج محل" لم يكن إلا فصلاً جديداً في فن أصفهان (48).

وظل الخط فنا رئيسياً في فارس. وكاد مير عماد لنسخه الدقيق للمخطوطات القديمة، أن يظفر بمثل الحب الذي حظي به لدى الشاه عباس رضا العباسي من أجل منمنماته. وكانت الكتب موضع إعزازا وحب لشكلها قدر ما هي لمحتوياتها. فالتجليد الرائع يبهج العينين واليدين كما تفعل الزهرية الرقيقة ووقع الفنانون تجليدات الكتب بمثل الفخر الذي وقعوا به الصور، فنقش على جلد كتاب مذهبة من أوائل القرن السابع عشر، "من صنع محمد صالح التبريزي" (49). وثمة غلاف آخر مصنوع من الورق المعجن، وعليه رسوم "بورنيس الملك"، موقع عليه باسم على الرضا. ومؤرخة في 1713 (50) وكلاهما جميل إلى حد مغز.

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الإسلام يتحدى -> فارس تحت حكم الأسرة الصفوية

بالرسوم في المدن الفارسية لتبهر الأنظار، بعد القباب أو عليها، إن طول عمرها ليثير الدهشة من فن صناعة الخزف، الذي يهين طول البقاء لمثل هذا البريق. وإطالة عمر اللون بتزجيجه بالنار كانت من المهارات القديمة في فارس. لقد كانت التربيغات المزججة في سوسة عاصمة دارا الأول ملك الفرس (400 ق.م.) فريدة من نوعها بالفعل. وكانت سبائك الذهب والفضة والنحاس وسائر المعادن تصهر لتخرج ألواناً أكثر لمعاناً، وخاصة الأحمر الباقوتي والأزرق الفيروزي، وكانت مضاعفة الإحراق تزيد من صلابة الصلصال والتزجيح ليقاوم فعل الزمن. ويحتمل أن يكون الأرمين قد استخدموا الخزافين الفرس لصنع التربيغات في كنيستهم المسيحية في جولفا وهي تبلغ في دقتها المنمنمات. وربما كان أجمل منها، التربيغات المحلاة بالرسوم في مجموعة كوركين، المنسوبة إلى أصفهان في النصف الثاني من القرن السابع عشر (51).

واستمر الخزافون في أصفهان وكاشان وغيرهما، يبدعون أشكالاً من الخزف-القاني والزبيديات والأباريق والأطباق والفناجين، مطلية تحت التزجيح بألوان مختلفة على أرضيات متنوعة. وأصبح الخزف المزخرف الفسيفساء مادة أثرية لتغطية الجدران في المساجد والقصور. واستورد الشاه عباس الخزف الصيني، وحاول خزافوه أن ينسخوه طبق الأصل، ولكن أعوزتهم الطينة والمهارة. ومرة أخرى بفضل استحثاث الحاكم وتشجيعه بذلت المحاولات في أصفهان وشيراز لمنافسة زجاج البندقية. وتفوق صناع الأشغال المعدنية في نقش النحاس وتطعيمه، وثمة نموذج جميل منها يرجع إلى 1579 شمعدان موجود في متحف متروبوليتان للفن، وفي الارميتاج في لندرا غمد سيف من الذهب مرصع بقطع كبيرة من الزمرد دقيقة الصنع.

وكانت صناعة النسيج صناعة رئيسية وفتاً. وشغل الرسامون والنساجون والصباعون حيزاً كبيراً في أصفهان. وكانوا يعدون بالآلاف. وكان إنتاجهم هو السلعة الرئيسية في تجارة الصادرات. كما أنه أكسب فارس شهرة عالمية في أقمشة الأطلس والمخمل والتفتة والمطرزات والحرائر. وكان الشاه عباس كلما أراد أن يقدم هدية خاصة ثمينة، اختار بعض التحف من إنتاج الأنوال الفارسية. ويقول شاردان "أن الثياب التي أهداها بهذه الطريقة لا حصر لها" (52) والثياب التي يرتديها الشاه ورجال حاشيته من الحرير والأقمشة المقصبة والمطرزة كانت رائعة الجمال إلى حد ذهب معه شاردان إلى أنها لا مثيل لها في ملابس أي بلاط في أوربا. وكتب يقول "إن فن الصباغة أدخل عليه في فارس تحسين أكثر منه في أوربا، فكانت الألوان أكثر ثباتاً ولمعاناً، ولا تحول بسرعة" (53). ولم يكن لمخمل كاشان نظير في أي مكان آخر. ولا تزال بعض قطع منه من أروع المعروضات في متاحف بوسطن ونيويورك

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الإسلام يتحدى -> فارس تحت حكم الأسرة الصفوية

وسان فرانسيسكو وواشنطن. ومن بين التحف التي استولت عليها القوات المسيحية بعد ارتداد الأتراك عن فيينا بساط من المخمل الحريري المقصب، من الواضح أنه صنع في أصفهان في عهد الشاه عباس(45). وبلغ النسيج الفارسي ذروته في التصميم وصنع الجلد، وشهد عصر الشاه عباس غاية مجد هذا الفن في فارس. وكاد السجاد أن يكون ضرورياً للفارسي قدر حاجته إلى الملابس، وقال توماس هربرت في القرن السابع عشر: "كان في بيوت الفرس قليل من الأثاث والأدوات المنزلية، اللهم إلا السجاجيد وبعض أشغال النحاس... وكانوا يتناولون الطعام وهم متربعون على السجاد على الأرض، مثل حائكي الملابس. وليس ثمة إنسان مهما قل شأنه إلا جلس على سجادة ثمينة أو غير ثمينة. وكل الدار أو الحجرة...مغطاة بالسجاد(55) وساد آنذاك اللون القرمزي القاتم أو الأحمر الخمرى الداكن، ولكن التصميم أو الرسم كان هادئاً مريحاً للنظر، بغية إحداث التوازن بين هذه الوفرة التي تزخر بها السجادة، ولو أنها صممت لإبراز موضوع رئيسي بمنطق مقبول. وقد يكون هذا التصميم هندسياً، وهنا تكون متنوعات لا حصر لها، تضيء على إقليدس جمالاً وبهاء. وكثيراً ما قام التصميم على الأزهار، وهنا تستمتع العين بتشكيلة غنية من الأزهار، ولكنها منسقة تنسيقاً جميلاً، تمثل النتائج المحبب إلى الناس في حدائقهم: أزهار مصفوفة في أصص، أو منثورة هنا وهناك، أو أزهار يصورها الخيال ولا تراها العين، مع زخارف عربية تناسب هنا وهناك في رشاقة وروية. وفي بعض الأحيان كانت الحديقة نفسها تزود بالتصميم: الأشجار والشجيرات والمزاهر، والمياه الجارية، رتبت كلها في شكل هندسي، وقد يتركز التصميم حول رسم كبير ناظر تتدلى منه نتوءات في كل الأطراف، وقد يعرض الزخارف الحيوانية أو مناظر الصيد. ويأتي بعد ذلك الجهد المضني والصبر الطويل: مد الخيوط طولاً في اللحمة على النوال ونسجها مع خيوط السداة العرضية، وحياسة عقد صغيرة من

صفحة رقم : 10225

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الإسلام يتحدى -> فارس تحت حكم الأسرة الصفوية

الصوف أو الحريري الملون في اللحمة، لتلوين "الوبر" والرسم، وقد يكون في البوصة المربعة 1200 عقدة، أو 90 مليوناً من العقد في سجادة مساحتها 23 قدماً مربعاً(56). ويبدو أن العبودية قد نسجت هذا الفن أو ارتبطت به، ولكن العامل كان ينهيه عجباً بدقة وجمال ما أخرجت يده، محولاً هذه التشكيلة العجيبة من المواد إلى كل منتظم متناسق متسلسل الأجزاء. وكان هذا السجاد يصنع في اثني عشر مركزاً في فارس وأفغانستان والقوقاز ليضفي رواء وبهاء على القصور والمساجد والبيوت، أو ليقدم هدايا ثمينة إلى الملوك والأصدقاء. ومر السجاد الفارسي والتذهيب الفارسي بتطورات مشابهة في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وتأثراً "بأشرطة السحاب" وغيرها من الرسوم من الصين. وكان لهما بدورهما أثر على الفنون في تركيا والهند. وبلغا ذروة التفوق والامتياز على عهد الصفويين وما أن جاء عام 1790 حتى أنتج السجاد الفارسي على أساس الكم، فتسرعوا في تصميمه ونسجه لسوق أوسع وأقل إلحاحاً على البراعة والإتقان، وبخاصة السوق الأوروبية. ومهما يكن من أمر، فإنه حتى في هذه الحقبة، كانت هناك قطع نادرة فريدة، لا نظير لها من حيث النسيج واللون والرسم في أي مكان آخر في العالم.

وهكذا كانت فارس، وهكذا كان الإسلام في آخر ازدهار لسلطانها وفنهما-حضارة تختلف اختلافاً عميقاً عن حضارتنا في الغرب، وفي بعض الأحيان معادية عداء مقروناً بالازدراء، تدمغنا بأننا مشركون ماديون، وتسخر من أخذنا بنظام الزوجة الواحدة وهو أشبه ما يكون بنظام الأمومة، وأحياناً انقضت علينا تقتحم أبوابنا كالسيل الجارف، وما كان ينتظر منا أن نتقهما أو نعجب بفنهما حين كان الجدل شديداً بين المسلم والمسيحي، ولم يكن قد ثار بعد بين دارون والمسيح، ولم تنته المنافسة بين الثقافتين بعد، ولكنها في الكثير الغالب توقفت عن سفك الدماء، ولكل منهما مطلق

صفحة رقم : 10226

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> الإسلام يتحدى -> فارس تحت حكم الأسرة الصفوية

الحرية في الامتزاج بالأخرى عن طريق التأثير المتبادل، فالشرق يأخذ عنا صناعاتنا وأسلحتنا، ويصبح غربياً. ولقي الغرب نصباً من الثراء والحرب، وبات يلتمس شيئاً من هدوء البال وطمأنينة النفس. وربما ساعدنا نحن الشرق على التخفيف من الفقر والخرافة، وأعنا الشرق على التواضع في الفلسفة والتهديب في الفنون. فالشرق غرب، والغرب شرق، ولا بد عاجلاً أن يلتقي الاثنان.

صفحة رقم : 10227

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> الأباطرة

الفصل الحادي والعشرون

"هرمجدون"

الحرب الإمبراطورية الفاصلة

1564 - 1648

1- الأباطرة

في عام 1564 كانت الإمبراطورية الرومانية المقدسة-برغم أنها، كما قال فولتير، لم تكن، لا إمبراطورية، ولا رومانية، ولا مقدسة-خليطاً رائعاً من دول مستقلة: ألمانيا، ولكسمبورج، وفرانس-كونتية، واللورين، وسويسراً، والنمسا، وبوهيميا، ومورافيا، وجزء من المجر. وكانت هذه كلها تدين بالولاء والسلطان للإمبراطور مكسمليان الثاني سليل بيت هابسبرج العريق، الذي حكم الإمبراطورية منذ 1438 وسيواصل حكمها حتى 1808. وبعد أن اعتزل شارل الخامس الملك (1555-1556) اقتسمت الأسرة نصف أوربا بين فرعيها، فحكم الهابسبرج الأسبان فحكموا أسبانيا وولاياتها. وندر في التاريخ أن تسلطت أسرة واحدة حقبة هذا طولها على أناس هذا عددهم. وكان حكم آل هابسبرج أكثر تحرراً في الإمبراطورية في أسبانيا، لأن الدول التي تألفت منها الإمبراطورية كانت تختلف أشد الاختلاف سواء في الحكومة، أو اللغة، أو الدين، أو الصفات العرقية، عجزت حتى

صفحة رقم : 10228

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> الأباطرة

سلطة آل هابسبرج وهيبته عن منع هذه القوى المندفعة بعيداً عن المركز من أن تحيل الإمبراطورية إلى رابطة واهية عن وحدات تحكم ذاتها في عزة وكبرياء أما الديت الإمبراطوري، الذي لم يكن يلتئم شمله إلا بين الحين والحين، فقد وجدوا أن الحد من سلطان الإمبراطور أيسر من تشريع قوانين تقبلها كل الدول، وأما الناخبون الإمبراطوريون السبعة الذين كانوا يختارون الإمبراطور، فقد سيطروا عليه بالعهود والمواثيق التي انتزعوها منه ثمناً لانتخابه. وهؤلاء الناخبون هم ملك بوهيميا، وحكام سكسونيا، وبراندنبورج، والبالاتينات، و "الناخبون الروحيون" -أي رؤساء أساقفة كولونيا، وتريير، وماينز. ولم يحكم الإمبراطور حكماً مباشراً سوى النمسا، واستريا، وكارنثيا، وكاروليا، والتيرول،

وأحياناً بوهيميا، ومورافيا، وسيليزيا، وغرب المجر. وكانت موارده المستقلة ثابتة من هذه الأقطار، فإذا أراد مزيداً من الموارد فعليه أن يتخذ سمته وقبعته في يده، إلى الديت الإمبراطوري الذي بيده مفاتيح المال. حين مات فرديناند الأول (أخو شارل الخامس) في 1564، نقل الناخبون التاج الإمبراطوري لولده مكسمليان الثاني، الذي ظفر من قبل بتاجي بوهيميا والمجر. وكان محبباً للناس إلى حد لا يناسب إمبراطوراً. فقد اصطفى الجميع في دفء طبعة الطيب وروحه المرححة، ولطفه وأدبه مع كل الطبقات، وعقله وفؤاده المفتوحين، فإذا أضفت إلى ذلك كله ذكاءه وتسامحه وتشجيعه للعلم والموسيقى، والفن، اجتمعت لك صورة سيد مهذب "جنتلمان" لم يصدق الناس أنه توج. وكان قد رعى تبوأه العرش للخطر حين أثر الوعاظ اللوثريين على نظرائهم الكاثوليك، وأصر على تناول الأسرار المقدسة بالخمير والخبز، ولم يمتثل للطقس الكاثوليك، امتثالاً ظاهراً إلا حين أكره على الخيار بين الرجوع إلى حظيرة الكنيسة الرومانية أو اعتزال الحياة العامة على أنه حمى البروتستنت خلال ذلك من الاضطهاد. وقد ندد بمذبحة القديس برثلميوس وقال أنها قتل بالجملة (1)، وسمح لوليم أورنج بتجنيد جيش في ألمانيا

صفحة رقم : 10229

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> الأباطرة

لقتال دوق ألبا في الأراضي المنخفضة. وفي هذا العصر الذي سادته التعصب والحرب، ضرب لدول الإمبراطورية وعقائدها مثلاً رائعاً في تسامح بريء من اللامبالاة، وسلام لم يشبهه الجين. وحين حضرته المنية (1576) أبى أن يتقبل آخر الشعائر من كنيسة روما، ولكن الإمبراطورية بأسرها اجتمعت على الترحم عليه. وكانه قد أقنع الناخبين بقبول ولده رودلف خلفاً له، برغم ما راه فيه بلا ريب من طباع أو آثار تعليم خطيرة على الوفاق الديني. فلقد كان رودلف الثاني بطبعه شكاكاً مكتئباً. وكان من الجائز أن يصبح الوريث لفيليب الثاني لذلك بعث به إلى أسبانيا ليتلقى جزءاً من تعليمه المدرسي، ففضى اليسوعيون هناك على كل ميل فيه للتسامح. وما لبث عقب ارتقاء العرش أن فرض القيود الصارمة على حرية العبادة البروتستانتية وعمل على الحد من انتشارها زاعماً-وله بعض الحق(2)-أن عنف الجدل الديني، وتعصب الشيع البروتستانتية فيما بينها، يقوضان سلام الإمبراطورية واستقرارها. على أنه لم يكن خلواً من الفضائل التي حببت الناس في أبيه فقد عاش في بساطة وتواضع دون تكلف لأبهة الإمبراطورية. وحين انتقد أحد أخوته رفعة الكلفة مع الفقراء والوضعاء أجاب: "ينبغي ألا ينسينا سمونا فوق الناس بمكانتنا وعراقة محتدنا أننا مرتبطون مع سائر البشر بنقائصنا وعيوبنا(3)".

والحق أنه أثر أن يكون عالماً على أن يكون إمبراطوراً. تعلم ست لغات، ومارس كل علم وفن تقريباً، واقتنى مجموعات ثمينة من الصور والتماثيل وأنواع النبات وعينات الحيوان. وأعان الشعراء والمؤرخين، وأنشأ الكثير من المدارس. وحدث الرياضيات والفيزياء والكيمياء والفلك والطب وكذلك الكيمياء القديمة والتنجيم، وأمد بالمال البحوث الفلكية التي اضطلع بها تيكونبراهي وكبلر اللذان اهدياه جدولهما الرودلفية للنجوم. وإذ استغرقه العلم وهو في قصره ببراغ-التي اختارها عاصمة له- فإنه لم يجد

صفحة رقم : 10230

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة
-> الأباطرة

وقتاً للزواج، ولم يتسع له الوقت الكثير للحكم. فلم يحضر أي اجتماع الديت بعد 1594، ورفض أن يوقع أوراقاً رسمية بعد 1598 وفوض بالسلطة نواباً ذوي حظوة لديه، ولكن تعوزهم الكفاية. ولما تقدم به العمر انحدر عقله لا إلى درك الجنون، بل إلى حال من العزلة يشوبها الاكتئاب وطول التفكير ويلازمها خوف الاغتيال. فإنه رأي فيما يرى النائم- أو لعل تيكوبراهي قد طالع في النجوم(4)- أن قاتله سيكون راهباً فأنتهى به الأمر إلى الارتياح في رجال الدين الكاثوليك ولا سيما اليسوعيين(5)، ثم أكرهته الضغوط الداخلية والخارجية على التخلي لأخيه الأصغر ماتياس في 1608 عن حكم النمسا والمجر ومورافيا، وفي 1611 عن عرش بوهيميا وكل ما بقي له من سلطات. ومات في 1612.

أما ماتياس فكان قد بلغ الخامسة والخمسين، بعد أن أقعدته الحملات الحربية عن الاستمتاع بالحكم النشط. لذلك عهد بالحكم والسياسة جميعاً إلى ملشيور كليزل أسقف فيينا القدير الحي الضمير. ولكن كليزل أغضب الكاثوليك بما قدم للبروتستانت من تنازلات، وأغضب البروتستانت لأن هذه التنازلات كانت دون ما يبتغون. وأعتقل فرديناند، أرشيدوق استيريا، وابن عم ماتياس، الأسقف كليزل (1618)، وظفر بانتخابه إمبراطوراً عقب موت ماتياس (1619). وهنا كانت هرمجدون قد اندلع لهيبها.

صفحة رقم : 10231

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة
-> الإمبراطورية

2- الإمبراطورية

لم تكن سويسرا جزءاً من الإمبراطورية إلا صورياً، وتركت الانتصارات المؤزرة التي أحرزتها البلاد على الأباطرة وكبار الأدياق، والولايات السويسرية (الكانتونات) حرة في التناحر فيما بينها. فانضمت سافوي وأسبانيا إلى الولايات الكاثوليكية التي ترعمتها لوسرن، في جهود دبلوماسية أو حربية لإرجاع الولايات البروتستانتية إلى حظيرة الكنيسة الرومانية. وبدأ اليسوعيون

صفحة رقم : 10232

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة
-> الإمبراطورية

من كليتهم يلويسرن في 1577 حملة من التعليم والوعظ والدس. وأصلح ممثلوا البابا في سويسرا الفساد في رجال الدين الكاثوليك، وقضوا على التسري بين الكهنة، وصدوا التأثيرات البروتستانتية المنبعثة من زيوريخ وجنيف وبرن. وكانت جنيف تقيق ببطء من سلطان كلفن. فقد خلف يتودور دي بيز أستاذه (1664) زعيماً لجماعة "الرعاة" الموقرة والمجمع الكنسي "للرعاة والعلمانيين"، وعن طريقهم واصل عمل الكنيسة المنصلحة في لباقة وكياسة لم يقوَ على إحباطهما سوى "الكرهية اللاهوتية" وسافر في أرجاء فرنسا ليحضر المجمع الكلفنية، وقد شهدناه يدافع عن قضية البروتستانتية في مؤتمر بواسي. وكافح في وطنه، وإن لم يوفق كل التوفيق في كفاحه، ليحافظ على الفضيلة الصارمة التي فرضها كلفن على الناس. فلما انحرف كبار رجال الأعمال أكثر فأكثر عن هذه الجادة، قاد بيز رجال الدين في حملة للتتديد بالربا، والاحتكار، والاستغلال، وحين اقترح مجلس المدينة أن يقتصر الوعاظ في وعظهم على مسائل الدين، أجاب بيز بأنه يجب ألا يقصي أي شأن من شؤون البشر عن دائرة الدين (6). وهو من بين كبار زعماء الإصلاح البروتستانتية الوحيد الذي أدرك القرن السابع عشر، وقد مات في 1608 بالغاً التاسعة والثمانين. أما دور النمسا في الإمبراطورية فكان مركزياً. ذلك أنها كانت عادة وطن الأباطرة، وكانت حصن الحضارة الغربية الحصين في وجه الأتراك الطامعين، للإصلاح الكاثوليكي في حرب الثلاثين. ومع ذلك فقد أتى عليها عهد كانت تنذبذب فيه بين الكاثوليكية البروتستانتية بل بين المسيحية والكفر. ففي عهد فرديناند الأول (1556-1564) قررت معظم الأبرشيات النمساوية كتاب التعليم المسيحي اللوثري. وكانت اللوثرية المذهب السائد في جامعة فيينا، وأباح الديت النمساوي تناول القربان بالخمير والخبز، وزواج رجال الدين. "كان الناس يعدونها علامة من علامات

صفحة رقم : 10233

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة
-> الإمبراطورية

العقل المستتير أن يحتقر صاحبه عادة الدفن المسيحي. وأن يدفن الميت دون مساعدة من قسيس.... وبغير صليب". وفي تقدير أحد الوعاظ في 1567 "أن الألوفا وعشرات الألوفا في المدن-أجل، بل في القرى- لم يعودوا يؤمنون بالله(7)". فلما خشي الإمبراطور فرديناند انهيار الدعم الديني للحكومة النمساوية وسلطة آل هابسبرج. دعا بطرس كانيسيوس وغيره من اليسوعيين إلى جامعة فيينا. وبدأت الكاثوليكية تستعيد مكانتها بفضل زعامتهم، لأن هؤلاء الرجال المتمرسين جمعوا بين العقل المرهف الصابر، وبساطة العيش التي وقعت أفضل موقع في النفوس. فما وافى عام 1598 حتى غدت كنيسة روما سيدة الموقف. ومثل هذا التغيير طراً على المجر المسيحية. فقد دان ثلثا المجر للحكم التركي منذ 1526، وكانت الحدود التركية تبعد عن فيينا بأقل من مائة ميل، ولم يقوَ الأباطرة على المحافظة على السلام مع تركيا إلا بدفع جزية سنوية للسلاطين حتى عام 1606.. وكانت ترانسلفانيا الواقعة إلى الشمال الشرقي من المجر التركية تؤدي مثل هذه الجزية، ولكن حدث في عام 1606 أن أوصى أميرها ستيفن بوكسكاي بالإقليم لآل هابسبرج قبيل موته دون عقب.

أما ديت المجر النمساوية فكان منذ 1526 يؤيد حركة الإصلاح البروتستانتي، فقد هيمن عليه النبلاء على أملاك الكنيسة الكاثوليكية(8). وفي ظل الحرية الدينية التي صانوها ظفرت البروتستانتية بمكان السيادة بين الطبقات المتعلمة. ولكن سرعان ما انقسمت شيعاً لوثرية، وكلفنية، وتوحيدية، وتفرقت التوحيديون ملأاً أصغر لاختلافهم على صواب توجيه الصلوات إلى المسيح. ولم ير النبلاء بعد أن استتب لهم الأمر في ممتلكاتهم مبرراً بعد ذلك للبروتستانتية. لذلك رحبوا ببطرس بازماني وغيره من اليسوعيين، وقبلوا التحول "المثالي" إلى الكاثوليكية، وطردها "الرعاة" البروتستانت(9). واستبدلوا بهم القساوسة الكاثوليك، وفي عام 1618 أصبح فرديناند أرشيدوق

صفحة رقم : 10234

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> الإمبراطورية

استريا ملكاً على المجر، فعزز حركة الإصلاح الكاثوليكي تعزيزاً نشيطاً. وفي ديت 1625 استعاد الكاثوليك أغليبيتهم. وأصبح بازماني كرديناً وكاتباً من أبلغ مؤلفي العصر المجريين، مع أنه ابن رجل كلفني المذهب. وأما بوهيميا والأقاليم التابعة لها-وهي مورافيا وسيليزيا ولوزاتيا-فكانت تغلب عليها البروتستانتية عام 1560. واعترفت الولايات الأربع بملك بوهيميا يسداً عليها، غير أنه كان لكل ولاية مجلسها القومي وقوانينها وعاصمتها- براغ، وبرون (برنو)، وبرسلاو، وبوتزن، وكانت براغ في ذلك الحين من أجمل مدن أوروبا وأكثرها ازدهاراً. ولم يكن مسموحاً بالتصويت بالديت البوهيمي إلا لملاك الأرض البالغ عددهم ألفاً وأربعمائة ولكن كان من بين أعضائه ممثلون لسكان المدن والفلاحين، أتاح لهم سلطان المال نفوذاً جاوز مجرد الكلام. وكان معظم النبلاء لوثريين، ومعظم مواطني المدن لوثريين أو كلفنيين، ومعظم الفلاحين كاثوليكاً. ولكن قلة منهم كانت "أوتراكية" تخلوا في عام 1587 عن تقاليدهم الهسية (مذهب المصلح الديني البوهيمي، والشهيد جون هس 1369-1415)، ولم يتمسكوا إلا بتناول القربان بالخبز والخمر، وأخيراً تصالحوا مع كنيسة روما (1593). أما أكثر الطوائف الدينية إخلاصاً فكانوا "الأنيناس فراتروم"-وهم الأخوان البوهيميون أو المورافيون-الذين أخذوا موعظة المسيح على الجبل مأخذ الجد، وعزفوا عن كل الحرف والمهن إلا الزراعة، وعاشوا في بساطة كبسطة تولستوي المسالمة. وفي عام 1555 جلب فرديناند الأول اليسوعيين إلى بوهيميا. فأنشئوا كلية في براغ وربوا "كادراً" من الكاثوليك الغيورين، واكتسبوا الكثيرين من النبلاء الذين تزوجوا بنساء كاثوليكيات. ثم أصدر رودلف الثاني مراسيم. نفي الأخوان البوهيميين أولاً، قم الكلفنيين، غير أن الوسائل أعوزته لتنفيذ هذه المراسيم. وفي عام 1609 أفتعه البروتستانت بأن يوقع

صفحة رقم : 10235

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> الإمبراطورية

الميثاق الملكي "الشهير" الذي كفل حرية العبادة للبروتستانت في بوهيميا. وبعد عامين نزل رودلف عن العرش لماتياس، ونقل هذا قضية الإمبراطورية إلى فيينا، وترك براغ مغیظة ثائرة. وفي عام 1617 اعترف الديت البوهيمي بالأرشيديوق فرديناند الاستيري ملكاً على بوهيميا، وكان عدد الكاثوليك يتكاثر في هذا الديت برغم أن البلاد ما زال أغلب أهلها من البروتستانت (11)، وكان فرديناند هذا قد تعلم على يد اليسوعيين وأقسم أن يستأصل شأفة البروتستانتية إن حكم. واتخذ بروتستانت بوهيميا أهبتهم للحرب. أما ألمانيا فكانت أخلاطاً من الأمم داخل كيان معقد، كانت اسماً لا شعباً ومزيجاً من إمارات تتفق في لغتها واقتصادها، وتنبأين أشد التباين في عاداتها، وحكمها، وعملاتها وعقائدها. ولم تعترف أي من هذه الوحدات بسيد عليها إلا الإمبراطور فقط ثم هي تتجاهله خمسين أسبوعاً في السنة. وقد وجد بعض الأجانب عزاءً في انقسام ألمانيا على هذا النحو فكتب سير توماس أوفريري في 1609 يقول، لو أنها كانت كلها خاضعة لنظام ملك واحد لكان ذلك

صفحة رقم : 10236

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> الإمبراطورية

أمرأ رهيباً بالنسبة لباقي أوروبا (12) لا بل أن هذا الوضع ارتاحت إليه ألمانيا من وجوه كثيرة. صحيح أنه أضعفها في المنافسة السياسية والحربية مع الدول الموحدة، ولكنه أعطاها حرية محلية، وتنوعاً دينياً وثقافياً قد يفضله الألمان بحق على أرسنقراطية متمركزة مضمينة كأرسنقراطية فيليب الثاني في أسبانيا ولويس الرابع عشر في فرنسا. فلم تكن هنا باريس تطغى وتعج بسكانها وتمتص دم الحياة من قطر بأكمله بل كوكبة من مدن مشهورة لكل منها طابعها وحيويتها. على أن ألمانيا لم تعد تحظى بذلك التفوق الاقتصادي الذي كان لها في شمال لأوروبا قبل لوثر، برغم هذه التشكيلة من المدن العظيمة والبلاطات الصغيرة. ذلك أن كشف طريق بحري خالص من غرب أوروبا إلى الهند، وفتح الأطلنطي للتجارة، أفادا البرتغال وأسبانيا أولاً، ثم إنجلترا والأراضي الوطينة بعدهما، وقد أضر بايطاليا التي هيمنت من قبل على تجارة الشرق، وشاركت في اضمحلال إيطاليا تلك الأنهار والمدن الألمانية التي كانت تنقل التجارة من إيطاليا إلى الشمال. فأخذت ثغور الأراضي الوطينة في بحر الشمال، وثغور الدنمرك وبولندا في البلطيق، معظم التجارة والمكوس. أما عصابة الهانسا فكانت قد فقدت تفوقها الماضي منذ زمن طويل، ودمرت لوبك في حربها الطويلة مع السويد (1563-1570). ولم تحتفظ بثرانها غير فرانكفورت على الراين، وطلت سوقها السنوية أحفل أسواق أوروبا بالقصاد، وقد أحالت المدينة إلى مركز لتجارة ألمانيا الداخلية والمالية الدولية. أما إقبال الناس على المال فظل على حاله. وتهرب الناس في كل مكان من المراسيم التي حرمت تقاضي فائدة تربي على 5%. قال قسيس في 1585 "إن رذيلة الربا الكافرة يمارسها الآن المسيحيون في حرص أشد من حرص اليهود في الماضي" وشكا واعظ في 1581 من أن "ولعاً غير مسيحي بالذهب

صفحة رقم : 10237

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة
-> الإمبراطورية

قد تسلط على كل الناس من جميع الطبقات. فكل من ملك شيئاً يغامر به، يفكر في الإثراء... بشتى أساليب المضاربة،
والتعامل في النقود، وعقود الربا، بدلاً من القيام بعمل أمين شاق" (13). واستثمر المئات من العاملين مدخراتهم مع
أحد بيوت فوجر، أو فيلزر، أو هو خشتيتر المالية، ثم خرجت بيوتهم في إفلاسات متكررة. وفي عام 1572 أفلس بنك
إخوان لوتيزر بعد أن جمع أموالاً طائلة من صغار المستثمرين، فأفقدهم بذلك مدخراتهم بل بيوتهم (14). أما بيت
فوجرز فقد جلب عليه الخراب إفلاس فيليب الثاني ودوق ألفا اللذين شارك هذا البيت في تمويلهما (15). كذلك أفلس
بيت فيلزر في 1614 وبلغت ديونه 586.000 جولدن. ولعل الخوف من التضخم دفع الناس إلى مثل هذه
الاستثمارات، لأن كل أمير ألماني تقريباً كان يسرق من شعبه بتخفيض العملة، ولأن اللذين زيفوا العملة أو اقتطعوا
حواقيها تكاثر عددهم. فما وافى عام 1600 حتى كانت العملات الألمانية تتردى في فوضى شائنة.
وزاد عدد السكان بينما تخلف الإنتاج، ودفع برد الشتاء الناس إلى شفا الثورة. وأكره الفلاحون في جميع الأقاليم-
باستثناء سكسونيا وبافاريا على أن يصبحوا أقناناً. وفي بوهرانيا ويراندنبرج وشلزويج وهولشتين وميكلنبورج
شرعت القنية (رق الأرض) في سنة 1616 أو بعد (16) وقد تساءل كاتب في سنة 1958 "ترى في أي أرض ألمانية
ما زال الفلاح الألماني يتمتع بحقوقه القديمة؟ وأين يتاح له أي انتفاع أو ربح من الحقول أو المراعي أو الغابات
المشاعة؟ وأين يتوقف عدد الخدمات أو الالتزامات الإقطاعية؟ وأين يجد الفلاح محكمته الخاصة؟ ألا فليسبغ الله عليه
رحمته (17) وذهب الكثير من الفلاحين للعمل في باطن الأرض، ولكن أرباح التعدين وأجوره الحقيقية تضاعلت حين
دخلت الفضة الأمريكية ألمانيا لتنافس المعدن المستخرج بشق الأنفس من عروق معدنية مستهلكة. أما في المدن فإن
زمانة النقابات القديمة أفسحت الطريق لاستغلال أرباب الصناعات لعمال اليومية. وكان يوم العمل في بعض
الصناعات يبدأ في الرابعة صباحاً وينتهي في السابعة مساءً، يتخلل ذلك

صفحة رقم : 10238

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة
-> الإمبراطورية

"فترات لتعاطي الجعة"، وقد انتزعت نقابة النحاسيين من العمال في عام 1573 أسبوع عمل بلغت جملة ساعاته اثنتين
وتسعين (18). ومنذ عام 1579 نسمع بإضرابات ضد استخدام الآلات في صناعة النسيج بألمانيا (19). وهكذا لم يبق
إلا نشوب الحرب حتى يصبح الفقر المدقع كارثة لا نظير لها.

صفحة رقم : 10239

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة
-> الأخلاق وآداب السلوك

3- الأخلاق وآداب السلوك

إذا صدقنا مزاعم الأخلاقيين في نصف القرن الذي نحن بصدده، كانت صورة الأخلاق لا تقل قياماً عن صورة الاقتصاد. فقد شكوا المدرسون من أن الصغار الذين يعهد إليهم بتعليمهم ليسوا مسيحيين بل همج. وكتب ماتياس بريدينباخ عام 1557 يقول: "أن الناس يربون أبناءهم تربية بلغت غاية السوء بحيث أصبحوا واضعاً للمعلمين المساكين... أن عليهم أن يتعاملوا... مع وحوش ضارية" (20) وقال آخر عام 1561 "يبدو أن كل نظام أصبح في خبير كان، إن التلاميذ جاوزوا الحدود في العصيان والوقاحة" (21). وفي معظم مدن الجامعات كان المواطنون يترددون في الخروج ليلاً خوفاً من الطلاب الذين يهاجمونهم أحياناً بمداهم المفتوحة (22). كتب ناتان كترانسين في 1578 يقول: "لا شك أن من أهم أسباب انحلال أخلاق الطلاب الذي عم الآن هو تدهور التربية المنزلية. فلا عجب، بعد أن خلعنا عن أعناقنا نير القوانين والشرائع القديمة... أن نشهد بين الشطر الأعظم من شباننا مثل هذه الإباحة المطلقة، والجهل المطلق، والوقاحة المستعصية، والإلحاد الرهيب" (23). ورأى غير هؤلاء "أن التمثيلات الهزلية والعروض والمسرحيات ليست من الأسباب الهينة التي ألفت بالشباب في مهاري الرذيلة والفجور" (24). أما الكبار فقد قال الوعاظ في وصفهم أنهم منافقون، مشاكسون، نهمون سكيرون، زناة (25). وشكا الراعي يوهان كونو في 1579 من أن "الرذيلة بأنواعها انتشرت حتى ليرتكبها الناس دون حياء، لا بل أنهم يفاخرون بها مفاخرة اللوطيين، وأصبحت أقبح الكبائر وأغلظها تعد فضائل... فمن

صفحة رقم : 10240

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة
-> الأخلاق وآداب السلوك

الذي ما زال يرى ارتكاب الفحشاء خطيئة؟ (26) كتب الراعي برتلياس ريخفالت في 1585 يقول: "هذا الزمان آخر الأزمنة التي نكب بها العالم، وأشدّها فساداً" (27) وأصبح التجديف وتدنيس المقدسات شائعاً بين كل الرجال تقريباً من جميع المذاهب (28) واستشرى الافتراء على الناس. وكتب كونت أولدنبرج في 1594 يقول: "شكا لي ملاحظ أعماله من الطريقة التي أساء بها الدكتور بيزل في بريمن إلى سمعته وافتري عليه في أحد كتبه، إذ زعم أنه ينفق نهاره في الشره والسكر والفجور، وأنه... ذنب مفترس للحملان، وأفعى، وتيس، وسقط جهيض.. وأنه يجب التخلص منه أما بشنقه أو إغراقه أو سجنه، وإما بدولاب التعذيب أو بحد السيف". ووجد واعظ بلاط أمير سكسونيا الناخب أنه "في طول ألمانيا وعرضها تقريباً أشيع كذباً" "أنني أكسب أقدماً مذهبة في مباريات الشراب... وأنني أفرط في شرب النبيذ... حتى ليضطر القوم إلى مساعدتي ودفعي على عربة جر كأنني عجل أو خنزيرة مخمورة" (19). وكان تناول الطعام والشراب شغلاً شاغلاً للناس، فنصف نهار الألماني الميسور ينفقه في دفع الطعام من إحدى طرفي القناة الهضمية إلى طرفها الآخر وكان أهل المدن يفخرون بشهيتهم الطيبة التي تقصح عن ثرائهم كما تقصح عنه

ثياب زوجاتهم. وقد ذاع صيته أحد لاعبي السيرك في أرجاء ألمانيا كلها لأنه أكل في وجبة واحدة رطلاً من الجبن، وثلاثين بيضة، ورغيفاً كبيراً من الخبز - وهي مهمة خرب بعدها صريعاً. ولم يكن من الأمور الشاذة أن يتصل الغذاء أو العشاء سبع ساعات يتخللها شرب أربعة عشر نخباً. أما حفلات الزفاف فكانت في أكثر الأحيان قصفاً صاحباً يحفل بالنهم والسكر وقد ألف أمير مرح أن يوقع رسائله بهذه العبارة (كن معافى وأسكر). وقد أسرف كرستيان الثاني أمير سكسونيا الناخب في تعاطي الخمر حتى أودت بحياته، ولما تجاوز السابعة والعشرين. وكافحت جمعية للامتناع عن السكرات لمقاومة الرذيلة، ولكن أول رئيس لها مات من السكر (30). وقد أكد

صفحة رقم : 10241

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> الأخلاق وآداب السلوك

بعضهم أن البطنة قصرت أعمار الناس، وكتب إرزمس فنتر في 1599 يقول "إن الإسراف في الطعام والشراب قلل من عدد المعمرين، ونذر أن نرى رجلاً في الثلاثين أو الأربعين لا يشكو مرضاً، سواء كان الحصى، أو النقرس، أو السعال، أو السل، أو غيره" (31).

ولكن علينا ألا نأخذ هذه الشكاوى المعاصرة مأخذ الجد الشديد. فأغلب الظن أن كثرة الشعب كانوا قوماً مجدين، صابرين، يخافون الله بالمعنى الحرفي للعبارة. إلا أن الفضيلة لا ينو بها التاريخ كما لا تنو بها الصحف - وهذا دليل عن أنها أمر عادي مألوف. فقد كانت زوجات أهل المدن يلزم من بيوتهن في عزلة متواضعة مستغرقات في عشرات الواجبات التي لا تترك لهن فراغاً لارتكاب ذنوب أفدح من الثرثرة بالشائعات، وكانت الكثيرات من نساء الطبقة العليا مثل أنا زوجة أغسطس الأول أمير سكسونيا الناخب - مثلاً يحتذى في الولاء الصادق للأسرة. ولم تخل ألمانيا الصاخبة تلك من الجوانب السارة. محبة الأطفال والبيت، وكرم الضيافة، والرقص والطروب والموسيقى الجميلة، والألعاب والمهرجانات المرحية، وأول شجرة ميلاد في التاريخ المدون كانت جزءاً من احتفال أقيم بألمانيا في 1605، والألمان هم اللذين أحاطوا "عيد ميلاد المسيح" بالمظاهر البهية التي تخلفت من ماضيهم الوثني:

وكانت الرقصات والأغاني الشعبية تلد أشكالاً من الموسيقى المعزوفة؛ وكانت التراتيل بسبيلها إلى أن تصير كورالات ضخمة. وغدا الأرعن أثراً فنياً يدخل في فن المعمار، أما البيان القيثاري، والعود وغيرهما من الآلات الموسيقية، فكانت وليدة في التغني بالحب. وحليت كتب الترانيم أحياناً، لا سيما في بوهيميا، بزخارف رائعة. أما الترانيم البروتستانتية فكثيراً ما كانت تعليمية أو جدلية، وضحت في هذا السبيل برقة ترانيم العصر الوسيط المقدسة، ولكن الكورالات البروتستانتية كانت بشيراً بمقدم يوهان سبستيان باخ. وفرض التعليم الموسيقي على المدارس من جميع المذاهب، وكان مقام الـ"كانتور" - أي معلم الموسيقى - لا يعلو عليه إلا مقام المدير

صفحة رقم : 10242

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> الأخلاق وآداب السلوك

أو الناظر في سلم المراتب المدرسية، واشتهر عازفو الأورغن يومئذ شهرة عازفي البيان الآن، وذاع صيت يعقوب هاندل في براغ، أما الأخوة هاسلر-هم هانز، وكاسبار، ويعقوب-فقد انتشرت جماهير المصلين بموسيقاهم التي كانت من وضعهم في كثير من الأحيان، في درسدن، ونورميرج، وبراغ وقد نحا النبوغ الموسيقي إلى الظهور مراراً وتكراراً في الأسرة الواحدة، لا بفضل أي وراثه خفية، بل نتيجة لعدوى البيت، وهكذا اتخذ حشد حقيقي من آل شولتز اسم "بريتوريوس"، ولم يكنف ميخائيل بروتوريوس بوضع مجلدات في الموسيقى، بل وضع في كتابه "أصول الموسيقى" (1615-1620) موسوعة شاملة رفيعة لتاريخ الموسيقى والآتهم وأشكالها. أما أعظ الأسماء في هذا العصر وهذا الميدان فهو هنريخ شوتز، الذي أجمع الكل على الإشادة به "أباً للموسيقى الألمانية الحديثة". وقد ولد لأسرة سكسونية في 1575، قبل قرن تماماً من مولد باخ وهاندو، وأرسى دعائم الأشكال والروح الموسيقية التي أوصلها هذان الفنانان إلى ذروة الكمال. وحين بلغت الرابعة والعشرين اتخذ سمته إلى البندقية، حيث درس على جوفاني جابرييلي. فلما عاد إلى ألمانيا تردد بين الموسيقى والقانون، ولكنه استقر آخر الأمر على العمل مديراً للموسيقى في بلاط يوحنا جورج، أمير سكسونيا النახب، بمدينة درسدن. وراح منذ 1618 يتدقق أحياناً كورالية مهدت السبيل كل التمهيد للعدد الكبير من الموسيقيين من آل باخ بفضل ما فيها من تناول بارع للكرواس (مجموعات المنشدين) وللأصوات المنفردة وللآلات الموسيقية، ومن مقابلة بين هذه كلها، ولأول مرة أذيب وخفف مزج الألحان الكورالي الألماني الثقيل بأسلوب "التوزيع" الأكثر انساقاً، والذي جمع بين الأصوات والآلات. واحتقلاً بزفاف ابنة الأمير النახب (1627) لحن شوتز أولى الأوبرات الألمانية، وأسماها دافني على أساس أوبرا بيري التي تحمل هذا الاسم، والتي أديت بفلورنسة قبل ثلاثة وثلاثين عاماً. وتأثر شوتز

صفحة رقم : 10243

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> الأخلاق وآداب السلوك

برحلة ثانية إلى إيطاليا، فأعطى مزيداً من الوضوح للأصوات المنفردة والآلات الموسيقية في "سيمفونيته المقدسة" (1629) إذ وضع موسيقى لنصوص لاتينية من المزامير ونشيد الإنشاد. وفي 1631 غدت سكسونيا مسرحاً نشيطاً للحرب. فضرب شوتز في الأرض منتقلاً من بلاط إلى بلاط؛ حتى أنه رحل إلى الدنمارك، بحثاً عن فرق المرتلين والتماساً للرزق، ولم يرد إلى وظيفته في درسدن إلا في 1645، وفي ذلك العام ابتكر أسلوب موسيقي "الأم المسيح" الألمانية بوضعه موشحة دينية "أورتوريو" سماها "كلمات المسيح السبع على الصليب"، هنا بدأت فكرة إعطاء كلمات شخص منفرد لنفس الصوت المنفرد، ثم يسبق الصوت أو يفقه بنفس الأنغام في الآلات، وقد اقتبس باخ من بعده هذه الطريقة في موسيقى "الأم القديس متي". ثم شق شوتز طرقاً جديدة مرة أخرى، إذ نشر في 1657 "الأنغام الألمانية" وهي "كانتاتات" (قصص موسيقية تنشدها المجموعة على أنغام الموسيقى من غير تمثيل) تضعه مع كاريسيمس في مقام المنشئ المشارك للأنشيد الدينية الدرامية وقد هيا لحنه "نشيد عيد الميلاد" (1664) لباخ هدفاً آخر يستهدف فيما بعد، ثم بلغ قصاره بعد عام في "الأم ربنا ومخلصنا يسوع المسيح وموته". وهو نشيد وضعه بصرامة للأصوات وحدها دون أن يخفف بالألحان. وما لبث عقب هذا أن فقد سمعته، فاعتكف في بيته، ومات في السابعة والثمانين بعد أن لحن فقرة من المزمور 119 تقول: "ترنيمات صارت لي فرائضك في بيت غربتي".

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة
-> الآداب والفنون

4- الآداب والفنون

كان أبرز إنتاج أدبي للإمبراطورية في هذا العهد ترجمة للكتاب المقدس قام بها الإخوان البوهيميين (1588)،
وملحمة 'Zrinyasz' (1644) التي نظمها ميكولوس زرينيبي. وخلفت ألمانيا الآن (حوالي 1600) إيطاليا بوصفها
أروج سوق لنشر الكتب، لا سيما فرانكفورت وماين.. ففي 1598

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة
-> الآداب والفنون

بدأت سوق فرانكفورت للكتاب تنشر كل نصف عان قائمة بالمطبوعات. "وشجعت الجماعات الأدبية الشعر
والدراما"، ولكن الأدب كانت تخنقه الرقابة المدنية والكنيسة. فقد أجمع القادة اللوثريون والكلفنيون والكاثوليك على أن
المؤلفات التي تعد ضارة بالحكومة. أو المذهب الرسمي، أو الآداب العامة يجب حضرها. ومن عجب أن مجموعة
الكتب التي حرمتها السلطات البروتستانتية فاق تلك التي أدانتها كنيسة روما(32). واضمحل العلم لأن الحقيقة شوهتها
حدة الجدل. وأية ذلك أن ماتياس فلاكيوس الليريكوس ومساعديه صنفوا تاريخاً للكنيسة المسيحية في ثلاثة عشر مجلداً
من القطع الكبير. ولكن "قرون مجد بورخ"، وهو الاسم الذي انتهى الناس إلى إطلاقه على كتاب "تاريخ الكنيسة
المسيحية" (1559-1574) نسبة إلى مكان تأليفه وإلى تقسيمه حسب القرون-هذا الكتاب كان متحيزاً لكتب التاريخ
الكاثوليكية الصادرة في ذلك العهد، يوم كان كل كتاب سلاحاً في القتال. مثال ذلك أن البابا جريجوري السابع صور
هؤلاء المقاتلون أشد وحشية من كل ما ولد من الوحوش. وزعموا أنه قتل عدة باباوات قبل أن يرتقي "كرسي
الوباء"(33). أما أروع التواريخ الرسمية الألمانية-في جيله فكتاب يوهان سلايدانوس الذي روى قصة الإصلاح
الديني: "الأحوال الدينية والمدنية في عهد الإمبراطور شارل الخامس" (555)، وقد بلغ من الإنصاف مبلغاً لم يترك
مجالاً-حتى لمالكوف-أن يعتقر له أي تحامل فيه.

وبعد الكتب المحشوة بالمطاعن كانت الدراما أكثر أشكال الأدب شعبية وقد استخدم البروتستنت والكاثوليك المسرح لبث الدعوة؛ فسخرت التمثيليات البروتستانتية بالبابا سخريه مريرة، واختتمت عادة بزجه في الجحيم وأخرج معلمو الموسيقى بسويسرا تمثيليات عن آلام المسيح والقيامة. والدينونة الأخيرة ابتداءً من 1549، وشارك في التمثيل أحياناً 290 ممثلاً.

صفحة رقم : 10246

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> الآداب والفنون

ومثلت مسرحية آلام "أوبرامير جاو" أول مرة في 1634 وفاء بنذر نذر خلال طاعون 1633. وكانت تعاد كل عشر سنوات، ويستمر عرضها من الساعة الثامنة والنصف صباحاً إلى السادسة مساءً، يتخلل ذلك استراحة ساعتين في الظهيرة. وقد دخل الممثلون الإيطاليون ألمانيا عام 1568، ثم تلاهم الهولنديون والفرنسيون والإنجليز. وسرعان ما أخلت هذه الفرق التمثيلية عروض المحترفين محل العروض الخاصة، وقد أثارت الكثير من الشكاوى بسبب فحشها الذي در عليها الربح الوفير.

وحظي بشعبية فاقت حتى شعبية الممثلين ناقد الأزاسي هجاء، فيه فحولة وله كفايات متعددة، يدعى يوهان فيشارت فبعد أن تقمص في مرح روح عصره، أصدر سلسلة من التقليديات الساخرة ضد الكاثوليكية، بلغت في تدميرها الذكي مبلغاً جعله بعد قليل أروج كاتب في ألمانيا، ففي كتابه "خلية النحل الرومانية المقدسة الهائلة" هاجم (1579) تاريخ الكنيسة، وعقيدتها، واحتفالاتها، وكهننتها، في كاريكاتور عنيف، فكل الأديار الكاثوليكية عنده مراتع للفجور والإجهاض، والكنيسة في زعمه قضت بأن "الكهنة" أن يستعملوا زوجات غيرهم في غير حرج، وقد وجدت ستة آلاف من رؤوس الأطفال في بركة قرب دير الراهبات، وهكذا دواليك (34). وفي هجاء آخر سماه "القبعة اليسوعية الصغيرة" سخر من قبعة اليسوعيين ذات الزوايا الأربع وندد بكل أساليبهم وأفكارهم. وفي عام 1575، نشر فيشارت، بعنوان مرح في ثمانية سطور، ترجمة مزعومة، هي في حقيقة الأمر تقليد وتوسيع لكتاب رابليه "جارجانتوا"، وقد هزأ الكتاب بجميع نواحي الحياة الألمانية-كظلم الفقراء، وسوء معاملة التلاميذ، ونهم الألمان وسكرهم، وزناهم وفسقهم، كل ذلك في خليط من الأساليب ومن اللهجة الأزراسية، متبل بالبذاءة والظرف. ومات فيشارت في الثالثة والأربعين بعد أن أفرغ ما في جعبته من ألفاظ.

صفحة رقم : 10247

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> الآداب والفنون

ولا يقل عن فيشارت حيوية رجل آخر مات في نفس السنة، 1590، بالغا نفس العمر، هو نيقوديموس فرشلين، الذي عاش أكثر من عشرة أعمار في عمر واحد. ففي العشرين كان أستاذاً للتاريخ والشعر في توينجن، ونظم الشعر اللاتيني في رقة تذكرك برقة هوراس، وكتب شروحا علمية لفرجيل. وفي الخامسة والثلاثين طرد لهجائه النبلاء. وبعدها عاش عيشة الاستهتار والمرح، فأسرف في الشراب، زاعماً أن الخمر لا غنى عنها للعبقرية، وأن أشعار الزاهدين في الخمر هزيلة هز الأحقير، وقد اتهم بإفساد فتاة وتسميم أخرى، وإذ كان مهدداً بالمحاكمة الجنائية لعدوانه على الفضيلة، فقد ظل يفر من بلد إلى بلد، وأهدى محاضرة منشورة إلى أحد عشر رجلاً من الأعيان المختلفين، الذين وزّعهم توزيعاً جغرافياً، ليوفروا له ملجأً يلوذ به في أي مكان، ولكنه مات أثر كبوة قبل أن ينتهي من إبداء رأيه في أعدائه. وجرياً على عادة ذلك الزمان نعتوه بأنه: "شاعر قذر حقير، وسقط للشيطان كذاب لنيم(35)". ولكنه كان ألمع شاعر استطاعت ألمانيا أن تتجيه في ذلك الجيل الشقي.

أما الفن فقد أضر به عزوف البروتستانت عن الصور والتماثيل، واضمحلال الكنيسة بوصفها راعية للفن، وإفساد التأثير الإيطالي الغريب على ألمانيا للطرز الوطنية، وتدهور الذوق نتيجة لخشونة الأخلاق وعنف الجدل، ثم نار الحرب الأكلة بعد ذلك. وأعجب العجب أن تنتج الحرفية الألمانية، برغم هذه المثبطات، في العقود الستة السابقة للحرب، عدة قصور فخمة، ودور للبلدية بهية، وتتجب مصوراً قديراً، وتبذع بعض التحف الثمينة في الفنون الصغيرة. وكانت مجموعات الإمبراطور رودلف الثاني والدوق ألبرت الخامس أمير بافاريا نواة لمتحف ميونخ الشهير "قاعة الفن القديمة" وكان ألبرت نفسه "مديتسيا ألمانيا"، فأحال بلاطه جنة "للفنانين" وجمل

صفحة رقم : 10248

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> الآداب والفنون

عاصمته بالعمارة، وجمع التماثيل في "الانتكواريوم"، وهو أول متحف للتماثيل القديمة شمال الألب. وفي 1611-1619 بنى معماري هولندي للدوق مكسميليان الأول في ميونخ "المقر" الذي ظل قروناً بيتاً لأدواق بافاريا وناخبها وملوكها. وقد أسف جوستاف أدولف لأنه لم يستطع أن ينقل إلى استكهولم ذلك المثال المحبب من عمائر فترة الإصلاح البروتستانتي المتأخرة في ألمانيا. أما اليسوعيون فقد شيّدوا بطراز الباروك، على طريقتهم التي تعنى بالزخرفة والتنميق، كنائس بديعة في كوبلنز، وديلنجن، وكنيسة هوف (كنيسة القديس ميخائيل) بميونخ وسمم سانتينو سولاري كاتدرائية سالزبورج، على طراز أكثر بساطة وفخامة، قبيل اندلاع حرب الثلاثين ببيع سنين. وإذ كان الأمراء قد استولوا على معظم الثروة الكنسية في ألمانيا البروتستانتية، فإن العمارة فيها لم تعد كنيسة بل مدينة، وأحياناً عمارة قصور. وبنيت القلاع الضخمة، كقلعة هايلينجبرج في بادن، المشهورة بسقفها المصنوع من الخشب الزيزفون المنقوش، في قاعتها المعروفة بالريتزرال (أي صالة الفرسان)، وقلعة أشافنبورج على الماين، وقلعة هايد ليبيرج، التي ما زالت مشهداً من مشاهد ألمانيا الكبرى. وأقيمت دار بلدية "راتهاوس" الفاخرة لتضم إدارة البلدية في لوبك وقلاع بادريون، وبريمن، وروتنبورخ واجزبورج ونورمبرج وجراتر. وعهد تجار المنسوجات في أجزبورج إلى الياس هول، كبير معماري المدينة، ببناء قاعتهم "تزويع هاوس" أي قاعة الأقمشة. كذلك بنت بريمن قاعة للغلال "كورنهاوس"، وفرانكفورت قاعة للملح "زالتسهاوس" لتجار الغلال والملح على التوالي، ولكن من كان يتوقع أن يبنتى الخلل لنفسه بيتاً رفيع الذوق كقاعة الخلل "ايسيجهاوس"؟.

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة
-> الآداب والفنون

وارتفعت الآن، وفي الأعوام المائة والخمسين التالية، القصور في كل مكان بألمانيا لتأوي الأمراء الظافرين، وقد بنيت بطراز الباروك اللولبي البهيج. ومن ذلك أن حاكم "أنسباخ بايرويت" أنفق 237000 فلورين (30.000.000 دولار؟) على قصر بلاسنبورج الذي يملكه، في إمارة من أفقر إمارات الإمبراطورية. وأرفع من هذا القصر ذوقاً "القصر الأميري الذي أعد لرؤساء أساقفة ماينز. وتبدو عمارة بيوت هذه الفترة بهية إلى حد خلاب سواء في تقاليدها أو رسومها، غير أن طبيعياً ساخطاً وصف البيوت الألمانية في 1610 بأنها تتألف من حجرات فذرة مظلمة خبيثة الرائحة قل أن يدخلها الهواء النقي (36)، ومع ذلك فإن داخل البيت في المدينة كان الموطن الحقيقي لفنون ألمانيا الصغيرة، فقد حفل بالزخارف التي أبدعتها أيد ماهرة كالحشرات الخشبية والسقوف المنقوشة، والأثاث المتين المنقوش والمطعم، والدرابزينات الحديدية المشغولة، والأقفال والقضبان المنصوبة في أشكال فخمة، وتمائيل العاج الصغيرة، وأقداح الشراب الفضية أو الذهبية. لقد كان ساكن المدينة الألماني لا يشبع من الزخارف في بيته. وازدهر الحفر، لا سيما على النحاس، في ألمانيا حتى خلال الحروب. واستهل لوكاس كيليان وأخوه فولفجانج، حوالي 1600، عهد أسرة موهومة من الحفارين اتصل نشاطها طوال القرن السابع عشر بفضل ولدي فولفجانج، وهما فيليب وبرتلماوس، وامتد حتى 1781 بفضل أبناء حفدة فيليب. على أن النحت الألماني أضرت به المحاولات التي بذلها النحاتون لتقليد الأشكال الكلاسيكية الدخيلة على الطبيعة والمزاج الألمانيين. وكان الحفارون الوطنيون، إذا أرسلوا أنفسهم على سجيتهما، يبدعون تحفاً من أرفع طراز، مثال ذلك مذبح الكنيسة الأوسط، والمذبحان الجانبيان، التي حفرها في الخشب هانز ديجلر لكنيسة أولتريش في أوجزبورج، أو التماثيل السبعون التي نقشها ميخائيل هونيل لكاتدرائية جورك بالنمسا. ومن المعالم البارزة في هذا العصر

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة
-> الآداب والفنون

نافورات الماء العجيبة التي استلهمت المثل الإيطالية، كنافورة "فينتلسباخر" المقامة أمام الرزیدننز "بميونخ" و"نافورة الفضيلة" (توجندبرونن)، أمام كنيسة لورنز في نورمبرج. حين نمى إلى روبنز أن آدم الزهايمر قد مات لتوه (1610) وهو بعد في الثانية والثلاثين قال "خليق بهذا الخطب أن يغرق مهنتنا في حزن عميق، فلن يكون من السهل تعويضه، إذ محال في رأيي أن يكون له نظير في (رسم) الصور الصغيرة والمناظر الطبيعية، وأشياء أخرى كثيرة" (37). وقد ولد آدم هذا في فرانكفورت ثم قصد إيطاليا وهو في العشرين، وبعد أن أقام في البندقية ردهاً من الزمن انفق ما بقي من عمره في روما. وقد تضرع روبنز إلى الله "أن يغر لآدم خطيئة الكسل"، ولكننا لا ندري أهو الكسل، الذي جعل الزهايمر يقصر فنه على الرسوم الصغيرة على الأطباق النحاسية، إذ لا يمكن أن يكون الكسل هو الذي جعله يضيء على مناظر الطبيعة ذلك الصقل الدقيق الذي نراه

في "الهروب إلى مصر (38)" أو ذلك التجسيد للضوء والهواء الذي جعل منه على حدوده المتواضعة، "رميرانتا" قبل رميرانت. ويلوح أنه كان يجزى جزءاً طيباً على فنه، ولكنه جزء لا يكفي لإشباع حاجاته وميوله. وقد أفلس، وسجن بسبب دينه، ثم مات عقب الإفراج عنه.

كان الرسم على الزجاج فناً أثيراً في هذا العصر، في زيوريخ وما زال أولاً، ثم في ميونخ، وأوجزبورج، وأصبحت النوافذ في الأديار والمنازل غنية بالألوان كأنها نوافذ كنيسة من العصر الوسيط وظهر نقش الزجاج في بواكير القرن السابع عشر في نورمبرج وبراغ. واشتهرت أسرة هيرشفوجل بنورمبرج بالزجاج والخزف الفنيين. وأدفاًت كولونيا وزيجبورج قلوب الألمان بالأباريق والكيزان الأنيقة النقوش، وكثيراً ما كانت الموافد تحاط بفخار مزجج بالألوان. ولم يكن للألمان قريع في أشغال الخشب والعاج والحديد والأحجار الكريمة والمعادن النفيسة. وكان

صفحة رقم : 10251

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> الآداب والفنون

لنجاري الأثاث مكان مرموق، حتى أن واحداً منهم حكم عليه بالشنق عقاباً على السرقة صدر العفو عنه لأنه كان "نجاراً فنياً" ماهراً جداً. والرابزين الحديدي المحيط بمقبرة الإمبراطور مكسمليان الأول في انزبروك رائع جداً. وقد صنع أنطون أيزيهوت في 1578 أنية للطقوس الكنسية من فضة بلغت من دقة الرسم وغنى الحلية ما يضعها إلى اليوم في قمة الأنية التي من نوعها. وكان الصاغة الألمان مطلوبين في كل مكان، ووجدت أشغالهم سوقاً أوربية لها في غير عناء. وصنعت كنوس الشراب، والأقداح، والأباريق الفضية في عشرات الأشكال المضحكة، وكان في وسع الألمان أن يتزنحوا بالخمير يشربونه من طواحين الهواء، والفوانيس، والتفاح، والقرودة، والخيل، والخنازير، والرهبان، والراهبات. لقد كانوا يخوضون الحرب اللاهوتية حتى في كنوسهم المتصارعة.

صفحة رقم : 10252

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> المذاهب المتصارعة

5- المذاهب المتصارعة

كان ديت أوجزبورج (1555) قد وصل بالصراع الديني إلى الديني إلى هدنة جغرافية حول مبدأ "الناس على دين ملوكهم" "إقليمه دينه"- أعني أن دين الحاكم في كل دور يفرض ديناً على رعاياه، وعلى المخالفين أن يرحلوا. وكان الاتفاق يمثل قدراً ضئيلاً من التقدم، لأنه أحل الهجرة محل الإعدام، ولكنه اقتصر على اللوثرية والكاثوليكية، وكان من آثار اقتلاع عائلات كثيرة من جذورها اقتلاعاً أليماً زادت الفوضى والمرارة في ألمانيا. وكان ينتظر من السكان أن يغيروا مذهبهم إذ خلف حاكم يدين بأحد المذهبين حاكماً يدين بالمذهب الآخر. وبات الدين مطية وضحية للسياسة والحرب.

أما وقد انقسمت ألمانيا في اللاهوتية على هذا النحو، فإنها لا تقدم قبل حرب الثلاثين خريطة دينية بسيطة: ويمكن القول عموماً بأن الشمال كان بروتستنتياً، والجنوب وأرض الراين كاثوليكين، ولكن بما أن مبدأ

صفحة رقم : 10253

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> المذاهب المتصارعة

أوجزبورج لم يمكن فرضه فرضاً دقيقاً ولا سريعاً، فقد بقي الكثير من البروتستنت في مناطق كاثوليكية، والكثير من الكاثوليك في بلاد بروتستنتية. وقد أتيح للكاثوليك ميزتان هما التقاليد والوحدة، أما البروتستنت فقد تمتعوا بقسط أوفر من حرية العقيدة، وانقسموا إلى لوثرين وكلفنيين وقائلين بتجديد العماد وموحدين، وحتى في صفوف اللوثرين نشبت حرب عقائدية بين أتباع ملانكتون المتحرر وخصومه. وفي 1577 صاغ اللوثرين عقيدتهم في "كتاب الوفاق" وبعد هذا التاريخ طرد الكلفنيون من الدويلات الألمانية اللوثرية. ولكن البالاتينات الناخب، فردريك الثالث، رعى الكلفنية وجعل جامعة هايدلبرج معهداً لاهوتياً للشباب الكلفني. وهناك، في 1563 وضع اللاهوتيون الكلفنيون كتب "التعليم المسيحي" في مفهوم هايدلبرج، وقد صدم الكاثوليك واللوثرين جميعاً برفضه عقدة الحلول الحقيقي للمسيح في خمر العشاء الرباني وخبزه. وسمح للكاثوليك بالعيش في البالاتينات شريطة أن يقصروا عبادتهم على بيوتهم، أما الموحدون فقد طمعوها بشدة. وفي 1570 نازع رجلان في ربوبية المسيح، أو ضيق حدودها، فأعدما أثر إصرار الأستاذة الكلفنيين في جامعة هايدلبرج على إعدامهما. على أن الأمير الناخب لويس ابن فردريك، أثر المذهب اللوثرى ورفضه، ولكن إخاء يوحنا كازيمير، أثناء وصايته (1583-1592)، فضل الكلفنية ورفضها، ثم وطد الأمير الناخب فردريك الرابع (1592-1610) تلك السياسة. وتزوج ابنه فردريك الخامس (1610-1623) اليزابيت ستيفارت (ابنة جيمس الأول ملك إنجلترا). وطالب بعرش بوهميا، وعجل بنشوب حرب الثلاثين.

وكان الصراع بين اللوثرين والكلفنيين لا يقل مرارة عنه بين البروتستنت والكاثوليك، وقد أضر بتعاون البروتستنت خلال الحرب لأن تعاقب النصر والهزيمة على الغريقتين كليهما، تارة هذا وتارة ذاك، ومن ثم اضطهاد المنتصر

صفحة رقم : 10254

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة
-> المذاهب المتصارعة

المنهزم كان يخلف ميراثاً من الكراهية، مثال ذلك أنه في 1585 طرد الكونت فولفجانج حاكم أيزنبورج رونيوبورج جميع الموظفين اللوثرين في إقليمه وأحل الكلفنيين محلهم، ولكن أخاه وخليفته الكونت هنري أنذر الوعاظ الكلفنيين في 1598 بأن عليهم أن يرحلوا خلال أسابيع برغم البرد القارس، وفي 1601 ولي الكونت فولفجانج أرست، فطرد الوعاظ اللوثرين وأعاد المذهب الكلفيني. وحدث مثل هذا الإحلال للكلفنيين محل اللوثرين في انهالت (1595)، وهانوا (1956، وليي 1600). وفي بزوسيا الشرقية أعدم يوهان فونك المتهم بميوله الكلفنية في سوق كونيغزبرج وسط تهليل الجماهير (1566)(39). كذلك أعدم المستشار نيقولا كربل في درسدن (1601) لتوجهه الطقوس اللوثرية وجهه كلفنية، ولتأييده للهيونوت للفرنسيين (40).

وفي 604 أعتنق الشريف موريس حاكم هيس-كاسل المذهب الكلفني، ثم فرضه في 1605 في هذا الإقليم وفي هيس العليا، وهزم جنوده حشداً من اللوثرين المقاومين وحطموا الصور في الكنائس، أما الوعاظ الذين أبوا التحول من المذهب اللوثرى إلى الكلفني فقد نفوا (41). وفي أمانة براندنبورج الناخبة قام نزاع عنيف اللوثرين والكلفنيين حول خبز القربان المقدس، وهل يتحول حقيقة بعد تقديسه إلى جسد المسيح وأخيراً قضت الحكومة بأن الكلفنية هي المذهب الحق (1613 وما بعدها) (42).

ووسط تذبذبات الحقيقة هذه احتدم ذلك "السعار اللاهوتي" كما سبق أن سماه ملانكتون-احتداماً لم يعرفه التاريخ من قبل ولا من بعد، إلا فيما ندر. من ذلك أن راعياً لوثرياً يدعى نيفاندر (1583) عدد أربعين خصيصة من خصائص الذئاب، وزعم أنها بالضبط السمات المميزة للكلفنيين ثم وصف المينات الرهيبة التي لقيها أعداء اللوثرين، وقال بأن

صفحة رقم : 10255

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة
-> المذاهب المتصارعة

زونجلي حين خر صريعاً في المعركة، "قطع جسده سيورا، واستعمل الجنود شحمه ليشحموا به أذيتهم، لأنه كان رجلاً بديناً(43)". وجاء في نشرة لوثرية في 1590 "إن أراد أحد أن يقال له في بضع كلمات أية مادة من مواد الإيمان مقاتل عليها جنس الأفاعي الكلفنية الشيطاني، كان الجواب، كلها بلا استثناء... ذلك لأنهم ليسوا مسيحيين، بل يهود ومسلمون معمدون(44)". وفي سوق فرانكفورت كتب ستانسلاوس رسكيوس (1592) "لقد لاحظنا من سنين أن الكتب التي يؤلفها البروتستنت ضد البروتستنت ثلاثة أمثال تلك التي يؤلفها البروتستنت ضد الكاثوليك(45). وقال كاتب بروتستنتي في 1610 في معرض الرثاء لهذه الحال " أن هؤلاء اللاهوتيين المسعورين قد جعلوا الحرب المدمرة الناشئة بين المسيحيين المنشقين على البابوية من الهول والانتساع بحيث لا تبدو بارقة أمل في أن يكف كل هذا الصراخ والقذف واللعن والحرم قبل مجيء اليوم الآخر(46).

ولكي نفهم هذا "السعار اللاهوتي" علينا أن نتذكر أن جميع أطراف النزاع أجمعوا على أن الكتاب المقدس كلمة الله المعصومة، وإن الحياة بعد الموت ينبغي أن تكون أهم شغل للناس في هذه الدنيا. كذلك لا بد أن تقسح الصورة مكاناً للتقوى الصادقة التي أورثت الكثيرين من اللوثرين والكلفنيين والكاثوليك الأتضاع والتسامي فوق حمى المذاهب وهذيانها. فقد هرب "أهل التقوى" هؤلاء من المنابر اللاهوتية والتمسوا في خلوتهم شيئاً من الحضرة الإلهية المطمئنة. وما زال مؤلف يوهان أرنت "حديقة الفردوس الصغيرة" يقرأ في ألمانيا البروتستنتية باعتباره كتيباً للتأمل الورع. وانتهى يعقوب بومي بهذه النزعة إلى فكرة الوحدة الصوفية لروح الفرد مع إله تصوره يبنوعاً كونياً، وأساساً

لكل الأشياء، ينتظم كل "شر" وكل "خير" وزعم بومي أنه رأى "كائن الكائنات كلها، ورأى جهنم، كما رأى مولد الثالوث الأقدس(47)" ولا يجد العقل غير العواطف مع الصوفية في كتاب "بومي" في إشارة كل الأشياء، 1621 إلا دوامة من السخافات، ومن بواعث

صفحة رقم : 10256

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> المذاهب المتصارعة

العزاء أن نعرف أن صوفيا آخر، وهو يوحنا وميسلي، وصفه بأنه "هراء رفيع(48)". وأفضل من التراتيل البسيطة الحسية التي ألقها التقى اليسوعي فردريك فون سبي. واليسوعيون هم الذين قادوا الحملة الصليبية الكاثوليكية لاسترداد الأرض المفقودة في ألمانيا كما فعلوا في كل مكان في أوروبا، وقد بدأوا بمحاولة إصلاح الأكليروس الكاثوليكي. كتب اليسوعي بطرس فابر من فورمز في 1540 يقول: "اسمح اللهم بأن يون في هذه المدينة ولو كاهنان أو ثلاثة ليس لهم علاقات غرامية حرام، أو لا يعيشون في خطايا معروفة أخرى(49)، على أن أهم خططهم كانت اصطياد الشباب ومن ثم فتح اليسوعيون الكليات في كولونيا، وتريبير، وكولنز، وماينز، وشيبير، ومونستر، وفورتسبورج، واينجولستات، وبادربون، وفرايبورج، وقد طاف بطرس كانيسوس، الرأس المفكر والروح والحركة لهذه الحملة اليسوعية، بكل أرجاء ألمانيا تقريباً على قدميه، منشآت الكليات، موجهاً المجادلات اليسوعية العنيفة، وشارحاً للحكام الألمان مزايا المذهب القديم. وقد حث الدوق ألبرت الخامس على أن يستأصل بالقوة شأفة البروتستنتية بأسرها من بافاريا(50). ويفضل اليسوعيين، والكبوشيين، وإصلاح الأكليروس، وغيره الأساقفة، ودبلوماسية الباباوات وسفرائهم، استعيد إلى حظيرة الكنيسة في النصف الثاني من القرن السادس عشر نصف الأرض التي كسبتها البروتستنتية الألمانية في النصف الأول منه. وقد استعملت بعض ألوان الإكراه هنا وهناك، غير أن الحركة كانت في جملتها سيكولوجية سياسية، ذلك أن جماهير الشعب ملت طول الشك والجدل والجبرية، ورأى حكامهم في الكاثوليكية التقليدية سنداً للحكومة والنظام الاجتماعي أقوى من سند بروتستنتية غارقة في فوضى الانقسام، محفوفة بالمخاطر التي تكثف كل مذهب جديد.

صفحة رقم : 10257

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> المذاهب المتصارعة

فلما أدرك البروتستنت آخر المطاف أن انقساماتهم الداخلية أشبه بعملية انتحارية. وجهوا منابرهم وأقلامهم ضد عدوهم الروماني. ومهدت حرب الكلام والمداد لحرب المدافع والدم، وتقاوم التقاذف بالمطاعن حتى قارب نشوة القتل.

ودخلت قاموس اللاهوت ألفاظ كالروث، والنفاية، والحمار، والخنزير، والبغي، والقائل. ففي عام 1565 اتهم الكاتب الكاثوليك يوهان ناس اللوثريين بممارسة القتل، والسرقعة، والكذب، والغش، والشرة، والسكر، ومضاجعة المحارم، والجريمة، دون ما خشية، لأن الإيمان في زعمهم يبرر كل الأشياء، ورجح أن تكون كل امرأة لوثرية مومساء (51). وقد اعتبر الكاثوليك هلاك البروتستنت الأيدي إحدى بديهيات اللاهوت، ولكن الوعاظ اللوثري أندرياس لانج كتب (1576) بثقة مماثلة "أن البابويين كغيرهم من الترك واليهود والوثنيين هم خارج نطاق النعمة الإلهية، ومغفرة الخطايا، والخلاص". فلقد كتب عليهم العويل والبكاء وصرير الأسنان إلى الأبد في نار الجحيم المشتعلة وكبريتها (52). وراح الكتاب من الجانبين يتبادلون الافتراءات على نحو ما يفعل الآن حرب العقائد السياسية. وراحت أسطورة "البابة" (امرأة) يوانا في الأدب البروتستنتي. وتب أحد رجال الدين البروتستنت في 1589 يقول: "ما أشد نفاق هؤلاء اليسوعيين الأوغاد السفلة إذ يلجون في إنكار هذه الحقيقة، وهي أن البغي الإنجليزية آجينس كانت "بابة" في روما وأنها ولدت غلاماً خلال أحد المواكب العامة (53)". وجاء في إحدى المواظ أن الباباوات كانوا وما زالوا بلا استثناء واحد، لوطين ومستحضري أرواح وسحرة، وأن يبصقوا النار من أفواههم.. "كثيراً ما ظهر الشيطان بصورته المرئية للباباوات.. واشترك معهم في لعن صليب المسيح ووطئه بالأقدام، ثم الرقص رقصات عارية فوقه، وهي التي سموها خدمة مقدسة (54)". وكانت جماهير العابدين ترتشف هذه المسكرات بشغف. قال قسيس بروتستنتي في 1584، "لقد تعلم الأطفال في الشوارع أن يلعنوا عدو المسيح الروماني وأتباعه الملاعين (55)".

صفحة رقم : 10258

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> المذاهب المتصارعة

وكان اليسوعيون أهدافاً محببة. فرموا في مئات الرسوم الهزلية، والنشرات، والكتب، والقصائد، باللواط، والزنى، والبهيمية وفي أحد الكليشيات الخشبية الألمانية، وتاريخه 1569 (وما زال محفوظاً في مجموعة جوته بفایمار) صور البابا على شكل خنزيرة تلد رهباناً يسوعيين في هيئة خنازير صغار. وفي 1593 نشر اللاهوتي اللوثري بوليكارب الايزر تاريخاً للرهبنة اليسوعية باللاتينية. وصف اليسوعيين بأنهم يفارقون أقباح الرذائل مطمئنين إلى رضى البابا وعقوه الكاملين (56). وأخبرت "صحيفة جديدة صادقة" 1614 قراءها بأن الكردينال اليسوعي بالارمين أرتكب الفاحشة 2.236 مرة مع امرأة، ثم استطردت لتصف عذاب الكردينال على فراش موته، مع أنه لم يمض إلا بعد سبع سنوات (57).

وقد رد اليسوعيون أول الأمر في ضبط للأعصاب. ونضح كانيسوس باستعمال لغة بريئة من العنف، وكذلك فعل الراعي البروتستنتي يوهان ماتيسوس، ولكن الجمهور كان يؤثر الطعن على الاعتدال. واتهم المجادلون البروتستنت المتطرفون خصومهم اليسوعيين بقبولهم عقيدة اليسوعي ماريانا التي تدافع عن قتل الطغاة من الحكام، ورد أحد اليسوعيين الألمان بأن هذه هي بالضبط العقيدة التي يجب تطبيقها على الأمراء الذين فرضوا البروتستنتية على رعاياهم. ولكن يسوعيين آخرين أكدوا للحكام البروتستنت أنهم يعتبرون أمراء شرعيين، وأن شعره واحد من رعوهم لن تمس. ونشر اليسوعي كونرادفيتز (1594-99) عشر كتب استعمل فيها أقباح ألفاظ الشتم، معتذراً بأنه أينما يحذو في ذلك حذو اللاهوتيين اللوثريين، وكان الجمهور يتهافت على شراء هذه الكتب بمجرد طبوعها. وأعلن يسوعيو كولونيا أن "الهرطقة العنيديين" الذين يبثون الانشقاق في كل مكان "في الأقاليم الكاثوليكية". "يجب أن يعاقبوا كما يعاقب اللصوص والسارقون والقتلة،

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> المذاهب المتصارعة

لا بل بأشد مما يعاقب به هؤلاء المجرمون، فهؤلاء لا يؤذون سوى الجسد، أما أولئك فيزجون بالنفوس في الهلاك الأبدي..ولو أن لوثر أعدم أو أحرق قبل أربعين عاماً، أو لو أن نفرأ من الناس نخف العالم من وجودهم، لما نكبنا يمثل هذه الإنشقاقت اللعينة، ولا يمثل هذه الملل والنحل التي تكدر صفاء العالم كله(59). ويمثل هذه الروح ناشد الكلفن داود بارينز، أستاذ اللاهوت بهاید لبرج (1518)، جميع الأمراء البروتستنت أن يشنوا حرباً صليبية على البابوية، وفي حملة كهذه يجب "ألا يتخرجوا من أي ضرب من ضروب القسوة أو العقاب(60)". وبلغ هذا السيل الدافق من الكتيبات ذروته بطبع 1.800 نشرة في سنة واحدة (1618)، وهي أول سني الحرب. فلما قوى بأس الكاثوليك واشتد غضبهم، ألف عدد من الأمراء البروتستنت "اتحاد الأقاليم الإنجليزية" (1608) أو اتحاداً بروتستنتياً ليتبادلوا الحماية. ووقف ناخب سكسونيا بمعزل عن الاتحاد، ولكن هنري الرابع ملك فرنسا بدأ على استعداد لمديد المعونة لأية مغامرة ضد الإمبراطور الهابسبورجي. وفي 1609 ألف عدد من الحكام الكاثوليك يتزعمهم مكسمليان الأول دوق بافاريا، اتحاداً كاثوليكياً، عرف بالحلف الكاثوليكي، وما وافى أغسطس من عام 1610 حتى كانت كل دويلات الإمبراطورية تقريباً قد انضمت إليه، ثم عرضت أسبانيا أن تقدم له المعونة الحربية. ووافق الاتحاد البروتستنتي (فبراير) على أن يساعد هنري الرابع على الاستيلاء على دوقية بوليس-كليفز، ولكن مصرع الملك الفرنسي (14 مايو) حرم البروتستنت من أقوى حليف لهم. وسرى الخوف في ألمانيا البروتستنتية، ولكن الحلف لم يكن على استعداد للعمل. وفي يناير 1615 أنذر موريس حاكم هيس-كاسل الاتحاد البروتستنتي بأن "الحلف الكاثوليكي، الذي يحميه البابا، وملك

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> المذاهب المتصارعة

أسبانيا، وبلاط بروكسل، والإمبراطور... أرسل في طلب السلاح والذخيرة... رغبة.. في استئصال شافه-المذهب الإنجيلي(61)". وزاد الطين بلة أن كاسبارسكيوبيوس حذر الكاثوليك اللوثرين من أن الكلفنيين يعتزمون تدمير الديانة والسلام العام والإطاحة بالإمبراطورية الرومانية المقدسة بأسرها، ومحو مبدأ أوجزيرج والمذهب الكاثوليكي من الإمبراطورية(62) سواء بسواء، وربما كان هذا محاولة لإشاعة مزيد من الفرقة بين الشيع البروتستانتية. وأضعف النزعات الإقليمية بين النمسا وبافاريا العصبة الكاثوليكية في 1616... وراود الناس من جديد حلم السلام! ولكن في براغ ناشد الكونت هنريك فون ثورن زعماء البروتستانت منع الكاثوليكي المتحمس الأرشيديوق فرديناند من اعتلاء عرش بوهيميا. وكان الإمبراطور ماتياس قد عين خمسة نواب ليتولوا حكم البلاد في أثناء غيابه. واستبد هؤلاء الحكام بالبروتستانت في النزاع حول بناء كنيسة في كلوسترا جراب، وأرسلوا المعترضين إلى السجن وفي 23 مايو

1618 قاد ثورن حشداً بروتستانتياً غاضباً إلى قلعة أوسكين، وصعدوا إلى الحجرات التي كان يجلس بها اثنان من هؤلاء الحكام، وألقوا بهما من النافذة مع سكرتير كان يتحمس لهم، وسقط ثلاثتهم نحو خمسين قدماً، ولكنهم وقعوا على كومة من الأقدار، فتلوثوا أكثر مما أودوا، فكان هذا "الإلقاء من النافذة" تحدياً مثيراً للإمبراطور والأرشيديوق وللعصبة المقدسة. وطرد ثورن رئيس الأساقفة والجزويت. وشكل حكومة مديرين ثورية. وربما شق عليه أن يدرك أنه بذلك أطلق كلاب الحرب من عقالها أو أنه أشعل نارها.

صفحة رقم : 10261

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> حرب الثلاثين سنة

6- حرب الثلاثين سنة

أ - طور بوهيميا

1618 - 1623

أرسل الإمبراطور ماتيياس إلى حكومة المديرين سالفة الذكر عرضاً

صفحة رقم : 10262

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> حرب الثلاثين سنة

بإصدار عفو عام، والدخول في مفاوضات، ولكن هذا العرض رفض (63). وأنفذ الأرشيدوق فرديناند، متجاهلاً الإمبراطور، جيشين لغزو بوهيميا. وحرص فرديريك الخامس ناخب البالاتينات شارل عمانويل دوق سافوي المعادي لآل هابسبرج، على إرسال قوة لنجدة بوهيميا، بقيادة القائد القدير بيتر ارنست فون مانسفيلد وأستولي مانسفيلد على بلسن، معقل الكاثوليك في بوهيميا، وتقهقرت جيوش فرديناند. واقترح كريستان دون برنزويك مستشار فرديريك على المديرين أنهم إنما يقرون دفاعهم ويستبعدون فرديناند عن العرش، إذا عرضوا العرش على فرديريك. وفي 20 مارس 1519 مات ماتياس، تاركاً فرديريك الملك الشرعي على بوهيميا، ووريثاً افتراضياً للتاج الإمبراطوري. وفي 19 أغسطس أعلن مجلس الديت في بوهيميا خلع فرديناند عن عرش بوهيميا، وفي السابع والعشرين نادي بفرديريك أمير البالاتينات ملكاً على بوهيميا. وفي الثامن والعشرين أعلن ناخبو الإمبراطور أرشيدوق استريا إمبراطور تحت فرديناند الثاني.

تردد فرديريك في قبول هذا المنصب الجديد، ذلك أنه أدرك أنه بوصفه من زعماء الكفنة لا يمكنه أن يعتمد على تأييد اللوثريين، على حين أنه قد يواجه معارضة الإمبراطورية والبابوية وأسبانيا. وأهاب بوالد زوجته جيمس الأول ملك إنجلترا أن يمدّه بجيش، ولكن بدلاً من ذلك، زوده الملك الحذر البعيد النظر بالنصيحة-أن يرفض عرش بوهيميا. ولم تغره أو تحته زوجته المرححة الجريئة على قبول العرش، بل وعدته أن تقاسمه عن طيب خاطر كل ما قدر له أن يلقي، نتيجة لما يقع عليه اختياره، وكانت عند وعدتها. ونصح كريستيان أمير برنزويك بقبول العرش. وفي 31 أكتوبر 1611، دخل الملك الجديد الملكة براغ، ورحب بهما الديت والأهالي ترحيباً حاراً. وكان فرديريك بعد شاباً في العشرين من العمر، يتحلّى بحسن الخلق والشهامة

صفحة رقم : 10263

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> همجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> حرب الثلاثين سنة

والكياسة، ولكنه لم يكتمل نضجه إلى درجة يتولى معها شؤون السياسة والحكم. وكان أول عمل له بعد توليه منصبه في براغ، أنه أقر بإزالة المذابح والصور من كنيسة سانت فينوس، وهي الحرم الوطني المقدس، وسرعان ما عمد أتباعه بالمثل إلى تجريد سائر المزارات المقدسة في بوهيميا. واستكرت الأقلية الكاثوليكية هذا التصرف، واستاء من اللوثريين البوهيميون ونظرت ألمانيا اللوثرية بفتور إلى هذا الكلفني المتحمس وفي 30 إبريل 1620 أعلن فرديناند أن فرديريك معتصب للعرش، وأصدر إليه الأمر بمغادرة الإمبراطورية في أول يونية، وإلا اعتبر خارجاً على القانون وصودرت أملاكه. وعرض الإمبراطور أن يضمن عدم تعرض الولايات البروتستانتية الألمانية للهجوم، إذا هي قطعت مثل هذا العهد للولايات الكاثوليكية. وفي معاهدة أولم (3 يونية 1620) قبل هذا العرض واحتج الأمراء البروتستانت بأن فرديريك عرض حريتهم للأخطار بتحديه فرديناند. وانحاز الناخب جون جورج أمير سكسونيا بولايته اللوثرية إلى الإمبراطور الكاثوليكي.

وفي أغسطس عبر جيش إمبراطوري قوامه 25 ألف رجل، النمسا إلى بوهيميا بقيادة قائد مكسيمليان البافاري وهو جوهان تسركليس، كونت تल्ली الذي تعلم التقوى على يد الجزويت، وتلقى إن الحرب من دوق بارما بالقرب من الجبل الأبيض، إلى الغرب من براغ، التقى هذا الجيش بالبوهيمين وهزمهم هزيمة منكرة (8 نوفمبر). وفرديريك واليزابث وحاشيتهما إلى سيليزيا. وعجز الملك والملكة عن جمع جيش هناك، فالتمسأ مأوى في براند بيرج الكلفنية. وفي اليوم التالي للمعركة احتل مكسيمليان أمير بافاريا براج. وسرعان ما أعيدت الكاثوليكية، وأعيد وضع الصور في الكنائس، وأسندعى الجزويت، ووضع التعليم تحت إشراف الكاثوليك ولم يبيح إلا الديانة الكاثوليكية والديانة اليهودية، وألغى العشاء الرباني بالخبز والنبيد على حد سواء، وكان يوم القديس جون من قبل عيداً وطنياً فجعل يوم حداد تغلق فيه كل الكنائس، وقبض على ثلاثين من زعماء العصاة وأعدم

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> حرب الثلاثين سنة

منهم سبعة وعشرون. ولمدة عشر سنين ظلت اثنتي عشرة جمجمة تطل متجهة غاضبة من برج جسر شارل على نهر ملدو (64) وحرمت الهجرة على كل العصاة والمتمردين، وصودرت أملاكهم لجانب الملك فرديناند الذي باعها ببيع السلعة للكاتوليك، وقامت طبقة نبلاء كاثوليك جديدة على أكتاف رقيق الأرض. وكادت الطبقات الوسطى والتجارية أن تختفي.

وعلى حين كان مكسيمليان أمير بافاريا يقهر الكفنية في بوهيميا على هذا النحو، فإن سبينولا أثناء الهدنة في الأرض الوطنية، قاد قوة كبيرة من الفلاندرز للاستيلاء على البلاتينات، وأعد بعض صغار الأمراء البروتستانت قوة لمقاومته وأنظم فرديريك إليهم، تاركاً زوجته في لاهاي. فلما أستدعى سبينولا إلى الأرض الوطنية عند تجدد الحرب بين هولندا وأسبانيا، حل محله تلي، وهزم البروتستانت (1622) وأستولى على هيد لبرج، وأعمل فيها السلب والنهب وشحنت مكتبة الجامعة العظيمة في خمسين عربة ونقلت إلى روما هدية من مكسيمليان البافاري إلى البابا جريجوري الخامس عشر. ولما عاد مكسيمليان منتصراً منح البلاتينات ميزات الانتخابية، لقاء ما أدى للإمبراطور من خدمات. وأصبح للولايات الكاثوليكية الآن الأغلبية في مجلس الديت الناخب.

أن مدى النصر الكاثوليكي وكماله وشموله أقلق بال الملوك الكاثوليك والبروتستانت على حد سواء. فإن تزايد هيبة فرديناند الثاني وسلطانه كان يهدد "حريات" الأمراء الألمان، كما أن مكسيمليان قلق حين وجد أنه قد سمح له بالاستيلاء على البلاتينات وبافار مع بقاء تبعيتهما للإمبراطور. وتعاطف البابا أريان الثامن مع وجهة النظر الفرنسية القائلة بأن آل هابسبرج أصبحوا من القوة بحيث باتوا خطراً على حرية البابوية وأغضى عما عمد إليه ريشليو من فرض ضرائب على الكاثوليك في فرنسا لمساعدة الألمان البروتستانت وعن مساعدته بعد ذلك لملك سويدي ضد إمبراطور كاثوليكي. وفي 1624 حول الكاردينال المدهش المنظر السياسي فجأة،

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> حرب الثلاثين سنة

بسلسلة متعاقبة من الضربات الدبلوماسية. ففي 10 يونية وقع تحالفاً مع هولندا البروتستانتية ضد الفلاندرز وأسبانيا الكاثوليكيتين. وفي 15 يونية ضم إليه السويد والدنمرك، وفي 11 يوليه أقتع سافوي والبنديقية بالانضمام إليه في محاولة لقطع خط الإمدادات والقوات الأسبانية النمساوية عبر ممرات الفالتلين في جبال الألب الإيطالية السويسرية.

وفي 1625 جاء كريستيان الرابع ملك الدنمرك بعشرين ألف رجل للانضمام إلى قوة ما نسفيدا المكونة من أربعة آلاف رجل في سكسونيا السفلى. وتولى الجزع مكسيمليان، فحث الإمبراطور على إرسال نجدة إلى تल्ली الذي تناقص عدد جيشه من 18 ألفا إلى 10 آلاف بسبب الجوع والمرض. واستجاب فرديناند باستدعاء فالنشتين من بوهيميا.

ب - فالنشتين

1623 - 1630

كان اسمه الحقيقي ألبرخت فون فالنشتين، وهكذا كان يوقع اسمه دائماً (65). وكانت أسرته من أعرق الأسرات النبيلة في بوهيميا. ولد في 1583، وتلقى تعليمه أولاً على يد "الأخوة البوهيمين" ثم على يد الجزويت، وتزوج من أرملة غنية طواها الردى سريعاً، تاركة له ثروتها. وضاعف منها بشراء ثمان وستين ضيعة بثمن بخس، بفضل خفض قيمة العملة البوهيمية، من الأملاك التي صادرها فرديناند. وكان مالكاً ذكياً تقديماً، فحسن طرق الزراعة والإنتاج ومول الصناعة ونظم المدارس والخدمات الطبية وإعانات الفقراء، وأدخر بعض الفائض ليقدم الغذاء لشعبه زمن القحط. ولم يؤثر في معاصريه بعقريه العسكرية فحسب، بل بجسمه الفارع النحيل، ووجهه الشاحب الصارم، وقلقه العصبي، وزهوه وغطرسته وطبعه الحاد المسيطر. وجعلته "عفته التي لم يتحول عنها(66)" يبدو وكأنه فوق مستوى البشر. وكانت ثقته بالنتجيم أقوى من إيمانه بالمسيح. وملك قلب فرديناند وظفر بحبه، بالوقوف إلى جانبه ومساندته في كل

صفحة رقم : 10266

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> حرب الثلاثين سنة

المراحل التي رقى فيها الأرشيديوق إلى صولجان السلطان. ومن 1619 وما بعدها أقرض الإمبراطور مبالغ ضخمة تكاد تسد نفقات العرش-على سبيل المثال مائتي ألف جلدن في 1621، وخمسمائة ألف في 1623. ولم يحصل على أية ضمانات لهذه القروض، وبكفيه أنه كان يملك ربع بوهيميا، ويستطيع أن يحشد جيشاً متى شاء، ويتولى قيادته بمهارة فائقة. وفي 1624 عندما تحكم الفرنسيون والبنادقة في ممرات فالنشتين، ولم يعد في مقدور الجنود والمؤن الأسبانية الوصول من إيطاليا إلى النمسا، عرض فالنشتين تجنيد خمسين ألف رجل ووضعهم في خدمة الإمبراطور. فتردد فرديناند لما يعلم من غرام فالنشتين بالقوة والسلطة ولكن تल्ली في 1625 تعالت صيحاته يطلب المدد فكلف فرديناند فالنشتين بتجنيد عشرين ألف رجل. وفي سرعة مذهلة سار هذا الجيش إلى سكسونيا السفلى، كامل العتاد، حسن النظام والانضباط، يحب قائده إلى حد العبادة، ويعيش على ما يسلبه من الريف. وصد فالنشتين مانسفيلد في دسو، وهزم تल्ली كريستيان الرابع في لنتز (1626) وقضى منسفيلد نحبه، ووجد كريستيان جيشه الذي يتناقض عدده عاجزاً متمرداً. وأقصمت عرى التحالف الكبير الذي كان ريشليو قد شكله نتيجة لحقد جوستاف أدولف على كريستيان الرابع، وإعلان إنجلترا الحرب على فرنسا، وحملة بكمنجهام لمساعدة الهيجونوت

في لاروشيل. فكان على ريشليو أن يسحب قواته من ممرات فالتلين، التي عادت الآن مفتوحة أمام النمسا وأسبانيا. وتقدم فالنشتين الذي يزداد جيشه عدداً يوماً بعد يوم، إلى براندبرج وأرغم ناخبها جورج وليم على إعلان الولاء للإمبراطور، واندفع نحو دوقية كريستيان نفسه. وهي هولستين، وتيسر له القضاء على كل مقاومة في غير عناء. وفي نهاية 1627 كانت الأجزاء الداخلية من الدنمرك في قبضته. ووسع هواء البلطيق الملح من خطط فالنشتين، فالآن وقد دان كل الساحل الشمالي الألماني تقريباً، ومعظم أرض الدنمرك، للإمبراطور، فلم يبني بحرية

صفحة رقم : 10267

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> حرب الثلاثين سنة

إمبراطورية، ويحي "الهانسا"، وبالتحالف مع بولندا الكاثوليكية يمد سلطان الإمبراطور على بحر البلطيق وبحر الشمال، ومن ثم لا يعود الهولنديون والإنجليز قادرين على الإتيان بالخشب من ثغور البلطيق عبر مياه السوند ليشدوا أساطيلهم؛ ويتحكموا في بحر الشمال وتجارته ويسدوا القنال في وجه الأسبان أن امتلاك الإمبراطور للبلاتينات مكنه من السيطرة على نهر الراين. ومن ثم يكون الطريق مسدوداً أمام البولنديين في النهر والبحر، فتنهار قوتهم وثروتهم العتيدة. ولسوف يصبح جوستاف أدولف محصوراً في شبه جزيرة أسكنديناوة وفي 1627 كان فالنشتين بالفعل يعد نفسه ليكون أمير البحر في المحيط وفي البلطيق. ولم ينظر الأمراء الألمان بعين الرضا إلى انتصارات فالنشتين. ذلك أنهم رأوا أنه بينما نقص جيش العصابة الكاثوليكية بقيادة مكسيمليان البافاري وكونت تللي إلى نحو 20 ألف رجل، فإن فالنشتين تولى أمره قوات بلغ عددها 140 ألفاً. كما أنه لا يعترف بأية مسئولية إلا أمام الإمبراطور وحده ومادام الإمبراطور مطمئناً إلى وجود جيشه من خلفه، ففي مقدوره أن يحد من "حريات" الأمراء. والحق أن فالنشتين ربما كانت تراوده فكرة القضاء على الملكيات الإقطاعية وتوحيد ألمانيا بأسرها في دولة قوية واحدة. كما كان يفعل ريشليو في فرنسا، وكما كان على بسمارك أن يفعل بعد ذلك بمائتين وأربعين عاماً. ولدى اجتماع الناخبين الإمبراطوريين في مولها وزن، في شتاء 1627-1628، تبادلوا الرأي فيما يراودهم من أمال وما يساورهم من مخاوف. ومال الناخبون الكاثوليك إلى تأييد فالنشتين، ثقة منهم بأنه سوف يقتلع البروتستانتية من جذورها ويقضي عليها في مهدها الأول. ولكن عندما أطاح فرديناند بدوق مكلنبرج البروتستانتية، ونقل الدوقية إلى فالنشتين (11 مارس 1628) فإن الأمراء الكاثوليك أنفسهم تولاهم الجزع من استئثار الإمبراطور بسلطة

صفحة رقم : 10268

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> حرب الثلاثين سنة

خلع الأذواق وتعيينهم وفق مشيئته هو وحده. وما كان أمام الأمراء إلا ورقة واحدة يلعبون بها أمام فرديناند، فإنه كان على وشك أن يطلب إليهم ضمان اعتلاء ابنه العرش الإمبراطوري. وفي 28 مارس أبلغوه أنه مادامت جيوشه تحت إمرة فالنشتين، فإنهم لن يقدموا ضماناً مثل هذا. كما حذرهم مكسيمليان البافاري، من أنه إذا لم ينتقص من جيش فالنشتين ومن سلطاته وقوته، فلا بد يوماً من أن يملي هذا القائد سياسة الإمبراطورية. وكأنما لحظ فالنشتين هذا التحذير، فإنه شرع، وواضح أنه على مسؤوليته الخاصة، في إجراء مفاوضات سرية مع كريستيان الرابع، انتهت بصلح لوبك (22 مايو 1629). ولدهشة أوربا كلها، أعاد إلى ملك الدنمرك جتلند وشلزويج والقطاع الملكي من هولشتين. ولم يفرض تعويضاً، بل أنه طلب فقط تخلي كريستيان عن أسقياته الألمانية وسلطته العسكرية، ولكن ما الذي دفعه إلى هذا الكرم، أنه من ناحية، الخوف من ائتلاف الغرب ضد السيطرة الإمبراطورية على البلطيق والمضايق، ومن ناحية أخرى الاعتقاد بأن جوستاف أدولف كان يخطط لغزو ألمانيا، وأخيراً، تنبأ فالنشتين بأن القضية ستكون بينه وبين جوستاف لكريستيان. وربما أقلق استحوذ فالنشتين على السلطة الدبلوماسية بال الإمبراطور، ولكن كان لزاماً عليه أن يخفي شكوكه وحقده المتزايدين، لأنه كان الآن يخطط أجراً حركة في تاريخه، وقد يكون في حاجة ماسة إلى مساندة قوات فالنشتين في كل مرحلة من مراحل هذه اللعبة الخطرة. أن مستشاريه الجزويت طالما ناشدوه الاستعانة بقوته الجديدة وبقرار إمبراطوري، لتسترد الكنيسة الكاثوليكية، بقدر الإمكان، أملاكها ومواردها التي اقتطعت منها منذ بداية الإصلاح الديني، أو على الأقل منذ 1552. ورأى فرديناند الكاثوليكي الشديد التمسك بعقيدته في هذا المطلب شيئاً من العدالة، ولكنه لم يقدر كل التقدير صعوباته العملية، فقد بيعت منذ 1552 ممتلكات كثيرة من تلك التي كانت ملكاً للكنيسة، ودفع ملاكها الحاليون ثمنها. ولتنفيذ هذا، أي استرداد

صفحة رقم : 10269

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> حرب الثلاثين سنة

لكنيسة لأملها، لا بد من تجريد آلاف من الملاك من ممتلكاتهم، والمفروض أن يتم هذا عنوة، وقد تؤدي الفوضى الناتجة عن هذا بألمانيا إلى ثورة. وكان مكسيمليان أمير بافاريا يوماً يحبذ هذه الفكرة، ولكنه الآن فزع لمداهما ومضاعفاتها، وحث الإمبراطور على إرجائها حتى يدرسها مجلس الديت دراسة مستقيضة. وخشي فرديناند أن يرفضها الديت. وفي 6 مارس 1629 نشر "قرار إعادة أملاك الكنيسة"، وجاء فيه "لم يبقَ أمامنا إلا أن نأخذ بيد الجماعة المظلومة، ونبعث بموظفينا ليطالبوا إلى الملاك الحاليين غير المفوضين قانوناً أن يعيدوا كل الأبرشيات والأسقفيات والأديار، وسائر الممتلكات الكنسية التي صودرت منذ معاهدة باسو 1552". وكان هذا "الإصلاح المضاد" المقترن بالانتقام وكان كذلك توكيداً للسلطة الإمبراطورية المطلقة. وهي سلطة مطلقة ربما تزداد حتى شارل الخامس نفسه في انتحالها لشخصه.

وقبل القرار باحتجاجات صارخة على نطاق واسع، ولكنه نفذ. وحيثما وجدت أية محاولة لمقاومته استدعي جنود فالنشتين وأخدموها في كل مكان باستثناء مجد برج التي نجحت في مقاومة حصار فالنشتين لها. وعادت مدن بأكملها أوجزبرج، ورتتبرج، ودورتمند، وثلاثون بلدة صغيرة إلى أيدي الكاثوليك، وكذلك عاد إليهم خمس أسقفيات ومائة دير، ونظمت من جديد مئات الأبرشيات الكاثوليكية، ولما طبق المالكون قاعدة "الناس على دين ملوكهم" متطلبين من الرعايا أن يتقبلوا مذهب الحاكم، اضطر آلاف البروتستانت أن يرتدوا أو يهاجروا. ومن أوجزبرج وحدها نفي ثمانية آلاف، بما فيهم الياص الذي كان قد فرغ لتوه من بناء دار البلدية الفخمة وهام القساوسة البروتستانت المنفيون على

وجوهم في طول البلاد وعرضها يسألون الناس الخبز، حتى أن القساوسة الكاثوليك الذين حلوا محلهم استصرخوا الحكومة أن تعيئهم(67). وما حال دون النجاح النهائي للقرار والإصلاح المضاد في ألمانيا، إلا قدوم جوستاف أدولف.

صفحة رقم : 10270

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> حرب الثلاثين سنة

وإذ استفذ فرديناند عرضه في استخدام فالنشتين في تنفيذ القرار، ولم يجد أية قوات بروتستانتية في الميدان، فإنه لم يعد حريصاً على الاحتفاظ بقائه. فطلب إليه في مايو 1630 أن يتخلى عن 30 ألفاً من جنوده للخدمة في إيطاليا، فاعترض فالنشتين محتجاً بأن ملك السويد يخطط لغزو ألمانيا، فغلب أمره، وأرسل الثلاثون ألف جندي إلى إيطاليا. وعاد الناخبون في بوليه واقترحوا عزل فالنشتين. ووافق الإمبراطور، وفي 13 سبتمبر أبلغ ضباط الجيش بأن مكسيمليان أمير بافاريا قد حل في منصب القيادة العليا محل قائدهم وعاد فالنشتين في سلام إلى ضياعه في بوهيميا، وهو يعلم أن جوستاف قد دخل الأراضي الألمانية، وأن الإمبراطورية لا بد أن تكون وشيكاً في حاجة إلى قائد.

ج - قصة جوستاف البطولية

1630 - 1632

ينبغي ألا تصور العاهل العظيم في صورة "جالاهاد" أي في صورة رجل نبيل طاهر، تقدم لإنقاذ الديانة من الوثنيين. كانت مهمته أن يدعم ويحافظ على استقلال السويد السياسي ونموها الاقتصادي ومن أجل هذين الهدفين قاتل بولندا الكاثوليكية وروسيا الأرثوذكسية والدنمرك البروتستانتية فإذا تجاسر الآن، بموارده المتواضعة على الدخول في مباراة ضد الإمبراطورية والبابوية وأسبانيا، مجتمعة، فما ذلك بسبب الكتلعة، بل لأنهم هددوا بتحويل بلاده إلى تابع ذليل لملوك غرباء معادين. وأحس بأن خير دفاع ضد مثل هذا الخطر المحدق، هو إقامة معقل محصنة سويدية في الداخل. وترددت سكونيا البروتستانتية، وانسأقت فرنسا الكاثوليكية إلى التحالف مع جوستاف، لأنها أدركت أن القضية لم تعد نظرية في اللاهوت بل كفاً من أجل الأمن عن طريق القوة. ومهما يكن من أمر، فإن العقيدة، على الرغم من أنها دافع ضئيل لدى القادة والزعماء، حافظ مثير قوي لدى الشعب، ويجب أن تضاف طاقتها إلى الروح الوطنية، لتدفع بالناس إلى ميدان القتال.

صفحة رقم : 10271

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> حرب الثلاثين سنة

وهكذا نزل جوستاف بقواته البالغ عددها 15 ألفاً في بوميرانيان وتقدم إلى الولايات الألمانية الشمالية بوصفها منقذة البروتستانتية ومخلصتها، وإلى فرنسا بوصفها سيفاً مسلطاً ضد أسرة هابسبرج المنتقخة. وانتظر المدد من السويد والدمنرك وبراندنبرج وبولنדה حتى تجمع لديه نحو 40 ألف جندي في أحسن نظام، مسلحين ببنادق حديثة الطراز، مدربين على سرعة الحركة بمدفيعتهم الخفيفة. ولم يزل القائد بعد شاباً في السادسة والثلاثين، ولكن على الرغم من حملاته فقد اشتد عوده وقوي جسمه، ودوخ جياده كما دوخ أعداءه، وعلى الرغم من ذلك، كان غالباً ما يتقدم الصفوف، سائراً بلحيته الذهبية نحو النصر. وأحبه جنوده لا لأنه منصف. وعلى حين تبع الجيوش الألمانية أفواج من البلغايا بلغ من كثرتهم تخصيص بعض الضباط لحفظ النظام بينهم، فإن جوستاف لم يسمح بمحظيات أو مومسات في معسكره، ولو أن الزوجات سمح لهن بالقيام بخدمة أزواجهن من الجنود(68). وكانت كل كتيبة تؤدي الصلوات في الصباح وفي المساء، وتستمع إلى عظة كل يوم أحد. وهنا كان نظام رجال كرومول الحديديين قبل وقوع حروب كرومول بعشر سنين وحرم جوستاف، كما حرم كرومول، الارتداد عن الدين قسراً، وحيثما دخل فاتحاً ترك الديانة حرة.

وقضى جوستاف بقية عام 1630 في بسط سلطانه على بوميرانيا، وفي البحث عن خفاء. فإذا تيسر له أن يجمع كل أعداء آل هابسبرج في حرب صليبية واحدة، لاجتمع له مائة ألف جندي صالحين لملاقاة جيش فالنشتين. وفي 13 ديسمبر 1631 وقعت فرنسا والسويد ميثاقاً يحصل الملك بمقتضاه على الرجال، ويدفع الكاردينال (ريشيليو) 400 ألف تالر (4 ملايين دولار؟) سنوياً لحملة مدتها خمس سنوات، ولا تعقد أي من الدولتين صلحاً دون موافقة الأخرى. والتزم جوستاف ألا يتدخل في أمر ممارسة العقيدة الكاثوليكية ودعا ريشيليو مكسيمليان للانضمام إلى هذا التحالف، ولكن الدوق الناخب، بدلاً من ذلك أرسل القائد تल्ली ليعوق تقدم الجيش السويدي. واستولى تल्ली

صفحة رقم : 10272

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> حرب الثلاثين سنة

على نيوبر اندنبرج (19 مارس 1631) وذبح حاميتها المكونة من 3000 رجل. وفي 13 إبريل أخذ جوستاف فرانكفورت وذبح حاميتها المكونة من ألفي رجل، وبينما قضى الملك وقته في بذل الجهد لضم جون جورج ناخب سكسونيا إلى الحلف، حاصر تल्ली وكونت بابنهايم مجدبرج التي كانت لا تزال تقاوم "قرار إعادة أملاك الكنيسة". وفي 20 مايو وبعد صمود لمدة ستة أشهر "سقطت المدينة، وأعمل الجنود المنتصرون فيها السلب والنهب لمدة أربعة أيام. وقتل في هذه الحرب عشرون ألف رجل، لا الحامية المكونة من ثلاثة آلاف فقط، ولكن قتل كذلك 17 ألف من سكان المدينة البالغ عددهم 36 ألفاً، وأحرقت المدينة عن آخرها فيما عد الكاندرائية. ووصف هذا المنظر فقال:-

لم يعد هناك شيء إلا الضرب والحرق والسلب والنهب

والتعذيب والقتل وحرص كل فرد من الأعداء، بصفة خاصة،

على الحصول على أكبر قدر من الغنائم. وتحت التهديد

بالضرب أو الرمي بالرصاص أو الذبح أو الشنق، أربب

الأهالي المساكين وفزعوا، فلو تبقى لديهم شيء لأخرجوه

لو كان مخبأ في ألف حرز مكين. وفي حمأة الغضب المسعور،

اجتاحت ألسنة النيران المدينة العظيمة الفخمة التي قامت وسط

الأرض كعروس جميلة وعذب وأعدم آلاف الأبرياء من

الرجال والنساء والأطفال، وسط ضجة رهيبية من صيحات

وصرخات تمزق الفؤاد، بطريقة وحشية مخزية، تقتصر أية

كلمات عن وصفها، وأية دموع عن ندبها والتوجع لها(69).

وبذل تللي، وهو الآن شيخ هرم في الواحدة والسبعين، كل ما في وسعه لوقف المذبحة. وتنبأ بحق بأن الولايات البروتستانتية دون ريب سوف تشن كراهيتها بسبب تخريب واحدة من أجمل مدنهم.

صفحة رقم : 10273

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> حرب الثلاثين سنة

وفي 22 يولييه 1631 وضع ناخب نراندنبرج كل موارده تحت تصرف جوستاف وفي 30 إبريل ألف جون جورج بين سكسونيا والسويد. وفي 17 سبتمبر سحقت الجيوش السويدية والسكسونية المجتمعة قوات تللي عند برينفلد بالقرب من ليبزخ وكان هذا أول نصر بروتستانتية هام في الحرب، وقد أحيا روح السكان البروتستانت. وأصبح شخص ملك السويد الذي كان يقاتل دون درع في قلب المعركة يعلوه الغبار، ويتصيب منه العرق، يوجه ويقود رجاله غير هياب ولا وجل، نقول أصبح رمزاً يشد من عزم شعب كان عهد قريب ممزقاً عاجز يهرب جيش فالنشتين. واستردت مكلنبرج، وأعيد الدوق المخلوع إلى عرشه، ودخلت الولايات، الواحدة تلو الأخرى، الحلف السويدي وسرعان ما سيطر جوستاف على خط يمتد عبر ألمانيا من الأورو إلى الراين وأخذ مقر قيادته في ماينز في قلب إقليم كاثوليكي عادة. وفي نوفمبر سار جون جورج بجيشه السكسوني إلى براج دون أن يلقي أية مقاومة، وكان حريصاً على عدم مهاجمة ضياع فالنشتين في طريقة.

والآن وقد بقي فرديناند بلا حليف اللهم إلا أسبانيا الفقيرة المعدمة، وبلا قائد سوي تللي العجوز، فإنه في تواضع ذليل ولى وجهه شطر فالنشتين (ديسمبر 1631) وطلب إليه أن يجهز جيشاً لإنقاذ بوهيميا وحماية النمسا. ووافق القائد المزهو المغرور، ولكن بشروط غريبة شاذة أن تكون له القيادة العليا على كل القوات الإمبراطورية، وتكون له سلطة التفاوض وتوقيع المعاهدات إلا مع جوستاف، ويكون له في البلاد التي يفتحها حق مصادرة الأملاك وأصدر العفو وفي إبريل 1632 قبلت هذه الشروط جميعها. فجمع فالنشتين جيشاً، كما جمع الموال اللازمة له، وعرض على جون جورج صلحاً منفرداً واستعاد براج دون طلقة واحدة. وانسحب السكسوني إلى سكسونيا. وفي الوقت نفسه أستأنف القتال، وهزم تللي عند "رين" (15 إبريل). ومات تللي بعد ذلك بأسبوعين متأثراً بجراحه واحتل

صفحة رقم : 10274

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة
-> حرب الثلاثين سنة

جوستاف ميونخ. وسار فالنشتين بجيشه من بوهيميا وأنضم إلى جيش مكسيمليان (وهنا تفوقت هذه القوات على جيش جوستاف عدداً، إلى حد بعيد، وأرتاب حلفاؤه في أن له أطماعاً إمبراطورية، فانتابهم القلق وأصبحوا لا يعتمد عليهم، كما أن قواته كانت على شفا الموت جوعاً، فأعملت السلب والنهب في البروتستانت والكاثوليك ونفرتهم منه، على حد سواء. وأعرب جون جورج، وقد لعبت الخمر برأسه يوماً عن تلهفه على التخلص من ملك السويد وكان جوستاف يأمل في الاستيلاء على فيينا، ولكنه كان يخشى انحياز جون جورج إلى فالنشتين، فتحول إلى الشمال. وفي نورمبرج، وهو يدرك تمام الإدراك أن الريح غير مواتية له، وأرسل تعليماته الأخيرة إلى أو كسمنترنا ليتولى شؤون الحكومة السويدية والحرب. وفي أرفورت ودع زوجته، وفي 16 نوفمبر 1632، في لوتزن بالقرب من ليبزج، التقى القائدان العملاقان في ذلك العصر، وجهاً لوجه، وجيش جوستاف 25 ألفاً، وجيش فالنشتين 40 ألفاً. واقتتل الجيشان طول اليوم ونزفاً، واضطربا ثم التأما، واضطر فالنشتين إلى التراجع، ولكن بابنهيم قلب الهزيمة رأساً على عقب، إلى أن أصابته طلقة في رنته فاخنتق بالدم وقضى نحبه. أم جوستاف فإنه رأى قلب جيشه يتقهقر، فقام بنفسه، على رأس كتيبة من الفرسان، وقاد هجمة ضاربة، ولكن رصاصة أصابت يده اليسرى، وأخرى أصابت جواده فسقط عنه ثم نفذت رصاصة إلى ظهره. فتجمع الفرسان الدارعون الإمبراطوريون حوله وسألوه من يكون، فأجابهم: أنا ملك السويد الذي قد ضمن عقيدة الأمة الألمانية وحريتها بدمه (70) فانهالوا عليه بسيوفهم مرة ومرة، ثم أعلنوا بأعلى أصواتهم نبأ موته، وتولى القيادة بعده برنهارد دوق ماكس ويمار. وأحرز السويديون الذين جن جنونهم بفقد ملكهم، انتصاراً باهراً واستخلصوا جثمان جوستاف الذي شوته الطلقات والطعنات. وفي تلك الليلة ابتهج المنهزمون فرحاً، واغتنم المنتصرون حزناً، لأن أسد الشمال قضى نحبه.

صفحة رقم : 10275

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة
-> حرب الثلاثين سنة

د - انحلال

(1633 - 1948)

ومن ذلك الحين اختفت عظمة الحرب. وتولى ريشليوز زعامة البروتستانت الألمان ونفذ أوكسنستيرنا وصية سيده المتوفى في دبلوماسية حكيمة. وقاد برنارد دوق ساكس ويمار الفرنسيين، وبانير وتورستون السويديين إلى انتصارات جديدة. ولكن الأمجاد ولت ولم يبق إلا الذعر والفرع. وتنفس الأمراء البروتستانت الصعداء إلى حد ما، بموت جوستاف، وتذمروا من الثمن الباهظ الذي أجبروا على تقاضيه لقاء تخليصهم من فرديناند، وفي هذه العملية أتلقت الأطراف المتنازعة مزارعهم ودمرت مدنهم، وقاد ملك أجنبي الألمان ضد الألمان، وبلغ عدد الضحايا مائة ألف.

ويبدو أن فالنشتين فقد أعصابه مذ ذاق طعم الهزيمة لأول مرة. وبعد لوتزن عاد إلى بوهيميا وجهاز في أناة وروية جيشاً آخر، ولكنه أيضاً، وقد بلغ الآن الخمسين، سئم الحرب وتمنى بعض الفراغ ليعالج داء النقرس. فتفاوض، مستقلاً، مع زعماء البروتستانت، حتى مع ريشليو (71) ولا بد أن فرديناند يكون قد علم أن المنفيين البوهيميين، بموافقة أوكسنستيرنا، كانوا يتآمرون لاجلاس فالنشتين على عرش بوهيميا (72). وعندما قاد برنارد دوق ساكس ويمار جيشاً إلى بافاريا توسل مكسيمليان وفرديناند إلى فالنشتين أن يسرع لنجدتهما. ولكنه أجاب بأنه ليس في مقدوره أن يعد الرجال لعمل من هذا القبيل. ولقد وزع جيشه العاطل على الضياع الإمبراطورية في بوهيميا، وطلب إليه الإمبراطور أن يخفف الأعباء المفروضة على هذه الأراضي الإمبراطورية فأبى.

وفي 31 ديسمبر 1633 قرر فرديناند ومجلسه أن لا بد من عزل قائدهم الأعظم، وتناثرت الشائعات في جيش فالنشتين تقول بأنه يتآمر لينصب نفسه ملكاً على بوهيميا ولويس الثامن ملكاً على الرومان. وفي 18 فبراير وزعت

صفحة رقم : 10276

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> حرب الثلاثين سنة

أو امر إمبراطورية على الجيش تحله من قيادة فالنشتين، وبعد ذلك بأربعة أيام، ولى هارياً من بلزن، ومعه ألف رجل. وفي اليوم الخامس والعشرين انقض على غرفته في إيجر نفر من الجنود الطامعين في المكافأة، فوجدوه وحيداً أعزل. وأشبوه طعناً بسببهم، ويقول أحد المعاصرين "وفي الحال جروه من قدميه، يصطدم رأسه بكل درجة من درجات السلم (73)" وأسرع القتل إلى فيينا حيث نالوا ترقية ومالاً وأرضاً. أما الإمبراطور الذي قضى ليالي وأياماً، يستبد به الخوف، يتعبد ويتهدج، فقد حمد الله على معاونته سبحانه.

واستمرت الحرب تجر أذيالها أربعة عشر عاماً أخرى. وحل ابن فرديناند وسميه البالغ من العمر ستاً وعشرين سنة، محل فالنشتين في منصب القائد الأعلى للجيش الإمبراطورية. وكان شاباً جديراً بأن يحب، متعلماً، عطوفاً كريماً، يحب الفلسفة، ويكتب الموسيقى، ويحفر العاج، ومع ذلك لم يكن جاهلاً بفنون الحرب. ودحر بمساعدة القواد القدامى، برناند في نوردلنجن، وهي أعظم المعارك الإمبراطورية حسماً في الحرب. وكادت القوات البروتستانتية أن تنهار تماماً، لولا أن أوكسنستيرنا أنقذ الموقف بعقد معاهدة كومبين (28 إبريل 1635) التي هيأت لريشليو إسهاماً كاملاً في الصراع. ولكن الأمراء البروتستانت في ألمانيا لم يستسيغوا مشهد كردينال فرنسي يتحكم في مصيرهم. وتبعوا، الواحد منهم يتلو الآخر، جون جورج أمير سكسونيا في عقد الصلح مع الإمبراطور الذي رحب بهم، حيث ألقى نفسه تواجهه الجيوش والأموال الفرنسية معاً. وبمقتضى معاهدة براغ (30 مايو 1635) وافق الإمبراطور على وقف العمل بقرار إعادة أملاك الكنيسة لمدة أربعين عاماً. وفي مقابل معظم الأمراء البروتستانت بمساعدته وحلفائه على استرداد الأراضي التي فقدها منذ مجيء جوستاف أدولف. ولما كانت هذه الأراضي تشمل اللورين. فإن المعاهدة في الواقع كانت موجهة ضد فرنسا. والسويد، وكانت توكيداً جديداً للوحدة الألمانية ضد الغزاة. وتوارت المشكلة الدينية عن ميدان القتال. وفي نهاية عام 1635 كان جيش سكسونيا

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> حرب الثلاثين سنة

البروتستانتية يقاوم السويد البروتستانتية في ألمانيا الشمالية حيث كان بانير وتورستسون يناضلان، بعقريه عسكريه جديرة بجوستاف، من أجل الاستيلاء على بعض مواقع قارية من أجل أمن السويد. وفي الغرب وقف برنارد بشجاعة في وجه القوات الإمبراطورية المتزايدة وفي 1628 أمدته فرنسا بالأموال، وأفضل منها بألفي جندي بقيادة تورن الذي سعد نجمه آنذاك كقائد. وشن برنارد، بعد أن وصلته الإمدادات على هذا النحو، حملة جديرة بأن تسجلها حوليات الحرب، من أجل التثبيت بالهدف ودقة الاستراتيجية، وهزم الإمبراطورين في وينتوير. وأجبر قلعة بريساخ العظيمة على الاستسلام، وأنهكت قواه وهو في الرابعة والثلاثين ففضى نخبه (1639) وذهب جيشه وفتوحاته، بما فيها اللورين. إلى فرنسا. وفارق الإمبراطور العجوز الحياة، وخلا من المسرح 1637. وورث فرديناند الثالث إمبراطورية تعاني فقراً وحرماناً لا سبيل للخروج منهما، يكاد أن يكون من المستحيل معهما الإنفاق على جيوش تقف في وجه ريشليو الذي مازال قادراً على ابتزاز الفرنكات من فرنسا المعذمة. وفي 1642 وصل تورستسون بجيش السويد إلى مسافة 25 ميلاً من فيينا، وأحرز نصراً مبيهاً في معركة برتيفيلد الثانية، حيث فقد الإمبراطورين نحو 10 آلاف رجل، مما حدا بالأرشيذوق المنهزم ليوبولد وليم، أخي الإمبراطور الشاب إلى محاكمة ضباطه أمام مجلس عسكري، بتهمة الجبن والخور، وقطع رؤوس ذوي الرتب الكبيرة، وشنق من هم أقل منهم رتبة، وأطلق الرصاص على عشر الباقين على قيد الحياة من سائر الرتب (74).

وبدا الآن أن كل عام يأتي بضربات جديدة تنصب على رأس الإمبراطور الجديد. ففي 1643 تحطمت أسبانيا بانتصار دوق انجين في ركروا. وفي 1644 غزا أنجين وتورن أراضي الراين حتى شمال ماينز، وفي 1645 تقدم تورستسون حتى صار على أبواب فيينا تقريباً، وانتصر الفرنسيون في معركة دامية عند اللير هييم، واجتاح جيش سويدي بقيادة كونت هانس كريستوف

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> حرب الثلاثين سنة

فان كونجز مارك سكسونيا واستولى على لبيزج، وأرغم جون جورج على الخروج من الحرب. وكان الجيش البافاري قد طرد من البلاتينات في 1634 أما الآن، في 1646 فقد غزا تورن بافاريا نفسها وخربها، وتوسل مكسيمليان الذي كان قد ركب الغرور يوماً، إلى عقد الصلح، والتمس من الإمبراطور أن يفاوض فرنسا من أجل

الصلح. ولم يكن فرديناند الثالث صلباً لا يبتني، مثل أبيه، وكانت تصل إلى مسامحه صرخات الإمبراطورية المنهوكه، فأرسل أقدر مفاوضيه إلى وستفاليا وسعياً وراء شيء من التوفيق بين العقائد وبين الأسرات. كان الإمبراطور الشاب أصغر من أن يدرك أن المذبحة والخراب ربما كانا أقطع ما اقتترفته أيدي البشر في جيل واحد في أي بلد من قبل. فلم يكن هناك جيشان، بل ستة جيوش - الألمانى والدنمركى والسويدي واليوهيمي والأسباني والفرنسي معظمهما من الجيوش المرتزقة أو الأجانب الذين لا تربطهم أية صلة بالشعب أو التراب أو التاريخ الألمانى، يقودهم عسكريون مغامرون يقاتلون من أجل أية ملة نظير أجر، وهي جيوش تعيش على استسلاب الحبوب والفاكهة والماشية من الحقول، تقيم أو تأوي في الشتاء إلى مساكن الشعب، جزاؤها هو حقها في السلب والنهب، وابتهاجها بالقتل والغضب. وكان مبدأ مقبولاً مسلماً به لدى كل الأطراف المتحاربة، أن تذبح أية حامية كانت قد رفضت الاستسلام "بعد أن أصبح الاستسلام أمراً لا مناص منه"، وأحس الجنود أن المدنيين فرانس أو ضحايا مشروعة، فأطلقوا الرصاص على أقدامهم في الشوارع، وجندوهم لخدمتهم. وخطفوا أطفالهم من أجل الحصول على الفدية وأشعلوا النار في مخازن التبن وأحرقوا الكنائس لمجرد التسلية واللهو. لقد قطعوا أيدي وأرجل قسيس بروتستانتى لأنه قاوم تحطيم كنيسته، وربطوا القساوسة تحت العربات، وأجبروهم على الزحف على أيديهم وأرجلهم حتى خارت قواهم من الإعياء(75)، وكان حق الجندي في اغتصاب النساء أمراً مسلماً به، فإذا طلب والد أن يحاكم جندي اغتصب ابنته وقتلها، أبلغه الضابط

صفحة رقم : 10279

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> حرب الثلاثين سنة

المختص أنه لو لم تكن ابنته ضنينة بعذريتها إلى هذا الحد لبقيت على قيد الحياة(76). وعلى الرغم من الاختلاط المتزايد تناقص عدد سكان ألمانيا بسرعة أثناء الحرب، وكان التناقص مبالغاً فيه وكان مؤقتاً، ولكنه كان فاجعاً. وتقول التقديرات المعتدلة بأن عدد سكان ألمانيا والنمسا هبط من 21 إلى 15 مليوناً(77). وقدر الكونت فون لوزو أن عدد سكان بوهيميا هبط من ثلاثة ملايين إلى 800 ألف(78). وبين 35 ألف قرية في بوهيميا 1618، هناك نحو 29 ألف قرية هجرها أهلها أثناء الصراع(79). وهناك في مختلف أنحاء الإمبراطورية مئات من القرى لم يبق فيها ساكن واحد، وقد يقطع المرء في بعض الأقاليم ستين ميلاً دون أن يرى قرية أو بيتاً(80)، وكان في 19 قرية في ثورنجيا في 1618 نحو 1717 بيتاً، لم يبق منها في 1649 سوى 627 بيتاً، لم يكن كثير منها أهلاً بالسكان(81).

وتركت آلاف الأفدنة الخصيبة دون فلاح أو زرع بسبب نقص الرجال أو الدواب أو البذور، أو لأن الفلاحين لم يكونوا على ثقة من أنهم سوف يحصدون نتاج ما يزرعون. واستخدمت المحصولات لإطعام الجيوش، وكان ما تبقى يحرق لنلا يستفيد من الأعداء. وأضطر الفلاحون في كثير من الأماكن إلى أكل الفضلات المخبأة، أو الكلاب أو القطط أو الفئران، أو جوز البلوط أو الحشائش، وقد وجد بعض الموتى وفي أفواههم بعض الحشائش وتنافس الرجال والنساء مع الغربان والكلاب على لحم الخيول الميتة. وفي الألزاس انتزع المعتدون المشنوقين من المشنقة، تلهفاً على التهام جثثهم. وفي أراضي الراين كانت القبور تنبش وتباع الجثث لتؤكل. واعترفت امرأة في زويبركن بأنها أكلت طفلها(82). وتعطلت وسائل النقل إلى حد تعذر معه نقل الفائض في جهة إلى جهة أخرى بعيدة محرومة. وتهدمت الطرق بسبب المعارك، أو باتت من الخطر ارتادها بسبب قطاع الطرق، أو ازدحمت بالمهاجرين واللاجئين.

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> حرب الثلاثين سنة

وعانت المدن الصغيرة أقل مما عانت القرى. وهبط عدد سكان كثير منها إلى نصف ما كان عليه من قبل. وأصبحت المدن الكبرى أطلالاً خربة-مجدبرج، هيدلبرج، نورمبرج، نيو ستاد، بايريت. وتدهورت الصناعة لعدم وجود المنتخبين والمشتريين والحرفيين، وكسدت التجارة. وصار التجار الذين كانوا يوماً أثرياء يتسولون أو يسرقون من أجل لقمة العيش. وامتنتعت المكميونات عن دفع ديونها بعد أن أعلنت إفلاسها. وأحجم الممولون عن الإقراض خشية أن تتحول القروض إلى هبات أو منح. وأفقرت الضرائب كل الناس، اللهم إلا القواد والجباة والقساوسة والملوك، وبات الهواء ساماً بسبب الفضلات والنفايات والجثث المتعففة في الشوارع. وانتشرت أوبئة التيفوس والتيفود والدوزنتاريا والأسقربوط بين السكان المذعورين، ومن بلدة أخرى. ومرت القوات الأسبانية بمدينة ميونخ فتركت وراءها طاعوناً أودى بحياة عشرة آلاف ضحية في أربعة شهور (83). وذوت وذبلت في أتون الحرب الفنون والآداب التي كانت تضيء على المدن شرفاً ومجداً.

وانهارت الأخلاق والروح المعنوية على حد سواء، فإن اليأس المقرون بالإيمان بالقضاء والقدر دعا إلى الوحشية المقترنة بالسخرية. واختفت كل المثل الدينية والوطنية بعد جيل سادته العنف، وكان البسطاء من الناس يكافحون الآن من أجل الطعام أو الشراب، أو يقاتلون بسبب الكراهية. على حين عبأ سادتهم عواطفهم في التنافس على اقتناء الأراضي التي يمكن أن يجمعوا منها الضرائب، وعلى السلطة السياسية. وهنا وهناك ظهرت بعض النواحي الإنسانية، فكان الجزويت يجمعون الصدقات ليطعموا الأطفال الذين لا عائل لهم، كما كان الوعاظ يطلبون إلى الحكومات وضع حد لسفك الدماء والدمار. وكتب أحد الفلاحين في مذكراته اليومية "اللهم إنا نتوسل إليك أن تعيد لنا السلام. يا إله السموات أنزل علينا السلام(84)".

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> صلح وستاليا

كان الحكام ورجالهم الدبلوماسيون منذ 1635 يجسون النبض ويتحسسون الرأي من أجل السلام. وفي تلك السنة اقترح البابا أربان الثامن عقد مؤتمر لبحث شروط المصالحة، واجتمع المندوبون واجتمع المندوبون للتفاوض في كولون. ولكنهم لم يصلوا إلى نتيجة. وفي همبرج في 1641 صاغ ممثلو فرنسا والسويد والإمبراطورية اتفاقية مبدئية

لينعقد مؤتمر مزدوج في وستفاليا في 1642، ففي مونستر تلتقي فرنسا مع الإمبراطورية لمعالجة مشاكلهما في ظل وساطة البابا والبنديقية، وفي أوسنابروك، على بعد ثلاثين ميلاً، تلتقي فرنسا والإمبراطورية مع السويد لإجراء المفاوضات في ظل وساطة كريستيان الرابع ملك الدنمرك. وكان هذا الفصل "المطهر" ضرورياً بسبب عدم رغبة المندوبين السويديين في الاجتماع تحت رئاسة ممثل البابا، ورفض ممثل البابا أن يجلس في صعيد واحد مع "الزنادقة".

وجاء التأخير نتيجة إجراءات الأمن وقواعد البروتوكول، واستحث انتصار تورستنسون في برينتفيلد الإمبراطور إلى الوعد بأن مندوبيه سيصلون في 11 يولييه 1643، وتلكاً المندوبون الفرنسيون بينما كانت فرنسا تدبر التحالف مع المقاطعات المتحدة (في الأراضي الوطنية) ضد أسبانيا. وافتتح مؤتمر وستفاليا شكلاً في 4 ديسمبر 1644، وضم 135 عضواً بما فيهم رجال اللاهوت والفلاسفة. وانقضت منذ ذلك اليوم ستة شهور في تحديد نظام الأسبقية في دخول المندوبين إلى القاعات وجلسهم وما كان السفير الفرنسي ليدخل في المفاوضات إلا إذا خوطب بلقب "صاحب الفخامة". وعندما وصل السفير الأسباني تجنب السفير الفرنسي ونأى بنفسه عنه، لأن أياً منهما لا يعترف للآخر بالأسبقية، واتصل كل منهما بالآخر عن طريق شخص ثالث. ورفضت فرنسا الاعتراف لفيليب الرابع بلقب ملك البرتغال وأمير قطالونيا. كما رفضت أسبانيا الاعتراف بلقب ملك نافار للويس الرابع

صفحة رقم : 10282

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> صلح وستفاليا

عشر. وتنازع المندوبون السويديون فيما بينهم وأضاعوا الوقت حتى صدرت إليهم أوامر الملكة الشابة الجزئية كريستينا بأن يصلحوا فيما بينهم. ثم يعقدوا مع العدو. وفي الوقت نفسه كان الرجال يذهبون إلى الحرب ليلقوا حتفهم. وعلى قدر ما كانت جيوش كل فريق منتصرة أو مقهورة، تلكاً المندوبون في المفاوضات أو عجلوا بها، وشغل المحامون أيما شغل بخلق الصعوبات أو ابتداع الحلول الوسط ووسائل التوفيق، يحلون العقد أو يزيدونها تعقيداً. وكان قواد فرنسا يسرون بخطى واسعة، ومن ثم فإنها أصرت على تمثيل كل أمراء ألمانيا في المؤتمر، على الرغم من أن معظمهم كان قد عقد الصلح مع الإمبراطور منذ أمد طويل. وطلب إلى الزمن أن يتوقف حتى يرسل كل الناخبين والأمراء والمدن الإمبراطورية ممثلهم، ورغبة في إضعاف مركز فرنسا، عمدت أسبانيا (8 يناير 1648) إلى توقيع صلح منفرد مع المقاطعات المتحدة-التي كانت لتوها قد وعدت فرنسا بعدم توقيع صلح منفرد، ولكن الهولنديين لم يكونوا ليضيعوا الفرصة التي لاحت لهم ليكسبوا بجرة قلم ما قاتلوا من أجله طيلة ثمانين عاماً. فكان جواب فرنسا على هذا أنها رفضت عقد الصلح مع أسبانيا، واستمرت الحرب بينهما حتى صلح البرينز 1659. وكان يمكن أن ينفذ المؤتمر دون نتيجة، لولا اجتياح تورن لبارفابيا، وهجوم السويد على براغ (يولييه 1648) وهزيمة الأسبان في لنز (2 أغسطس) فإن هذه الأحداث كلها أقتعت الإمبراطور بالتوقيع، على حين أن ثورة الفروندي في فرنسا (يولييه) أكرهت مزران على تقديم بعض التنازلات التي تطلق يده للحرب في الداخل. وعلى هذا، وقعت آخر الأمر معاهدة وستفاليا في مونستر وأورنابروك معاً في 24 أكتوبر 1648-واستمر سفك الدماء تسعة أيام آخر، حتى وصلت الأنباء إلى جبهات القتال، وتعالص صيحات "الشكر لله" خاشعة مبتهجة، من ألف قرية ومدينة.

صفحة رقم : 10283

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> صلح وستفاليا

ولا بد من التسليم بأن المفاوضات واجهت من مشكلات التوفيق ما هو أكثر تعقيداً من أية مشكلات واجهها مؤتمر صلح قبل القرن العشرين، وأنها عملت على تسوية المطالب المتعارضة بحكمه، قدر ما سمحت الكراهية والغرور والكبرياء والقوة والسلطة بين المجتمعين. ولا بد من تلخيص بنود هذه المعاهدة التي أعادت تشكيل أوروبا من جديد، لأنها أوجزت وأخرجت قدراً كبيراً من التاريخ.

- 1- حصلت سويسرا والمقاطعات المتحدة على اعتراف رسمي باستقلالهما.
- 2- حصلت بافاريا على البالاتينات العليا (الجنوبية)، مع صوتها الانتخابي.
- 3- أعيدت البالاتينات الدنيا (الشمالية)، بوصفها موطناً انتخابياً ثامناً، إلى شارل لويس بن فردريك المتوفى.
- 4- حصلت براندنبرج على بوميرانيا الشرقية وأسقفيات مندن وهالبرستاد وكامين، ووراثه أسقفية مجدبرج. وعاونت فرنسا أسرة هونزلرن الناشئة في الحصول على هذه الثمار اليانعة، بفكرة إقامة قوة أخرى ضد آل هبسبرج، وما كان منتظراً من فرنسا أن تنتبأ بأن براندنبرج ستصبح بروسيا التي سوف تتحداها على عهد فردريك الأكبر، ثم توقع بها الهزيمة على يد بسمارك.
- 5- ونالت السويد، بفضل انتصارات جيوشها أساساً، وبفضل مساندة فرنسا لها في المؤتمر، بشكل جزئي، أسقفيتي بريمن وفردن، ومدينتي ويزمار واستتن، ومنطقة مصب نهر الأودر، ولما كانت هذه كلها إقطاعات إمبراطورية، فقد حصلت السويد على مقعد في الديت الإمبراطوري، ولما استولت بالفعل على ليفونيا وأستونيا وأنجريا وكاريليا وفنلندة فقد أصبحت الآن في عداد الدول العظمى، وسيدة البلطيق حتى جاء بطرس الأكبر.

صفحة رقم : 10284

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> صلح وستفاليا

- 6- واحتفظت الإمارات الألمانية بما كان قبل الحرب من "حريات" في مواجهة الأباطرة.
- 7- وكان على الإمبراطور أن يقنع بالاعتراف بحقوقه الملكية في بوهيميا والمجر. ومن ثم اتخذت إمبراطورية النمسا والمجر شكلها على أنها حقيقة واقعة في هيكل الإمبراطورية المقدسة. لقد انهارت اقتصاديات الإمبراطورية المعمرة، من جهة بسبب نقص السكان وتدهور الصناعة والتجارة أثناء الحرب، ومن جهة أخرى بسبب مرور المنافذ النهرية الكبيرة إلى دول أجنبية من منافذ الأودر والألب إلى السويد، والراين إلى المقاطعات المتحدة.
- 8- وكان أكبر الغنم لفرنسا التي مولت ثروتها السويديين المنتصرين، وفرض قوادها الصلح فرضاً. فسلمت إليها الألزاس فعلاً، مع أسقفيات متزوفردون وتول وحصن بريزاك على الجانب الألماني من الراين. وسمح الآن للويس الرابع عشر بالاستيلاء على فرانكن كونتية واللورين، وفق هواه وتحقيق هدف ريشليو-الذي كان الآن قد فارق الحياة-كسر شوكة آل هبسبرج ومد حدود فرنسا، وتمكين وحدة فرنسا ودفاعها، والإبقاء على فوضى الإمارات في الإمبراطورية، وعلى الصراع بين الأمراء والإمبراطور، وعلى النزاع بين الشمال البروتستانتي والجنوب

الكاثوليكي، مما يحمي فرنسا من خطر ألمانيا موحدة. وحلت فرنسا محل أسبانيا- أو احتلت أسرة البوربون مكان آل هابسبرج بوصفها قوة عظمى مسيطرة على أوروبا، وسرعان ما علا لويس الرابع عشر إلى منزلة الشمس. أما الضحية الخفية للحرب فهي المسيحية، لقد كان على الكنيسة الكاثوليكية أن تتخلى عن قرار إعادة أملاك الكنيسة، وأن تعود سيرتها الأولى إلى الوضع الذي كانت عليه ممتلكاتها في 1624، وترى الأمراء مرة أخرى يقررون عقيدة رعاياهم. ومهما يكن من أمر، فإن هذا مكن الكنيسة من إخراج

صفحة رقم : 10285

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> صلح وستفاليا

البروتستانتية من بوهيميا موطن إصلاح هس. لقد قضى على الإصلاح المضاد، ومثال ذلك أنه لم يكن محل نزاع أن تقيم بولندا المذهب الكاثوليكي في السويد البروتستانتية، بضعف ما كان عليه من قوة من قبل. ورفض ممثل البابا في مونستر أن يوقع المعاهدة. وفي 20 نوفمبر 1948 أعلن البابا إنوسنت العاشر "أنها غير ذات قوة شرعية ملزمة، ملعونة بغيضة، ليس لها أي أثر أو نتيجة على الماضي أو الحاضر أو المستقبل" (85). وتجاهلت أوروبا هذا الاحتجاج. ومنذ تلك اللحظة لم تعد البابوية قوة سياسية عظمى، وأنحط شأن الدين في أوروبا. وكذلك احتج بعض البروتستانت، وخاصة أولئك الذين فقدوا مساكنهم في بوهيميا والنمسا. ولكن المعاهدة في جملتها- وهي ثمرة جهود كاردينال توفي وأخر حي- كانت نصراً للبروتستانتية التي أنقذت ألمانيا. لقد ضعفت في الجنوب وفي الراين، ولكنها في الشمال قويت عن ذي قبل، واعترفت المعاهدة رسمياً بكنيسة الإصلاح أو الكنيسة الكالفنية. وبقيت خطوط التقسيم الديني التي أقرت في 1648، دون تغيير جوهرى حتى القرن العشرين، حين بدأ التغيرات في معدلات المواليد أو نسب تزايد السكان، يوسع من رقعة الكتلكة بطريقة تدريجية سليمة. ولكن على الرغم من إن الإصلاح الديني قد أنقذ، فإنه عانى، مع الكاثوليكية، من التشكك الذي شجعت به بذاءة الجدل الديني. ووحشية الحرب، وقساوة العقيدة. وأعدم أثناء المعركة آلاف من الساحرات. وبدأ الناس يرتابون في المذاهب التي تبشر بالمسيح وتقترف قتل الأخوة بالجملة. وكشفوا عن الدوافع السياسية والاقتصادية التي تستر تحت الصيغ الدينية، وارتابوا في أن حكاهم يتمسكون بعقيدة حقة، بل أنها شهوة السلطة هي التي تتحكم فيهم-ولو أن فرديناند الثاني بسلطانه المرة بعد المرة، من أجل عقيدته. وحتى في أظلم العصور الحديثة هذه، ولى كثير من الناس وجوههم

صفحة رقم : 10286

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> صراع العقائد على السلطة -> هرمجدون أو الحرب الإمبراطورية الفاصلة -> صلح وستفاليا

شطر العلم والفلسفة للظفر بإجابات أقل اصطبغاً بلون الدم من تلك التي سعت العقائد أن تفرضها في عنف بالغ. وكان جاليليو يفرغ في قالب مسرحي ثورة كوبرنيكس. وكنا ديكرات يثير الجدل حول كل التقاليد وكل السلطة. وكان برونويشكو إلى أوربا ألامه المبرحة وهو يساق إلى الموت حرقاً. لقد أنهى صلح وستاليا سيطرة اللاهوت على العقل في أوربا، وترك الطريق إلى محاولات العقل واجتهاداته، غير معبد، ولكن يمكن المرور فيه.

صفحة رقم : 10287

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> الخرافة

الكتاب الثالث

اجتهادات العقل

1648 1558

الفصل الثاني والعشرون

العلم في عصر جاليليو

1648 - 1558

وقد تولد الديانات، وقد تفتى، ولكن الخرافة باقية أبد الدهر. وسعداء الحظ هم الذين يحتملون بدون أساطير، والكثير منها يعاني في جسمه وفي أعماق نفسه. وأفضل عقار مسكن في "الطبيعة" جرعة مما هو فوق الطبيعة. وحتى كبلر ونيوتن مزجا علمها بالأساطير. وأمن كبلر بالسحر. وكتب نيوتن في العلم أقل مما كتب عن "سفر الرؤيا". وكانت الخرافات الشعبية أكثر مما يحصيه العد. فأذانا تلتهب عندما يتحدث عنا الآخرون. ولا تكون الزيجات التي تتم في شهر مايو سعيدة. وتشفى الجراح إذا مسح السلاح الذي أحدثها بالزيت المقدس. وتستأنف الجثة نزف الدم في حضور القاتل. وإن الجنيات والجن الصغير المؤذي والغيلان والأرواح الشريرة والشياطين لتحوم في كل مكان. وثمة طلاس معينة (مثل تلك التي وجدت عند كاترين دي مدينشي بعد وفاتها) تضمن الحظ السعيد، وتمائم وتعويد تقي من التجاعيد ومن العنة ومن الشر الحاسد ومن الطاعون. ويمكن أن تبرئ لمسة من الملك المصاب بسيل الغدد للمفاوية في العنق. وللأرقام وللمعادن والنباتات والحيوانات خصائص وقوى سحرية.

صفحة رقم : 10288

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> الخرافة

وكل حادث علامة على رضا الله أو غضبه، أو من عمل الشيطان. ويمكن التنبؤ بالأحداث من شكل الرأس أو خطوط الكف. وتختلف الصحة والقوة والقدرة الجنسية باختلاف منازل القمر، أهو بدر أم في المحاق. وقد يسبب ضوء القمر الجنون أو يشفي الثؤلول. وتندر المذنبات بالكوارث. إن العالم (في الكثير الغالب) يسير إلى النهاية(1). وكان التنجيم لا يزال سائداً. على الرغم من تزايد استنكاره ونبذ له لدى من يعرفون القراءة والكتابة. وفي 1572 انقطع تدريسه في جامعة بولونا. وفي 1582 استنكرته وشجعت محاكم التفتيش الأسبانية. وفي 1586 حذر البابا سكستس الخامس الكاثوليك منه. ولكنه ظل بين الإبقاء والإلغاء في جامعة سالامنكا حتى 1770. وكانت الغالبية العظمى من الناس، وكثير من أفراد الطبقات العليا، يستتبثون البروج عن المستقبل من مواقع النجوم، وكانوا يكشفون عن "طالع" أي طفل مهما كان شأنه بمجرد ولادته، وقد اختبأ أحد المنجمين بالقرب من مخدع أن النمساوية عند ولادة لويس الرابع عشر(2). وعندما ولد جوستاف أدولف طلب أبوه شارل التاسع إلى تيكويراهي أن يكشف عن طالعه، فتنبأ المنجم في حرص وحذر بأنه سوف يصبح ملكاً. وكان كبلر ينظر إلى التنجيم بعين الريبة والشك، ولكنه مكان يداهن فيقول: "كما أن الطبيعة هيأت لكل حيوان من الوسائل ما يحصل به على العيش، فقد هيأت التنجيم للمنجم لتمكنه من العيش". وفي 1609 أجزل فالنشتين العطاء لمن أتاه بطالع سعيد، وكان دائماً يصطحب معه في رحلاته وجولاته منجماً(4)، وربما قصد بذلك تشجيع قواته. وكم من مرة استنارت كاترين دي مدينشي وحاشيتها المنجمين(5). وحظي جون دي بشهرة فائقة في التنجيم، حتى اكتشف أن النجوم تأمره أن يتبادل الزوجات مع أحد تلاميذه(6). وكان التصديق بأفانين السحر أخذة في التقلص، باستثناء واحد مخز حقيير

صفحة رقم : 10289

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> الخرافة

ذلك أن تلك الفترة كانت ذروة التخلص من السحرة بالقتل المشروع بحكم القضاء. إن المعذبين ومن ينزلون بهم العذاب، على حد سواء، صدقوا بإمكان الحصول على معونة القوى الخارقة للطبيعة بالرقى والتعاويذ أو بوسائل مشابهة، وإذا كان من المستطاع الحصول على شفاة قديس بالصلوات، فلم لا نلتمس معونة الشيطان بملاطفته والتودد إليه. وثمة كتاب صدر في هيدلبرج 1585 تحت عنوان "بعض الأفكار المسيحية حول السحر"، جاء فيه كحقيقة ثابتة مقررة: "أن كل مكان في العالم بأسره، في الداخل والخارج، وفي البر والبحر، يعج بالعفاريت والأرواح الشريرة غير المرئية(7)" وساد الاعتقاد بأن كل الكائنات البشرية يمكن أن "تلبسها" الشياطين وتحل فيها. وفي 1593 "ساد الذعر الرهيب فريدبرج المدينة الصغيرة حيث قيل أن الشيطان قد حل بأجسام أكثر من ستين شخصاً، وعذبهم عذاباً أليماً... بل أن القسيس نفسه استحوذ عليه الشيطان وهو يلقي عظه(8)". وتصور قصة: "قطيع الخنازير (إنجيل متي 8: 27-34)" كيف أن المسيح أخرج الشياطين من أجسام الذين حلوا بهم، ألم يمنح أتباعه القدرة على إخراجهم باسمه (إنجيل مرقس 16: 17). وكان الناس يلجأون إلى القساوسة لمعل تعاويذ مختلفة- لإزالة النباتات والحشرات الضارة من حقولهم، أو لتهدئة الأعاصير في البحر، أو تطهير المباني من الأرواح الشريرة، أو تطهير كنيسة أصابها بعض الدنس.... وفي 1604 أصدر البابا بول الخامس منشوراً يمثل هذه الخدمات الكهنوتية. واستنكر الكتاب البروتستانت مثل هذا الرقى والتعاويذ المقدسة على أنها ضروب من السحر. ولكن كنيسة إنجلترا اعترفت بقيمة التعاويذ على أنها طقوس شافية معافية(9). وهنا، كما هو الحال في كثير من الطقوس، كان الأثر النفسي عليها طيباً. وكما أخذ الناس بزمام المبادرة في طلب التعاويذ، فإنهم كانوا كذلك أول من طالب بمحاكمة السحرة، فقد ساد الذعر من قوتهم ومقدرتهم. وجاء في

صفحة رقم : 10290

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> الخرافة

إحدى النشرات 1563 "أن الدخول في علاقات مع الشيطان، فيكون في متناول يدك في الخواتم أو البللورات، فتستحضره أو تحالفه، وتقوم معه بمئات من أفانين السحر، أكثر الآن شيوعاً عن ذي قبل، بين الطبقات العليا والدنيا. وبين المتعلمين وغير المتعلمين". وانتشرت "كتب الشياطين" التي توضح كيفية الاتصال بالنافع منهم ومن معرضين اثنين في 1568 اشترى أحد الأفراد 1220 كتاباً من هذه الكتب(10). وفي بعض الحالات نصح ضباط محاكم التفتيش قساوسة الأبرشيات "أن يظهروا الناس على أضاليل السحرة وخرافاتهم" وأشاروا بعدم التصديق "بسبب السحرة"، وأوصوا بعزل قسيس كان يصغي في سذاجة إلى اتهامات السحرة(11). وطالب البابا جريجوري الخامس عشر في 1623 بعقوبة الإعدام لفر من الناس تسببت شعورهم في الموت، ولكن البابا أريان الثامن في 1637 أدان المحققين الكاثوليك "لأنهم حاكموا المشعوذين محاكمة ظالمة تعسفية... وانتزعوا من المتهمين اعترافات لا قيمة لها... وعاقبواهم دون بيينة كافية(12)" وأصدر الإمبراطور مكسيمليان الثاني (1578) قراراً باختبار صحة اعترافاتهم بتحديدهم بأن يأتوا بأعمالهم السحرية علناً، وأن يكون النفي أقصى عقوبة يحكم بها عليهم بعد إدانتهم ثلاث مرات. ولكن الأهالي المدعورين طالبوا بالصرامة في الاختبارات وبالتعجيل بتنفيذ الأحكام.

أن السلطات المدنية والدينية التي كانت تشارك الناس خوفهم من السحر، أو ترغب في التخفيف من حدته، عمدت إلى أقسى الإجراءات في محاكمة المتهمين وعذبهم لتنتزع منهم الاعترافات. وكان لمجلس مدينة نوردانجن مجموعة خاصة من آلات التعذيب، كان يعيرها للبلاد المجاورة مع التوكيد بأنه "بفضل هذه الآلات، ويوجه أخص آلة الضغط على الإبهام، يمن علينا الله بكرمه بإظهار الحق، أن لم يكن لأول وهلة، ففي آخر الأمر على أية حال(13) أما التعذيب بإبقاء المتهم يقظاً لا يدوق طعم النوم، فكان وسيلة معتدلة

صفحة رقم : 10291

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> الخرافة

خفيفة. وكان التعذيب عادة هو طريق الوصول إلى الإقرار المرغوب فيه. وكانت الاعترافات غير الموثوقة التي لا يعتد بها. هي التي تحير القضاة أحياناً. وكان الاضطهاد في أسبانيا أقل قسوة. ففي مقاطعة لجرنونو وجهت محكمة التفتيش الاتهام إلى 53 شخصاً من المشتغلين بالسحر، وأعدمت منهم 11 شخصاً (1610) ورفضت الاتهامات الأخرى عادة لأنها وهمية أو انتقامية. وكان الحكم بإعدام السحرة نادراً. وفي 1614 أصدرت رئاسة محكمة التفتيش إلى ضباطها تعليمات بأن ينظروا إلى اعترافات السحرة على أنها تضليلات جنونية أو عصبية، وأن يستعملوا الرأفة في العقوبة(14). واجتاحت جنوبي شرقي فرنسا في 1609 موجة عاتية من الذعر من السحرة، وأعتقد مئات من الناس أن الشياطين حلت فيهم. وظن بعضهم أنهم تحولوا إلى كلاب وأخذوا في النباح وعينت لجنة من البرلمان بورودو لمحاكمة المشتبه فيهم وابتدعت طريقة لاكتشاف المواضيع التي دخلت منها الشياطين إلى جسم المتهم، ذلك بعصب عينيه وعرز الإبر في لحمه، وأي مكان لا يحس فيه بوخز الإبر، كان هو المكان الذي دخل منه الشيطان. وطمعا في العفو عنهم اتهم المشتبه فيهم بعضهم بعضاً. فحوكم منهم ثمانية وهرب خمسة، وأحرق ثلاثة. وأقسم جمهور النظارة فيما بعد أنهم شاهدوا العفاريت على هيئة ضفادع تخرج من رؤوس الضحايا(15). وفي اللورين أحرق 800 شخص بتهمة السحر على مدى 16 عاماً. وأحرق في ستراسبورج 134 شخصاً في أربعة أيام (أكتوبر 1582)(16). وفي لوسرن الكاثوليكية، أعدم 62 شخصاً فيما بين 1562-1572. وفي برن البروتستانتية أعدم 300 في السنوات العشر الأخيرة من القرن السادس عشر، و240 في العقد الأول من القرن السابع عشر(17).

صفحة رقم : 10292

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> الخرافة

وفي ألمانيا تسابق الكاثوليك والبروتستانت في إعدام السحرة حرقاً. وثمة رواية يمكن الاعتماد عليها ولو أنها لا تكاد تصدق، بأن رئيس أساقفة تريير أمر بإحراق 120 شخصاً في فالز في 1596 بتهمة أنهم أطالوا فترة الجو البارد أكثر

من المؤلف بطريفة شيطانية(18). ونسب طاعون الماشية في إقليم سكونو في 1598 إلى السحرة. وحث مجلس بافاريا المخصوص في ميونخ المحققين "على إظهار مزيد من الجدية والصرامة في الإجراءات"، فكانت النتيجة إحراق 63 ساحراً، كما طلب من أقارب الضحايا دفع نفقات المحاكمة(19) وفي هاينريخ بالنمسا أعدم ثمانون بتهمة الشعوذة في عامي 17-1618 وقيل أنه في 1627-1629 أعدم أسقف وورنبرج 900 من السحرة(20). وفي 1582 أصدر الناشر البروتستانتي من جديد، وبموافقة منهم "مطرقة السحرة" التي كان المحقق الدومنيكاني جاكوب سبرنجر قد نشرها في 1487، وهي عبارة عن توجيهات وإرشادات تفيد في الكشف عن السحرة وفي محاكمتهم. وأصدر أوغسطس ناخب سكسونيا في 1572 قراراً بإحراق السحرة حتى الموت حتى ولو لم يؤذوا أحداً. وفي اللنجن أحرق 1500 من السحرة في 1590، وفي اللوانجن 167 في 1612، وفي عامين(21). وكادت ثمة موجات مماثلة في أوسنابروك 1588، ونوردانجن 1590، وفي ورتمبرج 1616. على أن هذه الإحصاءات الأخيرة مأخوذة عن نشرات صحفية معاصرة ومعروفة بعد الدقة. ويقدر الباحثين الألمان جملة من أعدموا بتهمة السحر بمائة ألف في ألمانيا في القرن السابع عشر(22).

وارتفعت أصوات قليلة تدعو الناس إلى العقل. وقد رأينا في مكان آخر احتجاجات يوهان وپرورينجالد سكوت، كما رأينا كيف حول مونتيني مرحة المتشكك إلى هذه الحمى (حمى قتل السحرة) وفي مقاله "الأعرج أو الكسيح": "كم هو طبيعي ومقبول أن أجد رجلين يكذبان، أكثر من أن رجلاً يمكن في اثنتي عشرة ساعة أن تحمله الريح من الشرق إلى الغرب... أو أن يحمل

صفحة رقم : 10293

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> الخرافة

أحدنا على مكنسة... خلال مدخنة(23) "أن من يؤمنون بهذا أحوج ما يكونون إلى الدواء والعلاج، لا الموت، حتى إذا ما انتهى كل شيء، فما هي إلا مغالاة في قدرة المرء على الحكم عن طريق الحدس والتخمين مما يؤدي إلى إحراق المرء حياً"(24). وهاجم كورنيليوس لوس، الأستاذ الكاثوليكي في ماينز، مطاردة السحرة في كتابه "بين السحر الحقيقي والزائف" (1592)، ولكنه قبل أن يتمكن من نشره، أودع السجن واضطر أن يعترف علناً بأخطائه(25). وثمة جزويتي آخر، هو الشاعر الورد فرديريك فون سبي، فإنه بعد أن عمل كاهن اعترف لمائتي شخص متهمين بالسحر. استنكر الاضطهاد في كتاب جريء ("Cautio Criminalis 1631")، سلم فيه بوجود السحرة، ولكنه رثى للقيض عليهم لمجرد شبهات لا أساس لها، وليعد المحاكمات عن شرعة الإنصاف، وللتعذيب الغاشم الذي كان يمكن أن يجبر، حتى فقهاء الكنيسة وأساقفتها على الاعتراف بأي شيء(26).

ولكل خصم من هذا القبيل اثني عشر محامياً ينبرون للدفاع عن الظلم، فإن رجال اللاهوت البروتستانتي مثل توماس أراستوس في 1572، ورجال اللاهوت الكاثوليكي مثل الأسقف بنزفلد (1589) اتفقوا على أن السحر حقيقي وأن السحرة يجب إحراقهم. وأقر الأسقف التعذيب، ولكنه أوصى بشنق السحرة التائبين قبل إحراقهم(27). وأيد المحامي والفيلسوف الكاثوليكي جين بودين الاضطهاد والتعذيب في كتابه "حمى العفاريث" 1580، وبعد عام واحد ترجم الشاعر البروتستانتي يوهان فسكارت هذا الكتاب ووسع فيه مع تقدير بالغ له، وانضم إلى بودين في الحث على أخذ السحرة بشدة لا ترحم ولا تلين.

ومهما يكن من أمر فإن هذه الحمى خفت حدتها، فعندما أصبحت حرب الثلاثين حرباً سياسية بشكل صريح سافر، لم يعد الدين يحتل مكاناً هاماً في كراهيات الناس وحزاناتهم. وانتشرت الطباعة وكثرت الكتب، ونهضت

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> الخرافة

المدارس، وفتحت الجامعات، وأسهم المكافحون الصابرون سنة بعد أخرى، بوضع لبنة في البناء الناشئ، بناء العلم والمعرفة. وفي مائة من المدن عكف المحبون للإطلاع على اختبار الفروض بالتجارب. وتقلص نطاق ما هو خارق للطبيعة ببطء، ونما نطاق ما هو طبيعي ودينيوي. أنه تاريخ موضوعي مجرد قاتم، مؤلف من شظايا، وهو أعظم مسرحية في الأزمنة الحديثة.

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> انتقال المعرفة

2- انتقال المعرفة

إن الأبطال الأولين هنا هم الطابعون الناشرين الذين غدوا مجرى المداد الذي تدفقت منه المعرفة من عقل إلى عقل، ومن جبل إلى جبل. واستأنفت دار أستين الكبيرة للنشر، نشاطها في جنيف على يد هنري أستين الثاني، وفي باريس بفضل روبرت أستين الثالث. ونشأت أسرة مثل هذه (نحو 1580) في ليدن كان على رأسها لويس الزفير، ونهض أبناؤه الخمسة وحفداؤه وابن لأحد حفدته، بالعمل، وحملت اسمهم طريقة معينة للطباعة. وفي زيورخ اكتسب كريستوفر فروشير شهرة في تاريخ الطباعة والثقافة بطبعاته الدقيقة للكتاب المقدس. وهيأت دور الكتب مأوى جديداً للذخائر القديمة. ولقد عرفنا مكتبة بودليان في أكسفورد ومكتبة الاسكوريال، ومكتبة امبروزيانا في ميلان (1606). وضممت كاترين دي مدينشي كثيراً من المجلدات والمخطوطات إلى ما يعرف الآن بالمكتبة الوطنية. وبدا لافلين أن مكتبة الفاتيكان الجديدة التي أسسها البابا سكستس الخامس (1588) "هي أفخم وأجمل وأحسن مكتبة أُنشئت في العالم" (29). وبدأ ظهور الصحف: ففي 1505 كانت صحيفة "الأخبار" تُطبع في ألمانيا، في ورقة واحدة، بشكل متقطع. وما جاء عام 1599 حتى كانت

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> انتقال المعرفة

هناك 877 نشرة من هذا النوع، وكلها غير منتظمة. وأقدم صحيفة منتظمة معروفة في التاريخ هي صحيفة Avis Relation oder Zeitung الأسبوعية التي أسست في أوجزبرج 1609، وكانت تضم تقارير لوكلاء منتشرين في مختلف أنحاء أوروبا، ينقلها التجار والسيارة، واستمرت في الظهور حتى 1866، صحيفة "بريد فرانكفورت" التي أسست في 1616. وبدأت صحف أسبوعية مماثلة في الظهور في فيينا 1610، وفي بازل 1611. وسرعان ما بدأ فيشارت يسخر من الجمهور "الذي يصدق الصحف" ومن تلهفه الساذج على الأخبار. أن النقل المفروض غير الملائم للأنباء فوت على الجمهور أي إسهام رشيد مخطط في السياسة، ومن ثم جعل الديمقراطية أمراً بعيد المنال. وكانت الرقابة على المطبوعات عامة شاملة بطريقة عملية، وفي العالم المسيحي بأسره: الكاثوليك والبروتستانت، ورجال الدين والعلمانيون على حد سواء وفي 1571 شكلت الكنيسة "الجنة من الكرادلة لتحديد الكتب المحظورة"، لحماية المؤمنين من الكتب التي تعتبر مسيئة للكنيسة، ولم تكن الرقابة البروتستانتية بمثل قوة الرقابة الكاثوليكية وصرامتها، ولكنها جادة مثابرة مثلها. وقد نشطت في إنجلترا وإسكتلندا وإسكندنافيا وهولندا وألمانيا وسويسرا (30). وهياً تباين التعاليم في مختلف الدول للهراطقة أن يتغلبوا، بشكل أو بآخر، على الرقابة بنشر كتبهم في الخارج، وإدخال بضع النسخ منها سراً. والأدب الحديث مدين للرقابة ببعض ما يتسم به من سخرية وظرف وبراعة. وفي مختلف الترجمات وظل الكتاب المقدس يفسر بأنه "كلمة الله"، وواصل رسالته بوصفه أعظم الكتب شعبية وانتشاراً، وأعظمها أثراً في العقيدة واللغة، بل حتى في السلوك، فإن أسوأ الأعمال الوحشية-الحروب والاضطهادات- عمدت إلى اقتباس النصوص المقدسة لتبرير ارتكابها. ومذ انحسرت الروح الإنسانية التي تميز بها عصر النهضة، قبل قيام الإصلاح

صفحة رقم : 10297

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> انتقال المعرفة

الديني، فإن التعبد بالكتاب المقدس حل محل الإعجاب الأعمى بالأدب الوثنية القديمة. وثار فتنة واضطراب حين اكتشف العلماء أن الإنجيل (العهد الجديد) لا يكتب باللغة اليونانية الكلاسيكية بل بلغة الناس، ولكن علماء اللاهوت أوضحوا أن "الروح القدس" استخدم الأسلوب العام المشترك حتى يتيسر للناس فهمه وأصاب الناس غم جديد عندما خلص لويس كابل-الأستاذ البروتستانتى للعبرية واللاهوت في "سومور"، إلى أن الحروف اللينة وعلامات النطق في النص العبري الذي اعتمده الكنيسة للعهد القديم (التوراة)، إن هي إلا إضافات أضافها إلى النصوص الأقدم عهداً، يهود طبرية المازوريون في القرن الخامس ق.م. أو بعده. وأن الحروف المربعة في النص المعتمد كانت أرامية بديلة عن الحروف العبرية. وتوسل جوهانس بوكستورف الأكبر، أعظم علماء عصره، إلى كابل أن يطوي هذه الآراء عن الجمهور ويحتفظ بها لنفسه، حتى لا تسيء إلى إيمان الناس بالإيحاء اللفظي للكتاب المقدس. ومع ذلك نشر كابل آراءه في 1624، وحاول جوهانس بوكستورف الأصغر أن يدهضها ويفندها، محتجاً بأن النقط وعلامات النطق موحى بها من عند الله كذلك. واستمر الخلاف طوال القرن وتخلت الأرثوذكسية آخر الأمر عن النقط، ومن ثم اتخذت خطوة متواضعة نحو اعتبار الكتاب المقدس أعظم أسلوب أو تعبير مهابة وجلالاً لدى الشعب.

وينتمي إلى هذه الحقبة نفر من أشهر العلماء أو الباحثين في التاريخ. منهم جوستوس لبيوس، الذي تردد على جامعتي لوفان وليدن، وتأرجح بين الكاثوليكية والبروتستانتية وذاع صيته في أوروبا بفضل طبعاته المصوبة لكتب تاسيتس وبلوتس وسنكا، وتفوق على الأجروميات السابقة في كتاب "فن الأجرومية" (1635). ورثي لفناء المدنية الأوربية الوشيك، ولكنه هدأ من روعه واستبشر خيراً "بسطوع شمس إمبراطورية جديدة في الغرب" يعني "الأمريكتين" (31).
ورث جوزيف جوستوس سكاليجر "وربما كان أعظم أستاذ فذ في

صفحة رقم : 10298

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> انتقال المعرفة

سعة المعرفة والإطلاع ظهر في العالم (32)، نقول ورث عن أبيه الشهير يوليوس قيصر سكاليجر، عرش البحث العلمي في أوروبا. ففي أجن جنوب غربي فرنسا، اشتغل بكتابة ما يمليه عليها هذا الولد. ونهل العلم والمعرفة طوال حياته. فقرأ هوميروس في ثلاثة أسابيع، ووفق في قراءة كبار الشعراء والمؤرخين والخطباء الإغريق. وتعلم العبرية وثمان لغات أخرى. وتجراً على دراسة الرياضيات والفلك و "الفلسفة" (التي كانت آنذاك تشمل الفيزياء والكيمياء والجيولوجيا والبيولوجيا) ودرس القانون لمدة ثلاثة أعوام. وربما ساعدت دراسة القانون على ممتاعها وربما ساعدت دراسته للقانون على شحذ ملكة النقد عنده، لأنه في الطبقات التي أصدرها للمؤلفين القدامى مثل كاتولوس وتيبولوس وبروبرتيوس وغيرهم أثار نقداً متعلقاً بالنصوص لأحداس عشوائية لقوانين الإجراءات والتأويل والتفسير. وكان ينظر بعين الاحترام الرشيد للتاريخ أو تحديد الأزمنة في دراسة التاريخ. وفي أعظم مؤلفاته "في تصحيح التواريخ" (1583)، وتلك التي وردت أو حددت في التاريخ أو التقاويم أو الأدب في مصر وبابل وفلسطين والمكسيك. وجمع ورتب في كتابه "تسلسل التواريخ". (1606) كل مادة تاريخية في الأدب القديم، وعلى هذا الأساس ألف أول تسلسل زمني على أساس علمي للتاريخ القديم. وهو الذي قال بأن السيد المسيح ولد في العام الرابع ق.م. وعندما ترك جوستوس لبيوس ايدن في 1590 عرضت الجامعة على سكاليجر كرسي "الأبحاث القديمة" فقبله بعد أن ظل ثلاث سنوات متردداً في قبوله. ومنذ تلك اللحظة حتى وفاته 1609، كانت ليدن مقر العلماء. وكان سكاليجر، مثل أبيه مزهواً بما يزعم من تحدر أسرته من أمراء دلاسلالا في فيرونا. وكان ناقداً لاذعاً لزملائه العلماء والباحثين، ولكن في ساعة تغاض وصفح قال إن إيزاك كازوبون "أعظم الأحياء علماء" (33). وإن حياة كازوبون لتكشف عن مزايا المحن. لقد رأى النور في جنيف لأن أبويه

صفحة رقم : 10299

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> انتقال المعرفة

كانا من الهيجونوت الذين هربوا من فرنسا، وعادا إليها وهو في سن الثالثة وعاش لمدة ستة عشر عاماً في ظل المخاطر والإرهاب أيام الاضطهاد. وكان أبوه يتغيب لفترات طويلة للخدمة في جيوش الهيجونوت. وغالباً ما اختفت أسرته في الجبال لتكون بمنأى عن بطش الكاثوليك المسلحين. وتلقى إيزاك أول دروس في اليونانية في أحد الكهوف في جبال دوفيني وفي سن التاسعة عشر التحق بأكاديمية جنيف. وفي سن الثانية والعشرين صار أستاذاً في اليونانية، وتولى هذا المنصب لمدة خمسة عشر عاماً وسط العوز والفقر والحصار. وعاش بشق النفس على راتبه. ولكنه كان يفتقر في طعامه ليشترى الكتب. وكان يخفف من وحشية العزلة والعكوف على العلم، بما يتلقى من رسائل سكاليجر العظيم. ونشر طبعات لمؤلفات أرسطو وبليني الأصغر، وتيوفراستوس، سحرت الألباب في دنيا العلم والمعرفة، لا بمجرد تصويب النصوص، بل كذلك بالتعقيبات البارعة على الأفكار والطرق القديمة. وفي 1596 عندما أخذ هنري الرابع الصراع الديني، عين كازوبون أستاذاً في مونبلييه. ودعي بعد ذلك بثلاثة أعوام إلى باريس. ولكن الجامعة أوصدت أبوابها في وجوه غير الكاثوليك، فأحاطه هنري برعايته، كأمين للمكتبة الوطنية، براتب محترم قدره 1200 جنيه في العام. وقال رجل الاقتصاد صلي للعالم كازوبون إنك تكلف الملك كثيراً يا سيدي. إن راتبك يفوق راتب قائدين، ولا نفع يرجى منك لبلدك (34). فلما مات هنري العظيم، رأى كازوبون أنه كان قد حان الوقت لقبول دعوة من إنجلترا. ورحب به جيمس الأول بوصفه رفيق علم وبحث... ومنحه راتباً سنوياً قدره 300 جنيه إنجليزي. ولكن الملكة الفرنسية الوصية على العرش رفضت أن تذهب مؤلفاته في أثره وأزعجه الملك بالأبحاث، ولم يغفر له المفكرون الإنجليز فب لندن عدم تحدّثه بالإنجليزية وبعد أربعة أعوام قضاها ترك المعترك (1614) في سن الخامسة والخمسين. ودفن في وستمنستر. وكان لقب "العالم" في ذلك الزمان أكثر احتراماً وتشريفاً من الشاعر

صفحة رقم : 10300

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> انتقال المعرفة

أو المؤرخ. فإن العالم كان ينظر إليه بعين الإجلال والإكبار لأن دراسته الدعوية حافظت على مواطن الحكمة والجمال الكامنة في الآداب والفلسفة القديمة وعملت على تنقيتها وتوضيحها. ودخل سكاليجر جامعة ليدن دخول "الأمير الفاتح" ولقي هناك ترحيباً كبيراً. وكانت ثمة أمم كثيرة ترغب في أن تحوز كلود دي سمويز الذي عرفته الدنيا "عالمًا" من أمثال سالامبوس وبعد موت كازوبون أجمع العالم بأسره على أنه "أعلم الأحياء في ذلك الزمان"، وأنه بصفة عامة معجزة الدنيا (35). فماذا فعل هذا العالم؟ إنه ولد في برجندي، وتلقى تعليمه وتحوّل إلى الكفانية في هيدلبرج. وفي سن العشرين تألق نجمه في نشر طبعة دقيقة محققة لمؤلفات اثنتين من كتاب القرن الرابع عشر عن سلطة الباباوات العليا المتنازع عليها، وبعد ذلك بعام واحد، نشر "خلاصة عن النبات". وتوالت الكتب بعد ذلك، حتى بلغت في جملتها ثلاثين كتاباً تميزت كلها بسعة الإطلاع وتناول كل ألوان المعرفة. وبلغ الذروة في كتاب ضخّم مكون من 900 صفحة على نهريين بعنوان "أمثلة في تعدد جوانب الثقافة والمعرفة" (1629). وكان سولينيوس، وهو أحد النحاة في القرن الثالث قد جمع في موسوعة تاريخ البلاد الأوروبية الكبرى وجغرافيتها وأعرافها البشرية واقتصادها ونباتها وحيوانها، وجاء بعد ذلك ناشر متأخر فأطلق عليه "ثقافة متعددة الجوانب"، ثم جاء سالامبوس فدون على هذا النص تعليقات واسعة تشمل كل رومة الإمبراطورية. وكان أمامه أن يختار بين اثنتي عشرة دعوة وجهت إليه، فاختار الأستاذية في ليدن، ثم عين في الحال رئيساً لكلية عظيمة وسارت الأمور سيراً حسناً، حتى كلفه شارل الثاني ملك إنجلترا الذي كان متغيباً آنذاك في هولندا، بأن يكتب عن إدانة كرومويل بقتل شارل الأول وظهر الدفاع عن الملك شارل الأول في نوفمبر 1649 بعد إعدام الملك بنحو عشرة أشهر. ولم يرق الكتاب في عيني كرومويل، واستأجر أعظم شعراء إنجلترا للرد عليه. وسنعود للكلام عليه مرة أخرى. وكتب سالامبوس رداً على ملتون، ولكنه مات (1653) قبل أن يتمه. ونسب إلى ملتون فضل القضاء عليه.

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> انتقال المعرفة

وحظيت قلة ضئيلة بمثل هذا القدر الكبير من العلم والمعرفة، بينما ظل 80% من سكان أوروبا الغربية أميين. وقضى جون كومنيوس أربعين عاماً يكافح في سبيل النهوض بخطط التعليم في أوروبا. ولد كومنيوس في مورافيا (1592) وارتقى إلى مرتبة أسقف الأخوة المورافيين ولم يتزعزع قط إيمانه بأن الدين هو أساس التعليم وغايته، فإن رأس الحكمة مخافة الله. وعلى الرغم من أن الأحقاد الدينية في زمانه جعلت من حياته سلسلة متصلة من المحن والبلايا، فإنه بقي على إخلاصه لفلسفة التسامح في الوحدة الأخوية.

نحن أبناء عالم واحد، يجري في عروقنا دم واحد. وأنه لمن أشد حماقة أن نضمر البغض والكرهية لإنسان لأنه ولد في قطر آخر، أو لأنه يتحدث بلغة مختلفة عن لغتنا. أو لأن له رأياً مخالفاً لنا في هذا الموضوع أو ذلك. إني لأتوسل إليكم أن تكفوا عن هذا، فإننا بشر متساوون في الإنسانية فليكن لنا جميعاً هدف واحد وغاية واحدة، هي خير الإنسانية جمعاء، ولنطرح جانباً كل الأنانيات والأثرة القائمة على أسس من اللغة أو القومية أو الدين (36).

وبعد تدوين كثير من النصوص التربوية، لخص كومنيوس مبادئه في التربية المثلثية (1632) وهو من أهم الكتب في تاريخ التربية. أولاً: يجب أن يكون التعليم عاماً، بصرف النظر عن الجنس أو مستوى المعيشة. فيجب أن يكون في كل قرية مدرسة، وفي كل مدينة كلية، وفي كل مقاطعة جامعة، ويجدر أن يكون التعليم العالي متاحاً لكل من يثبت القدرة على متابعته، وينبغي أن تتولى الدولة الإنفاق على الكشف عن مواهب وقدرات المواطنين فيها، وتدريبها والإفادة منها. ثانياً: يجب أن يكون التعليم واقعياً، بحيث تربط الأفكار في كل خطوة بالأشياء الملموسة، كما يجب تعليم الألفاظ باللغة الوطنية أو بأية لغة أجنبية، عن طريق مشاهدة الأشياء التي تمثلها أو لمسها أو استخدامها

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> انتقال المعرفة

ويجب أن يتأخر تعليم النحو (الأجرومية). ثالثاً: يجب أن تكون التربية بدنية وعقلية وأخلاقية. وأن يتلقى التلاميذ تدريبات على الصحة والقوة والنشاط عن طريق ممارسة الحياة والألعاب في الهواء الطلق. ورابعاً: ينبغي أن يكون التعليم عملياً، وألا يكون حبيساً في سجن التفكير النظري، بل مقروناً بالعمل والممارسة، وأن يمهد ويعد للنهوض بمهمة الحياة. خامساً: يجب تدريس العلوم تدريجياً، بتقديم الطالب في العمر، ويجب افتتاح مدارس البحث العلمي في كل مدينة أو مقاطعة. سادساً: ينبغي توجيه كل التربية وكل المعرفة إلى تحسين الخلق وبت التقوى في الفرد، وإلى إشاعة النظام والسعادة في الدولة.

وكان ثمة شيء من التقدم. فإن الأمراء الألمان جدوا في تأسيس مدرسة ابتدائية في كل قرية. ونادى دوق ساكس-ويما في 1619 بمبدأ التعليم العام الإلزامي لكل البنين والبنات من سن السادسة إلى الثانية عشرة (37)، مع عطلة مدتها شهر في موسم الحصاد. وما وافى عام 1719 حتى عم هذا النظام ألمانيا بأسرها. وكانت المدارس الثانوية لا تزال موصدة أمام الإناث، ولكنها تضاعفت وحسن مستواها. وفتحت في هذا اثنتان وعشرون جامعة جديدة. وكانت جامعة أكسفورد سائرة على طريقة التقدم والنجاح كما وصفها كازوبون في 1613، وقد تأثر بما رآه من رواتب الأساتذة ومكانتهم الاجتماعية، بالمقارنة بنظرائهم في القارة. ففي 1600 كانت رواتب الأساتذة في ألمانيا ضئيلة إلى حد أنهم لجؤوا إلى بيع الجعة والنبذ احتيالا على العيش، وكان الطلبة في الجامعة فيينا يشربون ويلهون في حانات يديرها الأساتذة (38). وتدهورت الجامعات الأسبانية بعد فيليب الثاني، وساعت

صفحة رقم : 10303

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> انتقال المعرفة

أحوالها تحت وطأة محاكم التفتيش، في الوقت الذي أسست فيه عدة جامعات أسبانية في مستعمرات أسبانيا في أمريكا. في ليا 1551، في مدينة المكسيك 1553، أي قبل افتتاح كلية هارفرد (1636) بزمن طويل. وافتتح الهولنديون الموسرون ست جامعات في تلك الحقبة. وعندما نجحت ليدن في مقاومة الحصار الأسباني (1574)، وجهت الجمعية العمومية للمقاطعات المتحدة الدعوة لأهالي البلدة، ليدن، ليروا رأيهم فيما يمكن أن يكافئوا به، فطالبوا بإنشاء جامعة، وكان لهم ما أرادوا. وكانت السلطة الدينية تسيطر على أمور التعليم في الأقطار الكاثوليكية والكلمنية. وفي إنجلترا والبلاد اللوثرية كان رجال الدين يديرون معظم التعليم تحت إشراف الدولة. وفي كل الجامعات تقريبا، باستثناء بادوا، كان مطلوباً من المعلمين والطلبة أن يعتنقوا المذهب الرسمي، وكانت الدولة والكنيسة كلتاهما تحد من الحرية الجامعية بدرجة كبيرة. وقضت الخلافات الدينية على الصبغة العلمية للجامعات، فانحصر الطلبة الأسبان في أسبانيا، ولم يعد الطلبة الإنجليز يلتحقون بجامعة باريس. وظلت أكسفورد حتى 1871 تفرض على طالب الدرجة الجامعية، الموافقة على مواد الكنيسة الرسمية التسع والثلاثين. ومال الفكر الأصيل الخلاق إلى الاختفاء من الجامعات، والتمس ملجأ في الأكاديميات الخاصة والدراسات غير النظامية أو غير النمطية. وهكذا قامت في هذا العصر أكاديميات خاصة، لا رقيب عليها، للدراسة والبحث، وخاصة في مجال العلوم. وفي روما، في 1603 أسس فدريجوسيزي، مركز مونتبليو "أكاديمية ذوي البصر الحاد" التي التحق بها جاليليو 1611، وحدد دستوراً لها هدفها: إن جامعة ذوي البصر الحاد تتطلب من أعضائها الفلاسفة أن يكونوا تواقين إلى المعرفة الحققة، وأن ينصرفوا بكليتهم إلى دراسة الطبيعة، وبخاصة الرياضيات، ولن تهمل في الوقت

صفحة رقم : 10304

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> انتقال المعرفة

نفسه أو تزيف مناهجها بالأدب والدراسات اللغوية الجميلة التي يزدان بها، بوصفها حلياً وجواهر كريمة، نطاق العلم بأكمله، وليس في خطة هذه الأكاديمية أن تفسح المجال للخطب والمجادلات ويجدر بها أن تغضي في هدوء وصمت عن كل الخلافات السياسية. وعن أي لون من المهاترات الكلامية (39). وحلت هذه الجامعة 1630، ولكن في 1657 واصلت السير على نهجها أكاديمية دل شيمنتو (التجربة والبرهان). وسرعان ما تأسست جمعيات مماثلة في إنجلترا وفرنسا وألمانيا. حتى يتسنى للروح العلمية الملهمة في العلوم أن تضع الأسس الفكرية والتكنولوجية للعالم الحديث.

صفحة رقم : 10305

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> أدوات العلم ومناهجه

3- أدوات العلم ومناهجه

كان لزاماً، منذ البداية، أن تكون هناك آلات علمية. فما تستطيع العين المجردة أن تبصر بوضوح كافٍ، على مسافة بعيدة، أو أشياء بالغة الدقة. إلى الحد المطلوب، وما يستطيع الجسم أن يمس بدقة تامة ضغط الأشياء أو حرارتها أو وزنها. وما يستطيع العقل أن يقيس المسافة والزمن والكمية والنوعية والكثافة دون أن يخلط بين توازنه الشخصي وبين الحقائق، ومن ثم كانت الحاجة ماسة إلى المجهر (الميكروسكوب)، والمقرب (التلسكوب)، وبميزان الحرارة (الترمومتر) ومقياس الضغط (البارومتر). ومقياس الثقل النوعي للسوائل (الهيدرومتر) وإلى ساعات أدق وإلى موازين أكثر حساسية. كتب جامباتستا دلبورتا في "سحر الطبيعة" (1589) بالعدسة المقعرة تبدو الأشياء أصغر ولكن أوضح، وبالعدسة المحدبة تراها أكبر ولكن أقل وضوحاً في معالمها، فإذا عرفت على أية حال كيف تجمع بين النوعين على نحو سليم، لأمكنك أن ترى الأشياء على البعد والقرب كبيرة واضحة معاً (40)

صفحة رقم : 10306

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> أدوات العلم ومناهجه

تلك كانت القاعدة التي بني عليها المجهر منظار الميدان ومنظار الأوبرا، والمقراب، أي أنها مجموعة من المخترعات، وكلها متنوعة الأنسجة، وكان المجهر البسيط. أي العدسة المحدبة الواحدة، معروفة لأمد طويل. أما الاختراع الذي البيولوجيا فهو الميكروسكوب المركب الذي يجمع بين عدة عدسات لامة. ونمت صناعة شحذ العدسات وصقلها بصفة خاصة في الأراضي الوطيفة وعاش سبينوزا عليها ومات بها. وحوالي 1590 جمع صانع النظارات المدعو زخارياس جانس، في مدلبرج، بين عدسة مزدوجة مقعرة وأخرى مزدوجة محدبة، ليضع أقدم مجهر مركب معروف: وبفضل هذا الاختراع ظهرت البيولوجيا الحديثة والطب الحديث.

وجاء بعد ذلك تطبيق آخر لهذه القواعد فحول علم الفلك. ذلك أنه في 2 أكتوبر 1608 قدم صانع نظارات آخر في مدلبرج، هو هانز ليرشي. إلى الجمعية العمومية للمقاطعات المتحدة (التي ما زالت في حرب مع أسبانيا) وصفاً لآلة يمكن بها رؤية الأشياء من مسافة بعيدة. إن ليرشي وضع عدسة مزدوجة محدبة "العدسة الشبئية" على الطرف البعيد من أنبوبة، وعدسة مزدوجة مقعرة "العينية" على الطرف القريب. وأدرك المشرعون القيمة العسكرية لهذا الاختراع فكافئوا ليرشي بتسعمائة فلورين. وفي 17 أكتوبر أثبت رجل هولندي آخر جاكوس متيوس، أنه كان قد صنع من تلقاء نفسه ومن وحي تفكيره هو، آلة مماثلة. وما أن سمع جاليليو بهذه التطورات حتى صنع آلة التلسكوب (المقراب) الخاصة في بادوا (1609)، التي كبرت الأشياء إلى ثلاثة أمثالها، وتلك هي الآلات التي كبر بها العالم. وفي 1611 اقترح كبلر أنه يمكن الحصول على نتائج أفضل، إذا عكست أوضاع العدسات في اختراع جاليليو، باستخدام العدسة المحدبة في "العينية" والمقعرة في "الشبئية". وفي 1613-1617 صنع الجزويتي كرسstof شينر، على هذا الأساس، مقراباً "تلسكوب" أفضل، بيد أنه أدخل شيئاً من التحسين على ما كان معروفاً من قبله (41).

صفحة رقم : 10307

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> أدوات العلم ومناهجه

وفي الوقت عينه، وعلى نفس الأسس التي كانت معروفة لدى "هيرو" السكندري في القرن الثالث الميلادي أو قبله، كان جاليليو قد اخترع (حوالي 1603) مقياساً للحرارة (ترمومتر). بأن وضع الطرف المفتوح لأنبوبة زجاجية في وعاء من الماء، وكان طرفها الثاني عبارة عن بصيلة زجاجية (منتخخ الترمومتر) فارغة، عمد إلى تسخينها بملامستها ليديه. فلما سحب يده بردت البصيلة، وارتفع الماء في الأنبوبة. وفي 1613 قسم جيوفني ساجريو، صديق جاليليو، الأنبوبة إلى مائة درجة.

وجاء أفانجلستا تورشلي، أحد تلاميذ جاليليو، فأحكم سداد أحد طرفي أنبوبة طويلة، وملأها بالزئبق، وأوقفها بطرفها المفتوح مغمورة في وعاء به الزئبق، فلم يفض زئبق الأنبوبة إلى الوعاء. وأرجع علماء الفيزياء هذه الظاهرة إلى "اشتمزاز الطبيعة من الفراغ". وأرجعها تورشلي إلى ضغط الهواء المحيط على الزئبق في الوعاء. وعللها بأن الضغط الخارجي لا بد أن يرفع الزئبق في الوعاء إلى الأنبوبة الخالية المفرغة من الهواء. وأثبتت التجربة صحة ما ذهب إليه. وأوضح أن التغيرات في ارتفاع الزئبق في الأنبوبة يمكن استخدامها مقياساً للتغيرات في الضغط الجوي، ومن ثم في 1643 أول مقياس للضغط الجوي (البارومتر) الذي لا يزال الآلة الأساسية في الأرصاد الجوية.

ومذ تزودت العلوم بهذه الأدوات الجديدة، فإنها اتجهت إلى الرياضيين تسألهم طرقاً أفضل للحساب والقياس وللتدوين بالعلامات والرموز واستجاب نابيير وبيرجي كما عرفنا لهذا النداء باللوغاريتمات، وأترد بالمسطرة الحاسبة، ولكن كانت ثمة نعمة أكبر باختراع الطريقة العشرية وكانت بعض آراء أو مقترحات اجتهادية قد مهدت الطريق، كما هي العادة، فإن الكاشي السمرقندي (المتوفى 1436) كان قد أوضح أن النسبة التقريبية بين محيط الدائرة وقطرها هي:

3.14926535898732، وهذا كسر عشري-مستخدماً مسافة

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> أدوات العلم ومناهجه

ببداية من النقطة، أي العلامة العشرية بين الكسر والرقم الصحيح. ثم جاء فرانسكو بللوس من مدينة نيس 1492 فاستخدم النقطة العشرية وشرح سيمون ستيفينوس الطريقة الجديدة في رسالة تعتبر فاتحة عصر جديد، هي "الطريقة العشرية" (1585) عرض فيها كيف "تعلم بسهولة لم يسمع بها من قبل أن تؤدي كل المسائل الحسابية بالأعداد الصحيحة دون الكسور" ونفذ "النظام المترى" في قارة أوروبا أفكاره في قياس الأطوال والأحجام والعملة. ولكن الدائرة والساعة أقرنا بفضل الرياضيات البابلية، فاحتفظنا بالقسمه السينية.

وفي 1639 نشر جيرارد دسارج رسالة ممتازة عن القطع المخروطي. وأحيا فرانسوا فيير الباريسي دراسة علم الجبر التي كانت قد ضعفت، باستخدام الحروف للدلالة على مقادير معروفة أو مجهولة على حد سواء واستيق ديكارت في تطبيق الجبر على الهندسة، وأنشأ ديكارت الهندسة التحليلية في ومضة من ومضات الإلهام، حين اقترح التعبير على الأعداد والمعادلات بأشكال هندسية والعكس بالعكس (ومن ثم يمكن إيضاح التناقض المستمر في قيمة العملة في فترة معينة في رسم بياني إحصائي)؛ وأنه من معادلة جبرية تمثل شكلاً هندسياً، يمكن جبرياً استخلاص نتائج تثبت صحتها هندسياً، ولذلك يمكن استخدام الجبر لحل المسائل الهندسية العويصة. وافتتن ديكارت باكتشافاته إلى حد أنه ذهب إلى أن هندسته أسمى من هندسة أسلافه قد رسموا فصاحة شيشرون على حروف الهجاء عند الأطفال (42). أن هندسته التحليلية ونظرية كافا لبيري عن "غير القابل للانقسام أو التجزئة" (1629) وتربيع كبلر التقريبي للدائرة. وقياس روبرفال للخط المنحني، وتورشلي وديكارت، إن كل أولئك عبدوا الطريق أمام ليبنتز ونيوتن لاكتشاف التفاضل والتكامل.

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> أدوات العلم ومناهجه

وبانت الهندسة الآن هدف كل العلوم بقدر ما هي أدواتها. ولحظ كبلر أن العقل إذا هجر "مملكة الكمية" فإنه يهيم في متاهات الظلام والشك(43). وقال جاليليو عن الفلسفة وهو يقصد "الفلسفة الطبيعية" أو العلوم: إن الفلسفة مدونة في هذا السفر الضخم، ألا وهو الكون الذي يقف دوماً مكشوفاً أمام أعيننا نحملق فيه كيف نشاء. ولكن لن يتسنى لنا فهم هذا الكتاب إلا إذا تعلمنا، أول الأمر، كيف نعي اللغة ونقرأ الحروف التي تتألف منها. أن هذا السفر مكتوب بلغة الرياضيات(44)، وتتطلع ديكارت وسبينوزا إلى تحويل الميتافيزيقا (علم ما وراء الطبيعة) نفسها إلى صيغة رياضية. وبدأ العلم الآن يحرر نفسه من أغلال أمه وهي الفلسفة. لقد هز كتفيه لأرسطو غير مبال به. وأدرا ظهره للميتافيزيقا متجهاً نحو الطبيعة، وطور وسائل التمييز لديه، وسعى لتحسين حياة الإنسان على الأرض. أن هذه الحركة تنتسب إلى قلب عصر العقل، ولكنها لم تؤمن كل الإيمان ولم تثق كل الثقة "بالعقل الخاص" -أي العقل المستقل عن التجريب

والاختبار. وكم من مرة ضل مثل هذا التفكير، ونسج خيوطاً واهية مضللة. أن العقل والتقاليد والسلطة يجب الآن ضبطها وكبح جماحها بدراسة الحقائق المتواضعة وتسجيلها. ومهما قال المنطق، فيجدر بالعلم ألا يتقبل إلا ما يمكن قياسه كمّاً، والتعبير عنه رياضياً، وإثباته بالتجربة.

صفحة رقم : 10310

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> العلم والمادة

4- العلم والمادة

اندفعت العلوم خطوات إلى الأمام في تسلسل منطقي، خلال التاريخ الحديث:

صفحة رقم : 10311

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> العلم والمادة

الرياضة والفيزياء في القرن السابع عشر، والكيمياء في الثامن عشر، والبيولوجيا في التاسع عشر، وعلم النفس في القرن العشرين.

والشخصية البارزة في تلك الحقبة هي جاليليو. ولكن ثمة أبطال كثيرون أقل شأنًا جديرون بالذكر فقد أسهم ستيفينو في تحديد قوانين البكرة والرافعة، وأجرى دراسات قيمة في ضغط الماء، ومركز الجاذبية، ومتوازي أضلاع القوى، والمستوي المائل. وحوالي 1690 في دلفت، استيق جاليليو في تجربته المزعومة في بيزا، حيث أوضح-على خلاف الاعتقاد القديم-أنه إذا ترك جسمان من نوع واحد مهما اختلفا في الوزن، ليسقطا معاً من على فائهما يصلان إلى الأرض في وقت واحد(45). ووضع ديكارت قانون القصور الذاتي، في صيغة بالغة الوضوح-وهو أن أي جسم يظل في حالة الجمود أو في حركة مستقيمة إلا إذا تأثر بقوة خارجية. وسبق هو وجاسندي، إلى نظرية الجزيئات في الحرارة. وأسس رسالته في "الأرصاء" (1637) على الكوزمولوجيا (علم الكونيات يبحث في أصل الكون وبنيته العامة وعناصره ونواميسه) التي لم تعد مقبولة، ولكن هذه الرسالة أسهمت كثيراً في وضع أسس الأرصاد الجوية كعلم من العلوم. وتوسع تورشلي 1642 في دراساته عن الضغط الجوي لتشمل ميكانيكا الرياح، حيث ذهب إلى أن هذه هي التيارات الموازنة التي تتجم عن الاختلافات المحلية في كثافة الهواء. أما جاسندي، ذلك الرجل المشهور بإمامه بكل العلوم، فإنه تابع التجارب في قياس سرعة الصوت، وتوصل إلى أنها 1.437 قدماً في الثانية. وأعاد صديقه الكاهن، مارتن مرسن، التجربة، وقرر أنها 1.380 قدماً، وهذا أقرب إلى الرقم السائد، وهو 1.087 ووضع

مرسن في 1636 السلسلة الكاملة للنغمات التوافقية التي يحدثها سلك رنان.

وتركزت أبحاث البصريات حول مسائل الانعكاس والانكسار العريضة، وبخاصة عند مشاهدتها في قوس قزح. وحوالي 1591 وضع ماركو أنطونيو

صفحة رقم : 10312

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> العلم والمادة

دي دومنيس رسالة في "ضوء" أوضح فيها تكوين قوس قزح الرئيسي، (وهو الوحيد الذي يمكن رؤيته بصفة عامة) على أنه راجع إلى إنكسارين وانعكاس واحد لضوء على قطرات بخار الماء في السماء أو الرذاذ. وتكوين قوس قزح الثانوي (وهو قوس من الألوان في ترتيب عكسي، يرى أحياناً بشكل باهت، خارج القوس الرئيسي)، على أنه راجع إلى إنكسارين وإنعكاسين. وفي 1611 عالج كيلر في رسالة "الإنكسارات" موضوع انكسار الضوء "في العدسات". وبعد ذلك بعشر سنين جاء وليروردسنل من ليدن، وصاغ قوانين الانكسار في دقة جعلت من الميسور إجراء حساب أدق لعمل العدسات في الضوء، وصنع ميكروسكوبات وتلسكوبات أفضل. فطبق ديكارت هذه القوانين على الحساب الميكانيكي لزوايا الإشعاع في قوس قزح. أما تفسير ترتيب اللون فكان لزاماً أن ينتظر مجيء نيوتن. وأدى بحث جلبرت-الذي يعتبر بداية عصر جديد في الجاذبية الأرضية إلى سلسلة طويلة من النظريات والتجارب. واقترح فميانوس سترادا عضو جمعية يسوع، الإرسال البرقي (1617)، وذلك بأن يتصل رجلان الواحد منهما بالآخر، من بعيد، عن طريق استخدام الفعل المتجانس لإبرتين مغناطيسيتين وضعتا بحيث تشيران في وقت واحد إلى حرف هجاء واحد بعينه، وفي 1629 أدلى جزويتني آخر، نيقولو كابيوي، بأول وصف عرفه العالم للثنافر الكهربائي. وجاء عالم آخر هو أثناسيوس كيرشر، فوصف في كتابه "المغناطيس" (1641) قياس المغناطيسية بتعليق مغناطيس في إحدى كفتي ميزان، ومقاومة تأثيره بوضع موازين في الكفة الأخرى. وعزا ديكارت المغناطيسية إلى تأثير الجزينات التي تنفتحها الدوامة الكبرى التي اعتقد هو أن الأرض نشأت عنها. وكانت الكيمياء القديمة (الخيمياء) لا تزال شائعة، وخاصة كبديل ملكي لخفض قيمة العملة. فكان الإمبراطور رودلف الثاني، وناخبو سكسونيا

صفحة رقم : 10313

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> العلم والمادة

وبراندبرج والبالاينيات، ودوق برنزويك وكونت هس، يستخدمون جميعاً أرباب الكيمياء القديمة لصنع الفضة والذهب(46). ومن هذه التجارب ومن الحاجة إلى علم المعادن وصناعة الصباغة، ومن إلحاح الطبيب الألماني

باراسلوس على الدواء الكيماوي، من هذا كله بدأ علم الكيمياء يتشكل. وكان أندريا ليبافايوس يمثل هذا الانتقال من "الخيمياء" إلى الكيمياء. وكان مؤلفه "الدفاع عن خيمياء تحويل المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة" (1604) استمرراً للسعي وراء المطلب القديم، ولكن كتابه "الكيمياء" (1597) كان أول رسالة منهجية في الكيمياء العلمية الحديثة. واكتشف باراسلوس كلوريد القصدير، وكان أول من صنع سلفات الأومنيوم، وكان من أوائل من اقترح نقل الدم كعلاج. وكان معمله في كوبرج إحدى عجائب المدينة. ووضع جان بابنتسافان هلمونت - وهو نبيل ثري أكب على العالم وصرف همه في تقديم الخدمات الطبية للفقراء - ووضح اسمه بين مؤسسي الكيمياء بتمييز الغازات عن الهواء وتحليل أنواعها وتركيبها. ونحت لفظة "غاز" من اللفظة الإغريقية Chaos وحقق اكتشافات كثيرة في مجاله المختار، ابتداء من الغازات المتفجرة في البارود، إلى إمكانات الاشتعال في "رياح الإنسان" (47) واقترح القلوبيات في علاج الحموضة المفرطة في الجهاز الهضمي. وأوصى يوهان جلوبر ببلورات سلفات الصوديوم للاستعمال كعلاج ممتاز من الظاهر أو من الباطن. ولا يزال "ملح جلوبر" يستخدم كملين. إن جوهر وهلمونت كليهما اشتغل بالكيمياء (أو الكيمياء القديمة) كهواية. وأسهمت كل هذه "العلوم الطبيعية" في تحسين الإنتاج الصناعي، وأدوات القتل في الحروب. وطبق الفنانون المعرفة الجديدة بالحرركات والضغوط في السوائل والغازات، وتكوين القلوي، وقوانين التذبذب، ومسارات الإسقاط والقذف، وتنقية المعادن. واستخدم البارود في تفجير المناجم (1613) وفي 1612 اخترع سيمون ستورتفانت طريقة لإنتاج فحم "الكوك" لتخليصه

صفحة رقم : 10314

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> العلم والمادة

من العناصر المتطابرة. فهذا "الكوك" له قيمته وأهميته في صناعة المعادن، لأن شوائب الفحم العادي تضر بالحديد، وقد حل محل الفحم النباتي وأنقذ الغابات. وقلت تكلفة صناعة الزجاج، حيث عم استعمال الزجاج النواخذ في ذلك العصر. وبنمو الصناعة تضاعفت المخترعات الميكانيكية. لأنها كانت تعود إلى أبحاث العلماء أقل منها إلى مهارات الصناع الذين يتوقون إلى توفير الوقت. ومن هنا فأنا نسمع لأول مرة عن المخراط اللولبي في 1578، وإطار الحبك والربط في 1589. والمسرح الدائر في 1597، وآلة درس القمح وقلم الحبر في 1636. وقام المهندسون آنذاك بأعمال فذة تستحق الإعجاب حتى في أيامنا هذه. فقد رأينا كيف أن دومنيكو فونتانا هز روما بإقامة مسلة في ميدان القديس بطرس. وابتدع ستيفينوس مهندس موريس ناسو، نظام البوابات للتحكم في السدود وهي حارسه جمهورية هولندا. واستخدم منفاخ ضخيم في تهوية المناجم، والمضخات المعقدة في رفع المياه إلى أبراج لتضخ المياه إلى البيوت والنافورات في المدن مثل أوجزبرج وباريس ولندن وأنشئت قناطر تروس على أساس القاعدة الهندسية البسيطة وهي أن المثلث لا يمكن أن يعدل شكله إلا بتغيير طول أحد الجوانب. وفي 1624 سارت غواصة تحت الماء لمسافة ميلين في نهر التايمز (48). وتقدم جيروم كاردان وجامباتستا دلابورتا وسالمون دي كوز بنظرية الآلة البخارية خطوة إلى الأمام، وفي 1615 وضع كوز وصفاً لآلة لرفع الماء بفعل قوة تمدد البخار (49). ولم تكن الجيولوجيا قد ولدت بعد، حتى اللفظ نفسه لم يكن موجوداً؛ وكانت دراسة الأرض تسمى "علم المعادن" وجال النظر بعين الإجلال إلى قصة "الخلق" في التوراة دون المقامرة بالبحث في نشأة الكون. ورمي برنارد بالسي بالزندقة لإحيائه الفكرة القديمة التي تقول بأن الأحافير والمستحاثات ليست إلا بقايا متحجرة لكائنات ميتة. وغامر فيكارت بالقول

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> العلم والمادة

بأن الكواكب السيارة بما فيها الأرض كانت يوماً كتلاً متوهجة مثل الشمس، وعندما برد الكوكب، كون قشرة من السوائل والمواد الصلبة فوق نار مركزية داخلية، أنتج دخانها الينابيع الحارة والبراكين والزلازل (50). وتقدمت الجغرافيا بفضل البعثات التبشيرية والرواد والتجار الذين أرادوا نشر ديانتهم أو التوسع في العلم والمعرفة أو التجارة. وفي 1567 وما بعدها ارتاد الملاحون الأسبان البحار الجنوبية، وكشفوا جزيرة جواد القنال وغيرها من جزر سليمان-وسميت كذلك على أمل العثور هناك على كنوز سليمان. وزار المبشر البرتغالي بيكوياس (الذي أخذ أسيراً في الحبشة (1588))، النيل الأزرق. وحل لغزاً قديماً بأن فيضان النيل المنتظم ليس له من سبب إلا فعل الأمطار في مرتفعات الحبشة. ووضح أن وللم جانسون كان أول من وطئت قدماه أرض استراليا (1606). وكشف أبل تسمان تسمانيا ونيوزيلند (1642) وجزر فيجي (1643) ودخل التجار الهولنديون سيام وبورما والهند الصينية. ولكن المعلومات عن هذه البلاد وعن الصين، وردت إلينا أساساً عن طريق المبشرين الجزويت. وبأمر من هنري الرابع نلك فرنسا ارتاد صمويل تشابلن ساحل نوفاسكوشيا وصعد في نهر سانت لورنس إلى قرب مونتريال، وأسس أتباعه مدينة كويك، وبنوا على الخريطة البحرية التي تحمل اسمه. وكافح صانعو الخرائط حتى لا يتخلفوا كثيراً عن الرواد والمستكشفين، ومنهم جيراردوس مركيتور (جير هارد كيرمر) الذي درس في لوفان، وأسس محلاً لصنع الخرائط العلمية والكرات الأرضية. وفي 1544 قبض عليه وحوكم بتهمة الهرطقة، ولكنه تفادى العقاب الوخيمة، فوجد على أية حال أنه من الحكمة أن يقبل دعوة وجهت إليه من جامعة دوزبرج، حيث أصبح رساماً للخرائط لدى دوق جوليس كليفر (1559). وطوال حياته التي امتدت اثنتين وثمانين عاماً، جهد مركيتور دون كلل أو ملل في رسم خرائط

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> العلم والمادة

للفلاندرز واللورين وأوربا والأرض. وفي مؤلفه المشهور "الوصف الجديد الدقيق للأرض وطرق الملاحة" (1568) أدخل نظام "الأسقاط المركاتوري" في الخرائط التي أدى إلى تبسيط الملاحة. بإظهار دوائر خطوط الطول موازية بعضها لبعض، ودوائر العرض خطوطاً مستقيمة، وكلتا المجموعتين من الخطوط تشكل زوايا قائمة، الواحد منها مع الآخر. وفي 1585 شرع في إصدار "أطلسه" الكبير (ونحن مدينون له بالفضل في استخدام هذا اللفظ)، محتوياً على إحدى وخمسين خريطة، في إتقان ودقة لم يسبق لهما مثيل، وصف فيها الأرض المعروفة آنذاك. ودخل صديقه أبرهام أورتل في مباراة معه بكتابه الجامع "مدار الأرض" (أنتورب 1570). أن هذين الرجلين كليهما حرر الجغرافيا من ارتباطها الألفي السعيد بطليموس (الفلكي السكندري في القرن الثاني الميلادي)، ووضعها في شكلها الحديث. وبفضلها احتفظ الهولنديون بما يكاد يكون احتكاراً تاماً لصناعة الخرائط طيلة قرن من الزمان.

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> العلم والحياة

5- العلم والحياة

وكان على علم الأحياء (البيولوجيا) أن ينتظر قرنين من الزمان حتى يتسنى الذروة، ونشأ علم النبات على مهل من خلال الدراسات الطبية للأعشاب العلاجية واستيراد النباتات الغربية إلى أوروبا وجلب المبشرون الجزويت لحاء الشجر من بيرو (الكينين) والونيلية (نبات أمريكي استوائي، الفانيليا) والرواند. وأدخل البطاطس حوالي 1560 من بيرو إلى أسبانيا، ومنها انتشر في أنحاء القارة. ووصف برسييرو ألبيني أستاذ علم النبات في بادوا خمسين نباتاً أجنبياً زرعت مجدداً في أوروبا. ومن دراساته لنخيل البلح استدل على التكاثر الجنسي في النبات الذي أوضحه تيوفراستوس في القرن الثالث ق.م. يقول ألبيني: "إن إناث نخيل البلح لا تحمل ثمراً إلا إذا اختلطت أغصان الأشجار الذكور والأشجار الإناث ببعضها ببعض، أو كما يحصل عادة، إلا إذا تناثر

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> العلم والحياة

الغبار الموجود في غلاف الأشجار الذكور أو أزهار الأشجار الإناث(51)". وقد يقسم لناؤوس فيما بعد النباتات وفقاً لطرق تكاثرها، ولكن الآن في 1573 قدم أندريا سيسالبينو الفلورنسي أول تقسيم منهجي للنباتات، 1500 نوع منها- على أسس بذورها وثمارها المختلفة. وأورد جاسبار بوهين (من مدينة بازل) في مؤلفه الضخم "جدول عالم النبات" (1623) تصنيفاً لنحو 6000 نبات، وبذلك استبق ما أنجزه بعد ذلك لناؤوس من تصنيف وتسمية ثنائية تبعاً للجنس والصنف، وقضى بوهين أربعين عاماً في إعداد "جدول النبات"، ومات بعد سنة من صدوره، وبقي مرجعاً أساسياً لمدة ثلاثة قرون.

وبدأت "مشعبات الأطباء" الخاصة تتطور الآن إلى حدائق نباتية تديرها الجامعات أو الحكومات للجمهور. كان لأقدمها التي أسست في بيزا 1543، شهرة كبيرة أيام سيسالبينو. وأسس في زيوريخ حديقة نباتية في 1560، ثم في بولونيا وكاسل ولينين وبرزلا وبازل وهدلبرج وأكسفورد. وفي 1635 نظم جي دي لابروس طبيب لويس الثالث عشر "حديقة النباتات الطبية" المشهورة في باريس، أما حدائق الحيوان، بوصفها معارض للوحوش لتسلية الجماهير، فقد وجدت في الصين (1100 ق.م) وفي روما القديمة، وفي المكسيك أيام الأزتيك (حوالي 1450)، أما الطراز الحديث فقد افتتح في درسدن في 1514، وفي فرساي في عهد لويس الثالث عشر.

ولقي علم الحيوان عناية أقل مما لقي علم النبات، لأنه قدم علاجات أقل، اللهم إلا في الطب الأسطوري أو الخرافي، وفي 1599 شرع بوليس أدروفاندي في نشر 13 مجلداً ضخماً في التاريخ الطبيعي، وعاش حتى رأى ستة منها في المطبعة، ونشر سناتو بولونا السبعة الباقية من المخطوطات المؤلف على نفقة الدولة. ولم يحتل مكان هذه المجلدات أو ينسخها إلا كتاب بوفون "التاريخ الطبيعي" (1749-1804). وابتدأ الجزويتي المتعدد الثقافات أنثاسيوس

صفحة رقم : 10319

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> العلم والحياة

كيرشر علم الأنسجة العضوية بكتابه الذي وصف فيه (1646) الديدان المتناهية الصغر التي وجدها مجهره (الميكروسكوب) في المواد المتعفنة. أن الاعتقاد بتوالد الكائنات الدقيقة توالداً تلقائياً من اللحم المتعفن أو الفاسد، أو حتى من الصين، كاد يكون سائداً تماماً، ولو أن هارفي كان على وشك أن يدحضه في كتابه "توالد الحيوان" (1651). وكان علم الحيوان متخلفاً، لأن نفرأ قليلاً من المفكرين رأوا الأجداد العليا للحيوان كما رأوهم في الإنسان ولكن في 1632 كتب جاليليو إلى دوق تسكانيا الأكبر: "ولو أن التباين بين الإنسان وسائر الحيوان هائل جداً، فإنه يمكن القول بحق بأنه أكثر قليلاً من التباين بين بني البشر أنفسهم(52)". أن العقل الحديث كان يتردد ببطئ إلى ما عرفه الإغريق قبل ذلك بألفي عام.

وأوى علم التشريح إلى شيء من الركود بعد جهود فيساليوس. وكان تشريح الجثث لا يزال محل معارضة كما فعل هوجو جروتتيوس(53). ولكن "دروس التشريح" الكثيرة في الفن الهولندي تعكس الارتياح العام إلى هذا العمل. والاسم اللامع هنا، مثلما هو في الجراحة هو جيولامو فابريزيو أكوابندانت. تلميذ فللوبيو وأستاذ هارفي. وفي أثناء رياسته لجامعة بادوا شيدت هناك قاعة التشريح الكبرى وهي المبنى الوحيد المحتفظ به كاملاً من تلك الحقبة، إن اكتشافه للصمامات في الأوردة، ودراساته في تأثيرات الأربطة قادنا هارفي إلى شرح الدورة الدموية وتقدمت المعرفة بدورة السوائل في الجسم خطوة إلى الأمام بكشف جاسبارو أسللي للأوعية للمفاوية التي تتقل الكيلوس الشبيه باللبن (مستحلب الطعام المهضوم قبل امتصاصه) من الأمعاء الدقيقة. والحق أن أسللي، على الرغم من اسمه "الجحش الصغير" وصف الدورة الدموية قبل أن ينشر هارفي نظريته بست سنين. وكان اندريا سيسالبينو قد شرح النظرية الأساسية (1571) قبل هارفي بنصف قرن. وظل يتعلق بالفكرة القديمة، وهي أن بعض الدم يمر من الحجاب الحاجز للقلب، ولكنه

صفحة رقم : 10320

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> العلم والحياة

اقترب، أكثر من هارفي، من شرح كيفية انتقال الدم من الشرايين إلى الأوردة إن أنبل الجيوش كانت تتقدم على مائة جبهة لتخوض أعظم الحروب والمعارك إنها معارك العلم.

صفحة رقم : 10321

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> العلم والصحة

6- العلم والصحة

وفي هذا النضال من أجل العلم والمعرفة، كانت المعركة الأساسية هي معركة الحياة ضد الموت، وهي معركة خاسرة على الصعيد الفردي، ظافرة بانتظام على المستوى الجماعي. وكم للأطباء والمستشفيات، وفي نضالهم لعلاج الأمراض والآلام، من أعداء بشريين في القدرة الشخصية، والقدرة العامة، والسجون الكريهة الرائحة والمثيرة للاشمئزاز، والدجالين وجرعاتهم السحرية، والمتصوفين "العلميين"، ومعالجي الفنق، نديبي الحجارة، ومعالجي إعتام عدسة العين، وخالعي الأسنان، هواة تحليل البول. وسارت الأمراض الجديدة في سباق مع العلاجات والأدوية الجديدة. وكان مرض الجذام قد اختفى، وقللت الوسائل الوقائية من الإصابة بمرض الزهري، وكان فاللوبيو قد اخترع (1564) غلافات من الكتان لاتقاء عدوى هذا المرض. (وسرعان ما استخدم هذا لمنع الحمل، وكان يباع لدى الحلاقين الموسسات أو أصحاب المواخير(54)). ولكن أوبئة التيفوس والتيفود والحمى والمالاريا والدفتريا، والإسفر بوط والأنفلونزا والجذري والدوزنتاريا، ظهرت في تلك الحقبة في عدة أقطار في أوروبا، وبخاصة ألمانيا. وثمة إحصاءات قد يكون مبالغاً فيها، بأن الوفيات بلغت 4000 من الطاعون الدملي في بازل 1563-1564، وأن 25% من سكان فريبورج-أم-بريزو ماتوا بالطاعون 1564، و9000 في رديستوك، و5000 في فرانكفورت 1565، و4000 في هانوفر، و6000 في برونزويك 1566(55) وعزا السكان المذعورون مثل هذا الطاعون إلى دس السموم عمداً. وفي فرانكشتين في سيليزيا أحرق 17 شخصاً

صفحة رقم : 10322

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> العلم والصحة

أحياء حتى الموت للاشتباه في أنهم دسوا السم(56). وكانت وطأة الطاعون الدملي شديدة جداً في فرانكفورت في 1604 حتى لم يعد هناك من الرجال من يكفي للقيام بدفن الموتى(57). وتلك مبالغت واضحة، ولكن يروى عن مصادر موثوقة أنه بسبب الطاعون الدملي في إيطاليا 1629-1631 مات في ميلان 86 ألفاً، وفي جمهورية البندقية

ما لا يقل عن 500 ألف، وفيما بين 1630-1631 كان عدد ضحايا الطاعون مليون شخص في جنوب إيطاليا وحده (58)، ولما سار معدل الإنجاب عند النساء مع شدة الدهاء وسعة الحيلة في إزهاق الأرواح. وضوعفت الأم الوضع بتزايد عدم جدواه. وكانت نسبة الوفيات في الأطفال تبلغ خمس المواليد قبل إتمام السنة الثانية من العمر (59) وكانت الأسرات كبيرة والسكان قليلين.

وكانت الصحة العامة آخذة في التحسن، والمستشفيات يتضاعف عددها وتعليم الطب يصطبغ بالثبوت والصرامة-ولو أنه كان من الميسور الاشتغال بالطب دون الحصول على درجة علمية. وكان في بولونا وبادوا وبازل وليندن ومونبيليه وباريس مدارس طب ذائعة الصيت تجذب إليها الطلاب من كل أنحاء أوروبا الغربية. وأمامنا مثال فذ من البحث الطبي الدعوب طيلة ثلاثين عاماً من التجارب حاول بها سانكتوريوس تحويل العمليات الفسيولوجية إلى نظم كمية. وأنجز قدراً كبيراً من عمله بينما كان جالساً إلى مائدة على ميزان كبير، وسجل ما يطرأ على وزنه من تغيرات عند دخول أو خروج المواد الصلبة والسوائل، بل إنه وزن العرق نفسه. ووجد أن جسم الإنسان يخرج بضعة أرتال يومياً عن طريق التنفس العادي. وانتهى إلى أن هذا شكل جوهري من أشكال الطرد أو التخلص من الزوائد. واخترع مقياساً طبياً للحرارة (1612) وآخر للنبيض، ليعاون هذا وذلك في تشخيص الأمراض. وكان العلاج يتدرج من الضفدعة إلى العلقة. ووصف بعض مشاهير الأطباء، كعلاج، الضفدع المجففة تخاط في كيس يعلق على الصدر، كمصيصة

صفحة رقم : 10323

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> العلم والصحة

يتصيد ويمتص الهواء الفاسد المسموم المحيط بالجسم في المناطق المصابة بالطاعون (60). وجمعوا بين امتصاص الدم بالعلقات أو بالحجم، وبين تناول مقادير كبيرة من الماء، على أساس أن بعض السائل الداخل إلى الجسم سوف يتحول إلى دم جديد غير الملوث. وكانت ثمة مدرستان للعلاج تتباريان على الفريسة، وهو المريض: مدرسة العلاج الميكانيكي التي نشأت عن آراء ديكرات التي تقول بأن كل عمليات الجسم ميكانيكية، ومدرسة العلاج الكيميائي التي بدأها باراسلسوس، وطورها هلمونت. والتي تفسر كل وظائف الأعضاء بأنها كيميائية. وكانت المعالجة المائية العملية الشائعة. وكانت المياه العلاجية موجودة في باث إنجلترا، وفي سبا في الأراضي الوطئية، وفي بلومبير في فرنسا، وفي أماكن أخرى كثيرة على الراين وفي إيطاليا، وقد رأينا مونتيني يجرب العلاج بالمياه في هذه الأماكن، ونثر حصى الكلى طوال الطريق. وأدخل إلى أوروبا عقاقير جديدة، مثل الناردين (حوالي 1580)، والأنتيمون (الأثمد) حوالي 1603، وعرق الذهب (1625)، والكينين (6132). ودون دستور الصيدلة والأدوية في إنجلترا (1618) نحو 1960 عقاراً. ويذكر مونتيني علاجات خاصة أدخلها نفر من الأطباء لمرضاهم الصبورين:

القدم اليسرى لسلفاة، بول السحلية، روث الفيل، كبد

حيوان الخلد، الدم المستخرج من الجناح الأيمن لحمامة بيضاء.

وبالنسبة للمصابين بحصى الكلى مثلي.... روث الفأر

المسحوق... وغير ذلك من السخافات التي توحى بالسحر

والتعاويد أكثر منها بالعلم الجاد(61).

وكانت مثل هذه العلاجات التافهة الغربية باهظة التكاليف إلى حد مثير وكان الناس في القرن السابع عشر يئنون من أثمان الدواء أكثر مما يضجون من أجور الأطباء(62).

صفحة رقم : 10324

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> العلم والصحة

وترك طب الأسنان للحلاقين، وكان يقوم في معظمه على الخلع. وكان بين "الحلاقين الجراحين" آنذاك جماعة من المحترفين المهرة، من أمثال امبرواز باري، فراسوا روست، اللذين أحياا الخلع القيصري، وجسبارو طلياكوتسي المتخصص في إعادة تشكيل الأذن والأنف والشفاه، من لدائن البلاستيك، وقد اتهمه الأخلاقيون بالتدخل في صنع الله، ونبشت رفاته من الأرض المطهرة، ودفنت في أرض غير مقدسة(63). وكان ولهم فيري "أبو الجراحة في ألمانيا" أول من أوصى ببتن العضو أو الطرف فوق الجزء المصاب. وأورد جيوفني كول أقدم وصف معروف لعملية نقل الدم (1628).

وامتعض المرضى من أجر الطبيب، كما هو الحال في كل العصور. وسخر الممثلون الهزليون من رذائه الطويل وحذائه الأحمر، ومن رزاقته ووقاره وهو إلى جانب فراش المريض، وإذا كان لنا أن نصدق هجوا الممثلون الهزليين الفكاهيين، فإن مكانته الاجتماعية لم تكن تعلق كثيراً عن مرتبة العلم، ولكننا لو رجعنا إلى تاريخ "درس التشريح" لمربرانت، لشهدنا طبقة من الرجال تتمتع بمنزلة رفيعة في المجتمع، قادرة حتى على الإسهام في لوحة عظيمة. أن أعظم فلاسفة ذلك العصر، الذي كان يحلم، كما يحلم كل منا، بمستقبل أفضل للبشرية، فكر في تحقيق حلمه على أساس تحسين الخلق الإنساني والنهوض بالعلوم الطبية، بوصفها أكثر العوامل ملائمة لمثل هذه الثورة، وفي هذا يقول ديكارت: "إن العقل نفسه يعتمد كثيراً على سلامة أعضاء الجسم وتنظيم أداؤها لوظائفها، إلى حد أنه إذا كان من الميسور أن نفتش عن وسيلة تزيد بها عقل الإنسان وقدرته، فاعتقادي أنه ينبغي أن نلتمسها في الطب والدواء"(64).

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> من كوبرنيكس إلى كبلر

7- من كوبرنيكس إلى كبلر

لقد تركنا علم الفلك لنعرض له في خاتمة المطاف، لأن أبطاله، وهم يقتربون من نهاية هذه الفترة، يشكلون العناصر الرئيسية فيها.
إن نفس الكنيسة التي كان عليها أن تخرس جاليليو، قادت الطريق إلى أحد المنجزات العظمى في علم الفلك الحديث- ألا وهو إصلاح التقويم. أن مراجعة التقويم التي كان قد قام بها سوسينز ليوليوس قيصر حوالي 46 ق.م. أدت إلى زيادة السنة بإحدى عشرة دقيقة و14 ثانية. ومن ثم فإنه في 1577 تخلف التقويم اليولياني عن تعاقب الفصول بنحو 12 يوماً، وبذلك لم تقع أعياد الكنيسة في المواعيد التي قصد لها أن تقع فيها. وكم من محاولات بذلت لإصلاح التقويم: في عهد كليمنت السادس، سكستس الرابع، ليو العاشر-ولكن نشأت عوائق جمة، منها عدم اتفاق الجميع على حل معين. وعدم توفر المعرفة الدقيقة بالفلك. وفي 1576 قدم إلى البابا جريجوري الثالث عشر تقويم قام بتصويبه لوجي جليليو. وأحال البابا إلى لجنة من اللاهوت والمحاميين ورجال العلم، ومن بينهم الجزويتي البافاري كرسنوفر كلافيوس الذي اشتهر بتضليله في الرياضيات والفلك، وواضح أن المخطط النهائي كان من صنعه. واستمرت المفاوضات طويلة مع الأمراء والأساقفة لتحقيق تعاونهم في هذا المجال وأثيرت اعتراضات كثيرة وأخفقت المساعي التي بذلت للحصول على موافقة الكنائس الشرقية. وفي 64 فبراير 1582 وقع البابا جريجوري الثالث عشر المرسوم الذي أقر "التقويم الجريجوري" في العالم الكاثوليكي. ومن أجل التعادل بين التقويم القديم والحقائق الفلكية، حذفت عشرة أيام من شهر أكتوبر 1582، أي أن اليوم الخامس اعتبر اليوم الخامس عشر، وعمدوا من أجل ذلك إلى ضروب معقدة من الحسم والخصم في حساب الفوائد وغيرها من المعاملات التجارية. وللتعويض عن الخطأ في التقويم اليولياني، فإنهم زادوا في سنوات القرون التي تقبل القسمة على 400، يوماً في شهر فبراير ليصبح 29 يوماً.

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> من كوبرنيكس إلى كبلر

وعارضت البلاد البروتستانتية هذا التغيير. وتمرد الأهالي في فرانكفورت (على نهر السين) وفي بريستول، اعتقاداً منهم بأن البابا أراد أن يسلبهم عشرة أيام بل أن مونتينني نفسه زمجر وشكا، وهو الشديد الطمع في الزمن، فقال "إن ما عمد إليه البابا أخيراً من اختصار عشرة أيام من السنة قد أزعجني إلى حد أنني لا أكاد استرد عافيتي(65)" ولكن التقويم الجديد-الذي لن يحتاج إلى تصويب آخر لمدة 3333 سنة-أخذ بالتدريج يلقي قبولاً في الولايات الألمانية في 1700، وفي إنجلترا في 1752، وفي السويد في 1753، وفي روسيا 1918 .

وثمة تلوؤ شبيه بهذا حدث في ارتضاء وتقبل فلك كوبرنيكس. وكان من الممكن دراسته وتعليمه في إيطاليا، لو أنه عرض على أنه فرضية قابلة للجدل، لا على أنه حقيقة واضحة (66). ودافع عنه جيوردانو برونو، وتساءل بالفعل كمبانلا إذا كان سكان الكواكب الأخرى ظنوا أنفسهم، كما يظن أهل الأرض، أنهم مركز الأشياء، وهدفها (67). وتسابق اللاهوتيين البروتستانت مع الكاثوليك عامة في استنكار الطريقة الجديدة، ودحضها ببيكون وبودين على السواء (68). والأغرب من هذا كله أن أعظم الفلكيين في نصف القرن التالي لوفاة كوبرنيكس (1553)، رفضها كذلك. ولد تيكوبراهي في 1546، في مقاطعة سكانيا التي كانت آنذاك دنمركية.

صفحة رقم : 10327

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> من كوبرنيكس إلى كبلر

وهي الآن في الطرف الجنوبي للسويد، وكان أبوه عضواً في مجلس الدولة الدنمركي، وأمه مديرة ملابس الملكة. أما عمه الثري جورج الذي انفطر قلبه غمماً لأنه لم ينجب أولاداً، فقد اختطفه، وتملق أبويه واسترضاها بكمل الوسائل، ابتغاء موافقتهما، وهياً للطفل كل فرص التعليم ووسائله. وفي سن الثالثة عشرة التحق تيكو بجامعة كوبنهاجن. وطبقاً لما ذكره جاسندي، انجذب تيكو إلى الفلك عندما سمع أحد المعلمين يناقش موضوع كسوف شمس قادم. ولحظ حدوث الكسوف كما تنبئوا به، وعجب لهذا العلم الذي بلغ مثل هذه القدرة على التنبؤ، واشترى نسخة من كتاب بطليموس "المجسطي". وأكب عليها إلى حد إهمال سائر الدراسات. ولم يتخلى قط عن النظرة الهندسية التي تجلت في القرن الثاني من عصرنا.

وفي سن السادسة عشرة نقل إلى جامعة لبيزخ، حيث درس القانون بالنهار، ودرس النجوم بالليل. وحذروه من أن مثل هذا العمل قد يؤدي إلى انحطاط الجسم وانهيار في الأعصاب. ولكن تيكو أصر وثابر، وأنفق كل ما يحصل عليه في شراء الآلات الفلكية. وفي 1565 مات عمه، تاركاً له ثروة كبيرة وأسرع تيكو بعد تسوية أموره، إلى وتبرج، لمزيد من الرياضيات والفلك، ثم غادرها فراراً من الطاعون، إلى روستوك، وهناك اشترك في مبارزة أطاحت بجزء من أنفه، فاتخذ أنفاً براقاً جداً من الفضة والذهب ظل به بقية حياته. وانهمك في التحجيم وتنبأ بموت سليمان القانوني، ليجد أن السلطان قد فارق الحياة بالفعل (69). وبعد كثير من التجوال في ألمانيا عاد إلى الدنمارك، وشغل نفسه بالكيمياء. وأعادته إلى الفلك كشف نجم جديد في مجموعة ذات الكرسي (1572). أن ملاحظاته السعيدة لهذا النجم المتقل، وما كتبه عنه في أول مؤلف نشر له "النجم الجديد" أكسبها شهرة في كل أنحاء أوروبا. ولكن أزعجا بعض وجهاء الدنمارك الذين اعتقدوا أن التأليف ضرب من حب الظهور الذي لا يليق بالدم الأزرق. وأذهلهم

صفحة رقم : 10328

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> من كوبرنيكس إلى كبلر

تيكو بزواجه من بنت فلاحه. يبدو أنه أحس بأن زوجة وربة بيت بسيطة، خير من رفيق لفلكي منصرف بكليته إلى الفلك، وأحسن صنو منفتح سمح لرجل ذي أنف ذهبي.

ولما لم يقنع تيكو بالتسهيلات الفلكية في كوبنهاجن، فإنه اتخذ طريقه إلى كاسل، حيث كان الدوق وليم الرابع قد بنى 1561 أول مرصد ذي سقف دوار، وطور يوست بورجي ساعة ذات رصاص (بندول) جعلت من الميسور تحديد أوقات رصد النجوم وحركاتها في دقة لم يسبق لها مثيل. وامتلاً تيكو حماساً جديداً فعاد إلى كوبنهاجن، وأثار اهتمام فرديريك بمشروع إقامة مرصد. فوضع الملك تحت تصرفه جزيرة هفين (فينوس) في مياه السوند، وأجرى عليه راتباً كبيراً، واستطاع تيكو بهذا المال بالإضافة إلى موارده الخاصة، أن يشيد هناك قصراً وحدائق أطلق عليهما أور انبيرج (مدينة السماء)، وكانت تضم مساكن ومكتبة ومعمل وعدة مرصد ومصنعاً لما تحتاج إليه من آلات. ولم يكن لديه مقراب (تلسكوب)، حيث كان لا بد من انتظار ثمانية وعشرين عاماً حتى يتم اختراعه-على أن أرصاد تيكو هي التي قادت كبلر إلى اكتشافات قيمة كانت فاتحة لعصر جديد.

وطيلة إحدى وعشرين سنة في جزيرة هفين جمع تيكو وتلاميذه من المادة ما يفوق في حجمه ودقته أية مادة معروفة من قبل. وسجل كل يوم، ولعدة سنوات، حركة الشمس الظاهرية، وكان من أوائل الفلكيين الذين أدخلوا في حسابهم انحراف الضوء وأخطاء الراصدين والآلات، ولذلك عاود إرصاده وملاحظاته مرات ومرات. وكشف عن التغيرات في حركة القمر ووضعها في صيغة قانون. وأدى به تدقيقه الشديد في تفقد أحد المذنبات في 1577 إلى الاعتقاد السائد في العالم الآن، بأن المذنبات أجرام سماوية حقيقية تتحرك في مدارات محددة منتظمة، بدلاً من كونها تنشأ في الغلاف الجوي للأرض. وعندما نشر تيكو الثابت الذي جمعه عن 777 نجماً، حددها بعناية فائقة على القبة السماوية الضخمة في مكتبته، فإنه بذلك برر حياته.

صفحة رقم : 10329

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> من كوبرنيكس إلى كبلر

وتوفي فرديريك الثاني في 1588. وكان الملك الجديد طفلاً في الحادية عشرة، ولم يطق الأوصياء الذين تولوا الحكم صبراً على غرور تيكو براهي وحدته وإسرافه. كما فعل فرديريك من قبل. وسرعان ما انخفضت المنح الحكومية ثم انقطعت في 1597. فغادر تيكو الدنمارك، وأستقر به المقام به قلعة بنانك، بالقرب من براغ، ضيفاً على الإمبراطور رودلف الثاني الذي أمل في الحصول منه على نبوءات تنجيمية. وأحضر تيكو آلاته وسجلاته من هيفن، وأعلن عن مساعدته فجاءه كبلر (1600)، وعمل مع سيده الذي يصعب التعامل معه وإرضائه، عملاً منقطعاً، ولكنه كان مخلصاً فيه. وفي الوقت الذي كان فيه تيكو يتوق إلى الخروج من المادة الغزيرة التي جمعها بنظرية معقولة عن السموات، دهمه وهو جالس إلى المنضدة انفجار في المثانة، وبقي يتلوى من الآلام لمدة أحد عشر يوماً ثم فارق الحياة (1601). وهو حزين على عدم إتمامه عمله. وقال خطيب الجنازة أنه "لم بطمع في شيء سوى الوقت (70)".

صفحة رقم : 10330

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> كبلر

8- كبلر

1631-1571

كان انتقال تيكو إلى براغ من حسن حظ العلم، لأن كبلر ورث أرصاده وملاحظاته، واستنتج منها قوانين الكواكب التي مهدت لنظرية نيوتن في الجاذبية. وتجمعت، من براهي إلى كبلر إلى نيوتن، ومن كوبرنيكس إلى جاليليو إلى نيوتن، خطوط أساسية لتكون علم الفلك الحديث.

ولد كبلر في فيل Weil بالقرب من شتتجارت، وكان أبوه ضابطاً في الجيش، طالما خرج للحرب مؤثراً ميدانها على حياة المنزل، وأخيراً عاد وافتتح حانة اشتغل يوهان نادلاً فيها. وكان الصبي سقيماً معتل الصحة، شل الجدي يديه وأضعف باستمرار بصره. وأنس منه دوق روتنبرج أنه يمكن أن يصبح واعظاً فاضلاً. فتولى الإنفاق على تعليمه. وفي نوبنجن، حول ميكائيل ماستلن الذي كان يقوم بتدريس فلك بطليموس حول كبلر سرّاً إلى

صفحة رقم : 10331

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> كبلر

نظرية كوبرنيكس. وتحمس الشاب للنجوم إلى حد أنه تخلى عن التفكير في أي عمل كنسي.

وبعد الحصول على الدرجة الجامعية أصبح كبلر مدرساً في ستيريا، يعلم اللاتينية والبلاغة والرياضيات مقابل 150 جلدن في العام، مع مسكن بالمجان، يضاف إلى هذا 20 جلدن لقاء تحرير تقويم تنجيمي سنوي. وفي سن الخامسة والعشرين تزوج كبلر من سيدة في الثالثة والعشرين، كانت قد شيعت زوجها لها إلى مثواه الأخير، وانفصلت عن زوج ثان، وقدمت له هذه السيدة مهراً وأتت إليه بابنة، وأضاف هو ستة أطفال بمرور الزمن. وبعد سنة من الزواج أرغم كبلر على مغادرة جراز لأنه كان بروتستانتيّاً (1597)، وكان فرديناند دوق ستيريا الجديد كاثوليكيّاً صميماً فأصدر أمره إلى كل رجال الدين والمعلمين البروتستانت بمغادرة بلاده. وكان كبلر قد اقترن إثرماً آخر بنشره "الكون الخفي" (1596) الذي دافع فيه بحرارة عن نظرية كوبرنيكس، وأرسل نسخاً منه إلى تيكو وجاليليو أملاً في عونهما. وبعد سنة عانى فيها الفقر المدقع، أنقذته دعوة تيكو إياه إلى براج. ولكن كان من الصعب التعامل مع تيكو وإرضائه. ولقي كبلر عنثاً في العقيدة وفي كسب العيش. وانتاب الزوجة مرض عصبي. بعد ذلك توفي تيكو، وعين كبلر خلفاً له براتب سنوي قدره 500 فلورين.

وكان تيكو براهي قد أوصى لكبلر بسجلاته، ولم يورثه آلاته. ولما لم يستطع شراء أحسن الآلات، فإنه وجد نفسه مسوقاً إلى دراسة أرصاد تيكو وملاحظاته دون أن يضيف إليها شيئاً. وما كان له أن يقول مع نيوتن "إنني اخترع فروضاً" بل على العكس. امتلأ رأسه بالفروض وبات يههم بها، "عندي ذخيرة من المخترعات أو من ثمرات

الخيال(71)". وكانت مهارته الفذة تكمن في اختبار الفروض. كما تمثلت حكمته وعقله في طرحها جانباً، إذا ثبت أن النتائج التي توصل إليها رياضياً، لا تتماشى مع الظواهر التي رصدها أولاً حظها(72). وفي محاولته لتعيين مدار المريخ جرب 70 فرضاً على مدى أربع سنوات.

صفحة رقم : 10332

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> كبلر

وفي آخر الأمر في 1604 توصل إلى كشفه الأساسي الممتاز الذي فتح عصراً جديداً وهو أن مدار المريخ حول الشمس عبارة عن قطع ناقص، وليس دائرة، كما ظن الفلكيون ابتداءً من أفلاطون ومن جاء بعده بما فيهم كوبرنيكس. فالمدار المتخذ شكل القطع الناقص هو الوحيد الذي ينسجم مع الأرصاد المتكررة التي قام بها تيكو وغيره. وقفز ذهن كبلر المتوقد الذكاء إلى التساؤل: ماذا لو كانت مدارات كل كواكب على شكل قطع ناقص؟ وبادر إلى تفحص الفكرة على أساس الملاحظات والأرصاد المدونة، فاتفقت معها اتفاقاً يكاد يكون تاماً. وفي رسالة باللاتينية عن حركات المريخ "الفلك الجديد وحركة المريخ". (1609) نشر أول قانونين من "قوانين كبلر" أولهما: إن كل كوكب يدور في مدار على شكل قطع ناقص، الشمس إحدى بؤرتيه، والثاني أن سرعة دوران الكوكب تزيد كلما قرب من الشمس، لا كلما ابتعد عنها، وأن نصف القطر الذي يمتد من الشمس إلى الكوكب يقطع، في دورانه مسافات متساوية في أزمنة متساوية، وعزا كبلر الاختلافات في سرعة الكواكب إلى زيادة انبثاق الطاقة الشمسية التي يحسها الكوكب كلما اقترب من الشمس، ومن هذه الناحية طور كبلر عن جليبرت فكرة الجذب المغناطيسي وهي قريبة جداً من نظرية نيوتن في الجاذبية.

وعند موت الإمبراطور رودلف (1612) انتقل كبلر إلى لنز، وعاد ثانية إلى العيش على التعليم في المدارس، وماتت زوجته فتزوج من بنت فقيرة يتيمة. وفيما كان يزود بيته الجديد بالخمير، افتتن بالصعوبة التي لقيها في تقدير محتويات قنينة ذات جوانب منحنية. وساعد البحث الذي نشره عن هذه المسألة على التمهيد لاكتشاف حساب التفاضل (الكميات المتناهية الصغر).

وبعد أن فكر كبلر لمدة عشر سنوات تفكيراً عميقاً في إيجاد العلاقة بين سرعة الكوكب وحجمه، نشر في كتابه "تناسق الكون" (1619) قانونه الثالث، مربع زمن دورة الكوكب حول الشمس يتناسب مع الجذر التكعيبي

صفحة رقم : 10333

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> كبلر

لمتوسط بعده عن الشمس (مثال ذلك. أن زمن دورة المريخ يمكن إثبات أنه 1.88 من زمن دورة الأرض، ومربع هذا هو 3.53 والجذر التكعيبي لهذا هو 1.52، أي أن متوسط المسافة بين المريخ والشمس يصح 1.52 من المسافة بين

الأرض والشمس. وكان كبلر أن يبتهج أيما ابتهاج لوضعه دوران الكواكب بمثل هذا الترتيب والانتظام إلى درجة أنه شبه كل سرعة في المدار بنغمة على السلم الموسيقي، وانتهى إلى أن الحركات مجتمعة شكلت "تناغم النجوم" الذي لا تسمعه، على أية حال، إلا "روح" الشمس. ومزج كبلر عمله بالتصوف موضحاً مرة أخرى مقالة جوته الكريمة. إن عيوب الإنسان هي أخطاء زمانه، على حين أن فضائله هي من عنده. ويمكن أن نغفره غروره حين كتب في مقدمة "تناسق الكون".

أن ما وعدت به أصدقائي في عنوان هذا الكتاب... وما أثرته منذ 16 عاماً كموضوع يستحق البحث. وهو الذي من أجله انضمت إلى تيكوبراهي... وهو الذي خصصت له أحسن سني حياتي.... قد أخرجته اليوم إلى النور... لم تمض بعد ثمانية عشر شهراً حين سقطت الشمس المشرقة على... لن يعوقني شيء، سوف أطلق العنان لثورتي المقدسة... إذا غفرت لي فلسوف أبتهج.. ولنن غضبتهم فلسوف أحتمل غضبتكم... سبق السيف العذل. لقد وضع الكتاب، وليس يهمني كثيراً أن يقرأ الآن، أو أن تقرأه الذراري والأعقاب، ولم لا ينتظر قرناً ليجد قارئاً، كما انتظر "الله" الإله ستة آلاف عام حتى وجد مستكشفاً (73).

وفي "خلاصة فلك كوبرنيكس" (1618-1621) أوضح كبلر كيف أن قوانينه أيدت وشرحت وأصلحت من نظرية كوبرنيكس، فقال "لقد شهدت من أعماق نفسي بأنها صحيحة، وإنني لأتأمل جمالها في ابتهاج غامر لا يكاد يصدق (74)" ووضعت الرسالة في عداد الكتب المحظورة لأنها نمت

صفحة رقم : 10334

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> كبلر

عن أن نظرية كوبرنيكس كانت قد أثبتت. ولم ينزعج كبلر، وهو البروتستانتي الورع. وعاش لفترة قصيرة في بحبوحة من العيش وسط التهليل والتصفيق. وكان بصفة فلكي الإمبراطور، ومن بريطانيا النائبة دعاه جيمس الأول (1620) ليذهب إلى هناك ليزدان به البلاط الملكي ولكنه رفض الدعوة خشية أن يعاني من أن يصبح حبيساً في جزيرة (75).

وشارك كبلر أهل زمانه في الإيمان بالسحر، واتهمت أمه بممارسته. وأدعى بعض اليهود أن ماشيتهم، بل أنهم هم أنفسهم، قد انتابتهم العلل لمجرد أن "فرو كبلر" قد مستهم، وأقسمت إحدى المشاهدات على أن ابنتها البالغة من العمر 8 سنوات قد أصابها سحر أم كبلر بالمرض، وهددت بقتل الساحرة إذا لم تبادل بإبراء البنت. وأنكرت المرأة المتهمه كل ما نسب إليها، ولكن قبض عليها وأودعت السجن مكبله في الأغلال، ودافع عنها كبلر في كل مراحل نظر الدعوى. واقترح المدعي العام في الولاية أن ينتزع منها الاعتراف بالتعذيب، واقتيدت إلى غرفة التعذيب لترى الآلات المستخدمة فيه، ولكنها ظلت تؤكد براءتها. وأفرج عنها بعد أن قضت في السجن ثلاثة عشر شهراً ولكنها ما لبثت أن ماتت (1622).

إن هذه المأساة بالإضافة إلى آثار نشوب الحرب هنا وهناك، ملأت سبي كبلر الأخيرة بالغم والقتام. وفي 1622 احتلت القوات الإمبراطورية مدينة لنز وقارب سكانها أن يهلكوا جوعاً. وفي وسط هذه الفوضى واصل كبلر صياغة أرساده وملاحظاته، وأرصاد تيكو وغيره من الفلكيين وملاحظاتهم، وتدوينها في "الجدول الرودفية" التي ضمت وصنفت 1005 نجماً، وبقيت ذات قيمة معترف بها لمدة قرن من الزمان. وفي 1626 انتقل إلى أولم. وأبطأ به راتبه الإمبراطوري ولاقى عنناً شديداً في الإنفاق على أسرته. وأهاب بدوق والنشتين أن يعينه منجماً، فكان له ما أراد، وظل لعدة سنوات يتبع القائد بحسب له الطالع وينشر التقاويم التنجيمية. وقصد في 1632 إلى رجنز برج يلتمس من الدير أن يدفع له رواتبه المتأخرة.

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> كبلر

واستنزفت الجهود ما بقي له من قوى جسمية، فانتابته الحمى، وأودت بحياته في أيام قلائل (15 نوفمبر 1630) وهو في التاسعة والخمسين من العمر وقد طمست الحرب كل معالم قبره. وكانت رسالته في تاريخ الفلك أن يتوسط بين كوبرنيكس ونيوتن. وتقدم على كوبرنيكس بإحلاله المدارات ذات القطع الناقص محل المدارات الدائرية، وبالتخلي عن الانحرافات وأفلاك التدوير، وفي وضعه الشمس في إحدى بؤرتي القطع الناقص، لا في مركز دائرة. وبهذه التغييرات خلص نظرية كوبرنيكس من الصعاب التي كادت تبرر رفض تيكوبراهي لها. وعن طريقة بدأت الآن فكرة القياس من مركز الشمس تلقى قبولا وتنتشر انتشاراً واسعاً. وحول ما كان مجرد حدس براق، إلى فرضية مصوغة في تفصيل رياضي. وأمد نيوتن بقوانين الكواكب التي قادتته إلى نظرية الجاذبية وعلى حين احتفظ كبلر بعقيدته الدينية راسخة لا تتزعزع، أظهر أن الكون كيان له قانون، ونظام كامل متناغم متناسق، فيه قوانين تحكم الأرض كما تحكم هي نفسها النجوم. وهو يقول "أن كل ما أصبو إليه أن أدرك كنه الذات الإلهية فأني أجد الله في الكون الخارجي مثلما أجده في داخلي أنا" (76).

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> جاليليو

9- جاليليو

1564 - 1642

أ - الفيزيائي

ولد جاليليو جاليلي في بيزا يوم وفاة ميكلأ نجلو (18 فبراير 1564)، في نفس العام الذي ولد فيه شكسبير. وكان أبوه فلورنسياً مثقفاً أسهم في تعليمه اليونانية واللاتينية والرياضيات والموسيقى. ولم يكن من قبيل البعث أن يكون جاليليو، على وجه الدقة تقريباً، معاصراً لمنقردي (1567-1643) لأن الموسيقى كانت من ضروب عزائه وسلواه الدائمة، وبخاصة في سني شيخوخته التي فقد فيها بصره، فعزف على الأرغن عزفاً جديراً بالإكبار والتقدير،

صفحة رقم : 10337

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> جاليليو

وعزف على العود عزفاً جيداً. وأحب الرسم والتصوير، وأبدى في بعض الأحيان أسفه أنه لم يصبح فناناً. وفي إيطاليا العجيبة التي قضى فيها شبابه، ظل تيار النهضة يلفح الوجوه موحياً إلى الناس بالكمال. وحزن جاليليو لأنه لم يتيسر له أن يصمم معبداً أو ينحت تمثالاً أو يصور لوحة أو ينظم شعراً أو يؤلف موسيقى أو يقود سفينة (77)، لقد هفت نفسه إلى أن يقوم بهذا كله، وإنا لنحس حين ندقق النظر فيه أنه لم يكن يعوزه إلا الوقت. وكان يمكن تحت إي ظروف على اختلافها، أن يكون مثل هذا الإنسان رجلاً عظيماً في أية ناحية من النواحي. ونزع جاليليو في صباه، بطبيعته أو بحكم الظروف إلى صنع الآلات والعب بها.

وأرسل وهو في السابعة عشرة إلى جامعة بيزا ليدرس الطب والفلسفة وبعد سنة واحدة أنجز كشفه العلمي الأول وهو إن تآرجحات البندول، بصرف النظر عن اتساعها، تستغرق نفس الوقت. وبإطالة ذراع البندول أو تقصيره أمكنه أن ينقص أو يزيد من معدلذبذبه حتى تزامنت مع نبضه، وبهذه "البلسيلوجيا" (علم النبض) استطاع أن يقيس ضربات القلب بدقة.

وحوالي هذا الوقت اكتشف إقليدس، حيث استمع مصادفة إلى معلم يدرس الهندسة لغلمان تسكانيا الأكبر، فبداله أن منطق الرياضيات أسمى، بما لا يقاس. من الفلسفة الأسكولاستية (الفلسفة النصرانية في القرون الوسطى وأوائل عصر النهضة) وفلسفة أرسطو، اللتين تلقاهما في قاعة الدرس فانصرف خفية، وفي يمانه "مبادئ" إقليدس، إلى متابعة دروس معلم الغلمان واهتم به المعلم، ولقنه الدروس سراً. وفي 1585 ترك جاليليو جامعة بيزا دون أن يحصل على درجة وانتقل إلى فلورنسة، وبتوجيه من المعلم انصرف في ولع شديد إلى الرياضيات والميكانيكا. وبعد ذلك بعام واحد اخترع ميزاناً هيدروستاتياً ليقدر الأوزان النسبية للمعادن في سبيكة وأثنى عليه وامتدحه كلافيوس الجزويتي لبحث في مركز الجاذبية في الأجسام الصلبة. وفي تلك الأثناء انحطت موارد أبيه، وكان عليه أن يواجه الالتزام بكسب قوته بنفسه

صفحة رقم : 10338

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> جاليليو

فتقدم بطلبات للتدريس في بيزا وفلورنسة وبادوا، فرفضوا تعيينه لصغر سنه وفي 1589، بينما كان هو وأحد أصدقائه يسعيان للحصول على عمل في القسطنطينية وفي الشرق، نمت إلى علمه خلو كرسي الرياضيات في بيزا. فتقدم لشغله، وهو قليل الرجاء في الحصول عليه. وكان بعد في الخامسة والعشرين. وعين في هذا المنصب لمدة ثلاث سنوات براتب قدره 60 سكودي في العام. وكاد بهذا الراتب أن يتضور جوعاً، ولكنه استطاع أن يكشف عن نشاطه وجلده.

لقد اشتد عوده إلى حد كبير، فبدأ لفوره، من منصة التدريس، في شن الحرب على فيزياء أرسطو. لقد قال الإغريق "بأن الحركة إلى أسفل لأية كتلة من الذهب أو الرصاص أو أي جسم آخر يهبط نتيجة تنقله، أسرع بالنسبة لحجمه (78). وذهب لكريشيس (79) وليناردو دافنشي (80) إلى هذا الرأي. وفي الأزمنة القديمة نفسها ناقش هبارخس (حوالي 130 ق.م) رأى أرسطو عن هبوط الأجسام بفعل الثقل. وذهب يوانس فيليبونس (533) وهو يعلق على أرسطو "إلى أن الفرق الزمني بين سقوط جسمين وزن أحدهما ضعف وزن الآخر"، هو لا شيء البتة، أو أنه فرق ضئيل جداً لا يمكن (81) إدراكه وهنا نأتي إلى قصة مشهورة، ولو أنها محل نزاع، وردت أولاً في سيرة حياة جاليليو، التي كتبها صديقه فنشيزو فيفياني في 1654 (بعد 12 عاماً من وفاة جاليليو)، ودعيماً أنها مستقاة من كلام جاليليو نفسه.

ما كان أشد فزع الفلاسفة كلهم، حين أثبت جاليليو أن كثيراً جداً من النتائج التي استخلصها أرسطو، زائفة، عن طريق التجارب والبراهين الدامغة... من ذلك أن سرعة الأجسام المتحركة من مادة واحدة، ولكن مختلفة الوزن، ومتحركة في نفس الوسط لا تحتفظ بالتبادل بتناسب وزنها. كما قال أرسطو. ولكنها كلها تتحرك بنفس السرعة. مد الأعلى ذلك بتكرار التجارب من فوق برج بيزا، بحضور

صفحة رقم : 10339

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> جاليليو

سائر المعلمين وكل الفلاسفة والطلبة... أنه عز مكانة كرسي التدريس وحظي بشهرة أهاجت حقد الفلاسفة منافسيه عليه حتى ثاروا ضده (82). أن جاليليو نفسه لم يذكر شيئاً عن تجربة بيزا في كتاباته الباقية. كما أنه لم يرد ذكرها فيما دونه من معاصريه في 1612 و 1641 عن تجاربهما الخاصة بهما في إسقاط أجسام مختلفة الوزن من فوق البرج المائل (83) ورفضت قصة فيفياني على أنها أسطورة من نسج بعض الباحثين في ألمانيا وأمريكا. وليس من المؤكد كذلك أن زملاءه الأساتذة في بيزا استاءوا. وترك هذه الجامعة في صيف 1592، وربما كان السبب في ذلك أنه عرض عليه مركز أعلى ومرتب أكبر، فزراه في سبتمبر أستاذاً في بادوا يدرس الهندسة الميكانيكا والفلك، وقد حول داره إلى معمل دعا إليه تلميذه وأصدقائه. وتجنب الزواج ولكنه اتخذت عشيقته أنجبت له ثلاثة أطفال. ووضع جاليليو ما جمعه من أبحاث وتجارب، في كتابه "محاورات حول علمين جديدين" وذلك في أيامه الأخيرة، قبيل وفاته، ويقصد بهذين العلمين الاستاتيكا والديناميكا. وأثبت عدم قابلية المادة للفناء. وصاغ قواعد الرفع والبكرة. وأوضح أن سرعة سقوط الأجسام سقوطاً مطلقاً تزيد بنسبة

صفحة رقم : 10340

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> جاليليو

منتظمة. وقام بتجارب كثيرة على مستويات مائلة، وحاول أن يبرهن على أن أي جسم يتدحرج إلى أسفل على مستوي يمكن أن يصعد على مستوي مماثل إلى ارتفاع مماثل لسقوطه لولا الاحتكاك أو أية مقاومة أخرى. وانتهى إلى قانون القصور الذاتي (وهو أول قوانين نيوتن للحركة) -وهو أن أي جسم متحرك، يستمر بشكل غير محدود في نفس الخط بنفس معدل الحركة، ما لم تتدخل معه قوة خارجية(84) وأثبت أن أية قذيفة تدفع في اتجاه أفقي تسقط إلى الأرض في منحني قطعى مكافئ يقابل قوة الدفع وقوة الجاذبية. وحول العلامات الموسيقية إلى مسافات موجية في الهواء، وأوضح أن درجة النغم تعتمد على عدد الذبذبات التي يحدثها الوتر المعزوف في وقت محدد. وقال بأن النغمات تبدو متوافقة متألفة إذا طرقت الذبذبات الأذان في انتظام إيقاعي(85). إن خواص المادة لا تكون إلا للمادة التي يمكن معالجتها رياضياً-التمدد، الوظيفة، الحركة الكثافة. أما الخواص الأخرى-الأصوات والطعم والرائحة والألوان وما إليها، فإنها تستقر في الشعور فقط، فإذا فنيت المخلوقات الحية انمحت هذه الصفات وأبطلت(86). وروده الأمل في أن هذه "الصفات الثانوية" يمكن بمرور الزمن تحليلها إلى خواص طبيعية أولية للمادة والحركة. ويمكن قياسها رياضياً(87).

وتلك إضافات أساسية مثمرة للعلم، عوقها عدم كفاية الآلات والأجهزة العلمية. ومن ذلك أن جاليليو استخف بعامل مقاومة الهواء في سقوط الأجسام والقذائف. ولكن ما من رجل، منذ أرشميدس، أدى للفيزياء مثلما أدى جاليليو.

ب - الفلكي

كان جاليليو، في أخريات أيام إقامته في بادوا، يخصص جزءاً أكبر فأكثر من وقته للفلك. وفي 1596 كتب إلى كبلر (الذي يصغره بسبع سنين) رسالة يشكره فيها على كتابه "الكون الخفي" جاء فيها:-

صفحة رقم : 10341

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> جاليليو

إني لأعتبر نفسي سعيداً لأجد في شخصك زميلاً عظيماً مثلك، في بحثي عن الحقيقة... وسأعكف على قراءة كتابك تحذوني كل الرغبة في استيعاب ما فيه، لأنني كنت لعدة سنوات من أنصار نظرية كوبرنيكس، ولأنه (أي الكتاب) يكشف لي عن أسباب كثيرة من الظواهر الطبيعية البالغة الإبهام والتي لا يمكن فهم كنهها في ضوء الفرضية المقبولة عامة. ودحضنا لهذه الفرضية جمعت براهين كثيرة. ولكني لا أنشرها، حيث يثنيني عن نشرها حظ أستاذنا كوبرنيكس الذي حظي لدى نفر قليل من الناس بشهرة خالدة، ولكن لقي تجريحاً واستكراً من كثرة لا يحصى عيدها (لأن عدد الأغبياء كبير جداً).

وقد أتجاسر على نشر تأملاتي إذا كثرت أمثالك(88).

وأعلن جاليليو إيمانه بنظرية كوبرنيكس في محاضرة ألقاها في بيزا 1604 وصنع في 1609 أول مقراب (تلسكوب) له، وفي 21 أغسطس عرضه على السلطات الرسمية في البندقية وإليك روايته في هذه المناسبة:-
إن كثيراً من النبلاء وأعضاء السناتو، برغم كبر سنهم، صعّدوا أكثر من مرة إلى قمة أعلى كنيسة في البندقية (سان مارك) لكي يروا الأثرعة والمراكب... وهي بعيدة جداً بحيث لا بد من انقضاء ساعتين قبل رؤيتها بغير منظاري المقرّب... لأن تأثير التي يصل إلى حد أن أي جسم على مسافة خمسين ميلاً، يظهر كبيراً كما لو كان على مسافة خمسة أميال فقط... إن السناتو الذي عرف كيف نهضت بخدمته لمدة سبعة عشر عاماً في بادوا... أصدر أمراً باختياري الأستاذية مدى الحياة(89).
وأدخل جاليليو على تلسكوبه من التحسينات ما جعله يكبر الأشياء ألف مرة. وذهل لما رأى من عالم جديد من النجوم التي تبلغ عشرة أمثال ما دون عنها من قبل. وشوهد أن المجموعات الآن تحتوي على عدد كبير من النجوم لا يمكن رؤيتها بالعين المجردة، ورئي أن "بنات أطلس" ستة وثلاثون

صفحة رقم : 10342

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> جاليليو

بدلاً من سبع، وأن "كوكبة الجبار" ثمانون بدلاً من سبع وثلاثين، وظهرت "المجرة" لا كتلة سديمية، بل غابة من النجوم الكبيرة أو الصغيرة. ولم يعد القمر سطحاً أملس، بل تغضن من الجبال والأودية، ويمكن أن يفسر ضوءه في نصفه غير المواجه للشمس بأنه، بصفة جزئية، راجع إلى ضوء الشمس المنعكس من الأرض. وفي يناير 1610 اكتشف جاليليو أربعة من "الأقمار" التسعة، أو توابع المشتري. وكتب يقول: "هذه الأجسام الجديدة تدور حول نجم آخر كبير جداً، مثلما يدور حول الشمس، عطارد والزهرة، وربما غيرهما من الكواكب الأخرى المعروفة(90)" وفي يولية اكتشف دائرة زحل الذي ظنه خطأ ثلاثة نجوم. وكان نقاد كوبرنيكس قد قالوا بأنه إذا كانت الزهرة تدور حول الشمس، فلا بد أن يكون لها، مثل القمر، أوجه-أي تغييرات في النور وأشكال ظاهرية، وقالوا بأنه لا توجد أية علامة على هذه التغييرات. ولكن في ديسمبر كشف تلسكوب جاليليو عن مثل هذه الأوجه، واعتقد بأنه لا يمكن تفسيرها إلا بدوران الكوكب حول الشمس.

إننا لا نكاد نصدق، ولكن جاليليو أكد في رسالة إلى كبلر، أن أساتذة بادوا أبوا أن يؤمنوا بصحة كشف جاليليو، بل أبوا أن يشاهدوا السموات من خلال مناظيره(91). لقد سئم الحياة في بادوا وتطلع إلى مناخ علمي أفضل في فلورنسة (التي كانت الآن تتحول من الفن إلى العلم) فأطلق على توابع المشتري اسم "سيديرا مديشيا" وهو اسم كوزيمو الثاني دوق تسكانيا الأكبر وفي مارس 1610 أهدى إلى كوزيمو رسالة باللاتينية (Sidereus Nuncius) لخص فيها كشافه الفلكية. وفي شهر مايو كتب إلى سكرتير الدوق رسالة تلتهب بمثل الحماسة والزهو اللذين فاضت بهما رسالة ليوناردو إلى دوق ميلان في 1482. وعدد فيها الموضوعات التي كان يدرسها، والكتب التي يأمل أن يدون فيها ما انتهى إليه من نتائج، وتساءل هل في مقدوره أن يحصل له من سيده على وظيفة تتطلب أقل الوقت للتدريس وأكثر الوقت للبحث. وفي

صفحة رقم : 10343

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> جاليليو

يونية عينه كوزيمو "كبير الرياضيين في جامعة بيزا، وكبير الرياضيين والفلاسفة لدى الدوق الأكبر"، براتب سنوي قدره ألف فلورين، دون التزام بالقيام بالتدريس. وفي سبتمبر انتقل جاليليو إلى فلورنسة، دون أن يصطحب معه خليلته.

وكان قد أصر على لقب الفيلسوف ولقب الرياضي على السواء، لأنه أراد أن يؤثر في الفلسفة والرياضيات كليهما. وأحس، كما أحس راموس وبرونو وتلزيو وغيرهم من قبل، وكما كان يدلل بيكون في نفس هذا العقد من السنين. على أن الفلسفة (التي فهمها على أنها دراسة وتفسير في جميع مظاهرها) قد ارتمت في أحضان أرسطو، وأنه قد حان الوقت للتحرر من الأربعين مجلداً اليونانية، وللنظر إلى العالم بمقولات أكثر انطلافاً وعبور عقول مفتوحة. أنه يمكن القول بأنه وثق بالعقل ثقة كبيرة. "إني لكي أثبت لخصومي صحة النتائج التي انتهيت إليها، اضطررت إلى أن أثبتها بتجارب كثيرة مختلفة. ولو أنني أنا وحدي لم أحس قط بأنه من الضروري أن أقوم بتجارب كثيرة (92). وكان فيه من الغرور وروح المشاكسة ما يتسم به المبتكرون المجددون، ولو أنه تحدث أحياناً في تواضع حكيم، "ما قابلت قط يوماً رجلاً جاهلاً إلا تعلمت منه شيئاً (93)". وكان مجادلاً عنيداً بارعاً في طعن غريمه بعبارة، أو سلقه بألسنة حداد. وعلى هامش كتاب للجزويتي أنطونيو روتشو يدافع فيه عن فلك بطليموس، كتب جاليليو: "جاهل، فيل، أحمق، غبي، خصي (94)".

ولكن هذا كان بعد انضمام الجزويت إلى اتهامه. وقبل اصطدامه بحكمة التفتيش كان له أصدقاء كثيرون في "جماعة يسوع" وعمد كريستوفر كلافيوس إلى إثبات ملاحظات جاليليو بملاحظاته هو نفسه. وأطنب جزويتي آخر في مدح جاليليو على أنه أعظم الفلكيين في ذلك العصر. وثمة لجنة من الباحثين الجزويت، عينها الكردينال بلارمين لفحص كشوف جاليليو.

صفحة رقم : 10344

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> جاليليو

فكتب تقريراً أيدت فيه كل النقاط (95). وعندما قصد إلى روما في 1611 أكرم الجزويت وفادته على أنه "زميل روماني" لهم. وكتب يقول: "أقمت مع الآباء اليسوعيين وكانوا قد تحققوا من الوجود الفصلي للكواكب الجديدة، ظلوا يوالون ارسادها لمدة شهرين، وقارنا ملاحظتنا وأرصادنا فوجدناها متفقة كل الاتفاق (96)" ورحب به كبار رجال الكنيسة، وأكد له البابا بول الخامس شعوره الطيب الذي لا يتغير نحوه ورضاه نعه (97). وفي إبريل عرض على المطارنة والأساقفة ورجال العلم في روما نتائج أرساده التي كشفت عن وجود البقع الشمسية التي فسرها هو بأنها سحب. ومن الواضح أن جاليليو كان يجهل أن يوهان فابريكيوس كان قد أعلن بالفعل عن كشفها في بحثه "البقع الشمسية" (ويتمبرج 1611)، واستبق جاليليو فيما استخلصه من أن "دورية" البقع تدل على دوران الشمس، وفي 1615 وجه كريستوف شينر أستاذ الرياضيات الجزويتي في أنجلوسناد، إلى ماركوس ولزر كبير القضاة في أوجزبرج، ثلاث رسائل زعم فيها أنه كشف البقع الشمسية في إبريل 1611. فلما عاد جاليليو إلى فلورنسة تلقى من ولزر نسخة من رسائل شينر، وناقشها في بحث له "ثلاث رسائل عن البقع الشمسية" نشرته أكاديمية دي لنسي في روما 1613، وزعم أنه رصد البقع في 1610، وعرضها على الأصدقاء في بادوا. وفي ملحمة ادعاء السبق إلى كشف البقع تخلخت أوامر الصداقة بين جاليليو والجزويت.

واقترعاً من جاليليو بأنه يمكن تفسير كشافه على أساس من نظرية كوبرنيكس، شرع يتحدث عن النظرية على أنها قد تم إثبات صحتها. ولم يكن لدى الفلكيين اليسوعيين أي اعتراض على اعتبارها مجرد فرضية. وأرسل شينر اعتراضاته على آراء كوبرنيكس مع رسالة يستميله ويسترضيه فيها: "إذا أردت أن تتقدم بحجج مضادة فإنها لن تسئ إلينا في شيء، بل على

صفحة رقم : 10345

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> جاليليو

النقيض من ذلك، إن كل هذا سيعيننا على إظهار الحقيقة (98)". "وأحس كثير من رجال اللاهوت أن فلك كوبرنيكس كان واضحاً كل الوضوح أنه لا يتفق مع ما جاء في الكتاب المقدس. وأن الكتاب المقدس سوف يفقد قيمته وأن المسيحية نفسها سوف تتأثر إذا انتشرت آراء كوبرنيكس. ماذا يمكن أن يصيب العقيدة المسيحية الأساسية إذا كان الله سبحانه وتعالى قد اختار كوكب الأرض مقراً (كرسياً) دنيوياً له-هذه الأرض التي يريدون اليوم أن يجردونها من مكانتها السامية ومنزلتها الرفيعة، وتوضع طليقة بين كواكب أكبر منها مرات كثيرة، وبين نجوم لا حصر لها؟"

ج - في المحاكمة

واجه جاليليو هذه المشكلة في عناد وتشدد. وفي 21 ديسمبر 1613 كتب إلى الأب كاستللي: "حيث أن الكتاب المقدس يتطلب تفسيراً يختلف عن المعنى المباشر للألفاظ (مثلما يحدث عند تحدّثه عن غضب الله، وبغضه وتأنيبه ويديه وقدميه) فإنه يبدو لي ليس للكتاب المقدس كبير شأن في حال الجدل والمنظرات الرياضية... وأعتقد أن العمليات الطبيعية التي ندرکها بالرصد الدقيق أو الملاحظة الدقيقة، أو نستنتجها بالدليل المقنع، لا يمكن دحضها أو تنفيذها بآيات من الكتاب المقدس (99). وانزعج الكاردينال بلارمين، وبعث إلى جاليليو عن طريق أصدقاء الطرفين، بعتاب قاس، وكتب إلى فوسكاريني تلميذ جاليليو يقول: "يبدو لي أنه ينبغي أن أنصحكما، أنت وجاليليو، ألا تتحدّثا بمثل هذه اللهجة القاطعة (عن الفلك الجديد وكأنه قد ثبتت صحته)، بل على سبيل الافتراض فحسب، وهو ما أنا مقتنع بأن كوبرنيكس نفسه قد فعل من قبل (100)".

وفي 21 ديسمبر 1614 بدأ توماسوكاتشيني، وهو واعظ دومنيكاني، اتخاذ تورية بارعة من أية الإنجيل "أيها الرجال الجاليليون ما بالكم واقفين تنظرون إلى السماء" (أعمال الرسل 1-11) ومضى يوضح أن نظرية

صفحة رقم : 10346

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> جاليليو

كوبرنيكس تتعارض تعارضاً تاماً لا يقبل الجدل مع الكتاب المقدس وأرسل معروضون أقل شأنًا بشكاوى إلى محكمة التفتيش، وفي 20 مارس 1615 أودع كاسيني اتهاماً رسمياً ضد جليليوني المحكمة، فكتب المونسنيور ديني إلى جاليليو أنه لم يمس بسوء إذا وضع في منشوراته بعض عبارات تشير إلى أن رأي كوبرنيكس هو مجرد فرضية (101). ولكنه أبى، كما قال، أن يعدل أو يخفف من كوبرنيكس. وفي رسالة نشرت في 1615، كتب إلى دوقه تسكانيا الكبرى يقول: "بالنسبة لترتيب أجزاء الكون، أعتقد أن الشمس قائمة دون حركة في مركز دوران الأجرام السماوية. على حين أن الأرض تدور على محورها كما تدور حول الشمس (102)، ثم مضى يمعن في الهرطقة: "إن الطبيعة عنيدة ثابتة لا تتغير، ولا تتجاوز قط القوانين التي فرضت عليها. ولا تكثر في قليل ولا كثير بأن الناس لا يفهمون أسبابها ولا مناهجها العويصة المبهمة. ومن ثم فإنه يبدو أنه ليس ثمة شيء طبيعي تضعه التجربة الحسية أمام أعيننا، أو تثبته لنا البراهين الضرورية، ينبغي أن يكون محل نزاع بمقتضى نصوص الكتاب المقدس، التي قد يكون لها معنى مختلف كامن وراء الألفاظ".

على أنه وعد بالامتثال للكنيسة:

إني أعلن (ولسوف يتضح صدقي وإخلاصي) لا مجرد أنني أقصد أن أستسلم حراً ومختاراً وأعترف بأخطائي التي يمكن أن أقع فيها في هذا النقاش، ونتيجة الجهل بأمور تتعلق بالدين، بل إنني كذلك لا أحب أن أدخل في نزاع حول هذه الأمور مع أي إنسان كان... وهدفي

صفحة رقم : 10347

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> جاليليو

الوحيد هو أنه إذا وجد من بين الأخطاء التي تكثر في بحث موضوع بعيد عن اختصاصي، أي شيء يفيد الكنيسة المقدسة في اتخاذ قرار يتعلق بمنهج كوبرنيكس، فيمكن أن تأخذه وتنتفع به، كما يخلو لرؤسائها، وإلا فليمزق كتابي ويحرق. لأنني لا أقصد ولا أزعم أن أجنبي ثماراً تجانبها التقوى والكتلة (103). ولكنه أضاف: "أنني لا أشعر بأني مضطر إلى الإيمان بأن الله الذي أمدنا بالإحساس والعقل والفكر، قصد بنا أن نضيع فرصة استخدامهما والانتفاع بهما (104)

وفي 5 ديسمبر 1615 قصد إلى روما من تلقاء نفسه مزوداً برسائل ودية من الدوق الأكبر إلى ذوي النفوذ من المطارنة والأساقفة، وإلى سفير فلورنسة في الفاتيكان. وفي روما أخذ جاليليو على عاتقه أن يحول الرجال الرسميين عن رأيهم فرادى، وعرض نزرية كوبرنيكس كلما سنحت له فرصة وفي كل مناسبة، وسرعان ما بات "كل فرد في روما يبحث في النجوم" (105). وفي 16 فبراير 1616 أصدرت محكمة التفتيش توجيهاتها إلى الكاردينال بلارمين بأن يستدعي من يدعى جاليليو وينذره بأن يتخلى عن آرائه المزعومة، وفي حالة امتناعه... يعلنه أمام كاتب العدل وبعض الشهود بالأمر بالإقلاع عن تدريس آراء كوبرنيكس أو الدفاع عنها، بل حتى مناقشتها، فإذا لم يذعن لهذا يودع السجن (106). وفي اليوم ذاته مثل جاليليو أمام الكاردينال بلارمين وأعلن امتثاله للأمر (107). وفي 5 مارس أصدرت المحكمة قرارها التاريخي:

إن الفكرة التي تقول بأن الشمس تقف بلا حركة وسط الكون فكرة سخيفة، وهي من الناحية الفلسفية فكرة زائفة، وهي كذلك هرطقة لا جدال فيها، لأنها تناقض النصوص المقدسة والفكرة التي تقول بأنه الأرض ليست مركز للكون بل حتى أن لها دورة يومية، زائفة من الناحية الفلسفية، وأنها على الأقل اعتقاد خاطئ (108). وفي نفس اليوم حرمت "الجنة فهرست الكتب الممنوعة" نشر أو قراءة

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> جاليليو

أي كتاب يدافع عن النظريات الممنوعة، أما بالنسبة لكتاب كوبرنيكس، (1543) فقد حظرت استخدامه حتى يتم تصويبه. وفي 1620 أباحت للكاتوليك قراءة الطبقات التي حذف منها تسع عبارات كانت تثبت أن النظرية صحيحة. وعاد جاليليو أدراجه إلى فلورنسة وخلا إلى الدروس في داره "بللو سجارو"، وكف عن الجدل حتى عام 1622. وفي 1619 نشر أحد مرديه، ماريو جيونشي، مقالاً يجسم فيه نظرية جاليليو (المرفوضة الآن) وهي أن المذنبات عبارة عن انبثاقات في الغلاف الجوي للأرض، منتقداً بشدة آراء الجزويتي أورازيو جراسي فما كان من الحبر أو الأب الغاضب إلا أن نشر تحت اسم مستعار هجوماً على جاليليو وأشياعه. وفي 1622 أرسل جاليليو إلى المونسنيور شيزاريني في روما مخطوطة "المحلل" يرد به على جراسي وينبذ في مجال العلم أي استشهاده أو مرجع إلا الرصد والعقل والتجربة. وبموافقة المؤلف خفف أعضاء أكاديمية لنسي بعض عبارات قليلة. وبهذه الصيغة قبل البابا أريان الثامن أن يهدى إليه، وأجاز طبعه (أكتوبر 1623) أنه ألمع تأليف جاليليو، وإحدى روائع النثر الإيطالي والقدرة والبراعة في الجدل والمناظرة. وقيل إن البابا سر به، وأن الجزويت تضايقوا منه.

وما أن ظفر جاليليو بهذا التشجيع حتى قصد ثانية إلى روما (أول إبريل 1624) أملاً في تحويل البابا الجديد إلى الإيمان بأراء كوبرنيكس. وتلقاه أريان بالود والترحاب واستقبله ست مرات في لقاءات طويلة، وأغدق عليه الهدايا. واستمع إلى حجج كوبرنيكس، ولكنه أبى أن يرفع حظر المحكمة. وقفل جاليليو راجعاً إلى فلورنسة، يعزیه تصريح أريان للذوق الأكبر: "لقد غمرنا بعطفه الأبوي لوقت طويل هذا الرجل العظيم الذي تتألق شهرته في السماء كما تملأ الأرض (109)". وفي 1626 شد من عزم جاليليو تعيين تلميذه بنديتو كاتسلي رياضيًا للكروسي البابوي، وتلميذ آخر هو الأب نيقولا ريتشاردي كبير مراقبي المطبوعات، فسارع الآن لاستكمال

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> جاليليو

مؤلفه الأساسي، وهو عرض لمنهج كوبرنيكس والمنهج المعارض له. وفي مايو حمل المخطوطة إلى روما، وعرضها على البابا، وحصل على ترخيص من الكنيسة بنشرها، شريطة معالجة الموضوع على أنه فريضة وعاد إلى فلورنسة حيث راجع الكتاب وأصدره في فبراير 1632 تحت عنوان طويل "محاورة جاليلي جاليليو... حيث أنه في اجتماعات دامت أربعة أيام، نوقش فيها المنهجان الرئيسيان في العالم: منهج بطليموس ومنهج كوبرنيكس. مع عرض دون تحيز ولا تجديد، للحجج الفلسفية والطبيعية للمنهجين كليهما". وربما جلب الكتاب على مؤلفه بلايا أقل، وكسب له شهرة، لولا بدايته وخاتمته. تقول المقدمة: "إلى القارئ البصير الفطن":

منذ عدة سنوات نشر في روما مرسوم بابوي مفيد، قضى-تجنباً للنزاعات الخطيرة في عصرنا الحاضر-بفرض نطاق من الصمت المعقول على الرأي الذي نادى فيه فيثاغورس. والذي يقول بأن الأرض تدور. ومن الناس من ذكر في وقح وصفافة-أن هذا المرسوم لم ينبع من تحريات وتدقيقات تتسم بالحكمة وحسن التمييز، بل عن هوى ينم عن قلة الدراية والمعرفة، وتعالى الشكاوى بأنه يجدر ألا يتاح للمستشارين الذين ليس لديهم أية دراية بالأرصاد الفلكية فرصة التضيق على ذوي العقول المفكرة المتأملّة عن طريق قوانين الحظر المتهورة الطائشة(110).

والحق أن في هذا إشارة للقارئ بأن صيغة الحوار تتسم بالمرأوة تملصاً من محكمة التفتيش. وكان في الحوار شخصيتان هما سلفياتي وساجريو، وهذان اسمان لاثنين من أصدق أصدقاء جاليليو، وهما يدافعان عن منهج كوبرنيكس، وشخصية ثالثة-سمبلشيو، بدحضه، ولكن في مغالطة صريحة واضحة، وقرب نهاية الكتاب أورد جاليليو على لسان سمبلشيو عبارة، كان أزرمان الثامن قد أصر على إضافتها. وهي بالحرف الواحد تقريباً:

"إن الله هو القوي وهو على كل شيء قدير، ومن ثم لا يجوز أن نقدم المد

صفحة رقم : 10350

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> جاليليو

والجزر دليلاً ضرورياً على حركتي الأرض لأننا بذلك نحد من سعة علم الله وقدرته" وعلى هذه العبارة يلحق سلفياتي تعليقاً ساخراً فيقول: "أنها وأيم الحق حجة إنجيلية ممتازة"(111).

أن الجزويت للذين تناولت "المحاورات" كثيراً منهم في لهجة قاسية (جاء فيها أن أفكار شينر عقيدة تافهة)، وأوضحوا للبابا أن عبارته سالفة الذكر أوردت على لسان شخصية أبرزها الكتاب ساذجة غافلة، فعين أريان لجنة لفحص الكتاب، وقررت اللجنة أن جاليليو لم يتناول نظرية كوبرنيكس على أنها فريضة، بل على أنها حقيقة، وأنه حصل على الترخيص بنشر الكتاب نتيجة لتحريفات وتشويهات بارعة، وأضاف الجزويت إلى ذلك، عن حكمة وبصيرة، أن نظريات كوبرنيكس وجاليليو أشد خطراً على الكنيسة من هرطقات لوثر وكلفن. وفي أغسطس 1632 حظرت المحكمة الاستمرار في بيع كتاب "المحاورات" وأمرًا بمصادرة النسخ الباقية. وفي 23 ديسمبر دعت جاليليو للمثول أمام مندوب الحكومة في روما. وتوسل أصدقاؤه إلى ألي الأمر أن تشفع له لديهم سقامه وشيخوخته (68 عاماً)، ولكن على غير طائل. وبعثت ابنته إليه وكانت وقتئذ راهبة متحمسة بخطابات مؤثرة ترجوه فيها أن يمثل للكنيسة، كما نصحه الدوق الأكبر أن يذعن، وزوده بمحفة الدوق الأكبر، ودير مع سفير فلورنسة أمر إقامته في السفارة. ووصل جاليليو إلى روما في 13 فبراير 1633.

وانقض شهران قبل أن تدعوه محكمة التفتيش إلى المثول أمامها (12 أبريل) واتهم بنقض عهده بالالتزام بقرار 26 فبراير 1631، وحثوه على الاعتراف بذنبه، فرفض محتجاً بأنه لم يقدم آراء كوبرنيكس إلا على أنها مجرد فرضية، وظل سجيناً في قصر المحكمة حتى 30 إبريل، وهناك انتابه المرض، ولم يعذبه، ولكنهم ربما أشاعوا في نفسه الخوف من التعذيب. وفي مثوله الثاني أمام اللجنة اعترف في ذلة وخشوع أنه أورد آراء كوبرنيكس بشكل أكثر

صفحة رقم : 10351

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> جاليليو

انحيازاً إليه منه ضده، وعرض أن يصحح هذا في "حوار" يلحق بالأول. فرخصوا له بالعودة إلى دار السفير. وفي 10 مايو أعادوا التحقيق معه، وعرض أن يكفر عن خطيئته، وتوسل إليهم أن يرحموا شيخوخته واعتلال صحته. وفي التحقيق معه للمرة الرابعة (21 يونية) أكد أنه بعد قرار 6116 "لم يعد يخامرني أي شك، وأمنت، ولا زلت أوّمن، برأس بطليموس-أن الأرض لا تدور، وأن الشمس هي التي تدور-على أنه حق كل الحث، ولا يقبل الجدل"(112)، فاعترضت المحكمة بأن معارضات جاليليو أوضحت، بما لا يدع مجالاً للشك، أنه يقرأ آراء كوبرنيكس، وأصر هو على أنه كان ضد هذه الآراء منذ 1616. وظل البابا على اتصال بالتحقيق، ولو أنه لم يشهده بشخصه. وكان جاليليو يأمل بأن يمد له أريان الثامن يد العون، ولكن البابا رفض التدخل. وفي 22 يونيه أصدرت المحكمة قرارها بإدانته بالهرطقة والتمرد والعصيان. وعرضت عليه الغفران شريطة تأدية القسم علناً أمام الجمهور بالتخلي عن آرائه، وحكمت عليه "بالسجن في هذه المحكمة لمدة تحددها هي وفق مشيئتها" ورأت للتكفير عن ذنبه أن يتلو مزامير الكفارة السبعة كل يوم طيلة السنوات الثلاث التالية، وجعلوه يجثو ويبرأ من نظرية كوبرنيكس، ويضيف:

بلقب مخلص، وإيمان صادق، ألعن أبغض وأعلن التخلي

عن الأخطاء والهرطقة المنسوبة إليّ، وبصفة عامة، عن

أي خطأ وهرطقة أخرى أخاف فيها... الكنيسة المقدسة.

وأقسم أنني لن أذكر بعد اليوم أي شيء قد يثير مثل هذا الريب

حولي، وأني إذا عرفت أي هرطيق أو أي شخص مشتبته

في أنه هرطيق فلا بد أن أبلغ عنه هذه المحكمة.... وأدعو

الله أن يمنحني العون، وأرجو أن تساعدني هذه الكتب المقدسة

التي أضع يدي عليها(113).

صفحة رقم : 10352

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> جاليليو

ووقع على الحكم سبعة من الكرادلة، ولكن البابا لم يصدق عليه(114). أما قصة أنه عند مغادرته قاعة المحاكمة غمغم متحدياً "ومع ذلك فهي تدور فعلاً". فإنها أسطورة لم يظهر لها أثر قبل 1761(115). وبعد قضاء ثلاثة أيام في سجن محكمة التفتيش، سمح له، بأمر من البابا، بالذهاب إلى قصر الدوق الأكبر في ترينيتا مونتني في روما. ثم نقل بعد أسبوع إلى مسكن مريح في قصر تلميذه السابق، رئيس الأساقفة أسكانيو بتشولوميني في سيينا. وفي ديسمبر 1633. سمح له بالانتقال إلى داره الخاصة بالقرب من فلورنسة أنه من الناحية العلمية كان لا يزال سجيناً، محظوراً عليه مغادرة مسكنه، ولكنه كان حراً في مواصلة دراساته، وتعليم تلاميذه، وتأليف كتبه واستقبال زائريه-وهنا زاره ملتون في 1638. وجاءت ابنته الراهبة لتقييم معه. واحتملت هي نفسها عقوبة تلاوة المزامير السبعة.

د - الشيخ الجليل

واضح أن جاليليو كان الآن رجلاً متهدماً مغلوباً على أمره، أذلته كنيسة أحست بأنها وصية على بني البشر وأمالهم وأخلاقهم، أن تخليه عن آرائه بعد قضاء عدة شهور في السجن، وعدة أيام في المسائلة والمحاكمة، مما كان من الجائز أن يحطم عقل مكافح شاب كما يحطم إرادته، نقول أن هذا التخلي كان أمراً يمكن التجاوز عنه لدى شيخ هرم علق بذاكرته إحراق برونو قبل ذلك بثلاثة وثلاثين عاماً ولكنه في الواقع لم يهزم فقد انتشر كتابه في كل أنحاء أوروبا في أكثر من عشر لغات ترجم إليها. ولم يمح أثره.

وخفف من أحزانه وآلامه في سيينا وفي أروستري اشتغاله بتخليص أبحاثه الفيزيائية في مؤلف ضخّم آخر: "محاورات... حول علمين جديدين". ولما كانت أبواب المطبعة الإيطالية موصدة دونه بمقتضى الحكم الذي صدر ضده، فإنه أجرى مفاوضات سرية مع طابعين أجانب، وانتهى الأمر بأن مطبعة الزفير أصدرت الكتاب في ليدن 1628. وهلت له دنيا العلماء على أنه سما

صفحة رقم : 10353

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> جاليليو

بعلم الميكانيكا إلى مستوى لم يبلغه من قبل. وبعد صدوره، كعف جاليليو على إعداد محاورات إضافية درس فيها ميكانيكا القذف أو الإطلاق، وأشار إلى ما جاء به نيوتن فيما بعد في قانونه الثاني عن الحركة. ويقول أول مؤرخي سيرة جاليليو: "في أخريات أيام حياته، وفيما كان يعاني كثيراً من اعتلال صحته، كان عقله مشغولاً دوماً بالمسائل الميكانيكية والرياضية (116)، وفي 1637 وقيل أن يفقد بصره، أعلن عن آخر كتوفه الفلكية، نودان أو ميسان القمر- تغيرات جانبه المواجه للأرض دائماً. وفي 1641، وقبل وفاته ببضعة شهور قلائل، شرح لابنه طريقة صنع ساعات ذات البندول.

إن اللوحة التي رسمها له سوسترمان في أسترني (والموجودة الآن في قاعة بيتي) هي العبقرية مجسمة: جبهة عريضة، وشفتان مشكستان مولعتان بالجدل والمناظرة، ونف دقيق، وعينان حادثان، ونافدتان، وهذا وجه من أكرم الوجوه في التاريخ. وفقد الشيخ الجليل بصره في 1638. وربما كان التحديق المجهد سبب ذلك، وكان يجد شيئاً من العزاء في اعتقاده بأن أحداً من بني الإنسان من عهد آدم، لم يرَ أكثر مما رأى هو، فهو يقول: "إن هذا الكون الذي وسعت فيه وكبرته ألف مرة، تقلص الآن وانحصر في نطاق جسمي الضيق، هكذا أراد الله، ولا بد أن أريد هذا أنا أيضاً (117). وفي 1639 حين كان يعاني من الأرق ومن مائة من الألام الأخرى رخصت له محكمة التفتيش في زيارة فلورنسة، تحت مراقبة دقيقة، ليرى أحد الأطباء ويحضر القداس. فلما عاد إلى أسترني، أملى على فيفياني وتورشلي، وعزف على العود حتى فقد سمعه كذلك. وفي 8 يناير 1642، وكان قد قارب السابعة بعد الثمانين، فاضت روحه بين أيدي حواريبه.

وأطلق عليه جرونتيوس "أعظم عقل في كل العصور" (118). وثمة شيء من القصور في العقل والخلق بطبيعة الحال. فأخطأه- الغرور والزهو والانفعال والخيلاء- إن هي ببساطة إلا عشرات مناقبه أو ثمنها: الثبات

صفحة رقم : 10354

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> العلم في عصر جاليليو -> جاليليو

الشجاعة، والأصالة. ولم يعترف بأهمية حسابات كيلر في مدارات الكواكب وكان يتراخي في الاعتراف بقيمة أعمال معاصريه، وقلما تحقق، كم من كتوفه في الميكانيكا كانت قد أنجزت قبله. لقد أجرى بعضها رجل آخر من فلورنسة إسمه ليوناردو. ولكن الآراء التي عوقب من أجلها ليست هي بالضبط ما يعتنقه الفلكيون اليوم، ومثله مثل معظم الشهداء تحمل أن يكون الصواب خطأ-ولكنه لم يكن على خطأ في إحساسه بأنه خلق في الديناميكا علماً كاملاً، وأنه وسع العقل البشري وزاد من قدرة الناس على رؤية الأشياء وفقاً لعلاقاتها الصحيحة وأهميتها النسبية، بفضل إبرازه، بمقياس أكبر كثيراً عن ذي قبل، أن الكون واسع سعة رهيبه. وشارك كيلر شرف تقبل الناس لآراء كوبرنيكس، كما شارك نيوتن شرف إظهار أن السماء نفسها تفصح عن عظمة القانون. ثم أنه، بوصفه من أفضل أبناء عصره النهضة، مكتب أحسن نثر إيطالي في زمانه.

وانتشر أثره حتى عم كل أوربا. إن إدانته هي التي رفعت مكانة العلم في البلاد الشمالية، على حين حطت من قيمته لفترة قصيرة في إيطاليا وأسبانيا وليس معنى هذا أن محكمة التفتيش حطمت وقضت على العلم في إيطاليا، فإن

توشللي وكاسيني وبورللي وربدي وماليجي ومورجاني حملوا المشعل إلى فولتا وجلفاني وماركوني، ولكن العلماء الإيطاليين الذين علقت بأذهانهم قصة جاليليو اجتنبوا التورطات الفلسفية في العلم. وبعد إعدام برونو حرقاً وبعد تخويف ديكارت وتهديده بمصير جاليليو، باتت الفلسفة في أوروبا احتكاراً بروتستانتياً. وفي 1835 حذفت الكنيسة مؤلفات جاليليو من قائمة الكتب المحظورة وانتصر الرجل المحطم المقهور على أقوى النظم في التاريخ.

صفحة رقم : 10355

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> الشكاكون

الفصل الثالث والعشرون

الفلسفة تولد من جديد

1564 - 1648

1- الشكاكون

في ظل صراعات الدولة القومية، والقوى الاقتصادية، والأحزاب السياسية، وتنوع المذاهب الدينية، وفي غمرة هذا كله، بدأت تتشكل المسرحية الأساسية في التاريخ الأوروبي الحديث، وما هي إلا نضال من أجل الحياة جهدت فيه ديانة عظي، ضيق عليها الخناق واستنزف قوتها، العلم والطائفية والأبيقورية والفلسفة. هل المسيحية في الطريق إلى الفناء؟ أو هل الديانة التي أمدت المدينة الغربية بالأخلاق والشجاعة والفن تعاني انحلالاً بطيئاً، بفعل انتشار المعرفة واتساع الأفاق الفلكية والجغرافية والتاريخية، والتحقق من الشر في التاريخ والنفس، وتخلخل الإيمان بالحياة الآخرة وضعف الثقة في حسن توجيه العالم؟ وإذا كان الأمر كذلك، فهذا هو الحديث الأساسي في الأزمنة الحديثة، لأن الديانة هي روح المدنية، والمدنية تقنى بفناء عقيدتها. ولم تعد القضية في نظر برونر وديكارت، وهوبز وسبينوزا، وباسكال وبل، وهلباخ وهلفيش، وفولتير وهيوم، لينتز وكانت، قضية كتلكة ضد برتستانتية، بل قضية المسيحية نفسها، قضية الشك والرفض والإنكار- لأعز الأساسيات في العقيدة القديمة. أن مفكري أوربا- وهم طلائع العقل الأوروبي- لم يعودوا يناقشون سلطة البابا، بل كانوا يناقشون وجود الله.

وثمة عوامل كثيرة أدت إلى الكفر. إن مبدأ المحاكمة العقلية أو تكوين

صفحة رقم : 10356

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> الشكاكون

رأي خاص، وهو المبدأ الذي اتهمته الكنيسة الكاثوليكية وأدانته لأنه يدعو إلى الفوضى المذهبية والأخلاقية، نادى به وأقرته كل الهيئات البروتستانتية تقريباً، ثم شجبهه وأدانتها فيما بعد، وفي الوقت نفسه قوض هذا المبدأ أركان العقيدة. أن الشيع المتزايدة قاتلت بعضها بعضاً، وكأنها ذراري بالغة الكثرة، وفضحت مطالب بعضها بعضاً، وتركت الديانة عارية في مهب رياح العقلانية. وأهابت هذه الفروق والشيع لنصرتها في أثناء صراعها، الأسفار المقدسة والعقل كليهما. ودعت دراسة الكتاب المقدس إلى الشك في معانيه وفي عصمته من الخطأ. وأنهى اللجوء إلى العقل عصر الإيمان. وحقق الإصلاح البروتستانتي أكثر مما كان يصبو إليه. وأضربت بصورة خاصة، حملات النقد الذي أنصب على الكتاب المقدس، بالمذهب البروتستانتي الذي أقيم في طيش وتهور على كتاب مقدس منزل من عند الله. إن التحسينات التي أدخلت على النظام الاجتماعي وأمن الناس، خفتت من الإرهاب والقسوة، وأحس الناس أنهم لا بد لهم أن يدركوا أن الله سبحانه وتعالى أرحم وألطف مما صوره لهم بولص وأوغسطين وليولا وكلفن، ولم تعد الجحيم والقضاء والقدر أموراً يمكن تصديقها، وأجرت الأخلاقية الجديدة اللاهوت القديم. وهياً نمو الثروة لانتشار نزعة حياة أبيقورية التمس لها فلسفة تبررها. إن كارثة الحروب الدينية انصبت على رأس الديانة نفسها فكانت هي ضحيتها. إن ازدياد المعرفة بالأخلاق والفلسفات الوثنية. وبالعبادات والطقوس الآسيوية أثار مقارنات محيرة بالمسيحية. ألم نسمع أرزم يدعو ويتوسل إلى "القديس سقراط" ألم نر مونتيني يرجع المذاهب الدينية إلى أحداث الجغرافيا وإلى حكم الحروب؟ وكشف تقدم العلم عن عمل "القانون الطبيعي" في كثير من الحالات، ومثال ذلك مسار المذنبات الذي رأت فيه الديانة يد العناية الإلهية. ووجدت الطبقات المتعلمة أنه من الصعب عليها أن تصدق أو تؤمن بالمعجزات على حين ابتهج وفاخر بها غير المثقفين. ثم هذه

صفحة رقم : 10357

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> الشكاكون

الأرض التي تقول الأساطير الأثرية لدى العامة بأنها أحست "بأقدم الرب"، أليست كما ألمح كوبرنيكس جاليليو مجرد فقاعة ومرحلة قصيرة في هذا الكون البالغ السعة، وسعة لا يمكن تحديدها، بالنسبة للأرباب الحاسدين الحاقدين الوارد ذكرهم في سفر التكوين؟ وأين ذهب السماء، والتقلبات على أشدها حتى أنها لتغير المواقع مرتين في اليوم الواحد. وكان "الموحدون" أكثر الشكاكين اعتدالاً، وهم الذين، في إيطاليا وسويسرا وبولندا وهولندا وإنجلترا، أثاروا الشكوك حول ألوهية المسيح. وكان هناك بالفعل نفر قليل من الربوبيين الذين آمنوا بالله متمثالاً مطلقاً مع الطبيعة، وأنكروا

ألوهية المسيح، ورغبوا في أن يجعلوا المسيحية مذهباً أخلاقياً لا عقيدة دينية، وكانوا حتى تلك اللحظة مشنتين حذرين، حتى اشتد عودهم وارتفعت مكانتهم فباتوا يزعمون البلاد، كما فعل إدوارد هربرت من شربوري. ولسوف نجدهم بعد 1648، وقد ارتفع صوتهم عن ذي قبل. وأشد جراً منهم كان الأبيقوريون في ألمانيا، الذين سخروا من "يوم الحساب" الذي طال ترقبه، ومن الجحيم التي يحتمل ألا تكون رهيبة مزعجة، برغم كل شيء، ما دام أكثر الناس ابتهاجاً ومرحاً سوف يحشرون (1) فيها. وفي فرنسا أطلق على مثل هؤلاء الناس "ذوو العقول الصلبة" أو "الإباحيون" وهم الذين بدأت أساليبهم المائعة الطليقة تضيء معناها الحديث على لفظة كانت تعنى في الأصل "المفكرين الأحرار". وفي 1581 ألف فيليب دوبليسور-مورني كتاباً في 900 صفحة "حقيقة الديانة المسيحية، في مواجهة الملحدين". وفي 1623 نشر الجزويتى فرانسوا جراس كتاباً في

صفحة رقم : 10358

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> الشكاكون

أكثر من ألف صفحة من قطع الربع، حمل فيه على "الإباحيين" الذين "يؤمنون بالله شكلاً أو من أجل دين الدولة".. ولا يرتضون إلا "الطبيعة" والقضاء والقدر (2). وفي العام نفسه قدر مدرين مدمس عدد الملحدين في باريس بنحو 50 ألفاً (3)، ولكن هذه الكلمة كانت تستخدم في هاتيك الأيام بشكل فضفاض، وربما قصد بها مارين "الربوبيين". وفي 1625 أوضح جبرائيل نودي أن الشرائع التي نزل بها الوحي المقدس على "توما بمبليوس" (ملك روما الأسطوري 715-672 ق.م) على موسى، ما هي إلا خرافات ابتدعت لإقامة النظام الاجتماعي، وأن رهبان طيبة لفقوا حكايات الصراع مع الشيطان ليزيدوا من شهرتهم ويرفعوا من مكانتهم ويغذوا الجمهور الساذج. وفي 1633 نشر فرانسوا دي لاموث لافايي-سكرتير ريشيليو، ومعلم لويس الرابع عشر، الذي تولى الملك فيما بعد كتابه المسمى "محاويرات أورايزوس تابيرو"، صرح فغيه بشكوكية عامة: "إن معرفتنا هراء في هراء، وأن حقائقنا خيالات وأوهام، وأن دنيانا بأسرها... مهزلة متصلة" (5) وكان فرانسوا هذا من بين الذين ضعف إيمانهم قبل تعدد المذاهب المعصومة: "ليس في هذه العقائد التي لا حصر لها رجل لا يؤمن بأن مذهبه هو الحق، وأن غيره هو الباطل" (6). وعلى الرغم من شكوكيته تزوج في سن الثامنة والسبعين، ووافته المنية في الرابعة والثمانين وهو على فراشه. وكان، وهو متشكك فاضل، قد عكف عن معارضة الكنيسة.

وكان قدر كبير من هذه الشكوكية الفرنسية صدى سلبياً لمونتيني. ثم أضحت قوة إيجابية بناءة في شخص صديقه بيير شارون، وهو قسيس من بوردو، قام له بالطقوس الأخيرة عند موته، وورث مكتبته، وكتب في 1601 "رسالة عن الحكمة" في ثلاثة مجلدات في وصف الحكمة، ولكن قيل عن هذه الرسالة بغير حق، بأنها ت رتيب منهجي لمونتيني، ولكنها، على الأصح، رسالة مستقلة تدين بكثير من الفضل "للمقالات"، ولكنها تحمل

صفحة رقم : 10359

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> الشكاكون

طابع شخصية شارون الدمثة الوقورة. وهو يقول بأن كل المعرفة تتبع من الحواس، وهي لذلك عرضة لتقبيدات الحواس وعجزها وأخطائها الكثيرة، فليست الحقيقة من شأننا نحن. ويقول السفهاء من الناس بأن الحقيقة يثبتها قبول كل الناس لها وإن صوت الخلق من صوت الله. ولكن شارون يعتقد أكثر ما يعتقد أن صوت الناس هو صوت الجهالة، وأنه صوت الآراء التي تُلَفَّق لهم، وأن الإنسان يجب أن يشكك خاصة فيما يؤمن أكثر الناس به (7). إن الروح قوة خفية حادة تهدي تهدي، متصلة بالمخ، وظاهر أنها تفنى بفناء الجسم (8) إن الديانة تنطوي على أسرار وخفايا لا يمكن إثباتها وعلى سخافات كثيرة، وعليها يقع وزر التضحيات الوحشية والقساوات التعصبية. وإذا كان كل الناس فلاسفة (كما قد يقول فولتير فيما بعد)، يتعشقون الحكمة ويمارسونها، فلن تعود ثمة حاجة إلى الديانة، ويمكن أن تعيش المجتمعات بمقتضى علم أخلاقي طبيعي مستقل عن اللاهوت أو الدين، ويمكن أن يوجد الإنسان الفاضل، دون سماء ولا جحيم (9). ولكن إذا أخذنا في الاعتبار ما فطر عليه الإنسان بالطبيعة من شر وجهل، فإن الدين يصبح أداة ضرورية لازمة للأخلاق والنظام (10). بناء على هذا يتقبل شارون كل أساسيات المسيحية، حتى الملائكة والمعجزات (11)، وينصح الحكماء بمراعاة كل المراسم الدينية التي تضعها الكنيسة التي ينتسب إليها عن غير قصد، على أية حال (12)، ولن يكون المتشكك الحق هراطيقاً أبداً (13).

وعلى الرغم من هذه النتائج القويمة التي خلص إليها شارون فإن أحد الجزويت المعاصرين يحشره في زمرة أخطر الملحدون وأشرهم وأخبثهم (14). ولما مات شارون فجأة بالسكتة القلبية، في سن الثانية والستين (1603) قال الأتقياء بأن هذا عقاب من عند الله على كفره وإلحاده (15). قبيل وفاته أعد طبعة ثانية من كتابه، خفف فيها من الجزء الأكثر تهوراً وطيشاً، وأكد لزملائه من رجال الدين أنه إنما يقصد "بالطبيعة" الله سبحانه وتعالى،

صفحة رقم : 10360

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> الشكاكون

وعلى الرغم من ذلك وضع كتابه في عداد الكتب المحظورة. ولمدة نصف قرن من الزمان فاق كتابه مقالات "مونتيني" انتشاراً وشعبية. وطبع كتاب "محاورات" الحكمة خمساً وثلاثين مرة في فرنسا فيما بين عامي 1601-1672. وفي القرن الثامن عشر كان أثر شارون أقوى من أثر أستاذه. ولكن نفس العرض المنظم الذي جذب القرن السابع عشر الكلاسيكي، بدأ في أعين القرن التاسع عشر وعظماً كنيئاً مدرسياً، وضاع شارون وسط ما اكتشف من جديد، من تألق وبهجة في مونتيني.

صفحة رقم : 10361

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> جيوردانو برونو

1600-1548

كان كوبرنيكس قد وسع الكون. فمن ذا الذي مكن أن "يوسع الله" اليوم ويعيد التعبير عن الألوهية في لغة جديدة بهذه المجموعات من النجوم الهادئة التي لا يحصى عددها؟ أ، برونو حاول هذا. ولد برونو في نولا على بعد 16 ميلاً إلى الشرق من نابلي. وعمد باسم فلبو، وغير اسمه إلى جيوردانو عندما كان في سن السابعة عشر، دخل دير الدومنيكان في نابلي. وفيه وجد مكتبة عظيمة غنية، لا بكتب اللاهوت فحسب، بل كذلك بالكتب اليونانية واللاتينية القديمة، عن أفلاطون وأرسطو، بل حتى عن مؤلفين عرب وعبرانيين كانت قد ترجمت إلى اللاتينية. وتعلقت طبيعته الشعرية على الفرو بالأساطير الوثنية التي رسخت في فكره لوقت طويل بعد تبخر اللاهوت المسيحي. وافتتن بمذهب ديمقرييتس الذي تابعه أبيقور، وبسطه كوبرنيكس في صورة رائعة. وقرأ كتب المفكرين المسلمين ابن سينا وابن رشد، والفيلسوف اليهودي ابن جابريول. وتسرب إلى نفسه شيء من التصوف العبراني، مختلطاً بأفكار ديونسيوس الزائفة وأفكار برناردينو تلزيو عن اتحاد الأضداد في الطبيعة وفي الله،

صفحة رقم : 10362

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> جيوردانو برونو

كما تسرب إليه كذلك شيء من فكرة نيقولا (من كوزا) عن كون لا نهائي ليس له مركز أو محيط، تنفخ فيه الحياة روح واحدة. وأعجب بالتصوف الطبي النائر عند باراسلسوس وبالرمزية الروحية، وبوسائل تقوية الذاكرة عند ريموندللي، وبفلسفة كورنيليوسي أجريبا الغامضة. وعمل كل هذا على تشكيل برونو كما أشعل فيه النار البغض لأرسطو وللفلسفة النصرانية في العصور الوسطى (السكولاستية) ولتوماس أكويناس. ولكن بونو كان في دير الدومنيكان وتوماس أكويناس هو رائد الفكر عندهم. ولم يكن بد من أن يزعج الراهب الشاب رؤساءه بالاعتراضات والأسئلة والنظريات. أضف إلى ذلك أن حماسة الجنس كانت تضطرم بين جنبيه، واعترف فيما بعد بأن كل ثلوج القوقاز ما كانت لتنتقع غلته أو تطفئ شهوته، وأن ثمة علاقة دقيقة بين يقظة الجنس ويقظة العقل. وفي 1572 رسم كاهناً، ولكن الشكوك ظلت تثور بين جوانحه وتلهبه خفية. كيف يمكن أن يكون هناك ثلاثة في واحد هو الله سبحانه وتعالى؟ كيف يتسنى لكاهن مهما كانت مرتبته أن يحول الخبز والخمر إلى جسد يسوع المسيح ودمه؟ وبعد رسامته، عنفه رؤساؤه مرتين تعنيفاً رسمياً. وفي 1576، بعد أن قضى أحد عشر عاماً من الرهينة، فر فجأة من الدير، وتوارى عن الأنظار لبعض الوقت في روما. وخلص رداء الرهينة، وعاد إلى اسمه الذي عمد به، والتمس الأمان والتستر في الاشتغال بالتعليم في مدرسة للبنين في نولي بالقرب من جنوه.

وهكذا بدأت ست عشرة سنة من التجوال، سرى فيها القلق والأرق في جسمه جنباً إلى جنب مع التردد والتذبذب في عقله. وبعد أربعة أشهر قضاها في نولي، انتقل إلى سافونا، ثم إلى تورين، وإلى البندقية ثم إلى بادوا. وعاد فارتدى

ثانية ثوب الراهب الدومنيكاني ليحظى بكرم الوفاة في الأديار. ثم سار إلى برسكيا، وإلى برجامو، وعبر جبال الألب إلى شامبري حيث أستقبله

صفحة رقم : 10363

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> جيوردانو برونو

وأطعمه دير الدومنيكان. ثم إلى ليون، ومنها إلى جنيف. وهناك في معقل الكلفنية جرد نفسه من ثوب الرهينة مرة أخرى، وهناك قضى شهرين في هدوء لا يلتئم مع مزاجه، يكسب قوته بتصحيح المخطوطات والتجارب للطبع ومن بين هذه، كان نقده الخاص لمحاضرة ألقاها أحد رجال الدين الكلفنيين في جامعة جنيف. وأشار فيه برونو إلى عشرين خطأ في هذه المحاضرة. وألقى القبض على طابع النقد وحكم عليه بغرامة، أما برونو فاستدعي للمحاكمة أمام محكمة الكنيسة، فقدم اعتذاراً وصفحوا عنه. وتولاه اليأس والقنوط حين ألقى نفسه يهرب مكن شرك رقابة ليقع في براثن أخرى، فغادر جنيف وعاد إلى ليون ومنها إلى تولوز، حيث ظهر ظل عابر من التسامح في صراع الكاثوليك مع الهيجونوت، وفي تدفق اليهود المرتدين ارتداداً يسيراً من أسبانيا والبرتغال. وربما حدث أثناء إقامته (1581)، أن نشر فرانسوا سانكي في تولوز، رسالته الشكوكية "المعرفة الكريمة.... ليس ثمة شيء معروف"، وحاضر برونو لمدة ثمانية عشر شهراً في رسالة أرسطو "الروح". ولأسباب غير معروفة، وربما من أجل شهرة أوسع وأعظم، رحل برونو إلى باريس.

وكان برونو قد أحرز شهرة، لا بوصفه فيلسوفاً فحسب، بل كذلك بوصفه خبيراً في فن تقوية الذاكرة. وأرسل هنري الثالث في طلبه واستولى على الأسرار السحرية من ذاكرة طيبة. وسر الملك من دروس برونو وعينه مدرساً في الكوليج دي فرانس. واحتمل برونو في هدوء لمدة عامين، ولكنه في 1582 نشر رواية هزلية (كوميديا) تحت عنوان "حامل المشعل" يهجو فيها هجواً لاذعاً، الرهبان والأساتذة والمتحذلقين... ولندع المقدمة تتحدث: سنرون، في فوضى مشوشة، نتقاً عن النشالين، وألواناً من الزيف والخداع، ومغامرات الأوغاد، كما ترون الاشمزاز الطريف.

صفحة رقم : 10364

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> جيوردانو برونو

والحلوى. المرة، والقرارات الحمقاء، والإيمان الخاطئ والأمال المشلولة، والصدقات الشحيحة.... والنساء القويات الشكيمة (الرجوليات) والرجال المختئين.... وحب الذهب (المال) في كل مكان.

ومن ثم الحميات الربعية (الراجعة)، والسرطانات الروحية، والأفكار الهزلية، والحماقات المتسلطة... والمعرفة المتقدمة، والعمل المثمر، والصناعة الهادفة. وفي إيجاز، سترون في الرواية، أمناً تافهاً، وقدرأ ضئيلاً من الجمال، ولن تروا شيئاً طيباً أو حسناً.

ووقع على الرواية: "برونو النولي، المتخرج في أكاديمية تسمى الإزعاج" (16). وفي مارس 1583 قصد إنجلترا وكان هنري الثالث أكثر استعداداً للتوصية به خيراً لدى الآخرين منه للاحتفاظ بخدماته لديه (17)، فزوده بخطابات يقدمه فيها للسفير الفرنسي في لندن، ميشيل دي كاستلنو، سيردي لاموفيسير، وهنا بدأت أسعد اللحظات في حياة برونو. حيث أقام في قصر السفير عامين يأكل ويشرب، متحرراً من أية نفقة أو ضرورة اقتصادية أسعد اللحظات في حياة برونو. حيث أقام في قصر، وهنا أيضاً كتب بعضاً من أهم مؤلفاته، كما وجد ملجأ من العواصف التي يثيرها خلقه وشخصيته، وكان يخفف عنه مناظرته ومجادلاته مع رجل متسامح عرك الدنيا، وعرف أنه من الأفضل ألا ينظر إلى الميتافيزيقا بعين الجد. وفي هذا البيت التقى برونو بسير فيليب سدني، وأرلي لبيستر، وجون فلوريو، وأدموند سينسر، وجيرابيل هاريف وغيرهم من ألمع العقول في إنجلترا في عصر إليزابيث. إن أحاديث برونو مع هؤلاء الرجال زودته بالأسس التي بنى عليها "معرض آرائه"، وحظي بمقابلة الملكة نفسها، وأمتدحها في عبارات أخذتها عليه محكمة التفتيش فيما بعد.

صفحة رقم : 10365

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> جيوردانو برونو

وفي 1583 طلب من جامعة أكسفورد أن أذن له في إلقاء المحاضرات في قاعاتها، ووصف بهذه المناسبة، مؤهلاته في لغة باعدت إلى الأبد بينه وبين وصفه بالتواضع (18)، وحصل على الترخيص، فتحدث عن خلود الروح، وعن "الكرة السماوية المكبرة إلى خمسة أمثالها" أي عن نظرية كوبرنيكس في الكواكب. وتحداه وضايقه بالأسئلة كثير من بينهم رئيس كلية لنكولن، كما يروي برونو بطريقته الخاصة:-

هلا عرفت كيف استطاعوا أن يردوا على حججه (برونو)؟ وكيف أنه لخمس عشرة مرة، وبخمس عشرة قياساً منطلقاً، ضيق الخناق على "الدكتور" المسكين الذي صدره، لهذه المناسبة الرهيبة، بوصفه رئيساً للأكاديمية، حتى وقف حائراً كعصفور في قفص؟ وهلا علمت بأية فظاظة وأية غلظة تصرف هذا الخنزير، وبالصبر والروح الإنسانية اللتين تدرع بهما من أثبت أنه حقاً مولود في نابلي وأنه نشأ في ظل سماء أكرم وأرحب؟ وهلا عرفت كيف أنهوا محاضراته العامة (19)؟

وأطلق برونو على أكسفورد فيما بعد اسم "أرملة التعليم الصحيح"، "مجموعة من الجهل المتحلق العنيد والوقاحة، امتزجت بفظاظة خرقاء يمكن أن ينفذ معها صبر أيوب (20)".

ولكن فيلسوفنا لم يكن "أيوب". وكتب كتابه رائعة عن النجوم، ووجد من بين أهل الأرض أغبياء إلى حد لا يطاق. وأحس بأن عرضه الفلسفي لفلك كوبرنيكس كان خطوة طيبة في سبيل فهمه، وأنه كان "ناقداً لاذعاً (21)" لكل من رفضوا آراءه. ولو أن فلوريو ألفاه، بعد أن هدأ روعه "وديعاً لطيفاً (22)" وكان غروره امتحاناً لأصدقائه، مثل الريح في شراعه. وخلص على نفسه لقباً فخمة: "دكتور في اللاهوت الأكثر تطوراً، أستاذ في الحكمة الخالصة غير الضارة (23)". وكان يتمتع بخيال النابوليتاني المتعد

صفحة رقم : 10366

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> جيوردانو برونو

وفصاحته المثيرة، وحيثما ذهب كانت شمس الجنوب تجعل الدم يغلي في عروقه، "إني لأرهب نفسي وأعذبها وأقهرها، حباً في الحكمة الحقّة، وغيره على التأمل الصادق" (24).
وفي أواخر عام 1585 عاد إلى باريس، في أثر السفير الذي استدعي إليها. وحاضر في السوربون مثيراً عداوة أنصار أرسطو، كما هي العادة. وأغرته حروب العصبية ضد هنري الثالث بأن يختير الجامعات الألمانية، فتسجل في جامعة ماربرج، ولكنه رفض إلقاء المحاضرات، وعرض برئيس الجامعة وقصد إلى وتبرج، وقضى عامين يحاضر في جامعة لوتر، ولدى مغادرته لها عبر عن شكره في خطاب ملحق ودع فيه الجامعة. ولكن لاهوت رجال الإصلاح لم يرقه، فالتمس رعاية رودلف الثاني في براغ. وظنه الإمبراطور رجلاً غريب الأطوار، ولكنه منحه 300 ثيلر، وأذن له بالتدريس في جامعة هلمستد في برنزويك. وبقي سعيداً في عمله لعدة أشهر، اتهمه بعدها رئيس الكنيسة اللوثرية وأصدر قراراً بحرمانه من الكنيسة (25). ولسنا نعرف جوهر الحقيقة فيما جرى، ولكن برونو رحل إلى فرانكفورت وزبورخ ثم إلى فرانكفورت ثانية (1590-1591) حيث استقر به المقام لينشر مؤلفاته اللاتينية. وفي تلك الأثناء قبل إيداعه السجن بأمر محكمة التفتيش بعام واحد كانت فلسفته قد اكتملت، ولو أنها لم تصل قط إلى مرتبة الوضوح والترابط. أننا عند النظر في أهم مؤلفات برونو لتصدنا العنوانات التي وضعها في صيغة مقتضبة. ويغلب عليها أن تكون شاعرية مبهمّة، تذرنا بالألوان تتوقع فلسفة منهجية متماسكة، بل هي على الأرجح أفكار خيالية صالحة وانجذابات صوفية أو نشوات. وقل أن نجد في أي مؤلف آخر، اللهم إلا رابليه، هذا الخليط من النعوت والألقاب والمجازات البلاغية والرموز والخرافات والنزوات والفكاهات، والكلام المنمق والتوافه والتمجيد والسخرية وخفة الدم، مكدسة بعضها فوق بعض، في فوضى من المبادئ والأفكار الثاقبة والفرضيات.

صفحة رقم : 10367

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> جيوردانو برونو

لقد ورث برونو براءة الكتاب المسرحيين الإيطاليين والمرح الصاخب المؤذي لدى الشعراء الإيطاليين الذين يحشون قصائدهم بالفاظ إيطالية إلى جانب ألفاظ من لغة أو لغات أخرى، كما ورث هجاء برني وأرتينو اللاذع. وإذا كان المقصود بالفلسفة: القدرة على رؤية الأشياء رؤية هادئة وفقاً لعلاقتها الصحيحة وأهميتها بالنسبية، والتحفّظ أو التقييد المعقول المنطقي، والقدرة على الإحاطة بكل الجوانب، والتسامح مع كل وجهات النظر المخالفة، فإن برونو، على هذا الأساس ليس فيلسوفاً، بل أنه محارب أو مصارع، يصم أذنيه ويغشي عينيه، ليكلا تصرفه الأخطار المحدقة عن هدفه-الذي كان قبل ظهور فولتير بقرنين من الزمان-محو عار الاضطهاد وظلمته فثمة مرارة أشد من فولتير في برونو في تهكمه للمعالجة اللاهوتية المثالية للإيمان الغافل الخالي من التفكير:
إني لأقول وأكرر القول بأنه ليس ثمة مرأة توضع أمام أعين البشر، خير من الحمارية أو الحمار ليكشف بشكل أوضح عن واجب هذا الإنسان الذي.. يفتش عن ثواب يوم الحساب.. ومن ناحية أخرى، ليس ثمة شيء أشد فعالية في تردينا في هاوية الجحيم من التأملات الفلسفية والعقلانية التي تنبع من الحواس... وتتمو وتتضح في العقل البشري المتطور. فحاولوا إذن أن تكونوا حميراً، يأبها الرجال، وبأبها الذين أنتم بالفعل حمير، وادرسوا حتى تسيروا من حسن إلى

أحسن، وتحققوا هذه الغاية والمكانة اللتين لا يمكن الوصول إليهما بالمعرفة والجهود مهما عظمت، بل بالإيمان، واللتين لا يحول دونهما الجهل والأخطاء مهما كانت جسيمة ولكن يحول دونهما الكفر. وإذا كنتم بمثل هذا السلوك مقيدين في سجل الحياة فلسوف تحظون ببركة الكنيسة "المحاربة"، وبمجد الكنيسة "المنتصرة"، التي "يعيش فيها" الله" ويحكم في كل العصور.. أمين(26).

أن رؤية برونو للكون رؤية جمالية في أصلها، وهي تقدير عميق يتسم

صفحة رقم : 10368

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> جيوردانو برونو

بالتعجب والدهشة من كون لا نهائي ساطع براق. ولكنها كذلك محاولة فلسفية لتكييف الفكر البشري مع كون يشكل فيه كوكبنا الذي نعيش عليه جزءاً غاية في الصغر من اتساع لا يمكن إدراك مداه. أن الأرض ليست مركز العالم، وكذلك الشمس ليست مركزاً له، وفيما وراء العالم الذي نراه (ولم يكن هناك تلسكوب حين كتب برونو) عوالم أخرى (كما أوضح التلسكوب بعد ذلك بقليل وفيما وراء هذه العوالم الأخرى توجد عوالم أخرى أيضاً كما أثبت التلسكوب بعد تحسينه)، وهكذا إلى ما نهاية، إننا لا نستطيع أن ندرك نهاية أو بداية. وبدلاً من النجوم "الثابتة" كما ظن كوبرنيكس أنها ثابتة، فإنها تغير مواقعها على الدوام، وحتى في السموات كل الأشياء تجري. والفضاء والزمن والحركة كلها أمور نسبية. وليس هناك مركز ولا محيط، ولا ارتفاع وانخفاض. وتختلف نفس الحركة عند رؤيتها من أماكن أو نجوم مختلفة. ولما كان الزمن هو مقياس الحركة، فإن الزمن نسبي كذلك، وربما كان هناك نجوم كثيرة تسكنها كائنات حية ذكية. فهل مات المسيح من أجلهم كذلك؟ على أنه في هذا الاتساع الذي لا نهاية له، هناك بقاء ثابت للمادة، وولاء دائم محيد عنه القانون.

ولما كان الكون لا نهائياً، لا يمكن أن يكون هناك "لا نهائيان"، فإذاً يكون "الله" اللانهائي والكون اللانهائي شيئاً واحداً (وهنا قول سبينوزا "الله أو المادة أو الطبيعة")، ليس هناك "مدبر أول" كما قال أرسطو، بل هناك حركة أو طاقة متأصلة في كل جزء من هذا الكل. وليس الله عقلاً خارجياً.... والأجدر به أن يكون القاعدة الداخلية للحركة، وهي طبيعته وروحه(27). والطبيعة هي العقل الخارجي الإلهي، على أن هذا العقل ليس موجوداً في "سماة عليا" بل هو موجود في كل جزء من جزيئات الواقع.

صفحة رقم : 10369

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> جيوردانو برونو

إن العالم يتألف من عناصر دقيقة جداً ومن وحدات لا تقبل الانقسام من القوة، ومن حياة، ومن عقل بدائي (وهنا كان برونو همزة الوصل بين لوكريشيوس وليبنتر) ولكل جزء صغير فرديته القائمة بذاتها وعقله الخاص به، ومع ذلك

فإن حريته لا تعني التحرر من القانون، ولكنها تعني (كما قال سبينوزا) سلوكه وفق قانونه وطبيعته المتأصلتين الخاصتين به. وهناك في الطبيعة قاعدة التقدم والتطور،، بمعنى أن كل جزء يكافح من أجل التطور والنمو. (Entelechia أرسطو).

وهناك في الطبيعة أصداد، وقوى متعارضة، ومتناقضات. ولكن عمل الكون بأسره في "مشيئة الله" تتوافق كل المتضادات وتختفي. كذلك فإن الحركتان المتباينة للكواكب هي التي تحدث الانسجام في السموات، ووراء التنوع المحير الساحر في الطبيعة توجد هناك وحدة أروع وأشدّ عجباً، تظهر فيها كل الأجزاء وكأنها أعضاء في كائن واحد. "أنها وحدة تسحرني، فأنا بقوة هذه الوحدة حر ولو كنت مستعبداً، سعيد في غمرة الحزن، غني في حمأة الفقر، حي حتى في الموت" (28) (إني، ولو إني خاضع للقانون، أعبّر عن طبيعتي الخاصة، وبرغم أنني أقاسي فإني أجد عزاء في التحقق من أن "شر" الجزء يصبح غير ذي معنى في المشهد العام للكل). ومن ثم تكون معرفة الوحدة الأسمى هي هدف العلم والفلسفة، وهي الدواء الشافي للعقل. (الحب العقلي "لله" عند سبينوزا). إن هذه الخلاصة البسيطة لفلسفة برونو تهمل ومضاته وجنونه البطولي، وهي تنطوي على اتصال وتماسك في تفكيره مغايرين له كل المغايرة، لأنها تحتوي على متناقضات وتوكيدات جازمة، وعلى فيض من التقلبات، لا تتفق إلا مع المذاهل الكونية. وثمة مجموعة أخرى من أفكاره يمكن أن تسلكه في عداد المتصوفة المجوس. أنه تحدث عن المزايا الخاصة بكثير من الكواكب، فذهب إلى أن الأشخاص الذين يولدون "تحت تأثير" الزهرة

صفحة رقم : 10370

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> جيوردانو برونو

ينزعون إلى الحب والبلاغة والهدوء والسلام، أما الذين يولدون "تحت تأثير" المريخ فيميلون إلى النزاع والبغض. وأمن بالخصائص الخفية للأشياء والأرقام، وأن الأمراض قد تكون عفاريت، ويمكن علاجها في بعض الحالات بلمسة ملك أو لعاب ابن سابع(29).

وكان همه الأخير أنه كان يؤمل، في حال عودته إلى إيطاليا واستجواب محكمة التفتيش له، في أنه يستطيع أن يقتبس بعض قطع رشيدة من مؤلفاته يخدم بها الكنيسة فتحسبه ابنها البار. وربما راوده الأمل في أن إيطاليا لم تكن قد سمعت بكتابه الذي نشره في إنجلترا "طرد الحيوان المنتصر". والذي كان يمكن أن يفسر الحيوان الذي طرد فيه على أنه الكاثوليكية أو المسيحية أو المبادئ الدينية عامة(30). ولا بد أنه تأقت نفسه إلى إيطاليا وإلا كيف نفسر لهفته على قبول دعوة جيوفني موسنيجو للقدوم إلى البندقية معلماً له وضيافاً عليه؟ وكان موسنيجو سليل أسرة من ألمع أسر البندقية، وكان كاثوليكياً ورعاً، ولكنه كان مهتماً بالقوى الخفية، وقد أبلغوه أن برونو كان على علم تام بفروع السحر، وأنه يختزن في ذاكرته القوية الكثير من الخفايا والأسرار. وكانت محكمة التفتيش قد أعلنت منذ أمد طويل أن برونو خارج على القانون ويجب القبض عليه في أول فرصة، ولكن البندقية اشتهرت بحماية أمثال هؤلاء الخارجين على القانون، متحدية بذلك محكمة التفتيش. وعلى ذلك سارع برونو إلى مغادرة فرانكفورت في أواخر 1591 وشق طريقه عبر الألب إلى إيطاليا.

وأعد له موسنيجو مسكناً وتلقى عنه دروساً في تقوية الذاكرة. ولكن تقدم التلميذ كان بطيئاً وظن أن معلمه قد حجب عنه بعض تقاليد السحر الخفية كما أنه في نفس الوقت ارتعد فزعاً من الهرطقات التي تمثلت في الفيلسوف الثرثار القليل الحذر، وسأل موسنيجو كاهن الاعتراف إذا كان يجب عليه أن يبلغ محكمة التفتيش عن برونو، فنصحه الكاهن بالتريب حتى ينتبث من حقيقة برونو بشكل أدق. وامتثل موسنيجو لمشورة الكاهن، ولكن عندما

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> جيوردانو برونو

أعلن برونو عن عزمه على العودة إلى فرانكفورت، أبلغ موسنيجو المحكمة وفي 23 مايو 1592 وجد برونو فسه نزيلاً في سجن المحكمة في البندقية. وأوضح موسنيجو أنه "تصرف وفق ما أملاه عليه ضميره، وبأمر من كاهن الاعتراف(31). وأبلغ المتحققين أن برونو كان يعارض كل الأديان، ولو أن الكتلثة كانت أحبها إلى نفسه، ولكنه أنكر التثليث وتجسد المسيح وتحول القربان، وأنه اتهم المسيح والرسول بتضليل الناس وخداعهم بالمعجزات المزعومة، وأنه قال بأن كل الأخوة أو رجال الدين والرهبان حمير دنسوا الأرض بنفاقهم وريائهم وجشعهم وحياتهم المملوءة بالشور، وأن الفلسفة يجب أن تحل محل الديانة، وأن الانغماس في "الملذات الدنيوية" ليس خطيئة وأنه، أي برونو، أشيع شهواته قدر ما سحنت له الفرص(32)، وأن برونو كان قد قال له "أنه استمتع بالنساء كثيراً، ولو أنه لم يبلغ بعد عدد نساء سليمان(33).

وحققت المحكمة مع السجين على مهل، من مايو إلى سبتمبر 1592 ودفع بأنه كان قد كتب ما كتب بوصفه فيلسوفاً، وأنه كان يستفيد من تمييز بمبوناتزي بن "الحقين" أنه يجوز للإنسان أن يناقش، بوصفه فيلسوفاً، نظريات قبلها بوصفه كاثوليكياً. وصرح بما يساوره من شكوك في موضوع التثليث. واعترف بأنه مذنب في أخطاء كثيرة، وأبدى ندمه عليها، وتضرع إلى المحكمة وهي تعرف سقامه وعبوبه، أن تعيده إلى أحضان الكنيسة الأم وأن تزوده بما يلائمه من علاج، وأن تستعمل معه الرأفة(34). ولم تستجب المحكمة إلى شيء من هذا وأعادته إلى زنزانته لمدة شهرين آخرين وفي 30 يولييه حققوا معه مرة ثانية، واستمعوا إلى اعترافه وطلبه الرأفة وأعادوه مرة ثانية إلى السجن. وفي سبتمبر طلبت محكمة التفتيش في روما من البندقية إرسال السجين إليها. فاعترضت حكومة البندقية، ولكن المحكمة أوضحت أن برونو من مواطني نابلي، لا البندقية. ووافق السناتو على تسليمه. وفي 27 فبراير 1593 تم ترحيله إلى روما.

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> جيوردانو برونو

وكان جزءاً من إجراءات محكمة التفتيش أن تترك السجين يقبع مكتئباً حزيباً في السجن لفترات طويلة قبل التحقيق وفي أثنائه وبعده. وكادت تنقضي سنة كاملة قبل أن يمثل برونو أمام محكمة روما في ديسمبر 1593، وحققوا معه، أو قل عذبوه بالتحقيق، ثانية، في إبريل ومايو وسبتمبر وديسمبر 1594. واجتمعت المحكمة مرتين في يناير 1595 لتدرس الأوراق. وتقول أوراق المحاكمة أنه في مارس 1595 وإبريل 1596 "مثل برونو أمام كبار الكرادلة، وأنهم زاروه في زنزانته. واستمعوا له وسألوه عما يمكن أن يكون في حاجة إليه(35)"، وفي ديسمبر 1596 استمعوا إلى شكواه "من الطعام". وفي مارس 1597 استدعي للمثول بين يدي المحققين الذين "استمعوا مرة أخرى إلى ما يحتاج إليه. ولم تعرف ماذا كان يحتاج إليه، ولكن النداءات المتكررة توحى بمصاعب يتعذر وصفها، ليس من بينها هذا التسويف الطويل، المفروض أن الهدف منه هو تحطيم الروح الجياشة إلى حد الإذلال المهذب للنفس. وانقضى عام

آخر، وفي ديسمبر 1598 سمح له بورق وقلم، وفي 14 يناير 1599 استدعي مرة أخرى، وتليت عليه ثمان مسائل هرطيقية مأخوذة من كتبه. وطلبوا إليه أن يشجبها علناً، فدافع عن وجهة نظره ولكنه وافق على قبول حكم البابا في المسائل سالفة الذكر. وفي 4 فبراير قرر كليمنت الثامن وهيئة محكمة التفتيش أن هذه المقتبسات هرطيقية صريحة. ولم يرد في أوراق المحاكمة ذكر لآراء برونو في نظريات كوبرنيكس، بل أن الهرطقة انصبت على التجسيد والتثليث. وسمح له بأربعين يوماً أخرى للاعتراف بأخطائه. واستمعوا له مرة أخرى في 18 فبراير، ثم في إبريل وسبتمبر ونوفمبر. وفي 21 ديسمبر أعلن أنه لن يتراجع. وفي 20 يناير 1600 قدم إلى البابا مذكرة يدعي فيها أن المسائل الواردة في الاتهام اقتبست من مظانها بشكل خاطئ، ويعرض أن يتولى الدفاع عنها أمام رجال الدين، ويقول مرة أخرى أنه يرتضي حكم البابا. وبناء على ذلك، كما تقول سجلات المحاكمة "أصدر قداسة

صفحة رقم : 10373

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> جيوردانو برونو

البابا كليمنت الثامن أمراً باتخاذ الإجراءات النهائية في القضية... وبالنطق بالحكم، وبإحالة الأخ المدعو جوردانوس إلى المحكمة المدنية". وفي 8 فبراير استدعي المحققون برونو، وكرروا على مسامحة الاتهامات الموجهة إليه، وأبلغوه أنهم أمهلوه ثمانية أعوام ليراجع موقفه ويبيدي الندم، وأنه وافق على حكم البابا في أمر مروه عن الدين، وأن البابا قرر أنه مارق، وأن المتهم لا يزال مصراً على هرطقته، "سائراً في غيه، عنيداً، مكابراً" ومن ثم صدر الحكم بإحالته إلى المحكمة المدنية.... إلى حاكم روما، الحاضر هنا الآن ليقرر العقوبة التي تستحقها "ولو أننا نرجو جادين أن يخفف من صرامة القوانين، بالنسبة لما تعانیه من آلام، وألا يكون جزاؤك الإعدام أو بتر الأعضاء". ووقع على الحكم ثمانية كرادلة، من بينهم بلارمين. ويقول كسبار سكيوبيوس وهو عالم ألماني تحول حديثاً إلى الكاثوليكية ثم أقام في روما-أن برونو، عندما ثلي عليه الحكم، قال لقضاته: "ربما كنتم يا من نطقتم الحكم بإعدامي، أشد جراً وخشية مني أنا الذي تلقيتهم" (36).

ونقل برونو على الفور إلى سجن مجاني. وفي 19 فبراير، وهو لا يزال مصراً على موقفه، جرد من ثيابه وربط لسانه، وشد إلى خازوق من الحديد فوق ركاب ممن الحطب في "ببازاكامبودي فيوري" وأحرق حياً على مشهد من جمع غفير متعظ، وكان في الثانية والخمسين من العمر، وفي 1889، أقيم له في نفس المكان، تمثال؛ جمعت له التبرعات من مختلف أركان الدنيا.

صفحة رقم : 10374

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> فانييني وكمبالا

بعد تسعة عشر عاماً من هذا الذي أسفنا، ظهرت نزعة مماثلة، ولقيت من فورها نفس المصير.
ولد جيوليو سيزار لوسيليو فانييني في جنوب إيطاليا لأب إيطالي وأم

صفحة رقم : 10375

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> فانييني وكمبالا

أسبانية-بارود يتزوج ناراً. وبعد أن تجول فانييني في أنحاء أوروبا-كما فعل برونو-يختبر الأجواء واللاهوتيات، ويؤلف المكتب، وفيها مضام عارضة من فكر ثاقب (مثل وقلة إن الإنسان كان يوماً من ذوات الأربع) لا تمازج تتوازن مع الهراء الغامض؛ استقر به المقام في تولوز (1617)، حيث قضى-مثل برونو-عامين نعم فيها بالهدوء. ولكن أحد المترددين على محاضراته وشى به على أنه يسخر من التجسيد ويعارض فكرة وجود "إله بشري" (38). وثمة مستمع آخر، هو سيردي فرانسون-كسب ثقة فانييني واستدرجه-كما فعل موسيغو مع برونو من قبل-وأبلغ أمره إلى برلمان البلدة. فقبض عليه في 2 أغسطس 1618، لا بأمر الكنيسة؛ بل بناء على أمر من مفوض الملك العام. واستناداً إلى محاضراته اتهم بالإلحاد والتجديف، وهاتان جريمتان تعاقب عليهما الدولة. وأكد فانييني إيمانه بالله، ولكن فرانسون زعم أن السجين صرح بإلحاده وكفره أكثر من مرة قائلاً بأن "الطبيعة هي الإله الوحيد" وأقر للقضاة شهادة الشاهد، وعلى الرغم من احتياجات فانييني الصارخة، وما أظهره من تقى وورع في سجنه، صدر الحكم عليه-وهو في الرابعة والثلاثين:-

بأن يسلم إلى الجلاد، الذي يجره إلى سجاج نقال، وهو في قميصه، وحبل المشنقة حول عنقه، حاملاً فوق كتفيه إعلاناً يقول "ملحد دنس اسم الله" وعلى الحال يقوده أمام المدخل الرئيسي لكنيسة القديس ستيفن، وهناك يجثو على ركبتيه ليطلب الغفران من الله ومن الملك والعدالة، عن تجديفه وإلحاده، ثم يسوقه إلى ميدان سالين، ويشده إلى خازوق مقام هناك، ويقطع لسانه، ويشنقه، ثم يحرق جسمه ثم يترك الرماد لتذروه الرياح(65).

صفحة رقم : 10376

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> فانييني وكمبالا

ويروون أن فانييني، حين جيء به من السجن ليلقى عقابه (9 فبراير 1619) صاح معجباً "دعوني أذهب، دعوني أذهب فرحاً مبتهجاً لأموت موتة فيلسوف(39)".

كذلك ولد توماسو كمبانللا، ودم كالابريا الحار يجري في عروقه، وخفف من حرارته لبعض الوقت في دير للدومنيكان، ودرس نلزيو وامبيد وكليس؛ نبذ أرسطو، وتناول بالتحريض والتسخيف "قرار البابا بالحرمان من الكنيسة" فأودع بالسجن بأمر من محكمة التفتيش في نابلي لبضعة شهور (1591-1592) وبعد الإفراج عنه ألقى بعض الدروس والمحاضرات في بادوا، واتهم بالفسق والفجور، وهناك دون أول مؤلف هام له في الفلسفة (1594) نصح فيه المفكرين كما فعل فرانسيس بيكون بعد ذلك بأحد عشر عاماً بدراسة الطبيعة، لا دراسة أرسطو وأعد برنامجاً للعودة إلى العلم والفلسفة. ولما عاد إلى نابلي انضم إلى مؤامرة لتخليصها من نير أسبانيا. ولكن المؤامرة أخطت، وزج به في سجون الولاية لمدة سبعة وعشرين عاماً (1599-1626) وعذب اثنتي عشرة مرة، استمر التعذيب في إحداها أربعين ساعة (40). وخفف من آلام السجن بالفلسفة والشعر وتصوره للدولة المثالية، وفي قصيدته (السونيت) وعنوانها "الشعب" يعبر عن استيائه عن عجز الأهالي عن مساعدته في ثورته فيقول:

الشعب دابة لها مخ مشوش غبي، لا تعرف قوتها، ومن ثم تقف محملة بالخشب والحجارة، وتقودها يدان هزيلتان لمجرد طفل بالشكيمة واللجام، إن رفسة واحدة تكفي لتحطيم القيد، ولكن الدابة تخاف وتجن، وتفعل ما يطلبه الطفل، ولا تدرك قدرتها على إرهابه، لأن "البيع" التافه يذهلها ويربكها. وأعجب من هذا أنها تكبل نفسها وتكتم لسانها بيدها وتجلب على نفسها الموت والحرب مقابل دربهات (بنسات) يتصدق

صفحة رقم : 10377

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> فانييني وكمبالا

بها الملوك عليها من خزانتها هي. إنها تملك كل ما بين الأرض والسماء، ولكنها لا تعرف ذلك. وإذا هب إنسان لينطق بهذه الحقيقة لقتلته دون أن تغفر له ذنبه (41).

وأهم إنتاج لكمبانللا في سنوات الشقاء هذه "مدينة الشمس" التي تخيلها قائمة على جبل سيلان، وكل موظفيها صفوة مختارة - وهم قابلون للعزل - عن طريق جمعية وطنية تضم كل من بلغ العشرين من سكان المدينة، وهؤلاء الموظفون المختارون على هذا الأساس، يختارون بدورهم رئيس الحكومة، وهو كاهن يسمونه "هوه Hoh" يفصل هو ومعاونوه في كل المسائل دنيوية أو دينية. ويشرفون كذلك على زواج الجنسين، ليستوتقوا من أن النساء والرجال يتصلون بعضهم ببعض لينجبوا أحسن الذرية. إنهم حقاً يسخرون منا حين نبدي اهتماماً شديداً بنتاج الخيل والكلاب، ونهمل نسل الإنسان (41) ومن ثم ليس هنا مكان للعاهات والتشوهات. والنساء في مدينة الشمس هذه شركة بين الرجال على الشبوع في انضباط صارم، يقتضيهن القيام بتمرينات شاقة، توفر لهن بشرة صافية ومظهراً عاماً طيباً.. فإذا صبغت امرأة وجهها بالمساحيق، أو استخدمت أهدية عالية الكعبين.. كانت عقوبتها الإعدام (43) ويدرب الجنسان كلاهما على الحرب، ويكون جزاء من يهرب من ميدان القتال عند الإمساك به في عرين للأسود والدببة ليلقى حتفه (44). وكل فرد مكلف بالعمل. ولكن لمدة أربع ساعات فقط، يومياً (وينشأ الأطفال تنشئة مشتركة، ويعدون إعداداً نفسياً لاقتسام السلع وفق أسس شيوعية، أما ديانة هؤلاء الناس فهي عبادة الشمس بوصفها "وجه الإله وصورته الحية" إنهم يؤكدون أن الأرض بأسرها سوف تعيش في التنام تام مع عاداتهم وأعرافهم (45)."

وهذا البيان الشيوعي، الذي يردد صدى أفلاطون. كتبه كمبانللا في السجن حوالي 1602، ونشر في فرانكفورت أم مين في 1622. وبما كان

صفحة رقم : 10378

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> فانييني وكمبالا

البيان يعبر عن آمال المتأمرين النابوليتانيين، وربما كان سبباً في احتجاز كمبالا في السجن طويلاً، على أنه تصالح مع الكنيسة في الوقت المناسب فأفرج عنه. وقد أدخل السرور على قلب أرمان الثامن بتوكيده، على حق البابوات في حكم الملوك. وفي 1934 أرسله أرمان إلى باريس لينقذه من التورط في ثورة نابوليتانية أخرى ورعاه ريشليو وحماه. ولكن الثائر المنهوك، بعد أن استرد شبابه فارق الحياة وهو في صومعته في دير الدومنيكان (1639)، وكان يقول: "أنا الناقد-كمبالا-الذي يؤذن ببزوغ الفجر الجديد(46)".

صفحة رقم : 10379

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> الفلسفة والسياسة

4- الفلسفة والسياسة

أ - جوان دي ماريانا

1536 - 1624

كان محور السياسة في العصور الوسطى تثبيت سيطرة البابا على الملوك لجمعهم وتوحيدهم كلهم تحت رايته. أما أبرز مظاهر التاريخ السياسي الحديث فهو صراع الدول القومية التي تحررت من سلطة البابا. ومن ثم كانت أول قضية شغلت بال الفلسفة السياسية في القرن الذي جاء في أعقاب الإصلاح الديني، هي أن المفكرين الكاثوليك كانوا يطالبون باستعادة سلطان البابا، على حين طالب المفكرون البروتستانت بالقضاء على سيطرة البابا قضاءً تاماً، وكان أنصار البابوية يحاجون بأن الملكية المطلقة التي تطالب بحقوق الملوك الإلهية وتنكر كل الضوابط والقيود التي يفرضها الدين والأخلاق والقانون؛ قد تمزق إرباً إرباً، ولكن دعاة الإصلاح ردوا على هذا بقولهم بأنه ليس ثمة سلطة "فوق قومية" (تتخطى الحدود القومية) يمكن أن توثق في سعيها لتحقيق خير البشرية، بل أنها على الأرجح لا بد أن

تسعى لتدعيم قوتها الخاصة ونفعها الخاص هذا بالإضافة إلى أن الكنيسة ذات سلطة عليا تخنق كل حرية الحياة وحرية الفكر.

صفحة رقم : 10380

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> الفلسفة والسياسة

وكان الفلاسفة "السكولاسيون" في العصور الوسطى، قد استمدوا سلطة الملك- وهم في هذا يرددون رأي المشرعين الرومان- من رضا الشعب أعقاب أعقاب، لا من رضا الله، ومن ثم لا تكون ثمة سلطة إلهية للملوك، ويعزل بحق أي حاكم غير صالح، كما أن المفكرين الكلفنيين: مثل بليز وبوكانان ومؤلف "قصاص الطغيان"- أيدوا هذا الرأي أيما تأييد، ولكن اللاهوتيين اللوثريين والأنجليكانيين أيدوا حقوق الملوك الإلهية كعنصر موازنة ضروري ضد عنف الشعب ومزاعم البابا، وقالوا بوجوب الامتثال للملك حتى ولو كان ظالماً(47). وكان بين المدافعين عن سلطة الشعب كثير من الجزويت الذين رأوا في هذه النظرية وسيلة لإضعاف سلطان الملوك أمام سلطان البابا. ويحاج الكاردينال بلارمين في هذا بقوله: "إذا كانت سلطة الملك مستمدة من الشعب، ومن ثم خاضعة له، فإنه من الواضح أن تكون تابعة لسلطة البابا المستمدة من الكنيسة التي أسسها المسيح، وهي بذلك لا تخضع لغير الله. وانتهى لويس مولينا- وهو جزويتي أسباني- إلى أنه ما دام الشعب هو مصدر السلطة الدنيوية، فإنه يجوز له حقاً وعدلاً- ولكن وفق إجراءات سليمة- أن يخلع الملك الظالم(48). وجاء فرانشيسكو سواريه، وهو خير من أنجبه المجتمع المسيحي من رجال اللاهوت(49)"، فقرر هذه النظرة من جديد، مع بعض تعديلات دقيقة قاوم بها مزاعم جيمس الأول الاستبدادية، واعتنق الرأي القائل بحق البابوات في عزل الملوك. وأثار دفاع الجزويتي جوان دي ماريانا عن قتل الطغاة سخطاً عالمياً، حيث زعموا أنه شجع على قتل هنري الرابع. أن ماريانا (الذي لاحظنا بالفعل أنه أعظم مؤرخي جيله) كان من كل الوجوه شخصاً مرموقاً، اشتهر بعلمه وفصاحته وجرأته الفكرية. وفي 1599 أهدى إلى فيليب الثالث ونشر، بإذن من الرقيب المحلي الجزويتي، رسالته "الملك وتعليمه" واستبق هوبر بنصف قرن، فوصف "حالة الطبيعة" قبل

صفحة رقم : 10381

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> الفلسفة والسياسة

نشوة المجتمع، حيث عاش الإنسان آنذاك عيشة الحيوان في البرية، وتحرراً من أية قيود أو ضوابط، اللهم إلا عجزه الجثماني، لا يعترف بقانون ولا بملكية خاصة، يشبع غريزته في التماس الطعام والرفيقة. ولكن كانت ثمة منغصات في الحرية التي نادى بها روسو، من ذلك تكاثر الحيوانات الضارية الخطرة. وعمد الناس إلى حماية أنفسهم عن طريق تنظيم اجتماعي، وهو أعظم أداة اخترعت آنذاك، ووسيلة ضرورية لمقابلة أعضاء الدفاع والهجوم الفسيولوجية

التي زودت بها الطبيعة الحيوان. وبمقتضى ميثاق صريح أو ضمني اتفق أعضاء الجماعة على تفويض سلطتهم الجماعية إلى رئيس أو ملك. ولكن السيادة بقيت في الشعب، وفي معظم الأحوال تقريباً، قامت جمعية وطنية (مثل الكورتيز في أسبانيا- الجمعية التشريعية، من مجلسين) بالرقابة على السلطة المفوضة للملك أو الرئيس، واحتفظت بالإشراف على الخزينة وسنت مجموعة من القوانين كانت سيدها أعلى من سلطة الملك.

وفي رأي ماريانا أن الديمقراطية أمر مستحيل، بسبب تفاوت توزيع القدرات والذكاء بين الناس والدمار كل الدمار في تحديد السياسة عن طريق الاستفتاء(50). فالملكية المقيدة أو الدستورية أحسن أنواع الحكومات، فهي تلتئم مع طبيعة الإنسان، وتعون على بقاء الدولة. ويجب أن تكون وراثية، لأن الحكومة الانتخابية إن هي إلا مثار للفوضى في فترات دورية.

ويجب أن يكون الملك مقيداً بالقانون وبالضوابط الدينية والأخلاقية، وبحق الشعب في عزله إذا طغى. ويجب عليه ألا يغير القوانين أو يفرض ضرائب دون موافقة الشعب. "ويجب عليه ألا يقرر شيئاً بشأن الدين(51)" لأن الكنيسة فوق الدولة وينبغي لها أن تحكم نفسها، ومع ذلك فعليه أن يحمي ديانة البلد، لأنه إذا أهملت الديانة فلن تقوم للدولة قائمة(52). ويجب على الدولة أن تساند الدين في محفظته على المبادئ الأخلاقية، وتشجب مصارعة الثيران لأنها تشجع على الوحشية، والمسرح لأنه يهيج الغرائز

صفحة رقم : 10382

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> الفلسفة والسياسة

الجنسية(53)، وتتفق على العناية بالمرضى والفقراء عن طريق التوسع في إنشاء المستشفيات وتوزيع الصدقات وأعمال البر، وينبغي على الأغنياء أن يعطوا الفقراء ما ينفقونه الآن على مظاهر البذخ وعلى الكلاب. ويجب أن تكون الضرائب عالية على الكماليات، ومنخفضة على الضروريات. فإن السلع الموجودة في البلاد يمكن أن تفي بحاجات الجميع إذا أحسن توزيعها توزيعاً عادلاً(54). فالأمير الصالح يمكنه أن يحول دون تركيز الثروة، ولم تحل الملكية الخاصة محل الشيوعية البدائية إلا لأن "الجشع الفطري وضع يده على كل النعم الإلهية واستأثر بكل شيء لنفسه(55)". أن هذا نظام ضروري الآن، ولسوف تعاد الشيوعي في السماء(56).

ويجوز أن يعزل الطاغية، بل يجوز حقاً وعدلاً قتله، حتى بيد فرد، في بعض الظروف:-

من هو الحاكم الذي يمكن أن يعتبر طاغية؟.... إننا نجد بنا ألا نترك الفصل في هذا لأي فرد، أو حتى لأفراد كثيرين، إلا إذا اشترك صوت الشعب في هذا جهراً، وانضم المتفقون والمعروفون بالجديّة والرزانة إليه للتداول في الأمر... ولكن إذا جر الأمير البلاد إلى الخراب، وأساء استخدام ممتلكات الدولة أو الأفراد، وخرق القوانين العامة، وانتهك حرمة الدين، وبدأ يثبت أقدامه في صلف ووقاحة وعقوق..... وإذا لم ينس للمواطنين أن يجتمعوا لإجراء مشاورات ومداولات عامة، ولكنهم عاقدون العزم جدياً على وضع حد لهذا الطغيان- ومع افتراض أن هذا عمل بغض لا يحتمل.... فإنه في مثل هذه الحالة، إذ تقدم الفرد، مستجيباً لهذه الرغبة العامة، وعرض القيام بالقضاء على هذا الحاكم. فإنه لا أعتبر هذا الفرد أنماً ولا شريراً.... وإنما لفكرة سليمة أن يقتنع الأمراء بأنهم إذا طغوا

صفحة رقم : 10383

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> الفلسفة والسياسة

بغوا... فإنه يمكن قتلهم، لا حقاً وعدلاً فحسب، بل أن قتلهم يكون كذلك مدعاة للثناء والفخر (57).
وأعاد ماريانا إلى ذاكرة قرائه حوادث قتل الطغاة في التاريخ- هارموديوس وأرستوجيتون اللذين قتلا الطاغية همبارخوس (أثينا- القرن السادس ق.م)، وبرونوس الذي أخرج الطاغية تاركينوس من روما. وأشار إلى أن أثينا وروما، بل أن في الواقع كل أوروبا المثقفة أوروبا النثقفة خلدت ذكرهم. ولكن أوروبا خلدت ذكرهم. ولكن ماريانا كشفت عن تحيزه، برضائه إلى حد ما عن ذبح هنري الثالث بيد كليمنت منذ عهد قريب (1589):
إن هنري الثالث ملك فرنسا خر صريعاً بطعنة من أحد الرهبان يسكنين مسمومة في أحشائه. إن هذا منظر كرهه... إن جاك كليمنت دري اللاهوت في كلية الدومينكان التابعة لطائفته. وأبلغه رجال اللاهوت الذين استشارهم، أن قتل الطاغية عمل مشروع. أن موت كليمنت شرف خالد لفرنسا، كما بدا لكثير من الناس، فقد اعتبر الكثيرون أنه مات وهو جدير بالخلود، على حين أن آخرين من ذوي الحكمة البالغة والثقافة العالية استنكروا عمل ووجهوا إليه اللوم (58).
وقد نذكر أن هنري الثالث كان يناهض العصبة الكاثوليكية، وأنه أمر أعوانه بقتل هنري دوق جيز، زعيم العصبة. وكان فيليب الثاني ملك أسبانيا يؤيد العصبة، وقد أمدها ببعض المال، كما وافق على قتل إليزابيث الأولى ملكة إنجلترا، ووليم أورنج. ولم يكن لدى فيليب الثالث إي اعتراض على قتل أي عدو لأسبانيا.
وفي 1599 أمر كلوديو أكوايفا رئيس "مجمع يسوع"، بتصحيح كتاب ماريانا "الملك". ولما قتل هنري الرابع بيد رافايك (24 مايو 1610) أعلن

صفحة رقم : 10384

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> الفلسفة والسياسة

أكوايفا استنكاره بمبدأ ماريانا في قتل الطغاة (8 يولية) وحظر إدراجه في تعاليم الجزويت. وكان ماريانا في الوقت نفسه قد اعتقل، لا لتحييده قتل الطغاة، بل مت أجل احتجاجه على خفض فيليب الثالث لقيمة العملة، وتحذيره من مساوئ التضخم في رسالة قيمة "تزييف العملة" (1625). واحتمل ماريانا عناء السجن بطريقة فلسفية، وبقي على قيد الحياة بعد إطلاق سراحه. وتوفي في 1624. وهو في سن السابعة الثمانين.

ب- جان بودين

1530 - 1596

ما أشد الاختلاف بين بودين وماريانا؟ إنه لم يكن لاهوتياً له قدمان في السماء، ولم يكن مناصراً كنيئياً للعصبة، ولكن كان من هواة السياسة (مثل ميشيل دي لوبيتال، وهو من أنصار التسامح الديني، وكان مستشاراً لهنري الرابع ومن المعجبين به). ولد جان أنجرز، وربما كانت أمه أسبانية يهودية وجاء إلى باريس 1560، واشتغل بالقانون، ولكنه لم يدر عليه ربحاً. وانصرف في لهفة شديدة على دراسة الفلسفة والتاريخ. ودرس في نهم. العبرية واليونانية والألمانية والإيطالية، وكتابات ليفي وتاسيتس والعهد القديم، وشيشرون، وديكاتير دول غرب أوربا. وآمن بأن دراسة التاريخ هي بداية الحكمة السياسية. وكان أول ما قدم للطبعة "منهج لتيسير فهم التاريخ" (1566). وهو كتاب يجده الطالب تافهاً لا قيمة له ولا متعة فيه محشوا بالتميمات البلاغية، والأطناب الممل. إن العقل الفلسفي لا يتم نضجه مبكراً. لقد اعتقد بودين وهو في السادسة والثلاثين أن التاريخ يوحى إلينا بالفضيلة عن طريق الكشف عن هزائم الأشرار وانتصارات الأخيار (59)، ومع ذلك فإن الكتاب يعتبر بعد- "مقالات ميكياقللي" - أول كتاب هام في فلسفة التاريخ. وفي هذا الكتاب، وفي كتاب "الجمهورية" الذي جاء بعده- وقبل قرن ونصف قرن من ظهور فيكو ومونتكيو- نجد تفكيراً منهجياً منتظماً في

صفحة رقم : 10385

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> الفلسفة والسياسة

المناخ والسلاسة باعتبارهما عاملين من عوامل التاريخ. فالتاريخ من وظائف الجغرافيا- الحرارة، المطر، التربة، سمات السطح... أن الجغرافيا تحدد الخلق، والخلق يحدد التاريخ. وأن الناس لنتباين أخلاقهم وسلوكهم، تبعاً لحياتهم على الجبال أو الأودية، أو على شواطئ البحار. ويتميز أهل الشمال بقوة الجسم والنشاط العضلي. على حين يتميز أهل الجنوب بالحساسية العصبية وحدة الذهن. أما سكان المنطقة المعتدلة، مثل شعوب البحر المتوسط وفرنسا فإنهم يجمعون بين خصائص الشمال والجنوب، وهم عمليون أكثر من أهل الجنوب، ومفكرون أكثر من أهل الشمال، وينبغي أن تتكيف حكومة أي شعب مع خلقه الذي حددته الجغرافيا والسلاسة، والذي لا يكاد يتغير بمرور الزمن. وعلى هذا الأساس يجب أن يحكم شعوب الشمال بالقوة، وشعوب الجنوب بالدين. وفي كتاب أقل شأنًا "الرد على تناقضات مالستروا"، أسس بودين "الاقتصاد السياسي" تقريباً (60) فحلل أسباب ارتفاع الأسعار في أوربا، وناقش مساوئ خفض قيمة العملة، ودافع عن حرية التجارة، في عصر الحماية الطبيعية والإقليمية، وأكد العلاقة بين الواقع الاقتصادي والسياسة الحكومية. ولكن أروع أعماله- وهو أهم إضافة للفلسفة السياسية فيما بين ميكياقللي وهوبز- هو كتابه "الجمهورية" (1576). وقد استعمل بودين هذه اللفظة بمعناها الروماني: أي الدولة. وفرق بين الدولة والمجتمع. فالمجتمع قائم على الأسرة، التي لها أساس طبيعي في العلاقة بين الجنسين وبين الأجيال. أما الدولة فتقوم على قوة مصطنعة. وكانت الأسرة في شكلها الطبيعي، أبوية- أي أن للأب سلطة مطلقة على أزواجه وبنيه وممتلكات الأسرة، وربما أنقصت المدينة بشكل خطير من حقوق الأب. ويجب أن تخضع المرأة دوماً للرجل لأنها أضعف منه عقلاً، وفي وضعها معه على قدم المساواة إغفال خطير

صفحة رقم : 10386

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> الفلسفة والسياسة

"الطبيعة". وينبغي أن يكون للزوج على الدوام حق الطلاق، كما ورد في التوراة. وذهب بودين إلى القول بأن انهيار سلطان الأب وتخلخل انضباط الأسرة كانا بالفعل يقوضان الأسس الطبيعية للنظام الاجتماعي. لأن الأسرة، وليست الدولة، هي وحدة النظام والأخلاق ومصدرها، فإذا انهارت وحدة الأسرة والانضباط، فلن يملأ فراغها أية قوانين مهما بلغ عددها (61). والملكية الخاصة أمر لا غنى عنه لكيان الأسرة وبقيائها. والشيوعية مستحيلة لأن كل الناس ولدوا غير متساوين (62).

وكان بودين أكثر واقعية من ماريانا وروسو في مناقشته لأصل الدولة. فليس ثمة لغو وهراء حول ميثاق أو عقد اجتماعي، فقد تنشأ الجماعات القروية على شيء من مثل هذا الاتفاق. أما الدولة فقد نشأت بتغلب مجموعة من الأصوات على مجموعة أخرى، ثم أصبح زعيم الفريق المنتصر ملكاً (63). ولم ينبع إقرار القوانين من إرادة الشعب أو "سيادته" بل من القوة النظامية للحكومة،- ومن ثم فإن الملكية المطلقة أمر طبيعي، فإنها في الدولة، استمرار لسلطة الأب في الأسرة الأبوية. فلن تكون هناك سيادة لأية دولة إذا خضعت لغير قوانين الطبيعة وقوانين الله (64). وكما انتهى هوبز إلى هذه النتائج فراراً من الفوضى التي سببتها الحرب الأهلية في إنجلترا (1642-1649)، فإن بودين رأي في الحكومة الاستبدادية المخرج الوحيد من الحروب الدينية وتمزيق فرنسا، مع ملاحظة أن كتابه نشر بعد أربع سنوات فقط من مذبحه سانت برثلميو، وربما كتب بالدم الذي كان يجري أنهار في شوارع باريس. وبدا لبودين أنه إذا كانت مهمة الدولة هي المحافظة على النظام، فإن هذا لن يتسنى لها إلا عن طريق سيادة مطلقة غير قابلة للتحويل أو التخلي عنها.

صفحة رقم : 10387

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> الفلسفة والسياسة

وبناء على هذا تكون الملكية غير المقيدة، الوراثة، هي خير أنواع الحكومات: يجب أم تكون غير مقيدة حتى لا تنتهي إلى الفوضى، ووراثة تجنباً لشرور النزاع على العرش. فالملكية مثل السلطة الأبوية- سادت في معظم أنحاء الأرض، لأطول مدة من الزمن، ولقد أقرها التاريخ على حين أن الديمقراطية لم تحكم الدول إلا لفترات قصيرة فحسب، ولكنها تنهار، بسبب تقلب الشعب، وعجز الموظفين الذين يختارهم، وفسادهم وقبولهم للرشوة (65)، وفي أية جمعية شعبية يحسب عدد الأصوات دون وزنها أو تقدير قيمتها (من أجل نوعية التفكير الذي أدلى بالصوت)، فإن الحمقى والأشرار والجهال أكبر ألف مرة دائماً من عدد الرجال الذين يقام لهم وزن "وليس ثمة خلاص للديمقراطية إلا إذا تولى الحكم، وراء ستار المساواة، نفر قليل من الناس، ورجح وزن العقول عدد الرؤوس (66). واعترف بودين بأنه لا بد من إيجاد مخرج من الاستبدادية المطلقة إذا أصبح الحاكم طاغية ظالماً. فأباح حق القيام بالثورة أو قتل الطاغية، وربما كان ذلك على أساس غير منطقي. وسلم بأنه حتى ملكياته البالغة حد الكمال، لا بد أن يأتي يوم تنهار فيه، وتعزل نتيجة تعبيرات لا معدي عنها، وتتعد الحيلولة دون وقوعها. واستيق هيجل، فقسم التاريخ إلى فترات ثلاث: الأولى سيطرت فيها دول الشرق، والثانية شعوب البحر المتوسط، والثالثة أقطار شمالي أوروبا. ومن خلال تعاقب القيام أو السقوط هذا، ذهب بودين إلى القول بأنه يلحظ شيئاً من التقدم. ولا يقع العصر الذهبي في الماضي الأسطوري، بل في المستقبل الذي سيجني ثمار أعظم الاختراعات على الإطلاق- وهي الطباعة (67). وكتب (قبل بيكون بنصف قرن) أن العلوم تدخر في أعماقها كنوزاً لن تقدر على استفادها أية عصور مقبلة قط.

وكان بودين مفكراً حراً، مع نظرة كريمة بعين الاعتبار إلى الكتاب المقدس، (أو بالأحرى إلى العهد القديم، لأنه يتجاهل العهد الجديد تقريباً)،

صفحة رقم : 10388

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> الفلسفة والسياسة

مع إنكار تام لحقيقة السحر والملائكة والعفاريت والتنجيم، وضرورة إقامة دولة ملتزمة مع الخصائص الخفية للأرقام. ونادى بأقصى العقوبة للسحرة، ونصح الأمراء بالمحافظة على وحدة العقيدة الدينية لأطول وقت ممكن، ولكن إذا قويت الهرطقة وانتشرت، فليس من الحكمة قمعها بالقوة، بل إنه من الأفضل الاعتماد على عنصر الزمن لكسب الهراطقة إلى جانب الدين الرسمي.

أما ماذا عساه يكون هذا الدين، فلم يفصح عنه بودين. وكان دينه مشكوكاً فيه. وفي كتابه الغريب "حديث سبعة رجال" الذي تركه عن عمد دون أن ينشره، (طبع لأول مرة 1841)، صور كاثوليكياً ولوثرياً وكلفنياً ويهودياً ومسلماً، وأبيقورياً وروبوبياً، في مناقشة في البندقية. وفازت اليهودية، أما المبادئ المسيحية في الخطيئة الأصلية، والتثليث والتجسد فقد كان الهجوم عليها أقوى بكثير من الدفاع عنها. ولم يثبت في النهاية إلا الإيمان بالله. أن نقاد بودين اتهموه بأنه يهودي وكلفني وملحد، وقالوا بأنه مات على غير دين "كالكلب". ولكن الإيمان بالتوجيه الإلهي للعالم، واضح بأجلى بيان في "الجمهورية"، والإلحاد موضوع خارج نطاق التسامح، لأنه يهزأ بالكون (69).

وكان بودين، مثل هوبز، رجلاً هيباباً يحاول أن يتلمس طريقه إلى الهدوء والاستقرار وسط طغيان الثورة والحرب. وأصاب أعظم مؤلفاته عدوى زمانه، فكان فلسفة لعالم مضطرب معتل يتلهف على النظام والسلام. ولا يمكن أن تقارن بالحكمة المصقولة التي جاءت في "مقالات" مونتيني الذي كان أقل منه انزعاجاً في تلك السنوات ذاتها. ومع ذلك فإنه منذ عهد أرسطو ليس ثمة رجل، ربما باستثناء ابن خلدون، نشر الفلسفة السياسية على مثل هذا النطاق الواسع، أو دافع عن آرائه وأهوائه بمثل هذه القوة والعمق، مثل بودين. ولن تجد قبل ظهور "الفياتان هوبز" مثل هذه المحاولة الجادة لاكتشاف بعض المنطق في أساليب الدول.

صفحة رقم : 10389

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> الفلسفة والسياسة

ج - هوجو جروشيوس

إذا بقي ذكر هويج جروتو عالماً بالأذهان، على حين طوى النسيان تقريباً ذكر معظم الرواد الأوائل في حقله، وهو القانون الدولي فقد يرجع هذا إلى أنه عاش كما كتب، ولأنه ألف كتابه الممتاز في فترة كانت تعج بدبلوماسية نشيطة وسياسة محفوفة بالمخاطر. ولد هويج (أو هوجو) في دلفت، ودرس الرياضيات والفلسفة والقانون في ليدن. وامتدح سكاليجر أسلوبه اللاتيني وأثنى عليه، وفي السادسة والعشرين حظي بتقدير بلاده له بسبب مؤلفه "حرية البحار" (1604) الذي أوجز فيه القانون البحري، ودافع عن حرية البحار من أجل جميع البلاد، وبخاصة هولندا التي كانت تتحدى البرتغال التي ادعت احتكار الطرق البحرية إلى الشرق الأقصى. وعندما عين مؤرخاً رسمياً للمقاطعات المتحدة ألف بلغة لاتينية قاربت حد الامتياز تاريخاً جريئاً، ولكنه دقيق للثورة الكبرى، ولقد رأيناها يناضل إلى جانب مذهب التحرر الذي نادى به أرمنيوس في النزاع بين أولدنيا تقلدت وموريس ناسو. فقبض عليه واعترف بأخطائه (70) فحكم عليه بالسجن مدى الحياة. وتوسلت زوجته أن تقيم معه في السجن، فسمح لها بذلك. وبعد قرابة ثلاثة سنوات قضاها في السجن، خباته زوجته في صندوق للكتب، فهرب من المعتقل، وقصد إلى فرنسا حيث أجرى لويس الثالث عشر معاشاً ضئيلاً. وعندما صعدت ألمانيا حرب الثلاثين، ألف جروشيوس الذي كان يعاني الفقر والعوز كتابه "قانون الحرب والسلام" (1625).

صفحة رقم : 10390

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> الفلسفة والسياسة

رأيت أنه يسود العالم المسيحي نزعة إلى شن الحروب التي قد تخجل منها حتى الشعوب المتبربرة، فيفزع الناس إلى السلاح لأتفه الأسباب، أو بلا سبب، حتى إذا ما حملوا السلاح، لم يعد هناك أي احترام لقانون سماوي أو قانون وضعي، وكأنما أبيع للناس ارتكاب أية جرائم دون قيد (71). وكان مكيفلي قد ذهب إلى أن الدول لا يمكن الإبقاء أو الحفاظ عليها إلا إذا تحللت من الالتزام بالقانون الأخلاقي المفروض على مواطنيها. فينبغي على رجال الدولة - بالتقويض عادة - أن يكونوا مستعدين للكذب والسلب والقتل، قدر ما يرون أن هذا أو ذلك مرغوب فيه، من أجل مصلحة الدولة، لأن الدول، حتى تلك اللحظة تعيش في أدغال تتنازع فيها البقاء، مثلما كانت تعيش الأسرات قبل قيام الدول. وهي لا تعرف قانوناً إلا قانون "صيانة الذات". ويسلم جروشيوس بأنه يجوز إعفاء الحكومات من "القانون الوضعي" الذي سنه الإنسان، ولكنه يرى أنها ملتزمة بطاعة القانون الطبيعي ويعرف هذا القانون "الحق الطبيعي" بأنه هو أن ما "يمليه ويفرضه العقل الرشيد"، ليكشف عن الفساد الخلقى أو الضرورة الخلقية لعمل من الأعمال، باتفاق هذا العمل أو تنافره مع الطبيعة العقلانية، ومن ثم يوضح أن هذا العمل يحله الله أو يجرمه، والله هو منشئ الطبيعة أو خالقها (72). وعلى هذا يكون القانون الطبيعي هو نظام الحقوق والواجبات الذي ينبع من الطبيعة الأساسية للإنسان بوصفه كائناً عقلياً يعيش في مجتمع. فكل ما هو ضروري لوجوده وإسهامه في المجتمع حق طبيعي له، فهو ناشئ عن طبيعته وملئم لها. ويجب أن تلتزم الدول في تصرفاتها بمراعاة هذه الحقوق.

ويتابع جروشيوس كلامه فيقول بأن هذا يجب أن يكون خاضعاً "لقوانين الشعوب" التي قصد بها القانون الروماني تلك التي لم تشملها "المواطنة الرومانية"، فلما انهارت الإمبراطورية الرومانية الغربية طبقها مشرعو

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> الفلسفة والسياسة

العصور الوسطى على علاقات الدول بعضها ببعض. وهذا يصبح في نظر جروشيوس التجمع المبهم أو غير الواضح لكل القواعد والقيود التي قبلتها معظم الدول المتطورة أو النامية، بحكم العرف، في اتصالاتها المتبادلة. وعلى هذين الأساسين: القانون الطبيعي، وقوانين الشعوب، يبني جروشيوس الهيكل النظري، وهو أول صياغة حديثة لقانون دولي مرغوب فيه.

وهو بصفة عامة يحرم الحرب على الإطلاق. وهو يدرك أن الجماعة- مثل الحيوان- إذا أحست بأنها مهددة من أعز ما تملك أو في حياتها، فإنها ستدافع عن نفسها بأية وسيلة متاحة- وإذا أمكن بالحجة والبرهان أو بالقانون، حتى إذا أخفقت هاتان الوسيلتان، فأية قوة تأمرها بأمرها (73). وبناء على هذا فإن أية دولة في مثل هذه الظروف يكون لها الحق في شن الحرب دفاعاً عن حياة مواطنيها وممتلكاتهم. ولكن الحرب عمل مجافٍ للعدالة ولا يمكن تبريره، إذا شنت من أجل الغزو والفتح، أو السلب والنهب، أو من أجل الأرض، أو لرغبة صادقة أو مزعومة في فرض حكومة صالحة على شعب غير راغب فيها (74). والحروب الوقائية جائزة كذلك. نشر بعض الكتاب مبدأ لا يمكن التسليم به قط، وهو أن قانون الشعب يجيز لدولة ما أن تبدأ أعمالاً عدائية ضد دولة أخرى تثير عظمتها المتزايدة فزع الدولة الأولى. وإذا كان هذا مجرد ذريعة نفعية، فإنه إجراء يجوز اللجوء إليه، ولكن مبادئ العدالة لا تؤيده (75). ويجب أن يلتزم الأفراد بالامتناع عن الخدمة في حروب يرون بوضوح أنها جائرة (76).

فإذا افترضنا، حينذاك أن ثمة حرباً عادلة ومشروعة، فإن لكل أمة تشترك فيها حقوقاً، فلها أن تلجأ إلى الخداع والتضليل، وتثأر وتسترد الأرض، وتستولي على الغنائم، وتأسر وتستخدم الأسرى. ولكن على الأمة واجبات، مثلما أن لها حقوقاً، فيجدر بها أن تعلن الحرب قبل أن تشنها، كما تحترم أية معاهدة عقدت بشأنها، وتلتزم بمسئوليات فيها بصرف النظر عن عقدت معه. كما يجدر في حملات الغزو المحافظة على حياة النساء والأطفال

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> الفلسفة والسياسة

والمسنين، بل على الأصح، غير المحاربين عامة. ويجوز استرقاق الأسرى، ولكن لا ينبغي قتلهم. واعتبط جروشيوس لظاهرة طيبة تبشر بالتقدم، تلك أن المسيحيين والمسلمين لم يعودوا يستعبدوا أسراهم الذين على دينهم. وكانت مناقشة كريمة معتدلة برغم ما شابها من عيوب، فإذا كان "القانون الطبيعي" أمراً من إملاء "العقل الرشيد"، فمن ذا الذي يحدد أي عقل هو الرشيد؟ ففي الدولة إنما تحده الحكومة التي تملك قوة مسلحة، فأساس الامتثال بقواعد السلوك الموصى به، هو قدرة المشرع على فرضها فرضاً. فالقوة لا تؤسس حقاً بل تسن قانوناً. فالقانون الدولي ينتظر

هيئة تشريعية دولية تدعمها قوة دولية، وهو أساساً لن يتضمن إلا قيوداً متواضعة واتفاقات يمكن نقضها، قبلتها الدولة المعنية على أساس أنها ملائمة للظروف التي أبرمت فيها. وإذا عرفنا "قانون الشعوب" بأنه أعراف أكثر الشعوب تطوراً فإن هذا، مرة أخرى، يقتضي ضمناً وجود مرجع ثقة مؤهل وقادر تحديد الشعوب الأكثر تطوراً. وأين هذا المرجع الثقة؟ في أوربا؟ في الصين؟ في دولة الإسلام؟ وهل تسمح حكومة لمواطنيها أن يحكموا ويقرروا لأنفسهم أن الحرب عادلة أو غير عادلة؟ أنها تستطيع ذلك لو أن جهاز صيانة المبادئ والتوجيه فيها كان جهازاً صالحاً للوفاء بهذا الغرض.

لقد كان الكتاب غير منطقي، ولكنه كان ضرورياً. لقد شنت ألف حرب جائرة، وكان من الخير أن يفكر إنسان في اتخاذ خطوات للتخفيف من أعمال القتل التي ترتكبها الأمم المتحاربة، طبقاً لقيود مقبولة بالتبادل، ومن الخير استنكار حروب الغزو والسلب والنهب. ومن الخير أن يرتفع صوت ينادي بالرحمة لغير المحاربين والأسرى. وسخرت حرب الثلاثين سنة من هذه الامتيازات والالتماسات. ولكن عندما خفت حدة هذا الجنون المسعور، بررت حالة ألمانيا بعد الحرب كتاب جروشيوس أبلغ تبرير. أن ريشليو الذي عقد العزم على الدخول في حرب الثلاثين سنة، حبس عن جروشيوس المعاش الذي كان يتقاضاه، وأوى المؤلف المعرض للمخاطر

صفحة رقم : 10393

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> الفلسفة والسياسة

إلى همبرج. وفي 1633 أرسله أوكسنستيرنا إلى باريس سفيراً للسويد لدى فرنسا، وكلن جروشيوس - شأن معظم الفلاسفة - كان أكثر انتلاقاً من أفكاره وآرائه منه مع الناس، فكمن بغضه لريشليو، ثم لمزران من بعده، من أن يحدد دبلوماسيته. وفي 1645 عاد إلى التماس الراحة والسلوى بين كتبه. ودعته الملكة كريستينا للإقامة في بلاطها، علماً تجزل له العطاء، ولكنه حظي بموافقتها على اللجوء إلى ألمانيا. فرتبت له الملكة أمر السفر إلى لوبك، ولكن عاصفة جنحت بالقرب على الشاطئ، فعانى جروشيوس كثيراً من هول الصدمة ومن اقتضاح أمره، وقضى نحيبه في روستوك في 29 أغسطس 1645، وهو في الثانية والستين من العمر. وبعد انقضاء مائتين وسبعة وستين عاماً غفرت له هولندة "تحرريته"، وفي 1886 أقامت له تمثالاً في مسقط رأسه. وفي 1899 وضع مندوبو الولايات المتحدة إلى المؤتمر الدولي للسلام في لاهاي، على قبره إكليلاً من الفضة، اعترافاً بأن كتابه أسهم لبعض الوقت في الحد من "العبة الملوك".

صفحة رقم : 10394

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> الكاهن الأبيقوري

هلا وقفنا، ونحن نمضي في طريقنا إلى ديكرات، وقفة أخيرة، لنفكر ملياً في سر الكاهن الكاثوليكي الذي أحيا مادية أبيقور. فكان من مظاهر التطور العقلي في أوروبا أن فيلسوف اللذة اليوناني الذي ظل اسمه لعدة قرون مرادفاً، "للكفر والإلحاد"، يلقي الآن، وفي غمرة النور المتزايدة من أرسطو، تكريماً وتشريفاً على يدي كاهن ورع لا عيب فيه، نباتي مات من فرط تشدده في الإمساك أيام الصوم الكبير.

بدأ بيير جاسندي حياته ابناً لأحد الفلاحين بالقرب من دير في بروفانس، وأظهر من حدة الذهن والشغف بالمعرفة ما هيا له وهو في السادسة عشرة

صفحة رقم : 10395

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> الكاهن الأبيقوري

الاشتغال بتعليم "الأدب"، وفي الخامسة والعشرين تدريس الفلسفة في جامعة أكس. ورمم كاهناً، وأصبح قسيساً ورئيساً لكاتدرائية دين. وفي تلك الأثناء كان قد فرغ من تأليف كتاب يتسم بالانفعال والثورة على أرسطو "تمرينات التناقض". وقد أحرق معظم الكتاب بناء على نصيحة الأصدقاء، ولكن الأجزاء التي نشرها منه في 1624 نمت عن تأييده "الفلك" كوبرنيكس، و "نزية" لوكريشس و "فلسفة" أبيقور. وهنا كانت دعوة صارخة للاستشهاد. ولكن بيير كان شاباً لطيف المعشر، متواضع السلوك مواظباً على واجباته الدينية، إلى درجة يبدو معها أن أحداً لم يفكر في إحقاقه. أنه أعلن طوال حياته عن إيمانه بنظرية "الحقيقتين". أن الفلسفة يمكن أن ترضي النتائج التي يفرضها العقل بوضوح، على حين أنه في الدين قد يظل المرء يتبع العقيدة والطقوس بحجر واحد.

وبناء على طلب من مرسن صديق ديكرات، قدم بيير عدة اعتراضات قوية على فلسفة ديكرات ويحسن أن نؤجلها، وفي 1645 عين أستاذاً للرياضيات في "الكلية الملكية" في باريس، ولكنه سرعان ما أصيب بالتهاب رئوي، فعاد إلى جو دين الأكثر دفئاً. وهناك كتب أعظم مؤلفاته، وكلها تدور حول أبيقور: "الحياة السعيدة في نظرية أبيقور" (1647) و "حياة اللذة عند أبيقور" (1649) وكتاب يقع في 1600 صحيفة على نهريين "مبادئ فلسفة أبيقور" (1649).

وبينما واصل بيير تثبيت عقيدته الكاثوليكية، شرح لقرء اللاتينية فلسفة كل من أبيقور ولوكريشس-المادية والشرعية وشرعية اللذة أبيقور. أن "علة الأولى" لكل شيء هي "الله"، ولكن بعد هذه الدفعة الأولى (التي استهل بها كل شيء وجوده) وأصل كل شيء مسيرته أو تقدمه بفعل قواه وقوانينه الفطرية المتأصلة فيه. وكل معرفة تنبع من الحواس، وهي ذات وجود فردي.

صفحة رقم : 10396

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> الكاهن الأبيقوري

أما "الكليات" أو الأفكار العامة، فهي أدوات نافعة للفكر، ولكن ليس لها ترابط موضوعي. وليس من شك في أن الروح غير مادية، وخالدة، ولكنها تبدو معتمدة على الجسم وواضح أن الذاكرة من وظائف المخ، وليست اللذة الحسية لا أخلاقية إذا اتسمت باعتدال حازم. ولكن أقل الملذات تغريزاً وغدراً هي ملذات الذهن، فإن الرياضيات مثلاً قد يترتب لها الإنسان ويتهجج بها. وكان جاسندي نفسه بطبيعة الحال "أبيقورياً"، أي أنه ارتضى فلسفة أبيقور، ولكنه لم يغمس في اللذة الحسية، بل على النقيض من ذلك، اتسمت حياته باعتدال بالغ. وانتابته الحمى بعد صوم طول أكثر مما ينبغي. وأجهز عليه أطباؤه بصفده ثلاث عشرة مرة (1955).

وكان مولبيري وسيرانودي برجرانك من بين مريديه في باريس. وارتضى فوننتل سانت أفرموند ونيون دي لنكلوس فلسفته دون لاهوته. وأفاد هويز من أحاديثه معه. وربما أخذ بعض عناصر علم النفس الحسي، عن طريق تلميذ جاسندي وصديق لوك، فرانسوا برنييه الذي نشر "موجز فلسفة جاسندي" في 1678. وأثر نيوتن "ذرات" جاسندي على "جسيمات" ديكارت، ووجد عند كاهن بروفسال تلميحاً إلى الجاذبية وفكرة غامضة عنها (77). وفي القرن الثامن عشر هيأت المادية الكامنة في جاسندي وتوكيده على العلم والتجريب مقابل منطق أرسطو وميتافيزيقا ديكارت. نقل هياً له هذا وتلك، بين الفلاسفة الفرنسيين، مكانة أرفع من مكانة أي مفكر فرنسي آخر، باستثناء ديكارت. إذن ما هذا الذي جعل من ديكارت لمدة قرن من الزمان معيناً لا ينضب للفلسفة الحديثة؟

صفحة رقم : 10397

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> رينية ديكارت

6- رينية ديكارت

1596 - 1650

أزول ما نذكره نع ديكارت أنه تلقى تعليمه على أيدي الجزويت. وكان هذا التعليم نقطة البداية وجحر الشدح عند كل الهراطقة الفرنسيين، ابتداء

صفحة رقم : 10398

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> رينية ديكار

من ديكار ثم فولتير، ورينان وأناتول فرانس "بين جدران المعبد صنعت المعاول التي تحطم بها المعبد" (78). ولد في لاهاي، وهي بلدة صغيرة بمنطقة التورين بفرنسا. وماتت أمه بالسل بعد ولادته بأيام قلائل، وورث عنها المرض. وكان في صباه شاحب اللون، يسعل سعالاً يثير الإشفاق، إلى حد أن الطبيب لم يبشر بأي أمل في إنقاذه، ولم تتخل عنه المرضعة يأساً من بقائه على قيد الحياة، ولكنها أمدته بالدفء والغذاء من جسدها هي، فعاد إلى الحياة ثانية. وربما سمي لهذا السبب، باسم رينيه (وهي لفظة مشتقة من أصل لاتيني بمعنى ولد من جديد). وكان والده محامياً موسراً، وعضواً في برلمان رن Rennes، وترك لابنه عند وفاته دخلاً يقدر بستة آلاف فرنك في العام. وألحق في سن الثامنة بكلية "لافيش" اليسوعية، التي يقول عنها أحد المفكرين الأحرار المتحمسين ومشاهير الرياضيين "يبدو أنها زودته بقدر من الرياضيات أعظم كثيراً مما كان يمكن أن يحصل عليه في معظم الجامعات في ذلك العصر (79)" وتبين معلموه ضعف جسمه ويقظة ذهنه فأباحوا له البقاء في الفراش بعد الوقت المحدد للاستيقاظ، ولحظوا أنه استغل الوقت في التهام الكتب، الواحد بعد الآخر، وفي كل جولاته في الميتافيزيقا، ظل يحتفظ بإعجابه الشديد بأستاذته الجزويت، كما أنهم بدورهم، نظروا إلى شكوكه بشيء من التسامح الأبوي. وقصد في سن السابعة عشرة إلى باريس ليلهو ويعبث، ولكنه لم يجد شيئاً ينغمس فيه، لأنه لم يكن يحفل بالنساء أو يميل إليهن، ولكنه بوصفه رياضياً ضليعاً، انصرف إلى الميسر، مقدراً أنه يستطيع الاستيلاء على خزانة نادي القمار. والتحق بجامعة بواتييه حيث حصل منها على درجات علمية في القانون المدني والقانون الكنسي. وما أن استرد عافيته وقوته، حتى أذهل أصدقاءه، بانخراطه في جيش الأمير موريس ناسو (1618). ولما نشبت حرب

صفحة رقم : 10399

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> رينية ديكار

الثلاثين عاماً انضم إلى قوات مكسيمليان أمير بافاريا، وتذكر رواية غير مؤكدة أنه اشترك في معركة "الجبيل الأبيض". وفي غضون هذه الحملات. وبخاصة في شهور الشتاء الطويلة التي تعوق مواصلة القتال، كان ديكار يتابع دراسته، وفي الرياضيات بصفة خاصة. وذات يوم (10 نوفمبر 1619) في نيوبرج بالقرب من أولم في بافاريا، اتقى البرد بالقبوع في "موقد" (من المحتمل أن تكون غرفة مدفأة خصيصاً له) وفيها كما يقول هو - رأى فيما يرى النائم في ثلاث رؤى أو ثلاثة أحلام، ومضات من النور، وسمع رعداً، وبدا له أن روحاً سماوية كانت توحى إليه بفلسفة جديدة. وبعد خروجه من "الموقد" (الغرفة) كان - كما يؤكد لنا - صاغ الهندسة التحليلية، وتصور فكرة تطبيق المنهج الرياضي في الفلسفة (80). ورجع إلى فرنسا في 1622، ورتب أموره المالية. ثم استأنف جولاته، ففرض قرابة سنة في إيطاليا: فقصده من البندقية (ويقولون سبيراً على الأقدام) إلى لوريتو حيث قدم لإجلاله للعزاء. ورأى رومة في فترة الغفران (1625)، ومر بفلورنسا ولكنه لم يزر جاليليو. ثم قفل عائداً إلى باريس وهناك في الريف تابع دراسته العلمية. وصحب الرياضي المهندس العسكري جيرار ديسارج في حصار لاروشيل (1628). وفي أخريات هذا العام قصد إلى هولندا، حيث قضى في المقاطعات المتحدة بقية أيام حياته تقريباً، اللهم إلا بعض فترات قصيرة قصد فيها إلى فرنسا لتدبير شؤونه المالية.

ولسنا نعرف لماذا ترك فرنسا، ويحتمل أن هذا يرجع إلى أنه "بعد أن أفصح عما لديه من أسباب للشك في أشياء كثيرة (81) "وخشي أن يتهم بالهرطقة، مع أنه كان له أصدقاء كثيرون من رجال الكنيسة هناك، مثل مرسن وبيرون. وربما حاول أن يتجنب الأصدقاء والأعداء على حد سواء، أملاً في أن يجد في بلد غريب عزلة اجتماعية (لا فكرية) يستطيع بها أن يشكل الفلسفة التي

صفحة رقم : 10400

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> رينية ديكارت

كانت تعتلج بين جنبيه لقد كره ضجيج باريس وثرثرتها، ولكن لم تقلقه الحركة النشيطة التي تلتفها القنوات في أمستردام، وهو يقول "هناك، وسط الجموع المكتظة من شعب عظيم نشيط، استطعت أن أعيش وحيداً منعزلاً، وكأني في صحراء نائية(82)". وربما كانت رغبته في أن يتوارى عن الأنظار ويخفي اهتماماته هي دفعته إلى تغيير أماكن إقامته أربعاً وعشرين مرة في السنوات العشرين التالية، من فرانكر إلى أمستردام إلى دنفر، إلى أمستردام إلى أوترخت، ثم إلى ليدن، ولكن بالقرب من جامعة أو مكتبة عادة. ومكنه دخله من الاستمتاع بطيبات الحياة الاجتماعية في قصر صغير مع عدد من الخدم. وامتنع عن الزواج ولكنه اتخذ خليفة (1634) أنجبت له طفلة. وإنا لنسر إذ نسمع أن الروح الإنسانية تجلت فيه حين بكى الطفلة بعد موتها في الخامسة من عمرها. وقد نحا في الصواب إذا ظنناه فاتراً لا تحركه الأحداث الدنيوية، ولسوف نجد أنه يبهر كثيراً من الأهواء والمشاعر التي يشجبها رجال الأخلاق عادة. وما كان هو نفسه ليتجرد منها، فهو عرضة للزهو والغضب والغرور(83).
لقد بذل ديكارت جهداً جباراً لتحقيق هدفه. أنظر إلى ما ألزم نفسه بدراسته الرياضيات، الفيزياء، الفلك، التشريح، الفسيولوجيا، علم النفس، ميتافيزيقا، نظرية المعرفة، الأخلاق، اللاهوت. فمن ذا الذي يجرو اليوم على أن يجول بين هذا كله؟ ومن ثم طمع في العزلة والاحتجاب عن الأنظار، وأجرى التجارب والمعادلات والرسوم البيانية. وقد فرص تجنيه محكمة التفتيش أو تهدئتها، وحاول أن يهيب فلسفته منهجاً رياضياً. ولحياته منهجاً فلسفياً.
ومن أين يبدأ؟ إنه في "مقال في المنهج"، وهو الكتاب الفذ الذي يعتبر

صفحة رقم : 10401

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> رينية ديكارت

فاتحة عصر جديد، أعلن عن أول مبدأ، كان يمكن في حد ذاته، أن يقيم عليه الدنيا ويقعدها ويثير عليه غضب أولي الأمر، وهكذا كان. فقد كان الموضوع مكتوباً في لغة فرنسية متميزة ميسرة، في صيغة المتكلم الحية الساحرة. لقد أحدث ثورة كبيرة في التفكير، وقال ديكارت أنه كان سعيداً ينبذ كل النظريات والمبادئ والتعاليم، ويطرح كل جهد ومرجع، ويوجه خاص الفيلسوف أرسطو. وسيبدأ بصفحة جديدة خالية من أي شيء، ويشك في كل شيء. "إن السبب

الأساسي في أخطائنا يمكن في أهواء طفولتنا(84)... فالمبادئ التي اعتنقها في شبابي، استمر على الأخذ بها دون أن أتحرى حقيقتها ومبلغ الصدق فيها"(85). ولكنه يمضي قدماً، إذا ساوره الشك في كل شيء؟ ولما كان مولعاً بالرياضيات، وفوق كل شيء بالهندسة التي دأبت عبقريته على تحويلها، فقد تاقته نفسه، بعد ابتدائه بالشك الشامل إلى العثور على حقيقة يمكن التسليم بها على الفور بصفة عامة مثل بديهيات إقليدس. "إن أرشميدس، لكي يتيسر له أن يزحزح الكرة الأرضية من مكانها وينقلها إلى مكانا آخر، تطلب أن تكون هناك نقطة واحدة ثابتة لا تتحرك، وأنا بالمثل، سيكون لي الحق في أن استنشر خيراً كثيراً إذا أسعدني الحظ، فأضع يدي على شيء واحد مؤكد لا نزاع فيه(86). (وأكد على هذه النقطة متهللاً: "أنا أفكر. فأذن أنا موجود(87)".) وهي أشهر عبارة في الفلسفة ولم يقصد بها أن تكون قياساً

صفحة رقم : 10402

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> رينية ديكارت

منطقياً، بل خبرة مباشرة لا سبيل لإنكارها، وهي أوضح وأجلى فكرة يمكن أن نحصل عليها، وتكون سائر الأفكار "صحيحة" على قدر اقترابها من هذه البديهية الأساسية-الإدراك الحسي المباشر، من حيث الجلاء والوضوح، وكان "منهج" ديكارت الجديد في الفلسفة هو أن يحلل الأفكار المركبة إلى مكوناتها، حتى تصبح العناصر غير القابلة للاختزال أفكاراً بسيطة واضحة جلية، ويبين أن مثل هذه الأفكار كلها يمكن أن تشتق من. أو تعتمد على، الشعور الأول لكائن يفكر. أننا على العكس، يجدر بنا أن نحاول أن نستنتج من هذا الإدراك الحسي الأول كل المبادئ الأساسية في الفلسفة.

ومرة أخرى كانت ثورة في الفلسفة حين اتخذ ديكارت نقطة البداية، لا الأشياء الخارجية المفروض أنها معروفة بل الذات الواعية. لقد اكتشفت فلسفة النهضة "الفرد"، ولكن ديكارت جعل منه همزة الوصل في فلسفته. "إني لأرى بوضوح أنه ليس ثمة شيء أيسر على أن اعرفه، من عقلي أنا(89)" وإذا بدأنا بالمادة، وسرنا قدماً عبر مستويات الحياة العضوية إلى الإنسان فإن الاتصال أو الترابط المنطقي قد يغرينا بتفسير العقل بأنه مادي. ولكننا لا ندرك المادة إلا عن طريق العقل وحده. والعقل فقط هو الذي يمكن معرفته أو إدراكه مباشرة (دون سلطة) وهنا تبدأ المثالية، لا بمعناها الأخلاقي، بل على أنها فلسفة تبدأ بالحقيقة المباشرة للأفكار، أكثر مما تبدأ بالأشياء التي تعرف عن طريق الأفكار "وليس ثمة تحقيق يمكن اقتراحه أجدى من تحقيق يحاول تحديد طبيعة المعرفة الإنسانية ومداه(90)". ولمدة ثلاثة قرون كانت الفلسفة تتساءل عما إذا كان "العالم الخارجي" موجوداً إلا كمجرد فكرة.

وكما كان من العسير أن نعبر من الجسم إلى العقل، بنظرية تقدر قدر كل من مصدر الأحاسيس وقوتها وواضح أنهما ماديتان، وطبيعة الأفكار التي يبدو أنها طبيعة غير مادية، فإن ديكارت كذلك، وقد بدأ بالنفس، وجد من العسير الانتقال من العقل إلى الأشياء. فكيف يتسنى للعقل أن يدرك أن الأحاسيس التي يبدو أنها تدل على عالم خارجي، ليست شيئاً أكثر من حالاته هو (أي العقل)؟

صفحة رقم : 10403

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> رينية ديكارت

وكيف يصدق الحواس التي غالباً ما نخدعنا وتضللنا. أو الصور العقلية التي تكون مشرقة عندما تكون "زائفة" في النوم، قدر إشراقها عندما تكون "حقيقية" في اليقظة؟
وهرباً من سجن النفس "الأنانة" يلجأ ديكارت إلى الله الذي لا يمكن بالقطع أن يجعل من كل حواسنا مجرد خدعة. ولكن متى يدخل الله في هذا المنهج الذي بدأ في جرأة بالشك في كل المعتقدات والمبادئ التي تلقاها الإنسان؟ إن ديكارت لا يستطيع إثبات وجود الله من شواهد بديع صنعه في العالم الخارجي، ولأنه لم يوضح بعد وجود هذا العالم الخارجي. ولذلك أخرج ديكارت "الله" من "النفس المدركة"، تماماً مثل فعل أنسلم في "البرهان الوجودي" قبل ذلك بستة قرون. وهو يقول: إن لدي تصوراً لكائن كامل مثالي قدير عليم، ضروري، خالد ولكن هذا الذي يوجد أقرب إلى الكمال من هذا الذي لم يوجد، وعلى ذلك فإن الكائن الكامل المثالي يجب أن يكون الوجود من بين صفاته. ومن الذي كان يستطيع أن يثبت في هذه الفكرة إلا الله سبحانه وتعالى؟ "ومن المستحيل أن أحمل في نفسي فكرة الله، إذا لم يكن الله موجوداً حقاً" (91). وإذا كان الله يريد أن يخدعنا فلن يكون كاملاً ومن ثم فإنه لا يضلنا عندما تكون لدينا أفكار واضحة جلية، ولا حين يتيح لحواسنا أن نكتشف لنا عن عالم خارجي. "لست أدري كيف يمكن الدفاع "عنه سبحانه" أو تبرئته من تهمة الخداع والتضليل إذا كانت هذه الأفكار ناتجة عن أسباب غير متعلقة بأشياء جسدية مادية. ومن ثم يجب أن نقر بأن الأشياء الجسدية المادية موجودة (92)"، ومن ثم تتسد بشكل رائع الهوة بين العقل والمادة، بين الذرات والموضوع ويصبح ديكارت، بعون من الله، واقعياً. والعلم نفسه-إيماننا الراسخ يكون منطقي خاضع لنظام مطيع للقانون، يمكن التعرف عليه وإحصاء ما فيه-يصبح أمراً ممكناً، لا لشيء إلا لأن الله موجود، وحاشا الله أن يكذب.
وإنما إذ ننتبع ديكارت لنشهد "عصر العقل" في طفولته يتراجع فزعاً من مغامرات الفكر، محاولاً الولوج ثانية إلى حظيرة الإيمان الدافئة. ورغبة

صفحة رقم : 10404

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> رينية ديكارت

في بث الطمأنينة من جديد أطلق على "التأملات": تأملات رينية ديكارت في فلسفة أولى، أبرز فيها وجود الله وخلود النفس. وأهدى الكتاب إلى الحكيم الألماني عميد كلية اللاهوت المقدسة في باريس"، أي السوربون. وتقبل العميد الهدية، ولكن في 1662 أدرج الكتاب في قائمة الكتب المحظورة، "حتى يتم تصحيحه". وبدأ الكتاب على نفس النسق الجريء الذي بدأت به "المقالات" "اليوم... وقد هياتُ لنفسي انقطاعاً أكيداً لرياضة روحية هادفة، فلسوف أنكب أخيراً، انكباً منطلقاً جاداً، على استعراض عام لكل آرائي السابقة (93)". لقد ألقى بها جميعاً من النافذة، ثم أجاز لها الدخول من الباب. ولم يكن من بين هذه الآراء، إيمانه بأنه عادل قدير فحسب، بل كذلك إيمانه بإرادة إنسانية حرة وسط آلية (ميكانيكية) كونية، ونفس باقية (غير فانية) على الرغم من اعتمادها الواضح على جسدٍ فانٍ. ومهما سلمنا بمنطق العلاقة الوثيقة التي لا تنفصم عراها بين السبب والنتيجة في عالم المادة والجسد، فإن حرية إرادتنا فكرة من إحدى الفكرات الفطرية المتأصلة، الواضحة الجلية، الحية المباشرة، إلى حد أنه لا يمكن أن يشك فيها أحد قط، مهما حاول كثيراً أن يتلاعب بها (أي الفكرات) في النظريات المجردة (94).
إن فكرة الله، وفكرة النفس، وفكرة المكان والزمان، وفكرة الحركة، والبداهيات الرياضية كلها فطرية متأصلة، بمعنى أن النفس لا تستمدّها من الإحساس والخبرة، بل من جوهرها وعقلانيتها.

(وهنا قد يعترض لوك، ويوافق كانت). ومهما يكن من أمر، فإن هذه الأفكار الفطرية قد تظل لا واعية حتى تخرجها الخبرة في صورة واعية، والنفس حينئذ لا تكون نتاجاً للخبرة، بل شريكها النشط المبدع في إنتاج الفكر. إن هذه النفس العقلانية "القدرة على التعلقل" واضح أنها غير مادية، وليس لأفكارها طول ولا عرض، ولا موقع ولا وزن، ولا أية خاصية أخرى من خواص المادة (95). "إني أنا، أي النفس التي أنا بها كما أنا عليه الآن، هي أساساً متميزة عن الجسد بل حتى من الأيسر أن نعرفها مما نعرفه (96)". وعلى ذلك فإن هذا العقل أو النفس غير المادية يمكن أن تبقى بعد الجسد، ولا بد أنها تبقى.

صفحة رقم : 10405

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> رينية ديكارت

ترى هل كانت تلك النتائج القويمة التي انتهى إليها ديكارت صادقة مخلصه، أو أنه أضفى عليها لونا وقائياً؟ هل كان ديكارت تواقاً إلى متابعة دراسته العلمية في هدوء وسلام بعيداً عن الاضطهاد والتعذيب، إلى حد أنه كان ينفث الميثاقين بقا مثل غشاوة مربكة تحول دون انقراض الطيور الجارحة عليه؟ لسنا نملك الجزم بشيء في هذا الصدد. وقد يتسنى لامرئ أن يكون عالماً فاضلاً على الأقل في الفيزياء، والكيمياء، والفلك، إن لم يكن في البيولوجيا وفي نفس الوقت يتقبل التعاليم الأساسية في المسيحية. وفي إحدى مقالاته أكد ديكارت أن العقل لا يحول دون تصديق أشياء نزل بها الوحي الإلهي، على أنها أكثر يقينية من أرسخ معرفتنا وأجدرها بالثقة (97) "وتتم رسائله مع إليزابيث أميرة البالاتين، في أسلوب فصيح عن النقى والتمسك بالصرط المستقيم. وزاره سالامبوس في ليدن 1637 فوصفه بأنه "كاثوليكي غيور جداً" (98).

على أنه تفرغ في العقد الأخير من حياته للعلم. وحول داره إلى معمل، وأجرى تجارب في الفيزياء ووظائف الأعضاء، وإذا طلب أحد زواره أن يرى المكتبة، أشار ديكارت إلى ربع عجل كان يقوم بتشريحه (99). وكان في بعض الأحيان يتحدث، كما تحدث بيكون، عن الفوائد العملية-الهائلة التي يجنيها الجنس البشري حين يستطيع العلم أن يجعل الناس "سادة الطبيعة والمسيطرين عليها (100)" وكثيراً ما أدى توكيده الذاتي على الاستنباط وثقته فيه، إلى نتائج غامضة. ولكنه-اشتغل شغلاً خلاقاً بعدة علوم. وألح على أن يستبدل العلم بالأفكار التجريدية النوعية الغامضة التي سادت علم الفيزياء، في العصور الوسطى: إيضاحات كمية مصوغة في صيغ رياضية، ولقد شهدنا تطويره للهندسة التحليلية وإشارته إلى حساب التفاضل والتكامل اللانهائي. وحل مشاكل تضعيف المكعب وتثليث الزاوية. وابتدع فكرة استخدام الحروف الأولى من حروف الهجاء لتمثل الكميات المعلومة، والحروف الأخيرة لتمثل الكميات المجهولة. ويبدو أنه اكتشف قانون انكسار الضوء مستقلاً عن سنل Snell وحالفه التوفيق في دراسة القوى العظمى التي تحدثها وسائل صغيرة، مثل البكرة

صفحة رقم : 10406

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> رينية ديكارت

والأسفين والرافعة والملزمة والعجلة، وصاغ قوانين القصور الذاتي والتصادم وكمية التحرك، وربما أوحى إلى باسكال بأن الضغط الجوي ينخفض بالارتفاع (101)، ولو أنه أخطأ في إعلان أنه لا يوجد ثمة فراغ إلا في عقل باسكال (102). وأشار إلى أن كل جسم محوط بدوامات من جسيمات دقيقة تدور حوله في طبقات كروية-وهي فكرة تشبه نظرية المجال المغناطيسي الحالية. وفي البصريات حسب حساباً صحيحاً زاوية الانكسار، وحلل التغيرات التي يتعرض لها الضوء بفعل العدسة البلورية للعين، وحل مشكلة تصحيح الزيغ الكروي في التلسكوب، وصمم عدسات ذات تقوس بيضي الشكل أو زائدي المقطع، خالية من هذا الزيغ (103).

وشرح جنيناً، ووصفه من الوجه التشريحية، وهو يقول أنه شرح رؤوس حيوانات مختلفة ليتحقق في أيها تكون الذاكرة والتصور وغيرهما (104). وأجرى تجارب على الفعل اللاإرادي أو المنعكس، وشرح الطريقة (الميكانيكية) التي تطرف بها العين عند اقتراب الضربة أو اللطمة (105). ووضع نظرية للانفعال شبيهة بتلك التي وضعها وليم جيمس وكارل لانج: إن السبب الخارجي للانفعال (مثل وقوع نظرنا على حيوان خطير) يولد ذاتياً أو أنياً فعلاً مستجيباً (الهرب) والإحساس المرتبط به (الخوف)، فالانفعال هو إنجاز الفعل لا سببه. والانفعالات متأصلة في الفسيولوجيا، ويجب دراستها وتفسيرها على أنها عمليات ميكانيكية، وليست في حد ذاتها سبباً لأنها الريح في أشرعتنا ولكن إذا لم يطف منها العقل ويحد منها، فإنها قد تستبعد الإنسان وتدمره.

ويمكن اعتبار الكون كله ميكانيكياً، فيما عدا الله والنفس العقلانية وعرض ديكارت هذه الفكرة وجاليليو ومحكمة التفتيش مائلتان أمام عينيه-على أنها مجرد فرض: فإذا افترضنا أن الله خلق المادة ووهبها الحركة، فيمكننا أن نتصور أن العالم يتطور بعد ذلك، وفق قوانين الميكانيكا، دون تدخل، إن الحركة الطبيعية للجسيمات المادية في كون ليس فيه فراغ، تأخذ شكلاً دائرياً يؤدي إلى دوامات مختلفة من الحركة. ويمكن أن تكون الشمس والكواكب

صفحة رقم : 10407

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> رينية ديكارت

والنجوم قد تكونت بفعل تجمع هذه الجسيمات في مركز هذه الدوامات، وكما أن كل جسم محوط بدوامة من ذرات دقيقة-وهذا يفسر التماسك والتجاذب-فإن كل كوكب كذلك محصور في دوامة من الجسيمات تحتفظ بتواضعه في مداره، والشمس مركز دوامة هائلة تندفع الكواكب إليها حول الشمس في دوائر. وكانت نظرية بارعة، ولكنها سقطت عندما أثبت كبلر أن مدارات الكواكب بيضاوية الشكل.

ويقول ديكارت بأنه لو كانت معرفتنا تامة كاملة لكان في مقدورنا أن نحول-لا الفلك والفيزياء والكيمياء، فحسب-بل كل عمليات الحياة، باستثناء العقل ذاته، نحولها إلى قوانين ميكانيكية فإن التنفس والهضم، بل حتى الشعور، كلها ميكانيكية، أنظر كيف كان هذا المبدأ مفيداً في اكتشاف هارفي للدورة الدموية. وطبق ديكارت، في ثقة تامة، فكرة الميكانيكية، على كل عمليات الحيوانات، لأنه أبى أن يخلع عليها القدرة على التفكير العقلي. وربما أخس بأنه مضطر، من الوجه الدينية. إلى ظلم الحيوان على هذه الصورة، لأنه كان قد أسس خلود النفس على عدم مادية الذهن العقلاني، فإذا كان للحيوانات مثل هذا الذهن كذلك، لكانت هي الأخرى باقية أو غير فانية، وربما كان في هذا إزعاج، إن لم يكن لهواة الكلاب، فهو على الأقل لرجال اللاموت.

ولكن إذا كان جسم الإنسان آلة مادية فكيف يتسنى للعقل غير المادي أن يعمل فيه. أو يحكمه بقوة غير ميكانيكية مثل الإرادة الحرة؟ وهنا يفقد ديكارت ثقته، فيجيب يائساً بأن الله يرتب تفاعل الجسم والعقل بطرق خفية لا يصل إليها إدراكنا المحدود. وربما ارتأى أن العقل يعمل في الجسم عن طريق الغدة الصنوبرية الموضوعه بشكل مناسب في قاع المخ.

وكان أثر تصرفات ديكارت تهوراً وطيشاً طيلة حياته، أنه طلب من مرسن أن يبعث مقدماً بنسخ من كتاب "التأملات" إلى بعض المفكرين مع دعوتهم لإرسال ما يعن لهم من اعتراضات عليه، ورداً على ذلك دحض

صفحة رقم : 10408

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> رينية ديكارت

جاسندي آراء ديكارت في كياسة فرنسية(106). فإن الكاهن لم يقتنع بحجة-ديكارت الوجودية عن وجود الله. أما هوبز فاعترض على أن ديكارت لم يثبت استقلال العقل عن المادة والمخ. ويقول أوبري بأن هوبز بصفة خاصة "كان يميل إلى القول بأنه ديكارت لو قصر نفسه على الهندسة تماماً لأصبح أعظم علماء الهندسة في العالم، وأنه لم ينسجم مع الفلاسفة(107). واتفق هيجينز مع هوبز، وذهب إلى أن ديكارت نسج قصة خيالية من عناكب الميتافيزيقا. والآن وبعد ثلاثة قرون من البحث والمناقشة قد يكون من اليسير أن نتبين نقاط الضعف في أول منهج حديث جريء للفلسفة. أن فكرة تحويل الفلسفة إلى صيغ هندسة، ساقطت ديكارت إلى طريقة استنباطية، اعتمد فيها في طيش زائد، برغم تجاربه، على نزعه إلى الاستنباط. وأنه لعمل انتحاري أن نجعل من الوضوح أية فكرة وجلانها وبهائها وبدائها اختبأراً لصحتها، فمن ذا الذي يجسر على هذا الأساس، على إنكار دوران الشمس حول الأرض؟ والمحاجة بأن الله موجود لأن لدينا فكرة واضحة متميزة عن كل كائن لا نهائي بالغ حد الكمال (وهل هذا صحيح؟)، ثم المحاجة بأن الأفكار المتميزة جديرة بالثقة لأن الله لا يمكن أن يخدعنا، إن هي إلا ضرب من التفكير دائري مثل مدارات كواكب ديكارت. إن هذه الفلسفة تتضح بمفاهيم سكلاستية العصور الوسطى، التي نصحت بنبذها. إن شك مونتييني كان أثبت وأبقى من شك ديكارت الذي لم يفعل إلا أن زحزح الهراء التقليدي ليفسح مكاناً لهرائه هو. ومع هذا كله، بقي في علم ديكارت، أن لم يكن في "ميتافيزيقاه" ما يشيع في نفسه الخوف من الاضطهاد والتعذيب. فإن نظريته في "ميكانيكية الكون" تركت المعجزات والإرادة الحرة في موقف خطر ومأزق حرج، برغم اعترافه بالدين القويم والصرط المستقيم. أنه لما سمع باد أنه جاليليو (يونية 1633) طرح جانباً مؤلفه الضخم "العالم" الذي كان قد اعتزم أن يضم فيه شتات أبحاثه العلمية والنتائج التي توصل إليها، وكتب، وقبله يقطر أسى وحزناً، إلى مرسن:

صفحة رقم : 10409

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> رينية ديكارت

لقد كان لهذا النبأ أعمق الأثر في نفسي، حتى كدت أعقد العزم على أن أحرق كل مخطوطاتي، أو على الأقل أخفيها عن الأنظار... وإذا كانت حركة الأرض غير صحيحة، فإن كل مبادئ فلسفتي عن "ميكانيكية العالم" خاطئة... لأنها

كلها مترابطة يؤيد بعضها بعضاً... ولكني على أية حال لن أنشر شيئاً يتضمن كلمة واحدة تعضب الكنيسة. (108)"
وعند وفاته لم توجد إلا قصاصات قليلة من مخطوطة "العالم".
ولم يأت الهجوم (في حياته) من الكنيسة الكاثوليكية، بل من رجال اللاهوت الكالفنيين في جامعتي أوترخت وليدن. فقد اعتبروا دفاعه عن الإرادة الحرة هرطقة خطيرة تسيء إلى "القضاء والقدر" كما رأوا في "ميكانيكية الكون" فكرة تنزلق به إلى حافة الإلحاد، فإذا كان الكون يستطيع أن يسير لمجرد قوة دافعة يبدأ بها الله "فما هي إلا مسألة وقت حتى ينجز الله دفعته الاستهلاكية أو الأولى هذه. وفي 1641، عندما تبنى أحد أساتذة أوترخت فلسفة ديكرت، أغرى رئيس الجامعة، جسبرت فوشبوس، ولاة الأمور في المدينة بإدانته الفلسفة الجديدة وتحريكها. فما كان من ديكرت إلا أن شن هجوماً على فوشبوس، الذي رد عليه رداً عنيفاً، وعود ديكرت الكرة، وقارعه الحجة بالحجة. وفي 1643 دعا القضاء الفيلسوف للمثول أمامهم. ولكنه رفض، وصد الحكم عليه، فتدخل أصدقائه في لاهاي، فقتع أولو الأمر في المدينة بإصدار قرار بحظر أية مناقشة علنية تأييداً أو تقديراً لآراء ديكرت.
ووجد بعض السلوى في صداقته مع الأميرة إليزابيث التي كانت تقيم في لاهاي مع والدتها إليزابيث ناخبة البلاتين ملكة بوهيميا المخلوعة. وكانت الأميرة في التاسعة عشرة حين ظهر كتاب "المقالات" 1637، فقرأته في دهشة ممزوجة بالابتهاج والسرور بما رأت أن الفلسفة واضحة مفهومة يسهل إدراكها، والتقى بها ديكرت وابتهج بما رأى من أن المبتايفز يبقا قد تتسم

صفحة رقم : 10410

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> رينية ديكرت

بالجمال. وأهدى إلى الأميرة الصغيرة كتابه "مبادئ الفلسفة" وكتب كلمة الإهداء في لغة تفيض بملق بالغ البهجة والسرور. وماتت حيث كانت رئيسة دير للراهبات في وستفاليا (1680).
ولم يطب المقام لديكرت في هولندا، كما كان من قبل، فكان كثير التردد على فرنسا: (1644، 1647، 1648). وأثار فيه الروح الوطنية معاش أجرته عليه حكومة لويس الرابع عشر الجديدة (1646). واحتال للحصول على أحد المناصب الإدارية، ولكن اقترب نشوة الحرب الأهلية (حرب الفرونند) عاد به إلى هولندا، فزاعاً. وفي فبراير 1649 تلقى دعوة من كريستينا ملكة السويد، ليحضر ليلقنها الفلسفة. وتردد في قبول الدعوة، ولكن سحرته رسائلها التي تمت في لغة فرنسية ممتازة، على ذهن مثلهف، انحاز بالفعل إلى "البهجة الغالية" (فلسفة ديكرت). وبعثت إليه بأحد أمراء البحر يستمليه، ثم بيارجة حربية لتقله، فاستسلم وأبحر في سبتمبر من أمستردام إلى ستكهولم.
واستقبل بكل مظاهر الحفاوة والتكريم، ولكن أزجته رغبة الملكة في أن تتلقى الدروس ثلاث مرات في الأسبوع، في الساعة الخامسة صباحاً. وكان ديكرت قد تعود أن يبقى في فراشه إلى وقت متأخر، والتزم بالمواعيد التي حددتها الملكة طيلة شهرين، فكان يخرج من بيته إلى مكتبة الملكة في فجر الشتاء وتلوجه، وفي أول فبراير 1650 انتابه برد انقلب إلى التهاب رئوي، وفي اليوم الحادي عشر فارق الحياة بعد أن تلقى الأسرار المقدسة الكاثوليكية الأخيرة.
وكان قد اتخذ لنفسه شاعراً، هو "يعيش سعيداً من يتوارى عن الأنظار ويتكتم كثيراً". ولكن شهرته كانت قد طبقت الأفاق قبل موته بعدة سنوات. لقد نبذت الجامعات فلسفته واشتم رجال الدين رائحة الهرطقة في

صفحة رقم : 10411

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> رينية ديكارت

تقواه، ولكن رجال العلم أطروا رياضياته وفيزيائه، ولكن دنيا الأناقة في باريس، أقيمت في سرور بالغ على مؤلفاته التي كتبها في لغة فرنسية مشرقة جذابة. وسخر موليير من "السيدات العالمات" اللاتي تبادلن أنباء الدوامات في الصالونات، "ولكنهن لم يطقن الفراغ" وكان الجزويت حتى تلك اللحظة منسامين مع تلميذهم النجيب، وكانوا قد اسكتوا واحداً من طائفتهم شرع يهاجم ديكارت (109)، ولكنهم بعد 1640، لم يعودوا يظلمونه بحمايتهم. وكان لهم يف 1663 ضلع في أدراج مؤلفاته في قائمة الكتب المحظورة. ورحب بوسويه وفنون بيراهين ديكارت على المبادئ الأساسية في المسيحية، ولكنهم رأوا في تأسيسها على العقل خطراً على العقيدة، واستتكر باسكال الاعتماد على العقل، على اعتبار أن هذا العقل ريشة في مهب الريح.

ولكن اعتماد ديكارت على العقل، هو الذي، على وجه الدقة، أيقظ ذهن أوربا، وأوجز فونتيل الأمر بقوله "أن ديكارت... هو الذي أمدنا بطريقة جديدة للتفكير، تدعو إلى الإعجاب أكثر مما تدعو فلسفته ذاتها، تلك التي يعتريها قدر كبير من الزيف والشك، وفقاً للقواعد التي علمنا إيها هو نفسه (110)" إن شك ديكارت أدى لفرنسا-أو للقارة بصفة عامة- ما أدها ببيكون لإنجلترا:- أنه حرر الفلسفة من أغلال الزمن وأطلقها لتبحر في جرة وشجاعة في بحر مكشوف، حتى ولو أنها ما لبثت أن عادت، عند ديكارت نفسه إلى شاطئ الأمان المؤلف. ولسنا نقول بأنه كان ثمة انتصار عاجل أو فوري للعقل، فإن التقاليد والأسفار المقدسة كانت أكثر ثباتاً وقوة في أذهان عصور فرنسا، وهو "القرن العظيم" أي عصر لويس الرابع عشر، أنها كانت حقبة بورت رويال وباسكال وبوسويه، أكثر منها حقبة خلفاء ديكارت. أما تلك الحقبة نفسها في هولندا فهي عصر سبينورا وبيلي، وفي إنجلترا عصر هوبز ولوك. أن الزرع كان يخرج شطاه.

وكان لأعمال ديكارت بعض الأثر على الأدب والفن في فرنسا. إن

صفحة رقم : 10412

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> رينية ديكارت

أسلوبه كان ابتداءً منعشاً. وهنا كانت الفلسفة بلغة قومية في متناول الجميع بشكل خطير، وقلما يتحدث فيلسوفاً بمثل هذه الألفة الساحرة وهو يعدد مغامرات العقل وتجاربه المثيرة بمثل السلاسة والحيوية التي يعدد بهما فرواسار وبطولات الفروسية ومآثرها. ولم يكن كتاب "مقال في المنهج" مجرد رائعة من ورائع النثر الفرنسي. بل إنه كذلك ضرب، للعصر الزاهر في فرنسا، مثلاً في لغته وأفكاره، للترتيب وبراعة التفكير والاعتدال في الآداب والفنون والسلوك والحديث. وتلاءم توكيده على الأفكار الواضحة الجلية مع ذهن الفرنسي، وأصبح رفعه من شأن العقل أول قاعدة من قواعد الأسلوب الممتاز عند الناقد الفرنسي بوالو:

"أحب العقل إذن، ولتستمد كتاباتك وقيمتها منه وحده (111)".

وباتت الدراما الفرنسية لمدة قرنين من الزمان بلاغة العقل التي تنافس تمرد العاطفة والهوى وربما عانى الشعر الفرنسي بعض الشيء من ديكارت، فإن مزاجه وآلياته (ميكانيكي) لم يتركها للخيال أو الأحاسيس سوى مجال ضيق. إن فوضى رابليه المهتاجة واستطرد مونتيني الذي لا ضابط له، بل حتى الاضطرابات العنيفة في الحروب الدينية، أن هذه كلها أفسحت المجال، بعد ديكارت، لمناقشات كورني العقلانية، ولوحدات راسين العارمة، ولتقوى بوسويه المنطقية، ولقانون الملكية والبلاد ونظامهما وشكلهما وسلوكهما في عهد لويس الرابع عشر. وأسهم ديكارت، عن غير قصد منه في ابتداء طراز جديد في الحياة الفرنسية، كما فعل في الفلسفة سواء في سواء. وربما كان أثره في الفلسفة أعظم من أثر أي مفكر آخر قبل كانت. لقد استقى مالبرانش منه، وتلمذ سبينوزا على منطق ديكارت، واكتشف نقاط الضعف فيه عند شرحه. وقلد "المناقشات" في نبذة عن سيرة حياته بعنوان "تحسين التفاهم"، وتبنى المثل الأعلى الهندسي في كتابه "الأخلاق"، وبنى بحثه في "استرقاق الإنسان" على بحث ديكارت "رسالة في انفعالات النفس".

صفحة رقم : 10413

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> رينية ديكارت

وبدأ تقاليد المثالية في الفلسفة الحديثة، من بركلي إلى فخت، بتوكيد ديكارت على الفكر بوصفه الحقيقة الوحيدة المعروفة بطريق مباشر، مثلما انحدرت تقاليد التجريبية من هوبز إلى سبنسر. ولكن ديكارت قدم للمثالية تريباقاً - مفهوم كون موضوعي ميكانيكي تماماً فإن محاولته لفهم العمليات العضوية وغير العضوية، سواء بسواء، على أساس ميكانيكي، هيات للبيولوجيا وللفسولوجيا قوة دافعة متهورة ولكنها مجدية. وتحليله الميكانيكي للإحساس والخيال والذاكرة والإرادة، أصبح معيماً لا ينضب لعلم النفس الحديث. وبعد أن دعم القرن السابع عشر في فرنسا العقيدة القومية بديكارت، وجدت استنارة القرن الثامن عشر أرضاً خصبة في شكه المنهجي، وفي اعتماده على العقل، وفي تفسيره لكل حياة الحيوان على نفس أسس الفيزياء والكيمياء (112). إن اعتداد الفرنسي-المغترب بنفسه اعتداداً لم يترزع قط، كان يبرره أثره المتزايد على الذهن الفرنسي.

إن "المناظر الكبرى" بين العقل والإيمان كانت تتخذ شكلاً واعياً. ولكن تاريخها الحديث كان قد بدأ فقط. إننا إذا ألقينا نظرة على الأعوام التسعين 1558-1648، من إليزابيث إلى ريشليو، ومن شكسبير إلى ديكارت، لأدركنا أن كل القضايا المستحوذة على الأذهان لا تزال محصورة في المسيحية، بين المذاهب الدينية المتنافسة المؤسسة كلها على إنجيل قبله الجميع على أنه "كلمة الله" وثمة مجرد أصوات شاردة كانت تقول بأن المسيحية نفسها يمكن أن توضع موضع الاختبار، وبأن الفلسفة لن تلبث أن تنبذ كل مذهب خارق للطبيعة.

وبعد هذه المراحل الأولى من الصراع بقيت الكاثوليكية مسيطرة في أسبانيا والبرتغال حيث ظلت محاكم التفتيش تنشر الرعب والكآبة. أما في إيطاليا فقد اتسمت الديانة العتيقة بروح أكثر إنسانية، وأضفت بالفن على الحياة شيئاً من الجمال، وزينت الأخلاقيات بالأمل، وارتضت فرنسا حلاً وسطاً، وعاشت المسيحية نشيطة مزدهرة بين الشعب، كاثوليك أو هيجونوت، على

صفحة رقم : 10414

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> رينية ديكارت

حين أن الطبقات العليا كانت تسرح وتمرح في الشك، مرجئة التقى والورع إلى دنوا الأجل المحتوم. وقامت في الأراضي الوطنية تسوية جغرافية، فأبقت المقاطعات الجنوبية على الكتلة، وانتصرت الكلفنية في الشمال. وأنفذ البروتستانتية في ألمانيا كاردينال فرنسي، وثبتت بافاريا والنمسا على ولأئهما القديم، على حين أعيدت المجر وبوهيميا إلى حظيرة البابا، وأصبحت البروتستانتية قانون الأرض أو المبدأ الرسمي في إسكندناوة، ولكن ملكة السويد أثرت طقوس رومة، واقتزحت إليزابث في إنجلترا اتحاداً كريماً بين الطقوس الكاثوليكية والحرية الوطنية، ولكن البروتستانتية الإنجليزية التي تفرقت شيعاً أبرزت حيويتها وغامرت بحياتها. وفي غمرة تناحر الجيوش والمذاهب، كانت "دولية العلوم" تكافح للإقلال من الخرافة والخوف. كانت تخرع أو تعمل على تحسين الميكروسكوب والتلسكوب والترموتر والبارومتر، وكانت تبتكر اللوغاريتمات والنظام العشري، وتصلح التقويم، وتبتدع الهندسة التحليلية، وكانت تحلم، لفورها، بتحويل كل المواقع إلى معادلة جبرية. وكان تيكوبراهي قد قام بكل الأرصاد المتكررة الصابرة التي مكنت لكبرل من صياغة قوانين حركة الكواكب، التي أنارت الطريق أمام نيوتن ليبصر بقانون كوني عام واحد. وكان جاليليو يكشف عن عوالم جديدة أوسع، بمناظيره المقربة التي كان يعمل على تحسينها وتكبيرها باستمرار، وفي قاعات محكمة التفتيش كان النزاع بين العلم والدين يفرغ في قالب مسرحي. وفي مجال الفلسفة ارتضى جيوردانو برونو الإعدام حرقاً حتى الموت، في محاولته لإعادة فهم الألوهية والكون على أسس تلتئم مع أفكار كوبرنيكس، كما أن فرانسيس بيكون الذي يدعو ذوي العقول المفكرة إلى العلم، كان يخطط مهام

صفحة رقم : 10415

قصة الحضارة -> بداية عصر العقل -> اجتهادات العقل -> الفلسفة تولد من جديد -> رينية ديكارت

العلوم ومسئوليتها لعدة قرون مقبلة، أما ديكارت، بشكه العام الشامل، فقد ألقى على عصر العقل عبئاً جديداً. وتشكلت الأخلاق والعادات والسلوك تبعاً لتقليبات العقيدة. وتأثر الأدب نفسه بالصراع، وكان لأراء الفلاسفة صداها في شعر مارلو وشكسبير ودون. وسرعان ما تتضاءل أهمية الثورات والحروب بين الدول المتنافسة إذا قورنت بالصراع السائد المتزايد بين الإيمان والعقل الذي أهاج ذهن أوربا وحوله، بل ربما ذهن العالم بأسره.

صفحة رقم : 10416

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> مقدمة -> إلى القارئ العزيز

تاريخ الحضارة الأوروبية في عصر بسكال وموليير وكرومول وملتن وبطرس الأكبر ونيوتن وسبينوزا

1715 - 1648

إلى القارئ العزيز

هذا المجلد هو الجزء الثامن من تاريخ نسيت بدايته، ولن ندرك نهايته أبداً. موضوعه الحضارة، وتعريفنا لها أنها ذلك النظام الاجتماعي الذي يدعم الإبداع الثقافي، فهو إذن ينظم أبواب الحكم، والاقتصاد (أي الزراعة والصناعة والتجارة والمالية)، والأخلاق، وآداب السلوك، والدين، والفن، والأدب، والموسيقى، والعلم، والفلسفة، وهدفه التاريخ المتكامل- أي تغطية جميع نواحي النشاط لشعب ما في منظور واحد ورواية موحدة. وقد حققنا هذا الهدف ولكن في قصور شديد. ومسرحه أوربا، وزمانه يمتد من معاهدة وستاليا (1648) إلى وفاة لويس الرابع عشر، الذي غلب حكمه (1643-1715) على العصر وسماه باسمه.

أما الموضوع الغالب على هذا الجزء فهو "المناظرة الكبرى" بين الإيمان والعقل. لقد كان الإيمان متربعاً على العرش إبان هذه الحقبة، ولكن العقل كان يجد أصواتاً جديدة تقصح عنه في هوبز، ولوك، ونيوتن، وبيل، وفوننتيل، وسبينوزا، و"كان هذا العصر الكلاسيكي من أوله إلى آخره ما أطلقه على ذاته في ختامه، أي عصر العقل" وقد خصصنا ثلث الكتاب تقريباً لتلك المغامرة الفكرية التي انطلقت من الخرافة والظلامية والتعصب إلى الدرس والعلم والفلسفة. وقد بذل المؤلفان محاولة لرواية هذا النقاش في إنصاف رغم انحيازهما الواضح إلى أحد الجانبين، ومن ثم كان تناولهما المستفيض، المتعاطف، لنفر من المنافحين الأكفاء عن الإيمان، أمثال بسكال، وبوسويه، وفنيلون، وباركلي، ومالبرانش، وليينز. وسوف يعيش أبنائنا فصلاً جديداً في صراع المثل هذا، وهو صراع لا بد لكل انتصار فيه أن يكسب من جديد المرة بعد المرة. وأملنا أن نقدم للقراء الجزء التاسع الذي يتناول "عصر فولتير"

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> مقدمة -> إلى القارئ العزيز

1965، والجزء العاشر "روسو والثورة" في 1968، ولقد اعترضتنا عقبات، يعرضها نجم عن ضخامة المادة التي أتاحتها لنا القرن الثامن عشر، وكلها يتطلب الدرس والحيز الكافي. وإنا خلال ذلك راكسنان إلى "القوي العظمى" في ألا تدمر موضوعنا هذا قبل أن تدمرنا.

مايو 1963

ول وإبريل ديورانت

صفحة رقم : 10418

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> مقدمة -> إقرار بالفضل

إقرار بالفضل

لقد لقي ربه أحد الناشرين المشاركين اللذين بدأنا معهما "مشروع الكلام" هذا في 1926، ولن ننسى أبداً روحه النيرة المتألقة. وما زال الثاني صديقاً لنا، وهو لايفتأ متحمساً، سمحاً، غفوراً. إنه ناشر لم يطغ عمله على شاعريته. وعسى ألا يفسر انتهازنا هذه الفرصة- التي قد تكون الأخيرة- للإعراب عن عرفاننا بجميل النقاد الكثيرين الذين أتونا بقراء لهذه المجلدات- نقول عسى ألا يفسر هذا بأنه "إحساس قوي بأفضال قادمة"، فما كنا بغير معونتهم إلا صوتين صارخين في البرية.

ونحن مدينان ديناً كبيراً لابنتنا إينل لما بذلت من جهد مخلص في نسخ مسودتنا الثانية، التي لم تكن واضحة تمام الوضوح، على الآلة الكاتبة نسخاً قارب الكمال، لما أدخلت عليها من تنقيحات صائبة؛ ولأخواتنا وأخيها- ساره، وفلورا، وماري، وهاري كاوفمان- لما قاموا به من تصنيف صابر لنحو أربعين ألف جازاة تحت اثني عشر ألف عنوان، وللسيدة أن روبرتس بمكتبة لوس أنجلوس العامة، والأنسة داجني وليرمز بمكتبة هوليود الإقليمية، لما قدمتا من معونة قيمة في توفير الكتب النادرة لنا من جميع أرجاء أمريكا، فما كان لهذه المجلدات أن تكتب لولا مكتباتنا السخية العظيمة، وللسيدة فيرا شنيدر، عضو هيئة التحرير بمؤسسة سيمون وشوستر، لما لقي هذا المجلد وسابقة على يدها من تحقيق علمي دقيق لم يظفر بمثله في أغلب الظن إلا القليل من المخطوطات.

صفحة رقم : 10419

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> مازاران وأفروند

الكتاب الأول

فرنسا في أوج عظمتها

1715 - 1643

الفصل الأول

الشمس تشرق

1684 - 1643

1- مازاران وأفروند

1661 - 1643

ترى ما الذي أعان فرنسا على أن تفرض على أوروبا الغربية منذ 1643، سلطاناً فيه ما يشبه قوة التنويم، اتصل في ميدان السياسة حتى 1763، وفي ميادين اللغة والدب والفن حتى 1815؟

إن العالم لم يشهد قط منذ أيام أغسطس ملكية ازدانت بمثل هذا العدد من أفذاذ الكتاب والمصورين والمثاليين والمعماريين، أو حظيت بمثل الإعجاب والمحاكاة الواسعين، سواء في آداب المجتمع أو الأزياء أو الأفكار أو الفنون، اللذين حظيت بهما حكومة لويس الرابع عشر من 1643 إلى 1715 لقد كان الجانب يؤمنون بباريس وكانهم يؤمنون مدرسة تهببية تصقل كل ألوان الجمال في الجسم والعقل. وكان الألوفا من الإيطاليين، والألمان، وحتى الإنجليز، يؤثرون بباريس على أوطانهم.

أن من أسباب هيمنة فرنسا أنذ ضخامة قواها البشرية. فقد بلغ سكانها عشرين مليوناً من الأنافس في 1660، في حين لم يزد سكان كل من أسبانيا وإنجلترا على خمسة ملايين، وإيطاليا على ستة، والجمهورية الهولندية على مليونين. أما الإمبراطورية الرومانية المقدسة، التي شملت ألمانيا، والنمسا، ويوهيميا، والمجر، فقد سكنها واحد وعشرون مليوناً تقريباً، ولكنها لم تكن إمبراطورية إلا بالاسم وقد أفقرتها قبيل هذه الحقبة حرب الثلاثين، وانقسمت إلى نيف وأربعمائة دولة. شديدة الحرص على "سيادتها"،

صفحة رقم : 10420

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> مازاران وألفروند

جلها صغير مستضعف، ولكل منها حاكمها، وجيشها، وعملتها، وقوانينها، ولا يزيد سكان الواحدة منها على المليونين -و على نقيض هذا كانت فرنسا بعد 1660 أمة متماسكة جغرافياً، متحدة تحت حكومة مركزية قوية واحدة، وهكذا تمخضت جهود ريشليو الأليمة عن مولد "القرن العظيم".

ولقد فاز البوربون حيث أخفق الفالوا في ذلك الصراع الطويل الذي نشب بين الهابسبورج والملوك الفرنسيين. وأخذت أجزاء من الإمبراطورية، عقداً بعد عقد، تقع في قبضة فرنسا، ثم نزلت أسبانيا الهابسبورجية عن كبرياتها وزعامتها في روكروا (1643) وصلح البرانس (1659). وبعدها عقد لواء القوة للدولة الفرنسية في العالم المسيحي، دولة مطمئنة إلى مواردها الطبيعية، ومهارات شعبيها وولائه، وخطط قادتها العسكريين، ومصير ملكها. كذلك كان من الأهمية بمكان ما كتب لهذا الفتى من حكم سيتصل قرابة ثلاثة أرباع القرن، مضيفاً بذلك وحدة الحكومة والسياسة إلى وحدة العرض والأرض، وهكذا سنرى فرنسا طوال خمسين عاماً ترعى وتستقدم عباقرة العلم والأدب، تشيد القصور الشامخة، وتجيش الجيوش الضخمة، وترهب نصف الدنيا وتلتهمها. لقد قدر لهذه الصورة أن تكون صورة عظيمة لم تكذ تضارعا من قبل عظمة، ترسم بكل ضروب الفن وألوانه، ويدم الرجال أيضاً.

ولم تكن فرنسا قد توحدت بعد يوم ارتقى لويس الرابع عشر العرش وهو لا يجاوز الخامسة (1643)، وكان على كردينال ثان أن يتم العمل الذي بدأه سلفه ريشليو. ذلك هو جول مازارن الذي كان يسمى في إيطاليا جوليو مازاريني، وقد ولد في "الأبروتزي" لأبوين صقليين فقيرين، وتولى اليسوعيون تعليمه في روما، وخدم البابوات موظفاً دبلوماسياً، ثم لفت أنظار أوربا فجأة يوم أنهى الحرب المانتوية (1630) بالمفاوضة في لحظة حرجة. فلما أوفده البابا مبعوثاً له في باريس، ربط مصيره بعقريّة

صفحة رقم : 10421

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> مازاران وأفروند

ريشليو المسيطرة، فكافأه هذا على إخلاصه بقبعة الكردينالية. وحين حضرت المنية ريشليو، "أكد للملك أنه لا يعرف غير مازاران رجلاً كفوا لملء مكانه"(1). واستمع لويس الثالث عشر إلى النصيحة. قلما مات هذا الملك المطيع (1643) ظل مازاران متوارياً بينما اضطلعت الملكة الأم، آن النمساوية، بالوصاية على ولدها، واحتال لوي دكونديه وجاستون دورليان، الأميران الملكييان، ليصبحا القوة الفعالة وراء العرش ولم يغتفرا للملكة قط أنها تخطتتهما واستوزرت ذلك الإيطالي الوسيم، الذي بلغ الآن الحادية والأربعين. وفي غداة تقليده الوزارة هشت باريس لنياً انتصار روكورا الحاسم، وبدأ حكم مازاران بهذا الاستهلال الميمون، ودعمته الانتصارات الكثيرة سواء في الدبلوماسية والحرب. وقد تبين ذكائه في حسن تخيره للسياسات، والقواد العسكريين، والمفاوضين. وبفضل إرشاده وقيادته وطد صلح وستفاليا (1648) تفوق فرنسا الذي أكسبه إياها الحرب. على أن مازاران لم يوهب وحدة الإرادة وقوتها اللتين أوتيهما ريشليو، ومن ثم فقد اعتمد على صبره ودهائه وسحره. وقام أصله الأجنبي عقبة في طريقه. ومع أنه أكد لفرنسا أن قلبه فرنسي وإن كان لسانه إيطالياً، إلا أن تأكيدات لم تحظ قط بالتصديق التام، فلقد كان رأسه إيطالياً، وقلبه ملكاً له. ولا علم لنا كم من هذا القلب اختص به الملكة، إنه خدمها وخدم أطماعه بغيره، واكتسب ودها، وربما حبها. وكان على يقين من أن سلامته وسلامتها في مواصلة سياسة بناء قوة الملكية تدريجياً ضد أشراف الإقطاع. وفي سبيل الإثراء تحسباً للمستقبل إن سقط، جميع المال بحرص الرجل الذي يذكر الفقر أو يخشاه، فحكمت عليه فرنسا، التي بدأت تعجب بفضيلة الاعتدال، بأنه محدث نعمة، وساءتها لكنته الإيطالية، وأقرباؤه الذين كلفوا الدولة غالياً. لا سيما بنات أخيه، اللاتي تطلب حسنهن جهازاً مترفاً من الخدم أو الحشم. وقد احتقره الكردينال رتر، مع أن رتر هذا لم

صفحة رقم : 10422

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> مازاران وأفروند

يكن ركناً ركيناً للفضيلة، فزعم أنه "إنسان قذر... ومحتال أصيل... وشري لثيم(2)". على أن رتر بعد أن هزمه مازاران لم يكن في وضع يعينه على إنصاف غريمه. وإذا كان الوزير الماكر قد جمع المال دون اكتراث للكرامة، فإنه أنفقه بذوق رفيع، فملأ حجراته بالكتب والتحف التي أوصى بها بعد ذلك لفرنسا وكان ذا أسلوب مرح مهذب يلذ السيدات ويحير الرجال. وقد وصفته امرأة منصفة تدعى مدام دموتفيل، بأنه: "يفيض رقة، بعيد كل البعد عن صرامة" ريشليو(3). وكان سريع العفو عن معارضيه، سريع النسيان لفضل ذوي الفضل عليه. وأجمع الكل على أنه لم يدخر جهداً في حكم فرنسا، ولكن حتى هذا التقاني كان يسيء إلى بعض الناس، لأنه كان أحياناً يترك كبار زواره ينتظرون على مضض في حجرات انتظاره. وكان كل إنسان في رأيه قابلاً للرشوة، وكان عديم الإحساس بالنزاهة. أما أخلاقه الشخصية فلم يكن بها بأس إذا ضربنا صفحاً عن الشائعات التي أرجفت بأنه جعل من ملكته خلية له. وقد صدم الكثيرين في البلاط بدعاباته الشكاكة عن الدين(4)، لأن مثل هذه السخرية لم تكن قد فشت بعد في المجتمع الفرنسي، ومن ثم غزا تسامحه الديني إلى افتقاره للإيمان(5). وكان من أول أعماله تأكيد مرسوم ناننت، فسمح للهيوجنت بأن يعقدوا مجامعهم في سلام. ولم يكابد أي فرنسي الاضطهاد الديني من الحكومة المركزية في عهد وزارته.

ومن عجب أنه احتفظ بسلطته كل هذا الزمن برغم كراهية الناس له لقد كرهه الفلاحون لما أثقل به كواهلهم من ضرائب يستعين بها على خوض غمار الحرب، وكرهه التجار لأن المكوس التي فرضها أضرت بالتجارة، وكرهه

الأشراف لأنه اختلف معهم حول مزايا الإقطاع. وكرهته "البرلمانات" لأنه وضع نفسه والملك فوق القانون. وزادت الملكة من كره الناس له بخطرها توجيه النقد لحكمه. وقد أيدته لأنها ألغت نفسها في وضع تتحداها فيه جماعتان رأتا طفولة الملك، وفي ضعف المرأة الموهوم، منفذاً

صفحة رقم : 10423

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> مازاران وألفروند

إلى السلطة: الأشراف الذين عللوا أنفسهم باسترجاع امتيازاتهم الإقطاعية السابقة على حساب الملكية و"البرلمانات" التي تطلعت لإحالة الحكومة إلى أوليغاركية من المحامين. إزاء هاتين القوتين-"أرستقراطية السيف" العريضة، و"أرستقراطية الرداء" الأحدث عهداً-التمست الملكة درعاً لها في عناد مازاران المقترن بالمرونة والدهاء. وقد بذل أعداؤه محاولتين عنيفتين لخلعه والسيطرة عليها، والمحاولتان تؤولان حرب الفروند. بدأ برلمان باريس حرب الفروند الأولى (1648-49) محاولاً أن يكرر في فرنسا تلك الحركة التي كانت لتوها قد رفعت البرلمان الإنجليزي فوق الملك مصدراً للقانون وحكماً فيه. وكان برلمان باريس، بعد الملك، المحكمة العليا لفرنسا، وقد قضت التقاليد ألا يقبل الشعب قانوناً أو ضريبة إلا إذا سجل هؤلاء الموظفون القضائيون (وكلمهم تقريباً محامون) القانون أو الضريبة. وكان ريشليو قد اختزل هذه السلطات أو تجاهلها، فصمم البرلمان الآن على تأكيدها. وأحس أن قد أن الأوان لجعل الملكية الفرنسية ملكية دستورية، خاضعة للإرادة القومية يعبر عنها مجلس نيابي. ولكن برلمانات فرنسا الاثني عشر لم تكن مجالس تشريعية انتخبها الأمة كما كانت الحل في برلمان إنجلترا، بل هيئات قضائية وإدارية ورث أعضاءها مقاعدهم أو وظائفهم القضائية عن آبائهم، أو عينهم الملك فيها. ولو أن حرب الفروند الأولى كتب لها الفوز لاستحالت فرنسا إلى أرستقراطية من المحامين. وكان في الإمكان تطوير مجلس طبقات الأمة، المؤلف من مندوبين عن الطبقات الثلاث-النبلاء ورجال الدين باقي الشعب-إلى مجلس نيابي يكبح جماح الملكية، ولكن مجلس الطبقات لم يكن يملك دعوته للانعقاد إلا الملك، ولم يدعه أي ملك من 1614، ولن يدعه حتى 1789، ومن هنا اندلاع الثورة الفرنسية. على أن برلمان باريس تحول إلى هيئة نيابية بصورة غير مباشرة، مؤقتاً، يوم اجترأ أعضاؤه على الكلام نيابة عن الأمة، فنرى أومير تالون، في

صفحة رقم : 10424

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> مازاران وألفروند

أوائل 1648، يندد بالضرائب التي أفقرت الشعب على عهد ريشليو ومازاران إذ يقول:

"لقد ألحق الخراب بفرنسا طوال عشرة أعوام. فاضطر الفلاحون أن يناموا على القش بعد أن بيعت أمتعتهم وفاءً للضرائب. وتمكيناً لنفر من الناس من أن ينعموا في باريس بحياة البذخ أكرهت جماهير لا حصر لها أن تعيش على الخبز القفار.. فاقدة كل شيء إلا نفوسها- وهذه لم تترك لها إلا لأن أهدأ يجد سبيلاً لعرضها للبيع(6). وفي 12 يوليو، انعقد البرلمان في قصر العدالة مع غيره من محاكم باريس ووجهوا إلى الملك وأمه مطالب عدة لا بد أنها بدت لهما ثورية. فقد طالبوا بخفض ربع الضرائب الشخصية كلها، وبألا تفرض ضرائب جديدة دون موافقة البرلمان بالتصويت الحر، وبطرد النظر الملكيين Intondants الذين حكموا الأقاليم دون اكتراث للحكام والقضاة المحليين، وبألا يجسب شخص أكثر من أربع وعشرين ساعة دون أن يمثل أمام القضاة المختصين. ولو أن هذه المطالب أجيبت لأصبحت حكومة فرنسا ملكية دستورية، ولسارت فرنسا جنباً إلى جنب مع إنجلترا في تطورها السياسي.

بيد أن الملكة الأم ربطتها بالماضي جذور أقوى من النصر بالمستقبل، إذ لم يكن لها عهد قط بأي شكل من أشكال الحكم سوى الملكية المطلقة، وقد أحست أن التخلي عن السلطة الملكية على هذا النحو المقترح الآن مفض لا محالة إلى صدوع لا رأت لها في صرح الحكومة الوطيد، وإلى تقويض تلك الركيزة السيكلوجية التي يستمد منها من التقاليد والعرف، والنزول بها إن عاجلاً أو آجلاً إلى فوضى الجماهير المتسيدة. ثم يالها من سبية أن تسلم ولدها سلطة دون تلك التي تمتع بها أبوه (أو ريشليو)! ذلك تقاعس عن واجبها سوف يوقفها موقف الإدانة أمام محكمة التاريخ. ووافقها مازاران لما رأى من قضاء مبرم عليه في هذه المطالب الوقحة من هؤلاء القانونيين المتطعين. ومن ثم أمر في 26 أغسطس بالقبض على بيير بروسيل وغيره

صفحة رقم : 10425

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> مازاران وألفروند

من زعماء البرلمان. بيد أن بروسيل العجوز كان قد اكتسب محبة الناس بهذا الشعر الذي أذاعه: "لا ضرائب" فاحتشد جمهور من الغوغاء أمام الباليه-رويال وتعالى صياحهم بطلب الإفراج عنه. وقد أطلق عليهم اسم الرماة Frondeurs لما كان يحمل الكثيرون منهم من مقاليع أو مراجيم، كما أطلق اسم "الفروند" على هذا التمرد. على أن جان فرانسوا بول دجوندي-الملقب درتز فيما بعد-مساعد رئيس أساقفة باريس وخليفته المنتظر، نصح الملكة بالإفراج عن بروسيل. فلما أبت انسحب غاضباً، وعاون على استعداد الشعب على الحكومة، وكان خلال ذلك يستخدم نفوذه خفية في محاولة للظفر بقبعة الكردينية، ويعاشر ثلاث خليات. وفي 27 أغسطس اتخذ أعضاء البرلمان وعددهم 160 طريقهم إلى القصر الملكي مخترقين الحشود والمتاريس، تشد أزهرم هتافات تصيح "يحيى الملك! إلى الموت يا مازاران!" ورأى الوزير الحذر أن اللحظة تتطلب الحكمة لا الشجاعة، فنصح الملكة بأن تأمر بالإفراج عن بروسيل، فوافقت، ثم إذ أخفضها هذا النزول على رغبة الجماهير اعتكفت هي والملك الصبي في ضاحية رويل وأجاب مازاران البرلمان إلى مطالبه مؤقتاً، ولكنه طاوله في تنفيذها. وظلت المتاريس في الشوارع. فلما غامرت الملكة بالعودة إلى باريس صاحت الجماهير بها صيحات الأزدراء، وسمعت بأذنيها تندها بعلاقتها بمازان. ثم عاودت الهروب من المدينة في 6 يناير 1649، مصطحبة في هذه المرة الأسرة المالكة والبلاط إلى سان جرمان، حيث توسد الحرير القش، ورهنت الملكة جواهرها لتشتري الطعام. أما الملك الصغير فلم يغتفر قط لهذا الحشد فعلته، ولم يحب عاصمة ملكه قط. وفي 8 يناير أصدر البرلمان في أوج تمرد مرسوماً طرد به مازاران من حماية القانون واستعدى عليه كل الفرنسيين الصالحين ليطاردوه ويقبضوا عليه باعتباره مجرماً. وقضى مرسوم آخر بالاستيلاء على كل الأموال

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> مازاران وأفروند

الملكية واستعمالها في أغراض الدفاع العام. ورأى كثيرون من النبلاء في هذا التمرد فرصة لاستمالة البرلمان إلى قضيتهم قضية استردادهم امتيازات الإقطاع. ولعلمهم أيضاً خشوا أن يفلت زمام الحركة إذا لم يتزعمها ذوو الألقاب الرفيعة. وانظم إليها كبار الإقطاعيين أمثال أدواق لونجفيل، وبوفور، وبويون، وحتى أمير كونتي البوربوني الدم، وأمدوها بالجند والمال وحرارة العاطفة. فأقبلت دوقه بويون ودوقه لونجفيل-الرائعة الحسن برغم إصابتها بالجذري- مع أطفالهما للعبش في الأوتيل دفييل رهائن مختارة لضمان ولاء زوجيهما للبرلمان والشعب. وبينما تنقلب إلى معسكر مسلح، كانت حاملات الألقاب يرقصن في قاعة المدينة، وواصلت دوقه لونجفيل غرامها بأمر مارسيك، الذي لم يكن قد أصبح بعد الدوق دلا روشوكو، ولا اعتنق بعد فلسفته الكليبية. وفي 28 يناير رفعت الدوقه من معونة المتمردين إذ ولدت ابناً لمارسيك(7)، وارتبط كثير من الفرونديين بكرائم النبيلات فرساناً تابعين لهن، فكن يشترين دماءهم بابتسامة متلطفة من ثغورهن.

ثم حالف الحظ الملكة فأنقذ الموقف عدا بين أمير كونتي وأخيه الأكبر لويس الثاني البوربوني، أمير كونديه-وهو "كونديه الأعظم" ذاته الذي قاد الجيوش الفرنسية من قبل إلى النصر في روكروا ولنز. وإذ شمع بأنفه القوى على تمرد المحامين والغوغاء، فإنه عرض خدماته على الملكة والملك. فوكلت إليه في ابتهاج قيادة جيش ضد باريس المتمرده-أي ضد أخيه، وضد أخته دوقه لونجفيل-والعودة بالأسرة المالكة في أمان إلى الباليه-رويال. وجمع كونديه الجند، وحاصر باريس، واستولى على شارنتون، المخفر الأمامي الحصين. أما النبلاء المتمردين فقد طلبوا المعونة من أسبانيا والإمبراطورية. وكان الطلب غلطة، ذلك أن عاطفة الوطنية كانت عند البرلمان والشعب أقوى من الإحساس الطبقي. وأبى معظم أعضاء البرلمان أن يلغوا ريشليو وانتصاره بإعادة تقوق الهابسبورج على فرنسا،

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> مازاران وأفروند

وبدعوا يتبينون أنهم إنما يستعملون بيادق في محاولة لاسترجاع نظام إقطاعي من شأنه أن يقسم فرنسا إلى أقاليم مستقلة فرادى، مستضعفة جماعة. وفي نوبة تواضع مفاجئة أرسلوا وفداً إلى الملكة المقترية، وعرضوا الخضوع لها، مؤكدين أنهم كانوا على الدوام يكونون لها الحب. أما الملكة فقد منحت جميع المتمردين عفواً عاماً، شريطة أن يضعوا السلاح. وسرح البرلمان جنوده، وأبلغ الشعب أن طاعة الملك هي واجب الساعة. وأزيلت المتاريس. وعادت أن، ولويس، ومازاران إلى قسبة الملك (28 أغسطس 1649)، والتأم شمل البلاط من جديد، وانظم إليه النبلاء المتمردين كأن شيئاً لم يقع، اللهم إلا سحابة قد انقشعت. وأغتر كل شيء، ولم ينس شيء. ووضعت حرب الفروند الأولى أوزارها.

ولكن حرباً ثانية ما لبثت أن نشبت. ذلك أن كوندية أحس أن خدماته تخول له التروؤس على مازاران. فتشاجر الاثنان، واتصل كوندية بالنبلاء المتذمرين يجس نبضهم، أما مازاران ففي أجراً لحظات حياته أمر بحبس كوندية وكونتي ولونجفيل في فانسين (18 يناير 1650). وهرولت مدام لونجفيل إلى نورمنديا، وأثارت حركة تمرد فيها، ثم مضت منها إلى الأراضي المنخفضة الأسبانية، وفتنت تورين حتى ارتضى خيانة العرش. فوافق القائد العظيم على أن يقود جيشاً أسبانياً ضد مازاران. يقول فولتير: "واصطدمت كل الأطراف بعضها ببعض، وأبرموا المعاهدات، ثم خان كل منهم الآخر واحداً إثر واحد... وما من رجل لم يغير ولاه غير مرة" (8) وقال ريتز ذاكراً تلك الفترة "كنا على استعداد لقطع رقاب بعضنا البعض عشر مرات كل صباح" (9). وكان هو نفسه على وشك أن يقتل بيد لاروشفوكو. على أن الكل أعلنوا ولاههم للملك، الذي لا بد قد ساعل نفسه: أي نوع من الملكية ذلك الذي استحال هسيماً بين يديه؟ وقامت قوة ملكية بمنورة في بورديو انتهت باستسلامها، وقاد مازاران جيشاً إلى فلاندر وهو يلعب دور إله الحرب مارس، وهناك هزم تورين

صفحة رقم : 10428

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> مازاران وألفروند

الذي لا يقهر. أما ريتز، التواق إلى الحلول محل وزير الملكة وعشيقتها، فقد أفتق البرلمان بأن يجدد مطالبه بنفي مازاران. وفقد الكردينال جراته، فأمر بالإفراج عن الأمراء المسجونين (13 فبراير 1651)، ودفعه الخوف على حياته إلى الهروب إلى برول القريبة من كولونيا. أما كوندية المتحرق للثأر من الوزير والملكة جميعاً فقد ربط بين لأخيه كونتي، وأخته لونجفيل، ودوق نامور ولاروشفوكو، في حلف جديد. وفي سبتمبر أعلنوا الحرب، واستولوا على بورديو، وأحالوها معقلاً للثورة من جديد. ووقع كوندية تحالفاً مع أسبانيا، وتفاوض مع كرومويل، ووعد بأن يقيم جمهورية في فرنسا.

وفي 8 سبتمبر أعلن لويس الرابع عشر أنه منه وصاية أمه عليه وأخذ مقاليد الحكم في يده. وكان يومها قد بلغ الثالثة عشرة. ورغبة في تهدئة البرلمان أيد نفي مازاران، ولكنه استجمع شجاعته في نوفمبر، فاستدعى الوزير ثانية، وعاد هذا إلى فرنسا على رأس جيش. أما جاستون أورليان فقد لعب الآن دور الحياد، ولكن تورين انحاز إلى صف الملك وفي مارس 1652 أوفد لويس حامل أختامه مولييه ليطالب بولاء مدينة أورليان. فبعث قضاتها برسالة عاجلة إلى جاستون هددوه فيها بتسليم المدينة إلى الملك مالم يعد هو أو ابنته ليستنقرا أهلها.

هنا ظهرت على مسرح الأحداث امرأة من أشهر نساء فرنسا الشهيرات، وما أكثرهن، وكأني بها "جان دارك" ثانية أقبلت لتنتقد أورليان. هذه المرأة-آن ماري لويز دورليان-كانت قد رفعت راية العصيان في طفولتها حين نفى ريشليو أباهما. وكان جاستون يلقب رسمياً-"المسيو" باعتباره شقيق لويس الثالث عشر، أما زوجته ماري بوربون، دوقة مونتانسويه، فهي "مدام" ذلك العهد، وابنتهما إذن هي "الدموازيل"، ولما كانت هذه الفتاة قوية البنية فارة القوام فقد سميت "الجراند دموازيل دمونتيا نسييه". وإذ كانت ذات ثراء عريض فقد شبت على كبرياء المال

صفحة رقم : 10429

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> مازاران وأفروند

والنسب، وكانت تقول "أنني أنتمي إلى بيت لا يفعل إلا ما هو جليل نبيل" (10). وقد تطلعت إلى الزواج من لويس الرابع عشر رغم أنه ابن عمها، فلما لم تلق تشجيعاً احتضنت التمرد. وحين سمعت استغاثة مدينتها ورأت أباهما يكره أن يخوض المعركة، حصلت على رضاه بأن تتوب عنه. ولقد طالما غاظتها القيود التي فرضها العرف على بنات جنسها، ولشد ما أنكرت حرمان النساء من الانخراط في سلك الجندية. ومن ثم فقد لبست الآن درعاً وخوذة، وجمعت من حولها لفيماً من كرائم النساء المسترجلات وقوة صغيرة من الجند زحفت بها في مرح وابتهاج على أورليان. وأبى القضاء أن يدخلوها المدينة خشية إغضاب الملك، فأمرت بعض رجالها أن ينقبوا ثغرة في الأسوار، ومنها تسللت وبرفتها كونتستان بينما الحراس يغفون أو يغضون. وما إن أفلحت في دخول المدينة حتى استطاعت أن تلهب مشاعر أهلها بسحر خطبها النارية. وهكذا رد موليه عن المدينة خاوي الوفاض، وأقسمت أورليان يمين الولاء للـ"عذراء" الجديدة.

وبلغت حرب الفروند الثانية ذروتها على أبواب باريس. فقد زحف كوندية عليها من الجنوب، وهزم جيشاً ملكياً، وأوشك أن يأسر الملك، والملكة، والكردينال، ولو فعل لـ"مات الشاه" حقيقة لا مجازاً، وبينما كان جيشه يدنو من باريس، حملت الجماهير وهم "الفرونديون" هنا أيضاً، رفات القديسة جنيفيف راعية المدينة وطافت الشوارع في موكب ضارعه إلى الله أن ينصر كوندية ويسقط مازاران أما الجراند مدموازيل فقد هرعته من أورليان إلى قصر لكسمبورج حيث كان أبوها لا يزال على تذبذبه، وطلبت إليه أن يؤيد كوندية، ولكنه أبى. واقترب الآن تورين وجيش الملك، والتقى بقوات كوندية خارج الأسوار قرب بوابة سانت انطوان (ميدان الباستيل الآن). وكاد تورين يكسب المعركة، لولا أن المدموازيل اندفعت إلى الباستيل وحرضت

صفحة رقم : 10430

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> مازاران وأفروند

مأموره على تصويب مدافعه على جنود الملك. ثم أمرت القوم داخل الأسوار، باسم أيها الغائب، أن يفتحوا الأبواب برهة ريثما يدخل جيش كوندية، ثم يغلقوها في وجه جيش الملك (2 يوليو 1652). وهكذا كانت المدموازيل بطلة الساعة.

وغدا كوندية سيد باريس، ولكن الرؤوس المتزنة أخذت تتقلب عليه. ولم يستطع أن يدفع رواتب جنده، فبدؤوا يهجرونه، وأفلت زمام الجماهير. وفي 4 يوليو هاجم الغوغاء قاعة المدينة مطالبين بأن يسلم إليهم جميع مؤيدي مازاران، وإظهاراً لسخطهم أشعلوا النار في المبنى، وقتلوا ثلاثين من المواطنين. وتعطلت العمليات الاقتصادية، وعمت الفوضى إمداد المدينة بالطعام، وخشي نصف أسرات باريس الموت جوعاً. وتساءلت الطبقات المالكة: أليست الأرستقراطية الملكية. بل أليس حكم مازاران، أهون من حكم الرعا. وأعان مازاران الموقف حين ارتضى لنفسه النفي طوعاً، تاركاً الفرونديين بغير قضية توحد بين صفوفهم. أما ريتز فقد رأى أن الوقت قد حان لدعم مكاسبه بعد أن تم له الظفر بقبعة الكردينالية الحمراء التي طالما اشتهاها، فاستخدم الآن نفوذه ليشجع الولاء للملك. وفي 21 أكتوبر عادت الأسرة المالكة إلى باريس دون أن يمسه سوء. واقتنت الباريسيون بمنظر الملك الصغير، البالغ من العمر آنذاك أربعة عشر ربيعاً، وسحرهم حسنه وشجاعته، ورددت الشوارع هتاف الجماهير "يحيى الملك" وما لبث هياج الشعب بن هدأ بين عشية وضحاها، وأعيد النظام لا بفضل القوة، بل بهالة الملكية، وهيبة الشرعية، وإيمان الشعب-الإيمان نصف اللاشعوري بحق الملوك الإلهي. وما وافى 6 فبراير 1653 حتى استنشر لويس في نفسه من

القوة ما شجعه على دعوة مازاران للعودة وتثبيته مرة أخرى في جميع سلطاته السابقة. ووضعت حرب الفروند الثانية أوزارها.
وفر كوندية إلى بورديو، وخضع البرلمان في بطة ووقار، واعتكف

صفحة رقم : 10431

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> مازاران والفروند

النبلاء المتمردون في قصورهم الريفية. والتمست مدام لونجفيل العزاء بين راهبات البور-روبال بعد أن ذهب وراء حسننها. ونفيت الجراندموازيل إلى إحدى ضياعها، حيث راحت تأكل قلبها حسرة وهي تذكر ملاحظة نسبت إلى مازاران، قال فيها إن إطلاقها المدافع من الباستيل قتل زوجها-أي قضى على أملها في الزواج من الملك. وفي عامها الأربعين أحببت أنطوان كومون، كونت لوزان، وكان أصغر وأقصر منها كثيراً، ولكن الملك رفض أن يأذن لهما بهذا الزواج، فلما عزم عليه برغم هذا الحظر سجنه عشر سنوات (1670-80). وظلت المدموازيل وفية له في شجاعة طوال سجنه، ولما أفرج عنه تزوجته، وعاشت معه عيشة مضطربة صاخبة حتى ماتت (1693). وأما رينتر فقد قبض عليه، ولكنه فر، ثم نال العفو، وخدم الملك مبعوثاً دبلوماسياً في روما، واعتكف في ركن باللورين، وألف مذكرات تمتاز بتحليلها الموضوعي للخلق، بما في ذلك خلقه هو يقول فيها:

"لم ألب دور الناظر نفسه للدين، لأنني لم استطع أن أعرف على وجه اليقين كم من الزمن سأستطيع لعب دور المزيف، وحين أعجزني العيش دون صلة غرامية محرمة، اتصلت بدمام بومرو، وكانت شابة لعوباً، لها العدد الكبير من العشاق، لا قس بيتها فحسب، بل في مكان عبادتها أيضاً، بحيث كانت صلات غيري المكشوفة معها ستاراً لصلتي بها... واستقر رأبي على التماذي في خطايا... ولكني كانت مصمماً كل التصميم على القيام بواجبات مهنتي (الدينية) بأمانة، وعلى بذل قصاري في تخليص نفوس غيري وإن لم أكثرث لخلص نفسي" (11).
أما مازاران فقد هبط على قدميه دون أن يضار، وعاد سيداً على المملكة، وخادماً لملك ما زال راغباً في التعلم. وقد روع فرنسا أن يبرم الوزير معاهدة مع إنجلترا البروتستانتية وكرمويل قاتل ملكها (1657)، الذي أعان على محاربة كوندية والأسبان بإرساله ستة آلاف جندي،

صفحة رقم : 10432

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> مازاران والفروند

وأحرز الفرنسيون والإنجليز معاً النصر في "معركة الكتيان" (13 يونيو 1658). وبعد عشرة أيام سلم الأسبان دنكرك، فدخلها لويس في احتفال رسمي مهيب، ثم نزل عنها لإنجلترا طبقاً للمعاهدة. وأبرمت أسبانيا مع فرنسا صلح البرانس (7 نوفمبر 1659) بعد أن استنزف القتال مالها ورجالها، فأنتهت بذلك ثلاثة وعشرين عاماً من حرب واحدة،

وأرست أساس حرب أخرى. ونزلت أسبانيا عن روسيون، وأرتوا، وجرافلين، وتيونفيل، لفرنسا، وتخلت عن جميع مطالبها في الأكراس، وزوج فيليب الرابع ابنته ماريا تريزا للويس الرابع عشر، بشروط ورطت فيما بعد غرب أوروبا كله في حرب الوراثة الأسبانية. ذلك أنه تعهد بأن يبعث إليها، خلال ثمانية عشر شهراً، بصداق قدره 500.000 كراون، ولكنه انتزع منها ومن لويس تنازلاً عن حقوقها في ولاية العرش الأسباني. وأصر ملك أسبانيا على أن يكون العفو عن كوندية شرطاً من شروط الصلح، فلم يكتف لويس بالصفح عن الأمير العنيف، بل رد إليه كل ألقابه وأملاكه، ورحب به في بلاطه.

كان صلح البرانس الدليل على إنجاز برنامج ريشليو - وخلصه كسر شوكة الهابسبورج، وحلول فرنسا محل أسبانيا أمة متسلطة في أوروبا. واعترف الفرنسيون بفضل مازاران في الوصول بهذه السياسة إلى ختامها الظاهر، ومع أنه لم يظفر إلا بحب القليلين منهم، فإنهم رأوا فيه رجلاً من أكفأ الوزراء في تاريخ فرنسا. ولكن فرنسا التي سرعان ما نسيت خيانة كوندية، لم تغتفر قط لمازاران جسعه وحرصه. ففي وسط الفاقة التي كابدها الشعب جمع ثروة طائلة قدرها فولتير بمائتي مليون من الفرنكات (12). وكان يحول المخصصات الحربية إلى خزائنه الشخصية، ويبيع وظائف التاج لمنفعته الخاصة، ويقرض الملك بالربا، وقد أهدى إحدى بنات أخيه قلادة مازالت تعد من أعلى الحلبي في العالم (13).

ولما حضرته الوفاة أشار على لويس بأن يكون وزير نفسه الأول، وألا يترك مسائل السياسة العليا لأي من مساعديه إطلاقاً (14) وبعد موته (9 مارس

صفحة رقم : 10433

قصة الحضارة - < عصر لويس الرابع عشر - < فرنسا في أوج عظمتها - < الشمس تشرق - < مازاران وألفروند

1661) كشف كولبير للملك عن المخبأ الذي أخفى فيه ثروته. فصادر لها لويس، وأنتج بذلك صدر شعبيه، وغدا أغنى ملوك زمانه. وهتف ظرفاء باريس لجينو، طبيب مازاران، لأنه رجل أحسن إلى الشعب كله، وقالوا "أفسحوا الطريق لنباته. إنه الطبيب الطيب الذي قتل الكردينال" (15).

صفحة رقم : 10434

قصة الحضارة - < عصر لويس الرابع عشر - < فرنسا في أوج عظمتها - < الشمس تشرق - < الملك

لم يكن أشهر ملوك فرنسا فرنسياً إلا بربع دمه. فقد كان نصف أسباني من ناحية أمه أن النمساوية، وربع إيطالي من ناحية جدته ماري مديتشي. وقد ألع بالفن والحب الإيطاليين دون تردد وبعد ذلك بالتدين والكبرياء الأسبانيين، وفي أخريات عمره أكثر شياً بجده لأمه، فيليب الثالث ملك أسبانيا، منه بجده لأبيه، هنري الرابع ملك فرنسا. سمي عند ولادته (5 سبتمبر 1638 ديودونيه Dioudonn أي "عطية الله"، ولعل الفرنسيين لم يستطيعوا أن يصدقوا أن لويس الثالث عشر قد حقق أبويته فعلاً دون عون من الله. وقد أضر بنمو الصبي وتطوره ما كان بين أبويه من تنافر، وموت أبيه الباكر، واضطرابات الفروند الطويلة الأمد. وكثيراً ما لقي الإهمال وسط نضال أن ومازاران المرة بعد المرة الاحتفاظ بالسلطة. وفي تلك الأيام التي لم تكن ظروفها مواتية لأي ملك، ذاق مرارة الفقر أحياناً في الملابس والطعام القليل. ويبدو أن أحداً لم يهتم بتعليمه، وحين تولاه المدرسون الخصوصيون كان همهم الأكبر أن يقنعوه بأن فرنسا بأسرها ميراثه الذي سيحكمه بالحق الإلهي، ولا يسأل عنه إلا أمام الله. ووجدت أمه الوقت لتدريبه على العقيدة والعبادة الكاثوليكية، اللتين سترتدان إليه في قوة بعد أن أنهكت فيه الشهوات وتضائل سناء المجد. ويؤكد لنا سان-سيمون أن لويس "لم يكده يعلمه أحد القراءة أو الكتابة، وإنه ظل جاهلاً كل

صفحة رقم : 10435

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> الملك

الجهل حتى أنه لم يلم بأشهر حقائق التاريخ وغيرها من الحقائق". لكن لعل هذه إحدى مبالغات الدوق المفرطة. وما من شك في أن لويس لم يظهر ميلاً بذكر للكتب، وإن كانت رعايته للمؤلفين وصدافته لمولير وبوالوراسين تشير إلى تقدير صادق للأدب. وقد أعرب فيما بعد عن أسفه لأنه لم يصل إلى دراسة التاريخ إلا متأخراً جداً، وكتب يقول "إن الإلمام بالأحداث العظيمة التي وقعت في العالم على مدى القرون الكثيرة، والتي هضمتها العقول القوية النشيطة، هذا الإلمام يفيد في دعم الحجج في جميع المداولات الهامة" (17) وقد جهدت أمه لتربي فيه الإحساس بالشرف والشهامة لا مجرد آداب السلوك، وبقي الكثير من هذا وإن لوثته إرادة طائشة للقوة. كان فتى جاداً ممتثلاً، يبدو أطيّب من أن يصلح للحكم، ولكن مازاران صرح بأن في لويس "من الأصالة والكفاءة ما يصنع أربعة ملوك ورجلاً شريفاً" (18).

في 7 سبتمبر 1651 أطل جون إيفيلين من مسكن توماس هوبز في باريس على الموكب الذي رافق الملك الصبي، البالغ الثالثة عشرة، متجهاً إلى الحفل المقام بمناسبة إنهاء سن قصوره. وقال هذا الإنجليزي في وصفه "مضى أبو اللو الصغير هذا أكثر الطريق وقبعته في يده يحيي السيدات والمعجبات اللائى ازدانت النوافذ ببهائهن وملاً الجو هتافهن "يحيي الملك" (19) وكان في إمكان لويس يومئذ أن يتسلم زمام الأمر كله من مازاران، ولولا أنه كان يحترم ذلك الدماء المهذب الذي طبع عليه وزيره، نسمح له بأن يحتفظ بالزمام تسع سنوات أخرى. ومع ذلك فقد اعترف بعد موت الكردينال قائلاً "لست أدري ماذا كنت صانعاً لو عمر طويلاً" (20) فلما مات مازاران أقبل رؤساء الإدارات على لويس ساتلين إلى من يأتون ليتلقوا تعليماتهم، فأجاب ببساطة قاطعة "إلي" (21) ومنذ ذلك التاريخ (9 مارس 1661) حتى أول سبتمبر 1715 تولى حكم فرنسا بنفسه. وبكى الشعب فرحاً إذ أصبح له ملك فعال لأول مرة في نصف قرن.

صفحة رقم : 10436

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> الملك

ولقد تهللوا فرحاً وتياً بحسنه. قال جان دلافونتين حين رآه في 1660، ولم يكن بالرجل الذي يخدع بسهولة، "أظنون أن في الدنيا ملوكاً كثيرين وهبوا هذا الوجه المليح وهذا السميت الرائع؟ لا أظن، ويخيل إلي حين أراه أنني أرى العظمة مجسمة" (22) لم تكن قامته تزيد على خمسة أقدام وخمس بوصات، ولكن السلطة جعلته يبدو أطول. وإذا كان قوي البدن، متين البنية، فارساً وراقصاً ماهراً، ومتقفاً بارعاً وراويةً خلاب العبارة. فقد ملك جماع الصفات التي تقتن المرأة وتفتح مغاليق قلبها. كتب سان-سيمون وكان يكرهه، "لو أنه كان فرداً عادياً لا أكثر لجلب نفس الدمار بغرامياته" (32). على أن هذا الدوق (الذي لم يستطع قط أن يغفر للويس حرمانه الأدواق من سلطة الحكم) اعترف بكياسته وآدابه الملوكية التي أصبحت الآن مدرسة للبلاط، ولفرنس عن طريق البلاط، ولأوروبا عن طريق فرنسا. قال:

"لم يعط أحد قط بأرق وألطف مما أعطي لويس الرابع عشر، ولا ضاعف أحد بهذه الطريقة من قيمة عطائه كما ضاعف لويس... لم تكن الألفاظ الجافية لتند عنه قط، فإذا اضطر أن يلوم، أو يوبخ، أو يقوم، وهو أمر نادر، ففي لطف دائماً تقريباً، لا في غضب أو صرامة قط... إلا في مناسبة واحدة، وما عرف الناس رجلاً طبع على مثل هذا الأدب الجم... أما مع النساء فلم يكن لتأديه نظير. ما مر بامرأة مهما قل شأنها إلا رفع لها قبعتها، حتى الخادمت اللاتي يعرف أنهن خادمت. فإذا خاطب سيدات المجتمع لم يغط رأسه إلا بعد أن يفارقهن" (24). على أن ذهنه لم يرق إلى مستوى سلوكه. لقد كاد يضارع نابليون في حكمه الثاقب على الرجال، ولكنه قصر كثيراً دون ذكاء قيصر الفلسفي، أو سياسة أغسطس الإنسانية البعيدة النظر. وفي هذا يقول سانت-بوف "لم يؤت أكثر من الإدراك السليم، ولكن حظه منه كان موفوراً" (25) ولعله خير من الذكاء. ولنستمع إلى سان-سيمون ثانية "كان بطبعه حسيفاً،

صفحة رقم : 10437

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> الملك

معتدلاً، حذراً، سيداً على حركاته ولسانه" (26). ويقول مونتسكيو "كانت نفسه أعظم من ذهنه" (27) وقد وهب قوة انتباه وإرادة عوضت إبان عزه عن قصور أفكاره. أما علمنا بعبوبه فيأتينا من فترة حكمه الثانية على الأخص (1683-1715)، حين ضيق التعصب أفعه، وأفسده النجاح والتملق. هنا نجده مغروراً غرور الممثلين متكبراً كبيراً الأثار الضخمة، وإن كان بعض كبيرائه ربما أضفاه عليه الرسامون ممن صوروه، وبعضه راجعاً إلى فكرته عن منصبه. فإذا كان قد مثل دور "الملك العظيم" فلعل عذره أنه خال هذا ضرورة لا يستغني عنها أسلوب الحكم ودعم النظام، إذ لا بد من وجود مركز للسلطة، ولا بد من أن تدعم الأبهة والمراسم هذه السلطة. قال لولده مرة "يبدو لي أن من واجبنا أن نكون متواضعين من أجل ذواتنا، متكبرين من أجل المركز الذي نشغله" (28) ولكنه قبل أن تواضع- ربما مرة واحدة، حين لم يجد غضاضة في أن يصحح بواله غلطة في أمر يتصل بالذوق الأدبي. ونقرأ مذكراته فتراه يتأمل فضائله في انتران كثير. وعنده أن خير سجاياه حبه للمجد. قال إنه "يؤثر الصيت البعيد على كل الأشياء، بل على الحياة نفسها" (29) ولكن ولعه هذا بالمجد خدم أعداءه لأنه غالي فيه. كتب يقول "أن تحمسنا للمجد la gloire ليس شهوة من هذه الشهوات الهزيلة التي تتطفي بمجرد تملك النفس لما تشتبهه، فإن عطايها التي لا تتال إلا بالجهد لا تورث السأم أبداً، ومن كف عن اشتهاه المزيد منها لا يستحق كل ما ناله من عطاء" (30).

بيد أنه أوتي حظاً من الفضائل الجليلة، إلى أن جر ولعه بالعظمة والمجد الدمار على خلقه وعلى بلده. فلقد أعجب بلاطه بعدالته، وتسامحه، وكرمه، وضبطه لنفسه. قالت مدام مونتيل التي كانت تراه كل يوم تقريباً خلال هذه الفترة "في هذا يجب أن تعترف كل العهود الملكية السابقة... لهذا العهد يتقدمه عليها في استهلاله السعيد" (31) وقد لاحظ القريبون منه ذلك الوفاء الذي كان يحمله على زيارة جناح أمه مراراً كل يوم على كثرة

صفحة رقم : 10438

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> الملك

شواغله، ثم شهدوا بعد ذلك حنانه على أبنائه، وحرصه على صحتهم وتربيتهم-أيأ كانت أمهم. كان أكثر عطفاً على الأفراد منه على الأمم، في وسعه أن يشن الحرب على الهولنديين الذين لم يؤذوه، وأن يأمر بتدمير البالاتينات، ولكنه يحزن لموت رويتر أمير البحر الهولندي، الذي أوقع الهزائم بالبحرية الفرنسية؛ وقد كلفته الشفقة على الملكة المخلوعة، زوج جيمس الثاني، وعلى ولده، حرباً كانت أسوأ حروبه. ويلوح أنه آمن حقيقة بأنه مبعوث العناية لحكم فرنسا، ولحكمها بسلطان مطلق. وكان في استطاعته بالطبع أن يستشهد بأيات من الكتاب المقدس سنداً لهدفه هذا، وأسعد بوسويه أن يريه أن العهدين القديم والجديد يدعمان حق الملوك الإلهي. وقد أخبر ولده في مذكراته التي أعدها لإرشاده أن "الله يجعل من الملوك الحفاظ الوحيد للصالح العام، وأنهم خلفاء الله على هذه الأرض". ولا بد لهم، لكي يمارسوا وظائفهم المقدسة على الوجه الصحيح، من سلطة لا حدود لها، ومن ثم يجب أن يكون لهم "الحرية الكاملة المطلقة في التصرف في جميع الممتلكات سواء ممتلكات رجال الدين أو العلمانيين" (32). أنه لم يقل (أنا الدولة) (tat, c'est moi) ولكنه آمن بهذا القول ببساطة مطلقة. أما الشعب فيلوح أنه لم تسوّه هذه الدعاوى، التي حبيبها هنري الرابع إليه انتفاضاً على الفوضى الاجتماعية، لا بل إن أفراده تطلّعوا إلى هذا الملك الفتى في ولاء ديني، واستشعروا عزة الجماعة في أبهته وجبروته، فما من بديل عرفوه لهما غير ما رافق الإقطاع من تفتت وغطرسة. وبعد طغيان ريشليو، وفوضى الفروند، واختلاسات

صفحة رقم : 10439

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> الملك

مازاران، رحبت الطبقتان الوسطى والدنيا بالسلطة والزعامة الممركزتين في حاكم "شرعي" بدا لهم واعدأ بالنظام، والأمن، والسلام.

وقد أفصح عن مذهبه في الحكم المطلق حين أراد برلمان باريس عام 1665 أن يناقش بعض مراسيمه. ركب من فالنسين في ثياب الصيد، ودخل قاعة البرلمان في حدائه العالي وسوطه بيده، ثم قال: "إن الكوارث التي جرتها مجالسكم معروفة مشهورة. لذلك أمركم بأن تقضوا هذا المجلس الذي اجتمع ليناقش مراسيمي. سيدي الرئيس الأول،

إني أمتنعك من السماح بهذه الاجتماعات، وأمنع أي فرد منكم بالمطالبة بها. (33)" ثم نقات وظيفة البرلمان بوصفه محكمة عليا إلى "مجلس خاص" ملكي، خاضع للملك على الدوام. وأدخل لويس على مركز النبلاء في الحكومة تغييراً جذرياً. لقد زدوا البلاط والجيش بأبهة المظهر وبريقه، ولكن ندر أن شغلوا الوظائف الإدارية ذلك أن كبار النبلاء دعوا إلى مغادرة ضياعهم معظم العام والإقامة في البلاط-أكثرهم في "أونيلاتهم" أو قصورهم الباريسية، وعظماؤهم في القصور الملكية ضيوفاً على الملك، ومن هنا هذه الأجنحة الشاسعة التي خصصت لهم في فرساي. فإذا رفضوا قبول الدعوة فليس لهم أن يتوقعوا أي فضل يؤثرهم به الملك. وأعفى النبلاء من الضرائب، ولكن فرض عليهم في الأزمات أن يهرعوا إلى قصورهم الريفية، وينظموا ويجهزوا أتباعهم، ويقودوهم للانضمام إلى الجيش. وقد استنابوا الحرب تخفيفاً من سأم الحياة في البلاط. حقاً كانوا عاطلين كثيري النفقة، ولكن بسالتهم في ساحة القتال أصبحت فرضاً ملزماً لطبقتهم. ومعهم العرف والإتيكيت من الاشتغال بالتجارة أو بشؤون المال-وأن جبايا الرسوم على التجارة المارة بأملكهم، واقترضوا في غير تخرج من أصحاب المصارف. وكانت ضياعهم يزرعها محاصسون (M(tayars) يدفعون لهم جزءاً من المحصول ويؤدون لهم مختلف الخدمات والمكوس الإقطاعية. ويفترض

صفحة رقم : 10440

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> الملك

في السيد الإقطاعي أن يحافظ في إقليمه على النظام والعدالة ويرعى أعمال البر. وكان في بعض الأقاليم يؤدي هذه المهمة أداء لا بأس به، فيكون محل احترام الفلاحين، وفي بعضها الآخر لا يبذل لقاء امتيازاته إلا عطاء تافهاً، فضلاً عن أن فترات غيابه الطويلة في البلاط كانت تقوض تلك الألفة المهدبة بين السيد وتابعه. وقد حظر لويس الحروب الخاصة التي كانت تنشب بين الأحزاب الإقطاعية، وأنهى-إلى أجل-عادة المبارزة التي انتعشت خلال حرب الفروندي، وتفاقم خطرهما لأن شهود المبارزين، لا المبارزين الأصليين فحسب، كانوا يقتتلون، ويقتلون، ويحرمون مارس إله الحرب من فرائسه. وقد أحصى جرامون عدد من أودت المبارزات بهم في تسع سنوات (1643-52) فكانوا تسعمائة(34). ولعل أحد أسباب الحروب المتكررة تلك الرغبة في إيجاد منفذ لولع الفرنسيين بالقتال، ولكبرياتهم داخل وطنهم على حساب الأجانب.

أما الإدارة الفعلية لشؤون الحكومة فقد أثر لويس لها كبار رجال الطبقة الوسطى ممن أثبتوا كفايتهم بالارتقاء إلى مراكزهم وممن كان في وسعه أن يركن إليهم في دعم سلطة الملك المطلقة(35). واختصت ثلاثة مجالس كبرى بتصريف شؤون الحكم، يجتمع كل منها برئاسة الملك، ويعمل في إعداد المعلومات والتوصيات التي يبني عليها الملك قراراته. فكان "مجلس الدولة" المؤلف من أربعة رجال أو خمسة يجتمع ثلاث مرات في الأسبوع ليعالج أهم مسائل العمل أو السياسة، وكان "مجلس الرسائل" يصرف شؤون الأقاليم، و"مجلس المالية" ينظر في الضرائب والإيراد والمنصرف. واضطلعت مجالس إضافية أخرى بشؤون الحرب، والتجارة، والدين، وانتزع الحكم المحلي من أيدي النبلاء المستهترين ونيط بهم النظار الملكييون، وسخرت الانتخابات البلدية لتأتي بعمد يرضي عنهم الملك. ولو أننا سألنا اليوم رأينا في حكومة شديدة التمركز كهذه لقلنا إنها ظالمة، وكذلك كانت، ولكن أغلب الظن أنها أقل ظلماً مما سبقها من حكم الأوليغاركيات البلدية أو النبلاء

صفحة رقم : 10441

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> الملك

الإقطاعيين. وآية ذلك أنه حين دخلت لجنة ملكية إقليم أوفرن (1665) للتحقيق في استغلال السادة لسلطتهم الإقطاعية في الإقليم، رحب الناس بهذا الاستجواب العظيم Lasgrands Jours d, Auvergne محرراً لهم من الظلم، وأتلج صدورهم أن يروا "إقطاعياً كبيراً" يُضرب عنقه لأنه قتل فلاحاً، وأشرفاً، أقل منه شأنًا يلقون جزاءهم على ما اقتروا من أفعال محظورة أو قاسية (36). ويمثل هذه الإجراءات حل القانون الملكي محل القانون الإقطاعي. ثم نقت القوانين لتبلغ من النظام والمنطق قصارى ما يتفق والأرستقراطية، فحكم "قانون لويس" الذي تكون على هذا النحو (1667-1673) فرنسا إلى أن جاء "قانون نابليون" (1804-1810) وكان القانون الجديد أرقى من كل قانون سبقه منذ عهد جستنيان، وقد "أسهم بقوة في تقدم الحضارة الفرنسية" (37) وأنشئ جهاز شرطة ليكبح إجرام باريس وقذارتها. فترى مارك رينيه، مركز فواييه دارجنسون، الذي خدم الدولة إحدى وعشرين سنة قائداً عاماً للشرطة، يترك سجلاً مشرفاً من الداء العادل الدعوب لوظيفة عسيرة، وبإشرافه رصفت شوارع باريس، ونظفت تنظيفاً معتدلاً، وأضيات بخمسة آلاف مصباح، وأمنت تأميناً لا بأس به للمواطنين، وأصبحت باريس الآن في هذا كله متقدمة جداً على أي مدينة أخرى في أوروبا. ولكن القانون أباح الكثير من أعمال الهمجية والطغيان. ونشرت شبكة من المخبرين في أرجاء فرنسا يتجسسون على الكلام كما يتجسسون على الأفعال وأببح اعتقال الأشخاص اعتقالاتاً تعسفاً بمقتضى الأوامر السرية Lettres de Cachet التي يصدرها الملك أو وزرائه، وسجنهم سنين دون محاكمة، ودون أن يحاطوا علماً بجريرتهم. وحظر القانون الاتهامات بالسحر، وأبطل حكم الإعدام عقاباً للتجديف، ولكنه احتفظ باستخدام التعذيب أداة لانتزاع الاعترافات من المتهمين. وأجاز القانون عقاب عدد كبير من الذنوب بالحكم

صفحة رقم : 10442

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> الملك

على مرتكبيها بتشغيلهم في سفن أسرى الحرب - وكانت سفناً كبيرة وطينة يسيرها بالمجاديف المذنبون موتفون بالسلاسل إلى المقاعد. وخصص ستة رجال لكل مجداف طوله خمسة عشر قدماً. وكانت صفارة المشرف تلزمهم الاحتفاظ بالسرعة التي يحددها، وأجسادهم عارية إلا من وزرة، وشعورهم ولحاهم وحواجبهم محلوقة، وأحكامهم طويلة الأمد، ومن الجائر مدها تعسفاً إذا لم يذعنوا للأوامر إذعاناً تاماً، فيفرض عليهم رقهم أوعاماً بعد أن يقضوا مدة عقوبتهم. ولم يخف عنهم عذابهم إلا ما سمح لهم به إذا بلغوا الميناء من بيع التوافه أو استجداء الصدقات وهم يسرون أزواجاً في أغلالهم.

أما لويس نفسه فوضع فوق القانون، حرراً في أن يأمر بأي عقوبة لأي ذنب. ففي 1674 قضى بأن تجدع أنوف جميع البغايا وتصلم آذانهن إذا ضبطن مع الجنود في نطاق خمسة أميال من فرساي. وكثيراً ما كان رحيماً ولكنه كثيراً ما كان صارماً قال لولده: "إن مقداراً محدوداً من الصرامة كان أعظم ما استطعته من ترفق بشعبي؛ ولول أنني اتبعت سياسة عكس هذه السياسة لجرت شروراً متعاقبة لا نهاية لها. ذلك أنه ما إن يضعف الملك في إنفاذ ما أمر به، حتى ينهار السلطان وينهار معه السلام العام... فيقع كل العبء على كواهل الطبقات الدنيا، التي يظلمها عندئذ ألوف من صغار الطغاة بدلاً من الملك الشرعية" (39).

وكان دائم العكوف على ما سماه "حرفة الملك" Le M(tier de Roi). يطلب إلى وزرائه أن يوافوه بالتقارير الكثيرة المفصلة، ولا يدانيه رجل في مملكته إطلاعاً على أحوالها. ولم يسؤه أن يشير عليه وزراؤه بما يناقض آراءه، وقد نزل أحياناً على رأي مستشاريه. ثم أنه احتفظ بأوثق العلاقات الودية مع مساعديه، شريطة ألا يغيب عنهم أنه الملك. قال مرة لفويان: "ثابر على أن تكتب إلي بكل ما يعن لك ولا تفتقر لك همة ولو لم أفعل دائماً ما تشير به" (40). وكانت عينه على كل شيء-الجيش والبحرية، والمحاكم، وبيته، والمالية، والكنيسة، والدراما، والأدب، والفنون، ومع أنه في

صفحة رقم : 10443

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> الملك

النصف الأول من حكمه كان يسنده وزراء أكفاء مخلصون، فإن السياسات والقرارات الخطيرة، والجمع بين شتى نواحي الحكم المعقد في وحدة متسقة-كل هذا كان من صنعه هو. لقد كان ملكاً كل ساعة من ساعات يومه. ولقد كلفه هذا من أمره عنناً. كان هناك من يقوم على خدمته في كل خطوة يخطوها، ولكنه دفع ثمن هذا برقابة الغير له في كل حركة وسكنة، فكانت مبارحته الفراش وذهابه إليه (إذا كان منفرداً) بعض وظائف الدولة. فإذا تم هذا الاستيقاظ الرسمي (Lever) استمع إلى القداس ثم أفطر، ثم مضى إلى قاعة المداولة، وخرج منها حوالي الواحدة، فتناول وجبة كبيرة، يأكلها عادة على مائدة صغيرة لشخص واحد، تحيط به بطانته وخدمه. فإذا فرغ من طعامه تمشي عادة في الحديقة، أو خرج للصيد، يرافقه أترأؤه في ذلك اليوم. فإذا عدا أنفق ثلاث ساعات أو أربعاً في اجتماعات مجلسه، ثم لحق بحاشيته في ملاهيهم من السابعة إلى العاشرة-حيث الموسيقى، ولعب الورق، والبليارد، والغزل، والرقص، والاستقبالات، وحفلات الرقص، وفي فترات من هذا الروتين اليومي "يتحدث إليه من شاء" (41) وإن لم يجرؤ على هذا إلا القليلون. "لقد أعطيت رعاياي كلهم، دون تفرقة، حرية مخاطبتي في جميع الساعات، سواء بأشخاصهم أو بملتمساتهم" (42) وحوالي الساعة العشرة مساءً، كان الملك يتناول العشاء رسمياً مع أبنائه وحفدته، وأحياناً مع الملكة.

ولقد كان من أسباب التهذيب والتنقيف لفرنسا أن نلاحظ كيف يفرغ مليكهم لمهام الحكم مواظباً عليها ساعات سبعاً أو ثماني طوال ستة أيام في الأسبوع. كتب السفير الهولندي يقول: (لا يصدق المرء أي سرعة، وأي وضوح، أي قدرة على التمييز، وأي ذكاء يصرف به هذا الملك الشاب أعماله ويفرغ منها، وذلك في تُلطف كثير مع جميع من يتعامل معهم، وفي طول أناة وهو يستمع إلى ما يريد مخاطبة أن يقول، الأمر الذي حُبب فيه كل القلوب) (43) ولقد ثابر على هذا التقاني في تصريف شؤون

صفحة رقم : 10444

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> الملك

الحكم طوال أربعة وخمسين عاماً، لا يكف عنه حتى وهو يلازم فراش المرض. وكان يحضر المجالس والمؤتمرات وقد أعد نفسه لها إعداداً وافياً. "فما كان ليحسم في أمر عفو الساعة، ولا دون مشورة" (45) ثم أنه يختار مساعديه بفتنة عجيبة، ولقد ورث بعضهم ككولبير من مازاران، ولكنه كان له من سلامة الذوق ما جعله يحتفظ بهم، حتى موتهم عادة. وكان يبذل لهم كل لطف ومعاملة، وكل ثقة معقولة، ثم لا تغفل عينه عن مراقبتهم". "كنت بعد أن أختار وزرائي لا يفوتني أن ادخل مكاتبهم على غير توقع منهم. وهكذا أحطت بالآلاف الأشياء التي أفادتني في تحديد طريقي(46)"

وحكمت فرنسا، في أيام شمسها الصاعدة تلك، خيراً مما حكمت في أي عهد مضى، برغم تركيز السلطة والإدارة، أو بفضل هذا التركيز، وبرغم تحكم يد واحدة في خيوط الحكم كلها، أو بفضل هذا التحكيم.

صفحة رقم : 10445

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> نيقولا فوكيه

3- نيقولا فوكيه

1615 - 80

كان هم الملك الأول أن يعيد تنظيم مالية الدولة بعد أن استنزفتها الاختلاسات في عهد مازاران. وكان نيقولا فوكيه، الذي شغل منصب "ناظر المالية" منذ 1653، يدير شؤون الضرائب والمصروفات بأصابع حريصة ويد فديرة. فقد قلل من عوائق التجارة الداخلية، ونشط نمو التجارة الفرنسية فيما وراء البحار، واقتسم في إحساس بالواجب غنائم منصبه مع ملتزمي الضرائب ومع مازاران. وكان هؤلاء الملتزمون العموميون من كبار الرأسماليين الذين أقرضوا الدولة مبالغ كبيرة لقاء تخويلهم حق جباية الضرائب نظير أدائهم مبلغاً محدداً. وقد جبوها بكثير من الجشع الفعال الذي جعلهم أبغض الأشخاص إلى الناس في المملكة، وقد أعدم من أمثالهم أربعة وعشرون ملتزماً خلال الثورة الفرنسية. وجمع فوكيه بالتواطؤ مع الملتزمين العموميين أضخم ثروة اقتناها فرد في جيله. وفي سنة 1675 كلف المعماري لوي لفو، والمصور شارل ليرون،

صفحة رقم : 10446

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> نيقولا فوكيه

ورسام المناظر الطبيعية أندريه لوتز، بأن يصمموها، وبينوا، ويزخرفوا له قصر فو - لو - فيكونت الريفي الفخم المترامي الأطراف، وأن يخططوا حدائقه، ويزينوها بالتماثيل. وقد استخدم المشروع مرة ثمانية عشر ألف رجل (40)، وكلف ثمانية عشر مليون من الجنيهات الفرنسية، وغطى مساحة ثلاث قوى. هنالك جمع فوكيه الصور والتماثيل والتحف، ومكتبة قوامها 27.000 مجلد حوت فيما حوت عدة نسخ من الكتاب المقدس والتلمود والقرآن دون تقريب. وروى أن هذه القاعات الأنيقة "كانت تتسلل إليها نساء من أنبل الأسر ليؤنسه بثمن غال" (49). وبمثل هذا الذوق، ولكن بثمن أقل، جلب فوكيه الشعراء أمثال كورنبي، ومولبير، ولافونتين، ليجمع بهم صالونه. ونظر لويس بعين الحسد إلى هذه الأبهة وخامرته الظنون في مصدرها. فطلب إلى كولبير أن يفحص أساليب ناظر المالية وحساباته، وأنهى كولبير إلى الملك أن الأساليب والحسابات فاسدة إلى حد لا يصدق. وفي 17 أغسطس 1661 دعا فوكيه الملك الشاب إلى مهرجان أقامته في فو. وقدم الطعام لضيوفه الستة الآلاف طبق من الفضة أو الذهب. ومثل مولبير في حدائق القصر ملهاته (Les F(cheux) (الثقلاء) وقد كلفت السهرة فوكيه 120.000 جنيهه وكلفته إلى ذلك حريته. ذلك أن لويس أحس أن الرجل "يسرق فوق ما يسمح له به مركزه" ولم يعجبه شعار (Quo non Ascendam?) (إلا لا يجوز لي أن أرقى؟) -الذي شفعه بصورة سنجاب يصعد شجرة، وخيل إلى لويس أن إحدى اللوحات التي رسمها ليرون تشمل صورة للأنسة دلافالير، وكانت إذ ذاك محظية للملك. وكاد يأمر باعتقال فوكيه للتو والساعة، لولا أن أفتعته أمه بأن في ذلك إفساد لسهرة رائعة. وتربص الملك بالوزير حتى تكاثرت الأدلة على اختلاساته. وفي 5 سبتمبر أمر قائد مشاته حملة البنادق بالقبض عليه (وهذا القائد

صفحة رقم : 10447

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> نيقولا فوكيه

"Mousquetaire" هو شارل دباتز، السيد دارنتيان، بطل قصة ديماس الأب). وأصبحت

صفحة رقم : 10448

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> نيقولا فوكيه

المحاكمة التي اتصلت ثلاث سنين أشهر القضايا في تاريخ العهد. وكافحت مدام دسفينيه، ولافونتين، وغيرهما من أصدقاء فوكيه، وتوسلوا إلى الملك ليبرئ ساحته، غير أن الأوراق التي عثر عليها في قصره الريفي أدانته. فحكمت

عليه المحكمة بالنفي ومصادرة أملاكه، وعدل الملك الحكم إلى السجن مدى الحياة. وظل الوزير الذي كان من قبل رجلاً مرحاً، ستة عشر عاماً، يذوي في سجنه بقلعة بنبرول ببيدمونت، ولا يسري عنه إلا صحبة زوجته الوفية. لقد كان حكماً قاسياً، ولكنه قلم أظافر الفساد السياسي، وأذّر الناس بأن الاستيلاء على الأموال العامة للمتعة الخاصة امتياز لا يختص به غير الملك.

صفحة رقم : 10449

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> كولبير يعيد بناء فرنسا

4- كولبير يعيد بناء فرنسا

كتب لويس يقول: "لقد أشركت كولبير...مفتشاً مع فوكيه لكي أرقبه...وهو رجل منحنه ما استطعت من ثقة، لأنني كنت عليماً بذكائه وجده وأمانته(50)" وظن أصحاب فوكيه أن كولبير تعقبه مدفوعاً بالرغبة في الانتقام منه، ولعل كولبير استشعر شيئاً من الحسد للرجل، ولكن فرنسا ذلك العهد لم تتجب ضريباً لكولبير في تقانيه الدؤوب في خدمة الصالح العام. روى أن مازاران قال للملك وهو على فراش الموت "مولاي، إني مدين لك بكل شيء، ولكنني أدفع ديني...بإعطائك كولبير(51)".

كان جان باتيست كولبير ابن قماش في رامس، وابن أخي تاجر غني، وإذ كان بوجوازيماً بدمه، اقتصادياً بمحيطه، فقد درب على كراهية الفوضى والعجز، وأعد بفطرتة وبطول المرانة لتغيير اقتصاد فرنسا من جمود الفلاحة والتقتت الإقطاعي إلى نظام موحد قومياً، يشتمل الزراعة والصناعة والتجارة والمال، يواكب ملكية ممرضة، ويهيئ لها الأساس المادي لعظمتها وسطوتها.

صفحة رقم : 10450

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> كولبير يعيد بناء فرنسا

دخل كولبير ديوان الحربية سكرتيراً صغيراً في العشرين (1639) وما لبث أن شق طريقه بجهده إلى حيث استرعى نظر رؤسائه، فنقل إلى خدمة مازاران، وأصبح المدير الناجح لثروة الكردينال. فلما سقط فوكيه، وكل إلى كولبير مهمة خطيرة هي إعادة تنظيم مالية الأمة. وفي 1664 أضيفت إليه مهمة الإشراف على المباني، والمصانع الملكية، والتجارة، والفنون الجميلة؛ وفي 1665 عين مراقباً عاماً للمالية، وفي 1669 عين وزيراً للبحرية، ثم وزيراً للخاصة الملكية. ولم يرق رجل آخر في عهد لويس الرابع عشر يمثل هذه السرعة، ولا اشتغل بمثل هذه المهمة، ولا حقق مثل

ما حققه من أعمال. بيد أنه لوث أرتقاع بمحباته أقرباءه، وإذ أغدق الوظائف والأموال على الكثيرين من آل كولبير، وغالى في مكافأة نفسه مكافأة كادت تعدل ثروته. وكان نهياً للغرور، يتشبت بانحداره المزعوم من ملوك اسكتلندا، وقد يعيث عبثاً منكرأ بالقوانين القائمة تعجلاً لقضاء المصالح، ويتغلب على المعارضة بالرشا يبذلها في الجهات العليا. فلما استقحل سلطانه غدا مستبداً، وأحفظ عليه النبلاء إذ داس على أقدام تنزف الدم الأزرق. وقد استخدم في إعادة تشكيل الاقتصاد الفرنسي نفس الأساليب الدكتاتورية التي استخدمها ريشليو من قبل في إعادة تشكيل الدولة الفرنسية. وهكذا لم يكن خيراً من هؤلاء الكرادلة.

بدأ بفحص أساليب الماليين الذين يحيون الضرائب، ويزودون الجيش بالسلاح، والملابس، والطعام، ويقدمون القروض للإقطاعيين أو لخزانة الدولة. وكان بعض هؤلاء المصرفيين يعدلون الملك ثراء. فبلغت ثروة صموئيل برنار مثلاً 33.000.000 جنيهه(52). وقد أثار الكثيرون منهم حنق النبلاء بالزواج من طبقتهم، وبشراء ألقاب الشرف أو اكتسابها، وبالعيش في ترف لا يقوى عليه من لا يملكون غير عراقة النسب. وكانوا يتقاضون فائدة على قروضهم تصل إلى 18% حسب درجة الشك في الوفاء بالقروض. وبناء على طلب كولبير شكل الملك "غرفة عدالة" للتحقيق

صفحة رقم : 10451

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> كولبير يعيد بناء فرنسا

في جميع المخالفات المالية التي ارتكبت منذ 1635، والتي اقترفها "أي شخص أيا كانت صفته أو حالته(53)" وطلب إلى جميع موظفي الخزنة، وجباة الضرائب، وأصحاب الدخول أن يقدموا سجلاتهم وبيبنوا شرعية مكاسبهم، وفرض على كل منهم أن يثبت نظافة يده وإلا كان جزاؤه المصادرة وغيرها من العقوبات. وبنيت الغرفة موظفيها في طول فرنسا وعرضها وشجعت المخبرين. وأودع السجن عدة رجال أغنياء، وأرسل البعض إلى مراكز تشغيل الأسرى، وشنق البعض الآخر. وصعقت الطبقات العليا لهذا "الإرهاب الكولبيري"، أما الطبقات الدنيا فصعقت له استحساناً. ونظم رجال المال في برجنديا حركة تمرد على الوزير، ولكن جماهير الشعب شهروا السلاح في وجوههم، ولقيت الحكومة عنتاً في إنفاذهم من غضب الشعب. ورد للخزنة نحو 150.000.000 من الفرنكات، وخفف خوف العقاب فساد المالية جيلاً كاملاً(54).

ومضى كولبير يعمل منجل الوفر في خزنة الدولة. فرفت نصف الموظفين في وزارة المالية وأغلب الظن أنه هو الذي اقترح على لويس ما قام به من إلغاء جميع مناصب الخاصة الملكية التي تدفع عنها الرواتب دون أن يؤدي أصحابها واجبات. فطرد عشرون من "سكرتيري الملك" ليكسبوا أقاتهم بطريق آخر. وخفض تخفيضاً قاسياً عدد المحامين العاميين، وضباط النظام، والمستقبلين، وغيرهم من صغار الموظفين في البلاط الملكي، وأمر كل موظفي الخزنة بأن يمسكوا حسابات دقيقة واضحة ويقدموها للفحص. وحول كولبير جميع الديون الحكومية القديمة إلى ديون جديدة بسعر فائدة أقل. ثم بسط جباية الضرائب. ولما تبين صعوبة جمع المتأخرات أقنع الملك بإلغاء كل الضرائب التي لم تسدد عن المدة 1647-58. ثم خفض معدل الضريبة في 1661، وحزن حين اضطر إلى رفعه ثانية في 1667 لكي يمول "حرب الأيلولة" وإسراف فرساي.

بيد أن أسوأ ما مني به من إخفاق كان في احتفاظه بنظام الضرائب

صفحة رقم : 10452

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> كولبير يعيد بناء فرنسا

القديم. ولعله لو قلبه من أساسه لأحدث من الإخلال بالنظام ما يهدد تدفق إيرادات الدولة. ذلك أن الدولة كانت تمولها أساساً ضريبتان-التاي (الرؤوس) والجابيل (الملح). وكانت ضريبة التاي تقدر في أقاليم من واقع الأملاك الحقيقية، وفي غيرها على أساس الدخل. وقد أعفي منها الأشراف والكهنة، فوُجعت كلها على كواهل "الطبقة الثالثة"-التي تنتظم باقي السكان وكان يطلب إلى كل إقليم أن يجبي مبلغاً محدداً، ويسأل كبار المواطنين عن جباية المبلغ المقرر. أما الجابيل فضريبة على الملح. فقد احتكرت الدولة بيعه، وألزمت جميع الرعايا أن يشتروا دورياً كمية مقررة بأسعار تحددها الحكومة. وإلى هاتين الضريبتين الأساسيتين أضيفت مختلف الرسوم الصغيرة، وعشر محصول الفلاح الذي يجب أدائه للكنيسة. على أن هذه الضريبة كانت عادة دون العشر بكثير (55)، وكانت تراعي الرأفة في جبايتها. وكانت الزراعة أقل المرافق تأثراً بإصلاحات كولبير. إذ بقيت طرق الفلاحة بدائية جداً بحيث عجزت عن إعاشة عشرين مليوناً من الأنفس ينكثرون بغير حساب. وكان لكثير من الأزواج عشرون ولداً. ولولا الحرب، والمجاعة، والمرض، وارتفاع نسبة الوفيات في الأطفال، لتضاعف السكان مرة كل عشرين سنة (56)، ومع ذلك منح كولبير الإعفاءات الضريبية للزواج المبكر، والمكافآت للأسر الكبيرة (ألف جنيه فرنسي للأباء إذا كان لهم أبناء عشرة، وألفين إذا كانوا اثني عشر ولداً (57)) وذلك بدلاً من أن يعمل على زيادة خصوبة التربة. وقد احتج على تكاثر الأديار لأنه يهدد القوى البشرية لفرنسا (58). على أن نسبة المواليد في فرنسا انخفضت رغم ذلك خلال حكم لويس، لأن الحرب زادت الضرائب وعمقت الفقر. ولكن حتى في هذه الحال، لم تقتل الحرب ما يكفي لحفظ التوازن بين المواليد والطعام، وكان على الطاعون أن يتعاون مع الحرب. وكان نقص المحصول سنتين متعاقبتين كفيلاً بإحداث المجاعة، لأن وسائل النقل لم ترق بحيث تستطيع بكفاية سد العجز في إقليم من الفائض في آخر. ولم تخل سنة من مجاعة في

صفحة رقم : 10453

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> كولبير يعيد بناء فرنسا

مكان ما فرنسا (59) وكانت السنوات (1648-1660، 1660-1662، 1693-1694، و1706-1710) فترات انتشر فيها الرعب من الموت جوعاً، حين بلغت نسبة الموتى من السكان في بعض الأقاليم ثلاثين في المائة. وفي 1662 استورد الملك القمح وباعه للفقراء بثمن بخس أو وهبه لهم وأعفاهم من ثلاثة ملايين فرنك من الضرائب المستحقة (60). وخفف التشريع بعض مآسي الريف، إذ حظر الاستيلاء على بهائم الفلاح أو عرباته أو أدواته وفاء للدين ولو كان ديناً للتاج، وأنشئت المزارع للاستيلاء تتعهد أفراس الفلاح مجاناً، ومنع الصيادون من اختراق الحقول المبذورة بالحب، وقدمت الإعفاءات الضريبية لمن يصلحون الأراضي المهجورة ويزرعونها. ولكن هذه الملطفات ما كانت لتنفذ إلى صميم المشكلة-مشكلة اختلال التوازن بين خصوبة الإنسان وخصوبة التربة، والافتقار إلى الاختراعات الآلية. على أن فلاحى أوربا على بكرة أبيهم كانوا يلقون مثل هذا العنت، ولعل الفلاحين الفرنسيين كانوا أيسر حالاً من نظرائهم في إنجلترا أو ألمانيا (61).

لقد ضحى كولبير بالزراعة قرباناً للصناعة ولكي يطعم سكان المدن المتكاثرين، وجيوش الملك المتعاضمة، حظر رفع سعر الغلال بما يتناسب وغيرها من الخدمات. وكان من الأوليات عنده أن على الحكومة التي تبتغي القوة أن تملك موارد كافية وجيشاً من الجند الأشداء المجهزين تجهيزاً حسناً؛ فطبقة الفلاحين المتمرسه بالمشاق تزود البلاد بمشاة

أقوياء، والصناعة والتجارة الناميتان لا بد أن توفر الثروة والأدوات. ومن كان هدف كولبير الذي لم ينشأ دونه هو أن يشجع الصناعة، لا بل إن التجارة يجب إخضاعها لهذا الهدف، فلا بد أن تحمي الصناعات الوطنية بالرسوم الجمركية التي تبعد المنافسة الخطرة من خارج البلاد. وجرياً على السياسات الاقتصادية التي انتهجها صلي وريشليو، أخضع كولبير جميع الصناعات الفرنسية-إلا أقلها شأنًا-لسيطرة الدولة النقابية: فكانت كل صناعة، بطوائفها، ومالياتها

صفحة رقم : 10454

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> كولبير يعيد بناء فرنسا

ومعلميها، وصبيتها، وعمالها اليوميين، تولى نقابة تنظمها الحكومة من حيث المعاملات، والأسعار، والأجور والبيوع. وأرسي المعايير الرفيعة لكل صناعة أملاً في كسب الأسواق بجودة التصميم والصلف في المنتجات الفرنسية. وقد آمن هو ولويس بأن التدوق الأرستقراطي للأناقة يدعم الحرف الكمالية ويحسنها، ومن ثم وجد الصاغة، والنقاشون، ونجارو الأثاث، ونساجو الأقمشة المرسومة، كلهم وجدوا العمل والحافز والصيت البعيد. وأمم كولبير مصنع جوبلان في باريس تأمياً تاماً، وجعله نموذجاً في الأسلوب والتنظيم. وشجع المشروعات الجديدة بالإعفاءات الضريبية، والقروض التي تمنحها الدولة، وخفض سعر الفائدة إلى 5%، وسمح باحتكار الصناعات الجديدة إلى أن ترسخ أقدامها. وقدم الحوافز لمهرة الصناع الأجانب حتى يجلبوا مهاراتهم إلى فرنسا، فاستوطن صناع الزجاج البنادق في سان-جوبان؛ وجلب صناع المشغولات الحديدية من السويد، وأنشأ بورتستنتي هولندي في أيفيل صناعة القماش الرفيع بعد أن كفل له حرية العبادة ورأس المال الذي أقرضته إياه الدولة. فما وافى عام 1669 حتى بلغ عدد الأنوال في فرنسا 44.000 وكان في تور وحدها 20.000 نساج. وقد زرعت فرنسا أشجار توتها، وكانت آنذ مشهورة بأقمشتها الحريرية. وتضاعف النسيج لتلبي حاجة جيوش لويس الرابع عشر المتزايدة. وهكذا اتسعت الصناعات الفرنسية سريعاً بفضل هذه الحوافز. وأنتج الكثير منها لسوق قومية أو دولية، وبلغ بعضها مرحلة رأسمالية في الاستثمار، والتجهيز، والإدارة. وصادفت رسالة التصنيع التي آمن بها كولبير هوى في نفس الملك، ففتقد الورش، وسمح بأن تختم المنتجات الفاخرة بخاتم السلاح الملكي، ورفع من قدر رجال الأعمال الاجتماعي، وخلع ألقاب الشرف على كبار المقاولين. وشجعت الدولة التعليم العلمي والتقني أو وفرته للشعب. وغدت الورش

صفحة رقم : 10455

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> كولبير يعيد بناء فرنسا

في اللوفر، والتويلري، ومصانع الجوبلان، وأحواض سفن البحرية، ومدارس يتلمذ فيها الصبية من الصناع. وسبق كولبير موسوعة ديدرو، إذ احتضن موسوعة للفنون والحرف، ووصفاً مصور الكل الآلات المعروفة (62). ونشرت

أكاديمية العلوم بحثاً عن الآلات والفنون الميكانيكية، وسجلت "صحيفة العلماء" تقنيات صناعية جديدة. وقد أخذ العجب ببيرو وهو يبني الواجهة الشرقية للوفر حين رأى آلة ترفع كتلة من الحجر تزن 100.000 كيلو (1.100 طن) (63). على أن كولبير عارض إدخال الآلات التي ينجم عنها تعطل العمال (64). وإذا كان شديد الولع بالنظام والكفاية، فقد أمم تنظيم الصناعة بوساطة الكومونات أو الطوائف الصناعية. وتوسع في هذا التنظيم توسعاً أوشك أن يكون خانقاً. وراحت مئات من الأوامر تصف أساليب الصناعة، وحجم المنتجات ولونها ونوعها، وساعات العمل وظروفه؛ وأنشأت اللجان في جميع قاعات المدن لفحص العيوب في إنتاج الحرف والمصانع المحلية. وعرضت علانية عينات من الصنعة المعيبة وإلى جوارها الصانع أو المدير. فإذا عاد المخالف إلى مخالفته وبخ في اجتماع للطائفة فإن عاد ثلاثة شد على عمود تشهيراً به وتنكيلاً (65). وشغل كل ذكر قادر على العمل. وجند الأيتام من ملاجئهم ليخدموا في المصانع، وأخذ المسئولون من الشوارع إلى المصانع، وقال كولبير للملك في اعتباط إنه حتى الأطفال يستطيعون الآن كسب بعض المال في المصانع. وأخضع العمال لنظام يقرب من النظام العسكري، فالكسل وعدم الكفاية، والشتم، والأحاديث النابية، والعصيان، والسكر، والاختلاف إلى الحانات، ومعاشرة الخليقات، وعدم الخشوع في الكنيسة كل أولئك يجب أن يعاقبه رب العمل، وبالجد أحياناً. أما ساعات العمل فطويلة وقد تبلغ اثني عشرة أو أكثر تتخللها فترات من ثلاثين إلى أربعين دقيقة لتناول الطعام. أما الأجور فضئيلة، يدفع جزء منها أحياناً سلماً يحدد

صفحة رقم : 10456

قصة الحضارة - < عصر لويس الرابع عشر - > فرنسا في أوج عظمتها - < الشمس تشرق - > كولبير يعيد بناء فرنسا

رب العمل أسعارها. وقد حسب فوبان متوسط الأجر اليومي الذي يتقاضاه مهرة الصناع في المدن الكبيرة فكان اثني عشر سواً (ثلاثين سنتاً) في اليوم، ولكن السوا الواحد كان يشتري رطلاً من الخبز (66). واختزلت الحكومة عدد أيام الأعياد الدينية التي تعفي العمال من العمل، وبقي من هذه العطلات ثمانية وثلاثون يوماً، فكان مجموع أيام الراحة في السنة تسعين (67). وحرمت الإضرابات، وحظرت اجتماعات العمال لتحسين أحوالهم، وقد سجن بعض العمال في روشفور لأنهم شكلوا ضالمة أجورهم. ونمت ثروة طبقة رجال الأعمال، وارتفعت موارد الدولة، ولكن لعل حال العمال كانت على عهد لويس الرابع عشر أسوأ منها في العصور الوسطى (58). لقد أخضعت فرنسا للنظام الصارم في الصناعة كما أخضعت في الحرب.

أما في مجال التجارة، فقد آمن كولبير كما آمن معظم رجال الدولة في جيله بأن اقتصاد الأمة ينبغي أن ينتج أقصى ما يمكن من ثروة واكتفاء ذاتي داخل الأمة، وأنه مادام الذهب والفضة عظيمي القيمة بوصفهما وسيطين في المبادلة، فلا بد من تنظيم التجارة بحيث تكفل للأمة "توازناً تجارياً في صالحها" أي زيادة في الصادرات على الواردات، ومن ثم تدفقاً للفضة والذهب إلى البلاد. وبهذه الطريقة وحدها استطاعت فرنسا، وإنجلترا، والأقاليم المتحدة وكلها لم تكن تربتها تحوي ذهباً، أن تحصل على حاجاتها، وأن متون جيوشها زمن الحرب، وهذه هي "المركنتلية" Mercantilism ومع أن بعض الاقتصاديين سخروا منها، فقد كان وسوف يكون هناك الكثير من المبررات لها في عصر كثير الحروب. ولقد طبقت على الأمة نظام التعريفات والترتيبات الحامية التي كانت في العصور الوسطى تطبق على الكومون. ونمت وحدة الحماية حين حلت الدولة محل الكومون وحدة الإنتاج والحكم. إذن فيمقتضى نظرية كولبير يجب أن تكون أجور العمال منخفضة تمكيناً لمنتجاتهم من أن تنافس نظيرها في الأسواق الأجنبية وبذلك تجلب الذهب إلى البلاد، ويجب أن يكون جزءاً أرباب العمل وفيراً

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> كولبير يعيد بناء فرنسا

حفزاً لهم على الاضطلاع بالمشروبات الصناعية لصنع السلع، لا سيما الكماليات، التي لا نفع لها في الحرب ولكن يمكن تصديرها بتكلفة قليلة لقاء عائد كبير، ثم يجب أن تكون أسعار الفائدة منخفضة إغراء للمقاولين باقتراض رأس المال. وهكذا نرى طبيعة التنافس التي فطر عليها الإنسان، في تلك الغاية التي لا تخضع لقانون والتي تصطرع فيها الدول، قد كتبت اقتصادها الوطني وفق فرص الحرب وحاجاتها. فالسلام ليس إلا حرباً بوسائل أخرى.

إن فوظيفة التجارة في رأي كولبير (بل في رأي صلي وريشليو وكرومويل أيضاً) تصدير السلع المصنوعة نظير المعدن النفيس أو الخامات. ومن ثم نراه في 1664، ثم في 1667، يرفع الرسوم على الواردات التي هددت بأن تنافس في فرنسا منتجات الصناعات الوطنية المعتبرة ضرورية في الحرب، فلما استمر جلب هذه الواردات حضرها بتأناً. وفرض رسوم تصدير باهظة على المواد الضرورية، ولكنه خفض الضريبة على تصدير الكماليات.

ثم حاول تحرير التجارة الوطنية من المكوس الداخلية. وقد وجد أن التجارة الفرنسية تعترض سيرها المعوقات من الحواجز والتعريفات الإقليمية والبلدية الغربية. من ذلك أن السلع المنقولة من باريس إلى المانش، أو من سويسرا إلى باريس، كانت تدفع عنها مكوس عند ست عشرة نقطة، ومن أورليان إلى نانت عند ثمان وعشرين، وربما كان هناك مبرر لهذه المكوس يوم كان كل إقليم يطمح إلى الاكتفاء الذاتي ويجاهد في حماية صناعاته، وذلك بسبب صعوبات النقل واحتمالات الصراع الإقطاعي أو تنازع الكومونات. أما وقد توحدت فرنسا سياسياً الآن، فقد غدت هذه المكوس الداخلية عقبة كؤودا في طريق الاقتصاد القومي، وحاول كولبير بمرسوم أصدره في 1664 أن يلغي جميع المكوس الداخلية، ولكن المقاومة كانت عنيدة، ففي نصف فرنسا استمرت المكوس، وظل بعضها إلى عهد الثورة الفرنسية وكان أحد أسبابها الصغيرة. وكاد كولبير أن يقضي على

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> كولبير يعيد بناء فرنسا

الجهد الذي بذله للتوسع التجاري بإصداره اللوائح المعقدة التي استهدفت إصلاح ما فسد ولكنها عرقلت التجارة إلى حد تعطيلها أحياناً. قال (هو أو أحد نقاده) "أن الحرية روح التجارة، فعلينا أن نترك الناس ليختاروا أنسب الطرق لهم".

(69II Faut Laisser Faire les Hommes)، وهنا عبارة قدر لها أن تصنع التاريخ.

وقد جاهد ليفتح مسالك جديدة للنقل الداخلي. فبدأ مجموعة من الطرق الرئيسية الملكية، وكانت حربية في هدفها الأول؛ ولكنها كانت إلى ذلك نعمة على التجارة عامة. كان السفر بالبر لا يزال شاقاً بطيئاً. مثال ذلك أن مدام دسفينيه استغرقت ثمانية أيام في رحلة بالمركبة من باريس إلى ضيعتها في فينريه ببرتاني وبناء على اقتراح من بيبربول دريكيه، استخدم كولبير اثني عشر ألف رجل في حفر قناة لانجدوك الكبرى، التي بلغ طولها 162 ميلاً، وارتفعت أحياناً إلى 830 قدماً فوق سطح البحر، ولم يحل عام 1681 إلا وقد اتصل البحر المتوسط بخليج باسكاي عن طريق الرون والقناة والجارون، واستطاعت تجارة فرنسا أن تتجنب المرور بالبرتغال وأسبانيا.

وكان كولبير ينظر بعين الحسد إلى الهولنديين الذين ملكوا خمسة عشر ألف سفينة تجارية من بين الآلاف العشرين التي تمخر العباب، على حين لم تملك فرنسا منها سوى ستمائة. ومن ثم بنى شيئاً فشيئاً البحرية الفرنسية حتى بلغت سفنها 270 بعد أن كانت لا تتجاوز العشرين، وأصلح المرافئ وأحواض السفن، وألزم الرجال في غير هودة بالانخراط في سلك البحرية، ونظم أو أصلح الشركات التجارية بجزر الهند الغربية، والشرقية، وبحر المشرق، والبحار الشمالية. ومنح الشركات امتيازات الحماية، ولكن هنا أيضاً عطلتها اللوائح التي فرضها عليها تعطيلاً مدمراً. ومع ذلك نمت التجارة الخارجية، وناقست البضائع الفرنسية الهولندية أو الإنجليزية في البحر الكاريبي، والشرق الأدنى، والأوسط، والأقصى. وغدت مارسلياً

صفحة رقم : 10459

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> كولبير يعيد بناء فرنسا

أكبر ثغور البحر المتوسط بعد ما أصابها من اضمحلال لقلة السفن الفرنسية. وبعد عشر سنين من الخبرة والتشاور والعمل الشاق أصدر كولبير (1681) قانوناً بحرياً للسفن والتجارة الفرنسيين، ما لبثت الأمم الأخرى أن طبقت. ثم نظم التأمين على الرحلات التجارية الخطرة وراء البحار. وبارك اشترك فرنسا في تجارة الرقيق، ولكنه جاهد ليُلطف من قسوتها باللوائح الرحيمة (70). وقد شجع الارتياح الجغرافي وإنشاء المستعمرات، أملاً في أن يبيعهها السلع المصنوعة نظير خاماتها، ويستخدمها روافد لبحرية تجارية قد تكون ذات نفع في الحرب. وكان المستعمرون الفرنسيون منتشرين فعلاً في كندا، وغرب أفريقيا، وجزر الهند الغربية، وفي طريقهم إلى داخل مدغشقر، والهند، وسيلان. وارتاد كورسيل وفونتناك البحيرات العظمى (1671-73). وأسس كاديلاك مستعمرة فرنسية كبيرة فيما هو الآن ديترويت. واستكشف لاسال المسيسيبي في 1672 (بعد أن منح احتكار تجارة الرقيق في الأقاليم التي يفتحها)، وهبط فيه في مركب هزيل، فوصل إلى خليج المكسيك بعد شهرين من رحلة حافلة بالمغامرات. واستولى على الدلتا وأطلق عليها اسم الملك. فسيطرت فرنسا على واديي السانت لورنس والمسيسيبي في قلب أمريكا الشمالية. جملة القول - ونحن لم نسجل غير جزء من نشاط كولبير، وقد أغفلنا الحديث عن جهوده في سبيل العلم والأدب والفن - أن حياة هذا الرجل كانت من أعظم ما سجله التاريخ تقانياً في العمل وسعة في الانتشار. فلم يعرف الناس منذ شارلمان ذهناً واحداً مثل ذهنه من صنع جديد على هذا النحو دولة بهذه العظمة في نواح بهذه الكثرة. صحيح أن هذه اللوائح والنظم كانت مزعجة، وقد نفرت الناس من كولبير، ولكنها شكلت القالب الاقتصادي لفرنسا الحديثة، ولم يفعل نابليون أكثر من مواصلة جهود

صفحة رقم : 10460

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> كولبير يعيد بناء فرنسا

كولبير ومراجعتها سواء في الحكم أو القانون. وعرفت فرنسا طوال عشر سنوات من الثراء ما لم تعرفه من قبل. ثم انحسر هذا الثراء لعيوب النظام وأخطاء الملك. وقد احتج كولبير على إسراف الملك والبلاط. وعلى آفة الحرب التي كانت تنحدر جسد فرنسا في شيخوخته، ولكن التعاريف العالية التي فرضها، شأنها في هذا شأن لويس بالسطوة والمجد- هي التي أفضت إلى بعض هذه الحروب. وندد غرماء فرنسا البحريون بإقفال موانئها في وجه بضائعهم. ووقع على كواهل الفلاحين ومهرة الصناع عبء إصلاحات كولبير، بل أن رجال الأعمال الذين أثرتهم هذه الإصلاحات اتهموه بأن لوائحه عوقت التطور. قال أحدهم للوزير "لقد وجدت العربية مقلوبة على أحد جنبيها، فقلبتها على الآخر" (71) فلما مات (في سبتمبر 1683) رجلاً محطماً مهزوماً، اضطر ذوهه إلى دفن جثمانه ليلاً مخافة أن يسبه الناس في الشوارع(72).

صفحة رقم : 10461

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> الآداب والأخلاق

5- الآداب والأخلاق

كان العهد عهد الآداب الصارمة والأخلاق المنحلة. وكان اللباس شعيرة المركز الاجتماعي. فهو في أوساط القوم غاية في البساطة- سترة سوداء تغطي في تواضع القميص والسر اويل والسيقان. أما في الصفوة فهو بهي فاخر، وهو في الرجال أبهى وأفخر منه في النساء. فكانت القبعات كبيرة لينة، لها حاشية عريضة مزركشة بجديلة من الذهب، تمال إلى أعلى في جانب أو ثلاثة جوانب، وتختال بحزمة من الريش يضمها مشبك معدني. وحين ارتقى لويس العرش نبذ- ونبذ من بعده البلاط- تلك الباروكات التي أشاع زيتها أبوه الأصلح، فقد كانت تلافيف شعر الملك الشاب الكستنائي أروع وأبهى من تخبأ، ولكن حين بدأ شعره ينحل بعد 1670، اتخذ الشعر المستعار، وما لبث أن توج كل رأس- أيا كان طموح حامله- وسواء في فرنسا أو إنجلترا أو ألمانيا، بعقوص مستعارة مبدرة تنسدل

صفحة رقم : 10462

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> الآداب والأخلاق

إلى الكتفين أو ما تحتتهما، وتجعل كل الرجال يبدو سواسية إلا لضجعاتهم. أما اللحى فحلقت، وأما الشوارب فاحتقل بها، ومدت القفازات إلى ما فوق الرسغ وزينت، وارتدى الجنسان فراء الديدن في الجو البارد. واستعيض عن طوق

الرقبة المكشكش العالي بلفاع حريري يعقد هيناً حول العنق. وأخذ يحل محل الصدر ثوب طويل مزخرف، وزين الفخذان بسر اويل "كيلوت" تمتد إلى الركبتين وتقل بمشابك أو تعقد بأشرطة عندها، ثم تغطي هذه الثياب- إلا من أمام- بستره ملتفة تنتهي أكامها بأساور واسعة تحف بها حاشية من الدنتلا. واختص القانون النبلاء بتحلية ثيابهم بوشي من الذهب أو بالأحجار الكريمة، ولكن ذوي اليسار من أي طبقة تجاهلوا هذا القانون. أما الجوارب الطويلة فكانت عادة من الحرير، وكان الذكور يلبسون الأحذية الطويلة الرقبة حتى لحفلات الرقص.

أما النساء المهذبات فكانت ثيابهن فضفاضة منسدلة تتقق وفضائلهن. وكانت صدراتهن ذات أربطة ولكن من أمام كما ناشدهن بانورج في كتاب رابليه، فكانت النهود البارزة تثب للعيون البصاصة. وأما التنورة المطوقة الأكام المنفوخة فولت مع ريشليو. وحفلت الأرواب بالتطريز والألوان المشرقة، وكست الأحذية العالية المبهجة الأقدام المتعبة، وربط الشعر بالأشرطة، ورصع، وطر، وجعد، في تأنق...وظهرت أولى مجالات الأزياء في 1672.

أما آداب السلوك فكان طابعها الجلال والرخامة، وأن بقيت جلافت كثيرة تحت أبهة القبعة المرفوعة للتحية والثوب الجرار. فكان الرجال ييصقون على أرض الحجر، ويبولون على سلم اللوفر (73). وقد ينقلب المزاح وحشياً أو بذيئاً. ولكن الحديث كان رشيماً مهذباً، ولو دار حول الفسيولوجيا والجنس. وكان الرجال يأخذون عن النساء آداب السلوك

صفحة رقم : 10463

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> الآداب والأخلاق

والحديث، فيتكلمون في عبارة واضحة وسليمة، ويتكلمون الحشو والحذقة، وينالون جميع الموضوعات مهما اشدت عمقها بمرح خفيف روحاً وعبارة. وكان الاحتداد في الجدل من سوء الأدب. وأما آداب المائدة فأخذت تتحسن. وكان الملك يأكل بأصبعه طوال حياته، ولكن استعمال الشوك كان قد راج، وشاع استعمال نحو 1660 فوطة للمائدة. ولم يعد من المستساغ أن يسمح الضيوف أصابعهم في غطاء المائدة.

أما الفضائل الاجتماعية فلم تكن ممتازة في هذا العصر- عصر الأتكتيت والبروتوكول. وتضاعل الإحسان بازدياد ثراء الطبقات العليا. وكانت الأخلاق أسلم ما تكون في الطبقات حيث يسر الشعور بالأمن حسن السلوك، وحفزته الرغبة في الارتقاء. وكان المثل الأعلى عند جميع الطبقات هو L'honn(te Homme وليس المقصود بالعبارة الرجل الأمين، بل الرجل الشريف، الذي يجمع بين كرم النشأة والعادات وبين حسن السلوك. أما الأمانة فقلما كان يتوقعها القوم من إنسان. فقد انتشرت الرشوة في المناصب على الرغم من لوائح كولبير ونظام الجاسوسية الملكي، وشجع عليها بيع الوظائف الحكومية مصدراً من مصادر إيراد الدولة. وانبعثت الجريمة من جشع الأغنياء، وفقر الفقراء، والتجرات الغضبية في جميع الطبقات. وأية ذلك أن من السيدات العريقات النسب من أفدن من خدمات كاترين مونفوزان أو المركزية برانفلييه، وكلتاها حذقت تحضير السموم الطويل المفعول، وشاع القتل بالسهم شيوياً اقتضى إنشاء محاكم خاصة لتفصل في قضاياها(74). أما كاترين مونفوزان فقد مارست الطب، والتوليد، والسحر، وساعدت كاهناً مرتداً ترتيل "القداس الأسود" التماساً لمعونة الشيطان، وكانت تدبر إجهاض النساء وتبع السموم وأشربة الغرام. ومن زبانتها أوليمب ماننشييني، ابنة أخت مازاران، والكونتيسة جرامون، ومدام دمونتيسبان خليعة الملك. وفي 1679 فحست لجنة نشاط "لافوزان" ووجدت الأدلة على اشتراك العدد العديد من كبار أفراد الحاشية، الأمر

صفحة رقم : 10464

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> الآداب والأخلاق

الذي حدا بلويس إلى حظر إذاعة التحقيق (75). وأحرقت لافوازان حبة (1680). ويدخل في أخلاق الأفراد انحرافاتهم العادية. وقد نص القانون على عقاب اللواط بالإعدام، وما كانت أمة تتخذ أهيبتها للحرب، وتدفع الإعانات على الأطفال، لتسمح بانحراف الغرائز الجنسية عن جادة الأنسال، ولكن مطاردة أمثال هؤلاء المنحرفين كانت عسيرة في وقت كان فيه شقيق الملك لوطياً يشار إليه بالبنان، ويأنف القوم من ازدرائه ولكنهم يرونه فوق القانون. أما الحب بين الجنسين فقد تقبلوه على أنه تخفف رومانسي من أعباء الزواج، لا مبرر يدعو للزواج. وقد رأوا أن اقتناء الثروة أو حمايتها، أو نقلها، أهم في الزواج من محاولة الإبقاء على عواطف الساعة العابرة طوال العمر. ولما كانت معظم زيجات الطبقة الأرستقراطية لا تعدو أن تكون ترتيباً لتنظيم الملكية، فإن المجتمع الفرنسي أغضى عن التسري، فكان لكل قادر تقريباً خلية، وكاد الرجال يفاخرون بغرامياتهم مفاخرتهم بمعاركهم الحربية. أما المرأة فتشعر أنها مهجورة منبوذة إذا لم يلاحقها الرجال سوى زوجها، وكان بعض الخائنين من الزواج يعضون عن خيانات زوجاتهم. يقول شخص في مسرحية لموليير: "أفي الدنيا كلها بلد آخر يبلغ فيه صبر الأزواج مبلغه في هذا البلد (76)؟" في هذا المناخ الكلي نشأت أمثال لاروشفوكو. وكان القوم يحتقرون البغاء إذا تجرد من الكياسة، ولكن امرأة كنينون دلانكلو، جملته بالأدب والظرف، استطاعت أن تحظى بشهرة تداني شهرة الملك.

كان أبوها نبياً حر الفكر، ومبارزاً بارعاً. وكانت أمها شديدة الحرص على الفضيلة، ولكنها (إذا صدقنا ابنتها) "مجردة من مشاعر الحس...وقد ولدت ثلاثة أطفال وهي لا تكاد تلاحظ الأمر (77)". ومع أن نينون لم يتح لها التعليم المنهجي، فإنها التقطت من المعارف قدراً

صفحة رقم : 10465

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> الآداب والأخلاق

لا يستهان به، متعلمة الكلام بالإيطالية والأسبانية، ربما لتستعين بهما في هذه التجارة الدولية، وقرأت مونتيني وشارون، بل قرأت ديكرات، وأخذت عن أبيها تشككه. وقد جعلت مناقشتها حول الدين في فترة لاحقة دسفينيه ترتعد (78). قالت نينون "إذا احتاج إنسان إلى دين ليسلك في هذه الدنيا كما ينبغي، فتلك علامة إما على ضيق عقله، أو على فساد قلبه" (79). وكان من الجائز أن تخلص من ذلك إلى ضرورة الدين لجميع الناس تقريباً، ولكنها بدلاً من هذا انزلت إلى البغاء وهي لا تتجاوز الخامسة عشرة (1635). وقالت في استهتار "إن الحب عاطفة لا تنطوي على أي التزام خلقي (80)" فلما خلعت العذراء وجهرت بفوضاها الجنسية، أمرت أن النمساوية بحبسها في دير للنساء. وروى أنها فتنت راهبات الدير بظرفها وحيويتها، واستمتعت بحبسها كأنها فرصة للاستجمام. وفي 1657 أفرج عنها بأمر الملك.

لقد كان فيها ما هو أكثر كثيراً من مجرد المحظية، حتى إنها سرعان ما ضمت إلى لفيف المعجبين بها عدداً كبيراً من أبرز الرجال في فرنسا، ومنهم نفر من الحاشية (81)، من الملحن لولى إلى كوندية العظيم ذاته. وكانت تجيد العزف على الهاربسيكورد، وتحسن الغناء، يقصدها لولى ليحرب ألحانه الجديدة. وقد حوت قائمتها ثلاثة أجيال من آل

سفينييه- زوج كاتبة الرسائل اللطيفة، وابنها، وحفيدها(82). وأقبل الرجال من خارج فرنسا يلتمسون ودها. قالت "لم يتشاجر علي عشاق قط، فقد كانوا يتقون في قلبي، وكان كل منهم ينتظر دوره(83)". وفي 1657 افتتحت صالوناً، ودعت إليه رجال الأدب والموسيقى والفن والسياسة والحرب، وأحياناً زوجاتهم، وأذهلت باريس بما أبدت من ذكاء لا يقل عن ذكاء أي امرأة في جيلها أو ذكاء أكثر الرجال، فلقد طالعمهم فيها عقل مثيرفا من خلف وجه فينوس. يقول فيها قاض صارم هو سان- سيمون:

صفحة رقم : 10466

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> الآداب والأخلاق

"كان من المفيد لإنسان أن تستقبله في صالونها نظراً إلى الاتصالات التي يكونها عن هذا الطريق. ولم يدر في صالونها أي لعب للقمار، ولا ضحك عال، ولا مجادلات، ولا حديث في الدين أو السياسة، بل دار الكثير من الحديث الذكي الرشيق... وأنباء الغرام، ولكن دون فضح أو تشهير. كان كله حديثاً مهذباً خفيفاً محسوباً، وكانت هي نفسها تغذي الحديث بذكائها و علمها الغزير(84)". وأخيراً أثارت فضول الملك نفسه، فطلب إلى مدام دمانتينون أن تدعوها إلى القصر، واستمع إليها من وراء ستار، فافتنت بها، وكشف لها عن وجوده وقدم نفسه إليها. وكانت في هذه الفترة (1677؟) قد كسبت ما يشبه الاحترام، وخلعت عليها أمنتها البسيطة وأيديها الكثيرة سمعة أشرف، فكان الرجال يودعون لديها المبالغ الكبيرة مطمئنين، واثقين دائماً من إمكان استردادها حين يشاءون، ولاحظت باريس كيف كانت نينون تزور الشاعر سكارون كل يوم تقريباً حين أقعده الشلل، وكيف كانت تأتيه بأطياب الطعام التي يعجز عن دفع ثمنها. ولقد عمرت بعد أصدقائها كلهم تقريباً، حتى سانت إفريمون التسعيني، الذي كانت رسائله التي يبعث بها من إنجلترا عزاء لشيوخها. كتبت له تقول: أحياناً أضيق بعمل نفس الأشياء دائماً، ويعجبني السويسريون الذين يلقون بأنفسهم في النهر لهذا السبب(85)". وكانت تضيق بالتجاعيد. "إذا كان لزاماً أن يبئلي الله المرأة بالعضون، فأولى به على الأقل أن يضعها على باطن قدمها(86)". فلما دنت منيتها، تنافس اليسوعيون، والجانسونيون على شرف هدايتها للإيمان، فاستسلمت لهم في لطف، وماتت في أحضان الكنيسة (1705)(87). ولم تترك في وصيتها سوى عشرة إيكوات لجناتها، حتى تكون أبسط ما يستطاع، ولكن "أطلب في تواضع إلى المسيو أرويه"- وهو وكيلها- "أن يسمح لي بأن أترك لابنه، الذي

صفحة رقم : 10467

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> الآداب والأخلاق

يتلقى العلم عند اليسوعيين، ألف فرنك ليشتري بها كتباً(88)". واشترى الابن الكتب، وقرأها، وأصبح فولتير.

إن أروع السحر الذي توج هامة المجتمع الفرنسي هو أن حافظ الجنس امتد إلى الذهن، وأن النساء تتبهن ليضفن الذكاء إلى الجمال. وأن الرجال روضن النساء على السلوك المؤدب، والذوق السليم، والحديث المهذب؛ وفي هذا كان القرن (الممتد من 1660 إلى 1760) في فرنسا أوج الحضارة. في ذلك المجتمع كثرت النساء الذكيات كثرة لم تعهد من قبل، فإذا جمعهن إلى الذكاء فتنة الوجه أو الجسد، أو سحر الاهتمام الناشئ عن الرقة واللفظ، أصبحن قوة تهذيب عارمة. وكانت الصالونات تدرّب الرجال على الحساسية لرقة الأنثى، والنساء على التجاوب مع عقل الذكر. وفي هذه اللقاءات طور فن الحديث حتى بلغ شأواً لم يبلغه من قبل ولا من بعد-فن تبادل الأفكار دون مغالاة أو خصومة، بل في مجاملة، وتسامح، ووضوح، وخفة، ورشاقة. ولعل هذا الفن كان أقرب إلى الكمال في عهد لويس الرابع عشر منه في أيام فولتير-أقل المعية وظرفاً، ولكن أكثر مادة ومودة. كتبت مدام دسفينيه إلى ابنتها تقول "بعد الغداء مضينا إلى السمر في ألطف غابات الدنيا، وظللنا هناك إلى السادسة، مشتغلين بمختلف ألوان الحديث، البالغ العطف، والرقة، واللفظ، والكرم، مما مس شغاف قلبي(89)" وقد عزا كثير من الرجال الفضل في تسعة أعشار تعليمهم إلى مثل هذا التبادل والاتصال الاجتماعي بين الجنسين(90).

وفي الغرفة الزرقاء بالأوتيل درامبويه كان أول الصالونات يسطع ببهائه الأخير. أمه كونديه وإن لم يلعب فيه، وأمّه كورنبي، ولاروشفوكو، والسيداتان لافاييت ودسفينيه، ودوقة لونجفيل، والجراند مدموازيل. هناك أرست النساء المتحدقات Les Femmes Pr(cieuses قواعد السلوك الدقيق والحديث المصقول. ولكن حرب الفروند قطعت هذه اللقاءات، ورحلت مدام درامبويه إلى الريف، مع أن "أوتيلها" (قصرها) فتح بعد

صفحة رقم : 10468

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> الآداب والأخلاق

ذلك أبوابه ثانية لعقري فرنسا (موليير)، فإن باكورة تمثلياته Les Pr(cieuses Ridicules (المتحدقات المضحكات) (1659) كانت ضربة قاضية عليه. وطوى أول الصالونات المشهورة بموت مؤسسته في 1665. وواصلت هذا التقليد صالونات أخرى، في بيوت السيدات دلا سابليير، ودلامبير، ودسكوديري- وآخر هن أشهر كتاب الرواية في هذا العصر، وأولاهن امرأة جذبت الرجال بحسنها رغم حبها للفيزياء، والفلك، والرياضة، والفلسفة. في صالونات كهذه زكت النساء العالمات Femmes Savantes اللاتي أثرن سخيرية موليير في 1672. ولكن كل هجاء ليس إلا نصف الحقيقة، ولعل موليير في لحظاته الفلسفية كان يقر بحق النساء في أن يشاركن في حياة جيلهن الفكرية. فنساء فرنسا، أكثر حتى كم كتابها وفنانيها، هن تاج حضارتها، والمفخرة العظمى لتاريخها.

صفحة رقم : 10469

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> بلاط الملك

لقد عاون الملك وبلاطه على تحضير فرنسا. وفي 1664 كان البلاط يضم نحو ستمائة شخص: الأسرة المالكة، وكبار النبلاء، والمبعوثين الأجانب، والخدم والحشم. وقد زاد العدد في أوج اكتمال فرساي إلى عشرة آلاف من الأنفس (91)، ولكن هذا العدد شمل الأعيان الذين اختلفوا إلى القصر بين الحين والحين، وجميع المرفهين والأتباع، والفنانين والمؤلفين الذين وقع عليهم اختيار الملك ليكافئهم. وأصبحت الدعوة إلى البلاط شهوة لا تفوقها غير شهوة الطعام والجنس، لا بل إن قضاء يوم واحد فيه كان نشوة لا تنسى، جديدة بأن يبذل في سبيلها نصف مدخرات العمر. وبعض السر في بهاء البلاط كان في الأثاث المترف الذي ازدانت به الغرف، وبعضه في لباس الحاشية، وبعضه في حفلات الترفيه البالغة الفخامة، وبعضه في جمال النساء وصيت الرجال الذين اجتذبهم بريق المال، والشهرة، والسلطان. ومن النساء الشهيرات- كالسيدتين دسفينيه ودلافاييت- من لم يختلفن

صفحة رقم : 10470

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> بلاط الملك

إلى البلاط إلا نادراً لانحيازهن إلى قضية الفروند، ولكن بقي منهن عدد يكفي لإبهاج ملك بالغ الحساسية لمفانن المرأة. وتبدو المرأة في اللوحات التي وصلت إلينا من هذا العصر على شيء من البدانة، يبرز لحمها من صدرها، ولكن من الواضح أن الرجال كان يعجبهم دفء الشحم واللحم فيمن يعشقون من النساء. أما أخلاقيات البلاط فكانت الزنا المحتشم، والإسراف في اللباس والقمار، والدسائس العنيفة جرياً وراء الصيت والمنصب، وهذا كله يخطو على إيقاع من السلوك الخارجي الدمث، والآداب الرشيق، والمرح الإلزامي. وضرب الملك المثل في بدعة اللباس الغالي، لا سيما في استقبالات السفراء، فنراه وهو يستقبل مبعوثي سيام يرتدي عباءة موشاة بالذهب ومرصعة الأطراف بالماس، بلغت تكاليفها 12.500.000 جنيه فرنسي (92)، ومثل هذا المظهر كان جزءاً من سيكولوجية الحكم. وأفنى الأشراف ونسأؤهم نصف دخل ضياعهم في الثياب والخدم والأثاث، وكان على أقلهم شأن أن يستخدم أحد عشر خادماً ومركبتين، أما الأثرياء فكان لهم من الأتباع خمسة وسبعون في بيوتهم، ومن الخيل أربعون في مرابطهم (93). وفقد الزنا سحره بعد أن لم يعد محظوراً، فغدا لعب الورق للمقامرة أهم ضروب الترفيه في البلاط. وهنا أيضاً كان لويس القدوة لحاشيته، فقامر بمبالغ كبيرة، تستحثه إلى ذلك خليلته مونتسبان، التي خسرت وكسبت أربعة ملايين من الفرنكات في لعب ليلة واحدة (94). وسرى هذا الهوس من البلاط إلى الشعب. كتب لابرويير يقول: "إن الألوفا يخبون بيوتهم بالقمار، وهو لعبة رهيبه... ينوي لاعبيها القضاء المبرم على غريمه، وينتشي بشهوة الكسب (95)".

وقد أفضى التنافس على الخطوة عند الملك، أو على وظيفة مجزية، أو على مكان في الفراش الملكي، إلى جو من الشبهات، والافتراءات، وتبادل الخصومات الحادة. قال لويس "في كل مرة أعين إنساناً في وظيفة

صفحة رقم : 10471

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> بلاط الملك

شاغرة، أسخط مائة شخص، وأجعل شخصاً ناكراً للجميل(96) ". وكان القوم يتشاجرون على أمكنة الصدارة في المائدة، أو على القيام على خدمة الملك، وحتى سان-سيمون أفلقه الخوف من أن يتقدمه دوق لكسمبرو خمس خطوات في أحد المواكب، وقد اضطر لويس إلى نفي ثلاثة أدواق من البلاط لأنهم أبوا أن يقدموا على أنفسهم أمراء أجنب. وكان الملك شديد الاحتفال بالبروتوكول، وقد عيب مرة حين وجد على مائدة الغداء سيدة عاطلاً من اللقب تتقدم دوفة في مجلسها(97). ولا ريب في أن ضرباً من الترتيب المقرر كان ضرورياً لمنع ستمائة من الأنفس المغرورة المزهوة بأسباب التشريف من أن يدوس بعضها على أقدام بعض، وقد أثنى الزوار على ذلك المظهر المتسق الذي بدت فيه الحاشية الضخمة. ومن قصور الملك، واستقبالاته، وحفلات ترفيهه، سرى دستور للتيكيت، ومعايير للسلوك والذوق، إلى الطبقتين العليا والوسطى، وأصبحت هذه كلها جزءاً من التراث الأوربي. وأراد الملك أن يمنع الملل من أن يتطرق إلى نفوس هؤلاء النبلاء والنبيلات، ذلك الملل الذي قد يحمل البعض على قتل الملك، فطاف الفنانين على مختلف أنواعهم بإعداد ألوان الترفيه- من مباريات بين الفرسان، ورحلات صيد، ومباريات تنس وبلليارد، وجماعات سباحة أو نزهة في الزوارق، وحفلات غداء أو عشاء، ورقص وحفلات راقصة، وحفلات تنكرية، ومرقص باليه، وأوبرات، وحفلات موسيقية، وتمثليات. وبدت فرساي وكأنها جنة الله في أرضه حين كان الملك يتقدم حاشيته إلى الزوارق الراسية في القناة، والأصوات والآلات تشدو بالموسيقى، والمشاعل تعين القمر والنجوم على إضاءة المشهد. وهل في الدنيا أفخم ولا أكرم للأنفاس من حفلات الرقص الرسمية، حين تعكس قاعة المرايا في مراياها الهائلة رشاقة الرجال والنساء وخفتهم وهم يخطرون في رقصات فخمة تحت آلاف الأضواء؟ لقد أراد الملك أن يحتفل بمولد ابنه البكر، الدوفان،

صفحة رقم : 10472

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> بلاط الملك

(1662) فأقام حفلة باليه في الميدان المنبسط أمام التويلري، حضرها خمسة عشر ألف شخص. وقد دمر كومون 1871 القصر، ولكن موقع هذا المهرجان الأشهر ما زال يسمى كاروزل Carrousel (أي ساحة الرقص الدائري السريع). لقد أحب لويس الرقص، وأشاد به "واحداً من أفضل وأهم الرياضات لتدريب الجسم(98)", وأسس في باريس (1661) الأكاديمية الملكية للرقص. وكان يشارك بشخصه في رقصات الباليه ويحذو النبلاء حذوه. وشغل الملحنون في بلاطه بإعداد الموسيقى لحفلات الرقص والباليه، وهناك تطورت المتتالية التي حذق استخدامها بيرسيل في إنجلترا وآل باخ في ألمانيا. ولم يبلغ الرقص صوراً رشيقة متنسقة كهذه منذ أيام روما الإمبراطورية. وفي 1645 استقدم مازاران المغنين الإيطاليين ليرسوا أساس الأوبرا في باريس. وقطع موت الكردينال هذا الاستهلال، ولكن حين شب الملك أنشأ أكاديمية الأوبرا (1669)، وكلف بيير بيران بتقديم أوبرات في عدة مدن فرنسية، ابتداء من باريس في 1671. فلما أفلس بيران من جراء إنفاقه المسرف على المناظر والآلات، نقل لويس "امتياز أكاديميات الموسيقى" إلى جان باتيست لولي Lully، فما لبث هذا الرجل أن رقص البلاط بأسره على أنغامه.

وكان هو أيضاً هبة من هبات إيطاليا. فقد أتى به الشفالييه جيز صبيلاً فلاحاً في السابعة من فلورنسة إلى فرنسا في 1646، "هدية" لابنة أخيه، الجرانند مدموازيل، التي استخدمته في مطبخها مساعداً صغيراً (Soumarmiton). وهناك ضايق زملاءه الخدم بالتمرين على الكمان، ولكن المدموازيل تبينت موهبته وأنته بمعلم. وما لبث أن عزف في فرقة الموسيقى الملكية ذات الأربع والعشرين كماناً. واستلطفه لويس، فأعطاه

صفحة رقم : 10473

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> بلاط الملك

مجموعة صغيرة من الموسيقيين يقودها. وبفضل هذا الأوركسترا الوتري الصغير تعلم القيادة والتلحين- لموسيقى الرقص، والأغاني، والكمان المنفرد والكنتاتات، والموسيقى المنسية، ولثلاثين لحناً أوركستريا للباليه، وعشرين أوبرا. وقد صادق مولبير، وتعاون معه في عدة باليهات، ولحن فواصل موسيقية قصيرة لبعض تمثيلات مولبير. وكان نجاحه رجل بلاط يضارع انتصاراته موسيقياً. ففي 1672، وفق بنفوذ مدام دمونتسبان في الحصول على احتكار الأوبرا في باريس. وقد وجد في فيليب كينو Outanuls مؤلفاً لكلمات الأوبرا وشاعراً أيضاً. فأخرجاً معاً سلسلة من الأوبرات كانت ثورة الموسيقى الفرنسية. ولم يقتصر نجاح هذه الحفلات على الترفيه على البلاط في فرساي، بل إنها اجتذبت صفوة الباريسيين إلى المسرح الذي بني من قبل المولى في شارع سانت- أونوريه، واجتذبتهم في كثرة جعلت الشوارع تختنق بالمركبات، فاضطر الرواد في كثير من الأحيان إلى الخروج منها والسير على الأقدام، وفي الوحل غالباً، خشية أن يفوتهم الفصل الأول، وقد استهجن بوالو الأوبرا زاعماً أنها ضرب من التخنت المضعف (99)، ولكن الملك منح أكاديمية الموسيقى مرسوماً (1672)، وأذن للـ "سادة والسيدات بالغناء في عروض الأكاديمية المذكورة دون أن يكون في ذلك غض" من أقدارهم (100). ورفع لويس لولي إلى مقام النبالة سكرتيراً للملك، وشكا سكرتيرين آخرين من أن الوظيفة أرفع من أن تخلع على موسيقى، ولكن لويس قال للولي، "لقد شرفتهم هم لا أنت بوضعي عبقرياً بين زميرتهم (101)". وحالف التوفيق لولي في كل شيء حتى 1687، حين ضرب قدمه صدقة- وهو يقود فرقته- بعضا القيادة، وأساء طبيب دجال علاج جرحه، فتعفن، ومات المؤلف الفوار في الثامنة والأربعين. وما زالت الأوبرا الفرنسية تشعر بتأثيره إلى اليوم.

صفحة رقم : 10474

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> بلاط الملك

بقي اسم آخر خلفته موسيقى ذلك العهد الفخم، وهو اسم أسرة كوبران، التي كانت مثلاً آخر على الوراثة في الفن، والتي أنجبت مؤلفين لفرنسا طوال قرنين من الزمان، واحتكرت من 1650 إلى 1826 الأرغن العظيم في كنيسة سان جرفيه، وقد شغل فرانسوا كوبران "الكبير" ذلك المنصب ثمانية وعشرين عاماً، كذلك كان "عازف أرغن الملك" في

كنيسة الملك الصغيرة بفرساي، وكان أشهر عازفي الهاربيسيكور في ذلك "القرن العظيم". وقد درس يوهان سبستيان باخ ألعانه اللى وضعها لهذه الآلة دراسة دقيقة، وأثر البحث الذي وضعه باسم L,art de Toucher Le Clavecin (وهو الاسم الفرنسي لمقابله الإنجليزي Clavichord) في بحث ذلك الألماني العظيم المسمى "الكلافير المعتدل"... ترى؛ أكانت الموسيقى في دم آل كوبران، أم في بيتهم فقط، لعل الوراثة الاجتماعية، لا البيولوجية، هي التي تصنع الحضارة.

صفحة رقم : 10475

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> نساء الملك

7- نساء الملك

لم يكن لويس بالرجل الخليع الفاجر، وعلينا أن نذكر دائماً ونحن في معرض الحديث عن الملوك حتى إلى قرننا هذا، أن العرف اقتضاهم أن يضحوا بميولهم الشخصية ليعقدوا زيجات منفعه سياسية للدولة، ومن ثم كان المجتمع- والكنيسة أحياناً كثيرة- يغيضان إذا التمس الملك متعة الجنس وشاعرية الغرام عن الرباط الزوجي. ولو كان الأمر بيد لويس لبدأ حياته بزواج حب، فقد استهواه جمال ماري مانشيني ابنة أخ مازاران، وظرفها، فرجا أمه والكردينال أن يسمحا له بالزواج منها (1658)، ولكن أن النمساوية وبخته لأنه سمح للعاطفة بأن تتدخل في شؤون السياسة، أما مازاران فقد أبعد ماري أسفاً لتتزوج رجلاً من آل كولونا، ثم راح الوزير الداهية يستخدم نفوذه الخفي ليحصل على

صفحة رقم : 10476

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> نساء الملك

عروس للويس هي ماريا تريزا، ابنة فيليب الرابع. أفليس من الجائز، إذا انقطع نسل الذكور في الملوك الأسبان، أن تأتي هذه الأميرة بأسبانيا كلها مهراً لملك فرنسا؟ وهكذا زف لويس إلى ماريا في 1660، وكلاهما في الثانية والعشرين، في كل اليهاء والبيذخ الذي سحر دافعي الضرائب. أما ماري تريز فكانت امرأة متكبرة، ورعة فاضلة، وقد أعانت قوتها ونفوذها على إصلاح أخلاقيات البلاط، على الأقل بين حاشيتها، ولكن النظام الصارم الذي نشئت عليه جعلها مكتئبة متبلدة، وكانت شهيتها القوية تزيدها حجماً في الوقت الذي ترمق فيه حسناوات باريس زوجها الوسيم بنظرات الغرام وقد أنجبت له ستة أطفال، لم يتجاوز الطفولة

منهم غير واحد هو الدوفن، وكان من سوء طالعها أن يكتشف لويس، في نفس سنة زواجهما، في زوجة أخيه هنرييتا أن، جميع المفاتن التي تجمل الأنوثة الغضة.

أما هنرييتا هذه فهي ابنة تشالز الأول ملك إنجلترا؛ وكانت أمها هنرييتا ماريا "ابنة هنري الرابع ملك فرنسا" قد قاسمت زوجها مأساة الحرب الأهلية، فلما دنا جيش البرلمان من مقر قيادة تشالز في أكسفورد، فرت ملكة إنجلترا إلى أكسترا، وهناك اشتد بها المرض حتى أشرفت على الموت، ولدت (1644) "أميرة صغيرة جميلة". وراح أعوان البرلمان يتعقبون الأم المريضة، ففرت ثانية، وتسلفت إلى ساحل البحر، حيث استقلت سفينة هولندية إلى فرنسا بعد أن أفلتت بالجهد من المدافع الإنجليزية. أما الطفلة التي تركتها أمها في رعاية الليدي آن دولكيت، فقد عاشت عامين في مخبئها بإنجلترا قبل أن تهرب هي أيضاً عبر المانش في

صفحة رقم : 10477

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> نساء الملك

أمان، وما لبثت أن أكرهتها الظروف على معاناة التقلبات التي جاءت بها حرب الفروندي. ففي يناير 1640 شاركت أمها وأن النمساوية في هروبهما من باريس المملوءة بالمطاريس إلى سان-جرمان، وفي ذلك الشهر جاء نبأ-أخفي عنها ولا ريب حيناً-بأن أباهما ضرب عنقه أنصار كرومويل "ذوو الرعوس المستديرة" المنتصرون فلما خفت حدة الفروندي، قامت أم الأميرة هنرييتا على تربيتهما في جو من الدعة والتقوى، وعاشت كلتاها حتى رأتا تشالز الثاني إلى العرش الإنجليزي (1660)، وبعد عام حين بلغت السادسة عشرة، تزوجت شقيق لويس الرابع عشر، "مسيو" فيليب دوق أورليان، وأصبحت تلقب بالـ "مدام".

أما "المسيو" فكان رجلاً قصيراً مكور البطن، يلبس حذاءً عالياً، ولوعاً بحلي الإناث؛ وأجساد الذكور، شجاعاً كأبي فارس في ساحة الوغى ولكنه مزوق، معطر، موشح، مرصع بالجواهر كأشد النساء غروراً، في هذا البلد الذي كان أكثر بلاد الله غروراً. وقد أجزن هنرييتا وأجلها أن ترى زوجها يؤثر صحبتها صحبة شفالييه اللورين، وشفالييه شاتيون. ووقع في غرامها كل إنسان تقريباً، لا لجمالها الهش فحسب مع أنها عدت أجمل مخلوق في البلاط (103)-، بل لما هو أكثر من ذلك، لروحها الرقيقة اللطيفة، وحيويتها ومرحها الشبيهين بحيوية الأطفال ومرحهم. وللنسيم النظر المنعش الذي حملته أينما ذهبت، وقد وصفها راسين بـ "الحكم في كل جميل (104)"- وكان واحداً من كثيرين ممن ألهمتهم ومدت لهم يد المعونة.

ووجدها لويس الرابع عشر لأول وهلة أضعف وأنحف من أن تسيغها فتوته وذوقه، ولكنه حين أحس آخر الأمر بما في خلقها من "حلاوة وضياء" (105) استشعر المتعة المترابدة في وجودها، وأبهجه أن يراقصها، ويمازحها، ويدبر الألعاب معها، ويصاحبها في التمشي في البستان في فونتبلو

صفحة رقم : 10478

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> نساء الملك

أو ركوب الزورق في القناة، حتى زعمت باريس كلها أنها بدت خليلته، ورأت في هذا انتقاماً عادلاً من "ملك سدوم" (106) ولكن أغلب الظن أن باريس أخطأت الحكم. فلقد أحبها لويس واشتهاها من جانبه، أما هي، التي بذلت إخلاصها في الحب لأخويها تشالز وجيمس، فقد قبلت الملك أماً آخر، واتخذت من ربط الثلاثة جميعاً برباط التحالف أو المودة رسالة لها في الحياة.

ففي سنة 1670، وبناء على طلب لويس، عبرت المانش إلى إنجلترا لتتبع تشالز بالانضمام إلى فرنسا ضد هولندا، لا بل لتحصه على الجهر بكتلته. وقد وعد بهذا في معاهدة دوفر السرية (1 يونيو 1670)، وعادت هنرييتا إلى فرنسا محملة بالهدايا مكللة بالنصر، ولكن ما مضت أيام على وصولها إلى قصرها في سان-كلو حتى أصابها مرض شديد، فظنت أنها سممت، وكذلك اعتقدت باريس كلها، وهرع الملك والملكة إلى فراشها. وكذلك فعل "المسيو" النادم؛ وكونديه، وتورين، ومدام دي لافاييت، ومدموازيل دمونبانسييه، وأتى بوسويه ليصلي معها، وأخيراً في 30 يونيو، انتهى عذابها، وكشف فحص جثتها عن أن موتها لم يكن بالسلم بل بالالتهاب البريتوني (107)، وشيعها لويس بمشهد لا يشيع بمثله غير أصحاب الرعوس المتوجة، وألقى بوسويه فوق جثمانها في كنيسة سان-دني عظة جنائزية رجت أصداءها القرون.

وهنرييتا هي التي أعطت الملك أولى خليلاته الأكثر علانية. وقد ولدت هذه المرأة، واسمها لويز دي لافالير، في مدينة تور عام 1644، وتلقت في إيمان مستسلم ذلك التعليم الديني الذي قامت عليه أمها وخالها الكاهن، الذي أصبح فيما بعد أسقفاً لنانت، وما أن بلغت سن التناول الأول حتى مات أبوها، فتزوجت أمها من جديد، وكان الزوج رئيساً لخدم جاستون دوق أورليان، فحصل للويز على وظيفة وصيفة لبنات الدوق، فلما

صفحة رقم : 10479

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> نساء الملك

مات جاستون، وتزوج ابن أخيه وخليفته فيليب، أخذ لويز معه وصيفة شرف لهنرييتا (1661). وبهذا الوصف كانت ترى الملك مراراً كثيرة. وبهرها بهاؤه وسلطانه وسحر شخصيته، ف وقعت في غرامه كما وقعت عشرات النساء، ولكنها لم تحلم بالتحدث إليه يوماً.

كان جمالها جمال الخلق أكثر منه جمال الجسد، كانت رقيقة الصحة وبها عرج خفيف، "وليس لها صدر يؤبه به" على حد قول أحد ناقدتها، وكانت نحيفة إلى حد مخيف، ولكن ضعفها هذا كان في ذاته فتنة، لأنه أورثها تواضعاً ودماثة في الطبع أسر الجميع حتى النساء، وفتت هنرييتا نظر الملك إلى لويز لتصرف الناس عن الشائعات التي أرفجت بأنها هي ذاتها خليلته، وأفلحت الخطة فوق ما أرادت، فقد جذبت لويس هذه الفتاة الخجولة ذات السبعة عشر ربيعاً، التي كان البون شاسعاً بينها وبين النيبيلات المتعطرسات العدوانيات اللاتي يحطن به في بلاطه. وذات يوم وجدها وحيدة في حدائق فونتنبلو، فقدم نفسه إليها، مضمراً نيات ليست بالشريفة جداً. وفاجأته بالاعتراف بأنها تحبه، ولكنها قاومت إلحافه طويلاً، وناشدته ألا يحملها على خيانة هنرييتا والملكة، ولكن ما وافى شهر أغسطس 1661 حتى كانت قد غدت خليلته، لقد كان كل شيء يبدو حسناً مادام يرضي مشيئة الملك.

ثم وقع الملك بدوره في غرامها، فما كان يستشعر السعادة كما يستشعرها مع هذا الفرخ الخجول، وخرجاً في نزوات خلوية كالأطفال، ورقصاً في المراقص، وطفراً مرحاً في حفلات الباليه، وكانت إذا خرجت إلى جواره في الصيد تنسى ما في طبعها من إحجام وتردد، وتركب في تهور واندفاع "فيعجز حتى الرجال عن اللحاق بها" (108) على حد

قول الدوق دانجيان. على أنها لم تستغل انتصارها، فأبت قبول الهدايا أو الاشتراك في الدسائس، وظلت متواضعة رغم زناها، وكانت تخجل من وضعها، وقد تعذبت حين

صفحة رقم : 10480

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> نساء الملك

قدمها الملك إلى الملكة، وولدت له عدة أطفال، مات اثنان منهم في تاريخ مبكر، أما الطفلان الثالث والرابع، اللذان تقررت شرعيتهما بمرسوم ملكي، فقد أصبحا الكونت دفيرماندوا، والمدموazel ديلوا الرائعة الجمال. وخلال أزمت الولادة هذه كانت ترى وجوهاً أجمل من وجهها تجتذب الملك، ولم تحل سنة 1667 حتى تعلق قلبه بمدام دمونتسيان، وبدأت لويز تفكر في التفكير عن أثمها بفضاء ما بقي من عمرها في دير للراهبات. وأنس لويس هذا الميل فيها، فبذل لها الكثير من علامات حبه الباقي، وفكر في الحفاظ عليها في دنياه بخلع لقب الدوقية عليها، ولكنه بين اشتغاله بحب موننتسيان، واستغراقه في الحرب، قل شيئاً فشيئاً ما منحها من وقته، أم هي فلم تأبه في البلاط بإنسان غيره. وفي 1671 تخلت عن ثروتها، وارتدت أبسط ما وجدت من ثياب، وتسللت من القصر صباح يوم من أيام الشتاء، وهربت إلى دير القديسة ماري-دشايو-، وأرسل لويس من يبحث عنها مؤكداً حبه وعذابه، وإن كانت لا تزال عذراء غريبة بعقلها، فقد ارتضت أن تعود إلى البلاط. وظلت هناك ثلاث سنين أخرى، ممزقة بين حبه للملك وشوقها للتطهير والسلام الدينيين، وكانت تمارس في القصر تقشف الحياة الديرية، وأخيراً أقنعت الملك بأن يفرج عنها، ودخلت ديراً للراهبات الكرمليات الحافيات في شارع دانفير (1674)، وتسمت الأخت لويز دلا ميزيريكورد، وعاشت هناك في توبة الزهاد ما بقي لها من عمر طوال ستة وثلاثين عاماً، قالت: "إن نفسي شديدة القناعة، بالغة السكينة؛ لأنني أعبد جود الإله" (109). أما خليفتها في الخطوة لدى الملك فلا تظفر من الناس بمثل هذا الغفران العام. فقد قدمت فرنسواز أتينايس روسشوار البلاط في 1661، وخدمت الملكة وصيفة شرف، وتزوجت الماركيز دمونتسيان (1663). ويزعم

صفحة رقم : 10481

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> نساء الملك

فولتير أنها إحدى ثلاث كن أجمل نساء فرنسا، أما الأخرى فأختها (110). وكان لها غدائر مجمعة شقراء مرصعة باللألئ، وعينان أبيتان ناعستان، وشفتان شهوانيتان، وثغر ضاحك، ويدان ملاطفتان، وبشرة في لون الزنبق ونسيجه. كذلك وصفها معاصروها وهم مبهورون، وكذلك صورها هنري جاسكار في لوحة مشهورة. وكانت تقيّة، تحفظ أيام الصوم دون تهاون، وتختلف إلى الكنيسة في تعبد وتكرار، لها طبع حاد وذكاء بتار، ولكن هذا كان أول الأمر من قبيل التحدي.

روى عنها ميشليه قولها إنها قدمت باريس مصممة على اقتناص الملك (111). ولكن سان-سيمون يذكر أنها حين رأت أنها أخذت تزيد من سرعة نبض الملك رجت زوجها في أن يعود بها فوراً إلى بواتو (112). ولكنه أبى، واثقاً من سلطانه عليها، متعلقاً بعبير البلاط. وذات ليلة في كومبيين، ذهبت لتنام في حجرة مخصصة عادة للملك. وحاول برهة أن ينام في حجرة مجاورة، ولكنه وجد في هذا مشقة، وأخيراً استولى على حجرته وعليها (1667). أما المريكيز فحين بلغه الأمر لبس ثوب الترمل، وجلل مركبته بالسواد، وزين أركانها بالقرون. وكتب لويس بيده وثيقة الطلاق بين المريكيز والمركيزة، وأرسل إليه 100.000 إيكو، وأمره بالرحيل عن باريس، وابتسم البلاط الذي تجرد تماماً من الخلق الكريم.

وظلت مدام دمونتسبان محظية للملك سبعة عشر عاماً. وقد أعطت لويس مالم تستطع لافالير-أعطته الحديث الذكي والحيوية المثيرة. وكانت تفاخر بأنها هي وتبذل الحسن لا يمكن أن يجتمعا في مكان واحد وزمان واحد، وهو قول صحيح. وقد أنجبت للملك ستة أطفال-أحبهم وشكر لها صنيعها، ولكنه لم يستطع أن يقاوم إغراء النوم من حين إلى حين مع مدام دسويير أو مع الأنسة الشاببة دسكوراوي دروسيل، التي خلع عليها لقب دوقة فونتانج. وقد حدث هذه الانحرافات بدمام دمونتسبان إلى

صفحة رقم : 10482

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> نساء الملك

التماس نصيحة المشعوذات في أمر الأشربة السحرية وغيرها من الوسائل للاحتفاظ بحب الملك، ولكن القصة التي زعمت أنها دبرت تسميمه أو تسميم غريماتها هي في أغلب الظن أسطورة روجها أعداؤها (113). وقد جنى عليها أطفالها. ذلك أنها احتاجت إلى شخص يرعاهم، وزكى لها بعضهم مدام سكارون، فاستخدمتها، ولاحظ لويس حسن المربية وهو يختلف لرؤية أطفاله. أما مدام سكارون هذه، واسمها قبل الزواج فرنسواز دوبينيه، فكانت حفيدة تيودور أجريبا دوبينيه، المساعد الهيجونوتي لهنري الرابع، وقد ولدت بسجن بنيور في بواتو، حيث كان أبوها يقضي فترة من فترات سجنه الكثيرة عقاباً له على جرائم مختلفة، وعمدت كاثوليكية، ورببت بين الفوضى والفقر المخيمين على أسرة منقسمة. وعطف عليها بعض البروتستانت وأطعموها وثبتوها في العقيدة البروتستانتية تثبيتها جعلها تولى ظهرها للمذبح الكاثوليكي. فلما بلغت التاسعة أخذها أبوها إلى المارتنيك حيث أشرفت على الموت لصرامة التأديب الذي أدبته أمها. ومات الأب بعد عام (1645)، فعادت الأرملة وأطفالها الثلاثة إلى فرنسا. وفي 1649 أودعت فرنسواز ديراً للراهبات بعد أن عادت إلى الكاثوليكية، وكانت تناهزت الرابعة عشرة آنئذ، وتكسب قوتها بأداء الأعمال الحقيمة. ولهلنا ما كنا لنسمع بها قط لولا أنها تزوجت بول سكارون. وما بول هذا فكان كاتباً مشهوراً، وظريفاً لا معاً، مشلولاً شلاً كاد يكون تاماً، مشوهاً تشويهاً بشعاً. وإذا كان ابناً لمحام نابه، فقد توقع النجاح في حياته العملية، ولكن أباه الأرملة تزوج ثانية، ونبذت الزوجة الجديدة بول، فلم يظفر من أبيه إلا بمعاش ضئيل لا يكفيه إلا للترفيه ليلة عن ماريون ديلورم وغيرها من النيبيلات. ثم أصيب بالزهري، وأسلم نفسه لأحد الدجالين، وتعاطى العقاقير القوية التي أتلقت جهازه العصبي. وأخيراً اشتد به الشلل حتى كاد يعجز إلا عن تحريك يديه. وقد وصف نفسه في هذه

صفحة رقم : 10483

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> نساء الملك

العبارات: "سأصف نفسي لك أيها القارئ على قدر استطاعتي. لقد كان جسمي حسن التكوين رغم قصر قامتي. ولكن العلة قصررتي بقدم كامل. ورأسي أكبر قليلاً مما يناسب جسمي. ووجهي ممتلئ، أما جسدي فهيكلي عظمي. وبصري لا بأس به، ولكن عيني بارزتان، وإحداهما منخفضة عن الأخرى. وقد كونت ساقاي وفخذي أول الأمر زاوية منفرجة، ثم قائمة، وأخيراً حادة، وتكون فخذي وجسمي زاوية حادة أخرى، وانحناء رأسي فوق معدتي يجعلني أقرب إلى حرف Z. وقد انكمش ذراعي كما انكمش ساقاي، وكذلك فعلت أصابعي. جملة القول أنني خلاصة للتعاسة البشرية(144)".

وقد تعزى عن تعاسته تلك بتأليفه "رواية مضحكة" عن منشرد (1649) لقيت نجاحاً كبيراً، وبعرضه هزليات ساخرة صاحبة الفكاهة، فاضحة النكتة. وأكرمه باريس لأنه احتفظ بمرحه وسط آلامه، وأجرى عليه مازاران وأن النمساوية معاشين فقد الحق فيهما لتأييده للفروند. وكسب كثيراً، وأنفق أكثر، وتورط غير مرة في الدين. وكان- وهو مسنود داخل صندوق يطل منه رأسه وذراعه-يرأس في حيوية وعلم غزير صالوناً من أشهر صالونات باريس. فلما تكاثرت ديونه، كان يقاضى ضيوفه ثمن طعامهم، ومع ذلك كانوا يأتون. ترى من يتزوج رجلاً كهذا؟ في سنة 1652، كانت فرنسواز دوبينيه التي بلغت السادسة عشرة من عمرها تعيش مع قريبة بخيلة ضنت بالإنفاق عليها حتى لقد اعتزمت أن ترد فرنسواز إلى أحد أديار الراهبات. وقد صديق هذه الفتاة إلى سكارون، فاستقبلها في كرم مؤلم، وعرض أن يدفع نفقات طعامها وسكنها في الدير، لكي يعفيها من نذر الرهينة، ولكنها أبت. وأخيراً عرض أن يتزوجها، وأوضح لها بجلاء أنه لا يستطيع أن يطالبها بحقوق الزوج. فقبلته، وخدمته ممرضة وسكرتيرة، وقامت بدور المضيفة

صفحة رقم : 10484

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> نساء الملك

في صالونه، وتظاهرت بأنها لا تسمع تورييات الضيوف. وكان ذكاؤها يدهشهم حين تشترك في الحديث. وقد خلعت على اجتماعات سكارون درجة من الاحترام كفت لجذب الأنسة دسكودري، ومدام دسفينيه بين أن وآخر، وكان من زوار الصالون قبل ذلك نينون، وجرامون، وسانت- إفرمون. وفي رسائل نينون إلماح إلى أن مدام سكارون لطفت من عذاب هذا الزوج البريء من الجنس بعلاقة غرام، ولكن نينون ذكرت أيضاً أنها "كانت فاضلة لضعف عقلها. لقد أردت شفاءها، ولكنها كانت تخاف الله أكثر مما يجب(115)" وكان وفاؤها لسكارون حديث باريس، المتعطشة دون وعي منها لأمثلة للسلوك الكريم. ولما اشتد عليه شلله تبيست حتى أصابعه وامتتعت حركتها، فعجز عن أن يقلب صفحة أو يمسك قلماً. فكانت تقرأ له، وتكتب ما يمليه عليها، وتقوم على كل حاجاته. وقبل أن يموت (1660) كتب فبريته التي قال فيها:

"إن الراقد الآن هنا قد أثار من الشفقة أكثر مما أثار من الحسد، وعانى ألف مرة عذاب الموت قبل أن يفقد الحياة. فيا أيها العابر لا تحدث ضجيجاً، وإياك إياك أن توقظه، فهذه أول ليلة ينام فيها سكارون المسكين". ولم يخلف لزوجته غير الدائنين. وألقيت "الأرملة سكارون" في خضم الفقر مرة أخرى وهي يعد شابة في الخامسة والعشرين. والتمست من الملكة الأم أن يجدد معاشها الذي ألغى، فرتبت لها أن ألف جنيه في العام. واتخذت فرانسواز

حجرة في دير، وتواضعت في عيشها وملبسها، وارتضت القيام بشتى المهام الصغيرة في البيوت الميسورة(117). وفي 1667 أرسلت إليها مدام دمونتسبان وهي على وشك الوضع رسولا يطلب إليها أن تتلقى الوليد المنتظر وتربيته. ورفضت فرنسواز، ولكنها قبلت حين أيد لويس الطلب. وظلت سنوات عديدة بعد ذلك تتلقى أطفال الملك وهم يخرجون إلى النور.

صفحة رقم : 10485

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> نساء الملك

وتعلمت أن تحبهم، وكانوا يرون فيها أمأ لهم؛ أما الملك الذي ضحك منها أول الأمر لفرط احتشامها، فقد انتهى إلى الإعجاب بها، وأثر فيه ما بدا من حزنها حين مات أحد الأطفال رغم حذبه المتصل عليه. وقال إنها تعرف كيف تحب، وإنها لمتعة أن يكون إنسان موضع حبها(118)؛ وفي 1673 قررت شرعية الأطفال، ولم يعد فرضاً على مدام سكارون أن تنتسز، فقبلت في البلاط وصيفة لمدام دمونتسبان. ووهبها الملك 200.000 جنيه دعماً لمركزها الجديد. فاشترت بالمال ضيعة في ماننتون قرب شارتر. ولم تعش فيها قط، ولكن أعطتها لقباً جديداً، وهو المركزية دماننتون. وكانت طفرة عنيفة لمن كانت تشكو الإملاق منذ عهد قريب جداً، ولعلها أدارت رأسها حيناً. وآلت على نفسها أن تتصح مدام دمونتسبان بأن تكف عن حياة الإثم التي تحياها. وساءت النصيحة موننتسبان، وظنت أن ماننتون تكيد لها للحلول محلها، والحق أن لويس كان آنذ، في 1657، قد اخذ يضيق بغضبات موننتسبان، ويجد لذة في التحدث إلى المركزية الجديدة ولعل الأسقف بوسويه، بالتواطؤ مع الملك، أنذره بأنه سيحرم من تناول قربان القيامة ما لم يطرد محظيته. فأمرها بأن تبرح القصر، ففعلت، وتناول لويس القربان، وتعفف حيناً واستحسن مدام دماننتون مسلكه، دون أن يكون لها قصد أناني فيما يبدو(119)، لأنها رحلت بعد قليل مع صبي عليل (من أبناء موننتسبان) هو الدوق دمين تلتمس له الشفاء في حمامات باريج الكبرى بإقليم البرانس. وانطلق لويس إلى حروبه، ثم عاد وقد اشتد به الجوع، وضرب بإبذار بوسويه عرض الحائط، ودعا منتسبان لتعود إلى جناحها في فرساي. وهناك ارتمى بين ذراعيها المشتاقين، فحبلت ثانية.

أما ماننتون فقد رحب بها الملك ومحظيته عند عودتها من البرانس مع الدوق الذي شفي مما ألم به، ولكن راعها أن تراه غارقاً في عدة علاقات

صفحة رقم : 10486

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> نساء الملك

أثمة في وقت واحد. وفي 1679 اختتم أمامه مع موننتسبان بتعيينها مشرفة على بيت الملكة-وكانت تلك إحدى الفظاظات الكثيرة التي جرح بها شعور ماري تريز. وثارت موننتسبان وبكت، ولكنه غزاها بالهبات السخية. وبعد عام

تسلمت مانتون وظيفة مماثلة-هي الوصيفة لمخدع زوجة ابنه البكر (الدوفينه)، وكان الوحيد الباقي على قيد الحياة من أبنائه الشرعيين. وكثر تردد الملك الآن على الدوفينه للتحدث إلى مانتون. وما من شك في أنه أراد أن يجعل المركزية خلية له، وأنها ردتته عن نفسها-لا بل أنها ناشدته أن يكف عن جنوحه ويعود نائباً إلى الملكة(120). فأذعن لها ولبوسويه، وفي 1681، وبعد عشرين عاماً من مغازلة النساء، أصبح زوجاً مثالياً. أما الملكة التي وطنت نفسها من أمد بعيد على تقبل خياناته، بل على تقبل خليلاته، فقد حظيت برضاء الملك ولكن لعامين فقط، لأنها ماتت عام 1683. وظن لويس أن مانتون سترضى الآن بأن تكون خليلته، ولكنها قابلته بصد ليق، فهو الزواج والإفلا(121). وفي تاريخ لا يعرف على التحديد، ولكنه على الأرجح في 1684، تزوجها، وكان في السابعة والأربعين، وهي في الخمسين. وكان ارتباطاً غير متكافئ، لا يصيب الطرف الأدنى فيه إلا رتبة جديدة ولا حقوق وراثية. ولقي مستشارو الملك عنناً في ثنيه عن إعطاء زوجه الحقوق الكاملة وتتويجها ملكة، وذكروا له ما سيكون من تدمير الأسرة المالكة والحاشية إذا وجدوا أنهم يحنون احتراماً لمربية. وعليه لم يعلن نبأ الزواج، وهناك من يظنون أن الزواج لم يتم قط. أما سان-سيمون، المنشبت أبداً بالنظام الطبقي، فرأى أنه "زواج مخيف(122)" ولكنه كان خير رباط وأسعده للملك، والوحيد الذي رعى عهوده فيما يبدو. ولقد اقتضاه نصف قرن تقريباً أن يكتشف أن حب المرأة لزوجها عن غيرها من النساء.

صفحة رقم : 10487

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> الملك يمضي إلى الحرب

8- الملك يمضي إلى الحرب

كانت انتصارات ريشليوه ومازاران قد خلفت فرنسا أقوى دولة في أوروبا. فالإمبراطورية أوهنها ما أصاب ألمانيا من إعياء وانقسام فضلاً عن الخطر المتجدد عليها من العثمانيين. وأسبانيا أضعفها نضوب ذهبها ورجالها في ثمانين عاماً من الحرب العقيم التي خاضتها في الأراضي المنخفضة. وإنجلترا، بعد 1660، ربطتها بعجلة فرنسا المعونات السرية لملكها. كذلك كانت فرنسا فيما مضى بلداً أصابه الضعف، ولكن ما أتت سنة 1667 حتى كانت جراح الفروند قد برنت، وغدت فرنسا أمة موحدة. وقام أثناء ذلك رجال أفاضل اضطلعوا بإعادة بناء الجيوش الفرنسية، كلوفوا، عبقرى التنظيم والضببط العسكريين، وفوبان عبقرى التحصين وحرب الخنادق والحصار، وكالقائدين المغوارين كونديه وتورين. وبدا للملك الشاب الذي يتملقه رجاله قد أن الأوان لتبلغ فرنسا حدودها الجغرافية الطبيعية-وهي الراين، والألب، والبرانس، والبحر.

فليبدأ بالراين إذن. لقد كان الهولنديين يتسلطون عليه، فلا بد إذن من إخضاعهم، ثم ردهم بعد قليل إلى العقيدة التي كانت حليفاً للملوك طوال ألف عام. فإذا بسطت فرنسا سلطتها على مصاب النهر العظيم الكثيرة دانت لها مل أرض الراين، وبسطت على نصف التجارة الألمانية. ولكن الأراضي المنخفضة الأسبانية (بلجيك) تقف عقبة في الطريق، فلا بد إذن أن تقفها. وكان فيليب الرابع عند موته في 1665 قد خلف الأراضي المنخفضة الأسبانية لشارل الثاني، ولده من زواجه الثاني. ورأى لويس ثغرة دبلوماسية ينفذ منها إلى هدفه. فاستند إلى عرف قديم أخذت به أينو وبرابانت، يقضي بتفضيل أبناء الزوجة الأولى في الميراث على أبناء الثانية. وكانت زوجة لويس بنت فيليب الرابع من زوجته الأولى، وبمقتضى حق الأيلولة أو الوراثة هذا- Ius Devolutionis- ترث ماري تريز الأراضي

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> الملك يمضي إلى الحرب

المنخفضة الأسبانية. صحيح أن ماري نزلت عند زواجها عن حقها في الوراثة، ولكن هذا التخلي كان مشروطاً بأداء أسبانيا صداقتها لفرنسا، وهو 500.000 كراون ذهبي (123). وهذا الصداق لم يؤد، إذن... ورفضت أسبانيا هذا القياس المنطقي، وعلى ذلك أعلن لويس حرب الأبلولة (الوراثة الأسبانية). فلنترك مذكرات الملك لاعب الشطرنج هذا يميظ اللثام عن دوافعه:

"لقد أتاح لي موت ملك أسبانيا وحرب الإنجليز مع الهولنديين (1665) في وقت واحد فرصتين لخوض الحرب: محاربة أسبانيا سعياً وراء حقوق ألت إلي، ومحاربة إنجلترا دفاعاً عن الهولنديين... وسرني أن أرى في خطة هاتين الحربين ميداناً فسيحاً قد يتيح لي فرصاً عظيمة للتفوق. وكان الكثيرون من الرجال البواسل، الذين أنست فيهم التقاني في خدمتي، يتوسلون إلي على الدوام أن أهيب لهم الفرصة لإظهار بسالتهم... يضاف إلى هذا أنني مادمت مضطراً على أية حال للاحتفاظ بجيش كبير، فإنه انفع لي أن القي به في الأراضي المنخفضة من أن أطعمه على حسابي... وتحت ستار الحرب مع إنجلترا أستطيع ترتيب قواتي وهيئة مخابراتي (أي جهاز الجاسوسية) لأبدأ مغامرتي في هولندا بنجاح أعظم (124)".

تلك هي النظرة الملكية إلى الحرب، فقد تجعل الحرب بلد الملك أعظم مساحة وأكثر أمناً أو أوفر دخلاً، وقد تفتح طرق الشهرة والمنعة، وقد تتيح منصرفات للغرائز المتصارعة، وقد تيسر للجيش الغالي النفقة أن يطعم على غداء بلد أجنبي، وقد تحسن موقف الدولة في الحرب القادمة. أما عن أرواح البشر التي ستحصدها الحرب، فإن الناس لا بد أن يموتوا على أية حال وما أسخف أن يموت الرجل حتف أنفه، ويقضي بعلة بطينة طويلة، وأي مينة أفضل للرجل من الموت في خدار المعركة على ساحة المجد، وفي سبيل الوطن؟
وعليه ففي 24 مايو 1667 عبرت الجيوش الفرنسية إلى الأراضي المنخفضة الأسبانية. فلم تصادف مقاومة فعالة، وكان عدد الفرنسيين 55.000

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> الملك يمضي إلى الحرب

مقاتل، والأسبان 8.000. وما لبث الملك أن دخل شارلروا، وتورنييه، وكورتريه، ودويه، وليل، وكأنه يدخلها في موكب نصر؛ وحصن فويان المدن المفتوحة، أما لوفوا فقد جهز المؤمن في كل خطوة؛ حتى الصحف الفضية للضباط في معسكراتهم أو خنادقهم. وضمت إلى فرنسا أرتوا، واينو، وفلاندر الولونييه، واستغاثت أسبانيا بالإمبراطور ليوبولد

الأول، فعرض لويس على ليوبولد قسمة الإمبراطورية الأسبانية فيما بينهما، ووافق ليوبولد، فأمسك أي معونة عن أسبانيا. وبلغ من سهولة فتح فلاندر أن لويس هرع للاستيلاء على فرانش-كونتية أيضاً، وهو الإقليم الواقع حول بزانسون، بين برجندية وسويسرا. وكان ولاية تتبع أسبانيا، ولكنه شوكة في جنب فرنسا. وفي فبراير 1668 هبط جيش فرنسي عدته عشرون ألف مقاتل على فرانش-كونتية بقيادة كوندية، وحالفه النصر في كل مكان، لأن الرشا الفرنسية كانت قد ألانت القواد المحليين. وقاد لويس بنفسه حصار دول، فسقطت بعد أربعة أيام. ولم تنقض ثلاثة أسابيع حتى استسلمت فرانش-كونتية كلها. فقفل إلى باريس مكللاً بالغار.

ولكنه كان قد أفسد على نفسه الأمر بتجاوزه الحدود، ذلك أن "الأقاليم المتحدة" أقنعت السويد وإنجلترا بالانضمام إليها في حلف ثلاثي ضد فرنسا (يوليو 1668) وتبينت الدول الثلاث أن حريتها السياسية أو التجارية ستدوي إذا امتد سلطان فرنسا إلى الراين. ورأى لويس أنه تعجل السير إلى هدفه؛ ذلك أن الاتفاق السري الذي أبرمه مع ليوبولد كان ينص على أن توول إلى فرنسا كل الأراضي المنخفضة وفرانش-كونتية عند موت شارل الثاني ملك أسبانيا، وبدا أنه لن يقضي عام أو نحوه حتى يموت شارل العليل، فلعله كان خيراً لفرنسا أن تتريث حتى تقع الثمرة في حجرها بهدوء. وعرض لويس شروط الصلح على الحلف وأقنع دبلوماسيوه المحنكون إنجلترا والسويد، فأنهيت حرب الوراثة الأسبانية بمقتضى معاهدة إكس-لا-شابل (2 مايو 1668) وردت فرنسا فرانش-كونتية إلى أسبانيا، ولكنها احتفظت بشارلروا، ودويه، وتورنيه،

صفحة رقم : 10490

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> الملك يمضي إلى الحرب

وأودينارد، وليل، وأرمانتبير؛ وكورتريه. وهكذا استبقى لويس لنفسه نصف الغنيمة.

ولكنه في 1672 عاود زحفه على الراين، وتكشف الآن هدفه الحقيقي - وهو هولندا لا فلاندر. وسنلقي بنظرة على هذه المأساة في فصل لاحق من زاوية الهولنديين، وحسبنا القول بأن الهجوم كاد يصل إلى أمستردام ولاهاي قبل أن يقفه فتح سدود البحر. ولكن أوروبا ثارت مرة أخرى على هذا التهديد الجديد لتوازن القوى. ففي أكتوبر 1672 انضم الإمبراطور ليوبولد إلى الأقاليم المتحدة وبراندنبورج في "حلف عظيم"، وانضمت إليه أسبانيا واللورين في 1673، ثم الدنمرك والبالاتينات ودوقية برنزيك-لونيبورج في 1674، وفي ذلك العام أكره البرلمان الإنجليزي ملكه الموالي لفرنسا على إبرام الصلح مع الهولنديين.

وواجه لويس ببسالة هذا الانتقام الذي عوقبت به كبرياؤه، فجنى المزيد من الضراب برغم شكواى كولبير من أنه يفقر بذلك فرنسا، وبنى أسطولا، وزاد جيوشه إلى 180.000 مقاتل. وفي يونيو 1674 وجه قوة منها لمحاصرة بيزانسون ثانية، وما مضت ستة أسابيع حتى فتحت فرانش-كونتية من جديد. وخلال ذلك قاد تورين في حملة من أروع حملاته وأفساها عشرين ألفاً من جنوده إلى النصر على سبعين ألفاً من جنود الإمبراطورية. ودمر البالاتينات واللورين وجزءاً من الألزاس ليحول بين العدو وبين إطعام جنده، وتكرر على طوال الراين ذلك الخراب الذي أحدثه من قبل حرب الثلاثين. وفي 27 يوليو قتل تورين وهو يستطلع الأرض قرب سولزباخ في بادن، ودفن بأمر لويس في كنيسة سان-دني باحتفال أشبه بالاحتفال بدفن الملوك، وهو عليم بأن تلك الميتة الواحدة تعدل عشر هزائم. وحل "كونديه العظيم" محل تورين بعد ما حقق من انتصارات دامية في الأراضي المنخفضة، فطرد جيوش الإمبراطورية من الألزاس، ثم اعتكف ذلك "الأمير" بعد أن دوخته سنون من الشهوات والحرب، مؤثراً حياة الفلسفة

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> الملك يمضي إلى الحرب

والحكم في شانتي. واضطلع لويس الآن بالحملة في الأراضي المنخفضة، فحاصر فالنسين، وكاميري، وسانتومير، وغنت، وإيبر، واستولى عليها كلها (1677-78). وهلت فرنسا لملكها قائداً مظفراً. ولكن العبء الذي أنقل به كاهل شعبه لم يعد محتملاً. فنشبت الثورات في بورجو وبرنتي، وكان الفلاحون في جنوب فرنسا يتضورون جوعاً، والشعب في الدوفينييه يقتات على الخبز المصنوع من ثمر البلوط والجزور (125) فلما عرض الهولنديون على لويس الصلح وقع معهم معاهدة (11 أغسطس 1678) ردت بمقتضاها للأقاليم المتحدة جميع الأراضي التي استولت عليها فرنسا منها، وخفضت الرسوم التي أقصت المنتجات الهولندية عن فرنسا. وقد عوض عن هذه التنازلات بإلزام أسبانيا، التي تفككت الآن أوصالها، بأن تتخلى له عن فرانش-كونتية، واثنى عشرة مدينة دفعت بحدود فرنسا الشمالية الشرقية إلى داخل الأراضي المنخفضة الأسبانية. واحتفظت فرنسا بمقتضى معاهدة مع الإمبراطور بمدينةنتين استراتيجيتين هما برايزاخ و فرايبورج-ايم-بر ايسجاو، وبقيت الألزاس واللورين في قبضتها. وكانت هاتان المعاهدتان-نيميغن (1678-79) وسان-جرمان-أن-ليه (1679) نصراً للأقاليم المتحدة، ولكنهما لم تكونا هزيمة للويس، فلقد فاز على الإمبراطورية وأسبانيا، ووصل في أماكن-هنا وهناك-إلى الراين الذي طالما اشتهدى الوصول إليه.

على أنه احتفظ بجيشه الضخم رغم هذا الصلح، موقناً أن الجيش القائم قوة تعزز الدبلوماسية. واستناداً إلى تلك القوة من ورائه، واستغلالاً مخزياً لانصراف الإمبراطور إلى قتال العثمانيين الزاحفين، أنشأ في الألزاس، وفرانش-كونتية، وبراييسجاو "عزفاً لإعادة الاتحاد"، تطالب ببعض مناطق الحدود التي كانت تمتلكها فيما مضى، واحتل الجنود الفرنسيون هذه المناطق، وأغريت مدينة ستراسبورج العظيمة، التي لين موظفيها إغداق الرشا عليهم، بأن تعترف بلويس ملكاً عليها (1681). وفي نفس

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الشمس تشرق -> الملك يمضي إلى الحرب

العام، وبوسائل مماثلة، أغرى دوق ميلانو بأن ينزل لفرنسا عن مدينة كازالي وحصنها، وكانت تتحكم في الطريق بين سافوا وميلانو. فلما تلكأت أسبانيا في تسليم مدن الأراضي المنخفضة، أرسل لويس جيوشه من جديد إلى فلاندر وبرابانت، وتغلب على المقاومة بقذفه البلاد بالمدافع دون تمييز، وابتلع في طريقه دوقية لكسمبورج (يونيو 1684). واعترفت أسبانيا والإمبراطور مؤقتاً بهذه الفتوح بمقتضى هدنة ريجنسبورج (15 أغسطس)، لأن العثمانيين كانوا يحاصرون فيينا آنئذ. وبفضل تحالفه مع ناخب كولونيا مد لويس في الواقع سلطته إلى الراين. فتحقق بهذا جزء من طموح فرنسا للوصول إلى حدودها الطبيعية.

ذلك كان الأوج الذي بلغه "الملك الشمس". فلم يحدث أن ظفرت فرنسا بمثل هذا الاتساع في الرقعة ولا بمثل هذه السطوة منذ عهد شارلمان. وأقيمت المهرجانات الضخمة الغالية احتفالاً بانتصارات الملك. ولقبة مجلس باريس رسمياً بلويس العظيم. (1680) ورسمه لبرون في صورة إله على أقبية فرساي، وزعم لاهوتي أن انتصارات لويس أثبتت وجود الله (127). أما جماهير الشعب فقد مجدت حاكمها وسط فقرها المدقع، وتاهت فخرأ بمنعته الواضحة، وأطراه حتى الأجانب، لأنهم رأوا في حملاته شيئاً من المنطق الجغرافي، وحياء الفيلسوف لايبنتز "ذلك الملك العظيم الذي هو مفخرة زماننا غير منازع، والذي ستتوق الأجيال القادمة إلى نظيره عبثاً (128)", وإلى الشمال من جبال الألب والبرانس، وإلى الغرب من الفستولا، بدأت أوروبا المنقفة تتحدث بلغته وتقلد بلاطه وفنونه وأساليبه. لقد بلغت الشمس الأوج.

صفحة رقم : 10493

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> الملك والكنيسة

الفصل الثاني

بوتقة الإيمان

1643 - 1715

1- الملك والكنيسة

ينزع المؤرخ كما ينزع الصحفي- إلى فقدان الخلفية العادية للعصر وسط الواجهة المثيرة للصورة التي يرسمها، لأنه يعلم أن قراءه سيستطيون الشاذ ويحبون تجسيد العمليات والأحداث. ولكن وراء حكام فرنسا، ووزرائها، وحاشيتها، ومحظياتها، ومقاتليها، كان هناك رجال ونساء يتنافسون على الرزق والرفقاء، يزجرون أبناءهم ويحبونهم، يأتمون ويعترفون بإثمهم، يلهون ويتشاجرون، يذهبون إلى أعمالهم متناقلين وإلى المواخير متسترين، وإلى الصلاة متواضعين متذللين. وكان طلب الخلاص الأبدي يقطع بين الحين والحين كفاح البقاء اليومي، والحلم بالجنة ينتعش كلما ذبلت شهوة الحياة، وضحن الكنيسة الظليل يربح هنيهة من وطيس الصراع. وكانت أساطير المعجزات شعر الجماهير، والقداس مسرحية خلاصهم المعزية، وسميت الرسالة التي يحملها الكاهن بقلوب الفقراء المهزومين ولو

كان هو ذاته رجلاً دنيوياً جشعاً. وظلت الكنيسة المنافس للدولة ركيزة للمجتمع والسلطة، لأنه بالرجاء أذعن الناس في صبر للعمل الشاق، والقانون، والحرب.
وعرف كبار الأكليروس الكاثوليك أهميتهم في معجزة النظام، وشاركوا النبلاء والملك موارد الأمة وبهاء البلاط. وخالط الأساقفة ورؤساء الأساقفة في ألفة مهذبة أعلام القوم من طراز كوندية، ومونبسييه،

صفحة رقم : 10494

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> الملك والكنيسة

وسيفينييه، وداعب المئات من الآباء-أنصاف المكرسين، أنصاف المتزوجين داعبوا النساء والأفكار. على أنه يمكن القول بوجه عام أن عقلية رجال الأكليروس الكاثوليك وأخلاقهم كانت خيراً مما عهدناه خلال قرون قبل ذلك، ربما بحافز من منافسة القساوسة الهيجونوت (1).
لم تكن أديار الراهبات "مراتع الرذيلة" التي صورها جنون خلق الأساطير، المنبعث من الكراهية للدين. فالكثير منها كان صوامع للورع الصادق، الزاهد أحياناً، كدير الكرمليات الذي اعتكفت فيه لوبز دلافالير، وبعضها الآخر ملاذا لشابات الأسر الكريمة اللاتي لم يجد أباهن لهن أزواجاً أو مهوراً، أو اللاتي اقترفن إثماً، أو أسأن إلى حاكم أو ملك. في أديار كهذه لم ير نزيلاتها حرجاً في استقبال زائر من العالم الخارجي، أو مراقبة بعضهن البعض، أو في قراءة الأدب الدنيوي، أو في تخفيف سأمهن في لعب البليارد أو الورق. وبإصلاح دير من هذه جعلت جاكلين آرنو دير البور-روبال أشهر دير في تاريخ فرنسا.
على أننا لا نستطيع مثل هذا الحديث المترفق عن الطرق الديرية، فالكثير منها أرخى نظمه، وعاش حياة التبتل، والعبادة الصورية، والإلحاف في التسول. وقد أصلح "أرمان جان در انسيه" دير نوتردام دلا تراب بنور منديا، وأسس الطريقة الترابية الصارمة التي مازالت حية في صمت. ودخل اليسوعيون دخولاً أنشط في حياة فرنسا وتاريخها. كانوا في بداية القرن السابع عشر موضع توجس وريبة باعتبارهم مدافعين عن قتل الملك، أما في نهاية القرن فقد كانوا كهنة اعتراف ومرشدين للملك ثم أنهم كانوا خبراء في علم النفس. فحين أسست الراهبة مارجريت ماري ألاكوك بوحى من رؤيا صوفية تراءت لها (1675) جمعية منقطعة للعبادة العلنية لـ"قلب يسوع المقدس"، شجع اليسوعيون الحركة باعتبارها منفذاً وحافزاً لتقوى الجماهير. وفي الوقت نفسه يسروا الدين للخطة إذ سلموا بأن

صفحة رقم : 10495

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> الملك والكنيسة

الخطيئة في طبيعة البشر، ووضعوا علم "الإفتاء" سبيلاً للتخفيف من عسر الوصايا العشر وللتلطيف من عصاب تأنيب الضمير، وما لبث أن اشتد الطلب عليهم آباء اعتراف للخطاة، واكتسبوا سلطة "مرشدي الضمائر"، لا سيما بين النساء اللاتي سدن المجتمع الفرنسي، واللاتي أثرن أحياناً في السياسة القومية للبلاد. ولم يكن لكلمة "الإفتاء" في القرن السابع عشر ذلك المدلول المهين الذي ألصقته بها رسائل بسكال الإقليمية. فقد كان يفترض في كل قسيس، بوصفه أب اعتراف أو مرشداً روحياً، أن يعرف بالضبط ما الذي يجب أن يعتبر خطيئة مميتة، أو خطيئة هينة، أو لا خطيئة على الإطلاق، وكان عليه أن يستعد لتطبيق علمه، والملاءمة بين حكمه، ونصحه، والعقوبة الكنسية التي يشير بها، وبين الحالة الماثلة أمامه (Casus). وكان معلمو الناموس اليهود قد طوروا هذا الفن، في التمييزات الخلقية، بتفصيل مستفيض في الأجزاء القانونية من التلمود، وحذا حذوهم التشريع والطب النفسي العصريان. وقبل أن تنتشأ جماعة اليسوعيين بزم من مديد، وضع اللاهوتيون الكاثوليك الأبحاث الضخمة في الإفتاء لإرشاد الكاهن في أمر المبدأ الخلفي والتطبيق الإعرافي. ففي أي الحالات مثلاً يجوز أن يبدي على حرفية القانون الخلفي روحه أو قصده؟ ومتى يجوز للإنسان أن يكذب أو يسرق أو يقتل، أو يحنت بوعده حنثاً معقولاً، أو ينتهك ميثماً، أو حتى ينكر العقيدة؟

وطالب بعض المفتين بتفسير القانون الخلفي تفسيراً صارماً، ورأوا أن الصرامة أجدى في المدى الطويل من التساهل. ولكن غير هؤلاء - ولا سيما اليسوعيين مولينا، وإسكوبار، وتوليدو، وبوزنباوم-حبذوا دستوراً أخلاقياً متسامحاً، وحضوا على ضرورة التماس العذر للطبيعة البشرية، ومؤثرات البيئة، والجهل بالقانون، والمشقة البالغة في الامتثال الحرفي للقانون، وعنف سوراة العاطفة عنفاً شبيهاً بالجنون، وسائر الظروف

صفحة رقم : 10496

قصة الحضارة - < عصر لويس الرابع عشر - < فرنسا في أوج عظمتها - < بوتقة الإيمان - < الملك والكنيسة

التي تعطل حرية الإرادة. وتيسيراً لهذه الأخلاقيات اللينة، وضع اليسوعيون مبدأ الترجيح-ومؤداه أنه إذا استحسنت حجة معروف في اللاهوت الخلفي رأياً بعينه، جاز لكاهن الاعتراف أن يحكم طبقاً لهذا الرأي إذا استصوب ذلك، ولو عارضته كثرة الخبراء. (وكانت كلمة Probabilis تعني في ذلك الوقت المستحسن، أو الذي يسمح بالاستحسان(2)). يضاف إلى هذا، في رأي بعض المفتين اليسوعيين، أنه من المباح أحياناً أن يكذب الإنسان، أو يمسك عن قول الحق بـ"تحفظ عقلي"؛ مثال ذلك أن للمسيحي الأسير، إذا أكره على الخيار بين الإسلام والموت، أن يتظاهر بقبول الإسلام دون أن يحسب ذلك خطيئة عليه. ثم إن أخلاقية عمل ما، في رأي إسكوبار، ليست في الفعل نفسه، الذي في ذاته أخلاقياً أولاً أخلاقياً، بل في نية الفاعل الخلقية، فليس هناك خطيئة ما لم يكن هناك خروج واع، مختار، عن القانون الخلفي.

والكثير من إفتاء اليسوعيين كان توفيقاً معقولاً رحيماً بين القواعد التي يغلب عليها زهد العصر الوسيط، وبين مجتمع اكتشفت مشروعية اللذة. ولكن اليسوعيين في فرنسا بصفة خاصة، وفي إيطاليا بدرجة أقل، طوروا الإفتاء حتى بلغوا به من التسامح مع ضعف الطبيعة البشرية مبلغاً حمل رجالاً جادين كبسكال في باريس، وساربي في البندقية، وكثيراً من اللاهوتيين الكاثوليك، ومنهم عدة يسوعيين(3)-حمل هؤلاء جميعاً على الاحتجاج على ما رأوا فيه استسلاماً من المسيحية للخطيئة. وصدم هذا التراخي اليسوعي مع العالم والجسد مشاعر هيجونوت فرنسا الذين ورثوا دستور كالفن الخلفي الصارم. وقامت حركة قوية داخل الكاثوليكية ذاتها وهي الجانسنية-فرقت في دير البور-روبال لواء أخلاقية شبه كالفنية، في حرب مناهضة لليسوعيين أهاجت فرنسا والأب الفرنسي قرناً كاملاً. وجرت هذه الحرب لويس الرابع عشر إلى معركة، لأن كهنة اعترافه كانوا يسوعيين وتطبيقه للدين لم يكن مترمناً. وفي 1674 اضطلع الأب لاشيز بالإشراف

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> الملك والكنيسة

على ضمير الملك، وقد وصفه فولتير بأنه "رجل هادئ الطبع يسهل عنده التوفيق دائماً.(4)" وقد شغل المركز اثنين وثلاثين سنة، غفر خلالها كل شيء وحظي بمحبة كل إنسان. وقد قال لويس عنه "بلغ من طبييته أنني كنت أحياناً ألومه عليها(5)". ولكنه بطريقته الهادئة الصابرة كان له تأثير بالغ على الملك، وأعان على توجيهه إلى الاقتصار على امرأة واحدة آخر المطاف، وإلى طاعة البابا.

ذلك أن لويس لم يكن دائماً "بابوياً" صادقاً. كان متديناً على طريقته الرسمية، وندر أن قصر في حضور القداس اليومي(6). قال لولده في مذكراته:

"...واصلت تدريبات التقوى التي نشأتني عليها أُمي، من جهة لأشكر الله على كل الحظ الطيب الذي نلتته، ومن جهة لاكسب محبة شعبي...والحق يا بني أننا لا نفتقر إلى عرفان الجميل والإنصاف فحسب، بل إلى الحكمة والفتنة أيضاً، حين نقصر في عبادته تعالى، الذي لسنا إلا نواباً له. وما خضوعنا له إلا القاعدة والمثل للخضوع الذي نستحقه(7)". على أن هذا لم يشمل الخضوع للبابوية. ذلك أن لويس ورث التقليد "الغالي" بمقتضى تقويض بورج البرجماتي (1483) وكونكوردا فرنسوا الأول (1516)-ذلك التقليد الذي اقر حق ملوك فرنسا في تعيين أساقفة فرنسا ورؤساء أديارها، وتحديد دخولهم، والتعيين في جميع الوظائف الكنسية ذات الدخول في الفترة بين موت الأسقف وتنصيب خلفه. وقد آمن لويس أنه خليفة الله أو ممثله في فرنسا، وأن خضوعه للبابا (بوصفه هو أيضاً خليفة الله) يجب أن يقصر على شؤون العقيدة والأخلاق، وأن على رجال الأكليروس الفرنسيين أن يطيعوا الملك في كل أمر يتصل بالدولة الفرنسية.

واستكثر فريق من الأكليروس هذه الدعوى وهم المناصرون للسيادة

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> الملك والكنيسة

البابوية المطلقة-وأيدوا سلطان الباباوات المطلق على الملوك والمجامع وتعيين الأساقفة، ولكن الغالبية-وهو الحزب الغالي-دافعوا عن استقلال الملك الكامل في الأمور الزمنية، وأنكروا عصمة البابا إلا إذا وافق عليها مجمع مسكوني، ورأوا في الروغان من سيطرة روما منفعة للأكليروس الفرنسي. وصرح أمير كوندية أن من رأيه أنه لو طاب للملك أن يتحول إلى المذهب البروتستانتي لكان رجال الأكليروس الفرنسي أول من يتبعه(8). وفي 1663 أصدرت السوربون-وهي كلية اللاهوت في جامعة باريس-سبت مواد تؤكد الموقف الغالي. واتخذت "البرلمانات" الفرنسية ذات الموقف، وأيدت لويس في دعواه بحقه في أن يقرر أي المراسيم البابوية ينبغي نشره وقبوله في فرنسا. وفي 1678 احتج البابا أنوسنت السادس على هذه النزعة الغالية، وحرّم رئيس أساقفة تولوز لأنه عزل أسقفاً قاوم هذه النزعة.

ودعا الملك مجمعاً من الأكليروس، كلهم تقريباً من اختباره. وفي مارس 1682 أعاد المجتمع تأكيد مواد السوربون الست، ووضع لنفسه المواد الأربع الشهيرة، التي كادت تفصل الكنيسة الفرنسية عن روما:

- 1- للبابا سلطان في الأمور الروحية، وليس له سلطان غزل الأمراء أو حل رعاياهم من طاعتهم.
- 2- للمجامع المسكونية سلطان فوق سلطان البابا.
- 3- الحريات التقليدية للكنيسة الفرنسية لا يجوز انتهاكها.
- 4- لا عصمة للبابا إلا بموافقة مجمع الأساقفة.

وأعلن أنوسنت بطلان قرارات المجمع، ورفض التنصيب القانوني لجميع الأساقفة الجدد الذين وافقوا على المواد. وإذا كان لويس لا يعين إلا أمثال هؤلاء المرشحين، فقد شغرت في 1688 نحو خمس وثلاثين أسقفية من أساقفتها القانونيين. على أن الشيخوخة ومدام دمانتون كانا قد ألانا جانب الملك، ثم أراحه الموت من ذلك البابا العنيد. وفي 1693 سمح لويس

صفحة رقم : 10499

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> الملك والكنيسة

لمرشحيه أن ينكروا المواد، وأقر البابا أنوسنت الثاني عشر حق الملك في التعيينات الأسقفية، وأصبح لويس من جديد "الملك المسيحي جداً" Rex Christianissimus.

صفحة رقم : 10500

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> ألبرور رويال 1204

2- ألبرور رويال

1204 - 1626

كانت الحرب القديمة بين الكنيسة والدولة أهون الدرامات الدينية الثلاث التي اضطرت بها حكم لويس. فقد فاقها عمقاً ذلك الصراع الذي احتدم بين الكاثوليكية السنية التي دانت بها الدولة والأكليروس، وكاثوليكية الجانسينيين والبور-رويال القريبة من البروتستانتية، وكان أعرق هذه المسرحيات وأشدّها فجيعة هو القضاء على الهيجونوت في فرنسا. ولكن ما هو البور-رويال هذا، ولم هذا الضجيج الكثير من حوله في التاريخ الفرنسي؟ لقد كان ديراً لراهبات الطريقة السيسترسية Cistercian على نحو ستة عشر ميلاً من باريس وستة أميال من فرساي، في مكان وطيء تكتنفه المستنقعات، وصفته مدام دسفينيه بأنه "واد رهيب، هو بالضبط المكان الذي يجد فيه الإنسان خلاصاً (9)". وأسّس حوالي 1204، ونجا بشق الأنفس من التقلبات الكثيرة التي تعرض لها في حرب مائة العام والحروب الدينية. وقد اضمحل نظامه وتناقصت راهباته، ولعل الدير كان يخفتي عن الأنظار لولا أنه خضع لرأسه جاكولين أرنو، وجرّد للدفاع عنه قلم بليز بسكال.

لقد صنع أنطوان أرنو الأول (1560-1619) التاريخ ببلاغته ووفرة ذريته. ففي 1593، بعد أن حاول باربيير اغتيال هنري الرابع، وجه أرنو إلى برلمان باريس خطاباً غاضباً طالب فيه بطرد اليسوعيين من فرنسا. ولم يصفحوا عنه بعدها، وكانوا ينظرون بعين نقادة منذرة بالشر إلى ما تقوم به أسرته في البور-رويال. وكان لأربعة على الأقل من بين أبنائه-البالغين نيفاً وعشرين-دور في قصة ذلك الدير. فقد عينت جاكولين أرنو

صفحة رقم : 10501

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> البور رويال 1204

مساعدة لرئيسة دير البور-رويال وهي في السابعة (1598) وبعد عام أصبحت شقيقتها جان، البالغة ستة أعوام، ريسة لدير سان-سير. وكان التعيينات بأمر هنري الرابع، وثبتهما مرسومان بابويان أمكن الحصول عليهما بتزويج عمر الفتاتين (10). ولعل أباهما التمس لابنتيه هاتين الوظيفتين بديلاً عن العثور على زوجين ومهرين لهما. فلما أصبحت جاكولين، بوصفها الأم أنجليك، رئيسة اسمية للبور-رويال (1602) لم تجد غير أرخي النظم بين راهباته الثلاث عشرة، فقد كانت كل منهن تحتفظ بثروتها، وتكشف شعرها، وتستعمل مستحضرات التجميل، وتتبع أحدث الأزياء. وقل أن تناولن الأسرار المقدسة، ولم يستمعن لأكثر من سبع عظات خلال ثلاثين عاماً (11). فلما ازداد وعي الرئيسة الشابة بالحياة التي ألزمتها إياها أبوها، سخطت ونوت الهروب (1607). "فكرت في مغادرة البور-رويال والعودة إلى العالم-دون إحاطة أبي أو أمي بنيّتي، لأهرب من هذا النير الذي لا يطاق، ولأتزوج". (12) ومرضت، فحملت إلى بيتها، وهناك مرضتها أمها بكثير من الرعاية الحانية حتى عادت إلى البور-رويال عقب إيلالها وهي مصممة على الوفاء بندورها الديرية حباً في أمها. على أنها أوصت بمشرد من عظم الحوت لتحتفظ لقوامها نحافتها (13). وظلت تخفي نفورها من الحياة الدينية إلى أن سمعت في عيد القيامة عام 1608 عظة ألقاها راهب كبوشي عن آلام المسيح، وكانت يومها في معية الصبا. قالت تروي الحدث فيما بعد "خلال هذه العظمة لمسني الله لمسة جعلتني منذ تلك اللحظة بأنني أسعد حالاً في حياة الرهبنة... ولا أدري أي شيء كنت أحجم عن فعله الله إذا واصل تعالى هذه الحركة التي منحنتي إياها نعمته (14)". ذلك، في لغتها، كان "أول عمل للنعمة" (أي اللطف الإلهي). وفي أول نوفمبر من ذلك العام ملأها عظة أخرى-هي "ثاني أعمال

صفحة رقم : 10502

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> ألبيور رويال 1204

النعمة" شعوراً بالخزي من شدة تراخيها وتراخي رهاباتها في الوفاء بما نذرن من فقر وعزلة. إذ كانت ممزقة بين حبها للراهبات ورغبتها في فرض نظام الطريقة السترسية، فقد رانت عليها الكآبة، ومارست ألواناً من التقشف لم يقو عليها جسدها، فأصابها الحمى. ولا بد أنها كانت لطيفة محببة إلى النفوس، وآية ذلك أنه حين سألتها الراهبات عن السر في حزنها، وصارحتهن برغبتها في أن يرجعن إلى التزام رهبتهن بحذافيره، ارتضين حكمها، وجمعن كل ممتلكاتهن الخاصة، وأخذن العهد على أنفسهن بالفقر الدائم.

أما الخطوة الثانية، وهي اعتزال العالم، فكانت أشد إيلاًماً. فقد حظرت الأم أنجليك على الراهبات أن يغادرن الدير، أو يستقبلن الزوار حتى أقرب الأقرباء دون إذن صريح، فإذا استقبلنهم ففي قاعة الاستقبال دون غيرهما. وشكون مما سيكلفهن هذا من عنق شديد. ولكي تعطيهن القدوة الحسنة المشددة لعزائمهن صممت ألا ترى أبويها في زيارتهما التالية إلا من نافذة ذات شباك أو "شيش" في الباب الفاصل بين قاعة الاستقبال وحجرات الدير. فلما حضر أبواها راعمها أنها لا تريد التحدث إليهما إلا من خلال هذا الشباك... وأصبح "يوم الشباك" (25Journee du Guichet سبتمبر 1609) يوماً مشهوراً الدائر حول البور-رويال.

وهذا غضب الأسرة المقصاة، وتأثر أفرادها بورع الأم أنجليك (التي بلغت الآن الثامنة عشرة) تأثراً حمل الفتاة تلو الفتاة من بيت أرنو على دخول البور-رويال. ففي 1618، أخذت شقيقتها أن أوجني على نفسها عهد الرهينة. ولحقتها شقيقات أخريات بعد قليل-كاترين، وماري، ومادليز،. وفي 1629، جثت أمهن الأرملة عند قدمي الأم أنجليك ملتزمة قبولها مبتدئة في الرهينة ثم أخذت العهد في الوقت المناسب، وعاشت في تواضع وسعادة

صفحة رقم : 10503

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> ألبيور رويال 1204

تحت رئاسة أبنيتها، وراحت تدعوها منذ الآن بالأم. وقد حمدت الله وهي تحتضر (1641) لأنها قدمت من بناتها للحياة الدينية. ودخلت خمس من حفيداتها البور-رويال في فترة لاحقة. وأصبح ابنه روبيور وثلاثة من حفيدتها "متوحدين" هناك، وأصبح ألمع أبنائها، وهو انطوان أرنو الثاني، عضو السوربون، فيلسوف البور-رويال ولاهوتيه. وإنا لياخذنا العجب لهذه الخصوبة، ولا نملك غير الاحترام لمثل هذا العمق في التعبد والولاء والإيمان .

وقادت الأم أنجليك قطيعها خطوة بخطوة عوداً إلى نظام الرهينة السترسية الكامل فحفظت الراهبات، اللاتي بلغ عددهن الآن ستاً وثلاثين، جميع الأصوام بدقة تامة، ومارسن الصمت فترات طويلة، واستيقظن في الثانية صباحاً لترتيل تسبحة الصباح، ووزعن الصدقات على فقراء الجيران من مالهن المشترك. وسرت الإصلاحات من البور-رويال، وأرسلت الراهبات اللاتي دربن فيه للاديار في جميع أرجاء فرنسا لحضها على العودة إلى سابق نظمها. من ذلك أن ديرا في موبويسون كان شديد الانحلال، وقد استعمله هنري الرابع من قبل مكان لقاء مع خليلته جابريل دستريه، وكانت رئيسته محاطة ببناتها غير الشرعيات، وكان الراهبات يغادرون ديرهن دون قيد ليلقين ويراقصن رهبان دير مجاور(16). وفي 1618 طلب رؤساء الأم انجليك إليها أن تحل محل رئيسة دير موبويسون، ومكثت هناك خمس سنوات، فلما عادت إلى البور-رويال تبعها اثنتان وثلاثون راهبة إلى الدير الأم الذي انبعث منه نور الإصلاح.

وفي 1626 ظهر وباء الملاريا في البور-رويال. وإذ نبه بعضهم أنجليك

صفحة رقم : 10504

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> ألبر رويال 1204

إلى ما في جو الدير الرطب من خطر، فإنها انتقلت مع راهباتها إلى منزل بباريس. وهناك، وتحت تأثير الجانسنية، دخلن معركتهن التاريخية مع اليسوعيين والملك. ورعان ما احتل "المتوحدون" المباني المهجورة المتهدمة في البور-رويال-دي-شان، وكانوا رجالاً رغبوا في أن يحيوا حياة أقرب إلى الحياة الديرية وإن لم يندروا أنفسهم للرهبنة. ووفد على المكان نفر من آل أرنو-أنطوان الثاني وأخوه روبيير أرنودانديي، وأبناء أخته أنطوان لوميتير وسيمون دسريكور، وحفيده إسحاق للوي ساسي، وأنظم إليهم بعض رجال الكنيسة، وأمثال بيير نيكول وأنطوان ساجلان، لا بل بعض النبلاء أمثال الدوق دلون والبارون دبو تشانو. وراحوا يصرفون معاميا المستنقعات. ويحفرون الخنادق، ويرممون المباني، ويعنون باليساتين والحدائق. وكانوا جماعة أو فرادى يمارسون ألواناً من الفنون، ويصومون، ويرتلون، ويصلون، ويلبسون لباس الفلاحين، ويمتنعون عن تدفئة غرفهم في البرد القارس. وكانوا يدرسون الكتاب المقدس وكتابات آباء الكنيسة، وقد ألفوا كتباً فيها تعبد وتفقه، وأحد هذه الكتب، واسمه "فن التفكير"، وهو من تأليف نيكول وأرنو الصغير، ظل كتبياً محبباً في المنطق حتى القرن العشرين.

وفي 1638 افتتح المتوحدون "مدارس صغيرة" دعوا إليها أطفالاً اختاروهم من سن التاسعة أو العاشرة، وعلموهم الفرنسية، واللاتينية، واليونانية، والنواحي السنوية في فلسفة ديكارت. وطلب إليهم أن يجتنبوا الرقص والمسرح (وكلاهما وافق عليه اليسوعيون)، وأن يصلوا كثيراً، ولكن ليس للقديسين، ولم تكن هناك صور في الكنيسة الصغيرة التي يسمعون فيها القداس. وفي البور-رويال-دي-شان، و البور-رويال-دجباري، وأصبح اعتراض تقوى آل أرنو على فساد البلاط،

صفحة رقم : 10505

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> ألبر رويال 1204

اعتراضاً آخر من اللاهوت والأخلاق الجانسيية الصارمة على تيسير اليسوعية بين للمسيحية حتى توائم الطبيعة البشرية.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> الجانسونيون واليسوعيون

3- الجانسونيون واليسوعيون

كان كورنيليس جانس هولندياً، ولد في ولاية أوترخت لأبوين كاثوليكين، ولكنه تأثر تأثراً عميقاً باللاهوت الأوغسطيني الذي دان به جيرانه الكالفينيون. فلما التحق بجامعة لوان الكاثوليكية (1602) وجدها مضطربة بجدل عنيف بين الحزب اليسوعي أو السكولاستي، وشيعة تتبع الآراء الأوغسطينية التي نادى بها ميخائيل بابوس في الجبرية والنعمة الإلهية. وانحاز جانسن إلى الأوغسطينيين. وفي الفترة بين دراسته السابقة للتخرج وعمله أستاذاً، قبل جانس دعوة وجهها إليه زميل يدعى جان دوفر جييه دهوران ليعيش معه في بايون. وقد درسا القديس بولس والقديس أوغسطين، واتفقا على أن خير سبيل للدفاع عن الكاثوليكية ضد الكالفينيين الهولنديين واليهجونوت الفرنسيين هو الإقتداء بأوغسطين في تشديده على النعمة الإلهية والجبرية، وتأصيل دستور أخلاقي صارم بين الأكليروس والعلمانيين الكاثوليك، يفضح الانحلال المنتشر في البلاط والأديار، كما يفضح أخلاقيات اليسوعيين الهينة اللينة. وفي 1616، بينما كان جانس رئيساً لبيت للطلاب الهولنديين في لوفان، هاجم لاهوت اليسوعيين في حرية الإرادة، وبشر ببيورثانية صوفية قريبة من التقوية التي كانت بسبيل التشكل في هولندا، وإنجلترا، وألمانيا. ثم واصل الحرب أستاذاً لتفسير الكتاب المقدس بلوفان وأسقفاً لأبيير. وترك عند موته (1638) رسالة كبيرة لم ينجزها تماماً. عنوانها "أوغسطينيوس" ما لبثت بعد نشرها في 1640 أن أصبحت البرنامج العقائدي

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> الجانسونيون واليسوعيون

للبورجروال، ومثار الجدل في اللاهوت الكاثوليكي الفرنسي طوال قرن تقريباً. ومع أن الكتاب أختتم بلفتة خضوع لكنيسة روما، فإن كالفيني الأراضى المنخفضة رحبوا به بوصفه لب الكالفنية وجوهرها (17). فقد قبل جانس الجبرية قبولاً تاماً كما قبلها أوغسطين ولوثر وكالفن من قبل. فحتى قبل أن يخلق الله العالم، أختار تعالى أولئك الرجال والنساء الذين ينبغي أن يخلصوا، وقرر من ينبغي أن يهلكوا؛ وأعمال البشر الصالحة، وإن تكن ذات قيمة، لا يمكن أن تكسبه الخلاص دون معونة من النعمة الإلهية، وقليلون هم الذين سيخلصون حتى بين القلة الصالحة. أما الكنيسة الكاثوليكية فلم تكن أنكرت صراحة جبرية القديس بولس والقديس أوغسطين، ولكنها تركتها تتوارى في خلفية تعليمها، لصعوبة التوفيق بينها وبين حرية الإرادة، التي بدا أنها شرط لا غنى عنه. منطقياً للمسئولية الخلقية ولفكرة الخطيئة. ولكن إرادة الإنسان في رأي جانس ليست حرة، فقد فقدت حريتها بخطيئة

آدم. وأصبحت طبيعة الإنسان الآن فاسدة فساداً يعجزه عن تخليص نفسه، ولا يمكن أن يخلصه غير نعمة الله التي اكتسبها بموت المسيح. أما دفاع اليسوعيين عن حرية الإرادة فقد بدا لجانس أنه يغالي في دور الأعمال الصالحة في نيل الخلاص، ويجعل موت المسيح، ذلك الموت الذي افتدى الخطاة، أمراً لا ضرورة له تقريباً. ثم نبه إلى أننا يجب ألا نأخذ المنطق مأخذ الجد الشديد، فالعقل ملكة أدنى بكثير من الإيمان الوثائق المسلم، كما أن للممارسات الطقسية ضرب من الدين أدنى من اتصال النفس المباشر بالله. وقد وصلت هذه الأفكار إلى البور-رويال بطريق دوفر جييه، الذي كان أثناء ذلك قد أصبح رئيساً لدير سان-سيران. وقد وفد مسيو دسان-سيران، كما سمي الآن، على باريس وهو يتقد غيرة وتحمساً

صفحة رقم : 10508

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> الجانسونيون واليسوعيون

لإصلاح اللاهوت والأخلاق، وليستبدل التقوى الباطنة بالتدين الظاهر وسرعان ما قبل مرشداً روحياً للراهبات في البور-رويال-دباري، وللمتوحدين في البور-رويال-دي-شان (1636)، وغدت هذه المؤسسة المزدوجة صوت الجانسونية ونموذجها الأمثل في فرنسا. أما ريشليو فقد رأى في هذا المصلح رجلاً متعصباً مثيراً للقلق، فاعتقله في فانسين (1638). وفي 1642 أفرج عن سان-سيران، ولكنه مات بالفالج بعد سنة. وقد ظل بلهم الكثيرين من آل أرنو حتى وهو في سجنه. فنشر أرنو الثاني "أرنو الكبير" 1643 رسالة في "كثرة تناول الأسرار المقدسة" واصلت حرب أبيه مع اليسوعيين. ولم يذكر اسمهم صراحة، ولكنه ندد بفكرة أحس بأن بعض كهنة الاعتراف يتسامحون فيها، وهي أن في قدرة الخاطئ أن يكفر عن خطيئته المتكررة إذا أكثر من الاعتراف وتناول القربان. وشعر اليسوعيون بأنهم المقصودون بهذا الهجوم، وشددوا النكير على آل أرنو. وتوقع أنطوان المتعصب، فرحل عن باريس إلى البور-رويال-دي-شان. وفي 1648 رحلت الراهبات أيضاً عن العاصمة وقد روعتهن حرب الفروند وعدن إلى مقرهن القديم. وأحلى المتوحدون المكان وانتقلوا إلى مزرعة قريبة تدعى ليجرانج. وكان البابا أوربان الثامن قد أدان (1642) العقيدة العامة التي انطوى عليها كتاب جانس "أوغسطينوس". وفي 1649 طلب أستاذ في السوربون إلى الكلية أن تدين سبع قضايا في الكتاب زعم أنها تحظى برواج شديد. وأحيل الأمر إلى اينوسنت العاشر، وأنتهز اليسوعيون الفرصة ليقنعوا البابا بما تتطوي عليه الجانسونية من الأخطار بوصفها لاهوتاً كالفنياً يتخفى في ثوب كاثوليكي. وأخيراً حملوه على إصدار مرسوم (Cum Occasione 31 مايو 1653)، حكم بالهرطقة على خمس قضايا زعم أنها مأخوذة من كتاب "أوغسطينوس".

صفحة رقم : 10509

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> الجانسونيون واليسوعيون

- 1- هناك تعاليم إلهية يعجز الصالحون عن طاعتها عجزاً مطلقاً رغم إرادتهم.
 - 2- لا يستطيع إنسان أن يقاوم تأثير النعمة الإلهية.
 - 3- لكي تكون أعمال البشر أهلاً أو غير أهل للمكافأة والتقدير لا يشترط أن تكون خلوا من الضرورة القاهرة، بل يكفي أن تكون بلا ضغط أو كبت.
 - 4- هذه الهرطقة، الشبيهة بهرطقة بيلاجيوس، مؤداها السماح لإرادة الإنسان بأن تمنح قوة مقاومة النعمة، أو الامتنال لتأثيرها.
 - 5- كل من زعم أن المسح مات، أو سفك دمه، للبشر جميعاً، هو شبيه بيلاجيوس (18).
- هذه القضايا لم تؤخذ حرفياً من كتاب "أوغسطينيوس"، ولكنها صيغت بقلم أحد اليسوعيين تليخياً لتعليم هذا الكتاب. وهي كخلاصة فيها قدر لا بأس به من الإنصاف (19)، ولكن الجانسنيين احتجوا بأن القضايا، بهذا الوصف، لا توجد عند جانس-وإن كان أرنو قد ألمع في خبث إلى أنه يمكن العثور عليها كلها عند القديس أوغسطين. وفي غضون ذلك لم يقرأ الكتاب أحد فيما يبدو.
- وكان أنطوان أرنو مقاتلاً بالفطرة. فأقر بعصمة البابا في أمور الإيمان والأخلاق، لا في الأمور المتصلة بالحقيقة الواقعة؛ ومن الحقائق الواقعة أنه أنكر أن جانس قرر هذه القضايا المحكوم بإدانتها. وفي 1655 عاد إلى مقابلة اليسوعيين في عقر دارهم بنشره "رسائل إلى دوق نبييل"، وقد هاجم فيها الأساليب التي زعم أنها أساليب اليسوعيين في كرسي الاعتراف ورحبت السوربون باقتراح بطرده. فأعد دفاعه، وقرأه على أصحابه في البور-روبال. فلم يقع في نفوسهم موقعاً ذا بال، وكان أحدهم

صفحة رقم : 10510

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بونقة الإيمان -> الجانسنيون واليسوعيون

مريداً جديداً يدعى بليز بسكال. فاتجه إليه أرنو وأهاب به قائلاً: "أنت أبها الشاب، لما لا تكتب شيئاً (20)؟" واعتكف بسكال في حجرته، وكتب أول "رسائله الإقليمية" وهو من عيون الأدب والفلسفة الفرنسيين. وينبغي أن نستمع إلى بسكال في شيء من الإسهاب، لأنه لم يكن أعظم كتاب النثر الفرنسي فحسب، بل ألمع المدافعين عن الدين في عصر العقل بأكمله.

صفحة رقم : 10511

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بونقة الإيمان -> بسكال

أ - بسكال الإنسان

كان أبوه إيتيين بسكال رئيساً لمحكمة المعونين بكليير مون-فيران في وسط فرنسا الجنوبي. وماتت أمه بعد مولده بثلاث سنين، مخلفة فضلاً عنه أختاً أكبر منه تدعى جلنبيرت وأخرى أصغر تدعى جاكلين. وانتقلت الأسرة إلى باريس حين بلغ بليز الثامنة. وكان إيتيين يدرس الهندسة والفيزياء، وقد أتاح له تفوقه فيهما أن يصادق جاسندي، وميرسين، وديكارت. وكان بليز يسترق السمع لبعض لقاءاتهم، فأصبح في الفترة الأولى من حياته عاشقاً للعلم. فلما بلغ الحادية عشرة ألف رسالة قصيرة عن أصوات الأجسام المتذبذبة. وخيل للأب أن ولع الصبي بالهندسة سيلحق الأذى بدراساته الأخرى، فحظر عليه حيناً أن يمضي في عكوفه على الرياضيات. ولكن حدث يوماً- فيما روي- أن إيتيين وجده يكتب على الحائط بقطعة من الفحم البرهان على أن زوايا المثلث الثالث تساوي زاويتين قائمتين (21)، وبعدها سمح للغلام أن يدرس إقليدس. وقبل أن يبلغ السادسة عشرة كتب بحثاً في القطاعات المخروطية فقد أكثره، ولكن إحدى نظرياته كانت مساهمة خالدة في ذلك العلم، وما زالت تحمل اسمه. وحين عرضت مخطوطة البحث على ديكارت أبي أن يصدق أنه من وضع الابن لا الأب.

صفحة رقم : 10512

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> بسكال

في ذلك العام (1639) لعبت أخته الجميلة جاكلين دوراً مثيراً في حياة الأسرة، وكانت آنئذ في الثالثة عشرة. ذلك أن الأب كان قد استثمر بعض المال في السندات البلدية، وخفض نسبة الفائدة التي تؤدي عن هذه السندات، فانتقده إيتيين، وهدد الكردينال بالقبض عليه، فاخْتَبأ في أوفرن. ولكن الكردينال كان يحب التمثيليات والبنات، وقامت بعض الفتيات- ومنهن جاكلين- بتمثيل مسرحية سكوديري "الحب الظالم" أمامه، فشرح تمثيلها صدره، واغتتمت هي الفرصة وتوسلت إليه أن يصفح عن أبيها، ففعل، وعينه ناظراً ملكياً في روان عاصمة نورمانديه، وإليها انتقلت الأسرة في 1641.

وهناك أختراع بليز أول آلاته الحاسبة العديدة المحفوظ بعضها إلى الآن في كونسرفتوار الفنون والصناعات بباريس، وكان يومها في التاسعة عشرة. أم المبدأ الذي قامت عليه فهو سلسلة من التروس ينقسم كل منها إلى تسعة أرقام وصفر، ويحرك كل منها عشر دورة نظير كل دورة كاملة للتروس الذي إلى يمينه، ويظهر كل منها رقمه الأعلى في

ثقب عند القمة. ولم تكن الآلة تستطيع غير الجمع، ولا كانت عملية من الناحية التجارية، ولكنها قربت من بداية اليوم دهشة العالم. وأهدى بسكال إحدى آلاته الحاسبة إلى كرستينا ملكة السويد، مشفوعة بخطاب إطراء بليغ جداً، فدفعه إلى قصرها، ولكنه أحس بأنه أضعف من أن يحتمل ذلك المناخ الرهيب. وكان العالم الشاب المتحمس الشديد الاهتمام بالتجارب التي نشرها تورشيللي عن وزن الهواء، وطرات على خاطر بسكال فكرة كان فيها مستقلاً عن تورشيللي، وكان ربما استوحاها من اقتراح لديكارت(22)، وموداها أن الزئبق في أنبوبة تورشيللي يرتفع إلى مستويات مختلفة في أماكن مختلفة، حسب اختلاف الضغط الجوي. فطلب إلى زوج أخته في أوفران أن يحمل أنبوبة زئبق إلى قمة جبل، ويلاحظ أي فرق - على مختلف

صفحة رقم : 10513

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> بسكال

المستويات- في ارتفاع الزئبق في الجزء المقفل من أنبوبة فتح طرفها الآخر لضغط الهواء. وفعل فلوران بييريه كما طلب إليه، ففي 19 سبتمبر 1648 ارتقى مع بعض أصحابه "بوي ددوم"؛ الذي يرتفع خمسة آلاف قدم فوق مدينة كليرمون- فيران، وهناك ارتفع الزئبق إلى ثلاث وعشرين بوصة في الأنبوبة، بينما ارتفع عند سفح الجبل إلى ست وعشرين، وهلت أوربا كلها للتجربة لأنها أثبتت نهائياً مبدأ البارومتر وقيمه. وتلقى بسكال بفضل شهرته عالماً (1648) نداء مثير من مقامر طلب إليه أن يضع قانوناً لرياضيات الحظ أو الصدفة، فقبل التحدي، واشترك مع فيرمان في وضع حساب الاحتمالات، الذي ينتفع به الآن كثيراً في جداول التأمين من المرض والموت. ولم تبد عليه هذه المرحلة من نموه أي بادرة بأنه سينقل يوماً ما ولاءه من العلم إلى الدين، أو يفقد إيمانه في المنطق والتجريب، وواصل العمل عشر سنين في المعضلات العلمية لا سيما الرياضية منها، وفي تاريخ متأخر (1658) عرض جائزة من مجهول في تربيعة الدويري- وهو الخط المنحني الذي تحدته نقطة دائرة تدحرج على خط مستقيم فوق سطح مستو. وتقدم بالحلول واليس، وهو بنجز، ورن، وغيرهم، ونشر بسكال بعد ذلك حله، تحت اسم مستعار، وأعقب ذلك جدل سلك فيه المتنافسون، ومنهم بسكال، مسلماً لم يتسم بالكثير من الفلسفة. وتسلبت على حياته خلال ذلك مؤثران أساسيان، المرض والجانسنية. ذلك أنه مذ كان فتى في الثامنة عشرة عانى من علة عصبية قل أن تركته يوماً بغير ألم. وفي 1647 أقعدته بالشلل لم يستطع بسببها المشي إلا توكأ على عكازين. وكان رأسه يصدع، وأمعأؤه تلتهب، وساقاه وقدماه دائمة البرودة والحاجة إلى الوسائط المرهقة لتنشيط دورته الدموية، وكان يلبس الجوارب الطويلة المنقوعة في البراندي التماساً لدفء قدميه.

صفحة رقم : 10514

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> بسكال

وكان مما حمله على الانتقال إلى باريس مع جاكليين أن يجد علاجاً طبياً أفضل، وتحسنت صحته، ولكن جهازه العصبي كان قد لحق به أذى مستديم. فأصبح منذ ذلك الحين عرضة لأوهام ازداد عمقها على الأيام حتى أثرت في خلقه وفلسفته، فبات سريع الانفعال، فريسة لنوبات من الغضب المتكبر العاتي، وقل أن أشرق وجهه بابتسامة (23). وكان أبوه طيلة حياته كاثوليكياً تقياً بل صارماً وسط شواغله العلمية، وقد علم أبناءه أن الإيمان الديني أثنى ما يملكون، وأنه شيء بعيد كل البعد عن متناول أو عن حكم قوى التفكير الضعيفة التي يملكها البشر. وفي روان أصيب الأب بجرح خطير فعالجه طبيب جانسنى بنجاح، ومن هذا الاتصال اتخذ إيمان الأسرة مسحة جانسنية، فلما انتقل بليز وجاكليين إلى العاصمة كثر اختلافهما إلى القديس في البور - رويال - د - باري، ورغبت جاكليين في دخول الدير راهبة، ولكن أباهما لم يستطع أن يروض نفسه على السماح لها بالخروج من حياته اليومية، ولكنه مات عام 1651، وما لبثت جاكليين أن ترهبت في البور - رويال - دي - شان، بعد أن حاول أخوها عبثاً أن يثنيها عن عزمها. وتنازعا حيناً على تقسيم ميراثهما، فلما سوي النزاع وجد بليز نفسه رجلاً غنياً حراً - وتلك حال مجافية لحياة التقوى، فاتخذ لنفسه بيتاً فاخر الأثاث، واستكثر من الخدم، وجاب باريس في مركبة تجرها خيول أربعة أو ستة (24). وأعطاه شفاءه المؤقت شعوراً خداعاً بالنشاط والخفة حرفة من التقوى إلى اللذة. وعلينا ألا ننسه على تلك السنوات القليلة التي قضاها "في العالم" (1648-54)، يستمتع بصحبة ظرفاء باريس وألعابها وحسانها، ويطارد في برهة مثيرة بأوفرن سيدة ذات جمال وثقافة، وصفها بـ "سافر الريف (25)". وحوالي هذه الفترة كتب "أحاديث في آلام الحب" ويلوح أنه فكر في الزواج - الذي سيصفه في تاريخ لاحق بأنه "أحظ ظروف الحياة المباحة لمسيحي (26)". وكان بعض أصحابه

صفحة رقم : 10515

قصة الحضارة - < عصر لويس الرابع عشر - < فرنسا في أوج عظمتها - < بوتقة الإيمان - < بسكال

فجرة جمعوا بين الحريتين، حرية الأخلاق وحرية الفكر، ولعلمهم هم الذين أثروا اهتمام بسكال بموننتيني، الذي تغلغت الآن "مقالاته" في حياته. وأكبر الظن أن تأثيرها الأول عطفه نحو التشكك الديني. ووبخه جاكليين حين نمت إليها نبتة عبثه الجديد، وصلت لأجل صلاح حاله. وكان من خصائص طبيعته العاطفية أن تستجيب لصلواتها إثر حادث وقع له. ذلك أنه بينما كان ذات يوم يركب عربته فوق البون دنوبي جسر نيللي، جمحت الخيل واندفعت فوق الحاجز إلى نهر السين. وكادت العربية أن تتبع الخيل، ولكن العنان انقطع لحسن الحظ، وتعلقت المركبة بنصفها فوق الحافة. وخرج منها بسكال وأصحابه، ولكن الفيلسوف المرهف الحس أغمي عليه لفرط خوفه من الموت الدايم، وظل برهة غائباً عن رشده. فلما أفاق شعر بأنه رأى الله في رؤيا. وفي نشوة الخوف والندم وعرقان الجميل سجل رؤياه على رق راح يحمله منذ تلك اللحظة مخيلاً في بطانة سترته: "السنة 1654 بعد الميلاد، الاثنين 23 نوفمبر... من نحو السادسة والنصف مساءً إلى النصف بعد منتصف الليل. أن الإله القديم، إله إبراهيم، وإله إسحق، وإله يعقوب، لا إله الفلاسفة والعلماء. اليقين، اليقين، الوجدان، الفرح، السلام. إله يسوع المسيح... لن يجده الإنسان إلا بالطرق التي يعلمها الإنجيل. يا سمو النفس الإنسانية، أيها الأب العادل، أن لعالم لم يعرفك قط، ولكني عرفتك. إنه الفرح، الفرح، دموع الفرح... يا إلهي، هل أنت تاركي؟ يسوع المسيح... لقد فصلت عنه، وهربت منه، وتخليت عنه، وصلبته. ليتني لا أفارقه أبداً، إنها المصلحة الحلوة الكاملة (27)". وعاود زيارته للبور - رويال وجاكليين، وشرح صدرها بحالته النفسية الجديدة، حالة التواضع والتوبة. ولتستمع إلى عظات أنطوان سانجلان. وفي ديسمبر 1654 أصبح عضواً في جماعة البور - رويال (28). وفي يناير كان له هناك حديث طويل مع ساسي، الذي آلى على نفسه أن

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> بسكال

يقنعه بسطحية العلم وعمق الفلسفة. وأنس أرنو ونيكول من العضو الجديد حماسة في الاهتداء وبراعة في التعبير الأدبي وكأنهما أداة وضعتها العناية في أيدي الجماعة للدفاع عن البور - رويال ضد أعدائه فطلبوا إليه أن يخصص قلمه للرد على اليسوعيين الذين كانوا يحاولون تصوير الجانسنية على أنها خطيئة. واستجاب للطلب في ذكاء وقوة بلغا مبلغاً جعل جماعة اليسوعيين تشكو إلى اليوم من وخز بسكال الأليم.

ب - الرسائل الإقليمية

في 23 و26 يناير 1656 نشر بسكال الرسالتين الأولى والثانية مما سماه "رسائل كتبها لوي ديمونالت" (وهو اسم مستعار) "إلى صديق في الإقليم، وإلى الآباء اليسوعيين المبجلين، عن أخلاقياتهم وسياساتهم". وكان إطارها ذكياً، فقد زعم إنها تقرير من باريس إلى صديق في الأقاليم عن المسائل الخلقية واللاهوتية التي كانت يومئذ تثير الأوساط الفكرية والدينية في العاصمة. وقد زود أرنو ونيكول بسكال بالحقائق والمراجع. أما هو فقد أبدع ذلك الأسلوب الأدبي الذي استشرى مستوى جديداً في النثر الفرنسي، فقد توافرت لبسكال حماسة المؤمن الجديد وذكاء رجل الدنيا وتهذيبه. أما الرسائل الأولى فقد التمسست التأييد العام لآراء الجانسنيين في النعمة الإلهية والخلص، وهي الآراء التي دافع عنها أرنو من قبل، وقد قصد بها أن تؤثر في السوربون لتعارض الاقتراح بطرد أرنو. وقد فشلت في هذا، إذ جرد أرنو رسمياً من لقبه وطرد (31 يناير). وحفز الفشل بسكال وأرنو إلى الهجوم على اليسوعيين لأنهم يقوضون الفضيلة بما يعيب آباء اعترافهم من تحلل، وما يشوب فتاواهم من ثغرات. وقد نقبا في مؤلفات إيسكوبار وغيره عن اليسوعيين ونددا بمبادئ "الاحتمالية" و "التوجيه بالنية" و "التحفظ العقلي"، وحتى بتوفيق المرسلين اليسوعيين بين

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> بسكال

اللاهوت المسيحي وعبادة الصينيين لأسلافهم(29). وإن لم يتهمها اليسوعيين صراحة بتبرير الوسائط لبلوغ الغايات. وكان هذا المهدي يزداد حماسة كلما توالى الرسائل وكشف له أرنو عن المزيد من فتاوى إيسكوبار. وبعد الرسالة العاشرة ألقع عن أكذوبة الباريسي كاتب الرسائل للإقليمي، وأماط اللثام عن شخصه، ووجه الخطاب إلى اليسوعيين رأساً في بلاغة تضطرم سخطاً، وذكاء يفيض تهكماً. وكان ينفق أحياناً عشرين يوماً في تحرير رسالة واحدة، ثم يهرع بها إلى المطبعة قبل أن يفتر اهتمام الجمهور، وقد اعتذر عن طول الرسالة السادسة عشرة بعذر فريد في بابه، إذ قال "لم يتسع لي الوقت لإحضارها(30)". وفي الرسالة الثامنة عشر والأخيرة (24 مارس 1657) تحدى البابا

نفسه. ذلك أن البابا الإسكندر السابع أصدر (16 أكتوبر 1656) تنديداً آخر بالجانسية، فذكر بسكال قراءه بأن حكم البابا عرضة للخطأ، كما أخطأ في حالة جاليليو (31) (وذلك شعور بسكال). وأدان البابا الرسائل (6 سبتمبر 1657) ولكن فرنسا المثقفة كلها قرأتها.

أكانت الرسائل منصفة لليسوعيين؟ أنقلت المختارات عن الكتاب اليسوعيين نقلاً أميناً؟ قال عقلاني متقف "صحيح ولا ريب أن بعض العبارات المعدلة حذفت أحياناً دون موجب، وأن عبارات أخرى ترجمت ترجمة خاطئة، وأن ضغط الفقرات الطويلة في جمل قصيرة يشعرك في بعض الحالات بأن هذا إجحافاً بالمؤلف" ثم يقول "ولكن هذه الحالات قليلة وغير هامة نسبياً" (32) وهناك الآن إجماع على أن المختارات دقيقة في جوهرها (33) على أنه لا بد من التسليم بأن بسكال انتزع أشد فقرات بعض المفتين إزعاجاً وشبهه من سياقها، وقاد شطراً من الجمهور إلى رأي فيه غلو كثير، مؤداه أن هؤلاء الفقهاء اللاهوتيين يتأمررون على هدم أخلاق العالم المسيحي. وقد أطرى فولتير براعة الرسائل بوصفها أدباً، ولكنه رأى أن "الكتاب كله مبني على أساس زائف. فقد نسب المؤلف في حذق إلى الجماعة اليسوعية

صفحة رقم : 10518

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوثقة الإيمان -> بسكال

كلها الآراء المتطرفة التي قال بها بعض اليسوعيين الأسبان والفلمنك (34)، الذين خالفهم كثير من اليسوعيين. وأسقف دالمبير لأن بسكال لم يتهم بالجانسينيين أيضاً، لأن "تعاليم جانسن وسان سيران المروعة كانت تتيح على الأقل مجالاً للسخرية لا يقل عما أتاحتها التعاليم الطبيعة التي نادى بها موليا وتامبوران وفاسكويز (35)". وكان تأثر "الرسائل" هائلاً. صحيح أنها لم تخضع لتوها شوكة اليسوعيين - ومن المؤكد أنها لم تنتقص من سلطانهم على الملك - ولكنها فضحت شطط المفتين فضحا حمل الإسكندر السابع نفسه على إدانة "التحلل"، رغم مواصلة معارضة الجانسية، وعلى الأمر بمراجعة نصوص الفتاوى (1665-66) (36). و "الرسائل" هي التي أضفت على كلمة الإفتاء الديني "Casuistry" مدلول التشقيقات الخداعة المظهر التي تدافع عن الأفعال أو الأفكار الخاطئة. ثم إنها أضافت آية من آيات الأسلوب إلى ذخيرة الأدب الفرنسي. وكان فولتير قد عاش قرناً قبل فولتير. فهنا ذكاء فولتير المرح، وتهكمه البتار، وفكاهته الشكاكية، وقدحه العنيف، وفي الرسائل اللاحقة ذلك الاستنكار الحار للظلم، الذي أنقذ فولتير من أن يكون موسوعة سخرية وتهكم. وقد وصف فولتير نفسه الكتاب بأنه "خير ما كتب وظهر في فرنسا إلى الآن" (37)، وكان رأي أنقذ النقاد قاطبة وأكثرهم رهافة وتمييزاً أن بسكال "ابتكر النثر الرائع في فرنسا (38)" وحين سئل بوسويه أي كتاب كان يؤثر أن يؤلف لم يؤلف كتابه قال، إنه رسائل بسكال الإقليمية (39).

ج - في الدفاع عن الإيمان

عاد بسكال إلى باريس في 1956 ليشرّف على نشر "الرسائل"، وعاش هناك طوال السنوات الباقية من عمره. على أنه لم يهجر العالم، ففي سنة

صفحة رقم : 10519

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> بسكال

موته ذاتها شارك في تنظيم خدمة منتظمة بالمركبات في العاصمة- وهي البذرة لشبكة الأمنوبيسات الحالية. ولكن حدثين وقعا له مجدداً تقواه، وحمله على أن يتوج أعماله بكتاب جديد أسهم به الأدب والدين. ذلك أنه في 15 مارس 1657 حصل اليسوعيون من الملكة الأم على أمير بإغلاق مدارس الموحدين وحظر قبول المزيد من الأعضاء في البور- رويال. وأطبع الأمر في هدوء، وأرسل الأطفال- وكان من بينهم راسين- إلى بيوت الأصدقاء، وتفرق المعلمون محزونين. وبعد تسعة أيام (وهو تاريخ صدور آخر الرسائل الإقليمية) وقع ما بدا معجزة في كنيسة دير الراهبات الذي تكدر صفوه. ذلك أن ابنة أخت بسكال البالغة من العمر تسع سنوات، واسمها مارجريت بيرييه، كانت تشكو من ناسور دمعي مؤلم يرشح صديداً كريهاً من العينين والأنف. وأهدى أهدى أحد أقرباء الأم أنجليك للبور- رويال شوكة زعم هو وغيره أنها أخذت من إكليل الشوك الذي عذب به المسيح. وفي 24 مارس وضعت الراهبات الشوكة على مذبحهن في احتفال مهيب وسط ترتيل المزامير. ولثمت كل منهن الأثر المقدس بدورها، ولما رأت إحداهن مارجريت بين العابدات أخذت الشوكة ولمست بها قرحة الفتاة. وروي أن مارجريت أعربت ذلك المساء عن دهشتها لأن عينها لم تعد تؤلمها، وأدهش أمها ألا ترى أثر للناسور، وقرر طبيب دعي لفحص الفتاة أن الصديد والورم قد اختفيا. وأذاع هو، لا الراهبات، نبأ هذا الذي سماه شفاء معجزاً. ووقع سبعة أطباء آخرون كانوا على سابق بناسور مارجريت بياناً قرروا أن معجزة- في رأيهم- قد حدثت. وبحث موظفو الأسقفية الأمر، وانتهوا إلى نفس النتيجة، وأذنوا بإقامة قداس شكر لله في البور- رويال. وتقاطرت جماهير المؤمنين على الدير ليروا الشوكة ويقبلوها، وهلت باريس الكاثوليكية كلها للمعجزة، وأمرت الملكة الأم بالكف عن كل اضطهاد للراهبات. وعاد المتوحدون إلى ليجرانج. (في عام 1728 أشار البابا بندكت الثالث عشر إلى هذا الحدث على أنه دليل

صفحة رقم : 10520

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> بسكال

على أن عصر المعجزات لم ينته). أما بسكال فقد صنع لنفسه شعار نبالة كان عبارة عن عين يحيط بها إكليل من الشوك، وقد كتب عليه Scio Cui Credidi - "أعرف من صدقت(40)". وعكف الآن على كتابة دفاع مفصل عن الإيمان الديني يكون بمثابة وصيته الأخيرة. ولكن قصارى ما وجد في نفسه القدرة عليه، وهو أن يدون في إنجاز خواطر منفصلة يجمع بينها في ترتيب اجتهادي ولكنه قوي. ثم عاودته أوجاعه القديمة (1658)، في شدة أعجزته إلى النهاية عن أن يضيف على هذه المذكرات تسلسلاً متماسكاً أو شكلاً بنائياً. فلما قام صديقه الدوق دروانيه وعلماء البور- رويال بتحرير ونشر هذه المادة وسموها "خواطر المسيو بسكال عن الدين وغيره من المسائل (1670)". وقد خشوا أن يقضي هذه "الخواطر" المبتورة التي خلفها بسكال إلى التشكك لا إلى التقوى، ومن ثم أخفوا الأجزاء المتشككة، وادخلوا تعديلاً على بعض ما بقي مخافة أن يسيء إلى الملك أو الكنيسة لأن اضطهاد البور- رويال كان قد توقف في تلك الفترة، وكره المحررون تجدد الجدل. ولم تنتشر "خواطر" بسكال Pens(es) في نصها الكامل الموثوق إلا في القرن التاسع عشر.

ولو شئنا أن نغامر بفرض ترتيب عليها لجعلنا نقطة بدايتها فلك كوبرنيك. ونحن نشعر ثانية- إذ نصغي إلى بسكال- يا للظلمة الهائلة التي كان فلك كوبرنيك وجاليليو يكيلها للمسيحية التقليدية:
"ليتأمل الإنسان الطبيعية كلها في جلالها الكامل السامي، ليقص عن بصره الأشياء الوضعية التي تحيط به، ولينظر إلى ذل النور المتوهج الذي وضع كأنه مصباح ابدى ينير العالم، ولتبد الأرض له مجرد نقطة داخل الدائرة الشاسعة التي يرسمها ذلك النجم، وليأخذه العجب من أن هذا المحيط الهائل إنما هو نقطة ضئيلة من زاوية النجوم التي تتحرك في قبة السماء.

صفحة رقم : 10521

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوثقة الإيمان -> بسكال

فإذا توقف بصرنا عند هذا الحد، فليجأزه الخيال... فكل هذا العالم المرئي ليس إلا عنصراً لا يدرك في صدر الطبيعة العظيم. ولا يستطيع أي تفكير أن يمتد إلى هذا المدى... إنها كرة لانهاية مركزها في كل مكان، ومحيطها في غير مكان(42). هذا أكثر مظهر قابل للإدراك من مظاهر قدرة الله، حتى أن خيالنا يتوه في هذا الخاطر".
ثم يضيف بسكال في سطر شهير مطبوع بحساسيته الفلسفية، "أن الصمت الأبدي الذي يلف هذا الفضاء اللانهائي يخيفني(43)".
ولكن هناك لانهاية أخرى- وتلك هي لانهاية صغر الذرة "التي لا تقبل الانشطار، وقبولها النظري للانقسام قبولاً لا حد له، فمهما كانت ضالة الحد الأدنى الذي نختزل به أي شيء، فإننا لا نملك إلا الاعتقاد بأنه هو أيضاً له أجزاء أصغر منه. وعقلنا يتذبذب في حيرة وارتياح بين الشاسع غير المحدود، والدقيق غير المحدود.
"إن من يتأمل نفسه على هذا النحو تخيفه نفسه، وإذا أدرك أنه معلق... بين هاويتين اللانهائية والعدم، ارتعد فرقاً... ويات أمل إلى تأمل هذه العجائب في صمت منه إلى ارتيادها بغرور. فما الإنسان في الطبيعة، بعد كل شيء...؟ إنه العدم إذا قيس بغير المحدود، وهو كل شيء إذا قيس بالعدم، إنه وسط العدم والكل. وهو بعيد كل البعد عن إدراك الطرفين، فنهاية الأشياء وبدايتها أو أصلها، يلقهما سر لا سبيل إلى استكناهه، وهو عاجز على السوء عند رؤية العدم الذي أخذ منه، والانهائي الذي يغمره(44).

صفحة رقم : 10522

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوثقة الإيمان -> بسكال

فالعلم إذن ما هو إلا ادعاء غبي. فهو مبني على العقل، المبني على الحواس، التي تخدعنا بعشرات الطرق. وهو محدود بالحدود الضيقة التي تعمل حواسنا داخلها، ويقصر عمر الجسد قصراً قابلاً للفساد. وإذا ترك العقل لذاته لم يستطع أن يفهم- أو يعطي أساساً مكيناً للفضيلة، أو الأسرة، أو الدولة، فكيف بإدراك الطبيعة العالم ونظامه الحقيقيين،

فضلاً عن فهمه لله. والعرف، لا بل الخيال والأسطورة، حكمة أكثر مما في العقل و "أحكم العقول يتخذ تلك المبادئ، التي أدخلها خيال الإنسان بتعجل في كل مكان، مبادئ له(46)" وهناك نوعان من الحكمة: حكمة الجماهير البسيطة "الجاهلة"، التي تعيش بحكمة التقاليد الموروثة والخيال (أي الطقوس والأساطير)، وحكمة الحكيم الذي نفذ إلى صميم العلم والفلسفة ليذكر جهله(47). إذن "لا شيء أروح للعقل من أن ينبذ العقل" و "الاستخفاف بالفلسفة ملاك الفيلسوف الأصيل(48)".

ومن ثم رأى بسكال أنه ليس من الحكمة إقامة الدين على العقل، كما حاول حتى بعض الجانسنيين، أن يفعلوا. بالعقل لا يستطيع أن يثبت وجود الله، ولا الخلود، لأن الأدلة في الحالين شديدة التناقض. كذلك لا يصلح الكتاب المقدس أساساً نهائياً الإيمان، لأنه حافل بالفقرات الملتبسة أو الغامضة، وربما كان للنبوءات التي يفسرها الأتقياء على أنها تشير إلى المسيح دلالة مختلفة(49). أضف إلى ذلك أن الله في الكتاب المقدس يتكلم بالأرقام، التي يضللنا مدلولها الحرفي، والتي لا يدرك معناها الحقيقي إلا من وهبوا النعمة الإلهية. "أننا لن نفهم شيئاً من أعمال الله ما لم نؤمن بهذا المبدأ، وهو أنه تعالى يشاء أن يعمي البعض وينير بصائر البعض(50). (وهنا يبدو أن بسكال يقبل حرفياً قصة يهوه وهو يقسي قلب فرعون).

ولو اعتمدنا على العقل لوجدنا غير المفهوم أينما تلتفتنا. فمنذا الذي يستطيع أن يفهم، في الإنسان، ذلك الاتحاد والتفاعل بين جسد واضح

صفحة رقم : 10523

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوثقة الإيمان -> بسكال

المادية وذهن واضح اللامادية؟ "فليس هناك شيء أشد استحالة على التصور من أن تعي المادة نفسها(51)". إنهم الفلاسفة الذين ملكوا أهواءهم- "وأي مادة تستطيع أن تفعل هذا(52)؟". وطبيعة الإنسان، التي يمتزج فيها الملاك بالوحش امتزاجاً شديداً(53)، تكرر التناقض بين العقل والجسد، وتذكرنا بالكمير الذي زعمت الأساطير اليونانية أنه عنزة لها رأس أسد وذيل ثعبان.

"يا لهذا الإنسان من كمير! ياله من بدعة، ووحش، وفوضى، وتناقض، ومعجزة! هذا الحكم في كل الأشياء، ونموذج الغباء في الأرض؛ مستودع الحق، وبالوعة الظلال والشك؛ مفخرة الكون ونفايته. فمنذا الذي يحل لنا هذا اللغز المعقد(54)؟".

إن الإنسان- من الناحية الخلقية- لغز غامض. فكل ضروب اللؤم تبدو مستترة فيه. "ما الإنسان إلا مخلوق خداع المظهر، كذوب، منافق، مع نفسه ومع غيره(55)". "كل الناس بطبيعتهم يكره بعضهم بعضاً، ولن تجد أربعة أصدقاء في العالم(56)". "ما أفرغ قلب الإنسان وما أحفله بالفقر" (57) ثم يا لغوره الذي لا قرار له ولا شبع، "ما كنا لنركب البحر أبداً لولا حلمنا بأننا سوف نوري قصتنا... أننا نفقد الحياة مغتبطين شريطة أن يتحدث الناس بما فعلنا... وكل الناس، حتى الفلاسفة، يتمنون أن يكون لهم معجبون(58)". ومع ذلك فإن من جوانب عظمة الإنسان أنه من شره، وكرهه، وغروره، أنشأ دستوراً من القوانين والأخلاق ليسيطر على شره، واشتق من شهوته مثلاً أعلى في الحب(59).

وشقاء الإنسان لغز آخر. فلم شقي الكون هذا الشقاء الطويل لينجب نوعاً من الخليفة شديد الهشاشة في سعادته، كثير التعرض للألم في كل عصب، وللحزن في كل حب، وللموت في كل حياة؟ ومع ذلك فإن "جلال الإنسان عظيم في معرفته أنه شقي(60)".

"ما الإنسان إلا قسبة، وهي أوهى ما في الطبيعة، ولكنه قسبة مفكرة.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> بسكال

والكون كله لا حاجة به لأن يتسلح لكي يسحقه، فنفخة بخار، أو قطرة ماء، تكفي لقتله. ولكنه، بعد أن يسحقه الكون، لا يزال أنبل من هذا الذي يقتله، لأنه لا يعرف أنه مفارق الحياة، أما الكون فلا يعرف شيئاً عن انتصاره على الإنسان(61)".

وليس من هذه الألباز لغز يجد في العقل جواباً له. ولو ركنا إلى العقل وحده لحكمنا على أنفسنا بـ"ببروية" تتشكك في كل شيء إلا الألم والموت، والفلسفة لا تستطيع على أحسن الفروض إلا أن تكون تبريراً عقلانياً للهزيمة. ولكننا لا نستطيع أن نؤمن بأن قدر الإنسان هو كما يراه العقل - أن يكافح، ويتعذب، ويموت، بعد أن ينجب آخرين ليكافحوا، ويتعذبوا، ويموتوا، جيلاً بعد جيل، في افتقار للهدف، وغباوة، وحقارة هائلة. فنحن في قرارة نفوسنا نشعر بأن هذا لا يمكن أن يكون صحيحاً، وبأنه تجديف ما بعده تجديف أن نظن أن الكون بلا معنى. فالله ومعنى الحياة يجب أن يشعر بهما القلب لا العقل. "فإن للقلب مبرراته التي لا يعرفها العقل(62)".، وأخيراً نفع أن أصغينا إلى قلوبنا، وإن "وضعنا إيماننا في الوجدان(63)". ذلك أن كل إيمان، حتى بالأمور العملية، إنما هو ضرب من الإرادة، وتوجيهه للانتباه والرغبة (إرادة الإيمان). والتجربة الصوفية أعمق من شهادة الحواس أو حجج العقل.

أي جواب إذن عند الوجدان يجيب به عن الغاز الحياة والفكر؟ الجواب هو الدين. فالدين وحده يستطيع أن يرد للحياة معناها، وللإنسان نبهه، وبدونه نتخبط أعمق حتى من تخبطنا الأول في إحباط عقلي وعمم مميت. فالدين يعطينا كتاباً مقدساً، والكتاب ينبئنا بسقوط الإنسان من النعمة، وهو الخطيئة الأصلية هي دون غيرها التي تستطيع أن تفسر ذلك الجمع الغريب في الطبيعة بين الكره والحب، وبين الشر الوحشي واشتياقنا للخلاص والله. فإذا سمحنا لأنفسنا بأن نؤمن (مهما بدت سخافة

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> بسكال

هذا الإيمان للفلاسفة) بأن الإنسان بدأ بالنعمة الإلهية، وأنه فقدتها بالخطيئة، وأنه لا خلاص له إلا بالنعمة الإلهية عن طريق المسيح المصلوب، وجدنا بعد هذا سلاماً عقلياً لا يوهب الفلاسفة أبداً. والذي لا يستطيع الإيمان ملعون، لأنه يعلن بكفره أن الله لم يشأ أن يمنحه النعمة.

والإيمان رهان حكيم. وهب أن الإيمان لا يمكن إثباته، فأبي ضمير إن قامرت على حقيقته ثم اتضح بطلانه؟ "الزام عليك أن تراهن، وليس لك في هذا خيار...فلتوازن بين المكسب والخسارة في الرهان على وجود الله...أنك إن كسبت كل شيء، وإن خسرت لم تخسر شيئاً. فراهن إذن دون تردد على أنه تعالى موجود(64)". فإذا وجدت أول الأمر أن الإيمان صعب عليك فاتبع عادات وطقوس الكنيسة كأنك تؤمن حقاً. "تبرك بالماء المقدس، وأطلب تلاوة القدايس،

وهلم جرا، وهذا كفيل بأن يجعلك تؤمن بطريقة بسيطة طبيعية، وبأن يهدئك"- سيهدئ من عقلك المغتر بقدرته النفاذة(65). واعترف وتناول القربان، وستجد في هذا راحة قوية(66). ونحن نظلم هذا الدفاع التاريخي إذا تركناه يختتم على هذه النعمة غير البطولية. فلنا أن نثق بأن بسكال حين آمن لم يؤمن كأنه مقامر بل كنفس حيرتها ودوختها الحياة، وكأنسان أدرك في تواضع أن عقله الذي أذهل ذكأوه الصديق والعدو، ليس كفواً للكون، ووجد في الإيمان السبيل الوحيد ليضفي على ألمه المعنى والمغفرة. ويقول سانت- بيغ "إن بسكال رجل مريض، وعلينا أن نذكر هذا على الدوام ونحن نقرأه(67)" ولكن بسكال لو ووجه بهذا الرأي لأجاب: ألسنا كلنا مرضى؟ فليرفض الإيمان كل من اكتملت له السعادة. ليرفضه كل من لم يقع بمعنى الحياة أكثر من أنها مسار عاجز من ميلاد قدر إلى موت أليم.

"تصور نفراً من الناس يرسفون في الأغلال وقد حكم عليهم جميعاً

صفحة رقم : 10526

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوثقة الإيمان -> بسكال

بالموت، وفي كل يوم يشنق بعضهم على مرأى من الباقين، والباقون يتبينون حالهم في حال زملائهم، ويتبادلون نظرات الحسرة واليأس، وينتظر كل منهم دوره. هذه صورة لحالة الإنسان(68)".

فكيف السبيل إلى التعويض عن هذه المذبحة البشعة التي نسميها التاريخ إلا بالإيمان بأن الله سيصح الأخطاء كلها في النهاية، سواء استند هذا الإيمان إلى دليل أو لم يستند؟ وقد تحمس بسكال في حاجته لأنه لم يفق قط إفاقة حقيقة من الشكوك التي أوحى بها إليه مونتيني، وملحدو "السنوات التي قضاها في العالم"، وحياد الطبيعة القاسي بين "الشر" و "الخير".

"ذلك ما أراه وما يقض مضجعي. فأينما تلفت لم أجد غير الغموض والإبهام. ولا تقدم لي الطبيعة إلا ما يحتمل الشك والقلق. فلو أنني لم أر علامات على وجود إله لثبت علي الإنكار. ولو رأيت آثار الخالق في كل مكان لسكنت إلى الإيمان في هدوء وسلام. ولكنني في حالة يرثى لها أنني أرى أكثر كثيراً مما يبرر إنكار وجوده تعالى، وأقل كثيراً مما يطمئنني على وجوده. ولقد طالما تمنيت أن تعلن الطبيعة عن وجود دون لبس أو غموض ما دام هذا الإله حافظها(69)".

وحالة القلق العميق هذه، والقدرة المعطلة على رؤية الجانبين، هي التي تجعل بسكال يستهوي المؤمنين والشكاكين على السواء. فلقد شعر هذا الرجل بغيظ الملحد من الشر، وبثقة المؤمن في انتصار الخير، ولقد عبر من تدويمات مونتيني وشارون الذهنية إلى التواضع المغتبط الذي أحس به القديسان فرانسيس الأسيسي وتوماس أكيمببس. وهذه الصرخة المنبعثة من أعماق الشك، وهذه الصياغة لإيمان ضد الموت، هما اللذان يجعلان "خواطر" بسكال أبلغ الكتب قاطبة في النثر الفرنسي. لقد أصبحت الفلسفة أدباً للمرة الثالثة في القرن السابع عشر، لا في تركيز يكون الهادئ،

صفحة رقم : 10527

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> بسكال

ولا في ألفة ديكرات السارة، بل في القوة العاطفية لشاعر يحس بالفلسفة، ويكتب لقلبه بدمه. في قمة العصر الكلاسيكي علا هذا النداء الرومانسي، وبلغ من القوة ما أتاح له أن يعمر بعد بوالو وفولتير، وأن يسمعه عبر قرن من الزمان روسو وشاتوبريان. فهنا، في صبيحة عصر العقل، وفي عقود هوبز وسبينوزا ذاتها، وجد العقل منازل له في رجل محتضر.

روت مدام بيريبه، شقيقة بسكال، أنه كان في سنه الأخيرة يعاني من "علل مستديمة متقادمة(70)" وانتهى به الأمر إلى الرأي بأن "المرض هو الحالة الطبيعية للمسيحيين(71)". وكان أحياناً يرحب بالأمه لأنها تصرفه عن المغريات. قال "إن ساعة من الألم تعلم أفضل من كل الفلاسفة مجتمعين(72)". وقد هجر كل اللذات، وعكف على ممارسة النسك، وجلد نفسه بحزام ثبتت فيه مسامير من حديد(73). ووبخ مدام بيريبه لأنها تسمح لأبنائها بعناقها. وعارض في زواج ابنتها قائلاً: "إن حالة الزوجية ليست خيراً من الوثنية في نظر الله(74)". ولم يسمح لإنسان في حضرته أن يتحدث عن جمال المرأة.

وفي عام 1662، أوى أسرة فقيرة في بيته صدقة من صدقاته الكثيرة. فلما أصيب أحد الأطفال بالجدرى انتقل بسكال إلى بيت شقيقته بدلاً من أن يطلب إلى الأسرة أن تغادر بيته. ولم يمض وقت طويل حتى لزم فراشه وقد حطمته الآلام المعوية. وكتب وصيته، فترك نصف ثروته تقريباً للفقراء، واعترف لكاهن، وتناول القربان الأخير، ثم لفظ أنفاسه إثر تقلصات عنيفة، في 19 أغسطس 1662 وهو لا يجاوز الأربعين. ولما شرحت جثته وجد أن معدته وكبدته مريضتان، وأن في أمعائه قرحاً(75). وقال الأطباء أن مخه "ضخم الحجم جداً، وأن مادته جامدة مكثفة" ولكن خطأ واحداً فقط من خطوط الاتصال بين عظام الجمجمة هو الذي كان مقللاً قفلاً سليماً، ولعل هذا هو السر في نوبات الصداع الرهيبة التي ابتلي بها.

صفحة رقم : 10528

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> بسكال

ووجد على لحاء المخ منخفضان "كبيران كأنهما صنعا بأصابع وضعت في الشمع"(76) وقد دفن في كنيسة أبرشية سانت اثيين- دومون.

صفحة رقم : 10529

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> ألبور رويال 1656

شددت "الرسائل الإقليمية" من عزم اليسوعيين والأساقفة على قمع الجانسية باعتبارها بروتستنتية مقنعة. فأصدر البابا الإسكندر السابع (16 أكتوبر 1656) استجابة لإلحاح الأساقفة الفرنسيين مرسوماً بابوياً يلزم جميع رجال الكنيسة الفرنسيين بالتوقيع على الصيغة التالية:

"إني أخضع بإخلاص لدستور البابا أنوسنت العاشر، المؤرخ 31 مايو 1653، حسب معناه الحقيقي الذي حدده دستور أبينا الأقدس البابا الإسكندر السابع المؤرخ 6 أكتوبر 1656، وأقر بأنني ملتزم في ضميري بطاعة هذين الدستورين، وأدين بقلبي وفمي التعليم الوارد في قضايا كورنيلس جانسن الخمس المحتواة في كتابه المعنون "أوغسطينوس".

وامتنع مازاران عن فرض التوقيع على هذه الصيغة، ولكن في 13 إبريل 1661، عقب موت مازاران، أذاع لويس الرابع عشر الأمر، وقدم وكيل أسقفية من أصدقاء الجماعة لهذه الصيغة ببيان توفيقى، فوقعها أرنو والمتوحدون في هذه الصورة، ونصحو أراهبات البور-رويال بالحدو حذوهم، ولكن الأم أنجليك-التي كانت طريحة الفراش لإصابتها بالاستسقاء-رفضت التوقيع وثبتت على الرفض إلى أن ماتت في السبعين في 6 أغسطس 1661، وكذلك رفض بسكال وشقيقته جاكلين، التي أصبحت وكيلة الدير. وقالت جاكلين: مادام الأساقفة لا يملكون من الشجاعة إلا شجاعة الفتيات، فلا بد أن يكون للفتيات شجاعة الأساقفة(77)" وأخيراً وقعت كل الأراهبات الباقيات على قيد الحياة، ولكن جاكلين

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> ألبور رويال 1656

التي أضنتها مقاومتها الطولية ماتت في 4 أكتوبر وهي لا تجاوز السادسة والثلاثين، وتلاها بسكال بعد عام واحد. واستنكر الملك خلال ذلك الديباجة الموفقة وأصر على أن يوقع الأراهبات الصيغة دون أي إضافة أو تغيير، ونقل القليلات اللاتي وقعن إلى البور-رويال في باريس، ولكن أغلبية الأراهبات، تنزع عنهن الأم أنيبس، صرحن بأنهن ليس في وسعهن التوقيع بضمير خالص على وثيقة تناقض معتقداتهن أشد مناقضة. وفي أغسطس 1665 حرم رئيس الأساقفة الأراهبات السبعين وأخواتهن العلمانيات الأربعة عشرة من تناول الأسرار المقدسة، وحظر عليهن أي اتصال بالعالم الخارجي. وخلال السنوات الثلاثة التالية، كان أحد الكهنة المتعاطفين مع الأراهبات يتسلق أسوار البور-رويال-دي-شان ليناول الأراهبات المحتضرات قربانهن الأخير. وفي 1666 قبض على ساسي، ولوميتير، وثلاثة من المتوحدين بأمر الملك، أما أرنو الذي تنكر وراء شعر مستعار وسيف، فقد أوتته لونغفيل، التي كانت تخدمه بنفسها أثناء اختبائه(78). وتبنت هي وغيرها من النبيلات قضية الأراهبات، وأقنعن لويس بأن يلين؛ وفي 1668 أصدر البابا كلمنت التاسع مرسوماً جديداً صيغ في لبس حكيم يسمح لجميع الأطراف بقبوله، وأفرج عن السجناء، وردت الأراهبات

المنشقات إلى البور-رويال-دي شان، وعادت الأجراس تدق في الدير بعد أن صممت ثلاث سنين. واستقبل الملك أرنو استقبالاً ودياً، وكتعب هذا كتاباً ضد الكلفنين، ولكن نيكولا كتب كتاباً آخر ضد اليسوعيين. ودام "سلام الكنيسة" أحد عشر عاماً، ثم ماتت مدام لو نجفيل، ومات معها السلام. وإذ بدأ الملك يشيخ، وانقلبت انتصاراته هزائم، واستحال دينه خليطاً من التعصب والخوف، وساءل نفسه، أكان الله يعاقبه على تسامحه مع الهرطقة؟ واتخذ بغضه للجائسية طابعاً شخصياً، ومن الأمثلة على هذا

صفحة رقم : 10531

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> البور رويال 1656

التحول أن لويس رفض تعيين رجل يدعى فونبيرتوي في إحدى الوظائف لشبهته في أنه جانسني، ولكنه وافق على التعيين حين أكدوا له أن الرجل ملحد فقط(79). ولم يستطع قط أن يغتفر للراهبات تحديهن لأمره بالتوقيع على الصيغة المشددة. وضماناً للقضاء على مركز سخطه هذا في وقت مبكر حظر عليه قبول أعضاء جدد. ووجه نداء للبابا كلمنت الحادي عشر لكي يصدر إدانة صريحة للجائسية. وبعد عامين من الإلحاح أطلق البابا مرسوم Vineam (1705Domini) ولم يكن باقياً على قيد الحياة في البور-رويال آنذ سوى خمس وعشرين راهبة، أصغرهن في الستين. وترقب الملك موتهن بفارغ الصبر. وفي عام 1709 خلف الأب اليسوعي ميشيل تيلبيه البالغ من العمر ستة وستين عاماً، الأب لاشيز، كاهن اعتراف للملك. فأقر في ذهن لويس-وكان الملك قد بلغ الحادية والسبعين-أن مصير روحه الأبدية رهن بالإبادة الناجزة الكاملة للبور-رويال. وقد احتج كثيرون من الأكليروس العلمانيين على هذه العجلة وفيهم أنطوان دنواي، رئيس أساقفة باريس، ولكن الملك تغلب على معارضتهم. وفي 29 أغسطس 1709 أحاط الجند بالدير، وأطلع الراهبات على رسالة ملكية مختومة تأمر بتفريقهن فوراً، وسمح لهن بخمس عشر دقيقة يجمعن فيها أمتعتهن. ولم يجدن بكاؤهن ولا دموعهن. فدفعن داخل مركبات وشنتن في مختلف الأديار الممتلئة التي تبعد من ستين إلى مائة وخمسين ميلاً. وفي 1710 هدمت مباني الدير الشهير وسويت بالتراب. ولكن الجائسية عاشت. لقد مات أرنو ونيكول في منفاهما بفلاندر (1694-95)، ولكن كاهناً في مصلى باريس يدعى باسكويه كينيل، دافع عام 1687 عن اللاهوت الجائسني في كتابه "تأملات أخلاقية في العهد الجديد". وقد زج به في السجن (1703). ولكنه هرب إلى أمستردام

صفحة رقم : 10532

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> البور رويال 1656

حيث أسس كنيسة جانسنية. وإذ أكتسب كتابه التأييد الكثير من الأيكرس العلماني الفرنسي، فقد أفتق لويس البابا كامنت الحادي عشر بأن يصدر مرسوم (Unigenitus 8 سبتمبر 1713) الذي أدان 104 قضية نسبت إلى كينيل. وقد استاء كثير من الأحيار الفرنسيين من المرسوم لأنه تدخل بابوي في شئون الكنيسة، واتحدت الجانسنية مع أحياء للحركة الغالية. فلما مات لويس الرابع عشر، كان في فرنسا من الجانسنيين أكثر مما كان فيها في أي عهد مضى(80).

ويصعب علينا اليوم أن نفهم لم انقسمت أمة، وثارت ثائرة ملك، حول مشاكل عويصة تتصل بالنعمة الإلهية، والجبرية، وحرية الإرادة، ولكننا ننسى أن الدين كان له يومها ما للسياسة الآن من أهمية وخطر. وكانت الجانسنية الجهد الأخير الذي بذلته النهضة الأوروبية في فرنسا، والانتفاضة الأخيرة للعصور الوسطى. ونحن إذا تأملناها في منظور التاريخ بدت لنا رجعية لا تقدماً. بيد أن تأثيرها في عدة نواح كان تقدماً. فقد كافتحت حيناً في سبيل قسط من الحرية وإن كنا سنجدها في أيام فولتير أشد تعصباً من البابوية(81). وحدت من شطط الإفتاء الديني. وكانت غيرتها على الأخلاق تقلاً نافعاً أمام سياسة التراخي في أمور الاعتراف، تلك السياسة التي ربما شاركت في تدهور الأخلاق الفرنسية. كذلك كان تأثيرها التعليمي طيباً، وكانت "المدارس الصغيرة" التي أسستها خير المدارس في زمانها. وظهر تأثيرها الأدبي لا في بسكال وحده بل في كورنبي باعتدال، وفي راسين بحيوية، وهو تلميذ البور-روبال ومؤرخه. أما تأثيرها الفلسفي فكان غير مباشر وغير مقصود، ففكرتها عن الله قاضياً بالعذاب الأبدي على الشطر الأكبر من النوع الإنساني بما فيهم جميع الأطفال غير المعمدين، وجميع المسلمين وجميع اليهود لعل هذه الفكرة شاركت في دفع رجال كفولتير وديدرو إلى التمرد على اللاهوت المسيحي بأسره.

صفحة رقم : 10533

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> الملك والهيونوت

6- الملك والهيونوت

1643 - 1715

لم يكن الملك قد خلص روحه بعد، فقد بقي في فرنسا 1.500.000 من البروتستانت. وكان مازاران قد واصل وطور سياسة ريشليو في حماية حربة الهيونوت الدينية ما داموا مطيعين سياسياً. أما كولبير فقد أدرك قيمتهم في تجارة فرنسا وصناعتها. وفي 1652 أكد لويس مرسوم ناننت (1598) الذي أصدره جده الرابع، وفي 1666 أعرب عن تقديره لولاء الهيونوت خلال حرب الفروند، ولكن كان يحزنه ألا تتحقق وحدة فرنسا الدينية كما تحققت وحدتها السياسية، وحوالي 1670 كتب في مذكراته فقرة تنذر بالسوء:

"أما عن ذلك العدد الكبير من رعاياي الذين يدينون بما يسمونه المذهب الإصلاحية، وهو شر... أنظر إليه بحزن... فيخيل إلي أن أولئك الذي أرادوا استعمال ضروب عنيفة من العلاج لم يفتنوا إلى طبيعة هذا الشر، الذي نجم بعضه عن حرارة في العقول، والذي يجب أن يترك ليدوي ويموت دون أن يحس به أحد، بدلاً من آثاره من جديد بمثل هذه المقاومات العنيفة... وقد أمنت بأن خير سبيل للخفض من عدد الهيونوت في مملكتي تدريجياً هو أولاً عدم

الضغط عليهم إطلافاً بأي قيد صارم جديد، والأمر بمراعاة ما حصلوا عليه من أسلافي دون منحهم أكثر منه، وحتى قصر تنفيذه داخل أضيق الحدود التي تجيزها العدالة واللياقة(28)". وفي هذه الفقرة رائحة التعصب المخلص. وهذا رأي ملك مطلق السلطة، أخذ عن بوسويه شعار "ملك واحد، وقانون واحد، وعقيدة واحدة". فلم يعد ذلك التسامح الذي دان به ريشليو الذي كان يعين لمناصب الدولة الرجال الأكفاء أياً كانت عقيدتهم. ويواصل لويس حديثه فيقول إنه لن يعين في هذه المناصب سوى الكاثوليك الصالحين، أماً بذلك أنه سيشرح المرئدين على الرجوع إلى حظيرة الكاثوليكية.

صفحة رقم : 10534

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> الملك واليهجونات

أما الكنيسة نفسها فلم تكون قد وافقت قط على التسامح الذي نقله مرسوم ناننت، ففي 1655 طالب مجمع اكليريكي بتفسير أشد صرامة للمرسوم. وفي 1660 طلب مجمعهم إلى الملك أن يغلّق جميع الكليات والمستشفيات الهيجونوتية، وأن يحرم الهيجونات من الوظائف العامة، وفي 1670 أوصى المجمع بأن يعتبر الأطفال الذين بلغوا السابعة من عمرهم قادرين قانونياً على إنكار الهرطقة الهيجونوتية، وأن الذين ينكرونها على هذا النحو ينبغي فصلهم عن آبائهم، وفي 1675 طالب المجمع بأن يعلن بطلان الزيجات المختلطة، وأن يعتبر نسل هذه الزيجات غير شرعي(83). وكان رأي بعض رجال الدين الوردعين اللطفاء مثل الكاردينال دبيرول أن استخدام الدولة لوسائل المنع بالإكراه هو السبيل العملي الوحيد في التعامل مع البروتستنتية(84)، وألح الحبر تلو الحبر على الملك بهذه الحجة، وهي أن استقرار حكومته يرتكز على النظام الاجتماعي، الذي يرتكز على الفضيلة، التي تنهار إذا لم يدعمها دين الدولة. وشارك العلمانيون الكاثوليك في هذه الحجة، وأبلغ القضاة الحكومة عن صدمات مكررة للأمن بين المذهبين المتنافسين في المدن-هجمات كاثوليكية على المدارس والجنازات والبيوت البروتستنتية، وأعمال انتقام بروتستنتية من نفس النوع. وشيئاً فشيئاً أذعن لويس لهذه الحملة مخالفاً في ذلك فطرته الأصيل إلى الخير، وإذ كان على الدوام في حاجة للمال ينفقه على الحرب والأناقة، فقد وجد رجال الدين يقدمون له منحةً كبيرة شريطة أن يقبل آراءهم. ودفعته عوامل أخرى في نفس الاتجاه، فلقد كان يشجع بل برشوختشارلز الثاني لكي يحول إنجلترا إلى الكاثوليكية، فكيف يتأني في الوقت ذاته أن يسمح بالبروتستنتية في فرنسا؟ ألم يوافق البروتستنت في صلح أوجزبورج (1555) وبعده على المبدأ القائل بأن دين الحاكم يجب أن يفرض على رعاياه؟ ألم ينف الحكام البروتستنت في ألمانيا وفي الأقاليم المتحدة الأسر التي رفضت ديانة الأمير؟

صفحة رقم : 10535

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> الملك واليهجونات

وكان لويس، منذ أن بدأ حكمه الفعلي قد أصدر- أو أصدر وزراؤه بموافقتهم سلسلة من المراسيم التي اتجهت إلى إلغاء مرسوم التسامح إلغاء تاماً. ففي 1661 حرم على البروتستانت العبادة في معظم مقاطعة جكس، قرب الحدود السويسرية، بحجة أن جكس ضمت إلى فرنسا بعد صدور المرسوم، وكان يعيش في هذا الإقليم سبعة عشر ألف بروتستانت، وأربعمئة كاثوليك فقط (85). وفي 1664 جعلت الترقية إلى طبقة معلمي الحرف في الطوائف الصناعية عسيرة إلا على الكاثوليك (86)، وفي 1665 سمح للصبيان في الرابعة عشر والبنات في الثانية عشر بقبول اعتناق الكاثوليكية وترك آبائهم، الذين يلزمون عندها بأن يدفعوا لهم راتباً سنوياً لإعالتهم (87). وفي 1666 حظر على الهيجونت إنشاء كليات جديدة، أو الاحتفاظ بمعاهد لتعليم أبناء الأشراف، وفي 1669 تقرر اعتبار هجرة الهيجونت جريمة يعاقب عليها المهاجر بالاعتقال إذا وقع في قبضة السلطات ومصادرة بضائعه (88). وكان كل من ساعد هيجونوتياً على الهجرة عرضة للحكم بتسغيه في سفن الأسرى مدى الحياة (89). وفي 1677 سمح لويس بوقف "صندوق للمهنتين" تصرف منه مبالغ، متوسطها ستة جنيهات للفرد، لكل هيجونوتي يقبل اعتناق الكاثوليكية. وضماناً لثبات المهنتين على الكاثوليكية أصدر مرسوماً (1679) يقضي بنفي جميع المرتدين ومصادرة أملاكهم (90). ثم قطع هذا السبيل من التحريمات احتجاج ناخب براندنبورج وشكاوى كولبير مما تحدته هذه القوانين بالتجارة من كساد، واشتغال الملك بحملاته الحربية، ولكن تصالحه في 1681 مع الكاثوليكية، الأمرة بالانقصار على امرأة واحدة، رده من جديد إلى الحرب المقدسة على الهيجونت؛ فقال أحد مساعديه إنه يشعر "بالتزام لا مناص منه بهداية جميع رعاياه واستئصال شأفة الهرطقة (91)". وفي 1682 أصدر خطاباً- أمر جميع الرعاة البروتستانت بأن يقر عوه على شعبهم يهدد فيه الهيجونت "بويلات لا تقاس بما سبقها هولاً وقتكاً (92)". وخلال السنوات الثلاث

صفحة رقم : 10536

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> الملك والهيجونت

التالية أغلقت 570 كنيسة من كنائس الهيجونت البالغ عددها 815، وهدم الكثير منها، وحين حاول الهيجونت العبادة على أنقاض كنائسهم المهتمة عوقبوا باعتبارهم عصاة متمردين على الدولة. وكانت حملات الخيالة Dragonnades قد بدأت خلال هذا، فقد كان من العادات القديمة في فرنسا أن يسكن الجنود في الكومونات أو البيوت وعلى حسابها. واقترح لوفوا وزير الحرب على الملك (11 إبريل 1681) إعفاء معتقي الكاثوليكية الجدد عامين من هذا الإيواء للجنود، فأصدر الملك الأمر، وعلى هذا أمر لوفوا المديرين العسكريين لإقليمي بواتو وليموزان بأن ينزلوا خيالتهم مساكن الهيجونت، لا سيما الأثرياء منهم. وفي بواتو سمح المرشال ماريك لجنوده بأن يفهموا أنه لم يسوءه أن يعاملوا مضيقيهم البواسل بشيء من الغيرة الرسولية، وراح الجنود يسرقون الهيجونت ويضربونهم ويهتكون أعراضهم، فلما سمع لويس بهذا الشطط وبخ ماريك، ولما استمر طرده من وظيفته (93). وفي 19 مايو أمر بوقف هداية الهيجونت بطريق إيواء الخيالة، وشجب أعمال العنف التي ارتكبت في بعض الأماكن ضد دعاة الإصلاح البروتستانت (94). وأبلغ لوفوا المديرين الإقليميين بأن لهم أن يواصلوا حملات الخيالة، ولكنه نبههم إلى ضرورة حجب كل معلومات عن هذا الأمر عن الملك. وانتشرت حملات الخيالة في أرجاء كثيرة من فرنسا، فأدخلت في الكاثوليكية آلافاً من المهنتين. وأنكرت مدن وأقاليم كمونبيليه، ونيم، ووبيان مذهبا الكالفي على بكرة أبيها، وتظاهر أغلب الهيجونت باعتناق الكاثوليكية بعد أن أرهبهم الأمر، ولكن الألوف هجروا بيوتهم وأملاكهم وهربوا عبر الحدود أو وراء البحر متحدين القوانين. وأبلغ لويس لأنه لم يبق بفرنسا غير قلة قليلة من الهيجونت، وأن مرسوم ناننت أصبح بلا معنى. وفي 1684 التمسست الجمعية العامة للاكليروس من الملك إلغاء المرسوم كلية، و"توطيد ملك يسوع المسيح غير منازع من جديد في فرنسا" (95).

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> الملك والهيجونوت

وفي 17 أكتوبر 1685 ألغى الملك مرسوم ثابت باعتباره مرسوماً لا لزوم له في فرنسا التي تدين كلها بالكثلكة. فحظر منذ ذلك التاريخ على الهيجونوت إقامة شعائهم أو فتح مدارسهم، وصدر الأمر بهدم كل أمكنة العبادة الهيجونوتية وتحويلها كنائس كاثوليكية، وأمر رجال الدين الهيجونوت بالرحيل عن فرنسا في ظرف أربعة عشر يوماً، ولكن هجرة غيرهم من الهيجونوت حرمت وإلا كان عقاب المهاجرين تشغيلهم في سفن الأسرى مدى الحياة. ووعده المخبرون بنصف بضائع المهاجرين العلمانيين(96). وقضى بأن يعمد جميع الأطفال المولودين في فرنسا بواسطة القساوسة الكاثوليك وأن يربوا على المذهب الكاثوليكي، ووعده فقرة أخيرة بالسماح للقلة الباقية من الهيجونوت بأن يسكنوا بعض المد آمنين. ونفذت المادة من باريس وضواحيها، وحمل رئيس الشرطة التجار الهيجونوت هناك وطمانهم، ولم يكن هناك حملات خيالة في باريس أو قربها، وكان في وسع المراقص أن تمضي في فرساي، وفي وسع الملك أن ينام مطمئناً مرتاح الضمير، ولكن حملات الخيالة استمرت في كثير من الأقاليم بتحريض من لوفوا(97)، وتعرض الهيجونوت المعاندون للنهب والتعذيب. يقول الحجة الفرنسي الأكبر في إلغاء مرسوم ناننت: "لقد أذن للجند أن يقتلوا كل جريمة إلا القتل. فكانوا يكرهون الهيجونوت على الرقص حتى يدركهم الإعياء، ويقذفون بهم في البطاطين إلى أعلى، ويصبون الماء المغلي في حلقهم...، ويضربون أقدامهم، وينتفون لحاهم...، ويحرقون أذرع مضيقهم وسيقانهم بلهب الشموع...، ويكرهونهم بأن يقبضوا على الجمر الملتهب بأيديهم...، ويحرقون أرجل الكثيرين بامساکها طويلاً أمام نار كبيرة... ويلزمون النساء بأن يقفن عرايا في الطريق يحتمان هزاء المارة وإهاناتهم. وقد أوتقوا مرة أماً مرضعاً إلى عمود سرير وأسكروا برضيعها بعيداً عنها وهو يصرخ في طلب ثديها، فلما فتحت فاهاً لتتوسل إليهم بصقوا فيه(98)".

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> الملك والهيجونوت

ويرى ميشليه أن إرهاب 1685 المقدس هذا كان أشنع كثيراً من إرهاب عصر الثورة في 1793(99). وقد أكره نحو 4000.000 من "المهتدين" على حضور القداس وتناول القربان، وحكم على الذين بصقوا قطع القربان المكرسة بعد مغادرتهم الكنيسة بالحرق أحياء(100). وزج بالذكور من الهيجونوت المعاندين في سجون تحت الأرض أو زنايات غير مدفأة. أما نساء الهيجونوت الممعات في العناد فقد حبسن في الأديار حيث لقين على غير توقع المعاملة الرحيمة من الراهبات(101).

على أن إقليمين قاوما الإرهاب ببسالة ملحوظة. وسنسمع أنباء الفودوا في الدوفينييه الفرنسية وبيدمونت السافوية في مكان لاحق من هذا الكتاب. وفي أودية سلسلة جبال السيفين في اللانجدوك احتفظ الألوف من الهيجونوت "المهتدين" بإيمانهم سراً، مترقبين الوقت والفرصة للتحرك. وقد أكد لهم "أنبياءهم" الذين ادعوا الوحي الإلهي بأن الوقت قد

اقترب، فلما بدا أن حرب الوراثة الأسبانية تستوعب الأسلحة الفرنسية، شكل الفلاحون جماعات متمردة من "الكاميزا Camisars" الذين ارتدوا القمصان البيض ليميز بعضهم بعضاً في الليل. وفي إحدى المعارك قتلوا الأب شيلا الذي كان يضطهدهم بغيره شديدة، ففاجأهم فوج من الجند وذبحهم دون تمييز، وهدم بيوتهم وخرّب محاصيلهم (1702). وردت بقية منهم على هذا الهجوم بضرّاة، إلى أن أقتعتهم بالصلح وسائل فيلار النوفيقية. ومن بين الهيجونوت الذين سكنوا فرنسا في 1660 والبالغ عددهم 1.500.000، فرنحو 400.000 في العقد الذي تخلله إلغاء مرسوم ناننت عبر الحدود المخفورة مغامرين بحياتهم. وعاشت مئات قصص البطولة قرناً بأكمله بعد تلك السنين البائسة. ورحبت الدول البروتستنتية بالمهاجرين فأفسحت جنيف مكاناً لأربعة آلاف من الهيجونوت برغم أن سكانها لم يزيّدوا على ستة عشر ألفاً. وقدم تشالز الثاني وجيمس الثاني المعونة المادية

صفحة رقم : 10539

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> الملك والهيجونوت

للهيجونوت على الرغم من كثلكتهما، وسهلا استيعابهم في الحياة السياسية والاقتصادية الإنجليزية. واستقبلهم ناخب براندنبورج استقبالاً ودياً حتى أن أكثر من خمس سكان برلين في 1697 كانوا فرنسيين وفتحت لهم هولندا أبوابها وبنت مئات البيوت لإيواء الوافدين وأقرضتهم المال ليقوموا بمصالحهم وكفلت لهم كل حقوق المواطنة، وانظم الكاثوليك الهولنديون إلى البروتستنت واليهود في جمع المال إعانة الهيجونوت. ولم يكتف اللاجئون الشاكرون بإثراء الصناعة والتجارة في الأقاليم المتحدة، بل إنهم تطوعوا في الجيوش الهولندية والإنجليزية التي خاضت القتال ضد فرنسا، ورافق بعضهم وليم الثالث أو تبعه إلى إنجلترا ليساعده على جيمس الثاني. أما المرشال شومبيرج الكلفني الفرنسي الذي أحرز انتصارات للويس الرابع عشر من قبل فقاد جيشاً إنجليزياً ضد الفرنسيين ومات وهو يهزمهم في معركة البوين (1960). وفي كل بلد من هذه البلاد المضيفة جلب الهيجونوت مهاراتهم في الحرف والتجارة والمال، وأفادت أوروبا البروتستنتية كلها من انتصار الكاثوليكية في فرنسا. وشغل صناع الحرير الفرنسيون حياً بأكمله من أحياء لندن، وأصبح المنفيون الهيجونوت في إنجلترا شراح الفكر الإنجليزي ومترجميه لفرنسا، فمهدوا بذلك لغزو بيكون ونيوتن ولوك للعقل الفرنسي.

واستكرت قلة من الكاثوليك الفرنسيين سراً تلك المذابح التي رافقت إلغاء المرسوم، وأمّدوا كثيراً من الضحايا بالمعونة وقدوا لهم الملجأ خفية. ولكن الكثرة العظمى هالت للقضاء على الهيجونوت باعتباره قمة إنجازات الملك، وقالوا أن فرنسا أصبحت الآن، في النهاية، بلداً كاثوليكياً موحداً. وأتتى كيار الكتاب أمثال بوسيه وفنيلون ولافونتين ولابروبير، حتى الأب الجانسني أرنو، على شجاعة الملك في تنفيذ ما خالوه إرادة الأمة. وكتبت مدام دسفينيه تقول "ليس هناك أبدع ولا أروع. ولم يصنع

صفحة رقم : 10540

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> الملك والهيجونوت

ملك ولن يصنع شيئاً أخلد من هذا(102)". أما لويس نفسه فأُسعده أن يكمل -كما خيل إليه- عملاً ثقيلاً ولكنه مقدس. يقول سان سيمون:-
"لقد أمن أنه جدد عهد تبشير الرسل الأولين. وكتب الأساقفة المدائح التي تشيد به، وجعل اليسوعيون المنابر تتعنى بالثناء عليه... ولم يكن يسمع غير الإطراء بينما كان الكاثوليك والأساقفة الأتقياء الصادقون يئنون بالروح إذ يرون الكاثوليك السنيين ينحرفون إلى الخطأ، والمهرطقين يسلكون مسلك الطغاة الخوارج، والوثنيين يحاربون الحق والمؤمنين المجاهدين بإيمانهم والشهداء. ولم يستطيعوا أن يطبقوا هذا السيل من الحنث وتدنيس المقدسات(103)".
وكان سان سيمون وفوبان من الفرنسيين القلائل الذين أدركوا منذ البداية تلك الخسارة الاقتصادية التي ألحقها بفرنسا نزوح هذا العدد الكبير من المواطنين الكادحين. وفقدت كان صناعة نسيجها، وتور ثلاثة أرباع أنوال الحرير فيها. ومن بين الستين مصنعاً للورق في إقليم أنجوموا لم يبق سوى ستة عشر، ومن بين 109 متجرأ في مدينة ميزيير لم يبق سوى ثمانية، ومن بين أربعمئة مصيعة في تور لم يبق سوى أربع وخمسين(104). واضمحلث ثغور كمرسيليان لفقدتها الأسواق في بلاد أصبحت الآن بفضل جهود الهيجونوت وإرشادهم تنتج ما كانت من قبل تستورده من فرنسا. وقضى جزئياً على حركة التعمير الكبرى التي أدخلها كولبير على الاقتصاد الفرنسي، ونزحت الصناعات التي جاهد في سبيل تنميتها في فرنسا لتغذي منافسيها. ولما هبطت إيرادات الدولة من الصناعة هبوطاً حاداً وقعت الحكومة من جديد في أيدي المرابين الذين أنقذها كولبير من برائتهم. وفقدت البحرية الفرنسية تسعة آلاف بحار، والجيش ستمائة ضابط واثنى عشر ألف جندي، ولعل نضوب البحرية والجيش على هذا النحو كان من عوامل الهزائم التي أوشتت أن تحطم فرنسا في حرب الوراثة الأسبانية.

صفحة رقم : 10541

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بونقة الإيمان -> الملك والهيجونوت

كذلك شددت همجية الاضطهاد الرهيبة واستغاثات المهاجرين من عزيمة أوربا البروتستنتية على الاتحاد ضد فرنسا. على أن إلغاء المرسوم ربما كان معيناً غير مباشر للفنون والعمارة ولطائف الحياة في فرنسا. ذلك أن الروح الكلفنية المتشككة في الزينة الصور المنحوتة والمرح الطائش ثبط الفن والأناقة والظرف. ولو أن فرنسا أصبحت بيوريتانية لكانت شذوذاً وخطأً. ولكن إلغاء المرسوم كان كارثة على الدين الفرنسي. لقد لاحظ بيكون من قبل أن مشهد الحروب الدينية كان خليقاً بأن يجعل لوكرتيوس-لو راه- "سبعة أضعاف ما كان أبيقورية" والإحاد(105). "فماذا تراه كان قانلاً الآن؟ لم تبق نقطة توقف للعقل الغالي بين الكاثوليكية والإحاد. وبينما أفادت البروتستنتية في سويسرا وألمانيا وهولندا وإنجلترا في الإعراب عن التمرد على الكنيسة، لم يبق في فرنسا أداة استنكار كهذه. فوجدت حركة الانتقاض على الرومانية أنه أيسر لها أن تكون شكافة خالصة من أن تكون بروتستانتية سافرة. وانتقلت النهضة الفرنسية، غير المعوقة من البروتستنتية، رأساً إلى حركة التنوير بعد موت الملك.

صفحة رقم : 10542

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> بوسويه

7- بوسويه

1627 - 1688

بيد أن الكنيسة الفرنسية كانت ظافرة ولو مؤقتاً، وتربعت على عرش بهائها وسلطانها. وكانت رغم ما شاب روحها الجماعية من تعصب، وما عاب سلطتها من قسوة، تضم أرقى نخبة من الرجال في أوربا تعليماً، وكان قديسوها يناقسون طغاتها. وكان من أساقفتها نفر ذوو نزعة إنسانية، عاكفون في إخلاص على الخير العام كما رأوه. ودخل اثنان منهم الأدب الفرنسي دخولاً شارق في سناؤه دخول يسكال، وكان في زمانهما أكثر بروزاً. وقلما تجد بين رجال الكنيسة الفرنسيين من ضارع في سمعته بوسويه، أو فنيلون في شعبيته.

صفحة رقم : 10543

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> بوسويه

أما جاك بنين بوسويه (واسمه الأوسط B(nigne-أي اللطيف-كان أنسب لفنيلون) فقد ولد في أسرة ثرية لمحام بارز وعضو في برلمان ديجون (1627). نذره أبوه للقسوسية، وجز شعر رأسه في الثامنة، وحين بلغ الثالثة عشرة عين كاهناً في كاتدرائية منتر. وفي الخامسة عشرة أرسل إلى كلية نافار بباريس. وفي السادسة عشرة كان قد بلغ من الفصاحة منزلة حملت نساء الأوتيل درامبويه المتفقات على إقناعه بأن يلقي عليهن عظة في منتصف سهرة الصالون رغم ما طبع عليه من كبرياء مقترنة بالخجل. وبعد أن تخرج بمرتبة الشرف عاد إلى منتر ورسم قسيساً وتقدم بعد قليل لنيل درجة الدكتوراه في اللاهوت. وقد راعه أن يجد أن عشرة آلاف من بين الثلاثين ألف نفس في منتر كانوا من البروتستانت الهالكين. ودخل في جدل مهذب مع بول فيري الزعيم الهيجونوتي، وقد سلم له ببعض المفاسد في الممارسات الكاثوليكية، ولكنه زعم أن الانشقاق رغم ذلك شر أعظم. وظل على علاقات ودية مع فيري اثنتي عشر سنة، تماماً كما سراه في فترة لاحقة يجاهد جهاداً حياً مع ليينتر في سبيل إعادة توحيد العالم المسيحي. ولما سمعته أن النمساوية يعظ في منتر خيل إليها إنه أرقى من تلك البيئة التي لا تليق بمواهبه، وأقنعت الملك بأن يدعوه إلى باريس، فانتقل إليها في 1659.

ووعظ أول الأمر جماهير بسيطة في دير سان لازار برعاية فانسان دبول. وفي 1660 وعظ جمهوراً عسرياً في كنيسة "لي مينيم" قرب البلاس رويال. وسمعه الملك، فتنبئ في الخطيب الشاب مزيجاً متوازناً من البلاغة، واستقامة العقيدة، وقوة الخلق. فدعاه لإلقاء عظات الصوم الكبير في 1662 بالوفور، واختلف إلى هذه الخطب في تقوى

واضح، اللهم إلا في ذلك الأحد الذي انطلق فيه على جواده مسرعاً ليسترد لويز دلا فالبير من الديبر. وحفز حضور الملك هذه العظات بوسويه على أن ينفي أسلوبه من الجلافات الريفية، والإستشهادات السكولاستية، والحجج الجدلية.

صفحة رقم : 10544

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> بوسويه

ذلك أن أناقة البلاط انتقلت إلى كبار الأكليروس، فأثمرت عهداً من البلاغة المنبرية ينافس البلاغة القانونية التي اشتهر بها ديموستين وشيشرون. وفي أثناء السنوات الثمانية التالية وفق بوسويه في أن يكون الخطيب المفضل في كنائس القصر، ثم أصبح المرشد الروحي لعدد من كبريات النبيلات مثل هنرييتا "مدام" دورليان؛ ومدام دلونجفيل، ومدموازيل دمونباسيه(106) وكان في بعض عظاته يوجه الخطاب إلى الملك مباشرة، مغالياً في تملقه عادة، ولكنه دعاه مرة بحرارة إلى أن يهجر زناه وفجوره ويعود إلى زوجته. فقد برهه رضاء الملك، ولكنه استرده حين هدى تورين إلى الكاثوليكية. وفي 1667 اختاره لويس ليؤين أن النمساوية في مآتمها، وبعد عامين ألقى عظة فوق جثمان هنرييتا ماريا ملكة إنجلترا الأرملة، وفي 1670 أضطلع بواجب أليم هو تأيين هنرييتا الصغرى، تائبته المحبوبة التي فاضت روحها بين ذراعيه في فتنة صباها التي لم يكتب لها بقاء طويل.

والمظتان اللتان أبين بهما تشارلز الثاني ملك إنجلترا وأخته هما أشهر العظات قاطبة في الأدب الفرنسي-لأن خطاب البابا أوربان الثاني الذي ما زال يفوقهما شهرة، والذي استتفر فيه أوربا إلى الحرب الصليبية الأولى (1095)-هذا الخطاب كان باللاتينية وإن ألقى على أرض فرنسية. وأستهل بوسويه أول هذين التآبين بموضوعه الجريء المفضل، وهو أن على الملوك أن يتعلموا من دروس التاريخ، وأن الانتقام الإلهي سوف يحل بهم إن لم يستعملوا سلطنتهم لخير الشعب، ولكنه بدلاً من أن يرى في تشارلز الأول ملك إنجلترا مثلاً على هذا العقاب، لم يجد فيه عيباً سوى فرط رأفته، ولم يجد عيباً على الإطلاق في زوجته الوفية، فصور الملكة المتوفاة قديسة جاهدت لتهدى زوجها وإنجلترا إلى الكاثوليكية. ثم أستطرد بإسهاب في موضوع آخر محبب إلى نفسه، وهو تكاثر الممل النحل البروتستنتية التي لا حصر لها، وفوضى الأخلاق المنبعثة من اضطراب العقيدة، وقال: إن "التمرد الكبير" كان عقاباً إلهياً على مروق إنجلترا

صفحة رقم : 10545

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> بوسويه

من كنيسة روما، ولكن ما كان أروع سلوك الملكة بعد إعدام زوجها علة هذا النحو الإجرامي الرهيب! لقد تقبلت أحزانها كفارة وبركة، وحمدت الله عليها وعاشت أحد عشر عاماً في صلاة متواضعة صابرة، وأخيراً أتيت على تعيها، فرد إلى عرشه، وكان في وسع الملكة الأم أن تسكن القصور من جديد، ولكنها أثرت عليها دبراً في فرنسا، ولم تستعمل ثروتها الجديدة إلا في الاستكثار من أعمال البر.

وكان أشد من هذه تأثيراً وأوثق قرباً للتاريخ وللذكريات الفرنسية تلك العظة التي ألقاها بوسويه بعد عشرة شهور فوق جثمان هنرييتا أن. وكان قد رسم قبيل ذلك أسقفاً لكوندوم في جنوب غربي فرنسا، ومن أجل هذا الخطاب جاء إلى كنيسة دير سان-دنى في كل بهائه الأسقي، يتقدمه المنادون، وعلى رأسه تاج الأسقفية، وفي إصبعه تتألق الزمردة الكبيرة التي أهدته إياها الأميرة المتوفاة. وفي مثل هذه العظات كان يحد من انفعال الخطيب تفكيره في الموت في صورة عامة، أما الآن فقد كان الموت موت واحدة كانت حتى الأمس القريب مسرة الملك وبهاء البلاط، وأجهش الحبر الجليل بالبكاء وهو يذكر كيف فوجئ القوم مفاجئة أليمة بهذه اللطمة التي جعلت فرنسا كلها تتوح وتتعجب من طرق الله. ثم وصف هنرييتا لا بموضوعية فاترة، بل بتحيز المحبة- "لقد كانت على الدوام لطيفة مسالمة سمحة خيرة(107)" -واكتفى بالإلماع في إيجاز حكيم إلى أن سعادتها لم تتكافأ مع فضائلها. ثم تجاسر حتى هذا الأسقف الأريب ركن السنية الركين وحارسها الأمين-تجاسر لحظة على أن يسأل الله لم يزدهر كل هذا الشر والظلم على الأرض(108). ثم عزى نفسه وجمهوره بذكرى تقوى هنرييتا في احتضارها، وبالأسرار المقدسة التي طهرتها من كل علاقاتها الأرضية، غلا ريب إذن أن روحاً رقيقة مطهرة كروحها تستحق الخلاص، بل إنها لتزين الفردوس نفسه! وبسبب خطأ نادر في الحكم على الأخلاق عين لويس بوسويه (1670)

صفحة رقم : 10546

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> بوسويه

معلماً للدوفان، متأثراً في ذلك ببلاغته تلك-وعهد إليه بتدريب ذلك الصبي المتخلف، المتبلد الحس، على المعرفة والخلق اللازمين لحكم فرنسا. وأنصرف بوسويه مخلصاً لهذه المهمة. فاستقال من أسقفية ليكون قريباً من تلميذه القاصر ومن البلاط، وكتب للويس الصغير كتيبات جادة في تاريخ العالم والمنطق والإيمان المسيحي والحكم وواجبات المل، مما كان خليقاً بأن يجعل من الصبي هولة من الكمال والقوة. وفي إحدى هذه المقالات المسماة "السياسة مستقاة من كلام الأسفار المقدسة" (1679-1709) دافع بوسويه عن الملكية المطلقة وحق الملوك الإلهي بغيره فاقت غيرة الكردينال بير لارمين في تأييده لسياسة الباباوات. ألم يكتب في العهد القديم أن "الله أعطى لكل شعب حاكمه"(109) وفي العهد الجديد بكل سلطان القديس بولس "إن السلاطين مرتبة من الله(110)"، أجل، ولقد أضاف الرسول قوله "إذن فكل من يقاوم السلطة يقاوم ترتيب الله، والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة". واضح إذن أن كل من يقبل الكتاب المقدس كلمة الله يجب أن يكرم الملك باعتباره خليفة الله، أو كما قال أشعيا النبي عن كورش إنه "مسيح الرب(111)". إذن فشخص الملك مقدس، وسلطة الملك مقدسة ومطلقة، والملك لا يسأل إلا أمام الله. ولكن هذه المسئولية تضع على عاتقه التزامات قاسية. فعليه في كل لفظ وعمل أن يطيع قوانين الله، ومن حسن حظ لويس أن إله التوراة كان عطوفاً على تعدد الزوجات. كذلك كتب بوسويه للدوفان (1679) كتابه الشهير "حديث عن تاريخ العالم". ذلك أنه حين روعه إلماع ديكرت إلى أن جميع الأحداث في العالم الموضوعي-إذا افترضنا لها دفعة مبدئية من الله-يمكن أن تفسر آلياً بأنها منبعثة من قوانين الطبيعة ودستورها، رد عليه بأن كل حدث كبير في التاريخ إنما هو-على النقيض من ذلك-جزء

صفحة رقم : 10547

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> بوسويه

من خطة إلهية، وعمل من أعمال العناية الإلهية أفضى إلى ذبيحة المسيح ونمو المسيحية لتصبح "مدينة متسعة لله". وتناول الكتاب المقدس ثانية باعتباره موحى من الله، فركز التاريخ كله على سيرة يهود العهد القديم والأمم التي أنارتها المسيحية. "لقد أستخدم الله الأشوريين والبابليين ليعاقب شعبه المختار، والفرس ليردهم إلى وطنهم، والإسكندر ليحميهم، وأنطيوخس ليمتحنهم، والرومان ليصونوا حرية اليهود ضد ملوك سوريا". فإذا بدا لنا من هذا الرأي حماقة، فإن علينا أن نذكر أنه كان أيضاً رأى كتاب التوراة الذين وحد بوسويه بينهم وبين الله في ثقة. ومن ثم فقد بدأ بخلصة لتاريخ العهد القديم، وقام بهذه المهمة بما عرف عنه من ولع بالنظام والإيجاز وقوة البلاغة. واعتمد ترتيبه الزمني على تقويم أوشير رئيس الأساقفة، فأرخ الخليقة بسنة 4004 ومر بوسويه مرور الكرام بتلك الأمم التي لم يشر إليها الكتاب المقدس، ولكنه وصفها وصفاً مجملاً ينم على بصيرة وقوة ملحوظتين، وأبداً فهماً عطوفاً للفضائل والإنجازات الوثنية. وقد رأى بعض التقدم خلال مشاكل الإمبراطوريات الصاعدة الساقطة؛ واتخذت فكرة التقدم جسداً ولحماً في كتاباته، وكذلك في كتابات شارل بيرو وغيره من المدافعين المعاصرين عن المحدثين ضد القدامى، ومهدت الطريق من بعيد لطورجو وكوندروسيه. وخلق الكتاب رغم كل عيوبه الفلسفة الحديثة للتاريخ وحسب رجل واحد أن يحقق إنجازاً كهذا.

على أن الأمير تلميذ بوسويه لم يقدر شرف تأليف الكتب العظيمة لتعليمه. فقد كان في روح بوسويه من الجد والصرامة ما لا يجعله المعلم اللطيف المرضي. وكان أنسب لطبيعته أن يرشد في رفق لويو دلافالير لتهرب من حياة الونا إلى الدير، وقد ألقى العظة حين قطعت على نفسها عهد الرهبنة. وفي ذلك العام (1675) جاهر ثانية بلوم الملك الزير، واستمع إليه لويس في صبر نافذ، ولكنه أعاده لمنصب الأسقفية وعينه أسقفاً على مو (1681)

صفحة رقم : 10548

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> بوسويه

على قرب من فرساي يتيح له أن يتذوق فخامة البلاط وبهائه. وكان طوال ذلك الجيل المتكبر، والشارح والقائد العمدة للأكليروس الفرنسي. وقد وضع لأجلهم "المواد الأربع" التي أكدت من جديد "الحريات العالية" للكنيسة الفرنسية إزاء السيطرة البابوية. ولقد أفقده عملة هذا قبعة الكردينية، ولكنه أصبح بابا فرنسا. ولم يكن بالبابا السيئ. فهو مع إصراره على كرامة الأسقفية ورعاية مراسمها ظل رحيماً لطيفاً، وبسط عبايته فوق ألواناً كثيرة من المعتقد الكاثوليكي. وقد وافق بسكال على إدانة الشطط الذي تورط فيه الإفتاء الديني دون أن يعتقد له السخط والاحتقار اللذين ألها رسائله الإقليمية. ففي 1700 أفتع جمعية الأكليروس العامة باستتكار 127 قضية أخذت من فتاوى المفتين اليسوعيين، وقد ظل على علاقات ودية مع أرنو وغيره من الجانسنيين. وذاع عنه أنه كان متسامحاً في كرسي الاعتراف، وأنه أستتكر مظاهر التنشف في العلمانيين، ولكنه أطرى بحرارة نسك رانسيه، وكان يختلف بين الحين والحين إلى خلوة في التراب، ويتمنا أحياناً أن يظفر بسلام صومعة الراهب. ولكن بريق البلاط غلب طموحه للقداسة، ولوث لاهوته بأطماع الارتقاء في مراتب الكنيسة والدولة. وقد توسل مرة إلى رئيسة الدير في مو قائلًا: "صلي لأجلي لكي لا أحب العالم (112)". وقد أصبح أشد صرامة في أخريات أيامه. وعلينا أن نعترف له بتديده بالمسرحية وبموليير في كتابه "حقائق عامة عن الملهاة" (1694) لأن موليير لم يعرض الدين إلا في صورته المترمة المناقفة، ولم ينصف رجالاً مثل فانسان ديول.

كان بوسويه أشد تعصباً نظرياً منه عملياً. فقد رأى أن من السخف أن يظن أي ذهن فردي مهما عظم ذكاؤه أنه يستطيع أن يكتسب في عمر واحد من المعرفة والحكمة ما يؤهله للجلوس في كرسي القضاء ليحكم على

صفحة رقم : 10549

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> بوسويه

تقاليد ومعتقدات الأسرة والمجتمع والدولة والكنيسة. فالحس المشترك "Sens Commun" أجدر بالثقة من التفكير الفردي، ولا يعني الحس أو الإدراك المشترك فكر الأشخاص العاديين، بل الذكاء الجماعي لأجيال علمتها قرون من الخبرة، الذكاء الذي يتمثل في أعراف النوع الإنساني ومعتقداته. فمنذا الذي يستطيع أن يزعم أنه يعرف خيراً من هؤلاء جميعاً حاجات النفس البشرية والإجابات عن الأسئلة التي لا تستطيع المعرفة وحدها أن تجيب عنها؟ ويترتب على هذا أن ذهن البشري في حاجة إلى سلطة تعطيه السلام، والتفكير الحر لا يستطيع إلا أن يدمر ذلك السلام، والمجتمع البشري في حاجة إلى سلطة تعطيه الأخلاق، ولكن التفكير الحر بتشككه في المصدر الإلهي للقانون الخلفي إنما يهدم النظام الأخلاقي برمته. فالهرطقة إذن خيانة للمجتمع والدولة كما أنها خيانة للكنيسة، و"الذين يؤمنون بأن الملك ينبغي ألا يستعمل القوة في أمور الدين...يرتكبون خطأ مجانباً للتقوى(113)" ولقد أثر الأسقف الإقناع على الإكراه في هداية المهترطين، ولكنه دافع عن الإكراه باعتباره الملاذ الأخير، ورحب بإلغاء مرسوم ناننت لأنه "المرسوم الورع الذي سيكيل للهرطقة الضربة القاضية، ونفذ القانون في إقليمه بكثير من التسامح، حتى لقد كتب الناظر الملكي يقول "ليس في الإمكان عمل شيء في أسقفية مو، لأن ضعف الأسقف يقف عقبة في سبيل هداية الهيجونوت(114)". وقد ثبت معظم الهيجونوت في تلك المنطقة على مذهبهم. وكان إلى النهاية يعلل نفسه بأن الحجة قادرة أن تكسب حتى هولندا وألمانيا وإنجلترا وتردها للإيمان القديم. وسنراه يفاوض لايبنتز سنوات عديدة على خطة الفيلسوف التي اقترحها لإعادة توحيد القطاعات المنشقة من المسيحية. وفي 1688 كتب رائعته "تاريخ ملل الكنائس البروتستنتية"-وهو الذي قال "بكل" إنه "ربما كان أخطر كتاب وجه ضد البروتستنتية(115). وقد تميزت مجلداته الأربعة بالدراسة الشاقة، وكانت كل صفحة فيها تدعم بالمرجع، وهو لون من الأمانة كان بدأ يتجسد.

صفحة رقم : 10550

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> بوسويه

وبذل الأسقف في كتابه محاولة ليكون منصفاً. فسلم بمفاسد الكنيسة التي تمرد عليها لوثر، ورأى الكثير مما يستحق الإعجاب في خلق لوثر، ولكنه لم يستطع أن يسبغ الفظاظ المبتهجة التي اختاطت في لوثر بالبسالة الوطنية والتقوى الرجولية. ثم صور ملانكتون بصورة تكاد تكون صورة الحب. غير أنه كان يأمل في تفكيك ولا أتباع هؤلاء

المصلحين لهم بإظهار مواطن ضعفهم الشخصي وخرافاتهم اللاهوتية وقد هزأ بالفكرة التي زعمت أن لكل إنسان الحرية في تفسير الكتاب المقدس لنفسه وتأسيس دين جديد على قراءة جديدة له، فكل من خبر الطبيعة البشرية يستطيع أن يتنبأ بأنه لو ترك لهؤلاء الحبل على الغارب لأسفر هذا عن تفتيت المسيحية إلى متاهة من الملل والنحل، وتفتيت الأخلاق إلى فردية لا تستطيع أن يكبح جماح غرائز الغاب فيها سوى الاستكثار من الشرطة استكثاراً لانهاية له. فمن لوثر إلى كلفن إلى سوكينوس من رفض البابوية، إلى رفض سر القربان إلى رفض المسيح ثم من التوحيد (رفض التثليث) إلى الإلحاد، تلك هي الدرجات الهابطة شيئاً فشيئاً إلى انحلال الإيمان. ومن الثورة الدينية إلى الثورة الاجتماعية، ومن رسائل لوثر إلى حرب الفلاحين، ومن كلفن إلى كرمويل "المسوين" إلى قتل الملك؛ تلك درجات منزلقة فتحلل النظام الاجتماعي والسلام. ولا يستطيع سوى دين ذي سلطان أن يعطي الوازع للأخلاق، ويمنح الاستقرار للدولة، ويسلح الروح البشرية بالقوة التي تواجه الحيرة وفقد الأحياء والموت.

لقد كان الكتاب حجة قوية، شديدة التأثير بما حوت من ثقافة وبلاغة، محتوية على صفحات لا ضريب لها في نشر ذلك العصر الفرنسي إلا في جدليات بسكال العنيفة و"خواطره" ولولا أن التجاهل للعقل قد أحبطه التجاهل للقوة في فظاعات إلغاء المرسوم نجاحاً أعظم. فقد ظهرت في الدول البروتستنتية عشرات الردود المفندة لحجج الكتاب تشجب بقوة ذلك

صفحة رقم : 10551

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> بوسويه

التظاهر بالاحتكام إلى العقل في رجل حبذ النهب والسلب والنفي والمصادرة والاسترقاق في سفن تشغيل الأسرى للدفاع عن المسيحية الكاثوليكية. وتساءل أصحاب الردود ألم يكن هناك ملل مختلفة في الكاثوليكية أيضاً؟ وأي قرن خلا من الانقسامات في الكنيسة من الكاثوليك الرومان، والكاثوليك اليونان، والكاثوليك الأرمن، والكاثوليك الشرقيين؟ وألم يكن جانسنيو البورجويال في تلك اللحظة يقتتلون مع إخوانهم من الكاثوليك أعضاء جماعة يسوع؟ وألم يكن الأكليريوس الغالي بزعامة بوسويه نفسه في نزاع مر مع دعاة سلطان البابوية المطلق كاد يبلغ حد الانشقاق على روما؟ ألم يكن بوسويه يقاثل فنيلون؟

صفحة رقم : 10552

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> فنيلون

كان فرانسوا دسالنيك دلا موت-فنيلون، النبيل المولد، الثلاثي الاسم، كبوسويه سنياً طموحاً، أسقفاً ورجل بلاط، ومعلماً لأمير من البيت المالِك، وكتاباً من فحول النثر. ولكنه في غير ذلك كان بينه وبين بوسويه ما بين السماء والأرض من تباين. كتب سان-سيمون معرباً عن إعجابه بالرجل يقول:

"رجل فارغ القوام نحيل الجسد قوي البنية شاحب الوجه كبير الأنف له عينان تقدحان الشرر والذكاء. في سحنته ما يوحي بأنها تتألف من متناقضات، ومع ذلك فإن هذه المتناقضات على نحو ما لا تؤدي الناظر. فوجهه أنيق وقور، رزين مرح، يطالعك منه اللاهوتي والأسقف والنبيل على السواء، وفي هيئته كما في شخصه يرى الناظر قبل كل شيء رقة وتواضعاً وقدرًا فائقاً من رفعة الذهن. لقد كان عسيراً على الناظر إليه أن يحول عينيه عن وجهه(116)".

وعند ميبشليه أن "فيه شيئاً من الشيخوخة منذ ولادته(117)".

صفحة رقم : 10553

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> فنيلون

لأنه كان ثمرة الازدهار الأخير لإقطاعي مكتهل في بيريغوز تزوج أنسة نبيلة رغم فقرها. ضارباً صفحاً عن تدمير أبنائه الكبار، وأقصى الابن الجديد عن المال بنذره للكنيسة. وربته أمه، فشب على أناقة في الحديث ورهافة في الحس أشبه بأناقة حديث النساء ورهافة حسنهن. وقد أحسن تنقيفه في الآداب القديمة على يد معلم خاص ويسوعي باريس، فأصبح أديباً لا قسيماً فحسب. وكان في استطاعته أن يباري أي مهرطق في الاستشهاد بأقوال الوثنيين، ويكتب الفرنسية بأسلوب حساس مرهف مهذب هو نقيض أسلوب بوسويه الخطابى، والفحل، الجزل.

رسم كاهناً في الرابعة والعشرين (1675)، وسرعان ما رقي رئيساً لدير "الكاثوليك الجدد". وهنا أضطلع بمهمة شاقة هي رد الشابات اللاتي أبعدن عن البروتستنتية حديثاً إلى حظيرة الإيمان الكاثوليكي. وقد استمعن إليه أول الأمر على مضض، ثم في استسلام، ثم في محبة، لأنه كان يسيراً على المرء أن يقع في غرام فنيلون، ثم أنه الرجل الوحيد المتاح لهن. وفي 1686 أرسل إلى إقليم لاروشل ليعاون على هداية الهيجونوت. وقد جذب مرسوم الإلغاء، ولكنه استنكر العنف، وأنذر وزراء الملك بأن هداية الناس بالإكراه لن تكون إلا سطحية ومؤقتة. ولما عاد إلى الدير بباريس نشر (1687) "رسالة في تعليم البنات" تكاد تستشف فيها روح روسو في دفاعها عن الوسائل اللينة في التربية. ولما عين الملك الدوق ديوغليبييه مربيًا لحفيده دوق برجنديه، البالغ من العمر ثمانية أعوام، طلب إلى فنيلون أن يتولى تعليم الصبي (1689).

أما الدوق الصغير فكان منكبراً عنيداً مشبوب العاطفة، في طبعه أحياناً شراسة وقسوة، ولكنه أوتي ذهنًا متألقاً وذكاء متوقداً. وأحس فنيلون أن الدين وحده هو الكفيل بترويضه، فأشربه مخافة الله ومحبتة معاً، واكتسب في الوقت نفسه احترام تلميذه بأخذه بنظام حازم خفف

صفحة رقم : 10554

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> فنيلون

من شدته فهم عطوف لدور المراهقة. وقد راودته الأحلام بإصلاح فرنسا عن طريق تربية ملكها المستقبل. فعلم الغلام سخافة الحرب، وضرورة النهوض بالزراعة بدلاً من تثبيط همم الفلاحين بالضرائب تجبى لبناء المدن الباذخة وتمويل الحروب العدوانية. وفي كتابه "حوارات الموتى" الذي ألفه لتلميذه، وسم بالهمجية "تلك الحكومة التي لا قوانين فيها غير إرادة رجل واحد... فالحاكم ينبغي أولاً وقبل كل شيء أن يكون مطيعاً للقانون، فإذا ابتعد عن القانون لم يعد لشخصه قيمة". وكل الحروب حروب أهلية، لأن الناس جميعاً أخوة، يدين كل منهم للنوع الإنساني وهو الدولة الكبرى-يدين أعظم كثيراً من دينه للبلد الذي ولد فيه(118)". أما الملك، الذي لم يكن ضالعا في هذا التعليم الذي لا تفهمه غير القلة، والذي رأى تحسناً عجبياً في خلق حفيده، فقد كافأ فنيلون برئاسة أسقفية كامبريه (1695). وأجمل فنيلون أحباراً كثيرين بإقامته تسعة أشهر من كل عام في مقر رئاسته الدينية. أما الشهور الباقية فكان ينفقها في البلاط تواقاً للتأثير في السياسة، مواصلاً أحياناً تعليم الدوق.

وخلال ذلك كان قد التقى بالمرأة التي قدر لها أن تكون "المرأة القاضية عليه" بمعنى الكلمة. هذه المرأة، واسمها مدام جان ماري دلاموت-جويون، التي تزوجت في السادسة عشرة، وترملت في الثامنة والعشرين وهي جميلة غنية، تهافت الخطاب على طلب يدها، ولكنها كانت قد تلقت تدريباً دينياً مكثفاً ليحصنها ضد الرجال الطامعين، ولم تجد لتقواها منصرفاً كافياً في المراعاة الصورية لشعائر العبادة الكاثوليكية، فاستمعت في تجاوب لمتصوفة زمانها الذين وعدوا بسلام النفس-لا بالاعتراف والتناول والقداس بقدر ما هو بالاستغراق في تأمل إله كلي الوجود، وفي استسلام النفس لله استسلاماً كاملاً محبباً. في مثل المحبة الإلهية لم يعد لأمر الدنيا وزن، وفي مثل هذا التسامي الروحي يجوز للمرء أن يهمل كل الطقوس

صفحة رقم : 10555

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> فنيلون

الدينية ومع ذلك يرقى إلى السماء، لا بعد الموت فحسب بل في الحياة أيضاً. وكانت محكمة التفتيش قد أدانت القس الأسباني ميغويل دي مولينوس (1687) لأنه بشر بـ"هدوءية" كهذه في إيطاليا، ولكن الحركة كانت تنتشر في جميع أرجاء أوروبا في "تقوية" ألمانيا والأراضي المنخفضة، وبين الكويكرز وأفلاطوني كمبردج بإنجلترا، وبين "المنذورين" في فرنسا.

وقد بسطت مدام جويون آراءها في عدة كتب ببلاغة مؤثرة. فزعمت أن النفوس أشبه بالسيول التي انبثقت من عند الله وأنها لن تجد الراحة حتى تقني نفسها فيه تعالى كأنها الأنهار يبتلعها البحر، فإذا الفردية تتلاشى، وإذا الوعي بالذات أو بالعالم، بل الوعي كله، ينتهي ولا يبقى غير الاندماج في الله. في مثل هذه الحال تكون النفس معصومة، لا ينال منها خير ولا شر، ولا فضيلة ولا خطيئة. فمهما فعلت ففعلها صواب، ولا تستطيع قوة أن تؤذيها. وقالت مدام جويون لبوسويه "أنها لا تستطيع أن تطلب المغفرة على ذنوبها، لأنه لا ذنوب في عالم الوجد الصوفي الذي تعيش فيه(119)". ورأت بعض نساء الطبقة الأرستقراطية في هذه الصوفية لونا رقيقاً من التقوى. وكان من بين مريدتها السيدات بوفيليه، وشوفروز، وبورتمار، بل-إلى حد ما-مدام دمانتون. واستهوى فنيلون نفسه هذا المزيج الساحر من

التقوى والنزاهة والحسن. وكان خلقه هو ذاته مزيجاً معقداً من الصوفية والطموح والعاطفة الرقيقة. فأقنع مدام دمانتون بأن تسمح لمدام جويون بالتدريس في المدرسة التي أسستها زوجة الملك السرية في سان سير، وطلبت مانتون إلى الكاهن اعترافها أن ينصحها في أمر مدام جويون، فاستشار بوسويه، ودعا بوسويه المتصوفة لتشرح له تعاليمها، ففعلت. وتوجس الأسقف الحذر فيها خطراً يتهدد لاهوت الكنيسة وممارساتها، لأنها لم تستغن عن الأسرار المقدسة والكاهن

صفحة رقم : 10556

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> فنيلون

فحسب، بل عن الأناجيل والمسيح أيضاً، فوبخها، وناولها القربان، وطلب إليها أن ترحل عن باريس وتكف عن التعاليم. فوافقت أول الأمر، ولكنها عدلت بع ذلك. واستطاع بوسويه أن يحمل السلطات على حبسها في دير ثمانية أعوام (1695-1703) أفرج عنها بعدها شريطة أن تعيش في هدوء على ضيعة ابنها قرب بلوا، وهناك ماتت عام 1717.

وأراد بوسويه أن يرسم الحدود للتصوف المباح، فألف كتاباً سماه "تعليم عن حالات الصلاة" (1696) وأطلع فنيلون على نسخة من المخطوطة وطلب إليه أن يوافق عليها. وتردد فنيلون، وكتب كتاباً معارضاً سماه "تفسير أقوال القديسين المأثورة عن الحياة الباطنة" (1697). وأصبح الكتابان اللذان نشر في وقت واحد تقريباً مثار نقاش واسع، احتدم استخدام النقاش حول البور-روبال. أما الملك الذي كان يضع ثقته في بوسويه فقد عزل فنيلون من وظيفة معلماً لدوق برجنديه، وأمره بأن يلزم أسقفية في كامبري. وطلب وليس إلى البابا بتحريض من بوسويه أن يشجب كتاب فنيلون. ولكن إنوسنت الثاني عشر تردد، فهو لم ينس نزعة بوسويه الغالية، ودفاع فنيلون عن سلطة البابا المطلقة. وضغط لويس على البابا، فأذعن، ولكنه توخى غاية الاعتدال في إدانته لكتاب "الأقوال المأثورة" (مارس 1699). وأذعن فنيلون للحكم في هدوء.

ثم راح يؤدي واجباته في كامبري بإخلاص وضمير أكسبها احترام فرنسا، ولعلهما كانا خليقين باسترضاء بوسويه والملك لولا أن طابعاً نشر (إبريل 1699) برضى فنيلون رواية كان ألفها لتلميذه الأمير ووضع لها عنواناً بريئاً في ظاهرة "تنمة لأوديسة هوميروس" وهي معروفة لنا باسم (مغامرات تيليماك بن أوليس). هنا، وفي أسلوب يفيض رشاقة ونعومة ورقة أنثوية تقريباً، شرح المعلم مرة أخرى فلسفته السياسية المثالية. فترى لسان حاله (منتور) يحذر الملوك بعد أن أقنعهم بسياسة السلام قائلاً:

صفحة رقم : 10557

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> فنيلون

"منذ الآن تكونون كلكم شعباً واحداً تحت أسماء شتى ورؤساء مختلفين... فما النوع الإنساني كله غير أسرة واحدة... وكل الشعوب أخوة... وما أتعس القوم الفجار الذين ينشدون المجد القاسي في دماء إخوانهم المسفوكة... إن الحرب ضرورية أحياناً، ولكنها معرة الإنسانية. فلا تزعموا لي أيها الملوك إن على المرء أن يبتغي الحرب إن أراد المجد... فكل من يؤثر مجده على مشاعر الإنسانية ليس إنساناً بل هو وحش تملؤه الكبرياء، ولن يكسب غير المجد الزائف، لأن المجد الحقيقي لا يكون إلا في الاعتدال والصلاح... ويجب ألا يرى الناس فيه رأياً طيباً، لأنه لم يقم لهم وزناً في فكره، وأراق دماءهم في سفه ليرضي غروراً وحشياً(120)".

وقد سلم فنيلون بحق الملوك الإلهي، ولكن بوصفه قوة منحتم إياها العناية الإلهية ليسعدوا الناس، وحقاً تحده القوانين: "إن السلطة المطلقة تهوي بالرعية جميعاً إلى درك العبودية. فهم يتملقون الطاغية إلى حد العبادة. وكلهم يرتعدون فرقاً لنظرة منه، ولكن ما إن تهب أضعف نسمة من نسيمات التمرد عليه حتى ينهار هذا السلطان القبيح نتيجة شططه. ذلك أنه لم يستمد أي قوة من محبة الشعب(121)".

في هذه الأسطر رأى لويس الرابع عش نفسه موصوفاً، وحرابه مدانة. وبادر أصدقاء فنيلون بالاختفاء من البلاط، وقبض على طابع "تيليماك"، وأبلغت الشرطة بمصادرة جميع نسخه. ولكنه طبعه ثانية في هولندا، وسرعان ما تداولته الأيدي في جميع أرجاء العالم القارئ للفرنسية، وظل أوسع الكتب الفرنسية قراءة وأحبها إلى القراء طوال قرن من الزمان(122) وأكد فنيلون أن لويس لم يكن في ذهنه في هذه الفقرات الناقدة، ولكن أحداً لم يصدق. وانقضت سنتان قبل أن يجرؤ دوق برجنديا على الكتابة لمعلمه الأسبق. ثم لانت قناة الملك، وسمح له بأن يزور فنيلون في كامبري.

صفحة رقم : 10558

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> فنيلون

وعاش رئيس الأساقفة يعلل نفسه بأن تلميذه سيرث العرش عما قليل، وعنها يدعو ليكون وزيره كما كان ريشليو وزيراً للويس الثالث عشر. ولكن الحفيد مات قبل أن يموت الجد بثلاث سنين، ثم سبق فنيلون نفسه لويس إلى القبر بتسعة أشهر (7 يناير 1715).

أما بوسويه فكان قد سبقهما بزمان. لقد كان تعساً في أخريات أيامه، حقاً إنه انتصر على فنيلون، وعلى دعاة السلطة البابوية المطلقة، وعلى المتصوفة، ورأى الكنيسة منتصرة على الهيجونوت، ولكن هذه الانتصارات كلها لم تيسر له قذف الحصى من مئانته. وقد برح به الألم تبريحاً جعل من العسير عليه أن يحتمل الجلوس في المكان الذي أُلِع بالجلوس فيه في احتفالات البلاط، وتساءل الساخرون القساة، لم لا يستطيع أن يذهب إلى مو ويموت في هدوء. وقد رأى من حوله ظهور الإرتيابية، ونقد الكتاب المقدس، والجدليات الروتنتنتية العنيفة التي صوبت في غير تقوى إلى رأسه. فما هو على سبيل المثال ذلك الهيجونوتي المنفي جوريو يخبر العالم بأنه هو، بوسويه، أسقف الأساقفة، والصورة المجسمة للفضيلة والاستقامة، كذاب أشر يعاشر المحظيات(122). وقد بدأ تأليف كتب جديدة للرد على هؤلاء الخصوم السفهاء، ولكن الحياة كانت تتحسر عنه وهو يكتب، وفي 12 إبريل 1704 وضع الموت حداً لآلامه. ويبدو لأول وهلة أن بوسويه يعين أوج الكاثوليكية في فرنسا الحديثة. فقد لاح أن المذهب القديم قد استرد كل الأرض التي استولى عليها لوثر وكالفن. وكان الرجال الأكليروس يصلحون من أخلاقهم، وراسين يخصص مسرحياته الأخيرة للدين. وكان بسكال قد أدار دوائر الإرتيابية على المرتابين، والدولة جعلت نفسها وكياً مطيعاً للكنيسة، والملك أوشك أن يكون يسوعياً.

ومع ذلك لم يكن الموقف بالغ الكمال. فاليسوعيون لم ينقشع من

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> بوتقة الإيمان -> فنيون

فوق رؤسهم بعد ذلك الغبار الذي أثارته عليهم رسائل بسكال الإقليمية، والجانسية مازالت بخير، واللاجئون الهيجونوت يؤلبون نصف أوربا على الملك الورع، والناس يقرؤون مونتيني أكثر مما يقرؤون بسكال، وهويز وسبينوزا وبيل يكيلون اللطامات الهائلة لصرح الإيمان. يقول القديس فانسان دبول (1648)، "يشكو عدة رعاة من أن عدد من يتناولون القربان قد تقلص، ففي سان-سوليبس نقص العدد 3000، ووجد راعي سان-نيكولا-دوشاردونيه أن 1.500 من رعايا أبرشيته تخلفوا عن قربان القيامة(124)". وقال بيل في 1686 "إن العصر الذي نعيش فيه يحفل بأحرار الفكر والربوبيين، ويدهش الناس لكثرة عددهم(125)" "ويسود عدم المبالاة الرهيب بالدين في كل مكان(126)" وقد عزا هذا إلى حروب العالم المسيحي وجدلياته. وقال نيكولا: "ليكن معلوماً أن الهرطقة الكبرى في العالم ليست الكالفنية ولا اللوثرية، بل الإلحاد(127)". وقالت الأميرة بالاتين في 1699 "قل أن يجد المرء الآن شاباً لا يشتهي أن يكون ملحداً(128)" وروى لاينتز أن في باريس (1703) "تفشيت بدعة من يسمونهم العقول القوية، ويسخر الناس هناك من التقوى...وتحت حكم ملك تقي صارم مطلق السلطة، تجاوزت فوضى الدين كل الحدود التي شهدناها من قبل في العالم المسيحي(129)". وبين ذوي العقول القوية-وهي قوية إلى درجة تكفي للتشكك في كل شيء تقريباً- نجد سان إفريمون، ونيون دلانكاو، ورنبيه ملخص فلسفة جاسندي، ودوقي نيفير وبوبون. وأصبح "التأمل" الذي كان يوماً مقراً لفرسان المعبد (الداوية) في باريس، مركزاً لجماعة صغيرة من أحرار الفكر-شوليه وسيرفيان، ولافاز، الخ-الذين أسلموا تهكمهم بالدين إلى عهد الوصاية. أما فونتيل، الذي قارب المائة وتحدى الفناء وأفسح له في الأجل حتى تبادل النكت مع الموسوعيين، فكان في 1687 ينشر كتابه (تاريخ النبوات) ويقوض في خبث أساس المسيحية المعجز. وهكذا مهد لويس في نشوة نقواه وورعه الطريق لفولتير.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الملك والفنون -> تنظيم الفنون

الفصل الثالث

الملك والفنون

1- تنظيم الفنون

لم يشهد التاريخ من قبل ولا من بعد، ربما باستثناء عهد بركليس، حكومة شجعت الفن، أو غذته، أو هيمنت عليه، كما فعلت حكومة لويس الرابع عشر.

كان ذوق ريشليو الرفيع ومشترياته المختارة بحكمة قد أعانت الفن الفرنسي على أن يفوق من الحروب الدينية. وفي عهد وصاية أن النمساوية كان جماعوا التحف الأهليون من الأشراف ورجال المال قد بدأوا يتنافسوا في جمع آثار الفن. فاقتنى بيير كروزا المصرفي مائة صورة بريشة تيشان. ومائة أخرى بريشة فيرنوزي، ومائتين بريشة روبنز، وأكثر من مائة فاندريك. أما فوكيه فقد جمع قصر فو كما رأينا صوراً وتمائيل، وتحفاً فنية أقل شأنًا، وكان في جمعه من التمييز أكثر مما كان فيه من الحكمة والحذر. وورث لويس مقتنياته بعد أن أجهز عليه، وما لبث العديد من المجموعات الخاصة الأخرى أن جمع في اللوفر أو فرساي. وكان مازاران قد أثر وضع شطر من ثروته في الفن دون النقود تجنباً لهبوط قيمة العملة. وقد أسهم ذوقه الإيطالي الرفيع في تكوين انحياز الملك إلى الفن الكلاسيكي. وأغلب الظن أنه هو الذي علم لويس الرابع عشر أن مما يعزز مجد الحاكم أن يجمع الفن ويعرضه ويحتضنه. وقد هيات هذه المجموعات المثل الحافظة والقواعد الموطدة لتعليم الفن وتطويره في فرنسا.

صفحة رقم : 10561

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الملك والفنون -> تنظيم الفنون

وكانت الخطوة التالية هي تنظيم الفنانين. وهنا أيضاً كان مازاران سباقاً. ففي 1648 أسس أكاديمية التصوير والنحت، وفي 1655 أصدر الملك مرسوماً بهذه الأكاديمية فأصبحت الأولى في سلسلة من الأكاديميات التي قصد بها تدريب الفنانين وتوجيههم إلى خدمة الدولة وتجميلها. والنقط كولبير الخبط حيث تركه مازاران، وبلغ بهذه المركزية للفن الفرنسي القمة. وكان يتطلع إلى "جعل الفنون تزدهر في فرنسا أكثر من ازدهارها في أي بلد آخر (1)" رغم أنه لم يدع لنفسه ملكة الحكم في أمور الفن. وبدأ بأن اشترى للملك مصنع جوبلان للنسيج المرسوم (1662) وفي 1664 حصل على منصف المشرف على العمائر، فأتاح له هذا المنصب هيمنة على المعمار والفنون الملحقة به. وفي ذلك العام أعاد تنظيم أكاديمية التصوير والنحت، وسماها الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة. وكان هنري الرابع قد أسكن اللوفر طائفة من مهرة الصناع بيزينو القصور الملكية. فجعل كولبير من هؤلاء الرجال نواة للمصنع الملكي لأثاث التاج (1667). وفي 1671 أنشأ الأكاديمية الملكية للمعمارة، حيث أغرى الفنانون بالبناء والزخرفة بـ "الذوق الرفيع" الذي يجده الملك. وفي هذه الجماعات كلها وضع مهرة الصناع تحت إشراف الفنانين، وهؤلاء تحت إرشاد سياسة وطرارز موحدتين.

ورغبة في دعم الاتجاه الكلاسيكي الذي تلقاه الفن الفرنسي إبان عهد فرنسوا الأول، وتنقيته من التأثيرات الفلمنكية، أنشأ كولبير وشارل لبرون أكاديمية فرنسا الملكية في روما (1666). وكان الطلاب الحائزون على جائزة روما في أكاديمية باريس يبعثون إلى إيطاليا ويعالون خمس سنين على حساب الحكومة الفرنسية. وفرض عليهم أن يستيقظوا في الخامسة صباحاً ويمضوا إلى الفراش في العاشرة مساءً. وقد دربوا على نسخ النماذج الكلاسيكية ونماذج النهضة ومحاكاتها، وكان ينتظر من كل من هم أن ينتج "رائعة" (بالمعنى المصطلح عليه في نظام الطوائف) مرة كل ثلاثة أشهر، فإذا عادوا إلى فرنسا كان للدولة الحق المقدم في خدماتهم.

صفحة رقم : 10562

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الملك والفنون -> تنظيم الفنون

وكانت ثمرة هذه الرعاية والتأمين للفن إنتاجاً رائعاً ضخماً للقصور، والكنايس، والتمائيل، والصور، وقطع النسيج المرسوم، والخزف، والمداليات، والمحفورات، والنقود، وكلها مطبوع بكبرياء "الملك الشمس" وذوقه، ويقسمات وجهه أحياناً كثيرة. ولم يكن هذا إخضاع الفن الفرنسي لروما كما شكى البعض، بل إخضاع فن روما للويس الرابع عشر. وقد استهدف الأسلوب أن يكون كلاسيكياً، لأن ذلك الأسلوب يتفق وعظمة الدول وجلال الملوك. وتدفت الأموال الفرنسية إلى إيطاليا بأمر كولبير لشراء آثار الفن الكلاسيكي أو فن النهضة، وبذل كل شيء لنقل مجد الأباطرة الرومان إلى ملك فرنسا وعاصمتها، وكانت النتيجة مذهلة للعالم. وأصبح لويس الرابع عشر أعظم رعاة الفن الذين عرفهم التاريخ. فقد "بذل للفنون من التشجيع قدرأ أعظم من جميع نظرائه من الملوك مجتمعين" (في رأي فولتير)(2). وكان بالطبع أسخى جماعي الفنون، فزاد عدد الصور في قاعاته من مائتين إلى ألفين وخمسمائة، وكان كثير منها من إنتاج فنانيين فرنسيين كلفهم الملك برسمها. واشترى الكثير جداً من المنحوتات الكلاسيكية وتمائيل عصر النهضة، حتى لقد خشيت إيطاليا أن تنزح آثارها الفنية، وحظر البابا المزيد من تصدير هذه الآثار. واستخدم لويس رجالاً موهوبين مثل جيراردون أو كوازيفوكس لنقل نسخ من التماثيل التي لم يستطع شراءها، وقل أن نافست نسخ أصولها كما نافستها هذه النسخ. وملئت قصور باريس وفرساي ومارلي وحدائقها وبساتينها بالتماثيل، وكان أوثق سبيل إلى قلب الملك إهداؤه أثراً ذا جمال غير منازع أو شهرة راسخة. مثال ذلك أن مدينة آرل أهدته تمثالها الشهير "فينوس" في 1683. ولم يكن لويس بالرجل الشحيح. وقد قدر فولتير أنه كان يشتري في كل عام من آثار الفنانين الفرنسيين ما قيمته 800.000 جنيه ويهدئها للمدن والمؤسسات والأصدقاء(3) بهدف مساعدة الفنانين وبث ملكة الجمال والإحساس الفني في الوقت نفسه. وكان ذوق الملك سليماً أسدى إلى الفن

صفحة رقم : 10563

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الملك والفنون -> تنظيم الفنون

الفرنسي أيادي بيضاء، ولكنه كان كلاسيكياً إلى حد ضيق. فحين أروه بعض الصور التي رسمها تتييه الابن قال أمراً "ابعدوا عني هذه الأشياء البشعة" (4) وقد ارتقى الفنانون بفضل رعايته كثيراً، سواء في أرباحهم أو مكانتهم الاجتماعية. وقد ضرب المثل بتكريمه إياهم شخصياً، وحين شكا البعض من ألقاب الشرف التي خلعتها على المصور لبرون والمعماري جول-أردوان-مانسار أجاب في شيء من الحدة "في وسعي أن أصنع عشرين دوقاً أو نبيلاً في ربع ساعة، ولكن صنع فنان كمانسار يقتضي قروناً" (5). وبلغ راتب مانسار 80.000 جنيه في العام، أما لبرون فكان يتقلب في نعيم قصوره بباريس وفرساي ومونمورنسي. وتقاضى لاجلبير وريجو ستمائة جنيه أجراً عن كل لوحة. "ولم يترك فنان كفاء في عوز" (6).

وقلدت الأقاليم العاصمة في تكريم الفن وإثابته، واقتدى النبلاء بمليكمهم. فطورت المدن مدارس فنية خاصة بها-في روان، وبوفيه، وبلوا، وأورليان، وتور، وليون، وإكس-أن-بروفانس، وتولوز، وبوردو وواصل النبلاء دورهم رعاية للفن وإن تقلص لأن الدولة استوعبت المواهب المتاحة، وأسهم الذوق المدرب الذي نشئت عليه أرقى أرستقراطية في أوروبا في توطيد الطراز الرفيع الذي اتسمت به منتجات الفن في عهد لويس الرابع عشر. واكتسب الرجال والنساء الذين ولدوا في نعيم الامتيازات والثراء وشبوا على العادات المهذبة وسط محيط جميل وأشياء بديعة-نقول إنهم اكتسبوا معايير وأدواقاً ممن يكبرونهم سناً كما اكتسبوها من بيئتهم، وكان على الفنانين أن يلبوا مطالب تلك المعايير ويشبعوا تلك الأدواق. ولما كان الاعتدال، وضبط النفس، والتعبير الأنيق، والحركة الرشيقة، والشكل المصفول، لما كانت هذه كلها مثل الأرستقراطية الفرنسية في هذا العهد، فقد تطلبت هذه الصفات في الفن، وحيد النظام الاجتماعي الطراز الكلاسيكي. وأفاد الفن من هذه المؤثرات والهيمنات، ولكنه دفع ثمنها. ذلك أنه فقد اتصاله بأفراد الشعب، ولم يستطع أن يعبر عنهم كما

صفحة رقم : 10564

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الملك والفنون -> تنظيم الفنون

استطاع الفن الهولندي والفلمنكي أن يعبر عن الأراضي المنخفضة، وأصبح الفن صوت طبقة، وصوت الدولة والملك، لا صوت الأمة. فأنت لا تجد في فن هذه الحقبة الكثير من دفء الوجدان أو عمقه، ولا تجد ألوان روبنز الفنية وأجساده المكتنزة، ولا تجد الظلال العميقة التي تلف حاخامات رمبرانت وقديسيه ومالييه، ولا ترى فلاحين ولا عمالاً، ولا متسولين، بل السعادة الجميلة ترتع فيها صفوة البشر.

وأبهج كولبير ومولاه أن يجدا في شارل لبرون رجلاً يستطيع أن يكون في وقت واحد خادماً غيوراً للحكومة وقاضياً متسلطاً في هذا الطراز الكلاسيكي، ففي 1666 عين لبرون بتوصية كولبير كبيراً لمصوري الملك ومديراً لأكاديمية الفنون الجميلة، وبعد عام عهد إليه بمصنع جوبلان، ووكّل بالإشراف على تعليم الفنانين وتشغيلهم لينمي في أعماله تناسقاً في الأسلوب مميزاً للعهد وممثلاً له. وبمعاونة مساعدين على شاكلته في التفكير أنشأ لبرون في الأكاديمية نظام "المحاضرات" (1667) التي غرست بفضلها أصول الأسلوب الكلاسيكي بتعاليم وأمثلة وسلطان. واختير رفانيل من بين الفنانين الإيطاليين، وبوسان من بين الفنانين الفرنسيين، نموذجين مفضلين على غيرهما، وكانت كل لوحة يحكم عليها بمعايير مستقاة من فنهما. وقد صاغ لبرون وسباستيان بوردون هذه القواعد، فرفعا الخط فوق اللون، والانضباط فوق الأصالة، والنظام فوق الحرية، ولم تعد مهمة الفنان أن ينقل الطبيعة بل أن يجعلها، ولا أن يعكس فوضاها وعبوبها وبشاعتها كما يعكس جمالها العارض، بل أن ينقي من بين سماتها تلك التي تتيح للنفس الإنسانية الإفصاح عن أعماق مشاعرهما وأرفع مثلهما. وكان على المعماريين والمصورين والنحاتين والخزافين وصناع المشغولات الخشبية والمعدنية والزجاجية والنقاشين، أن ينطقوا في صوت متناسق واحد بتطلعات فرنسا وبعظمة الملك.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الملك والفنون -> العمارة

2- العمارة

على أن هؤلاء الفنانين الفرنسيين "المنطليين" كانوا قد عادوا من روما وقد اكتسبوا طلاءً "باروكياً" على غير وعي منهم. وقد وصفنا من قبل ذلك الطراز طراز الباروك-الذي عم الآن وانتشر. وخلصته أنه يحل محل البساطة الهادئة التي تميزت بها الأشكال الكرسية إسرافاً في الوجدان والزخرف، بينما نرى المثل الكلاسيكي-وعلى الأخص الهلنستي-قد حوكت في نحت هذا "القرن العظيم" وتصويره وأدبه، نجد العمارة والزخرفة قد أخذتا عن الطرز الأنيقة المنمقة التي عقد لها لواء النصر في إيطاليا بعد وفاة ميكل أنجيلو (1564). فلقد استهدف بناء الملك الطراز الكلاسيكي، ولكنهم حققوا الباروكي-الباروكي الكامل في فرساي، ومزيجاً موفقاً من الباروكي والكلاسيكي في واجهات اللوفر.

أما أول الروائع المعمارية في هذا العهد فهي كنيسة فال-دجراس بباريس. وكانت أن النمساوية قد نذرت نذراً ببناء معبد جميل إذا وهبها الله ولويس الثالث عشر غلاماً. فلما أتاحت لها وصايتها على العرش المال كلفت فرنسوا مانسار بوضع تصميمات الكنيسة. وأرسى لويس الرابع عشر الحجر الأول في 1645 وكان يومها في السابعة. ونفذ تصميم مانسار على يد لومر سيبه بالطراز الكلاسيكي، وتوج بقبة مازالت محط إعجاب المعمارين. وشيد لبرال كنيسة سان-لوي-ديزا نفاليد (1670) لقدامى المحاربين الذين يأويهم الأوتيل ديزنفاليد. وفي 1676 كلف لوفوا المعماري جول اردوان مانسار (حفيد أخي فرنسوا مانسار) بأن يكمل الكنيسة بخورس وقبة. والقبة في جمالها الرشيق رائعة العهد المعمارية. وقد حقق أردوان مانسار انتصاراً آخر في تصميم الكنيسة الملحقة بفرساي (1699). وقد أكمل عمله هنا في الأنفاليد صهره روبيردكوت

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الملك والفنون -> العمارة

زخرفة مترفة، وهو الذي أقام كذلك الأوتيل دفيل في ليون، ودير سان دني، وواجهة سان-روش. وحلنا العمارة الملكية محل العمارة الكنسية حين تفوقت الدولة على الكنيسة ثراءً ومكانة، فأصبحت المشكلة الآن هي التعبير عن القوة لا عن الورع. وكان للوفر في تلبية هذه الحاجة ميزة تميز بها على غيره من العمائر، هي ما أحاط به من تقاليد موروثه. فقد شهد نموه أجيال كثيرة، وترك ملوك كثيرون بصماتهم على تاريخه. فشيّد لومرسيه الواجهة

الغربية للجناح الرئيسي بتكليف من مازاران، وبدأ الجناح الشمالي على طول شارع ريفولي الحالي. وأتم هذا الجناح خلفه لوفو، وأعاد بناء واجهة الجناح الجنوبي (المواجه لنهر السين)، وأرسى أساسات الجناح الشرقي. في هذه الفترة الهامة أصبح كولبير المشرف على العمائر. وإذ رفض تصميمات فو للجناح الشرقي، فقد فكر في مشروع مد اللوفر غرباً لتلتقي بالتويلري في قصر واحد. فأذاع على معماريي فرنسا وإيطاليا مسابقة في تصميم واجهة جديدة. ورغبة في منه في الحصول على أفضل التصميمات، وأقنع الملك بأن يرسل دعوة خاصة إلى جوفاني لورنتزو برنيني (1665) وهو يومها أمير الفنانين الأوربيين غير منازع، ليأتي إلى باريس على نفقة الملك ويقدم تصميمه. وأتى برنيني بأبهته الكبرى، وأغضب الفنانين الفرنسيين باحتقاره لعملهم، ووضع تصميماً ضخماً باهظ التكلفة يقتضي هدم مل اللوفر القائم تقريباً. ووجد كولبير قي التصميم عيوباً تتصل بأنابيب المياه وغيرها من مرافق المعيشة، واستشاط برنيني غضباً وقال إن "المسيو كولبير يعاملني كأنني غلام صغير، بكل لغوه عن المراحيض والقنوات السفلية(7)" وأمكن الوصول إلى حل وسط. فقد وضع الملك الحجر الأساسي لتصميم برنيني، وبعد أن أقام الفنان سنة أشهر في باريس رد إلى إيطاليا محملاً بالمال وأسباب التشريف، وقد حاول أن يرد على هذا بتمثال نصفي للويس الرابع عشر يقوم الآن بفرساي، ويتمثال للويس ركباً جواده في "جاليريا

صفحة رقم : 10567

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الملك والفنون -> العمارة

بورجيزي" بروما أما تصميمه للوفر فتخلى عنه، واحتفظ بالمبنى القائم وكوفئ شارل بيرو بتكليفه ببناء الواجهة الشرقية. وارتفع صف أعمدة اللوفر الشهير، الذي أثار عيوبه الواضحة سيلاً من النقد(8)، ولكننا نتقبله الآن على أنه من أعظم واجهات العمائر في العالم. وكان كولبير يؤمل أن ينتقل الملك من مسكنه الضيق إلى في سان-جيرمان إلى اللوفر بعد تجديده. ولكن لويس لو ينس كيف أكره هو وأمه على الفرار من الجماهير الباريسية خلال حرب الفروند. وكان رأيه في صوت الشعب أنه صوت العنف، فلم يشأ أن يعرض نفسه لمثل هذه الكوابح لحكمه المطلق. وعليه قرر أن يبني فرساي، وروع القرار كولبير. وكان لويس الثالث عشر قد شيد استراحة متواضعة للصيد في 1624. ورأى أندريه لنوتر في منحدر هذا الموضع الذي كان يرتفع في رفق، وفي أحراج الغنية، فرصة مغرية للتفنن في تنسيق الحدائق. ففي 1662 قدم لويس الرابع عشر تصميماً عاماً للمنطقة، وإذا كانت المباني اليوم منخفضة عن المروج والبحيرة؛ وعن الأزهار والشجيرات ومختلف الأشجار، فلعل هذا هو الوضع الذي تصور لها عليه لنوتر. فهو لم يقصد بالقصر أن يكون أية من آيات المعمار بقدر ما يكون دعوة إلى الحياة خارجه بين أحضان طبيعة روضها الفن وجمالها، دعوة لتنشيق عبير الزهر والشجر، وإثباع العين واللمسة المتخيلة من الأجساد الكلاسيكية النحت، ولمطاردة الفرائس والنساء في الغابات، للرقص وتناول الطعام على العشب، ولركوب الزوارق على القناة والبحيرة، وللاستماع إلى لولي ومليير تحت القبة الزرقاء. فها هنا جنة من جنان الآلهة، بنيت بدراهم عشرين مليوناً من الفرنسيين لن يروها إلا لماماً، ولكنهم يعترفون بعز مليكهم. ومما يسر أن نعرف أن بستان فرساي كان مفتوحاً للشعب إلا في المناسبات الملكية. وكان فن إنشاء الحدائق المنسقة البهية وافداً من إيطاليا ككثرة غيره

صفحة رقم : 10568

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الملك والفنون -> العمارة

من الفنون، وقد جلب معه عشرات الحيل والمفاجآت، كالتعاريش، والشعريات، والمغارات، والكهوف، والأشكال الغريبة (الجروتسك)، والأحجار الملونة، وبيوت الطير، والتمثيل، والزهريات، والغدران، والنوافير، والميازيب، وحتى الأرغن تعزف إلى جوار الماء الجاري. وكان لنوتر قد صمم من قبل حدائق نو لوفوكيه، وبعد قليل سيصمم حدائق التويلري للملكة، وحدائق سان كلو لمدام هنرنيتا، وحدائق شانتسي لكونيه الكبير. وأطلق وأليس يده في فرساي من 1662 فصاعداً، وروعت كولبير النكاليف التي أنفقت على تحويل برية شعشاء إلى فراديس غناء. وتعلق قلب الملك بلنوتر الذي لم يأبه للمال بال للجمال فقط، والذي كان فناناً صادقاً لا غش فيه(9). لقد كان في مثابة "بولو" الحدائق، المصمم على أن يغير "فوضى" الطبيعة إلى نظام وتناسق وشكل معقول مفهوم. ولعله كان مسرفاً في إصراره على الكلاسيكية، ولكن الحدائق التي أبدعها ما زالت بعد ثلاثمائة سنة كعبة يؤمها البشر فيما يؤمون. كان لويس لا يزال يحسد فوكيه، فأتى بلوفو معماري قصر فو ليوسع استراحة الصيد ويجعل منها قصراً ملكياً. وتسلم جول أردوان مانسار إدارة المشروع في 1670. وبدأ تشييد غرف السكن والقاعات وغرف الاستقبال وصلالات الرقص وحجرات الدراسة والمكاتب الإدارية كل هذه الأبنية الشاسعة التي نشهدها اليوم في فرساي. وما وافى عام 1685 حتى كان يكدح في المشروع 36.000 رجل و 6.000 حصان في نوبات بالليل والنهار. وكان كولبير منذ زمن طويل قد حذر الملك من أن معماراً كهذا، مضافاً إلى الحرب يخوضها بعد الحرب، سينتهي بإفلاس الخزانة، ولكن في 1679 بنى لويس قصراً آخر في مارلي، ملاذاً يلجأ إليه من زحام فرساي، وفي 1687 أضاف الجران تريانون ليكون خلوة لمدام دمانتون. وأمر جيشاً من الرجال فيهم الكثير من الجنود النظاميين بتحويل نهر أور ونقل مياهه خلال تسعين ميلاً من "قناة ماننتون"

صفحة رقم : 10569

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الملك والفنون -> العمارة

لتزويد بحيرات فرساي ونهيرات ونافورته وحماماته، وفي 1688 هجر هذا المشروع بعد أن أنفقت عليه الأموال الطائلة حين دعا داعي الحرب. وقد كلف فرساي فرنسا حتى عام 1690 مبلغاً جملته 200.000.000 فرنك (500.000.000 دولار؟(10)) وفرساي، من الناحية المعمارية، فيه من التعقيد والجزافية ما ينأى به عن الكمال. أما الكنيسة فرائعة، ولكن هذا الزهو بالزخرف لا يكاد يتفق وتذلل العبادة. وبعض أجزاء القصر جميل، والسلم المفضي إلى الحدائق فخم، ولكن إلزام مصممه بأن يتركوا استراحة الصيد دون أن يمسوها في تصميمهم، ويكتفوا بإضافة أجنحة وزخارف، كل هذا أضر بمظهر البناء في مجموعه. وقد تترك هذه المجموعة المتكاثرة من الأبنية في النفس انطباع الرتابة الباردة والتكرار المتاهي فالحجرة تقفو الحجرة على امتداد 1320 قدماً من الواجهة. ويبدو أن تنظيم القصر من داخله تجاهل الراحة الفسيولوجية لنزلائه ورواده، وأفترض قوة ضبط هائلة في الأمعاء النبيلة، فكان على من يريد إزالة ضرورة أن يعبر ست حجرات. لا عجب إذن أن سمعنا بأن السلاطمة والطرق كانت تستخدم في مثل هذا الغرض. أما الحجرات ذاتها فتبدوا أصغر من أن تسمح بالراحة. وليس هناك حجرة فسيحة سوى القاعة الكبرى التي تمتد 320 قدماً على طول واجهة الحديقة، هناك نشر المزخرفون كل مهاراتهم فعلقوا قطع نسيج جوبلان وبوفيه المرسومة، وبثوا المنحوتات على الجدران، وبلغوا بكل قطعة أثاث الكمال المحبب، وعكسوا كل البهاء في تلك

المرايا الكبيرة التي أعطت الحجرة اسمها الثاني، وهو "قاعة المرايا". وعلى السقف صور لبرون الذي ارتفع إلى ذروة فنه، خلال خمس سنوات (1679-84)، وبرموز أسطورية، انتصارات حكم لويس الطويل، وسجل مأساته دون وعي منه، لأن هذه الانتصارات المصورة على أسبانيا وهولندا وألمانيا أزعجت أن تثير أرواح النقمة على الملك الشغوف بالحرب.

صفحة رقم : 10570

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الملك والفنون -> العمارة

وعاش لويس في فرساي على نحو متقطع منذ 1671 وأنفق بعض وقته في مارلي، وسان-جرمان، وفوننتبلو، وبعد 1682 أصبح فرساي مقره الدائم. ولكننا نعلمه إذا ظننا أن فرساي كان مسكنه وملهاه، فهو لم يشغل سوى جزء متواضع من المبنى، أما الباقي فقد سكنته زوجته، وأبناءه، وأحفاده، وخليلاته، والمفوضيات الأجنبية وكبار الإداريين، وأفراد الحاشية، وكل الخدم والحشم الذين تطلبهم البيت المالك. ولا ريب في أن بعض هذا البهاء كان له هدف سياسي- هو إدخال الرهبة في قلوب السفراء الذين توقع منهم لويس أن يحكموا من هذا البذخ على موارد الدولة وسطوتها. وقد وقع هذا من نفوسهم ونفوس غيرهم من الزوار فأذاعوا في أرجاء أوروبا من الأبناء عن بهاء فرساي ما جعله البلاط المحسود، والمثل الذي يحتذيه الكثير من البلاطات والقصور في القارة الأوروبية بأسرها. أما في عقابيل هذا العهد فقد بدت هذه الكتلة الضخمة من المباني رمزاً وقهاً للاستبداد وتحدياً مستهتراً من كبرياء الإنسان لمصير الإنسان غير المتغير.

صفحة رقم : 10571

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الملك والفنون -> الزخرفة

3- الزخرفة

لم تعرف فنون الزخرفة قط، حتى على عهد باباوات النهضة، مثل هذا التشجيع والعرض. فقد كانت الأرضيات المكسوة بالبسط السمكية، والأعمدة الزينية، والموائد ورفوف المستودقات الزخرفية الضخمة، والزهريات من الخزف الصيني، والشمعدانات الفضية والثريات البلورية، والساعات الجدارية الرخامية المطعمة بالأحجار الكريمة، والجدران ذات الحشوات الخشبية أو الرسوم الجصية أو الصور أو قطع النسيج المرسوم، والكراميش المصبوبة صباً

أنيفاً، والأسقف ذات الزخارف الغائرة أو الصور، هذه كلها وكثير غيرها من ألوان الفن في فرساي وفونتبلو ومارلي والوفر،

صفحة رقم : 10572

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الملك والفنون -> الزخرفة

وحتى في قصور الأهالي، جعلت من كل حجرة تقريباً متحفاً لأشياء تطلب العيون والألباب بسر الكمال الخفي. وعن رفائيل ومساعديه-جوليو رومانو، وبيرينو ديل فاجا، وجوفاني دا أوربيني-عن قاعات الفاتيكان، نقل لبرون ومساعديه مجموعة الأرباب والريبات والكوبيدات وتذكارات النصر والشعارات والنقوش العربية، وأكاليل الزهر وورق الشجر، والحليات القرنية لثمار الأرض، يزينون بها سجل انتصارات الملك على النساء والدول. وكان الأثاث بطراز لويس الرابع عشر متزافاً فاخراً؛ هنا أذعنت البساطة الكلاسيكية للزخرفة الباروكية. فالمقاعد مسرفة في النقش والتجديد والتدبيب إسرافاً أبعد عنها الإعجاز خشية إلا أرقها. أما الموائد فكانت تجد بينها الثقيل المتين إلى حد يبدو معه غير قابل للحركة. وكانت مناضد الكتابة والمكاتب المزودة برفوف للكتب غاية في الأناقة بحيث تعري القلم بالكتابة في إيجاز لاروشفوكو المحكم أو في حيوية مدام دسفينيه المتدفقة. وكثيراً ما كانت الصناديق وخزانات النفائس تنقش بعناية فائقة أو تطعم برسوم من معدن أو أحجار كريمة. وقد أعطى أندريه شارل بول اسمه (Buhlwork) لفنه الخاص، فن تطعيم الأثاث، لا سيما الأيونسي، بالمعدن المحفور، وصدف السلاحف، واللؤلؤ الخ، مضيفاً حليات درجية تمثل النبات أو الحيوان ذات رسوم غاية في الرشاقة، وكان يقيم في الوفر (1672) بوصفه نجار الأثاث الأثير لدى لويس الرابع عشر. ولقد بيعت إحدى خزاناته المطعمة بمبلغ 3.000 جنيه إنجليزي في 1882، وربما كان هذا المبلغ يعادل 50.000 دولار في 1960(11). ولكن بول مات في فقر مدقع بعد أن بلغ التسعين في 1732. وقد يكون أوفق لأذواقنا تلك الأكشاك المنقوشة التي أقيمت في هذه الفترة في كاتدرائية نوتردام دباري.

وأصبح النسيج المرسوم الآن فناً اختص به الملك. ولم يقنع كولبير

صفحة رقم : 10573

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الملك والفنون -> الزخرفة

بإخضاع مصنعي جوبلان وأوبوسون لإشراف الملك، فأقنعه بأن يتسلم أيضاً مصنع النسيج المرسوم في بوفيه وكانت هذه القطع المرسومة لا تزال الحلية المفضلة لجردان القصور وسجفها في المدن والريف، والمهرجانات، والمباريات، والاحتفالات الرسمية، والأعياد الدينية. وقد صمم المصور الفلمنكي آدم فاندرومولر في بوفيه سلسلة رائعة من الرسوم سماها "فتح لويس العظيم"، وأعد الفنان لها نفسه بأن تبع لويس إلى حروبه ورسم بالقلم أو صور بالألوان على

الطبيعة المواقع والحصون والقرى التي كانت مسرحاً لحملاته الحربية. وكان مصنع جوبلان يستخدم 800 من مهرة الصناع الذين لم يكتفوا بصنع قطع النسيج المرسوم، بل المنسوجات الرفيعة وأشغال الخشب والفضة والمعادن والتطعيم بالرخام. وهناك نسجت تحت إشراف لبرون قطع النسيج المرسوم العظيمة نقلاً عن الرسوم التخطيطية التي حفلت بها صور رفائيل الجصية الضخمة في قاعات الفاتيكان. وليس أقل من هذه شهرة السلاسل العديدة التي صممها لبرون ذاته؛ فصور قوى الطبيعة، والفصول، وتاريخ الإسكندر، ومساكن الملك، وتاريخ الملك. والمجموعة الأخيرة كانت تعد سبع عشر قطعة، واستغرق الفنان في صنعها عشر سنين، وما زال نموذج رائع منها معروضاً في حجرات عرض قطع الجوبلان فيها ترى الأجسام متميزة إلى حد مذهل، والتفاصيل متخيلة تخيلاً كاملاً، حتى صورة المنظر الطبيعي التي على الجدران، وكل هذا بخيوط ملونة نسجت في صبر وأناة أيدٍ صناع تحت عيون مجهدة. وندر أن كرس مثل هذا الجهد البشري الضخم للزلفى لرجل واحد. وقد أعتذر لويس عن هذا بأن زعم لكولبير أن أسباب التمجيد هذه تنتج العمالة والدخل للصباعين والنساجين، وتوفو هدايا ذات وقع جميل في عملية "تشحيم" الدبلوماسية. وترعرعت كل الفنون الصغيرة تحت اليد الملكية السخية. فصنعت الأبسط الفاخرة في لاسافو نيري قرب باريس. وأنتج القاشاني البديع في

صفحة رقم : 10574

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الملك والفنون -> الزخرفة

روان موستييه، والخزف الإيطالي (المبوليق) الجيد في نيفير، والصيني اللين العجينة في روان وسان كلو. وفي أخريات القرن السابع عشر تعلم الصناع الفرنسيون بتحريض كولبير أسرار البنادقة في صب بللور المرايا الكبيرة وتسويته وصقله، وهكذا صنعت مرايا "قاعة المرايا" الرائعة (12). ونظم كولبير ولبرون الصاغة أمثال جوليان دفونتين وفانسان بتي وأسكناه في اللوفر، فصنعوا للملك وللأغنياء مئات التحف من الفضة أو الذهب إلى أن صهر لويس والأغنياء هذه الحلي لتمويل الحرب. وقطعت الأحجار الكريمة والمدايا: وضربت العملة، ونقشت بتصميمات كانت المثل الذي تحتذيه أوريا كلها فيما عدا إيطاليا. ولم يصل فن صنع المدايا منذ عصر النهضة إلى مثل هذا الإبداع الذي حققه الآن على يد أنطوان بنوا وجان موجيه. أما كولبير، الذي لم يترك حجراً دون نقش، فقد أسس في 1662 أكاديمية المدايا والنقوش، ليخلد أعمال الملك... بمدايا تضرب تكريماً له (13) وذلك كان أسلوب الوزير الكبير في تجنيد الغرور الذي يملك المال في خدمة الفن الغالي النفقة. وفي 1667 أنشئت مدرسة للصور المحفورة في اللوفر، ورسمت مناقيش روبيير نانتوي وسبستيان لكليير وروبير بونار وجان ليوتر في رهافة بالغة التدقيق شخصيات العهد وأحداثه. وحتى رسم المنمنمات ظل على قيد الحياة وإن هبط عن سابق مقامه في العصر الوسيط في كتاب "ساعات الصلاة" الذي أهداه إلى الملك متقاعدوه في الأنفاليد. إن الفنون الصغيرة، دون سائر الفنون، هي التي تظهر ذوق "القرن العظيم" وبراعته الفنية.

صفحة رقم : 10575

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الملك والفنون -> التصوير

4- التصوير

إن نجمين من نجوم التصوير ذوي المرتبة الثاني يقعان في الفلك الخارجي لهذا العصر، وهما فيليب دشامبين، وأوستاش لوسويير. أما فيليب فقد وفد

صفحة رقم : 10576

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الملك والفنون -> التصوير

من بروكسل وهو في التاسعة عشر (1621)، وشارك في زخرفة قصر اللكسمبورج، ولم يكنف برسم صورة ريشليو بقامته الكاملة، وهي المحفوظة في اللوفر بل صنع أيضاً تمثالاً نصفياً للكردينال، وصوره صوراً جانبية محفوظة بمتحف الفنون القومي بلندن. وقد أتاه ميله المتعاطف لتصوير الأشخاص بزبائن من نصف زعماء فرنسا في الجيل الذي تلا ريشليو، كمازاران وتورين وكولبير ولمرسييه... وكان قبل قدومه إلى فرنسا قد صور جانس وأعتق الجانسنية، وأحب البور-رويال ورسم صوراً للأم أنجليك وروبير آرنو وسان-سيران. ورسم للبور-رويال أروع صورة "الراهبات" باللوفر، وترى فيها الأم أنبيس مكتتبة ولكنها لطيفة، ومعها سوزان ابنة المصور الراهبة. وكان مجال شامبين محدوداً، ولكن فنه يدفى قلوبنا بما فيه من وجدان وإخلاص. أما أوستاش لوسويير فكان متديناً كصاحبه ولكنه أكثر سنية قي إيمانه، مما جعله قلقاً في جبل سيطر على التصوير فيه منافسه لبرون، وتسلطت على هذا الفن فيه أساطير وثنية كرسيت لتأليه ملك لم يكن قد ثاب إلى تقواه بعد. وقد درس المصوران (لوسويير ولبرون) معاً على فويه، ورسماً معاً في قبو واحد، واستخدما نفس النموذج، وأتتى عليهما على السواء بوسان في زيارته لباريس. وتبع لبرون بوسان إلى روما ونشر الروح الكلاسيكية. أما لوسويير فلزم باريس مربوطاً بزوجة مخصبة ولم يستطع الفكاك من الفقر إلا نادراً. وحوالي 1644 رسم خمس صور تصف حوادث في حياة إله الحب لسقف "حجرة الحب" في قصر ولي نعمته لامبير ديتوريني، وفي حجرة أخرى من حجرات قصر لامبير هذا نفذ رسماً جصياً كبيراً يسمى "فيتون يطلب أن يفود مركبة الشمس" وفي 1645 تورط لوسويير في مبارزة قتل فيها خصمه ثم اختبأ في دير للكارتوزيين، وهناك رسم اثنتين وعشرين صورة من حياة القديس برونو مؤسس الطريقة

صفحة رقم : 10577

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الملك والفنون -> التصوير

الكارتوزية، وفي هذه الصور بلغ الفنان أوجه. وفي 1776 اشترت هذه السلسلة من الرهيات الكارتوزيين بمبلغ 132.000 جنيه فرنسي، وهي اليوم تشغل غرفة خاصة باللوفر. ولما عاد ليرون من إيطاليا (1647) أكتسح أمامه كل شيء. وانتكس لوسويير إلى فقره، ثم مات في 1655 ولما تجاوز الثامنة والثلاثين. أما شارل ليرون فقد تسلط على الفنون في باريس وفرساي، لأنه أوتي قدرة التنسيق والإدارة كما أوتي قدرة التصور والتنفيذ. وإذ كان ابن نحات له أصدقاء من المصورين، فقد شب في بيئة تعلم فيها الرسم كما يتعلم غيره من الأطفال الكتابة. ورسم في الخامسة عشرة وعينه لا تغفل عن ترقب فرصته الكبرى-صورة رمزية لحياة ريشليو ونجاحه، والنقط الوزير الطعم، فكلفه برسم موضوعات أسطورية لقصر الكردينال. وحين أخذه بوسان إلى روما أغرق نفسه في أساطير وزخارف رفاثيل، وجوليو رومانو، وببييترو دا كورتونا. فلما عاد إلى باريس كان أسلوب الزخرفة المترفة المنمقة الذي انتهجه قد أكتمل نضجه. وهنا أيضاً كان فوكيه أسبق من لويس في استخدامه ليرون ليصور في قصره بفو. وقد استهوت مازاران وكولبير والملك براءة ما أنتج من صور جصية، وذلك الجمال الشهواني الذي اتسمت به أجساد النساء والتفاصيل الغنية من كرائيش ومصوبات. ولم يأتي عام 1660 حتى كان ليرون يرسم صوراً جصية من حياة الإسكندر للقصر الملكي بفرننتبلو. وقد أبهج لويس أن يتبين ملامحه تحت خوذة الإسكندر، فكان يأتي كل يوم ليراقب الفنان وهو يرسم معركة أربل، وأسرة دارا عند قدمي الإسكندر. وكلتا الصورتين في اللوفر. وكافأه الملك بلوحة ملكية مرصعة بالماس، وجعله مصوره الأول، وأجرى عليه معاشاً بلغ 12.000 جنيه في العام. ولم تقتصر للبرون همة. ففي 1661 دمرت النيران قاعة اللوفر الوسطى، فصمم ترميماً لها، وصور السقف والكرائيش بمنظر من أساطير أبولو،

صفحة رقم : 10578

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الملك والفنون -> التصوير

٥

ومن هنا الاسم الذي أطلق عليها "قاعة أبولو". وخلال ذلك درس الفنان الطموح العمارة والنحت وأشغال المعادن والخشب ورسم النسيج ومختلف الفنون التي جندت الآن لتزيين قصور العظماء. وانصهرت هذه الفنون جميعها في مهاراته المنوعة حتى لقد بدا أن الحظ أعده ليجمع فناني فرنسا في جهد موحد لينتجوا طراز لويس الرابع عشر. وقد أطلق لويس يده منحه ما شاء من مال ليزين فرساي، حتى قبل أن يعينه مديراً للأكاديمية الفنون الجميلة. وهناك عمل بجد طوال سبعة عشر عاماً (1664-81) فنسق الأعمال الفنية وصمم "سلم السفير"، ورسم بنفسه في قاعات الحرب والسلام، وفي القاعة الكبرى، سبعاً وعشرين صورة جصية تصف أمجاد الملك منذ صلح البرانس (1659) حتى معاهدة نيميغن (1679). وقد أظهر لويس في الحرب والسلام وسط حشد من الأرباب والرباب، والسحب والأنهار، والخيل والمركبات، يقذف الصواعق، ويعبر الراين، ويحاصر غنت، ولكنه إلى ذلك يجري العدالة ويصرف شؤون المال، يطعم الفقراء في المجاعة، وينشئ المستشفيات، ويشجع الفن. ولو أننا أخذنا هذه الصور فراداً لما عدناها من الروائع، فأساسها الكلاسيكي طغي عليه سيل من الزخارف الباروكية، ولكننا إذا أخذناها في جملتها وجدناها تؤلف أروع عمل قام به الرسامون الفرنسيون في هذا العصر. ويغبطنا تمجيده للملك لأنه يكشف عن داء الغرور، ولكن تملق الأمراء والملوك على هذا النحو كان سنة العصر. لا عجب إذن أن يقول لويس لمصوريه وهو يرى بعض صورهم بجوار أخرى رسمها فيرونيري وبوسان "إن أعمالك تثبت للمقارنة بأعمال كبار الفنانين، ولا يقصها إلا موت صاحبها لكي يقدرها الناس أكثر مما يقدرونها الآن، ولكننا نرجو ألا تتاح لها هذه الميزة سريعاً(14)"

وقد ساندته الملك خلال جميع المكائد التي أهدقت به من حساده بعد قليل، كما ساند موليير الذي ضايقه خصومه. ولم يكن غريباً

صفحة رقم : 10579

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الملك والفنون -> التصوير

على طبع لويس- إذ نمى إليه أثناء حضوره اجتماعاً إدارياً أن لبرون جاء ليريه آخر صورته "رفع الصليب" (15)- أن يستأذن الحاضرين ليذهب ويرى الصورة ويعرب عن سروره، ثم يدعو كل المجتمعين ليأتوا ويشاركوه في مشاهدتها(16). وهكذا سارت الحكومة والفن في هذا العهد جنباً إلى جنب، وشارك الفنانون القواد العسكريين مكافأتهم ومدائحهم.

كانت صناعة لبرون شيئاً جديداً وإن انبثقت من الزخرفة الإيطالية. لقد كانت مزيجاً زخرفياً جمع فنوناً عديدة ليؤلف منها كلاً جمالياً واحداً. فلما حاول أن يجرب تصوير لوحات فردية انزلق إلى مرتبة وسط. وإذا استحالت انتصارات الملك إلى هزائم، وأخلت محظياته مكانهن للكهان، تغير مزاج العهد ولم يعد لزخارف لبرون البهيجة محل. ولما خلف لوفوا كولبير مشرفاً على العمائر فقد لبرون دوره زعيماً للفنون، وإن ظل رئيساً للأكاديمية. ومات في 1690 رمزاً لمجد ولي.

وأغتبط فنانون كثيرون بتحررهم من سيطرته، ومن هؤلاء على الأخص بيير منيار الذي ساعته هذه السيطرة. وإذا كان يكبر لبرون بتسع سنوات فقد سبقه في الحج إلى روما بلوحة ألوانه، وتعلق قلبه بالمدينة الخالدة كما تعلق بها بوسان، حتى لقد استقر رأيه على العيش فيها طوال حياته. وقد عاش فيهل فعلاً اثنتين وعشرين سنة (1635-57) وأغتبط زبائنه باللوحات التي رسمها لهم اغتباطاً حمل في النهاية البابا إنوسنت العاشر، الذي ربما ساءه الوجه الذي خلعه عليه فيلاسكويز من قبل، على أن يجلس إلى منيار الذي أضفى عليه طلعة أطف. وفي 1646، حين بلغ منيار الرابعة والثلاثين، تزوج حسناء إيطالية، ولكنه ما إن سكن إلى الأبوة الشرعية حتى تلقى دعوة من فرنسا ليذهب ويخدم الملك، فذهب على مضض. وفي باريس تمرد على قبول التوجيهات من لبرون، ورفض الانضمام إلى الأكاديمية، وحز في نفسه أن يرى زميله الأصغر يحصد الأنواط والأموال. وأوصى

صفحة رقم : 10580

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الملك والفنون -> التصوير

موليير كولبير به، ولكن لعل الوزير أنصف في إثارة لبرون، فما كان منيار ليرضى أن يرتفع إلى مستوى الفخامة المتكلفة التي تطلبها القرن العظيم. على أية حال، كان لويس الذي بلغ العشرين أنذ في حاجة إلى صورة فاتنة له يغوي بها عروساً من أسبانيا. وارتضى منيار أن يرسمها، وأفتتن لويس وماريا تريزا بها، وغدا منيار أنجح رسام

للأشخاص في هذا العهد. فرسم لوحات لمعاصريه الواحد تلو الآخر: مازاران، وكولبير، ورتز، وديكارت، ولافونتين، ومولبير، وراسين، وبوسويه، وتورين، ونيون دلا نكلو، ولويز دلا فالبير، والسيدات مونتسبان، ومانتون، ولافايت، وسفينييه، وقد أنصف يدي أن النمساوية اللتين عدهما الناس أجمل الأيدي في العالم، فكافأته بمهمة تزيين قبو القبة في كنيسة فال-دجراس، وكان هذا الرسم الجصي رائعته الكبرى التي أشاد بها مولبير في إحدى قصائده. وقد صور الملك غير مرة، وأشهر صورته لوحته المعروضة في فرساي والتي يرى فيها ركاباً جواده، ولكننا نجده هناك على أروعه في اللوحة البديعة المسماة "دوقة مين في طفولتها". وبعد موت كولبير انتصر منيار في النهاية على لبرون، فخلف غريمه مصوراً للقصر في 1690، وعين عضواً في الأكاديمية بمرسوم ملكي، وبعد خمس سنوات مات في الخامسة والثمانين وهو لا يفتأ يرسم ويناضل. وجاهد رهط من المصورين غير من ذكرنا في خدمة الملك الذي استوعب الفنانين جميعاً. فشارل دوفرينوا، وسبستيان بوردون، ونوبيل كوابيل وابنه أنطوان، وجان فرانسوا دتروا، وجان جوفنيه، وجان باتيست سانتير، والكساندر فرانسوا دييورت-هؤلاء كلهم يلتمسون أن يسلكوا في زمرة الحاضرين هذه الوليمة الملكية. وهناك فنانان آخران يبرزان بقوة في نهاية العهد- أولهما نيكولا دلا رجليير الذي خلف منيار مصوراً أثيراً للأرستقراطية لا في فرنسا وحدها بل في إنجلترا أيضاً بعض الوقت

صفحة رقم : 10581

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الملك والفنون -> التصوير

(1774-78). وقد اكتسب حب لبرون باللوحه الرائعة التي رسمها له والمعروضة الآن في اللوفر. وألوانه الرمزية ولمسته الخفيفة تبين الانتقال من اضمحلال لويس الرابع عشر المعتم إلى عصر آخر مرح، وهو عصر الوصاية والفنان فاتو. أما الثاني وهو ياسينت ريجو، فكان أصلب عوداً. وقد كسب هو أيضاً قوته برسم الأشخاص (أنظر صورته البديعة لبوسويه في اللوفر)، ولكنه لم يكسبه بالتملق. ومع أن صورته التي أظهر فيها لويس الرابع شامخاً مسيطراً، والتي ترتفع في مؤخرة قاعة اللوفر الكبرى، تبدو من بعيد وكأنها إشادة بالملك، فإننا نلاحظ إذا تأملناها عن كثب ملامح الملك جامدة منتفخة، وهو واقف على قمة سلطته وعلى حافة قدره (1701). وكانت أعلى صور العصر ثمناً كما أنها أفضلها عرضاً، فقد نقد لويس ريجو فيها 40.000 فرنك (100.000 دولار؟) وربما كان هذا الأجر معادلاً لما دفعه لويس ثمناً للثياب الرائعة التي زينت هنا انحلاله.

صفحة رقم : 10582

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الملك والفنون -> النحت

كان المثالون أقل حظوة وثواباً في هذا العهد من المصورين. ومع ذلك فالمنحوتات المرمرية القديمة هي التي اشتهى لبرون أن تصاغ على غرارها جميع الفنون. وقد أنفقت الأموال الطائلة وسخرت المواهب الكثيرة في شراء أو نسخ التماثيل التي بقيت على قيد الحياة بعد انهيار العالم القديم. ولم يقتنع لويس بالنسخ طبعاً. وإذا كان يذكر حدائق سالوست وهادريان الرومانية، فقد استخدم لفيماً من المثالين الأكفاء لينفخوا بتماثيلهم الحياة في بستان فرساي. وأقيمت الزهريات الضخمة كزهريّة الحرب التي صنعها كوازيفوكس في حوض نبتيون، وعلى شرفة القصر؛ ونحت الشقيقان جاسبار وبلتازار دمارسي "حوض باخوس" العظيم، وأبرز جان باتست

صفحة رقم : 10583

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الملك والفنون -> النحت

من البحيرة تمثاله الرائع "مركبة أبولو" والإله الشمس فيه يرمز للملك، ونحت فرنسوا جيراردون في الحجر من "الحوريات المستحمت" ما لم يكن برا كستليز ذاته ليأنف من نسبه إليه. وتطلع جيراردون قرناً إلى الخلف ليرى كيف صور بريمانتشو وجوجون جسد الأنثى في صورة كاملة. وعاد إليه ذلك الحسن الانسيابي الذي اتسم به الفن الهيليني، ربما في إسراف، ومهما بحثنا وفتشنا فإننا لم نجد إلى الآن إنثاء كاملات الأجساد كأولئك اللاتي نجدهن في تمثالي "اغتصاب بروزيربين (17)". ولكنه كان قادراً على التعبير عن حالات نفسية أقوى من هذه. وقد صنع لميدان فاندوم تمثالاً للويس الرابع عشر محفوظاً الآن في اللوفر، ونحت لكنيسة السوربون مقبرة فخمة لريشليو. وقد أحبه لبرون لأنه تجاوب في لطف مع ذوق الأكاديمية وأهدافها. وخلف لبرون كبيراً لتمثالي الملك، ورأس الأكاديمية بعد وفاة منيار. ومع أنه ولد قبل لويس بعشرة أعوام إلا أنه عمر بعده شهوراً، ومات في 1715 وهو في السابعة والثمانين. أما أنطوان كوازيفوكس فكان إنساناً أرق من اسمه، محبباً إلى الناس كتمثاله "دوقة برجندية". ولد بليون، وكان ينحت لنفسه مكاناً بين المثالين حين دعاه لبرون ليساعد في زخرفة فرساي. وقد بدأ بصنع نسخ أو مقتبسات رائعة من التماثيل القديمة. فنحت عن تمثال رخامي قديم في فيللا بورجيزي "حورية المحارة"، وعن تمثال في قصر مدينتشي بفلورنسة نقل "فينوس الجاثمة" وكلا التمثالين محفوظ في مستودع الفن المحفوظ الذي نسميه اللوفر. وما زال في مكانه بفرساي تمثاله "كاستور وبولكس" الذي نقله عن مجموعة بحدائق لودوفيزي بروما. وما لبث أن أنتج أعمالاً أصيلة فيها قوة لا يستهان بها. فنحت لبستان فرساي تماثيل كبيرة تمثل نهري الجارون والدوردون، ولساحة قصر مارلي رمزين شبيهين بهذين لنهري السين والمارن.

صفحة رقم : 10584

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الملك والفنون -> النحت

وفي حدائق التويلزي اليوم أربعة تماثيل رخامية نحتها لمارلي، وهي فلورا (ربة الزهر) والشهرة، وحوريات الغابات، وعطارد ركباً ببجاسوس. وقد خرج من تحت إزميله الكثير من الزخارف المنحوتة في حجرات فرساي الكبرى.

وظل يكدح في فرساي ثمانية أعوام، وقضى خمسة وخمسين عاماً في خدمة الملك. فنحت له اثني عشر تمثالاً، أشهرها تمثاله النصفي في فرساي، وأصبح في النحت ما كان منيار في التصوير - أحب نحاتي الوجوه إلى الناس في فرنسا. وبدلاً من أن ينتشجر مع منافسيه نحتهم في الرخام أو صبههم في البرونز، فوفر عليهم غرورهم ونقودهم. وحين تلقى 1500 جنيه أجرأ لتمثال النصفي الذي صنعه لكولبير، رأى الأجر مغالى فيه فرد منه سبعمائة جنيه (18). وقد ترك لنا تماثيل كاملة الشبه بليون، ولنوتر، وأرنو، وفوبان، ومازارن، وبوسويه، وترك لنفسه ترجمة بسيطة لوجه أمين أشعث مضطرب (19)، ولكونديه العظيم تمثالين نصفين أحدهما في اللوفر، والآخر في شانتيي، يتميزان بصدق وفحولة لا مرأء فيهما. ثم نحت بأسلوب مختلف تماماً تمثالاً رقيقاً لدوقة برجندية في صورة ديانا (20)، والتمثال النصفي الجميل لنفس الأميرة في فرساي. وصمم مقابر رائعة لمارازان (21) وكولبير، وفوبان، ولليون. ولأعماله ملمس الروح الباروكية في عاطفتها المسرحية ومبالغتها العارضة، ولكنها في أحسن صورها تعبيراً عن المثل الكلاسيكي الذي استهدفه الملك والبلاط، فهي رأسين متمثلين في الرخام والبرونز. وحوله وحول جيراردون تجمع سباعي من المثاليين، فرانسوا أنجيبه وأخوه ميشيل، وفليب كوفييه وابنه فرانسوا، ومارتان ديجاردان، وبيير لجرو، وجيوم كوستو، الذي ما زالت "خيل مارلي" التي نحتها تثب في الهواء بميدان الكونكورد.

صفحة رقم : 10585

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الملك والفنون -> النحت

وفضلاً عن هؤلاء المثاليين جميعاً، وعلى مبعده منهم، وفي تحدٍ لمثالية النحت الرسمي الناعمة، أنطق بيير بوجيه إزميله بغضب فرنسا وبؤسها. وقد ولد في مارسيليا (1622) وبدأ حياته الفنية حفاً في الخشب، ولكن نفسه تاقته كما تاقته نفس معبوده ميكل أنجيلو من قبل لأن يصبح في وقت واحد مصوراً ومثالاً ومعمارياً. وقد أحس أن الفنان العظيم ينبغي أن يسيطر على هذه الفنون جميعاً. وإذا كان يحلم بأفذاذ الفنانين الإيطاليين فقد سار من مارسيليا إلى جنوة إلى فلورنسة إلى روما. وتتلذذ في حماسة لبييترودا كورتونا في زخرفة قصر بارباريني، ونشرب كل صدى وأثر ليوناروتي، وحسد برنيني على شهرته المتعددة الجوانب. فلما عاد إلى جنوة نحت تمثال القديس سبستيان الذي أذاع اسمه لأول مرة، فلكفه فوكيه، الذي سبق لويس الرابع عشر في تبيين مواهب هذا الفنان أيضاً، بأن ينحت تمثال "هرقول (22)" لقصر فو، ولكن فوكيه سقط، فهرع بيير إلى الجنوب ليعتكف في فقره ويجتر همومه. ولما كلف بنحت مجموعة "أطلانطيس" -وهي تماثيل رخامية لأطلس، ليحمل بها شرفة "الأوتيل دفيل"، صاغ التماثيل على غرار الحمالين الكادحين في أروسة الشحن، وكان ينطق عضلاتهم المكدودة وجوهم التي شوهاها الألم بصرخة الثورة - ثورة المطحونين الذين يحملون العالم على أكتافهم. ولكن فناً كهذا ما كان ليعجب فرساي. ومع ذلك فإن كولبير الذي فتح ذراعيه للمواهب طلب إليه أن ينحت تماثيل يؤثر أن تكون ذات مسحة أسطورية بريئة. فأرسل إليه بوجيه ثلاث قطع محفوظة الآن باللوفر: نحتاً قليل الغور لطيفاً يمثل الإسكندر ودوجين، وتمثالاً فيه جهد

وإسراف لبيرسیوس وأندوميدا، وتمثالاً عنيفاً لميلوكورتونا ذلك النباتي الجبار يحاول الخلاص من فكي أسد عنيد ومخالبه.

صفحة رقم : 10586

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الملك والفنون -> النحت

وفي 1688 زار بوجيه باريس، ولكنه وجد طبعه المتكبر وإزميله الغضوب يتتافران مع ظرف البلاط وفنه، ففقل راجعاً إلى مرسيليا، وهناك صمم "الميرة" و"سوق السمك" -ولا عجب ففي فرنسا حتى سوق السمك يمكن أن يكون عملاً فنياً. ولعل أعظم تماثيله قصد به أن يكون تعليقاً على مغامرات الملك الحربية، وهو تمثال للإسكندر ركباً يبدو فيه وسيماً مشرقاً، يحمل خنجره في يده، ويدوس ضحايا الحرب (23) في غير اكتراث تحت سنابك جواده. وقد أفلت بوجيه من رسمية لبرون وفرساي، ولكنه أفلت أيضاً من انضباطهما. وأفضى به طموحه لمنافسة برميني، وحتى ميكل أنجيلو، إلى مبالغات في تصوير عضلات الجسد وتعبيرات الوجه، ومن ذلك "رأس ميدوزا" الرهيب المحفوظ باللوفر. ولكنه كان على الجملة أقوى نحات في وطنه وفي جيله.

وإذ قارب العهد العظيم نهايته، وجرت الهزائم فرنسا إلى حال من اليأس الشديد، انصرفت كبرياء الملك إلى التقوى، وأنقل الفن من غرور فرساي إلى التواضع الذي يطالعا في تمثال كواز فوكس لويس الرابع عشر ركباً في النوتردام-هنا نرى الملك وقد بلغ السابعة والسبعين، مزهواً إلى الآن بأثوابه الملكية، ولكنه يضع تاجه في تواضع عند قدمي العذراء. في هذه السنوات الأخيرة تقلص الإنفاق على فرساي ومالي، ولكن خورس النوتردام رمم وجمل. أما عبادة الفن القديم فقد فترت نتيجة لشططها؛ وبدأ الطبيعي يجور على الكلاسيكي، وقضى على دفعة الفن الوثنية إلغاء مرسوم ناننت. وتسلمت مدام دمانتون وتلييه على الملك وشدت الموضوعات الزخرفية الجديدة على الدين لا على المجد، فلقد عرف لويس ربه أخيراً.

إن تاريخ الفن إبان حكم الملك العظيم يعذبنا بأسئلة عويصة. فهل كان تأمين الفنون نعمة أو نقمة؟ وهل حول تأثير كولبير ولبرون والملك تطور

صفحة رقم : 10587

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الملك والفنون -> النحت

فرنسا من الاتجاه الأصيل والطبيعي، إلى محاكاة موهنة لفن هلنستي حل به الضعف، محاكاة شوشها إسراف باروكي في الزخرفة؟ وهل تثبت هذه السنوات الأربعون من "طراز لويس الرابع عشر" أن الفن يزداد ازدهاراً في ظل ملكية ترعاه بالثروة المركزة، وتوجه المواهب في وحدة متسقة؟ أم في ظل أرسنقراطية تصون، وتوصل، وتعديل في حذر، معايير الجودة والذوق، وأصول النظام والانضباط؟ أم في ظل ديمقراطية تفتح الطريق أمام كل موهبة وتطلق

الكفايات من ربة التقاليد، وتلزم الفن بأن يعرض إنتاجه على الشعب ويكفيه وفق رأيه؟ وهل كان ممكناً أن تغدو إيطاليا وفرنسا الوطنيين المحظوظين للفن والجمال اليوم لولا أنهما جملتا بأموال وأذواق الكنيسة والنبلاء والملوك؟ وهل كان ممكناً أن يوجد فن عظيم دون تركيز الثروة؟

إن الجواب المتواضع المفيد عن هذه الأسئلة يقتضي حكمة عالمية، وأي جواب من هذا القبيل لابد أن تجعله التفريقات والشكوك جواباً عامضاً غير حاسم. ولعل الفن فقد شيئاً في طبيعته ومبادرته ونشاطه نتيجة لما بسطته عليه القوة المركزية من حماية وتوجيه وهيمنة. صحيح أن فن لويس الرابع عشر كان فناً منظماً، أكاديمياً، جليلاً ببهائه المنسق، لا يفوقه فن في صقله الفني، ولكن السلطة عطلت قدرته على الابتكار، وقد قصر دون ذلك الالتحام بالشعب الذي أضفى الدفء والعمق على الفن القوطي. لقد كان اتساق الفنون في عهد لويس رانعاً، ولكنه كثيراً ما كان يعزف على نفس الوتر، حتى لقد أصبح في النهاية تعبيراً لا عن جيل وأمة بل عن ذات وبلاط. صحيح إن الثروة لا غنى عنها للفن، ولكن الثروة تكون عاراً، والفن يكون بغيضاً، إذا ازدهر على حساب فقر شامل واعتقاد بالخرافات مذل، فالجميل لا يمكن فصله طويلاً عن الخبر. وقد تكن الأرسقراطية حارساً وناقلاً مفيداً للعادات والمعايير والأذواق

صفحة رقم : 10588

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> الملك والفنون -> النحت

إذا تيسرت الأسباب لفتحها أمام المواهب الجديدة، ولمنعها من أن تكون أداة للامتياز الطبقي وللترف الكاذب. كذلك تستطيع الديمقراطية أن تجمع الثروة وتضفي عليها الكرامة بتغذيتها للمعرفة والأدب والبر والفن، ومشكلات الديمقراطية في معاداة الحرية غير الناضجة للنظام والانضباط، وفي نمو الذوق نمواً بطيئاً في المجتمعات الناشئة، وفي ميل الكفايات غير المحكومة لأن تبدد نفسها في تجارب شاذة تخطئ الابتكار فتحسبه عبقرية، والطرافة فتحسبها جمالاً.

على أية حال كان رأي أرسقراطيات أوروبا في صف الفن الفرنسي دون ما تردد. فأنتشر معمار القصور والنحت الكلاسيكي والأسلوب الأدبي والزخرفة الباروكية للأثاث والثياب-انتشر هذا كله من فرنسا إلى كل طبقة حاكمة تقريباً في غرب أوروبا حتى إلى إيطاليا وأسبانيا. وتطلعت قصور لندن وبروكسل وكولون ومينز ودرسدن وبرلين وكاسل وهيدلبرج وتورين ومريد إلى فرساي مثلاً تحتذيه في السلوك والفن. وكلف المعماريون الفرنسيون بتصميم القصور حتى مورافيا شرقاً، وصمم لنوتر الحقائق في وندزور وكاسل، ووفد رن وغيره من المعماريين الأجانب على باريس لينقلوا عنها الأفكار، وانبث النحاتون الفرنسيون في جميع أرجاء أوروبا، حتى أصبح لكل أمير تقريباً تمثال راكب كنتمثال ملك فرنسا. وظهرت قصص لبرون الرمزية الأسطورية في السويد، والدنمرك، وأسبانيا، وهامتن كورت. والتمس الملوك الأجانب أن يجلسوا إلى ريجو ليصورهم فإن لم يتيسر فإلى أحد تلاميذه. وأوصى حاكم سويدي بقطع من نسيج بوفيه المرسوم تخليداً انتصاراته. إن التاريخ لم يشهد منذ انتشار الثقافة اللاتينية القديمة في غرب أوروبا غزواً ثقافياً أنجز بمثل هذه السرعة وهذا الكمال.

صفحة رقم : 10589

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> المسرح الفرنسي

الفصل الرابع

موليير

1673 - 1622

1- المسرح الفرنسي

بقي الآن أن تخضع المسرحية والشعر الفرنسيان أوربا لسلطانهما. ولقد شاء هوى التاريخ أن ينصرف الأدب الفرنسي في هذا العصر إلى المسرح، وأن يشجع الكردينال ريشليو المسرحية التي ظلت الكنيسة تحرمها طويلاً، وأن يستورد الكردينال مازاران الملهاة الإيطالية إلى فرنسا، وأن يرث لويس الرابع عشر حب المسرح من هذين الكاهنين اللذين مهذا لسلطته أو حفظها. كانت المسرحية الحديثة قد بلغت الشكل الأدبي في إيطاليا برعاية باباوات النهضة الرفيعة الثقافة، وكان ليو العاشر يحضر التمثيليات دون أن يطالب بأن تكون صالحاً للعذارى. ولكن الإصلاح البروتستنتي ومجمع ترنت المترتب عليه وضعاً حاداً لهذا التساهل الكنسي. وقال بنديكت الرابع عشر إن المسرحية لم يستمر السماح بها في إيطاليا إلا درءاً لشُرور أفدح، وفي أسبانيا إلا لأنها تخدم الكنيسة. وأما في فرنسا فإن رجال الأكليروس، الذين صدمتهم الحرية الجنسية التي تمتع بها المسرح الهزلي، نددوا بالمسرح عدواً للأداب العامة. وقضت سلسلة طويلة من الأساقفة واللاهوتيين بأن الممثلين محرومون بحكم طبيعة الحالة، أي بحكم مهنتهم ذاتها، وأنكر عليهم قساوسة باريس، الذين عبر عنهم صوت بوسويه الأمر، حق تناول الأسرار أو الدفن في أرض مكرسة إلا إذا تابوا وأقلعوا عن مهنتهم. وإذ حرّموا من مراسم

صفحة رقم : 10590

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> المسرح الفرنسي

سر الزواج يقوم بها الكاهن، فقد كان عليهم أن يقنعوا بزيجات عرفية بالغة القلق وعدم الاستقرار، كذلك رسم القانون الفرنسي الممثلين وأقصادهم عن كل وظيفة شريفة، وحظر على القضاة حضور الحفلات التمثيلية. ومن ملامح التاريخ الحديث البارزة أن المسرح استطاع التغلب على هذه المقاومة. ذلك أن المطلب الشعبي للتظاهر والادعاء تخففاً وثأراً من الواقع أنجب العدد العديد من الهزليات والملاهي، وكان للألام التي فرضها على الرجال الاقتصر على زوجة واحدة الفضل في إقبال جمهور سخي العطاء على مسرحيات الحب الحلال أو الحرام. ويلوح أن ريشليو وافق ليو العاشر على أن أيسر سبيل للهيمنة على المسرح هو رعاية أفضل المسرحيات لا رفضها كلها، وبهذه الطريقة قد يتيح القدوة للذوق العام، والعيش للفرق المسرحية المهذبة. وليلاحظ القارئ تقرير فولتير الآتي: "منذ أدخل الكردينال ريشليو الأداء المنتظم للتمثيلات في البلاط، الأمر الذي جعل باريس الآن منافسة لأثينا، لم يقتصر الأمر على تخصيص مقعد يجلس عليه رجال الأكاديمية التي تضم نقرأ من القساوسة، بل خصص مقعداً آخر للأساقفة(1)". وفي 1641، ربما بناء على طلب الكردينال، بسط لويس الثالث عشر رعايته على فريق من الممثلين عرفوا بعدها بالفرقة الملكية أو الكوميديين الملكيين، وأجرى عليهم معاشاً قدره ألف جنيه في العام، وأصدر مرسوماً يعترف بالمسرح لوناً مباحاً من ألوان الترفيه، وأعرب عن رغبته الملك في ألا تعتبر مهنة الممثل بعدها ضارة بمركزه في المجتمع(2). وأقامت الفرقة مسرحها في "الأوتيل دبورجون" وحظيت برعاية لويس الرابع عشر الرسمية، واحتفظت طوال حكمه بتفوقها في إخراج المآسي. ورغبة في رفع مستوى الملهاة الفرنسية، دعا مازاران نقرأ من الممثلين الإيطاليين إلى باريس، ومنهم تيبيريو فيوريللي، الذي أصبح أثيراً لدى جارييس والبلاط بأدائه دور المهرج الفشار "سكاراموتشا". ولعله هو

صفحة رقم : 10591

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> المسرح الفرنسي

وزملاؤه شاركوا في بعث حمى المسرح في أوصال جان بوكلان الرابع، وفي تعليمه فنون المسرح الهزلي(3). فلما عاد "سكاراموش" إلى إيطاليا (1659) أصبح جان بوكلان، الذي عرفه المسرح والعالم باسم موليير، الممثل الهزلي الأول للملك، وعدها بقليل في رأي بوالو المولع به-أكبر كتاب العصر.

صفحة رقم : 10592

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> تلمذته

2- تلمذته

على المبنى رقم 96 بشارع سانت- أونوريه كتابه بحروف من ذهب هذا نصها:-
شيد هذا البيت فوق موضع البيت الذي ولد فيه موليير

في 15 يناير، 1622
وكان البيت بيت جان باتست بوكلان الثالث-منجد الأثاث والمزخرف. وكنت زوجة ماري كريسيه قد أتته بمهر قدره 2.200 جنيه، وأنجبت له ستة أطفال، ثم ماتت بعد زواجهم بعشر سنوات، ولم يكن طفلها الأول- جان باتست بوكلان الرابع- يتذكرها في وضوح، ولم يذكرها قط في تمثلياته. وتزوج الأب ثانية (1633) ولكن زوجة الأب ماتت في 1637، فكان على الأب أن يحمل عبء عبقرية ولده، ويوجه تعليمه، ويفكر في تشكيل مجرى حياته. وفي 1631 أصبح جان بوكلان الثالث "المشرف على تجديد أثاث حجرة الملك" ومنح امتياز إعداد السرير الملكي والسكني في البيت الملكي، لقاء راتب سنوي قدره ثلاثمائة جنيه، وهو مبلغ متواضع، ولكنه لم يلزم الحضور في أي عام أكثر من ثلاثة أشهر. وكان الأب قد اشترى الوظيفة من أخيه، وأراد أن يورثها ابنه. وفي 1637 أقر لويس

صفحة رقم : 10593

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> تلمذته

الرابع عشر حق جان بوكلان الرابع في وراثته الوظيفة؛ ولو أن تطلعات الأب تحققت لعرف التاريخ موليير-إن عرفه إطلاقاً- بأنه الرجل الذي كان يعد سرير الملك. على أن جداً للصبي أولع بالمسرح، فكان يصطحبه إلى حفلات التمثيل بي الحين والحين.
وأعداداً لجان الرابع لتهيئة سرير الملك، أرسل إلى كلية اليسوعيين في كليرمون، وكانت الأم الحانية على المهترطين. وهناك تعلم الكثير من اللاتينية، وقرأ تيرنس وأفاد منه، ولا شك أنه اهتم، وربما شارك، في المسرحيات التي عرضها اليسوعيون أداة لتعليم تلاميذهم اللاتينية والأدب والكلام ويقول فولتير إن جان تلقى كذلك تعليماً عن الفيلسوف جاسندي الذي كان قد عين معلماً خاصاً لزميل في فصل جان. على أية حال تعلم جان الكثير عن أبيقور، وترجم شطراً كبيراً من ملحمة لوكرينتيوس الأبيقورية De Rerum Natura (وبعض سطور مسرحيته "مبغض الشر(4)". تكاد تكون ترجمة لفقرة في لوكرينتيوس(5)). والراجح أن جان فقد إيمانه قبل أن يختتم صباه(6).
وبعد أن قضى خمس سنين في الكلية درس القانون، ويبدو أنه مارسه حقبة قصيرة في المحاكم. ثم أخذ مهنة أبيه بضعة أشهر (1642). وفي ذلك العام التقى بمادلين بيجار، وكانت وقتها سيدة مرحة في الرابعة والعشرين. وقبل ذلك بخمس سنين كانت خليفة للكونت دمودين، الذي اعترف في سماحة بالطفل الذي ولدته له، وأذن لابنه في أن يقف عراباً له عند عماده. وفتنت مادلين جان- وكان قد بلغ العشرين- وسحرته بجمالها وطبعها البشوش اللطيف. وأغلب الظن أنها قبلته عشيقاً وقد حمله عشقها للمسرح، مع عوامل أخرى، على اتخاذ قرار بأن يولي لتجديد الأثاث ظهره، وأن ينزل عن حقه في أن يخلف أباه مشرفاً على تجديد حجرة الملك لقاء 630 جنيهاً، وأن يلقي بنفسه في خضم التمثيل (1643). وذهب ليقيم في بيت مادلين

صفحة رقم : 10594

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> تلمذته

بيجار (7). ثم دخل معها ومع أخويها وآخرين في تعاقد رسمي أنشئوا بمقتضاه "المسرح الشهير" (30 يونية 1643). ويعتبر الكوميدي فرانسيز ذلك العقد بداية لتاريخه الطويل الممتاز. وأتخذ جان الآن اسماً مسرحياً جرياً على عادة الممثلين، فأصبح يسمى موليير.

واستأجرت الفرقة الجديدة ملعباً للتمثيل مسرحاً لها، وقدمت مختلف التمثيليات، ثم أفلست؛ وفي 1645 قبض على موليير ثلاث مرات بسبب الدين ودفع أبوه عنه ديونه وحصل على أمر بالإفراج عنه معللاً نفسه بأن الفتى قد برئ من حمى المسرح. ولكن موليير أعاد تأليف "المسرح الشهير" وأنطلق في جولة بالأقاليم. ومنح الدوق ديبيرونون حاكم جبين الفرقة تأييده. وانتقلت الفرقة في سلسلة مضمينة من النجاح والفشل بين ناربون، وتولوز، وألبي، وكاركاسون، ونانت، وآجن، وجرينوبل، وليون، ومونبلييه، وبوردو، وبيزيبه، وديجون، وأفنيون، وروان. وارتقى موليير حتى أصبح مديراً لها (1650)، ووفق بعشرات الحيل في أن يحفظ للفرقة قدرتها على إيفاء ديونها ويكفل لها طعامها. وفي 1653 أعار الأمير ديكونتي، زميله المدرسي القديم، اسمه للفرقة وقدم لها المعونة، ربما لإعجاب سكرتيره بالممثلة الأنسة دوبارك. ولكن الأمير أصابته نوبة شلل ديني في 1655، فأخبر الفرقة بأن ضميره يمنعه من الاتصال بالمسرح، وما لبث بعد ذلك أن ندد علانية بالمسرح، وبوليير بصفة خاصة، مفسداً للشباب وعوداً للفضيلة المسيحية. ووسط هذه التقلبات نهضت الفرقة شيئاً فشيئاً بكفايتها ودخلها وذخيرتها من المسرحيات. وتعلم موليير فن المسرح وحيله. فما وافى عام 1655 حتى كان يكتب التمثيليات كما يمثلها. وفي 1658 أنس في نفسه من القوة ما يكفي لتحدي فرقتين احتلتا المسرح الباريسي، فرقة ممثلي الملك في الأوتيل دبورجون، وفرقة خاصة تمثل في مسرح ماريه. وحضر هو ومادلين بيجار

صفحة رقم : 10595

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> تلمذته

من روان إلى باريس ليمهدا الطريق أمام فرقتهما. وزاره أباه، وظفر بعفو عن ذنوبه ومهنته. ثم أُنْعِمَ فيليب الأول دوق أورليان بأن يبسط حمايته على الفرقة وأن يحصل لها على إذن بإقامة حفلة تمثيلية بالبلاط.

وفي أكتوبر 1658 مثلت "فرقة المسبو" هذه أمام الملك في قاعة الحرس باللوفر مأساة كورني "نيكوميد"، ومثل موليير الدور الرئيسي دون توفيق كبير، لأنه كما يقول فولتير كان يعاني "من ضرب من الفواق لا يلائم البيت الأدوار الجادة، ولكنه يعين على جعل تمثيله في الملهاة أكثر إمتاعاً" (8). وقد أُنْعِمَ الحفلة بأن أتبع المأساة بملهاة فقدت الآن معالمها، ومثل بحيوية ومرح، وحاجب مرفوع وفم مثرثر جعل الجمهور يتساعل لم يمثل المأساة إطلاقاً. وكان الملك من الصبا ما جعله يستمتع بهذا الهزل، ومن الرجولة ما جعله يقدر شجاعة موليير. فأصدر تعليماته بأن تشارك فرقة المسبو فرقة سكاراموش الإيطالية في قاعة البتي بوريون، وهناك أيضاً أخفق الممثلون الوافدون حين حاولوا تمثيل المأسى التي قصروا في أدائها دون ممثلي الملك في الأوتيل دبورجون، ووقفوا في التمثيليات الهزلية، لا سيما التي ألفها موليير. ومع ذلك واصلوا إخراج المأسى. ذلك أن كبار الممثلات كن يشعرون بأنهن يتألفن أكثر في الدراما الجادة، ولم يكن موليير نفسه راضياً قط بأن يكون كوميدياً، لأن صراعات الحياة وسخافات أورتته مسحة من الحزن، وقد وجده أمراً فاجعاً له أن يكون على الدوام مضحكاً. يضاف إلى هذا أنه سئم هزليات المكائد الغرامية والشخصيات

المبتذلة وكباش الفداء المألوفة؛ وأكثرها أصداء لإيطاليا. وتلفت حوله في باريس فرأى فيها أشياء لا تقل إضحاكاً عن بوليشينيل وسكاراموش. وروي عنه قوله "لم يعد بي حاجة إلى اتخاذ بلوتس وتيرنس أساتذة لفني أو إلى السطو على مياناندر. فما علي إلا أن أدرس هذه الدنيا" (9).

صفحة رقم : 10596

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> موليير ونساء المجتمع

3- موليير ونساء المجتمع

مثال ذلك "الأوتيل دراموييه" حيث كان الرجال والنساء يمجدون الآداب الرقيقة والحديث المعطر. فكتب موليير تمثيلية "المتحذقات المضحكات". وكان إخراجها (18 نوفمبر 1659) فاتحة ملهاة العادات الفرنسية وبداية لحظ موليير وشهرته. وكانت الملهاة من القصر بحيث لم يستغرق تمثيلها أكثر من ساعة، وفيها من الحدة ما خلف لذعة طويلة الإيلام. استمع إلى ابنتي العم، مادلون وكاتوس، اللتين تلهما سبعة أقتعة من التظرف، تحتجان على تلهف الكبار، الواقعيين، المفلسين، على تزويجهما.

جرجيوس: أي عيب تريان فيها؟

مادلون: يالها من كياسة رائعة منهما حقاً! أنبدأ فوراً بالزواج!... لو كلن الناس جميعاً مثلك لقضي للتو على الرومانس... إن الزواج ينبغي ألا يتم أبداً إلا بعد مغامرات أخرى. فعلى العاشق إن أراد قبولاً أن يفهم كيف يعبر عن العواطف المهذبة، وكيف يتأوه بالحديث الناعم، الرقيق، المشبوب، ويجب أن يكون حديثه مطابقاً للقواعد. فعليه بادئ ذي بدء أن يرى في الكنيسة أو في الحديقة أة في حفل عام تلك التي يشغف بها حباً، وإلا زجب تقديمه إليها التقديم المحتوم بواسطة قريب أو صديق، ثم عليه أن ينصرف عنها مكتئباً متأملاً. ثم يخفي عاطفته حيناً عن موضع حبه، ولكنه يزورها مرات، لا يعدم فيها طرح بعض الحديث عن مغازلة النساء على البساط تدريجياً لعقول الجماعة كلها... ثم يأتي اليوم الذي يبوح فيه بحبه، وينبغي أن يتم هذا عادة في ممشى حديقة بينما الجماعة على بعد منهما. وهذا التصريح نقابله عادة بالاستياء، الذي يبدو في احمرار وجوهنا، والذي يقصي العاشق عنا زمناً، ثم يجد الوسيلة لمصلحتنا بعد حين، ولتعويدنا أن نسمع حديث غرامه دون أن نتألم، واستلال ذلك الاعتراف الذي يسبب لنا حرجاً شديداً.

صفحة رقم : 10597

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> موليير ونساء المجتمع

ثم تتلوا ذلك المغامرات: المزامون الذين يحبون ميلاً رسخ، واضطهادات الآباء، والغيرة المنبعثة من المظاهر الكاذبة، والشكاوى، واليأس، والهروب مع الحبيب، وما يسفر عنه من عواقب. هكذا ينبغي أن تجري الأمور بأسلوب جميل، وتلك القواعد التي لا غنى عنها للتودد المهذب الأنيق. أما الاندفاع رأساً إلى الرباط الزوجي، وأما عدم مطارحة الغرام إلا بعقد الزواج، والإمسك بالمغامرة الرومانسية من ذيلها-فمرة أخرى أقول لك يا أبي العزيز إنه ما من شيء أكثر ألية من تصرف كهذا، ومجرد التفكير فيه يشعرني بالغثيان. كاتوس: أما أنا يا عماء فكل ما أستطيع أن أقوله هو إنني أرى الزواج شيئاً مروعاً جداً. فكيف أطبق فكرة الرقاد مع رجل عريان حقاً(10)؟

ويستعير خادما الخطيبين ملابس سيديهما ويتكران كمركيز وجرال، ويتوددان إلى السيدتين بكل ما يصاحب التودد من نظرف ومزاح. ويفاجئهما السيدان، ويجردانهما من ملابسهما المزيفة، ويتركان الشابتين أمام الحقيقة العارية تقريباً. وفي هذه الملهاة، كما في جميع ملاهي موليير الجنسية، عبارات نابية وبعض المزاح الرخيص، ولكن فيها هجواً لاذعاً للحماقات الاجتماعية، بلغ من حدته أن تأثيره أصبح حدثاً في تاريخ عادات المجتمع. وقد نسبت رواية غير مؤكدة لامرأة من النظارة أنها وقفت وسط الجمهور وصاحت "تشجع! تشجع! هذه ملهاة حسنة يا موليير" (11) وروى أن أحداً من رواد صالون مدام درامبويه قال بعد خروجه من التمثيلية "بالأمس أعجبنا بكل السخافات التي نقدت نقداً رقيقاً معقولاً جداً؛ ولكن علينا الآن-كما قال القديس ريمي لكلوفيس-أن نحرق ما عبدنا، ونعبد ما أحرقتنا(12)". وقابلت المركيزة درامبويه الهجوم بعقريه، إذ اتفقت مع موليير على إحياء حفلة يخصص إيرادها لصالونها، وقد رد على مجاملتها بمقدمة زعم فيها أنه لم يهجُ صالونها بل مقلديه. على أية

صفحة رقم : 10598

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> موليير ونساء المجتمع

حال انتهى ملك "المتحذقات". وقد أشار بوالو في هجائيته العاشرة إلى تلك "العقول الجميلة التي كانت بالأمس ذائعة الصيت، والتي فرغها موليير بضربة واحدة من فنه".

وقد نجحت المسرحية نجاحاً ضوعف معه أجر مشاهدتها عقب حفلة الافتتاح. وقد مثلت في عامها الأول أربعاً وأربعين مرة، وأمر الملك بإحياء ثلاث حفلات للبلاط، حضرها جميعاً، ونفح الفرقة بثلاثة آلاف جنيه. وما وافى فبراير 1660 حتى كانت الفرقة الشاكرة قد دفعت 999 جنيهاً جعالة للمؤلف. ولكنه كان قد ارتكب غلطة إذ ضمن المسرحية إشارة هجا بها ممثلي المسرح الملكي "فما من إنسان قادر على أن يشهر شيئاً إلا هم، أما غيرهم فقوم جهلاء يمثلون أدوارهم كأنهم يتحدثون. هؤلاء لا يفقهون كيف يجعلون أبيات الشعر تجلجل، أو كيف يقفون عند فقرة جميلة. فكيف تعرف الأبيات الرائعة إذا لم يقف الممثل عندها ويخبرك بهذه الطريقة أن تصفق استحساناً(13)؟". وأعربت فرقة الأوتيل دبوربون عن احتقارها للسافر لموليير لعجزه عم إخراج المأساة، ولقدرته على الملهاة الرخيصة دون غيرها. وعزز موليير حججهم بتأليفه وعرضه مسلاة "فارص" متوسطة الجودة سماها "الديوث بالوهم" ولو أن الملك سر بأن يشهدها تسع مرات.

وكانت التغييرات تجري خلال ذلك في مبنى اللوفر القديم، فهدمت صالة البتي بوريون في استهتار، ولاح حيناً أن "فرقة المسيو" التي يرأسها موليير لن تجد لها مسرحاً. ولكن الملك العطوف دائماً بادر إلى إنقاذه بأن خصص له في الباليه-روبال "الصالة" التي خصصها ريشليو لعرض التمثيليات. وهناك ظلت فرقة موليير حتى مماته وكأنها جزء من جسم البلاط. وكان أول عرض له في هذا المأوى الجديد آخر محاولاته في المأساة، وهي "دون جراسي". وكان رأيهم فيه بعض العذر-

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> موليير ونساء المجتمع

أن أسلوب المأساة الخطابي الفخم كما طوره كورنبي، ومثلته فرقة الأوتيل ديورجون، أسلوب غير طبيعي، وكان يتطلع إلى أسلوب أبسط وأكثر طبيعية. ولو سمح له تسلط النزعة الكلاسيكية على المسرح (وفواقه) لجاز أن ينتج مزيجاً موفقاً من المأساة والملهة كما فعل شكسبير، فإن في أعظم ملامهه والحق يقال مسحة من المأساة. ولكن "دون جراسي" سقطت، برغم جهود الملك لدعمها بحضوره ثلاث حفلات، لقد كان قدر موليير أن يكابد المأساة لا أن يمثلها.

وعليه فقد عاد إلى الملهة. ولقيت "مدرسة الأزواج" نجاحاً طيباً خاطره إذ عرضت يوماً من 24 يونيو إلى 11 سبتمبر 1661. وقد أدنت بزواج موليير الوشيك، وكان وقتها في التاسعة والثلاثين من أرماند بيجار، ذات الثمانية عشر ربيعاً، ومشكلة المسرحية هي: كيف ينبغي أن يروض الشابة على أن تكون زوجة صالحة أمينة؟ فالشقيقان أريست وسجاناريل محظوظان لكونها الوصيين على الفتاتين اللتين ينويان الزواج منهما أما أريست، البالغ من العمر ستين عاماً، فيعامل فتاته القاصر ليونور، ذات الثمانية عشرة، بغاية اللين:

"لم أنظر إلى تجاوزاتها الصغيرة على أنها جرائم. ولقد لببت على الدوام رغباتها الشابة، ولست والله الحمد أسفاً على ذلك. فقد أدنت لها أن تخالط الأصحاب الطيبين، وتشهد الملاهي، والتمثيلات، والمراقص، فهذه أشياء أراها على الدوام صالحة لتربية عقول الشباب، وما الدنيا إلا مدرسة أحسبها تعلم طريقة العيش خيراً من أي كتاب. إنها نحب أن تتفق المال على الثياب، والقمصان، والأزياء الجديدة... وأنا أحاول أن أشبع رغباتها، فهذه لذات ينبغي أن نتيحها للشابات متى استطعنا توفيرها لهن(14)".

وأما الأخ الأصغر سجاناريل فيحتقر أريست لأنه إنسان أحمق ضلته أحدث الأوهام. وهو يأسف على زوال الفضائل القديمة وعلى انحلال الأخلاق

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> موليير ونساء المجتمع

الجديدة، وعلى وقاحة الشباب المتحرر. وهو ينوي أن يأخذ فتاته القاصر إيزابيل بنظام صارم ليرضيها على أن تكون زوجة مطبوعة:

"لا بد أن ترتدي الملابس اللائقة.. فإذا لزم بيتها كما تلزمه المرأة العاقلة انصرفت نجمعها إلى شؤون الزوجية، فترفو الثياب في ساعات فراغها أو تحبك الجوارب لتتسلى بها. ولن تخطو خطوة خارج البيت إلا إذا قام عليها رقيب... إنني لن ألبس قروناً إذا استطعت إلى ذلك سبيلاً".

وبعد دسيسة بعيدة الاحتمال (منقولة عن ملهاة أسبانية) تهرب ايزابيل مع عاشق ذكي، في حين تتزوج ليونور من أريست وتظل وفيه له إلى آخر التمثيلية.

وواضح أن موليير كان يحاور نفسه. ففي 20 فبراير 1662، وهو في الأربعين، تزوج بامرأة تصغره بنصف عمره. أضف إلى ذلك أن عروسه هذه-أرماند بيجار كانت ابنة مادلين بيجار، التي كان موليير يعاشرها قبل عشرين عاماً. وقد اتهمه خصومه بالزواج من ابنته غير الشرعية. وكتب مونفلوري، رئيس فرقة دبورجون المنافسة، إلى لويس ينييه بهذا في 1663، وكان جواب لويس أن جعل نفسه عراباً لأول طفل ولدته أرماند لموليير. أما مادلين، حين لقيها موليير، فكانت أشد احتقالاتاً بشخصها من أن تتيح لنا أي معرفة يقينية بنسب أرماند. ويبدو أن موليير لم يعتقد أنه أبو الفتاة، ولنا أن نفترض لأن معلوماته في هذه النقطة كانت أفضل قليلاً مما يمكن أن تكون عليه معلوماتنا نحن. كانت أرماند قد شبت كأنها حيوان الفرقة المدلل. وكان موليير يراها كل يوم تقريباً، وقد أحبها طفلة قبل أن يعرفها امرأة بزم طويل. وكانت الآن قد أصبحت ممثلة مكتملة النضج. أما وقد نشأت في هذا الجو فإنها لم تخلق لتكون زوجة لرجل واحد، لا سيما رجل قد أبلى روح الشباب.

صفحة رقم : 10601

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> موليير ونساء المجتمع

لقد أحببت لذات الحياة واستغرقت في معابثات فسرها الكثيرون على أنها خيانات للزوج، وعانى موليير من جراء ذلك، وكان أصدقاؤه وأعداؤه يلوكون الشائعات عنه. وبعد زواجه بعشرة أشهر حاول أن يهدئ جراحه ينقد غيرة الرجال والدفاع عن تحرر النساء. لقد حاول أن يكون أريست، ولكن أرماند لم تستطع أن تكون ليونور. ولعله أخفق في أن يكون أريست لأنه كان نافذ الصبر شأنه شأن أي مخرج مسرحي. وفي "تمثيلية فرساي المرتجلة" (أكتوبر 1663) وصفه نفسه إذ يقول لزوجته "اسكتي أيتها الزوجة، فما أنت إلا حمارة" فتجيب "شكراً لك أيها الزوج الطيب. أنظر ما صار إليه أمرنا. أن الزواج يغير الناس تغييراً عجبياً، فما كنت لتقول هذا قبل سنة ونصف (15)".

وواصل تأملاته في الغيرة والحرية في مسرحيته "مدرسة الزوجات" التي عرضت أول مرة في 16 ديسمبر 1662. ومنذ بدايتها تقريباً تراها تضرب على هذا الوتر-الزوج الديوث. فترى أرنولف الذي لعب موليير دوره هنا أيضاً طاغية من الطراز العتيق، يؤمن بأن المرأة المتحررة امرأة فاسقة، وأن السبيل الأوح لضمأن وفاء الزوجة هو ترويضها على الخدمة المتواضعة، وعلى فرض الرقابة الصارمة عليها وإغفال تعليمها. وتشب أنبيس، القاصر التي كان وصياً عليها وعروسه المستقبلية، في براءة حلوة، حتى أنها تسأل أرنولف في عبارة تردد صداها في طول فرنسا وعرضها، "أبولد الأطفال من الأذن (16)؟". ولما كان أرنولف لم يتحدث إليها بشيء عن الحب، فأنها ترحب في سرور برئ بتودد هوراس الذي يجد طريقه إليها أثناء غيبة قصيرة للوصي. فإذا عاد أرنولف قصت عليه وصفاً موضوعياً لمسلك هوراس:

أرنولف: حسناً، ولكن ماذا صنع حين انفرد بك؟
أنبيس: قال إنه يحبني حباً حاراً لا نظير له. وقال لي بألف لغة في

صفحة رقم : 10602

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> موليير ونساء المجتمع

الدنيا أشياء لا يمكن أن يعدلها شيء. وقد أبهجني لطف حديثه كلما استمعت إليه، وأثار فيّ شيئاً لا أعرفه، عاطفة سحرتني تماماً.
أرنولف: (جانباً) ياله من تحقيق معذب في سر قتال، يعاني فيه المحقق كل الألم! (بصوت عال) ولكن علاوة على هذا الحديث كله، وهذه الأساليب اللطيفة كلها، ألم يقبلك بعض القبلات أيضاً؟
أنيبس: أوه! إلى هذا الحد! لقد تناول يدي وذراعي ولم يتعب قط من تقبيلها.
أرنولف: ألم يأخذ شيئاً آخر منك يا أنيبس؟ (ملاحظاً حيرتها) ها؟
أنيبس: بلى، لقد.
أرنولف: ماذا؟
أنيبس: أخذ.
أرنولف: كيف؟
أنيبس: الـ.
أرنولف: ماذا تعنين؟
أنيبس: لا أجرؤ على إخبارك، لأنك قد تغضب مني.
أرنولف: لا.
أنيبس: نعم، ولكنك ستغضب.
أرنولف: يا للهول، لن أغضب.
أنيبس: أحلف إذن.
أرنولف: أحلف.
أنيبس: أخذ- سيثور غضبك.

صفحة رقم : 10603

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> موليير ونساء المجتمع

أرنولف: لا.
أبيبيس: نعم.
أرنولف: لا، لا، لا، بحق الشيطان ما هو هذا السر؟ ماذا أخذ منك؟
أنيبس: أنه-
أرنولف: (جانباً) إني أقاسي عذاب الجحيم.
أنيبس: أخذ الوشاح الذي أعطيتني، أصدقك القول أنني لم أستطع منعه.
أرنولف: (متمالكاً نفسه): لا بأس بالوشاح. ولكني أريد أن أعلم ألم يفعل شيئاً غير تقبيل يديك؟
أنيبس: أيفعل الناس أشياء أخرى؟

أرنولف: لا، لا... ولكني باختصار لا بد أن أخبرك أن قبول علب الجواهر والاستماع إلى القصص العاطلة يقصها هؤلاء الغنادير المتبرجون، والسماح لهم وأنت مسترخية بتقبيل يديك وفتنة قلبك بهذه الطريقة- هذا كله خطيئة مميتة، بل أقطع خطيئة يمكن أن ترتكبيها.
أنيبس: تقول خطيئة! والسبب من فضلك؟
أرنولف: السبب؟ لأنه مكتوب صراحة أن السماء تغضبها أفعال كهذه.
أنيبس: تغضبها؟ ولكن لم تغضب السماء؟ وا أسفاه؟ إنه شيء حلو لذيد، تعجبني البهجة التي أجدها فيه، ولم أعرف من قبل هذه الأشياء.
أرنولف: نعم، هناك الكثير من اللذة في هذه العواطف الرقيقة، وهذه الأحاديث اللطيفة، وهذه القبل الحارة، ولكن ينبغي تذوقها بطريقة شريفة، والزواج كليل بأن يمحو عنها الخطيئة.
أنيبس: أفلا تعد خطيئة إذا كان الإنسان متزوجاً؟

صفحة رقم : 10604

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> موليير ونساء المجتمع

أرنولف: نعم.
أنيبس: أرجوك إذن أن تتزوجني حالاً(17).
وتهرب أنيبس إلى هوراس بعد قليل طبعاً. ولكن أرنولف يقتنصها من جديد ويوشك أن يضربها حين يوهن من عزيمته حلاوة صوتها وجمال جسدها، وربما كان موليير يفكر في أرماند وهو يكتب عبارات أرنولف التالية:
"أن ذلك الحديث وتلك النظرة بجردان غضبي من سلاحه، ويعيدان إليّ الحنان الذي يمحو ذنبها كله. فما أعجب أن يحب الإنسان! وأن يكون الرجال عرضة لمثل هذا الضعف أمام هؤلاء الخائبات! فكلنا يعرف نقصهن، فما هن إلا التذير والحماقة، وذهنهن شرير وفهمهن ضعيف، وما من شيء أو هن منهن، ولا أقل ثباتاً، ولا أكذب، ومع ذلك كله فالرجل يصنع كل شيء في الدنيا من أجل هؤلاء الحيوانات(18)".
وفي النهاية تهرب منه وتتزوج هوراس. أما أرنولف فيعزيه صديقه كريسالد بفكرة أن امتناع الرجل عن الزواج هو الطريقة الأكيدة الوحيدة التي تقيه من أن يطلع له قرناً في رأسه.
وأبهجت التمثيلية جمهورها، فمثلت إحدى ثلاثين مرة في الأسابيع العشرة الأولى، وكان في الملك من الشباب ما سمح له بالاستمتاع بخلاعتها، ولكن عناصر البلاط الأشد محافظة انتقدوا الملهاة لما فيها من مجافاة للفضيلة، وكرهت السيدات فكرة الولادة من الأذن، وندد الأمير كونتي بمنظر الفصل الثاني الذي سقنا حواراً من قبل بين أرنولف وأنيبس زاعماً أنه أفصح ما عرض على خشبة المسرح. ولعن بوسويه التمثيلية برمتها، ودعا بعض القضاة إلى حظرها باعتبارها خطراً على الأخلاق والدين، وسخرت الفرقة المنافسة من ابتذال الحوار وتناقضات رسم الأشخاص وشطحات الحكمة المتعجلة. وظلت التمثيلية حيناً "حديث كل بيت في باريس(19)".

صفحة رقم : 10605

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> موليير ونساء المجتمع

وكان في موليير من حب النضال ما لا يدعه يترك هذا النقد كله دون تعليق منه. ففي تمثيلية ذات فصل واحد مثلت في الباليه رويال في أول يونيو 1663، واسمها "نقد مدرسة الزوجات" عرض لنا لقاء بين نقاده وتركهم يعربون بعنف عن اعتراضاتهم، ولم يكذب عليها إلا بأن يدع النقد يضعف ذاته بمبالغته، وأن يجزيه على السنة شخصيات مثيرة للسخرية. وواصل الأوتيل دبورجون "الحرب الكوميديّة" بإخراجه هزلية قصيرة سماها "الناقد المعارض"، وهجا موليير الفرقة الملكية في "تمثيلية فرساي المرتجلة" (17 أكتوبر 1663). وساند الملك موليير في وفاء، ودعا إلى العشاء (20)، ومنحه الآن معاشاً سنوياً قدره ألف جنيه، لا بوصفه "ممثلاً كوميدياً" بل "شاعراً فذاً (21)". كذلك نصر الزمن موليير، فمدرسة الزوجات تعتبر اليوم أول ملهاة عظيمة في المسرح الفرنسي.

صفحة رقم : 10606

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> غرام طرطوف

4- غرام طوطوف

ولكن موليير دفع ثمن حظوته لدى الملك. فلقد أحب لويس ظرفه وشجاعته، فجعله من كبار المنظمين للملاهي في فرساي وسان-جرمان. وقد ملأ أحد هذه المهرجانات المسمى "مباهج الجزيرة المسحورة" أسبوعاً (7-13 مايو 1664) بالألعاب السيف والولائم والموسيقى والباليه والرقص والدراما-وكلها أقيم في حديقة فرساي وقصره تحت أضواء المشاعل والشمعدانات التي تحمل أربعة آلاف شمعة. وكوفئ موليير على جهوده في هذا المهرجان بستة آلاف جنيه. وقد أسف بعض الأدباء لإسراف الملك في استغلال عبقرية موليير لكي يوفر هذا اللهو الخفيف في البلاط، وتصوروا تلك الروائع التي كان من الجائز أن يكتمل نضجها لو أن الشاعر الكامن في الكوميدي أتيح له مزيد من الوقت للتفكير والكتابة. غير أنه كان واقعاً تحت ضغط من فرقته أيضاً، وما كانت شواغله ومسئوليّاته

صفحة رقم : 10607

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> غرام طرطوف

مديراً للفرقة وممثلاً بها لتسمح له على أية حال بالاعتكاف في أي برج عاجي. وما أكثر المؤلفين الذين يكتبون تحت ضغط ملح خيراً مما يكتبون في الفراغ، فالفراغ يرخي الذهن، والإلحاد يشحذه. ولقد أخرج موليير أعظم تمثيلياته أول مرة في 12 مايو 1664، في قمة "مباهج الجزيرة المسحورة"، وكانت جزءاً من المهرجان. في هذا العرض الأول لم تكن "طرطوف" بالتمثيلية المناسبة تماماً للمهرجان، لأنها فضحت في غير رحمة ذلك النفاق الذي يتخفى خلف رداء من التقوى والفضيلة. وكانت جماعة دينية من الأخوة العلمانيين تدعى "جمعية السر المقدس"، وعرفت فيما بعد بـ"عصبة الورعين" قد قطعت العهود على أعضائها بأن يعملوا على حظر التمثيلية. أما الملك الذي كانت علاقته الغرامية بلفالير قد أثارت كثيراً من نقد هؤلاء الورعين، فقد كان مزاجه يدعو للتلاقق مع موليير، ولكنه بعد أن شاهد الملهاة في عرضها الخاص بفرساي أوقف الأذن بعرضها على نظارة باريس في الباليه-روبال. وطيب خاطر موليير بدعوته ليقرأ "طرطوف" في فوننتبلو على نخبة مختارة تضم ممثلاً للبابا لم يذكر التاريخ أنه اعترض عليها (21 يوليو 1664). في ذلك الشهر مثلت المسرحية في بيت دوق أورليان ودوقتها (هنرييتا أن)، في حضرة الملكة، والملكة الأم، والملك. وبينما كان يجري التمهيد لعرضها على الجماهير أذاع كاهن سان-برتلمي، بيير روليه، في أغسطس ثناء على الملك لحظره التمثيلية، واغتنم هذه الفرصة ليرمي موليير بأنه "رجل، بل شيطان متجسد في ثوب رجل، وأشتهر مخلوق فاسق منحل عاش إلى الآن". ثم قال الأب روليه إن جزء موليير على تأليف طرطوف "أن يحرق على الخازوق ليزوق من الآن نار الجحيم (22)". ووبخ الملك روليه، ولكنه ظل يحبس الإذن بعرض طرطوف علناً. ولكي يظهر حقيقة موقفه رفع معاش موليير السنوي إلى ستة آلاف جنيه، وتلقى

صفحة رقم : 10608

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> غرام طرطوف

عن "المسيو" حماية فرقة موليير، فأصبحت منذ الآن "فرقة الملك". وظل الجدل مضطرباً تحت الرماد عامين. ثم قرأ موليير على الملك نسخة منقحة من التمثيلية، أضاف إليها سطوراً تذكر أن الهجاء موجهاً ضد الإيمان الصادق بل ضد الرياء. وأيدت مدام هنرييتا التماس المؤلف الإذن بعرض المسرحية. ووافق لويس موافقة شفوية، وبينما كان منطلقاً إلى الحربي فلاندر عرضت طرطوف لأول مرة على مسرح الباليه-روبال في 5 أغسطس 1667 بعد مرور ثلاث سنين على أول عرض لها في البلاط. وفي الغد أمر رئيس باريس، وكان ينتمي لجماعة السر المقدس، بغلق المسرح وتمزيق كل لافتاته. وفي 11 أغسطس حظر رئيس أساقفة باريس قراءة الملهاة أو سماعها أو تمثيلها سراً أو علانية، وإلا كان الحرمان جزاء المخالف. وأعلن موليير أنه سيعتزل المسرح إذا استمر انتصار "الطرايطيف" هذا. أم الملك الذي عاد إلى باريس فقد أمر الكاتب المسرحي الغاضب بأن يتنذر بالصبر، ففعل، وأثيب في النهاية برفع الحظر الملكي. وفي 5 فبراير 1669 بدأت التمثيلية فترة عرض ناجحة اتصلت ثمانية وعشرين مرة. وبلغ من كثرة الراغبين في دخول المسرح وتهافتهم عليه في أول حفلة علنية أن الكثيرين كادوا يختنقون. لقد كانت "أشهر مسرحية" في حياة موليير المسرحية. وقد حظيت دون جميع الدرامات الكلاسيكية الفرنسية بأكثر عدد من العروض-بلغت 2.657 (حتى سنة 1960) في مسرح الكوميدي-فرانسيز وحده.

ولكن إلى أي حد تغل محتويات التمثيلية تأجيلها الطويل، وشعبيتها المتصلة؟ أنها تغل التأجيل بهجومها الصريح على التظاهر بالتقوى؛ وتغل الشعبية بقوة هجائها وبراعته. وكل ما في ذلك الهجاء مبالغ فيه بالطبع. فقلما يكون الرياء مستهتراً كاملاً في طرطوف، وقلما يكون الغباء مفرطاً كما كان في أرجون، ليس هناك خادمة نجحت في وقاحتها كما نجحت

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> غرام طرطوف

دورين. وحل عقدة التمثيلية لا يصدق، كما هي الحال عند موليير دائماً تقريباً، ولكن هذا لم يقلقه، فبعد أن يقدم صورته واتهامه للنفاق، تكفي أي حيلة مسرحية كتدخل الإله أو الملك لحل العقدة بانتصار الفضيلة وعقاب الرذيلة. وأغلب الظن أن الهجاء قصد به جماعة السر المقدس الذين أخذ أعضاؤه على عاتقهم أن يوجهوا ضمائر الناس، حتى ولو كانوا علمانيين، ويبلغوا الخطايا السرية للسلطات العامة ويتدخلوا في شؤون العائلات لزيادة الولاء والإخلاص للدين. وقد أشارت التمثيلية مرتين إلى "عصبة" (في السطرين 397 و1705)، وواضح أن هذا تلميح إلى عصبة الورعين. وعقب العرض الأول للتمثيلية حلت جماعة السر المقدس.

أما أورجون، البرجوازي الغني، فيرى طرطوف لأول مرة في الكنيسة فينبره لمرأه. "آه لو رأيتك... إذا لأحبيته كما أحبه... كان يأتي كل يوم إلى الكنيسة هادئ الهيئة ثم يركع بجوارى. وقد لفت أنظار المصلين جميعاً بحرارة الابتهالات التي رفعها إلى السماء. كان يتأوه ويئن أنيناً شديداً، وفي كل لحظة يقبل الأرض في تذلل. فإذا شرعت في الخروج تقدمني ليقدم إليّ الماء المقدس عند الباب. وإذا أدركت رقة حاله.. كنت أهديه الهدايا، ولكنه كان على السوام يعرض أن يرد إليّ بعضها.. وأخيراً حفزتني السماء على أن أخذه إلى بيتي، وبدالي منذ تلك اللحظة أن كل شيء يزكو. وأنا أراه يلوم دون تفرقة بين الناس، وألحظ أنه، حتى فيما يتصل بزوجتي، شديد الحرص على عرضي. فهو ينبئنني عن يرمقها بنظرات الهيام(23)".

ولكن طرطوف لا يروع زوجة أورجون وأبناءه كما راعه. ذلك أن شهيته الطيبة، وولعه بأطياب الطعام، وكرشه المكور، ووجهه المتورد

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> غرام طرطوف

كل أولئك يذهب في نظرهم بأثر عظاتهم. ويرجو كليانت زوج أخته أورجون أن يميز بين الرياء والدين: "كما أنني لا أعرف في الحياة خلقاً أعظم ولا أجل من التقوى الصادقة، ولا شيء أنبل ولا أجمل من حرارة الورع المخلص، فإنني لا أرى شيئاً أشد نكراً من طلاء الغيرة الزائفة، ومن هؤلاء الدجالين، هؤلاء الأتقياء مظهر... الذين يتجرون بالتقوى، ويريدون أن يشترروا أسباب التكريم وحسن الأحودثة برفع العيون إلى السماء في رياء، وبانتشاءات القداسة المفتعلة".

ولكن أورجون يمضي في تصديق مزاعم طرطوف، ويخضع لإرشاده، ويطلب له المعونة من الله إذا تشجأ، ويقترح تزويجه من ابنته ماريان التي تؤثر عليه فالليير في عنف، أما بطلة التمثيلية الحقيقية فهي دورين، خادمة ماريان، التي تبدو كما في كل الملاهي الكلاسيكية-أنها تثبت أن العناية الإلهية وزعت العبقرية توزيعاً يتناسب تناسباً عكسياً مع المال. وما أبهج استقبالها لطرطوف عند دخوله المسرح أول مرة:

طرطوف: (يكلم خدمه بصوت عال حين يرى دورين). يالورنس، أقفل على وشاحي الوبري وصوتي، والتمس من السماء أن تتبرك بالنعمة دائماً. وإذا جاء أحد لزيارتي فقل إنني ذهبت إلى السجون لأوزع صدقاتي.
دورين: (جانباً) أي تصنع وأي لؤم!
طرطوف: ماذا تريدان؟
دورين: أن أقول لك-
طرطوف: (وهو يسحب منديلاً من جيبه) أوه. يا للهول. أرجوك أن تأخذي هذا المنديل مني قبل أن تتكلمي.

صفحة رقم : 10611

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> غرام طرطوف

دورين: ولم؟
طرطوف: غطي ذلك الصدر الذي لا أطيق رؤيته. مثل هذه الأشياء تؤذي النفس وتخري بالأفكار الآثمة.
دورين: ادنُ فأنت تذوب ذوباناً أمام التجربة، ومنظر الجسد يؤثر في حواسك تأثيراً شديداً؟ الحق أنني لا أعرف أي حرارة تلهبك، ولكنني عن نفسي لست عرضة مثلك لهذا التلهف على الجسد. ففي وسعي الآن أن أراك عارياً تماماً من رأسك إلى قدمك، دون أن يغريني جلدك هذا كله أي إغراء(24).
والمناظر التالي لب الملهة. ترى فيه طرطوف يطرح زوجة أوجون-إلمير-الغرام، ويستعمل لغة التقى في توسلاته. وينبأ أوجون بخيانته، ولكن يأبى أن يصدق، وإظهاراً لثقته بطرطوف ينزل له عن أملاكه كلها. ويستسلم طرطوف لقبولها قائلاً "لنكن مشيئة السماء في كل شيء(25)" وتحل إلمير الموقف إذ تحبب زوجها تحت مائدة، وترسل في طلب طرطوف، وتلوح له ببارقة تشجيع، ثم توقعه في محاولات للاستطلاع الغرامي. وتنتظر بالرضى، ولكنها تزعم أنها تحس وخزات الضمير، فيتناول طرطوف هذا الزعم بفتوى الخبير، وواضح أن موليير قرأ من قبل رسائل بسكال الريفية واستطابها:
"طرطوف: إذا لم يكن غير السماء عقبة في طريق رغباتي، فما أيسر أن أزيح هذه العقبة صحيح أن السماء تنهى عن لذات معينة، ولكن هناك طرق لتسوية تلك الأمور. فشد أوتار الضمير وفق مقتضيات الحال، وتصحيح فساد الفعل بطهارة النية ذلك علم أي علم(26)".
ويظهر أوجون من مخبئه، ويأمر طرطوف غاضباً بأن يخرج من بيته، ولكن طرطوف يبين له أن البيت أصبح ملكاً له بحكم العقد الذي وقعه أوجون مؤخراً. ويقطع موليير هذه العقدة، دون كبير براعة، بأن يجعل

صفحة رقم : 10612

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> غرام طرطوف

عمال الملك يكتشفون في اللحظة المناسبة أن ظروف مجرم تبحث عنه العدالة منذ زمن طويل. ويستعيد أوجون أملاكه، ويظفر فالير بمريان، وتختتم التمثيلية بنشيد شكر شجي يشيد بعدل الملك وإحسانه.

صفحة رقم : 10613

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> الملحد العاشق

5- الملحد العاشق

ولكن إحسان الملك لا بد قد أرهقته تمثيلية موليير الجريئة التالية. ففي ذروة الحرب المحتممة حول "طرطروف"، وبينما كانت جماعة الورعين لا يزالون منتصرين في أمر حظر التمثيلية، وعرض موليير في الباليه-رويال (15 فبراير 1665) مسرحية "وليمة التمثال الحجري" التي قص فيها بنثر يطفر مرحاً قصة دون جوان القديمة المكررة، وجعل فيها ذلك الزير المستهتر ملحداً مغروراً. وقد أخذ شكلها الظاهر عن تيرسودي مولينا وغيرهم، ولكنه ملاًها بدراسة رائعة لرجل يلتذ الشر لذاته وتحدياً لله. والمسرحية صدى مدهش لذلك الجدل الكبير الذي تورط فيه الدين مع الفلسفة.

ودون جوان تينوريو مركزيز يسلم بالتزاماته قبل طبقتة، ولكنه فيما عدا ذلك يريد أن يستمتع بما يشتهي من لذات. ويحصي تابعه سجاناريل عدد النساء اللاتي أغواهن مولاه ثم هجرهن فيجدهن 1.003. يقول جوان "إن الوفاء صفة لا تصلح إلا للحمقى.. فليس في وسعي أن أحرم قلبي من أي مخلوقة جميلة أراها(27)" ومثل هذا الخلق يتوق إلى لاهوت يلائمه، ومن ثم يصبح جوان ملحداً ابتغاء راحته. ويحاول خادمه أن يناقش الأمر معه:

سجاناريل: أممكن أنك لا تؤمن بالجنة؟

جوان: انس الموضوع.

سجاناريل: أي أنك لا تؤمن. وما رأيك في جهنم؟

صفحة رقم : 10614

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> الملحد العاشق

جوان: أه!

سجاناريل: كإيمانك بالجنة. وما رأيك في الشيطان من فضلك؟

جوان: نعم، نعم.

سجاناريل: قليلاً جداً كذلك. أن ألا تؤمن بحياة أخرى على الإطلاق؟

جوان: ها، ها، ها.

سجاناريل: هذا رجل سيشق عليّ هدايته. ولكن قل لي، لا بد أنك تؤمن بـ"الراهب الفظ".

جوان: تَباً للأحمق.

سجاناريل: أما هذا فلا أطيقه، لأن ليس هناك كائن وجوده مؤكد كهذا الراهب الفظ، وقاتلني الله إن لم يكن وجوده

حقيقياً. ولكن المرء يجب أن يؤمن بشيء. فبأي شيء تؤمن؟...

جوان: أؤمن بأن اثنين واثنين يساوي أربعة، وأربعة وأربعة يساوي ثمانية.

سجاناريل: يا لها من عقيدة جميلة ومواد إيمان رائعة! إذن فدينك-على قد ما أفهم-هو الحساب؟ أما أنا يا مولاي... فأفهم

جيداً أن هذا العالم ليس شيئاً كالقطر نما في ليلة واحدة. أريد أن أسألك منذا الذي صنع هذه الأشجار والصخور

والأرض والسماء من فوقنا؟ أهذا كله بنى نفسه بنفسه؟ أنظر إلى نفسك مثلاً، فما أنتذا موجود، أصنعت نفسك، وألم

يكن لزاماً أن يغشى أبوك أمك ليصنعك؟ أنتستطيع أن ترى كل المخترعات التي تتألف منها الآلة البشري دون أن

تعجب كيف يشغل الجزء منها جزءاً آخر؟ ومهما قلت، فإن هناك شيئاً معجزاً في الإنسان لم يستطيع كل المتتبعين في

العلم أن يفسروه. أليس عجبياً أن تراني هنا، وأن في رأسي

صفحة رقم : 10615

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> الملحد العاشق

شيئاً يفكر في مائة شيء مختلف في لحظة ويأمر بدني بأن يصنع ما أريد؟ أريد أن أصفق بيدي، وأرفع ذراعي، وأنظر بعيني إلى السماء، وأخفض رأسي، وأحرك قدمي، وأمشي يميناً، ويساراً، وأماماً، وخلفاً، وأدور (يقع على الأرض وهو يدور).

جوان: هذا حسن! أن لحجتك أنفاً مكسوراً (28).

وفي المشهد التالي تتخذ الخصومة بين جوان والدين صورة أخرى. فهو يلتقي بشحاذ يزعم أنه يصلي كل يوم من أجل

المحسنين إليه، فيقول جوان: "أن رجلاً يصلي كل يوم لا بد أن يكون غنياً جداً" ويجيب الشحاذ إن الأمر على العكس

من ذلك "ففي أكثر الأحيان لا أجد حتى كسرة خبز" ويعرض عليه جوان جنيهاً ذهبياً شريطة أن يجدف، ولكن الشحاذ

يرفض "إني أفضل الموت جوعاً" ويذهل جوان قليلاً لهذه الصلابة فيعطيه قطعة النقود وهو يقول "حباً في

الإنسانية (29)" ويعرف كل رواد الأوبرات نهاية القصة، إذ يصادف جوان تمثالاً للقائد الذي أغوى ابنته وأودى

بحياته. فيدعوه التمثال إلى العشاء، فيحضر، ويناوله يده، فيقوده إلى الجحيم. ويظهر الجهاز الشيطاني المعهود في

المسرح الوسيط، "فينقض الرعد والبرق بضوضاء عظيمة على دون جوان، وتقفر الأرض فاها وتبتلعها، وتتدلغ نار

هادئة من المكان الذي سقط فيه".

وقد صدم الجمهور في أول ليلة لما رأي من فضح موليير لكفر جوان. ولعل هذا الجمهور لم يكن يرى بأساً بأن يفضح

سفالة جوان وافتقاره إلى اللاهوت، وبأنه أمار اللثام عنه وحشاً لا ضمير له ولا حنو، ينشر الخداع والحزن أينما

ذهب، ولعله لاحظ أن المؤلف عرض ضحايا الوغد بكل ما فيه من عطف، ولكنه لاحظ أن الرد على الكفر جاء على

لسان أحمق يؤمن بالعاريت إيماناً أرسخ من إيمانه بالله، ولم يخفف من وقع هذا الكفر إلقاء جوان في الجحيم أخيراً،

لأن الجمهور رآه يهبط إلى الجحيم

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> الملحد العاشق

دون كلمة ندم أو خوف. وبعد العرض الأول خفف موليير من حدة أكثر الفقرات إيذاءً، ولكن هذا لم يهدئ ثائرة الرأي العام. ففي 18 إبريل 1665 نشر سيد روشمون، المحامي في البرلمان، "ملاحظات حول مسرحية لموليير" فيها وليمة التمثال الحجري بأنها "شيطانية حقاً". لم يظهر قط أفسق منها حتى في العهود الوثنية" ثم أهاب بالملك أن يحضر التمثيلية:

"فبينما يحرص هذا الملك النبيل الحرص كله على صون الدين، نرى موليير يعمل على هدمه. فليس في وسع إنسان مهما قل علمه بتعاليم الدين أن يؤكد بعد رؤية التمثيلية أن موليير أهل للمشاركة في تناول الأسرار المقدسة مادام سادراً في عرضها، أو يستحق أن تقبل توبته دون عقاب علني(30)".

ولكن لويس واصل رضاه عن موليير. ومثلت "وليمة التمثال الحجري" ثلاثة أيام كل أسبوع من 15 فبراير إلى أحد السعف. ثم سحبت، ولم تعد إلى خشبة المسرح إلا بعد موت مؤلفها بأربع سنوات، ولم تعد إلا على صورة اقتباس شعري بقلم توما كورنبي الذي حذف المشهد الفاضح الذي نقلناه. أما النسخة الأصلية فقد اختفت، ثم اكتشفت ثانية في 1813 طبعة مسروقة نشرت بأمر من الملك في 1680. وظلت نسخة كورنبي تحتكر المسرح حتى 1841، وهي لا تزال تحتل مكان الأصل في بعض طبعات أعمال موليير(31).

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> موليير في أوجه

6- موليير في أوجه

وكان موليير لم يكفه ما أثار عليه من خصوم، فراح يهاجم مهنة الطب. وكان قد صور دون جوان بأنه "فاجر في الطب" ورأى أن الطب "من أكبر كبائر الإنسانية(32)" وكان قد خبر بنفسه ما في أطباء القرن السابع عشر من قصور وغرور. وخيل إليه أن الأطباء قتلوا ابنه وصفوا له حجر الكحل (الأنثيمون)، ورأهم يقفون موقف العاجز من تدرنه

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> موليير في أوجه

الذي يسير بخطى حثيثة (33). كذلك كان الملك ساخطاً على ما يعطونه من مسهلات وما يصفدون من دمه كل أسبوع. ويقول موليير إن لويس هو الذي أغراه بوضع الأطباء على السفود. وعليه فقد كتب في خمسة أيام تمثيلية "الحب خير طبيب" مستعيراً من الملاهي القديمة في هذا الموضوع القديم. وقد أخرجت بفرساي في 15 سبتمبر 1665 في حضرة الملك الذي "ضحك لها من قلبه" ولقيت الترحيب الحار حين مثلت بعد أسبوع في الباليه-روبال. وهي تحكي قصة مريضة يدعى لفحصها أربعة أطباء. فيختلون للمداولة، ولكنهم لا يناقشون إلا شئونهم الخاصة. فإذا أصر والد المريضة على قرار وعلاج، وصف أحدهم لها حقنة شرجية، وأقسم الآخر أن الحقنة ستقتلها لا محالة. ثم تتعافى المريضة بغير دواء، الأمر الذي يثير سخط الأطباء، فيصيح الدكتور باييز "خير لها أن تموت طبياً للقواعد من أن تشفى مخالفة لها (34)".

وفي 6 أغسطس 1666 عرض موليير مسرحية قصيرة أخرى هي "الطبيب برغم أنفه" مقدمة مسرحية لمسرحيته "مبغض البش" قصد بها أن يخفف من كآبة هذه التمثيلية التي تتغنى بالتشاؤم. وهي لا تجزي جهد قارئها اليوم بأن موليير لم يقصد أن تؤخذ هجائياته للطب مأخذ الجد. ويلاحظ أنه ظل على علاقات طيبة جداً مع طبيبه الخاص، المسيو دموفلان، وأنه توسط لدى الملك ليجد وظيفة شرفية لابن هذا الطبيب (1669) وقد شرح مرة كيف كان هو وموفلان منسجمين تمام الانسجام فقال "إننا نناقش الأمر، ويصف هو العقاقير، وأنا أغفل تعاطيها، ثم أشفى (35)". وبينما كان موليير لا يزال في وطيس المعركة حول طرطوف، قدم في 4 يونيو 1666 هجائية أخرى لم يقصد بها أن يسر الجمهور ولا الحاشية وإذا كانت الحركة روح المسرحية، فإن هذه المسرحية "مبغض البش" أقرب إلى الحوار الفلسفي منها إلى التمثيلية، وتكفي جملة واحدة لتلخيص القصة؛ فألسيست، الذي يطالب نفسه وغيره بالفضيلة الصارمة والصرامة

صفحة رقم : 10619

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> موليير في أوجه

الكاملة يحب سيليمين التي تؤثره، ولكن يطيب لها أن ترى العدد العديد من الخطاب وتسمع الكثير من المديح. ويجد موليير في هذا مجرد ذريعة لدراسة الفضيلة. فهل من واجبنا أن نقول الصدق دائماً، أم نحل المجاملة محل الصدق لكي نتقدم في هذه الدنيا؟ أما ألسيست فيرفض أنصاف الحلول التي يتراضى بها المجتمع مع الصدق، ويندد برياء البلاط، حيث يتظاهر كل إنسان بأسمى العواطف و"أحر التحيات" في حين يكيد كلٌ لغيره سراً تحقيقاً لمصلحته الشخصية، ويغتابهم جميعاً، ويستعين بالتملق على نيل الخطوة أو السلطة. وألسيست يحتقر هذا كله، ويريد أن يكون صادقاً ولو أفضى به الصدق إلى الانتحار. ويصر شويعر من رجال البلاط يدعى أورونت على قراءة أشعاره على ألسيست، ويطلب إليه أن ينقدها نقداً مخلصاً؛ وينال ما طلب، فيهدد ويتوعد بالانتقام. وتغازل سيليمين الرجال، فيوبخها ألسيست، فتصفه بأنه إنسان مترمت مغرور، ونكاد نسمع موليير يوبخ زوجته المرحة، والواقع أنه هو الذي لعب دور ألسيست، وهي التي مثلت سيليمين:

ألسيسيت: سيدتي، أسمحين لي أن أكون صريحا معك؟ إنني لشديد الاستياء من تصرفاته. أنا لا أتشاجر معك، ولكن مسلكك يا سيدتي يفتح لأول وafd سبيل إلى قلبك. إن لك عدد هائلا من العشاق الذين نراهم يحاصرونك، ونفسي لا تستطيع الرضى بهذا.

سيليمين: أتلومني لأنني أجذب العشاق؟ أهو ذنبي أن الناس يجدونني جديرة بالحب؟ وإذا بذلوا المحاولات اللطيفة لرؤيتي أفأخذ عصا وأطردهم خارجا؟

ألسيسيت: لا، ليست العصا هي ما يجب أن تستعمليه، بل روحاً أقل استسلاماً وذوباناً أمام عهودهم. أعرف أن جمالك يتبعك في كل مكان ولكن ترحيبك يزيد من تجذبه عينك تعلقاً بك، وتلطفك مع جميع من يستسلمون لك يكمل في قلوبهم فعل مفاتنك(36).

صفحة رقم : 10620

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> موليير في أوجه

والنقيض الفلسفي لألسيسيت هو صديقه فيلانتي، الذي ينصحه بأن بلائم في لطف بين نفسه وبين ما في البشر من نقائص فطرية وأن يعترف باللطف ميسراً للحياة. وسحر المسيحية في قسمة موليير عواطفه بين ألسيسيت وفيلانتي. فألسيسيت هو موليير الزوج الذي يخشى أن يكون ديوتاً، ومنجد حجرة الملك الذي عليه لكي يعد سرير الملك-أن يتصدى لمائة نبيل يفاخرون بنسبهم مفاخرته بعقيرته. وفيلانتي هو موليير الفيلسوف، الذي يأمر نفسه بأن يكون معقولاً متسامحاً في الحكم على البشر. يقول فيلانتي-موليير لموليير-ألسيسيت في فقرة لنا أن نعتبرها نموذجاً من موليير الشاعر:

"رباه: فنقل من ضيقنا بعبادات العصر، ولنتسامح قليلاً مع الطبيعة البشرية، ولا نفحصها بصرامة شديدة، بل ننظر إلى عيوبها بشيء من التساهل. فالحياة في هذه الدنيا تتطلب فضيلة مرنة طيبة، وقد يخطئ المرء بخلوه في الحكمة، فالعقل الكامل يتجنب كل تطرف، ويريدنا أن نكون حكماء في اعتدال. إن التزمت الشديد في فضائل القدماء يصدم كثيراً عصرنا والعرف السائد بيننا، فهو ينشد في البشر كمالاً مفرطاً؛ علينا أن نلين للزمن دون تصلب، والحماسة كل الحماسة في أن نورط أنفسنا في تقويم أخطاء العالم. أني ألحظ كما تلحظ كل يوم عشرات الأشياء التي كان يمكن أن تكون خيراً مما هي لو أنها سلكت طريقاً غير طريقها، ولكن مهما تكشف لي في كل خطوة، فإن الناس لا يرونني ساخطاً مثلك. أنني لأتقبل الناس على علاقتهم في هدوء كثير، وأروض نفسي على التجاوز عما يفعلون، وأعتقد أن في برودة طبعي من الفلسفة ما في مرارة طبعك، سواء كنت في البلاط أو في المدينة"(37).

وفي رأي نابليون أن حجة فيلانتي هي الأرجح، أما جان دارك روسو فراهيه أن فيلانتي كذاب، وهو يجب فضيلة ألسيسيت الصارمة(38). وفي النهاية يهجر ألسيسيت العالم كما هجره جان دارك ويعتكف في عزلة معقمة.

صفحة رقم : 10621

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> موليير في أوجه

ولم تحقق التمثيلية من النجاح إلا قدرأ معتدلاً. فالحاشية لم تسع هجو نظرفها، وجمهور الصالة لم يتحمسوا للرجل كألسيسيت يحقر كل شيء صراحة إلا نفسها. ولكن النقاد-الذين لا هم من جمهور الصالة ولا من الحاشية-صفقوا للمسرحية استحساناً، وقالوا إنها محاولة جريئة لتأليف مسرحية الأفكار، أما النقاد المحدثون فيرونها أكمل عمل كتبه موليير. وبمضي الزمن، وبعد أن مات جيلها الذي شهرت به، لقيت قبولاً عاماً، ففيما بين عام 1680 و1954 مثلت 1571 مرة في الكوميدي فرانسيز-ولم يفقها في حفلات تمثيلها سوى طرطوف والبخيل. ولما عجز موليير عن العيش في سلام مع زوجة شابة بدا لها الاقتصار على زوج واحد، والجمال، أمرين متناقضين، هجرها (أغسطس 1667) وذهب ليعيش مع صديقه شابلان في أونوى بالطرف الغربي لباريس. وقد استخف به شابلان في رفق لأنه يأخذ الحب مأخذ الجد إلى هذا الحد، ولكن موليير كان شاعراً أكثر منه فيلسوفاً. وقد اعترف بهذا (إذا صدقنا شاعراً يروي عن آخر):

"لقد صممت على أن أعيش معها كأنها ليست زوجتي، ولكن لو علمت ما أكابد لأشفتت عليّ. فلقد بلغ بي الغرام بها مبلغاً يجعله يتغلغل بعطف في كل اهتماماتها. وحين أتأمل استحالة تغلبي على ما أحس به نحوها، أقول لنفسي إنها ربما تكابد نفس المشقة في التغلب على ميلها لأن تكون لعوباً، وعندها أجد نفسي أميل للشفقة عليها مني للومها. ستقول لي ولا ريب إن الرجل لا بد أن يكون شاعراً لكي يحس بهذا، ولكني شخصياً أحس أنه ليس هناك سوى نوع واحد من الحب، وأن أولئك الذين لم يحسوا بهذه الخلجات لم يحبوا حباً صادقاً قط. فكل الأشياء في الدنيا مرتبطة بها في قلبي... وحين أراها يجردني من كل قدرة على التفكير ضرب من الانفعال، بل نشوات تحس ولا توصف، فلا تعود لي عينان

صفحة رقم : 10622

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> موليير في أوجه

تبصران سوءاتها، ولا أرى غير كل جميل محبوب فيها. أليس هذا منتهى الجنون(39)؟". وقد حاول أن يسلوها بإعراق نفسه بعمله. ففي 1667 شغل نفسه بتنظيم حفلات الترفيه للملك في سان-جرمان. وأحيت ملهاته "أمفيثيون" (13 يناير 1668) من جديد غراميات جوبيتر الذي يغوي الكمين زوجة أمفيثيون. وحين قال لها جوبيتر "إن مقاسمة المرأة جوبيتر فرأشها ليس فيها أي غض من شرفها" فسر كثير من السامعين العبارة بأنها تصفح عن غرام الملك بمدام دمونتسبان، فإذا كان هذا التفسير صحيحاً فهو تملق غاية في السخاء، لأن موليير لم يكن مزاجه آنذاك يسمح له بالتعاطف مع من يغوون الزوجات. لقد كان ككل إنسان آخر يدهن الملك بعبارات الزلفى كما فعل في خاتمة طرطوف. وفي ملهاته أخرى مثلت أمام البلاط في 15 يوليو، واسمها "جورج داندان، أو الزوج المبلبل" تطالعتنا مرة أخرى قصة الزوج المبلبل، الذي يتهم زوجته بالزنا ولكنه لا يستطيع إثبات التهمة فيأكل قلبه بالشك والغيرة؛ لقد كان موليير يسكب الملح في جراحه.

وكان عاماً حافلاً بالعمل، فبعد بضعة أشهر لا أكثر (9 سبتمبر) أخرج واحد من أشهر تمثيلياته وهي "البخيل". وقد اتخذت موضوعها وجزءاً من حيكته من مسرحية بلوتوس "أولو لاريا" ولكن بلوتوس كان قد نقل مسرحيته عن "المهارة الجديدة" عند اليونان. وأغلب الظن أن البخيل وهجو القديمان قدم المال، ولكن أحداً لم يتناول هذا الموضوع بحيوية وقوة أكثر من موليير. فترى أرباجون يتعلق بماله تعلقاً يحمله على ترك خيله تتضور جوعاً وتسير بغير حوافر، وهو يكره العطاء كراهية تجعله لا "يعطيك" نهراً سعيداً (أن يقرئك التحية) بل "يقرضك نهراً سعيداً". وحين يرى شمعتين موقدتين استعداداً للعشاء يطفئ إحدهما.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> موليير في أوجه

وهو يرفض أن يمنح ابنته مهراً، ويثق أن ابنه وابنته سيموتان قبله(40). والهجو هنا، كما هو في موليير عادة، يقرب من الكاريكاتور. ولم يسع الجمهور الصورة، وبعد أن مثلت المسرحية ثمان مرات سحبت، ولكن ثناء بولو عليها أعان على فتح الحياة فيها، فعرضت يبعاً وأربعين مرة في سنواتها الأربع الأولى، ولا يفوقها في عدد عروضها غير طرفوف.

أما مسرحية "البرجوازي مدعي النبيل" فكانت أقل جودة وأكثر توفيقاً. وقصتها أنه في ديسمبر 1669 قدم إلى فرنسا سفير تركي. وأخذ البلاط كل أبهته ليقع في نفس السفير، ولكن السفير استجاب في جمود و صلف. وبعد رحيله دعا لويس وموليير ولولي إلى تأليف كوميديا تجمع بين الباليه والملهاة وتحاكي الأتراك محاكاة ساخرة. ووسع موليير الخطة فجعلها هجائية تدم العدد المتعاضم من فرنسيي الطبقة الوسطى الذين يجاهدون لللبس والحديث كما يلبس ويتحدث الأرسقراطيين بالمولد. ومثلت الملهاة أول مرة أمام الملك والبلاط بشامبور في 14 أكتوبر 1670. ولما عرضت بالباليه-وريبال في نوفمبر، عوضت الخسارة المالية التي ألحقها بالفرقة عروض "البخيل". ومثل موليير دو مسيو جوردان، ومثل دور المفتي. ورغبة في خلع النبالة على مظهره، يستأجر مسيو جوردان معلماً للموسيقى، وآخر للرقص، وثالثاً للمبارزة، ورابعاً للفلسفة. ويتعارك هؤلاء ويتضاربون على أهمية فنونهم فأياً أهم، تحقيق الغنائم، أم الخطو الموقع، أم القدرة على القتل المحكم، أم الحديث بالفرنسية الرشيق؟ ونلاحظ في مزاعم معلم الموسيقى غمزة خبيثة قصد بها لولي المتفاخر المتسلق. ويعرب نصف العالم ذلك المشهد الذي يتعلم فيه جوردان أن اللغة كلها إما نثر وإما شعر:

مسيو جوردان: ماذا؟ إذا قلت "إتيني نحفي يانيكول"، و"ناولني طاقيتي" أياكون هذا نثراً؟
معلم الفلسفة: نعم يا سيدي.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> موليير في أوجه

مسيو جوردان: يمينا، لقد ظللت أربعين سنة أتكلم النثر وأنا لا أدري. إنني والحق مدين لك جداً بإنبائي بهذا(41). على أن بعض رجال الحاشية الذين كانوا غير بعيدي العهد بالتخرج من التجارة إلى النبالة أحسوا أنهم المقصودون بهذا الهجاء، فسخروا بالتمثيلية زاعمون أنها لغو فارغ، ولكن الملك قال لموليير مؤكداً "أنك لم تكتب في حياتك شيئاً أمتعني كهذا". يقول جيزو "إن البلاط تملكته نوبة من الإعجاب بمجرد سماعه هذا التناء(42)".

وتعاون موليير ولولي ثانية ومثلاً أمام البلاط (يناير 1671) "بسيشيه"، وهي مزيج من الباليه والمأساة، شارك بيير كولمبي وكنو بأكثر أبياتها. وكان لولي يكسب المعركة ضد موليير، فالملهاة تخلي مكانها للأوبرا، والحوار للآلات،

وكان لزاماً إنزال الأرباب والرباب من السماء أو رفعهم من الجحيم، واقتضى الأمر إعادة بناء المسرح في الباليه- رويال لهذه التمثيلية، وكلف هذا 1.989 جنيهاً. ولكن الإخراج حقق نجاحاً مالياً. بيد أن الرومانس لم تكن أقوى جوانب موليير، وكان أكثر انطلافاً ويسراً حين يهزأ بسخافات جيله. وقد خيل إليه المرأة المتعلمة شذوذ متعب وعقبة في طريق الزواج. ولقد سمع هؤلاء النسوة يشذبن الألفاظ، ويناقش دقائق النحو، ويقتبس من الآداب القديمة، ويتكلمن الفلسفة، ووفر هذا في إذن موليير وكأنه انحراف جنسي، أضف إلى ذلك أن رجلين-هما الأب كوتان والشاعر ميناج-كانا يهاجمان بعنف مسرحيات موليير، فهذا هي ذي الفرصة قد لاحت لوخزهما. وعليه ففي 11 مارس 1672 قدم مسرحية "النساء العالمات". ففيلامن تطرد خادمة لاستعمالها لفظاً رفضه المجتمع اللغوي، وابنتها أرماند ترفض الزواج لأنه اتصال مقزز بين الأجساد لا امتزاج بين العقول؛ ويقرأ تريسوتان شعره الكريه على هاتين

صفحة رقم : 10625

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> موليير في أوجه

المرأتين المتكلفتين المعجبتين. ويملاً فلدبوس الشعر بالألغاز والمعميات، ويقرأ المزيد من شعره وشعر تريسوتان. ويدافع موليير عن هنرييت ضد هؤلاء جميعاً، لأنها تستهجن أبيات الشعر (السداسية) وتريد زوجاً يمنحها الأبناء لا الإبرامات. ترى هل أصبحت أرماند بيجار إحدى المتحذقات؟ أم أن موليير كان يعرض عصره؟

صفحة رقم : 10626

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> ستار

7- ستار

إنه لم يجاوز الخمسين الآن، ولكن حياته المحمومة، وتدرنه، وزواجه، وأحزانه لفقد أحبائه، استنزفت حيويته. إن مينار رسمه في ريعان شبابه: أنف كبير وشفقان شهوانيتان وحاجبان مرفوعان بشكل مضحك، ولكن له إلى جانب هذا جبهة متجددة وعينين حزينتين. ذلك أن انهماك في دوامة المسرح من بلد إلى بلد، يوماً بعد يوم، وتعامله مع الممثلات الأوليات المتوترات الأعصاب، ومع زوجة منعمة بالحياة، ومع ملك حساس، ورؤيته اثنين من أطفاله الثلاثة يموتان- كل هذا لم يكن طريقاً مفروضاً بالرياحين إلى التناول، بل طريقاً عريضاً لسوء الهضم والموت المبكر. لا عجب إذن أن يصبح موليير "بركاناً يلتهم ذاته(43)"، إنساناً مكتئباً، حاد الطبع، نقاداً في غير مجاملة، ولكنه رغم ذلك كريم

النفس عطوف. وقد فهمته فرقة وأخلصت له الود، موقنة أنه يفني نفسه ليوفر لها القوت ويكفل لها النجاح. وكان أصدقائه على استعداد دائم لخوض المعركة دفاعاً عنه- لا سيما بوالو، ولا فونتين، اللذين كتبوا مع موليير، بمشاركة راسين أحياناً، "الأصدقاء الأربعة" المشهورة. ولقد وجدوا فيه التعليم الحسن والإطلاع الواسع، وعرفوه ذكياً ظريفاً وإن قل مرحة؛ لقد كان المهرج الساخر على خشبة المسرح، ولكنه في حياته الخاصة أشد حزناً من جاك (في مسرحية شكسبير "كما تشاء").

صفحة رقم : 10627

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> ستار

وبعد أن انفصل عن زوجته أربع سنوات ونصف عاد إليها (1671). ومات الطفل الذي أثمره هذا التصالح بعد شهر من ولادته. وكان يعيش في أوتوي قبل ذلك على اللبن كما أوصاه طبيبه، فعاد الآن إلى شرب النبيذ على عادته، وحضر سهرات العشاء المتأخر إرضاء لأرماند. وقرر أن يمثل الدور الأول برغم تقاوم سعاله، دور أرجان، في آخر تمثيلياته "المريض بالوهم" (10 فبراير 1673). وأرجان هذا يتوهم بأنه مصاب بالعديد من الأمراض، وينفق نصف ثروته على الأطباء والعقاقير. ويحتقر أخوه بيرالد:

"أرجان: فما الذي يجب أن نصنعه حين نمرض؟

بيرالد: لا شيء يا أخي...علينا أن نحفظ بهدوئنا لا أكثر.

والطبعة ذاتها إذا تركناها وشأنها، كقيلة بأن تخلص نفسها بلطف من الخلل الذي وقعت فيه. إن الذي يفسد كل شيء هو نكراننا لصنيعها ونفاد صبرنا، وكل الناس تقريباً يموتون بالدواء لا بالداء(44)". ولمزيد من السخرية بمهنة الطب يقال لأرجان إن في استطاعته هو نفسه أن يصبح طبيباً بإجراء مختصر، وأن يجتاز بسهولة الامتحان للحصول على الإجازة الطبية. وبلي ذلك الامتحان المزيف الذي تسأل فيه اللجنة أرجان، وكاد موت موليير أن يكون جزءاً من هذه التمثيلية. ففي 17 فبراير

صفحة رقم : 10628

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> ستار

1673 طلب إليه أرماند وغيرها، حين رأوا إعياءه، أن يغلق المسرح أياماً حتى يتمالك صحته. فسألهم، "ولكن كيف أصنع هذا؟ إن هناك خمسين عاملاً فقيراً ينتقدون أجرهم يوماً بيوم، فماذا هم فاعلون إذا توقفنا عن التمثيل؟ إنني لألوم نفسي على أنني أهملت توفير القوت لهم يوماً واحداً مادام في طاقتي أن أمثل(45)". وفي الفصل الأخير من التمثيلية، وبينما كان كوليير، في دور أرجان (الذي تظاهر بالموت مرتين) يلفظ كلمة Juro (أحلف) وهو يقسم يمين المهنة،

أخذته نوبة سعال مقترنة بتقلصات. فداراها بضحكة كاذبة وأنهى التمثيلية. وهرعت به زوجته والممثل الشاب ميشيل بارون إلى بيته. وطلب كاهناً، ولكن أحداً لم يحضر. واشتد سعاله، وانفجر فيه عرق، فاخترق بالدم في حلقه ومات. وقضى آرلي نفالون رئيس أساقفة باريس بأنه يستحيل دفن موليير في أرض مسيحية مادام لم يتب توبته النهائية ويتلقى غفران الكنيسة. أما أرماند، التي كانت تحبه على الدوام حتى وهي تخدعه، فذهبت إلى فرساي، وارتمت عند قدمي الملك، وقالت في غير حكمة، ولكن في شجاعة وصدق "إذا كان زوجي مجرماً، فإن جلاتكم باركتكم جرائمه بشخصكم(46)". وبعث لويس بكلمة إلى رئيس الأساقفة سراً، ولان آرلي، وأمر بالألا يؤخذ جثمانه إلى كنيسة لإجراء الشعائر المسيحية، ولكنه سمح بدفنه في هدوء بعد الغروب في ركن قصي من جبانة سان-جوزيف في شارع مونمارتر.

ومازال موليير بإجماع الناس علماً من أعظم أعلام الأدب الفرنسي، لا بكمال تكنيجه المسرحي ولا بأي روعة تميز بها شعره. فأكثر حيكاته مستعارة، ومعظم نهاياتها مفتعلة وغير معقولة، وجل شخصه صفات مجسدة، والعديد منها كارباجون مبالغ فيه إلى حد الكاريكاتور، وكثيراً ما تهبط ملاحيه إبلا درك الفارص (الهزلية الصاخبة المهرجة).

صفحة رقم : 10629

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> ستار

وقد قيل إن الحاشية والجمهور أحبوه أكثر ما أحبوه حين يغرق في هذا الفارص، ولم يستطيعوا أهاجيه اللاذعة للمثالب التي يشارك فيها الناس عموماً. وأغلب الظن أنه مفضلاً هذا اللون من الهزلية لولا شعوره بأنه مضطر إلى الحفاظ على قدرة فرقته على الوفاء بديونها.

وكما أسف سكشبير على اضطراره أن يجعل من نفسه مهرجاً للناظرين كتب موليير يقول: "أرى أن من العوبة الفادحة في الفنون الحرة أن يعلن الفنان عن نفسه للحمقى وأن نعرض ثمرات أفلامنا للحكم الهمجي الذي يحكم به على الأغبياء(47)". وقد حز في نفسه أن يطالب على الدوام بإضحاك الناس، فهذا كما قال أحد شخصه "مطلب غريب(48)". وكان يتطلع لكتابة المآسي، ومع أنه قصر دون هذا الهدف، فإنه وفق في أن يضفي على أعظم ملاحيه مغزى وعمقاً مأساويين.

إذن فالفلسفة التي تنطوي عليها تمثلياته، وفكاهتها وهجوها اللاذع-هذه هي التي تجعل كل قارئ تقريباً يقرأ موليير(49). وهي في صميمها فلسفة عقلانية، أبهجت قلوب "فلاسفة" القرن الثامن عشر. "فليس في موليير أثر لمسيحية الخوارق" و"الدين الذي عرضه لسان حاله كليانت (في طرطوف) يمكن أن يصدق عليه فولتير(50)". إنه لم يهاجم قط العقيدة المسيحية، وقد سلم بفضل الدين في حياة الكثيرين جداً، واحترم التقوى الصادقة المخلصة، ولكنه احتقر الورع السطحي الذي يخفي أنانية أيام سنة وراء نفاق اليوم السابع (يوم الأحد).

وكانت فلسفته الأخلاقية وثنية بمعنى أنها أباحت اللذة ولم يكن فيها إحساس بالخطيئة. وكان فيها رائحة أبيفور وسنيكا لا القديس بولس أو أوغسطين، وقد انسجمت مع تحلل الملك أكثر من انسجامها مع زهد البور-رويال. وكان يستنكر الغلو حتى في الفضيلة. كان يعجب بـ"الرجل الفاضل"، رجل الدنيا المعقول الذي يسلك باعتدال عاقل

صفحة رقم : 10630

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> موليير -> ستار

وسط السخافات المتعارضة، ويوائم في غير ضجة بين نفسه وبين نقائص البشر. ولم يبلغ موليير ذاته ذلك المستوى من الاعتدال. فقد أكرهته مهنته مسرحياً هازلاً على الهجو، وعلى المبالغة أحياناً كثيرة. وقد عنف على النساء المتعلمات، وغلا في هجومه على الأطباء دون تفريق، ولعله كان يخلق به أن يبدي احتراماً أكثر للحقن الشرجية. ولكن الغلو كائن في دم الهجو، وقل أن تبلغ المسرحيات هدفها بدونها، ولعل موليير يكون أجل وأعظم قدراً لو أنه وجد سبيلاً لهجو الشر الأساسي الذي لوث ذلك العهد - ونعني ذلك الجشع الحربي والاستبداد المدمر الذي ابتلي به لويس الرابع عشر؛ ولكن هذا المستبد المنعم هو الذي حماه من أعدائه ويسر له أن يشن الحرب على التعصب. وما أسعده لأنه مات قبل أن يصبح سيده أشد هؤلاء المتعصبين كلهم تدميراً!

إن فرنسا تحب موليير، وما زالت تمثل مسرحياته، كما تحب إنجلترا شكسبير وتمثل مسرحياته، ولا نستطيع كما يريد بعض الغليين (الفرنسيين) المتحمسين أن نسوي بينه وبين شاعر إنجلترا، فلقد كان جزءاً فقط من شكسبير، الذي كان جزءاً الأخران راسين ومونتيني. كذلك لا نستطيع كما يفعل الكثيرون أن نضعه على قمة الأدب الفرنسي. لا بل إننا لسنا على يقين من أن بوالو كان على حق حين قال للويس الرابع عشر إن موليير كان أعظم شعراء عهده، فحين قال بوالو هذا لم يكن راسين قد كتب "فيدر" ولا "أتالي". ولكن في موليير، ليس الكاتب فقط هو الذي ينتمي لتاريخ فرنسا، بل الإنسان: مدير الفرقة المرهق الوفي، والزوج المخدوع الصفوح، والمسرحي الذي يخفي أحزانه بالضحك، والممثل العليل الذي يواصل حتى الموت حربه على الفقر، والتعصب، والخرافة، والنفاق.

صفحة رقم : 10631

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> جوج الكلاسيكية

الفصل الخامس

أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي

1643 - 1715

لم يكن أوج الأدب الكلاسيكي الفرنسي مواكباً تماماً لعصر لويس الرابع عشر، بل جاء إبان وزارة مازاران وفي الربيع المشرق لهذا العصر (1661-67)، قيل أن ينحي مارس (إله الحرب) ربات الفنون إلى المؤخرة. أما أول حافظ للتفجر الأدبي فقد انبعث من تشجيع ريشليو للدراما والشعر، وجاء الثاني من الانتصارات الحربية التي حققها الفرنسيون في روكروا (1643) ولنز (1648)، وأنساب الثالث من انتصارات فرنسا الدبلوماسية في معاهدتي وستفاليا (1648) والبرانس (1659)، وأتى الرابع من اختلاط الأدباء بالنبلاء والمتقفات من النساء في الصالونات، والحافز الأخير فقط هو الرعاية التي حظي بها الأدب من الملك والحاشية. وكثير من روائع العهد-كرسانل بسكال (1656) وخواطره، وطرطوف موليير (1664) ومسرحية وليمة التمثال الحجري (1665) ومبغض الشر (1666)، وأمثال لاروشفوكو (1665) وهجائيات بولو (1667) وأندروماك راسين (1667)- هذه كلها كتبت قبل 1667 بأقلام رجال نموا وترعرعوا أيام ريشليو ومازاران. ومع ذلك كان لويس أسخى راع للأدب عرفه التاريخ كله. فما مضت سنتان على تسلمه مقاليد الحكم (1662-63)-أي قبل هذه الآثار

صفحة رقم : 10632

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> جو الكلاسيكية

الأدبية كلها باستثناء اثنين منها-حتى طلب إلى كولبير وغيره أن يكلفوا أشخاصاً أكفاء بوضع قائمة بأسماء المؤلفين والأدباء والعلماء من أي بلد ممن يستحقون أن تقدم إليهم يد المعونة. ومن هذه القوائم تلقى خمسة وأربعون فرنسياً وخمسة عشر أجنبياً معاشات ملكية(1). وأدهش الأدبيين الهولنديين هاينسيوس وفوسيوس، والفيزيائي الهولندي كرستيان هويجنس، والرياضي الفلورنسي فيفياني، كثيراً غيرهم من الأجانب، أن يتلقوا رسائل من كولبير تنبئهم بقرار الملك الفرنسي أن يمنحهم معاشات إذا وافقت حكوماتهم. وبلغ بعض هذه المعاشات ثلاثة آلاف من الجنيهات في العام. فعاش بولو عميد الشعر الرسمي، على معاشاته كأنه إقطاعي كبير، وترك لورثته 286.000 فرنك نقداً، وتلقى راسين 145.000 فرنك طوال عشر سنين بوصفه المؤرخ الملكي(2). ولعل المعاشات الدولية كان بعض الدافع إليها الرغبة في كسب أرباب الأقاليم خارج فرنسا، أما الهبات في الداخل فهدفها إخضاع الفكر، كما أخضعت الصناعة والفن للتنسيق والإشراف الحكوميين. وتحقق هذا الهدف، فأخضع النشر كله لرقابة الدولة، وأذعن الذهن الفرنسي للإشراف الملكي على تعبيره المطبوع، باستثناء مقاومة منقرفة ضئيلة. يضاف إلى هذا أن الملك اقتنع بأن هذه الأقاليم المأجورة ستعنى بمدحه نثراً وشعراً وتخلف للتاريخ صورة مشرقة له. وقد بذلوا في هذا قصاراهم. ولم يكتف لويس بصرف المعاشات للأدباء، بل إنه حماهم واحترمهم، ورفع مقامهم الاجتماعي، ورحب بهم في القصور. وقال مرة لبولو "تذكر أنني سأفرد لك دائماً نصف ساعة من وقتي(3)". وربما كان ذوقه الأدبي مسرف الانحياز إلى الخصائص الكلاسيكية، خصائص النظام، والوقار، وجمال الشكل؛ ولكن هذه الفضائل لم تكن في رأيه معينة على توطيد الحكم فحسب بل على إضفاء النبل على فرنسا. وكان من بعض الوجوه

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي ->
جو الكلاسيكية

متقدماً على شعبه وبلاطه في أحكامه الأدبية. وقد رأيناه يحمي مولير من غدر النبلاء ورجال الدين، وسنراه يشجع أشد شطحات راسين.
وعملاً باقتراح آخر من كولبير، وترسماً لخطى ريشليو مرة أخرى، أعلن لويس أنه الراعي الشخصي للأكاديمية الفرنسية؛ ورفعها إلى مرتبة المؤسسات الحكومية الكبرى، ووفر لها الأموال الكافية، وهياً لها مكاناً في اللوفر. وأصبح كولبير نفسه عضواً فيها. ولما أمر عضو، كان إقطاعياً كبيراً في الوقت ذاته، بأن يوضع له مقعد وثير في الأكاديمية، أرسل كولبير في طلب تسعة وثلاثين مقعداً على شاكلته حفاظاً على المساواة في الكرامة قبل الفوارق الطبقية، وهكذا أصبحت "المقاعد الأربعون" مرادفاً للأكاديمية الفرنسية، وفي 1663 نظمت أكاديمية فرعية للنقوش والرسائل لتسجيل أحداث العهد.

واستوثق كولبير من أن "الخالدين الأربعة" يكسيون رواتبهم بالانتظام في الحضور وبالجهد في تصنيف القاموس. وكان مشروع هذا القاموس الذي بدأ في 1638 يتقدم في بطء شديد، حتى استطاع بواروبير أن يعبر أبجدياً عن أمنيته في طول العمر، "لقد أنفقوا ستة شهور وهم مشغولون بحرف F، فليت قدر يمهني حتى حرف (4G)". كانت خطة القاموس معقدة شديدة التفصيل، فقد رأت تتبع كل كلمة مسموح بها طوال التاريخ استعمالها وهجاءاتها، ويشفع هذا بالكثير من الشواهد التوضيحية، وهكذا انقضت ست وخمسون سنة بين بدء مشروع، ونشر القاموس لأول مرة (1694). ولقد أسرف في فحص لغة الشعب، والمهن، والفنون، وشذب رابليه، وأميو، ومونتيني، ورفض مئات التعبيرات التي تعين على الحديث الحي. فذات المنطق، والدقة والوضوح الذي جعل من الهندسة المثل الأعلى لعلم القرن السابع عشر وفلسفته، وذات السلطان والانضباط اللذان هيمن بهما كولبير على الاقتصاد ولبرون على

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي ->
جو الكلاسيكية

الفنون، وذات الوفاق والتأنق اللذان سيطرا على بلاط الملك، وذات التشبث الكلاسيكي بالقواعد الذي شكل أسلوب بوسويه، وفينيلون، ولاروشفوكو، وراسين، وبوالوكل أولئك أملى قاموس الأكاديمية.
ولقد نصح وأعيد نشره دورياً، وكافح للاحتفاظ بالنظام في جسم نام حي، وهاجمت قلعته الكلاسيكية المرة بع المرة، وكثيراً ما اقتحمتها، أخطاء الشعب، ومصطلحات العلوم، ورتانة الحرفيين، وعامية الشوارع؛ والقاموس، شأنه شأن التاريخ والحكومة، مزاج من القوى بين ثقل الكتلة وقوة القلة. وقد خسرت اللغة شيئاً من حيث الحيوية، وكسبت

الكثير من حيث النقاء، والدقة، والأناقة، والمكانة. أنها لم تتجرب شكسبيراً هائجاً مانحاً، ولكنها أصبحت أعظم لغات أوروبا احتراماً، وغدت أداة الدبلوماسية، ولسان الأرسقراطيات. وظلت أوروبا قرناً وأكثر تهفو إلى أن تكون فرنسية.

صفحة رقم : 10635

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> تذييل لكورني

2- تذييل لكورني

1643 - 1684

بلغت اللغة أوجها في السهولة المرنة التي أتمم بها حوار موليير، وفي بلاغة كورنيي الطنانة، وفي تألق راسين الشجي.

أما كورنيي فكان يبدو في ربيع أدبه-وهو في السابعة والثلاثين-حين اعتلى لويس العرس. وقد بدأ العهد بملهاة "الكذاب" التي رفعت نبرة الملهاة الفرنسية كما رفعت "السيد" نبرة المأساة. ثم راح يدفع إلى المسرح بالمآسي كل عام تقريباً بعد ذلك، رودجون (1644)، وتيودور (1645)، وهيراقليوس (1646) وذن سانشو الأراجوني (1649) واندروميد (1650) ونيكوميد (1651) وبرتاريت (1652). ولقي بعض هذه التمثيليات استقبالاً حسناً، ولكن حين تعاقبت كل منها سريعاً خلف سابقتها، وضح أن كورنيي يتعجل الإنتاج، وأن عصاره

صفحة رقم : 10636

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> تذييل لكورني

عبقريته آخذة في النضوب. وضاع ولعه بتصوير النبالة وسط بحر من الجدل، وهزمت بلاغته ذاتها باستمرارها دون توقف. قال موليير "إن لصديقي كورني رقيقاً يلهمه أروع شعر في الدنيا. ولكن يحدث أن يتركه رفيقه ليرعى شؤونه،

وعندها يتعثر شر تعثر (5). "وقد لقيت "بارتاريت" من سوء الاستقبال ما حمل كورنيبي على أن يعتزل المسرح ست سنوات (1653-59)، وتناول نقاده في سلسلة من "الفحوص"، وفي ثلاث أحاديث عن الشعر المسرحي. وقد دلت هذه الأحاديث على صعود موهبته النقدية بهبوط ملكته الشعرية، وأصبحت ينبوعاً للنقد الأدبي الحديث، واتخذها درايدن نماذج حين دافع عن شعره المتوسط الجودة في نثر رائع.

وفي 1659 ردت كورنيبي إلى خشبة المسرح لفتة تلقاها من فوكيه. وظفرت مسرحيته "أوديب" ببعض الاستحسان عقب ثناء الملك الشاب عليها، ولكن المسرحيات التي تلتها-سرتوريوس (1662)، وسوفونيسب (1663)، وأوتون (1664)، وأجيسيلاس (1666) وأتيلا (1667)-هذه كلها كانت قاصرة قصوراً لم يستطع فونتنبيل إزاءه أن يصدق أن كاتبها هو كورنيبي؛ وقال بوالو في بيت ساخر:

"بعد أجيسيلاس، وا أسفاه! ولكن بعد أتيلا، قف!" وزادت مدام هنرييتا الطين بلة، مع أنها كانت عادة آية العطف والرفقة، حين دعت كلاً من كورنيبي وراسين، بعلم من كل، إلى أن يكتب تمثيلية في ذات الموضوع-وهو بيرنيس، الأميرة اليهودية التي وقع في حبها تيطس الإمبراطور القادم. ومثلت بيرنيس التي ألفها راسين فيلأوتيل دبورجون في 21 نوفمبر 1670 بعد خمسة أشهر تقريباً من موت هنرييتا، ولقيت نجاحاً كاملاً. أما مسرحية كورنيبي "تيطس وبرينيس" فقد مثلتها فرقة موليير بعد ذلك بأسبوع، ولم تلق غير استقبال فاتر: وحطم فشلها روح كورنيبي. وجرب حظه ثانية بمسرحيته "بولشيري" (1672) وسورينا (1674)،

صفحة رقم : 10637

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> تذييل لكورنيبي

ولكن الفشل كان نصيبهما أيضاً. وأنفق كورنيبي بعد ذلك السنين العشر التي بقيت له من أجله في تقوى هادئة مكتئبة. وكان متلاًفاً، مات فقيراً برغم ما أجرى عليه لويس الرابع عشر من معاش وما نفحه به من هبات، وقد قطع معاشه دون قصد أربع سنوات، فلجأ كورنيبي إلى كولبير، فأمر برده إليه، ولكنه انقطع ثانية بعد موت كولبير. فلما نمت الأمور إلى بوالو أعلم به لويس الرابع عشر، وعرض أن ينزل عن معاشه لكورنيبي. ولكن الملك بادر بإرسال مانتني جنيه للشاعر العجوز، الذي مات بعدها بقليل (1684) بالغا الثامنة والسبعين وأبنة في الأكاديمية الفرنسية مزاحمه الذي كان قد خلفه، ورفع المسرحية والشعر الفرنسيين إلى ذروة تاريخهما، والتأبين ما زال مذكوراً لما حوى من سماحة وبلاغة.

صفحة رقم : 10638

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> راسين

ولد مثل موليير في أسرة متوسطة. وكان أبوه مراقباً لاحتكار الدولة للملح في لافيرتي-ميلون، على نحو خمسين ميلاً شمال شرقي باريس، وكانت أمه ابنة محام في فيليب-كوتريه. وقد ماتت عام 1641 وجان لم يبلغ الثانية بعد؛ وبعد سنة مات أبوه، فكلل الصبي جده لأبيه. وكان في الأسرة نزوع قوي إلى الجانسية، فقد التحقت جدة وعمة لراسين بأخوات البورويال، وأرسل جان نفسه حين ناهز السادسة عشرة إلى "المدرسة الصغيرة" التي يديرها "المتوحدون" وقد تلقى عنهم تعليماً مركزاً في الدين واليونانية-وهما مؤثران قدر لهما أن يسيطرا الواحد بعد الآخر على حياته. واستهوت تمثيلات سوفوكليس ويوربيديس فترجم بعضها بنفسه. ثم تعلم شيئاً من الفلسفة ومزیداً من الثقافة الكلاسيكية في كلية آرکور بباريس، وأكتشف المفاتن الخفية للأثونة الشابة، الجديد منها

صفحة رقم : 10639

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> راسين

والمستعمل. وعاش عامين على شاطئ الجزانز أوجستان مع ابن عمه نيكولا فيتار، الذي كان يتردد بين البورويال والمسرح. واستمع راسين إلى عدة تمثيلات، وكتب تمثيلية، وعرضها على موليير. ولم تكن من الجودة بحيث تستحق الإخراج، ولكن موليير نفحه بمائة جنيه ذهبي، وشجعه على أن يعيد الكرة. واستقر رأي راسين على اتخاذ الأدب حرفة له.

وهال هذا الجنون أقرباءه، وراعهم ما نعى إليهم من أنباء غرامياته، فأرسلوه إلى أوزيس بجنوبي فرنسا (1659) مساعداً لعم له كان كاهناً لكتدائية، فوعده بوظيفة كنسية ذات وقف إن هو درس اللاهوت ورسم قساً. أما الشاعر الشاب، الذي ما زال باطنه يضطرم بنار باريس، فقد ظل عاماً يسدل على هذه النار عباءة سوداء، وقرأ القديس توما الأكويني-وقليلاً من أريوستو ويوربيديس بجانبه. وكتب الآن إلى لفونتين يقول:

"كل النساء رائعات... لحم غض طري، ولكن بما أن أول شيء قيل لي هو أن آخذ حذري، فليست أريد أن أقول المزيد عنهن. أضف إلى ذلك أنه سيكون امتهاناً لبيت كاهن ذي وقف أعيش فيه أن أخوض في حديث طويل عن هذا الموضوع، "بيتي بيت الصلاة يدعى"... لقد قيل لي "كن أعمى" فإذا لم أستطع أن أكون ذلك كلية، فأني أستطيع على الأقل أن أكون أعمى... لأن على المرء أن يكون راهباً مع الرهبان، كما كنت ذنباً معك من ذئاب قطيعك(6)".

ولقي الكاهن شذائد وأصبحت الوظيفة الكهنوتية الموعودة أملاً بعيداً وتبين راسين أنه لا يملك موهبة القسوسة. فبدل ثوبه، وطوى كتاب "خلاصة اللاهوت" وعاد إلى باريس (1663).

فلما أبلغها نشر نشيداً أتاه بمائة جنيه من جيب الملك. واقترح عليه موليير موضوعاً حوله راسين إلى تمثيلته الثانية "طيبة" (التياييد). وأخرجها

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي ->
راسين

موليير في 20 يونيو 1664، ولكنه اضطر لسحبها بعد أربعة عروض. على أنها أحدثت من الضجة ما يكفي لسماعها في البور-رويال-دوشان. وأرسلت إليه عمته من هناك رسالة تستحق أن نوردتها باعتبارها جزءاً من دراما تعدل في بلاغتها وتأثيرها في النفس أي شيء كتبه راسين:

"حين نمتي إلى أنك تنوي الحضور إلينا طلبت إلى أمنا الإذن لي برويتك... ولكنني سمعت مؤخرًا خبراً أثار فيّ أشجاناً عميقة. وإني أكتب إليك في مرارة قلبي، وأذرف الدمع الذي أرجو أن أكسبه غزيراً أمام الله لأنال منه خلاصه الذي أتوق إليه أشد مما أتوق لأي شيء آخر في العالم. فقد علمت بالأسف أنك تخالط أكثر من أي وقت مضى معشرًا اسمهم بحق رجس عن كل من له أي نصيب من تقوى، لأنهم محرومون من دخول الكنيسة، أو تناول الأسرار المقدسة.. فانظر الآن يا ابن أخي إلى أي حال صرت، لأنك لا بد عليم بما أشعر به نحوك من حنان، وبأنه لم يكن لي من سؤال إلا أن تتبع الله في وظيفة شريفة. لذلك أتوسل إليك يا ابن أخي العزيز أن ترحم نفسك، وتفحص قلبك، وتتأمل بجد أي هوة تردبت فيها. أنني لأرجو ألا يكون صحيحاً ما أنبئت به، ولكن إذا كان سوء طالعك قد بلغ مبلغاً يملكك على مواصلة تجارة تشينك أما الله والناس، فعليك ألا تفكر في المجيء لرويتنا، لأنك تفهم جيداً أنني لن أستطيع في هذه الحالة أن أكلمك لعلمي بأنك في حالة مؤسفة جداً، مناقضة كل المناقضة للمسيحية. ولن أكف في الوقت نفسه عن التضرع لله ليرحمك، فيرحمني إياك، لأن خلاصك عزيز جداً(7)".

فها هنا عالم شديد الاختلاف عن ذلك الذي تسجله صفحاتنا عادة-عالم من الإيمان العميق بالعقيدة المسيحية، والولاء المحب لدستورها الأخلاقي. ونحن لا نملك غير التعاطف مع امرأة استطاعت أن تكتب بمثل هذا الإخلاص في العاطفة، ولم تخل من العذر لرأيها في المسيحية الفرنسية كما

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي ->
راسين

كانت في شبابها. ولم تبلغ عبارة نيكول العننية التالية هذا المبلغ من الرقة والحنو، وكان قد علم راسين في البور-رويال:

"كل الناس يعرفون أن هذا السيد قد كتب..تمثيلات للمسرح...وهذه المهنة في نظر ذوي العقول الراجحة ليست في ذاتها مهنة شريفة جداً، ولكن إذا نظرنا إليها في ضوء الدين المسيحي وتعليم المسيح كانت في الحق مهنة رهيبة. فالروائيون تجار سموم يقتلون نفوس الناس لا أجسادهم(8)".

وأجاب كل من كورنيي وموليير وراسين على هذا الاتهام على حده، وكان في جواب راسين من العنف الغضب مل جعله يندم عليه أشد الندم في سنوات لاحقة.

وتلا خصامه مع البور-رويال خصام مع موليير بعد قليل. ففي ديسمبر 1665 قدمت فرقة موليير تمثيلية راسين الثالثة "الإسكندر"، وكان موليير كريماً كعادته، فهو علم بأن راسين لم يعجب به ممثلاً تراجيدياً، وأن المؤلف الشاب يهيم بأجمل ممثلاته وإن لم تكن أكفأهن، لذلك أخرج نفسه والمرأتين بيجار من شخصيات المسرحية، وأعطى الدور النسائي الأول لتريز دبارك، ولم يظن بمال على الإخراج. وقد لقيت استقبالاً حسناً، ولكن راسين لم يرض عن التمثيل. فرتب حفلة خاصة مثلت الفرقة الملكية فيها المسرحية، وحمله سروره بهذا التمثيل على سحبها من موليير وإعطائها لهذه الفرقة المنافسة. وأقنع الأنسة دبارك التي أصبحت عشيقته بأن تترك فرقة موليير وتتضم إلى الفرقة الأقدم، وعرضت المسرحية في مكانها الجديد بالأوتيل دبورجون ثلاثين مرة في أكثر قليلاً من شهرين. ولم تكن من روائع راسين، ولكنها وطدت مكانته خلفاً لكورنيي، وأكسبته صداقة الناقد بوالو المرشدة. فحين قال له راسين مفاخرأ "إنني أنظم شعري في يسر مدهش" أجابه بوالو "أريد أن أعلمك كيف تنظمه في عسر(9)". ومنذ ذلك الحين علم الناقد العظيم الشاعر قواعد الفن الكلاسيكي.

صفحة رقم : 10642

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> راسين

ولا علم لنا بمدى العصر الذي نظم به راسين "أندروماك"؛ على أية حال بلغ فيها أوج قوته المسرحية وأسلوبه الشعري. وهو يذكر في إهدائه المسرحية إلى مدام هنرييتا أنه قرأها عليها، وأنها بكت. ومع ذلك فهي مسرحية رعب لا مسرحية عاطفة، وفيها كل الكارثة المحتمومة التي نتوقعها في إسخيلوس أو سوفوكليس. والحبكة شبكة معقدة من العلاقات الغرامية. فأوريست يحب هرميون، التي تحب بيروس، الذي يحب أندروماك، التي تحب هكتور، الذي مات. وقد منح بيروس بن أخيل ثلاث جوائز لما أبلى في انتصار اليونان على طروادة: منح أبيروس مملكة له، وأندروماك (أرملة هكتور) أسيرة له، وهرميون (ابنة منيلاوس وهيلانه) زوجة له. أما أندروماك فلا تزال شابة جميلة، وإن لم تكف عن البكاء، وهي لا تحيا إلا لتذكر زوجها النبيل، وتخاف على طفلها أستياناكس، الذي ينقذه راسين-بانحراف مسرحي عن القاعدة-م الموت الذي كان نصيبه في يوربيديس ليستعمله هنا أداة في يد القدر. ويفد أوريست- بن كلينمنسترا وقاتلها- على إيروس مبعوثاً من اليونان ليطلب إلى بيروس تسليم أستياناكس وموته باعتباره المنتقم المحتمل لطروادة في المستقبل. ويرفض بيروس الاقتراح في فقرة تمتع موسيقاها على الترجمة. يقول ما معناه: "إنهم يخشون أن تولد طروادة بهكتور من جديد، وأن ابنه قد ينتزع مني الحياة التي حفظتها عليه. سيدي، إن الإفراط في التدبير يجر إفراطاً في الحذر. إنني لا أستطيع أن أبصر المكاره من هذا البعد الكبير. وأنا أفكر فيما كانت عليه هذه المدينة (طروادة) فيما مضى، جبارة في حضوتها، شديدة الخصوبة في أبطالها، سيدة على آسيا. ثم أتأمل في النهاية ما صارت إليه وما انتهى إليه حظها-فلا أرى غير أبراج غطاها الرماد، ونهر صبغت مياهه الدماء. وحقول هجرت، وطفل مقيد بالأغلال، ولست أظن أن طروادة تقوى على الثأر وهي على هذه الحال. آه، لو كان ابن

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي ->
راسين

هكتور قد قدر عليه الموت، فلم أبقينا عليه عاماً كاملاً؟ ألم نكن قادرين على تقديمه قرباناً على صدر يريام؟ كان يجب أن يسحق تحت مئات القتلى في طروادة؛ يومها كان كل شيء مباحاً، وعبثاً كانت تحتج الشبخوخة والطفولة بضعفهما في الدفاع عن نفسيهما، فالنصر والقدرة، وهما أشد منا قسوة، حرضانا على القتل وأفقدانا التمييز في ضرباتنا. إن غضبي على المغلوبين جاوز حد الصرامة، ولكن يجب أن تبقى قسوتي بعد غضبي؟ أينبغي أن أغتسل متلبثاً في دم طفل برغم ما يملكني من شفقة عليه؟ لا يا سيدي، فليبحث اليونان عن فريسة أخرى، وليلاحقوا ما بقي من طروادة في غير هذا المكان. لقد بلغت نهاية الشوط في عدائي. إن أبيروس ستنقذ ما أبقته عليه طروادة" (10).
هنا مأخذ واحد، ذلك أن بيروس، وربما راسين، لا يدركان مبلغ ما تدين به شفقة الفاتح لغرامه بأمر الطفل -إلى حد عرضه الزواج منها (مع أنه كان يستطيع أن يتخذها جارية له)، واتخاذة أستياناكس ولداً ووريثاً له. ولكنها ترفضه، فهي لا تستطيع أن تنسى هكتور، الذي قتله أبو بيروس. وهو يهدد بأن يسلم الطفل لليونان، فيروعها تهديده، وترضى بالزواج منه، ولكن هرميون وهي في تصور راسين لها تضارع الليدي مكبث قوة-، تشتعل غضباً لأنها نبذت، فيه تعترم قتل بيروس رغم أنها لا تزال تحبه، وتقبل ما يعرضه أوريست من حب وولاء، شريطة أن يقتل بيروس. فيوافق كارهاً. وفي كل خطوة وكل شخص من شخوص هذه المسرحية صراع في الدوافع يرقى إلى أدق العقد النفسية المعروفة في الأدب. ويقترح الجند اليونان الهيكل ويقتلون بيروس عند المذبح الذي يتبادل فيه عهود الزواج مع أندروماك. وتحنق هرمون أوريست، وتجري إلى المذبح، وتغمد مدياً في جسد بيروس الميت، ثم تطعن نفسها وتموت. هذه أعظم مسرحيات راسين، وهي خليقة بأن تثبت للمقارنة مع شكسبير

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي ->
راسين

أو يوربيديس: حبكة متينة البناء، وشخوص كشف عنها في عمق، ومشاعر مدروسة في كل تعقيدها وحدثها، وشعر فيه من الروعة والتناغم ما لم تسمعه فرنسا منذ رونسار.
واعترف الناس بأندروماك للتو رائعة من روائع الأدب، فوطدت مقام راسين خليفة لكورنيلي وربما متوقفاً عليه. ودخل الآن أسعد عقد في عمره، منتقلاً من نصر إلى نصر، بل متحدثاً مولبيرر بملهاة من قلمه. والملهاة، واسمها "المتخاضمون"، وهي تقليد ساخر (برلسك) للمحاميين الجشعين، وشهود الزور، والقضاة الفاسدين- هذه الملهاة كانت صدى لتجربة راسين مع القانون. ذلك أنه التمس رهنا على دخل دير وحصل عليه؛ ولكن راهباً نازعه دعواه، وتلا ذلك دعوى قضائية امتد بها الأجل حتى ضاق بها راسين ذرعاً فتخلى عنها وثأر لنفسه بكتابة المسرحية. ولم تسر

النظارة في أول عرض لها، ولكن حين مثلت في البلاط ضحك لويس الرابع عشر من قلبه على نكتها ضحكاً جعل الجمهور يغر رأيه، وأدت هذه الملهاة المتوسطة الجودة في ملء جيب راسين.
على أن نغمة صغيرة قطعت هناءه. ذلك أن خليلته دبارك ماتت في ظروف غامضة سنفصلها في موضع لاحق في 11 ديسمبر سنة 1668. وبعد أن توقف فترة مناسبة اتخذ ممثلة أخرى تدعى ماري شانمسلية. وكان لها زوج يقظ وصوت ساحر، وتحاشى راسين الأول واستسلم للآخر. واتصل هذا الغرام من برينيس حتى فيدر، وبعد ذلك انتزعتها الكونت دكليرمون-تونر من جذورها D(racin(e) أي من راسين) كما قال أحد الظرفاء.
ومسرحية راسين "بريتانيكوس" (1669) في رأيه أكثر أعماله اتقاناً، وكثيراً ما تفضل على اندروماك، شأنها شأن "فيدر" و"اتالي".

صفحة رقم : 10645

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> راسين

على أن القارئ العصري لن يلتذها في أغلب الظن مهما كان غارقاً في تاسيتوس ففيها أجريين السليطة، وبريتانيكوس الشكاء وبوروس المتخبط، ونارسييس القذر، ونيرون الممتلئ شراً-فما من شخص هنا يظهر لنا تعقيداً أو تطوراً، أو يبدي لنا أثراً من نبل خليق بأن يخفف في موضع ما من أي مأساة جديرة بقلم شاعر.
وكما أن بريتانيكوس فنشتت عن قصتها في "قاعة الفظائع" التي ذكرها تاسيتوس، فكذلك أخذت برينيس (1670) قصة غرام إمبراطور عن سطر موجز لسويتون يقول فيه "فارسل لتوه كارهاً برينيس الكارهة من المدينة(12)"
وتفصيل المسرحية أن تيطس الذي كان يحاصر أورشليم (70م) كان قد أغرم بالأميرة اليهودية. ومع أنها تزوجت من قبل ثلاث مرات، إلا أنها تتبعته إلى روما خليقة له، ولكنه حين يرث العرش يدرك أن الإمبراطورية لن تسمح بملكة أجنبية، فيصرفها بعبارات ملكية متدفقة تتميز بالإدراك السليم. وقد حفلت المسرحية بالعاطفة الحارة وحظيت برضاء الجمهور والملك، الذي لا يدق استشف بسرور بلاطه وانتصاراته في وصف برينيس لعظمة الإمبراطور الشاب:
"أرأيت بهاء هذه الليلة؟ ألا تمتلئ عينك بعظمتها وأبهتها؟ هذه المشاعل، وهذا الحطب، وهذا الليل ذو اللهب المقدس، وهاتيك النسور، وتلك الشعارات، وهذا الجمع من الناس، وهذا الجيش، وذلك الحشد من الملوك، هؤلاء القناصل، وهذا السناتور- أولئك الذين قيسوا نورهم الساطع من حبيبي، وهذا الأرجوان والذهب الذي يزداد تألقاً بمجده، وهذا الغار الذي مازال شاهداً على انتصاره، وهذه العيون التي نراها قادمة من كل فج لتلتقي فيه وحدة نظراتها الملهوفة؛ هذه الطلعة الجليية، وهذه الحضرة الحلوة. وحق السماء! بأي إجلال وبأي رضى تؤكد له كل القلوب سرّاً تفتها به!
تكلم: أيستطيع إنسان أن يراه دون أن يخطر له

صفحة رقم : 10646

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي ->
راسين

كما يخطر لي، أنه لو كان القدر قضى بأن يولد مغموراً لتبين فيه العالم سيده بمجرد النظر إليه(13)".
أمن العجب إذن أن نرى رأسين، وهو على هذا الحدق في الزلفي، ينال الخطوة السريعة عند الملك؟
ونمر في احترام ببعض مسرحياته الأقل شأنًا، وكلها ما يزال يحتل خشبة المسرح الفرنسي: بايريد (1672)، وتردات
(1673) التي فضلها لويس على كل مسرحياته، وإفجيني (1674)، التي وضعها فولتير في صف واحد مع أتالي
باعتبارها من أروع ما كتب من الشعر (14). وقد عرضت أجيني أول مرة في حدائق فرساي على ضوء الشمعدانات
البلورية المعلقة في أشجار البرتقال والرمال، وعزف العازفون على الكمان وانعطفت قلوب نصف النخبة المتفرجة،
وتقدم راسين ليشكر النظارة على أعلى تصفيق لقيه في حياته. وحين أخرجت في باريس امتد عرضها أربعين مرة في
شهور ثلاثة. وكان قد انتخب أثناء ذلك عضواً في الأكاديمية الفرنسية (1673). وبدأ أن سعادته قد اكتملت.
على أن السعادة لم تكتب إلى الآن للشعراء، إلا أن يكون الجمال فرحة لا تنتهي، والثناء لا يقطع صوت ناشز. قال
راسين لابنه "لقد طالما أبهجنى جداً ذلك الاستحسان الذي قوبلت به، ولكن أقل لوم ناقد... كان يسبب لي دائماً من
الضيق قدراً أكبر من كل السرور الذي يدخله على المديح(15)". فهو لم يكن شديد الحساسية فحسب، كما لم يكن بد
من أن يكون، بل ضيق الخلق، يرد على كل كلمة نابية. وفي ذروة نجاحه وجد نصف باريس تنتقده، لا بل تعمل على
إسقاطه. كان كورنبي قد عمر فوق ما ينبغي، ولكن مريديه تذكروا ما اتسمت به مأساه الأولى من نيرة بطولية
وموضوعات ملحمية، وما شاع في بلاغته من نبيل، وذلك المستوى السامي الذي رفع إليه دواعي الشرف والدولة،
فوق أهواء القلب. واتهموا راسين بتلوين المأساة بعواطف نصف مجنونة تتفعل بها مخلوقات خسية،

صفحة رقم : 10647

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي ->
راسين

وبإدخال مغازلات حب القصور إلى المسرح، وإغراقه بدموع بطلاته، فصمموا على إسقاطه.
فلما عرف أنه يكتب "فيدر" أقنع فريقاً من خصومه نيكولا برادون بأن يكتب مسرحية منافسة في الموضوع نفسه.
وكان للمسرحيتين نفس العنوان في الأصل-فيدر وهيوليت-وانبثقتا من أسطورة رواها يوربيديس من قبل بما عهد فيه
من قصد كلاسيكي في العاطفة. ففيدر، زوجة تسيوس، وتولع ولعاً شديداً بهيوليت بن تسيوس من زوجة سابقة،
ولكنها تجده بارد العاطفة نحو النساء فتشنق نفسها بعد أن تترك خطاباً اتهمته فيه بمحاولة الاعتداء على عفافها انتقاماً
منه، ونفى تسيوس ابنه البريء، الذي لم يلبث أن قتل وهو يسوق الخيل على شواطئ تروزين. ولكن راسين غير
ترتيب الأحداث، فجعل فيدر تتجرع السم بعد سماعها بموت هيوليت. ومثلت مسرحية راسين في الأوتيل دبورجون
في أول يناير سنة 1677، ومثلت مسرحية برادون بعد يومين على مسرح جينيجو. ولقيت التمثيلتان نجاحاً متكافئاً
إلى حين، ولكن تمثيلية برادون طواها النسيان، في حين تمثيلية راسن عادة رائحته الكبرى؛ ودور فيدر تصبوا إلى
تمثيله كل الممثلات الفرنسيات، كما يستهوي دور هاملت المثلين التراجديين في المسرح (الإنجليزي). ولقد بارى
راسين الرومانسيين مع أنه المثل المحتذى في الأسلوب الكلاسيكي، في عاطفية غرام فيدر، وجعل هيوليت يتحرق
شوقاً للأميرة أريسيا (وهذا مناقض الأسطورة). وتعلم فيدر بنياً هذا الغرام، ويعطينا راسين في تفصيل منفعل دراسة
للمرأة إذا ازدرت. وهو يخفف من هذه التحليلات الرومانسية بوصف قوي لخليل هيوليت المذعورة وهي تجره حتى
يلقى حتفه.

وفي المقدمة التي يصدر بها راسين تمثييلته فيدر (إذ بدأ يشتد فيه

صفحة رقم : 10648

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي ->
راسين

الحافظ الديني كلما ضعف الحافظ الجنسي) يلوح بغصن الزيتون للبور-روبال فيقول:
"لست أجرؤ على أن أؤكد لنفسي أن هذه...خير مآسي...ولكني وأثق أنني لم أكتب مأساة عرضت فيها الفضيلة في ضوء أفضل. فأنقه الذنوب تعاقب هنا عقاباً صارماً، ومجرد التفكير في الجريمة ينظر إليه هنا نظرة الاستهجان التي ينظر بها إلى الجريمة ذاتها، وعثرات الحب ينظر إليها هنا كأنها عثرات حقيقية، والعواطف المشبوبة لا تعرض على الأنظار إلا لتري الخلل التي هي السبب فيه، والرذيلة مصورة في المسرحية كلها بألوان تتيح لنا أن نراها ونكره شكلها الشائه. وتلك هي الغاية الصحيحة التي ينبغي أن يستهدفها كل من يعمل لجمهور الشعب. ولعل هذه أن تكون وسيلة المصلحة بين الدراما المأساوية، وكثيرين من الأشخاص المعروفين بتقواهم وتعاليمهم، والذين أدانوها مؤخراً، ولكنهم سيحكمون عليها حكماً أكثر عطفاً لو عني المؤلفون بتعليم جمهوره النظارة عنايتهم بالترفيه عنهم، ولو ترسموا في هذا التعليم القصد الصحيح من المأساة(17)".

ورحب آرنو، المعروف بتقواه وتعاليمه، بهذه النغمة الجديدة، وأعلن رضاه عن فيدر. ولعل راسين وهو يكتب المقدمة، وقد بلغ الثامنة والثلاثين، كان يتطلع إلى حياة من الاستقرار يسكن فيها إلى امرأة واحدة بدل النساء الكثيرات. ففي أول يونيو سنة 1677 تزوج زوجة أقره بمهر كبير. وقد أكتشف ما في الحياة العائلية من أسباب الراحة، ووجد من البهجة في ابنه البكر أكثر مما وجد في أكثر مسرحياته توفيقاً. وكانت غير مزاحمية ودينامية قد نفرته من المسرح، فألقى جانباً الخطط والمذكرات التي كان قد أعدها لأربع مسرحيات، واقتصر طوال اثني عشر عاماً على كتابة الشعر والنثر بين الحين والحين؛ لا سيما تأليف تاريخ للبور-روبال طابعه التبجيل والولاء البنيوي. ونغص عليه هذا الهدوء المثالي حادث مؤسف أليم. ذلك أن المحكمة

صفحة رقم : 10649

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي ->
راسين

الخاصة التي كانت تحقيق عام 1679 في تهم التسميم الموجهة ضد كاتيرين مونفوزان استلمت منها اتهاماً لراسين بأنه سمم خليلته تريز دبارك. وأدلت "لفوزان" بتفاصيل الاتهام ولكن لم يكن هناك ما يعززها. وإذا كانت واثقة من أنه سيحكم عليها بالإعدام، فأنها لن تكن تخسر شيئاً باتهام غيرها زوراً، وقد لوحظ أن إحدى زبائنها وصديقاتها هي

الكونتيسة سواسون، وكانت عضواً في العصبة التي قاومت راسين في "غرام فيدر (18)". ومع ذلك كتب لوفوا في أول يناير سنة 1680 إلى المفوض بازان دبيزون يقول "إن الأمر الملكي بالقبض على السيد راسين سيرسل إليك حالما تطلبه" ولكن حين تقدم التحقيق وبدا أنه سيورط مدام دمونتسبان، أمر الملك بحضر نشر سجل المحاكمة، ولم يتخذ أي إجراء ضد راسين (19).

وأظهر لويس ثقته المستمرة في الكاتب المسرحي. ففي سنة 1664 رتب له معاشاً؛ وفي سنة 1674 خلع عليه وظيفة شرفية تغل له 2.400 جنيه في العام في إدارة المالية؛ وفي سنة 1670 عين راسين وبوالو مؤرخين رسميين للبلاد؛ وفي سنة 1690 أصبح الشاعر موظفاً دائماً في معية الملك، فأنته الوظيفة بمود إضافي قدره ألفان من الجنيهات. وفي سنة 1696 بلغ من الثراء مبلغاً أتاح له شراء وظيفة سكرتير الملك.

وقد أعان أدائه النشيط لواجباته مؤرخاً ملكياً على سحبه من المسرح. وكان يرافق الملك في حملاته ليسجل الأحداث تسجيلاً أدق. وفيما عدا ذلك كان يلزم داره شاغلاً نفسه بتربية ولديه وبناته الخمس، وكان يود أحياناً، وسط صخبهم وضجيجهم، لو أنه كان راهباً. وما كان ليكتب أي مسرحية أخرى لولا أن مدام دمانتون لجأت إليه في أن يكتب مسرحية دينية بريئة من كل ما يتصل بالغرام، تمثلها الفتيات اللاتي جمعتن في أكاديمية سان-سير. وكانت أندروماك قد مثلت هناك من قبل، ولكن دمانتون الفاضلة لاحظت أن الفتيات استمتعن بالفقرات الغرامية الحارة. ورغبة في ردهن إلى التقوى كتب راسين مسرحيته "إستير".

صفحة رقم : 10650

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> راسين

ولم يكن قد اقتبس موضوعاً من الكتاب المقدس من قبل، ولكنه درس الكتاب أربعين سنة، وأحاط بكل التاريخ المعقد المدون في العهد القديم. وقام هو نفسه بتدريب الفتيات على أدوارهن، وتبرع الملك بمائة ألف فرنك لتوفير الملابس الفارسية المطلوبة. فلما أخرجت (25 يناير سنة 1689) كان لويس أحد الرجال القليلين الذين شهدوها بين النظارة. وأشدت الطلب على مشاهدتها، من الكهنة أولاً، ثم من الحاشية، وعرضتها أكاديمية سان-سير اثنتي عشرة مرة أخرى. ولم تصل إستير إلى جماهير المتفرجين إلا سنة 1721 بعد موت الملك بست سنين؛ وعندها (بعد أن فقد الدين الرعاية الملكية) لم تلق إلا نجاحاً متوسطاً.

وفي 5 يناير 1691 أخرجت سان-سير أحدث مسرحيات راسين وهي "أتالي". وأتاليا هي الملكة الشريرة التي ظلت سنوات تقود يهوداً كثيرين إلى عبادة البعل الوثنية، حتى عزلتها ثورة قام بها الكهان (20) وجعل راسين من القصة مسرحية لا يشعر بقوتها غير أولئك الذين يشهدونها وهم على علم بقصة الكتاب المقدس، يدفئ صدورهم الإيمان اليهودي أو المسيحي الأصيل، أما غيرهم فسيجدون أحاديثها الطويلة وروحها القائمة مثبثة لهم. وقد بدا أن التمثيلية صفت لطردهن الهيجوتوت وانتصار الكهنوت الكاثوليكي، ولكنها من جهة أخرى حوت في إنذار رئيس الكهنة للملك الشاب جود-تنديداً قوياً بالحكم المطلق:

"وقد نشئت بعيداً عن العرش لم تشعر بفتنته السامة، إنك لا تعرف الانتشاء بالسلطان المطلق، وسحر المتملقين الجبناء. عما قليل سيقولون لك إن أقدس القوانين... ينبغي أن تطيع الملك، وأنه لا ضابط للملك غير مشيئته، وأنه يجب أن يضحى بكل شيء في سبيل مجده الأعلى... وا أسفاه! لقد ظللوا أحكم الملوك (21)".

وقد ظفرت هذه الأبيات بالاستحسان الكثير إبان القرن الثامن عشر،

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> راسين

ولعلها حدث بفولتير وغيره (23) إلى اعتبار أتالي أعظم الدرامات الفرنسية. على أن الأبيات التالية لهذه توحى بأن رئيس الكهنة إنما كان يحاج دفاعاً عن خضوع الملوك للكهنة. أما لويس، الذي بز الآن راسين في تقواه وورعه، فلم يرَ بالتمثيلية بأساً. وواصل استقبال راسين في القصر رغم ما عرف عن الشاعر من تعاطف مع البورجوازيين. ولكن في سنة 1698 حجب الملك رضاه. ذلك أن راسين، بناء على طلب مدام دمانتون، وضع بياناً بالوان العذاب الذي ابتلى بها الشعب الفرنسي في أواخر الحكم. وفاجئها الملك وهي تقرأ الوثيقة، وأخذها منها، وانتزع منها اسم كاتبها، وأخذته سورة الغضب وقال "ألكونه شاعراً فحلاً يحسب أنه يعرف كل شيء! ألا أنه شاعر كبير يريد أن يكون وزيراً أيضاً!" أما مانتون فقد أكدت لراسين وهي تفيض في الاعتذار له أن الزوبعة ستمر سريعاً. ولقد مرت؛ وما لبث راسين أن عاد إلى البلاط واستقبل استقبالاً كريماً، وإن بدا له أقل حرارة من ذي قبل (23).

أما الذي قتل الشاعر فلم يكن نظرة فاترة من الملك بل خراجاً من الكبد. وقد أجريت له جراحة، وخف ألمه فترة، ولكنه لم يكن واهماً حين قال: لقد أرسل الموت إلى كشف حسابه (26) وجاء بوالو، وهو يشكو المرض، ليلازم صديقه العليل. وقال راسين "إنني مغتبط لأنه سمح لي أن

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> راسين

أموت قبلك (27)" وكتب وصية بسيطة كان أهم فقرة فيها هذا الرجاء إلى البورجوازيين: "أود أن تحمل جثتي إلى البورجوازيين-دي-شان، وأن تدفن في مقبرته.. إنني بكل تواضع ألتمس من الأم الرئيسية والراهبات أن يمنحنني هذا الشرف، وإن كنت عليماً بأنني لا أستحقه، سواء لما شاب حياتي الماضية من مخازر، أو لتقصيري في الإفادة من ذلك التعليم من ذلك التعليم الممتاز الذي تلقيتَه من قبل في ذلك الدير، وما رأيت فيه من مثل راعة في التقوى والتوبة... ولكن كلما ازدادت حاجتي لصلوات هذه الجماعة العظيمة الورع (28)".

ومات في 21 إبريل سنة 1699 وقد بلغ التاسعة والخمسين. وأجرى الملك معاشاً على أرملته وأبناءه حتى مات آخرهم.

وتضع فرنسا راسين في صف أعظم شعرائها، لأنه هو وكورنيي يمثلان أرقى ما وصلت إليه الدراما الكلاسيكية الحديثة من تطور. ولقد تقبل بناء على حض والو تفسيراً دقيقاً للوحدات الثلاث: فبلغ بذلك تركيزاً لا يبارى للوجدان والقوة من خلال عمل واحد يقع في مكان واحد ويكمل في يوم واحد. وقد تجنبت تطفل الحكيمات الثانوية-موكل مزج بين المأساة والملهاة، وأخرج العامة من مأسية، ولم يتناول عادة غير الأمراء والأميرات والملوك والملكات. وقد نقي لغته

من كل الألفاظ التي قد تعد نابية في الصالونات أو البلاط، أو تكون محل استنكار في الأكاديمية الفرنسية. وشكا من أنه لا يجرؤ على أن يورد في تمثلياته عملية مبتذلة كعملية تناول الطعام، وإن حفل بها شعر "هوميروس(29)" وكان الهدف هو بلوغ أسلوب يعكس في الأدب حديث الأرسنقراطية الفرنسية وعاداتها. وقد حدثت هذه القيود من مجال راسين. وكانت كل درامة من دراماته قبل إستير، على شاكلة سابقتها-وفي كل منها كانت العواطف واحدة.

صفحة رقم : 10653

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> راسين

على أن راسن شارف الرومانسية في طابع للشاعر التي عبر عنها وفي حديثها، وذلك رغم الفكرة الكلاسيكية، فكرة العقل يطغى على الحياة ويضبط العاطفة والحديث. وبينما نجد العاطفة في كورنبي تؤكد على الشرف، والوطنية، والنبالة، نجدها في راسين تتركز إلى حد كبير حول الحب أو العاطفة المشبوبة؛ ونح نحس فيه تأثير رومانسيات دورفيه، ومدام دسكوديري، ومدام دلافاييت. وكان سوفوكليس أكثر من يعجب بهم من المسرحيين قاطبة، ولكنه يذكرنا أكثر بيوربيديس، الذي تحول فيه قصد سوفوكليس وجلال عبارته بين الحين والحين إلى إفراط في الحماسة والوجدان. وفي هاملت أو مكبث إلى القصد في الحديث أكثر مما في أندرو ماك أو فيدر. وقد أعرب راسين صراحة عن رأيه في أن "أول قاعدة" للدراما "هي أن تسر وأن تمس القلب(30)" وقد فعل هذا بتعامله مع القلب، وباختياره شخوصه الرئيسيين من بين أفراد كانوا عادة من النساء-مرهفي العاطفة، وتحويله تمثلياته إلى سيكولوجية العاطفة. وقد وافق على الحظر الكلاسيكي للحركة العنيفة على المسرح، ومن ثم أخذ نفسه بالتعبير عن العاطفة بالكلام فقط. وألقى هذا عبئاً ثقيلاً على أسلوبه، فأصبحت المسرحية سلسلة من الخطب، وكان استرساله في الأبيات الإسكندرية المتتابعة-وهي ذات المقاطع الاثني عشر والقوافي المزدوجة-هذا الاسترسال أشرف بشعره على الرتابة المملة؛ فنحن نفتقد في راسين وكورنبي ما يطالعا في الشعر الإليزابيثي المرسل من مرونة، وطبيعية، وتنوع لا آخر له. وباله من جهد عبقرى ذلك الذي اقتضاه رفع هذا الشكل الضيق من تماثله الممل، بقوة الأسلوب وجماله! أن راسين وكورنبي ينبغ ألا يقرأ، بل يجب أن يسمعا، وحبذا أن يكون ذلك ليلاً في فناء الأبنية أو اللوفر. والمفاضلة بين راسين وكورنبي هواية قديمة لدى الفرنسيين. أما مدام دسفينيه، فأنها بعد أن شهدت "بايزيد" وقبل أن تمثّل-إفجيني

صفحة رقم : 10654

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> راسين

أو فيدر-انحازت إلى كورنبي بحماستها المألوفة. وقد تنبأت في تهور، ولكن ربما بحق، بأن: "راسين لن يستطيع أبداً أن يتجاوز.. أندروماك.. فتمثلياته مكتوبة للأنسة شانمسلية. وسوف يتضح حين يكبر، ويكف عن الحب، هل أخطأت الحكم أم أصبت. إذن فليعيش صديقنا كورنبي طويلاً، ولنغتر له الأبيات الرديئة التي نصادفها في شعره من أجل تلك الفقرات الإلهية التي كثيراً ما ننتشي بها"...

وهذا على العموم رأي كل ذي ذوق سليم (31). ولكن فولتير الذي اضطلع بنشر أعمال كورنبي والتعليق عليها، صدم الأكاديمية الفرنسية بنقده لأخطاء المسرحي الكبير وفجاجاته ولغته الطنانة. كتب يقول "أعترف أنني بنشر كورنبي أصبحت من عباد راسين (32)" وقد أقر الزمن بهذه الأخطاء، وأغترها لرجل لم يحظ بما حظى به راسين من ميزة المجيء بعد كورنبي. فالارتفاع بالدراما الفرنسية من مستأها السابق إلى مكانة "السيد" "وبوليوكت" كان إنجازاً شق من بلوغ النشوات المشبوبة والجمال المنعوم الذي نجده في "أندروماك" "وفيدر". إن كورنبي وراسين هما الموضوعان الذكر والأنثى في شعر القرن العظيم-التعبير القوي عن الشرف والحب..وعلياً أن نأخذهما معاً إن أردنا أن نحس باتساع الدراما الكلاسيكية الفرنسية وقوتها، تماماً كما يجب أن نأخذ ميكلانجلو ورفائيل معاً إن أردنا أن نحكم على النهضة الإيطالية؛ أو بتهوفن وموتسارت إن أردنا أن نفهم الموسيقى الألمانية في ختام القرن الثامن عشر. قال ديفد هيويم، وكان اسكتلندياً حكيماً، ضليعاً في لغة الفرنسيين وأدابهم، "في المسرح تفوق الفرنسيون حتى على اليونان، الذين تفوقوا كثيراً على الإنجليز (32)" وذلك حكم كان خليقاً بأن يدهش راسين ذاته، الذي عبد سوفوكليس باعتباره الكمال مجسماً، وإن جرؤ على منافسة

صفحة رقم : 10655

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> راسين

يوربديس. وفي هذا نجاح، وهو ما يستحق عليه الثناء حقاً. فلقد احتفظ بالدراما الحديثة على مستوى لم يبلغه سوى شكسبير وكورنبي، ولا يدنو منه إنسان بعد ذلك سوى جوته.

صفحة رقم : 10656

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> لافونتين

في ذلك العصر، عصر الخصومات الأدبية الصارخة، يطيب للمرء أن يسمع بتلك الصداقة المشهورة، نصف الأسطورية، بين بوالو، ومولبير، وراسين، ولافونتين- "شلة" الأصدقاء الأربعة.

أما جان دلافونتين فكان العضو المغمور بين الجماعة. ولد كأصحابه لأسرة متوسطة؛ ولا غرور فالأرستقراطية في شغل بفن الحياة عن الفن. وكان مسقط رأسه شاتونتييري في شمبانيا، وابوه المدير المحلي للمياه والغابات، لذلك شب جزءاً حساساً من الطبيعة المحيطة به، وعشق الحقول، والغابات، والأشجار، والأنهار، وكل ساكنيها، وتعلم عادات العشرات من أنواع الحيوان، وتكهن في تعاطف بغاياتها، وهمومها، وأفكارها، فكان كل ما عليه أن يفعله وهو يكتب أن يجري الكلام على ألسنه هؤلاء الفلاسفة متعددي الأرجل، وأصبح "إيزوبا" آخر مذاياً بقصصه الخرافية في ذاكرة الملايين.

وكانت نية أبويه أن يعدها للكهانة، ولكن لم يكن به ميل للخوارق. وحاول أن يمارس القانون، ولكنه وجد الشعر أيسر فهماً. وتزوج فتاة غنية (1647) وأنجب منها ولداً. ثم اتفق مع زوجته على الانفصال (1658) وذهب إلى باريس، وأبهج فوكيه، وتلقى من ذلك المختلس اللطيف معاشاً قدره ألف جنيه، شريطة أن يتحفه بأشعاره أربع دفعات في السنة. فلما سقط فوكيه وجه لافونتين إلى الملك التماساً شجاعاً يرجوه فيه الصفح عن رجل المال. وكانت النتيجة أنه لم يصطل قط بعدها في شمس الملك. فلما جرد من

صفحة رقم : 10657

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> لافونتين

معاشه ولم يكن لديه أي فكرة عن كسب قوته، أوته وأطعمته الدوقة ديبوين التي التقينا بها من قبل في صفوف الفرونديات. وأصدر وهو مستظل بجناحها (1664) أول كتاب في "حكاياته" وهو مجموعة من الأفاصيص الشعرية، مكشوفة على الطريقة البوكاشية، ولكنها مروية في بساطة ساحرة ما لبثت أن جعلت نصف فرنسا، حتى العذارى الخجولات، يقرنها.

وبعد قليل أسكنته مارجريت اللورينية، دوقة أورليان الأرملة؛ قصر اللكسمبورج بوصفه وصيفاً لها. وهناك كتب مزيداً من حكاياته، ومن هناك دفع إلى المطبعة بالكتب الستة الأولى من قصصه الخرافية (1668). وقد زعم أنها صياغة جديدة لخرافات إيزورب أو فيدروس، وكذلك كان بعضها، وبعضها أخذ عن قصص الهند الأسطورية Bidpoi وبعضها من خرافات فرنسا، ولكن أكثرها خلق من جديد في ذلك الغدير الذي يتدفق في ذهن لافونتين وشعره. وكانت أول قصة خرافية تُلخِصاً غير مقصود لحياته الخالية الطروب:

"بعد أن أنفقت الجراد الصيف كله غناء، ألفت نفسها حين أقبل الشتاء مملقة لا تملك ذبابة ضئيلة ولا دودة حقيرة، فمضت تشكو جوعها لجارتها النملة وتسالها إن أقرضتها شيئاً من الحب تقنات به حتى يقبل الموسم الجديد. وقالت

"سأرد لك ديني قبل الحصاد، وأقسم على ذلك بدين الحيوان ومصلحته ومبدئه". أما النملة فلم تكن ممن يقرضون، وهذا أقل عيوبها. لذلك قالت للسانة "وماذا كنت تفعلين في الصيف؟"

صفحة رقم : 10658

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> لافونتين

"كنت أغني ليل نهار لكل وافد، فلا يسؤك هذا". "كنت تغنين: يسعدني أن أسمع هذا. عليك إذن أن ترقصي الآن". كان لافونتين أحكم من ديكارت، الذي ظن أن كل الحيوانات كائنات آلية لا تفكر، فقد أحبها الشاعر، وأحس بتفكيرها، ووجد فيها كلها دروس الفلسفة العلمية. وافتتنت فرنسا بتلقي الحكمة في جرعات سهلة الهضم كهذه. وأصبح كاتب هذه الخرافات أكثر المؤلفين قراء في بلاده. واتفق النقاد مرة في حياتهم مع الشعب، وأثنوا عليه فيمن أثنوا، ذلك أنه برغم بساطته الخالصة كان عليمًا بالفرنسية في لونها الريفي ورائحتها الترابية، وقد خلع على شعره من الرشاقة الطيبة، وطرق التعبير الحلوة، والصورة الحية المحكمة، ما جعل كل البروجوازيين مدعى النبل في فرنسا يغتبطون لأن حيواناتهم، بل حشراتهم، تنطق بالشعر طوال الوقت. قال فونتين "إني استخدم الحيوانات لتعليم الناس(35)". وفي 1673 ماتت مرجريت اللورينية وألّف الشاعر نفسه غارفاً في الديون، وهو الذي كان يغني في غير تدبير للمستقبل، ولم يحسن التصرف في الأجور المتواضعة التي أتت بها كتبه. على أنه كان أكثر حظاً من جرادته، لأن مدام دلاسالبير، المرأة المثقفة العطوف، أوتته وأطعمته ورعته بحذب الأم الرعوم في بيتها بشارع سانت-أوثورية، وهناك عاش قناعة هادئة إلى أن ماتت في 1693. يقول إن وقته كان قسمة بين شطرين: أولهما ينام فيه، والآخر لا يعمل فيه شيئاً. ووصفه لابروبير بأنه رجل يستطيع أن ينطق الحيوان والشجر بكلام رشيق أنيق، ولكنه(36) هو نفسه كان "متبلداً، ثقيلاً"، غيباً في الحديث(37). على أن هناك روايات مناقضة زعمت أن في وسعه أن يكون محدثاً مرحاً إذا وجد أذناً تلائم مزاجه(38). وقد أذاعت شروذ ذهنه عشرات النواذر، الأسطورية إلى حد كبير. من ذلك أنه قال مرة معتزلاً عن وصوله إلى العشاء متأخراً "عدت لتوي من جنازة

صفحة رقم : 10659

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> لافونتين

نملة، وقد سرت وراء الموكب حتى المقبرة، ثم رافقت الأسرة في رجوعها للبيت(39)". وقد قاوم لويس الرابع عشر انتخابه عضواً في الأكاديمية بحجة أن حياة الشاعر وحكاياته لم تكن بالمثل الذي يحتذى، ثم لانته قناته في النهاية (1684)، وقال أن لافونتين وعد بأن يصلح من سلوكه. ولكن الشاعر الهرم لم يعرف فرقاً

بين الفضيلة والخطيئة، إنما عرف الفرق بين الطبيعي وغير الطبيعي، فقد تعلم أخلاقياته في الغابات. وكان كموليير لا يشعر بأي انجذاب للبور-رويال، هؤلاء "المجادلون البارعون" كما وصفهم، الذين "تبدو لي دروسهم باعثة على الغم بعض الشيء(40)" وانضم حيناً إلى "شلة" أحرار الفكر في "التامبل"، ولكن حين أصيب بنقطة كادت توقعه على الطريق، لاح له أن قد أن الأوان ليصلح ما بينه وبين الكنيسة، ومع ذلك فقد تساءل "أكان القديس أوغسطين حكيماً حكمة رابليه(41)؟" ومات في 1695 وقد بلغ الرابعة والسبعين. وكانت ممرضته على ثقة من خلاصه الأبدي، لأنه على حد قولها "كان فيه من البساطة ما يجعل الله يتردد في الحكم عليه بالهلاك(42)".

صفحة رقم : 10660

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> بوالو

5- بوالو

1711 - 1636

في اللقاءات التي جمعت الأصدقاء الأربعة في شارع فيو كولومبييه كان نيقولا بوالو المسيطر عادة على الحديث، وهو الذي وضع قواعد الأدب والأخلاق بكل سلطان الدكتور حونسون وثقته في حانة "رأس التركي" بحي سو هو. وكان كجونسون محدثاً أهم منه مؤلفاً؛ وخير أعماله شعر وسط، ولكن أحكامه كان لها في ميدان الأدب أثر أبقي مما كان لأحكام لويس الرابع عشر في السياسة. وقد أعانت صداقته وتقريره الناقد لموليير وراسين على التغلب على مكائد الجماعات المعادية لهما.

صفحة رقم : 10661

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> بوالو

كان الطفل الرابع عشر لكاتب برلمان باريس. وإذ كان منذور للكهانة فقد درس اللاهوت في السوربون. ولكنه تلمذ، ودرس القانون وكان على وشك الاشتغال بالمحاماة حين مات أبوه (1657)، مخلفاً له ميراثاً يكفيه وهو يقرض الشعر. وأنفق عشر سنين يشحذ قلمه، ثم راح يصدر أحكامه على زملائه في اثنتي عشرة أهجبية (1666 وما بعدها). ذلك أن هذا الحشد الرهيب من النظامين الجياح(43) روعه، فهاجمه كأنه جيش من الجراد، وسمى بعضهم بأسمائهم، فخلق له أعداء بقوافيه. وجر على رأسه أيضاً سخط النساء بسخريته من القصص الرومانسية التي كانت السيدتان سكوديري ولافاييت تضيعان بهما ورق فرنسا ووقتها. وقد امتدح القدامى، وامتدح منبئين المحدثين ماليرب وراكان، وموليير وراسين. قال "أحسبه من حقنا أن نسمي الشعر الرديء رديئاً دون أن نُؤذي الضمير أو الدولة، وأن يكون لنا مطلق الحق أن نستشعر الضجر من قراءة كتاب غبي(44)". على أن هذه الأهاجي تضجرنا هي الأخرى لأن هدفها قد تحقق: فالشعراء الذين أدانتهم هدموا هدماً لم يبق على أثر لهم في ذاكرتنا أو في اهتمامنا؛ يضاف إلى هذا أن أصحاب العقول الغضة منا، ولا سيما إذا كنا مؤلفين، يؤثرون النقاد الذين يرشدوننا إلى الطيب على أولئك الذين يسخرون من الخبيث.

وبعد أن ذهب بوالو في أهاجيه مذهب جوفينال الصارم، خفف من غلوانه بالترام مذهب هوراس الأكثر اعتدالاً، ووصل إلى أسلوب ألين في سلسلة من الرسائل (1669-95). وهذه الرسائل الشعرية هي التي أغرت لويس بدعوته إلى البلاط. وسأله الملك ما أفضل شعره في ظنه. أما بوالو الذي كان يترقب فرصته الكبرى فلم يقرأ شيئاً من شعره المنشور، ولكنه تلا بعض شعره بمدح الملك العظيم، وكان أبياتاً لم تطبع بعد قال عنها إنها أقل شعره رداءه. وأجازه لويس بمعايش قدره ألفان من الجنيهات(45)، وأصبح شخصاً "مرضياً عنه" في البلاط. قال لويس "أحب بوالو لأنه سوط تأديب ضروري نصلته على ذوق كتاب الدرجة

صفحة رقم : 10662

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> بوالو

الثاني السقيم(46)". وكما أن لويس ساند موليير في حملته على المتعصبين. كذلك لم يفه بأي احتجاج حين نشر بوالو ملحة ساخرة سماها "الوتران" (1674)، هزأ فيها برجال الكنيسة الغافلين النهمين. وفي 1677 عين الشاعر الهجاء مؤرخاً رسمياً مع راسين، وفي 1684 قبل نهائياً في الأكاديمية بأمر صريح من الملك، ورغم احتجاجات أولئك الذين سلخ جلودهم.

أما القصيدة التي طفت به فوق دوامات الزمن فهي "فن الشعر" (1674) التي ضارعت في تأثيرها النموذج الذي نسجت على منواله، وهو كتاب هوراس Ars poetica، ويستهل بوالو قصيدته بتنبيه شباب الشعراء إلى أن "بارناس" جبل وعز، فليستوثقوا إذن قبل أن يشرعوا في ارتقاء جبل ربات الشعر والفن أن لديهم شيئاً يستحق أن يقال، شيئاً يعزز الحقيقة ويعين على الإدراك والذوق السليمين. وهو يقول لهم ناصحاً: نوعوا حديثكم، فإن أسلوباً بالغ التكافؤ شديد التماثل (كأسلوب بوالو) يحملنا على النوم، و "حبذا الشاعر الذي ينتقل، بلمسة رقيقة، من الخطير إلى الخفيف، ومن السار إلى العنيف(47)". "وأرهقوا أذانكم لإيقاع ألفاظكم. واتبعوا قواعد ماليرب في اللغة والأسلوب. وادرسوا القدامى لا المحدثين: هومر وفرجل في شعر الملاحم، وسفوكليس في المأساة، وتيرانس في الملهة، وهوراس في الهجاء، وتيوقريطس في شعر الرعاة". "أسرعوا في بطة، وضعوا إنتاجكم على السندان عشرين مرة دون أن يفت ذلك من عضدكم... وأضيفوا إليه قليلاً، واحذفوا منه(48) كثيراً. أحبوا من ينتقدونكم، وصححوا أخطاءكم دون تدمر وأنتم تتحنون لحكم العقل(49). وأعملوا للمجد، ولا تجعلوا الكسل الخسيس هدفاً لجهدكم(50). فإذا كتبتم درامات فراغوا الوحدات، واجعلوا الفعل الواحد، المكتمل في مكان واحد ويوم واحد، يبقى المسرح ممثلناً بجمهوره إلى النهاية(51). أدرسوا البلاط وتعرفوا على المدينة

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> بوالو

فكلاهما غني بالنماذج، ولعل هذا هو السر في الفوز الذي حققه موليير لفنّه(52)". وانضم بوالو إلى موليير في السخرية من "المتحذلقات" واحتقر شعر الحب المتكلف الذي أضعف الشعر الفرنسي، وقابل بين هذه العاطفة الكاذبة وبين تمجيد ديكارت للعقل وغرس الآداب القديمة لضبط المشاعر. وصاغ مبادئ الأسلوب الكلاسيكي، وأجملها في بيتين شهيرين "أحبوا العقل إذن، ولتقبس كتاباتكم منه بهائها وقيمتها(53)" فلا زيف في العاطفة، ولا انفعال، ولا كلام طنان، لا تحذلق، لا تكلف، ولا غموض التباهي والغرور. فالمثل الأعلى في الأدب، كما في الحياة، هو ضبط رواقى للنفس، و"لا تزيد أو إفراط". وقد أحب بوالو موليير، ولكنه أسف على هبوطه إلى درك المسلاة "الفارص". وأحب راسي، ولكن يبدو أنه لم يفتن إلى تمجيده الرومانسي للوجدان، ولم يلاحظ بطالته المتفجرات بالانفعالات-هرميون، وبرينيس، وفيدر. والمقاتل لا يد مبالغ في نصيبه من الحقيقة. ولقد كان في بوالو من قوة المحارب ما أعجزه عن فهم ما قاله بسكال من إن للقلب دواعيه التي لا يفهمه الدماغ، وأن الأدب بغير وجدان قد يكون له ملامسة الرخام وبرودته. لقد سمح هوراس بالوجدان فقال "إن أردت أن أبكي" أي أن أحس مما تكتب، "فعليك أن تبكي أنت أولاً" أي عليك أن تحس أنت بالأمر. إن فن العصور الوسطى وأدبها ظلاً محجوبين عن عين بوالو. وكان أثر تعليمه هائلاً. فقد حاول الشعر والنثر الفرنسيان التزام قواعد الكلاسيكية طوال قرون ثلاثة. وشاركت هذه القواعد في تشكيل أسلوب الأدب الإنجليزي في "العصر الأغسطي" الذي قد شاعره بوب في صراحة "فن الشعر" في كتابه "مقال في النقد". وكان تأثير بوالو ضاراً ونافعاً. فهو باستنكاره الخيال والوجدان، وضع صماماً

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> بوالو

على الشعر في فرنسا بعد راسين، وفي إنجلترا بعد درايدن. واتخذ الشعر في أفضل نماذجه شكل النحت بالإزميل، ولكنه فقد دفء التصوير ولونه. ومع ذلك كان من الخير أن يدخل هدف العقل إلى ساحة الأدب المحض، فقد كتب الكثير جداً من اللغو عن الحب والرعاة، واحتاجت أوربا إلى احتقار بوالو الغاضب حتى تظهر ذلك الجو الأدبي، جو السخف والتكلف والعاطفة السطحية. وربما كان الفضل لبوالو في ارتفاع موليير من "الفارص" إلى الفلسفة، وفي محاولة راسين البلوغ بفنّه إلى مرتبة الكمال.

وكان مما يتلاءم وطبيعة بوالو تماماً مسلكه بعد أن اشترى بيتاً وحديقة في أتوى بفضل نفحة من نفحات الملك (1687)، فهو لم يذكر شيئاً في كتاباته عن الطبيعة المحيطة به اللهم إلى أنه من تلك الحقول اتخذ الآن اسم "دسبريو". هناك عاش أكثر ما بقي له من أجل في هدوء بسيط، لا يزور البلاط إطلاقاً، ويرحب ترحيباً حاراً بأصدقائه. وقد لاحظ الناس أن "له أصدقاء كثيرين رغم أنه تكلم بسوء عن كل إنسان (54)". وكان فيه من الشجاعة ما حمله على الإعراب عن عطفة على البور رويال، وعلى أن يخبر يسوعياً بأن رسائل بسكال الإقليمية إحدى ورائع النثر الفرنسي. وقد عمر بعد موت جميع أفراد الجماعة التي كان منظرها المرموق: فموليير لقي ربه منذ أمد بعيد، ثم لحق به لافونتين في 1693، ثم راسين في 1699، وتحدث الهجاء العجوز العليل بتأثر عن "الأعزاء الذين فقدناهم، والذين اختفوا كأنهم حلم إنسان استيقظ من نومه (55)" وحين دنت منيته غادر أتوى وذهب ليومت (1711) في مسكن كاهن اعترفه بصومعة النوتردام، مؤملاً أن لا يجرؤ الشيطان على أن يمسه بسوء هناك.

صفحة رقم : 10665

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> الاحتجاج الرومانسي

6- الاحتجاج الرومانسي

لم تقبل سيدات المجتمع على القواعد الكلاسيكية-قواعد العقل، والاعتدال، وضبط النفس-إقبال كورني العجوز وراسين الشاب. ذلك أن عالمهم كان عالم الوجدان والرومانس، وقد حفزت "زيجات المصلحة" التي كن يعقدن أو هام الغرام أكثر مما صدتها. ومن ثم نرى الرواية الرومانسية تنمو-جنباً إلى جنب مع الدراما الكلاسيكية- حتى تتضخم حجماً وتلقى استحساناً واسعاً وتؤثر تأثيراً دولياً. ولم تكن سيدات المجتمع في فرنسا ليشبعن من هذه الروايات، ولكن يجدنها مفرطة في الطول، وآية ذلك أنه حين توقف "جوتيه دلا كالبرونيد" عن المضي في روايته "كليوبطرة" بعد أن كتب فيها عشرة أجزاء (1656)، رفضت خطيبته أن تتزوجه إلا إذا ختمها بجزأين آخرين (56). وقد استرقت الأنسة مادلين دسكوديري قلوب نصف فرنسا بوابتها "أرتامين أو كورش الكبير" (1649-53)، و"كليلي" (1654-60) ولكتاهما في عشرة مجلدات. وأشبع غرور المجتمع الفرنسي أن يجد الشخص في هذا الإنتاج الرومانسي العزير، تحت أسماء مستعارة، تصف أعلام العصر وأقطابه المشهورين وتميط اللثام عنهم. وما لبثت سيدات الصالونات وسادته أن أطلقوا على أنفسهم أسماء من هذه الروايات، وتعلموا فنون التهنيد والإنكار شأن أبطالهم وبطلاتهم، وأصبحت الأنسة دسكوديري نفسها تسمى "سافو"، وكذلك كانت تنادي في الصالونات إلى نهاية عمرها الذي بلغ أربعة وتسعين عاماً. وقد كتبت لتسر أخاها جورج، ونشرت كتبها تحت اسمه؛ وأثرت أن ترعاه على أن تتزوج. وظل سلطانها على النساء المتقفات والرجال المعطرين إلى أن غيرت مسرحينا موليير "المتحذقات المضحكات" و"النساء العالمات" من اتجاه الأذواق العالمية، وهنا حبست مادلين في شجاعة آخر مجلد من مجلداتها التسعين عن النشر. والذين يشكون

صفحة رقم : 10666

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> الاحتجاج الرومانسي

الفرغ قد يجدون إلى اليوم في صفحات "كورش الكبير" الخمس عشرة ألف، أو صفحات "كليلي"، العشرة الآلاف، فقرات تتميز برفقة العاطفة، أو تنفرد بتحليل الخلق. كذلك تستحق لاسكوديري أن تتذكرها لما قامت به من جهد في سبيل النهوض بتعليم النساء في فرنسا.

وأما "ماري مادلين بيوش لافيرن"، التي أصبح اسمها بعد الزواج الكونتيسة لافاييت، فهي شخصية أكثر فتنه، لأنها لم تكتب قصة رومانسية شهيرة فحسب، بل عاشت أيضاً قصة أشهر. وقد أتيح لها تعليم مكتمل على غير العادة، ثم ذهبت لتعيش في أوفرن بعد زواجها (1655). ولكنها حين وجدت الحياة هناك مملة اتفقت مع زوجها على الانفصال (1659)، وذهبت إلى باريس، وانضمت إلى الجماعة التي تلقت في قصر رامبويه. ثم أصبحت وصيفة الشرف لمدام هنرييتا، وخلدتها بعد حين في مذكرات تفيض محبة. وكانت قريبة وصديقة لمدام دسفينيه التي كتبت تقول فيها بعد عشرة أربعين عاماً "لم تحجب سماء صداقتنا أقل سحابة، ولا أبلى طول الألفة من فضائلها في نظري، فقد كان شذاها على الدوام نظراً جديداً (57)". وتلك تحية للطرفين قل أن تجد لها نظيراً، لأن الصداقات تبلى كالحب الرومانسي. وسنلتقي بمزيح نادر من الحب والصداقة في علاقات مدام دلافاييت بلاروشفوكو.

وقد وقعت على الجديد الثوري حين قررت أن تبارز بقلمها الأنسة دسكوديري. ذلك أنها كتبت رواية في مجلد واحد لا يزيد طولها على مائتي صفحة. واعتقت مبدأ مؤداه أنه إذا تساوت كل الاعتبارات الأخرى فإن خير الكتب ما حذف أكثر ما في نصه الأصلي، فكل جملة تحذف تضيف جنيهاً ذهبياً لقيمة الكتاب، وكل كلمة تحذف تضيف عشرين فلساً. وبعد أن نشرت أعمالاً صغيرة ألفت (1672) ونشرت (1678) رائعته المسماة "أمير كليف". وحبكة الرواية (إن شئنا أن نخلط بين الاستعارات) هي

صفحة رقم : 10667

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> الاحتجاج الرومانسي

مثلث ذو مماس. فالأنسة شارتر فتاة بارعة الجمال ولكن في تواضع يجعل من أمير كليف عبداً لها لأول نظرة. وتتزوج عملاً بنصيحة أمها، ولكنها لا تشعر نحوه شعوراً أحر من الاحترام. وما يلبث دوق نيمور أن يراها فيهمم بها لتوه، وتصدده هي في إحساس بالفضيلة، ولكن إلحاحه المحموم يمس قلبها، وشيئاً فشيئاً تتحول الشفقة فيها حباً. وتعترف بهذا التطور لزوجها، وتتوسل إليه أن يبعتها عن القصر وعن التجربة، ولكنه لا يستطيع أن يصدق أنها وفيه له، فيخترمه الهم حتى يقتله، وكان قرنيه الوهميين خرقاً حلقة. أما الأميرة فتصد الدوق وضميرها يكتها على موت الأمير، وتكرس ما بقي لها من عمر لأعمال البر. وقد علق "بيل" الشكاك على القصة بقوله: لو أن امرأة بهذا الطهر والوفاء وجدت في فرنسا لمشى ألفاً ومائتي ميل ليرها (58).

ونشر الكتاب غفلاً من اسم المؤلفة، ولكن سرعان ما أستقر رأي الأوساط الأدبية على أنه إحدى ثمرات علاقة حميمة مشهورة آنذاك. قالت الأنسة سكوديري: (لقد كتب مسيو دلاروشفوكو ومدام دلافاييت رواية.. قيل لي أنها كتبت على

نحو ينثر الإعجاب(59))، ولكنها أضافت "أنهما لم يعودا في سن تسمح لهما بالاشتراف معاً في أي عمل غير هذا(60)". ولكن كلا المؤلفين المزعومين أنكرا تأليف الرواية. وكتبت لاسكوديري تقول "إن الأميرة كليف أرملة مسكينة تيراً منها أبوها وأمها". أياً كان الأمر، فقد أجمع الكل على أنها أروع رواية كتبت في فرنسا إلى ذلك الحين. واعترف فونتيل بأن قرأها أربع مرات، وكان رأي بوالو، عدو الرومانس، في مدام دلافيين أنها "أبدع عقل وأفضل كاتبة بين نساء فرنسا". ويقر التاريخ للأميرة كليف بأنها من أول الروايات السيكولوجية وما زالت من أفضلها. وهي الرواية الفرنسية الوحيدة من روايات ذلك العصر التي ما زال في الإمكان قراءتها دون ما ألم.

صفحة رقم : 10668

قصة الحضارة - < عصر لويس الرابع عشر - > فرنسا في أوج عظمتها - < أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي - >
مدام دسفينيه

7 - مدام دسفينيه

1626 - 1696

ولكن بقي من آثار ذلك العصر عشرة مجلدات من تأليف امرأة أيضاً في الإمكان قراءتها في بهجة مستسلمة حتى في نبض زماننا السريع. والمؤلفة، وهي واري درابوتان-شاننال، فقدت أبويها في طفولتها وورثت ثروتها الكبيرة. وقد شارك في تعليمها نفر من خيرة العقول في فرنسا، ونشأتها خيرة الأسر في فرنسا على فنون الحياة. فلما بلغت الثامنة عشرة تزوجت هنري، مركز دسفينيه، ولكن هذا الزير كان يحب مالها أكثر من شخصها، وبدد بعضه على خليلاته، وبارز خصماً بسبب إحداهن، وقتل في المبارزة (1651). وحاولت ماري أن تنسأه، ولكنها لم تتزوج بعده، بل فرغت لتربية ابنها وابنتها. ولعلها كما ألمح ابن عمها الحقود بوسي-رابوتان كانت "ذات مزاج بارد"(61) أو لعلها تعلمت أن الجنس يستنزف الذات أما الأمومة فتحققها. وخطاباتها تفيض سعادة، كلها تقريباً سعادة الأمومة.

ولقد أحببت المجتمع بقدر ما تشككت في الزواج. وكان لها، وهي الأرملة الشابة التي تملك ثروة بلغت 350.000 جنيه(62)، خطاب كثيرون من النبلاء-تورين، وروهان، وبوسي... ولم ترَ معنى لطردهم جميعاً إلا واحداً، ومع ذلك لم تلوث سمعتها كلمة فضيحة أو علاقة محرمة واحدة. وكان أصدقائها يحبونها بإخلاص أكثر صدقاً-ومنهم دريتز، ولاروشفوكو، ومدام دلافيت، وفوكيه. أما الأول والثاني فقد أقصيا عن القصر لاشترافهما في حرب الفروندي، وأما الأخير فلثروته التي لم يستطع تعليلها، ولم تلقَ مدام دسفينيه، الوفية وفاء حاراً للأربعة على السواء، ترحيباً في الرحاب الملكية المقدسة وإمالة كلمات متفضلة من الملك في حفلة مثلت فيها مسرحية إستير بسان-سير. أما في خارج البلاط فكانت دوائر كثيرة

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> مدام دسفينيه

تبتهج بصحبتها، لأنها كانت تملك كل مفاتيح المرأة المثقفة، كانت تتكلم بنفس الحيوية التي تكتب بها، وذلك إزاء يناقض إطرأ ألفناه أكثر منه؛ فطالما يسدي إلينا النصح، ربما في غير تبصر، بأن نكتب كما نتكلم. وقد بق من رسائلها أكثر من ألف وخمسمائة، وجلها موجه لابنتها، فرنسواز مارجریت. التي تزوجت الكونت دجرينيان (1669)، وسرعان ما رحلت إلى بروفانس لتعيش معه، وكان نائباً لحاكمها. فظلت الأم من 1671 إلى 1690 تبعت بخطاب مع كل بريد تقريباً وأحياناً مرتين في اليوم-إلى هذه الزوجة الشابة التي فصلتها عنه أرض فرنسا كلها طويلاً. كتبت تقول لها "إن مراسلتي لك هي عافيتي، ولذة حياتي الوحيدة، وكل اعتبار آخر يتضاءل بالقياس إلى هذا(63)". ذلك أن الحب الذي لم يجد رجلاً يشيعه أصبح غراماً مشبوحاً بابنة أحست أنها غير جديرة به، لأن فرانسواز كانت ذات خلق أكثر تحفظاً، ولم تعرف كيف تعرب عن مشاعرها بحرارة. ثم كان لها زوج وأطفال يتطلبون العناية بهم، وكانت أحياناً تصبح ضيقة الخلق أو مكتئبة المزاج، ومع ذلك ظلت طوال خمسة وعشرين سنة، إلا في فترات مرضها، تكتب لأمها مرتين في الأسبوع، لا يفوتها بريد إلا نادراً، حتى لقد أفلق الأم الممتينة بها أن تكون قد جارت على وقت ابنتها.

وأبلغ ما في هذه الرسائل تأثيراً على النفس ما روى حياة طفلة مدام جرينيان البكر ونهاية هذه الحياة في الدبر. ذلك أنها قدمت باريس لتلد في كنف أمها. وما لبثت أن أرسلت إلى زوجها اعتذاراً لأنها ولدت بنتاً-لابد من تربيتهما بجهد أليم، ومهرها بمهر غال، ثم فقدها؛ ولما عادت فرنسواز إلى بروفانس تركت ماري بلانش الصغيرة حيناً مع جدتها التي افتتنت بها. وكتبت مدام دسفينيه للأب تقول "إن كنت تريد ولداً فاعكف على صنعه(64)" كتبت للوالدين اللذين لم يقدر أطفالتهما تفاصيل نشوانة عن العجبية التي أنجباها كارهين:

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> مدام دسفينيه

"إن ابنتكما الصغيرة تغدو محببة للنفس...بيضاء كالثلج، ضاحكة على الدوام...ولون بشرتها، وعنقها، وجسدها الصغير كلها عجيب. وهي تقوم بعشرات الحركات الصغيرة-تثرثر، وتلاطف، وتضرب، وترسم علامة الصليب، وتطلب العفو، وتحنني، وتقبل يدها، وتهز كتفيها، وترقص، وتتملق، وتشد الأذن...وأنا ألهو معها ساعات بطولها(65)".

وقد ذرفت الجدة دموعاً كثيرة لتدع هذه العجبية الريانة البدن تذهب إلى بوفانس، ودموعاً أكثر حين أودعها الأبوان ديراً وهي لم تتجاوز الخامسة، ولم تعد الطفلة بعدها، ففي الخامسة عشرة قطعت على نفسها عهد الرهينة واختفت من العالم.

وكان نائب الحاكم رجلاً متلافياً، يولم الولايم فوق ما يسمح به مركزه. وكانت زوجته تنبئ أمها بانتظام بما تتوقعه من قرب إفلاسهما، أما الأم فكانت توبخهما في محبة وترسل لهما المبالغ الكبيرة من المال "كيف، بحق محبة الله والناس، يستطيع إنسان أن يحتفظ بهذا القدر الكبير من الذهب والفضة والحلي والأثاث وسط الفقر المدقع الذي ابتلي به من يحيط بنا من الفقراء في هذه الأيام(66)". ورغبة في الاحتفاظ بقدرتها المالية بعد هذه الاستقطاعات، كانت مدام دسفينيه تعنى بتفقد أملاكها في لي روشييه بإقليم برينتي لتستوثق من أنها تلقى الرعاية الواجبة، ومن أن ريعها يصلها بعد اختلاسات معقولة. ووجدت سعادة جديدة في الحقول، والغابات، وفلاحي برينتي، وكتبت عنهم بنفس الحيوية التي كتبت بها عن المجتمع الباريسي الذي كانت له أشبه برسالة نصف أسبوعية لابنتها.

وكان ابنها مشكلاً من نوع آخر. فهي شديدة التعلق به لأنه فتى طيب، يملك كما قالت "معيناً من الذكاء وروح الفكاهة... وقد ألف أن يقرأ علينا فصولاً من رابليه يكاد يموت السامع من الضحك عليها"(67). وكان شارل ابناً مثالياً، إلا إذا استثنينا ترسمه خطي أبيه في التنقل من إغراء إلى إغراء، إلى أن-ولكن لندع مدام دسفينيه، وهي تكتب

صفحة رقم : 10671

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> مدام دسفينيه

لابنتها، تتحمل تبعة باقي القصة، فلا شيء أكثر إيضاحاً لطابع العصر :

"بقيت كلمة أو كلمتان عن شقيقك... فبالأمس أراد أن يقص عليّ نبأ حادث مروع وقع له. ذلك أنه صادف لحظة سعيدة، ولكن حين وصل إلى بيت القصيد-كان شيئاً عجبياً! فإن الفتاة المسكينة لم يرفه عنها أحد في حياتها قط بمثل هذا، أما الفارس فقد تقهقر بعد أن هزم شر هزيمة، وظن أن سحراً ألقى عليه، وأطف ما في القصة أنه لم يشعر بالراحة إلا بعد أن أنبأني بكارنته. وضحكنا عليه حتى استلقينا، وقلت له أنني مغتربة جداً لأنه عوقب حين أثم... لقد كان منظرًا يستحق أن يسجله موليير (68)".

وأصيب الفتى بالزهري، فعنفته؛ ولكنها مرضته في حب. وحاولت أن تثبت فيه شيئاً من الدين، ولكن نصيبها من الدين كان من الضالة بحيث لم تستطع أن تعطيه الكثير منه. وقد تأثرت بمواعظ بوردالو، وخبرت دقات فجائية من التقوى، ولكنها كانت تبتسم حين ترى المواكب الدينية التي أبهجت أهل المساكن الفقيرة. وقرأت آرنو، ونيكول، وبسكال، وتعاطفت مع ألبور-روبال، ولكن صدها تركيزهم على تجنب الهلاك الأبدى، ذلك أنها لم تستطع أن تقتنع نفسها بالإيمان بالجحيم (60). وكانت على العموم تجفل من التفكير الجاد، فمثل هذه الأمور ليست للنساء، ومن شأنها أن تعكر جمال الحياة الوداعة. ومع ذلك كانت ذواقه في قراءاتها-نقرأ فيرجل وناسيتوس والقديس أوغسطين باللاتينية، ومونتيني بالفرنسية، وتعرف مسرحيات كورني وراسين معرفة وثيقة. أما فكاهتها فكانت أعمق وأبهج من فكاهة موليير. فلنستمع إليها تتحدث عن صديق مدمن للتأمل الشارد:

"انقلب برانكا قبل أيام في مصرف وجد نفسه فيه مرتاحاً جداً حتى لقد سأل من سار عوا ليخرجوه منه أبهم حاجة إلى خدماته. وقد كسرت نظارته، ولولا أن حظه كان خيراً لكسر رأسه أيضاً، ولكن هذا كله لم يقطع تأملاته قط. وقد أرسلت له كلمة هذا الصباح... أنبئه

صفحة رقم : 10672

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> مدام دسفينيه

فيها أنه انقلب وكاد عنقه يدق، لأنني اعتقد أنه الشخص الوحيد الذي لم يسمع بالحادث في باريس (70)". وهذه الرسائل في مجموعها تؤلف صورة من أكثر الصور كشفاً في الأدب، لأن المركزية تسجل فيها أخطاءها وفضائلها دون تحفظ. فهي الأم المحبة، التي تجد نفسها على سجيبتها سواء في صالونات العاصمة أو في حقول بريتي، وهي تكتب لابنتها عن ألقه أحاديث الأرسقراطية وقليلها وقالها، ولكنها تقول أيضاً "إن الليل، والوقواق، والهزاز كلها بدأت تصدح في ربيع الغابات"، وندر أن تقوه بكلمة سوء عن منات الأشخاص الذي يرفون خلال صفحاتها الألفين، وهي على الدوام مستعدة لمديد المعونة للمكروبين، مجملة حديثها بالرقيق من التحية والمجاملة، مذنبية بين الحين والحين بالمرح القاسي (كضحكها على شفق بعض المتمردين المساكين في برتني)، ولكنها مرهفة الإحساس بالأم الفقراء، وهي تغضي عن فساد زمانها وطبقتها، ولكنها بلا لوم في سيرتها الشخصية؛ إنها روح تفيض بالنية الطيبة وحب الحياة، فيها من التواضع ما يمنعها من نشر كتاب، ولكنها تكتب أفضل فرنسية في عصر أفضل فرنسية كتبت على الإطلاق.

تري هل خطر ببالها أن رسائلها قد تنتشر في يوم ما؟ كانت أحياناً تسترسل في تحقيقات من البلاغة كأنها تشم مدام المطابع، غير أن رسائلها حافلة بتفاصيل العمل، وبالمصارحات العاطفية، والمكاشفات المرحجة التي لا يمكن أن تكون قصدت على القراء. كانت تعلم أن ابنتها تطلع أصدقاءها على رسائلها، ولكن مثل هذه المشاركة كانت كثيرة في تلك الأيام، حين كادت المراسلة أن تكون وسيلة الاتصال الوحيدة بين المسافات الطويلة، وقد ورثت وحفظت الرسائل حفيدتها بولين، التي منعتها من أن تدخل ديراً كما فعلت شقيقتها بلانش ماري، ولكنها لم تنتشر إلا عام 1726، بعد موت المركزية بثلاثين عاماً. وهي اليوم من أعلى عيون الأدب الفرنسي، وكأنها باقة زهر غنية يزداد عيبرها انتشاراً على الأيام.

صفحة رقم : 10673

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> مدام دسفينيه

وازداد تفكيرها في الدين كلما دننت نهايتها، وقد اعترفت بخوفها من الموت والحساب. وبين ضباب بريتي ومطر باريس أصابها الروماتزم، ففقدت فرحتها بالحياة، وأدركت أنها بشر فان. "لقد ولجت الحياة دون رضاي، ويجب أن أخرج منها؛ هذه الفكرة تطغى علي.. وكيف أخرج؟.. ومتى؟.. إنني أدفن نفسي في هذه الأفكار، وأجد الموت شديد الرهبة حتى لأبغض الحياة لأنها تقضي بي إلى الموت أكثر من بغضي لها لما يملؤها من أشواك. ستقولين أنني أريد أن أحيأ إلى الأبد. ليس الأمر كذلك مطلقاً، ولكن لو أخذ رأيي لآثرت أن أموت بين ذراعي مربيتي، فقد كان هذا خليقاً بأن يوفر علي اضطرابات الروح ويكفل لي الجنة في كل يقين ويسر (71)".

وليس صحيحاً أنها بغضت الحياة لأنها تقضي بالموت، إنما هي أبغضت الموت لأنها استمتعت بالحياة استمتاعاً شديداً قرابة سبعين عاماً. وإذ كانت أمنيته أن تموت في بيت ابنتها الحبيبة، فإنها عبرت فرنسا خلال أربعين عاماً في رحلة

عذاب إلى شاتو جرينيان. فلما أقبل الموت لقيته بشجاعة أدهشتها، ووجدت العزاء في تناول الأسرار المقدسة، وعللت نفسها بالخلود. ولقد وهب لها الخلود حقاً.

صفحة رقم : 10674

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> لاروشفوكو

8- لاروشفوكو

1680-1613

شتان ما بين هذا الروح، وروح أشهر الكلبين المحدثين، وأقصى من مزق القناع عن نقائصنا، ذلك العليل المكتئب الذي شوه سمعة النساء واقترى على الحب، والذي أحبته ثلاث نساء حتى الموت. كان النبيل السادس المسمى فرانسوا دلاروشفوكو، سليل أسلاف كثيرين من الأمراء والكونتات، والابن البكر للرئيس الأكبر لإدارة الملابس والحلي للملكة والوصية ماري دمديتشي.

صفحة رقم : 10675

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> لاروشفوكو

وكان اسمه الأمير مارسياك إلى أن ورث لقب الدوقية عند وفاة أبيه (1650). وقد تلقى التعليم في اللاتينية والرياضيات والموسيقى والرقص والمبارزة والأنساب والأثكيت. فلما ناهز الرابعة عشرة تزوج بتدبير أبيه من أندريه ديفون، الابنة الوحيدة والوريثة لبازبار فرنسا الكبير المتوفى. وحين بلغ الخامسة عشرة أمر على فوج من الفرسان، وفي السادسة عشرة اشترى رتبة الكولونيل. وكان يختلف إلى صالون مدام درامبويه الذي هذب عاداته وصقل أسلوبه. ومع كل مثالية الشباب وإثارة للنساء الناضجات نراه يعشق الملكة، ومامد دشفروز، والأنسة دهوتفور.

وحيث تأمرت أن النمساوية على ريشليو استخدمت فرانسوا، ثم كشف أمره، وأودع الباستيل أسبوعاً (1636). فلما أفرج عنه سريعاً نفي إلى ضيعة أسرته بفيرتوي. وراض نفسه حيناً على العيش مع زوجته، ولعب ولديه الصغيرين فرانسوا وشارل، وتعلم أن للريف مباحج لا تستطيع فهمها غير المدينة وفي تلك الأيام لم يكن ممكناً فصح عرى الزواج الشرعي بين الطبقات العليا الفرنسية، ولكم كان من الممكن تجاهلها. وبعد أن قضى الأمير عشر سنوات في زواج المرأة الواحدة الذي أضجره، انطلق للمغامرة في الحب والحرب. وحيث استهدفت عيناه مدام دلونجفيل (1646) لم يعد دافعه إلى ذلك حب مثالي، بل تصميم على الاستيلاء على قلعة منيعة مشهورة، لأنه مما يرفع من قدره أن يغوي زوجة لدوق وأختاً لكونديه العظيم. أما هي فلعلها ارتضته لأسباب سياسية، فقد يكون حليفاً، نافعاً في التمرد الأرستقراطي الذي اعتزمت أن تلعب فيه دوراً نشيطاً. ولما أخبرته أنها حبلى منه (72)، منح كل تأييده للفروند. وفي 1652 نبذته واتخذت الدوق نيمور عشيقاً، وحاول لاروشفوكو إقناع نفسه بأن ذلك ما كان يصيبوا إليه، وكما قال بعد ذلك "حين نحب إنساناً إلى درجة الملل... فإننا نرحب أشد الترحيب... بفعل من أفعال الخيانة يبرر تحللنا من ذلك الحب (73)" في ذلك العام، وفيما كان يحارب في صفوف الفروند في ضاحية

صفحة رقم : 10676

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> لاروشفوكو

سانت أنطوان، أصابه رش بندقية في عينيه وخلف به عمى جزئياً. فانكفاً راجعاً إلى فيرتوي. وكان الآن في الأربعين، يحس بوادر النقرس، ويشعر المرارة من كوارث أكثرها من صنعه. أما مثاليته فماتت في إثر مدام دلونجفيل، وفي مؤامرات الفروند الخداعة والنهائية الحقيرة التي انتهت إليها. وقد أزعج فراغه ودافع عن سيرته في "مذكرات" (1662) دل فيها على عظيم تمكنه من الأسلوب الكلاسيكي. وفي 1661 سمح له بالعودة إلى البلاط، ومنذ ذلك التاريخ قسم وقته بين زوجته في فيرتوي وأصحابه في صالونات باريس. وكان أحب الصالونات إليه صالون مدام دسابليه. هناك كانت هي وضيوفها يلعبون أحياناً لعبة "العبارات". يعلق أحدهم بعبارة على الطبيعة البشرية أو سلوك الإنسان، فتتقاذف الجماعة العبارة فيما بينها تأييداً واعتراضاً. وكانت مدام دسابليه جارة وصديقة مخلص للبورجوازي-دباري، فاعتنقت رأيه في شر الإنسان الفطري وخواء الحياة الدنيوية، ولعل تشاؤم لاروشفوكو الناجم عن خيبته في الحب والحرب، وعن خيانه السياسية والألم البدني، وعن خدعه غيره واتخاذها بالغير نقول لعل هذا التشاؤم وجد مساندة قليلة من جانسنيه مضيفته. وكان يجد لذة قاتمة في تهذيب عباراته وعبارات غيره وغربلتها على مهل، وسمح لمدام دسابليه وغيرها من الأصدقاء بأن يقرؤوا هذا الحكم، وأن يعدلوا فيها أحياناً. وقد نسخها أحد هؤلاء، وطبع ناشر لص هولندي 179 منها، غفلاً من اسم المؤلف، حوالي سنة 1663، وتبين فيها رواد الصالونات حكم لاروشفوكو، ثم أصدر المؤلف نفسه طبعة أفضل أضاف إليها 317 مثلاً عام 1665 تحت عنوان "عبارات وأمثال أخلاقية". وأصبح هذا الكتيب الذي اختزل الناس اسمه بعد قليل إلى "الأمثال"، من عيون الأدب للتو تقريباً. ولم يعجب القراء بأسلوبه الدقيق المحكم الأنيق فحسب، بل أنهم استمتعوا بما حوى

صفحة رقم : 10677

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> لاروشفوكو

من فضح لأثرة الغير. ولم يفتنوا إلى أن القصة إنما تروى عنهم، إلا فيما ندر. ووجهة نظر لاروشفوكو أوردتها ثاني أمثاله: "إن حب الذات هو حب الإنسان لنفسه، ولأي شيء آخر لأجله. وحيارة الإنسان كلها ليست إلا ممارسة متصلة لهذا الحب وتحريضاً قوياً له" وليس الغرور إلا شكلاً من الأشكال الكثيرة التي يتخذها حب الذات، ولكن حتى هذا الشكل يدخل في كل فعل وفكر تقريباً، وقد تنام شهواتنا أحياناً، ولكن غرورنا لا يهدأ أبداً "إن الذي يرفض الثناء أول مرة يرفضه أنه يريد سماعه ثانية(74)". والتلهف على استحسان الناس لنا هو الأصل لكل الأدب والبطولات الواعية. "وكل الناس يستون كبرياء، والفرق الوحيد هو أنهم لا يتبعون كلهم نفس الطرق في إبدائها(75)". "إن الفضائل تضيع في المصلحة الذاتية كما تضيع الأنهار في البحر(76)". "ولو تأملنا أفكارنا الخفية لوجدنا في صدورنا بذرة كل الرذائل التي نستكرها في غيرنا" ولاستطعنا أن نحكم من الواقع فسادنا الشخصي على الفساد المتأصل في الإنسان(77). وما نحن إلا عبيد شهواتنا، وإذا قهرت شهوة منها فقاهرها ليس العقل بل شهوة أخرى(78)، "والعقل يستغفله الوجدان دائماً"، "والناس لا يشتهون شيئاً بلهفة إذا طلبوه انصياعاً لأوامر العقل فقط(79)", "وأبسط الناس إذا أعانته العاطفة المشبوبة سينتصر أكثر من أفصح الناس بدونها(80)". وفن الحياة يكمن في إخفائنا حب ذواتنا بقدر يكفي لتجنب إغضاب حب الغير لذواتهم. وعلينا أن نتظاهر بقدر من الإيثار "إن النفاق ضرب من الاحترام الذي تقدمه الرذيلة للفضيلة(81)". واحتقار الفيلسوف المزعوم للثراء أو عراقة النسب ليس إلا طريقته في الترويج ليضاعته. وما الصداقة "إلا تجارة لا يفتأ حب الذات يطلب الكسب من ورائها(82)" وقد نقيس إخلاصها إذا لاحظنا أننا نجد في نكبات أصدقائنا شيئاً ليس كله

صفحة رقم : 10678

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> لاروشفوكو

مسيئاً(83). ونحن نبادر إلى الصفح عن أساءوا إلينا بأسرع من صفحنا عن أسأنا إليهم، أو عن تقصروا علينا. فألمونا بخدماتهم(84). والمجتمع حرب بين الفرد والكل. "والحب الصادق أشبه بالأشباح شيء يتحدث عنه كل إنسان ولكن نادراً ما رآه أحد(85)", "وما كنا لنقع في الحب قط لولا سمعنا الناس يتكلمون في الحب(86)". ومع ذلك فالحب إذا كان صادقاً تجربة فيها من العمق ما يجعل النساء اللاتي عرفن الحب مرة ضعيفات القدرة على الصداقة، لأنهن يجدنها باردة غثة بالقياس إلى الحب(87) ومن هنا لم يكن للنساء وجود تقريباً إلا وهن في الحب "قد تلقى نساء لم يسبق لهن غرام غط، ولكن من العسير جداً أن تجد نساء لم يقعن إلا في غرام واحد لا أكثر(88)". "وأكثر النساء المحصنات كالكنوز المخفاة، التي لم تكن في مأمن إلا لأن أحداً لم يفتش عنها(89)". وكان هذا الكلبي العليل عليمًا بأن هذه الحكم البارعة ليست وصفاً منصفاً للبشر. لذلك راح يتجنب الجزم في الكثير منها بألفاظ مثل "تكاد" أو "تقريباً" إلى غير ذلك من التحفظات الفلسفية، وقد اعترف أنه "أسهل أن يعرف المرء النوع الإنساني عموماً من أن يعرف إنساناً واحداً بالذات(90)", "وسلمت المقدمة بأن أمثاله لا تصدق على "المحظوظين القلائل، الذين سرت السماء بأن تحفظهم... بنعمة خاصة(91)". ولا بد أنه سلك نفسه في زمرة هؤلاء

القلائل، لأنه كتب: "إنني أخلص لأصدقائي إخلاصاً لا أتردد معه لحظة في التضحية بمصالحني في سبيل مصالحهم(92)". -ولو أنه كان بلا شك يفسر هذا بأنه راجع لأنه يجد في بذل مثل هذه التضحية لذة أكثر مما يجده في منعها. وقد تحدث بين الحين والحين عن "عرفان الجميل، فضيلة العقول الحكيمة السمحة(93)"، و"الحب، النقي الذي لا تشوبه شهوة (إذا وجد إطلاقاً)، الذي يكمن في أعماق قلوبنا(94)" و"مع أنه يمكن القول، بقدر كبير من الصدق..، أن الناس لا يفعلون شيئاً دون

صفحة رقم : 10679

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> لاروشفوكو

مراعاة لمصلحتهم، إلا أنه لا يستتبع هذا أن كل ما فعلوه فاسد، وأنه لم يبق في الدنيا شيء اسمه العدالة أو الأمانة. فالناس قد يحكمون أنفسهم بوسائل شريفة، ويختطون (لأنفسهم) مصالح كلها الخير والنيل(95)". وقد ألانت الشبخوخة جانب لاروشفوكو، حتى وهي تزيده شجناً على شجن. ففي 1670 ماتت زوجته ثلاثة وأربعين عاماً من الوفاء الصابر، وبعد أن أنجبت له ثمانية أطفال، وقامت على تربيته طوال الأعوام الثمانية عشر الأخيرة. وفي 1672 ماتت أمه، وقد اعترف أن حياتها كانت معجزة طويلة من المحبة. وفي تلك السنة جرح اثنان من أبنائه في غزوة هولندا، ومات أحدهما من جروحه. كذلك سقط في نفس الحرب الفاجرة ابنه غير الشرعي الذي ولدته له مدام دلونجفيل، والذي لم يؤذن له بأن يطالب به ابناً برغم أنه أحبه حباً عميقاً. روت مدام دسفينيه "رأيت لاروشفوكو يبكي في حنان جعلني أعبد(96)". ترى أكان حبه لأمه وأولاده حباً لذاته؟ أجل، إذا نظرنا إليهم على أنهم جزء من ذاته وامتدادها لها. وهذا هو التصالح بين الإيثار والأثرة-فلايثار توزيع للذات، ولمحبة الذات، للأسرة، أو الأصدقاء، أو الجماعة. وفي وسع المجتمع أن يقنع بمثل هذه الأنانية السمحة الشاملة. ومن أكثر ملاحظات لاروشفوكو سطحية قوله "أن فضل القليل من النساء يدوم أطول من جمالهن(97)". لقد كانت أمه وزوجته استثنائين، ولم يكن الكرم تجاهل آلاف النساء اللاتي ضيعن جمالهن الجسدي في خدمة الرجل والأطفال. وفي 1665 بذلت امرأة تالثة معظم حياتها. ولا شك في أن مدام دلافاييت أرضت قلبها هي وهي تحاول أن تسري عنه. لقد كان يومها في الثانية والخمسين، يشكو النقرس ونصف العمى، أما هي فكانت في الثالثة والثلاثين، محتفظة بجمالها، ولكنها عليلبة تشكو حمى الملاريا. ولقد روعها ما في أمثاله من كلبية، ولعل فكرة سارة بإصلاح هذا الرجل الشقي والتسرية عنه خالطت رأيها فيه، فدعته إلى بيتها في باريس،

صفحة رقم : 10680

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> لاروشفوكو

فجاء محمولاً على محفة، فعصبت قدمه الموجوعة ووسدتها، وأنتت بأصحابها، ومنهم مدام دسفينيه المتدفقة العاطفة ليساعدها في الترويح عنه. وعاد إليها ثانية، وكثرت زيارته حتى لغطت بها باريس. ولا علم لنا هل دخلت في هذه الزيارات الألفة الجنسية، ولكنها على أية حال كانت جزءاً صغيراً في علاقة أصبحت تبادلاً بين الأرواح. قالت "لقد أعطاني الفهم، ولكنني أصلحت قلبه (98)". ولعله ساعدها في روايتها "أميرة كليف" وإن بعدت رقتها وحنانها عن قسوة "أمثاله" بعد السماء عن الأرض.

وبعد أن ماتت مدام دلاروشفوكو أصبحت هذه الصداقة التاريخية ضرباً من الزواج الروحي، وفي الأدب الفرنسي صور كثيرة لهذه المرأة القصيرة الضعيفة الجسد، تجلس في هدوء إلى جوار الفيلسوف العجوز الذي أفعده الألم عن الحركة. قالت مدام دسفينيه "لا شيء يمكن أن يقارن بسحر صداقتهما وتقتها (99)". وقال بعضهم إن المسيحية تبدأ حيث ينتهي لاروشفوكو (100)، وقد تبينت صحة القول في هذه الحالة، ولعل مدام دلافاييت الصادقة الورعة أقنعت به بأن الدين هو الكفيل بالإجابة عن مشكلات الفلسفة. ولما شعر بدنو أجله طلب إلى الأسقف بوسويه أن يناوله الأسرار المقدسة الأخيرة (1680). وقد عمرت صديقته بعده ثلاثة عشر عاماً حافلة بالألم.

صفحة رقم : 10681

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> لابروبير

9- لابروبير

1645 - 1696

بعد موت لاروشفوكو بثمانية أعوام أكد جان دلابروبير تحليله الساخر للآدميين من أهل باريس. وكان جان ابن موظف صغير في الحكومة. درس القانون، واشترى وظيفة حكومية صغيرة، وأصبح معلماً خاصاً لحفيد كونديه العظيم، وخدم أسرة كونديه وصيفاً، وتبعها إلى شانتيي وفرساي. وقد ظل أعزب إلى نهاية حياته. وقد عذبتة حدة الفوارق الطبقيّة في فرنسا لما فطر عليه من حساسية

صفحة رقم : 10682

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> لابروبير

وحياء، ولم يستطع الاستعانة بمظاهر الغرور اللطيفة التي ربما كانت تيسر له طريقه بين النبلاء وفي البلاط، وذلك رغم انتمائه إلى الطبقة الوسطى. وقد لاحظ معرض الوحوش الملكي بعين معادية نفاذة، وانتقم منها بوصفها في كتاب صب فيه كل عصارته الفكرية تقريباً، وقد سماه "الأخلاق لتيوفراست مترجمة عن الإغريقية، مع أخلاق أو عادات هذا العصر". وأصبح الكتاب حديث باريس. لأنه صور تحت أقتعة شفاقة أشخاصاً مشهورين في المدينة أو البلاط، وجعل كلاً منهم يجد المتعة البالغة في فضح الباقيين. ونشرت "مفاتيح" للكتاب تزعم أنها تطابق الصور مع أصولها، وأحتج لابروبير بأن أوجه الشبه عارضة، ولكن أهدأ لم يصدق، وذاع صيته، ونفدت ثمانى طبعات قبل موت المؤلف في 1696، وقد أضاف إلى كل طبعة "أخلاقاً" جديدة تبينتها فيها باريس مرآة العصر.

ونحن الذين فقدنا اليوم مفتاح متحف الصور هذا تبدو لنا مادته هزيلة بعض الشيء، وأفكاره قديمة مبتذلة، وروحه يشوبها بعض الحسد، وهجاؤه سطحيًا جداً، كهجائه لمينالكاس الرجل الشارد الذهن (101). ولا يطلب لابروبير أي تغيير في دين فرنسا أو حكومتها. وقد رأى أن من الخير أن يكون هناك فقراء، وإلا لكان العثور على الخدم عسيراً، ولما وجد أحد يستخرج المعادن أو يفلح الأرض، والخوف من الفقر لا غنى عنه لإنتاج الثروة (102). وكان يسلك بوسويه في عداد أصدقاءه مفاخرًا بذلك، وقد أعاد في القسم الخير من كتابه "في أحرار الفكر" الحجج التي أعرب عنها الواعظ العظيم بحكم أفضل ونثر أرفع، وردد البراهين التي ساقها ديكارت عن الله والخلود، واستشهد بشيء من الحذق، في رده على اللأدرين في زمانه بنظام السماوات وجلالها، وعلامات الهدف المرسوم في الكائنات الحية، والإحساس بتقرير المصير في الإرادة وباللامادية في الذهن. وهاجم غرور النبلاء، وجشع رجال المال

صفحة رقم : 10683

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> لابروبير

وخنوع الحاشية الذين صورهم ينظرون إلى لويس لا إلى المذبح في كنيسة فرساي؛ ولكنه حرص على أن يقدم للملك باقات زهر ينقي بها غضبه (103). وفي فقرة واحدة على الأقل أراح الحذر جانباً وتسامى في جراءة ليصف ذلك البهيمية الذي تردى فيه فلاحو فرنسا من جراء حروب الحكم وضرائبه. يقول: "انتشرت في أرجاء الريف حيوانات ضارية، ذكور وإناث، سوداء، ممتعة، أحرقتها الشمس تماماً، والتصقت بالأرض التي تحفرها وتقلبها في إصرار لا يقهر، ولها ما يشبه الصوت المنطوق، فإذا انتصبت على قوائمها بدت في سحنة البش، والواقع أنها فاس من الناس (104)".

وما زالت هذه الصفحة من أبلغ ما كتب في عصر فرنسا الكلاسيكي.

صفحة رقم : 10684

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> مزيد من الأدباء

10- مزيد من الأدباء

هل نحشد الآن بغير نظام، بعد أن أصابنا الإعياء، في ملحق هباب بعض الخالدين الذين بدؤوا يموتون؟ هناك جان شابلان، الذي أعان على تنظيم الأكاديمية الفرنسية، واعتبر في زمانه (1595-1674) أشهر شعراء فرنسا. وهناك جان باتيست روسو، الذي كتب شعراً ينسى، ولكنه كتب أيضاً إجراءات مفدعة جرت عليه النفي من فرنسا (1712) عقاباً على تشهيره بالأشخاص. وقد كتب معظم النبلاء الذين اشتغلوا بالسياسة مذكرات، فرأينا مذكرات دريترز ولاروشفوكو، وسنرى في موضع لاحق مذكرات سان-سيمون. وبلي أولئك مرتبة تلك المجلدات الثلاثة التي سجلت فيها مدام دموتفيل بتواضع خلاب وقائع سنيها الاثنتين والعشرين التي قضتها في بلاط أن النمساوية. ونلاحظ أنها وافقت لاروشفوكو على رأيه إذ كتبت "إن تجربتي القاسية في صداقة البشر الزائفة أكرهنتي على الإيمان بأنه ليس في الدنيا شيء أندر من الأمانة والاستقامة، أو من

صفحة رقم : 10685

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> مزيد من الأدباء

القلب الطيب القادر على عرفان الجميل(105)". لقد كانت هي هذا الإنسان النادر الوجود. وقد حقق روجيه درابوتان، كونت بوسي، نجاحاً في دنيا الفضائح بكتابه "تاريخ غراميات الغالبيين" (1665) الذي وصف غراميات معاصريه مستخفية وراء قدامى الغالبيين. وغضب الملك لكونه سخر فيها من مدام هنرييتا، فزج به في الباستيل، ثم أفرج عنه بعد سنة شريطة أن يعتكف في ضيعته، وهناك ألف "مذكراته" النابضة بالحياة، والغيط يبريه إلى نهاية حياته. وأقل من هذا الكتاب جدارة بالتصديق كتاب "الأفاصيص" الذي رسم فيه تالمان دي ريو صوراً موجزة خبيثة لشخصيات شهيرة في الأدب أو الغرام. وقد جاهد كلود فلوري، بكتابه الأمين "التاريخ الكنسي" (1691)، وسباستيان تيلمون بكتابه "تاريخ الأباطرة" (1690 وما بعدها)، وكتابه "مذكرات ينتفع بها في التاريخ الكنسي للقرون الستة الأولى" (1693) ذي الستة عشر مجلداً-هذان جاهداً في معاناة، ودون وعي منهما، ليمهدا الطريق وينقياها لكتاب جيون "اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها" (1776 وما بعدها). ثم هناك أخيراً شارل دماركتيل شريف سانت-افريمون الذي كان أطف تلك "العقول القوية" التي صدت الكاثوليك واليهجونات، واليسوعيين والجانسيين على السواء، بالتشكك في التعاليم الأساسية لإيمانهم المشترك. وكانت حياته العسكرية الحافلة بالمغامرات تقوده إلى عصى المارشالية حين غضب عليه الملك لأنه كان صديقاً لفوكيه وناقداً لمارازان. فلما نمي إليه أن قد تقرر القبض عليه فر إلى هولندا، ثم إلى إنجلترا (1662). وقد جعلته عاداته المهذبة وذكاءه الشكاك أثيراً في صالون هورتنزي مانشيني بلندن، وفي بلاط تشالز الثاني. وكان كالمارشال دونكور، في

واحد من أكثر حواراته مرحاً(106)، يحب الحرب أولاً، ثم النساء، ثم الفلسفة. وإذ رشف كل المباحج التي في مونتيني، ودرس أبيقور مع جاسندي، فقد

صفحة رقم : 10686

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> مزيد من الأدباء

خلص مع الإغريقي المفترى عليه إلى أن لذة الحس طيبة، ولكن لذة الفكر أطيّب، وأنه لا داع يدعونا لشغل أنفسنا بالآلهة أكثر مما تشغل أنفسها بنا. وقد بدا له الأكل الطيب والكتابة الجيدة مزيجاً معقولاً. وفي 1666 زار هولندا ثاني، والتقى بسبينوزا وتأثر تأثراً عميقاً بالحياة المسيحية التي كان يحيها اليهودي القائل بوحدة الوجود(107). وقد أتاح له معاش أجرته عليه الحكومة الإنجليزية، بالإضافة إلى ما استتفذه من فضلات ثروته، أن يكتب سلسلة طويلة من الكتب الصغيرة، كلها بأسلوب خفيف رشيق شارك في تكوين فولتير. وقد أعان كتابه "تأملات في مختلف أجناس الشعب الروماني" مونتسكييه، وشاركت رسائله إلى نينون دلانكلو بجزء من ذلك التعبير الذي يتضوع خلال الرسائل الفرنسية. ولما بلغ الثامنة والخمسين، ودون وعي منه بأنه سيعمر اثنين وثلاثين سنة أخرى، وصف نفسه بأنه مقلد بصورة لا شفاء له منها. "إنني لولا فلسفة ميسود ديكارت التي تقول أنا أفكر فأذن أنا موجود لما صدقت إنني موجود، وهذا كل ما أفدت من دراسة ذلك الرجل الشهير(108)" لقد كاد ينافس فونتيل في طول عمره، إذ لم يمض إلا عام 1703 بعد أن بلغ التسعين، وقد نال تشريفاً ندر أن حظي به فرنسي، وذلك هو دفنه في دير وستمنستر. كتب فرديريك الأكبر إلى فولتير: "بعد قرون سيترجمون الكتاب المجيد في عصر لويس الرابع عشر كما نترجم نحن كتاب عصر بركليز وأوغسطس". وقبل أن يموت الملك بسنين طويلة شبه الكثيرون من الفرنسيين فن العصر وأدبه بخير ما أنتج القدماء في الفنون والآداب. وفي 1687 قرأ شارل بيرو (أخو كلود بيرو الذي صمم من قبل واجهة اللوفر الشرقية) على الأكاديمية الفرنسية قصيدة سماها "قرن لويس العظيم" رفع فيها العهد فوق أي حقبة في تاريخ اليونان أو الرومان. ولكن بوالو الناقد العجوز انبرى للدفاع عن القدامى رغم أن بيرو سلكه في زمرة المعاصرين

صفحة رقم : 10687

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> مزيد من الأدباء

الذين فضلهم على نظرائهم القدامى، فقال للأكاديمية أن من العار الاستماع إلى هذا اللغو. وحاول راسين أن يخمد النار بزعمه أن بيرو كان(110) يمزح، ولك نبيرو أحسن أن لديه موضوعاً مجزياً. فعاد إلى المعركة في 1688 بكتابه "نظائر القدامى والمحدثين" وهو حوار طويل حيث يؤيد تقوق المحدثين في العمارة والتصوير والخطابة والشعر.

وذلك باستثناء الإنيادة، التي هي في رأيه أروع من الإلياذة والأوديسة أو أي ملحمة أخرى. وقد ناصره فونتيل بنكاء وبراعة، أما لافروبير ولافونتين وفينيلون فوقفوا في صف بوالو. لقد كان شجاراً صحياً، عين نهاية نظرية "الانحطاط" المسيحية الوسيطة، ونهاية تواضع النهضة والحركة الإنسانية أمام الشعر والفلسفة والفنون القديمة. وكان هناك اتفاق عام على أن العلم قد تقدم متجاوزاً أي مرحلة أدركها اليونان أو الرومان، وحتى بوالو اعترف بهذا، وسلم بلاط لويس الرابع عشر في غير تردد بأن فن الحياة لم يطور قط من قبل بمثل هذا الجمال الذي طور به في مارلي وفرساي. ولن نزع أننا فاصلون في هذه المشكلة، فلنتركها الآن حتى نعرف كل جوانب هذا العصر في أوربا بأسرها. ولا حاجة بنا إلى الإيمان بأن كورنبي كان متفوقاً على سوفوكليس، أو راسين على يوربيديس، أو بوسويه على ديموستينيس، أو بوالو على هوراس؛ وما ينبغي أن نسوي بين اللوفر والبارثينون، أو بين جيراردون وكوازفوكس وبين فيدياس وبراكستيليس. ولكن من اللطيف أن نعرف أن هذه المفاضلات تقبل المناقشة، وأن تلك النماذج القديمة لا تمتنع على المنافسة.

لقد وصف فولتير عصر لويس الرابع عشر بأنه "أكثر العصور التي شهدها العالم استنارة (111)" دون أن يتوقع أن عصره هو سيمى "عصر التنوير". ولكن ينبغي أن نخفف من غلو هذا الإطراء. فالعصر من الناحية الرسمية كان عصر ظلامية وتعصب بلغا أوجهما في إلغاء مرسوم ناننت الرحيم، و"التنوير" كان وقفاً على قلة قليلة لم يرض عنها البلاط وعابها سرفها الأبيقوري أحياناً. والتعليم كان يهيمن عليه أكليروس ملتزم بعقيدة العصر

صفحة رقم : 10688

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> مزيد من الأدباء

الوسيط، وأما حرية الطباعة والنشر فلم يكد أحد يحلم بها، وحرية الكلام كانت مغامرة سرية وسط رقابة شاملة. لقد كان في عهد ريشليو من المبادرة والجرأة ومن مولد العبقريّة قسط أكبر مما كان في عهد الملك العظيم. إن العصر لم يكن له ضريب في الرعاية الملكية للأدب والفن، وفي خضوعهما للبليغ للملك. وقد بلغ الفن والأدب كلاهما العظمة والجلال كما يشهد بذلك صف أعمدة اللوفر ومسرحية اندروماك، ولكنهما انحدرتا أحياناً إلى المبلغة في الفخامة والأبهة كما نرى في قصر فيرساي أو في بلاغة كورنبي في آخر إنتاجه. وكان يشوب المأساة والفنون الكبرى في هذا العهد بعض التكلف والافتعال، فقد أفرط في الإتكاء على النماذج اليونانية أو الرومانية أو نماذج النهضة. واتخذوا موضوعاتهما من عصر قديم دخيل لا من تاريخ فرنسا ودينها وطابعهما، وعبرا عن التعليم الكلاسيكي الذي حظيت به طبقة خاصة لا عن حياة الشعب وروحه. ومن ثم نجد موليير ولافونتين العاميين يفيضان اليوم حياة وسط هذا الحشد المزوق، لأنهما نسبيا اليونان والرومان وتذكرا فرنسا. صحيح أن العصر الكلاسيكي نقى اللغة، وصقل الأدب، وهذب الحديث، وعلم العاطفة المشوبة أن تفكر، ولكنه إلى ذلك فرض على الشعر الفرنسي (والإنجليزي) برودة امتدت قرابة قرن بعد هذا العهد العظيم.

ومع ذلك كان عهداً عظيماً. فلم يشهد التاريخ من قبل حاكماً سخا مثل هذا السخاء على العلوم والآداب والفنون. لقد اضطهد لويس الرابع عشر الجانسينيين والهيغونوت، ولكن في عهده كتب بسكال، ووعظ بوسويه، وعلم فينيلون، ولقد جند الفن ليخدم به مآربه ومجده، ولكن هذا الفن منح فرنسا بفضل تشجيعه روائع في العمارة والنحت والتصوير. ولقد حمى موليير من جيش من الخصوم، وأزر راسين من مأساة إلى مأساة. ولم تكتب فرنسا من قبل مسرحية أفضل، ولا رسائل أفضل، ولا نثرأ أفضل، مما كتبت في عهده. وقد أعانت عادات الملك المهذبة، وضبطه

صفحة رقم : 10689

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> أوج الكلاسيكية في الأدب الفرنسي -> مزيد من الأدباء

لنفسه، وصبره، واحترامه للنساء-أعانت كلها على انتشار الآداب المحببة والمجاملات اللطيفة في البلاط، وعنه إلى باريس وفرنسا وأوروبا ولقد أساء استعمال بعض النساء، ولكن تحت حكمه بلغت النساء في الأدب والحياة مقاماً أسمى على فرنسا ثقافة ثنائية الجنس يفوق جمالها أي ثقافة أخرى في العالم. وبعد كل التحفظات، وبعد الإعراب عن أسفنا لأن هذا الجمال الكثير لوثنته هذه القسوة الكثيرة، يحق لنا أن نضم صوتنا إلى أصوات الفرنسيين في الإشادة بعصر لويس الرابع عشر بوصفه عصرًا يقف على قدم المساواة مع اليونان في أيام بركليز، والرومان في أيام أوغسطس، وإيطاليا في أيام النهضة، وإنجلترا في أيام أليزابيث وجيمس الأول-يقف مع هؤلاء جميعاً قمة شامخة بين الشوامخ في مسار الإنسانية المتعثر.

صفحة رقم : 10690

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> مأساة في الأراضي المنخفضة -> مقدمة

الفصل السادس

مأساة في الأراضي المنخفضة

1649 - 1715

شهد القرن الممتد من 1555 إلى 1648 الدفاع البطولي الذي قامت به الأراضي المنخفضة ضد إمبراطورية أسبانيا العالمية، أما الفترة من 1648 إلى 1715 فقد شهدت دفاع الجمهورية الهولندية الرائع ضد بحرية إنجلترا وجيوش فرنسا التي لم يسبق لها مثيل. وفي كلتا الحالتين صمدت هذه الدولة الصغيرة بشجاعة ونجاح من حقهما أن يتبوأ مكاناً

مرموقاً في التاريخ. وقد وصلت وسط هذه الأعباء والهجمات تطويرها للتجارة والعلوم والفنون، وكانت مدنها ملاذاً للفكر المضطهد، وتحدث نظمها الجمهورية الملكيات القوية المحدقة بها تحدياً ملهماً.

صفحة رقم : 10691

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> مأساة في الأراضي المنخفضة -> الأراضي المنخفضة الأسبانية

1- الأراضي المنخفضة الأسبانية

ظلت الأراضي المنخفضة الجنوبية، أو الأسبانية، حتى 1713 خاضعة للحكم الأسباني وكانت شعوبها المختلفة سلالياً يدين معظمها بالكاثوليكية وقد أثرت أن تخضع لأسبانيا النائية التي حل بها الضعف، عن أن تخضع للبروتستانت الذين في شمالها، أو لجارتها فرنسا التي هددت بابتلاعها في أي لحظة. وقد أعطى صلح البرانس (1659) معظم أرتوا لفرنسا، وأعطاه صلح إكس لاشابل (1668) دويه وتورنيه، وصلح نيميغن (1678) فالنسين وموبوج وكمبري وسانت أومير وايبير. ولم تكن الجمهورية

صفحة رقم : 10692

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> مأساة في الأراضي المنخفضة -> الأراضي المنخفضة الأسبانية

الهولندية أقل قسوة من الملكية الفرنسية. وبمقتضى معاهدة وستقاليا (1648) لم تكف أسبانيا، في حرصها على إطلاق يد جيوشها لتفرغ للحرب المتصلة مع فرنسا- لم تكف بأن تنزل للأقاليم المتحدة عن المناطق التي استولت عليها في فلاندر، وليمبورج، وبرابانت، ولكنها وافقت كذلك على قفل نهر الشلت في وجه التجارة الأجنبية. فأصاب هذا الإذلال الخائق أنتورب وكل اقتصاد الأراضي المنخفضة الأسبانية بالشلل. "إن السياسة لا قلب لها" كما يقولون. وفي داخل هذه الأسوار المعادية اعتزت هذه البلاد التي نعرفها اليوم باسم بلجيكا بثقافتها المتوارثة، ورحبت باليسوعيين، وتبعت قيادة لوفان الفكرية. ولما قصف الفرنسيون بروكسل بمدافعهم (1695) تحول قسم كبير من المدينة أطلالا، ودمر كل المعمار البديع الذي ازدان به الميدان الكبير، اللهم إلا قاعة للحرفيين والأوتيل دفييل البديع، وقد أعيد بناء "الميزون دورا" (الذي كان يقرأ فيه الخطاب الملكي على مجلس الطبقات) بطراز قوطي كثير الزخرف (1696)، وهو والأوتيل دفييل من أجمل العمائر في أوربا اليوم. وقد أفاض النحاتون من فنه على تجميل واجهات

الكنائس والمباني المدنية، والمنابر، ومقاصير الاعتراف، والمقابر التي بداخل الكنائس. وواصلت بروكسل صنع النسيج المرسوم البديع(1).
واضمحل التصوير الفلمنكي اضمحلالاً حاداً بعد روبنز وفانديك، وكان حياة هذين الفنانين قد استنفدت العبقريّة التصويرية لقرن كامل. واجتذب نهوض الفن في فرنسا وازدياد ثرائها الكثير من الرسامين الفلمنك أمثال فيليب دشامبين. ولكن فناناً أعظم منه، وهو دافيد تنبيه الابن، مكث في بلده. وكان أبوه قد تولى تعليمه، فأصبح "معلماً" في طائفة القديس لوقا الحرفية حيث بلغ الثالثة والعشرين، وبعد أربع سنوات (1627) ضمن نجاحه بالزواج من أن بنت جان روجن "المخملية"،

صفحة رقم : 10693

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> مأساة في الأراضي المنخفضة -> الأراضي المنخفضة الأسبانية

والقاصر الموضوعة تحت وصاية روبنز ذاته. وفي 1651 دعاه الأرشيدوق ليوبولد وأليم من أنتوب إلى بروكسل ليكون مصور البلاط وأمين المتحف الملكي، وترينا إحدى لوحات تنبيه الأرشيدوق والمصور بين صور هذا المتحف(2). وقد صور في براعة مترددة موضوعات قديمة كالابن الضال(3) وتجربة القديس أنطونيوس(4). ولكنه كمعاصريه الهولنديين أثر أن يلتقط داخل إطارات صغيرة حياة الفلاحين، لا هابطاً بهم إلى درك الأنعام كما فعل بيتر بروجن، بل مشاركاً إياهم في رياضتهم وأعيادهم. وأظهرت لوحته "داخل كاباريه" إلمامه بتفاصيل موضوعه(5)، لكنه كان يستطيع أيضاً أن يرسم المناظر الطبيعية الريفية التي تغير هينتها سماء لا تكف عن التغير. وقد أحب الضوء كما أحب رمبرانت الظل، والتقطه على فرشاته برقة حساسة لم تفها رقة.

صفحة رقم : 10694

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> مأساة في الأراضي المنخفضة -> الجمهورية الهولندية

2- الجمهورية الهولندية

كانت الأقاليم الهولندية السبعة قد توحدت الآن في جمهورية عزيزة ظافرة أثار غناها وتوسعها عجب جيرانها وحسدهم. فهنا أمة شذت على العرف، إذ لم يكن لها ملك، وكانت كل مدينة يحكمها في استقلال تقريباً مجلس من

أعيانها، وكل مجلس بلدي يوفد مندوبين لمجلس إقليمي، وكل مجلس إقليمي يوفد ممثلين للمجلس التشريعي الذي يهيمن على ما بين الأقاليم من علاقات وعلى شؤونها الخارجية. وكانت إلى ذلك الحد حكومة مثالية لأقطاب التجارة الذين كانت ثرواتهم تتضخم بنمو التجارة الهولندية. ولكن قوة أرستقراطية واحدة وقفت أمام أولجركية التجار هذه: ذرية وليم الأول (والصامت) أمير أورنج وناسو، الذي قاد البلاد في أحلك أيام كفاحها ضد أسبانيا، وكان المجلس التشريعي قد كافأه بلقب رئيس الدولة وبقيادة جيوشها، واستطاع أن يورث ذريته ذلك اللقب وتلك القيادة، وكانت الهيمنة على رجال الجيش قوة لا تفتأ تهدد بتحويل الجمهورية الأولجركية إلى ملكية

صفحة رقم : 10695

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> مأساة في الأراضي المنخفضة -> الجمهورية الهولندية

أرستقراطية. وفي يوليو 1650 حاول وليم الثالث أمير أورنج، بوصفه رئيساً للدولة وقائداً عاماً أن يبسط سلطانه المطلق على جميع الأقاليم المتحدة بانقلاب. فقاومه عدة زعماء إقليميين، وأودع وليم وجنده ستة منهم في السجون، ومنهم يعقوب دي ويت عمدة دوردريشت. ولكن الجدري هزم وليم في انتصاره، فمات في 6 نوفمبر 1650 غير متجاوز الرابعة والعشرين: وبعد أسبوع ولدت أرملته ماري ستيوارت (ابنة حفيدة آخر ملكة للأسكتلنديين) الطفل وليم أورنج الثالث، الذي قدر له أن يحقق فوق ما حلم به أبوه، أي أصبح ملكاً على إنجلترا. أما الزراع وصيادو الأسماك الأدنى من هذه الطبقات الحاكمة المتنافسة، هؤلاء الذين كانوا يطعمون الشعب، فلن يشاركوا إلا في فضلات ثرائها التي لم يعبأ بالتهامها التجار ورجال الصناعة وملاك الأرض. وإذا صدقنا الرسامين الهولنديين تبين لنا أن الحرب والاستغلال قد طحنا الفلاحين بفر كاد يقربهم من حياة البهائم، فقر خفت منه الأعياد وخرده الشراب. وكان الحرفيون في حوانيتهم، والعمال في مصانع أمستردام وهارلم وليدن، أعلى أجوراً من نظرائهم في إنجلترا(6)، ولكنهم قاموا بإضراب عنيف في 1672. وأثرى المهاجمون الهيجونوت الوافدون من فرنسا الصناعة الهولندية بمدخراتهم ومهاراتهم. فلم تأت سنة 1700 حتى حلت الأقاليم المتحدة محل فرنسا بوصفها الأمة الصناعية القائدة في العالم.

أما أعظم الثروات فجادت بها التجارة مع أقطار ما وراء البحار وتطويرها. ففي 1652 استوطن الهولنديين أول مستعمرة لهم في رأس الرجاء الصالح وأسسوا مدينة الكاب. وكانت شركة الهند الشرقية الهولندية تدفع أرباحاً لمساهميها بلغت نسبتها في المتوسط 18% طوال 198 عاماً(7). وكان الوطنيون في المستعمرات الهولندية يباعون أو يشتغلون عبيداً، أما المستثمرون في أرض الوطن فلم يسمعوا بهذا إلا قليلاً، وأخذوا أرباح أسهمهم بهدوء هولندي. وظلت التجارة

صفحة رقم : 10696

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> مأساة في الأراضي المنخفضة -> الجمهورية الهولندية

الخارجية الهولندية حتى 1740 تفوق تجارة أي أمة أخرى (8)، ومن بين عشرين ألف سفينة كانت تنقل تجارة أوربا في 1665، كانت خمسة عشر ألف هولندية (9). وأجمع الناس على أن تجار هولندا ومالييها أكفأ من أنجبه ذلك العصر. وكان بنك امستردام قد استنيط عملياً كل تقنيات المالية العصرية، وقدرت ودائعه بما يعادل الآن مائة مليون دولار (10)، وكان في الإمكان أن تسوى في حسابات تصل إلى الملايين في ساعة واحدة، وبلغت الثقة بقدرة الهولنديين المالية وإمكان الاعتماد عليهم مبلغاً يسر للجمهورية الهولندية أن تقترض المال بفائدة أقل من أي حكومة أخرى، وقد تهبط الفائدة أحياناً إلى 4% (11). ولعل امستردام كانت أكثر مدن أوربا في هذا العصر جمالاً وتحضراً. وقد رأينا ثناء ديكارت عليها. وكذلك تحدث عنها سبينوزا (12). ويمثل هذه الحماسة تحدثت بيبس عن لاهاي "مدينة غاية في النظافة من جميع الوجوه، بيوتها أنظف ما يستطيع في كل أماكنها ومحتوياتها (13)". ولولا طبيعة البشر لكانت هذه الأقاليم الرخية جنة في الأرض ذلك أن ثراءها أغرى إنجلترا وفرنسا بالهجوم عليها، وقد أفضى الصراع على السلطة في الداخل إلى مأساة جان دي ويت، ومزقت المنافسة بين العقائد الدينية شعباً لطيفاً في غير هذا، وبعثت الخصومات العنيفة. ومنع الكلفنيون الغالبون ممارسة الشعائر الكاثوليكية حينما استطاعوا منعها. وفي 1682، وضع مجمع دورت (الدوردرشت) اعترافاً بالكفنية القديمة ربما انتقاماً من إلغاء مرسوم نانت وألزم كل راع بالتوقيع عليه والأطراد، وعين بيبير جورجيو وهو هيجونوتي فرنسي سابق ليرأس محكمة تفتيش كلفنية، واستدعى المهترطين، وحاكمهم، وحرهم، وأهاب بـ"الذراع الدنيوية" (السلطة الزمنية) أن تترج بهم السجون. ولكن هرطقة أرمينيوس نمت رغم ذلك، واجترأ الشجعان من الرجال على الاعتقاد بأن الله لم يقدر على الكثرة من بني البشر الهلاك في النار

صفحة رقم : 10697

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> مأساة في الأراضي المنخفضة -> الجمهورية الهولندية

الأبدية، ووجدت المذاهب المنشقة-ميينيين، وكليين (ممن أوا سبينوزا) ولو سيائيس، وتقويين، حتى التوحيديين- هؤلاء جميعاً وجدوا أن في إمكانهم العيش في هولندا بين ثغرات القانون وغفواته. وكان السوسينيون قد التمسوا الأقاليم المتحدة ملاذاً من الاضطهاد في هولندا، ولكن عبادة التوحيديين حرمت بقانون هولندا في 1653. ونشر دانيال زفيكر بأمستردام في 1658 رسالة تشككت في ألوهية المسيح، وأخضعت الكتاب المقدس لـ"عقل البشرية العام"، ومع ذلك استطاع أن يموت في هدوء وسلام كما يموت الجنرالات. على أن رجلاً يدعى كيرباد حكم عليه 1668 بالسجن عشر سنوات لأنه أفصح عن أفكار كهذه، ومات في سجنه. وقد سجن أوريان بيفرلاند لإعلامه إلى أن خطيئة آدم وحواء الأصلية كانت الاتصال الجنسي ولم تمت للتفاح بسبب. وازداد التسامح الدين قرب ختام القرن السابع عشر. ذلك أن الهولنديين الذين كانوا يتعاملون مع دول كثيرة ذات ثقافات مختلفة، ويفتحون موانئهم وسوقهم المالية لتجار يدينون بديانات كثيرة أولاً يدينون بأي دين، هؤلاء الهولنديين وجدوا من الأنفع لهم أن يمارسوا ضرباً من التسامح كان، رغم ما شابه من نقص، أرحب بكثير منه في أي بلد مسيحي. ومع أن الكلفنيين كانوا الغالبين سياسياً، إلا أن الكاثوليك بلغوا من الكثرة مبلغاً جعل فمعهم أمراً غير ممكن عملياً. أضف إلى ذلك أن السيطرة الاجتماعية والسياسية التي كانت تتمتع بها الطبقات التجارية والصناعية جعلت الإكليروس-كما قال السير ولیم تمبل-أقل نفوذاً بكثير من الاكليروس في الدول الأخرى. وطالب المهاجرون من أقطار

أخرى، الذين أسهموا بقسط في الاقتصاد أو الثقافة، بقدر محدود من الحرية الدينية وظفروا به. وحين استولى كرومويل على السلطة في إنجلترا التمس أنصار الملكية فيها السلامة في هولندا؛ ولما رد تشارلز الثاني إلى العرش، التجأ الجمهوريون الإنجليز إلى الجمهورية الهولندية. ولما اضطر لويس الرابع عشر الهيجونت فر بعضهم إلى الأقاليم

صفحة رقم : 10698

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> مأساة في الأراضي المنخفضة -> الجمهورية الهولندية

المتحدة، ولما خشي لوك وكولنز وبيل الاضطهاد في إنجلترا أو فرنسا، وجدوا الملاذ في هولندا؛ ولما حرم مجمع أمستردام البرتغالي (اليهودي) سبينوزا، رحب به العلماء الهولنديون وقدموا له العون، ورتب له جان دي ويت معاشاً. وأصبحت هولندا الصغيرة "مدرسة أوربا(15)" في التجارة والمال والعلم والفلسفة. ولولا ما أتيج لهذه الحضارة من حرية دينية، ومن علم وأدب وفن، لأصبحت حضارة مادية إلى حد محزن. وسنلتقي في فصل لاحق بهويجنس وغيره من العلماء الهولنديين. وكان هناك شعراء ومسرحيون ومؤرخون هولنديون، ولكن لغتهم حدت من شهرتهم. وقد حلفت المدن الهولندية بالكتب والناشرين. وبينما لم يكن في إنجلترا سوى مركزين اثنين للنشر هما لندن وأكسفورد، وفي فرنسا باريس وليون، وكان في الأقاليم المتحدة مركزاً في أمستردام وروتردام وليدن وأوترخت ولاهاي، تطبع الكتب باللاتينية واليونانية والألمانية والإنجليزية والفرنسية والعبرية كما تطبعها بالهولندية. وكانت أمستردام وحدها تملك أربعمئة دار تطبع الكتب وتشرها وتبيعها(16). ونافس الولع بالفن الغرام بالمال والمساومة على الخلاص الأبدى. وخلق ساكنو المدن الهولنديون، الذين عروا كنائسهم البروتستنتية من الزخرف، خلعوا إلى نسائهم وبيوتهم الزينة انتزعوها من بيوت الرب. فاسترضوا زوجاتهم بالمخمل والحرير والجواهر، ونشروا على موائدهم صحاف الذهب والفضة، وزينوا بالنسيج المرسوم، ورفوفهم أو صواوينهم بالخزف أو الزجاج المحفور. وفي ديلفت كان الخزافون الهولنديون بعد عام 1650، الذين استوحوا الخزف الصيني والياباني، يصنعون فخاراً مزججاً، أكثره أزرق على قاعدة بيضاء، أضفى الجمال المشرق على بيوت كانت من قبل عارية عرى التزمت الصارم. وقل أن وجدت أسرة هولندية لم تملك على الأقل واحدة من تلك الصور

صفحة رقم : 10699

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> مأساة في الأراضي المنخفضة -> الجمهورية الهولندية

الصغيرة التي جعلت حلم المسكن الهادئ النظيف، وبهجة الأشجار والأزهار والجدول، فربيبي المنال على جدران البيوت.

صفحة رقم : 10700

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> مأساة في الأراضي المنخفضة -> ازدهار صور الحياة اليومية

3- ازدهار صور الحياة اليومية

كان العصر البطولي للتصوير الهولندي قد ولى. فالزبائن الجدد أكثر نفراً ولكنهم أقل مالاً، لذلك طلبوا صوراً صغيرة تتيح لهم أن يشهدوا حياتهم اليومية في خلاصة مقطرة مهذبة، منفولة بواقعية تبعث لذة التعرف، أو ملموسة يعاطفة رقيقة ولكنها مألوفة، أو مغرية للنفس باستشراف مشهد محرر من مشاهد الطبيعة. وقد لبى المصورون الهولنديون هذا الطلب في رهاقة خط وضوء ولون حشدت الصنعة الشديدة التدقيق في حيز صغير. وهؤلاء الفنانون معروفون في جميع أرجاء أوروبا وأمريكا، لأن التنافس اليائس فيما بينهم حملهم على أن يطلقوا سيلاً متدفقاً سريعاً من الصور الصغيرة بثمن رخيص، وهي صور لا تخلوا اليوم منها جدران متحف. ونحن إذ نترك الشهادة على وفرة هؤلاء الرسامين لهامش سريع، نراه لزاماً أن ننظر نظرة أكثر تريباً إلى جان ستين، المرح رغم حظه العائر، وإلى أعظم مصوري الحياة اليومية جان فرمير، وإلى أعظم مصوري الطبيعة الهولنديين، يعقوب فان روبسدان.

صفحة رقم : 10701

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> مأساة في الأراضي المنخفضة -> ازدهار صور الحياة اليومية

أما ستين فكان ابن صانع جعة في ليدن؛ واشتغل في لاهاي، وديلفت، وهارلم، وأصبح آخر المطاف صاحب حانة في ليدن، وخلال هذه الفترات استطاع أن يجعل من نفسه أفضل مصور للأشخاص في الفن الهولندي باستثناء رميرانت. وحين بلغ الثالثة والعشرين (1649) تزوج مارجريت ابنة المصور جان فان جوين؛ ولم تملك من المهر غير وجهها وقوامها، ولكنها أفاده بعض الوقت نموذجين ملهمين. وكان ينقد أجراً حقيراً على صورته حتى أن صيدلياً حجز (1670) على كل الصور التي استطاع أن يجدها في بيت ستين وباعها في المزاد وفاء لدين قدره عشرة جولدينات. وصوره الأولى تسجل لذات السكر أو عقوباته. وصورته "الحياة المنحلة (17)"، وهي مثال ممتاز من صورته، فيها

امراة نعسانة وأخرى نائمة من الشراب، وطفل ينتهز الفرصة فيسرق من صوان، وكلب يأكل من المائدة، وراهبة تنطلق بعد دخولها الحانة في عظة عن خطيئة شرب الروم، وكل شيء في الصورة مكون ومرسوم بنظام الفن وانسجامه رغم أنه يصور الفوضى. وموضوع أجمل من هذا يبعث الحياة في صورة أخرى أسيئت تسميتها بـ"معرض الوحوش(18)"، يرى فيها فتاة صغيرة تطعم حملاً باللبن، ودجاج الحديقة يثب هنا وهناك، وطاووس يدلي ذيله من شجرة ذابلية، والحمام يحط في أعلاها، ويمامة تحلق قادمة من الطريق. هذا كله لحن رعوي يجعل جميع معضلات الفلسفة تبدو تافهة لا معنى لها. أنه الحياة، وكل جزء له مبرره الكافي الذي يتجاهل المطلقات. وبعد أن تجاوز ستين فترة الحانة رسم مشاهد مشرقة للحضارة الهولندية: باطن بيوت مبهجة، ودروس موسيقى، وحفلات موسيقى، ومهرجانات، وأسر سعيدة، وفنان نفسه، يدخل في "الصحبة المرححة(19)"، أو يعزف على العود(20). فلما فتت في عضده الأجور البخسة التي نفدها على عمله، عاد إلى بيع الجعة، وراح يشرب لينسى، ثم مات في الثالثة والخمسين مخلفاً أربعمئة صورة باثرة.

صفحة رقم : 10702

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> مأساة في الأراضي المنخفضة -> ازدهار صور الحياة اليومية

صفحة رقم : 10703

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> مأساة في الأراضي المنخفضة -> ازدهار صور الحياة اليومية

ونظرة إلى صورة واحدة رسمها جان فرميرا وسمها "رأس فتاة"(21) تكشف عن عالم وفن يكادان يناقضان عالم ستين وفنه. وهذه اللؤلؤة التي يفوق ثمنها اللالئ بيعت في المزاد عام 1882 بجولدين ونصف، ويقدر ناقد قدير في أيامنا هذه أنها "واحدة من اثنتي عشرة صورة هي أروع صور العالم(22)" وواضح أن الفتاة من بيت طبيب وأسرة كريمة، عيناها خاليتان من الخوف، لا يخشاهما حتى دهش الشباب الطبيعي، فهي سعيدة في هدوء، متيقظة لموسيقى الحياة؛ وقد قدمها الفنان لنا بصنعة دقيقة في اللون والخط والضوء تجعل من الفرشاة أداة مدهشة للفهم والتعاطف. وقد ولد فرمير في ديلفت عام 1632؛ وعاش هناك على قدر علمنا طوال حياته ومات فيها (1675) بالغا الثالثة والأربعين، وكاد يكون معاصراً لسبينوزا تماماً (1632-77). تزوج في العشرين، وأنجب ثمانية أطفال، وكان يتقاضى ثمناً طيباً على صورته، ولكنه عكف عليها في عناية مستنفدة للوقت، وأنفق المال الكثير على شراء الصور، حتى أنه مات مديناً، واضطرت أرملته إلى التماس المعونة من محكمة التقاليس. غير أن الأربع والثلاثين صورة التي بقيت من صورته توحى بجو من رفاهية الطبقة الوسطى. وتظهره إحداهما(23) في مرسمه لابساً طاقية رقيقة خفيفة،

"وجركينة" متعددة الألوان، وجوارب طويلة متجعدة ولكنها حريرية، وقد انتفخ ردفاه من النعمة. ولا ريب في أنه سكن حياً راقياً في ديلفت، ربما في مشارفها حيث استطاع أن يلقي "نظرة على ديلفت(24)" وفي هذه الصورة الشهيرة نحس بحبه الجم بموطنه. ويبدو أنه راض نفسه على البقاء في بيته بقناعة أكثر مما نلاحظه في مصوري زماننا. فحب البيت يتجلى في أكثر التصوير الهولندي، ولكن البيت في فن فرمير يصبح معبداً صغيراً، والزوجة معتزة بالخدمات التي تؤديها. وفي لوحته "المسيح مع مريم ومرثا" (25) تشارك مرثا مريم في الجلوس على المنصة. ولم تعد نسأوه تلك الحزم الثقيلة من اللحم التي نراها أحياناً في الفن الهولندي، ففيهن شيء

صفحة رقم : 10704

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> مأساة في الأراضي المنخفضة -> ازدهار صور الحياة اليومية

من التهذيب والحساسية. بل لقد تجدهن-كما ترى في السيدة الجالسة في صورة "السيدة والخادمة" (26)-غاليات اللباس، رقيقات القسما، مصفات الشعر في عناية، أو غنيات بالحرير وآلات الموسيقى، كما في صورة "السيدة الجالسة إلى العذراوية" (27) (آلة موسيقية). إن فرمير يصنع من الحياة العائلية ملحمة، أو قصيدة غنائية ذات لحظات عائلية بسيطة طبيعية؛ لا مشاهد جماعية ذات نشاط مختلط متعدد، بل-في أفضل ما رسم من لوحات- امرأة واحدة فقط، تقرأ رسالة في هدوء (28)، أو تكب على خياطتها (29) أو تتحلى بقلادة، أو تنام على خياطتها (30)، أو مجرد صبية وابتناسمتها (31). لقد سجل فرمير بفن كامل شكرانه لامرأة طيبة وبيت سعيد. ولكنه أوشك أن يكون نسبياً منسياً في القرن الثامن عشر، ونسبت روائعه الصغير إلى دي هوخ، أو تير بورخ، أو رمبرانت، ولم يبعث من مثواه إلا في 1858. واليوم لا يعلو على اسمه غير اسم رمبرانت وهالس في التصوير الهولندي. بقي شيء واحد تفتقده في هؤلاء المصورين للحياة اليومية-هو حياة الطبيعة التي أحاطت بالمدن المتطفلة عليها. فإيطاليا، ويوسان في إيطاليا، كانا قد التقطا شيئاً من الهواء النقي والحقول الطلقة، وستكتشفها إنجلترا في القرن التالي، أما المصورون الهولنديون فقد تركوا الآن برهة بيوتهم وباطنها النظيف أو المرح، ووضعوا حواملهم ليفتتنوا سحر الغدران المترفرقة، وطواحين الهواء الساكنة الوادعة، والمزارع المزهرة، والأشجار التي تخجل تعجلنا المحموم، والمرابك الغربية تتهدى في الثغور المزدهمة، والسحب التي تلون السماء بثتى الأشكال. والعالم كله يعرف لوحة "طريق ميدلهارنس" التي رسمها ماينديرت هوبما-وهي منظور يتلاشى في فضاء لا نهاية له، ولكن أجمل منها بكثير لوحته "طاحونة الماء ذات السقف الأحمر الكبير" (32). وقد وجد ألبرت كوين الإلهام في الأبقار السمينة تخوض المستنقعات الوافرة الخضرة (33)، والخيل تقف ظامنة عن خان، وفلوع

صفحة رقم : 10705

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> مأساة في الأراضي المنخفضة -> ازدهار صور الحياة اليومية

المراكب تختفي فوق البحر(34). تعجب سليمان فان رويسدال من ارتعاش المياه التي تعكس وتقلب صورة الزوارق والأشجار (القناة والمعدية)(35)، وعلم ابن أخيه أن يتفوق عليه.

أما ابن أخيه هذا، واسمه يعقوب فان روسدال، فقد ترعرع في هارلم، وترك لنا "منظر الهارلم(36)" لا يقل وقعا في نفس الناظر عن لوحة فرمير "ديلفت"، ويفضلها نقلا تعقد المدينة الكبيرة بما فيه من اتساع وزحمة. ثم انتقل إلى أمستردام وأصبح عضواً في الإخوان المينونيين، ولعل تصوفهم أعان فقره على إشعاره بالجانب المأساوي للطبيعة التي أحب أن يفنى بها. وعرف أن تلك الحقول والغابات، والسموات التي تعد بالسلام، تستطيع كذلك أن تدمر، وأن للطبيعة نزوات من الغضب قد تقلع فيها الرياح المجنونة حتى اعنى الأشجار وأصلبها وتمزقها من جذورها، وأن الشقوق المهلكة قد تتكون في الأرض الطيبة، وأن البرق قد ينفث ناره القتالة على كل شكل من أشكال الحياة في لا مبالاة عابثة. فصورته "مسقط الماء على الجرف(37)" ليست أنشودة رعوية إنما هي ثورة البحر الغاضبة على صخور أقسم أن يحطمها ويغرقها أو يبر بها، ولوحة "العاصفة(38)" هي البحر يلطم عدوه اليباس في غضب، ولوحة "الشاطى(39)" لا تصور شاطئاً للهو بل ساحلاً كدرته أمواج عالية تحت سماء مكفهرة، ولوحة "الشتاء(40)" لا تعرض مرح الترحلق، بل كوخاً حقيقياً يرتجف تحت غيوم منذرة، وحفره الرائع "أشجار البلوط" يجرداها من وقارها ليرى أغصانها شعناء أو عارية وسيفانها وقد أتخنها الزمن القاسي بالجروح وشوه شكلها. ولوحة "جبانة اليهود(41)" هي ذاتها صورة للموت-أسوار متهدمة، وشجرة تموت، ومياه فيضان تجري فوق القبور. وليس مرد هذا كله أن رويسدال كان دائماً مكنتياً، ففي لوحة "حقل القمح(42)" نقل بإحساس عميق هدوء طريق ريفي، وبركة المحاصيل الوفيرة، وفرحة الفضاء المترامي. ويبدو أن الهولنديين أحسوا أن أرضهم ومناخهم قد افترت عليهما صور رويسدال، فلم ينقدوه عليها إلا أجراً بخساً،

صفحة رقم : 10706

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> مأساة في الأراضي المنخفضة -> ازدهار صور الحياة اليومية

وتركوا صاحبها يموت في ملجأ للفقراء. واليوم يضعه بعضهم في مكان لا يفضله فيه غير يوسان بين مصوري الطبيعة في جميع العصور(43).

ثروة لا حد لها في حجرة صغيرة-مرمرانت وهالس، فرمير ورويسدال، سبينوزا وهويجنس، ترومب ودرويتر، جالن دي ويت ووليم الثالث، كلهم في زمن واحد داخل حدود ضيقة، يكبحون غير أمنين خلف الكئبان، يصونون فنون السلم وسط نذر الحرب. تلك هي هولندا في القرن السابع عشر. و"ليست العبرة بكبير الحجم".

صفحة رقم : 10707

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> مأساة في الأراضي المنخفضة -> جاي دي ويت

4- جان دي ويت

1672-1625

بعد أن ظفرت الأقاليم المتحدة باستقلالها عكفت عقب معاهدة وستفاليا على طلب المال والذهب والحرب. كان أهلها أقل أمم الأرض اكتفاءً بأنفسهم، فمحاصيل أرضها لا تقيم أكثر من ثمن سكانها، وحياة البلاد تعتمد على التجارة الخارجية واستغلال المستعمرات، وهذان يعتمدان على بحرية قادرة على حماية السفن والمستوطنات الهولندية. وكان تفوق أسبانيا البحري قد ولى بهزيمة الأرمادا الأسبانية، ونشرت البحرية الإنجليزية التي ازدهاها النصر قلوبها فوق أرجاء مترامية من المحيط. وما لبث التوسع التجاري الإنجليزي أن اصطدم بالسفن الهولندية والمستوطنات الهولندية في الهند وجزر الهند الشرقية، وأفريقيا، وحتى في "امستردام الجديدة" التي ستصبح نيويورك. وأحس بعض الإنجليز، الذين لم تهدأ فيهم بعد حمية هوكنز ودريك، أن هؤلاء الهولنديين الجبابرة ينبغي أن يحل محلهم بريطانيون جبابرة، وأن هذا ميسور بنصر أو نصرين بحريين. وقد ذكر إيرل كلارندون في تقرير له "أن التجار ألفوا الحديث عن الفائدة الكبرى التي يجنونها من حرب سافرة مع الهولنديين، وعن سهولة قهرهم، وعن حجم التجارة التي يمكن أن ينقلها الإنجليز بعد ذلك" (44) وراقت كرومويل الفكرة.

صفحة رقم : 10708

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> مأساة في الأراضي المنخفضة -> جاي دي ويت

ففي 1651 أقر البرلمان الإنجليزي قانوناً للملاحه يحظر على السفن الأجنبية أن تجلب لإنجلترا أي بضاعة إلا ما ينتجه بلدها. وكان الهولنديون يشحنون إلى إنجلترا حاصلات مستعمراتهم، فتوقفت الآن هذه التجارة الراحية. وأرسلوا بعثة إلى لندن للحصول على بعض التعديل في القانون، فلم يكتفِ الإنجليز برفض الطلب، بل طالبوا بأن تخفض المراكب الهولندية أعلامها إذا التقت بالمراكب الإنجليزية في "المياه الإنجليزية" (أي جميع المياه بين إنجلترا وفرنسا والأراضي المنخفضة) اعترافاً بسيادة الإنجليز على تلك البحار. وعاد المبعوثون الهولنديون بخفي حنين إلى لاهاي. وفي فبراير 1652 استولى الإنجليز على سبعين سفينة تجارية هولندية وجدها في "المياه الإنجليزية". وفي 19 مايو التقى أسطول إنجليزي بقيادة روبرت بليك بأسطول هولندي بقيادة مارتن ترومب، ورفض ترومب خفض علمه، فهاجمه بليك، وانسحب ترومب. وهكذا بدأت "الحرب الهولندية الأولى". وأوشكت انفصالية الأقاليم، المفروض أنها متحدة، أن تجر عليها الدمار. ذلك أن الزعامة الحربية الموحدة التي أتاحتها لها من قبل أمراء أورنج كانت قد انقطعت، وأصبح المجلس التشريعي للولايات جمعياً للمناقشة والجدل بدلاً من أن

يصبح دولة. أما الإنجليز فكانوا يملكون حكومة قوية ممرزة يرأسها رجل شديد البأس هو كرومويل، وكان لهم بحرية أفضل، وقد أوتوا جميع الميزات التي حبتهم بها الجغرافيا والرياح الغربية السائدة. فدمروا أساطيل الصيد الهولندية، واستولوا على المراكب التجارية الهولندية، وهزموا أمير البحر الهولندي درويتر تجاه ساحل كنت. وانتصر ترومب على بليك تجاه دنجينييس (30 نوفمبر 1652)، ولكنه مات في المعركة في يوليو التالي. وكانت نتيجة سنة واحدة من الحرب إثبات تفوق إنجلترا بالبرهان الدامغ. وكاد حصار الإنجليز للساحل الهولندي يشل الحياة الاقتصادية في الأقاليم المتحدة. وأشرف الألوف من سكانها على الهلاك جوعاً وهددوا بالتمرد.

صفحة رقم : 10709

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> مأساة في الأراضي المنخفضة -> جاي دي ويت

في هذه المرحلة الحاسمة التعسة اضطلع جان دي ويت بزمامة البلاد، وكان ينتمي إلى أسرة بعيدة العهد بالتفوق في التجارة والسياسة الهولنديتين. وقد انتخب أبوه يعقوب دي ويت عمدة على درودشت ست مرات. أما جان فقد تلقى كل التعليم الميسور، وجاب أرجاء فرنسا مع أخيه الأكبر كورنيليس، والتقى بكرومويل في إنجلترا، ثم استقر في لاهاي محامياً (1647). وبعد ثلاث سنوات كان أبوه واحداً من الزعماء الجمهوريين الذين أودعهم السجن وليم الثاني أمير أورانج، رئيس الدولة، رغبة في توطيد سلطته السياسية والحربية على جميع الأقاليم. فلما مات وليم الثاني (1650) رفض المجلس التشريعي قبول ابنه الذي ولد عقب وفاته خلفاً له، ربما متأثراً في ذلك بإقامة إنجلترا حكومة جمهورية فيها (1649) بصورة بدا أن التوفيق حالفها، وألغى منصب رئيس الدولة. وأصبحت المسرحية الداخلية للأقاليم المتحدة صراعاً بين الروح التجارية الجمهورية المسالمة التي يمثلها دي ويت، والروح الأرستقراطية العسكرية التي أزمع أن يحييها بعد قليل الشاب المتحمس وليم الثالث.

وفي 21 ديسمبر 1650، انتخب جان دي ويت وهو لا يزال في الخامسة والعشرين كبيراً لولاية درودشت، وممثلاً لها في المجلس التشريعي للأقاليم المتحدة. وفي فبراير 1653 عينه المجلس حاكماً أعلى للجمهورية، وناط به مهمة عسيرة هي مفاوضة إنجلترا المنتصرة على الصلح. وكان كرومويل قاسياً لا يرحم، فطالب بأن يعترف الهولنديون بالسيادة الإنجليزية ويحيوا العلم الإنجليزي في القنال الإنجليزي، وبأن يسلموا بحق القباطنة الإنجليزي في تفتيش السفن الهولندية في البحر، وبأن يودوا رسوماً نظير امتياز الصيد في المياه الإنجليزية، وبأن يدفعوا تعويضاً عن قتل الهولنديين للإنجليز في أمبوينا عام 1623، وبأن ينحوا بصفة دائمة عن الوظائف أو السلطة جميع أفراد بيت أورانج-الذي قطع على نفسه عهداً بأن يرد أسرة ستيوارت إلى عرش إنجلترا لما بينه وبينها من مصاهرة. وحذف

صفحة رقم : 10710

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> مأساة في الأراضي المنخفضة -> جاي دي ويت

دي ويت هذا البند الأخير من المعاهدة كما قدمت للمجلس التشريعي وكما تصدق عليها منه (22 إبريل 1654)، ثم أُنقح المجلس التشريعي لإقليم واحد- هو إقليم هولندا- بقبول المعاهدة بما فيها هذا البند. ولم يغتفر له وليم الثالث فعلته هذه قط.

ثم وطد دي ويت مركزه بالزواج من وينديلا بيكر الغنية، وأصبح عن طرقها صهراً لأمرء التجارة في امستردام، وبتأييدهم شغل أهم المناصب في هولندا هو وأبوه، وأخوه، وبنو عمومته، وأصدقائه؛ وسرعان ما قبض على زمام الحكم كله في الإقليم. وقبيلت أقاليم أخرى زعامته على مضض، لأن هولندا التي أغنتها موانئها كانت تدفع سبعة وخمسين في المائة من نفقات الاتحاد، وتقدم معظم الأسطول الهولندي، ولم يكن محبوباً من جماهير الشعب. ولكن حكمه كان مستتيراً وكفوياً. فقد حد من النفقات الباهظة، وخفض الفائدة على الدين الفدرالي، وأجرى فحصاً شاملاً للأسطول، وبنى سفناً أفضل، ودرب عاملين جدداً في البحرية. وإذ كان يعكس مشاعر التجار، فإنه كافح في سبيل السلام ولكنه استعد للحرب. وفي 1658، ثم في 1663، أعيد انتخابه حاكماً أعلى للأقاليم المتحدة. وقد وقع من نفوس المراقبين بإخلاقه لمهام الحكم، وببساطة مسلكه وتواضعه، وبنقاء حياته العائلية. ويسرت له ثروة زوجته العيش في منزل فخم يستطيع أن يستقبل فيه المبعوثين الأجانب في جو مهيب، ولكن ذلك المنزل كان مركزاً للثقافة الهولندية أكثر منه مركزاً للمظهر المترف، فقد امتزج فيه الشعر بالسياسة، ونوقش العلم والفلسفة ربما بحرية لا يطبقها ناخبو دي ويت الكلفنيون. وحتى سبينوزا، ذلك المهرطق المرهوب، وجد صديقاً وقيادياً وحامياً له في الحاكم الأعلى. لقد كانت مأساته دائماً أنه أحب السلام أكثر من الحرب، بينما كان جيران الجمهورية الغنية يكتلون قواهم للقضاء عليها. وفي 1660 رد تشارلز

صفحة رقم : 10711

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> مأساة في الأراضي المنخفضة -> جاي دي ويت

الثاني إلى عرش إنجلترا، فأوصى جان دي ويت مشدداً بأن يرضى عن ابن أخته وليم أورنج الثالث، وبعد قليل طالب بإلغاء "قانون الإبعاد" الذي أقصى بمقتضاه وليم عن المناصب، ووافق دي ويت وهكذا مهد الملك الاستيوارتي لسقوط أسرة ستيوارت على غير قصد منه. وفي أكتوبر 1664، استولت حملة إنجليزية على مستعمرة نيو امستردام الهولندية، وأطلقت عليها اسماً آخر هو نيويورك تكريماً لدوق يورك (جيمس الثاني مستقبلاً) وكان يومها قائد البحريو الإنجليزية. واحتج المجلس التشريعي للأقاليم المتحدة، ولم تعبأ إنجلترا بالاحتجاج، وفي مارس 1665 بدأت الحرب الهولندية الثانية.

وقد برر الموقف ما سبق أن اتخذته دي ويت من استعدادات. ذلك أن ضعف القيادة قد أنتقل من المجلس التشريعي إلى حكومة تشارلز الثاني الغافلة العاجزة، وبينما كان الملك المرح يراقص خليلته، ظفر دي ويت بالثناء حتى من أعدائه على الهمة والإخلاص اللذين بذلتهما لكل نواحي التنظيم الحربي وتفاصيله. فقد أبحر غير مرة مع الأسطول، وعرض نفسه لكل مخاطر المعركة، وألهم الملاحين بشجاعته وغيرته. ولم تكن البحرية الهولندية إلى ذلك الحين كفوياً للبحرية الإنجليزية في السفن أو الرجال أو النظام، فأوقعت البحرية الإنجليزية بقيادة دوق يورك هزيمة حاسمة بالبحرية الهولندية في أول لقاء كبير في الحرب (لوفستوفت، 13 يونيو 1665). على أن المواطنين الهولنديين الصابرين أعادوا بناء أسطولهم وولا عليه رجالاً من أقدراً وأجرأ أمراء البحر الذين عرفهم التاريخ. وفي يونيو 1667 قاد هذا الرجل، وهو ميشيل أدريانسزون درويتر، ستاً وستين سفينة إلى نهر التيمز، واستولى على قلعة شيرنيس (على نحو أربعين ميلاً شرقي في لندن)، وحطم الحواجز التي تعترض الدخول في نهر ميدواي (الذي يصب في التيمز عند

شيرنس) وأخذ، أو حرق، أو أغرق ست عشرة سفينة حربية كانت راسية هناك دون تأهب لمثل هذا الزائر الوقح (12 يونيو 1667). وإذ

صفحة رقم : 10712

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> مأساة في الأراضي المنخفضة -> جاي دي ويت

لم يكن بتشارلز الثاني ولع بالحرب، فقد أمر دبلوماسييه أن يعرضوا على الهولنديين صالحاً مقبولاً. وفي 21 يوليو 1667 وقعت الدولتان معاهدة بريدا، وبمقتضاها نزل الهولنديون لإنجلترا عن نيويورك التي خالوها غير هامة، ووافقوا على أن يحيوا العلم الإنجليزي في المياه الإنجليزية، ونزلت إنجلترا للهولنديين عن مستعمرة سورينام (جيانا الهولندية في أمريكا الجنوبية) وعدلت قانون الملاحة لصالح التجارة الهولندية. وكانت المعاهدة نصراً معتدلاً لدى وبيث وبلغت به قمة نجاحه.

غير أنه ارتكب الآن سلسلة من الأخطاء الفاتلة، فقد زاد من تنفير مؤيدي وليم الثالث بأن أجاز في المجلس الإقليمي لهولندا (5 أغسطس 1667) "مرسوماً دائماً" يمنع أي حاكم لأي إقليم من تولي قيادة الجيش أو البحرية العليا للاتحاد. فاستقال على إثر ذلك أتباع الأمير الشاب من الجيش وتركوه خلواً من القواد المحنكين. ولسوء الحظ وقع هذا الحدث، الناجم عن المنافسة بين أسرتين، بينما كانت فرنسا تغزو الأراضي المنخفضة الأسبانية، فهددت بذلك المصالح الحيوية الأقاليم المتحدة. فلو أن فرنسا هيمنت على الأقاليم الجنوبية لأسرعت بفتح الشلت للتجارة الأجنبية من جديد، فإذا انتعشت بذلك تحددت السيادة التجارية لمستردام، وأصبح اقتصاد الأقاليم الشمالية كله في خطر. ثم كم من الزمن سيقف لويس الرابع عشر عند الحدود الهولندية لا يتجاوزها؟ لو أن رأيه استقر على أن يلتهم الأقاليم المتحدة، ويستولي على مصاب الراين، لما بقي للبلد في الواقع وجود، ولقضي على البروتستنتية الهولندية قضاءً مبرماً. وعرض دي ويت على الملك المتعدي سلسلة من الحلول الوسط، ولكنه رفضها. فاتفق مع إنجلترا (23 يناير 1668)، ثم مع السويد، على حلف ثلاثي للدفاع المشترك ضد التوسع الفرنسي. ووافق لويس في لباقة على إنهاء "حرب الأيلولة" (الوراثة الأسبانية) شريطة أن يستبقي نطاقاً من المدن

صفحة رقم : 10713

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> مأساة في الأراضي المنخفضة -> جاي دي ويت

والحصون التي استولى عليها في فلاندر وإينوا. وارتضت هذه الشروط إنجلترا والسويد، ثم الأقاليم المتحدة، في معاهدة إكس-لاشليل (2 مايو 1668). وبدا أن دبلوماسية دي ويت جنبت البلاد الخطر، وفي يوليو انتخب للمرة الرابعة ليشتغل منصب الحاكم الأعلى للجمهورية فترة خمس سنوات أخرى. ولكنه أخطأ استقراء سياسات ملكي فرنسا وإنجلترا. ذلك أن لويس لم يغتفر للهولنديين قط في غزوه الأراضي المنخفضة الأسبانية. فأقسم أنه "إن ضابقت هولندا كما ضابقت الأسبان فسيرسل رجاله بالمجارف والمعاول ليقذفوا بها في البحر (45)"، ربما بفتح الجسور البحرية عليها. كانت تغيطه الجمهورية، وكان يطمع في الراين، فعقد النية على تدمير تلك، والسيطرة على هذا. وزادت الصراع شدة حرب التعريفات الجمركية التي نشبت بين الخصمين؛ فقد فرض موليير رسوماً ممانعة على البضائع الهولندية التي تدخل فرنسا، ورد الهولنديون عليها بمثلها. ولكن الذخيرة الحربية استنثيت استثناءً بارعاً من هذه القيود؛ ذلك أن لوفوا، وزير الحربية الفرنسي، أقنع رجال الصناعة الهولنديين بأن يبيعوه مقادير هائلة من العتاد الحربي (46)، وفي الوقت نفسه امتنع رجال الأعمال الهولنديون عن الموافقة على الضرائب التي أراد دي ويت فرضها لتزويد الجيش بالإمداد والمؤن. وأثبت السلك الدبلوماسي الفرنسي حذقه، أو ثراه، بعزلة إنجلترا والسويد عن تحالفهما مع الأقاليم المتحدة. فوافق تشارلز الثاني في معاهدة دوفر السرية (1 يونيو 1670) على التخلي عن الحلف الثلاثي والانضمام إلى لويس في حربه مع الهولنديين. أما السويد فقد انسحبت من الحلف في 1672 لحاجتها للمعونة الفرنسية ضد الدنمرك وألمانيا، ووعدت أسبانيا، والإمبراطورية، وبراندنبورج، الجمهورية بالمساعدة، ولكن ما كان تحت تصرفها من قوات كان أضال أو أبعد من أن يكون له كبير وزن أمام

صفحة رقم : 10714

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> مأساة في الأراضي المنخفضة -> جاي دي ويت

القوات المجندة الضخمة التي أطلقت الآن على الأقاليم المتحدة برأ وبحراً. وعاد دي ويت يعرض التنازلات والحلول الوسط، فرفضها لويس. وفي 23 مارس 1672 بدأت إنجلترا الهجوم على الجمهورية الهولندية، وفي 6 إبريل أعلنت فرنسا عليها الحرب. وسرعان ما زحف نحو 130.000 مقاتل على الدولة الصغيرة يقودهم تورين، وكونديه، ولكسمبور، وفوبان، ولويس نفسه. يقول فولتير "لم يشهد الناس من قبل جيشاً فحماً كهذا الجيش (74)"، واخترقت القوة الفرنسية الرئيسية، باستراتيجية بارعة وغير متوقعة، الأراضي الألمانية مهددة ثائرة القرى بـ "الهدايا" لتهاجم النقط الأضعف تحصيناً. وفي 12 يونيو، وتحت نيران الهولنديين وبصر الملك، عبر الفرنسيون الراين، وهم يسبحون عرض الأقدام السنين التي لم يسمح لهم عمقها أن يخوضوها؛ وأصبح هذا حدثاً محبباً تتناوله الصور والأيقونات الملكية. وزحفت الجيوش الملكية شمالاً إلى قلب الأقاليم المتحدة، فاستولت بسهولة على المدينة تلو المدينة. واستسلمت أوترخت دون مقاومة. وأذعن إقليم أوفريسل وولدر لاند، ولم يبق بعد قليل غير أمستردام ولاهاي. ولم تجد كثيراً تلك الهزيمة التي أوقعها درويتر في 6 يونيو بالأسطولين الإنجليزي والفرنسي مجتمعين في خليج ساوثوولد. وطلب دي ويت الصلح، فطالب لويس بتعويض ضخم، وبسيطرة الفرنسيين على جميع الطرق الهولندية البرية والبحرية، وبرد الكاثوليك إلى جميع أرجاء الجمهورية. ورفض الهولنديون هذه الشروط لأنها لا تفضل العبودية، فلجئوا إلى دفاعهم الأخير: وفتحوا الجسور، وأدخلوا البحر عدوهم القديم صديقاً منقذاً، وما لبثت المياه أن تدفقت على اليابس، وتقهر الفرنسيون عاجزين أما هذا الفيضان الذي أخذهم على غرة. ومع هذا فقد حربت البلاد، فكانت جيوش أسقف مونستر وناخب كولونيا، المتحالفين مع لويس، تزحف دون عائق على إقليم أوفريسل،

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> مأساة في الأراضي المنخفضة -> جاي دي ويت

والسفن الفرنسية والإنجليزية تغير على التجارة الهولندية رغم أنف درويتر، وأشرفت الحياة الاقتصادية للدولة المحاصرة على الانهيار. أما دي ويت فقد كافح خلال هذه الشهور القاسية كما لم يكافح أي رجل قبله في تاريخ هولندا فجمع الأموال، وجهاز الأسطول وزوده، ووقف إلى جوار درويتر في معركة خليج ساوثوولد، وحاول بالبعثة تلو البعثة أن يفاوض على صلح ينقذ وطنه. وفي يونيو 1672 عرض لويس أن ينزل له عن ماسترشت وأجزاء من برابانت الهولندية، وأن يدفع كل نفقات الحرب. ولكن لويس أزدري هذا العرض أيضاً، ولما سمع مواطنوه بأمر العرض نددوا به رجلاً يبيت استسلام الخيانة للويس(48). وألقى عليه الشعب الآن كل تبعه ما أصابهم من نكبات. واتهموه بالنقمة الساذجة المستهتره في وعود تشارلز الثاني ولويس الرابع عشر، ورموه بتعيين أقاربه في أكثر من عشر وظائف مجزية، وفوق هذا كله لم يستطيعوا أن يفتقروا له حرمان بيت أورنج من امتيازاته الحربية والسياسية التي حفظت على الأقاليم الهولندية حريتها طوال قرن من الزمان. ثم لاموه على عجز قواده البورجوازيين وجنهم. ورماء القساوسة الكلفنيون بأنه ملحد مقنع، وتابع لديكارت وصديق لسبينوزا(49). وحتى طبقات التجار التي كانت من قبل سنده الأكبر انقلبت عليه الآن واتهمته بأنه منظم الهزيمة. وشاركه أخوه كورنيليس في تلقي بعض الجماهير وشتائمها، وهو الذي قاسمه من قبل مكافآت المنصب وأعباء الحرب ومخاطرها. وفي 21 يونيو 1672 بدلت محاولة فاشلة لاغتيال جان، وبعد يومين تلتها محاولة أخرى لقتل كورنيليس. وفي 24 يوليو قبض موظفو لاهاي على كورنيليس بتهمة التآمر على أمير أورنج. وفي 4 أغسطس استقال جان من منصبه حاكماً أعلى. وفي 19 أغسطس عذب كورنيليس وحكم عليه بالنفي. وشق جان طريقه خلال المدينة المادية إلى سجن الجيفانجينبورن ليرى أخاه رغم أنه حذر بأنه يعرض حياته للخطر. وما لبث جمع من

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> مأساة في الأراضي المنخفضة -> جاي دي ويت

الغوغاء أن احتشد خارج السجن يحرضه رئيس شرطة وصانغ وحلاق. وكان هناك حارس مدني كلف برد الغوغاء ولكنه شاركهم حقدهم على الأخوين دي ويت، فلم يبد أي مقاومة حين حطموا أبواب السجن واندفعوا إلى داخله. وقبضوا على جان وكورنيليس، وجروهما إلى الميدان، وضربوهما حتى الموت، وعلقوا جثتيهما على عمود نور ورأسهما منكسان (20 أغسطس 1672). وماتت الجمهورية الهولندية بموتها، وعاد بيت أورنج إلى السلطة من جديد.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> مأساة في الأراضي المنخفضة -> وليم أورنج الثالث

5- وليم أورنج الثالث

نشأت ماري ستيوارت ولدها على لون مكنتب من ضبط النفس يترقب في صمت فرصته حتى يأتي التجلد بالنصر، وذلك بعد أن حطم روحها إعدام أبيها تشارلز الأول (1649)، وموت زوجها الشاب وليم أورنج الثاني (1650)، وإلغاء منصب رئاسة الدولة، وإقصاء بيت أورنج عن الوظائف. هذا الصبي الهزيل الجسد، الذي أحقق به في نموه الأعداء المكلفون بحراسته، والذي ورث رغم ذلك عن وليم أورنج الأول شعاره "سأقاوم" نقول إنه شب فتى عليلاً يخفي وراء وجهه الجامد ناراً مستعرة من العزيمة والثأر. وإذا كان صارماً، مؤدباً، مجاملاً في برود، فقد زهد في اللهو والمرح، ومارس الرياضات الخلوية علاجاً لصداعه المتكرر ولتعرضه لنوبات الإغماء. لقد كان إناء ضعيفاً لتلك الروح التي ستستولي على عرش إنجلترا وتؤدب ملك فرنسا.

وذهبت أمه إلى إنجلترا في 1660 لبتهاجاً يتتويج أخيها، وماتت هناك بالجدري في ليلة عيد الميلاد. وفي 1666 أعلنت حكومة إقليم هولندا الأمير ذا الستة عشر عاماً قاصراً تحت وصاية الدولة، واستبدل جان دي ويت بأوصيائه ومعلميه المحبوبين أشخاصاً أكثر استجابة لسياسة المجلس

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> مأساة في الأراضي المنخفضة -> وليم أورنج الثالث

الإقليمي (50). وكان كره وليم لدي ويت يزداد على الأيام. وفي قمة سلطان جان، أفلت الأمير من رقابة أوصيائه الجدد وركب جواده من لاهاي إلى بيرجن أوب-زوم (1668)، ثم استقل زورقاً إلى زيلنده، وكانت أكثر الأقاليم ولاء لأجداده. وحياه سكان عاصمته مدلبورج بمظاهرات كبيرة تقيض حباً وإخلاصاً. فتولى دون تردد أو مقاومة رئاسة المجلس الإقليمي لزيلنده. فلما عاد إلى لاهاي أعلن أنه بلغ الآن رشده في عيد ميلاده الثامن عشر (4 نوفمبر 1668)، وأنه من الآن سيستغني عن الأوصياء الذين عينهم له مجلس هولندا، ولكن المجلس رفض سحبهم، فطردهم، ولكنهم بقوا. وترقب وليم فرصته.

وقد وافته حين اكتسحت الجيوش الفرنسية والألمانية الأقاليم الهولندية، واستسلمت الجيوش الهولندية بلداً بعد بلد، وبدا أن لاهاي ذاتها عاجزة عن الدفاع عن نفسها، وعين المجلس التشريعي وليم قائداً عاماً للاتحاد (25 فبراير 1672)، مدعياً لمطالب العسكريين، مؤملاً أن تعود إلى الأمة وحدتها ومعنوياتها برد بيت أورنج إلى مكان القيادة. وفي 2 يوليو انتخب مجلس زيلندة وليم حاكماً لأقاليمهم، ضارباً بالمرسوم الدائم عرض الحائط، وفي 4 يوليو هذا مجلس هولندا حذوه، وفي 8 يوليو عين قائداً أعلى لقوات الاتحاد المسلحة في البر والبحر. وقد ظهر معدنه حين عرض ملك فرنسا الصلح نظير تعويض بلغ ستة عشر مليون فلورين، والنزول عن مساحات كبيرة لفرنسا، ومنستر، وكولونيا، وقدم عرض سري بالاعتراف بوليم ملكاً على الباقي. واتجه إليه مجلس هولندا يطلب النصيحة فأجاب، "خير لنا أن نقطع إرباً من أن نقبل هذه الشروط (51)". وحين حضر دوق بكنجهام الثاني من إنجلترا ليحث وليم على الصلح وقال له "ألا ترى أن وطنك قد ضاع؟" أجاب "إن وطني في خطر عظيم، ولكن هناك سبيل مؤكد لمنعه من الضياع، وهو الموت في آخر خندق (52)". ومع ذلك ففي حكمة تستغرب من فتى في الثانية والعشرين، أشار بالمفاوضات الصابرة المجاملة مع الإنجليز، ولعله رأى أنفذ أن في التعاون

صفحة رقم : 10719

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> مأساة في الأراضي المنخفضة -> وليم أورنج الثالث

بيت الإنجليز والهولنديين الأمل الوحيد لكبح اعتداءات فرنسا. واتخذ من التدابير ما يكفل الروابط بين الأقاليم المتحدة، والإمبراطورية، وبراند نبورج. وكانت الخطوط العريضة للحلف الأعظم تتشكل في ذهنه. ومضى إلى المقر الرئيسي للجيش، لذلك كان غائباً عن لاهاي حين قتل الأخوان دي ويت. والظاهر أنه لم يكن ضالماً في تدبير هذه الفعلة، التي ربما لم يدبرها أحد، ولكنه لم يخف ارتياحه حين سمع بنبئها؛ وحمل الرجال الذين قادوا الغوغاء ورتب له معاشاً (53). ثم حاول الآن أن يكون قائداً كفواً، فلم يوفق قط في محاولته، غير أن المقاتلين المحنكين الذي انضوا تحت لوائه في حماسة أعادوا تنظيم الجيش والبحرية، وبدأت الانتصارات ترجح الهزائم، وتفوق درويتر وكورنيليس ترومب (بن مارتن) على الأسطولين الإنجليزي والفرنسي في شونفيلت وكيكدون (1673)، وصد الغزاة الألمان عند جرونجن، واستولى وليم على فاردن، وطهرت أقاليم جلدرا لاند وأوترخت، وأوفرسل، من العدو. وراح الفرنسيون يتفقهرون في كل مكان تقريباً، وأنفذت الأقاليم المتحدة، مؤقتاً على الأقل، فهلت لوليم منقداً لها.

ثم أضاف إلى هذه الانتصارات انتصارات دبلوماسية. ففي 19 فبراير 1674 أفتع إنجلترا بأن تبرم معه صلحاً منفرداً إذ وافق على أن يدفع لها تعويضات حربية قدرها مليوناً فلورين؛ وفي 22 إبريل و 11 مايو وقع معاهدتين مع مونستر وكولين، ثم أكد التحالف القائم بين الأقاليم المتحدة، وأسبانيا، وبران نبورج، والدنمرك، والإمبراطورية، ضد فرنسا التي أصبحت الآن معزولة. وكانت الضربة الأخيرة ظفرو بيد ماري، كبرى بنات جيمس دوق يورك وشقيق ملك إنجلترا. وتقاربت الآن الدولتان البروتستانتيتان الكبيرتان، وراحت الشبكة تحكم خيوطها حول فرنسا، ولم يكن أمراً هيناً أن يكون لماري حق في وراثة العرش الإنجليزي لا يتقدم عليه غير حق أبيها فيه. وندر في التاريخ أن دبر حاكم صغير السن كولين مثل هذه الخطط البعيدة النظر، ولا حقق لها نجاحاً كهذا النجاح.

صفحة رقم : 10720

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> فرنسا في أوج عظمتها -> مأساة في الأراضي المنخفضة -> وليم أورنج الثالث

على أن الفرنسيين جددوا هجومهم خلال ذلك، فاستولوا على إيبر و غنت، وزحفوا نحو الحدود الهولندية. وهزم أسطول فرنسي درويتر تجاه شاطئ صقلية (22 إبريل 1676)، وبعد أسبوع مات درويتر متأثراً بجراحه. وعرض لويس الصلح على الأقاليم المتحدة بشروط مغرية: أن يرد كل الأراضي الهولندية التي استولى عليها الفرنسيون، شريطة أن توافق الأقاليم المتحدة على احتفاظه بفرانش-كونتية واللورين. واحتج الإمبراطور، وبراندينبورج، والدنمرك على هذا الصلح، وأيدهم وليم، ولكن المجلس التشريعي الذي غلبت عليه المصالح التجارية تغلب على رأيه، وتخلّى عن حلفائه، ووقع مع فرنسا صلح نيميغن المنفصل (10 أغسطس 1667). أما وليم فقد نظر إلى الصلح على أنه مجرد هدنة، وكافح طوال السنوات العشر التالية ليعيد بناء الحلف وكبح التجار الهولنديون طبعه العسكري، محتجين بأن الأقاليم المنهكة في حاجة لأن تستريح من النضال، وأن الرخاء في طريقه إليها. على أن حدثين وقعا عام 1685 فاستغلها وليم ذلك أن لويس ألغى مرسوم ناننت، فاحتشد الهيجونوت المضطهدون في الأقاليم المتحدة، وتزعموا دعوة نشيطة لتوحيد الدول البروتستانتية ضد فرنسا. وفي إنجلترا كشف جيمس الثاني، بعد أن تولى عرشها، عن أمله في رد الأمة إلى الكاثوليكية، فدبر البروتستانت الإنجليز عزلهم، وبذلك يحل حق ماري زوجة وليم في العرش. وكان وليم قد عشق اليزابيث فيلييه، صديقة ماري (54) الحميمة، ولكن ماري غفرت له، ووافقت على طاعة زوجها بوصفه ملكاً أن هي أصبحت ملكة على إنجلترا وفي 1686 أفلح وليم في تنظيم حلف مع الإمبراطورية، وبراندينبورج، وأسبانيا، والسويد، للدفاع المشترك. وفي 30 يونيو 1688 دعا الزعماء البروتستانت الإنجليز وليم وماري إلى دخول إنجلترا بقوات مسلحة ومساعدتهم على خلع ملكهم الكاثوليكي. وتردد وليم، لأن لويس الرابع عشر كان تحت يده جيش عرمرم ينتظر قرار الملك ليهاجم الأراضي المنخفضة أو الإمبراطورية. وأرسل لويس الأمر للجيش بأن يزحف على ألمانيا، فأطلق بذلك يد وليم. وفي 1 نوفمبر 1688 أبحر بأربعة عشر ألف رجل ليكسب عرش إنجلترا.

صفحة رقم : 10721

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> الثورة الاشتراكية

الكتاب الثاني

إنجلترا

1649 - 1714

الفصل السابع

كرومول

1649 - 1660

1- الثورة الاشتراكية

بعد أن أطاح البيوريتانيون (المتطهرون) برأس الملك شارك الأول، في 30 يناير 1649، واجهوا مشاكل إقامة حكومة جديدة واستعادة أمن الناس على حياتهم وممتلكاتهم، في إنجلترا التي أشاعت فيها الفوضى والاضطرابات الحرب الأهلية التي دامت سبع منين. ونادى " البرلمان المبتور " Rump. P - وهم الأعضاء الستة والخمسون النشطون الذين بقوا من البرلمان الطويل بعد " حركة تطهير برايد " (1648) - بأن لمجلس العموم السيادة والمقام الأول، وان فيه الكفاية، وألغى مجلس اللوردات (6 فبراير 1649)، كما ألغى الملكية، وعين بمثابة جهاز تنفيذ له " مجلسا للدولة " يتألف من ثلاثة لواءات وثلاثة نبلاء وثلاثة قضاة وثلاثين من أعضاء مجلس العموم، كلهم مستقلون- أي بيوريتانيون جمهوريون. وفي 19 مايو أقام مجلس العموم، بصفة رسمية، الجمهورية الإنجليزية: " ولسوف يتولى الحكم في إنجلترا منذ الآن، بوصفها جمهورية أو دولة حرة، السلطة العليا للأمة، وهم ممثلو الشعب في البرلمان، ومن يعينونهم إلى جانبهم من وزراء، لخير الشعب (1) ". ولم تكن الجمهورية ديموقراطية. لقد طالب البرلمان بإقامة أساس ديموقراطي، ولكن طرد الأعضاء الملكين أثناء الحرب، والمشيخيين (البرستريان) في حركة التطهير، كان كما قال كرومول، " قد شنت البرلمان وغربله واختزله إلى مجرد حفنة من الرجال(2).

صفحة رقم : 10722

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> الثورة الاشتراكية

أن الملك وحدهم هم الذين كانوا ينتخبون البرلمان في الأصل، أما الآن فان مقاطعات برمتها باتت وليس لها ممثلون في " البرلمان المبتور " ولم تستند سلطة هذا البرلمان المبتور إلى الشعب بل إلى الجيش. فان الجيش وحده هو الذي استطاع أن يحميه من الثوار الملكيين في إنجلترا، والثوار الكاثوليك في إيرلندا، والثوار المشيخين في إسكتلندا، والثوار المتطرفين في الجيش نفسه.

ولمواجهة نفقات الحكومة ومتأخرات رواتب الجند اشتط هذا البرلمان في فرض الضرائب قدر ما فعل الملك الراحل. واقترح مصادرة أملاك كل من حمل السلاح دفاعا عن شارل، ولكنه في معظم الحالات ارتضى تسوية الأمر بحل وسط، هو تقاضى غرامة تعادل جزءا يتراوح بين العشر والنصف من القيمة الأساسية للضيعة. من أجل هذا عمد كثير من صغار النبلاء الذين عانوا الفقر والعوز في إنجلترا إلى الهجرة إلى أمريكا حيث كونوا أسر ات أرستقراطية، مثل آل: شنطن، وآل راندولف، وآل ماديسون وآل لي. واعدم بعض زعماء الملكين، وأودع بعضهم السجن. ومع ذلك بقيت حركة الملكيين تقض مضاجع الحكومة، لان روح التعاطف مع الملكية سيطرت على الشعب، فان إعدام الملك حوله من جابي ضرائب إلي شهيد. وبعد عشرة أيام من موت شارل ظهر كتاب عنوانه " صورة ملكية " لمؤلفه القسيس المشيخي جون جودن، ولكنه يؤهم بأنه أفكار ومشاعر شارل كما دونها هو بيده قبل موته بزمن وجيز. وربما صيغ بعض هذا الكتاب من مذكرات تركها الملك (3). ومهما يكن من أمره، فان الصورة التي عرضها الكتاب هي صورة حاكم طيب القلب كان في واقع الأمر يدافع عن إنجلترا ضد طغيان أقلية حاكمة (أوليغاركية) غليظة القلب

صفحة رقم : 10723

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> الثورة الاشتراكية

لا ترجم. وطبع الكتاب سنا وثلثين مرة وترجم إلى خمس لغات في سنة واحدة، ولم تفلح الضجة التي أثارها كتاب ملتون " تحطيم الصور المقدسة " (1649) في محو اثر كتاب جون جودن هذا، واسهم الكتاب في إثارة الرأي العام ضد الحكومة الجديدة. وشجع وكلاء الملكيين الذين شرعوا لفورهم في كل مقاطعة في إنجلترا بهيجون الشعور العام لإعادة أسرة ستيوارت. وقابل مجلس الدولة هذه الحركة ببث العيون والأرصاد على أوسع نطاق، والإسراع في القبض على الزعماء الذين يحتمل انهم كانوا يقومون بتنظيم ثورة.

وفي الناحية الأخرى كانت هناك أقلية من الأهالي وقس كبير من الجيش، يطالبون بديموقراطية شاملة بكل ما في الكلمة من معنى. كما طالب بعضهم بديموقراطية اشتراكية. وأمطرت السماء نشرات متطرفة. وصادر الكولونيل جون للبيرن وحده مائة منها. ولم يكن ملتون في تلك الحقبة شاعرا بل مؤلف نشرات وكتيبات. وهاجم للبيرن كرومول على انه طاغية مرتد منافق. وشكا أحد الكتاب من " انك قلما تحدثت إلى كرومول في أي موضوع إلا وضع يده على صدره ورفع عينيه وقال اللهم فاشهد. انه سوف يبكي ويصرخ ويبيدي الندم، حتى وهو يسدد إليك ضربة تصيب من مقتلا (4). " وفي إحدى النشرات تساءل كاتب آخر: " كان يحكمنا من قبل الملك واللوردات والنواب، أما الآن فيتولى الحكم فينا قائد الجيش والمحكمة العسكرية والنواب، فقل لنا بريك، ما هو الفرق ؟ " (5) وأحست الحكومة الجديدة بأنها مضطرة إلى تشديد الرقابة على الصحف والمنابر. وفي أبريل 1649 قبض على للبيرن وثلثة آخرين لإصدارهم نشرتين تصفان إنجلترا وهي " مكبلية في أغلال جديدة ". وهاج الجيش مطالباً بالإفراج عنهم. وتوعد نساؤهم كرومول بالويل والثبور إذا مس المعتقلون بأذى. وأرسل للبيرن من سجنه إلى طابع نشراته، متحدياً، أنها ما بالخيانة العظمى " موجها ضد كرومول وابتوتون ". وفي أكتوبر قدم الكتاب الأربعة إلى المحاكمة في قضية أثارت اهتمام الرأي

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> الثورة الاشتراكية

العام وشدت الآلاف من الناس إلى المحكمة. وتحدى للبيرن القضاة، وطالب بعرض القضية على هيئة المحلفين. فلما صدر الحكم ببراءة الكتاب الأربعة جميعهم انطلقت من الجمع الحاشد صيحة مدوية جماعية، يعتقد انه لم يسمع مثلها قط في دار البلدية، استمرت نحو نصف ساعة بلا انقطاع، حتى على الشحوب وجوه القضاة من شدة الفزع (6) وظل للبيرن لمدة عامين بطل الجيش. ونفى في 1652 ثم عاد في 1653 فقبض عليه ثانية، ثم برئ (أغسطس 1653)، ولكنه ظل مع ذلك سجيناً. وفي 1655 افرج عنه وقضى نحبه 1657، وهو في الثالثة والأربعين من العمر. وذهب بعض "أنصار المساواة" (حزب نشأ في البرلمان الطويل 1647 يدعو إلى إزالة الفوارق بين الناس) إلى ابعاد مما ذهب إليه للبيرن والديمقراطية، فدعوا إلى توزيع السلع توزيعاً اقرب إلى المساواة. انهم تساءلوا: لم يكون هناك أغنياء وفقراء؟ لماذا يتضور بعض الناس جوعاً على حين يحتكر الأغنياء الأرض؟. وفي أبريل 1649 ظهر "نبي" يدعى وليم افرارد Everard، وقاد أربعة من الرجال إلى نل سان جورج في سرى، ووضعوا أيديهم على بعض الأرض غير المشغولة، وفلحوها، ونثروا فيها البذور، ودعوا الناس إليها. فانضم إليهم ثلاثون آخرون من جماعة "الحفارين" (وهو اسم أطلق عليهم). وانهم- كما جاء في تقرير إلى مجلس الدولة، ليهددون الجيران بأنهم سيحملون الجماعة كلها على القدوم وشيكا إلى التلال للعمل فيها(7). "ولما سبق افرارد للمثول أمام نقيب الجيش سير توماس هيرفاكس، أوضح له أن اتباعه قد اعتزموا احترام الأملاك الخاصة، "وأنهم لن يقربوا إلا الأراضي العامة غير المفلوجة ليعملوا فيها حتى تؤتى ثمارها، "وأنهم يأملون" في أن يحين فجأة الوقت الذي يأتي فيه كل الناس طائعين مختارين وينزلون عن أراضيهم وضياعهم ويدعون لجماعة الأخيار هذه(8)". فما كان من هيرفاكس إلا أن أخلى سبيل الرجال على انهم أفراد متعصبون لا يخشى منهم أي أذى. وتابع أحدهم- وهو

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> الثورة الاشتراكية

جيرارد ونستانلى- الحركة ببيان أصدره في 26 أبريل 1649، تحت عنوان "لواء نصير المساواة الصادق يتقدم إلى الأمام": "في البدء جعل العقل (الخالق العظيم) الأرض ملكاً عاماً مشتركاً للحيوان والإنسان"، ولكن الإنسان فيما بعد عميت بصيرته فأصبح عبداً أكثر خضوعاً لبني جنسه من خضوع حيوانات الحقل لشخصه هو، وجرى التصرف في الأرض بالبيع والشراء، وأحاطها الحكام بالحواجز والأسياج، وبقيت في حوزة فئة قليلة من الناس. وكل ملاك الأرض لصوص ولن تنقطع الجريمة والكرهية والبلغضاء ما لم تسترد الملكية العامة المشتركة (9). وفي "قانون الحرية" (1652) توسل ونستانلى إلى الجمهورية أن تقيم مجتمعا لا يوجد فيه بيع ولا شراء، ولا محامون، ولا

أغنياء ولا فقراء، يجبر فيه الجميع على العمل حتى سن الأربعين، وبعد ذلك يعفون من الكدح. ويباح حق الانتخاب لكل البالغين من الذكور، ويكون الزواج أجراً مدنياً، والطلاق حراً مباحاً (10). وتخلي " الحفارون " عن مشروعاتهم، ولكن دعاباتهم نفذت إلى عقول الفقراء الإنجليز، وربما عبرت القنال إلى فرنسا، وعبرت المحيط إلى أمريكا. أن كرومول نفسه، وهو من ملاك الأرض، وهو الشديد الخبرة بطبيعة الإنسان، لم يثق في هذه المثل العليا في الملكية العامة، بل لم يثق حتى في حق الاقتراع للبالغين. وفي فترة الفوضى التي لا معدي عنها، عقب قلب أية حكومة، تدعو الحاجة إلى شيء من سلطة مركزة في بعض الأيدي، وقد تمثلت في كرومول، وأن كثير ممن أوغر صدورهم منه إعدام الملك، رحبوا لبعض الوقت بدكتاتورية بدت البديل الوحيد للانحلال الاقتصادي والسياسي بل أن الجيش نفسه، حين ترامت إليه أنباء الثورة المضادة التي تدبر في إيرلندا واسكتلندا، غمره الفرح إذ أيقن أن يد كرومول الحديدية على أتم استعداد لقيادته ضد العصاة والثوار الذين

صفحة رقم : 10726

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> الثورة الاشتراكية

لم يسعوا وراء " يوتوبيا " أو دنيا مثالية ديمقراطية، بل وراء عودة ملكية تتأثر وتنقسم.

صفحة رقم : 10727

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> ثورة إيرلندا

2- ثورة إيرلندا

في إيرلندا وحد رد الفعل ضد الثورة الكبرى، بشكل عابر، بين البروتستانت في إقليم (The Pale) في شرق إيرلندا حول دبلن والكاثوليك فيه وفيما وراءه. فقد حدث حتى قبل إعدام شارل الأول، أن وقع إرل اورموند جيمس بتلر، بوصفه نائب الحاكم في إيرلندا، معاهدة مع اتحاد الكاثوليك في كلكني (17Kilkenny يناير 1649) وافقوا بمقتضاها، وفي مقابل الحركة الدينية وبرلمان إيرلندي مستقل، على تزويده بخمسة عشر ألفاً من المشاة وخمسمائة من الجياد. وبعث أورموند برسالة إلى أمير ويلز، الذي اعترف أورموند لفوره بأنه شارل الثاني، بدعوة فيها للقوم إلى إيرلندا ليقود جيشاً مشتركاً من البروتستانت والكاثوليك. وأثر شارل الذهاب إلى إسكتلندا، ولكن كرومول اعترزم أن يواجه تهديدات إيرلندا أولاً.

وحيث حط كرومول رحاله في إيرلندا في اغسطس، كانت القوات الموالية للجمهورية قد هزمت بالفعل أورموند في رانميز، وتراجع هو مع ما تبقى من قواته (2300 جندي) إلى مدينة دروجيدا المحصنة، الواقعة على نهر بوين. فحاصرها كرومول بعشرة آلاف جندي واقتحمها واستولى عليها عنوة (10 سبتمبر 1649) وأمر بقتل من بقي حاميتها على قيد الحياة (11). ولم يفلت من المذبحة بعض المدنيين، وقتل كل قسيس في المدينة (12)، حتى بلغ عدد ضحايا المذبحة المنتصرة نحو 2300. واشترك كرومول في شرف النصر مع الله: "أرجو أن تنسب القلوب الطاهرة هذا المجد إلى الله الذي يرجع إليه الفضل في هذه الرحمة حقاً" (13) "وتمنى"

صفحة رقم : 10728

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> ثورة أيرلندا

أن تساعد هذه المحنة كثيرا على حقن الدماء بفضل كرم الله (14). وأنا لنشاركه رجاءه المخلص في أن تضع مثل هذه الضربة الواحدة من الإرهاب حدا للثورة، وتنقذ حياة الكثيرين من الجانبين. ولكن الحرب استمرت ثلاثة أعوام آخر، فان كرومول تقدم من دروجيدا لحصار وكسفورد، واستولى عليها، ولقي 1500 من المدافعين عنها ومن سكانها مصرعهم. وقال كرومول " ان الله، بشيء من عناية إلهية غير متوقعة، في عدله القويم، قد انزل بهم حكما عادلا.... حيث كفروا بدمائهم عن أعمال القسوة الوحشية التي اقترفوها ضد حياة الكثيرين من البروتستانت المساكين (15) ". ولكن سياسة المذابح أخفقت فان مدينتي دنكانون ووترفورد تحدنا حصار كرومول. واستسلمت كلكني لمجرد أنها تلقت شروطا كانت مرفوضة في أي مكان آخر، وتم الاستيلاء على كلونمل ولكن بعد فقد ألفي رجل. وما أن ترامى إلى كرومول نبأ وصول شار الثاني إلى إسكتلندا حتى ترك مواصلة الحرب في إيرلندا لصهره هنري ايرتون، واجر هو إلى إنجلترا (24 مايو 1650). وكان ايرتون قائداً قديراً، ولكنه مات بالطاعون في 26 نوفمبر 1651. ونبذت سياسة المذابح، وصدر العفو عن الثوار، وبمقتضى معاهدة كلكني (12 مايو 1652) استسلموا جميعاً تقريباً، شريطة السماح لهم بالهجرة دون عائق. وفي 12 أغسطس صدر " قانون التسوية في إيرلندا"، الذي ينص على مصادرة كل ممتلكات الايرلنديين أو بعضها - أيا كان مذهبهم - ممن يعجزون عن أثبات أنهم كانوا مواليين للجمهورية، وبهذه الطريقة انتقلت ملكية نحو مليونين وخمسمائة ألف فدان (أيكرا) من أراضي أيرلندا إلى جنود أو مدنيين إنجليز أو ايرلنديين كانوا يناصرون كرومول في إيرلندا. وبهذا انتقل ثلثا ارض إيرلندا إلى أيدي الإنجليز (16). وانضمت مقاطعات كلدار ودبلن وكارلو وكلو وكفورد

صفحة رقم : 10729

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> ثورة أيرلندا

لتشكل "pale" أو إقليمياً إنجليزياً جديداً في إيرلندا، وبذلت محاولات لإقضاء كل ملاك الأرض الأيرلنديين أياً كانوا، ثم المواطنين الأيرلنديين عن هذه المقاطعات. وجردت آلاف الأسر الأيرلندية من أملاكها، وأعطوا مهلة نهايتها أول مارس 1655 ليجدوا لأنفسهم وطناً آخر. وشحن المئات منهم على ظهور السفن إلى بربادوس، (جزر الهند الغربية) أو أماكن أخرى بتهمة التشرد.

وقد يسير وليم ربنى انه من بين سكان إيرلندا البالغ عددهم 1,466,000 في 1641، كان قد هلك حتى 1652 نحو 616,000 بسبب الحرب أو الموت جوعاً أو الطاعون، وقال أحد الضباط الإنجليز: في بعض المقاطعات "قد يسير المرء عشرين أو ثلاثين ميل دون أن يجد مخلوقاً على قيد الحياة، إنساناً أو حيواناً أو طائراً" وقال آخر: " أن الشمس لم تشرق قط على أمة أشد تعاسة من هذه (17)". وحرّم المذهب الكاثوليكي بحكم القانون وصدرت الأوامر إلى رجال الدين الكاثوليك بمغادرة إيرلندا في بحر عشرين يوماً، وكان الموت عقوبة من يخفى أياً منهم، وفرضت عقوبات صارمة على التخلف عن حضور الطقوس البروتستانتية يوم الأحد. ومنح القضاة والحكام سلطة جمع أطفال الكاثوليك وإرسالهم إلى إنجلترا لتلقي أصول المذهب البروتستانتية (18). أن كل الوحشية التي لقيها البروتستانت على يد الكاثوليك في فرنسا بين 1680-1890، صيها البروتستانت على رؤوس الكاثوليك في إيرلندا بين 1650-1660. وأصبحت الكتلة جزءاً لا يتجزأ من الروح الوطنية الأيرلندية، لأن الكنيسة والشعب قذف بهما في بحران من المعاناة والشقاء. وعلقت هذه السنين المريرة بذات كرات إيرلندا وكأنها تراث من البغضاء لا يفنى.

صفحة رقم : 10730

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> ثورة اسكتلندا

3- ثورة اسكتلندا

صعق الاسكتلنديون بإعدام شارل الأول الذي كانوا هم أنفسهم قد أسلموه إلى البرلمان الانجليزي، وعاد إلى ذاكرتهم فجأة أن والده كان اسكتلندياً. ورأوا في "تطهير برايد" الذي اخرج المشيخيين (البرسبتر يانز : كنيسة بروتستانتية يدير شؤونها شبوخ منتخبون يتمتعون جميعاً بمنزلة متساوية) من البرلمان الطويل، نقضاً "للعصبة المقدسة والميثاق المقدس" الذي اقسام فيه ذلك البرلمان يمين الإخلاص لإسكتلندا والمذهب المشيخي، وأوجسوا خيفة من أن يحاول البيوريتانيون المنتصرون فرض مذهبهم البروتستانتية على إسكتلندا كما فرضوه على إنجلترا. وفي 5 فبراير 1649، أي بعد مضي اقل من أسبوع على إعدام شارل الأول، نادى البرلمان الاسكتلندي (مجلس الطبقات) بابنه شارل الثاني، الذي كان آنذاك في الأراضي الوطية، ليكون الملك الشرعي على بريطانيا العظمى وفرنسا وأيرلندا. وقبل أن يجيز الاسكتلنديون لشارل الثاني الدخول إلى إسكتلندا طلبوا إليه أن يوقع الميثاق الوطني وعهد العصبة المقدسة والميثاق المقدس، ويقسم يمين الحفاظ على المذهب المشيخي أو أقامته كل أرجاء ملكه وفي بيته. على إن شارل الذي كان يدين بالفعل بمزيج من الكاثوليكية والتشكك، لم يكن يروقه مذهب المشيخية، في الوقت الذي كان يتوق فيه أيما توق إلى العرش، فوقع على كره منه، كل هذه المطالب في "بريدا" في أول مايو 1650. وقاد مونروز، أنبل الاسكتلنديين في ذلك العصر - قوة صغيرة من جزر أوركي إلى إسكتلندا، أملاً في أن يجمع لشارل جيشاً مستقلاً عن الميثاقين المشيخيين، ولكنه هزم وأسر وأعدم شنفاً (11 مايو 1650). وفي 23 يونيو حط شارل رحاله في اسكتلندا، وهو يتلطف على أن يكون على رأس جيش يغزو به الجمهورية البيوريتانية التي أطاحت برأس

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> ثورة اسكتلندا

ابيه، وقبل أن يهب الاسكتلنديون لنجدته، استحثوه على إصدار بيان يرغب فيه " أن يركع في ذل وخشوع أمام الله تكفيرا عن معارضة أبيه للعصبة المقدسة والميثاق المقدس، ومن أجل خطيئة أمه بسبب عقيدتها الوثنية (أي اعتناقها الكاثوليكية) (19). "وللتكفير عن خطيئات شارل الأول والثاني فرض رجال الكنيسة الاسكتلندية على الجيش والشعب صوما جادا رهيبا، وأكدوا للجيش انه لن يقهر (20)، لان الملك الشاب قد أَرْضَى السماء. وتحت إلهام القساوسة ظهر الجيش من الضباط الذين وضعوا ولاءهم للملك فوق ولاءهم للميثاق والكنيسة الاسكتلندية، وبهذه الطريقة طرد ثمانون من اقدر القواد.

واقترح كرومول على البرلمان الإنجليزي غزو اسكتلندا في الحال، دون انتظار هجوم من جانبها. واعتزل فيرفاكس آنذاك القيادة العليا لجيوش الجمهورية، وكان قد رفض الاشتراك في محاكمة شارل الأول، وعين كرومول خلفا له، فنظم قواته بعزيمته وعجلته المعهودتين، وعبر إلى اسكتلندا (22 يولية 1650)، على رأس 16 ألف رجل. وفي 3 اغسطس أرسل إلى لجنة الجمعية العامة للكنيسة الاسكتلندية رسالة زاخرة بالشجاعة والثبات والقدرة على الاحتمال: "هل كل ما تقولون يلتزم التماما لا شبهة فيه مع كلمة الله؟ أتوسل إليكم، بحق أحشاء المسيح، أن تفكروا في أنكم قد تكونون مخطئين (21)". وفي دنبار (3 سبتمبر) أوقع بالجيوش الاسكتلندية الرئيسية هزيمة منكرة واسر عشرة آلاف رجل، وسرعان ما استولى على إدنبرة وليث. وانهارت مكانة الوعاظ الاسكتلنديين، وتبدد زعمهم بأنهم معصومون من الخطأ. واستدعى الضباط المطرودون على عجل، وتوج شارل الثاني رسميا في "سكون Scone". أما كرومول فقد انتابه المرض في إدنبرة، وتوقف القتال بضعة شهور. ثم تقدم الجيش الاسكتلندي بعد إعادة تنظيمه، وعلى رأسه شارل،

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> ثورة اسكتلندا

إلى إنجلترا، أملا في أن ينضم إلى لواء الشرعية والحق، كل الملكيين والمشيخيين المخلصين. فتعقبهم كرومول، حيث كان يحشد أثناء مروره بالمدن الإنجليزية كل قوات الطوارئ، والمواطنين الصالحين للجنديّة، وفي ووتر، في 3 سبتمبر 1651، دارت رحى المعركة التي أبقت على الجمهورية، وحكمت على شارل بأن يلوذ بالمنفى مرة أخرى. وفيها، بفضل الاستراتيجية الفائقة البسالة، استطاعت قوات كرومول الأقل عددا، أن تهزم ثلاثين ألفا من الاسكتلنديين. وكان شارل شجاعا ولكنه لم يكن قائدا. انه بذل أقصى الجهد في أن يستحث ويلم شعث جنوده الذين اختل نظامهم، ولكن يبدو انهم ذعروا وارتعدوا فزعا من سمعة كرومول محاربا لم يخسر قط معركة، فألقى كثير منهم السلاح ولاذ بالفرار. وتوسل شارل إلى ضباطه أن يطلقوا عليه الرصاص فأبوا. واقتاده نفر من اشد اتباعه إخلاصا إلى مكان آمن مؤقت في مقر أحد الملكيين. وهناك تجرد من شعر رأسه إلى حد كبير، وغير لون يديه ووجهه واستبدل بملابسه ثياب

أحد العمال، وبدأ مسيرة طويلة، على ظهر جواد، وعلى قدميه، متسللاً من مخبأ إلى مخبأ. ينام تحت سطوح المنازل أو في الحظائر والغابات. ونام مرة في إحدى أشجار " رويال اوك " في بوسكوبل، على حين كان جنود الجمهورية يفتشون عنه تحتها. وكثيراً ما عرفه الناس، ولكنهم لم يغدروا به أو يكشفوا أمره. وبعد أربعين يوماً من الفرار، وجد هو ومرافقوه، في شورهام في سسكس، قارباً ارتضى ربانه، مخاطراً بحياته، أن ينقلهم إلى فرنسا (15 أكتوبر). وعهد كرومول إلى القائد جورج مونك بالضرب على أيدي الثوار الإسكتلنديين بصفة نهائية، وتم هذا في فبراير 1652. وأخضعت إسكتلندا لإنجلترا، وحل برلمانها المستقل، ولكن أجزئ لها إرسال ثلاثين نائباً عنها إلى برلمان لندن. وعوقبت الكنيسة الإسكتلندية بحظر

صفحة رقم : 10733

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> ثورة اسكتلندا

انعقاد جمعياتها العامة، وإقرار التسامح الديني مع كل الشيع البروتستانتية المسالمة. ومن الناحية الاقتصادية أفادت إسكتلندا من الحرية الجديدة في الاتجار مع إنجلترا. أما من الناحية السياحية فقد ظلت ترقب عودة أسرة ستيوارت وتدعو الله أن يحقق هذا الرجاء.

صفحة رقم : 10734

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> أوليفر حاكماً مطلقاً

4- أوليفر حاكماً مطلقاً

عاد كرومول إلى إنجلترا منتصراً انتصاراً يكلله التواضع. وأذ رأى الجموع التي احتشدت لتشهد مقدمه، فقد جال بخاطرة أن جمهوراً كبيراً من هذا كان يمكن أن يحتشد ليشهد مصرعه على حبل المشنقة (22). ومنحه البرلمان الألمبتور راتباً سنوياً قدره أربعة آلاف جنيه، وخصص له قصراً كان يوماً ملكياً في هامبتون كورت. واعتقد البرلمان أنه سيقنع بالبقاء في منصب القيادة العامة. كما اقترح إجراء انتخابات جديدة، لزيادة عدد أعضائه إلى 400، على أن يحتفظ الأعضاء الحاليون بمقاعدهم دون الدخول في الانتخابات الجديدة، وكان عليهم أن يحددوا شروط حق الانتخاب وصحة الأصوات. وحمى البرلمان نفسه ضد حملات النقد بالحد من حرية الصحافة والخطابة بشكل صارم: "لن يسمح باسم حرية الخطابة أو حرية الوعظ، بأي شيء يعكس صفو الحكومة أو يسئ إلى كرامتها(23)". وحرّم رجال

الكنيسة الأنجليكانية الرسمية من أرزاقهم وحكم بمصادرة ثلثي ممتلكات من يعتنقون المذهب الكاثوليكي، بصفة غرامة. وقدمت الجوائز لمن يقبضون على القساوسة الكاثوليك (24).
أن كرومول، على الرغم من بطنه في اتخاذ قرار، كان حازماً متأهباً لسرعة التصرف إذا اعتزم أمراً. وقد احتمل في صبر نافذ المناقشات التي أفسدت السياسة في البرلمان ووقفت الإدارة. انه اتفق مع شارل الأول على أن تكون السلطة التنفيذية متميزة ومستقلة عن السلطة التشريعية.

صفحة رقم : 10735

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> أوليفر حاكماً مطلقاً

ثم بدأ يتساءل: ألم يكن خيراً وبركة أن يكون كرومول ملكاً. ولمح بهذه الفكرة (ديسمبر 1652) إلى صديقه هويتاوك الذي فقد صداقته باعتراضه عليها (25). وفي صبيحة يوم 20 أبريل 1653، عندما علم أن البرلمان المبتور كان على وشك أن ينصب نفسه سيداً غير منتخب على البرلمان الجديد، جمع حفنة من الجنود اتخذوا مواقعهم على باب مجلس العموم، ودخل هو إليه، وإلى جانبه اللواء توماس هاريسون، وأصغى لبعض الوقت إلى المناقشة في صمت رهيب. وعندما بدا اخذ الأصوات على موضوع البحث، نهض كرومول، وتحدث أول الأمر في اعتدال، وما لبث حتى تحدث في عنف، فنعى على البرلمان المبتور أن يكون أوليغاركية (أقلية حاكمة) تخلد نفسها بنفسها، لا تصلح لحكم إنجلترا. ثم صاح: "أيها السكارى" متجهاً إلى عضو بعينه، ثم صرخ في عضو آخر "أيها الداعر الفاجر" "أنتم لستم برلماناً. أقول أنكم لستم برلماناً، ولسوف أضع حداً لاجتماعاتكم". ثم التقت إلى هاريسون وأمره: "استدع الجنود، استدعهم إلى هنا". ودخل الجنود إلى القاعة. وأمرهم كرومول بإخلائها، وغادرها الأعضاء محتجين قائلين:

"ليس هذا من الأمانة في شيء". ووضعت الأقفال على القاعة الخالية، وفي اليوم التالي وجد معلقاً عليها لافتة "بيت للإيجار، غير مؤثث الآن (26). ثم ذهب كرومول بصحبة اثنين من القواد إلى حيث يجتمع مجلس الدولة، وقال لأعضائه "إذا كنتم تجتمعون الآن بصفنكم الشخصية فلا بأس، ولا يزعجكم أحد - أما إذا كنتم مجتمعين كمجلس للدولة، فلا مكان لكم هنا... وأرجو أن تعلموا أن البرلمان قد حل (27)". وهكذا كانت النهاية المخزية المزرية للبرلمان الطويل الذي كان قد اجتمع في وستمنستر، بكامل هيئته أو بشكله المبتور، منذ 1640، والذي كان قد حول دستور إنجلترا وحكومتها. ولم يعد هناك الآن دستور، بل جيش وملك غير ذي لقب أو ملك غير متوج.

صفحة رقم : 10736

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> أوليفر حاكماً مطلقاً

وكان الشعب بصفة عامة فرحاً بالتخلص من برلمان قد جر إنجلترا إلى حافة الهاوية. وعلى حد قول كرومول، لم يكن هناك "مجرد نباح كلب، ولا تدمر ظاهر لعله (28)". وتقبل البيوريتانيون الغيرون المتحمسون حل البرلمان على انه إفساح الطريق "للملكية الخامسة" أي مجيء المسيح المنتظر وحكمه وتشجع الملكيون وتهامسوا بأن كرومول سوف يستدعى الآن شارل الثاني، ويقنع هو بدوقية أو بمنصب نائب الملك في إيرلندا. ولكن أوليفر لم يكن بالرجل الذي يرتضى أن يكون رهن مشينته رجل آخر. فأصدر توجيهاته إلى معاونيه العسكريين أن يختاروا - بصفة أساسية من المجامع البيوريتانية في إنجلترا - 140 رجلاً، من بينهم خمسة من إسكتلندا وستة من إيرلندا، ليجتمعوا على هيئة "برلمان معين". ولما انعقد هذا البرلمان في هويت هول في 4 يولييه 1653 اعترف كرومول بأن الجيش هو الذي اختارهم، ولكنه رحب بهم باعتبار انهم يبدأون فترة يحكم فيها القديسون حكماً صحيحاً تحت رئاسة يسوع المسيح (29)، واقترح أن يخولهم السلطة العليا، ويكل إليهم مهمة وضع دستور جديد - وظل هذا البرلمان طيلة خمسة أشهر يبذل أقصى الجهد في إنجاز هذه المهمة، ولكنه ضل الطريق في متاهات المناقشة، الطويلة. وانشق الأعضاء على أنفسهم، بأساً وعجزاً، في موضوعات الدين والتسامح الديني. وأطلق ظرفاء لندن عليه اسم "برلمان باريون"، نسبة إلى أحد أعضائه Barebone، وهو احد القديسين في "الملكية الخامسة" سالفه الذكر. وضاق الجيش ذرعاً بهؤلاء الأعضاء، كما ضاق من قبل ذرعاً بمن طردهم في أبريل. وعرض الضباط - وهم يمثلون دور أنطونيو - على كرومول أن ينصب نفسه ملكاً، وتردد قيصر واعترض في رفق، ولكن ثمانين من أعضاء البرلمان، بإيحاء محدد من الجيش، أعلنوا إلى كرومول في 12 ديسمبر أن الجمعية الجديدة لم تصل إلى اتفاق، وأنها تقترح على حلها. وعرضت "وثيقة حكومية" أعدها زعماء الجيش، على كرومول أن يكون "حامي

صفحة رقم : 10737

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> أوليفر حاكماً مطلقاً

جمهورية إنجلترا وإسكتلندا وإيرلندا"، وأن ينتخب برلمان جديد على أساس نصاب من الثروة يخول حق الاقتراع، مع استبعاد الملكيين والكاثوليك، وان تكون السلطة التنفيذية في يد مجلس من ثمانية من المدنيين وسبعة من ضباط الجيش، يختارون لمدى الحياة، على ان يعمل هذا المجلس بمثابة هيئة استشارية "لحامي حمى الجمهورية" وللبرلمان كليهما. ووافق كرومول ووقع هذه الوثيقة، وهي "أول وآخر دستور إنجليزي مسطور (30)"، وفي 16 ديسمبر 1653 أقسم اليمين بوصفه "حامي الحمى". وبذلك انتهت الجمهورية، وبدأت الحماية - اسمان لأوليفر كرومول.

هل كان كرومول طاغية مستبداً؟ من الواضح انه استنساخ السيطرة والسلطان. ولكن تلك نزعة عامة، وهي أمر طبيعي إلى ابعدها في الموهبة الواعية. لقد فكر من قبل في تنصيب نفسه ملكاً، وتأسيس أسرة ملكية جديدة (31). ويبدو انه كان مخلصاً حين عرض أن ينزل عن سلطته "للبرلمان المعين". ولكن عجز هذا البرلمان أقنعه بأن سلطته التنفيذية هو نفسه هي آنذاك البديل الوحيد عن الفوضى فإذا تخلى هو، فقد كان يبدو انه ليس ثمة رجل آخر يحظى بتأييد كاف للمحافظة على النظام. واستنكر المتطرفون في الجيش هذه "الحماية" باعتبارها مجرد "ملكية أخرى". واتهموا كرومول بأنه "وغد منافق كذاب" وتوعدوه "بمصير أسوأ من المصير الذي لقيه الطاغية السابق (32)". وأرسل كرومول بعض هؤلاء المتمردين إلى السجن "برج لندن" ومن بينهم اللواء هاريسون الذي تولى قيادة الجنود عند طرد أعضاء البرلمان المبتور. أن خوف كرومول على سلامته هو نفسه أدى به شيئاً فشيئاً إلى المزيد من الاستبداد، لأنه أدرك أن نصف الأمة كان يمكن أن يهمل لقتله. انه أحس، مثل سائر الحكام، بالحاجة إلى إحاطة نفسه بمظاهر الفخامة والوقار التي تثير الرهبة في النفوس، فانقل إلى قصر هويت هول (1654) وأعاد تأثيثه بأفخر

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> أوليفر حاكماً مطلقاً

الرياش، واتخذ لشخصه كل الجلال وكل العظمة الملكية(32). ولكن مما لا ريب فيه ان كثيرا من هذه المظاهر كان لا بد أن يخلق انطباعاً قوياً في نفس السفراء، ويثير الفزع في نفوس الأهالي. وفيما يتعلق كرومول الخاصة، فانه كان رجلاً غير مبال إلى المظاهر والأبهة، يعيش عيشة طابعها البساطة والإخلاص مع أمه وزوجته وأولاده. وأحبته أمه حباً ممزوجاً بالخوف عليه، ترتعد فرقاً على حياته لكل طلقة نسمعتها، وعند وفاتها في الثالثة والتسعين (1654) قالت: " ولدي العزيز أني أترك قلبي معك (34) ". انه هو نفسه، في أواسط الخمسينات من عمره، كان يدب إليه الهرم بسرعة، أن ما واجهه من أزمة تلو أزمة كان يهد من أعصابه التي قيل أنها حديدية. أن حملات إيرلندة وإسكتلندة زادت الحمى على داء النقرس، ولم يمر عليه يوم دون نصب او قلق ورسم له المصور إلى في 1650 لوحة مشهورة. وان كل إنسان ليعرف تحذير كرومول للمصور حيث قال له: " مستر للى، بودي أن تستغل كل ما أوتيت من مهارة في رسم صورة حقيقية مثل شخص تماماً، ولا تتملقني على الإطلاق، بل يجب أن تبرز هذه الخشونة والبيثور والنتوءات وكل شيء، والا، فلن أنفدك فلما واحدا (35) ". وقبض للى أجره، ورسم "حامى الحمى" في صورة مصقولة إلى حد بعيد، ومع ذلك ابرز الوجه الصارم القوي، والإرادة الحديدية كما أبرز روحاً عصبية متوترة إلى حد الانفجار. ووجه النقد إلى كرومول من أجل البساطة الكنيسة في لباسه العادي - سترة وبدلة بسيطتان سوداوان -، ولكنه كان في المناسبات الرسمية يرتدي سترة موشاة بالذهب. انه بين الناس كان يحتفظ بوقار لا اثر فيه للتكلف أو النظاهر، ولكن في حياته الخاصة كان ينصرف إلى ألوان التسلية والدعابة والمزاح، بل إلى مزحات عملية وهزل ماجن طارئ(36).

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> أوليفر حاكماً مطلقاً

واحب الموسيقى وعزف على الأرغن عزفاً جيداً(37). وأوضح أنه كان، حسب ما يبديه، مخلصاً في ورعه وتقواه(38)، ولكنه كثيراً ما استخدم اسم الله (لا عبثاً) لتدعيم أهدافه، إلى حد اتهمه معه الكثيرون بالنفاق. ويحتمل انه كان ثمة بعض الرياء في تقواه العلنية، وقليل منه في تقواه الخاصة، مما شهد به كل من عرفوه. وكانت رسائله وخطه نصف مواعظ، ولا نزاع في انه اعتبر، بكل طيب خاطر أن الله هو ساعده الأيمن ... ولم تكن أخلاقيات الخاصة تشوبها شائبة، على حين أن أخلاقياته العامة لم تكن تقضل أخلاقيات الحكام الآخرين، فاستخدم الخداع أو القوة حيثما رأهما ضروريين لأهدافه الكبرى. إن أحداً لم يوفق بعد بين المسيحية والحكم. أن كرومول الناحية الفنية، لم يكن حاكماً مطلقاً. فانه تنفيذاً لوثيقة الحكومة " التي أسلفنا ذكرها شكل " مجلس الدولة " وأنتخب برلماناً. " وعلى الرغم من كل مساعي حامى الحمى والجيش لضمان عودة النواب الذين تميزوا بالكياسة ولين

العريكة، ضم مجلس العموم الذي اجتمع في 3 سبتمبر 1654 بعض الجمهوريين المزعجين، بل كذلك بعض الملكيين وثار النزاع حول من يسيطر على الجيش: حامى الحمى أو البرلمان. واقترح البرلمان إنقاص عدد الجنود وعطياتهم، فتمردوا وحرضوا كرومول على حله (22 يناير 1655). والواقع إن حكومة إنجلترا أصبحت دكتاتورية عسكرية منذ ظهر براريد البرلمان في 1648.

وسبق كرومول آنذاك إلى الحكم طبق للأحكام العرفية وحدها دون سواها، وفي صيف 1655 قسم إنجلترا إلى خمسة أقسام عسكرية. ووضع على رأس كل منها هيئة من الجند يرأسها ضابط برتبة لواء وللوفاء بنفقات هذه التجهيزات فرض ضريبة قدرها 10% على ضياع الملكيين. واحتج الناس، وانتشر النقد والتمرد، وسمعت أصوات تنادي بعودة شارل الثاني. وأجاب كرومول على هذا كله بتشديد الرقابة والتوسع في أعمال التجسس

صفحة رقم : 10740

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> أوليفر حاكماً مطلقاً

والاعتقالات التعسفية وإجراءات قاعة النجم التي أغفلت المحلفين وقانونية الاعتقال. وكان "سير هاري فين Vane" من الثوريين السابقين الذين اقتيدوا إلى السجن. إن الثورات تآكل آباءها. ولما كان كرومول في حاجة إلى مزيد من المال أكثر مما استطاع تحصيله عن طريق ما فرض من ضرائب أخرى مباشرة، فإنه دعا برلماناً آخر. ولما التأم عقده في 17 سبتمبر 1656، وضع مجلس الدولة على باب مجلس العموم بعضاً من ضباط الجيش، ومنع دخول 103 من الأعضاء الذين انتخبوا انتخاباً صحيحاً، ولكن يشتبه في إن لهم ميولاً جمهورية أو ملكية أو مشيخية أو كاثوليكية. فقدم الأعضاء المبعدون احتجاجاً استنكروا فيه إبعادهم بأنه انتهاك صارخ لإرادة ناخبهم التي عبروا عنها، ودمغوا بأشد النفاق "تصرف الطاغية واستخدامه اسم الله والدين والصوم والصلوات الشكلية ليستمر قنم الحقيقة الواقعة ومرارتها(40)". ومن بين الأعضاء البالغ عددهم 352 الذين اجتازوا تمحيص المجلس ودقته كان هناك 175 عضو أمن رجال الجيش أو من المعينين أو من أقرباء كرومول. وفي 31 مارس 1657 قدم البرلمان المختزل المنقوص الخاضع المذعن إلى "حامى الحمى" توسلاً ونصيحة متواضعين يطلب إليه فيها أن يتخذ لنفسه لقب "ملك". ولكنه كان يشم رائحة المعارضة من جانب الجيش لهذا العمل، فأبى. ولكن ثمة حل وسط أعطاه الحق في تعيين خلفه "حامى الحمى" وفي يناير 1658 وافق إعادة الأعضاء المبعدين إلى مقاعدهم في مجلس العموم. وفي نفس الوقت اختار تسعة من النبلاء و61 من العامة ليشكلوا المجلس الثاني (مجلس اللوردات). ورفض كثير من ضباط الجيش تأييد هذه الحركة. وعندما عقدوا اتفاقاً مع الجمهوريين في مجلس العموم للحد من سلطات المجلس الثاني، غضب كرومول غضباً شديداً واقتحم قصر وستمنستر وطرد البرلمان (في فبراير 1657). وأنداك من الوجهة القانونية، ومن حيث الأمر الواقع، انتهت الجمهورية الإنجليزية وأعيدت الملكية. وكان التاريخ

صفحة رقم : 10741

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> أوليفر حاكماً مطلقاً

بهذا قد ضرب مثلاً جديداً للتعاقب التهمي الساخر الذي ذكره افلاطون، وهو تعاقب الملكية، فالأرستقراطية، فالديموقراطية، فالدكتاتورية، فالملكية (41).

صفحة رقم : 10742

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> ذروة البيوريتانية

5- ذروة البيوريتانية

لقد انطوى انتصار البيوريتانية على ثورة دينية. وتحطمت الكنيسة الإنجليزية في 1634 بالغاء الحكومة الأسقفية في الكنيسة، وصادر مذهب البروتستانتية المشيخية (البرسبتريان) حيث كان يحكم مجامع الكنيسة قساوسة يوجههم مجلس (سنودس) في كل قسم، وتخضع مجالس السنودس هذه للجمعية العمومية - نقول أن مذهب الكنيسة المشيخية هذا جعل المذهب الرسمي للدولة في 1646، ولكن سيطرة مذهب المشيخية انتهت بعد عامين اثنين، حين ظهر "برايد" البرلمان من اتباع هذا المذهب. وبدا لبعض الوقت إن الديانة يجدر تركها حرة طليقة من أية رقابة أو إعانة مالية من جانب الدولة. ولكن كرومول (الذي حدث أنه اتفق في كل شيء تقريباً مع الملك الذي كان قد أودى بحياته) آمن بأن كنيسة معانة من قبل الدولة أمر لا غنى عنه من أجل التربية والتعليم والأخلاق. وفي 1654 شكل "لجنة من الفاحصين" لتختبر صلاحية رجال الدين للتعيين في رتب كنيسية والحصول على رواتب. ولم يكن أهلاً لذلك سوى المستقلين (البيوريتانيين) وأنصار التعميد والبرسبتريانز. وأجيز لكل أبرشية أن تختار بين التنظيم المشيخي أو نظام الكنيسة المستقلة - وفيه يحكم كل مجمع نفسه. واختار البيوريتانيون نظام الكنيسة المستقلة. أما التنظيم المشيخي الذي ساد في اسكتلندا، فقد اقتصر في إنجلترا إلى حد بعيد، على لندن ولنكشير. أما رجال الدين الأنجليكانيون. الذين بلغوا يوماً حداً كبيراً من القوة، فقد حرموا من رواتبهم، وباتوا يخدمون اتباعهم أي يقومون لهم بالمراسم في أماكن خفية، مثل الكهنة الكاثوليك. وفي 1657 اعتقل جون أفلين بسبب

صفحة رقم : 10743

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> ذروة البيوريتانية

حضوره الصلوات الأنجليكانية (42). وكانت الكاثوليكية لا تزال خروجاً على القانون. وأعدم قسيسان شنعاً (1650) - (1654) بتهمة "تضليل الشعب"، وفي 1657 أصدر برلمان البيوريتانيين، بموافقة كرومول، قانوناً يقضي بمصادرة ثلثي ممتلكات أي فرد جاوز السادسة عشرة، لم يتصل من الكاثوليكية وبيراً منها (43). وفي 1650 كانت العقيدة الدينية قد أصبحت أساساً لوضع اجتماعي طبقي: فكان الفقراء يتحيزون للمذاهب المعارضة - أنصار العماد، الكويكرز، أصحاب فكرة الملكية الخامسة، وغيرها، أو الكاثوليك. أما الطبقات الوسطى فكانت البيوريتانية غالبية فيها. على حين أن الأرستقراطية ومعظم ذوي الحسب والنسب (ملاك الأرض الذين لا ألقاب لهم) كانوا يشايعون الكنيسة الأنجليكانية التي لم تعد الدولة تعترف بها.

وانعكس التعصب الديني رأساً على عقب، أكثر مما تناقص أو خفت حدته. ذلك أنه بدلاً من اضطهاد الأنجليكانيين للكاثوليك المنشقين والبيوريتانيين الذين تعالت صيحاتهم من قبل طلباً للتسامح، باتوا الآن يضطهدون الكاثوليك والمنشقين والأنجليكانيين. وحرّموا استعمال "كتاب الصلوات العامة" ولو سراً في المنازل. وقصر برلمان البيوريتانيين التسامح على أولئك البريطانيين الذين ارتضوا التثليث وإصلاح الديني والكتاب المقدس باعتباره كلمة الله، كما ارتضوا نبذ الأساقفة. أما اتباع سوسينوس أو التوحيديون فلم يشملهم التسامح بناءً على ذلك. وفرضت عقوبات صارمة على أي نقد يوجه إلى العقيدة أو الطقوس الكالفنية (44). وكان كرومول أكثر تسامحاً من برلماناته، فتغاضى عن بعض الصلوات الأنجليكانية، ورخص لجماعة صغيرة من اليهود بالإقامة في لندن، بل وبناء معبد لهم، واتهمه اثنان من الوعاظ من أنصار عدم تجديد العماد بأنه "وحش سفر الرؤيا" (النبي الكذاب)، ولكنه احتمل هجومهما صابراً (45).

صفحة رقم : 10744

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> ذروة البيوريتانية

واستخدم نفوذه في وقف اضطهاد الهيجونوت في فرنسا وأتباع والدوني بيد مونت. ولكنه عندما طالبه مازاران، في مقابل ذلك، بمزيد في التسامح مع الكاثوليك في إنجلترا، تدرع بعجزة عن الحد من حماسة البيوريتانيين (46). ومن الجائز القول بأن الدين لعب دوراً هاماً وتغلغل في الحياة اليومية عند اليهود وحدهم، كما فعل عند البيوريتانيين. والحق أن البيوريتانية اتفقت مع اليهود في كل شيء تقريباً، فيما عدا ألوهية المسيح. وشجعت معرفة القراءة والكتابة حتى يقبل الجميع على قراءة الكتاب المقدس. وكان ثمة ولع شديد بالتوراة (العهد القديم) لأنه يقدم نموذجاً لمجتمع تسيطر عليه الديانة. وكان الشغل الشاغل في الحياة هو الخلاص من نار جهنم. والشيطان موجود حقا وفي كل مكان. وبنعمة الله وحدها يمكن لفئة قليلة مختارة أن تفوز بالخلاص وتضمن كلام البيوريتانيين وأقوالهم عبارات من الكتاب المقدس ومجازاته. واشرق في عقولهم التفكير في الله وفي المسيح أو تجلياتهما لهم، وملاّتهم خشية ورهبة ولكن لم يفكروا قط في السيدة مريم. واتسمت ملابسهم بالبساطة والكآبة، وخلت من أية زينة أو زخرف، كما اتسم كلامهم بالوقار والرزانة مع البطئ. وكان منتظر منهم أن يناوئ بأنفسهم عن اللهو والدنس واللذة الحسية. وكانت المسارح قد أغلقت في 1642 بسبب الحرب، فظلت مغلقة حتى 1656 بسبب شجب البيوريتانز واستكثارهم لها. وحرّم سباق الخيل ومصارعة الديكة ومباريات المصارعة، ومطاردة الدببة أو الثيران، إلى حد أن الضباط (الكولونيل) البيوريتاني نبوسن قتل كل الدببة في لندن ليتأكد أنها لن تطارد بعد الآن (47). واقتلعت كل أعمدة مايو (كانت تزدان بالأشرطة والزهور وتقام في أول مايو). وكان الجمال شبيهة، واحترموا النساء بوصفهن زوجات مخلصات وأمّهات صالحات، وفيما عدا ذلك لم يتمتعن بحسن السمعة لدى البيوريتانيين لأنهن مصدر غواية واغراء، وانهن سبب طرد الإنسان من الجنة. ونقروا من الموسيقى، ماعدا في الترانيل الدينية.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> ذروة البيوريتانية

وقضوا على الفن في الكنائس ولم يسمحوا بإخراج جديد منه، اللهم إلا بعض اللوحات الممتازة من عمل صمويل كوبر، وبيتر للى، وكان هولنديا. وربما كانت محاولة البيوريتانز تقنين الأخلاق أجل عمل منذ شريعة موسى. واعترفوا بصلاحيه الزواج المدني، وأبيح الطلاق، لكن الزنى كان جريمة عقوبتها الإعدام. على إنه بعد تنفيذ حكم الإعدام مرتين عقاباً على هذه الجريمة، لم يكن المحلفون يحكمون بالإدانة. وكانت عقوبة الأيمان تتدرج وفقاً للسلم الاجتماعي، فكان اليمين يكلف الدوق ضعف ما يكلف البارون، وثلاثة أمثال ما يكلف الذي لا يحمل لقباً، وعشرة أمثال ما يدفع الرجل العادي، بصفة غرامة، ودفع رجل واحد الغرامة لأنه قال: "الله شهيد علي(48)". وكان الأربعاء يوم صوم إجباري عن اللحم حتى ولو وقع فيه عيد الميلاد المجيد. وكان من حق الجنود اقتحام البيوت للتأكد من صوم الأهالي. ولم يكن مسموحاً بفتح الحوانيت يوم الأحد، كذلك كانت الألعاب والرياضة والأعمال الدنيوية محظورة فيه. ولم يسمح فيه بأية رحلة أو سفر يمكن اجتنبه، كما كان محظوراً "التسكع أو المشي الدنس لا هدف(49)". وعلى الرغم من عودة الملكية وما صاحبها من انتكاس في الأخلاق، ظل يوم الأحد قاسياً مترمناً حتى أيامنا هذه. ان كثيراً من هذه المحرمات القانونية أو الاجتماعية أثبت أنه أفسى مما تحتمل الطبيعة البشرية، وقيل أن نسبة كبيرة من السكان لجأت إلى النفاق، فكانوا يفترون الآثام كما هي العادة، ويجرون وراء المال والنساء والسلطة، ولكن دائماً تعرفهم الكآبة ويخرجون أصواتاً من أنوفهم وتنساب من أفواههم العبارات الدينية. ومع ذلك يبدو أن عدداً كبيراً من البيوريتانيين التزموا بإنجليهم في إخلاص وشجاعة. ولسوف نرى ألفين من الوعاظ البيوريتانيين بعد عودة الملكية يؤثرون العوز والفاقة على التحلي على مبادئهم. إن نظام البيوريتانية ضيق العقل ولكنه قوى الإرادة

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> ذروة البيوريتانية

والخلق. أنه ساعد الأنجليز على حكم أنفسهم. وإذا كان الفرع من نار جهنم والطقوس البيوريتانية قد أشاعت في البيت الكآبة والظلمة. فان حياة الأسرة عند عامة الناس قد أسبغ عليها نظام ونقاوة بقيتا بعد الانحلال الذي تميزت به صفوة المجتمع في عهد شارل الثاني. وجملة القول أن النظام البيوريتاني ربما أحدث إصلاحاً خلقياً جددته ودعمته حركة المنهجية في القرن الثامن عشر (الميثودية حركة إصلاح ديني قادها تشارلز وجون ويزلي في أكسفورد 1792 لإحياء كنيسة إنجلترا) - وإليه يرجع أكبر الفضل في الأخلاقيات العالية نسبياً التي تتميز بها الأمة البريطانية اليوم.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> الكويكرز

6- الكويكرز

تألفت في الكويكرز كل فضائل البيوريتانيين، وهم فرع منهم، ولو أخفاها لبعض الوقت الخيال الجامح والتعصب الأعمى. وكانت خشية الله والخوف من الشيطان قويين جدا فيهم إلى حد يصيب أجسامهم برعدة. وقال واحد منهم هو روبرت باركلي 1679.

أن قوة الله سوف تقتحم الاجتماع الشامل، ومن ثم سوف يكون هناك جهد باطني، حين يحاول كل فرد أن يقهر قوى الشر في النفوس، إلى حد أنه بأعمال هاتين القوتين المتعارضتين، وكأنهما تياران متضادان، بجهد الإنسان وكأنه في يوم المعركة، ومن هذا يكون اهتزاز الجسم وحركته في معظم الناس إن لم يكن كلهم وهي هزات وحركات، تنتهي بعد أن تسود قوة الحق، من الوخزات والأثبات، بصوت رخيم من الشكر والحمد. ومن هنا أطلق اسم الكويكرز، أي المهترئين علينا، وكان هذا من باب اللوم والتأنيب والسخرية في بداية الأمر (50).

وتفسير مؤسس الطائفة جورج فوكس يختلف اختلافاً يسيراً عن هذا

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> الكويكرز

إن القاضي بنت دن دربي هو أول من أطلق علينا هذا الاسم، لأننا كنا نأمرهم بالاهتزاز عند ذكر كلمة الله. وهذا كان في 1650 (51) أما الاسم الذي أطلقوه هم أنفسهم على طائفتهم فكان "أنصار الحق". وبعد ذلك أكثر تواضعاً، فقالوا "مجتمع الأصحاب".

وواضح أنهم كانوا في بداية الأمر بيوريتانيين، مع اقتناع شديد بصفة خاصة بأن ترددهم بين الفضيلة والخطيئة لم يكن إلا صراعا، في عقولهم وأجسامهم، بين قوتين روحيين، قوة الخير وقوة الشر، تحاول كل منهما أن تسيطر عليهم هنا، وإلى ما لا نهاية. إنهم تقبلوا المبادئ الأساسية عند البيوريتانيين: نزول الأسفار المقدسة عن طريق الوحي الالهي، خطيئة آدم وحواء، كون الإنسان خطاء بطبيعته، موت المسيح بن الله لتخليص البشر، إمكان نزول الروح القدس من السماء لتتویر نفس الإنسان وتشريفها. أن إدراك هذا "النور الباطن"، والإحساس به والترحيب بإرشاده وتوجيهه، كان جوهر الدين عند الكويكرز. وإذا نهج الإنسان سنن ذلك "النور" لم تعد به حاجة إلى واعظ أو كنيسة. فان إذا "النور" أسمى من العقل البشري، بل من الكتاب المقدس نفسه، لأنه صوت مباشر من عند الله إلى النفس.

لم يترك جورج فوكس من التعليم إلا أيسره ولكن "مذكراته" التي دمجها من الآثار الأدبية في الإنجليزية، التي تكشف عن القوة الأدبية في الكلام غير الأدبي، إذا كان بسيطاً جداً مخلصاً وكان جورج ابن أحد النساكين، والتحق للعمل بمصنع أحذية، ثم ترك سيده وأقرباؤه، "بأمر من الله" وبدأ في سن الثالثة والعشرين (1647)، الوعظ المتجول الذي لم يتوقف إلا بوفاته (1691). وفي سنه الأولى حيرته وأفضت مضجعه المغربات فراح يلتبس النصح والمشورة لدى رجال الدين، فأشار عليه أحدهم بالدواء وفصد الدم، وأوصاه آخر بالتدخين وتلاوة الترانيم

صفحة رقم : 10749

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> الكويكرز

الدينية (52). وقد جورج ثقته بالقساوسة، ولكنه وجد السلوى والعزاء حيثما فتح الكتاب المقدس. غالباً ما حملت الكتاب المقدس وقصدت لأخذ مكاني في إحدى الأشجار المجوفة في مكان منعزل حتى يرخى الليل سدوله، وكثيراً ما سرت في الليل محزونا وحدي، لأنني كنت رجلاً مثقلاً بالأحزان في أيام أعمال الله الأولى في نفسي.. ثم وجهني الله إلى الطريق، ويسر لي إدراك حبه، وهو حب خالد لا نهاية له، يفوق كل معرفة تتيسر للناس في حالتهم الطبيعية أو يمكنهم الحصول عليها من صفحات من التاريخ أو من بطون الكتب (53). وسرعان ما أحس بأن الحب الإلهي قد اختاره ليبشر الجميع بالنور الباطن ويعظمهم. وفي اجتماع الأنصار العماد في لبسترشير "حل الله عقدة لساني فأعلنت لهم جميعاً الحقيقة الخالدة، وظللتهم جميعاً قوة الله (54) "وذاغ عنه أنه يتمتع "بروح بصيرة"، ومن ثم جاء الناس أفواجا ليستمعوا إليه. "حلت قوة الله وكان لها إحياءات وإلهامات وتنبؤات عظيمة (55)". بينما كنت أسير في الحقول قال لي الله: اسمك مكتوب في سجل الحياة لدى المسيح، الذي وجد قبل خلق العالم (56). أي أن جورج قر الآن عينا بما قر في نفسه من أنه بين القلة التي اختارها الله قبل الخليفة، لتتلقى نعمته ورحمته وبركته الأبدية. وأحس أنذاك أنه مساو لأي إنسان. ومنعه زهوه بهذا الاصطفاء الإلهي من "أن أخلع قبعتي لأي من كان: حقيراً أو أميراً، وأنتم في حاجة إلي، أيها الرجال والنساء، دون اعتبار لغني أو فقير، وعظيم أو حقير (57)". وإذا اقتنع بأن الدين الحق لا يوجد في الكنائس بل في القلب المستتيرة، فإنه دلف إلى كنيسة في نوتجهام وقاطع الموعظة صانحاً بأن الاختبار الحق ليس في الأشعار المقدسة بل في "النور الباطن". وقبض عليه في

صفحة رقم : 10750

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> الكويكرز

1649، ولكن عمدة البلدة أطلق سراحه، وصارت زوجة هذه العمدة من أول المعتنقين. وأستأنف فوكس جولاته التبشيرية ودخل كنيسة أخرى وهناك كما قال "دفعت لأعلن الحق للكاهن والناس، ولكنهم انهالوا علي "في غضب

شديد وطرحووني على الأرض. وضربوني ضرباً مبرحاً وأذوني إيذاء شديداً بأيديهم وكتبهم المقدسة وعصيتهم" فاعتقل مرة ثانية، وأُخلى الحاكم سبيله، ولكن الأهالي قذفوه بالحجارة إلى الخارج البلدة (58). وفي دربي تحدث مهاجماً الكنائس والأسرار المقدسة على أنها تقرب لإغناء فيه إلى الله. فحكم عليه بالإقامة في الإصلاحية لمدة ستة شهور (1650)، وعرضوا عليه إخلاء سبيله شريطة الالتحاق بخدمة الجيش، فكان جوابه مهاجمة فكرة الحرب. عند ذلك أودعه سجانوه معتقلاً ففرا كرية الرائحة غائراً في الأرض، ليس فيه فراش، مع ثلاثين من المجرمين، "حيث قضيت قرابة نصف عام (59). ومن سجنه كتب إلى القضاة وبالحكام معترضاً على عقوبة الإعدام. وربما ساعدت شفاعته على إنقاذ امرأة شابة محكوم عليها بالإعدام بتهمة السرقة من حبل المشنقة.

وبعد عام قضاه في السجن استأنف التجوال لنشر تعاليمه. وفي ويكفيلد حول جيمس نابيلر، وفي بفرلي دخل كنيسة، وجلس منصتاً حتى انتهت الموعظة ثم سأل الواعظ: هل لم يشعر بالخجل "حين يتقاضى ثلاثمائة جنيه سنوياً ليبشر بالأسفار المقدسة (60)؟" وفي بلدة أخرى دعاء القسيس لإلقاء عظة في الكنيسة فأبى، ولكنه تحدث في فنائها إلى جمع من الناس.

أعلنت إلى الناس أنني لم أحضر لأعترض سبيل معابدهم الوثنية ولا قساوستهم، ولا عشورهم ... ولا احتفالاتهم وتقاليدهم اليهودية الوثنية لأنني أنكرت هذا كله. وقلت لهم أن هذا المكان ليس أكثر قدسية من أي مكان آخر .. لذلك نصحت الناس أن ينبذوا كل هذه

صفحة رقم : 10751

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> الكويكرز

الأشياء، وأرشدهم إلى روح الله ونعمته فيهم أنفسهم، وإلى نور المسيح في قلوبهم (61). وفي سوورثمور في يوركشير حول إلى مذهبه مرجريت فل، ثم زوجها القاضي توماس فل، وأصبحت دارهما، قاعة سوورثمور، أول مركز أساسي لاجتماع الكويكرز، وهو إلى يومنا هذا مزار يحج إليه الأصحاب.

وليس علينا أن نتبع قصة فوكس إلى أبعد من هذا. وكانت أساليبه فجة غير ناضجة ولكنه عوض بما تذرعه من صبر وجلد في ملاقاته سلسلة الإعتقالات والصدمات العنيفة، وهاجمه البيوريتانيون والمشيخيون والأنجليكانيون، لأنه نبذ الأسرار المقدسة والكنائس والقساوسة. وأرسل الحكام الكويكرز إلى السجون، لا لأنهم انتهكوا حرمة العبادات العامة وأغروا الجنود بالكف عن الاشتراك في الحرب، فحسب، بل كذلك لأنهم رفضوا تأدية يمين الولاء للحكومة. واحتج الكويكرز بأن اليمين أيا كانت عمل غير أخلاقي، ويكفي القول (بنعم) أو (لا). وتعاطف كرومول مع الكويكرز، واجتمع مع فوكس في لقاء ودي (1654) وقال له عند انصرافه: "تعال إلي ثانية أنا، أنت وأنا، لو اجتمعنا ساعة من نهار، لاقترب الواحد منا من الآخر" (62). في 1657 أصدر (حامي الحمى) توجيهاته بالإفراج عن المسجونين من الكويكرز، كما أصدر تعليماته إلى القضاة بأن يعاملوا هؤلاء الوعاظ الذين لا كنائس لهم على أنهم (أشخاص واقعون تحت تأثير وهم شديد) (63). إن أسوأ اضطهاد وأشدّه هو ما أصاب شيعة جيمس تايلر الذي بلغ به الأيمان بنظرية النور الباطن، حد الاعتقاد أو الادعاء بأنه هو المسيح مجسداً من جديد، وأنبه فوكس على هذا ولكن بعض أتباعه المخلصين الغيورين عبدهم وأكدوا إحدى النسوة أنه أعادها إلى الحياة بعد أن ظلت يومين في عداد الموتى. وعندما ركب تايلر إلى بريستول، أُلقت

صفحة رقم : 10752

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> الكويكرز

النسوة بأوشحتهن أمام جواده وأنشدن: "مقدس، مقدس، مقدس رب القربان المقدس" وقبض عليه بتهمة التجديف. ولما سأله عن دعاواه أو الدعاوى التي نسبها إليه، لم يكن جوابه سوى جواب المسيح "أنت قلت" وعرض البرلمان إذ ذاك، وكان البيوريتانيون يسيطرون عليه لقضية تايلر (1656) وظل أحد عشر يوما يناقش موضوع إعدامه. وسقط القرار بأغلبية 96 ضد 82 صوتا. ولكن سادت روح تنادي بحل وسط إنساني فحكم عليه يقف ساعتين كاملتين وعلقه في آلة التعذيب (المشهورة)، ويجلد 130 جلدة، وتدمغ جبهته بالحرف الأول من لفظة مجدف (B في الإنجليزية)، وأن يتقب لسانه بقضيب من الحديد المحمي، واحتمل هذه الفظائع بشجاعة. وحياه أتباعه على أنه شهيد، وقبلوا جراحه وامتصوها واحتجزوه وحيدا في معتقل لا قلم ولا ورق ولا تدفئة ولا ضوء فيه وانهارت روحه المعنوي يوما بعد يوم، فاعترف بأنه غرر به، فأفرج عنه في 1659، وقضى نحبه فقيرا معدما في 1660(64).

ولقد تميز الكويكرز بما بدا لبعض معاصريهم بأنه أشياء غريبة تثير المتاعب. إنهم لم يجيزوا أي أثر للزخرف والتبرج في ملابسهم. وأبوا أن يخلعوا قبعاتهم لأي إنسان مهما كانت مكانته، حتى في الكنيسة أو القصر أو المحكمة. ولم يخاطبوا أي فرد بغير ضمير المفرد (أنت) بدلا من ضمير الجمع (أنتم) الذي يوحي أصلا بالتشريف والتكريم. ونبذوا الأسماء الوثنية لأيام الأسبوع وشهور السنة، فكانوا يقولون على سبيل المثال: "اليوم الأول من الشهر السادس" وأقاموا الصلوات في العراء أو بين الجدران بنفس السهولة والبسر وطيب النفس، وكان كل فرد من المصلين يدعى ليخبر بما أوحى به إليه الروح القدس أن يقول، ثم يروج الجميع بعد ذلك في صمت رهيب يكلله الجلال والوقار، وكأنما هذا الصمت عفار مهدي مسكن بعد نوبة الحماس والغيرة - وهو صمت يعني في أساسه عندهم "إحساس بروح خيرة في أعماقهم". ورخص للنساء في الصلاة

صفحة رقم : 10753

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> الكويكرز

الزوجية فوق أي لوم أو أية شائبة. وحد تكاثرهم ما تواضعوا عليه من الزواج بعضهم من بعض، وعلى الرغم من ذلك بلغ عدد الكويكرز في 1660 في إنجلترا ستين ألف "صاحب" إن ما اشتهروا من أمانة وكياسة وجد وبعد عن الإسراف، ارتفع بهم من المراتب الوضيعة التي ظهروا فيها أول ما ظهروا إلى القبعات الوسطى التي ينتسب معظمهم الآن إليها.

صفحة رقم : 10754

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> الموت والضرائب

7- الموت والضرائب

أن الطبقات الوسطى هي التي تمتعت بأعظم الازدهار، في عهد كرومول و فوق كل شيء انصرف التجار إلى التجارة الخارجية، وضم البرلمان آنذاك أفراد يمثلون المصالح الاقتصادية أو يمتلكونها. ومن أجلهم قضى قانون الملاحة الصادر في 1651 بنقل الواردات من المستعمرات إلى بريطانيا على مراكب إنجليزية - ومن الواضح أن هذا إجراء إلى الهولنديين وراودت كرومول في بعض الأحيان فكرة التحالف مع المقاطعات المتحدة ابتغاء حماية البروتستانتية وتعزيزها، ولكن تجار لندن آثروا الربح على التقوى والورع. وسرعان ما وجد كرومول نفسه (1652) متورطاً في الحرب الهولندية الأولى. وكانت النتائج مشجعة كما رأينا. واستعرت حمى الإمبريالية بنمو البحرية. وأوحت ذكرى هو كنز ودريك إلى التجار وإلى كرومول نفسه بإمكان كسر شوكة الأسبان وسيطرتهم في الأمريكتين، واستيلاء إنجلترا على تجارة الرقيق الرابحة وتوجيه المعادن النفيسة من الدنيا الجديدة إلى لندن، و فوق ذلك كله، كما أوضح كرومول، فإن غزو جزر الهند الغربية يمكن المبشرين والوعاظ الإنجليز من تحويل هذه الجزر من الكاثوليكية إلى البروتستانتية (65).

صفحة رقم : 10755

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> الموت والضرائب

وفي 5 أغسطس 1654 بعث كرومول إلى فيليب الرابع ملك أسبانيا بتوكيدات الصداقة بينهما. وفي 6 أكتوبر أرسل إلى البحر المتوسط أسطولاً بقيادة بليك. وفي ديسمبر أتبعه بأسطول آخر تحت إمرة وليم بن (والد أحد أعضاء الكويكرز) وروبرت فينابل، للاستيلاء على جزيرة خسبانيولا (إحدى جزر الهند الغربية) من أسبانيا وأخفقت هذه المحاولة الأخيرة، ولكن بن استولى على جمايكا لإنجلترا (1655). وفي 30 نوفمبر 1655 وقع كرومول ومازاران "وكلاهما يخضع الدين للسياسة" تحالفاً إنجليزياً فرنسياً ضد أسبانيا. إن الحرب التي كانت أسبانيا قد استمرت تشنها على فرنسا بعد معاهدة وستغاليا 1648 كانت قد شغلت هاتين الدولتين أيضاً شغل عن التدخل في شأن كرومول واستيلائه على مقاليد الحكم في إنجلترا، أما الآن فإنها هيأت لسياسته الخارجية نجاحاً رائعاً، وإن كان عابراً. وتربص بليك لوقت غير قصير، لأسطول الفضة القادم من أمريكا، حتى عثر عليه في ميناء سانتا كروز في جزر كاناري، ودمره عن آخره (20 أبريل 1657). وأخذ الجنود الإنجليز زمام المبادرة في هزيمة الجيش الأسباني في معركة تلال دونز (بالقرب من دنكرك) في 4 يونيو 1658. ولما انتهت الحرب بصلح البرانس (1659) تخلت فرنسا عن دنكرك لإنجلترا، وبدأ كرومول وكأنه عوض عن فقدان ماري تيودور لثغر كالية قبل ذلك بقرن من الزمان. أنه فكر في أن يقضي على اسم الإنجليز من العظمة ما كان للرومان من قبل، وكان قاب قوسين أو أدنى من تحقيق هدفه، فقد أصبح لإنجلترا السيادة على البحار، ومن ثم كانت المسألة مسألة وقت حتى تسيطر على أمريكا الشمالية، وتمد حكمها وسلطانها في آسيا. ونظرت أوروبا كلها بعين الفرع إلى

البيوريتاني الذي كان يسبح الله ولكنه ابتنى بحرية، وألقى المواعظ ولكنه كسب معركة، والذي أسس الإمبراطورية البريطانية بالقوة العسكرية وهو يردد اسم المسيح. أن الرؤوس التي تعلوها

صفحة رقم : 10756

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> الموت والضرائب

التيجان، والتي حسبته محدث نعمة دعيا مغرورا، بدأت الآن تخطب وده وتلتمس التحالف معه دون أن تعير اللاهوت اهتماما.

ولكن جون ثورلو سكرتير مجلس الدولة أذعر كرومول بأنه كان من الخطأ أن يساعد فرنسا ضد أسبانيا، لأن فرنسا أخذة في الصعود على حين أن أسبانيا كانت آيلة للاضمحلال، وأن سياسة إنجلترا في تدعيم توازن القوى في القارة، إن لم تتطلب مساعدة أسبانيا، تقتضي يقينا عدم مساعدة فرنسا. والآن 1659 كان لفرنسا السيادة في البر، وكان الطريق أمامها مفتوحا للتوسع في الأراضي الوطيدة وفرانش كونتية واللورين. وكم من رجل إنجليزي كان يوجد بحياته لوقف أطماع لويس الرابع عشر العدوانية.

وفي نفس الوقت ازدهرت أحوال أمراء التجارة بسبب الحروب، وأعيد في 1657 تنظيم شركة الهند الشرقية بوصفها مشروعا برأس مال مشترك، "وأقرضت" كرومول ستين ألف جنيه، حتى تتجنب تدقيق الحكومة في فحص شئونها(66). وكانت هذه الشركة الآن من أقوى العوامل في اقتصاد إنجلترا وفي سياستها. وواجهت الحكومات نفقات الحرب برفع الضرائب إلى حد لم يبلغه في عهد شارل الأول وشارل الثاني. وباعت معظم أراضي التاج وأراضي الكنيسة الإنجليكانية، وضياح كثير من الملكيين، ونصف أراضي إيرلندة، وبرغم ذلك كله بلغ متوسط العجز السنوي 450 ألف جنيه بعد 1654. ولم ينتفع المواطن العادي إلا قليلا. وطرح جانبا كل الأهداف التي ناضلت من أجلها الثورة الكبرى فيما بين 1642-1649. ولم يقل فظاعة عن ذي قبل فرض الضرائب دون موافقة البرلمان، والاعتقال غير القانوني، والمحاكمة دون محلفين، وبات حكم الجيش وحكم القوة دون تستر أشد إز عاجا وظلما عن ذي قبل، مذ أضفوا عليه مسحة من الدين. وأضحى حكم كرومول بغيضا ليس له مثيل، لا من قبل، ولا من بعد(67).

صفحة رقم : 10757

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> الموت والضرائب

وكانت إنجلترا ترقب موت حامي الحمى بصبر نافذ. وكم من مؤامرة دبرت لاغتياله، وكان عليه دوما أن يأخذ حذره، وزاد الآن عدد حرسه إلى 160 رجلا، واستخدم ضابط منطرف سابق (برتبة مقدم) يدعى سكسبي Sexby، أحد السفاحين لقتله. وكشفت المؤامرة (يناير 1657) واعتقل السفاح ومات في السجن. وفي شهر مايو نشر سكسبي كتيباً بعنوان "قتل ليس بقتل"، كان دعوة صريحة للإطاحة برأس كرومول، وعثر على سكسبي ومات هو أيضا في

السجن، ودبرت المؤامرات في الجيش وفي دوائر الملكيين، حيث ازداد أملهم بشكل جنوني في عودة أسرة ستيوارت إلى الحكم. واعتقت ابنة كرومول الكبرى، زوجة اللواء المتطرف شارل فليتوود المبادئ الجمهورية، ونعت على والدها دكتاتوريته (68).

وحطمت الهموم والمخاوف وفقدان الأهل والولد روح الرجل الحديدي. إنه مثل كثير ممن بلغوا ذروة السيطرة والسلطان، استشعر الأسف أحياناً لأنه تخلى عن حياة الدعة والهدوء في أيامه الأولى يوم كان من مالكي الأرض في الريف. "إني أقول، وأشهد الله على ما أقول" لو أنني عشت في ظل تعريشة ورعيت قطيعاً من الغنم، لكان خيراً من أن أتولى حكومة مثل هذه (69) وفي أغسطس 1658 ماتت إليزابيث أحب بناته إليه، بعد مرض طويل أليم، وبعد تشييع جنازتها بفترة وجيزة لزم كرومول فراشه وقد انتابه حمى متقطعة، وربما أفاد الكينين في شفائه، ولكن طبيبه أبى أن يستخدمه لأنه علاج حديث أتى به الجزويت الوثيون إلى أوربا (70). وبدا أن كرومول أبل من مرضه، وتحدث في جراحة وشجاعة إلى زوجته قائلاً: "لا تظني أنني سافارق الحياة، أني واثق من عكس هذا (71)". وطلب إليه أن يعين من يخلفه فأجاب "رينشارد" أي ابنه الأكبر. وفي الثاني من سبتمبر أصيب بنكسة، وأحس باقتراب

صفحة رقم : 10758

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> الموت والضرائب

منيته. ودعا الله أن يغفر له خطاياهم ويحفظ البيوريتانيين. وبعد ظهر اليوم التالي فارق الحياة. وكتب السكرتير ثورلو: "لقد صعد إلى السماء مضمخاً بدموع شعبه، على أجنحة صلوات القديسين ودعواتهم (72)" ولما وصلت أنباء موت كرومول إلى أمستردام "أضينت المدينة أيما إضاءة، وكأنما طلقت من عقالها، ومضى الأطفال في القنوات هاتفين متهللين فرحاً لموت الشيطان (73).

صفحة رقم : 10759

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> طريق العودة

8- طريق العودة

1660-1658

لم يمتلك الشيطان نفس ريتشارد بن كرومول. كما أنه لم يكن لديه من الصلابة والإرادة الحديدية ما يمكن أن يقيد به إنجلترا في الأغلال التي صنعتها القوة والتقوى. وكان ريتشارد يشارك أخته، رقة العقل مما جعلها ينظر أن في فزع خفي إلى سياسة الخدم والحديد التي انتهجها والدهما. لقد جثا ريتشارد من قبل على ركبتيه أمام أبيه، ضارعاً إليه أن يبقى على حياة شارل الأول. وطيلة عهد الجمهورية والحماية، عاش في هدوء وسلام في الريف على الضيعة التي حصل عليها بالزواج ولم يسكن به من طموح في أن يصبح في 4 سبتمبر 1658، بناء على وصية والده، "حامي الحمى" إنجلترا ووصفته لوسي هتشنسون بأنه "وديع مهذب فاضل، ولكنه فلاح بطبيعته، ولم تكن تليق له العظمة". (74)

وأفلتت الآن، في جراءة أكثر، كل العناصر التي كان أوليفر قد كبح جماحها، عندما أدركت وهن نسيج ريتشارد. من ذلك أن الجيش الذي كره فيه خلفيته المدنية، والذي رغب في أن يحتفظ بالسلطة التي كانت على عهد والده عسكرية بشكل صريح، نقول إن هذا الجيش ألتبس منه أن يتخلى عن إدارة الجيش إلى فليتوود، فأبى، ولكنه هدأ من روع زوج أخته

صفحة رقم : 10760

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> طريق العودة

بتعيينه قائداً. ولما كانت الخزانة خاوية مثقلة بالديون، فإنه دعا برلمانا اجتمع في 27 يناير 1959، وراجت الشائعات بأنه يدبر عودة أسرة ستيورات إلى العرش. فجاء ضباط الجيش تتبعهم زمر من الجنود إلى ريتشارد وطلبوا إليه فض البرلمان، فأرسل إلى حرسه ليتولوا حمايته فتجاهلوا أوامره. واستسلم ريتشارد للقوة ووقع أمرا بحل البرلمان (22 أبريل)، وأصبح الآن تحت رحمة الجيش. ودعا الجمهوريون المتحمسون في الجيش يتزعمهم اللواء جون لمبرت، أعضاء البرلمان الطويل الباقين على قيد الحياة للاجتماع من جديد، وممارسة السلطة التي كانت لهم، كما كانت للبرلمان المبتور، حتى مجيء كرومول، وطرده إياهم بمعونة الجمهوريين المتحمسين في الجيش 1653. والتأم عقد هذا البرلمان المبتور الجديد في وستمنستر في مايو 1659. ولكن ريتشارد الذي لقي من السياسة نصيباً، أرسل استقالته إلى هذا البرلمان في 25 مايو. واعتزل الحياة العامة، وفي 1660 أوى إلى فرنسا حيث عاش في عزلة تحت اسم مستعار هو جون كلارك. وعاد إلى إنجلترا في 1680، حيث وافته منيته في 1712 وهو في السادسة والثمانين من العمر.

وكتب أحد الملكيين في 3 يونيو 1659 يقول: "أن الفوضى كانت تعتبر كاملاً، إذا قيست إلى نظامنا الراهن وحكومتنا الحاضرة (75) واستمر الصراع على السلطة بين الجيش والبرلمان، ولكن قطاعاته المقبمة في إسكتلندا وإيرلندا أيدت البرلمان. وكان ثمة حزب ملكي قوى في البرلمان الذي كانت غالبية من الجمهوريين. وفي 13 أكتوبر حشد لمبرت جنوده عند مدخل قصر وستمنستر وطرد البرلمان، وأعلن أن الجيش سيتولى مقاليد الحكومة. وبدأ أن تعاقب الأحداث التي بدأت بحركة برايد في التطهير، سوف تتكرر مع كرومول آخر هو لمبرت. وقال ملتون عن "انقلاب" لمبرت "أنه عمل أبعد ما يكون عن

صفحة رقم : 10761

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> طريق العودة

الشرعية، ومن أشد الأعمال خزيا وعارا .. إنني لأخشى أن أكون واحدا في مجتمع همجي متبربر ... وإلا فكيف يجرؤ جيش ماجور أن يخضع لسلطانه هو السلطة العليا التي أقامته، على هذا النحو (76) "ولكن الشاعر كان عاجزا لا حول له ولا قوة. أن القوة الوحيدة في بريطانيا، التي كان في مقدورها أن تقف في وجه الدكتاتورية العسكرية هي جيش آخر، أو العشرة آلاف جندي الذي خصصهم البرلمان من قبل للجنرال جورج مونك لإقرار سيادته في إسكتلندا. ولسنا ندري إذا كانت ثمة أطماع شخصية خفية وراء اعتزام مونك تحدى الجيش في لندن ومقاومة اغتصابه السلطة. فأعلن مونك: "أن الضمير والشرف يقضيان على بأن أحرر إنجلترا من حكومة السيف التي كبلتها في أغلال العبودية التي لا تحتل". وأثار بيانه الحماسة والحمية في عناصر مختلفة معارضة للحكم العسكري. ورفض الأهالي دفع الضرائب وأعلن الجيش في أيرلندا والأسطول وصبيان الحرفيين، انضمامهم إلى البرلمان. ورفض صرافو لندن أن يدفعوا للقادة المغتصبين القروض التي اعتمدوا عليها في دفع الرواتب للجنود. وأحست الآن طبقات التجار والصناع الذين كانوا قد أقرروا من قبل خلع شارل الأول، أن الفوضى التي تنتشر ويتفاقم خطرها، تهدد الحياة الاقتصادية في إنجلترا، وبدعوا يعجبون ويتساءلون: هل من المستطاع استعادة الاستقرار السياسي أو الاقتصادي دون ملك، تهدئ شرعية مركزه من روع الناس، وتوفر الضرائب وتسكن العاصفة؟ وفي 5 ديسمبر قاد مونك قواته إلى إنجلترا. وأرسل قادة الجيش قوات لاعتراض طريقه، ولكنها رفضت القتال ضد مونك، وسلم الضباط المغتصبون بالهزيمة وأعادوا البرلمان، واستسلموا له، وصاروا تحت رحمته (14 ديسمبر).

وكان عدد أعضاء البرلمان المنتصر 36 عضوا، ولا يزال يميل إلى النظام الجمهوري. وكان من أول القرارات التي اتخذها، قرار يتطلب من الأعضاء

صفحة رقم : 10762

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> طريق العودة

الحاضرين وممن ينضمون إليهم في المستقبل، أن يتعهدوا بالتخلي عن أسرة ستيورات. كما رفض هذا البرلمان عودة المشيخيين الذين بقوا على قيد الحياة من أعضاء البرلمان المبتور السابق، على أساس أنهم يحبذون عودة شارل الثاني. وازدري الناس هذا البرلمان على أنه مجرد أحياء لبركان مبتور لا يمثل إنجلترا، وعبروا من مشاعر الاحتقار "بشواء ردف البقرة" على هيئة تمثال يلقي به في النيران الكثيرة المشتعلة في الهواء الطلق، حتى بلغ عدد هذه الحرائق 31 في شارع واحد في لندن. وأما الجنرال مونك الذي كان جيشه قد وصل إلى لندن في 3 فبراير 1660 فقد أندر البرلمان القائم بأنه إذا لم يدع إلى انتخابات جديدة موسعة، ويحل نفسه في موعد غايته 6 مايو، فإنه - أي مونك - لن يتولى حمايته بعد ذلك. كما أشار على البرلمان بإعادة الأعضاء المشيخيين الذين سبق إبعادهم، ففعل. وأعاد مجلس العموم الموسع (ازداد عدد أعضائه) إقرار مذهب المشيخية (البرسبترينانز) في إنجلترا، وأصدر الدعوة إلى انتخابات جديدة، وأعلن حل نفسه. وعند ذلك كانت النهاية الرسمية الشرعية للبرلمان الطويل (16 مارس 1660).

وفي اليوم نفسه محا أحد العمال؛ أو لطح بالطلاء، عبارات "أخرج أيها الطاغية، هذا آخر ملك، التي كانت الجمهورية قد علقتها في "بورصة لندن". ثم ألقى العامل بقبعته وهتف "فليبارك الله الملك شارل الثاني" وعندئذ، كما يروى،

"انضم كل من كان في المكان يهتفون بأصوات مدوية (78). وفي اليوم التالي التقى مونك سرأ برسول شارل، سيرجون جرينفل، الذي أسرع في الذهاب إلى بروكسل يحمل رسالة مونك إلى الملك غير ذي العرش.

صفحة رقم : 10763

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> ويعود الملك

9- ويعود الملك

1660

منذ غادر شارل الثاني إنجلترا في 1650 هاربا لاقى في هربه عننا ومشقة، عاش متشردا قلقاً في القارة. واستقبلته أمه هنريتا ماريا في باريس، ولكن الفرنسيون كانوا قد أفقروها. وقضى شارل وحاشيته بعض الوقت في أشد العوز، عائلة على الإعانات، حتى أن مستشاره المخلص، فيما بعد، إدوارد هايد كان يعيش على وجبة واحدة في اليوم. أما شارل نفسه الذي لم يكن لديه ما يسد الرمق في البيت، فكان يتناول الطعام في الحانات معظم الأحوال نسيئة، على حساب تطلعاته. ولما عاد لويس الرابع عشر إلى أيام الوفرة والرخاء أجرى شارل معاشاً سنوياً قدره ستة آلاف فرنك، ومن ثم بدأ شارل يستمتع بحياة رغبة طلبقة إلى أبعد حد، حتى يدخل السرور على قلب أمه. وتعلم في أيام باريس هذه كيف يجب أخته هنريتا أن أعرق حب وأخلصه وجهدت الأم والأخت كلتاها في ضمه إلى الكاثوليكية، كما أن الكاثوليك الإنجليز المهاجرين إلى فرنسا لم يألوا جهداً في تنكيره، حتى لا ينسى ما فعلوه من قبل لنصرة أبيه. ووعده مبعوثو المهاجرين المشيخين بالمساعدة على عودته إذا ارتضى حماية مذهبهم. واستمع لكلا الجانبين في لطف وكياسة، ولكنه عير عن تصميمه على التزام مذهب الكنيسة الأنجليكانية الذي قاسى أبوه من أجله ما قاسى (79)، وربما نزع به الجدل الذي حاصروه به، إلى الشك في الدين كله. ولكن يبدو أن العبادة الكاثوليكية التي رآها حوله في فرنسا، كان لها أثر قوى عليه، وبات سرأ مكتوماً في حاشيته الصغيرة أنه لو أطلقت يده لانحاز إلى الكنيسة الكاثوليكية (80) وفي 1651 كتب إلى البابا إنوسنت العاشر يعده بأنه لو عاد إلى عرش إنجلترا فلسوف يبطل كل القوانين التي صدرت ضد الكاثوليك. ولم يجب البابا بشيء. ولكن جماعة الجزويت أبلغوا شارل أن الفاتيكان لا يمكن أن يؤيد أميراً هرطيقاً (81).

صفحة رقم : 10764

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> ويعود الملك

وعندما شرع مازاران في التفاوض لعقد تحالف مع كرومول أقنع شارل مستشاروه بمغادرة فرنسا. ووافق الكاردينال مازاران على الاستمرار في صرف المعاش لشارل، فانتقل إلى كولون ومنها إلى بروكسل. وهناك في 26 مارس 1660 حمل إليه جرينفيل رسالة مونك: إذا وعد شارل بعفو عام، باستثناء مالا يزيد عن أربعة أشخاص، ومنح، حرية الفكر، وثبت الملك الحاليين للممتلكات المصادرة، فإن مونك يلتزم بمساعدته. وفي نفس الوقت، حيث أن إنجلترا مازالت في حرب مع أسبانيا، فيحسن بشارل أن يترك الأراضي الوطيئة الأسبانية. "فانتقل شارل إلى بريدا في إقليم برامانت الهولندي، وهناك في 14 أبريل وقع اتفاقاً قبل فيه شروط مونك من حيث المبدأ، تاركا التفاصيل الدقيقة للبرلمان الجديد.

وجاءت الانتخابات بمجلس عموم ذي أغلبية ساحقة من الملكيين، واتخذ اثنان وأربعون من صغار النبلاء مقاعدهم في مجلس اللوردات الجديد وفي أول مايو تليت في المجلسين كليهما الرسائل التي حملها جرينفيل من شارل وفي "إعلان بريدا" قدم الملك الشاب عفوا عاما فيما عدا الأفراد الذين يستثيهم البرلمان فيما بعد"، وترك للبرلمان تسوية موضوع الأملاك المصادرة ووعد "بالأبزعج شخصاً أو يستدعيه لمساعدته لخلاف في الرأي في أمور العقيدة، وألا يعكر صفو الأمن في المملكة". ثم أضاف بياناً حكيماً أعده له المستشار هايد:

أنا نؤكد لكم، تحت كلمتنا الملكية أن بعض أسلافنا

كانوا يقدرون البرلمان أكثر مما نقدره نحن. وإنا لنؤمن

بأن هذه كله جزء حيوي من دستور المملكة، ضروري

لحكومتها، إلى حد أننا ندرك تمام الإدراك أنه ليس ثمة

شعب أو أمير يمكن أن يحيا حياة سعيدة إلى درجة مقبولة

بدونه، ولسوف ننظر دوماً إلى نصائحهم على أنها أفضل

تراث منهم، ولسوف نكون معترزين بمآثرهم مهتمين بالمحافظة

صفحة رقم : 10765

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> ويعود الملك

عليها وحمايتها، قدر اعترازنا واهتمامنا بأقرب شيء إلى

أنفسهم، وألزم شيء لصيانتنا والحفاظ علينا.

وسر البرلمان لهذا، وفي 8 مايو نادى بشارل الثاني ملكا على إنجلترا، مؤرخا لقبه من يوم وفاة والده، غير مستند في ذلك إلى أي قرار برلماني، بل إلى حق المولد الوراثي. كما أقر إرسال مبلغ خمسين ألفا من الجنيهات إلى شارل مع دعوته إلى القدوم فوراً لاعتلاء عرشه. وابتهجت إنجلترا كلها تقريبا بانتهاء عقدين من السنين سادهما العنف، بعودة النظام دون إراقة قطرة من الدماء. ودقت النواقيس في طول البلاد وعرضها. وفي لندن جثا الناس في الشوارع وشربوا نخب الملك (82). وهللت كل الرؤوس المتوجة في أوربا لانتصار الشرعية، حتى المقاطعات المتحدة، وهي جمهورية بشكل قوي، كرمت شارل طوال رحلته من بريدا إلى لاهاي، وقدمت له الجمعية التشريعية التي كانت قد تجاهلته حتى الآن، مبلغ ثلاثين ألف جنيه لنفقاته، عربونا للنيات الطيبة في المستقبل. وجاء إلى لاهاي أسطول إنجليزي ترفرف عليه الأعلام مزدانة بالحروف الأولى من "الملك شارل" وحمله إلى إنجلترا في 23 مايو. وفي 25 مايو وصل الأسطول إلى دوفر، وإحتشد على الشاطئ عشرون ألفا لاستقبال الملك. ولما اقتربت السفينة من الشاطئ سجد الجميع، كما سجد الملك عندما وطئت قدماه الأرض، شكرا لله. وكتب فولتير: "أنبأني العجائز الذين كانوا هناك أن معظم العيون أغرورقت بالدموع". وربما لم يحدث من قبل مشهد مؤثر إلى هذا الحد (83). وعلى طول الطريق الذي احتشدت فيه الجموع السعيدة على مسافات قريبة، ركب شارل ومرافقوه، تتبعهم مئات الناس، إلى كنتربري، ثم روشستر ومنها إلى لندن. وهناك خرج (120 ألفا للترحيب به، حتى الجيش الذي حارب ضده، انضم الآن إلى قوات مونك، في هذا العرض. وانتظره أعضاء مجلسي

صفحة رقم : 10766

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> كرومول -> ويعود الملك

البرلمان في قصر هويت هول. وقال رئيس مجلس اللوردات: "أيها الملك المهيّب، أنت مناط رغبة ثلاث ممالك، وقوة لمختلف طبقات الشعب وسند لها، في تخفيف الانفعالات والألام، وتسوية الخلافات واستعادة شرف هذه الأمم المنهار (84)". وتقبل شارل كل هذه التحية والإطراء في لطف وتملكه شعور خاص ، وعندما أوى إلى شيء من الراحة بعد أن أزهقه الانتصار، قال لأحد أصدقائه: "لا بد أنه كان من الخطأ أني لم أحضر من قبل، فإني لم ألتق بفرد واحد لم يحتج بأنه كان دوما راغبا في عودتي (85)".

صفحة رقم : 10767

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> جون بنيان

الفصل الثامن

ملتون

1608 - 1674

1- جون بنيان

1628 - 1688

في غمرة التحمس للدين والأخلاق لم يحس البيوريتانيون بالحاجة إلى أدب دنيوي. وكان في إنجيل الملك جيمس الأول (أي الذي ترجم إلى الإنجليزية في عهده) زاد كاف لهم من الأدب. وبدأ كل شيء فيما عداه، تقريباً، وتافهاً أو خيئاً آنماً. وفي 1653 اقترح أعضاء البرلمان ألا يدرس في الجامعات سوى الأسفار المقدسة و "كتاب يوم وما يماثلته(1)". وقد يبدو هذا الأمر مزعجاً محزنأ، ولكن يجدر أن نلاحظ أنه في ذروة هيمنة البيوريتانيين (1653) نشر توماس اركهارت ترجمته الرائعة لرابليه ، مؤثراً الأدب الداعر المكشوف على الإيمان بالبعث والحساب. وفي العام نفسه أخرج إيزاك والتون كتابه صياد السمك المثالي Compleat Angler كشف فيه عما في الماء من أسماك، وحتى في أيامنا هذه التي نقفز فيها قفزات حكيمة من نوع من السمك إلى آخر، نجد هذا الكتاب ممتعاً في بساطته وعذوبة أسلوبه، كما أنه يذكرنا بأنه على حين كانت إنجلترا تمر بثورة لا تقل عنفاً عن ثورة 1789، فإن الناس كانوا يستطيعون أن يقصدوا في هدوء إلى القنوات في الريف ليصيّدوا ويوقعوا في شركهم مخلوقاً حذراً يقظاً.

صفحة رقم : 10768

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> جون بنيان

انحرف قليلاً عن الطريق أيها العالم الجليل، أعرج بنا عن الطريق قليلاً حيث يمكن أن نجلس ونغني عند هذا السياج من الشجيرات الغنية برحيق الأزهار، حتى تفرغ هذه السحابة ماءها على الأرض التي تثبت الزرع(2)". وحافظ أندرو مارفل على حياته بحكمة وتعقل، طيلة التعديل المستمر في الحكومات من يوم مولده في 1621 إلى يوم وفاته في 1678، ورحب بعودة كرومول من أيرلندا في قصيدة غنائية قوية عذبة، ولكنه تجرأ فيها على التعاطف مع الملك الفتيل شارل الأول:

أنه لم يأت يأمر مبيتل أو دنيء، في هذا المنظر المشهود، بل تفحص ببصره الحاد نصل البلطة، كما أنه ما أهاب بالآلهة في حنق بذئ لتدافع عن حقه اليائس، ولكنه حتى رأسه الوسيم، وكأنه بحنيه على الفراش(3).

وأصبح مارفل مساعداً لملتون في وظيفة سكريتير لكرومول للغة اللاتينية. وانتخب عضواً في برلمان 1659، وساعد على إنقاذ ملتون من انتقام الملكيين المنتصرين، وعاش 18 عاماً في ظل الملكية العائدة، واستنكر مبادلها وفسادها وعجزها، في قصائد هجاء أحجم في حرص شديد عن نشرها.

وكتبت روائع جون بنيان، مثلها في ذلك مثل ملاحم ملتون، بعد عودة الملكية. ولكن الرجلين كليهما تشكلا في ظل النظام البيوريتاني. وهو يقول: "كان منبتي وضيعاً حقيراً، وكان بيت أبي من أحط البيوت أبي من أحط البيوت مكانة، وكان موضع أشد الازدراء من الأسرات ممن حولنا(4)". وكان أبوه (سمكرياً) يصلح القدور والغلايات في قرية الستو بالقرب من بدفورد. وحصل الوالد، توماس بنيان، من مهنته على ما يكفي لإرسال ابنه جوب إلى مدرسة بدفورد حيث تعلم من القراءة والكتابة قدرأ كافياً على الأقل "البتفحص الأسفار المقدسة"، ويكتب أشهر الكتب الإنجليزية.

صفحة رقم : 10769

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> جون بنيان

وفي القرية اشتغل صبياً لوالده الذي لقنه تعليماً شفوياً بطريقة السؤال والجواب في أمسيات أيام الأحد. وعن أولاد المدينة تعلم الكذب والتجديف في الدين. وهو يؤكد لنا "أنه لم يضارعه إلا القليل في هذه الأفانين" (5). وأكثر من هذا أنه أدين بالرقص وممارسة الألعاب وتناول قدح من الجعة في إحدى الحانات. وكلها أمور يحاسب عليها البيوريتانيون الذين لم يكونوا قد استولوا بعد على مقاليد الأمور، في سني شبابه (1628-1648). وهو يقول عن نفسه "كنت أتزعم أعمال الرذيلة والشر والفسوق (6)" ومثل هذه الاعترافات بالخطايا الجسيمة كانت أمراً شائعاً مألوفاً بين البيوريتانيين، حيث عملوا على جذب أشد الانتباه إلى إصلاحهم الديني، وأظهروا قدرة الله على أن يهبهم نعمة الخلاص. ولما انتشرت التعاليم البيوريتانية من حوله، أغض مضجعه وحد من نزعة الشر عنده، تفكيره في الموت وفي يوم الحساب وفي الجحيم. ورأى مرة فيما يرى النائم أن السماء كلها فوقه تضطرم بالنيران وأن الأرض نحتة تزلزلت، فنهض من نومه مذعوراً، وأزعج الأسرة بصرخاته: "يا إلهي، أسألك الرحمة بي، وقعت الواقعة، ولم أعد نفسي ليوم الحساب (7)".

وفي سن السادسة عشرة سيق إلى جيش البرلمان حيث خدم لمدة ثلاثين شهراً في الحرب الأهلية. وهو يقول عن فترة الجندي "لم أكف عن الخطيئة والإثم، وأزداد تمردى على الله، وعدم اكتراثي بالخلاص (8)". وبعد تسريحه من الجيش تزوج من فتاة يتيمة (1648) كان كل صداقها اثنين من الكتب الدينية، وذكراياتها التي لا تقفأ ترددها عن تقى أبيها وورعه. ومذ خلف جون أباه في الحانوت، فإنه استطاع أن يعولها "بالمسكرة". وازدهرت أحواله، وتردد على الكنيسة بانتظام، وتخلّى عن نزوات شبابه شيئاً فشيئاً. وكان يقرأ الكتاب كل يوم تقريباً، حتى صارت لغته الإنجليزية البسيطة هي لغة بنيان نفسه. وتحدثت قرية الستو عنه على أنه مواطن نموذجي.

صفحة رقم : 10770

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> جون بنيان

ولكن الشوك اللاهوتية أرقه، كما يقول. ولم يكن على ثقة من أن رحمة الله قد وسعته، وبدون هذه وبدن هذه الرحمة سيلاقي أشد العذاب. وارتاب في أن معظم أهل الستو وبدفورد سيكون مصيرهم بالفعل إلى نار الجحيم. وأزعجه تفكيره في أن معتقداته المسيحية كانت مجرد حدث جغرافي. وتساءل فيما بينه وبين نفسه: "ماذا نقول إلا أن الأتراك لديهم كتاب مقدس عظيم، مثل كتابنا، ويثبت أن رسولهم (محمداً) سوف يكون شافعياً لهم، كما يجب أن نثبت نحن أن المسيح مخلصاً (9)؟" "لقد غرقت روعي في بحرين من التجديف على الله والمسيح والأسفار المقدسة... وثارت في نفسي التساؤلات عن حقيقة وجود الله وابنه الوحيد الحبيب. وهل يوجد حقاً إله أو مسيح؟؟. وهل كانت الأسفار المقدسة إله خرافة أو قصة بارعة أكثر منها كلمة الله المقدسة الخالصة؟ (10) وانتهى إلى أن هذه الشوك أثارها شيطان يسكن بين جنبيه. "إني لحظت الكلب والصفدعة وحسبت ما أعد الله لهما مما جعلهما في حالة أفضل من حالي بكثير... لأنهما ليس لهما نفس ترزخ تحت وطأة عذاب النار أو الخطيئة، كما هو محتمل أن تفعل نفسي (11)".

وبينما كان يوماً في طريقه إلى الريف مستغرقاً في التأمل في شروق قلبه تذكر كلمات القديس بولس: "صنع السلام بما سفك من الدم على صليبه (12)".

"وقويت في ذهنه فكرة أن المسيح مات من أجله ومن أجل الآخرين"، حتى كنت مستعداً أن أغرق في نشوة... من الحبور والهدوء الحقيقيين (13)". وانظم إلى كنيسة معمدانية (1653) في بدفورد، وعمد، وقضى عامين في حياة تسودها السعادة والهدوء الروحانيين، وفي 1655 انتقل إلى بدفورد وعين شماساً في هذه الكنيسة، وفي 1657 كلف

بالوعظ، وكان موضوعه هو رسالة لوتر: ما لم يؤمن المرء إيماناً راسخاً بأنه قد تخلص من جنونه إلى الإثم بالطبيعة، بسبب موت المسيح بن الله،

صفحة رقم : 10771

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> جون بنيان

فإنه لابد بصرف النظر عن فضائله-لا حق بالأكثرية العظمى من البشر الذي يحشرون في نار جهنم. إن توضيحية المسيح المقدسة بنفسه، وهي وحدها التي يمكن أن تعدل جسامه خطيئات الإنسان. وكان من رأيه أن يلحق الأطفال هذا الأمر في وضوح تام: في اعتقادي أن الناس يسلكون طريقاً في تعليم أبنائها العبادة ويبدووا لي أنه من الأفضل أن ينبئ الناس أطفالهم، في وقت مبكر، وقبل فوات الأوان، أية مخلوقات بغیضة لعينه هم، وكيف أنهم يبوؤون بغضب من الله، بسبب الخطيئة الأولى الأصلية الفعلية، كما يظهرونهم على طبيعة غضب الله، وخلود اليأس والشقاء(14). ووسط هذه النصائح والتحذيرات، ضمت مواعظ بنيان كثيراً من الآراء الحكيمة في تنشئة الأطفال ومعاملة المستخدمين، وكان مثل غيره من الوعاظ، عرضة لتحديات الكويكرز، الذين قالوا إنه ليست الأسفار المقدسة، بالنور الداخلي هو الذي يهبي المعرفة والخلاص. وفي 1656 وضع كتابين هاجم فيها الطائفة الجديدة المزعجة. فكان جوابهم أنهم اتهموه بأنه يسوعي، قاطع طريق، زان ساحر(15). أما أسوأ الشدائد فقد حلت عليه بعود الملكية، فقد جدد القانون القديم الذي صدر في عهد اليزابيث والذي قضى بحضور كل الإنجليز الصلوات الأنجليكانية دون غيرها، وأدعن بنيان إلى حد إغلاق مكان اجتماعاته الخاص في بدفورد، والتقى بجمهور المصلين في أماكن خفية وألقى عليهم مواعظه، فاعتقل، وعرض عليه إطلاق سراحه إذا وعد بالأيعظ علانية. فرفض وأودع سجن بدفورد (نوفمبر 1660)، وهناك قضى اثني عشر عاماً، مع بعض فترات تمتع فيها بحرية محدودة. وتجدد في أوقات متفرعة عرض الإفراج عنه، بنفس الشروط، مثيراً نفس الرد: "إذا أطلقت سراحى اليوم فسأشرع في الوعظ غدأ(16)".

صفحة رقم : 10772

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> جون بنيان

وربما أصبحت حياة الأسرة عبئاً تقبلاً، لقد توفيت زوجته الأولى في 1658 تاركاً له أربعة أطفال أحدهم أعمى، وكنت الثانية حاملاً. وعاون الجيران في إقامة أود الأسرة، وأسهم بنيان في نفقتها بصنع بعض المحرمات في السجن وتدبير أمر بيعها، وأجيز لزوجته وأولاده أن يزوروه كل يوم كما أجيز لجيرانه أن يعظ رفاق السجن، وأن يغادر السجن متى شاء، حتى للسفر إلى لندن(17). ولكنه استأنف الوعظ سراً فضيقوا عليه الخناق في السجن. وفي المعتقل قرأ الكتاب المقدس المرة تلو المرة، كما قرأ كتاب فوكس "سجل الشهداء"، وأذكى حرارة الإيمان عنده بمحارق

الأبطال البروتستانت، ووجد متعة عظيمة في رؤى سفر الرؤيا، ولا بد أنه كان مزوداً بالقلم والقرطاس، لأنه في السنوات الست الأولى من احتجازه كتب ست قطع دينية، كما وضع مؤلفه العظيم "الرحمة تتسع لكبير الخطائين". وهو سيرة حياته الروحية، وهو رؤيا تكاد تكون مفرغة من رؤى العقل البيوريتاني. وفي 1666، وفي ظل "الإعلان الأول للتسامح" الذي أصدره شارل الثاني، أطلق سراح بنيان فعاد الوعظ فأعيد إلى السجن. وفي 1672 أجاز "الإعلان الثاني للتسامح" الذي أصدره شارل الثاني، للقساوسة المنشقين أن يلقوا المواعظ، فأفرج عن بنيان، وانتخب على الفور راعياً للكنيسة القديمة. وفي 1673 أبطل العمل بإعلان التسامح، وتجدد تحريم الوعظ على المنشقين، فلم يتمثل بنيان له، وأعيد إلى السجن (1675)، ولكن سرعان ما أخلى سبيله. وفي هذه المرحلة الثالثة والأخيرة كتب بنيان الجزء الأول من "انطلاق الحجيج من هذه الدنيا إلى العالم الثاني"، وقد نشر هذا الجزء في 1678 وأعقبه الجزء الثاني في 1684. (في مقدمة شعرية مضحكة رديئة غير معقولة زعم بنيان أنه كان قد وضع هذا الكتاب ملهاة وتسلية لنفسه دون أن يفكر في نشره) وعرض القصة، في لطف، في صيغة وهم أو

صفحة رقم : 10773

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> جون بنيان

خيال جامع.
"بينما كنت أضرب في فيافي هذا العالم، جنئت إلى مكان معين حيث كانت ثمة "خلوة" فتمددت في هذا المكان لأنام، وإذ غلبني النعاس رأيت فيما يرى النائم حلماً (18)".
إن كريستيان استبد به في هذه الرؤيا. التفكير في أنه يجب عليه أن يتخلى عن كلي شيء وينسني كل شيء، وألا يلتمس سوى المسيح والجنة. فيهجرون زوجته وأولاده، ويبدأ رحلته إلى "المدينة السماوية". ويلحق به "الموحي بالأمل Hopaful" الذي يعبر عن العقيدة البيوريتانية في إحكام بارع:
كنت يوماً في حزن شديد، أحسب أنه أشد ما لقيت في حياتي. ونتج هذا الحزن عن رؤية صادفة لجسامة أثماتي وفضاعتها، ولما كنت آنذاك لا أفكر في شيء إلا الجحيم والعذاب المقيم. فإني فجأة، وأنا غارق في التفكير، رأيت يسوع المسيح ينظر إلي من علياء السماء، قائلاً: "أمن بيسوع المسيح وسيكتب لك الخلاص (19)". ولكني أجبته: إني خطأ كبير خطأ كبير جداً، فأجاب "رحمتي تتسع لك"...وهنا عمرني الفرح (20).
وبعد شيء كبير من المحنة والنزاع يصل الحجيج إلى "المدينة السماوية" فندرك هذا الذي كانوا يأملون فيه في حماسة بالغة:

ومن عجب أنهم حين دخلوا، تغيرت هيبتهم وأحاطت بهم هالة من الجلال، وأرتدوا ملابس بدت وكأنها من ذهب. كما كان هناك من قابلهم بالقيثارات والنتيجان وأعطاهم إياها-القيثارات-لترتيل آيات المدح والثناء والنتيجان رمز للتكريم والتشريف، وأنظر، أن "المدينة السماوية" يتألق نورها وكأنه ضياء الشمس، والشوارع مكسوة أرضها بالذهب، وفيها سار خلق كثير تعلق رؤوسهم النتيجان ويمسكون بأغصان الغار في أيديهم، ومعهم قيثارات من الذهب ينشدون عليها ترانيم الثناء والشكر (21).

صفحة رقم : 10774

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> جون بنيان

أما "الجهل المسكين" الذي تبعمهم، متعثراً في عرجه، دون أن يتزود بالإيمان الصادق، فإنه يأتي إلى أبواب "المدينة السماوية"، ويطرقها، فيسأل عن جواز مروره فلا يجده، فيلقي به الجحيم(22)-إن القصة تروي بشكل جذاب، ولكننا نعطف أحياناً على "العنيد" الذي يقول عن المسيحي ورفاقه، "هناك فئة من هؤلاء المخبولين المغرورين الذين، حين يمسكون بطرف من الخيال، يظنون أنهم أعقل حتى ممن يستطيعون تحكيم عقولهم(23)".

أن فكر حج النفس من نطاق المغريات الدنيوية إلى نعيم الآخرة، فكرة قديمة، وتلك كانت صفتها المجازية في العصور الوسطى، ويحتمل أن بنيان كان قد قرأ من هذه الكتب(24). وجر النسيان ذيوله الآن عليها في غمرة النجاح الخارق الذي لاقته القصة الجديدة، حيث صدر منها تسع وخمسون طبعة في المائة العام الأول من ظهورها، وبيع منها مائة ألف نسخة قبل وفاة بنيان. وبيع منها ملايين من النسخ منذ هذا الوقت، وترجمت إلى 108 من لغات أمريكا البيوريتانية. وكانت تقتني في كل بيت تقريباً. ودخلت منها إلى الحديث الدارج عبارات كثيرة-(سلخ) التخلص من الجزع، غرور الدنيا رجل الدنيا الحكيم. وفي القرن العشرين فقد الكتاب شعبيته بسرعة، حيث لم يعد للخلق البيوريتاني وجود، ولم يعد هناك إيمان بما جاء في الكتب ولم يعد يفتنى، ولكنه لا زال فيضاً من اللغة الإنجليزية البسيطة العذبة الواضحة.

وضع بنيان نحو ستين كتاباً، وليس ثمة ما يدعو اليوم إلى قراءتها. وبعد إطلاق سراحه للمرة الأخيرة 1675 أصبح واحداً من ألمع الوعاظ في عصره، والزعيم المعترف به لطائفة المعمدانبيين في إنجلترا. وأبدى إعجابه بشارل الثاني. وأمر أتباعه بالولاء والإخلاص لملك أسرة ستيورات بوصفه درع إنجلترا وحاميها ضد البابا(25). وبعد انقضاء ثلاث سنوات على إعلان شارل الثاني اعتناقه الكاثوليكية وهو على فراش الموت، أنهى

صفحة رقم : 10775

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> جون بنيان

جنيان رسالته، ومن الغريب أن نهايته كانت مثل لوثر. ذلك أنه حدث في ريدينج (مدينة في وسط إنجلترا) نزاع باعد بين والد وولد كان بنيان مولعاً بهما، فسافر إليها على ظهر جواد من بدفورد. فأصلح بين الفريقين المتخاصمين، ولكنه عندما قفل راجعاً على ظهر جواده، فاجأته العاصفة وبللته قبل أن يعثر على مأوى يعصمه منها، وانتابته حمى لم يبيل منا قط. وروى التراب في مقبرة للمنشقين في بنهل فيلدز (Bunhill Fields) حيث يرقد حتى اليوم مع شاهد حجري على قبره.

صفحة رقم : 10776

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> الشاعر الشاب

2- الشاعر الشاب

1640 - 1608

كان جد ملتون كاثوليكياً حكم عليه في 1601 بدفع غرامة قدرها ستون جنيهاً لتغيبه عن الصلوات الأنجليكانية، وحرّم ابنه من الميراث لأنه تخلى عن الكنيسة الرومانية. أما جون ملتون، الذي تبرعوا منه وأنكروه فقد حصل على قدر لا بأس به من المال بوصفه كاتباً عمومياً في لندن، صاحب قلم برع في كتابة أو نسخ المخطوطات والوثائق والمستندات القانونية. وأولع بالموسيقى، ونظم القصائد الغزلية القصيرة، واحتفظ في داره بكثير من الآلات الموسيقية ومن بينها أرغن، وانتقل هذا الانعطاف نحو الموسيقى إلى الشاعر الذي ربما أقر بأن المرء لكي يجيد الكتابة، لا بد أن تتغلغل الموسيقى في نفسه، وأن تكون له أذن موسيقية واعية. أما الأم، سارة جفري، فكانت ابنة خياط تاجر، أنجبت لزوجها ستة أبناء كان صاحبنا جون ثالثهم. أما أخوه الأصغر فأصبح ملكياً يدين بالولاء لأسرة ستيوارت، وواحد من رجال الكنيسة التقليدية. على حين أن جون أصبح جمهورياً بيوريتانياً من أنصار كرومول. وكان البيت في "برد سترت" مؤسسة بيوريتانية تقية مخلصه، ولكن غير متزمنة، فإن حب الجمال الذي ساد عصر النهضة، امتزج هنا بالنزوع إلى الخير والفضيلة، الذي أتى به الإصلاح الديني.

صفحة رقم : 10777

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> الشاعر الشاب

واشترى جون الأكبر عقاراً، وأثرى، واستخدم معلمين (بيوريتانيين) من أجل جون الأصغر، وأرسله في سن الحادية عشر إلى المدرسة إلى مدرسة سانت بول. وهناك تعلم الصبي اللاتينية واليونانية والفرنسية والإيطالية وبعض العبرية، وقرأ شكسبير ولكنه أثر عليه سينسر. وأنا لنلحظ، عابرين، أنه تأثر كثيراً بالترجمة الإنجليزية لكتاب "الأسبوع" لمؤلفه دي بارتاس (1578)، وهو عبارة عن ملحمة تصف خلق الدنيا في سبعة أيام: كان بي نهم شديد إلى العلم والمعرفة، إلى حد أنني، منذ بلغت الثانية عشر كدت لا أترك الكتاب أبداً، ولا أوي إلى النوم قبل منتصف الليل. وهذا أدى في الأساس إلى فقد بصري. وكانت عيناى (مثل عيني أمه) ضعيفتين بطبيعتهما، وكنت عرضة للإصابة بالصداع كثيراً، ولكن هذا على أية حال لم ينقص من حبي للإطلاع، ولم يعوق تقدمي في التحصيل (26).

وفي سن السادسة عشرة انتقل إلى كريست كولدج في كمبردج. وهناك أدى نزاعه مع أحد المدرسين إلى التضارب والتلاكم بالأيدي. وأحس صمويل جونسون "بالخجل حين أروي ما أخشى أن يكون حقيقة، وهي أن ملتون كان من أواخر من وقعت عليهم العقوبة البدنية من طلبة الجامعتين كنيهما" (27). وطرده لمدة فصل دراسي واحد ثم سمح له

بالعودة، وكان بالفعل ينظم شعراً جيداً. وفي 1629، وهو في الحادية والعشرين، نظم قصيدة غنائية في الاحتفال "بصبيحة عيد الميلاد". وبعد ذلك بعام واحد، نظم قصيدة من ستة عشر بيتاً، أحياء لذكرى شكسبير ولتنقش على قبره، وقد ووفق بعد ذلك على نشرها في الطبعة الثانية لإعمال شكسبير: ما حاجة شكسبير العزيز إلى جهد جيل في إقامة أحجار مكومة لعظامها لمكرمة، أو لإخفاء رفاته المقدسة تحت هرم يشير إلى النجوم؟ أيها العزيز الذي لا يغيب عن الذاكرة، أيها العظيم سليل الشهرة، ماذا

صفحة رقم : 10778

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> الشاعر الشاب

يريد من شاهد هزيل على اسمك الرنان . وقضى ملتون في كمبردج ثمان سنوات، وحصل على درجة البكالوريوس في 1628، والماجستير 1632. ثم تركها دون أن يحس بالولع المعهود في المتخرجين بحضور يوم الكلية التي تخرجوا منها. وكان أبوه يتوقع أن ينخرط في سلك الكهنوتية. ولكن الشاب المغرور أبي أن يقسم يمين الولاء للمذهب الأنجليكاني وطقوسه الدينية: ومذ رأيت كيف غزا الطغيان الكنيسة بمعنى أن الذي يرسم قسيساً يجب أن يتعهد بأن يكون عبداً رقيقاً، وفوق ذلك يقسم اليمين الذي لو لم يلتزم التزاماً يبعث على الضجر فإنه أما أن يحنث في يمينه أو يراني في إيمانه فأني وجدت من الأفضل إثارة الصمت البريء أمام الوظيفة المقدسة، وظيفه الكلام والوعظ، التي تشتري بالعبودية والقسم الكاذب(29).

وأوى ملتون إلى البيت والده الريفي في هورتون بالقرب من وندسور، ومن الواضح أن والده تولى الإنفاق عليه هناك، وتابع هو دراساته، القديمة بصفة أساسية، إلى أن ألم حتى بأصغر المؤلفين اللاتينيين شأناً. وكتب قصائد باللغة اللاتينية، انتهى عليها كاردينال كاثوليكي. وسرعان ما جعل دفاعه باللاتينية عن سياسة كرومول يرن صداه في أنحاء أوربا. وحتى حين كتب نثرأ بالإنجليزية، فإنه كتب باللاتينية حيث كان يخضع الإنجليزية لتقديم وتأخير وتعقيدات والتواءات كلاسيكية، ولكنه كان يكتب في لغة غريبة ساحرة رنانة. ويحتمل أنه في هورتون وسط الحقول المورقة والخضرة في الريف الإنجليزي، كتب القطع المزدوجة، التي خلدت ذكرى الابتهاج الخالي من

صفحة رقم : 10779

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> الشاعر الشاب

الهم، ونوبات الكآبة في شبابه العابر، سواء بسواء. إن كل سطر من "Allegro" يطالب بأن يتغنى به الناس. و"الجرى" هي "الابنة الجميلة، الممتلئة الجسم، المرححة اللطيفة، والمولودة من "زفير" الريح الغربية العليقة وهي تداعب أورورا الفجر" أن كل شيء في مشهد الريف يدخل الآن البهجة على قلب الشاعر: القنبرة تشق سكون الليل، الديك يختال في مشيته أمام دجاجاته، الكلاب تقفز عند سماعها بوق الصياد، شروق الشمس "في أشعة وضاءة في لون الكهرمان" (أصفر ضارب للحمرة). بانعة اللبن التي تغني والقطعان التي تلوك غذاؤها، ورقص الشبان والشابات على الحشائش، والأمسيات بجوار المدفأة أو في المسرح: إذا مثل بن جونسون إحدى تمثيلياته الراقية أو صدح شكسبير الشاعر العذب القوي الخيال بألحان الغاية الشعبية الفطرية الموسيقى.

وتفك الأغلال التي تقيد روح التأليف والانسجام الخفية، إنك إذا استطعت أيها المرح أن توفر لي هذه المباحج كلها، فإني أود أن أحيا معك.

وحتى الآن لم يكن ثمة بيوريتاني متهم عبوس مكتتب، بل شاب إنجليزي مفعم بالصحة يجري في عروقه بعض دم شعراء عصر اليزابث.

ولكن طراً بين الحين والحين مزاح آخر، حتى بدت هذه المسرات تافهة للعقل المفكر، حين يتذكر المساة (التراجيديا)، ويفتش عن مغزى، ولا يجد في الفلسفة إجابات، بل تساؤلات للم يحس بها من قبل. عندئذ يأتي "Penseroso" المفكر: يسير دون أن يراه أحد:

حيث يرى القمر المتجول، راكباً قرب الظهيرة، وكأنه رجل ضل الطريق، عبر السموات المترامية الأرجاء الخالية من المسالك.

أو يجلس وحيداً إلى جانب المدفأة:

حيث الجمرات المتوهجة في الغرفة تعلم الضوء كيف يكتسي بالظلمة بعيداً عن أي مصدر للابتهاج والفرح، اللهم إلا صرار الليل على الموقد.

صفحة رقم : 10780

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> الشاعر الشاب

أو أنه قابع "في برج عال منعزل"، تغلبت عليه النجوم، يقلب صفحات أفلاطون، ويساعل أين المساء. أية عوالم وأية أقطار شاسعة تنتسج لهذا العقل الخالد الذي تخلى عن قصره في زاوية من جسده.

أو هو يتذكر مآسي العشاق والميتات الحزينة للملوك. وخير من هذه الفلسفة الصارمة هناك "صحن الدير الذي يعج بالجهد والجد في العمل والدرس" في الكاتدرائية الكبرى، ونوافذها التي تروي مشاهد التاريخ وضوئها المظلل: فليعرف الأرغن المجلجل، للمرتلين ذوي الأصوات الممتلئة أدناه، في أصوات عالية وترنيمات صافية، فلربما غمرتني عذوبة الأنغام في أذني بنشوة، وأبرزت كل السموات أمام ناظري".

تلك هي المتعة والمسرات التي يجدها "الرجل المفكر"، وإذا بدت مرتبطة بالمكآبة، فإن الشاعر سيقضي حياته مع الكآبة. ففي هاتين القصيدتين البهجتين، يكشف ملتون عن ذاته وهو في الرابعة والعشرين، شاباً تتحرك مشاعره لكل ما في الحياة من جمال، ولا يجد حرجاً في المسرات والملذات، كما وجد التفكير المحير في الحياة والموت طريقه إلى نفسه فتأثر به، كما أحس بالصراع بين الدين والفلسفة يحتدم بين جوانبه.

وحانت أول فرصة ليبرز فيها الشاعر ويذيع صيته في 1634 حين كلف بكتابه مسرحية ريفية يمثلها ممثلون مقنعون في الاحتفالات بتولية أرل يرد جووتر رئيساً "لمجلس الغرب". ولحن هنري لاوس الموسيقى التصويرية. أما شعر ملتون فكان مجهولاً أسم مؤلفه تواضعاً. وكان موضع ثناء وإطراء، إلى حد أنه حمل على الاعتراف بأنه مؤلفه.

وأطراه سير هنري وتون قانلاً: في أغانيك وقصائدك رفة دورية (نسبة إلى الدورين الذين غزوا بلاد الإغريق في القرن 12 ق.م.) لم أر لها مثيلاً في لغتنا حتى اليوم(30)

صفحة رقم : 10781

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> الشاعر الشاب

"وكان عنوان القطعة في الأصل "مسرحية في قصر لدلو (في شرويشير) أما اليوم فهي تسمى "كومس Comus" (المسرحية) وقد مثلها اثنان من صغار النبلاء مع شقيقتيها، وكانت فتاة في ربيعها السابع عشر، من وصيفات الملكة هنريتا ماريا. وعلى الرغم من أن معظم المسرحيات كان شعراً مرسلأ غير مقفى، محشواً بالأساطير، فقد كانت زاخرة بالغناء العاطفي المرح والأناقة الرائعة الشجية: وتميزت ببراعة لم تتكرر في شعر ملتون فيما بعد وكانت الفكرة الرئيسية فكرة تقليدية: عذراء فاتنة، تتجول في الغابات على غير هدى، وهي تشدو: "بأغنيات ربما خلقت نفساً من تحت برائن الموت".

ويدنو منها الساحر "كومس" ويقرأ عليها تعويذة حتى تتخلى عن عفتها، ويتوسل إليها أن تلهو معه، وقد تألقت نضارة وشباباً، فتدافع الفتاة، في فصاحة بالغة عن الفضيلة وضبط النفس و "الفلسفة السماوية"، وجرت كل الأبيات على خير وجه. فيما عدا قطعة ربما كانت مشنومة، إشارات إلى "الجمهورية"، كان من المحتمل أن يؤدي بهذا الجمع الحاشد المسرف النفور والاستياء:

إذا كان لكل رجل منصف، يصيبه الآن الهزل والنحول تحت وطأة العوز قدر متواضع يلبق به، من هذا الترف الفاخر الذي تتمتع به الآن فنه قليلة في إسراف بالغ، لتوزعت كل خيرات الطبيعة توزيعاً عادلاً في أنصبه متساوية غير زائدة عن الحاجة، ولما اخترنت الطبيعة مقال ذرة هذه الخيرات(31).

وفي 1637 اعتل مزاج الشاعر وتكدر صفو حياته بغرق صديقه الشاب ورفيقه الشاعر إدوارد كنج. وأسهم ملتون في كتاب تذكاري عن كنج، بقصيدة رثاء "اليسيداس Lycidas" منظومة في شكل رعوي مصطنع محشوة بالآلهة الموتى، ولكنها غنية بالأبيات التي لا تزال تحلق فيها الذكرى الحبيبة.

صفحة رقم : 10782

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> الشاعر الشاب

وا أسفاه ماذا يحملنا على أن نرهب أنفسنا بهذا الهم المقيم، في النهوض بصنعة الراعي (نظم الشعر) البسيطة المحنقرة، وللتأمل بكل ما أوتينا من قوة في ربة الشعر الجحود؟. أما كان من الخير، كما يفعل الآخرون، أن يلهو ويلعب مع الراعية أما ريلس في الظل، أو يعيث بخصلات شعر "نيرا". أن الشهرة هي الحافز الذي يثير الروح الصافية وهي آخر الوهن في (العقل الرفيع)، ليزدرى بالمباهج، ويكد ويشقى طوال أيامه. ولكن حين نأمل في

الحصول على الجزاء الوفاق. وتفكر في الانطلاق إلى الوهج الخاطف تأتي "الروح العمياء" (ملك الموت) بأهتها البغيضة، لنقضي على الحياة الواهنة الخيوط.

ويبدو أن جون ملتون الأكبر (الوالد) أحس بأن ست سنوات من الانصراف إلى العمل في رواية وأناة في هورتون كانت جزءاً وفاقاً للموهبة التي ابتدعت مثل هذه القطع الغنائية. وليكمل حسن صنيعه أرسل ابنه ليتجول في أنحاء القارة مع دفع كل النفقات. وغادر ملتون إنجلترا في إبريل 1632 يرافقه خادم. وقضى بضعة أيام في باريس (وكانت آنذاك تحت قبضة ريشليو العسكرية)، وأسرع إلى إيطاليا، حيث أقام شهرين في فلورنسة، زار خلالها جاليليو الكفيف نصف السجين، والتقى برجال الأدب، وجلس إلى الجامعيين، وتبادل معهم التحية في شعر باللاتينية، ونظم بالإيطالية قصائد السونيت، وكأنه نشأ وترعرع على ضفاف نهر أرنو أو نهر بو. وفي نابلي استقبله ورحب به وكرمه نفس المركيز مانسو الذي صادق وناصر تاسو وماريني من قبل وقضى في روما أربعة أشهر التقى فيها ببعض الكاردينالات المثقفين وأحبهم، ولكنه أعلن بصراحة مذهبه البروتستانتية. ثم عاد إلى فلورنسة، ثم تصد إلى البندقية عبر بولونيا وفيرارا، ثم ذهب إلى فينيس عبوراً بمدينة فيرونا وميلان ثم قفل راجعاً إلى لندن مروراً بجنيف وليون وباريس (أغسطس 1639).

وفي كتاباته الأخيرة دون قطعتين مشهورتين عن رحلته في إيطاليا.

صفحة رقم : 10783

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> الشاعر الشاب

وكتب رداً على تعريض أحد الخصوم به: "أشهد الله أنه في كل تلك الأماكن التي لا تليق فيها الرذيلة إلا أيسر الاستنكار والتنبيط، وترتكب في أقل خجل وأيسره، لم أحد أنا قط عن جادة الفضيلة والنزاهة(32)". وبتذكر كيف امتدح النقاد الإيطاليون شعره:

وهكذا بدأت أوافق كل الموافقة على ما ذكره هؤلاء النقاد الإيطاليون أو يقول نفر من أصدقائي هنا في بلدي، كما استمع بنفس القوة إلى اسحاث داخلي ينمو بين جوانحي كل يوم، من أنه بالعمل الجاد والانكباب على الدرس (وهذا ما اعتبره قدرتي في هذه الحياة) بالإضافة إلى الميل الطبيعي، بهذا كله يمكن أن أخلف شيئاً مكتوباً للأجيال القادمة، وقد لا يرتضون أن يفنى (بل يبقى ويخلد على الزمن)(33).

وبدأ ملتون الآن يخطط لملمحة تخدم ذكر وطنه وعقيدته، وتخدم اسمه على مر القرون. وكان لزاماً أن تمضي عشرون سنة قبل أن يتمكن من البدء فيها، وتسع وعشرون سنة قبل أن يتمكن من نشرها. وفيما بين فترتي نظمه الشعر: الفترة الأولى (1630-1640) والثانية (1658-1668)، لعب دوراً في الثورة الكبرى، وسخر قلمه للحرب والنشر.

صفحة رقم : 10784

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> المصلح

في 1639 استأجر ملتون مسكناً لرجل أعزب في "سانت بريد تشير شبارد" في لندن، حيث تولى التدريس لأبناء أخته. وبعد سنة واحدة انتقل معهم إلى أولد رزجيت ستريت"، وهناك (1643) أستقبل عدداً آخر من التلاميذ بين سن العشرة إلى سن السادسة عشرة أو أهم وعلمهم، وحصل من ذلك على دخل متواضع يكمل به المبلغ الذي خصصه له والده. وفي كتاب إلى "مستر هارنلب (1644) صاغ ملتون آراءه في التعليم. فأتى لهذه اللفظة بتعريف قوي رائع: "أقول أن التعليم التام الواسع هو الذي يعد الإنسان لينهض، بحق ومهارة ورحابة صدر، بكل مهامه الخاصة

صفحة رقم : 10785

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> المصلح

والعامية، في السلم والحرب، سواء بسواء (34)" وأول واجب على المعلم هو أن يغرس الخلق القويم في نفس التلميذ، "ويصلح ما أفسده أبائنا الأولون"-أي أن يقهر نزعة الشر الطبيعية في الإنسان (الخطيئة الأولى)-أو (كما يجدر بنا أن نذكر الآن) أن يعيد تكييف الخلق القومي الذي سبق تشكيله وفقاً لحاجات مرحلة الصيد، نقول تكييفه تبعاً لمتطلبات حياة المدينة الحالية". وأحس ملتون أن هذا يمكن تحقيقه على خير وجه بأن نغرس في ذهن الناشئ إيماناً قوياً بالله واحد بصير، وأن نعوذه على ضبط النفس وفقاً لنظام واقى (التحرر من الانفعال، عدم التأثير بالفرح أو الترح، الخضوع دون تدمير لحكم الضرورة) وضرب لتلاميذه مثلاً بحتنونه: "الدراسة الشاقة والطعام اليسير". فقلما أجاز لنفسه يوماً "اللهو والمتعة (35) وبعد الدين والأخلاق، يجب أن تأتي الدراسات اللاتينية والإغريقية القديمة، والتي لم يستخدمها ملتون مجرد نماذج للأدب، بل وسائل لدراسة العلوم الطبيعية والجغرافيا والتاريخ والقانون والأخلاق والفسولوجيا والطب والزراعة وهندسة العمارة، والخطابة والشعر والفلسفة واللاهوت. وإذا كان هذا التوفيق الفريد بين العلم والإنسانيات قد أفترض أن النزر اليسير قد أضيف إلى العلم منذ سقوط روما، فيجب أن نلاحظ أن هذا حقيقي فعلاً، اللهم إلا بالنسبة لجاليليو، بل أن كوبرنيكس نفسه كان له سلفه الإغريقي في شخص أرسطارخوس. وفوق ذلك، اقترح ملتون تعريف تلاميذه كذلك ببعض النصوص الحديثة في العلوم والتاريخ، بل حتى ببعض النماذج الحية في الفنون العملية، وكان يأمل في أن يستقدم إلى حجرات الدراسة صيادين وبحارين وبيساتين ومشتغلين بالتشريح وصيدليين ومهندسين ومعماريين، لينقلوا إلى التلاميذ أحدث ألوان المعرفة في هذه المجالات (36) وخصص وقتاً كافياً للموسيقى والتمثيل، وساعة ونصف الساعة يومياً للرياضة البدنية والتدريب العسكري. ويمكن أن يطوف طلابه أرجاء البلاد في جماعات على صهوات الجياد، يرافقهم أدلاء معروفون

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> المصلح

بالرزانة والحصافة، لتعلموا ويلاحظوا، "أو" يلتحقون بالبحرية بعض الوقت ليتعلموا الملاحة ومصارعة البحر، وأخيراً وبعد بلوغهم سن الثالثة والعشرين، يمكنهم أن يسيحوا خارج إنجلترا. وهذا برنامج شاق، ليس لدينا دليل على تطبيقه تطبيقاً كاملاً في مدرسة ملتون، وربما كان في حيز الإمكان تطبيقه أو أن التلاميذ اقتبسوا من معلمهم شيئاً من غيرته وجدده.

وراوده أحياناً حلم إنشاء أكاديمية تنافس أكاديمية أفلاطون وأرسطو. ولكنه افتتن بأحداث العصر البارزة والشغل بها. من ذلك أن التتام البرلمان الطويل (1640) كان نقطة تحول في حياته، بل يكاد يكون تحولاً عنيفاً غير طبيعي عن الشعر والتعليم إلى السياسة والإصلاح. وفي 11 ديسمبر قدم حزب "الجنر والفرع" البيوريتاني الذي انتسب إليه بعض أصدقائه قدم إلى البرلمان عريضة صارخة ممهورة بخمسة عشر ألف توقيع (يحتمل أن يكون من بينهم ملتون) يلتمسون فيها إقصاء الأساقفة عن الكنيسة الإنجليزية. ورد جوزيف هول أسقف أكستر على العريضة "باحترام متواضع إلى المحكمة العليا في البرلمان" (يناير 1641)، دافع فيه عن النظام الأسقفي بأنه مأخوذ عن "عصر الرسل الأبرار بلا انقطاع...حتى العصر الحاضر(38)" فاستل خمسة من الكهنة المشيخيين أقلامهم في "الرد على الاحتجاج المتواضع" (مارس 1641) وقعوه باسم مستعار مكون من الأحرف الأولى من أسمائهم. ورد الأسقف هول وبعض الأساقفيين الآخرين، وأقر مجلس العموم الاقتراح، ورفضه اللوردات. واشتد الجدل على المنبر وفي الصحف وفي البرلمان، وانضم ملتون إلى المعمة بكتيب من تسعين صحيفة "إصلاح يمس نظام الكنيسة في إنجلترا (يونيه 1641).

وفي عبارات قوية لاهثة، استوعب بعضها نصف صفحة، عزا ملتون تدهور الكنيسة الرسمية إلى سببين: الإبقاء على الطقوس الكاثوليكية،

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> المصلح

واحتكار الأساقفة لسلطة تعيين القساوسة. وهزأ ملتون "بهذه الطقوس الفارغة التي لا معنى لها، والتي تحتفظ بها الكنيسة لمجرد أنها علامة خطيرة للانزلاق نحو روما، والتي لا تستخدم إلا كمجرد مسرحية تعرض أبهة الأساقفة(39)". إن الأساقفة كانوا يتسللون خلسة إلى الكاثوليكية في طقوسهم وتلك طعنة صريحة لرئيس الأساقفة لود الذي كان قد قدمت له قبعة الكاردينالية. وأنكر ملتون ما زعمه جيمس الأول وشارل الأول من أن الأساقفة ضرورة لا زعامة لحكومة الكنيسة وللنظم الملكية. وأهاب بالاسكتلنديين المشيخيين أن يواصلوا حربهم ضد النظام الأسقفي، وتضرع إلى الثالوث الأقدس أن يرعى المصلحة العامة:

يا إلهي: أول عنايتك لكنيستك البائسة التي كادت تنهار وتلفظ أنفاسها الأخيرة، لا تتركها هكذا فريسة لتلك الذئاب المزعجة التي تتربص وتفكر طويلاً لتلتهم قطيعك الوديع، تلك الخنازير البرية التي سطت على كرمك، وتركت بصمات حوافرها المدنسة على نفوس عبادك. لا تدعهم ينفذون خططهم اللعينة التي تقف الآن على مدخل الهاوية غير ذات القرار، مترقبة أن يفتح الحارس ويطلق الجراد والعقارب الفتاكة، لتحتوينا في ظلام جهنم الدامس، حيث لن تشرق علينا شمس حقيقتك، ولن نعود نأمل في بزوغ الفجر البهيج، أو نسمع زقزقة العصافير في الصباح(40). واختتم هذه العبارة بإلقاء جماعة الطقوس التقليدية في الجحيم: ولكن أولئك الذين يتوقون إلى مناصب الحكم الرفيعة والارتقاء هنا في هذه الدنيا، على حساب إفساد عقيدتهم الحقّة والانتقاص منها، وعلى حساب كروب بلدهم واستعباده، لا يد أنهم، بعد خاتمة مزرية في هذه الحياة (التي وهبهم الله إياها)، سيلقي بهم في الدرك الأسفل من النار، وهناك يتلقاهم من سبقهم من المحكوم عليهم بالهلاك الأبدي، فيتحكمون فيهم في حقد وحسد، ويطأونهم بأقدامهم ويزدرونهم، وفي حماة تعذيبهم، لن يجدوا الراحة إلا في ممارسة أشد ألوان الطغيان عسفاً ووحشية، معهم

صفحة رقم : 10788

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> المصلح

بوصفهم أرقاءً وعبيداً لهم، وسيبقون على هذه الحال إلى الأبد، مخلدين في أحط وأسفل مهاوي الهلاك الأبدي وأشدّها كآبة واحتقاراً واضطهاداً(41).

وعندما رد الأسقف هول على القساوسة الخمسة المشيخين وهاجمهم بعنف، انبرى ملتون لنصرتهم في بيان عاصف لا يد أنه أخرج الأسقف وهو في الخامسة والستين من رده الكهنوتي: "نقد لاذع لدفاع المحتج على بيان المشيخين"، ظهر، مجهولاً كاتبه، في يولييه 1641. واعتذر ملتون في المقدمة عن عنفه فقال:

في الكشف عن إنسان سيئ السمعة عدو للحق، ولسلام بلاده وإدانتته وبخاصة إذا اغتر بأن له لساناً ذرياً منطلقاً مؤثراً، فإنه لا يتنافى مع اعتدال المسيحية وتواضعها أن ترد على مثل هذا الرجل بأسلوب أعنف وأشد من أسلوبه، وأن تشيع غطرسته إلى مثواها مضمخة بمائه المقدس(42).

وأعاد الأسقف وابنه الكرة ببيان عنوانه "حجة داحضة متواضعة جديدة" (يناير 1642) هاجما فيه كاتب "النقد اللاذع" بحدّة تميز بها هذا العصر المغيظ المحنق(43). فرد ملتون كيد الأسقف في نحره ببيان عنوانه "دفاع ضد الحجة الداحضة المتواضعة" (إبريل) اعتذر فيه مرة أخرى عن سوء معاملته للأسقف هول، وشجب الفريد العريضة "التي أوردتها هول" وهي اتهام ملتون بأنه طرد من كمبردج، وأكد ملتون للعالم بأسره بأن زملاءه في "كريست كولدج" دعوه، بعد تخرجه، للإقامة معهم، وأكد من جديد طهارته التي لا مطعن فيها:

على الرغم من أنني لم ألقن إلا قدراً يسيراً من المسيحية، فإن شيئاً من التحفظ والنزعة الطبيعية والقواعد الخلقية، واستنقيته من أنبل فلسفة، كان كافياً لي جعلني أحتقر من ألوان الفجور ما هو أقل كثيراً مما يجري في المواخير. ولكني قد عرفت مبدأ الأسفار المقدسة التي تكشف عن الأسرار السامية الطاهرة... التي تقول بأن "الجسد للرب، والرب للجسد

صفحة رقم : 10789

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> المصلح

"فإني كذلك سألت نفسي: إذا كان التجرد عن العفة في المرأة التي ينعتها القديس بولص بأنها فخر الرجل، فضيحة وخزياً وعاراً، فالأمر يقيناً كذلك في الرجل الذي هو صورة الله وفخره معاً، فإنه لا بد أن يكون أشد فساداً وعاراً، لأنه يقترف الإثم ضد جسده، وهو الجنس الأكمل، وضد فخره الذي يكمن في المرأة، والأنكى من ذلك ضد صورة الرب وفخره ماتلين في شخصه هو(44).

ومن ثم نجد ملتون يرثي لأخلاق كثير من الشعراء القدامى، ويؤثر عليهم دانتى وبتزارك، اللذين لم يكتبوا قط إلا تكريماً ونشريفاً منهما لأولئك الذين نذروا لهم أشعارهما التي عرضا فيها أفكاراً سامية نقية، دون تأثيم وانتهاك للحرمان. ولم ألبث إلا قليلاً حتى تأكد عندي هذا الرأي: إن هذا الذي لا يمكن أن يخيب أمله في أن يكتب كتاباً جيدة، ويجدر أن يكون هو نفسه قصيدة صادقة، أي مركباً مكوناً من أفضل الأشياء وأشرفها، لا يقدم على أن يكون قصيدة عقود مدح وتناء للرجال البطوليين أو المدائن المشهورة، إلا إذا أوتي من التجربة والخبرة والمران على كل ما هو أهل للتناء والإطراء(45).

وبعد هذا المثال الذي اقتبسناه، انتقل ملتون إلى الحديث عن قدمي الأسقف وحوربه الذي يبعث "برائحة منتنة إلى السماء". وإذا بدت هذه اللغة غير لائقة باللاهوت فإنه دافع عنها "بقواعد أعظم البلغاء" وبأنه يحذو حذو لوثر، وذكر قرأه بأن "المسيح نفسه وهو يتحدث عن التقاليد البيضة لا يتردد في استعمال ألفاظ مثل الغائط والمرحاض"(46). والآن نكتفي بهذا القدر من النزاع الكريه الكئيب، الذي سقناه لأنه يلقي ضوءاً على شخصية ملتون وعلى آداب السلوك في ذلك العصر، ولأنه وسط هذا الهراء القاسي وفوضى الأجرومية والجمل الطويلة، كانت هناك قطع نثرية ذات جرس موسيقي، مشرقة تهز المشاعر مثل شعر ملتون

صفحة رقم : 10790

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> المصلح

وفي نفس الوقت (مارس 1642)، وكان قد نشر باسمه كتيباً أكثر موضوعية: "إثارة تفكير حكومة الكنيسة في حظر السلطة الأسقفية": "هذا النير البغيض الذي لا يمكن أن يزدهر أي عقل حر أو موهبة ممتازة تحت وطأة ما يفرضه من غباء وعداء تعسفي وطغيان"(47). وسلم بالحاجة إلى نظام أخلاقي واجتماعي. والحق أن ملتون أدرك أن في نهوض النظام وسقوطه مفتاح ارتقاء الدول وانهيارها:

ليس في هذا العالم شيء أعظم أهمية وأشد إلحاحاً وخطراً في كل حياة الإنسان بأسرها من النظام. وهل أنا في حاجة إلى ضرب مثل على ما أقول؟ إن كل من قرأ في تبصر وتدبر عن الأمم والدول... لا بد أن يقر على الفور بأن ازدهار المجتمعات المتحضرة واضمحلالها، وكل تحركات الأحداث البشرية وتحولاتها، إنما تروح وتجيء وكأنها على محور عجلة النظام. وأنه ليس ثمة كمال اجتماعي في هذه الدنيا، مدني أو ديني، يمكن أن يسمو فوق النظام وقواعد الانضباط. لأن النظام هو الذي، بفضل أوتاره الموسيقية يحافظ على كل أجزاء الحياة ويمسك بها متضامة بعضها إلى بعض(48).

ومثل هذا النظام، على أية حال يجب ألا يستقي من أية هيئة كهنوتية متسلسلة في رتب الكنيسة، بل من إدراك أن كل إنسان بذاته يمكن أن يكون كاهناً.

وفي كل المراحل كان ملتون يعي ويدرك كل قدراته ومواهبه. أنه قدم للجزء الثاني من رسالته بقطعة عن سيرة حياته، وأبدى فيها حزنه لأن النزاع قد باعد بينه وبين إخراج عمل عظيم شغل باله طويلاً: إن هذا الذي أداه أعظم العباقرة وصفوتهم في أثينا وروما أو إيطاليا الحديثة، والعبرانيين القدامى، لبلادهم، يمكن أن أقوم به أنا لبلدي، بدوري، ويقدر حظي من الحياة والعمل، هذا بالإضافة إلى أنني فوق كل شيء مسيحي(49). "وروى ملتون كيف أنه كان بالفعل يعد الموضوعات التي يضمنها مثل هذا

صفحة رقم : 10791

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> المصلح

الكتاب. ولكنه أراد عملاً يستطيع من خلاله "أن يصور نابضاً بالحياة وبصف... بسجل الطهر والفضيلة بأسره"، و "كل ما هو سام ومقدس في العقيدة الدينية"(50)، "وكأنما كان ينتبأ بأن الأعوام الستة عشر قد تنقض قبل أن تدع له الثورة الكبرى فرصة للشروع في الكتابة: فقال يعتذر عن تأخره: لست أحجل من الاتفاق مع قارئ فطن ذي دراية، على أنه في بضع سنين يتعهد بدفع ديونني الحالية، لأنه عمل ليس نتاجاً لنزوة الشباب أو لعب الخمر بالعقل، مثل هذا الذي يسيل به "قلم عاشق شرس" بذئ في أوقات الضياع، أو شاعر متطفل في فوره حقه. كما أنه عمل لا يمكن إنجازَه بالتضرع وقراءة التعاويذ للذاكرة وبناتها المغويات (بنات الأفكار)، بل بالدعوات والصلوات المخلصة الخاشعة "للروح الأبدى الخالد الذي يستطيع إثراءنا بالتعبير والمعرفة، ويبعث إلينا بأحد ملائكته (وحارس عرشه) ساروفيم، مع نار مذبح المقدسة، ليمس ويظهر شفتي من يشاء. ويجدر أن يضاف إلى هذا، دأب على القراءة الجادة المنتقاة، ومثابرة على الملاحظة الدقيقة. وتبصير بالفنون والمسائل العامة الجذابة والواسعة، حتى إذا تم العمل، إلى حد ما تحت مسؤوليتي وبجهدي الخاص، فإني عندئذ لا أرفض أن أركب هذا الأمل المنشود عند كثير ممن لا ينفرون من المغامرة بالوثوق إلى هذا الحد بما أقطع على نفسي لهم من تعهدات أو وعود(51).

صفحة رقم : 10792

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> زواج وطلاق

4- زواج وطلاق

في "الحجة الداحضة المتواضعة" كان الأسقف هول قد اتهم ملتون بأنه يسمي لشهرة أدبية، ويعلن عن مواهبه وقدراته وتجاربه وثقافته وبيئته السابقة، أملاً في الفوز "بأرملة ذات ثراء" أو أية جائزة أخرى. وفي "الرد" عليه عمد ملتون إلى تسفيه هذه الفكرة والتنديد بها، وقال أنه على النقيض من ذلك، "نشأ في بحبوبة من العيش" واتفق في الرأي مع "أولئك الذي يؤثرون في حكمه وتبصر وبروح طيبة، عذراء غير ذات

صفحة رقم : 10793

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> زواج وطلاق

ثراء عريض، وذات أصل كريم، على أغنى الأرامل" (52). وبينما انساقت إنجلترا إلى الحرب الأهلية (1642)، انطلق ملتون إلى الزواج (1643).

لم ينضم ملتون إلى جيش البرلمان، وعندما اقتربت القوات الملكية من لندن (12 نوفمبر 1642) نظم قصيدة (سونيت) يشير فيها على قادتها أن يحموا بيت الشاعر وشخصه؛ كما فعل الإسكندر الأكبر مع الشاعر بندرا من قبل، واعداء إياهم بأن ينشر على الملأ شعراً "حسن صنيعهم" (53). على أن القوات الملكية ردت على أعقابها. ولم يمس بيت ملتون بأذى، وبقي ليستقبل زوجته.

وكان ملتون قد التقى بماري باول Powall في فورست هل في أكسفوردشير، حيث كان والدها قاضي الصلح. وهذا الوالد، ريتشارد باول كان قد اعترف من قبل، في 1627، بأنه مدين لمilton، وكان آنذاك في كمبردج، بمبلغ 500 جنيه، خفف فيما بعد إلى 312، ولكن لم يسدد بعد. والظاهر أن الشاعر قضى عند أسرة باول شهراً (مايو-يونيو 1643) ولسنا ندري ليسترد الدين أو يحظى بزوجة. وربما أحس جون وهو في الرابعة والثلاثين، بأنه قد أن الأوان للزواج والنسل، وواضح أن ماري كانت تتحلى بالعذرية التي ينشدها. وفاجأ أبناء أخته بعودته إلى لندن متأبط ذراع زوجته.

ولم تدم السعادة طويلاً لأحد. فقد كرهه أبناء الأخت ماري كدخيلة عليهم، وكرهت هي كتب ملتون، وافتقدت أمها و "القدر الكبير من الصحبة والأنس والبهجة والرقص... الذي كانت تنعم به في فورست هل. ويقول أوبري "كثيراً ما كانت تسمع أبناء الأخت هؤلاء يضربون فيتعالى صراخهم" (54) مذكر أن ملتون أن ماري محدودة التفكير ضيقة الأفق ليس لديها سوى النزر اليسير من الأفكار، التي هي في جملتها ملكية، فإنه انصرف ثانية إلى كتبه. وتحدث فيما بعد عن "شريحة حياة بكماء

صفحة رقم : 10794

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> زواج وطلاق

جامعة كئيبة لا روح فيها"، ورثى "للإنسان الذي يجد نفسه مرتبطاً بأوثق رباط بهيكل من طين وبلغم، كان يأمل منه أن يكون شريك مجتمع تملؤه السعادة والبهجة والسرور(50)" ويعتقد بعض الباحثين في الزواج غير المتكافئ أن ماري أبت عليه البناء بها(56). وبعد شهر طلبت السماح لها بزيارة والديها، فوافق ملتون، مع التفاهم بينهما على عودتهما. ولكنها ذهبت ولم ترجع. وبعث إليها برسائل تجاهلها، ولما لم يجد أي متنفس آخر لمشاعره، كتب ونشر دون توقيع "مبدأ الطلاق ونظامه" (أغسطس 1643)، وأهداه إلى "برلمان إنجلترا والجمعية" أي جمعية وستمنستر التي كانت تصوغ آنذاك اعترافاً بالمذهب المشيخي. وتقدم إلى البرلمان برجاء أن يتحلل من أغلال التقاليد، ويسير بالإصلاح قدماً، بإقرار أسس أو شروط أخرى للطلاق، غير الزنى، وعرض أن يوضح: أن التصور، وعدم الأهلية أو تنافر العقول الناشئ عن سبب طبيعي لا يتسنى تغييره، مما عوق، والأرجح أنه كثيراً ما يعوق إلى الأبد، مزايا الحياة الزوجية، وهب السلوى والبهجة والهدوء والطمأنينة، نقول أن هذا سبب للطلاق أقوى من البرودة الزوجية الطبيعية، لا سيما إذا لم يكن هناك أطفال، وكانت هناك موافقة من الطرفين(57). واقتبس ملتون القانون اليهودي القديم الذي ورد في التوراة (سفر التثنية 24-1) "إذا أخذ رجل امرأة وتزوج بها، فإن لم تجد نعمة في عينيه لأنه وجد فيها عيب شيء. وكتب لها كتاب طلاق ودفعه إلى يدها وأطلقها من بيته". وأوضح أن السيد المسيح رفض هذا الجزء من شريعة موسى. فقد جاء في إنجيل متي (5-32، 31) "وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق. وأما أنا فأقول لكم أن من طلق امرأته إلا لعللة الزنى يجعلها تزني"، واحتج ماتون بأنه "المسيح لم يقصد أن يؤخذ كلامه بمعناه الحرفي، كلمة بكلمة"(58)، وكثيراً ما أعلن أنه لم يأت ليغير مقدار ذرة من شريعة موسى. وكافح ملتون حتى يجعل تفسيره الواسع يشمل

صفحة رقم : 10795

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> زواج وطلاق

قضيته الشخصية، حتى أنه ذهب إلى حد تبرير الطلاق لعدم القدرة على الإسهام في حديث مناسب معقول. "لأن عدم الصلاحية والتخلف في العقلية التي تنفر من الزواج، يمكن أن تهبط بالزواج إلى "حالة أسوأ من حياة الوحدة الموحشة" حيث تكون النفس النابضة بالحياة مربوطة إلى مجرد جثة(59). ونفذ الكتاب الصغير بسرعة، لأنه قوبل باستنكار عام. وفي فبراير 1644 نشر ملتون طبعة مزبدة منقحة ظهر اسمه في جراءة وشجاعة. ورد على ناقديه في أسلوب العالم المتفقه، في "Twtrochordon" ثم في أسلوب أخف في Colasterion (صدر كلاهما في 4 مارس 1645)، تناولهم فيهما بأقصى القدح والألفاظ المقذعة كتلة من الطين، خنزير، خنزير بري، ذو أنف بشع، حمام له مخ الديك، حمار صفيق، بغيض، كرية الرائحة(60) لقد استطاع ملتون في الصحيفة الواحدة أن يقفز من مرتفعات بارناسوس إلى أخط مهاوي السفاهة والبداءة. وحيث أخفق في أن يحصل من البرلمان على تعديل في قانون الطلاق، اعتزم أن يتحدى القانون، ويتخذ زوجة ثانية، وكان يفضل مسن دافيز التي لا يعرف عنها شيئاً إلا أنها رفضته. ولما ترامت شائعات هذه الخطبة إلى مسامع ماري باول قررت أن تستعيد زوجها، على أي الأحوال، حلوها أو مرها، قيل فوات الأوان. وذات يوم بينما كان ملتون في زيارة لصديق فاجأته ماري وجثت بين يديه وتوسلت إليه أن يعيدها إلى مخدعه وبيته. وتردد هو، ولكن أصدقائه ناصرُوا قضيتها، فقبل عودتها إليه. وانتقل الآن إلى بيت أوسع في باربيكا ستريت، ضمها كما ضم أباه وتلاميذه. وسرعان ما جاء أبواها أيضاً مع الشاعر، بعد أن تدهورت حالهما بهزيمة الملكية، مما جعل هذا البيت أقرب ما يكون

إلى دار للمجانين، أو الفلسفة. وزاد الأمر ضغطاً على أبالة في 1646، مولد طفلة ملتون الأولى آن. وخفف من هذه الفوضى موت ريتشارد باول في يولية، كما أن جون

صفحة رقم : 10796

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> زواج وطلاق

ملتون الأكبر (الوالد) اختتم حياته المديدة الكريمة في مارس التالي. ومن ثم أصبح الشاعر وريثاً لمنزليين أو ثلاثة في لندن، ولبعض المال، وربما لبعض العقارات في الريف. وفي 1647 فض ملتون مدرسته وانتقل مع زوجته وابنته واثنين من أبناء أخته إلى "هاي هلبورن ستريت" وفي 1648 ولدت له ابنته الثانية ماري.

صفحة رقم : 10797

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> حرية الصحافة

5- حرية الصحافة

1643 - 1649

في 13 أغسطس 1644، تحدث الكاهن المشيخي هربرت بالمر أمام مجلس البرلمان، واقترح علناً رسالة ملتون عن الطلاق. ولم تحرق الرسالة؛ ولكن شكوى بالمر ربما أدت "بشركة المكتبات" التي تضم كل باعة الكتب الإنجليز، إلى لفت نظر مجلس العموم (24 أغسطس) إلى أن الكتب والنشرات تخالف القانون الذي يتطلب تسجيلها وإجازتها بمعرفة الشركة. وكان هذا القانون قد صدر في عهد إليزابيث، كما أن البرلمان كان قد جدد العمل به في 14 يونيو 1643، بإصداره أمراً ينص على:

أنه لا يطبع كتاب أو نشرة أو ورقة، أو أي جزء من شيء من هذا القبيل، أو يعرض للبيع، قبل التصديق على نسخة منه وإجازته، من أشخاص يعينهم لهذا الغرض أحد المجلسين أو كلاهما معاً، وقبل أن يسجل في السجل المعد لذلك في شركة المكتبات، طبقاً لما جرى عليه العرف من زمن بعيد (61).

ويعاقب أي خرق لهذا القانون بالقبض على من تولوا التأليف والطبع. وكان ملتون يهمل دوماً تسجيل ما ينشره نثراً. وعلى الرغم من أن كتابه "مبدأ الطلاق ونظامه" ظهر بعد صدور الأمر سالف الذكر بشهرين، فإنه تجاهل ما يقضي به. وربما كان شاعرنا ذا حظوة لدى البرلمان لأنه ناصره في صراعه مع الملك، على أن البرلمان على أية حال، تغاضى عنه وحده ولكن الأمر ظل سيقاً مسلطاً على رأسه وعلى رؤوس سائر المؤلفين في بريطانيا. وبدل ملتون ضرباً من المحال أن يزدهر الأدب في ظل

صفحة رقم : 10798

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> حرية الصحافة

مثل هذه الرقابة. فماذا يجدي خلع ملك وتحطيم نظام أسقفي استبدادي قاس، إذا استمر البرلمان والكنيسة على التدقيق والتحقيق في كل كلمة يتفوه بها الإنجليز؟! وفي 24 نوفمبر 1643 أخرج درن تسجيل أو إجازة أروع أعماله النثرية "أريوباجيتيكا: حديث من جون ملتون عن حرية المطبوعات دون إجازة، إلى برلمان إنجلترا" وليس في هذا الحديث قذف ولا طعن ولا نقد لاذع، بل كان على مستوى عالٍ من اللغة والفكر وفيه يطلب إلى البرلمان بكل إجلال واحترام، أن يعيد النظر في قانون الرقابة، من حيث أنه ينزع إلى "تثبيط الهمم في سبيل العلم والمعرفة، ويعوق بل يقضي على أي إبداع واكتشاف يمكن أن يخرج في المستقبل إلى حيز الوجود في مجال الحكمة الدينية والمدنية كليهما." ثم يستطرد في قطعة مشهورة قيمة:

لست أنكر أنه من أعظم صلاحيات الكنيسة والدولة أن ترقب بعين يقظة كيف تحط الكتب من قدرها ومن أقدار الناس، ومن ثم يحتجز أو تسجن أو تطبق أقصى ما تقضي به العدالة على عوامل الشر لأن الكتب ليست أشباه ميتة إطلاقاً، بل أن فيها من الفعالية والحيوية مل يجعلها نشيطة في مثل نشاط النفس التي أنتجتها. ليس هذا فحسب، بل أنها كذلك، تحفظ، وكأنما تحفظ في قنينة، أبقى عصارة ودقة مؤثرة للفكر الحي الذي نماها وأبدعها. واني لأدرك أنها نشيطة قوية الإنتاج مثل أسنان التنين الخرافية إذا نثرت على الأرض هنا وهناك انبعث منها رجال مسلحون (هكذا تقول الخرافة). ومن جهة أخرى، فإنه إذا لم يكن ثمة حيطة وحذر، فإن قتل الإنسان يعدل تقريباً قتل الكتاب الجيد. إن من يقتل رجلاً يقتل مخلوقاً عاقلاً على صورة الله، على حين أن من يدمر الكتاب الجيد، يقتل العقل نفسه، بل يقتل صورة الله، في صميمها. وكم من إنسان

صفحة رقم : 10799

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> حرية الصحافة

يعيش حملاً ثقيلاً على الأرض، ولكن الكتاب الجيد هو دم الحياة الغالي للروح السامية يسان ويختزن، قصداً لحياة وراء الحياة. حقاً أن أي عصر لن يستطيع استعادة الحياة، وقد لا يكون في هذا خسارة، ولا تعويض ثورات العصور في الغالب عن فقدان حقيقة منبوذة، ساءت حال أمم بأكملها من أجل افتقارها إليها.

وينبغي لذلك أن نكون حذرين بقطين لأي اضطهاد نصبه على الأعمال الحية لمشاهير الرجال البارزين، وكيف نبدد حياة الرجل الناضج المحفوظة المختزنة في كتاب. فإذا رأينا عملاً من أعمال القتل يرتكب على هذه الصورة، وهو في بعض الأحيان استشهاده، إذا امتد هذا إلى كل الإنتاج حتى ينتهي الأمر إلى مذبحه، فمن ثم لا ينتهي الإعدام عند خنق الحياة الفطرية، بل ينفذ إلى الجوهر السماوي الخامس البالغ الرقة، أي روح العقل ذاته، فيقضي على الخلود أكثر ما يقضي على مجرد حياة(62).

ويستشهد ملتون بالنشاط الفكري في أثينا القديمة، حيث لم تفرض الرقابة إلا على الكتابات التي تتضمن إحاداً أو قذفاً، وهكذا حكم قضاة محكمة أريوباجوس العليا بإحراق كتب بروتاجوراس، وبنفيه خارج البلاد، لمقالة بدأها بالاعتراف بأنه لا يدري "إذا كان هناك آلهة أم لا". ويمتدح ملتون حكومة روما القديمة لإتاحتها قدراً كبيراً من الحرية للكتاب، ثم يصف نمو الرقابة في روما الإمبراطورية والكنيسة الكاثوليكية. ويحس ملتون بأن قانون الرقابة هذا نشتم من رائحة "البابوية" "وما فائدة أن تكون رجلاً: لا مجرد تلميذ في مدرسة، إذا كنا فقط هربنا عن الدرة أو العصا لنقع تحت نير الرخصة (للطباعة)(63)؟" إن الحكومات ومراقبيها ليسوا معصومين من الخطأ، فليس لهم أن يفرضوا ما يروق لهم أو ما يفضلونه من آراء ومبادئ على الناس، والأولى أن يتركوا الناس ليختاروا ويتعلموا، حتى ولو كلفتهم التجربة والخطأ أبهظ الثمن:

صفحة رقم : 10800

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> حرية الصحافة

إني لا أستطيع أن امتدح فضيلة مفروضة عليها الحماية والرقابة، لا يمارسها أحد ولا ينشق عيرها أحد، لا تتطلق قط لتتري خصومها، بل تتسلل بمعزل عن الناس(64). أعطني الحرية لأعرف وأتحدث وأناقش، بلا قيد، وفقاً لما يمليه الضمير، فوق كل الحريات(65). ومع أن كل رواج المذاهب والمبادئ أطلقت لتهب على الأرض، حتى إذا دخلت الحقيقة إلى الميدان، أسأنا إليها بالرقابة والحظر، لنشكك في قوتها، فلنتركها مع البهتان يتصارعان، فمن ذا الذي رأى يوماً أن الحقيقة تنهزم في معركة حرة مفتوحة(66)؟

ومهما يكن من أمر فإن ملتون لا يطالب بالحرية المطلقة للمطبوعات، فهو يؤمن بأن الإلحاد والتشهير والفحش يجب أن يحرما القانون، ويرفض التسامح مع الكاثوليكية لأنها عدو للدولة، ولأنها هي نفسها موصومة بالتعصب(67). وفيما عدا ذلك، فإن الدولة التي تسود فيها حرية الفكر والكلام لا بد أن ترقى وتنمو فيها سائر الأشياء سواء بسواء. يخيل إلي أنني أرى بعين البصيرة أمة كريمة قوية تستيقظ وتنفض النوم عن جفونها، مثل رجل قوي يفيق من سباته، وتهز خصلات شعرها. ويبدو لي أنني أراها مثل نسر، يجدد شبابه ويفتح عينيه الحادثتين(68) في وقت الظهيرة.

ولم يلتفت البرلمان لدفع ملتون أو حجته، بل على النقيض من ذلك، سن قوانين تصاعدت صرامتها (1647، 1649، 1653) ضد إصدار مطبوعات غير مرخصة. وشكا أعضاء شركة المكتبات من أن ملتون لم يكن قد سجل "الأريوباجيتيكا". وعين مجلس اللوردات اثنين من رجال القضاء لمساعدته، ولسنا نعرف النتيجة. ولكن من الواضح أنهم لم يزعجوه، لأنه كان صوتاً ذا نفع وقيمة للبيوريتانيين المنتصرين.

وفي فبراير 1649، أي بعد إعدام شارل الأول بأسبوعين اثنين، نشر ملتون رسالة عن "ولاية الملك والحكام"، ارتضى فيها نظرية العقد

صفحة رقم : 10801

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> حرية الصحافة

الاجتماعي التي تقول بأن سلطة الحكومة مستمدة من سيادة الشعب، وأنه من حق من يملكون السيادة أن يحاسبوا أي طاغية أو ملك شرير، وعزله وإعدامه، بعد إدانته إدانة عادلة(69)". وبعد شهر واحد دعاه مجلس الدولة في الحكومة الثورية ليكون "سكرتير المجلس للغات الأجنبية". فنحي ملحمته جانباً، ليتفرغ لمدة أحد عشر عاماً، لخدمة جمهورية البيوريتانيين وحكومة "الحماية" على عهد كرومول.

صفحة رقم : 10802

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> سكرتير اللغة اللاتينية

6- سكرتير اللغة اللاتينية

1649 - 1659

كان النظام الجديد في حاجة إلى من يتقن اللغة اللاتينية، ليحرر المراسلات الأجنبية، وكان ملتون المرشح البارز لهذا العمل. حيث كان يستطيع الكتابة باللغات اللاتينية والإيطالية والفرنسية كأحد أبناء روما القديمة أو فلورنسة أو باريس، كما أنه كان قد أثبت في أشد أوقات الحرج أنه مخلص لقضية البرلمان في نزاعه ضد الأساقفة والملك. وكان مجلس الدولة لا "كرومول" هو الذي استخدمه لهذا العمل. ولم يكن له صلة وثيقة بالحاكم الجديد، ولكنه لا بد أن يكون قد رآه كثيراً، وأنه قد أحس في تفكيره وفي كتاباته، بالتقارب مع هذه الشخصية المرعبة. ولم يستخدم المجلس ملتون لمجرد ترجمة رسائله الأجنبية إلى اللاتينية، بل كذلك، ليبرز للحكومات الأجنبية، في نشرات لاتينية، وجه العدالة والحق في السياسة الداخلية التي ينتهجها المجلس، كما يبرز، فوق ذلك كيف كان من الحكمة وسداد الرأي الإطاحة برأس الملك.

وفي إبريل 1649، فور تقليده منصبه، انضم ملتون إلى موظفين آخرين في المجلس في وقف نشرات الملكيين وأنصاره المساواة ضد نظام الحكم الجديد(70). وكانت الرقابة على المطبوعات آنذاك أشد صرامة منها في أي وقت

مضى في تاريخ إنجلترا، متعبة في ذلك القاعدة العامة التي تقول بأن الرقابة تشد بتزعزع مركز الحكومة. إن الرجل الذي كان قد دبح بأفصح بيان النداء الذي لم يكن له نظير من قبل، من أجل حرية الصحافة

صفحة رقم : 10803

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> سكرتير اللغة اللاتينية

بات الآن ينظر إلى الرقابة من وجهة نظر السلطة الحاكمة. على أنه يجدر بنا أن نلاحظ أن ملتون قال من قبل الأريوباجيتيكا: إنه من أهم صلاحيات الكنيسة والدولة أن ترقب بعين بقطعة كيف تحط الكتب من قدرها ومن أقدر الناس ومن ثم تحتجز أو تسجن أو تطبق أقصى ما تقضي به العدالة على عوامل الشر" (71). ومذ كان جون للبيرن بصفة خاصة كاتباً مزعجاً من أنصار المساواة، فإن المجلس أصدر تعليماته إلى ملتون ليتولى الرد على كتابه المتطرف "اكتشاف أغلال جديدة". ولسنا ندري هل قام ملتون بهذه المهمة أو لم يقم. ولكنه يروي هو نفسه (72) أنه "أمر" أن يرد على "صورة الملك" وامنتل لهذا الأمر فنشر في 6 أكتوبر 1649 كتاباً من 242 صفحة تحت عنوان "محطم الصورة". وارتياباً، ولكن اعتراضاً من بأن "صورة الملك" هو ما أوهم بأنه من تأليف شارل الأول نفسه، فإنه-أي ملتون تناول حجة الملكية فقرة فقرة، وانبرى لتنفيذها بكل مل أوتي من قوة ومن خلال ذلك دافع عن سياسة كرومول، وبرر إعدام الملك، وأبدى احتقاره "للك الشذمة من الغوغاء المتقلبين الذين يعوزهم التفكير السليم المولعين بالصور، قطيع ساذج عاجز تربي على الذل والخنوع... يفتتن بالطغيان (73)". واستبد الغضب والحنق بشارل الثاني، وهو يتجول في القارة، فاستأجر أعظم علماء أوربا كلود سومير ليتولى الدفاع عن الملك الميت، وسرعان ما أصدر "سالماسيوس" "دفاعه عن الملك السابق شارل الأول"، في ليدن (نوفمبر 1649)، نعت فيه كرومول وأتباعه بأنهم "أوغاد متعصبون... وأنهم العدو المشترك للبشرية" وأهاب بكل الملوك، من أجلهم هم أنفسهم؛ أن يجهزوا الجيوش للقضاء على هذا الوباء... يقيناً أن دم الملك العظيم يستصرخ كل الملوك والأمراء في العالم المسيحي للثأر له. ولا يمكن أن يقوموا بعمل فيه هدوء وروحه وسكونها خيراً من أن يعيدوا لوريثه

صفحة رقم : 10804

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> سكرتير اللغة اللاتينية

الشرعي كل حقوقه كاملة، ويستردوا له عرش أبيه... وأن يذبحوا، كضحايا على جدث الميت المقدس، هذه الوحوش البالغة الضراوة، الذين تأمروا على قتل هذا الملك العظيم (24). وخشي كرومول أن تزيد حملات مثل هذا العالم الذائع الصيت في أوربا من الاستياء السائد في القارة ضد حكومته، فطلب إلى ملتون الرد على سالماسيوس. وجهد السكرتير اللاتيني في إنجاز هذه المهمة قرابة عام كامل، في ضوء الشموع، على الرغم من تحذير طبيبه له بأنه يفقد بصره تدريجياً، وأنه مهدد بالعمى. وكانت إحدى العينين عاطلة

بالفعل، وفي 31 ديسمبر ظهر "دفاع الشعب الإنجليزي عن نفسه ضد دفاع سالماسيوس عن الملكية-لجون ملتون"، بدأ بالسخرية من سالماسيوس لبيعه خدماته لشارل الثاني، واستطرد ليظهر أن سالماسيوس قبل أربع سنوات فقط كتب يهاجم النظام الأسقي الذي يدافع عنه الآن:

أيها العميل الفاسد المرتشي المأجور... أيها الجبان المحنقر المرتد الخارج على مبادئك... يا أشد الحمقى سذاجة وبلاهة... أنت جدبر بعكازة المهرج، حين تظن أنك تغزي الملوك والأمراء بالحرب، بمثل هذه الحجج الصبيانية الواهية... هل تتخيل إذن، أيها المتلعثم المحامي الصغير الحفير، الذي لم يولد إلا لينسخ ويقلد كبار الكتاب، الذي لم يؤت أية موهبة أو ذكاء أو عبقرية، أنك ستنتج شيئاً تكتب له الحياة من عندياتك؟ صدقني أنك وكتاباتك العقيمة معاً، ستلقي في زوايا النسيان في الجيل القادم. لولا أن "دفاعك عن الملك" سيدين ببعض الفضل للرد عليه، بمحض الصدفة، وعلى الرغم من أنه قد أغفل وطرح جانباً لبعض الوقت، فإنه لذلك سيبعث من جديد(75). وهذا هو ما حدث على وجه الدقة. أن سالماسيوس كان قد أضفى على شارل الأول صورة مثالية. ولكن ملتون يحط من قدره. ويشتبه في أن شارل حرض دوق بكنجهام على دس السم لوالده جيمس الأول، ويتهم

صفحة رقم : 10805

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> سكرتير اللغة اللاتينية

الملك الميت بكل "ضروب الفساد الخلقي والإثم مع الدوق المذكور، ويتهم شارل بتقبيل النسوة في المسرح، وبمداعبته أئداء العذارى والعقيات علناً(76)". وكان سالماسيوس قد أطلق على ملتون أسماء كثيرة، فثار ملتون بأن نعت سالماسيوس بأنه، غبي، خنفساء، حمار، كذاب، قذاف مغتر، مرتد، معنوه، جهول، منتشرد، عبد ذليل، ويسخر من سالماسيوس لسيطرة زوجته عليه، ويعنف على أخطائه اللاتينية. ويدعو إلى أن يشنق نفسه، ويضمن له الدخول إلى الجحيم(77). ونظر توماس هويز إلى هذه الكتب المتنافسة من علياء فلسفته، فأعلن أنه عاجز عن أن يقرر أي الفريقين أقوى لغة وأيهما أضعف حجة(78). على أن مجلس الدولة قدم الشكر لملتون. تلقى سالماسيوس نسخة من "دفاع" ملتون أثناء وجوده في بلاط الملكة كريستينا في ستكهلم، ووعد بالرد عليه، ولكنه أبطأ. وفي الوقت نفسه أنصرف ملتون عن الشؤون الخارجية إلى شؤون بيته. ففي 1649 انتقل إلى دار في "شيرنج كروس" ليكون قريباً من عمله. وهناك وضعت زوجته ولداً، لم يلبث أن مات، وفي 1652 وضعت بنتاً "ديبوراً" كلفته ولادتها حياة أمها. وفي تلك السنة فقد ملتون بصره تماماً. وعندئذ نظم قصيدة من أروع قصائده (السونيت) "عندما أتدبر كيف فقدت نور عيني". وأبقى عليه المجلس سكرتيراً لاتينياً، وخصص له كاتباً ليدون له مل يمليه عليه. ومني، وهو رهين العمى، بخسارة أخرى، ففي عام 1653 انهارت الجمهورية التي طالما هل لها ورحب بها، إلى "ملكية عسكرية" وأصبح فيها "حامي الحمى" كرومول، في واقع الأمر ملكاً. وراض ملتون نفسه على هذه التطورات بقوله: "أن أساليب العناية الإلهية يحوطها الغموض والإبهام(79)". وظل على إعجابه بكرومول وامتدحه بأنه "أعظم بني الوطن وأكثرهم تالفاً وامتيازاً... أنه أبو البلاد"، وأكد له "أن في ائتلاف

صفحة رقم : 10806

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> سكرتير اللغة اللاتينية

المجتمع الإنساني ليس ثمة شيء أحب إلى الله، أو أكثر التاماً مع القليل من أن يتولى أسمى العقول السلطة العليا(28)".

وسرعان ما طلب إليه أن يتولى الدفاع عن "حامي الحمى" في اتهام خطير. ذلك أنه في 1652 ظهر كتاب يشكل عنوانه نفسه صيحة الحرب "صرخة الدم الملكي" إلى السموات ضد الإنجليز الذين قتلوا أباهم" وبدأ الكتاب بأن نعت ملتون بأنه "حيوان شرير بشع، قبيح المنظر، ضخم الجسم، مكفوف البصر...جلاد...يستحق الشنق". وقرن الكتاب إعدام شارل الأول بصلب المسيح، واعتبر قتل الملك كبرى الجرائم(81) وسخر من جهر "الغاصبين" بايمانهم بالدين:

أن لغة وثائقهم العامة محشوة بالتقى والورع وكان لزاماً أن يجاريها أسلوب كرومول ومن يدافعون عنه، وأنه لما يثير الأشمئزاز، كما يثير السخرية المريرة، إلى أي حد من الوقاحة والصفافة يخفي هؤلاء الأوغاد الخفيون واللصوص الظاهرون حقيقة شرورهم بذريعة أوسنار من الدين(82).

وكما فعل سالماسيوس، أهاب المؤلف المجهول بدول القارة أن تغزو إنجلترا وتعيد آل ستيوارت إلى العرش. وختم الكتاب بتوجيهه إلى الحارس القدر المتوحش، جون ملتون، المدافع عن قتل الآباء وقتلتهم، مع الأمل في أن يلقى وشيكاً شر الجزاء فيضرب بالسياط:

حول هذا الرأس الحانث سدد الضربات جيداً، وشوه كل بوصة فيه بآثار العصا، إلى أن تصبح الجثة كتلة هلامية واحدة. هل توقفت؟ اضرب حتى تتفجر الصفراء من كبده من خلال عينيه الداميتين(83).
واستحث مجلس الدولة ملتون للرد على هذا العنف، ولكنه تمهل توقعاً لحملة من سالماسيوس، أملاً في أن يرد على الخصمين في رسالة واحدة. ولكن سالماسيوس قضى نحبه (1653) دون أن يتم رده. وخذع ملتون في اعتقاده بأن كاتب "صرخة الدم الملكي" هو الكساندر مورس-

صفحة رقم : 10807

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> سكرتير اللغة اللاتينية

Morus، وهو قسيس عالم في مدلبرج فطلب إلى مراسليه في المقاطعات المتحدة موافاته ببيانات عن حياة موريس العامة والخاصة(84). وكتب أوربان أولاك، طابع الكتاب، إلى هارتاب، صديق ملتون، مؤكداً أن موريس ليس هو المؤلف(85). ولكن ملتون أبى أن يصدق هذا، وأيده في هذا، ما يتناقله الناس في امستردام. وفي إبريل 1654 كتب جون دروري إلى ملتون، محذراً إياه بأنه مخطئ في نسيه "صرخة الدم الملكي" إلى موريس، ولكن ملتون تجاهل هذا التحذير، وفي 30 مايو كتب الدفاع الثاني للشعب الإنجليزي "جون ملتون.

وكان سحر البيان في هذا الكتاب الذي بلغ عدد صفحاته 173، أمراً مشهوداً، حيث أملاه باللاتينية رجل كف بصره تماماً. وعزا أعداؤه ما أصابه من عمى إلى العقاب الإلهي جزاء خطايا الفادحة. وأجاب ملتون على هذا بأنه لا يمكن أن يكون، لأن حياته كانت مثالية، وهو يشعر بالفرح والابتهاج لأن الدفاع الأول:

هكذا أصاب غريمي بهزيمة ساحقة... إلى حد أنه أستسلم من فوره وقد تحطمت روحه وانهارت سمعته، وعلى مدى السنوات الثلاث التالية من حياته، ولو أنه كان يهدد ويرغى ويزيد كثيراً. فإنه لم يعد يزعجنا، فيما عدا أنه استعان بالجهد التافه لشخص جدير بكل الأزدراء، حرضه بما لست أدري من الملق القبيح المسرف، على أن يرقعاً قدر الإمكان بمديحهما، ما حل بشخصه مؤخرأ من دمار غير متوقع(86).

ثم يعرج ملتون على عدوه الجديد، فيذكر أن "موريس" تعني بالإغريقية "مغفل" ويتهمه بالهرطقة والتهتك والزنى، وبأن خادمة سالماً سالماسيوس حملت منه سفاحاً، ثم هجرها. بل أن طابع "صرخة الدم الملكي" نفسه يجلد بالسوط، وكل إنسان يعرف أنه غشاش مفلس سيئ السمعة (87). وفي ظرف ومرح أكثر، ويستعرض ملتون أعمال كرومول، ويدافع عن حملاته غب أيرلندة، وعن حل البرلمان، وعن استيلاء على السلطة،

صفحة رقم : 10808

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> سكرتير اللغة اللاتينية

ويوجه الحديث إلى "حامي الحمى":
إننا جميعاً نقدرك حق قدرك ونقر بفضلك الذي لا يدانيه فضل، فأمض في طريقك القويم، يا كرومول،...يا محرر بلادك، ويا من أرسى دعائم الحرية فيها، ويا من تفوقت بأعمالك المجيدة، لا على إنجازات الملوك فحسب، بل على مغامرات أبطالنا الأسطورية أيضاً (88).
ولكن بعد عبارات الإجلال والإكبار هذه، لم يتردد ملتون في أن يمحض كرومول النصح في أمر السياسة. فأشار عليه بأن يحيط نفسه برجال من أمثال فلييتود ولمبرت (وهما من المتطرفين)، وأن يدعم حرية الصحافة وأن يترك الدين منفصلاً تمام الانفصال عن الدولة. كما ينبغي ألا تجمع أية عشور لرجال الدين، فإنهم بالفعل متخمون، (وكل ما فيهم سمين، حتى عقولهم دون استثناء (89)). ويسترسل ملتون فيحذر كرومول من أنه "ونحن نعهده، دوننا جميعاً، أعدل وأقدس وأفضل رجل" إذا أقدم على قمع الحرية التي دافع عنها، فلن تكون النتيجة إلا وبالاً ودماراً، لا لشخصه فحسب، بل كذلك لكل متطلبات الفضيلة والتقوى (90). ويوضح ملتون بأجلى بيان أنه لا يقصد "بالحرية" الديمقراطية، وهو يسأل الناس:
لماذا يؤكد لكم أي إنسان حاكم في الاقتراع العام، أو قدرتم على انتخاب من تريدون للبرلمان؟ هل من أجل أن تتمكنوا من انتخاب رجال من حزبكم في المدن، وفي الأقاليم، تنتخبون الرجل الذي مد لكم الموائد في بذخ بالغ، أو أسرف في تقديم الشراب برجال الريف والفلاحين السذج، سواء كان جديراً أو غير جدير بالانتخاب؟ ومن ثم لا يجتمع لنا في البرلمان أعضاء اتسموا بالحصافة والحكمة والخبرة والثقة، بل أعضاء صنعتهم الحزبية وموائد الطعام!!
وبعبارة أخرى تحصل على أعضاء من تجار الخمور والباعة المتجولين، من الحانات في المدن، ومن الرعاية ومربي الماشية في الريف، فهل يجدر بأي إنسان أن يكلم أمور الجمهور لأمثال هؤلاء الذين لا يثق أحد أن يعهد إليهم بشأن من شئونه الخاصة (91)؟

صفحة رقم : 10809

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> سكرتير اللغة اللاتينية

كلا، إن مثل هذا الاقتراع العام لا يعتبر حرية: فلأن أن تكون حراً، هو بالضبط أن تكون تقياً عاقلاً عادلاً معتدلاً مكتفياً بذاتك، لا تمد يديك إلى ما بأيدي الناس، وقصارى القول، أن تكون شهماً رحب الصدر شجاعاً. أما إذا تجردت من هذا كله أو كنت على نقيضه، فإنك لن تعدو أن تكون عبداً رقيقاً. وقد حكم الله على الأمة التي لا تستطيع أن تحكم نفسها وتدبر أمورها بنفسها، والتي استعبدتها شهواتها، بأنها لا بد أن تستسلم لسلطان غيرها، فتقع في ذل العبودية بإرادتها وضد إرادتها معاً(92).

وفي أكتوبر 1654 أعاد أولاك طبع "الدفاع الثاني" لملتون، في لاهاي، مع رد عليه بقلم موريس بعنوان "دليل دامغ". وفي المقدمة أكد الطابع أن موريس ليس مؤلف "صرخة الدم الملكي"، وأنه، أي أولاك، تسلم مخطوطته من سلماسيوس الذي أبى أن يميظ اللثام عن أسم المؤلف. وأنكر مورس إنكاراً تاماً أنه المؤلف، وأكد أن ملتون قد أبلغ بهذا الأمر مراراً وتكراراً، واتهمه بأنه قد رفض من قبل تغيير "دفاعه"، لأنه لن يتبقى من شيء يذكر إذا حذف من السباب الذي وجهه إلى موريس. وفي أغسطس 1655 أصدر ملتون كتاباً من مائتين وأربع صفحات "دفاع عن النفس" ورفض أن يصدق إنكار مورس، وأورد من جديد فعلته الشائنة مع خادمه سالماسيوس، وأضاف أنها، في شجار مشروع أوسعت مورس ضرباً وطرحته أرضاً، وكادت أن تقف عينيه(93). ولكن تبين في خاتمة المطاف أن أحد رجال اللاهوت البروتستانت، واسمه بيبير دي مولان، هو الذي كتب "صرخة الدم الملكي"، وأن مورس هو الذي نشره وكتب إهداءه(94). ولما دعي مورس ليكون راعياً لإحدى كنائس الإصلاح قرب باريس، أرسل شاعرنا عدة نسخ من "الدفاع الثاني" إلى الأبرشية لمنع تعيينه(95). ولكن مجلس الأبرشية عينه على الرغم من ذلك كله، وختم مورس سيرته التي اكتفتها المضايقات (1670) وهو أنصح

صفحة رقم : 10810

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> سكرتير اللغة اللاتينية

الوعاظ البروتستانت بياناً في باريس أو فيما حولها. ويبدو ملتون في مظهر أرق في قصيدة السونيت "مذبحة بيد مونت" (1655). ويحتمل أنه هو الذي دون الرسائل التي أهاب فيها كرومول بدوق سافوي ليضع حداً لاضطهاد "الفدوا Vaudois" (أتباع بيتر فالدو بيبوريتانيون منشقون في جنوب فرنسا)، وإلى مزران وحكام السويد والدمرك والمقاطعات المتحدة ومقاطعات سويسرا، ليتوسطوا لدى الدوق.

وفي 1656، بعد أربع سنوات من حياة العزوبة، تزوج ملتون من كاترين وودكرك التي لم تكتحل عيناه بمرآها، بطبيعة الحال ولكنها أثبتت أنها بركة ونعمة عليه، فكانت ممرضة صابرة متجلدة لزوج مكفوف عنيف، وأما لبناته الثلاث، ولكنها قضت نحبا (1658)، أثناء وضع طفل لم يعمر. وكانت تلك سنة عصيبة على ملتون، حيث رحل عن الوجود وكرومول أيضاً، فكان لزاماً على السكرتير اللاتيني أن يحافظ على منصبه، قدر طاقته، في غمرة فوضى الأحزاب التي انحدرت بريتشارد كرومول إلى مجرد رجل عاجز تافه محب للخير. وعلى الرغم من أن ملتون لا بد كان يدرك أن إنجلترا سائرة في طريق استعادة ملكية آل ستيوارت، فإنه أصدر في أكتوبر 1658 طبعة جديدة من "دفاع الشعب الإنجليزي عن نفسه" في أسلوب يغري بالاستشهاد. وفي مقدمة رائعة وصف ملتون "الدفاع الأول" بأنه "أثر... تتعذر إزالته بسهولة"، وزعم أنه من وحي السماء ووضعه في المرتبة التالية لمأثر كرومول، الذي أنقذ حرية إنجلترا(96).

وقاوم في شجاعة عمياء حركة إعادة شارل الثاني، وعندما وصل جيش مونك إلى لندن، وتردد البرلمان بين الجمهورية والملكية، نشر ملتون في فبراير 1660 رسالة موجهة إلى البرلمان، تقع في 18 صحيفة، "الطريق الممهّد السهل لإقامة جمهورية حرة، ومزاياه المرتقبة بالمقارنة إلى مساوئ ومخاطر

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> سكرتير اللغة اللاتينية

إعادة الملكية في هذه الأمة". ومهرها في جرة وبسالة باسمه (بقلم جون ملتون) وفيها ناشد البرلمان: ألا يلوث ويهزأ بدم آلاف الإنجليز المخلصين اليواصل الذين خلفوا لنا هذه الحرية، التي اشترت بحياتنا نحن. وماذا عسى أن يقول جيراننا عنا وعن اسم إنجلترا عامة، إلا أنهم على أحسن الفروض، سيسخرون منا، قدر السخرية بهذا الرجل الغبي، الذي أورد (مخلصنا) ذكره، والذي بدأ يبني صرحاً وعجز عن إتمام البناء؟ أين صرح الجمهورية الشامخ الذي تباهي الإنجليز بأنهم سيقومونه ليتقلص ظل الملوك، وتصبح إنجلترا روما أخرى في الغرب؟... ما هذا الجنون الذي اعتري هؤلاء الذي يستطيعون في شرف وكرامة أن يدبروا شئوننا بأنفسهم، حتى يحولوا كل هذه السلطات إلى شخص رجل واحد! يا للجبين والنذالة أن نحسب أن مثل هذا الفرد هو مناط حياتنا، ونعلق عليه كل سعادتنا وأمتنا وسلامتنا وخيرنا، وبدونه لا يكون لنا وجود، أو نكون مجرد أفراد كسالى بلاء أو أطفال! إنه ليجدر بنا أن نعتمد على الله وحده، وعلى أنفسنا نحن، وعلى فضائلنا العملية وعلما الجاد(97).

وتنبأ ملتون بأن كل (الاعتداءات القديمة) التي ارتكبتها الملكية ضد حرية الشعب سوف تعود وشيكاً بعودة الملكية. واقترح أن يحل محل البرلمان (مجلس عام) يضم أقدار الرجال الذين ينتخبهم الشعب للعمل حتى الموت، ولا يخضعون للعزل إلا عند الإدانة بإحدى الجرائم، ويجدد المجلس بانتخابات دورية. وعلى هذا المجلس، على أية حال أن يوفر أكبر قدر ممكن من حرية الكلام والعبادة والحكم المحلي. واختتم ملتون رسالته بقوله: "أرجو أن أكون تحدثت إلى حد الإقناع إلى مجموعة كبيرة من الرجال الواعين المخلصين، أو إلى بعض من قد يقيمهم الله من هذه المقاعد الحجرية ليصبحوا "أبناء الحرية"، ويوقفهم ويجمعهم على قرارات حكيمة تقيم ما أعوج من أمورنا، وتصلح ما أفسد من أحوالنا، وتعالج هذه الخلل العام

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> سكرتير اللغة اللاتينية

المتقشي في الجمهور الذي أسىء استغلاله وأعوزه من يوجهه ويرشده(98)".

وتجاهل البرلمان هذا الائتماس الذي ينطوي على القضاء عليه. وظهرت النشرات المطبوعة التي تهاجم ملتون، وحذت إحداها شتقه وأصدر مجلس الدولة، وهو آنئذ ملكي النزعة، أمراً بالقبض على طابع رسالة ملتون، وفصله من منصبه (السكرتير اللاتيني للمجلس) فكان جوابه على ذلك إنه أصدر طبعة ثانية مزيدة من الرسالة "الطريق الممهد السهل" (إبريل 1660) وحذر البرلمان من أن الوعود التي يقطعها الآن شارل من اليسير أن تنقض بمجرد تثبيت دعائم السلطة الملكية الجديدة. وسلم بأن غالبية الشعب ترغب في عودة شارل الثاني، ولكنه دفع بأن الأغلبية ليس لها

الحق في استعباد الأقلية أو التحكم فيها. إنه لمن الأعدل... إذا وصل الأمر إلى حد الفرض بالقوة، أن ترغم الأقلية مجموعة أكبر مجموعة أكبر منها على أن تعيد إليها حريتها. من أن تفرض الأغلبية على أقلية من الناس من بني وطنهم أن يكونوا عبيداً أرقاء لهم، بشكل يسيء إليهم أبلغ إساءة (99). وتكاثرت الهجمات والحملات على ملتون وناشدت إحداهما الملك شارل الثاني، وكان آنذاك في بريداً أن يتذكر جيداً الإهانات التي وجهها ملتون من قبل في رسالة "محطم الصور" وغيرها، إلى والده شارل الأول. واقترحت أن يضم ملتون إلى قائمة قتلة الملك الفعليين، لأنه يستحق الإعدام (100).

وقبل أن تصل هذه النشرة إلى شارل الثاني، كان قد أبحر هو بالفعل إلى إنجلترا، وفي 7 مايو، ودع ملتون أولاده وأوى إلى مخبأ مع أحد الأصدقاء. ولكن كشف أمره وأودع السجن، وبات مصيره لمدة ثلاثة أشهر مرهوناً بما يقرره البرلمان الملكي ورأى كثير من الأعضاء أنه إذا كان ثمة من يستحق الإعدام، فهو ملتون. وكان هذا متوقفاً. ولكن مارفل دافينانت وبعض الأعضاء الآخرين توصلوا إلى البرلمان أن يرحم شيخوخته وبصره المكفوف فاكنتفى البرلمان بالأمر بإحراق بعض كتب بعينها من مؤلفاته، حيثما وجدت. وأطلق سراحه في 15 ديسمبر، فاتخذ داراً

صفحة رقم : 10813

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> سكرتير اللغة اللاتينية

في هلبورن، انتقل إليها هو وأولاده، حيث انصرف بعد أحد عشر عاماً صاحباً عصبياً مضطرباً، عن النشر، إلى الفترة الثانية من نظم الشعر، وهي فترة بالغة الروعة والعظمة.

صفحة رقم : 10814

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> الشاعر العجوز

7- الشاعر العجوز

1660 - 1667

وجد ملتون بعض السلوى والعزاء في العزف على الأرغن وفي الغناء، ويقول أوبري "كان صوته رخيماً رقيقاً(101)" وفي 1661 انتقل إلى دار أخرى، وفي 1664 استقر به المقام نهائياً في بيت في Artillery Wolk، فيه حديقة صغيرة استطاع أن يتمشى فيها دون أن يقوده أحد سوى يديه وقدميه. وكثيراً ما أقدم إليه أبناء أخته لزيارته ومعاونته، وقد نسوا ما كمال لهم من ضرب في سابق الأيام، كما جاء إليه الأصدقاء ليقرئوا له، أو يكتبوا ما يمليه عليهم. وتولى بناته الثلاث خدمته بصبر نافذ وجهد جهيد. وكانت كبراهن-آن-عرجاء شوهاً لكنا. وكانت ديبيورا تتولى له الكتابة، وتعلمت هي وأختها ماري قراءة اللاتينية واليونانية والعبرية والفرنسية والإيطالية والأسبانية، ولو أنهما لم تكونا تفهمان ما تقرأن(102). والحق أن أياً منهما لم تذهب قط إلى مدرسة، ولكنهن تلقين بعض الدروس الخاصة. ولكن لم يحظين من التعاليم إلا بأقل نصيب، على أحسن الفروض وباع ملتون معظم مكتبته قبل وفاته، لأن بناته لم تعنين بالكتب إلا قليلاً. وشكا من أنهن يعين الكتب خفية، وأنهن أهملن شأنه في وقت الحاجة والشدة، وأنهن تأمرن مع الخدم على مغالطته وسلبه عند شراء حاجيات المنزل(102)، ولم تشعر البنات بالسعادة في هذا البيت الكئيب، مع والد قاس كثير المطالب سريع الغضب. ولما سمعت ابنته ماري بأنه يرتب لزواج جديد قالت: "ليس ثمة أبناء تستحق أن تسمع عن زفافه، ولكن النبا الجدير بالاستماع هو نبا وفاته"(104). واتخذ ملتون في 1663، وهو آنذاك في الخامسة والخمسين، زوجة ثالثة، هي اليزابث منشول Munshull، وكانت في الرابعة والعشرين من العمر. وتولت خدمته

صفحة رقم : 10815

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> الشاعر العجوز

بإخلاص وأمانة حتى آخر أيام حياته. وبعد سبع سنوات مع زوجة الأب التي وصفها أوبري بأنها "وديدة مسالمة مرحة مقبولة"(105) هجر البنات الثلاث منزل والدهن، ليتعلمن، على نفقة ملتون بعض الحرف. وكانت عودة الملك قد كلفته كثيراً، وكادت أن تكلفه حياته، ولكنها مهدت الطريق لنظم "الفردوس المفقود". فلو لاها ربما أفنى ملتون نفسه في التراشق بالنشر في المعركة، لأن "المقاتل" كان في مثل قوة "الشاعر" في شخصه. وبرغم هذا كله، لم يودع ملتون قط الأمل في أن يكتب لإنجلترا شيئاً تتغنى به لقرون قادمة. وفي 1640 أعد بياناً بموضوعات يمكن أن تكون ملحمة أو دراما، كان من بينها موضوع خطيئة آدم (خروجه من الجنة)، وأساطير الملك آرثر (ملك بريطانيا الذي يفترض أنه عاش في القرن السادس ق.م.)، وبطل المائدة المستديرة) وتأرجح بين اللاتينية والإنجليزية، بأبتهما يكتب، وحتى حين قرره على "الفردوس المفقود"، موضوعاً له، فكر في أن يكتبه على شكل مأساة إغريقية، أو رواية دينية، على غرار روايات العصور الوسطى، وفي أوقات مختلفة نظم بعض أبيات أو مقطوعات أدخلت فيما بعد في القصيدة. ولم يتسن له إلا بعد وفاة كرومول، أن يجد فسحة من الوقت يوماً، ليكتب الملحمة، وفي 1658 فقد بصره تماماً.

في الأيام السود، وألسن السوء، ولو أنها ولت، فقد لفنا الظلام واكتفتنا الأخطار من كل جانب(106). وتواردت على ذهنه الأبيات، حين كان يرقد عاجزاً أرقاً، ويكاد ينفجر بها. فينادي على من يكتب له قائلاً: "إنه يحتاج إلى من يحلبه(107)". وكانت تنتابه حمى الشعر، فيملي أربعين بيتاً "في نفس واحد"، ثم يجد في تصحيحها عندما تعاد تلاوتها عليه. ويحتمل ألا تكون ثمة قصيدة نظمت بمثل هذا الجد والكد والشجاعة والجرأة. وداخل ملتون شعور قوي بأنه يمثل لإنجلترا هوميروس وأشعيا معاً، حيث اعتقد بأن الشاعر

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> الشاعر العجوز

صوت الله، وأنه نبي أوحى إليه أن يعلم الناس.

وفي 1665، حين انتشر الطاعون بلندن، اتخذ التدابير صديق سجين من الكويكرز، هو توماس الود، لنقل ملتون ليقوم في "كوخه المكون من عشة حجرات في" كالفونت سانت شيل في بنكجهام مشير". وهناك في هذه "المقصورة الجميلة" أكمل الشاعر "الفردوس المفقود" ولكن من ذا الذي يقدم على نشرها؟ لقد كانت لندن في اضطراب بالغ في 1665-1666 بسبب الحريق الذي جاء في أعقاب الطاعون، وإذا كان ثمة شيء من الفرح والمرح باق، فهو عودة الملكية في صخبها وعربتها. وفي حالة نفسية ليس معها مجال لملمحة من 10558 بيتاً الخطيئة الأولى. لقد حصل ملتون من قبل على ألف من الجنيهاً عن رسالته "دفاع الشعب الإنجليزي" أما الآن، في 27 إبريل 1667، فقد باع كل حقوقه في "الفردوس المفقود" إلى الناشر صمويل سيمونز لقاء خمسة جنيهاً نقداً، مع الاتفاق على دفعات أخرى قيمة كل منها خمسة جنيهاً، يتوقف تسديدها على ما يباع من الكتاب، فكان كل ما حصل عليه هو 18 جنيهاً (108). ونشرت القصيدة في أغسطس 1667. وبيع منها العاميين الأولين 1300 نسخة، وفي الأحد عشر عاماً الأولى بيع 3000 نسخة. وربما لا يقبل على القراءة القصيدة بأكملها مثل هذا العدد من القراء في أية سنة من أيامنا هذه، فليس لدينا فراغ كبير، حتى لقد اخترعنا كثيراً من الأدوات التي توفر الجهد. وتشارك "الفردوس المفقود" مع "انباذة فرجيل"، فيما أصاب كليهما من نكسة وتعويق، لظهورهما بعد الياذة هوميروس، فإن مشاهد المعركة والمحاربين الخارقين للطبيعة يفقدون قوتهم وسحرهم، ولكنهم تقليداً ومحاكاة. ولا ريب في أن هوميروس قلد نماذج قديمة، ولكننا نسيناها ولم نعد نذكرها، وذهب جونسون إلى أن "الفردوس المفقود"، بطبيعة موضوعها، تمتاز على ما عداها، بأنها ممتعة مشوقة للجميع دائماً "ولكنه

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> الشاعر العجوز

اعترف بأن "أحد لم تساوره الرغبة في أن تكون أطل مما هي (109). أن موضوع "الخطيئة الأولى للإنسان. وثمار الشجرة المحرمة التي جلب مذاقها القاتل الموت والفناء على العالم، وجلب علينا كل الكروب والويلات"، كان موضوعاً مناسباً إلى حد كبير، لأيام شباب ملتون، حين كان يتلقى سفر التكوين على أنه تاريخ، وحين كانت الجنة والنار، والملائكة والشياطين، هي نسيج التفكير اليومي. أما اليوم فإن موضوع القصيدة أكبر عائق في سبيلها، إنها قصة خرافية تزوي للشبان في أحد عشر قسماً، وأن الاستمرار في مشاهدة مثل هذا العرض الطويل اللاهوت من البداية حتى النهاية جاف قاس عتيق، ليتطلب اليوم جهداً شاقاً متصلاً. وما كان الهراء ليس عليه يوماً مثل السمو والرفعة قط. إن عظمة المشهد وجلاله، ومعانقة الجنة والنار والأرض، والانسحاب الفخم المهيب للشعر المرسل، ومعالجة الموضوع المعقد ببراعة فائقة، والوصف الرقيق الجديد للطبيعة، والمحاولة الموفقة لإسباغ الواقعية والشخصية على آدم وحواء، وكثرة القطع الشعرية البالغة الروعة والقوة، كل أولئك بعض الأسباب التي جعلت من "الفردوس المفقود" أعظم قصيدة في اللغة الإنجليزية.

وتبدأ القصة في جهنم حيث الشيطان على هيئة طائر "ضخم الجسم"، ذي جناحين مبسوطين، ينصح ملائكته الهابطين بألا يبأسوا:
لم يضع كل شيء، فإن الإرادة التي لا تقهر، وتدبر للأخذ بالثأر والكرهية التي لا يخبوا أوارها أبداً، والشجاعة التي لا تخضع ولا تستسلم، أما أن تنتهي متوسلة للرحمة، على ركبتين ضارعتين، وتعظم من سلطانه... فهذا أمر دنيء حقاً هذا خزي وعار أنكى من هذا السقوط ويبقى العقل والروح ولا سبيل إلى قهرهما (110)...
وكأنني بهذه الأبيات تردد صدى كرومول وهو يتحدى شارل الأول، وصدى ملتون وهو يتحدى شارل الثاني؛ وثمة عدة قطع في وصف الشيطان تذكرنا بملتون:

صفحة رقم : 10818

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> الشاعر العجوز

عقل لا يغير منه زمان أو مكان، فالعقل راسخ في مكانه، يستطيع في نفسه أن يجعل من الجنة جحيماً، ومن الجحيم جنة (111).
وفي الأجزاء القديمة من القصيدة نجد أن فصاحة ملتون أغرته بأن يرسم لإبليس صورة تكاد تتسم بالود والعطف، وكأنه زعيم ثورة ضد السلطة الرسمية الاستبدادية. وتخلص الشاعر من أن يجعل الشيطان بطل الملحمة بتصويره، فيما بعد، بأنه "أبو الأكاذيب" الذي "يجثم مثل ضفدع الطين" أو كالأفعى التي تنزلق ملتوية فوق الوحل (112). ولكن في هذا القسم من الملحمة نفسه ينهض الشيطان مدافعاً عن المعرفة:
المعرفة محرمة محظورة؟ لماذا ينفس عليهما ربهما ذلك؟ هل تكون المعرفة إثمًا؟ أو تكون فناء؟ هل يعيشان (آدم وحواء) على الجهل وحده؟ أو أن حالتها السعيدة هي دليل طاعتها وإيمانها؟ سأتأثر في عقليهما مزيداً من الرغبة في المعرفة (113)...
ومن ثم يحاور حواء وكأنه كنيسة عقلانية تحمل على كنيسة جامدة تعيش في ظلام الجهل، تقف عقبه كأداة في طريق انتشار المعرفة:
لماذا إذن كان هذا التحريم؟ لماذا كان، إلا ليرهب عباده ويبقيهم على حالة من الانحطاط والجهل، إنه يعلم أنه في اليوم الذي تاكلان من ثلث الشجرة، فإن أعينكما التي تبدو الآن صافية ولكنها كليلية، سوف تنفتح وتصفو تمام الانفتاح والصفاء، ومن ثم تكونان مثل الآلهة (114).
ويأمر روفائيل، وهو أحد الملائكة، آدم، بأن يكبت من حبه لاستطاع الكون، فليس من الحكمة أن يتطلع الإنسان إلى معرفة ما وراء نطاقه الفاني (115) فالإيمان أعقل من المعرفة.
وكان لنا أن نتوقع ألا يفسر ملتون "الخطيئة الأولى" بأنها رغبة في المعرفة، بل أنها علاقة جنسية. أنه على النقيض من ذلك، ينشد تسيحة غير بيوريتانية إطلاقاً، من أجل مشروعية اللذة الجنسية، في حدود الزواج، ويصور آدم وحواء منغمسين في مثل هذه القيم المادية، مع

صفحة رقم : 10819

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> الشاعر العجوز

بقائهما على "حالة البراءة" (116)، ولكن بعد "الخطيئة" أي أكل الفاكهة المحرمة من شجرة المعرفة بدأ يستشعران الخزي والعار في الاتصال الجنسي (117). وهنا ينظر آدم إلى حواء على أنها مصدر كل الشر، "ضلع أعوج بالطبيعة" ويرثي لأن الله خلق المرأة: لماذا خلق الله في النهاية هذه البدعة على الأرض، هذه العلة الجميلة في الطبيعة، ولم يملأ العالم على الفور، برجال مثل الملائكة، دون أثاث، أو يجد طريقة أخرى لتوالد بني البشر (118)؟. ومن ثم فإن الإنسان الأول، في تاريخ الزواج في الكتاب المقدس، سرعان ما اصطنع ذريعة ليطلق الرجل زوجته في سهولة ويسر، وهنا نجد ملتون ينسي آدم، ويكرر شعراً ما سبق أن ذكره نثراً، عن خضوع المرأة خضوعاً حقيقياً تماماً للرجل (119). وسيعود إلى هذه اللازمة في قصيدة "Samson Agoniates (120)". فهي حلمه الأثير الحبيب إلى نفسه. وفي رسالته السرية "العقيدة المسيحية" دافع عن إعادة "تعدد الزوجات"، ألم يجره العهد القديم. ألم يترك العهد الجديد هذا القانون الحكيم الشجاع دون إلغاء أو تعطيل؟ (121). ومهما فسرت "مخالفة الإنسان الأول لأمر ربه" (الخطيئة الأولى)، فقد ثبت أنها موضوع أصغر من أن يملأ اثني عشر قصماً، لأن الملحمة تتطلب سلسلة من الأحداث والأعمال، ولكن حيث أن ثورة الملائكة انتهت حين بدأت القصة. فإن المسرحية لا تدخل إلى القصيدة إلا عن طريق الذكريات أو العودة إلى الماضي، وهو صدى أخذ في الذبول والزوال. ومشاهد المعركة موصوفة وصفاً جيداً، بما في ذلك التصارع المناسب بالسلاح، وشج الرؤوس وتقطيع الأوصال، ولكن من العسير أن تشعر بالألم أو بنشوة الابتهاج لهذه الضربات الخيالية. وعلى غرار الكتاب المسرحيين الفرنسيين يطلق ملتون لنفسه العنان للخطابة، فالجميع ابتداءً من "الله" إلى حواء يخطبون، ولم يجد الشيطان في سمير جهنم ما يحول بينه وبين البلاغة وأنه

صفحة رقم : 10820

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> الشاعر العجوز

لمن المزعج حقاً أن نعلم أنه حتى في الجحيم سنكون مضطرين إلى الاستماع إلى محاضرات "والرب" في هذه القصيدة ليس هو التآلق الذي يجلب عن الوصف الذي تحس به في "جنة دانتي" فهو في القصيدة فيلسوف سكولاس (فيلسوف نصراني من العصور الوسطى)، يدلي بأسباب مطولة غير مقنعة، لأنه وهو القادر على كل شيء، يجيز للشيطان أن يوجد، وإن يغوي الإنسان، متنبئاً، طوال الوقت، بأن هذا الإنسان سيبدل ويخضع، ويجلب على البشرية بأسرها قروناً من الخطيئة والشقاء والتعاسة. ويحاج بأنه بدون الإثم لا تكون الفضيلة، وبدون التجربة لا توجد الحكمة والتعقل، ويرى أنه من الأفضل أن يواجه الإنسان الإغراء ويقاومه، من عدم التعرض للإغراء إطلاقاً، دون أن يتوقع أبداً أن الصلوات سوف تتوسل إلى الله ألا يقود الإنسان إلى الغواية والإغراء. ومن ذا الذي يطبق التعاطف مع تمرد الشيطان على هذا السادي الذي لا يصدق؟ (السادية: الابتهاج بالقسوة المفرطة). وهل كان ملتون يؤمن حقاً بهذا الهول الجبري المقدر؟. من الواضح أنه كان كذلك، لأنه بسط الكلام فيه، لا في "الفرديوس المفقود" فحسب، بل في رسالته السرية "العقيدة المسيحية" كذلك (122). أي أن الله، قبل خلق الإنسان بزمان طويل، قدر أي الأرواح يكتب لها الخلاص، وأياها قدر عليها العذاب المقيم. وانطوت هذه الرسالة، على أية حال، على شيء من الهرطقة. ولم ينشرها ملتون قط، ولم يكشف أمرها إلا في 1823، ولم تصل إلى المطبعة إلا في 1825.

إن هذه الرسالة وثيقة جدية بالذكر، فهي تبدأ في إطار من التقوى، ودون جدل أو لجاجة، بافتراض أن كل كلمة في الكتاب المقدس هي وحي من عند الله. وسلم ملتون بأن نصوص الكتاب المقدس قد طرأ عليها "التزييف والتشويه والتبديل" ولكنها حتى في صيغتها الراهنة، من صنع

صفحة رقم : 10821

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> الشاعر العجوز

الله. وهو لا يجيز غير التفسير الحرفي الأمين. فإذا جاءت الأسفار بأن "الرب"، استراح، أو خاف، أو خاف، أو ندم، أو كان غاضباً، أو حزينا، فإنه ينبغي أن تؤخذ هذه الألفاظ بمعناها الظاهري، ألا تخفف على أنها مجازات، بل كذلك أجزاء الجسم والصفات الجسدية التي تنسب إلى "الله" يجب قبولها على أنها حقيقية من الوجهة المادية (123). ولكن "الله" بالإضافة إلى هذا الكشف الظاهري الذي جاءت به الأسفار المقدسة والذي يكشف به عن كنهه فإنه، زدنا بوحى داخلي، هو الروح القدس الذي يتحدث في داخل قلوبنا. وهذا الوحي الداخلي "الملك الخاص لكل مؤمن، أسمى بكثير... ومرشد أصدق، من الأسفار المقدسة (124). ومهما يكن من أمر، فإن ملتون يقتبس من الكتاب المقدس، ما يؤيد ما يسوق من حجج، على أنه البرهان الحاسم الدماغ.

وعلى أساس من الأسفار المقدسة، ينبذ ملتون نظرية الثالوث الأقدس التقليدية، ويؤثر عليها هرطقة أريوس (الذي يقول بأن المسيح ليس من مادة الله، بل هو خير خليفة فقط)، فالمسيح بكل معنى الكلمة، ابن الله، ولكن الأب ولده في زمن ما، ومن ثم فهو غير معاصر للأب وليس متساويا معه أبداً. فالمسيح هو الوسيط الذي خلقه الله على أنه "اللوجوس أي الكلمة" الذي سيخلق منها كل من عاده. ولا يسلم ملتون "بالخلق من العدم"، فعالم المادة، مثل عالم الروح؛ انبثاق أو فيض سرمدى من المادة الإلهية. وحتى الروح نفسها، فهي مادة رقيقة جداً أثيرية، ولا يجوز تمييزها تمييزاً حاداً عن المادة. وفي النهاية، المادة والروح، والجسم والنفس في الإنسان، شيء واحد (125). وثمة شبه كبير يستحق الملاحظة بين هذه الآراء، وآراء هوبز (1588-1689) وسبينوزا (1632-1677)، وقد نرى أنهما فارقا الحياة في نفس العقد من السنين الذي مات فيه ملتون (1608-1674). وربما أطلع ملتون على مؤلفات هوبز التي لها دوي ملحوظ في بلاط شارل الثاني.

صفحة رقم : 10822

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> الشاعر العجوز

وظلت عقيدة ملتون خليطاً غريباً من التوحيد والمادية، ومن مذهب حرية الإرادة عند جاكوب أرمينيوس (لاهوتي بروتستانتي هولندي 1506-1609)، ومن مذهب الجبرية أو القضاء والقدر عند كلفن. ويبدو في كتاباته أنه كان رجلاً متمعماً في أمور الدين. ومع ذلك لم يذهب قط إلى الكنيسة حتى قبل فقد بصره، ولم يقم الشعائر الدينية في بيته (126).

وكتب دكتور جونسون: "في توزيع ساعاته لم يخصص وقتاً للصلاة، وحده، أو مع أهل بيته. وحذف الصلوات العامة، لقد حذف الصلوات جميعاً (127)". وازدرى رجال الدين، ونعني على كرومول احتفاظه بعدد من رجال الدين تدفع الدولة رواتبهم، على أنه لون من "عبادة الأوثان"، يؤذي الدولة والكنيسة معاً (128). وفي أحد بياناته الأخيرة "بحث في العقيدة الحقة، والهرطقة والانشقاق عن الكنيسة والتسامح، وأمثلة الطرق للحيلولة دون نمو البابوية" (1633) عارض بطريق مباشر الإعلان الثاني الذي أصدره شارل الثاني عن التسامح (1672)، محذراً إنجلترا من التسامح مع الكاثوليك وأنصار التوحيد، أو أية شعبة أخرى لا تعترف بالكتاب لمقدس أساساً وحيداً لمذهبيها. أن هذا الرجل الذي تفوح منه رائحة الهرطقة، عرف عنه مقاومة رجال الدين وتدخلهم في الشؤون العامة والخروج على الكنيسة، هو نفس الرجل الذي أخرج للعقيدة المسيحية أكرم شرح حديث لها.

صفحة رقم : 10823

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> السنوات الأخيرة

8- السنوات الأخيرة

1667 - 1674

احتفظ ملتون مع دخوله في العقد السابع من العمر، فيما خلا فقد البصر، بصحبة جسمه واعتداده بنفسه، وهما اللذان دعماه وسانداه في كل الصراعات الدينية والسياسية التي خاضها. ويصفه أوبري بأنه "نحيل...متوسط القامة"...فهو جسم جميل متناسب الأجزاء، وبشرته فوق المتوسطة...صحيح الجسم، لا يشكو علة، فلما يتناول الدواء، كل ما في الأمر أن النقرس انتابه في أخريات أيامه (129)". وكان شعره الذي فرقته

صفحة رقم : 10824

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> السنوات الأخيرة

في الوسط يتدلى على كتفيه في حليقات أو عقصات. ولم تنبئ عيناه عن فقد بصره. وظلت مشيته ثابتة منتصبه. وكان إذا غادر بيته بدا على زيه شدة الحساسية والكلف بملابسه، وتمنطق بسيف، لأنه كان فخوراً ببراعته في المباراة واللعب بالسيف(130). وأضفت عليه الثقة الزائدة عن الحد وقاراً، وعزوفاً عن المرح. ولكنه كان مع ذلك حلو الحديث إلا إذا لقي معارضة. ولم يكن بيوريتانياً بكل معنى الكلمة: كان عنده شعور البيوريتانيين بالإثم، والجحيم والإصطفاء والأسفار المقدسة التي لا تخطئ، ولكنه استنساغ الجمال واستمتع بالموسيقى، وألف رواية، واحتاج إلى عدة زوجات، وتخلفت آثاره من حيوية عصر اليزابث واطر زانته الخالية من المرح. وكان أنانياً، أو أنه كشف عن أنانيته الطبيعية إلى حد الإفراط غير المؤلف. إنه كما قال أنطوني رود: "لم يكن يجهد مواهبه(131)", وكما قال جونسن "قل من الرجال من كتب كثيراً وامتدح قليلاً من الناس، مثله(132)", وربما تطلبت العبقرية أنانية يدعمها اعتداد داخلي بالنفس، حتى تقف في ثبات في وجه الجمهور. إن أثقل ما يمكن قبوله في ملتون هو طاقة الكراهية والبغضاء عنده، وإساءته المفرطة لمن اختلفوا عنه وذهب إلى أنه ينبغي علينا أن نصلي من أجل أعدائنا، ولكن ينبغي أيضاً أن نستنزل اللعنات جهاراً على أعداء الله وأعداء الكنيسة، وكذلك على الأخوان المضللين الزائفين، أو من يقترفون الإثم الفظيعة ضد الله، أو حتى ضد أنفسهم(133)". أما الوجه الآخر لهذه العاطفة المشبوبة، فهو شجاعة النبي في استنكار زمانه، فإنه بدلاً من أن يكتم فاه ما اقترن بعودة الملكية من شغف وصخب، هاجم في عنف، غراميات البلاط "في عهد شارل الثاني"، والشهوات والاعتصاب "في القصور، و"البسمات المشتراة على شفاه بنات الهوى" و"المسرحيات الخليعة أو حفلات الرقص في منتصف الليل(134)".

وكأنما كان ملتون يقذف بأخر سهم في جعبته تحدياً للعصر المظلم،

صفحة رقم : 10825

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> السنوات الأخيرة

حين نشر في يوم واحد (20 سبتمبر 1670) في غير ما شفقة ولا رحمة، اثنين من أعماله: "الفردوس المستعاد" و "شمشون الجبار". في 1665 بعد أن انتهى توماس الوود من قراءة ملحمة ملتون الأولى تحداه قائلاً: "لقد تحدثت هنا كثيراً عن الفردوس المفقود، فماذا عساك تقول الآن عن الفردوس الذي وجد؟(135)", وطرقت الفكرة ذهنه بشدة، ولكنه تسائل: كيف يعرض استعادة الفردوس في أية مرحلة في التاريخ، فإن موت المسيح نفسه لم يظهر الإنسان من الجريمة والشهوة والحرب ولكنه فكر أنه رأى في مقاومة المسيح لإغراء الشيطان، وعداً بأن جانب الله في الإنسان لا يد يوماً أن يقهر جانب الشيطان في الإنسان نفسه، وبهينه للحياة تحت حكم المسيح والعدالة على الأرض. ومن ثم فإن ملتون في الأقسام الأربعة من "الفردوس المسترد"، لم يركز في حياة المسيح على الصلب، بل على "تجربة الإغراء في البرية"، حيث يقدم الشيطان للمسيح "ولداناً... أجمل من سقاء الآلهة"، ثم "الحدود والعدارى الفاتنات، وسيدات من حدائق التفاح الذهبي" ثم يعرض عليه المال والثراء ولكن أولئك دون جدوى. ثم يريه الشيطان روما الإمبراطورية تحت حكم تيبيريوس المنهوك المكروه الذي لم يعقب، فهلا يريد المسيح أن يقود ثورة يعون من الشيطان، وينصب نفسه إمبراطوراً على العالم؟ ولما لم يرق هذا في عيني يسوع، ولم يستهو قلبه فإن الشيطان، أراه أثينا بلد أرسطو وأفلاطون، فهلا رغب في اللحاق بهما ليكون فيلسوفاً؟ ثم يدخل المسيح والشيطان في حوار غريب حول مزايا الأدب اليوناني والعبري. فينحاز المسيح إلى جانب أنبياء وشعراء بني إسرائيل على أنهم أسمى بكثير من اليونانيين:

أخذت اليونان عنا هذه الفنون، ولم تحسن تقليدها(137).

وبعد قسمين من الملحمة استغرقهما الحوار، أقر الشيطان بهزيمته، وبسط جناحيه وطار، على حين تتجمع فرقة من الملائكة حول المسيح

صفحة رقم : 10826

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> السنوات الأخيرة

المنتصر، وتتشد:

الآن انتقلت لأدم المغدور به، وبالتغلب على الإغراء استعدت الفردوس المفقود(138).

ولم يرو ملتون لنا القصة بمثل الروعة الفياضة الرنانة التي تجلت في الملحمة الأولى الكبرى، ولكن بمثل براعته في الشعر، وميله إلى الحاجة، وهما أمران معهودان فيه، كما كشف في القصة حتى حادث صلب المسيح، وربما كان مرد ذلك إلى أنه لم يتفق مع القائلين بأن موت المسيح هو الذي فتح أبواب الجنة من جديد. فالفضيلة وضبط النفس وحدهما اللذان يجلبان السعادة. ولم يدرك ملتون قط لما رفضت إنجلترا أن تأخذ بماخذ الجد، إعادة كتابة الأناجيل على هذا الشكل المضحك، وذهب إلى القول بأن الملحمة الثانية ليست أقل من الملحمة الأولى، اللهم إلا من حيث مداها(139). وكان لا يطيق أن يسمع أن "الفردوس المفقود" تفضل "الفردوس المسترد"(140). وتألفت عبقرية ملتون لأخر مرة في "شمشون أجونست-الجبار". إنه بعد أن تحدى هوميروس وفرجيل ودانتي، بملحمته، نراه الآن يتحدى أخيلس وسوفوكليس برواية ارتضت كل القيود المأساة (التراجيديات) اليونانية. وهو في المقدمة يطلب إلى القارئ أن يلحظ أن المسرحية (الدراما) تخضع للوحدات التقليدية القديمة، وتتجنب "خطأ الشاعر في خلط المادة الهزلية (الكوميديا) بأحزان المأساة ووقارها ورهبتها، أو في إدخال شخوص تافهين مبتذلين. وهنا نجد ملتون يولي ظهره لعصر اليزابث، ويشق طريقه إلى اليونان ولا يبعد كثيراً عن النماذج اليونانية. إن شمشون الذي فارقه قوته بعد أن حلقت دليلاً سبع خصلات من شعر رأسه، وقلع من أوتقوه من الفلسطينيين عينيه، نقول أن شمشون هذا لا يحكي فقط، أوديب المكفوف في كولونس، بل أنه يحكي ملتون نفسه يعيش في عالم بغيضاً يرى منه أثراً:

صفحة رقم : 10827

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> السنوات الأخيرة

"ضربيرين أعداء، أوأه هذا شيء أسوأ من الأغلل أو الزنزانه أو التسول، أو العجز بفعل الهرم، فالضياء، وهو فاتحة صنع الله، منطفئ أمامي، ولا أملك من مياجه شيئاً. ربما كان يهدي من آلامي وأحزاني، أه، أنه الظلام والقتام والحكمة وسط وهج النور عند الظهيرة، ينشر كسوفاً كليلاً لا خلاص منه، دون أي أمل في بزوغ النهار(141)".
والحق أن الرواية كلها يمكن تفسيرها بأنها قصة رمزية متناغمة متماسكة: فملتون هو شمشون يناضل ويتعذب في محنته، وبنو إسرائيل المقهورون هم البيوريتانيون، أي الشعب المختار حطمته عودة الملكية، والفلسطينيون هو الملكيون الوثنيون المنتصرون، وهدم هيكلهم يكاد يكون تنبؤاً "بالثورة الجلية" التي أطاحت بال ستيوارت "الوثنيين" في 1788. أما دليلة فهي المرأة الخائنة ماري باول، Powell. وتكرر فرقة الموسيقى (الكورس) حجج ملتون وناقشاته من أجل الطلاق(143). ويكاد ملتون يكون قد تخلص من غضبه وحفده بترديد تلك الحجج والناقشات على لسان شمشون الذي يتقبل نهايته التي لا بد آتية:
"سوف تمضي سلالة المجد، أما سلالة الخزي والعار التي ستبقى فسألحق بها وشيكاً(143)". وفي يولييه 1674 أحس ملتون بأنه يضعف وتنحط قواه، ولأسباب لا نعلمها أهمل تدوين وصيته. وبدلاً من ذلك وجه إلى أخيه كريستوفر وصية "شفوية" تكاد تكون غير مسطورة، نقلها كريستوفر على وجه الآتي:
"أخي، إنني أترك نصيبي من تركة مستر باول Powell والد زوجتي السابقة، لأولادي العاقين، ولكني لم أتسلم شيئاً منه ووصيتي ومقصودي ألا يستولوا على أي جزء آخر من ضيعتي أكثر من الجزء المذكور، ومما ضيعت من أجلم، غيره، لأنهم قصرروا أشد التقصير في القيام بواجباتهم نحوي، أما بقية ضيعتي فأني أضعتها تحت تصرف زوجتي الحبيبة اليزابث"(144) وأعاد ملتون هذه الوصية الشفوية على أسمع زوجته وأناس غيرها في أوقات مختلفة.

صفحة رقم : 10828

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> السنوات الأخيرة

وتشبت ملتون بالحياة في عزيمة قوية. ولكن آلام النقرس اشتدت عليه يوماً بعد يوم حتى شلت يدها وقدماه. وفي 8 نوفمبر 1674 وأنهكت الحمى قواه، وفارق الحياة في تلك الليلة. وعاش ملتون خمسا وستين سنة وسبعة أشهر. ودفن في مقبرة كنيسة الأبرشية، في سانت جيل كربلجيت، بجوار والده.
وكان القانون الإنجليزي يعترف بالوصايا الشفوية حتى 1677، ولكن المحاكم كانت تدقق فيها تدقيقاً شديداً. واعترض البنات على وصية أبيهم، ورفضها القاضي، وأعطى ثلثي المال للزوجة، والثلث الباقي، وقدره 300 جنيه للبنات. أما الحصة في أموال باول فلم يدفع منها شيء قط.
وأنا لنعلم عن ملتون أكثر كثيراً مما نعلم عن شكسبير، ولا بد من تدوين الكثير عنه حتى نخرج له صورة حقيقية أو نصفه وصفاً كاملاً. ولكننا لا نزال نجهل ما يكفي للحكم عليه-إذا كان هذا ممكناً بالنسبة لأي رجل. فنحن لا نعلم، بشكل كاف، لماذا أثار بناته استياءه إلى هذا الحد، ولا كيف عاملن زوجته الثالثة التي واسته وأراحتة في سني شيخوخته، ولكننا نستطيع فقط أن نبدي الأسف على أنه عجز عن كسب حبهم. ولسنا ندري بالتفصيل لماذا ارتضى أن يكون رقيباً على الصحافة أيام كرومول، بعد دفاعه المجيد عن "حرية المطبوعات". ويمكن أن نعزو كثيراً من تعسفه وبنائه في الخصومة إلى أحول العصر ومعاييرها. وقد نغتنق غروره وأنانيته باعتبارهما الركيزة التي تستند إليها العبقرية إذا لم تجد إلى القليل من ثناء الدنيا وإطرائها. ولسنا بحاجة إلى الاستماع به رجلاً. والإعجاب به شاعراً، وواحداً من أعظم الناشرين الإنجليز.

إن الذين يعتزمون قراءة الفردوس المفقود من البداية إلى النهاية، سيتولاهم الدهش إذ يجدون أنها غالباً ما تعلق في أفاق عالية من الخيال والبيان، حتى ليغتنقرون إن عاجلاً أو آجلاً، الصفحات المملة المحشوة بالنقاش أو العلوم أو

الجغرافيا، وكأنها بمثابة فترات لالتقاط الأنفاس من فرط الثأر والتحليق. وأنه لمن الحمق أن نتوقع أن تبقى هذه التحقيقات

صفحة رقم : 10829

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> ملتون -> السنوات الأخيرة

المفرطة في التناغم والعاطفة بصفة مستمرة، فقد يكون هذا في القصائد القصيرة. وهناك في نثر ملتون وبخاصة في "الأريوباجيتيكا"، قطع، لا يسمو عليها، في قوتها وروعها، وفكرها وموسيقاها، شيء من سلسلة الأدب الدنيوي في العالم.

وأضفى عليه معاصروه شهرة يشوبها الحسد والتذمر، وفي الفترة التي صعد فيها حزبه إلى منصة الحكم، كان مناضلاً ثائراً، ونسيت قصائده الغنائية الأولى. ونشر ملتون قصائده الكبرى في عهد عودة الملكية، ذلك العهد الذي احتقر شيعته، ورضي له البقاء على قيد الحياة، على كره منه. وعندما طلب لويس الرابع عشر من سفيره في لندن أن يعد له أحسن الكتاب الإنجليز الأحياء، كان جواب السفير: لا يوجد منهم من يستحق الذكر إلا ملتون الذي دافع من قبل، من سوء الحظ، عن قتل الملوك الذين كانوا آنذاك يشنقون أحياء أو أمواتاً. وحتى في هذا العصر المستهتر المشاغب، على أية حال، نجد أن أشهر شعرائه، جون دريدن، الذي قال عنه ملتون من قبل أنه "ناظم قواف جيد، وليس بشاعر(145)". نقول أن دريدن هذا، اعتبر "الفردوس المفقود" "من أعظم وأروع وأسمى ما أبدع هذا العصر وهذه الأمة من قصائد(146)". وبعد أن دالت دولة أسرة ستيوارت عاد إلى ملتون مجده ومكانته الرفيعة. وأطنب أديسون في مداحه في مجلة "سبكتاتور". ومنذ ذلك الوقت ازدادت صورة ملتون رفعة وقداسة في ضمير بريطانيا(147) حتى ناجاه وردزوث في 1802:

"أي ملتون، ما كنا أجدرك أن تكون حياً بيننا في هذه الساعة..، أن روحك مثل نجم رحل عنا بعيداً، لقد كان لك صوت يهدر كالبحر، صاف مثل السموات المكشوفة، صوت كريم حر".
أن نفسه كانت مثل أثر باق، قام بعيداً عن أقرب الناس إليه، ولكن عقله حلق مثل السموات العلى، فوق كل هموم البشر، وصوته يدوي في الاستماع مثل "البحر المتلاطم الأمواج" عند هوميروس.

صفحة رقم : 10830

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الملك السعيد

الفصل التاسع

دخل الملك شارل الثاني لندن في اليوم التاسع والعشرين من مايو 1660، أي بعد ثلاثين سنة كاملة من مولده، وسط مظاهر فرح وابتهاج، تفوق كل ما تعيه ذاكرة إنجلترا من مثلها، يواكبه عشرون ألفاً من حرس المدينة، ترفرف أعلامهم اعتزازاً وزهواً، ويلوحون بأسيافهم وسط شوارع انتشرت فيها الأزهار، تتدلى فيها البسط المزدانة بالرسوم والصور، تدوي فيها الطبول والنواقيس وهتافات الترحيب، وتكتظ بنصف سكان المدينة. وكتب إيفلين: "وقفت على الشاطئ، ورأيت هذا المشهد وحمدت الله(1)". وهو مشهد كشف عن مزاج إنجلترا، وخيبة البيوريتانيين وإخفاقهم، فقد اقتضى خلع شارل الأول ست سنوات من الحروب والاضطرابات، على حين لم ترق نقطة دم واحدة في سبيل عودة ابنه إلى العرش. وتقاطر الإنجليز على قصر هويت هول لتحية الملك، طوال هذا الصيف الذي غمرته البهجة. وقال أحد شهود العيان: "كان تلهف الرجال والنساء والأطفال على رؤية جلالته وتقبيل يده، شديد إلى حد أنه لم يكذب فسحة من الوقت لتناول الطعام لعدة أيام ... ولما كان الملك راغباً كل الرغبة في إرضاء نفوسهم، فإنه لم يرد عنه أحداً، ولم يعلق الأبواب من دون أي من الناس(2)" وصرح بأنه يريد أن يكون كل شعبه سعيداً مثله. ولو أن الملك أخذ أي مشكلة مأخذ الجد في أيام الظفر هذه، لجللت

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الملك السعيد

الشدائد والمصاعب التي ورثها شهر العسل بالسواد والقتام. فقد بلغ رصيد الخزانة 11 جنيهاً و28 شلناً و10 بنسات، وكانت الحكومة مدينة بمليون جنيه. ولم تسدد رواتب الجيش والبحرية لعدة سنوات، وكانت إنجلترا في حرب مع أسبانيا. وأخذت مينا دنكرك، بشكل غير مستقر، لقاء مائة ألف جنيه سنوياً، وطالب بالتعويض آلاف من الفرسان الذين حاربوا من قبل في صفوف شارل فسلبهم كرومول أموالهم. ثم أن عشرات الآلاف من الرجال الوطنيين قدموا ظلمات يلتسمون فيها إلحاقهم بالوظائف ذوات الرواتب الكبيرة والعمل اليسير، وأجاب شارل على كل هذا بالإيجاب، في غير اكتراث، تراوده الثقة في أن يوفر البرلمان الاعتمادات.

وكان البرلمان، بدوره سعيداً، سيطرت عليه للوهلة الأولى، نزعة الامتثال الموسوم بالابتهاج للملك العائد: إننا وأبناءنا من بعدنا نضع أنفسنا تحت تصرف جلالتكم ونلتزم بطاعتكم إلى الأبد(3) " وقرر مجلس العموم "أن أعضاءه أنفسهم وشعب إنجلترا بأسره لن يبرعوا من الجريمة البشعة، جريمة الثورة الأخيرة غير الطبيعية، ولن ينجوا من العقوبات المترتبة على هذا الجريمة إلا إذا حظوا بصفح صاحب الجلالة وعفوه وبناءاً على ذلك قصد إليه البرلمان بكامل هيئته وجثوا أمام الملك الضاحك المبتهج، لينالوا غفرانه(4). وأحس مجلس العموم بمزيد من الإثم لأنه اجتمع دون دعوة من الملك، أو دون موافقته، ولذلك أطلق المجلس على نفسه تواضعاً أسم "اجتماع أو مؤتمر"، حتى تطيب نفس الملك، فيعلن أنه برلمان شرعي(5). وبعد انتهاء هذه المراسم، ألغى البرلمان كل التشريعات التي أصدرها البرلمان ولم يكن قد وافق عليها شارل الأول، ولكنه أكد على الامتيازات التي كان ذلك المجلس قد منحها للبرلمان، بما في ذلك سيادة البرلمان في كل ما يتعلق بالضرائب، وثبت شارل الثاني هذه الامتيازات. وشارك البرلمان الملك الانتصار الحاسم الذي أحرزته السلطة المدنية على

صفحة رقم : 10832

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الملك السعيد

السلطة العسكرية، فدفعت الرواتب المتأخرة للجيش الذي حكم إنجلترا لمدة عقدين من السنين، وسرح الجنود البالغ عددهم أربعين ألفاً، وانصرفوا إلى بيوتهم. وكان شارل قد وافق على الصفح عن كل أعدائه، فيما عدا من يستثنيهم البرلمان من العفو العام. وقضى البرلمان عدة أسابيع في جدل حول من يسلمهم إلى يد الجلاد، ومن يبقي على حياتهم. وفي 27 يوليو 1660، شخص الملك إلى مجلس اللوردات، مناشداً إياهم أن يصدروا قراراً سريعاً حكيماً: "أيها اللوردات، إنكم إذا لم تشاركوني في القضاء على الخوف الذي استولى على قلوب الناس وأرقهم، ... فإنكم بذلك تحولون بيني وبين الوفاء بالوعد الذي قطعته على نفسي، وأنا مقتنع بأنه لما كنا، لا أنا ولا أنتم هنا الآن ... ولقد أدركت جيداً أن هناك أناساً لا يمكن أن يغفروا لأنفسهم ما اقترفوه، ولا أن تغفر لهم نحن ذلك .. وإني لأشكر لكم عدالتكم مع هؤلاء -القتلة المباشرين لوادي-، ولكني- وسأكون صادقاً معكم- لم أفكر قط في استثناء أحد غيرهم في العفو العام. أن هذه الرحمة، وهذا التسامح هما خير وسيلة تجعل الناس يستشعرون خالص الندم. وتجاهلهم رعايا صالحين مخلصين، كما تجعلهم أصدقاء وجيراناً صالحين لكم أنتم(6)".

ورغب البرلمان في التوسع في عملية الانتقام، ولكن شارل أصر على ألا يستثني من العفو إلا من وقعوا الحكم بإعدام والده(7). وكان ثلث هؤلاء قد فارقوا الحياة، كما لاذ الثلث الثاني بالهروب، وقبض على 28 وحوكموا، وحكم على 15 بالسجن مدى الحياة، وشنق 13 ثم مزقوا أرباً (13، 17 أكتوبر 1660). ويقول شاهد العيان بيبز: أن توماس هاريسون، وهو أول من نفذ فيه الحكم، "كان يبدو مرحاً، كما يمكن أن يفعل أي رجل في مثل هذا الموقف" وتحدث بشجاعة من فوق المشنقة

صفحة رقم : 10833

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الملك السعيد

قائلاً أن دوره في الاقتراع على إعدام شارل الأول أملاه الله عليه(8). ويضيف بيبز: وفي الحال مزق أرباباً، وعرض رأسه وقلبه على الجمهور، فتعالت صيحات الفرح(9) وفي 8 ديسمبر أصدر البرلمان أمراً بإخراج جثث كرمول وأيرتون وجون برادشو من كنيسة وستمنستر، وتعليقها على أعواد المشانق. وتم ذلك بالفعل غي 30 يناير 1661، وكأنما كان هذا لونهاً من الاحتفال بذكرى موت شارل الأول، وعرضت رؤوسهم طيلة يوم كامل في أعلى قاعة وستمنستر (حيث اجتمع البرلمان). ودفنت الأشلاء في حفرة مشنقة تبيرن، كل أولئك جعل جون ايفلين يبتهج ويهلل "الحكم الله، وهو حكم هائل تحار فيه الأبواب(10)". وثمة ضحية أخرى، هاري فين، الذي كان يوماً محافظاً لمستعمرة خليج ماساشوسيت، فقد شنق في 1662، لأنه كان أداة فعالة في تدبير إعدام سترافورد. وفي هذه القضية أغمضت رحمة الله جفونها، فقد وعد من قبل بالإبقاء على "سير هاري" الرجل الشعبي المحبوب، ولكن جراءة السجين وشجاعته أثناء المحاكمة أوغرت صدر الملك فتحجر قلبه.

وفي 29 ديسمبر 1660 حل "المؤتمر" (البرلمان) نفسه، حتى يمهد الطريق لانتخاب أعضاء أكثر تمثيلاً للشعب، وفي غضون ذلك واجهت الحكومة أول مظاهرة عدائية تتنازع في شعبيتها العاصمة. أن هذه الحكومة لم تقبل شيئاً لإسكات الشعب الدينية التي ظلت تأمل في نظام جمهوري: فكان المشيخيون وأنصار تجديد العماد والمستقلون وأصحاب مذهب الملكية الخامسة يخطبون ضد الملكية، وتنبأوا بأن الانتقام الإلهي سيحل بها سريعاً، فيرسل الزلازل والدم والضفادع تنقض على بيوت موظفي الملك. وفي 6 يناير 1661، وبينما كان الملك في توريسموث يودع أخته الحبيبة هنريتا في طريقها إلى فرنسا، نادي بالتمرد والعصيان أحد المشتغلين بصناعة دنان النبيذ في مجمع "القديسي الملكية الخامسة"، وعندئذ سلح سامعوه المهتاجون أنفسهم، وأسرعوا إلى الشوارع يرددون أن المسيح

صفحة رقم : 10834

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الملك السعيد

وحده هو الذي ينبغي أن يكون ملكاً، ويعملون القتل في كل من أعترض سبيلهم، وعاشت المدينة في ظل الإرهاب طيلة نهارين وليلتين، وانتشر "القديسون" في كل مكان يقتلون الناس في حماسة بالغة، حتى تمكنت آخر الأمر فرقة صغيرة من الحرس كانت الحكومة الواثقة من نفسها تعتمد عليها في حفظ الأمن، من تطويق المشاعبين واقتيادهم إلى جبل المشنقة. وعاد شارل مسرعاً إلى العاصمة، ونظم فرقة جديدة من الشرطة للمحافظة على الأمن فيها.

وفي 23 أبريل، في يوم عيد سانت جورج راعي إنجلترا وحامياها، توج الملك السعيد في كنيسة وستمنستر، في كل مظاهر العظمة والجلال، ذات القيمة الكبرى لدى الملوك والتي يعتز بها الشعب، وحرص رجال الكنيسة الأنجليكانية التي استعادت مكانتها، وهم يمسحون الملك الداعر بالزيت المقدس، على التوكيد على تعهد الملك والتزامه بالدفاع عن العقيدة وعن الكنيسة. وفي مايو اجتمع "برلمان الفرسان" الذي سمي كذلك لأن غالبية أعضائه كانوا ملكيين أكثر من الملك، متلفين على الانتقام من البيوريتانيين. ووجد شارل مشقة في أن يثنيهم عن الاسترسال في إعدام أعداء والده، واسترد البرلمان، من الوجهة النظرية، كثيراً من الامتيازات التي كان قد فقدها شارل الأول: من ذلك أنه لا يصبح أي تشريع نافذ المفعول إلا بعد أن يوافق عليه المجلسان كلاهما، والملك. وكانت للملك السلطة العليا على القوات الإنجليزية المسلحة في البر والبحر، وأعاد البرلمان تنظيم مجلس اللوردات، وأعاد إليه أساقفة الكنيسة الرسمية، ولكنه رفض تجديد قاعة النجم أو محكمة اللجنة العليا وأبقى على حق التحقق في قانونية القبض على المسجونين بغير محاكمة، وأعيدت إلى الفرسان أملاكهم التي صادروها كرمول من قبل، مع تعويض ضئيل لمن اشتروها،

واسترجعت الأرسقراطية القديمة ثراءها ونفوذها. وانقلبت الأسرات التي جردت من أملاكها على ملوك آل ستيوارت، وانضمت فيما بعد إلى صغار النبلاء وأبناء

صفحة رقم : 10835

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الملك السعيد

الطبقات الوسطى ليشكلوا "الأحرار" ضد "المحافظين" .. إن شارل في النصف الأول من حكمه بلغ من الضعف والوهن حدًا لم يستطع معه أن يفرض أي قدر من السلطة المطلقة، من ذلك أنه أجاز "البرلمان الفرسان" أن يستمر لمدة سبعة عشر عاماً، على الرغم من حقه الشرعي في حله. أنه كان من الناحية العملية ملكاً دستورياً. فإن النتيجة الجوهرية لثورة 1642-1649، وانتقال السلطة العليا من يد الملك إلى البرلمان، ثم من مجلس اللوردات إلى مجلس العموم، كل أولئك عاش بعد عودة الملكية، على الرغم من قيام الملكية المطلقة من الوجهة النظرية. وكان من حسن حظ البرلمان أن شارل كان عزوفاً عن الحكم، وكأنه بعد أربعة عشر عاماً من التشرذم والشقاء، قد منحت العناية الإلهية الحق في السعادة والهناء، وأدخل جنات عدن التي وعد بها المسلمون. وكان الملك أحياناً ينهمك بجد وكد في شؤون الدولة، وقد بولغ في إهماله لها (11). وقبيل نهاية حكمه دهشت الأمة إذ رآته يأخذ كل شيء على عاتقه، وينصرف بكليته إلى إدارة شؤون البلاد في كفاية وعزيمة صادقة. ولكنه في أعوام العسل كان قد فوض إلى إرل كلارندون في 1661، إدارة دفة الحكم، بل تقرير السياسة. وتسربت شخصية الملك، بشكل مؤثر على عادات العصر وأخلاقه وسياسته وغلب الطابع الفرنسي على أصله وتعليمه. فأمه فرنسية، وأبوه ابن حفيده ماري جيز أو اللورين، أضف إلى هذا جداً اسكتلندياً ودمركياً وإيطالياً، ومن ذلك نجد خليطاً ضافياً ولكنه غير راسخ. أنه عاش من سن السادسة إلى سن الثلاثين في القارة، حيث تعلم الأساليب الفرنسية ثم رآها في أبهى صورها في أخته هنريتا آن. وكان عره الأسود وجلده الأسمر يذكران بجدته الإيطالية ماري دي مديتشي، وكان مزاجه لاتينياً مثل والده جدته لأمه ماري ملكة إسكتلندة، وربما ورث عن جده الغسقوني هنري نافار، شفثيه الشهوانيتين وعينييه البارقتين وأنفه المتطفل،

صفحة رقم : 10836

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الملك السعيد

بل وربما ميله إلى النساء كذلك. أما فيما يتعلق بالناحية الجنسية، فقد كان شارل الثاني أخزى قادة زمانه، وأسوأهم، فإن تصرفاته كانت أسوأ مثال تحتذيه حاشيته والمجتمع الإنجليزي والمسرح بعد عودة الملكية، فانفلت الزمام للفجور والخلاعة في هذه كلها، وأن لنعرف أسماء ثلاث عشرة من خليلاته، أنه وهو في الثامنة عشرة، حين جاء كمن هولندا إلى إنجلترا ليقاتل من أجل

والده، وجد فسحة من الوقت لينجب من "السمراء الجميلة الجريئة" لوسي وولتر، واداً كبير وترعرع تحت أسم جيمس سكوت، أعترف شارل ببنوته فيما بعد، وعينه دوق موغوث. ولحقت لوسي بشارل في القارة، وخدمته بإخلاص، والواضح أنه كان معها مساعدون آخرون لا نعرف الآن أسماؤهم. وفور أن أستقر به المقام في القصر الملكي، دعا بربارا بالمر لتسري عنه همومه وتخفف عنه متاعبه. وكانت بربارا هذه مثل بربارا فليبرز - قد أقامت لندن وأقعدتها بجمالها. وفي سن الثامنة عشر (1659) تزوجت من روجر بالمر الذي أصبح إرل كاسلمين. وفي سن التاسعة عشر وجدت طريقها إلى مخدع الملك، ومن ثم سيطرت على روحه الوادعة، إلى حد أنه خصص لها جناحاً في قصر هويتهول، وأنفق عليها أموالاً طائلة وأجاز لها بيع المناصب السياسية، والتحكم في مصائر الوزراء. وولدت له ثلاث أبناء وابنتين أعترف ببنوتهم جميعاً، وساورته الشكوك على أية حال، لأنها وسط حبها الشديد للملك، لم تتورع عن الاتصال برجال آخرين (12)، وازدادت تقوهاً بازدياد علاقاتها غي المشروعة. وفي 1663 - أعلنت تحولها إلى الكاثوليكية. وألتمس أقاربها من الملك أن يثنيها عن عزمها، فأجابهم بأنه لم يتدخل قط في "نفوس" السيدات (13). وفي 1661 فكر شارل في أنه قد حان الوقت للزواج، ومن بين المرشحات أختار كاترين برانجزا ابنة جون الرابع ملك البرتغال التي قدمت إليه مع صداق هياته الإلهية ليفي بحاجات ملك مبذر ودولة تاجرة:

صفحة رقم : 10837

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الملك السعيد

500,000 جنيه نقداً، وميناء طنجة، وجزيرة (والمدينة الصغيرة فيما بعد) بوميبي، وحرية الاتجار مع كل ممتلكات البرتغال في آسيا وأمريكا وتعهدت إنجلترا في مقابل ذلك، بمساعدة البرتغال في المحافظة على استقلالها ولما وصلت الأميرة العروس الغالية إلى بورتسموث كان شارل في استقبالها للترحيب بها، وتزوجا في 21 مايو وفقاً للطقوس الكاثوليكية أولاً ثم الأنجليكانية، وكتب شارل إلى والدتها يقول أنه "أسعد إنسان في العالم" وأحسن معاملة حاشيتها من السيدات ذوات "التنورات" الواسعة المطوقة، ومن الرهبان الوقورين، ووقعت الأميرة في غرامه لأول نظرة، وسارت الأمور سيراً حسناً لعدة أسابيع، ولكن في يوليو وضعت كاسلمين ولداً شهد شارل تعميده على أنه "العراب" (أبوه في العماد) -وتلك مناسبة أخرى يستخدم فيها أسم الله عبثاً ولغواً. ومنذ هجرت بربارا زوجها، أصبحت الآن تعتمد كل الاعتماد على الملك، وتوسلت إليه ألا يتخلى عنها، فاستسلم لرجائها، وسرعان ما استأنف علاقته بها، وفي إخلاص موصوم بأشد الخسة والعار. ونسي الملك قواعد السلوك القويمة المألوفة، فقدم بربارا علانية إلى زوجته. فنزفت أنف كاترين دماً وانتابها إغماءه، من فرط الشعور بالمهانة والإذلال، وحُملت إلى خارج القاعة وبناء على إلحاح من الملك، أوضح لها كلارندون أن عملية الزنى امتياز ملكي معترف به للملوك في أعرق أسرات أوروبا، وبمرور الوقت كيفت الملكة نفسها مع أساليب زجها الشرقية، ولمنها كانت تزوره ذات يوم، فوقع عيناها على "شيشب" صغير بجوار سريره، فانسحبت في رفق وتلطف "حتى لا تصاب الحمقاء الجميلة الصغيرة المختفية وراء الستائر بالبرد (14)"، وكانت هذه المرة الممتلة -هول دافيز. هذا في الوقت الذي حاولت فيه كاترين كثيراً أن تتجب لشارل طفلاً، ولكنها مثل كاترين أراجون مع ملك سابق - أجهضت عدة مرات. وفي 1670 أقر البرلمان قانوناً بالتوسع في أحكام الطلاق. وأشار بعض رجال البلاط المتلهفين على وريث بروتستانتي، على

صفحة رقم : 10838

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الملك السعيد

شارل بأن يطلق كاترين، ولكنه أبى، حيث كان قد عرف آنذاك كيف يحبها حباً عميقاً على طريقتة الخاصة. ويصف بييز البلاط في 27 يوليو 1667 فيقول:

"يقص على فن Fenn أن الملك وسيدتي كاسلمين قد حدثت بينهما فجوة شديدة، وأنها ستفارقه، ولكن بين جنببيها جنين، إن الملك لابد معترف ببنوته، وغلا فإنها ستحمل الوليد إلى قصر هويت هول، وتهشم رأسه أمام عيني الملك. ثم يضيف أن الملك والحاشية لم يكونوا في أي زمان في العالم بأسره أسوأ منهم الآن، بسبب اللهو والدعارة والفجور والسكر والعريضة، وغيرها من أخط الرذائل البغيضة، مما لم ير العالم مثلها، وهذا أمر يجر الهلاك والدمار على الجميع، لا محالة(15)".

وضاق شارل ذرعاً بغضبات كاسلمين، وفي إحدى زيارته الأخيرة لها، فاجأ عندها جون تشرشل دوق مالبرو فيما بعد، الذي قفز من النافذة حتى يتجنب لقاء الملك(16)، كما يروي الأسقف بيرت. على أن شارل خلع على كاسلمين لقب دوقة كلباند، ورتب لها مخصصات من الأموال العامة مدى الحياة.

وقد يشوقنا أن نقص كيف أن امرأة واحدة بعينها خيبت علانية أمل الملك المغرور المختال وصدته: تلك هي فرانسيس ستيوارت التي قيل إنها ربما كانت أجمل وجه وقعت عليه العين(17) ويقول أنطواني هاملتون "يندر أن يتيسر العثور على امرأة أقل ذكاء أو أكثر جمالاً(18)". وظل الملك يلحف في الوصول إليها حتى بعد زواجها من دوق ونشموند ويصف بييز الملك وهو يجدف وحده في الليل إلى قصر سومرست، "وهناك حيث وجد باب الحديقة موصداً تسلق الجدران ليزور هذه المرأة وتلك فضيحة مخزية فظيعة(19)".

وفي 1668 رأى شارل "تل جوين" وهي تمثل في "مسرح دروري لين"، وهي التي نشأت في فقر مدقع، وكانت تسلي رواد الحانة بأغنياتها،

صفحة رقم : 10839

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الملك السعيد

وتتبع البرتقال في المسرح، وتقوم بالأدوار الصغرى أو الأدوار الرئيسية في الروايات الهزلية، واحتفظت طوال عملها، تلقائياً بروح طيبة وإرادة طيبة، مما سحر لب الملك الذي لا يبالي بشيء، والذي سئم اللذات، ولم تقم الممثلة أية عقبات في سبيل أن تكون عشيقة لجلالته. واستنزفت مبالغ طائلة من كيسه الذي يشكو خلو الوفاض، ولكنها أنفقت القدر الأكبر منها في أعمال البر والإحسان. ولكن سرعان ما كان عليها أن تنافس امرأة مغوية خطر موفدة من فرنسا (1671) لتثبت شارل على العقيدة الكاثوليكية والتقاليد الفرنسية، تلك هي لويز كيرووال التي قلدت نل مظاهرها الأرستقراطية تقليداً ساخراً شيطانياً. وكل العالم يعرف، كيف أنه، حيث حسب سكان لندن خطأ أن نل هي منافستها الكاثوليكية، فسخرها منها، أخرجت رأسها الصغير من نافذة العربة وصاحت بهم "صه أيها الشعب الطيب، أنا الليجي البروتستانتية(20)" وظلت تحظى بعطف شارل إلى آخر حياته، ولم تبرح مخيلته حتى ساعة احتضاره. أما كيرووال التي عينت على الفور دوقة بورتسموث، فقد أثارت حفيظة لندن، حيث نظروا إليها هناك على أنها عميلة فرنسية باهظة التكاليف تبتز من الملك كل عام 40 ألف جنيه، لتقتني المجوهرات وتعيش في ترف باذخ اهاج معدة جون

ايغلين (21) وتقلص ظل سلطانها في 1676 حين اكتشف شارل هورتنس مانسيني ابنة شقيق الكاردينال مازاران المرحلة المفعمة بالحيوية والنشاط.
وكان لشارل سقطات أخرى، أنه في أيام شبابه التعس فقد كل الثقة في البشر، وحكم على الرجال والنساء جميعاً بأنهم كما وصفهم "الاروشفو كول" ومن ثم فإنه قلما استطاع أن يكون مخلصاً لأحد - اللهم إلا أخته- وضيع نفسه في أهوائه وغرامياته، ولم تكن ثمة ود خالص مقيم يلقي ضياء حقيقياً على البريق الأجوف في حياته. وباع بلاده بنفس اليسر الذي اشتري به النساء. وضرب لحاشيته أكبر المثل في المقامرة بمبالغ طائلة. وعلى الرغم

صفحة رقم : 10840

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الملك السعيد

من الجمال الطائش في سلوكه وعاداته، فانه أبدى في بعض الأحيان افتقاره إلى الرقة والكياسة اللتين كان من العسير التماسهما عند والده. من ذلك، على سبيل المثال، أنه لفت نظر جرامونت إلى خدمه يؤدون عملهم وهم راكعون(22). ولم يكن كثير الإدمان على الخمر في أغلب الأحيان، ولكنه أدمن بشكل مخيف لعدة أيام عقب صدور قانون ضد تعاطي المسكرات(23). وكان عادة يتقبل النقد بصدر رحب، ولكن حين جاوز سيرجون كوفنتري حده، وتساءل في البرلمان علانية "هل يجد الملك متعة بين الرجال أو بين النساء؟". أمر شارل رجال حرسه أن "يجعلوا منه عبرة" فكموا له وهاجموه وهشموا أنفه(24).
على أن فئة قليلة من الناس كانوا لا يملكون إلا أن يحيوه، ومنذ شباب هنري الثامن لم يوجد في إنجلترا ملك في مثل شعبية شارل بين حاشيته، وكانت حيويته الجسمية تبعث على الرضا والسرور، ولم يكن به شح أو بخل، بل كان يرعى الحقوق، عطوفاً كريماً. بعد أن ينقد رجال حاشيته رواتبهم، كان يجد الوسيلة للبر والإحسان والصدقات. وجعل من المتنزه الخاص به مرتعاً لمختلف الحيوانات، ولم يلحقها أي أذى. وكانت كلبته المدللة تنام، ويفترسها رفيقها وتلد وترضع صغارها في حجرة نوم الملك(25). وكان شارل بعيداً عن التكلف، أنيساً، حلو المعاشرة، يسهل الوصول إليه أو التحدث معه، سرعان ما يهدى من روع محدثيه ويطمئن بهم. وذكر كل الذين تحدثوا عن شارل فيما عدا كوفنتري، أنه "ملك ودود طلق المحيا(26)"، وعده جرامونت "من ألطف الرجال وأرقهم وأكثرهم وداعة(27)"، وقال عنه أوبري "إنه نموذج فذ في المجاملة(28)" وكان شارل قد صقل عاداته وسلوكه في فرنسا، وكان، مثل لويس الرابع عشر يرفع قبعته لأية سيده، حتى ولو كانت من أخط الطبقات وكان يفضل شعبه بكثير في التسامح مع أية آراء أو مذاهب دينية معارضة إلى حد أنه شرب نخب خصومة السياسيين، وسر كثيراً بالهجاء حتى

صفحة رقم : 10841

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الملك السعيد

ولو كان موجهاً إلى شخصه. وكان حُسن التقدير فيه، مبعث ابتهاج لدى حاشيته. ووصفه بيبز بأنه كان يقود الحلقة في رقصة ريفية قديمة cuckold All Awry. وما كان يقطع عليه مرحة ولهوه الصاحب لفترات قصار، إلا أنباء الطاعون أو الحريق أو الإفلاس أو الحرب.

ولم يكن الملك شارل الثاني عميق التفكير، ولكنه لم يتعلق بتوافه الأمور إلى حد كبير، وتخلص يوماً من رجل زعم أنه يتتبا بالطالع، بأن أخذه إلى سباق الخيل، ولحظ أنه يخسر ثلاثة أشواط متتالية. وأولع ولعاً شديداً بالعلوم، وأجرى التجارب، وأصدر براءة تشكيل "الجمعية الملكية" وأغدق عليها الهبات والمنح، وشهد كثيراً من اجتماعاتها. ولم يهتم كثيراً بالأدب، ولكنه أولى الفنون عناية كبيرة، واعتز برافائيل وتيشيان وهولبين وجمع أعمالهم. وتجلّى في حديثه كثير من الحيوية والتنوع اللذين تميزت بهما الجماعات المثقفة في فرنسا. فتحدث جيداً عن الشعر مع دريدن، وعن الموسيقى مع بورسل (الملحن)، وعن هندسة العمارة مع رن. وكان حامياً ونصيراً حسن التمييز في كل هذه المجالات، ولا بد أنه كان ثمة قدر كبير من مناقب ومآثر حميدة محببة تحلى بها رجل قالت عنه أخته وهي تُلَفظ أنفاسها الأخيرة "إني أحببته أكثر من حبي للحياة نفسها. وليس ثمة شيء أسف عليه في موتي، إلا إني أفارقه" (29).

صفحة رقم : 10842

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> مرجل الدين

2- مرجل الدين

هل تمسك الملك بأية عقيدة دينية؟ أن حياته من هذه الناحية توحى بنفس النزعة التي سادت كثيراً من الفرنسيين المعاصرين الذين عاشوا ملحدين وماتوا كاثوليكين. ويبدو أن هذا يسر الفوز بمتاع الدنيا والآخرة معاً، كما أنه كان أفضل كثيراً من "رهبان" بسكال. ويقول بيرنت "أن إحساسه الديني كان ضعيفاً، إلى درجة أنه لم يكن من المتظاهر ولكن بسلوكه الموصوم بالتهاون في الصلوات وفي الأسرار المقدسة، كان لأي

صفحة رقم : 10843

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> مرجل الدين

إنسان يراه أن يدرك كيف وقر في ذهن الملك أنه لا علاقة له بهذه الأمور (30). وقال أحد الوعاظ مرة لنبييل غلبه الناس وهو جالس بين جماعة المصلين "سيدي: إنك تغط في نومك بصوت عال، وقد توقظ الملك (31)". وقال عنه سانت إيفر موند الذي كان يعرفه حق المعرفة أنه كان "روبويأ (32)" -وهو الذي كان يؤمن بوجود كائن أسمي غير

مجسم تقريباً، ويفسر بقية المذاهب الدينية بأنها شعر شعبي. واتفق أول بكنجهام ومركز هاليفا كسي مع سانت إيفر موند في هذا الرأي (33) ويروي بيرمنت "قال لي الملك ذات مرة، أنه ليس ملحداً، ولكنه لا يظن أن الله يعذب الإنسان لأخذه بشيء من أسباب المتعة واللذة عرضاً أو خطأ (34)". ورحب الملك بصدافة هويز الذي يدين بالمادية، وتولى حمايته من رجال اللاهوت الذين طالبوا بتقديمه للقضاء بتهمة الهرطقة. ويرى فولتير أن "لامبالاة الملك المطلقة" بكل الصراعات الدينية التي تفرق بين الناس عادةً، أسهمت بدرجة غير يسيرة، في حكمه السلمي (35). ويحتمل أن شارل كان متشككاً، مع شيء من الانعطاف نحو الكتلثة، بمعنى أنه كان يشك في اللاهوتيات، ويؤثر الكاثوليكية، لطقوسها النابضة بالحياة، وتعلقها بالفنون، وتساهلها مع الجسد، وتأييدها للملكية. وربما غاب عن ذاكرته أن العصبية الكاثوليكية وبعض الآباء اليسوعيين قد أقروا من قبل قتل الملك. ولكنه تذكر أن الكاثوليك الإنجليز دافعوا عن أبيه، وأن ثلث النبلاء الذين ماتوا في سبيل النضال عن شارل الأول كانوا من الكاثوليك (36)، وأن الكاثوليك الأيرلنديين بقوا على ولائهم لأسرة ستيوارت، وأن حكومة كاثوليكية كانت تمد له يد العون في منقاة الطويل الأمد - إن روح التعاطف التي تملكته بصفة عامة، جنحة به إلى الرغبة في التخفيف بعض الشيء من القوانين التي صدرت في إنجلترا ضد الكاثوليك، وهي في تقدير "هلام" قوانين "صارمة غاية الصرامة، بل هي في بعض الأحيان، دموية أو متعطشة للدم (37). ولم

صفحة رقم : 10844

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> مرجل الدين

يشارك الملك البروتستانت الإنجليز فيما علق بأذهانهم من ذكرى "مؤامرة البارود" 1606، أو الخوف من محاكم التفتيش أو البابا في رومه. ولم يغضب لالتزام أخيه العلني بالمذهب الكاثوليكي -المفروض أنه وريث العرش. وقد يجوز لنا أن نحكم، من تحوله إلى الكتلثة وهو على فراش الموت، أنه كان من الجائز أن يعترف هو أيضاً بها، لو أن الاعتراف بها كان أمراً عملياً من الوجهة السياسية. وهكذا فإن شارل، وهو السياسي اللطيف الودود، قبل الكنيسة الأنجليكانية ودعمها إنها قد دانت بالولاء لو الله، وفنيت بالدفاع عنه، وعانت ما عانت في أيام كرومول، وكافحت كفاحاً شديداً في سبيل عودة الملكية. واعتبر شارل أنه من القضايا المسلم بها أن تكون هناك عقيدة دينية تحظى بموافقة الدولة ومعونتها، على أنها وسيلة لنشر التعليم وإقرار النظام الاجتماعي. إنه، أساساً، كانت تزججه البيوريتانية، فوق أنها أتاحت لها من قبل فرصة الحكم، فكانت صارمة بغيضة إلى حد بالغ. ولم ينسى قط أن البرسبيريانز سجنوا أباه وأن البيوريتانز أطاحوا برأسه، وأنه هو نفسه أرغم على قبول مذهبهم والاعتذار عن أخطاء أبائه. ووقع القانون الذي أصدره "البرلمان المؤتمر"، بإعادة الكهنة الأنجليكانيين إلى أبرشياتهم، التي كانت "الجمهورية" قد جردتهم منها، وكان وجه العدالة والإنصاف واضح في هذا القانون. وعلى الرغم من ذلك، كان قد وعد "بالحرية لذوي الضمائر الواهنة"، وألا يضار أي إنسان بسبب الخلافات الدينية مادامت مسالمة. واقترح شارل في أكتوبر 1660 تسامحاً شاملاً مع كل الفرق المسيحية، بل كذلك تخفيف القوانين المعادية للكاثوليكية. ولكن البرسبيريانز والبيوريتانز الذين خشوا مغبة هذا التراخي، انضموا إلى الأنجليكانيين في رفض هذا المشروع. ورغبة في المصالحة بين البرسبيريانز والأنجليكانيين عرض الملك طقوساً تكون حلاً وسطاً بين الطائفتين ونظاماً أسقياً محدوداً يتولى بمقتضاه بعض المشايخ المنتخبين

صفحة رقم : 10845

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> مرغل الدين

تقديم العون والمشورة للأساقفة. ولكن البرلمان عارض هذه الفكرة. وأبلغ "مؤتمر سافوي" المكون من اثني عشر أسقفاً، ومثلهم من المشايخ -أبلغ الملك "أنهم لم يستطيعوا الوصول إلى اتفاق(38)".
وتلك الفرصة ضيقت، لأن البرلمان الجديد كان أنجليكانياً بأغلبية ساحقة. فنكأ الجراح القديمة بإعادة النظام الأسقفي في اسكتلندا وأيرلندا، وأعاد المحاكم الكنسية للمعاقبة على "التجديف"، والتخلف عن دفع العشور للكنيسة الأنجليكانية، وجعل "كتاب الصلوات العامة الأنجليكاني" إلزامياً على جميع الإنجليز، وبمقتضى "قانون التوحيد" (20 نوفمبر 1661) حرمت المناصب العامة على كل الأشخاص اللذين لم يتلقوا الأسرار المقدسة وفقاً للطقوس الأنجليكانية قبل الانتخابات، وبمقتضى "مرسوم التنسيق" (19 مايو 1662) طلب إلى كل رجال الدين والمعلمين أن يقسموا اليمين على ألا يقاوموا الملك، وأن يعلنوا موافقتهم التامة على كتاب الصلوات العامة. وكان على رجال الدين اللذين رفضوا هذه الشروط أن يتخلوا عن مراكزهم في موعد غايته 24 أغسطس ورفضها نحو 1200 منهم فطردوا. وهؤلاء بالإضافة إلى 1800 آخرين أخرجوا عند عودة الأنجليكانيين، انضموا جميعاً، مع مجموعة كبيرة من الجامع، إلى العدد المتزايد من "الشيع" أو "المنشقين"، اللذين أرغموا أولى الأمر في النهاية على إصدار قانون التسامح 1689. وحاول شارل أن يعدل من "مرسوم التنسيق" فطلب من البرلمان أن يستثنى من العزل أولئك القساوسة اللذين لم يعترضوا إلا على ارتداء اللباس الكهنوتي الأبيض، أو استخدام الصليب في التعميد، فوافق اللوردات ورفض النواب. وسعى الملك من أثر اللطمة، بتأجيل تنفيذ المرسوم لمدة ثلاثة أشهر، ولكن أحبطت هذه المساعي كذلك. فأصدر في 26 ديسمبر 1662 بياناً أعلن فيه عن عزمه على أن يستثنى من العقوبات التي نص عليها القانون الأشخاص المسالمين اللذين أبت عليهم ضمائرهم

صفحة رقم : 10846

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> مرغل الدين

أداء القسم المطلوب، ولكن البرلمان، ارتاب في هذا الأجراء ورفضه، باعتبار أنه ينطوي ضمناً على سلطة الملك في الإعفاء من إطاعة القوانين. وعبر الملك عن مشاعره بالإفراج عن الكويكرز المعتقلين (22 أغسطس 1662) وبالتأكيد على التسامح الديني في الموائيق التي منحها لجزيرة رود وكارولينا، وفي التعليمات التي وجهها إلى حاكمي جمايكا وفرجينيا.
وأحس البرلمان أنه ليس ثمة متسع لهذا التسامح في إنجلترا. ولكي يمنع اجتماعات الكويكرز السرية للعبادة، قال أنها تضم أكثر من خمسة أشخاص بالإضافة إلى أفراد البيت، وحكم 1662 على كل شخص يحضرها بدفع غرامة قدرها خمسة جنيهات، أو بالحبس لمدة ثلاثة أشهر، للمخالفة الأولى، ومضاعفة العقوبة (10 جنيهات غرامة أو ستة أشهر في السجن) للثانية، والنفي إلى مستعمرات المجرمين، للثالثة، أما المخالفون اللذين يعجزون عن دفع نفقات انتقالهم إلى المستعمرات فكان عليهم أن يخدموا لمدة خمسة سنوات، عمالاً لا بعقود خاصة. أما المدانون أو المخالفون المرحلون اللذين يهربون أو يعودون إلى إنجلترا قبل انقضاء، المدة المحكوم بها، فتكون عقوبتهم الإعدام، وفي 1664 امتدت هذه الإجراءات إلى اليرسبتيريانز والمستقلين. وحظر "قانون الأميال الخمسة" (1665) على القساوسة اللذين امتنعوا على

حلف اليمين، أن يقيموا في نطاق خمسة أميال في أي مدينة ذات مجلس بلدي، أو يقوموا بالتدريس، في أية مدرسة خاصة أو عامة. وأطلق على هذه القوانين "تشريع كلارندون" لأن الذي فرضها هو كبير وزراء الملك ضد إرادة الملك أو رغباته الصريحة، وقيل شارل هذه التشريعات الصارمة لأنه كان يناشد البرلمان إقرار الاعتمادات التي طلبها. ولكنه لم يغفر قط لكلارندون، كما فقد ثقته بالأساقفة وقل احترامه لهم، لأنهم ما لبثوا أن أعيدوا حتى بدعوا ينتقمون أشد الانتقام، ويقبضون أيديهم عن البر والإحسان. وانتهى شارل إلى "أن المشيخة ليست مذهباً يليق بالرجل الماجد المهذب، وأن الأنجليكانية ليست

صفحة رقم : 10847

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> مرغل الدين

مذهباً يليق بالرجل المسيحي(39)".
وإذ أدركت الكنيسة الأنجليكانية اعتمادها على الملكية، فإنها أكدت من جديد، وبشكل أكثر إيجابية عن ذي قبل "حق الملم الإلهي" والإثم العظيم الذي يؤدي إلى الهلاك، في مناهضة حكومة ملكية قائمة. وفي 1680 نشر كتاب سير روبرت فلمر "سلطة الملوك الطبيعية المعترف بها" بعد موت المؤلف بسبعة وعشرين عاماً، وأصبح الدفاع القياسي عن النظرية. وفي كتاب أكسفورد "القضاء والقانون" (1683) أعلن زعماء الكنيسة الأنجليكانية أنه "زيف وتحريض على الفتنة، بل هو هرطقة وتجديف" ومن ثم جريمة عقوبتها الإعدام "أن يتمسك امرؤ" بأن السلطة مستمدة من الشعب، وأن الحكام الشرعيين يفقدوا الحق في الحكم إذا أصبحوا طغاة، وأن الملك ليس له الحق إلا حق مناظر لحق السلطنتين الآخرين: مجلس اللوردات ومجلس العموم. وأضاف الكتاب "أن الطاعة العمياء هي سمة كنيسة إنجلترا وخصيصةها(40)". وتلك نظرية كانت تثير القلق والمتاعب، عندما حاول جيمس الثاني، بعد عامين منة هذا التاريخ، أن يجول إنجلترا إلى الكاثوليكية.
إن الكنيسة الأنجليكانية، التي استعادت مكانتها، على الرغم من تعصبها، تجلت في صفات تدعوا إلى الإعجاب، فقد أباحت آفاقاً رحبة للتفكير اللاهوتي بين أعضائها، ابتداء من "اللوديين" (الذين عرفوا فيما بعد بأنهم الذين يؤكدون على الطقوس التقليدية High Churchmen) الذين اقتربوا من المذهب والطقوس الكاثوليكية، إلى "المتحررين

صفحة رقم : 10848

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> مرغل الدين

المتسامحين" (الذين عرفوا فيما بعد باسم ذوي الأفق الواسع - Brood Churchmen) وهم الذين جنحوا إلى لاهوت متحرر، وأكدوا على الجانب الأخلاقي، لا على الجانب المذهبي أو العقائدي، في المسيحية، ووقفوا في وجه الاضطهاد، وسعوا إلى المصالحة وتسوية الخلاف بين اللبوريثانيين والمشيخيين والأنجليكانيين. وساعد شارل هؤلاء

المتحررين المتسامحين وقدر لهم الإيجاز النسبي في عظاتهم(41). وكان أعظم هؤلاء المتحررين، جون تلووتسون، الذي عينه شارل قسيس القصر، ثم عينه وليم الثالث رئيس أساقفة كنتربري (1691). وكان رجلاً "راجح العقل حلو الشمائل(42)"، ناهض "البابوية" والإلحاد والاضطهاد بنفس القدر من الحماسة والغيرة، وتجاسر فيبني المسيحية على العقل. وكان يقول "لسنا في حاجة إلى دليل على خطأ إنسان أقوى من أن نسمعه يتهم العقل ويحط من قيمته، ومن ثم يرى أن العقل ضده(43) ومال صغار رجال الدين الأنجليكانيين "الكهنة" إلى أن يكون الخدم الروحيين للوردات المحليين، بل حتى لبعض مالكي الأرض، حتى قاربوا أن ينحدروا إلى وضع العامة. ولكن في المدن والمناصب الكنسية ذوات الرواتب الأكبر، أشتهر كثير من رجال الدين الأنجليكانيين بسعة الإطلاع والمقدرة الأدبية حتى أنهم أخرجوا فيما بعد بعض من أفضل كتب التاريخ الرسمي في أوروبا. وبصفة عامة سادت روح الاعتدال المذهبي في الكنيسة الأنجليكانية، أكثر منها بين المنشقين الذين زاد الاضطهاد من تعصبهم لمذهبهم وتزمتهم. ولم يعان البيوريتانيون آنذاك من الاضطهاد السياسي وحده، بل أنهم كذلك كانوا موضع سخريه وازدراء من أولئك الذين أحسوا بالضيق والانزعاج أيام الحكم البيوريتاني بسبب أخلاقياتهم الهينة اللينة الخالية من التزمت. ولكن البيوريتانيين احتملوا في جلد وشجاعة دوران عجلة الزمن. وهاجر بعضهم إلى أمريكا، وأدى كثير منهم القسم المطلوب. وكان ريتشارد باكستر ألمع شخصية بينهم في ذلك العصر، وكان رجلاً ذا اتجاه معقول، مستعد لقبول أية تسوية لا تخل بلاهوته المتقدم. فإنه على الرغم من إخلاصه الشديد البيوريتاني حتى النهاية، أستنكر إعدام شارل

صفحة رقم : 10849

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> مرجل الدين

الأول، وحكم كرومول حكماً استبدادياً مطلقاً، وحذب عودة الملكية. ومنع عام 1662 من الوعظ، وأعتقل مراراً وتكراراً لمخالفته أمر الحظر. وكان من أكثر البيوريتانيين استنارة، ولكنه مع ذلك أستحسن إحراق السحرة في سالم ومساوشوست، وفكر في ربه على أساس جعل "مولوخ" (اله سامي كان يعبد عن طريق تضحية الأطفال على مذبحه) بجانبه ودوداً لطيفاً من هم الذين كتب لهم الخلاص؟ ويجيب باكستر: "إنهم فئة قليلة من البشر الضائع، فدر لهم الله منذ الأزل هذه الراحة(44). وأكد في عظاته على عذاب الجحيم التي "أوجدها الرب بنفسه" .. إن تعذيب الملعونين المحكوم عليهم بالهلاك ينبغي أن يكون شديداً، لأنه مظهر الانتقام الإلهي .. إن العقاب رهيب، ولكن الانتقام أمر لا سبيل إلى التخفيف منه(45)" وحرّم باكستر الاتصال الجنسي إلا بقصد الإنجاب مع حليلة شرعية. ومنذ رأى أن هذا التقليد يتطلب ضبط النفس على طريقة الرواقيين، لأنه أوصى بالحمام البارد والتغذي على الخضراوات، لتخفيف من الشهوة الجنسية(46) وقد نغتر له لاهوته إذا رأيناه، وهو في السبعين من العمر (1685) واقفاً في قفص الاتهام أمام القاضي الوحشي الغليظ القلب "جفري"، لأنه تقوه ببضع كلمات ضد مزاعم الأنجليكانيين ولم تتح له أية فرصة للدفاع عن نفسه أو تفسير آرائه، وحكم عليه بدفع غرامة قدرها 500 جنيه، أو السجن حتى يدفع المبلغ كاملاً(47). وأفرج عنه بعد 18 شهراً، ولكنه لم يسترد عافيته بعد ذلك قط.

وظل الكويكرز يعانون الاعتقال ومصادرة الممتلكات لرفضهم تأدية القسم أو لتخلفهم عن الصلوات الأنجليكانية، أو عقد الاجتماعات الغير مشروعة. وفي 1662 كان في السجون الإنجليزية أكثر من 4200 منهم: "وحشر بعضهم في السجن حشراً لا يدع مجالاً للجلوس وحرّموا من فرش القش ليرقدوا عليها، وكثيراً ما منع عنهم الطعام(48). ولكن جلداهم ومثابرتهم وتشبثهم أكسبهم آخر الأمر، وخفت حدة الاضطهاد عملياً، إن

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> مرغل الدين

لم يكن قانونياً، وفي 1672 أطلق شارل سراح 1200 رجل منهم(49)، وفي 1682 منح أخوه جيمس دوق يورك براءة مقاطعة جرسی الشرقية في أمريكا، إلى روبرت باركلي وهو كويكري اسكتلندي، و"الصاحب" الكويكري الغني ليم بن، وبعض زملائهم الآخرين.

وكان بن وهو ابن أمير البحر وليم بن الذي استولى على جاميكا لإنجلترا. قد مر وهو صبي في الثانية عشرة بأطوار مختلفة من الانفصال الديني الذي فوجئ في أثنائه لفوره براحة في أعماق نفسه، وبهالة متألفة في الغرفة، إلى حد أنه قال عدة مرات بأنه منذ تلك اللحظة ختم بخاتم القداسة والخلود. "الإيمان الراسخ" بأن هناك إلهاً وأن نفس الإنسان يمكن أن تنعم بهذا الاتصال الإلهي(50). وفي 1661 طرد من أكسفورد وحكم عليه بدفع غرامة لأنه رفض حضور الصلوات الأنجليكانية. ولما عاد ال أبيه أوسعه ضرباً بالسياط، وطرده من المنزل لإعلانه اعتناق مذهب الكويكرز. ثم رق قلب الوالد فبعث بابنه إلى فرنسا ليتعلم "المرح الباريسي"، وربما أكتسب من هناك بعض الكياسة والأساليب المصقولة التي تحلى بها، وفي 1666 ارتضى لنفسه الخدمة في الجيش الإنجليزي الذي يعمل في إيرلندا، ولكن بعد عام واحد شهد اجتماعاً للكويكرز في كورك، والتهب حماسه من جديد، فطرد جندياً ضايقه بكثرة الأسئلة فافتيد إلى السجن، ومنه كتب إلى حاكم مونستر يلتمس إباحة حرية العبادة. وبعد عودته إلى إنجلترا أحرق مراكزه من خلفه، وأصبح واعظاً كويكرياً، وقبض عليه مرة بعد المرة، ولعبت محاكمته 1669 دوراً في تاريخ القانون الإنجليزي. ذلك أن هيئة المحلفين برأته، فحكم القاضي على المحلفين بالسجن والغرامة بتهمة إهانة المحكمة وازدراءها. فاستأنف المحلفون أمام المحكمة الدعوى المشتركة، التي أعلنت عدم شرعية القبض عليهم، وكان في هذا تثبيت لحق هيئة المحلفين وسلطتهم في إنجلترا. ولكن بن أودع السجن، على أية حال، لأنه رفض أن يخلع قبعته في المحكمة. وأخلي سبيله في الوقت

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> مرغل الدين

المناسب ليحضر وفاة أبيه (1670)، وقد ترك له دخلاً يقدر بألف وخمسمائة جنيه في العام. ودينياً على التاج قدره 16 ألفاً من الجنيهات أقرضه أبوه لشارل الثاني وأعيد إلى السجن لقيامه بإلقاء العظائم، وفيه كتب أبلغ دفاع عن التسامح تحت عنوان "القضية الكبرى لحرية الضمير"، (1671)، وفي إحدى الفترات التي تمتع فيها بالحرية تزوج من امرأة ثرية، واشترى حصة من النصف الغربي لما يعرف الآن بولاية نيوجرسي. وصاغ لهذه المستعمرة دستوراً يؤكد فيه على التسامح الديني وسلطة المحلفين في التحقيق والحكومة الشعبية، ولكن الزمام أقلت من يده، ولم تطبق مواد هذا الدستور.

وفي 1667 عبر بن وجورج فوكس وروبرت باركلي وجورج كيث القتال الإنجليزي لبيشروا بمذهب الكويكرز في القارة، وأسس جماعة من "كرهم" ممن حولهم بن إلى مذهبه، مدينة "جرمان تون"، في بنسلفانيا، وكانوا أول من

أعلن أنه من الخطأ أن يكون للمسيحيين رقيق. ورجع بن إلى إنجلترا، وأخذ زمام المبادرة في منع الكويكرز من الانضمام إلى حركة اضطهاد الكاثوليك" من أجل ما يسمى "بالمؤامرة البابوية". وكان "خطابه إلى البروتستانت من جميع المذاهب" (1679) نداءً قوياً للتسامح الديني في أكمل صورة. وفي 1681 قبل التاج اقتراح بن التنازل عن حقه في المطالبة بالدين، لقاء منحه ما يعرف الآن باسم بنسلفانيا. أن بن اقترح اسم "سلفانيا" للجزء المترامي الأطراف الكثيف الأحرار، فألحق شارل الثاني مقطع "بن" بهذه اللفظة، تخليداً لذكرى أمير البحر. وعلى الرغم من الخضوع التام للملك، فإن حكومة المستعمرة الجديدة كانت ديموقراطية، وكانت العلاقة مع الهنود ودية قائمة على العدل والإنصاف، كما أطلق الكويكرز، وهم يشكلون غالبية المستوطنين، الحرية الدينية. وعمل بن في هذه المستعمرة بجد لمدة عامين، ولكنه في 1684 سمع نبأ اضطهاد جديد عنيف تتعرض له طائفته. فأسرع بالعودة إلى لندن. وهناك بعد عام واحد أصبح صديقه، دوق يورك ملكاً على إنجلترا، وهو جيمس الثاني، كما صار بن من ذوي

صفحة رقم : 10852

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> مرجل الدين

النفوذ والمكانة في الحكومة. ولنا معه لقاء آخر. أن طريقة المقاومة السلبية الذي انتهجه الكويكرز ضد الاضطهاد كان أكبر قوة فعالة ساعدت على التسامح الديني في عصر التعصب، وقدر أحد المنشقين أنه كان هناك ستون ألف حالة اعتقال بسبب الخلاف الديني بين عامي 1660، 1688، وأن خمسة آلاف ممن اعتقلوا قضاوا نحبهم في السجن(51). وكان تعصب البرلمان أسوأ من فجور البلاط والمسرح. وذكر مؤرخ كتب التاريخ مثل ما صنعه تقريباً "في هذه الفترة الدقيقة الحرجة" كاد الملك أن يكون الصوت الوحيد الرحيم الذي ينادي بأراء عصرية حديثة ودأب طوال حكمه على النضال من أجل التسامح(52) وفي 1669 عندما صدر الحكم على ثلاثة أشخاص بدفع غرامة كبيرة للتاج، بناء على قانون قديم صدر في عهد الملكة اليزابيث، لتخلفهم عن حضور الصلوات الأنجليكانية، أعفاهم شارل من دفعها، وأعلن أنه لن يسمح بتطبيق هذا القانون بعد اليوم "لأنه من رأيه وقناعاته الخاصة أنه لا يجوز أن يضار أحد بسبب تفكيره وما يمليه عليه ضميره(53)". وكان من المحتمل أن يقرر وجهة نظر الملك في تسامح عدد متزايد من الإنجليز، لولا أنهم كانوا يرتابون في رغبته في التخفيف من ويلات الكاثوليك في إنجلترا التي كانت لا تزال تخشى سيطرة البابا، ومحاكم التفتيش الأسبانية وحكومة القساوسة، إلى حد أن البرسبتيريانز والبيوريتانيين أثروا تحريم عبادتهم على السماح بالعبادة الكاثوليكية في إنجلترا. وكان الإنجليز الكاثوليك يشكلون آنذاك نحو 5% من السكان(54). وكانوا من الناحية السياسية ضعافاً عاجزين. ولكن الملكة كانت كاثوليكية، كما أن شقيق الملك لم يبذل إلا أيسر الجهد في إخفاء تحوله إلى الكتلثة (1668) وكان في إنجلترا حينذاك 266 من اليوسعيين. كان أحدهم ابناً غير شرعي للملك، وبدعوا بظهورون علناً في جراءة وثقة. على الرغم من القوانين البالغة التشدد. وكانت المدارس الكاثوليكية تقام في الدور الخاصة.

صفحة رقم : 10853

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> مرجل الدين

وأرهقت إنجلترا، وأقام البروتستانت في كل عام تظاهروا فيه ضد البابوية، وحملوا إلى "سميفيلد" تماثيل للبابا والكرادلة، أحرقوها هناك. إنهم لن ينسوا "جي فوكس". ولكن الكاثوليك صبروا وصابروا ولم يفقدوا الأمل، فمن الجائز الآن أن يرقى كاثوليكي عرش إنجلترا في أية لحظة.

صفحة رقم : 10854

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الاقتصاد الإنجليزي

3- الاقتصاد الإنجليزي

1702-1660

قدر عدد سكان إنجلترا وويلز غي 1660 بنحو خمسة ملايين نسمة (55) ربما ازداد إلى خمسة ملايين ونصف المليون في 1700(56)، أي أنه لا يكاد يبلغ ربع عدد سكان فرنسا وألمانيا، وأقل من ربع سكان إيطاليا أو أسبانيا(57). وكان سبع السكان من طائفة "اليومن"، أي صغار مالكي الأرض الأحرار الذين يملكون الأرض التي يفلحونها، وشكل المزارعون المستأجرون الذين يعملون في الأراضي النبلاء وذوي احسب والنسب، نحو سبع آخر من السكان. أما بقية السكان فكانوا يقيمون في المدن.

وبازدياد السكان قل نصيب الأسرة من الخشب، وتزايد استخدام الفحم في البيوت والحوانيت، وتطور على المعادن واستخراجها من المناجم وأصبحت شيفيلد مركزاً لصناعة الحديد. وسرت في إنجلترا حمى الإنتاج وجمع الثروات. وتوسل أصحاب المصانع إلى البرلمان أن يصدر تشريعات ترغم العاطلين الكسالى على مزاولة العمل. وتزايد تشغيل الأولاد في الصناعات المحلية، وبخاصة النسيج. وتهلل وابتهج ديفو لأنه في "كولشستر وتونتون": "لم يكن ولد فوق الخامسة من العمر، في المدينة أو فيما حولها من القرى، أهمله والده أو لم ينلق تعليماً، الا واستطاع أن يكسب قوته" وبالمثل حول "وست رايدنج": "لا يكاد يوجد ولد جاوز الرابعة إلا كفته يداه مؤونة العيش(58)".

وكان معظم الصناعة يتم في البيت أو في حوانيت الأسرة. وحدث

صفحة رقم : 10855

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الاقتصاد الإنجليزي

توسع في نظام المصانع في النسيج والحديد. وتذكر نشرة ظهرت في 1685 كيف أن "أصحاب المصانع يشيدون بتكاليف باهظة، دوراً ضخمة تضم كل القائمين بعمليات صناعة الصوف، من فرز وتمشيط وغزل ونسج وكبس بل وصباغة، في صعيد واحد". وقيل أنه كان هناك مصنع من هذا القبيل يعمل فيه 340 شخصاً. وكان في جلاسجو في 1700 مصنع نسيج يضم 1400 عامل (59). وكان تقسيم العمل والتخصص فيه أخذين في التقدم، وكتب سير وليام بيتي في 1683 "في صناعة الساعة"، إذا قام فرد بعمل التروس، وآخر بصنع الزنبرك، فثمة ثالث يحفر القرص المدرج، ورابع يتولى صناعة الأغلفة ومن ثم تخرج الساعة أحسن وأرخص مما لو كلف بالعمل كله فرد واحد (60). وظلت أجور الأعمال الزراعية يحددها الحكام المحليون وفقاً لقانون الغلمان المهنيين "الذي صدر في 1585 في عهد اليزابيث، فإذا دفع رب العمل، أو أخذ العامل، أكثر من الأجر المحدد، تعرض كلاهما للعقاب. وتراوحت أجور العمال الزراعية في تلك الفترة بين خمسة وسبعة شلنات في الأسبوع مع الإقامة والطعام (61). أما الصناعة فكانت الأجور فيها أعلى قليلاً. فكان الأجر اليومي شلناً في المتوسط، وربما كان هذا، من حيث القيمة الشرائية، يعادل، دولارين ونصف دولار في 1960. أما أجور المساكن فكانت منخفضة نسبياً، حيث كان إيجار البيت المتوسط في لندن يبلغ نحو 30 جنيهاً في السنة (62). وكانت البيرة رخيصة الثمن، أما السكر والملح والفحم والصابون والأحذية والملابس، فكانت أثمانها في 1685 تعادل أثمانها في 1848 (63). وازدادت أسعار الحبوب إلى خمسة أمثالها بين عامي 1500 و1700 (64). وأكلت طبقات العمال خبز الجاودار والشعير والشوفان، أما خبز القمح فكان ترفاً ينعم به ذو اليسار، وندراً ما ذاق الفقراء اللحم. واعتبر الفقر الذي كان عليه جمهور الشعب أمراً عادياً، وربما كان أشد منه في أخريات العصور الوسطى (65). ويقول ثورولد روجرز:

صفحة رقم : 10856

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الاقتصاد الإنجليزي

"سعى مالكو الأرض طوال القرن السابع أن يحصلوا من مستأجري الأرض على أكبر ما يستطيعون من إيجار، وبأقصى ما يمكن من قوة فرضوا على العمال أجور تؤدي بهم إلى الجوع والعوز، وبذلوا قصارى جهدهم في استغلال التشريع ليحصلوا من المستهلك على أسعار عالية تقرب الناس من حافة المجاعة والقحط. والتاريخ زاهر بالشواهد الكثيرة على تقادم الحال يوماً بعد يوم (66)".

وفي 1696 قدر جريجوري كنج أن ربع سكان إنجلترا كان يعيش على الصدقات، وأن الأموال التي تجمع لإعانة الفقراء كانت تعادل ربع تجارة الصادرات (67). وقهر الأغنياء الفقراء وغلّبهم على أمرهم إلى حد بات معه الأجراء والفلاحون أضعف من أن يثوروا ويتمردوا، ولمدة نصف قرن خمد صراع الطبقات في إنجلترا (68).

أما الكنيسة الأنجليكانية التي كانت قد تجاسرت أيام شارل الأول على أن تدفع عن الفقراء من وقت لآخر، فقد خلصت الآن، نتيجة للثورة البيوريتانية، إلى أن مصالحها تحقق على أحسن وجه، إذا ربطتها بمصالح طبقات الملاك ربطاً تاماً (69). وكان البرلمان من ائتلاف بين مالكي الأرض وأصحاب المصانع والتجار والرأسماليين. ومن ثم أصغى، بحكم شعور الزمالة المتبادل، إلى صيحات طبقة أرباب العمل ليخلصهم من القوانين التي تعوق انطلاق القوى

الاقتصادية للعمل دون قيود. وقبل نهاية القرن السابع عشر، وقبل ظهور آدم سميث بزم من طويل، سمعت إنجلترا بصيحة رب العمل "أتركه يعمل" (سياسة عدم التدخل) من أجل الحرية الاقتصادية، وتخلص أرباب العمل من العوائق الاقتصادية والإقطاعية والنقابية، في تشغيل العمال والإنتاج والتجارة (70)، وتجاوزوا القيود النقابية وانهارت النظم المهنية، وبطل العمل بتحديد الأجور عن طريق الحكام المحليين، بفعل القوة النسبية للمساومة بين أرباب العمل الأثرياء والعمال الجياع (71). إن الأيديولوجية الحديثة للحرية، بدأت هنا الآن، حين طالب المقاولون

صفحة رقم : 10857

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الاقتصاد الإنجليزي

والملتزمون المغامرون، في صخب وغضب، بالتححرر من القيود القانونية والأخلاقية. وباتت التجارة الآن عنصراً هاماً فعلاً في الاقتصاد الإنجليزي، وعاملاً حيوياً في حصول البرلمان على الاعتمادات التي يقررها، إلى حد أنها، أي التجارة، شقت طريقها لتفعل ما نشاء مع الحكومة يسيطر عليها مالكو الأرض. وأصبح التشريع الإنجليزي في التجارة، يحابي الإنجليز لا على حساب الهولنديين وهدمهم، بل على حساب الأيرلنديين والاسكتلنديين كذلك، وحرم اتيراد الماشية والأغنام والخنازير من أيرلندا واستبعد الغلال الاسكتلندي، وفرضت ضرائب ثقيلة على واردات اسكتلندا، إن الرغبة في التوسع في التجارة الإنجليزية وتغيير الحماية العسكرية لها، هي التي حثت على التحالف مع البرتغال، وزواج شارل الثاني من كاترين برانزا، وعلى تجدد الحرب مع المقاطعات المتحدة، والتصميم على الاحتفاظ بجبل طارق. وتضاعف حجم تجارة إنجلترا بين عامي 1660 و1688، بسبب الانتصار على الهولنديين، إلى جانب أسباب أخرى (72)، وكتب شارل الثاني إلى أخته يقول: "إن أقرب شيء إلى قلب هذه الأمة هو التجارة وكل ما يتعلق بها (73)". وبات ثراء التجارة يناقش الآن اقتناء الأراضي الواسعة الطيبة. ومدت المشروعات المغامرة الإنجليزية أذرعها في كل اتجاه، فانتسعت للمشروعات الجديدة في نيويورك ونيوجرسي ومنسلفانيا وكارولينا وكندا، ومُنحت شركة الهند الشرقية كل الحقوق فيما تستطيع أن تضع يدها عليه في الهند، وكان لهذه الشركة أسطولها وجيشها وحصونها وعملياتها وقوانينها، وكانت تعلن الحرب وتفاوض لعقد الصلح، وتم الاستيلاء على بومباي بالمصاهرة في 1661، وعلى منهاتن (في نيويورك) بحق الفتح في 1664. وفي العام نفسه استولى الإنجليز على الممتلكات الهولندية على الساحل الغربي لأفريقية. ومن أجل تزويد هذه المستعمرات بالأيدي العاملة نشأت عادة "الإكراه" وهي إغراء الشبان الإنجليز بالعمل في هذه "المزارع" بتقديم الخمر لهم أو ضربهم حتى يفقدوا وعيهم، وعندئذ يحملونهم إلى ظهر سفينة

صفحة رقم : 10858

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الاقتصاد الإنجليزي

على وشك الإقلاع، ثم يوضحون لهم أنهم كانوا قد وقعوا عقداً للعمل (74). إن القانون قد حرم هذا الإجراء، ولكنه لم ينفذ. وكان موقف البرلمان واضحاً، فإنه على حين انتهت ثورتا 1642-1649 و 1688-1689 إلى تغلب البرلمان على الملك، حدثت في نفس الوقت ثورة اقتصادية متزامنة انتهت بسيطرة التجارة والصناعة والمال على البرلمان. وكان في إنجلترا في تلك الأيام مئات من "الصانعين أصحاب المصارف" (مقرضو النقود) الذين يدفعوا 6% أرباحاً على الودائع، ويتقاضون 8% على القروض (75). وكان شارل الثاني يلتمس أي منفذ لتجنب سلطة البرلمان على الخزانة، فلجأ إلى الإستاندانه كثيراً من أصحاب المصارف هؤلاء، حتى بلغت ديونه منهم في 2 يناير 1672، 1328526 جنيهاً (76)، وفي هذا التاريخ كان مجلس الملك على وشك أن يشن الحرب على المقاطعات المتحدة فأحدث في مجتمع المال هزة عنيفة "بإغلاق خزانة الدولة" أي منع تسديد فوائد ديون الدولة لمدة عام. فساد الذعر، ورفض أصحاب المصارف الوفاء بالتزاماتهم تجاه أصحاب الودائع، أو تنفيذ اتفاقاتهم مع التجار، وعمل المجلس بعود قاطعة باستئناف الدفع في نهاية العام. واستأنف الدفع في 1674، وسدد رأس المال عن طريق تعهدات والتزامات حكومة جديدة. والواقع أنه في 2 يناير 1672 تحددت بداية الدين الوطني في إنجلترا، وتلك حيلة جديدة في تمويل الدولة.

ومذ باتت لندن موطن أصحاب المصارف وأمرء التجارة ومركز الثورة المجموعة عن طريق نظام الأسعار، من منتجي الطعام والسلع، فإنها كانت الآن أكثر مدن أوربا اكتظاظاً بالسكان، فنافست قصور الرجال الأعمال الأرستقراطية في البذخ والتزرف، إن لم يكن في الذوق. وكانت فيها مجموعة من المخازن بشعاراتها الفاتنة ولافتاتها المزخرفة ونوافذها ذات الأعمدة الحجرية، تعرض منتجات العالم أمام أنظار الأقلية، ورسفت

صفحة رقم : 10859

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الاقتصاد الإنجليزي

الشوارع الرئيسية وحدها بالحصى عادةً وحوالي 1684 أضيفت بنور ضعيف حتى منتصف الليل في الليالي غير المقمرة بفتاديل يعلق الواحد منها كل عشرة أبواب. ولم يكن للشوارع أرصفة للمشاة، وكانت نهاراً تعج بالحركة الصاخبة من الباعة المتجولين الذين يعرضون بضاعتهم في سلاسل أو عربات يد، أو عجلات يد، وبالمنادين الذين يعرضون القيام بخدمات منزلية مثل "قتل الفئران والجرذان (27)". وكان هناك المتسولون واللصوص في كل شارع، كما وجد أيضاً المغنون الذين يرفعون عقيرتهم بالأغنيات من أجل الحصول على بنس. وكان حي الأعمال يسمى "السيئي". وكان يحكمه العمدة وهيئة البلدية ومجلس أرباب البيوت في الأحياء أعضاءه. والى القرب من هذا الحي، كان يقع "الحي السياسي" وستمنستر، وفيه الكنيسة والقصر اللذان يحملان هذا الاسم (وكان القصر مقر البرلمان)، وفيه القصران الملكيان هويت هول وسان جيمس، وخارج هذين القسمين من المدينة كانت أحياء الأكوخ التي تعج بالفقراء الكثيرون التناسل. ولم تكن الشوارع فيها مرصوفة فكانت العربات ترش، مزهوة، ماء المطر أو الوحل على المشاة، وهي تصطدم بالجدران في الأزقة الضيقة. وكانت المنازل ضيقة جداً بعضها من بعض، والأدوار العليا متلاصقة متقابلة، مما لا يدع مجالاً لضوء الشمس المتقطع أن ينفذ إليها. ولم يكن نظام المجاري الحالي معروفاً في لندن آنذاك، بل كانت مراحيض خارجية وبالوعات، وكانت العربات تحمل الفضلات وتقذف بها خارج حدود المدينة، أو في نهر التيمز بطريق خفية غير مشروعة.

وكان تلوث الهواء آنذاك بالفعل مشكلة وبناء على طلب الملك أعد جون افلين ونشر 1661 خطة لتبديد الدخان الذي علق بسماء لندن، قال:

"إن الإسراف في استخدام الفحم يعرض لندن لأسوأ الإزعاج والخزي

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الاقتصاد الإنجليزي

والعار، وليس هذا ناشئاً من نيران المطابخ التي لا يكاد يرى لها أثر، بل من بعض مداخن معينة في مصانع البيرة ومحال الصباغة وإحراق الجير، ومصانع الملح وجلي الصابون وبعض مصانع أخرى، تكفي فوهة إحدى المداخن فيها، وحدها وبشكل واضح، لتلويث الهواء وإزعاج لندن أكثر مما تفعل مداخل المدينة مجتمعة... إن لندن تكون أقرب شبيهاً ببركان آتته أو بضواحي جهنم، منها بمجتمع تعيش فيه مخلوقات عالقة، حين تفتح هذه المداخن أفواها وتنفث القتام والسخام... أن السائح المنهوك سرعان ما يشم، من مسافة عدة أميال، رائحة المدينة التي يقصد إليها، قبل أن يراها... أن هذا الدخان الأسود الكريه... يقرح الرئتين، وهذا داء لا شفاء منه، إلى حد أنه يقضي على أعداد كبيرة من الناس، نتيجة السيل المنهك الخطير، كما ينبئ بذلك نشرات الوفيات الأسبوعية (78)".

وأعد ايغلين مشروع قانون للبرلمان الذي كان أقرب منالاً لرجال الصناعة الأثرياء منه للجمهور الذي يعوزه التنظيم، ومن ثم لم يحرك هذا البرلمان ساكناً. وبعد ثلاثة عشر عاماً سوياً رفع سير توماس براون صوت الطب عالياً، يحذر من:-

"الروائح الكريهة التي تنفثها البالوعات العامة، والأماكن المنتنة وفضلات المواد المغلية التي تستخدمها المصانع القذرة غير الصحية كما أن الضباب والسديم يعوقان دخان الفحم من أن يهبط ويبتدد، ومن ثم يمتزج بالسديم وينتفسه الناس، ولكل هذا آثار سيئة، حيث يلوث الدم ويعرض السكان إلى النزلات الشعبية والسعال (79)".

إن الهواء الفاسد، وضعف الرعاية الصحية وسوء التغذية كان يهدد بانتشار الأوبئة في كل عام وما أن تجيء فترة تتجمع فيها ظروف غير مواتية، حتى تنزل كارثة الطاعون. وفي 31 أكتوبر 1663 دون بيبز في مذكراته: "أن الطاعون منتشر في أمستردام، ونحن في فزع منه هنا". وكانت السفن القادمة من هولندا تخضع للحجر الصحي، وفي ديسمبر 1664 مات شخص واحد بالطاعون في لندن، واثنان في أبريل 1665،

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الاقتصاد الإنجليزي

وفي مايو 43 شخصاً، وهكذا تقاوم الحال حتى حل الصيف الحار مع مطر قليل يساعد على تنظيف الشوارع، فكان ضغثاً على إبالة، وأيقنت لندن التي ملأها الفزع والجزع، أنها تواجه شيئاً شبيهاً بالموت الأسود 1348 الذي لا تزال ذكره عالقة بالأذهان. وكان ديفو آنذاك صيباً في السادسة، ولكنه استطاع أن يعي قدراً كبيراً مما تردد في هاتيك الأيام عن الطاعون، فكتب قطعة خيالية بعنوان "صحيفة عام الطاعون" تكاد نتكون في منزلة التاريخ (80):

"منذ الأسبوع الأول من يونيو انتشرت العدوى بصورة الرهيبية، وارتفعت أرقام الوفيات، وعمد الناس إلى إخفاء قلقهم قدر الطاقة، حتى يحولون دون ابتعاد جيرانهم عنهم، أو دون إغلاق الحكومة لبيوتهم. وفي يونيو تزاحم الأغنياء على

مغادرة المدينة، وفي هويتها بل ما كان يمكن أن ترى إلا العربات، وعربات اليد تحمل البضائع والنسوة والأطفال وغيرهم، بالإضافة إلى عدد لا يحصى من الرجال على ظهور الخيل .. وهو منظر رهيب وكئيب (81)". وزادت النذر والتنبؤات عن المصير المشؤوم من الرعب، وأغلقت المسارح وحلقات الرقص والمدارس ودور المحاكم. وانتقل الملك وحاشيته في يونيو إلى أكسفورد "حتى يحوظهم الله برعايته إن شاء" دون أن يمسه سوء، ولو أن صيحات التائب تعالت ضدهم لأنهم هم الذين جلبوا هذا البلاء، عقاباً من عند الله، على فسادهم وفجورهم، وبقي رئيس أساقفة كنتربري في مقره في لامبث، ينفق في كل أسبوع عدة مئات من الجنيهات عوناً للمرضى والأموال. وبقي موظفوا المدينة فيها يقومون بأعمال بطولية. وأرسل الملك ألف جنيه ورجال الأعمال في "السياتي" ستمائة جنيه أسبوعياً، وهرب كثير من الأطباء ورجال الدين، وبقي آخرون وقضى كثيرون نحبتهم متأثرين بالعدوى. وجرب الناس الأدوية والعلاجات على أختلاف أنواعها، فلما أخفقت لجأوا إلى التمانم والتعاويد التي قد تصنع

صفحة رقم : 10862

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الاقتصاد الإنجليزي

المعجزات. وفي 31 أغسطس 1665 قال بيبز "في هذا الأسبوع مات 7496 شخصاً منهم 1602 بالطاعون". وكان حفارو القبور يحملون من يموتون في الشوارع على عربات اليد، ويدفنونهم في مقابر عامة. وبلغت جملة من ماتوا بالطاعون من أهالي لندن 1665، نحو سبعين ألفاً، وهذا سبع السكان. وخف الوباء في ديسمبر، وعاد الناس لمزاولة أعمالهم شيئاً فشيئاً. وفي فبراير 1666 عادت الحاشية إلى العاصمة. وما كاد السكان الباقون على قيد الحياة يروضون أنفسهم على احتمال ما كلفهم الطاعون من خسائر حتى داهمت المدينة كارثة أخرى. وكانت كارثة حقاً، ذلك أنه في يونيو 1666 أبحر الهولنديون في جرة إلى النيمز ودمروا المراكب الإنجليزية فيه بمدافع سمع صوتها في لندن. ولكن في الساعة الثالثة من صباح الأحد 3 سبتمبر، في حانوت خباز في بودنج لين، شب حريق، أتى في ثلاثة أيام على معظم الجزء من لندن الواقع شمال النهر، ومرة أخرى تأمرت الظروف وتجمعت المصائب: صيف جاف، وبيوت كلها تقريباً مبنية من الخشب، متلاصقة، كثير منها خال من السكان الذين يقضون عطلة نهاية الأسبوع في الريف، مخازن مملأ بالزيت والقار والقنب والكتان والخمور وغيرها من المواد القابلة للاحتراق في الحال، ثم هبت رياح عاصفة حملت النار من بيت إلى بيت، ومن شارع إلى شارع، أضف إلى ذلك سوء التنظيم وعدم الاستعداد لمواجهة مثل هذا الحريق في مثل هذا الوقت من الليل. ومن حسن حظ ايفلين أنه كان في سوثرارك، فأسرع إلى شاطئ النهر. "حيث شهدنا المدينة بأسرها وقد أندلع فيها اللهب الرهيب بالقرب من الماء، في كل الدور من جسر لندن، وفي شارع التيمز، صعداً نحو تشيسيد ... وامتدت النيران في كل مكان، وعرت الدهشة الناس، إلى حد أننا لم ندر منذ البداية، ماذا تولاهم من قنوط وجزع حتى أنهم بشق النفس تحركوا لإخمادها، فلم نكن نسمع أ نرى إلا الصرخات والعيول والنواح

صفحة رقم : 10863

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الاقتصاد الإنجليزي

وهم يجرون هنا وهناك، ذاهلين مخبولين، كذلك أحرقت النار الكنائس والقطاعات العامة، وسوق الأوراق المالية والمستشفيات والآثار والزخارف والبيوت والأثاث كما أنها أتلفت كل شيء ...

وهنا رأينا النهر مغطى بالبضائع الطافية فوق الماء والزوارق والقوارب محملة بالبضائع التي وجد بعض الناس فسحة من الوقت وأوتوا شيئاً من الشجاعة لإنقاذها. كما كان هناك على الجانب الآخر العربات وغيرها، تنقل إلى الحقول، التي انتشرت لعدة أميال كل من كل نوع ... كما نصبت الخيام ليأوى إليها الناس وما استطاعوا أن يستخلصوه من بضاعة ومتاع. يا لهول المنظر الأليم المفجع الذي لم تصادف الدنيا مثله منذ بدء الخليقة. وغطت أسنة النيران وجه السماء، فبدت وكأنها أتون ملتهب ... إني أرجو الله ألا يقع عيناى ثانية على مثل هذا المنظر، منظر أكثر من عشرة آلاف بيت تحترق كلها في لحظة واحدة وكان صوت اللهب المنذع وفرقته ورعده، وصراخ النساء والأطفال، وهرولة الناس، وسقوط الأبراج والمنازل والكنائس، أشبه شيء بعاصفة هوجاء، وكان الهواء ساخناً إلى حد أن الناس اضطروا إلى الوقوف جامدين، تاركين النار يشتد أوارها، وتمتد ألسنتها لمسافة تقرب من ميلين طولاً وميل عرضاً(82)".

وأبلى الملم وأخوه المكروه جيمس، كلاهما، بلاء حسناً في هذه الأزمة، وجدوا في العمل بأيديهم مع مكافحي النيران، وأشرفوا على أعمال الإغاثة ومولها وهينوا المأوى والطعام لمن يأتوا بلا مأوى، وأصروا، برغم المعارضة الشديدة، على هدم البيوت ليحولوا دون امتداد الحريق، مما كان له الأثر في إنقاذ جزء من المدينة في شمال التيمز(83) وكاد الحي التجاري أن يمحى عن آخره، أما حي السياسة "وستمنستر"، فقد أنقذ، ودمر ثلثاً مدينة لندن، بما في ذلك 13200 منزل، 89 كنيسة بما فيها كنيسة سانت بول العتيقة، ولقي ستة أشخاص فقط مصرعهم، ولكن مائتي ألف شخص فقدوا مساكنهم(84). ودمرت معظم المكتبات واحترق من الكتب

صفحة رقم : 10864

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الاقتصاد الإنجليزي

ما قيمته 150 ألف جنيه. وقدر مجموع الخسائر والأضرار بنحو 10730000 جنيه(85)، وهو ما ربما يعادل اليوم 500 مليون دولار.

وبعد الكارثة نظم المجلس البلدي في لندن إدارة للمطافئ، وركبت خراطيم الماء في أنابيب الماء الرئيسية. وكان على كل شركة أن تعين بعض أعضائها ليكونوا على أهبة الاستعداد لتشغيلها لدى سماع أي إنذار، وكان على كل العمال أن يذوهم إذا استدعاهم عمدة المدينة. وأعيد بناء لندن في شيء من التمهل، على طراز أمتن وأقوى، وإن لم يكن أجمل من ذي قبل. وبأمر من الملك حول الطوب والحجر محل الخشب، واختفت الطوابق العليا النائثة، وأصبحت الشوارع أوسع وأكثر استقامة، ورصفت بالحجر السلس الأملس، وخصصت الطوارات للمشاة. وتحسنت الرعاية الصحية. وقضت النيران على كثير من الأقدار والفنران والجرائم فتخلصت لندن من الطاعون، وجدد المهندس المعماري "رن" بناء كنيسة سانت بول.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الفن والموسيقى

4- الفن والموسيقى

1702-1660

ولد كرسنوفر رن Wren في أحضان الدين، ورضع لبان العلم، وتوجه بالفن. كان أبوه كبير كهنة وندرسون، وعمه أسقف الي Ely، والتحق بمدرسة وستمنستر، ثم كلية وادهام في "أكسفورد" وفي 1653 حصل وهو في الحادية والعشرين على منحة لمتابعة الدراسة في كلية "جميع النفوس". ثم أصبح في سن الخامسة والعشرين أستاذاً للفلك في كلية جريشام في لندن، وفي سن التاسعة والعشرين شغل "كرسي" "سافيل" للفلك في أكسفورد. وبدا أنه وهب نفسه للعلم، فقد سحرت لبه الرياضيات والميكانيكا والبصريات والأرصاء الجوية والفلك. فقوم السيكلويد (وجد أن الخط المستقيم مكافئ لانحناء السيكلويد). وشرح قوانين التصادم، ونسب إليه نيوتن كثيراً من التجارب التي أدت إلى وضع قوانين الحركة الثلاثة(86). وعمل بجد على تحسين التلسكوب وصقل

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الفن والموسيقى

العدسات وبحث في دوائر زحل. وابتكر طريقة إلى تحويل الماء المالح إلى ماء عذب، وأدى من أجل بويل أول عملية حقن سائل في مجرى الدم في الحيوان. وأثبت أن الحيوان يمكن أن يعيش بسهولة بعد إزالة طحاله. واشترك مع توماس ولس Willis في تشريح المخ. وأعد الرسوم اللازمة "لتشريح ولس المشهور" وكان من أوائل أعضاء "الجمعية الملكية" وهو الذي كتب مقدمة ميثاقها. وما كان لأحد أن يعلم أنه سيخلد في التاريخ على أنه أعظم مهندس معماري لإنجليزي.

إن الظروف قد تغير مجرى الحياة. وربما كانت مهارة رن في الرسم هي التي حدثت بشارل الثاني إلى تعينه مساعد لسير جون دنهام (1661) رئيس المساحة في الأشغال العامة. وسرعان ما وجد في العمارة ذلك التزاوج بين العلم والفن، أي إضفاء الجمال على الحقيقة، وهذا هو ما كان يشغل كل تفكيره. وكتب يقول: "هناك لوانان من الجمال: الجمال الطبيعي والجمال المألوف أو العادي المتعارف عليه. والجمال الطبيعي تأتي لنا به الهندسة، أما الثاني، الجمال المألوف، فإنه يأتي من ترويض حواسنا على الأشياء التي تبعث السرور والبهجة عادة ... في نفوسنا ولكن المعيار

الحقيقي دائماً هو الجمال الطبيعي أو الجمال الهندسي(87)" . فالشيء الصحيح هندسياً، كما يرى رن، يسرنا هو نفسه، ويكون جميلاً (أحد الجسور الكبرى في العالم مثلاً). ومن هذه الزاوية أثر العمارة الكلاسيكية على العمارة الموطية. وفي تصميماته الأولى ترسم خطى اينجو جونز.

وفى 1663 وضع تصميم مسرح شلدون في أكسفورد للأسقف جلبرت شلدون، وهنا منذ البداية، أتبع مبادئ كلاسيكية. فرفع الصرح الدائري الضخم، على نفس الطراز الذي وضعه فتروفوريوس في قديم الزمان وفيولا في عصر النهضة. وساعدت إقامته الطويلة في فرنسا 1664-1666 على ترسيخ ميوله الكلاسيكية. ولكن إعجابه بكنيسة فرنسوا مانسارت في فال-دي-جراس، جنح به إلى إضافة شيء من زخارف الباروك إلى

صفحة رقم : 10867

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الفن والموسيقى

واجهات مبانیه كما انه قد تذكر قبة فال-دي-جراس، وهو يعيد بناء كنيسة سانت بول. وعاد رن إلى لندن في مارس 1666. وفي أبريل، بناء على طلب الأسقف شلدون وضع خطة لإصلاح الكاتدرائية المتداعية، التي شاخنت من العمر آنذاك نحو 600 عام وفي أغسطس وافقت لجنة إصلاح كنيسة سانت بول على مشروع رن. ولم يمض على ذلك أسبوعان حتى دمر حريق لندن التاريخي الكنيسة، وجرى الرصاص الذي أذابته النيران من سقفها الشوارع.

إن هذا الحريق الذي أتى على ثلثي العاصمة هياً للعمارة فرصة لم تتح لها منذ حريق رومه. وكانت النيران لا تزال كامنة تنفث الدخان حين عرض رن على شارل الثاني مشروع إعادة بناء المدينة. وقبل الملك المشروع، ولكن أعوزه المال اللازم له، كما أن المشروع تعارض مع حقوق الملكية القوية. وشغل رن نفسه بمشروعات أخرى، وأعد في 1673 تصميماً لكنيسة سانت بول جديدة. ولكن رجال الكاتدرائية اعترضوا بأن التصميم عليه سيء معيد وثني، وحثوا رن على التزام الطراز القوطي في الكنيسة العتيقة، ووافق كارهاً على حل وسط، بحيث يكون الداخل عبارة عن أفواس وجناح من الكنيسة ومكان خاص بالمرتلين، وكلها على الطراز القوطي، على أن تكون الواجهة من طراز عصر النهضة: مدخل ذو رواق معمد وقوصرة كلاسيكية وبرجان من طراز الباروك. وكانت النتيجة خليط كره المنظر من الطراز، ولو أن رن أصلح منه بعض الشيء بتتويج الجزء الداخلي بقبة تتنافس قبة برونلسكي في فلورنسة وميكل أنجلو في رومه وستظل سانت بول أروع كنيسة شادها البروتستانت. وعل حين مضى هذا المشروع في طريق التنفيذ لمدة خمسة وثلاثين عاماً، فإن رن الذي خلف دنهام في تولي شؤون المساحة العامة، وضع تصميماً،

صفحة رقم : 10868

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الفن والموسيقى

لثلاث وخمسين كنيسة أخرى. أشتهر كثير منها بأبراجها وقممها المستدقة التي جمعت بين حاسة الجمال وبين نزعة الرياضية. أضف إلى هذا دار الجمارك في لندن، والمستشفى في كل من جرينتش وشلس، والكنائس الصغيرة في كلية بمبورك في كمبردج وترنيتي كولدج في أوكسفورد، ومكتبة ترنيتي كولدج في كمبردج والجناح الشرقي الكلاسيكي في قصر مبنون كورت، وستاً وثلاثين داراً نقابية، وعدداً من الدور الخاصة بل يبدو أنه في الأربعين عاماً الأخيرة من القرن السابع عشر. لم يشيد مبنى له قيمته وأهميته، إلا كان رن هو المهندس الذي تولاه (88). واحتفظ رن بمنصبه في المساحة طوال حكم شارل الثاني، وجيمس الثاني، ووليم وماري، وأن. وتقاعد عن العمل في سن السادسة والثمانين، ولكنه ظل لخمسة سنوات أخرى يشرف على العمل في كنيسة وستمنستر، وينسب بعضهم إليه الفضل إقامة أبراجها، وفارق الحياة في سن الحادية والتسعين، ودفن في كنيسة سانت بول.

وكان فن النحت لا يزال يتيماً في إنجلترا. ولكن الحفر على الخشب كان فناً ربيعاً. وكان جرنلنج جيبونز معاوناً له، قيمته للمهندس رن، قام بحفر المقاعد في المكان المخصص للمرتلين وصندوق الأرعن الفخم في كنيسة سانت بول، والزخارف في قصر وندرسون وقصر كنسنجتن وهامبتون كورت.

واستمر فن الرسم في إنجلترا على أن يستقدم الأساتذة ويثبط من همم بنيه. وعلى الرغم من ذلك، كان بعضهم يعد جون ريلي أعظم رسام لصور الأشخاص في فترة عودة الكنيسة الملكية وأدرك جون أن الوجه المدروس الذي يرسم في رؤية، هو في ذاته سيرة حياة، فاستطاع أن يقرأ خطوطه، وفي بصيرة نافذة كشف في ثناياه عن خفاياه وأسراره وأبرزها في شجاعة غير مريحة. وكاد تعليق شارل الثاني على صورة رسمها له ريلي يكون سبباً في انهيار الفنان ودماره، حين قال الملك: "أهذه صورتي؟ يا لخبية الأمل،

صفحة رقم : 10869

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الفن والموسيقى

اذن أنا رجل قبيح المنظر " ومضى زمن طويل قبل أن تدرك الحاشية أن هذا كان مجرد تحية عفوية لأمانة الفنان. وبنفس الدقة والأمانة أخرج ريلي صور الملك الأحق جيمس الثاني، وادموند وإلر الشاعر المرتد، وارل أروندل الأرستقراطي التافه المختال. ولكنه حين رسم كرسنوفر رن وروبرت بويل، وقع على العبقرية ووضع يده على إمارتها في الوجه، ويريقها في العينين. قال هوراس وولبول "ربما كان في مقدور ريلي، برقع غرور سير جودفري نلر، أن يقنع العالم بتقوقه وسموه (89). وفارق الحياة 1691 وهو في سن الخامسة والأربعين.

وكان للي الهولندي ونللي الألماني فارسي الحلبة المرموقين في الرسم الأشخاص في عصر آل سنيوارت الثاني. وكان والد للي جندياً هولندياً اسمه فان درفاس. واشتق لقبه هذا (للي) من زنبقة كانت مرسومة على داره. وانحدر اللقب إلى الابن. ولد بيتر في وستقاليا 1618، ودرس الفن في هارلم، وعبر البحر إلى إنجلترا (1641) حين سمع أن شارل الأول أوتي الذوق والمال، ووفق في أن يختلف فاندريك بوصفه مصور الأشخاص الذي يبتغيه الناس، وظل محتفظاً بمكانته هذه على عهد كرومول وشارل الثاني، وأقتبس للي أسلوب فاندريك في إضفاء الأناقة والرشاقة على الجالسين أمامه (لرسمهم). ولو في اللباس فقط. وحاصرته ربات الجمال في الحاشية، من ذلك أننا نرى في قاعة المتحف الوطني لوحة نل جون ريانة فاتنة الدعارة. وكونتس شروزبري التي ساءت سمعتها، بمغامراتها الغرامية كما نرى على جدران قصر هامبتون كورت ليدي كاسلمين ولويزدي كيروال، تزدهيان بحلمات أذنائهما. وأجمل من ذلك جون تشرشل وهو طفل مع أخته (89) أزابلا (90) ومن الذي كان يتوقع أن يصبح هذا الطفل الملايكي والطفلة الملايكية دون مالبرو القوى الجبار، والعشيقة التي تصعب زحزحتها لجيمس دوق يورك؟. وعن طريق مثل هذه اللوحات حصل للي على لقب فارس، وجمع ثورة، فقد جلس أمامه شارل الثاني وسة من الأذواق

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الفن والموسيقى

لرسمهم. ورأى بيبز أنه جبار معتد بنفسه .. يحظى بمنزلة رفيعة (91)، وكان يعيش "عيشة مترفة باذخة (92)" وحدد له موعداً للقائه بعد ثلاثة أسابيع.

وفي 1674، أي قبل وفاة للي بست سنوات، قدم إلى لندن رجل ألماني عقد العزم على لن يخلف سير بيتر (للي) في رسم الأشخاص وفي كسب المال وفي الفروسية، وحقق الرجل برنامجاً وكان الرجل، وهو جوتفريد فون نلر، آنذاك في الثامنة والعشرين، وعينه شارل الثاني "مصور البلاط" واحتفظ نلر بهذا المنصب في عهد جيمس الثاني ووليم الثالث الذي منحه لقب فارس، ورسم سير جودفري لوحات لثلاثة وأربعين من أعضاء "نادي كيت كات" ذي المكانة السياسية البارزة (93) ولعشر من النساء الخطيرات المغويات في بلاط وليم (94). وغطى على شهرة ديديرن ولوك. ومثلما يتلطف أي إنسان على الخلود، حول نلر مرسمه الفخم إلى مصنع ينتج بالجملة، بهيئة لم يسبق لها مثيل من المساعدين، يختص كل منهم في شيء معين: الأيدي، الثياب الأشرطة والخطوط الملونة. وفي بعض الأحيان جلس أمامه أربعة عشر شخصاً في يوم واحد. وشيد قصرأ في الريف، وتنقل بينه وبين بيته في المدينة في عربة تجرها ستة جياذ. واحتفظ بحياته في كل التقلبات السياسية. وفاضت روحه وهو في فراشه معزراً مكرماً في سن السابعة والسبعين (1723) وفي تلك السنة ولد رينولدز، وكان هو جارت في السادسة والعشرين من العمر، وبدأ الرسم الوطني يتزعرع ويشق طريقه.

وقضى البيوريتانيون تقريباً على الفن، ولكنهم لم يخرسوا الموسيقى. ولم يخلُ من الآلات الموسيقية إلا أحر البيوت، ولحظ بيبز وجود العذراوية (آلة تشبه البيان الصغير بدون قوائم) في كل قارب من ثلاثة القوارب التي تحمل المنقذة في التيمز أثناء الحريق (95)، وكتب يقول: "لا بد أن أفسح المجال للموسيقى والنساء مهما كنت مشغولاً".

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الفن والموسيقى

وكان يورد ذكر صفارته ومزهره وعوده وقيثارته. قدر ما يذكر أسلحته (96) وكل إنسان ورد ذكره في مذكراته، كان يعزف ويغني. وكان من القضايا المسلم بها عنده أن أصدقاءه كان في مقدورهم أن يشاركوا في الغناء (97)، وأنه هو وزوجته وخادمتها كانوا يغنون في حديقته غناءً متناغماً، بشكل مقبول إلى حد أن جيرانهم كانوا يفتحون النوافذ ليستمعوا إليهم.

وفي الابتهاج بعودة الملكية صدحت الموسيقى من كل شكل ولون. واستقدم شارل الموسيقيين من فرنسا. وسرعان ما جعل الناس يدركون أنه كان يجذب الألحان الرخيمة المبهجة الواضحة التي لا تحسب الرياضيات تناسقاً أو تناغماً. ووضعت آلات الأرغن من جديد ولعلعت في الكنائس الرسمية. وكان الأرغن الذي صمم لكنيسة سانت جورج في

وندسور ، وللكندرانية في أكستر ، من بين عجائب الدنيا التي أحدثت دويماً في ذلك العصر. ولكن حتى في جماعة المنشدين في الكنيسة حل محل الوقار والرهبنة، عروض مسرحية من فناني والآلات المنشدين المنفردين. وأمر شارل الثاني وجيمس الثاني بإعداد الموسيقى للشعر الغنائي وحلقات الرقص التي تقام احتفالاً بالمناسبات الملكية. واستخدمت الكنائس الموسيقى لقاء أجر، وجازفت المسارح بالأوبرا، وبدأ الملحنون والعازفون الإنجليز يرتقون من جديد. وفي 1656 أُنقح سير وليم دافنانت حكومة الحماية لترخص له في إعادة افتتاح مسرح، على أساس أنه سيخرج أوبرا، لا رواية وفي "حفلة الأيام الأولى" التي مثلها لم يكن هناك أوبرا بقدر ما كان هناك سلسلة من الحوارات سبقتها وتخللتها وأعقبها الموسيقى. ولكن في العام نفسه عرض دافنانت في مسرحه الخاص "رتلند هاوس" أول أوبرا لإنجليزية "حصار رودس(98)" ولكن إغلاق المسارح بسبب الطاعون والحريق، عوق هذه التجارب. على أنه في 1667 عرض دافنانت المغامر، في صورة

صفحة رقم : 10872

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الفن والموسيقى

موسيقية معدلة "العاصفة" التي زعم أنها من عمل أبيه. وحددت أوبرا بورسل "ديدو وإينياس" بداية الأوبرا الكاملة في إنجلترا. وكما هو الحال غالباً في تاريخ الموسيقى، فإن عبقرية هنري بورسل كانت في معظمها نتاج وراثته اجتماعية - أي بيئة سن المراهقة. فكان أبوه رئيس المرتلين في وستمنستر، وكان عمه يشغل وظيفة "ملحن القيثارات لصاحب الجلالة". وكان أخوه ملحناً وكاتباً مسرحياً. وتابع ابنه وحفيده عمله في العزف على الأرغن في الكنيسة. أما هو فلم يمتد به الأجل لأكثر من سبعة وثلاثين عاماً (1658-1695)، وتولى الترتيل في الكنيسة الملكية وهو لا يزال صبيّاً، حتى ضعف صوته. وألف في شبابه ترانيم دينيه ظلت تسمع في الكاتدرائيات الإنجليزية على مدى قرن من الزمان: وألحنته الإثني عشر من نوع السوناتة (1683) لقيثارتين أو لأرغن وبيان قيثاري، هي التي جلبت شكل السوناتة من إيطاليا إلى إنجلترا، ويقول بيرني أن أغانيه وترانيمه والكانتاتات (قصة تنشدها المجموعة على أنغام الموسيقى من غير تمثيل) وموسيقى الفرقة التي ألفها "فاقت إلى حد بعيد كل ما أنتجته أو استوردته بلادنا من قبل، إلى حد يبدو أن سائر الألحان الموسيقية باعت بالاحتقار أو لاذت بزوايا النسيان(99)". ولما كان بروسل منهمكاً في عمله، عازفاً على الأرغن وملحناً، فإنه لم يتيسر له أن يخرج "ديدو وإينياس" قبل 1689، لنخبه مختارة من المتقربين، في إحدى مدارس البنات في لندن. وتبدو الموسيقى لنا الآن، حتى الاستهلال المشهور، هزيلة نحيلة، ولكن يجب أن نتذكر أن الأوبرا كانت في المهد، وأن جمهور المستمعين آنذاك لم يولع بالضوضاء والصخب مثلنا اليوم أما اللحن الأخير -عويل ديدو ونواحها: "عندما

صفحة رقم : 10873

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الفن والموسيقى

أتوسد الثرى" فإنه من أكثر ما يهز المشاعر ويؤثر في النفوس، من ألحان في تاريخ الأوبرا بأسره". أما "الملك آرثر" (1691) التي كتب كلماتها دريدن ووضع موسيقاها بورسل، فليست أوبرا بالمعنى الكامل، حيث يبدو أن الموسيقى لم تكن مرتبطة إلا ارتباطاً يسيراً بجو الرواية أو أحداثها، مثلما أن الرواية بم يكن صلة وثيقة بعصر آرثر كما نراه في مالوري وتيسون. وبعد ذلك بعم واحد، أحرز بورسل تقدماً أكثر في موسيقى ثانوية لرواية "فيرى كوين: الملكة الجنية"، وتكييف مجهول الاسم "الحلم ليلة منتصف الصيف". ولم يمتد به الأجل ليشهد إخراجاً، وضاعت الألحان، ولم تكتشف إلا في 1901 وهي الآن تعد من أحسن ما أنتج بورسل.

وفي 1693 وضع أكثر قصائده الغنائية الكثيرة، أحكاماً وإتقاناً، في الاحتفال بيوم سانت سيسيليا. ولكن أرق هذه القصائد هي "تسبيحه الشكر والابتهاج" المرححة 1694. وكانت تعزف سنوياً في الاحتفال "بأبناء رجال الكنيسة" حتى 1713، حتى اشتركت في هذا الشرف مع مقطوعة هاندل "تسبيحه الشكر من أوترخت"، فكانت تعزفان بالتبادل سنوياً حتى 1743. من أجل جنازة الملكة ماري 1695، ألف بورسل ترتيباً مشهوراً "يا ربنا: أنت أعلم بخفايا قلوبنا". وفي سنواته الأخيرة أسهم في الموسيقى الثانوية لرواية دريدن "الملكة الهولندية" ومن الواضح أنه مرض قبل أن يتمها لأن موسيقى الخاتمة وضعها أخوه دانييل. وحانت منيته، ربما بسبب السل، في 21 نوفمبر 1695. وعلى الرغم مما امتلأت به فترة عودة الملكية من حيوية ونشاط، فإن الموسيقى الإنجليزية لم تكن قد أفاق بعد من نكستها على يد البيوريتانيين بعد عهد اليزابيث. وبدلاً من ترسيخ جذورها ثانية في التربة الإنجليزية، حذت حذو الملك، فانحنت إجلالاً وإكباراً أمام الأساليب

صفحة رقم : 10874

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الفن والموسيقى

الفرنسية والآلات الإيطالية. وبعد أوبرا "ديدو واينياس" غزت الأوبرا الإيطالية مسرح الأوبرا الإنجليزية، يقدمها مغنون إيطاليون. كتب بورسل في 1690 "أن الموسيقى الإنجليزية لم تبلغ بعد سن الرشد إنها طفل تواق إلى طموح يبشر بما يمكن أن يكون عليه في المستقبل ... إذا وجد أساتذته مزيداً من التشجيع(100)".

صفحة رقم : 10875

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الأخلاق

فلنبدأ لفورنا هنا بالتفريق بين عامة الشعب وأبناء الطبقات العليا، فالاستهتار الجنسي الذي ساد فترة عودة الملكية، سرى عن طريق الحاشية إلى الطبقة الوسطى العليا وسكان المدن وما حولها الذين ترددوا على المسارح وربما كانت أخلاق العامة المغمورين أفضل منها في عصر اليزابيث، لأن النظام الاقتصادي أبقاهم على اعتدالهم وبعدهم عن السرف، فلم يكونوا يملكون الوسائل التي يتردون بها إلى مهاوي الرذيلة والشر، وطلوا يحسون بوازع من عقيدتهم البيوريتانية. في الحاشية الملكية، فإن التحلل من القيود البيوريتانية ورد الفعل الناتج عن ذلك، أديا إلى اتصال جنسي غير مشروع ومرح صاخب غير بريء. أما الشباب الأرستقراطي الذي خلع من أرض الوطن وأطلق لنفسه العنان في فرنسا، فقد ترك أخلاقه وراءه في المنفى، وأتى معه لدى عودته بضروب من الفوضى الموسومة بالرشاقة والظرف، وانتقاماً منهم للسنوات التي عانوا فيها عننت الظلم والحرمان والسلب والنهب، شنوا بكل ما أتوا من قوة وذكاء، الحرب على زي البيوريتانيين وحديثهم ولاهوتهم ومبادئ الأخلاق عندهم، إلى حد لم يجرؤ معه أحد من أبناء طبقتهم أن ينيس ببنت شفه من أجل الحشمة والوقار. وبانتت الفضيلة والتقوى والأمانة الزوجية كلها ألواناً من البراءة أو السداجة الريفية وأصبح الزاني الذي يوافق كل التوفيق غي هذه الرذيلة، هو بطل عصره وفريد زمانه، (كما هو الحال في رواية وتشر لي: الزوجة الريفية) والواقع أن الديانة فقدت مكانتها

صفحة رقم : 10876

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الأخلاق

واعتبارها بين الناس، ولم يبق لها شيء من هذا إلا عند الحرفيين والفلاحين، وصار الواعظ موضع احتقار والازدراء على أنهم منافقون كثيرون أغبياء مزعجون مملون ثقلاً الظل. وأصبحت الديانة الوحيدة الصالحة للسيد الماجد هي الأنجليكانية المهدية التي يحضر فيها المولى (رب العمل أو مالك الأرض) صلاة الأحد لتدعيم مركز القسيس الذي زرع الخوف من نار الجحيم في نفوس القرويين، ويسبح بالحمد والشكر، وفي إيجاز مناسب، من جانب المنصة التي يجلس إليها المولى أو سيد القرية. وأصبح أقرب إلى طابع العصر أن يكون المرء مادياً على مذهب هوبز، لا مسيحياً مثل ملتون، الأحقق العجوز الأعمى الذي نظر إلى سفر التكوين على أنه تاريخ، وفقدت نار الجحيم التي بولغ فيها في العشرين سنة الماضية، رهبتها وهيبتها لدى طبقات المالكين. أما الجنة في رأيهم، فهي مائلة دوماً في مجتمع متحرر من الثورة الاجتماعية والكبت الخلفي في ظل حاشية ومك ضرب المثل وتقدما الركب في الفسق والفجور والميسر واللهو والعبث.

وكان ثمة عدة رجال أفاضل ونساء فضليات بين أفراد البلاط الملكي، وكان كلارند مثلاً رجلاً ذا المبادئ وسلوك قديم حتى سارت ابنته في طريق الغاوية فاهتاج وفقد صوابه، وأوصى بقتلها وتحلى أرل سوثمبتون الرابع ودوق أورمند الرابع بالحشمة والوقار، وكان من بين رجال الدين الأنجليكانيين نفر من المخلصين الأتقياء، حتى من الأساقفة أو ذوي المراتب الكنيسة العالية. وصدقت عزيمة الملكة وليدي فانشو والأنسة هملتون، والسيدة جودولفين فيما بعد، في التمسك بأهداب الفضيلة. وبقينا كان هناك أفراد غير هؤلاء وهؤلاء، ضاعت ذكراهم في ثنايا التاريخ لأن الفضيلة لا تعلن عن نفسها.

وكلما علت المكانة انحطت الأخلاق. فهناك جيمس، دوق يورك، شقيق الملك، الذي يبذوا أنه بز الملك في حصته من الخيليات العشيقات (101). وبينما هو في المنفى تسلل إلى مخدع أن هايد ابنة قاضي القضاة، فلما حملت

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الأخلاق

منه توصلت أن يتزوجها ولكنه كان يماطل، وأخيراً وقبل أن تضع وليدها بسبعة أيام (22 أكتوبر 1660) اتخذ منها زوجة شرعية سراً. وعندما سمع أبوها (كلارندون) بنياً هذا الزواج، كما تروي سيرة حياته (102) احتج لدى الملك بأنه لم يعلم شيئاً عن هذا الاتفاق، وأنه "كان يؤثر أن تكون ابنة خليفه الدوق لا زوجته، وأنهما إذاً حقاً كان قد تزوجا" فينبغي على الملك أن يزج بالمرأة في السجن فوراً"، وأن يصدر في الحال قرار من البرلمان بقطع رأسها، وأنه لن يوافق على هذا القرار فحسب، بل سيكون عن طيب خاطر أول من يقترحه". وهز الملك كتفيه استهجاناً للموضوع على أنه هراء لا غناء فيه، وكان يسمع جعجعة ولا يرى طحناً، وربما أدرك قاض القضاة أن الملك لن يلزمه بكلمته. وتحدث في صراحة وتجهم، على الطريقة الرومانية، ليعوض عما أثار من ريبة من أنه رتب أمر الزواج من قبل، ليجعل من أبنته ملكة على أن أبنته أن ماتت بالسرطان في 1671، في سن الرابعة والثلاثين. واتخذ جيمس، بينما كانت زوجته (آن) تعاني من مشاكل الأمومة، من أربللا عشيقه له، وهي التي أرضى أخوها هذا الوضع حتى يحظى بالترف في مناصب الجيش. ورغبة في معاونته آن وأربللا والتخفيف عنهما اتخذ الدوق بضع خليات لمضاجعته واستاء إيفلين بصفة خاصة من سلوكه الشائن مع ليدي دنهام (1666)(103). ولم يغير تحول جيمس إلى الكتلكة من خلقه شيئاً. فكان كلما كتب بيرنت "دائم التنقل من غرام إلى غرام دون أن يحسن الاختيار، حتى قال الملك يوماً أنه يعتقد أن القساوسة هم الذين يقدمون له العشيقات عقوبة يكفر بها عن ذنوبه(104)" ودامت علاقته بأربللا نغمة عذبة من الأرغن، وسط هذا التنقل بين مطارح الهوى، وبقيت بعد موت آن، وبعد زواج جيمس (1673) من ماري مودينا.

وينبغي علينا أن نضيف إلى ما ذكرنا، أن دوق يورك نفسه كان يتحلى بمناقب تدعو إلى الإعجاب، فإنه - وهو أمير البحر

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الأخلاق

(1660-1673)، بذل أقصى الجهد في التغلب على سوء النظام والفساد في البحرية، نتيجة لضالة الأجور والمؤن التي تصرف لرجال البحر وتدريبهم الهزيل، وأبدى مهارة وشجاعة في اشتباكات مع الهولنديين. ونهض بمهام الإدارة في مقدرة وإخلاص. ولم تشب أية شائبة قط إخلاصه العميق لأخيه الملك، بل أنتظر صابراً طيلة ربع قرن من الزمان قبل أن يخلفه على العرش. وكان صريحاً مخلصاً يسهل الوصول إليه، ولكنه كان شديد التكلف بمكانته وسلطانه إلى حد لم يكن معه شعبياً، وكان صديقاً يقيم على الود، وعدواً عنيداً لا يغتفر الإساءة. وكان ذا جلد على العمل الشاق و لكنه لم يكن متوقفاً الذكاء. وكان يأنبى النصح والمشورة أيما إباء.

وكان يحتل المركز الثاني في البلاط، جورج فليبس دوق بكنجهام الثاني. وكان ابن محظية جيمس الأول التي لقيت حتفها، ومن ثم قاتل إلى جانب شارل الأول في الحرب الأهلية، ومع شارل الثاني في وورستر، وعينه الملك الذي

أسترد العرش عضوا في مجلسه الخاص وكان بارعاً ذكياً أنيساً كريماً، ولذلك سيطر في البلاط بسحره وفتنته لبعض الوقت، وكتب "ملهاة" رائعة. "التجربة"، وتلهمى بالكيمياء القديمة والعزف على القيثارة إلى حد ما. ولكن وجهه وثرأه جلب عليه الدمار. أنه تنقل من امرأة إلى أخرى، وانغمس في عبث مخز شائن. وبدد ضيعته الهائلة. وكان يتوق إلى الظفر بكونتيس شروزبري، فتحدى زوجها لمبارزته، وتكررت هي في زي خادم، وأمسكت بجواد بكنجهام أثناء المبارزة، وصرع بكنجهام الكونت، وعانقت الأرملة السعيدة الدوق المنتصر الذي كان لا يزال مضجراً بدم زوجها، وعادا ظافرين إلى قصر الفريسة (105). وعزل بكنجهام عن منصبه (1674)، وانصرف إلى اللهو والعبث، ومات فقيراً معدماً يجله الخزي والعار.

وكان ينافس بكنجهام في المكانة والذكاء والقصف والعريضة والانحلال

صفحة رقم : 10879

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الأخلاق

جون ولموت أرل روشستر الثاني، حصل جون على درجة الأستاذية من أكسفورد في سن الرابعة عشر (1661) وهو أمر لا يصدق، والتحق بالبلاط في سن السابعة عشر. وأصبح المشرف على حجرة الملك. وكان في حاجة إلى المال وهو في سن التاسعة عشرة، فتودد إلى وريثة ثرية تباطأت في تحقيق بغيته، فاخطفها، ومن أجل ذلك زج به في السجن، فرق قلبها له، ثم حظي بالزواج منها، ثم بثروتها، وكم من مرة أبعدته شارل عن الحاشية وأعادها إليها، مستسجياً فطنته وذكاءه. وكان روشستر - مثل بكنجهام - خبيراً في التقيد والمحاكاة، وكان يسر بالتتكّر في زي حمال أو متسول أو تاجر أو طبيب ألماني، وكان يوفق في هذا التمثيل والمحاكاة إلى حد ضلل أو خدع معه أوثق أصدقاء صلة به. وزعم بوصفه طبيباً أنه يبرئ من الأدوية المستعصية عن طريق علمه بالتنجيم. وجذب إليه مئات من المرضى، وشفى عدداً منهم، وسرعان ما قصدت إليه سيدات البلاط لعلاجهن، وعجز أولئك الذين عرفوه حق المعرفة، عن التعرف عليه (106) وفي كل هذه التكرات تقريباً كان يطارد السيدات، دون أي اعتبار إلى مكانتهم. وكان هن يتعقبه كذلك. وتسلّى جون بكتابة قطع من الهجاء البذيء الداعر. وقضى على حياته بالخمير والفجور. وكان يفخر بأنه كان ثملاً مخموراً لمدة خمسة سنوات بلا انقطاع حومات فقيراً نادماً في السن الثالثة والثلاثين.

وكان في الحاشية رجال كثيرون من أمثال ولموت، حتى أن يبيز نفسه، وهو غيرها وللزنى تسائل: "ماذا تكون نهاية كل هذا الشراب وهذا السباب وهذه العلاقات الغرامية الفاجرة (107)" وعبر بوب عن هذه الحالة في "بحث في النقد"، ولكنه لم ينصف الملك كل الإنصاف، فهو يقول:

"إذا كانت المهمة الهينة اللينة للملك عي العشق والغرام، فقلما نراه في مجلس الحكم، ولا نراه أبداً في ساحة الوغى، فإن الدولة يحكمها النساء الحائثات بالعهد اللاني ينتقلن من حب إلى حب، أما رجال الدولة والسياسة فيكتبون المسرحيات الهزلية والساخرة ولا استفاد بدوي المواهب،

صفحة رقم : 10880

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الأخلاق

واللوردات الشبان اليافعون خلو من الذكاء والفتنة، ولم تعد المروحة المتواضعة المتحشمة ترفع، وعلت الابتسامة وجوه العذارى لما كانت وجناتهن تحمر له حياء وخجلاً من قبل(108). وكان من الأمور المسلم بها أن الزوجات -مثل الأزواج- تعوزهن الأمانة والإخلاص، فإن الرجال لم يطلبوا الأمانة والإخلاص إلا في عشيقاتهم(109). إن مذكرات كونت فيليبيرت دي جرامونت التي دونها بالفرنسية أخو زوجته، أنطوني هملتون، كانت، أحياناً، عبارة عن قائمة بالمغرورين المختالين، أو سلسلة من الديوثين الذين لا يغارون على زوجاتهم وهم يعملون أنهن يأتين الفاحشة، كما رآهم الكونت في منفاه السعيد في بلاط شارل الثاني. وكم كانت الساعات تقضى وتخصص للرقص وسباقات الخيل وصراع الديكة ولعب البليارد والورق والشطرنج، والألعاب الرياضية والحفلات التنكرية المرحية، ثم كما يقول بيرنت "يطوف الملك والملكة وكل أفراد البلاط، وهم جميعاً متنكرون، بالبيوت الغير معروفة، حيث يرقصون ويلعبون ويلهون في صخب فاجر(110)" وكانت المراهنات على مبالغ طائلة. يقول ايفلين "في هذه الليلة، افتتح جلالة الملك الحلبة، كما هي العادة، فألقى "الزهر" بنفسه في القاعة الخاصة، ... وخمس مائة جنيه. (وكان قد كسب في العام الماضي 1500 جنيه). وأقبلت السيدات على اللعب إقبالاً شديداً(111) "وحدت الطبقات العليا حذو الحاشية في القمار والدعارة. وتحدث ايفلين عن شباب إنجلترا الفاسق الفاجر الذي فاقت إلى حد كبير دعارته سائر الأمم المتحضرة مهما كانت(112). وانتشر اللواط، وبخاصة في الجيش. وكتب روشستر رواية عنوانها "سودومي" (نسبة إلى سودوم قرية قوم لوط) مثلت أمام الحاشية، والظاهر أنه كان في إنجلترا عدداً من المواخير لهذا الاختلاط الجنسي الشاذ(113).

صفحة رقم : 10881

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الأخلاق

وكان عدد الزيجات القائمة على الحب يتزايد، وهناك أمثلة رائعة، منها زواج دوروتي أو زيورن من وليم تمبل، الذي ثبت أنه زواج سعيد، ولو أن دوروتي كتبت تقول: "ليس الزواج القائم على الحب تصرفاً معيباً ملوماً، إذ كنا لم نر من بين ألف من الزوجين الحبيين الذين يقدمون عليه، زواجاً واحداً يمكن أن يتخذ مثلاً على أن يكون إتمامه دون ندم عليه في المستقبل(114)". وكتب سويفت إلى سيدة شابة في موضوع زواجها فتحدثت عن الشخص الذي اختاره أبوها ليكون زوجها لها. وأضاف "أن زواجك كان قائماً على الحكمة والحصافة والتدبير والشعور والطيب المتبادل، خالياً من عوائق الانفعال السخيف في حب الرومانتيك(115)". ويذكر كلارندون: "إن رغبتى الأولى في الزواج لم تتعلق إلا بضبعة ملائمة مريحة(116)". ومن الناحية النظرية كان للزوج كل السيطرة على زوجته، كما يتحكم حتى في الصداق الذي أتت به إليه. وفي كل الطبقات كانت مشيئة الزوج قانوناً. وفي الطبقات الدنيا أستعمل الزوج حقوقه المشروعة في ضرب زوجته، ولكن القانون حرم عليه استعمال عصا يجاوز سُمكها سُمك إبهامه(117). وكان انضباط الأسرة أو نظامها انضباطاً قوياً، اللهم إلا في الطبقات العليا في لندن، حيث شكوا كلارندون من أن الوالدين ليس لهما لأي سلطان على الأبناء، كما أن هؤلاء لا يذعنون للأباء ولا يطيعونهم. بل "أن كل إنسان يتصرف كما يحلو له"(118). وكان الطلاق نادراً، ولكن يمكن إجازه بقرار من البرلمان. ورأى الأسقف بيرنت -مثل لوثر وملتون- أنه يمكن السماح بتعدد الزوجات في حالات معينة، وعرض هذه الفكرة على شارل الثاني، بسبب عقم الملكة، ولكن الملك رفضها، تحاشياً للتمادي في إذلال زوجته(119).

وهددت الجريمة الأرواح والممتلكات بشكل مستمر. وكان اللصوص والنشالون يجتمعون في عصابات ويسطون في جنح الليل، وكانت المبارزة

صفحة رقم : 10882

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الأخلاق

محرمة بحكم القانون، ولكنها بقيت امتيازاً للسادة الاماجد، فإذا صرع مبارز غريمة وفقاً للقواعد، نجا المنتصر عادةً بسجن قصير مريح. وسعى القانون جاهداً ليكافح الجريمة عن طريق ما يبدو الآن من عقوبات وحشية. ولكن ربما كانت الإجراءات الصارمة لازمة لغزو العقول المتحجرة أو المتبلدة. وكان التعذيب والموت عقوبة الخيانة العظمى. وكان الشنق عقوبة القتل أو الجناية أو تزيف العملة، وكانت الزوجة التي تقتل زوجها تحرق حية. أما السرقات الخفيفة فكانت عقوبتها الجلد، أو قطع إحدى الأذنين، وضرب أي فرد من حاشية الملك يعاقب بقطع اليد اليمنى. أما التزوير والخداع وغش الموازين والمقاييس فكانت عقوبتها التعذيب في المشهورة، أحياناً مع دق الأذنين كلتيهما بالمسامير في آلة التعذيب، أو ثقب اللسان بقضيب من الحديد المحمي(120). وكان الناس عادةً يستمتعون بمشاهدة مثل هذه العقوبات(121)، ويحتشدون، وكأنهم في يوم عطلة، ليشهدوا سجيناً على حبل المشنقة. وضمت السجون في عهد الملك السعيد عشرة آلاف سجين من أجل الديون، وكانت السجون قذرة، ولكن كان من الممكن أن يقدم الحراس بعض التيسيرات مقابل رشوة. كانت العقوبة أشد صرامة وقسوة منها في فرنسا المعاصرة، ولكن القانون كان أكثر تحراً. ولم تكن في إنجلترا "أوامر مختومة" (لا لقاء أي شخص في السجن دون محاكمته)، بل كان فيها نظام التحقيق في قانونية الاعتقال. إلى جانب نظام المحلفين. وشاركت الأخلاقيات الاجتماعية في الانحلال العام. وتزايدت أعمال البر. ولكن ربما كان الواحد والأربعون ملجأ في إنجلترا مجرد وجه آخر لجشع الأفياء، وكان كل فرد تقريباً يعمد إلى الغش أثناء لعب الورق (122) ودب الفساد في كل الطبقات بمعدل أكبر من المستوى العادي. ومن مذكرات بيز تفوح رائحة الفساد في مختلف الأعمال، في السياسة وفي البحرية وفي بيير نفسه. من ذلك أن المؤسسات والمصانع زادت في أسهمها دون زيادة مقابلة في رأس المال، وزورت في حساباتها، وتقاضت من

صفحة رقم : 10883

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الأخلاق

الحكومة أثماناً فادحة(123). وكانت الاعتمادات التي يقرها البرلمان للجيش أو الأسطول يتحول جزء منها إلى جيوب الموظفين ورجال البلاط. وباع موظفي الدولة حتى ولو كانت رواتبهم كافية تدفع بانتظام- الألقاب والعقود والبراءات والتعيينات وأوامر العفو، إلى حد بات معه الراتب الأصلي يشكل الجزء الأصغر مما يدخل إلى

جيبوهم(124)". وأثري كبار رجال الحكومة مثل كلارندون ودانبي وسندرلند -أثروا في سنوات قليلة واشتروا أو بنوا ضياعاً لا تتناسب قط مع رواتبهم. وباع أعضاء البرلمان أصواتهم للوزراء، بل حتى للحكومات الأجنبية(125) وفي القرارات انتزع مائتا عضو من صفوف المعارضة، نتيجة لأن الوزراء اشتروا أصواتهم(126). وفي 1675 قدر أن ثلثي أعضاء مجلس العموم كانوا مأجورين من قبل شارل الثاني، والثلث الباقي من قبل لويس الرابع عشر(127) حيث وجد العاهل الفرنسي أنه من الميسور أن يرشوا الأعضاء ليصوتوا ضد شارل إذا حاد بشكل مزعج عن سياسة البوربون. أما شارل نفسه فكم من مرة تسلم أموال طائلة من لويس، حتى يلتزم الدوران في فلك فرنسا في السياسة أو الدين أو الحرب، وهكذا كان المجتمع الإنجليزي أكثر المجتمعات استهتاراً وفساداً في التاريخ.

صفحة رقم : 10884

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> العادات

6- العادات

حاولت العادات أو أساليب الحياة هنا أن تعوض عن النقص في الآداب كما في فرنسا-، وأن تضيف كياسة متكلفة على الملابس المزركشة الأنيقة والأدب الفاجر، والحديث الدنس. وكان شارل نفسه مثلاً لأسلوب الحياة وتسرب إلى الطبقات العليا ما تجمل به الملك من ظرف ولطف ومجاملة وسحر وفتنة، وترك كل أولئك بصماته على الحياة في إنجلترا. فتبادل الرجال القبلات عند اللقاء. وقبلوا يد المرأة إذا قدموا إليها. وفي لندن -كما كان في باريس- استقبلت السيدات الرجال في الفراش، فكان هناك صراحة

صفحة رقم : 10885

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> العادات

منعشة واحتقار في الأدب وفي المسرح وفي البلاط. ولكن الصراحة أطلقت أيضاً من الخشونة على المسرح وفي الحديث اليومي. وكانت البذاءة في إنجلترا بغير مثال. وفي هذا كان شارل من بين الشواذ الخارجين على القاعدة، حيث كان لا يتجاوز في السباب "عبارته المفضلة Odds Fish" وكان البيوريتانيون الباقون يناون بأنفسهم عن فحش القول إلا إذا هاجموا خصومهم وسخروا منهم. أما الكويكرز فامتنعوا عن الحلف. وبز الرجال النساء في الملابس الغربية، من الشعر المستعار المضمخ بالمساحيق لأجل التبرج، إلى الجوارب الحريرية والأحذية ذات "الإيزيم" وكان الشعر المستعار بدعه أخرى مستوردة من فرنسا. وكان الفرسان والمختالون

وغيرهم، ممن كان شعرهم قصيراً، أو ممن يخافون أن يخطئهم الناس على أنهم من البيوريتانيين ذوي الرؤوس المستديرة الذين كانوا يقصون شعورهم قصاً قصيراً جداً، نقول أن هؤلاء هؤلاء كانوا يغطون قص شعرهم بشعور أجنبية مستعارة. أما الرجال الذين أبيض شعرهم أو مال إلى الشيب فقد وجدوا في الشعر المستعار وسيلة ناجحة لإخفاء أعمارهم. وكان كل الرجال تقريباً يخلقون اللحي آنذاك. وكان هذا الشعر المستعار يصلح من شأن بشرة الملك الأسبانية وأنفه الضخم. وجعل بيبز من أول شعر مستعار وضعه مسألة خطيرة، وربى لشعره المحبب إليه الذي كان لزاماً أن يقص ليفسح الطريق "الباروكية - الشعر المستعار" ويزود بالشعر رأس إنسان آخر (128)، وكان لزاماً أن يتم تنظيف شعره المستعار من القمل في أوقات منتظمة (129) - واختفى الآن طوق الرقبة المكشكش المتبيس الذي كان سائداً في عهد اليزابيث وجيمس الأول. كما اختفت السترة الضيقة والعباءة الطويلة ليحل محلها الصدرية والمعطف. ووصلت الصدرية على أية حال إلى ريلة الساق. وكانت تشد إلى الجسم بحزام. وتوقفت "بنطلونات" الركوب عند الركبتين وتدللت السيوف إلى جوانب الأرسنقراطيين أو الأغنياء. وساعد المخملات والمخرمات والأشرطة، والأهداب وكشكشة الثياب

صفحة رقم : 10886

قصة الحضارة - < عصر لويس الرابع عشر - < إنجلترا - < عودة الملكية - < العادات

على استكمال الظرف والكياسة، وربما أستخدم الناس لتدفئة اليدين في الشتاء، "الموقه" وهي غطاء أنبوبي طويل مكسو بالفراء، يعلق في العنق.

أما نساء الطبقات العليا الأنيقات (طبقاً لآخر طراز) فكان يضمخن شعورهن بالمساحيق والطور، ويمشطنها في خصلات فوق جباههن، وزدن عليهن خصلات مستعارة مرفوعة على أسلاك خفية، وكسون قبعاتهن بالريش النادر، ووضعن على خدودهن أو جباههن أو أذقانهن "الصوقات تجميلية" (وهي قطع صغيرة جداً من الحرير الأسود يلصقها النساء كوسيلة لإخفاء العيوب أو التبرج)، زيادة في إغراء الرجال بمطاردتهن. وكشف عن أكتافهن وعن أجزاء كبيرة من نهودهن، لوبيز كيروول أمام الرسام للي ليصورها وأحد نهديها عار تماماً، وبزتها نل جوبن في ذلك. وكانت النساء تحجن سيفانهن بشكل مغر. وتزايد الطلب على أدوات التجميل الأنيقة. فكانت المرأة بالفعل شيئاً معقداً أستخدم الإنسان براعته في تشكيله وتصنعه، حتى صورتها إحدى الروايات في فترة عودة الملكية، في شيء من المغالاة والإغراق في الوصف.

"صنعت أسنانها عند ناظم اللالي (في بارك فرايرز)، وحواجبها من خيوط وأسلاك مجدولة (في استراند)، وشعرها في شارع "الفضة"، فإذا أوت إلى الفراش نزع عن نفسها كل ما عليها لتضعه في عشرين صندوقاً، حتى إذا نهضت من نومها في اليوم التالي، ركبت كل شيء في مكانه على جسمها من جديد. وكأنها ساعة حائط ألمانية ضخمة (130)".

وكان التبذير واجباً حتماً، لقد أصبحت الحياة وظهرية متكلفة من جديد، ومن ثم اقتضت تجهيزات معقدة مفصلة. وكان لازماً استئجار عدد كبير من الخدم. فكان منهم لدى والد إيفلين نحو خمسين وكان لدى بيبز طباط ومديرة ووصيفة وخدمة، وكانت واجبات الطعام مروعة

صفحة رقم : 10887

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> العادات

أنظر إلى غداء بيبز في 26 يناير 1660 قبل أيام الطيش والغرارة بزم من طويل:
"أعدت زوجتي غداءً شهياً جداً: من "عظام النخاع"، وفخذ من الضأن، وقطعة من لحم العجل، وصحناً من الطيور، وثلاث دجاجات، واثنى عشر زوجاً من القنبر في طبق واحد، وكعكة ضخمة محشوة بالمربي والفاكهة المطبوخة (تورته)، ولسان بقرة، وطبقاً من السمك الغير "الأنشوجة"، وطبقاً من القريدس (الجمبري) والجبن".
وكانوا يتناولون الوجبة الرئيسية في الساعة الواحدة. وكان المطبخ إنجليزياً. وعندما أوضح شارل الثاني لجرامونت أن الخدم كانوا يقدمون الطعام للملك، وهم ركوع، رمزاً للاحترام والإجلال، قال جرامونت (أو روي أنه قال): "أشكر لجلالتكم هذا الإيضاح، فقد ذهب تفكيري إنما كانوا يلتزمون المغفرة لتقديمهم طعاماً رديئاً (131)".
ولم يكن تناول المشروبات الروحية مجرد مظهر اجتماعي. فقلما كان الناس، حتى الأطفال، يشربون الماء (132)، وكانت "البيرة" أيسر من الماء الصالح للشرب. ومن ثم تناول مختلف الناس من مختلف الأسنان، البيرة، وأضاف الموسرون إليها الويسكي استوردوا النبيذ. وتردد معظم الناس على الحانات مرة واحدة في اليوم، وتناول كل الأفراد من جميع الطبقات الخمر من حين إلى آخر.
ودخل البن من تركيا حوالي 1650. وحتى 1700 كان معظم البن يستورد من إقليم مخا في اليمن. وفي القرن الثامن عشر نقل الهولنديون زراعته إلى جاوة والبرتغاليون إلى سيلان والبرازيل، والإنجليز إلى جاميكا. وساعد استخدام القهوة في التغلب على الخمول والكسل وفي شحذ الذهن، على انتشارها وإقبال الناس عليها. وافتتحت لند أول مقهى فيها في 1652، وما أوفى عام 1700 حتى كان بها 3000 مقهى (133) واتخذ كل فرد مهما كانت مكانته، أحد المقاهي محلاً مختاراً لمقابلاته بانتظام، حيث يلتقي بأصدقائه

صفحة رقم : 10888

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> العادات

ويستمتع إلى آخر الأبناء والمخازي. وحاول شارل الثاني أن يحد من انتشار المقاهي ومن نشاطها باعتبارها مركز لإهاجة المشاعر السياسية والمؤامرات، لكن شهوة الحديث والشراب والاستمتاع برائحة التبغ أحبطت مساعيه. ومن به بعض المقاهي نشأت الأندية التي لعبت دوراً في سياسية القرن الثامن عشر، ثم أصبحت آنذاك ملاذاً ومهرباً من أحادية الزواج، واختلفت المقاهي الأندية التي ظهرت متأخرة عنها، لا لمجرد أن القهوة كانت المشروب المفضل فيها، بل لأن الحديث كان يلقي تشجيعاً فيها. كما أن مشاهير الأدباء مثل دريدن وأديسون وسيفت وجدوا فيها منابرهم (في المقاهي). كما أن حرية الكلام في إنجلترا انتعشت وازدهرت هناك.
وجاء الشاي إلى إنجلترا من الصين حوالي 1650، ولكنه كان غالي الثمن. إلى حد أنه لم يحل محل البن في الحياة الإنجليزية إلا بعد قرن من الزمان. وحسب بيبز أنه إنما كان يقوم بمغامرة حين تناول أول فنجان من الشاي (134). وفي نفس الوقت استورد حب الكاكاو من المكسيك وأمريكا الوسطى. وحوالي 1658 أستحدث شراب جديد بإضافة "الفانيليا" والسكر إلى الكاكاو. وأصبحت "الشوكولاته" الناتجة عن هذا المزيج شرباً محبباً مألوفاً في فترة عودة الملكية. وكان يقدم في كثير من المقاهي.

وفي تلك الآونة دخنت التبغ كل الطبقات، بما في ذلك كثير من النساء وبعض الأولاد، في أنابيب طويلة دوماً. وظنت النساء أن لهذا التبغ بعض الفائدة في التطهير والوقاية من الطاعون. وربما نشأت عن هذه الفكرة عادة "السعوط" في تلك الأيام، أي نشوق التبغ المسحوق.

والآن وقد تخلص الناس من كابوس البيوريتانية، فقد ازدهرت الألعاب وأسباب التسلية والسيرك وصراع الديكة ومطاردة الدببة والثيران، وألعاب البهلوان على الحبال والمصارعة، والشعوذة والملاكمة والسحر، وانغمس الموسرون

صفحة رقم : 10889

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> العادات

في الصيد بنوعيه: صيد النساء وصيد الحيوان. وظل شارل الثاني يمارس لعبة التنس حتى بلغ الثالثة والخمسين. أما ايفلين فقد أحب لعبة البولنج على الأرض الخضراء، التي لا تزال منظرًا محبباً لدى الإنجليز حتى اليوم. وكانت لعبة الكريكت قد بدأت تكون ذو وسيلة لقضاء وقت الفراغ في الأمة بأسرها ولأول مرة في 1661 يرد ذكر قطعة من الأرض مخصصة لهذه اللعبة، ففي تلك السنة خطت حدائق فوكسهول على الضفة الجنوبية للتيمز، وسرعان ما أصبحت منتجعاً أنيقاً على أحدث طراز. وافتتح شارل الثاني للجمهور منتزه سان جيمس، وأقيمت آنذاك حدائق هايد براك حيث يقصد إليها في الأمسيات الظرفية، عليه القوم وعلى رأسهم الملك والملكة. إن "المجتمع" بدأ آنذاك يستنشي من مياه باث المعدنية.

وتنقل الناس فيما خلا أفقر الطبقات- في عربات تجرها الجياد، التي كانت قد بدأت تؤدي خدمة بريدية منتظمة لقاء بنس في 1657، ثم استخدمت لنقل الركاب في مواعيد منتظمة في 1658، وكانت هذه العربات قد استخدمت لنقل السلع والتجارة داخل المدينة منذ 1625. وتنتقل كبار الأغنياء في عربات تجرها ستة جياد. وكانوا يصطحبون ثلاث فرق من الجياد، لا لمجرد العرض وحب الظهور، ولكن لتجر العربات في الطريق الموحلة. وكانت الماشية المحلية في بعض الأحيان تربط أمام الجياد لتشد العربات وتسحبها في المستنقعات العميقة. لقد كانت الطرقات مغطاة بالأتربة أو الأوحال. إن الحانات والإنزال على جانبي الطريق، بالخليط العجيب من نزلاتها من سائقي العربات والمسافرين والممثلين والبائعين واللصوص والبلغايا، كانت تهيء السبيل أمام هؤلاء للإسهام في الأدب في إنجلترا وهكذا كانت تشكل إنجلترا الخشنة المحببة إلى النفس والمفعمة بالحيوية، التي عرفها دكنز في شبابه.

صفحة رقم : 10890

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الدين والسياسة

استمر النزاع بين المذاهب الدينية، وتجدد النزاع القديم بين الملك والبرلمان، وسط تفتح الناس وتوافر أسباب الحياة لديهم وتكاثرهم. وأحزن الملك المبتهج أن يرى مجلس العموم، بعدما ظهر في إذعان وامتثال في شهر العسل، يغار من سلطة الملك وقوته، ويقبض عنه الاعتمادات. لقد كان الملك رقيق القلب ولكنه حازم صلب العود. فولى وجهه شطر ملك فرنسا ليحصل منه على قروض خاصة، وواعد، وواضح أنه رغب في التخفيف من ويلات الكاثوليك الإنجليز، كما وعد بتأييد لويس الرابع عشر ضد الأراضي الوطينة، وبيع ثغر دنغر دنكرك على القتال الإنجليزي لفرنسا، وكان جنود كرومول قد استولى عليه. والحق أن الدفاع عنه كان يكلف أموالاً طائلة، وكان شوكة في جنب فرنسا. فتخلى شارل عن دنكرك (1662) مقابل خمسة ملايين فرانك بالإضافة إلى إعانات سرية من البورون، استطاع بها لبعض الوقت أن يتجاهل أوليغاركية الأرض والمال التي تحكمت في البرلمان آنذاك. إن هؤلاء الأوليغاركيين، على أية حال، رأوا أن أموال الحكومة ينبغي أن تستخدم في شن حرب مربحة أخرى ضد الهولنديين. إن نفس المنافسة على التجارة ومصايد الأسماك التي أدت إلى الحرب الهولندية الأولى من قبل في 1652 هي التي عززت فكرة الحرب الثانية 1664. وقاوم شارل هذا الاتجاه إلى الحرب، لأطول مدة ممكنة، لأنه أثر المحبة والمودة أيما إيثار. وكتب لأخته يقول: لم أر قط مثل هذه الشهوة الجامحة للحرب في الريف والحضر كليهما، وبخاصة لدى رجال البرلمان. إني أجد أنني الرجل الوحيد الذي لا يريد الحرب في مملكتي (135)".

لقد ساءت الأحوال. وحارب الأسطول الإنجليزي ببسالة على الرغم من سوء تغذيته وضالة ملبسه وذخائره، ولكنه خسر بقدر ما انتصر،

صفحة رقم : 10891

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الدين والسياسة

وفي الوقت الذي حمى فيه وطيس الحرب، ترك الطاعون والحريق لندن موحشة مقفرة، كما ترك إنجلترا مفلسة، وفي أخريات عام 1666 فتح الهولنديون باب المنازعات لعقد الصلح وسر الملك بقرب التوصل إلى تقاهم، فأرسل مندوبين إلى بريدا. ووثوقاً منه بأن الاتفاق كان وشيكاً، ومذراً رأى أن أمواله على وشك النفاذ، فإنه تحيي جانباً من أسطوله في "مدواي"، وسمح للبحارة بالاستغلال في السفن التجارية. فما كان من "دي روتر" إلا أن قاد أسطولاً هولندياً إلى التيمز ومداوي ودمر معظم السفن الإنجليزية التي خلت من الرجال. ويقول بيبز أنه في تلك الليلة "كان الملك يتناول العشاء مع الليدي كاسلمين عند دوقة مونموث، وقد شغل الجميع إلى حد الجنون باصطياد فراشة مسكينة (163)" وعندما وصلت أنباء الهجوم على لندن، دعا كل رجل مفتول العضلات إلى حمل السلاح. ولكن الهولنديين كذلك رغبوا في الصلح، لأن الفرنسيين كانوا قد أغاروا على إقليم فلاندرز. وأنهت معاهدة بريدا في 21 يوليو 1667، الحرب الهولندية الثانية بشروط لم يرتح لها الجميع.

وأضعف هذا الإخفاق التام الكوارث التي توالى على لندن، مركز الملك إلى حد أن بعض الإنجليز فكروا في خلعهم وطالب البرلمان بفرض رقابة برلمانية على المصروفات الحكومية. وأذعن الملك، لأنه كان خالي الوفاض، ولأن خطوة أخرى قد اتخذت نحو سيادة البرلمان الذي طالب كذلك بعزل كلارندون، لسوء معالجته للشؤون الخارجية. ولم يكن شارل يكره عزله، لأن مستشاره كان يعارض تحركه في اتجاه التسامح الديني، وينتقد انغماسه مع الخليلات، ولم يكن يكتف مجلس العموم باستقالة كلارندون، فقدم اقتراحاً بمحاكمته بتهمة خضوعه الدليل لفرنسا. فاستمع كلارندون لنصيحة الملك، ولاذ بالفرار إلى القارة. وكانت خاتمة محزنة قاسية لرجل حفل سجل حياته بالخدمات. وكرم الشيخ الهرم منفاه بتدوين أجمل مؤلف تاريخي أخرجه الأدب الإنجليزي حتى ذلك اليوم. ووافته المنية في روان

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الدين والسياسة

(على السين في شمال فرنسا) في 1674، وهو في الخامسة والستين. وعين الملك شارل (1668) خمسة رجال ليحلوا محل كلارندون: توماس كليفورد، إرل آرنجتون، ودوق بكنجهام، ولورد أشلي (الذي أصبح على الفور إرل شافتسبري الأول) وإرل لودرديل. وكونت الحروف الأولى من أسمائهم لفظة "كابال Cabal" التي سميت بها الوزارة الجديدة. وكان كليفورد يعلن عن كتلكة، وكان آرنجتون ميالاً إلى هذا المذهب، وكان بكنجهام خليعاً فاسقاً، وكان شافتسبري متسامحاً شكاكاً، أما لودرديل فكان من "رجال المواثيق" السابقين، وهو الذي فرض النظام الأسقي بالنار والسيف، على مواطنيه الاسكتلنديين. واستمع شارل إلى آرائهم أو مشوراتهم المتعارضة. ولكن تزايد، على مر الأيام اعتماده على نفسه والتزامه برأيه الخاص. وكان للملك هدفان أساسيان: تجديد الملكية المطلقة وإقامة الكاثوليكية ورفع شأنها في إنجلترا. ونظر بعين الأمل إلى أن الذي سيخلفه هو أخوه الكاثوليكي جيمس، وتبادل الرسائل مع زعيم اليسوعيين في روما، وأستقبل سراً مندوباً بابوياً قدم إلى لندن من بروكسل (137). وفي يناير 1669 أبلغ أخاه وكليفورد و آرنجتون ولورد آرندل أنه يرغب في المصالحة مع كنيسة رومه، وفي إعادة كل الإنجليز إلى المذهب القديم (138). أن أخته هنريتا لم تكف يوماً على أن تحضه على أن يعلن في جرأة وشجاعة ارتداده إلى الكتلكة. وفي مايو 1670 أرسل لويس الرابع عشر هنريتا إلى إنجلترا وفي معيبتها عدد من الدبلوماسيين الذهابة، ليعاونوها على ربط شارل بسياسة فرنسية كاثوليكية. وفي أول يونيو 1670 وقع كليفورد و آرونديل و آرنجتون باسم إنجلترا معاهدة دوفر السرية. ووافق ملك فرنسا على أن يدفعوا لشارل 150 ألف فرنك عند الإعلان ارتداده إلى الكتلكة. وتزويده، عند الاقتضاء، بستة آلاف جندي تتولى فرنسا الأنفاق عليهم، وكان على شارل أن يدخل الحرب إلى جانب فرنسا ضد المقاطعات المتحدة عندما يطلب

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الدين والسياسة

إليه ذلك. على أن يتسلم من فرنسا 225 ألف جنيه طيلة قيام الحرب، وكان لشارل أن يستولي على بعض الجزر الهولندية وأن يحتفظ بها، كما كان عليه أن يؤيد مطالب لويس الرابع عشر في أن يرث أسبانيا (139). وإمعاناً في خداع البرلمان والشعب في إنجلترا، بعث شارل بدوق بكنجهام إلى باريس ليصوغ معاهدة صورية زائفة وقعت في 21 ديسمبر 1670 ونشرت على الملأ، تعهدت فيها إنجلترا بالاشتراك في الحرب ضد الهولنديين، ولكن لم يرد ذكر العقيدة الدينية.

وتلكا شارل نحو خمسة عشر عاماً في إعلان تحوله إلى الكاثوليكية. ولو أن أخاه أعلن تحوله إليها صراحة في 1670، ولكن آرل أنجلوت نفسه، وهو الذي يؤيد الكاثوليكية ويميل إليها، حذر الملك من إعلانه التحول إلى هذا المذهب كما فعل أخوه- قد يعجل بقيام بثورة. ومهما يكن من أمر، فإن شارل قد تحرك نحو هدفه بأن أصدره في 15 مارس 1652، إعلان التسامح الثاني، "الذوي الضمان الرقيقة" يوقف فيه العمل" بكل القوانين العقوبات، أيا كانت في الأمور الكنسية، ضد المنشقين أو المتمردين أو المخالفين وفي الوقت نفسه أخلى سبيل كل من كانوا أودعوا السجن بسبب مخالفتهم لتشريعات البرلمان في المسائل الدينية. وبذلك أطلق سراح مئات من المنشقين، من الكويكرز. وأرسل زعمائهم وفدأ عنهم لتقديم الشكر للملك. وصعق المشيخيون والبيويثانيون حين رأوا أن الحرية الجديدة التي منحت لهم أمتد نطاقها لتشمل الكاثوليك وأنصار تجديد العماد، كما فزع الأنجليكانيون من "أن البابويين والفرق الدينية ذوات المذاهب المختلفة" يجتمعون علناً في لندن. ولمدة عام كامل نعمت إنجلترا بالتسامح الديني أو شقيت به. وفي 17 مارس 1672 شنت إنجلترا الحرب الهولندية الثالثة. وتلك مسألة كان الملك والبرلمان كلاهما على اتفاق فيها. وأعتمد البرلمان 1250000 جنيه للحرب. على أن يسلم هذا المبلغ للحكومة على أقساط كان من الواضح أنها تعتمد على استرضاء الملك للبرلمان وموافقة على تشريعات الدينية وأعلن مجلس العموم "أن قوانين العقوبات في المسائل الدينية لا يمكن إبطال العمل

صفحة رقم : 10894

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الدين والسياسة

بها إلا بقانون يسنه البرلمان. وطلب إلى الملك طلباً بسحب إعلان التسامح ومذ كان لويس الرابع عشر يتوق إلى أن يرى إنجلترا صفاً واحداً كالبنيان المرصوص، تأييداً للحرب ضد الهولنديين، فإنه نصح الملك شارل بإلغاء إعلان التسامح حتى تنتهي الحرب على الفور، وأذعن شارل، والغى الإعلان في 8 مارس 1673. ومن المحتمل أنه في هذا الوقت، ترامت إلى زعماء البروتستانت أبناء معاهدة دوفر السرية أو اشتتموا رائحتها والرغبة في الحيلولة دون تحول الملك إلى الكاثوليكية، سن المجلسان كلاهما "قانون الاختبار" الذي ينص على أنه يجب على كل أصحاب الوظائف المدنية والعسكرية في إنجلترا أن يقسموا علناً على تخليهم عن النظرية الكاثوليكية التي تقوم بنحول خبز القربان والخمر إلى جسد المسيح ودمه وأن يتناولوا الأسرار المقدسة طبقاً للطقوس الأنجليكانية وكافح كليفوردي هذا المشروع بضرارة، وبعد إقراره استقال من الحكومة، وأوى إلى ضيعته، وما لبث حتى مات انتحراً كما يظن إيفلين. أما شافنيسبري فقد عضده بكل قوة، وعزل من الوزارة، فجعل من نفسه زعيماً "لحزب الريف" الذي ناهض، بعنف يقارب الثورة، "حزب البلاط" الذي كان يؤيد الملك. وبذلك قضى على الوزارة "الكابال" (1673). وأصبح آرل دنبي كبير الوزراء. واعتزل جيمس كل مناصبه الحكومية. وخفف من حدة المعارضة ضده بعض الشيء، أنه على الرغم من أن زوجته الأولى ارتضت الكاثوليكية مذهباً من قبل، فإن ابنتها- الملكة ماري والملكة أن فيما بعد -نشأتا على المذهب البروتستانتي. لكن زواجه آنذاك (30 سبتمبر 1663) من أميرة كاثوليكية أثار ضده حملة من أفسى الاتهامات. تلك هي الأميرة ماري مودينا التي دمغت بأنها "كبرى بنات البابا"، والمفروض أنها لا بد أن تنشأ أولادها على الكاثوليكية. وفي الحال قدمت إلى البرلمان مشروعات قوانين تقضي بتثنية أبناء الأسرة الملكة على المذهب البروتستانتي.

صفحة رقم : 10895

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> الدين والسياسة

إن تطور الأحداث على هذا النحو أثار سخط إنجلترا على الحزب ضد القطاعات المتحدة وجعلها تحس بالمرارة، فلو أن ملك إنجلترا كان كاثوليكياً لأنحاز إن أجلاً أو عاجلاً إلى جانب فرنسا في تدمير الجمهورية الهولندية تدميراً، تلك الجمهورية التي لم تبد الآن منافساً تجارياً، بل بدت معقل البروتستانتية في القارة، فإذا سقط هذا الحصن الحصين فكيف يتسنى للبروتستانتية الإنجليزية أن تثبت وأن تقاوم؟ وفوض شارل عن طيب خاطر، سير ولیم تمبل في توقيع صلح منفرد مع الهولنديين. وفي 6 فبراير 1674 وقعت معاهدة وستمنستر التي أنهت الحرب الهولندية الثالثة.

صفحة رقم : 10896

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> المؤامرة البابوية

8- المؤامرة البابوية

وأعقبت هذه الأحداث فترة كادت أن تنتسم بالصفاء والتعقل. وحيث تسلم شارل من لويس الرابع عشر مبلغاً إضافياً قدره 500 ألف كراون، فإنه عطل البرلمان المتعبد من أجل، وعاد إلى عشيقاته. ولكن السياسة لم تتوقف. فان شافنيسبري وغيره من زعماء المعارضة أسسوا في 1675 "نادي الوشاح الأخضر". ومن هذا المركز نشر "حزب الريف" دعايته دفاعاً عن البرلمان والبروتستانتية ضد ملك يتأمر على فرنسا الكاثوليكية، ووريثه الذي زف علنا زوجة كاثوليكية. وفي 1680 أطلق على رجال حزب الريف اسم Whigs، وعلى المدافعين عن سلطة الملك Tories وبدا الملك شارل أن شافنيسبري "أضعف الرجال وأخبثهم(141)". وقال عنه بيرنت "أن علمه سطحي هزيل، وأن غروره سخيف، وأن

صفحة رقم : 10897

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> المؤامرة البابوية

عقليته تافهة(142)" ولكن جون لوك الذي عاش مع شافيتسبري لمدة خمسة عشر عاماً رأى أنه مناضل باسل جرى عن الحرية المدنية والدينية والفكرية الفلسفية. وقال عنه بيرنت أنه يدين بالريوبية (مذهب طبيعي يقوم على العقل لا على الوحي) وقد يحق لنا أن نرتاب في ديانتته من قوله هو نفسه "ليس للعقلاء من الرجال إلا دين واحد"، فلما سألته إحدى السيدات، وما هو، كان جوابه "أن عقلاء الرجال لا يفصحون عنه قط"(143).
وخفت حدة التوتر الديني بعض الشيء في 1667، حين تزوج وليم أورنج من ماري البروتستانتية كبرى بنات دوق يورك. فإذا ظل جيمس دون عقب ذكر، فإن ماري سوف تخلفه، في وراثة العرش، ومن ثم ترتبط إنجلترا بهولندا البروتستانتية بحكم المصاهرة، ولكن في 28 أغسطس 1686 مثل تيتس أوتس أمام الملك وأعلن أنه اكتشف "مؤامرة بابوية: ذلك أن البابا وملك فرنسا ورئيس أساقفة أرماس واليوسوعيون في إنجلترا وأيرلندا وأسبانيا كانوا يدبرون قتل شارل وخلع أخيه، وفرض الكاثوليكية في إنجلترا بحد السيف، وأن ثلاثة آلاف سفاح سيتولون ذبح زعماء البروتستانت في لندن، وأن لندن نفسها قلعة البروتستانتية- كانوا يدبرون إحراقها عن آخرها.
كان أوتس، وهو آنذاك في التاسعة والعشرين من العمر، ابن أحد أنصار تجديد العماد. وكان قد أصبح قسيساً أنجليكياً، ولكنه فصل من وظيفته الكنيسة السوء سلوكه(144). ثم قبل -أو تظاهر بقبول- التحول إلى الكاثوليك. وكان قد درس في الكليات اليوسوعية في بلد الوليد (أسبانيا) وسانت أومر حيث فصل أيضاً. آخر الأمر(145)، وفي نفس الوقت، زعم الآن أنه كان قد اطلع على خطط الجوزيت السرية لغزوا إنجلترا. واعترف أنه شهد في 24 أبريل 1678 مؤتمراً يسوعياً في لندن، نوقشت فيه

صفحة رقم : 10898

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> المؤامرة البابوية

وسائل قتل الملك. و عدة أسماء خمسة من النبلاء الكاثوليك، على أنهم مشتركون في المؤامرة هم: أرونديل، بويس، بتر، ستافورد، بلايسيس. وعندما أضاف أوتس بلايسيس هذا كان سيمين قائداً عاماً لجيش البابا، ضحك شارل ساخراً، حيث كان بلايسيس طريح الفراش بداء النقرس. وخلص الملك إلى أن أوتس لفق القصة كلها أملاً في الحصول على مكافأة، وصرفه من حضرته.

ولكن المجلس المخصوص ارتأى أنه من الحكمة أن يفترض بعض الصدق في الاتهامات، واستدعى أوتس ليتمثل أمامه في 28 سبتمبر. وخشي أوتس أن يزج به السجن، فقص إلى قاضي الصلح سيراد موند بري جودفري وأدعه اعترافاً خطياً مقروناً بقسم، فصل فيه المؤامرة تفصيلاً. وأصدر المجلس، متأثراً بهذه الأدلة، أوامر بالقبض على عدد من أنصار البابوية الذين تضمنهم اعتراف أوتس. وكان من بينهم أدوارد كزلمان الذي كان لعدة سنوات (حتى عزل بأمر من الملك) سكرتير دوق يورك. وأحرق كولمان بعض أوراقه قبل القبض عليه، ولكن الأوراق التي لم يكن لديه متسع من الوقت لإحراقها أوضحت أن كولمان والأب لاشيز لويس الرابع عشر، تبادلوا من الرسائل ما يعبر عن أمل الطرفين (شارل ولويس) في أن تصبح إنجلترا كاثوليكية في أسرع وقت وفي هذه الرسائل أقترح كولمان أن يرسل إليه "لويس الرابع عشر أموالاً ليكسب بها أعضاء البرلمان إلى جانب قضية الكاثوليك، ثم أضاف "أن نجاحنا سوف يكون ضربة شديدة للعقيدة البروتستانتية، لم تتلق مثلها منذ نشأتها تلك هي تحول ثلاثة ممالك. ون ثم، فريما كان في هذا القضاء التام على هذه الهرطقة الوبيلة(146) إن إعدام كولمان لمعظم أوراقه حدا بالمجلس إلى الاعتقاد بأن كولمان على علم بالمؤامرة التي وصفها أوتس، وربما كان شريكاً فيها. واستنتج شارل نفسه من تلك الرسائل، وجود مؤامرة حقيقية بشكل ما.

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> المؤامرة البابوية

وفي 12 أكتوبر اختفى القاضي جودفري، وبعد خمسة أيام وجدت جثته في أحد الحقول في الضواحي. وبات من الواضح أنه قتل. بيد عملاء مجهولين، ولأسباب غير معروفة حتى الآن، ولكن البروتستانت نسبوا القتل إلى الكاثوليك الذين كانوا يأملون في الحيلولة دون نشر اعترافات أوتس. ويبدو أن هذا الحادث أكد الاتهامات. وفي هذا الجو الذي سادته الريبة وعدم الثقة، الذي خلقته معاهدة دوفر السرية، والخوف من اعتلاء جيمس عرش إنجلترا، كان طبيعياً أن تصدق إنجلترا البروتستانتية أنذاك كل ما جاء على لسان أوتس من اتهامات، وأن يعترئها نوبة من الجنون بدمعها أن حماية البروتستانت تتطلب اعتقال كل فرد من أورد أوتس ذكرهم في المؤامرة، إن لم يكن إعدامهم.

وبدأت فترة من حكم من حكم الإرهاب امتدت لنحو أربع سنوات. وفر جيمس إلى الأراضي الوطنية وتسلح أهالي لندن استعداداً لمقاومة أي غزو متوقع. ونصبت المدافع في هويت هول. واتخذ الحراس أماكنهم في الأقبية والسرديد تحت مبنى البرلمان بمجلسية ليحولوا دون "مشروع بارود" آخر لنسف المبني. وأقر البرلمان قانوناً لطرده الكاثوليك من مجلس اللوردات، وكرم أوتس بوصفه "مخلص الأمة" وكافأه بتخصيص معاش سنوي له قدره 1200 جنيه لمدى الحياة ومنحه مسكناً في قصر هويت هول. وسرعان ما ازدحمت السجون باليسوعيين والكهنة غير المنتسبين إلى رهبناات، والكاثوليك العلمانيين الذين أورد ذكرهم أوتس أو وليم بدلو الذي ظهر، مدعيًا العلم لأشياء تؤكد صحة اتهامات أوتس.

وفي 24 نوفمبر وضع أوتس أمام اتهاماً جديداً مروعاً، ذلك أنه كان قد سمع الملكة تبدي موافقتها على قتل زوجها بالسلم، بيد طبيبها الخاص. وهنا أخذه شارل بهذه الكذبة الصارخة. وفقد ثقته في أقواله كلها، وأمر بالقبض عليه. ولكن مجلس العموم أمر بالإفراج عنه، وبالقبض على ثلاثة من خدم الملكة. واقترح على إصدار بيان يطالب

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> المؤامرة البابوية

بعزلها. وقصد الملك إلى مجلس اللوردات ودافع عن إخلاص زوجته وولائها، وأقنع اللوردات بالامتناع عن الموافقة على بيان النواب. وفي 27 نوفمبر حوكم كولمان وكاثوليكي علماني آخر، وثبتت إدانتها وأعداما. وفي 17 ديسمبر أعدم ستة من اليسوعيين وثلاثة من الكهنة المنتسبين إلى رهبناات. وفي 5 فبراير 1679 شنق ثلاثة رجال بتهمة قتل جودفري. وثبت فيما بعد براءة هؤلاء الاثني عشر.

وتزايدت الحملات اقتراباً من الملك، ففي 19 ديسمبر 1678 تلقى البرلمان من باريس أنباء تفيد أن دانبي كان قد تسلّم من لويس الرابع عشر مبالغ طائلة من المال. ورفض لوزير إيضاح أنها كانت إعانات فرنسية للملك. ووجه مجلس العموم الاتهام إلى الوزير. وخشي الملك الحكم على مستشاره قد التأم بالإعدام، فحل، وفي 24 يناير 1679 "برلمان الفرسان" الذي كان قد التأم على فترات متقطعة، ولمدة ثمانية عشر عاماً، أي أنه كان أطول من "البرلمان الطويل".

ولكن برلمان "الهويج" الذي اجتمع في 6 مارس، كان في عدائه للكاثوليكية وللملك، أشد اندفاعاً وتحمساً من البرلمان السابق. واتهم مجلس العموم دانبي بالخيانة العظمى، ولكن اللوردات أنقذوه بزجه في سجن لندن، حيث قضى فيه، في هدوء وقلق، السنوات الخمس المضطربة التالية. وبناء على نصيحة سير وليم ثمبل، عين شارل مجلساً جديداً من ثلاثين عضواً، بينهم رغبة في تخفيف حدة المعارضة زعيماً حزب الهويج: شافنيسبري رئيساً للمجلس. وسعيًا وراء المزيد من تهدئة لعاصفة، عرض الملك على البرلمان تسوية بديلة لاستبعاد أخيه عن العرش: ألا يسمح لأي كاثوليكي بمقعد في البرلمان أو بتولي منصب قيادي يتطلب الثقة، وألا يكون للملك حق التعيين في المناصب الدينية، وأن يخضع تعيين القضاء لموافقة البرلمان. وأن يكون للبرلمان حق الرقابة والإشراف

صفحة رقم : 10901

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> المؤامرة البابوية

على القوات البرية والبحرية (147). ولكن البرلمان أحس بشيء من الارتياح وعدم الثقة في موافقة جيمس على مثل هذه الاتفاقية. وفي 11 مايو قدم شافنيسبري نفسه أول مشروع قانون لاستبعاده (جيمس) في عبارة واضحة جلية لا لبس فيها "إسقاط حق دوق يورك في وراثته التاج الإمبراطوري لهذه المملكة". وكان موضع فخر وشرف للبرلمان أنه في 26 مايو توسع في حق التحقيق في قانونية الاعتقال: بمعنى أنه يمكن الإفراج بكفالة عن أي سجين، فيما عدا المتهمين بالخيانة أو بجناية، وفي مثل هذه الحالة ينبغي أن يحاكم المتهم في الدورة التالية للمحكمة، وألا أطلاق للمحكمة، وألا أطلاق سراحه. وكان ينبغي أن يحاكم أن تنتظر 110 سنوات حتى تنعم بضمانات مماثلة ضد الاعتقالات التعسفية. وفي 27 مايو خشي الملك إقرار "مشروع قانون الاستبعاد" فحل البرلمان. ولم يكن حق التحقيق في قانونية الاعتقال مجدياً بالنسبة لأنصار البابوية الذين اتهمهم أوتس، لأنهم حوكموا مع شيء من التباطؤ، حتى إذا أدينوا بالخيانة أعدموا في سرعة غاضبة، وحشد الكثير منهم إلى المقصلة أو ساحة الإعدام طيلة عام 1679، وكانت محاكمتهم سريعة جداً لأن القضاة الذين روعتهم صيحات الجموع المتعطشة للدماء خارج المحكمة، أدانوا كثيراً من المدعي عليهم دون تمحيص الأدلة أو مواجهة الشهود بعضهم بعض. وهب الشهود المزيفون الذين أغراهم ما أغدق على أوتس من مكافأة، وكانما هبوا من مرقدهم، وأقسموا بأغلظ الإيمان على ما يقولون: فروي أحدهم أن جيشاً من ثلاثين ألفاً كان قادماً من أسبانيا، وقال آخر أنهم وعدوه بخمسمائة جنبيه وبضمه إلى قائمة القديسين إذا هو أطاح برأس الملك، وذكر شاهد مزيف ثالث بأنه كان قد سمع أحد رجال المصارف الكاثوليك الأثرياء يأخذ على نفسه عهد بأن يقوم بمثل هذا العمل (148). ولم يسمح للمتهم بأي محام أو مستشار قانوني. ولم يبلغ بما نسب إليه إلا في يوم المحاكمة. وكان يفترض أنه مذهب حتى يستطیع أن يثبت براءته (149). وحتى تسهل

صفحة رقم : 10902

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> المؤامرة البابوية

الإدانة أحيوا قانوناً قديماً كان معمولاً به في عهد اليزابيث: وهو أن وجود أي كاهن في إنجلترا جريمة عقوبتها الإعدام. وكانت الجموع المحتشدة حول مبنى المحكمة تصرخ وتلوح في وجوه شهود الدفاع استهجاناً، وتقذفهم بالحجارة، ويهتفون ويهللون فرحاً عند إعلان الحكم بالإدانة(150).

فتوكل هذا في عضد شارل، وكان امتحاناً قاسياً للملك الذي غمرته يوماً البهجة والفرح، والذي رأى الآن كل آماله تنهار، وسلطاته تنتقص، وزوجته تعاني الإذلال، وأخاه ييؤء بالاحتقار والازدراء وينحى. وفي ذروة العاصفة خر شارل مريضاً مرضاً خطيراً حتى توقعوا موته بين ساعة وأخرى. واستدعى هاليفاكس جيمس من بروكسل، ولكن زعماء الهويج أمروا الجيش بالحيولة دون عودته. واتفق شافنبري ومونمورث ولورد رسل ولورد جراي على أنهم في حالة وفاة شارل-، سيتزعمون عصياناً مسلحاً لمنع أخيه من ارتقاء العرش(151). وتظاهر شارل بأنه أبل من مرضه، وابتسم للمخاوف التي ساورت جني أعداءه الذين توقعوا موته. والحق أنه لم يبرأ من علته قط.

وبقي العداء للكاتوليك على أشده حتى تخبط أوتس أثناء محاكمة سير جورج ويكمان طبيب الملكة. ففي شهادته أمام المجلس كان قد برأ الطبيب، ولكنه في المحاكمة اتهمه بتدبير دس السم للملك. واكتشف هذا التناقض في الأقوال قاضي سكرجوز الذي سبق له أن تولى محاكمة الكاثوليك بمنتهى الشدة. وصدر الحكم ببراءة ويكمان، ومن ثم سارت شهادة أوتس تسمع في مزيد من التدقيق، وامتنع الشهود المزيّفون الذين كانوا يعززون أقواله، عن مساندة. وكان إعدام أوليفر بلنكت رئيس أساقفة أرماج الكاثوليكي، آخر إجراء اتكم في حركة الإرهاب التي قامت ضد الكاثوليك (1 يوليو 1681).

ولما خفت وطأة الرعب والانفعال تأكد لدى بعض عقلاء الرجال أن

صفحة رقم : 10903

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> المؤامرة البابوية

أوتس، عن طريق الريب التي لا تستند إلى أساس من ناحية ومن ناحية أخرى عن الأكاذيب، عجل بإرسال كثير من الأبرياء إلى الموت قبل الأوان. وانتهوا إلى أنه لم يسكن ثمة تدبير لقتل الملك أو ذبح البروتستانت أو إحراق لندن. ولكنهم أحسوا بأنه كانت هناك مؤامرة حقيقية، كاثوليكية، وأن لم تكن "بابوية": تلك هي أن أركان الحكومة دبروا، أو راودهم الأمل، بمساعدة أموال (أو جنود إذا لزم الأمر) من فرنسا، أن يقضوا على عجز الكاثوليك وعدم أهليتهم الشرعية في إنجلترا، ويحولوا الملك إلى الكاثوليكية، وينبنوا حق أخيه الذي تحول فعلاً في ارتقاء العرش، ويستخدموا أن كل هذا تضمنته معاهدة دوفر السرية التي وقعت من قبل في 1670 وكان شارل قد تراجع عن هذه الاتفاقية. ولكن رغباته لم تتبدل ولم يتخل عنها قط، وظل مصمماً على أن يعتلي أخوه عرش إنجلترا ويكون ملكاً عليها.

صفحة رقم : 10904

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> خاتمة الملهاة

9- خاتمة الملهاة

أما شافنيسبري فقد وطد العزم على نقيض ما يبتغيه الملك. لقد اعترف كولمان أثناء محاكمته بأن جيمس علم أمر المراسلات المتبادلة بينه وبين الأب لاشيز، وأقرها (152). وأحس شافنيسبري بأن ارتقاء جيمس عرش إنجلترا لا بد أن يحقق المرحلة الأولى من "المؤامرة البابوية" وعرض أن يساند شارل ويقف إلى جانبه إذا هو طلق الملكة العقيم وتزوج من بروتستانتية قد ينجب منها ابناً بروتستانتياً. وأبى شارل أن يدع كاترين دي براجانزا تكرر الدور الذي لعبته كاترين أوف أراجون. فولى شافنيسبري وجهه شطر دوق مونمورث الابن غير الشرعي للملك، الذي لم يغفر قط أبيه خداعه وإبعاده عن العرش بتقصيره في الزواج من أمه. ونشر شافنيسبري فكرة أن شارل كان بالفعل قد تزوج من لوسي والتر، وأن دوق مونمورث

صفحة رقم : 10905

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> خاتمة الملهاة

هو الوريث الشرعي للعرش. فما كان من شارل إلا أن كذب هذا بإعلانه أنه لم يتزوج قط إلا من كاترين أوف براجانزا، وإذ وجد أن شافنيسبري خصم عنيد، فإنه أقصاه عن مجلس المخصوص (13 أكتوبر 1679). وأثناء توالي الأزمات ولمحن على هذا النحو كاد شارل أن يبدل من خلقه ومن شخصيته، فودع حياة البهجة والدعة. وباع أسطبلاته، وانصرف بكليته إلى الإدارة والسياسة، وحارب أعداءه بترجع محكم التدبير، حتى جاوزوا حدودهم فانتهوا إلى الفشل إن الملك في سنواته الخمس الخيرة أبدى من قوة العزيمة والمقدرة ما أدهش حتى الأصدقاء. وإذ عاودته الطمأنينة والثقة فقد دعا برلمانه الرابع. واجتمع البرلمان في 21 أكتوبر 1680. وأقر مجلس العموم في شهر نوفمبر "مشروع قانون الاستبعاد" الثاني، وقدم إلى مجلس اللوردات. وهنا تحول هاليفاكس الذي كان يصوت حتى تلك اللحظة إلى جانب "حزب الهويج" نقول تحول الآن إلى جانب الملك، وبدأ يحظى بقلب "القلب الحول" ويزهو ويختال به. إنه كان يبغض جيمس ويرتاب في الكاثوليكية، ولكنه اتفق مع شارل في ضرورة الإبقاء على مبدأ الملكية الوراثية. كما خشي أن يقود شافنيسبري إنجلترا إلى حرب أهلية ثانية (153). ومن ثم فإنه بفصاحته ومنطقه في المناقشة الطويلة التي جرت بشأن "مشروع قانون الاستبعاد" أقتع اللوردات برفض المشروع. ورد مجلس العموم على هذا، برفض الموافقة على أية اعتمادات مالية للملك، وحظر على التجار والمصارف إقراضه أية أموال، وحاكم هالي فاكس وسكروجز وفيكونت ستافورك وهو أحد اللوردات الخمسة المعتقلين في سجن لندن. وحكم على ستافورك بالإعدام بناءً على شهادة أوتس، وضرب عنقه في 7 ديسمبر. وفض الملك البرلمان في 18 يناير 1681. وبدلاً من أن يضحي شارل بأخيه بسبب حاجته إلى المال، اعترم شارل أن يمول الحكومة بأن يصبح من جديد أسيراً للملك الفرنسي لويس الرابع

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> خاتمة الملهاة

عشر. وارتضى أن ينظر في شيء من التجلد ورباطة الجأش إلى سياسة فرنسا العدوانية، مقابل 700 ألف جنيه(154)- وهو مبلغ يغنيه لمدة سنوات عن إعانات البرلمان وإعتماداته. فلما أحس بالقوة دعا برلمانه الخامس. ولكي يحرمه من تأييد جمهور لندن وقوات الطوارئ فيها، فإنه، أي الملك أمر باجتماعه في أكسفورد. وهناك التقى الجمعان مدججين بالسلاح: شارل مع عدد كبير من حرسه، وزعماء الهويج مع أتباعهم حاملين السيوف والمسدسات رافعين أعلاماً كتب عليها "لا بابوية ولا عبودية" وأقر مجلس العموم في الحال "مشروع قانون الاستبعاد" الثالث، ولكن قبل أن يصل المشروع إلى مجلس اللوردات حل شارل البرلمان (28 مارس 1681). وتوقع كثير من الناس أن يلجأ شافنيسيري الآن إلى الحرب الأهلية. أما الرأي العام الذي استرجع في ذاكرته أحداث 1642-1660 فقد تحول عنه وانحاز إلى صف الملك. ودافع رجال الكنيسة الأنجليكانية دفاعاً مجيداً عن حق جيمس الكاثوليكي في ارتقاء العرش. وعندما حاول شافنيسيري أن يعيد تنظيم صفوف النواب المشنتين في ميثاق ثوري(155)، أمر شارل باعتقاله، ولكن هيئة المحلفين برأته (24 نوفمبر) وعلى الرغم من أنه كان آنذاك مريضاً بدرجة لا يكاد معها يقوى على المشي، فإنه انضم إلى دوق مونموث في ثورة علنية(156). وأمر الملك باعتقالهما كليهما وهرب شافنيسيري من سجن لندن، وفر إلى هولندا، وهناك وافته منيته (21 يناير 1683) بعد أن أنهكته الأحداث، ولكنه خلف وراءه صديقة لوك، ليتابع في مجال الفلسفة، المعركة التي لم يكتب لها لبعض الوقت التوفيق في ميدان السياسة.

وصفح شارل عن مونموث، ولكنه لم يغتفر قط للمحلفين في لندن تبرئتهم لشافنيسيري. والآن وقد تحول الملك النشوان إلى شخص آخر، وكان متطرفاً في تحوله هذا، فإنه عقد العزم على تحطيم استقلال المدن التي ترعرت فيها فكرة الهويج (الأحرار) بل الفكرة الثورية، فأمر

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> خاتمة الملهاة

بمراجعة المواثيق والعهود القوانين التي هيأت للأجهزة البلدية الخروج على الإراة الملكية، ووجد بالفعل في هذه بعض النقص والخلل من الوجهة التشريعية، فأعلن إلغاؤها جميعاً، وصدرت عهود وقوانين جديدة تنص على أن يكون للملك حق الاعتراض وحق عزل كل الموظفين الذي ينتخبون لهذه الهيئات البلدية (1683). وخضعت الآن حرية الكلام وحرية الصحافة لقيود جديدة، وبدأت موجة اضطهاد المنشقين - لا الكاثوليك: لأن معظم المنشقين كانوا من الأحرار (الهويج). وفي إسكتلندا قاد جيمس حملة التعذيب بنفسه، وبدأ أن انتصار حقوق الملك على إصلاحيات البرلمان بات انتصاراً ساحقاً كاملاً، وأن إنجازات الثورة الكبرى كان واضحاً أنه ينبغي التضحية بها في نكسة أو رد فعل تؤيده أمة تخشى تجدد الحرب الأهلية. وعكس هاليفاكس شعور البلاد حين تخلى عن شافنيسيري، وإنجاز بحكمته المعتدلة البعيدة عن التطرف إلى جانب الملك ليكون في خدمته (1682-1685) فكان حامل الأختام الملكية.

وقام أتباع شافيتسبري بمحاولة أخيرة. ففي يناير 1687، اجتمع دوق مونموث وإرل اسكس وإرل كارليل، ووليم لورد رسل وألجرون سدن في دار جون همدن (حفيد بطل الحرب الأهلية) ورسموا الخطط لتطويق جيمس والتغلب عليه، وقتل شارل إذا لزم الأمر وراود سدن أمل التقديم إلى خطوة أبعد، وهي إعادة إقامة الجمهورية الإنجليزية. وكان حفيد أحد أخوة سير فيليب سدن (رئيس الفروسية)، وحارب في صف البرلمان أثناء الحرب الأهلية وجرح في مارستن مور. وعين عضواً في اللجنة التي شكلت المحاكمة شارل الأول، ولكنه رفض العمل بها على اعتبار أن الشعب لم يمنح اللجنة سلطة محاكمة الملك. وألقى نفسه في القارة حين عادت الملكية، فظل بها، مشغولاً بدراساته وأبحاثه، وتدبير المؤامرات ضد شارل الثاني وفي الحرب الهولندية الثانية حرض الهولنديين في غزو إنجلترا، وعرض خدماته على الحكومة الفرنسية ليشعل نار الثورة في إنجلترا إذا أمدته الحكومة الفرنسية بمائة

صفحة رقم : 10908

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> خاتمة الملهاة

ألف كراون(157). وفي 1677 سمح له شارل بالعودة ليشهد وفاة والده، وبقي في إنجلترا وانضم إلى "حزب الريف" (الأحرار، الهويج). وفي كتابه "مقالات عن الحكومة" (الذي كتب 1681 ولم ينشر إلا في 1688) دافع سدن عن المبادئ شبه الجمهورية، واستبق لوك في مهاجمته دفاع فلمر عن حقوق الملوك الإلهية، وأكد حق الشعب في محاكمة الملوك وخلعهم. ومن الواضح أن سدن ورسل، كليهما تسلما أموالاً من الحكومة الفرنسية التي كان يههما أن يظل شارل مشغولاً بمشاكله الداخلية(158).

وصح عزم "مجلس الستة" على أسر الملك. وكان معروفاً أنه سيشهد سباق الخيل في شهر مارس في نيوماركت. وكان لابد له، لدى عودته إلى لندن من أن يمر "براي هاوس" في هودزون في شمال المدينة، فتقرر أن تسد عربة محملة بالحشائش الجافة الطريق في هذا المكان، ومن ثم يمكن أسر الملك وربما أسر أخيه معه كذلك، حيين أو ميتين. ولكن في 22 مارس شب حريق في ميدان السباق، وانتهت المسابقات قبل موعدها المقرر بأسبوع، وعاد الملك سالماً إلى لندن قبل أن يعد المتآمرون عدتهم. وخشي أحدهم افتضاح الأمر وراوده الأمل في العفو، فأفضى بسر المؤامرة إلى الحكومة (12 يونيو). وقبض على كارليل فأكد الاعتراف وعفوا عنه. واحتج مونموث بأنه بريء، وعلى الرغم من أن شارل على علم اليقين أن ابنه كاذب فيما يقول، فإنه ألغى أمر اعتقاله. أما رسل فحوكم وثبتت إدانته وأعدم (21 يولييه 1683). وانتحر اسكس في السجن. وعندئذ قال الملك "ما كان له أن يقنط من الرحمة، فإني مدين له بحياة(159)" فقد مات أبوه من قبل من أجل شارل الأول. وشنق عدد من صغار المشتركين في "مؤامرة راي هاوس" وأخذ سدن بجرم لم يقم عليه دليل كاف من الناحية القانونية، ودافع عن نفسه دفاعاً مجيداً، وقابل الموت بصدر رحب (7 ديسمبر). وكان شعاره "يدي هذه هي عدوة الطغاة". ولكنه كان قد اختار سيفاً

صفحة رقم : 10909

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> خاتمة الملهاة

ذا حددين. ونطق وهو على المشنقة بكلمات تستحق الذكر: "إن الله ترك للشعوب حرية إقامة الحكومات كما تشاء(106)". ورفض أية طقوس دينية قائلاً أنه سلام مع الله فعلاً.

لقد انتصر شارل ولكنه كان مشرفاً على النهاية، ونعم، مع جهد مضن، بشعبية جديدة، وكانت اقتصاديات إنجلترا قد ازدهرت في عهده، أما الآن، والبلاد تتطلع إلى هدوء سياسي، فقد ركنت إلى ملك كان يمثل بقاء الأمة ونظامها، ولو كان معنى هذا لفترة من الزمن "ملكاً كاثوليكياً". وغفرت إنجلترا لشارل أخطائه، حين رآته بنهار ويذبل قبل الأوان. واتفقت معه، بعض الشيء، على أن الحكومة الانتخابية - لا الملكية الوراثية - مدعاة للاضطراب والهرج اللذين يصاحبان انتخاب الحاكم عندما يحين موعده. واحترمت فيه إخلاصه لأخيه، حتى في الوقت الذي حزننت فيه لنتيجة هذا الإخلاص، ورأت جيمس منتصراً، ورأته ثانية قائداً أعلى للأسطول، يتعقب أعداءه ليثأر منهم. وفي يناير 1685 رفع جيمس دعوى مدنية ضد تيتس أوتس يطالبه فيها بتعويض قدره مائة ألف جنيه. وكسب جيمس القضية. ولما كان أوتس عاجزاً عن الدفع فقد أودع السجن. وقال شارل في حزن بالغ "لست أدري ماذا سيفعل أخي عندما ينتهي الأجل وأفارق الحياة. أخشى ما أخشاه أنه عندما يأتي ليضع تاج الملك على رأسه، أن يرغم على العودة من حيث أتى. على أني سأعني العناية كلها بأن أترك له مملكة يسودها السلام، وكل أمني أن يحتفظ لها بهذا السلام لأمد طويل. ولكن هذا يؤثر كل مخاوفي، ولست أوصل فيه كثيراً، بل لا يكاد أمل يدور بخدي أنه سيتحقق(161)". ولما اعترض جيمس على تجول شارل حول لندن راكباً عربته دون حرس، أمره شارل أن يهدئ من روعه: "إن يقتلني أحد ليجلسك أنت على العرش(162)".

ولا بد أنه اعترض على الأطباء. فإنه في 2 فبراير 1685 أصيب بحالة تشنج واضطراب شديدة، شوهدت وجهه، وجعلت فمه، يرغى، وأجرى

صفحة رقم : 10910

قصة الحضارة -> عصر لويس الرابع عشر -> إنجلترا -> عودة الملكية -> خاتمة الملهاة

له دكتور كنج عملية فصد بشق أحد الأوردة. وكان لهذا نتيجة طيبة. ولكن مرافقي الملك استدعوا ثمانية عشر طبيباً آخرين ليشرحوا الداء ويصفوا الدواء. وطيلة خمسة أيام في عذاب اليم، استسلم الملك للحملة التي جردوها عليه مجتمعين. فبزلوا أورده، ووضعوا كؤوس الحجام إلى كتفيه. وقصوا شعره ليزيلوا البثور والقروح من جلدة رأسه، ووضعوا على باطن قدميه لصوقاً من القاروروث الحمام. وقال مؤرخ طبيب "ولكي يزيلوا النزوات من مخه نفخوا في أعلى خياشيمه الخريق (وهو عشب جميل الزهر) ثم جعلوه يعطس. ولكي يتقيأ صبوا في حلقه الأنتيمون وسلفات الزنك. ولتنظيف أمعائه أعطوه مطهرات قوية، وعداداً من الحقن الشرجية في تعاقب سريع(163). ونادى الملك الذي يحتضر زوجته التي عاشت في شفاء عقيم، ولم يدرك أنها جاثية في أسفل الفراش تدلك قدميه. في 4 فبراير قدم له بعض الأساقفة الأسرار الدينية الأخيرة وفقاً للطقوس الأنجليكانية، ولكنه رجاهم أن يكفوا، ولما سأله أخوه، هل يريد كاهناً كاثوليكياً أجاب "نعم، نعم، من كل قلبي(164)" فأرسلوا في طلب الأب جون هدلزتون الذي كان قد أنقذ حياة شارل في معركة وورسيستر، كما أن شارل كان قد أنقذ حياة الأب جون أيام "الإرهاب البابوي" وأعلن شارل اعتناقه للمذهب الكاثوليكي، واعترف بذنوبه وخطاياها، وعفا عن أعدائه وطلب المغفرة من الجميع. ومسحوه مسحاً تاماً بالزيت المقدس، وتلقى الأسرار المقدسة. وطلب الصفح والعفو، وبخاصة من زوجته، ولكنه كذلك أوصى أخاه خيراً بالسيدة لويز كيرووال وأبنائه (منها) طلاً تترك تلك المسكينة تتضور جوعاً(165)" واعتذر لمن حوله عن أنه قضى مثل هذا الوقت الطويل بشكل غير معقول، وهو يعاني سكرات الموت(166).

وعندما ظهر اليوم السادس من فبراير، كان دوق يورك ملكاً.

منتدى حديث المطابع
موقع الساخر

www.alsakher.com